مواطنون

حكايات الثورة الفرنسية

سيمون شاما

«تاريخ ملحمة جديدة مفعمة بالحيوية والحماسة.... وعمل ذكاء نادر» - نيوزويك



ترجمة

حسام الدين خضور

مواطنون

حكايات الثورة الفرنسية

لـ سيمون شاما

مواطنون

حكايات الثورة الفرنسية

لـ سيمون شاما

ترجمة
حسام الدين خضور



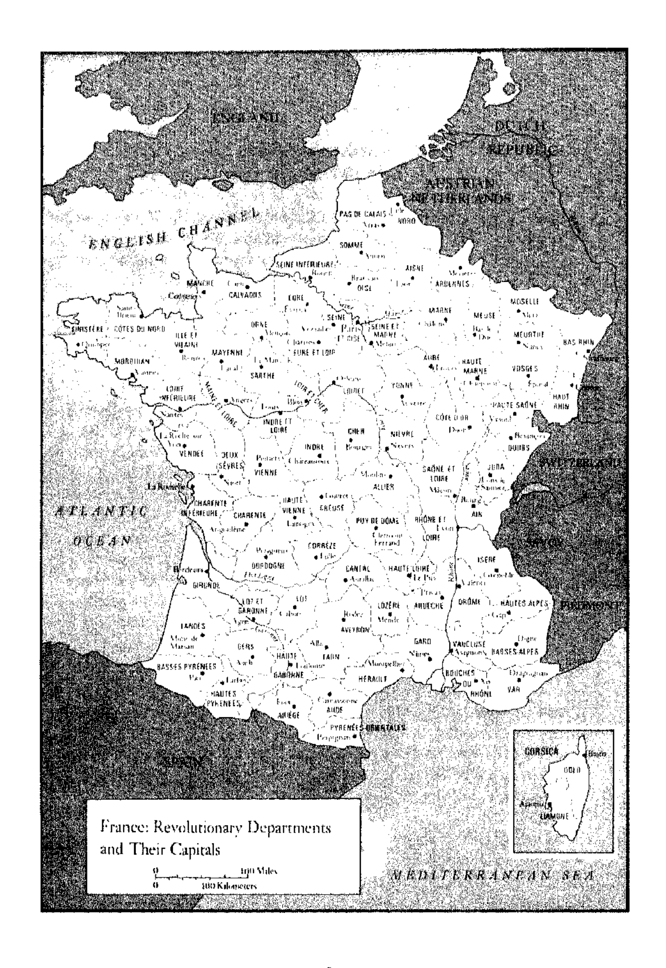


الطبعة الأولى 1430 هـ ـ 2009 م
ردمك 978-9953-515-57-1

كلمة :
إن هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة) غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما تعبّر آراء الكتاب عن مؤلفها
ص.ب. 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة.
هاتف: 6314468 2 971 + فاكس: 6314462 2 971 +
www.Kalima.ae

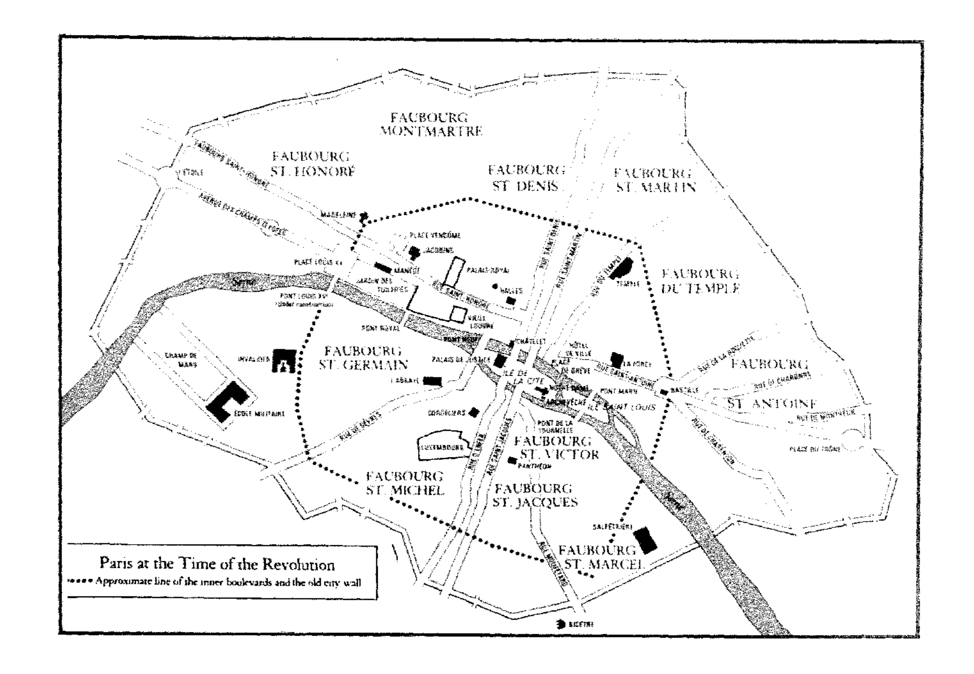
مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع
بيروت ـ هاتف: 791123 1 961 + فاكس: 791124 1 961 +
majdpub@terra.net.lb

يتضمن هذا الكتاب ترجمة عن النص الإنجليزي لكتاب
CITIZENS A Chronicle of the French Revolution
Simon Schama



France: Revolutionary Departments and Their Capitals

0 100 Miles
0 100 Kilometers



Paris at the Time of the Revolution
•••• Approximate line of the inner boulevards and the old city wall

إلى جاك بلَم *Jack Plum*

لقد حلمت بجمهورية أحبها الناس جميعاً.

ولا يسعني إلا أن أعتقد بأن الناس قساة وظالمون جداً.

كامي ديمولا إلى زوجته من السجن -
4 نيسان/إبريل 1794

... كانت في الحقيقة ساعة من الزمن

من الخميرة الكونية؛ لقد هُيّج الناس الأكثر لطفاً؛

والاضطرابات، ونزاع العاطفة والرأي

ملأت جدران البيوت المسالمة بأصوات صاخبة

كانت تربة الحياة العادية في ذلك الوقت

حارة جداً للدوس عليها؛ وغالباً ما قلت عندئذ،

وليس عندئذ وحسب، "أية سخرية هذه من التاريخ؛

الزمن الماضي وذلك الذي سيأتي!

والآن هل أشعر كم كنت مخدوعاً!

أقرأ عن الأمم وأعمالها، بحسن نية

الايمان أعطي للباطل والفراغ؛

آه! الضحك للصفحة التي ستعكس

وجه الوقت الحاضر لأزمنة المستقبل!"

وليم ووردزوورث

الاستهلال (نص 1805) الكتاب التاسع 164 ـ 177

إن التاريخ يستقبل ويجدد تلك الأمجاد المحرومة من الارث؛ ويعطي حياة جديدة لهؤلاء الموتى، ويبعثهم من جديد. وهكذا تربط عدالته أولئك الذين لم يعيشوا في الزمن نفسه، ويعوض لمجموعة لم تظهر إلا لحظة كي تختفي. إنهم يعيشون الآن معنا، ويجعلوننا نشعر بآبائهم وأصدقائهم. وهكذا تنشأ عائلة ومدينة مشتركة بين الأحياء والأموات.

جويل ميشليه

مقدمة لتاريخ القرن التاسع عشر، المجلد الثاني

المحتويات

القسم الثاني: آمال

كلمة المترجم

ربما كان التاريخ أقدم الحكايات التي رواها الإنسان. وفي الرواية يحضر الخيال في أشكال مختلفة ليجيب على أسئلة المتلقي المباشرة والمستترة لأن الحدث لا يفسر كل شيء، وغالباً ما يكون بحد ذاته يحتاج إلى تفسير. وقراءة سيمون شاما للثورة الفرنسية، تقدم مثالاً رائداً على ضرورة الخيال للتاريخ. فالتاريخ دون خيال يختنق تحت ثقل الأشياء وفوضى الأحداث وقيود الصراعات وجبروت القوى المتنازعة. والتاريخ دون خيال لا يقدم عبرة ولا يولِّد متعة، وقد لا يُقرأ. فالخيال يستخلص العبرة ويثير المتعة ويحفِّز القراءة. وخيال سيمون شاما يمتلك ذلك كله. وهذا ما سيتحقق منه القارئ في هذا العمل التاريخي الفذ لحدث غيَّر العالم.

لقد قيل الكثير في الثورة الفرنسية، وربما سيقال الكثير أيضاً. وقد لا يكون ما قيل وما سيقال هو المهم، بل الحدث في حد ذاته، الذي يثير دائماً ما يقال ويُروى ويعلِّم الناس دروساً بليغة في طبيعة البشر.

سيمون شاما يقدم الحدث، ويقول أشياء كثيرة، وحسب القارئ أن يتفق معه أو يختلف، لكنه سيجد الحدث، ربما بكل حيويته، وهنا تكمن عبقرية شاما، أنه يبعث الحياة في حكايته، لا يتجاهل أحداً، ولا يستبعد أحداً. أجل، يحب ويكره ويستنتج ويطلق أحكاماً، لكن بشفافية وصدق وأمانة. إنه يقدم بانوراما من خلال أدوات فنية متعددة: الصورة، القصيدة، الأغنية، المسرحية، الرسالة، الخطاب، التحقيق، الوثيقة، والخبر.

فالكتاب ألبوم صور يقدم مادة غنية مرئية لحال تلك المرحلة، لا شك أنها ضرورية لفهم الحدث.

وكأنما القصيدة مفتاح عالم سيمون شاما، يقدمه من الصفحات الأولى في الكتاب، عسى القارئ يهتدي بهذا الفانوس السحري في غياهب عالم مسكون بالغرائب.

ولا يفوت شاما أن يأتي بأغانٍ وأناشيد مختارة، إنه يدرك جيداً كم تكشف من

مشاعر، وكم تجمع من ناس، وكم تثير من نفوس. يا إلهي كم تعني الأغنية، إنها هؤلاء الذين يرددونها، ويطربون لها ويسمعونها، إنها التعبير الأكثر صدقاً عن الناس.

وسيتعرف القارئ على مجموعة من المسرحيات التي تحولت إلى أعمال خالدة في فنون أخرى كالأوبرا، وفي هذا الصدد جدير بالذكر أن نشير إلى تحفتين فنيتين، هما حلاق إشبيليا وزواج فيغارو، بالإضافة إلى سيرة حياة مؤلفهما المثيرة للجدل ومأساته التي سبقت الثورة.

والرسالة، هل ثمة أصدق منها وسيلة لقول ما يريد المرء أن يوصله إلى آخر عندما لا تتوفر له فرصة المشاهدة واللقاء.

وللخبر والخطاب والتحقيق والوثيقة مكانها المعلوم في البرهان التاريخي، ولدى شاما ما يدهش القارئ منها

وإذا وقف المرء على أطلال الثورة الفرنسية، التي يقدم شاما حكاياتها بطريقة سرد بارعة، قد تدور في ذهنه أشياء كثيرة، في مقدمتها، مسألة في غاية الأهمية هي أن الحياة حاضر، ليست ماضياً بالتأكيد، وقد لا تكون مستقبلاً. والمشاريع الكبرى التي شهدها المجتمع الإنساني ترافقت مع الدمار والخراب، أو لحق بها. كأن المشاريع الكبرى مصادرة للواقع ومصادرة للحياة. وقد كانت كلفتها باهظة في التاريخ الإنساني دائماً تحت رايات رسل من السماء أو الأرض.

ويستنتج القارئ دون عناء أن المجتمع الذي لا يقوم بإصلاح بنيانه في الوقت المناسب، لا بد أنه ذاهب إلى انفجار تدميري. وفي هذا الصدد سيجد أن النظام الملكي في فرنسا حظي بفرص متعددة للقيام بإصلاحات تتوافق مع ما بشّر به وتطوَّر إليه. ومع ذلك استطاعت قوى غاشمة أن تعطلها، مفضلة أن تذهب إلى الحرب ضد شركائها في الوطن على أن توسع المشاركة في السلطة وتوزعها. والتاريخ يعلمنا أن أصحاب السلطة غالباً ما يفضلون القتال في سبيل الحفاظ على نفوذهم، وأحياناً المواجهة الانتحارية وإغراق بلدانهم في بحار من الدم، على القبول بالمساواة التي كانت ثالثة الأثافي في شعارات الثورة الفرنسية الكبرى: حرية، أخوة، مساواة.

لكن إحدى مقاربات سيمون شاما الأساسية، التي يحاول أن يبرهن عليها في هذا الكتاب، هي أن الثورة فعل عنف. قد لا يختلف أحد على توصيف الثورة أنها عمل عنف، لأنها غالباً ما تكون كذلك. لكن قد يختلف كثيرون مع شاما حول أسئلة تتفرع من هذه المقاربة، مثل، هل العنف حتمي؟ متى يقع العنف؟ كيف يقع العنف؟ من المسؤول

عن العنف؟ وأسئلة أخرى يثيرها موضوع العنف الذي نجد أنفسنا نبرر بعض أشكاله ونحترمها ونشجعها وندعمها في زمننا، في عالمنا، في منطقتنا.

يطلق سيمون شاما حكمه القيمي على العنف الذي يشكل محوراً هاماً في حكاياته، ويرى أن العنف الذي مارسته قوى الثورة غير مبرر وقد جلب الكوارث على فرنسا. طبعاً لا يطلق شاما حكمه جزافاً، وحريّ بالقارئ أن يطلع على أطروحته في هذا الكتاب.

ربما كان مشروعاً أن نطرح بعد أن نقرأ هذه الحكاية الطويلة من المسؤول عن إثارة العنف في فرنسا. هل هم الفقراء؟ لقد أُثيروا وحُرِّضوا وسُخِّروا وقُتِلوا. لم تكن الثورة الفرنسية مشروع الفقراء. لا شيء يحجب هذه الحقيقة. إنها نتاج رؤى مفكرين وأدباء وفنانين ونبلاء متنورين وحكام وقضاة وثقافة وتعليم وتطور قوى منتجة. امتزجت فيها أفكار روما ومثل القوة والفضيلة والبطولة والجمال والبراءة والبساطة والصراحة والحقيقة والرقة والجمال والعدالة والأخوة والمساواة والحق والأمل فأنتجت كمَّاً هائلاً من العنف الفظيع الذي ربما لم يسبق له مثيل في الحروب الأهلية. لماذا؟ عند شاما خبر.

وفي الحروب الأهلية تلد لغة التخوين الوطنية وفكرة المؤامرة التي تتفاقم فتتحول إلى هاجس يدفع صاحبه إلى الشك بكل شيء. وعندما يغدو كل شيء عرضة للفساد وهو كذلك بطبيعة الحال، تبلغ المأساة ذروتها فتنفجر فجأة، وإذ يهدأ الانفجار، يعود الجميع إلى مداواة جراحهم، وكأن عهداً جديداً قد بدأ للتو، وكأن قادة العهد الجديد لم يكونوا لاعبين أساسيين على المسرح الذي أسدلوا ستارته بعد أن غدروا ببعض ممثليه.

يبدأ سيمون شاما حكاياته بشخصيتين رئيستين في الثورة الفرنسية، لافايت وتاليران، ويختتمها بمتابعة سيرتهما بعد أن غابا عن مسرح الأحداث، الأول في سجن نمساوي والثاني منفياً في بريطانيا ثم في أمريكا. لكنه يخصص الصفحات الأخيرة من سِفر حكاياته لشخصية نسائية ثانوية كان قد أتى على ذكرها عند الحديث عن هجوم النساء على قصر فرساي والعودة بالملك وأسرته إلى باريس.

لماذا أراد شاما أن تكون نهاية ثيروان دو مريكور Theroigne de Mericourt، التي قال عنها طبيب السجن النمساوي، الذي اعتقلت فيه لعامين بتهمة التجسس، أنها تعاني من «حمى ثورية»، والتي شخص الطبيب الفرنسي مرضها بعد تشريح جثتها، في مشفى الأمراض العقلية لا سالبتريير الأشبه بسجن منه بمشفى، أنها كانت تعاني من خلل في وضع القولون؟ لماذا أراد سيمون شاما هذه الخاتمة المؤلمة لحكاياته؟ هل أراد أن يقول للقارئ ينبغي أن يفكر ملياً قبل أن ينخرط في ثورة؟ ربما.

تطرح الثورات قضايا مجردة كبرى تحرك مشاعر معظم الناس حقاً؟ لكنها غالباً ما تنتهي إلى كارثة.

شهد العصر الحديث ثورتين كبيرتين، اتسمتا بطابع أيديولوجي واضح، وقدمت كل منهما مشروعها العالمي الشامل. هما الثورة الفرنسية التي يقدم شاما حكايتها النابضة بالحياة في هذا الكتاب، والثورة الاشتراكية في روسيا، التي إذا حاول أن يقدم حكايتها أيضاً، فسوف تكون حكاية لا تقل روعة تشويقاً عن هذه الحكايات التي نقدم ترجمتها للقارئ العربي.

سيرى القارئ أن مفردات الاضطرابات الاجتماعية والوطنية واحدة، ربما في كل مكان وزمان، وإذا لم تكن كذلك في كل الأحيان، فهي متقاربة بين ما شهدته فرنسا في مرحلة اضطرابها الحاد وما يشهده العالم العربي والإسلامي في المرحلة الراهنة. لقد أدهشني أن قاموس لغة التخوين واحد، وجذر العمليات الاستشهادية راسخ في الثورة الفرنسية.

ويبقى ثمة شيء يتعلق بمصطلحين وردا في الكتاب هما:

برلمان، في فرنسا يعني محكمة وليس مجلس شعب أو ممثلي أمة وغير ذلك من أشكال تمثيلية للشعب وهيئة للتشريع. فحيث وردت في النص أرجو أن تعطى معنى محكمة. إلا إذا كان المعنى يقتضي المعنى المتعارف عليه ـ الهيئة التشريعية.

لابسو البناطيل القصيرة sans coluttes التي تُرجمت إلى العربية، غالباً بعبارة اللامتسرولين، وهي ترجمة خاطئة حيث أن المعنى الحرفي للعبارة هو، ما ذكرته آنفاً، لابسو البناطيل القصيرة، والمعنى المجازي للعبارة هو المتطوعون أفراد الجيش الجمهوري وقد مثلوا جمهرة من الثوريين الشديدي الحماسة والتطرف.

أخيراً أتمنى للقارئ أن يستمتع بقراءة النص ويجني المعرفة المرجوة. سأكون سعيداً إذا حظي بالمتعة والفائدة، فذلك معيار نجاحي.

حسام الدين خضور

مقدمة

سئل رئيس الوزراء الصيني شو إن لاي، عن أهمية الثورة الفرنسية، كما يعتقد. فأجاب، كما جاء في التقارير: «من المبكر جداً أن نحكم على ذلك». لقد مرّ قرنان من الزمن ولا يزال الوقت مبكراً جداً (أو ربما متأخر جداً) للحكم.

أفرط المؤرخون بثقتهم إزاء الحكمة التي تُكتَسب بالبعد الزمني عن الحدث، معتقدين أنه بطريقة ما يقدم الموضوعية، وهي واحدة من تلك القيم التي يصعب تحقيقها والتي منحوها كثيراً من ثقتهم. ربما ثمة شيء ما يجب أن يقال في ما يتعلق بالقرب الزمني.

فاللورد أكتن Lord Acton، الذي ألقى المحاضرات الأولى الشهيرة عن الثورة الفرنسية في جامعة كمبردج Cambridge في سبعينيات القرن التاسع عشر، كان لا يزال قادراً على أن يسمع مباشرة، من أحد أفراد سلالة أورلياف الحاكمة، ذكريات الرجل «(دوموري) الذي يبربر في شوارع لندن عند سماع أخبار واترلو».

هيمن الشك بأن الحزبية العمياء أضرت أكاديمياً على نحو جسيم بالقصص الرومانسية العظيمة في النصف الأول من القرن التاسع عشر على رد الفعل خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وبما أن المؤرخين أسسوا أنفسهم في مهنة أكاديمية، فقد توصلوا إلى اعتقاد بأن البحث وفق أحكام الضمير في الأرشيف قد يقدم الموضوعية: الشروط الأساسية لاستخلاص الحقائق الغامضة للسبب والنتيجة. والنتيجة المرغوبة كان يجب أن تكون علمية لا شاعرية، مجردة لا مشبوبة العاطفة. وبينما بقيت القصص التاريخية منشغلة، لبعض الوقت، بدورة حياة الدول القومية الأوروبية ـ الحروب والمعاهدات والإطاحة بالعروش ـ أخذت الجاذبية المغناطيسية للعلم الاجتماعي مثل تلك «البنى» الاجتماعية والسياسية، تغدو الأشياء الرئيسة في التحقيق.

وقد عنى ذلك في حالة الثورة الفرنسية نقل الاهتمام بعيداً عن الأحداث والشخصيات التي فرضت سطوتها على السجلات الملحمية في ثلاثينيات وأربعينيات

القرن التاسع عشر. قدمت رواية دوتكفيل المستنيرة «**نظام الحكم القديم والثورة**»، وهي نتاج بحثه الشخصي في الأرشيف، سبباً مقبولاً حيث قبل ذلك كانت هناك النزاعات المشتعلة للحزبية. وعززت الخاصة الأولمبية لبعد نظره (وإن يكن من وجهة نظر ليبرالية) الزعم الماركسي العلمي أن أهمية الثورة كان يجب أن يتم السعي إليها في بعض التغيير الكبير في توازن القوة الاجتماعية. وفي هذين الرأيين لم يكن كلام الخطباء أكثر من هراء متبجح إلا قليلاً؛ يخفي على نحو فاشل عجزهم في أيدي قوى تاريخية موضوعية. وبالمثل، إن مدّ وجزر الأحداث لا يمكن أن يغدو مفهوماً إلا بعرضه ليكشف الحقائق الأساسية، الاجتماعية بالدرجة الأولى، في الثورة. وقد كان في صدارة تلك الحقائق بديهية معينة مشتركة بين الليبراليين والاشتراكيين، ولتلك القضية التي تتسم بالحنين Nostalgic، الملكيين المسيحيين بالطريقة نفسها، أن الثورة كانت في الحقيقة بوتقة المعاصرة modernity، الوعاء الذي استقطرت فيه كل خصائص العالم الاجتماعي الحديث للخير أو الشر.

وعلاوة على ذلك، إذا كان الحدث كله له هذه الأهمية الكبرى لتلك الحقبة، إذن يجب أن يكون للأسباب التي ولَّدتها عظمة مكافئة. إن ظاهرة بمثل هذه القوة، التي لا يمكن السيطرة عليها، التي اكتسحت بشكل واضح عالماً كاملاً من العادات والعقليات والمؤسسات التقليدية، ما كانت لتنتجها إلا التناقضات المدفونة عميقاً داخل نسيج «النظام القديم». لذلك، ظهرت مجلدات ضخمة، بين الذكرى المئوية عام 1889 والحرب العالمية الثانية، توثق كل جانب من تلك الأخطاء البنيوية. واختفت السير الذاتية لدانتون وميرابو، في الأقل من الخزائن المحترمة أكاديمياً وحلت محلها دراسات تقلبات الأسعار في سوق الحبوب. وفي مرحلة متأخرة وضعت المجموعات الاجتماعية غير المترابطة كل في معارضة الأخرى ـ «البورجوازية»، و«لابسي البناطيل القصيرة sans-culottes»(*) ـ وقد عُرِّفَت وشُرِحت وصُنِع من كلام رقصها الجدلي الروتيني وصف الأقاليم الحصري في السياسة الثورية.

وقد لحقت خسارة جدية بالثقة في هذه المقاربة خلال السنوات الخمسين التي تلت الذكرى المائة والخمسين للثورة. فالتغيرات الاجتماعية القاسية التي نُسِبت إلى الثورة تبدو

(*) sans - culottes عبارة فرنسية تعني «بناطيل إلى ما فوق الركب» غدا المصطلح شعبياً خلال الثورة الفرنسية، وقد لبسها الجيش الثوري المتطوع ـ المترجم

أقل وضوحاً أو غير واضحة على الإطلاق. «فالبورجوازية» التي قيل في الروايات الماركسية الكلاسيكية لا بد أنها هي التي هيأت الحدث والمستفيدة منه غدا أفرادها زومبيين اجتماعيين، نتاج هوس بالبحث التاريخي أكثر منه حقائق تاريخية. ويبدو أن التعديلات الأخرى في عصرنة المجتمع والمؤسسات الفرنسية كانت متوقعة بإصلاح «النظام القديم». تبدو الأشياء المترابطة المستمرة كما لو أنها غير مترابطة وآنية.

ولم تعد الثورة متوافقة مع تصميم تاريخي عظيم، قدَّرته قوى التغيير الاجتماعي التي لا ترحم. بل بدلاً من ذلك تبدو شيئاً من نقاط الالتقاء والعواقب غير المرئية (ليس أقلها استدعاء الجمعية الوطنية نفسها (قبل الثورة ـ المترجم). أظهرت دراسات إقليمية دقيقة كثيرة أنه بدلاً من ثورة واحدة فرضتها باريس على بقية فرنسا المتجانسة، غالباً ما قررتها الأهواء والمصالح المحلية. ومع إحياء المكان كعامل مهيىء جاء الناس. ولأن الحاجات الضرورية للبنية قد أُضعِفت، فتلك الأشياء المرتبطة بالفعالية الفردية، ولاسيما الأشياء المتعلقة بالتعبير الثوري أصبحت أكثر أهمية بالمثل.

وحكايات الثورة الفرنسية محاولة لتركيب الكثير من إعادة التقييم هذه ودفع البرهان درجة أبعد. لقد تابعت أحد العناصر الأساسية في برهان ديتكفيل ـ فهمه للتأثيرات المثيرة للاضطراب في العصرنة قبل الثورة ـ أبعد مما تسمح روايته الذهاب. «النظام القديم» الناجي بالصياغة الثورية، مع شحنته الدلالية الثقيلة الآئلة للزوال، ربما يكون ممكناً أن نرى الثقافة والمجتمع الفرنسي في عهد لويس السادس عشر مضطربة بسبب إدمانها على التغيير أكثر من مقاومته. وعلى نحو معاكس، يبدو لي أن كثيراً من الغضب الذي أشعل العنف الثوري برز من العداء لتلك العصرنة، بدلاً من الضيق ذرعاً ببطء تقدمها.

الرواية المقدمة في الصفحات التي تلي، إذن، تؤكد، ربما على نحو متعاقب، الجوانب الدينامية في فرنسا ما قبل الثورة دون إدارة عين عمياء إلى العائق والقديم حقاً. وما هو هام في هذا البرهان هو الزعم بأن ثقافة وطنية للمواطنة نشأت في العقود التي تلت حرب السنوات السبع وأنها بالتالي كانت سبباً للثورة الفرنسية أكثر منها نتاجاً لها.

وتتطور ثلاث ثيمات في سياق هذا البرهان. تهتم الأولى بالعلاقة الإشكالية بين النزعة الوطنية patriotism والحرية، التي، في الثورة، تنقلب إلى منافسة وحشية بين سلطة الدولة وهيجان السياسة. وتدور الثيمة الثانية حول اعتقاد القرن الثامن عشر بأن المواطنة هي، جزئياً، التعبير العلني لعائلة مثالية. لقد انتهت قولبة العلاقات الأخلاقية بين الجنسين والآباء والأبناء والأخوة، ربما بطريقة غير متوقعة، لتكون مفتاحاً هاماً لفهم السلوك

الثوري. وفي النهاية يحاول هذا الكتاب أن يواجه بشكل مباشر المشكلة المؤلمة للعنف الثوري. أخطأ المؤرخون بفرط الحساسية في التعامل مع هذه المسألة قلقين خشية أن يفسحوا مجالاً للنزعة الحسية أو أن يربكهم المدعون العامون المعادون للثورة. وقد أُعِدْتُ المشكلة إلى صدارة القصة نظراً لأنها، كما تبدو لي، لم تكن مجرد نتيجة مشؤومة للسياسة، أو وسيلة كريهة كانت سبباً في تحقيق غايات أكثر فضيلة أو إحباط غايات شريرة. فقد كان العنف، في معنى ما لا يمكن تجنبه، هو الثورة ذاتها.

لقد اخترت أن أقدم هذه البراهين في شكل قصة. وإذا ما كانت الثورة، في الواقع، حدثاً أكثر مصادفة وتشوشاً ونتاج فعالية إنسانية أكثر منه تكييفاً بنيوياً، يبدو الجدول الزمني لتوالي الأحداث لا غنى عنه في جعل خيوطها وانعطافاتها ممكنة الفهم. فكتاب **«مواطنون»** يعود، إذن، إلى شكل سجلات أحداث القرن التاسع عشر، ويسمح لمسائل مختلفة ومصالح متنازعة أن تشكل تدفق القصة وهي تبرز، سنة بعد أخرى وشهراً بعد آخر. وقد تجنبت أيضاً، ربما بنية شريرة وعلى نحو متعمد مخطط نظرة عامة تقليدية تفحص بدقة الجوانب المختلفة لمجتمع النظام القديم قبل محاولة الوصف السياسي. حيث يبدو لي أنه وضع تلك الفصول المفروضة على الاقتصاد و«الفلاحين» و«النبلاء» وما شابه ذلك في واجهة الكتب بطريقة آلية يمنح قدرتها امتيازاً ولم أتجاهل، كما آمل، أياً من تلك المجموعات الاجتماعية، بل حاولت أن أقدمها في مراحل القصة حيث تؤثر على سياق الأحداث. وهذا، بدوره، أملى مقاربة غير مألوفة «من الأعلى إلى الأسفل» بدلاً من «الأسفل إلى الأعلى».

وصف هايدن وايت بين آخرين القصص أنها شكل من أداة تخيلية يستخدمها المؤرخون لفرض نظام مُطَمئِن على أجزاء المعلومات التي يتم التوصل إليها عشوائياً عن الميت. ثمة حقيقة أكيدة في بعد النظر المثير للحذر هذا، غير أن وجهة نظري الخاصة للانطلاق مقدَّمة في مادة موحية على نحو غني للكاتب ديفيد كار David Carr في كتابه **التاريخ والنظرية** المنشور عام 1986، التي برهن فيها حالة مختلفة تماماً وبارعة في ما يتعلق بصحة السرد القصصي. فقد تكون مصطنعة مثل القصص المكتوبة، التي غالباً ما تماثل الطرق التي يبني فيها اللاعبون التاريخيون الأحداث. أي لنقل، يرى مهتمون كثر بالشأن العام، إذا لم يكن معظمهم، سلوكهم كما لو أنه متوضع جزئياً بين أنماط الدور من ماضٍ بطولي وتوقعات حكم الأجيال القادمة. وإذا كان هذا صحيحاً أبداً، فقد كان بالتأكيد هكذا في ما يتعلق بالجيل الثوري في فرنسا. حيث وقف كاتو وشيشرون

وجونيوس وبروتوس على كتفي ميرابو وفرنيو وروبسبيير، لكنهم غالباً ما أشاروا إلى أنصارهم بسلوك تحكم عليه أجيال المستقبل.

وفي النهاية، ينسج السرد، كما سيكون واضحاً، بين الحياة الخاصة والعامة للمواطنين الذين يظهرون على هذه الصفحات. وقد تحقق ذلك ليس في محاولة لفهم دافعهم بشكل أكثر عمقاً مما يسمح به الحكي العام وحسب، بل لأن كثيرين منهم، غالباً لدمارهم، رأوا حياتهم الخاصة وحدة كاملة، وروزنامة مولدهم وحبهم وطموحهم وموتهم مطبوعة على سجل الأحداث العظيمة. وقد كان هذا الترابط الداخلي بين السير الشخصية والتاريخ العام جلياً بذاته في كثير من قصص القرن التاسع عشر و، إلى الحد الذي تابعت فيه سابقتهم، ما كان علي أن أقدمه، أيضاً، يقع في مجازفة أن يُرى كقطعة من السرد القصصي القديمة الطراز على نحو مزعج. إنه يختلف عن القصص ما قبل عهد دو تكفيل في كونه مقدماً كشاهد أكثر منه حكماً. لكنه مثل تلك الروايات السابقة يحاول أن يصغي بانتباه إلى صوت المواطنين الذين يصف حياتهم، حتى عندما تكون تلك الأصوات في أشد حالات تنافر نغماتها. وبهذا المعنى أيضاً يفضل الموثوقية المشوشة على دقة التقاليد التاريخية الآمرة.

كان ريتشارد كُب Richard Cobb هو الأول الذي بشَّر «بمقاربة السير الذاتية» لتاريخ الثورة قبل عشرين عاماً، ومع ذلك غالباً ما أبقى في ذهنه ضحايا الاضطراب الثوري الذين لم تُقدَّم لهم مراسم الموت أكثر من هؤلاء الذين كانوا مسؤولين عن ذلك. آمل، إذن، ألا يأخذ بطريقة خاطئة إعلاني الشخصي لتلك المقاربة من حلقة بحثه التي لا تنسى في كلية باليول Balliol College في أواخر ستينيات القرن الماضي، تعلمت محاولة أن أرى الثورة ليس كمسيرة أفكار تجريدية وأيديولوجيات، بل كحدث إنساني ذي نتائج معقدة وغالباً مأساوية. وقد كان مشاركون آخرون في حلقة البحث تلك ـ كولن لوكاش وأُلوِن هفتن

Olwen Hufton، زميلي الآن في جامعة هارفارد، وماريان إليوت ـ على مر السنين مصدراً هائلاً للتنبؤ والصداقة الأكاديمية، التي يقدم لها هذا الكتاب إيماءة مرتبكة بطريقة ما العرفان بالجميل.

وأحد ديوني الأعظم أيضاً هو لزميلي الآخر باتريس هيغونر Patrice Higoner، الذي كان لطيفاً كفاية ليقرأ المخطوطة ويُنقذني من أخطاء و«الخبطات» كثيرة (أخشى ألا تكون كلها). كثير مما يجب أن أقوله، لاسيما ما يتعلق بالمجموعة التي أسميها «النبلاء ـ

المواطنين» مدينة بانطلاقتها لعمله الهام والأصيل **الطبقة، الأيديولوجية، وحقوق النبلاء خلال الثورة الفرنسية** (أوكسفورد 1980). والأصدقاء الآخرون ـ جون بريوَر John Brewer، جون كليف، ديفيد هاريس ساكس ـ وقرأ الأصدقاء أيضاً أجزاء من العمل، وكما هم دائماً، كانوا كرماء بتعليقاتهم ومساعدتهم بانتقاداتهم.

يبدأ استغراقي بإعادة فحص خطابة الثورة ووعي الذات لدى النخبة السياسية ببحث قُدِّم إلى منتدى حول أوروبا الثورية في تشارلستون جنوب كارولاينا عام 1979. وأنا أكثر امتناناً لِـ أوين كونللي لدعوته لي للمشاركة في لجنة جديرة بالذكر ضمت أيضاً إليزابيث آيزنشتاين وجورج ف. تايلر. كان ذلك في تشارلستون أن ساعدت المناقشات الطويلة مع لين هنت Lynn Hunt إثارة اهتمامي بقوة اللغة الثورية وأنا ممتن لها ولِـ توم لاكور Tom Laquur لاهتمامهما وتشجيعهما منذ ذلك الحين. وروبرت دارنتون، الذي جعلني كتابه الأول حول التنويم المغناطيسي والتنويرية جعلني أفكر سنوات كثيرة حول مصادر الوحشية الثورية، وبعيداً عن المناسبة يستحق أن يسمع إلى النهاية. لقد عرض استشارته المساعدة دائماً وتصحيحه اللطيف وكان مصدر إلهام مستمر.

وما كان لهذا الكتاب أن يُكْتَب لولا المساعدة المنشورة بعد وفاة أحد أكثر باحثي جامعة هارفارد استثنائية: أركيبالد كاري كوليدج Archibald Cary Coolidge، أمين مكتبة الجامعة في عشرينيات القرن الماضي. بشراء كل مكتبة ألفونس أولارد Alphonse Aulard، البروفيسور الأول لتاريخ الثورة في جامعة السوربون، ترك كوليدج مصدراً لا يقدر بثمن للباحثين العاملين في هذا الحقل: مجموعة غنية بالصحف والكراسات مثلما هي غنية بأعمال التاريخ المحلي النادرة إلى حد كبير والغامضة أيضاً. وأنا أكثر امتناناً، كما دائماً، للطاقم الرائع في مكتبة هوتن Haughton Library، الذي لولا صبره وفعاليته سيجد الأساتذة الذين يضغطون بشدة أنه من المستحيل أن يقوموا بأبحاثهم في عام تدريسي منشغل. وقد كانت سوزان رينشتاين روجر وزملاؤها في مكتبة كريس في كلية الأعمال في جامعة هارفارد مساعدين كما هم دائماً، وقدموا صوراً رائعة من طبعاتهم المثيرة لوصف الفنون والمهن.

أنا أيضاً أكثر عرفاناً بالجميل لِـ فيليب بورد من متحف الثورة الفرنسية في فيزيل Vizille لمساعدته في تعقب المادة التي ترتبط بيوم القرميد Day of tiles. كانت السيدة بري راثبون لطيفة كفاية أن تسمح لي بضم لوحة لرسمها هوبرت روبرت لـ دزمولين. وقد

ذكرتني إما وايتلو Emma Whitelaw بأهمية مذكرات مدام دي لا تور دو بان Mme de la Tour du Pin.

لقد أسهم زملاء وطلاب كثر بوقتهم وصبرهم وصداقتهم بسخاء لجعل هذا الكتاب ممكناً، عندما بدا الأمر مستحيلاً، وأخص بالذكر جوديث كوفن، رولي موتاهيده، مارغريت تالبوت. وأشكر أيضاً فيليب كاتز لسماحه لي بقراءة أطروحته ما قبل التخرج الجديرة بالتقدير حول دراسة أيقونات بنجامين فرانكلين. والأصدقاء في مركز الدراسات الأوربية، لاسيما آبي كولينز، غيدو غولدمان، ستانلي هوفمان، شارل مايير، فقد أبقوني جميعاً على السكة في أوقات كثيرة عندما كنت مهدداً بالانجراف بعيداً عنهم وكبحوا ميلهم إلى الشك في مشروعي برمته بالطريقة الأكثر أكاديمية.

وفي دار ألفرد إي. نوف Alfred A. Knopf، أنا أدين جداً وبامتنان للمحررة كارول جاين واي Carol Hane Way التي كانت تحثني على أن أنهي الكتاب وإيمانها الدائم أن ذلك سيتحقق فعلاً. وكانت روبن سواد وقوة كبيرة في كل طريقة ممكنة، وأنا أيضاً أكثر امتناناً لي نانسي كليمنتس وإيريس ونشتاين Iris Weistein لإبقاء العمل تحت أنظارهما حتى نسخته النهائية. وكان بيتر ماسون في نيويورك ومايكل سيسون في لندن، كما هي العادة، داعمين بقوة في كل الأوقات وقد أظهر كلاهما ذلك الوكيل الأدبي الرائع وأثبتا أنهما صديقان جيدان.

وقد عملت فيونا غريغ Fiona Grigg كل شيء عملياً لهذا الكتاب إلا كتابته. فمساعدتها في البحث عن الصور والقراءة التدقيقية، ومهارتها في التعامل مع المتحف وتهدئة أعصابي المنهكة بمساعدات سخية من الذكاء والنية الطيبة جعلت هذا العمل ممكناً. لن أستطيع أبداً أن أشكرها كفاية لتعاونها.

وكان أطفالي وزوجتي كلوي وغابرييل وجيني عبر كتابة الكتاب أكثر تحملاً لمزاجي المضطرب والساعات الغريبة الأطوار والسلوك المستحيل بشكل عام أكثر مما توقعوا. وفي المقابل تلقيت منهم الحب والتسامح في مساعدات أكثر كرماً مما أستحق. لقد قدمت جيني في كل مراحل الكتاب أحكامها الصائبة على كل أنواع الأسئلة حول الكتاب من براهينه إلى تصميمه. وإذا كان هناك أي قارئ واحد وجهت إليه كل كتاباتي فهو هي.

وبيتر كارسون من دار كتب بنغوين اقترح كتابة تاريخ عن الثورة الفرنسية، وعندما استجبت من خلال مناقشة فكرة سرد مفعم بالحياة بموازاة ما كان سطوراً غريبة، لم

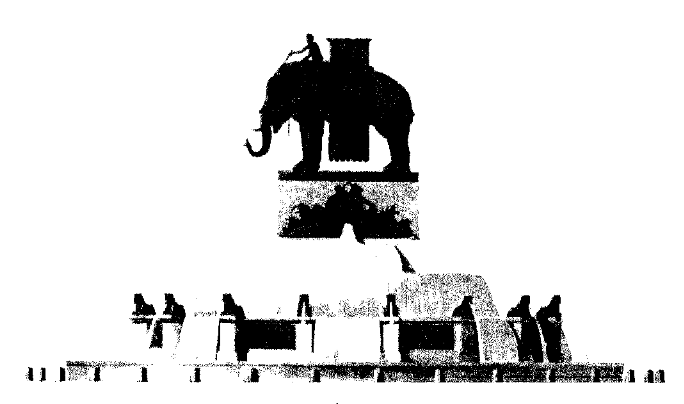
يحجم أبداً. أنا ممتن كثيراً لكل الدعم والتشجيع الذي قدمه على مدى سنوات، ومع ذلك، أخشى أن تكون النتيجة النهائية ليست تماماً ما كان في ذهنه في الأصل.

أما فكرة أنه بإمكاني أن أعالج هذا الموضوع، في كل حال، فقد جاءت من صديقي القديم ومعملي جاك بلَم Jack Plumb. أعتقد أنه حثني على فعل ذلك بأمل باطل أنني، في النهاية، قد أكون جديراً بكتابة كتاب صغير. أنا آسف لتخييب ظنه بطريقة كاسحة كهذه، لكنني آمل أنه سيجد في فضاءات هذا الكتاب بعضاً من همه الشخصي بالذات أن التاريخ يجب أن يؤلَّف كما يجب أن يُحلَّل، سجل أحداث كما هو نص. وقد شجعني أيضاً على أن أتجاهل الحواجز التقليدية التي ارتفعت مثل سلك شائك ثقافي حول الأقسام الفرعية في مجالنا. وآمل أن يستمتع بهذه المحاولة لتدمير تلك الأسيجة. وأكثر ما علمني أن كتابة التاريخ دون لعب الخيال هو مثل الحفر في مقبرة ثقافية، وهكذا حاولت في «**مواطنون**» أن أقدم عالماً للحياة بدلاً من دفنه في خطاب واسع المعرفة. وبما أن كل ميزة في الكتاب قد تكون مدينة لتعليمه فقد كُرِّس له مع عظيم الحب والصداقة.

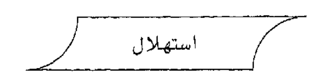
لفنستون ـــ ماساتشوستس

١٩٨٨

مواطنون



الصورة 1، للرسام جين أنطوان ألفوان، لوحة بالألوان المائية لمشروع الفيل في ساحة الباستيل



قوى الاسترداد ـ بعد أربعين عاماً

نهض فيل من الجص في ساحة الباستيل بين عامي 1814 و1846. وقد عرض الفيل مشهداً مثيراً للشفقة والسخرية معظم تلك الفترة. فكان الحجاج الباحثون عن الإلهام الثوري يتوقفون فجأة يرنون إليه وهلة، ضخماً كئيباً، في النهاية الجنوبية الشرقية من الميدان. وعندما زارت الثورة باريس ثانية عام 1830، كان الفيل في حالة سيئة من التعفّن والتفكك. كان أحد نابيه قد سقط، واضمحّل الثاني إلى شيء سهل التفتت. واسودّ جسمه جراء المطر والسخام وغارت عيناه، بعيداً عن كل أوجه الشبه الطبيعية، في تغضنات وبثرات رأسه الكبير المتآكل.

لم يكن ذلك ما قصده نابليون. فقد فكر أولاً بإقامة قوس نصر عظيم في الحيز الخالي الذي شغر مكان الحصن المدمر مهتماً بطمس الذكرى الثورية. لكنّ باريس الشرقية لم تكن منسجمة مع الزي الحديث، فاتخذ القرار بنقل القوس إلى الجهة الغربية من المدينة بدلاً من ذلك. وبعد البحث في الأشياء التي ولع بها الناس في العصور القديمة توصل نابليون إلى فكرة أخرى تعبر، بشكل حاسم، كما اعتقد تماماً، عن عظمة الفتح الإمبراطوري مقارنة بالعصيان المشوّش. ولم يكن هاماً أن الفيلة انتمت إلى الحزب المهزوم في الحروب الفينيقية. ففي حقيبة أشياء الإمبراطور تشير الفيلة إلى الإسكندر بالقدر ذاته الذي تشير فيه إلى هانيبال، والغنائم من مصر والعلم الثلاثي الألوان يرفرف خافقاً من عكا إلى لشبونة. سيُصَبّ الفيل في قالب من البرونز المستولى عليه من مدافع الأعداء في اسبانيا، ويكون ضخماً كفاية يُمكّن الزوار من الارتقاء عبر درج داخلي إلى البرج الذي يحمله على ظهره. سينطلق الماء رشاشاً من خرطومه. سيكون بطولياً ومثيراً للبهجة، فينسى من يراه عام 1789 وينسى الباستيل ويغرق بدلاً من ذلك في التباهي بالذات الأمبراطورية.

غير أن 1789، عام نشوب الثورة الفرنسية، بقي دائماً أكثر جدارة بالذكرى من عام 1799، عندما أعلن بونابرت نهايتها. فقد احتُفِل بذكرى سقوط الباستيل وذكرى الذين دمّروه، بينما تعرّض الفيل للنسيان. وفي الحقيقة، حُكم على الفيل أن يعاني من الكبرياء والزهو منذ بدايته الأولى. فقد انقسم الناصحون بين هؤلاء المفوضين بمهمة صعبة لا يُحسدون عليها، ومع الزمن تم التوصل إلى اتفاق ما، وتبدّلت حظوظ الإمبراطورية، حيث تطلبت الانتصارات في اسبانيا ثمناً باهظاً وأعقبتها مذابح رهيبة كلفت غالياً إلى درجة لا يمكن تمييزها عن الهزائم. وبحلول عام 1813 عندما كان يجب أن ينتصب الفيل لم يكن بالإمكان توفير المدافع ولا الدفع نقداً عملة صعبة. وهكذا شُيِّد نموذج جصّي بدلاً من الفيل البرونزي الهائل على ساحة الباستيل بانتظار الخطط النهائية لإعادة نمذجة الموقع على نحوٍ أروع.

بداية لا بد أن التجاهل كان صعباً. فقد وقف فيل النسيان الثوري منتصباً بارتفاع منزل من ثلاثة طوابق خفيراً على ذكريات الحشود الغاضبة الميالة إلى إثارة الفتن والتدمير الشعبي والخزي الملكي. وهكذا عندما انهارت الإمبراطورية بعد معركة واترلو، استخدمت حكومات الإصلاح البوربونية الفيل جيداً للتسلية التي يوفرها خائفة من الذكريات الثورية. لكنه آنئذٍ كان يجب أن يُبنى من الرخام المسالم بدلاً من البرونز المحارب، ويجب أن يُحاط بنصب رمزية أخرى أكثر تقليدية، مثل: معالم تمثّل باريس والفصول والفنون المفيدة والعلوم كالجراحة والتاريخ والرقص. وربما وجد الوزراء، الذين حلموا بإمبراطوريات جديدة في شمال أفريقيا، تلميحات فيلية لقرطاجة في الوقت المناسب. لكن إذا كانت الإمبراطورية الأخيرة تعاني البؤس، فإن التجديد (لاسيما لويس الثامن عشر) كان شحيحاً. حيث أن كل ما استطاع تأمينه هو ثماني مائة فرنك دفعت لحارس اسمه لافاسور Levasseur الذي نجا من الاتهام بوصفه بونابرتياً واتخذ مع الجرذان سكناً له في إحدى قوائم الكائن المتعفنة.

استطاع بّواب الفيل أن يحرس المكان من مخرّبي الممتلكات ومن الاحتفالات السرية في ذكرى 1789. لكنّه عجز عن مقاومة انتقام الزمن. كان ميدان الباستيل برية مدينية، حفرة طينية شتاء، ومصدر غبار صيفاً. وقد جعل التنقيب الأثري عن قناة دَ أورك d'Ourcq والجهود المتكررة المضنية لتسوية المكان الفيل يغرق باستمرار في غور من المستنقعات كأنه يغور تدريجياً جرّاء العمر والإنهاك. ثم أضافت الطبيعة إهاناتها. فبعد أن تفتت الهيكل المصنوع من الجص غدت قاعدته مكسوة بالهندباء البرّية والنباتات الشائكة.

وحدثت تجويفات عريضة في جسم التمثال، تجويفات أغرت القوارض والقطط الشاردة والمتسكّعين ليلاً. وتفاقمت مشكلة الجرذان كثيراً إلى درجة وجد القاطنون في المنطقة أن منازلهم الخاصة قد استعمرتها مجموعات غازية تأتي من الفيل. ومنذ أواخر عشرينيات القرن التاسع عشر توسّل القاطنون بانتظام لتدميره لكن دون نجاح. وبقيت سلطات الترميم في مأزق. ربما كان بالإمكان أن يعاد طلاؤه وإعادة تشييده في مكان ما أقل ضرراً مثل إنفاليد Invalides أو حتى في التويلري Tuileries. غير أن الحالة الانفعالية سادت، والفيل، أو ما تبقى منه، ظلّ في مكانه.

وليس إلا في عام 1832، بعد انتقال الذكرى الثورية إلى الشوارع، في الانتفاضة التي جلبت الملك المواطن لويس فيليب Louis-Philippe ليحل محل آل بوربون Bourbon، انضم إلى الفيل، في الطرف الآخر من الميدان، عمود شاهق (لا يزال هناك) يحيي ذكرى ليس عام 1789 بل ضحايا ثورة تموز عام 1830. ثم وضعت رصاصة الرحمة في النهاية حداً لبؤس الجسم المتداعي وكان ذلك عام 1846. وكما لو أن الذكرى تحررت من هذا السجن، فأعقب ذلك ثورة جديدة وجمهورية ذلك سريعاً.

لم يعد فيل النسيان المتعمد بعدئذٍ نظيراً لاستمرارية الذكرى الثورية. غير أن الذاكرة المنتعشة صعبة مثل فقدان الذاكرة التاريخية على الأقل. كانت الثورة الفرنسية تدميراً ساحقاً، بعد كل شي، وحُكم على المحاولات المتكررة لتخليد ذكراها بالفشل بسبب التناقض في شروطها. ومع ذلك، كانت هناك محاولات بدأت بـ «نافورة التجدد» التي شيدها اليعاقبة عام 1793 وهي: نسخة للربة إيزيس التي يتدفق ثدياها بحليب الحرية (في مناسبات احتفالية). ففي «عيد الوحدة» الذي أحيا ذكرى سقوط الملكية شرب هيرول دي سيشيل Hérault de Séchelles، رئيس الجمعية الشراب الجمهوري من قدح مصممة لهذا التقليد رفعها إلى الحشود المجتمعة في تحية. بعد ثماني سنوات انهارت النافورة إلى قطع حجارة غير مصقولة ونُقلت بالعربات. كانت ثمة مشروعات أخرى ـ قاعة جديدة للمجلس البلدي، ومسرح شعبي، وجمعية تشريعية ـ كانت كلها غير ذات أهمية عملية، وصرف النظر عنها جميعاً. وبدلاً من ذلك، بقيت فجوة شاغرة عند الحد الذي يفصل بين باريس الارستقراطية وباريس الحرفية: هي أرض اللاأحد في الذاكرة التاريخية.

كان إحياء الذكرى أكثر سهولة عندما كانت تحتوي على القليل من الأنصبة التذكارية. فقد خدمت الألعاب النارية السنوية والرقص في الرابع عشر من تموز أفضل من المشروعات المعمارية العظيمة. لكن ذلك كان عمل الجيل الأول من المؤرخين

الرومانسيين للاحتفال بالثورة من خلال إضرام المشاعل في نثرهم. حتى عندما أخذ الفيل يتحول ببطء إلى غبار وحجارة، صنع أدب جولز مشليه Jules Michelet القصصي الاحتفالي عن الثورة نوعاً من مشهد استعراضي، وتحوّل حالاً إلى كتاب مقدس ودراما وابتهال. وأعقب ذلك عرض متسلسل للأحداث ـ لدى كل من لامارتين وفكتور هوغو ـ لم يكن صوت أي منها أعلى من صوت ملحمة ميشليه. كانت الذروة تاريخاً كالمحاكاة: يخطب لامارتين في الجماهير مبشّراً بثورة ثالثة: ثورة 1848.

وكان تأليه التاريخ الرومانسي أمنية موته أيضاً. ففي عام 1850، وفيما تبددت الأوهام الخطابية للجمهورية الثانية أمام الحقائق المالية الصعبة التي لا ترحم، وعنف السلطة والدولة، حدث شيء تاريخي عظيم أضعف الهمم. كان عام 1848 دموياً في كل أنحاء أوروبا، ولاسيما باريس، حيث تعرّضت البلاغة الثورية للهزيمة عند الحواجز نتيجة حسابات الثورة المضادة، انهزمت العاطفة أمام المكر، والحرفيون البارعون أمام المدفعية. وليس مثيراً للغرابة، بعدئذٍ، أن يتحول التاريخ المكتوب من عمل غنائي إلى تحليل علمي، ومن ذاتية غير حيية إلى موضوعية هادئة. وحيث بدا نجاح الثورة ذات مرة يجب أن يطوق بالحب تلقائياً، بدا الآن أنه يجب أن يعتمد على الفهم الجلي. دعونا نبدأ مع الِكسيس دو تكفيل Alexis de Tocqueville وكارل ماركس Karl Marx (وإن يكن بطريقتين مختلفتين جداً)، لقد حاول المؤرخان تقديم معايير علمية دقيقة لروايتيهما. ابتعدا، لأول مرّة، عن الدراما الآسرة للأحداث ـ سطوع سطح السجل التاريخي ـ ليسبرا أعمق في مصادر الأرشيف أو قوانين السلوك الاجتماعي العامة. وجَرّدا أسباب الثورة الفرنسية من الصفات الشخصية، وتحررا من خطب الرجال العظام وسلوكهم وأقاما بدلاً من ذلك عميقاً داخل بنية المجتمع التي سبقت الثورة. وجعلا الطبقة عاملاً حاسماً في تحديد الولاء الاجتماعي بدلاً من الأقوال والخبز بدلاً من المعتقدات. ووصل التاريخ العلمي ـ أو التاريخ الاجتماعي في الحد الأدنى ـ ومعه الحط من شأن التسلسل الزمني للأحداث إلى عدم الأهمية القصصية. وقد مضى زمن طويل إلى الآن، شغل المؤرخون أنفسهم بالبنية، بالسبب والنتيجة، بالاحتمالات والتوقّعات، بالخرائط الملفوفة والصور، بالدلالات، وعلوم الإناسة، بتواريخ الكينونات الصغيرة في المقاطعات والمناطق والكانتونات والقرى والمزارع متلفعين عباءة الموضوعية الصارمة.

وما أعقب ذلك (يصعب عليّ القول) ليس علماً. لا يملك مزاعم الموضوعية. ومع ذلك في قصة دون أحاسيس (بسبب عدم وجود شيء مبتكر مدروس)، قد يصدم القارئ

أنه قصة أكثر منه تاريخاً. ذلك ممارسة في وصف حي، تفاوض مع ذاكرة عمرها مائتي سنة دون ادعاء نهاية محددة. يمثل شكل سردها وصيغة اختيارها مادة الموضوع نأياً مدروساً عن التاريخ التحليلي باتجاه الأحداث والأشخاص، وقد كانا محظورين منذ زمن بعيد، أو صُرِف النظر عنهما باعتبارهما مجرد زبد موجات التاريخ العظيمة. إنه أدب قصصي ليس بسبب الغياب بل بالاختيار: بداية وعرض وخاتمة تحاول تعليل إحساس أبطالها المتضخم بالماضي والحاضر والمستقبل. لذلك ليس مصادفة على الأقل أن يتزامن نشوء العالم السياسي الحديث مع ولادة الرواية الحديثة بالضبط.

تقدم معظم الأحداث التاريخية الثورية ذاتها بخط مستقيم: انتقال في الزمن من القدم إلى الجدّة. لكنّها قلما تستطيع تجنب الطبيعة المعقدة. كانت (الثورة) في استخداماتها الأولى مجازاً مستمداً من علم الفلك، يعبر عن أهمية التحوّل الدوري للأجرام السماوية. وقد تضمّنت معنى القابلية للتوقّع وليس العكس، «انقلب العالم رأساً على عقب»، كما سمي النشيد الشعبي للثورة الأمريكية الذي تضمن على نحو متناقض ضبطاً لصيرورتها الجانب الصحيح. اهتمّ رجال عام 1776، بصورة مماثلة في تطبيق النظام أكثر من التغيير المستمر، (ولا يزال مؤطرو الدستور هم الأكثرية). وكانت بعض الأمزجة المماثلة واضحة في فرنسا بالأسلوب الذي استخدم فيه رجال عام 1789 الكلمة. لكن في حالتهم، اكتسحت بلاغتهم التحويلية الآراء الأخرى القلقة. وعلى نحوٍ مثير للفضول، كان هؤلاء الذين أملوا بتغيير محدود عام 1789 هم الأكثر استسلاماً للمغالاة التي لا يمكن عكسها. ومنذئذٍ فصاعداً ستغدو الـ «ثورة» كلمة تعني تسلم مقاليد الحكم، وليس التكرار.

كان ذلك عام 1830 أن غدت الثورة الفرنسية كينونة قابلة للتغيير. لم تعد سلسلة أحداث محددة، رست في مرسى تاريخي معيّن (لنقل 1789 ـ 1794). فبدلاً من ذلك، الذكرى (المكتوبة بصورة رئيسية، لكن أيضاً تُغنّى وتُحفر وتُروى) شيدت حقيقة سياسية. فعلى مرّ الزمن، كان ثمة كابح للذكريات الرومانسية التي تعاملت مع الإلغاء العملي لمعظم الثورة الفرنسية بالإعلان عن خلودها في الذاكرة الوطنية. وقد حاول نابليون، الذي كان أكثر حفاري قبر الثورة تحمساً، إيقاظها من القبر في محاولة لإثارة صدمة في بلد كان يرزح تحت الاحتلال عام 1815، ومغلفاً نفسه في شعارات ورموز ثورية، حاول أن يثير خوف ورفاقية عام 1792: الوطن في خطر la patrie en danger. لكن كان على معركة واترلو Waterloo أن تنهي ما بدأته معركة ڤالمي Valmy.

وقدّر آل بوربون، الذين استعادوا التاج بغزو خارجي أنّ الأمل كلّه في شرعيتهم قد تحوّل إلى فصل من النسيان العقلاني. كان ملكهم الأول لويس الثامن عشر، مع شهيته البرجوازية الأكثر خطورة للمال والتأنق في الطعام والشراب، كان بارعاً في النسيان السياسي. فقلّما توقف عن تعيين الوزراء الذين خدموا الثورة والإمبراطورية معاً وتحاشوا حضور حفل التتويج الرسمي. أما شقيقه شارل الخامس فكان نفسه أسير ذكرى أكثر صخباً. فكما عمل أكثر مما يجب لتحدي الماضي الثوري ـ مقيماً حفل تتويجه بالمراسيم التقليدية كلها في كاتدرائية ريمز ـ حَرك الأشباح الثورية من قبرها في الذاكرة. ورغم أنّه كان مسكوناً بتلك الذكريات إلا أن سلوكه ضمن عودتها ثانية. تحّدر وزيره الأخير، الأكثر تمرداً، من أصل أكثر القبائل الأرستقراطية كراهية في ثمانينيات القرن الثامن عشر. في عام 1830 استعادت المراسيم الاستبدادية ذكريات عام 1788، ولمجابهتها، أطلقت المجموعة العاطفية الصرخات ولبست الأزياء ورفعت الرايات وأنشدت الأغاني التي عوملت مثل مجموعة تاريخية عبر الأجيال أعادت تكوين نفسها وراء المتاريس.

كان قمة الكثير مما يثير الغضب الشعبي عام 1830. فقد جعل الكساد التجاري برفعه الآلي لأسعار الخبز والبطالة مجموعات من الحرفيين المهرة يحتشدون في ضاحية سانت انطوان للاستماع إلى الصحفيين والخطباء يندّدون بالحكومة. لكن ما أثار عواطفهم وفجّر عزيمتهم هو عرض التذكارات الثورية بوصفها بقايا مقدسة: العلم المثلث الألوان الذي رفرف ثانية من نوتردام، وعرض أجساد تعرّضت لطعنات حربات القوات الملكية، كما عرضوا الشراشف الملطخة بالدماء في الشوارع تحريضاً على الثورة. ومرّة ثانية حاصر تجّار الأثاث وصانعي القبعات والقفازات من حي سانت انطونيو أوتيل دي فيل، ولم يعوّق زحفهم هذه المرة من الجهة الغربية سوى الردف الأجرب للفيل الجصّي. تردد «الماريسييز Marseillaise» ثانية، وارتفعت القبّعات الحمر (لم تعد تنطوي على مفارقة تاريخية عام 1830، كما كانت عام 1789) التي تُدفَع على رؤوس لا تحمل شعراً مستعاراً، وسحبت المدافع الصدئة التي تطلق طلقات زنة عشرة أرطال فوق الحصى. وتآمر دوق دي أورليان Duc d’Orl éans ثانية (بنجاح هذه المرة) ليكون المستفيد من تنازل ملك من آل بربون. وحتى المارشال مارمونت Maréchal Marmont، المكلف بالدفاع عن باريس بدا أسير حلم اليقظة هذا. وعند ملاحظة انهيار الولاء العسكري لم يستطع أن يجد شيئاً يقوله لملكه أفضل من تكرار كلمات الدوق دو لا روشفوكولد ليانكورد Duc de La Rochefoucauld Liancourt إلى لويس السادس عشر في 15 تموز عام 1789 حرفياً: «سيدي، هذا ليس شغباً، إنها ثورة». لكن في حين أخفق لويس في فهم مغزى المفردات

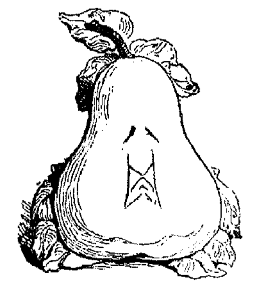
السياسية المتغيرة تماماً، عرف شارل الخامس بدقة معاني هذه الكلمات الدلالية، قرأ النصّ الأصلي. قرأ التاريخ. حتى أنّ وجهه الذي أشار إلى عدم تكرار كلمات لويس، بل سلوكه الخاص سنة 1789 لأنّه سارع إلى الرحيل آنذاك، لكنه كان أسرع الآن.

إذا كانت السطور هي نفسها، فاللاعبون الرئيسيون تقدموا في العمر كثيراً. وقد شكّل التقدم في السن إرباكاً شديداً لعدد من الشخصيات الأساسية في ثورة تموز 1830. فلن يجدي قول «كانت النعمة في ذلك العجز أن تكون مفعماً بالحيوية، لكن لتعمر طويلاً ينبغي أن تتحلى بالحصافة». لعب المتمرسون في السياسة دور القيادة الذي كان يجب أن يذهب إلى الشباب الواعدين. فالثورات إمبراطورية الشباب. ميشليه الذي ولد بعد أربع سنوات من مرحلة الإرهاب، حاضر عن التجديد في صفوف الطلاب الشغوفين المحتشدين. وفي كلماته النثرية الحماسية أخذ شباب 1789 عساليج خضراء للتأييد في حديقة القصر الملكي في 14 تموز إشارة لربيع شباب فرنسا الجديدة. صنّف رجال الباستيل القدامى أنهم سذج أو ضحايا، وحراس إنفاليد Invalides الذين ملأوا الأبراج، والكونت دي سولاج Comte de Solages (الذي احتجزته عائلته بالذات)، الذي على نحوٍ مفيد بدت لحيته البيضاء المثيرة للمشاعر والشكل المنكمش والتجاعيد القديمة تشير، من خلال المظهر وحده، إلى طول عمر الاستبداد. وبنور مرشد الثورة روسو Rousseau، أن تكون شاباً يعني أن تكون بريئاً ونقياً، وهكذا يجب أن يكون هدف الثورة الرئيس هو تحرير طفل الطبيعة الذي وقع في شرك النضج. وأتباع روسو الأكثر حماسة في الثورة استهلكوا أنفسهم بالفضيلة ثم قتلوا بعضهم بعضاً قبل أن يعانوا من تحررهم من وهم الذكريات الطويلة. أسعد الإرهاب الموتى الشباب لكن الخالدين. الخالد بارا Bara الذي عاش ثلاثة عشر عاماً، آثر الموت على تسليم الخيول إلى الثوار الذين اعتبرهم قطّاع طرق، ورأى دارودر الشاب Young Darruder والده يخرّ صريعاً في ميدان المعركة، فالتقط طبلته وقاد المهمة، كان كميل ديمولان Camille Desmoulins ثورياً قديماً في الثامنة والعشرين من عمره عندما قضى على يدي سان جست Saint-Just، الذي أُعدِم هو نفسه بالمقصلة وعمره 26 عاماً.

كان عسيراً أن تأخذ الثوار القدامى على محمل الجد. لقد جلبوا على أنفسهم السخرية التي يصعب على أية ثورة الشفاء منها تماماً. إنّ الذين جعلوا ثورة 1830 ممكنة، طلاب من معهد البوليتكنيك والحرفيون وعمال الطباعة ورجال الحرس الوطني - كانوا جيلاً جديداً بالتأكيد. وإذا لم يكن الصحفيون والساسيون الليبراليون الذين التزموا بتغيير

عنيف في النظام في ريعان الشباب لم يكونوا في مقدمة الشيخوخة أيضاً. لكن الممثلين الرئيسين لأيام تموز (وإلى حد كبير «الشخصيات البارزة» التي شكلت النخبة الجديدة في الملكية الدستورية ـ أصحاب بنوك وموظفون إداريون ومحامون) كانوا واضحين منذ زمن طويل في رسوم دوميه Daumier الكاريكاتورية الناقدة بأسنان طويلة ورؤوس صلعاء ووجنات ذاوية وبطون واهنة وركب متيبسة أقرب إلى الحقيقة الواقعية منهم إلى الحرية الرياضية في رسوم دلاكروا Delacroix عند الحواجز. خاف الشيوخ من الشباب عام 1830 ولمدة عقدين بعده، روعت العاطفة والغريزة العقل. كانت الثورة وحقبة الإعادة التي خلعتها أشياء تثير الفضول التاريخي نبشت من الماضي، وأُلبِست زياً حديثاً للمواجهة لكن بعظام قديمة تصطك داخل ملابس تنكرية. كان الملك الورع على نحوٍ متباهٍ شارل الخامس تقمصاً ضعيفاً للشخصية السيئة الصيت التي يريد أن يظهر بها، وكان الكونت أرتوا Artois، الأكثر جرأة من سلالة فرساي: كان خليعاً وسيء صيت في الصيد وقاعة الرقص والسرير. كان قد بصق في عين ثورة 89، وداس بقدميه القبّعات المردودة وألف «O Richard mon Roi» «ريتشارد يا مليكي » نشيد الثورة المضادة. وكان الأمير القادم لويس ـ فيليب Louis-Philippe، صورة مترهّلة طبق الأصل عن والده قاتل أبيه «فيليب إيغاليتيه Philippe Egalité»، ونشر مذكراته في مسعى لتقديم نفسه بأنه الشاب والجندي المواطن في الجيوش الثورية في جِماب Jemappes عام 1792، لكن لفائدة ضئيلة. وأنشأ معرض المعارك في فرساي، مع لوحة بعد أخرى لهوراس فيرنت Horace Vernet المصممة لتساويه بقوة الأسلحة الفرنسية. أما في ما يتعلق بالجماهير الواسعة التي ضحكت لرسوم فيليبون Philippon ودوميه Daumier الكاريكاتورية في، السيف الحامي لفرنسا ـ لا جويوس la Joyeuse ـ فقد حُوِّلت بصورة ساخرة إلى مظلة لويس فيليب الكلية الوجود. والأسوأ هو أنّ صورة صاحب الجلالة حوّلتْ نفسها إلى شكل إجاصة مؤذية تثير الضحك.

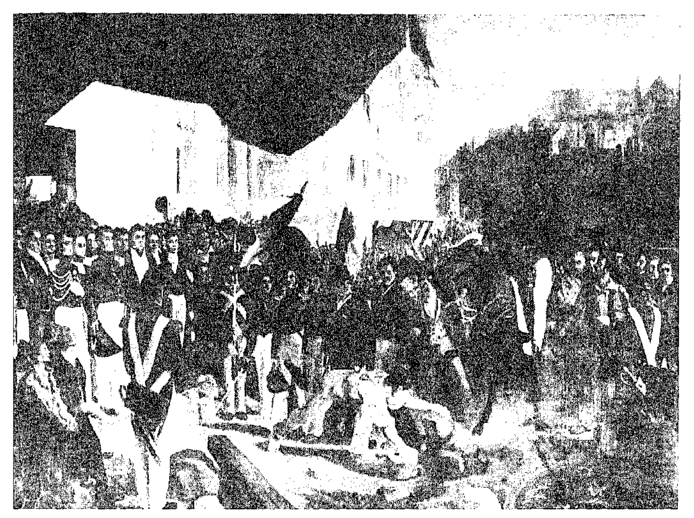
بينما كان سوء طالع أن تهرم سنة 1830، إلا أن العمر وحده لا يملي السلوك. فقد عنى استحضار الذاكرة الثورية أشياء متباينة جداً لرجلين في سبعينياتهما. عنت لجلبرت دي لافايت، بطل العالمين، المتصابي والرشيق وقد ناهز الثالثة والسبعين أوهام الشباب وعاطفة اتقدت ثانية ونبضاً تسارع. ولا بدّ أن ملامحه العامة بدت العلماء الفراسة تشير إلى مزاج مصمم للاشتعال. وتممّ لافايت توهجه المتورد الدائم بشعر مستعار مائل للحمرة غير مصقول، وأعلن أنّ نار الفعل الثوري ما تزال تتأجج في أعماقه.

الصورة 2، لرسام الكاريكاتير (شارل فيليبون) «الإجاصتان» من تشاريفاري

على الطرف النقيض من ظمأ لافايت الثوري للدم، قدّم موريس دي تاليران Maurice de Talleyrand، أمير دي بينيفينت Prince de Bénévent، للعالم صورة هادئة تتسم برباطة الجأش. كان في الخامسة والسبعين، أكبر من لافايت بسنتين، وثري مثله في الذكريات الثورية على الأقل. بدت هذه الأزمة الأحدث وكأنها حدثت مرة ثانية déjà vu، لكنها رغم ذلك فرصة لمناورة حذرة وتفادي أي شيء متسرع. وبينما سمع أحد العجوزين الديك يصيح معلناً ولادة فرنسا، سمع الآخر صوت المارسييه مثل أنغام متنافرة تنغّص شفقه. للافايت غنّت اللحظة احتفالاً، لتاليران دمدمت اللحظة صوتاً عرضياً. وبينما اتجه لافايت إلى باريس ليظهر أمام الجماهير التي تجلّه، نزع تاليران اللوحة البرونزية التي تحمل اسمه عن باب منزله الريفي ليتفادى التعرّف عليه.

شحذ لافايت ذاكرته بجدية وعرف كيف يستخدمها سلاحاً. وعلى نحوٍ مناسب قرر أن يستبعد الارتباكات التي كانت كثيرة كثرة انتصاراته، وكان تذكره الثوري دعوة أخيرة من خلال الأجيال القادمة. فوعد الجماهير عام 1830، «اطمئنوا سيكون سلوكي في الثالثة والسبعين كما كان في الثانية والثلاثين». وخاطب إحدى فرق الجرس، «اتخذت عودة الملكية شعاراً لها: اتحدوا وانسوا. أما أنّا فشعاري هو «اتحدوا وتذكروا»» وقد تذكر. في غرينوبل، في إحدى الحفلات العديدة التي وسمت مسار تقدّمه المنتصر عبر فرنسا، استجاب إلى نخب بتذكير المواطنين بـ«يوم القرميد» عام 1787، عندما واجهوا القوات الملكية. كان ذلك لأنه كان قائد الحرس الوطني سنة 1789 أن ظنّ قادة المعارضة القلقين أنّ استئنافه للمنصب سيكون خطوة سديدة. ارتدى لافايت آنذاك زيّه



الصورة 3، للرسام تشارلز لاريفييه لافايت يحيي لويس - فيليب في أوتي لدي فيل

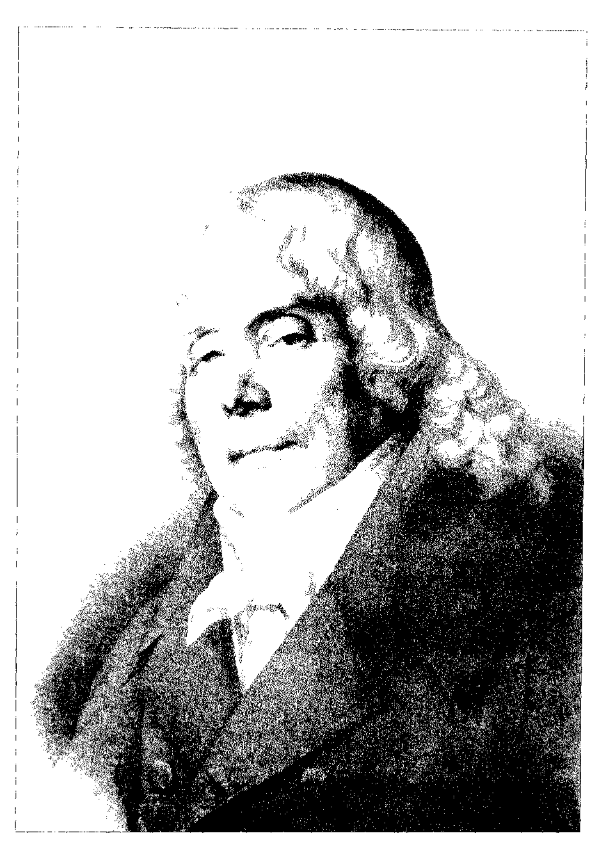
القديم وأعلن بتواضع ماكر أمام الحشود أنّ «المحارب القديم قد يكون مفيداً في أزمتنا المأساوية الراهنة». وعندما وصل إلى أوتيل دي فيل وسط حشد من المشاغبين كقائد للحرس الوطني، حاول ضابط حسن النية أن يرشده إلى الدرب، فأجاب بتأكيد صارم: «أعرف طريقي، لقد جئت إلى هذا المكان سابقاً».

كان معظم ما تذكّره هو كيف يحيّي الاستغراق الثوري: بعناق أخوي. وهكذا قبّل لافايت العلم الثلاثي الألوان، وقبّل ضباط الحرس، وقبّل دوق أورليان وهو يمنحه بركته. قبّل الجيل الجديد بحماسة بالغة لدرجة أصبحت قبلاته شهيرة، وقهقه الرجال حوله باعتباره منحرفاً لا سبيل إلى تقويمه «Père Biseur»، ولكن كم يبلغ عدد الذين ينالون ثلاث مكرمات في حياة واحدة؟ معتاداً الجلوس وسط المسرح، فهم لافايت غريزياً معنى استدعاء المسرح السياسي: من الإيماءات، وفهم لغة الجسد، ومن الحركة والبلاغة الشفوية التي تحدث في اللحظات الحرجة. في أمريكا في تقدم منتصر أخير قبل خمس

سنوات فحسب، غدا المبدَع الأول للسياسة الشعبية، تحول إلى «ماركوس د. لافايت Marcus D. Lafaytte» الذي استمتع كثيراً بالتصفيق وبتلات الورد التي انهمرت عليه من ولاية مين Maine إلى ولاية فرجينيا Virginia؛ ودون شعور بالتعب عانق الناس وصافحهم حتى الإنهاك، وكرر بإخلاص وشفافية ثانية وثالثة أمام الجماهير المغمورة بالحب: «زو آبي، زو آبي Zo appy». وأمام حشد الشعب في أوتيل دي فيل، وقد أدرك كثيرون منهم أن الماريشال العجوز هو فرصتهم لإقامة جمهورية، غطى لويس - فيليب بالعلم الثلاثي الألوان كأنّه ثوب فضفاض لنزعته الدستورية ودفعه إلى الشرفة بطريقة غير احتفالية. اختطف لافايت الأضواء في تلك الإيماءة المسرحية الهزلية وسحب أسنان أنصار الجمهورية. لا ريب أنّه تذكّر الرعب الذي تملّك لويس السادس عشر عندما التصقت عقدة شريط القبّعة بقبّعته إثر سقوط الباستيل، ولملك يريد البقاء لا شيء كان أقل ضرورة من كفن عظيم ثلاثي الألوان.

كان لافايت الحافز العظيم للتذكر. ففي عام 1815 حتى بعد كارثة واترلو، كان ثمة محاولة للحفاظ على إمبراطورية نابليون، ألقى خطاباً مدمراً الذي استدعى شهوداً في ما يتعلق بمقاضاة أشباح ملايين الجنود الذين تركهم الرجل العظيم للموت في مصر وروسيا وألمانيا. في أمريكا سعى دائماً إلى التعزيز من خلال التذكير المستمر بالحريات الأخوية الدائمة والصداقة التي تآكلت بشدة منذ عام 1783. لذلك السبب قدم أحد مفاتيح الباستيل لجورج واشنطن. كانت الذاكرة للافايت مهمازاً للفعل، وكانت الثورة ذاتها جزءاً من عملية التجديد المستمر، وهي الطريقة التي تمكن فرنسا من استعادة قوة الحياة الإبداعية.

لم يهتم تاليران بأغاني عصافير الربيع السياسي. فقد روّض نفسه بشكل مريح على الشتاء السياسي. أرهقته ذكرياته الخاصة أكثر مما أثارت فيه التباهي، وكان الاندفاع الرومانسي في ما يتعلق به ليس موضوعاً للبحث دائماً. قيّدته قدمه المصابة بالعرج منذ الطفولة، وتعلّم منذ أمد بعيد كيف يصقل نوعاً من الوهن المدروس، الأمر الذي أثار حفيظة رجال الصف الثاني. كانت حياته برمتها لعنة لأي حواري من حواريي روسو، لأنّه وضع ثقته في التنكّر بدلاً من الصراحة، والكياسة بدلاً من العفوية والتفكير بدلاً من الاندفاع والدبلوماسية بدلاً من الخصام والمفاوضات خلف الأبواب الموصدة بدلاً من مخاطبة الجماهير المحتشدة. فأن يُقرَّر إلى الأبد أنه مستحاثة سياسية، شيء متبقٍّ من النظام القديم، عرف أفضل من كثيرين أنّ كل هذه الفنون ضرورية للمستقبل السياسي كما كانت ضرورية للماضي.



الصورة 4، للرسام جان بابتست بليارد *Jean-Baptiste Belliard*: صورة تاليران

لم يرغب تاليران سنة 1830 في أي شيء أفضل، لنفسه ولفرنسا، من حياة هادئة. قام بدور القاضي الإقليمي في قصره الريفي الضخم الرائع المدهش ذي طراز عصر النهضة في فالنكاي Valencay، وتقلّد منصب رئيس البلدية، وأجرى تجارب على أنواع عديدة من الخضار والجزر، واهتم بالصنوبر الاسكتلندي على نحوٍ خاص. وفي رشكوت Rochecotte، في بيت رفيقته دوروثي دي دينو Dorothée de Dino، الأصغر عمراً، استمتع بمتع أبسط، أخذ عينات من الخوخ من إنتاجه الشخصي، وتناولها مع شرائح الجبن الأبيض، ملك الجبن («الملك الوحيد الذي أخلص له»، كما قال أحد الكثر الذين قللوا من شأنه). وفي باريس نادراً ما تعكّر صفوه في الفندق العريق في شارع سان فلورنتين Saint-Florentin، حيث جلس متكئاً على عدد من الوسادات، (حتى في فراشه، لأنه خشي السقوط ليلاً ويؤذي نفسه)، يتناول البسكويت برفق، ويرتشف خمر الماديرا، ويقرأ دون الاستعانة بنظارات، من مكتبته الخاصة الفخمة والمتميزة. كان تاليران ما يزال نيقاً يبودر شعره الكث ويمشطه ويزأبر ذؤيباته ويجمعها في ضفائر داخل طوق عالٍ. ويخضع أنفه الشهير المرتفع الأرنبة (الذي كان لا يزال يستخدمه كسلاح مميت) إلى عملية غريبة لإزالة الرواسب بعد كل وجبة سمح لنفسه أن يتناولها يومياً.

يبدو تاليران مثل الموت في ثوب من الحرير الأسود للرسام آري سكيفر Ary Scheffer، الذي رسمه عام 1828، لكنه كسلحفاة معمّرة كثيراً ومرعبة، استطاع معالجة أي شأن في الحياة بروية وحذر. وهذا يفسر سخطه على حماقة شارل العاشر الغبي العمياء. لأنه (شارل) في عزمه المتهور على التصدّي للجميع ما عدا الرجعيين الأشدّ تعصباً حكم على فرنسا بعهد من «الفوضوية آخر، وحرب ثورية، وكل الشرور الأخرى التي استطاعت فرنسا النجاة منها بصعوبة بالغة عام 1815». إذا كانت الثورة قد جاءت إلى لافايت كفيض شعور، وإكسير شباب، فقد كانت لتاليران ناقوس خطر دقّ منذراً في تفكيره. للافايت كان عام 1830، بشير الحرية والديمقراطية، ليس لفرنسا وحدها، بل للعالم كلّه (لاسيما بولونيا). لتاليران، الهدف الوحيد لتغيير نظام السيطرة على الأضرار.

إذا كان عمل لافايت التاريخي بالعلم الثلاثي الألوان ومنحه البركة أمام الجماهير - «Voilà la meilleure des républiques» (شاهدوا أفضل ما قدمته الجمهوريات) - في الحقيقة، تتويجاً شعبياً للويس - فيليب، فإن تاليران (الذي حضر احتفالات التتويج الثلاثة للويس السادس عشر ونابليون وشارل العاشر) أيّد المتوّج. وهكذا، في حين كان لافايت وسط المسرح، كان تاليران من يدير العمل بكل المعاني وراء المشاهد. وقد شغل

الرجلان دائماً هذه العلاقة التعاونية ممثل ومنتج، ممثل ومحرك دمى، واختلفا دائماً على المكان الذي تكمن فيه الحقيقة الواقعية للسلطة الثورية. كان الكلام، والأشكال، والعادات، والرموز، والإيمان التبشيري بالقضايا العادلة هي الملحمة التاريخية الوحيدة التي تستحق التذكّر بالنسبة لِ لافايت. وكانت هذه البنى الرمزية لتاليران مسرحية تاريخية صامتة، جرعات للسذج سريعي التصديق، طقوس علمانية حلّت محّل تلك التي كانت للآثار القديمة والمعجزات. ومثل هذه العروض هي عروض مهرجي سيرك لا مفر منها ومزيفة على نحوٍ متزامن. لقد شاهد لافايت على حصان أبيض في الماضي، عندما، كان، كقائد للحرس الوطني، هو مركز الانتباه لـ 400,000 ثوري متحمّس عندما كان يؤدي القسم للأمة في الشامب دي مارس Champ de Mars في الرابع عشر من تموز عام 1790. لكن كان تاليران، المواطن الأسقف من أوتن Autun، هو من كتب شعائر القداس الذي أسبغ البركة على هذه المراسم، وهو الذي واصل العمل في الحسابات. وعلى الرغم من ذلك بينما استحمّ لافايت في بهاء المهرجان الثوري، ربح تاليران مال طاولات اللعب كله.

ومرة أخرى بينما لعب لافايت دوراً لصالح صالة العرض، لعب تاليران دور سوق الأوراق المالية («Jouez à la baisse» أوصى أصدقاءه قبل ثلاثة أيام من اندلاع قتال الشوارع في باريس). وبالمثل، كانت عملياتهما في إنهاء المهام مدهشة لكنها بالتأكيد مترابطة ومتعارضة. عوّض لافايت مقابل تخليه عن الهدف الجمهوري سنة 1830 بإعلان مبدأ الدولية الثورية المسيحية وتحرير بولونيا العاجل. وأخذ تاليران منصبه الرسمي الأخير عام 1830 كسفير في لندن، حيث طاف يخمد الحرائق التي أشعلها لافايت بتلقائية ويحذر شبيهه القديم من فيينا، دوق ولنغتون Duke of Wellington، أنّ أخطر أسلحة لويس فيليب هي المظلة الملفوفة. Tout va bien

جسّد لافايت وتاليران، في شخصيهما، الشخصية المنشقة للثورة الفرنسية. ففي حين كان مألوفاً أن تعترف بأن الثورة الفرنسية أثمرت نوعاً من العالم السياسي الجديد، غالباً ما كان غير مفهوم كما يجب أن هذا العالم هو نتاج مصلحتين لا سبيل لمصالحتهما - خلق دولة قوية وخلق جماعة من المواطنين الأحرار. فقصة الثورة كانت أن تتخيل أن كلاً من المصلحتين يمكن أن تُخدم دون أن تلحق ضرراً بالأخرى وأن تاريخها يرتقي إلى إدراك تلك الاستحالة.



الصورة 5، للرسام يوجين ديلاكروا الحرية تقود الشعب ـ 1830

ستكون الغلطة المحتملة الأسوأ، ومع ذلك، أن تفترض في البداية نبرة ساخرة مفرطة نحو الأكثر مثالية في هذه الأهداف. فتاليران، الذي رغب في فعل ذلك تماماً، كان من خلال سخرية سامية الجد غير المباشر للصورة الأكثر بقاء للشعور الثوري بالأهمية: عمل يوجين ديلاكروا Eugène Delacroix **الحرية التي تقود الشعب**. حيث يقف على حجارة أحد الحواجز، وصدره العاري صورة ماريان الشعب، يعتمر القبعة الحمراء الثورية، ويستحث العمال والطلاب باتجاه المقصد غير المحدد للنعيم الثوري. قامت نوتردام الحرية على خلفية نوتردام باريس، سبق وأن فُتِحت للحرية، والعلم الثلاثي الألوان يرفرف على أبراجها.

وماذا عن تاليران؟ ماذا كان عليه أن يعمل مع هذه الصاعقة في الزيت، المثيرة



الصورة 6، لرسام مجهول تاليران في سن السادسة عشر

غريزياً إلى حد أنّ لويس ـ فيليب أصيب بالخوف واشترى لوحة ديلاكروا وأخفاها عن أعين الناس لجيل كامل؟ لم يجلب تاليران هذا الوعي الذاتي الثوري المدمر إلى العالم، لكنه، كما يبدو، خلق يوجين ديلاكروا. كان تاليران، في العام الثوري السادس (1798)، عندما خلدت الثورة الأولى للنوم بهدوء من حرّاسها الفاسدين في باريس وتعرضها للركل حتى الموت من زعمائها الميدانيين، كان تاليران عابثاً أكثر من المعتاد. حلّ محلّ وزير الجمهورية للشؤون الخارجية، شارل ديلاكروا، (الذي نُفي إلى وحشة السفارة الفرنسية الصعبة في لاهاي)، وحلّ تاليران محلّه في سرير السيدة ديلاكروا أيضاً. يمكن الافتراض أنها كانت مستجيبة لعروض صداقته، لأنّ زوجها كابد الوهن حيناً جرّاء تضخّم كتلة امتدت من بطنه إلى أعلى فخذه. كان استئصالها الناجح لدى أشهر جرّاح في باريس سبباً لشهرة طبية، كما كان السبب في تشوه السيد ديلاكروا كحدث تاريخي انتشر على نطاق واسع. لم يكن تشوّه تاليران الجسدي، قدمه العرجاء التي تنجّر في حذاء صُمم خصيصاً

له، عقبة أمام نجاحه كعشيق. آمن أنّ القوة والذكاء هما عطر الغزل، وقد هيمن عليهما بتعويذة فاعلة، واستسلمت آمي ديلاركروا كما ينبغي.و كان نتاجهما الطفل المعجزة يوجين، الرومانسي الأعظم في العصر الجديد الذي أنجبه المرتاب الأكثر هولاً في الجيل القديم.

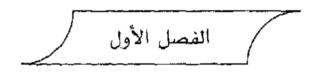
وتدفقت دماء العاطفة الثورية عندئذٍ من جسد الذكاء الثوري. وهذان المزاجان - الخطابي والمنطقي، الغريزي والعقلاني، العاطفي والوحشي - لن يُفصَلا في هذا التاريخ. ففي الحقيقة، وُلِدت سياسة جديدة من وحدتهما المنقوصة.

SOURCES AND BIBLIOGRAPHY

The history of the elephant of the Bastille may be found in Marie Biver, Le Paris de Napoleon (Paris 1963). For Talleyrand in 1830, Georges Lacour - Gayet, Talleyrand (vol. 3, Paris 1931); also the appropriately sardonic modern biography by Jean Orieux, Talley - rand ou le Sphinx Incompris (Paris 1970, 737 - 44) Talleyrand's own Mémoires (vols. 3 and 4, ed. Duc de Brogue, Paris 1892) are, even by his standards, excessively laconic on his part in the Revolution of 1830. M. Colmache, Revelations of the Life of Prince Tallyrand (London 1850), is much more forthcoming and has the ring of authenticity. The self - consciousness of Lafayette's memory of 1830 is all too obvious from a reading of his own Mémoires, Correcpondances et Manuscrits (Paris 1837 - 38, vol. 6, 386 - 415) as well as from the account of his secretary in this period, B. Sarrans, Memoin of General Lafayette and of the French Revolution of l83o (2 vols., London 183o). By far the best account of the events of July 1830 in Paris is David Pinkney. The French Revolution of 1830 (Princeton 1972) is a splendid history of Lafayette's triumphal progress in the United States in 1825. A startlingly public report of Charles Delacroix's tumeur monstrueuse and its surgical excision can be found in the Moniteur for 24 Germinal, an VI (April 13, 1798).

القسم الأول

المتغيّرات
فرنسا لويس السادس عشر



رجـال جـدد

I ـ آباء وأبناء

زار تاليران فولتير ليعرب له عن احترامه في الربيع الطلق لعام 1778. وكان ذلك غير مناسب بعض الشيء حتى في مجتمع دنيوية رجال الدين فيه ذات صيت سيء. فلم يكن الحبر قد جفّ بعد على شهادته في اللاهوت من السوربون قبل أن يسارع هذا الكاهن الشاب، حامل المرتبة الدينية في ريمز Rheims، والمندوب في الجمعية العامة لرجال الدين، إلى تقديم الإجلال للشخص الأكثر تشهيراً بالكنيسة. كان للزيارة نكهة عقوق بنوي لأن تاليران كان يبحث بلا شك عن شخصية أب أكثر إرضاءً من أبويه الطبيعيين، اللذين سلماه لمربية تركته يسقط من خزانة، ويحطم عظماً في قدمه لم يُعالَج أبداً. وفي الحقيقة لم يُورِّث تاليران الشاب الذي لحق به عار أنه أعرج. فشاب لا يستطيع المبارزة ولا الرقص لا يمكنه أن يأمل نجاحاً لا في البلاط ولا في الجيش، وهما المهنتان المناسبتان لسليل عائلة بريغورد Perigord. وكان ثمة سبيل واحد ممكناً: عمل في الكنيسة، حيث يمكنه أن يزداد ثروة وشهرة، ولكن لما، كان واضحاً منذ وقت مبكر، أنه كره تلك المهنة كرهاً شديداً. ففي كلية هاركورت d'Harcourt، حيث أُرسِل وهو في سن السابعة، وأُمِر بالطاعة والإيمان، بينما كان كل ذكاؤه وكل غرائزه تحثه على العصيان والشك. طلب منه في معهد اللاهوت في سان سولبس Saint - sulpice أن يحترم السلطة أيضاً، لكنه بدلاً من ذلك أخذ يجمع مكتبة من أعمال فلاسفة التنوير الأكثر شكوكية بالإضافة إلى الأدب الإباحي المفرط، الذي يصور شهوات الرهبان والراهبات الجنسية بوضوح. لقد حكم عليه سوء طالعه وميوله الفكرية أن يكون غريباً (دخيلاً)، وقد انجذب إلى غرباء آخرين. ففي ليلة مطيرة عام 1771، بعد القداس، قدّم مظلته إلى فتاة شابة من أصول يهودية، دوروثي



الصورة 7، للرسام شارل إيتيان غوشر تتويج فولتير في ثياتر فرانسيز، 1778

دورنفيل Dorothee Dorinville، المعروفة على خشبة مسرح الكوميدي فرانسيز باسم لوزي Luzy. وكانت الأولى وربما الأكثر رقة في صف طويل من العلاقات الغرامية: فطالب اللاهوت المنشق الذي يعرج في ثوب الكاهن الأسود مع التحول الجدير بالثناء، إلى ما سماه هو«حرمها» في شارع فيرو Ferau.

بالنسبة لتاليران، كان اللقاء مع فولتير نوعاً من بركة أبوية: مباركة يدين كثيرتي العقد على شعر أشقر طويل معطر. فصلت ستون سنة العراب الزائف عن مساعد الكاهن، عمر الثالثة والعشرين عن عمر الرابعة والثمانين. وفي حين كان الكاهن الشاب الدنيوي يبحث عن شجاعة قناعاته، كان الفيلسوف العجوز يسدل النقاب على نفيه من فرنسا لسبعة وعشرين عاماً، فقد عاد فولتير في شباط عام 1778 إلى مثل أعلى صاخب وعام. كان شيخاً عجوزاً ومعتل الصحة، والرحلة الطويلة من فرني Ferney على الجانب الآخر من الحدود السويسرية لم تساعد أمراضه. وعلى نحو متناوب، في منزل المركيز دي فيليت De Villette، حيث أقام، سيكون هناك نوبة سعال بصاق ودم. الطبيب السويسري الشهير ترونشين Dr. Tronchin الذي انتقل إلى فرنسا جزئياً ليلازم مريضيه الشهيرين (الآخر هو روسو)، سيستدعى. ستظهر الأخبار المعبرة عن القلق في الصحافة. غير أن فولتير كان مصمماً على أن يبقى حياً طويلاً كفاية ليحظى بتوقير مريديه الشباب الذين تقاطروا لرؤيته،

وإرباك الأكبر سناً، أصدقاء أيام الرخاء الذين جاؤوا الآن إليه للراحة والغفران. لكن مهما كانت مشاعره الشخصية مختلطة، لم يُظهِر إلا جانبه الأكثر لطفاً للمعجبين به الذين اصطفوا لإدخالهم إلى حضرته. وقد شكا ساخراً بقوله: «قد أُختنق، لكن ذلك سيكون تحت وابل من ورود».

وعندما صحا الطقس وتحسنت صحته كفاية ليغامر بالخروج ظهر في مسرح فرانسيز Théâtre - Français ليشرف على بروفات مسرحيته التراجيدية إيرين Iréne. وقد حضرت الافتتاح في 16 آذار العائلة الملكية كلها إلا الملك لتحية المؤلف. وعند نهاية العرض السادس في 30 آذار وُضِع له تمثال نصفي قدمه كافيري Caffieri بشكل خاص وقد توّجه الممثلون بالغار، ووقف الجمهور كله للترحيب الحماسي فيما انتشى الرجل العجوز بالتصفيق. لم يخف استمتاعه بالتخليد التمهيدي. لكن حتى ساعة احتضاره في نهاية أيار حُوِّلت إلى حدث شبه عام، مع باريس كلها Le tout Paris تنتظر لترى ما إذا كان سيستسلم لخداع كاهن الاعتراف الذي، حتى في اللحظة الأخيرة، جرّب شعيرة أرثوذكسية للغفران بدلاً من الصيغ الملتبسة المصطنعة التي ابتكرها فولتير ـ «أموت في الدين الكاثوليكي الذي ولدت فيه.» لكن ثمة شك قوي في صحة كلماته الأخيرة ذات الشهرة التي ترفض إنكار الشيطان («هل هذا وقت لصنع الأعداء؟»)، والصد الوداعي الواقعي للكاهن العنيد الذي كان جيداً على الغالب: «دعني لأموت بسلام».

وهكذا كان هناك شيء ما مبجَّل إلى حد ما حول زيارة تاليران. فتقدمه بعض الروايات راكعاً أمام فولتير في تبجيل يدنس المقدسات. ولا شك أن الكاهن الشاب الدنيوي كان مفرط الإعجاب بالعقلاني العجوز الشرير الذي كانت صيحة معركته «اسحقوا سيئة السمعة Ecrasez l'infâme» ـ (يعني الكنيسة). أحضر شيفاليه دو شانفور Chevalier de Chamfort جثمان فولتير صديقه في المدرسة إلى أوتيل دي لا فيليت Hôtel de la Villette في شارع بيون Beaune. قِيدَ تاليران إلى غرفة صغيرة، معتمة تماماً على الأغلب إلا من مصراع نافذة فُتِح لغرض استراتيجي كي يدع شعاعاً من ضوء الشمس يلعب على ملامح فولتير الخبيثة المتشققة: التنوير مستنير. للحظة، اضطرب الشاب الشديد الحساسية، حتى إنه شعر بالاشمئزاز من مشهد ساقين نحيلتين وقدمين نتأت عظامهما تبرزان من عباءة فضفاضة. في مكان ما في الظلام، كانت ابنة أخ فولتير، السيدة دنيس Mme Denis، التي لم تعد، إذا كانت يوماً ما، جميلة وطيبة، تشغل نفسها بأكل الشوكولاته وخيوط رقيقة من

البخار اللطيف التفت حول الغرفة عندما سأل الفيلسوف بأدب وإعجاب عن حال الأسرة في بريغورد Périgord. من هذه البداية المبتذلة، استجمع فولتير زخم الحوار، إلى حد أنه بدا للمعجب الشاب السريع التأثر أن الذكاء المتوقد المشهور قد حلّق. الكلمات «طارت منه، سريعة جداً، دقيقة جداً، ومع ذلك جلية وواضحة جداً... تكلم بسرعة وانفعال مع لعب بقسمات الوجه لم أرها في أي رجل سواه... واتقدت عيناه بنار قوية كادت تكون مبهرة». سار كل شيء كما كان متوقعاً «تحدثت الجمجمة المفعمة بالحياة بطريقة عبقرية وتحدثت إلى المريد المخلص الصامت. كانت تلك إحدى اللحظات الحاسمة في حياة تاليران. «كل خط في تلك الملامح الرائعة محفور في ذاكرتي»، تذكر في شيخوخته هو بالذات. «إنني أراه الآن أمامي ـ تحدق العينان الصغيرتان المتقدتان تحدقان من محجرين منكمشين مثل محجري حرباءة». نسي تاليران ماذا قال له فولتير بالضبط، لم ينسَ أبداً الأسلوب الذي خاطبه به ولا اللطف الغريب لاستئذانه بالرحيل، كان ذلك، كما قال تاليران: وداعاً أبوياً.

بالنسبة لِـ **تاليران**، ربما بدأت الثورة مع هذا التكريس لعدم الإيمان في شارع بيون. لِـ لافايت، بدأت الثورة بفعل إيمان. أما لِـ فرنسا، فقد بدأت الثورة في أمريكا دون أدنى شك.

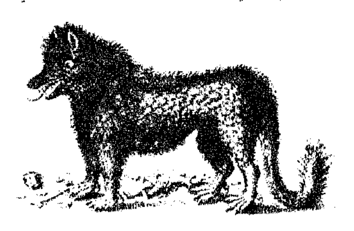
بينما كان تاليران يركع عند قدمي راعيه الفكري، كان لافايت يرتجف في ڤاي فورج Vally Forge في بنسلفانيا، بين «أكواخ صغيرة لا تكاد تكون أرحب من زنزانات السجن،» هناك استقرت بقايا جيش المستعمرات الأمريكية المثيرة للشفقة، والمركيز ذو الأربعة والعشرين ربيعاً وجد والده البديل في الهيئة المهيبة لجورج واشنطن George Washington. وقد كتب وصفه الأول للجنرال في رسالة إلى زوجته أدريان Adrienne بعد مقابلة مع واشنطن في فيلادلفيا في تموز الماضي فوصفه أنه «رجل هادئ متحفظ كبير بما يكفي لأن يكون والدي» ومع ذلك من السهل تمييزه «بجلال وجهه وعظمة قامته.» وكان ذلك خلال ما دعاه لافايت «المحادثة الناجحة» في 14 تشرين الأول عام 1777 ـ ربما للتعويض عن عدم قدرته على إعطاء المركيز الدور الذي تاق له ـ نوّه واشنطن بأنه سيكون مسروراً أن يحظى بثقته «صديقاً وأباً». ومع ذلك، ربما ترك الفرجيني هذا الإطراء اللطيف ينزلق على نحو عرضي. وكانت فرصة لافايت في الظهور. ومنذئذٍ وصاعداً غدا الابن المتبنى المخلص، غالباً إلى درجة الخنوع لقضية أبيه الجديد، فقد ارتبط الوطن والأب الآن بقوة في عقدة عاطفية.

إذا ظن تاليران نفسه أنه يتيم عملياً، «الرجل الوحيد ذو المولد المتميز والانتماء إلى عائلة كثيرة العدد... الذي لم يستمتع أبداً في حياته بمتعة العيش تحت سقف الأبوة لأسبوع،» فقد شعر لافايت بألم أكثر شدة لخسارته الشخصية، إذ قتل والده، وهو كولونيل في سلاح القنابل اليدوية في فرنسا في معركة ميندن Minden، ولما يزل في الثانية. وقتل عمه أيضاً في حصار ميلان Milan عام 1733 خلال حرب الخلافة البولونية. وهكذا نشأ جلبرت Gilbert الصغير في مزرعة أوفرن Auvergne في تشافيناك، ورأسه يسبح بأحلام العظمة المادية. كانت بقرب القصر بعض الحقول المعروفة للفلاحين بأنها أرض المعركة Champ de bataille وهناك شارك لافاييت ظلال فرسينجتوركس Vercingetorix المسلحة للنزاع والمناظرة. لكن إذا كان رأسه قد امتلأ بالرومانسية التاريخية فقلبه كان قادراً على تحمل الدفاع عن سلالته. سيكتشف متأخراً جداً هوية الميجور فيليبس Major Philips الذي أمر سرية المدفعية التي قتلت فوج جند أبيه، ويتعقبه. ولكن كمراهق كان كافياً له أن يستجيب للقضية الأمريكية فرصة مثالية للانتقام: لكل من المهانة التي عانت منها فرنسا خلال حرب السنوات السبع ولنصيب عائلته الخاص في تلك الخسائر. وفي تشرين الأول عام 1777 كتب إلى وزير الخارجية الفرنسية، فرجين Vergennes، الذي كان حتئذٍ يواصل سياسة مؤيدة للأمريكيين في أشد الظروف:

> *أنا مقتنع تماماً بأن إلحاق الأذى بإنكلترا يعني أنني أخدم (سأجرؤ على القول أثأر لِـ) بلدي. وأؤمن بفكرة وضع عمل وموارد كل فرد يمتلك شرف أن يكون فرنسياً.*

انهار الأب والوطن في هوى واحد يتقد في صدر المركيز اليتيم (لأن أمه توفيت أيضاً عام 1777 عندما كان في الثالثة عشر من عمره). وقد أثّر والقلق العسكري على الكثيرين من معاصريه. كتب صديق لافايت المتطوع الكونت دي سيغر Comte de Ségur: «لقد تعبنا من فترة السلام المملة التي استمرت لعشر سنوات، وكل منا يتحرق رغبة لترميم الإهانات التي لحقت بنا في الحروب الأخيرة، ومحاربة إنكلترا والإسراع إلى مساعدة القضية الأمريكية». وتجربة بلاط الملك لويس السادس عشر في فرساي حيث ثروة لا فاييت وصلاته (بما فيها زواجه في عمر الرابعة عشر من عائلة نوابيه Noailles الكبيرة) التي أملت عليه ظهوراً ما، لم تفعل شيئاً يهدئ ذلك الاستياء العاطفي. وفي حين لم يكن أعرج مثل تاليران كان لافايت أخرق على حلبة الرقص وقد يكون كذلك. وقد أدرك بحدة ضعفه الريفي في الكياسة، شعر بأن هذه الخصائص الفجة أشياء نافعة مثل الإعاقة كونها حفظت له خصائص الرجولة

الطبيعية. وقد كتب مؤخراً في مذكراته: «بينما لم تكن خراقة أسلوبي مناسبة خلال المناسبات العظيمة، فإنها لم تمكنّي من الانحناء لأصحاب الجلالة في البلاط».



صورة رقم 8، طبع جيفودان 1764 ـ 1765

كان العجز عن العيش مع زخارف الحياة العسكرية هو الذي حثه إلى المزيد من فعل النجاح بدلاً من الممتلكات والثروة. وبحلول عام 1775 كان لديه ما يكفي من المزاح السمج الذي تجاوز الجرأة بين مجموعة أصدقائه الأغنياء الارستقراطيين في فندقهم المفضل إيبي دو بوا Epèe de Bois. كان بين «مجموعة السيف الخشبي» هذه عدد من الرجال الشباب ـ لاروشيفوكول La Rochefoucauld، نوايبه، سيغر ـ الذين لم يتبنوا قضية «المتمردين» الأمريكيين وحسب بل أن يكونوا بين النبلاء المواطنين الأكثر بروزاً عام 1789. وكان ذلك عندما كان لافايت يخدم مع نبيل عسكري آخر ذي أفكار متقدمة دوق دي بروغلي Duc de Broglie، الذي صمم على أن يستخدم ثروته الكبيرة (120,000 ليفر في السنة، ورثها عن جده لأمه) لتحويل المشاعر غير الناضجة إلى أفعال ملموسة. وعلى نحو ساخر، باشر بروغولي، كرفيق لوالد لافايت، برعاية الشاب القلق ومنعه من فعل أي شيء شديد الحماقة تعرض للخطر ما تبقى من مجموعة الذكور في العائلة. لكن بعد دفاع بلاغي عن القضية الأمريكية ليس من غير شقيق الملك جورج الثالث نفسه دوق غلوستر Duke of Gloucester، غدا التزام لافايت مثل هذا، بعد اللجوء إلى المنطق معه حيّد بروغلي نفسه لقبول (أو على الأقل عدم المنع بشكل مادي) شكل ما من المغامرة الأمريكية. وفي الحقيقة، بدلاً من احتجاز لافايت، قرر بروغلي عملياً، مع سيغر ونويلز أن يسيروا في ركابه.

لقد تضافرت القضايا الشخصية والعائلية والدفاع الوطني مع توق ما قبل رومانسي

إلى المجد في دفع لافايت إلى تجهيز نفسه بما يحتاج للنصر Victoire ويبحر إلى أمريكا في خريف عام 1777. لكن كان ثمة عنصر آخر أقل حيوية إلى حد ما في قراره، هو شعوره بالولاء لقضية «الحرية» بعمق. يبرز ذلك مبكراً بشكل طبيعي في سيرته الشخصية. وفي الحقيقة هي الوريد الرومانسي، الذي يرسم الماركيز الشاب طفل طبيعة حراً طليقاً غير مُروَّض، الذي يقدم المفتاح الأفضل لفهم قضاياه السياسية التي فُتِن بها لاحقاً. كانت الأراضي المرتفعة المليئة بالغابات والصخور والجروف في أوفيرن Auvergne حيث نشأ بعيدة عن كياسات المجتمع الباريسي المدينية كما استطاع أن يتخيل، وفي تلك البيئة تُرِك خيال لافايت الرومانسي يجري جامحاً بسعادة. ففي عام 1765، عندما كان في ربيعه الثامن، وُصِف وحش معروف باسم «ضبع جيفودان» Hyena of the Gévaudan، بملاحظات تحذيرية أنه «بحجم ثور صغير»، لم يكن يفترس الحيوانات الداجنة وحسب، بل يفضل مهاجمة النساء والأطفال ويشرب دمهم». وقد قامت جماعات من الفلاحين بملاحقة هذا «الوحش،» غير أن الصبي لافايت الذي شعر بقرابة مع الحيوان الهائم طاف مع أحد أصدقائه في الغابة بأمل فرصة مواجهته. وقد كتب: «حتى في سن الثامنة دق قلبي متعاطفاً مع الضبع.» وبعد سنوات، عندما حضر إلى باريس للدراسة في الكلية اليسوعية السابقة Du Plessis، طُلِب منه أن يكتب مقالة في وصف الحصان المثالي. وفي الإجابة، امتدح لافايت حيواناً يثب وينتصب ويخلع راكبه حالما يحس بالسوط ـ نص غير مرتبط بالموضوع جُلِد في حينه بسببه.

إن عصيان لافايت الإبداعي في الكلية أكثر أهمية من طابعه القصصي. فمنذ أيام معلم الركوب العظيم بلوفينل Pluvinel في عهد هنري الرابع Henry IV، كان إتقان ركوب الخيل (الفروسية) إعداداً مجازياً وواقعياً لمزاولة السلطة العامة. ومن ريشيليو Richelieu وما بعده تعلمت سلسلة متتابعة من الحكام من خلال موازاة تعليمية بين براعة ركوب الخيل وفن الحكم أهمية ضبط النفس وترويض الروح المعنوية واستعراض القوة. لكن خلال ستينيات القرن الثامن عشر، قدم تمجيد الإحساس المتزايد نموذجاً بديلاً للسلوك الاجتماعي وحتى السياسي مع تأكيده المثير على الطبيعي بدلاً من التعليمي، والحرية بدلاً من الانضباط،. وما بدأ مع الأفعال الطفولية من تعاطف مع الحيوانات المتمردة لن يدوم طويلاً بعد أن أزهر في تفضيل معمم للحرية على السلطة، والتلقائية على الحساب، والصراحة على المكر، والصداقة على المرتبة الاجتماعية، والقلب على العقل، والطبيعة على الثقافة. كان ذلك ما يصنع المزاج الثوري. كتب لافايت إلى أدريان فيما كان على وشك الإبحار إلى تحقيق النصر:

ستعترفين، يا قلبي، أن العمل والحياة من أجل ما ارتبطت به مختلفة جداً عن تلك التي حكمت مصيري في تلك الرحلة الإيطالية التافهة (رحلة كبيرة للمواقع الثقافية). إنني أدافع عن تلك الحرية التي أقدسها، حراً بكل ما للكلمة من معنى في شخصي وأذهب كصديق لأعرض خدماتي إلى أكثر الجمهوريات إثارة للاهتمام، وأقدم للخدمة إخلاصي وإرادتي الطيبة دون طموح أو دافع خفي. فالعمل من أجل مجدي الشخصي سيغدو عملاً لسعادتهم.

مثلت أمريكا لمعاصري لافايت الكثر من النبلاء الفرنسيين رؤيتهم المثالية تماماً لمجتمع أفضل من كلبية[1] وعجز العالم القديم. وصف الأب ديلابورت Abbé Delaporte مشاهد طبيعية على نحو رائع وحتى الجانب الهمجي صُوِّر على نحو مثالي مستحيل على مسرح باريس في مسرحيات مثل بيلاردون دو سوفينز هرزا أو إلينوا Billardon de Sauvigny's Hirza ou les Illinois ، وأُضفيت على مستوطنيها إلى هذا الحد أو ذاك خصائص البراءة والصراحة الفجة والحرية التي يُعجَبون بها ويُكبِرونها. وعند وصوله إلى تشارلستون في صيف عام 1777، زعم لافايت أنه رأى هذه الأخوية الصادقة في السكان المحليين (ربما عزز هذا الانطباع واقع وجود بروتستانتي فرنسي.) وكتب إلى أدريان: «إنهم ودودون كما جعلني حماسي أتصورهم. ما يسود هنا هو بساطة في التصرف ورغبة بالالتزام وحب للوطن والحرية ومساواة بسيطة. الأكثر غنىً والأشد فقراً في المستوى نفسه ورغم ذلك توجد ثروات هائلة. أتحدى أي شخص يمكنه أن يجد فارقاً ضئيلاً في ما يحمله كل منهم للآخر.»

في جورج واشنطن، كل هذه الصفات المكتوبة، وأضيف إليها في عيني لافايت مزايا أبطال العصور القديمة: الرواقية، الصبر في الشدة، الشجاعة الشخصية والتضحية الذاتية، عدم القابلية للفساد، ضعف الطموح الشخصي وازدراء الشقاق والتآمر، وسمو الروح، حتى المتحفظ القليل الكلام الذي يوبخ الثرثرة الكاذبة في سلوكيات العالم القديم. في الحقيقة، يرجع جزء كبير من قرار لافايت البقاء في أمريكا، رغم الإحباط لعدم أخذه الحصة المشتهاة، وفي الوقت الذي فيه كان كثيرون من مرافقيه الفرنسيين يعدون للعودة إلى الوطن، إلى عزمه المتقد على إثبات نفسه في عيني شخصية والده. لقد نزف في معركة في براندواين كريك Brandywine Creek، وشارك في مشقات فالي فورج

(1) المذهب الكلبي: مذهب فلسفي يوناني آمن معتنقوه أنّ الفضيلة هي الخير الأسمى. «المترجم».

ووافق على أن يقود مهمة لا طائل منها شمالاً إلى كندا عبر ثلوج الشتاء. كان متعلقاً بواشنطن، وأخذ على عاتقه عبء الدفاع عن الجنرال ضد الهجمات المغرضة من منافسيه ومنتقديه في الجيش القاري. وازداد سخطاً على كل من يتجرأ على مقارنة الجنرال غيتز Gates بواشنطن، وإذا كان ثمة شيء ما، فقد عبّر عن هيامه الساذج في دفاعه عن أي شيء يُكتَسَب من الإنكليز في ما يلي:

أية مسيرات، أية حركات، ماذا فعل لمقارنته بذلك البطل الذي طارد على رأس 1600 فلاح في الشتاء الماضي جيشاً قوياً منضبطاً عبر بلد مفتوح وشاسع ـ إلى ذلك الجنرال العظيم الذي ولد ليحرر وطنه ويحرز إعجاب العالم؟ أجل، يا سيدي، تلك الحملة نفسها في الشتاء الماضي سيفعل أحد أجمل الأشياء في حياة سيزر Caesar وكوندي Condé وتورين Turenne وهؤلاء الرجال الذين لن يستطيع أي جندي أن يلفظ أسماءهم دون تمجيد حماسي.

وقد غدا واشنطن منعكساً في عين الابن المتبنى الشغوفة مثال الفضائل كافة: العسكرية والشخصية والسياسية. وإلى درجة مثيرة شابه القائد المثالي لأنه أيضاً بدا أنه الأب المثالي؛ وعلى نحو متزامن قوي ومتعاطف وعادل شديد التدقيق بالتفاصيل، الجنرال ـ المواطن الذي يهتم بشكل أبوي برجاله وفي نطاق الأمة الجديدة. وعلى الرغم من ذلك فقد كان واشنطن مربكاً بالبداية بحماس إخلاص لافايت التبعي، وقد عوّد نفسه، وليس دون بعض المتعة، لدور الوالد البديل. وعندما جُرِح لافايت حرص على أن يراه طبيبه الشخصي. واهتم مباشرة وفعلياً بزوجة لافايت وعائلته وواساه بصدق بموت ابنته في فرنسا. وفي المقابل، طرزت أدريان لافايت مئزراً ماسونياً للجنرال (لأن هذه كانت رابطة أخرى شارك فيها الرجلان، فقد انضم الماركيز بحماس كافٍ إلى محفل سان جان دو لاكانديور Saint - Jean de la Candeur عام 1775). وقد ارتدى واشنطن المئزر عندما تراس العمل الماسوني الأعلى بوضع حجر الأساس للكابيتول. وليس مدهشاً أن سمّى لافايت ابنه الأول (الذي ولد عام 1780) جورج واشنطن «تقديراً للإجلال والإعجاب لصديقي العزيز». (وسمّى إحدى بناته فرجينيا.) ولاحقاً سيُرسَل جورج الصغير إلى مونت فرنون Mount Vernon ليُدرّس باسم سميه عندما تقيد مسؤوليات لافايت الأبوية بسجن نمساوي. ومع الوقت، حقاً، غدا خط الأبوة معقداً. ففي رواية مشكوك بصحتها يزعم امرؤ أن ضابطاً أمريكياً شاباً عندما كان على وشك عودته إلى الوطن من فرنسا، زار السيدة لافايت ليرى ما إذا كان يستطيع إحضار رسائل إلى زوجها، وزُعم أن ولدهما الصغير أجاب، «قدِّم حبي لأبي لافايت وأبي واشنطن».

II ـ أبطال لتلك الأزمنة

إذا كانت هالة سلطة واشنطن الأبوية قد أثرت على لافايت، فستكون أكثر أهمية من السيرة الذاتية الخالصة، لأنها قدمت للفتى الغني السريع التأثر نموذج دور بطولي سيؤثر على شخصيته العامة في لحظات حاسمة في التاريخ الفرنسي، ليس أقلها عام 1789 وعام 1830. ومع ذلك كان لسمعة الجنرال الأمريكي شهرة أوسع وأكثر فعالية كتجسيد لنوع جديد من الجندي المواطن: تقمص أبطال الجمهورية الرومانية. وكان ثمة عنصر هام إضافي في هذا الإغراء الاستثنائي في فرنسا (كما في كل مكان آخر في أوروبا). فدين الإحساس العلماني، المستورد من إنكلترا جزئياً، بتأكيده على الحقيقة العاطفية والصراحة والطبيعية، اكتسب شكله التعريفي في كتابات روسو العاطفية في أوائل عقد ستينيات القرن الثامن عشر. وقد كانت إحدى النتائج الهامة الكثيرة لهذه الثورة في الذوق الأخلاقي تطهير نزعة الأنا. ومع ارتقاء النزعة الرومانسية، غدت عبادات الشخصية العاطفية ممكنة. وعلى نحو متناقض ظاهرياً، بقدر ما تمحى ذات الشخص ويكون أكثر تواضعاً تكون شهرته أقوى. وفي هذه الصيغة كانت الوطنية والأبوية تمتزجان على نحو لا سبيل إلى فصمه.

صار حدث أسجيل Asgill قضية متداولة. فالكابتن أسجيل كان جندياً بريطانياً، أُخِذ أسيراً في يورك تاون وحكم بالإعدام انتقاماً للتعجيل بشنق الكابتن الأمريكي جوشوا هدي Joshua Huddy الذي أقدم عليه الملكيون. لم يكن واشنطن راضياً عن هذا الحكم وقام بتأجيل التنفيذ، لكنه كقائد شعر في البداية أنه غير قادر على نقضه. لم يفعل ذلك إلا بعد أن ذهبت والدة أسجيل لرؤية فرجين لتتوسل إليه أن يتدخل، وعندما أظهر الوزير الفرنسي رسالة الأم بدوره للملك والملكة، خفف واشنطن العقوبة. ولا حاجة للقول، غدت قصة أسجيل ظاهرة صغيرة في فرنسا، وتحولت إلى رواية عاطفية وقصائد ومسرحية مثيرة للاهتمام كتبها بيلاردون دي سوفيني (Billardon de Sauvigny الذي ألّف لاحقاً خلال الثورة دراما واشنطن) التي تحول فيها المشهد إلى أسطورة تتارية وظهر واشنطن متنكراً بهيئة «وزير خان». ومهما يكن التنكر رديئاً، فسطور «وزيرخان Wazirkan» التي تقول: «لقد أمرت الجنود و(يجب) أن أطيع القوانين je commande aux soldats et j'obéis aux lois» كشفت عن المأزق الأشد خطورة لدى البطل المعاصر: كيف ينظم ويدير القيم العامة والخاصة، وكيف يوفق بين العدالة والعاطفة.

كان هذا الموضوع العام «الحكايات أخلاقية» كثيرة قُدِّمت على مسرح باريس في

ستينيات وسبعينيات القرن الثامن عشر، والمحاباة أعطيت لإعادة إنتاج مجموعة الأدوار التراجيدية الكلاسيكية لراسين Racine وكورناي Corneille. وزودت بعض أعمال الرسم الأكثر إثارة للسخط لدى غروزيه Greuze بقوة القصة، مثل لوحة «معاقبة الابن الشرير The Wicked Son Punished». وبيّن جاك لويس ديفيد Jack - Louis David. في عمله بيلازاريوس Belisarius عام 1779، اللوحة التي حثت ديدرو على ملاحظة أن الشاب الفنان قد أظهر أن لديه «روحاً» امتلكت في أعماقها النزاع بين الآباء الوكلاء الخيرين والأشرار. لأن موضوعها كان اعتراف جندي شاب بخدمات الجنرال بيليزاريوس الذي تحول إلى شحاذ أعمى بسبب نكران الجميل ووحشية الإمبراطور جوستنيان Justinian. النزاع بين العائلة التي تشعر بالواجب الوطني الذي طفا ثانية إلى السطح في رائعة الفنان نفسه ثانية قسَم الهوراتيين Oath of Horatii، التي ظهرت في معرض السنتين للوحات الفنية في باريس المعروف باسم الصالون Salon في الوقت نفسه الذي عرضت فيه مسرحية بيلاردون دي سوفيني أسجيل في ثياتر فرانسيز. وكل من مسرحية موت سقراط Death of



الصورة 9، للرسام جاك لويس ديفيد بيليزاريوس، عام 1781

Socrates، حيث يحزن طلاب المعلم على الانتحار الوطني لمعلمهم، والأكثر تحديداً مسرحية بروتوس يستلم جثامين أولاده من الموظفين الرومانيين Brutus Receiving the Bodies of His Sons from the Lictors، حيث ضحى الأب الصالح بعناد بأبنائه في سبيل الجمهورية الذي لخص هذا الموضوع بالطريقة الأكثر قسوة. لكن فيما أخضع الخط الرسمي الذي اتخذه اليعاقبة الثوريون شعور الشخص والعائلة للدافع العام الوطني، استسلمت قوة مناشدة واشنطن (وغير مرجح، فرجين) لدموع أم طاعنة في السن. السيدة أسجيل لماري أنطوانيت، أم لأم، ولويس لواشنطن، أب لأب ـ كان التأثير العاطفي لا يُقاوَم.

المسافة من الأب إلى أرض الوطن مجرد خطوة قصيرة. وتجسيد واشنطن لكل منهما في فرنسا مدين بإغرائه إلى رغبة أكثر عمقاً وشمولاً لدى جيل جديد من الأبطال الوطنيين. لقد غدا بعض الارستقراطيين الشباب سياسيين لأنهم بدقة لم يروا في شخص البلاط والملكية (لاسيما في السنوات الأخيرة من حكم لويس الخامس عشر) الفضائل المناسبة للصرامة الوطنية. في الحقيقة، اتهموا أحياناً البلاط بتلطيخ سمعة الوطنيين لأسباب نفعية وضيعة والتهرب من المسؤولية الذاتية. فالشاب لالي تولندال Lally - Tollendal، على سبيل المثال، سار على نهج أن يصبح ارستقراطياً ثورياً من خلال حملته للدفاع عن سمعة أبيه، الذي حوكم وأعدم كبش فداء من أجل الفشل العسكري الفرنسي في الهند. كان رهيباً جداً هذا العار الذي نشأ فيه الصبي في تجاهل مطلق لأبيه. حتى كنيته غيِّرت إلى تروفيم Trophime، اسمه المختار، كطريقة لتجنيبه العار. ومع ذلك، اكتشف الحقيقة بطريقة غير متعمدة وهو في الخامسة عشر من عمره من رفيق قديم لوالده، وكما كتب في ما بعد، «أسرعت إلى السجلات القضائية»

لأقدم له (لأبي) إجلالي الأول ووداعي الأبدي، لأدعه أخيراً يسمع صوت ابنه بين سخريات جلاديه وأعانقه على المشنقة حيث قضى.

بعد عشر سنوات من حملة عنيدة لرد الظلم، التفت العهد الجديد للمظلمة. وفي عام 1778، بعد نقاش في 32 جلسة، ألغى المجلس الملكي للويس السادس عشر الإجراءات ضد لالي سنيور Lally Senior، كان يجب أن تُعرَض القضية على محكمة الرون Rouen لنقض الحكم بشكل رسمي. وعندما أعلن خبر قرار المجلس، ذهب لالي لرؤية فولتير، الذي أُدرِج في الدعوى القضائية، والمحارب القديم، على فراش موته، وضع يديه على رأس الشاب النبيل كمشهد أخير في المباركة الأبوية.

كانت قصة جيدة كفاية للرومانيين، الذين كان يوجد باستمرار من يقارنهم بضحايا الظلم الإمبراطوري. (غالباً ما ماثلوا بين مصير لالي وإنكار بيليزاريوس من جوستنيان). لقد تشرّب الشباب من جيل لافايت ولالي فضائل الجمهورية الرومانية في المدرسة التي قدمتها كتب تاريخ بلوتارك Plutarch وليفي Livy وتاسيتس Tacitus. غير أن تصورهم لمثال الفضيلة لم يكن محدوداً على نحو حصري بالنماذج المقدمة في العصور القديمة. فقد زعم المحامي رَسِل Rossel في كتابه الوطنية الفرنسية Histoire du Patriotisme Français المنشور عام 1769، أن العواطف الوطنية «أكثر حيوية وكرماً في المواطن الفرنسي منها في معظم الوطنية الرومانية». كانت ثمة إشارات واضحة بعد هزائم حرب السنوات السبع، إذا كان البحث الانتقائي في حوليات التاريخ الفرنسي، إلى الأبطال الذين مثلوا أزمنتها الأكثر سعادة. كان سان لويس مفضلاً دائماً، لكن شيئاً ما قريباً إلى عبادة هنري الرابع نما بين أفراد حاشية قصر فرساي الأصغر سناً. وقد احتفي بلويس الثاني عشر على نحو خاص لأن مجلس الطبقات أعلنه «أب الشعب» عام 1506. وكان الرضا على نحو مساوٍ يتمثل في الاهتمام المتجدد بوليم الفاتح William the Conqueror، الذي تحول إلى مثال في لوحة لبيسي Lepicie التاريخية الهائلة الحجم بطول 26 قدماً ـ الأكبر بلا منازع في معرض الصالون عام 1769.

كان نشر المجموعة الفنية التاريخية صور العظماء المشهورين في فرنسا حدثاً هاماً في خلق نصب تذكاري للأبطال الفرنسيين الأموات حصراً، ليس أقلها لأنها تستمد معظمهم من تاريخ العصور الوسطى، وتفضل الشخصيات الوطنية على تلك النماذج من العصور الرومانية القديمة الأكثر بعداً. ولم يكن ثمة احد من آل بوربون إلا هنري الرابع. وفي حين كان تورين Turènne وكوند Conde حاضرين، لم يكن لويس الرابع عشر كذلك. وقد وسعت لوحات المشاهير معاييرها في ما يتعلق بمن يستحق أن يشمل الحدث والشخصيات من الحياة المدنية مثل المستشار أغويسو Aguesseau، الذي تم تمجيد ذكراه لِـ «إنقاذه فرنسا من الجوع» في بداية القرن الثامن عشر، والفيلسوف فونتنيل Fontenelle الذي «أمعن التفكير في تنوع العوالم». وقد امتدح الأبطال الأكثر حداثة من أمثال فرانسو دي شيفرت François de Chevert بطل الانسحاب من براغ في حرب الخلافة النمساوية لأصولهم المتواضعة وقربهم الجدير بالتقدير من الجندي العام والترقي الذي اعتمد «على الجدارة أكثر من المداهنة أو التآمر.» والخطاب الذي كتب في كنيسة سان أوستاش - Saint Eustache بباريس في تقريظ دي شيفرت المقتبس في الكتاب، يبدأ بـ «دون أسلاف نبلاء، دون ثروة، دون دعم قوي، يتيماً منذ أن كان رضيعاً، دخل في الخدمة منذ ربيعه

الحادي عشر...» وضمت النساء لبطولتهن الاستثنائية، لاسيما عندما توجّهن، كما في حال جان دارك Jeanne d'Arc، ضد البريطانيين. وعلاوة على ذلك، فإن المدائح الأكثر مبالغة ربما حُفِظت لهؤلاء الذين قتلوا في المعركة ضد الخصم المكروه، ولا أحد أكثر سمواً من الماركيز دي مونتكالم de Montcalm الذي قتل على مرتفعات أبراهام في كويبك. كانت نبرة العمل العامة متفائلة إذا لم تكن تمجد نصراً وتبشر بعصر وطنية جديد يظهر فيه الأبطال بمعارضة غطرسات البلاط ببساطتهم ورصانتهم ورواقيتهم. كان لويس السادس عشر نفسه واقفاً على رأس مجموعة متنوعة من المشاهير دون ملمح غرابة ساخرة يحتفل بصفته مانح الاستقلال الأمريكي بصحبة فرانكلين وجورج واشنطن وتشخيص أمريكا، التي تظهر تحمل عالياً قبعة الحرية وتدوس بقدميها على وحش إمبراطوري بريطاني أكثر تنمراً من الأسد.

في هذه الحملة لخلق مجموعة أسماء وطنية حديثة، لم يعمل أحد بمشقة لاستعادة النماذج الفرنسية التاريخية الكلاسيكية أكثر من الكاتب المسرحي بيير دي بيلوي Pierre de Belloy. ففي مقدمة مسرحيته، حصار كاليه The Siege of Calais، (المكرسة للويس الخامس عشر في مظهر بعيد الاحتمال نوعاً ما لـِ «أبو الوطن»)، صاغ دي بيلوي مشروعه لإصلاح موضوع المسرحية التاريخية لتشمل التاريخ الفرنسي. هو الوحيد الذي فكر أن ذلك يجب أن يغدو مهمة تعليمية.



الصورة 10، شيفرت يلهم الجرأة والمثابرة

«فرانسوا دي شيفرت» من مجموعة صور الناس العظام ذوي الشهرة

نعرف كل شيء تماماً كما قام به قيصر وتيتوس Titus وسيبيو Scipio، ولكننا نجهل الأعمال الأكثر شهرة لشارلمان Charlemagne وهنري الرابع وكوندي العظيم. اسألوا طفلاً يغادر المدرسة عمن كان الجنرال المنتصر في ماراثون. . . وسيقدم لكم الجواب الصحيح، وأسألوه عن الملك أو الجنرال الفرنسي الذي ربح معركة بوفين Bouvines ومعركة إيفري ...Ivry وسيبقى صامتاً. . .

قد يصبح المرء قادراً على أن يلهم الأمة الاحترام والاحترام الذاتي، الذي من خلاله وحده يمكنها أن تعود إلى ما كانت عليه يوماً مضى باستثارة احترام فرنسا لرجالها



الصورة 11، استقلال الولايات المتحدة استقلال أمريكا، يقول النقش على قاعدة التمثال: أمريكا والبحار تعترف بك، يا لويس، أنك محررها». من مجموعة الرجال العظام ذوي الشهرة

العظام الذين أنجبتهم. فالروح تقاد من خلال الإعجاب بمحاكاة الفضائل... (وهي يجب أن تكون) التي لن يقول المرء بعد الآن، عند مغادرة المسرح، «إن الرجال العظام الذين رأيتهم للتو ممثلين هم رومان، وبما أنني لم أولد في ذلك البلد لا يمكنني أن أشبههم». في حين يجب أن يقال، أحياناً على الأقل، «لتوي رأيت بطلاً فرنسياً. ويمكنني أن أكون مثله».

وفي مقطع آخر ذهب دي بيلوي أبعد بمهاجمة الولع بما هو إنكليزي:

هل يجب على المرء أن يفترض أنه بمحاكاة الجيد أو السيئ في عرباتهم وألعاب ورقهم ونزهاتهم ومسرحهم وحتى ما يفترض أنه استقلالهم يجب أن نقدر احترام الإنكليزي عالياً؟ لا، يجب أن نحب ونخدم وطننا كما يحبون وطنهم...

لقد بذل دي بيلوي قصارى جهده لترويج هذا المشروع عبر أعماله المسرحية، فكتب سلسلة من الأعمال الميلودرامية التاريخية التي، عند النشر، دعمها (بما كان في ذلك الوقت) بمجموعة من الملاحظات التاريخية المؤثرة. وقد كان، كما بيّن منتقدوه الأكثر قسوة مثل لا هارب La Harpe، المحرر الشديد الضراوة في مجلة الأدب والسياسة مُعَوَّقاً بموقف وسطي لا يمكن تخطيه ككاتب مسرحي، لاسيما عندما يأتي الأمر إلى تطوير الشخصية. ففي غاستون وبايارد Gaston et Bayard، التي تقوم بشكل مهلهل على الصداقة العاصفة لغاستون دي فوا (Gaston de Fois دوق دي نيمور Duc de Nemours والفارس بايارد (وردة فروسية النهضة الفرنسية)، حيث شكا لا هارب على نحو منطقي من أن دي بيلوي أعطى الشاب غاستون كل خصائص الرجل الصارمة في أواسط عمره ولبايارد الأكبر عمراً صفات الشباب المتهور. غير أن تصنيف مسرحياته أنها من الدرجة الثانية بشكل واضح لم يمنع نجاحها الشعبي. كانت مسرحية حصار كاليه بلا شك هي ما عنت أكثر لِ دي يبلوي كتمرين في التعليم الوطني، ليس أقله أنها كانت مسرحية مأخوذة من تاريخ مدينته الأصلية. وعندما نشرت المسرحية كان كبرياؤه الخاص أن يطبع تحت اسمه (وفوق لقب عضويته في الأكاديمية الفرنسية) أنه مواطن من كاليه CITIZEN OF CALAIS. المسرحية ـ التي تصرفت بحرية مع التاريخ فحذفت التوسط المشهور للملكة فيليبا Queen Phillippa مع إدوارد الثالث Edward III من أجل حياة المواطنين ـ وهذا شيء من كراسة دعائية للمواطنة الوطنية، نُقِل من روما القديمة إلى فرنسا العصور الوسطى. لم يكن ذلك من قبيل الأهمية العرضية، طبعاً، أن الوغد في العمل هو تقريباً أحد أعضاء الأسرة المالكة العنيد إدوارد الثالث، ولا أن الأبطال هم يوستاشي دي سان

بيير Eustache de Saint - Pierre، رئيس البلدية البسيط ومواطنيه الخمسة المحليين، الذين عرضوا أن يضحوا بأرواحهم لتحويل حنق الملك الإنكليزي عن بقية أبناء بلدتهم. ومرة أخرى، كانت علاقة الأب ـ الابن في مركز الدراما، منذ أن استبدل مشهد فيليبا بمقطع يستدر الدموع الذي توسل فيه ابن سان بيير (الذي يسمى على نحو غير قابل للتصديق أورليوس/أوريل Aurelius/Aurèle إلى الملك العنيد أن يذهب إلى الخازوق أولاً بعيداً عن مرأى أبيه المثكول. والذروة في هذه اللحظة، طبعاً، أن إدوارد يلين مشدوهاً بروح نكران الذات وشجاعة الشهداء الوطنيين.

لاقت مسرحية دي بيلوي نجاحاً مدهشاً. ففي عام 1765، على مسرح كوميدي فرانسيز، قدمت عرضاً مجانياً اجتذب جمهوراً من كل أوساط مجتمع باريس، بما فيهم الحرفيين وأصحاب المتاجر. شاهد المسرحية 19,000 شخص في دورة عرضها الأولى، الذي لا شك كان رقماً قياسياً لأنه لم يقاطَع بشجار جدي بين الممثلين ـ وهو إحدى

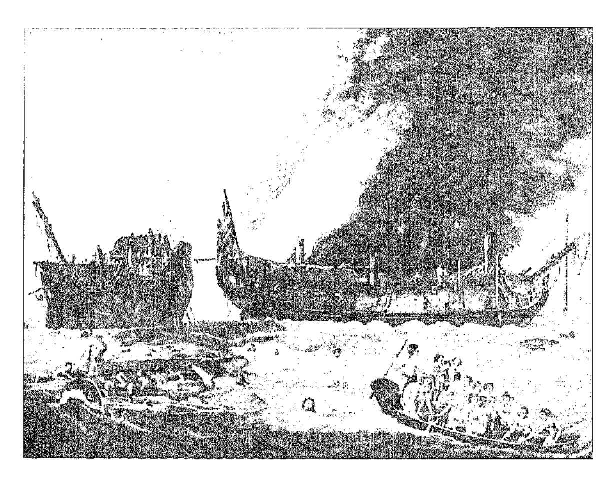


الصورة 12، من أعمال بيير دي بيلوي تحت صورته ألقابه الشرفية كأكاديمي ومواطن من كاليه

المشكلات العادية في مسرح القرن الثامن عشر. وفي تلك السنة نفسها، كانت مسرحية حصار كاليه، المسرحية الفرنسية الأولى التي تُنشَر في أمريكا الفرنسية، حيث الكونت دستيانغ Comte d'Estaing، حاكم سان دومينيغو Saint - Domingo هاييتي الآن، أمر بتوزيع طبعة خاصة مجاناً إلى الناس وأفراد الحامية العسكرية المحلية. وعلاوة على ذلك وُقِّت عرضها الأول في الأنديز الغربية الفرنسية، في 17 تموز مع اجتماع للميليشيا التي خاطبتها بشكل واضح. ولئلا تضيع الفكرة، فإن الأضواء في تلك الأمسية عرضت على نحو بارز قصائد مناسبة بشكل خاص من المسرحية.

جاء في نعي دي بيلوي بعد موته عام 1775، «لقد كشف للفرنسيين سر حبهم للدولة وعلمهم أن الوطنية لا تنتمي إلى الجمهوريات وحدها»، كان ذلك عملاً كبيراً، ولا يبدو مرجحاً أن الكاتب المسرحي المأجور قد أنجز شيئاً كثيراً، غير أن انشغاله الكامل، على الأقل، واستخدامه العرضي لمفردات مثل وطن ووطني وأمة ومواطن، تطلعت مباشرة إلى مخزون مفردات التحريض الثورية وعلاوة على ذلك، ففي ايقاع دي بيلوي المتهادي يمكن أن توجد المعادلة الغامضة بين «الحرية» و«الوطنية» التي حفزت الولاء للقضية الأمريكية بين أوساط النبلاء الشباب الليبراليين.

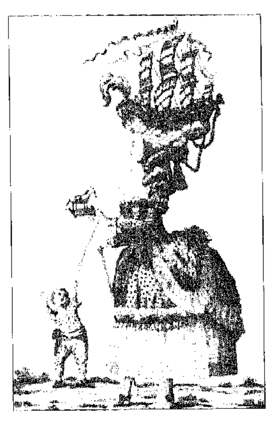
خلال مسار الحرب كان ثمة فرص للانتقال من عالم الميلودراما التاريخية إلى الأعمال البطولية المعاصرة. وكان المثال الأكثر إثارة للإعجاب (لكن بطريقة فردية) في الميثولوجيا الوطنية الجديدة هي قضية بطل الأسطول الفارس دي كوديك Chevalier du Couëdic. سيعطيه السير دو كوديك دي كيرغولر Sieur du Couëdic de Kergoaler الأهمية الكاملة لاسمه البريتوني، ضابطاً ناجحاً خدم في الأسطول منذ كان في السادسة عشر من عمره. أُسِر خلال حرب السنوات السبع لدى البريطانيين ـ وهو حافز دائم للدفاع الشخصي والوطني. انضم لاحقاً إلى صديقه بريتون كيرغولن Breton Kerguéulen في إحدى الرحلات المبحرة إلى أوستراليا، التي استعادت للفرنسيين معنى أنهم كانوا في كل المعاني أنداد البريطانيين في الكشوفات الجغرافية الإمبراطورية. وفي صباح 5 تشرين الثاني عام 1779 قاد دو كوديك مركبه الشراعي سرفيلنس La Surveillance خارج برست Brest مباشرة إلى فرقاطة بريطانية هي كويك The Quebec، التي تستطلع الشاطئ. وبدلاً من أن تلجأ السفينتان إلى انسحاب سريع أو تناوران بطريقة غير مجدية مع الريح من أجل فائدة هامشية، اشتبكت السفينتان في قصف متبادل قاسٍ لا يرحم لست ساعات ونصف. وعند الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر انفجر ما تبقى من كويبك، تاركة سرفيلنس



الصورة 13، لوحة للمعركة بين الباخرتين لاسورفاينس وكويبك

المنتصر البروسي (المنتصر بثمن صعب). فيما قطرت لاسورفاينس إلى بريست وقد فقدت صاريها الذي تحطم إلى قطع تحمل 43 بحاراً بريطانياً أُنقِذوا من الغرق، كان ربان الباخرة لا يزال يرتدي حذائيه المثبتين بإبزيمين وجوارب حريرية مصاباً بجروح خطيرة إلى درجة كان يجب أن يُنقَل إلى البر. والحشود التي تنتظر في المرفأ التي كانت تتوقع أن تهتف لأبطالها، راعها مشهد الفوضى المجبولة بالدم الذي انتهى إليه طاقم الباخرة والباخرة جراء المعركة الضارية.

توفي دو كوديك كما ينبغي متأثراً بجراحه بعد ثلاثة أشهر، لكن ليس قبل أن يغدو رمزاً للثبات الوطني الذي وُلِد ثانية في فرنسا. كان هناك انتصارات بحرية هامة انتشرت على نطاق واسع قبل ذلك، والأكثر شهرة هو نجاح بِل ـ بول Belle - Poule في الدفاع عن أريثوزا Arethusa عام 1778 ـ النزاع الذي أطلق تسريحة الشعر بِل ـ بول (الدجاجة الجميلة): النساء العصريات اللواتي سرَّحنَ شعورهن بشكل سفن صغيرة تتهادى على أمواج عقصات الشعر المبَودَر. غير أن شراسة قصة سرفيلنس ذاتها أعطتها قوتها



الصورة 14، تسريحة شعر «الدجاجة الجميلة»

المأساوية. وفي الوقت الذي أُحبِط فيه غزو بريطانيا الموعود زودت القصة البطولية الفرنسيين بمثال للجلد البطولي فارس قديم وحديث، شجاع ورحيم. وفي التأبين الجنائزي الذي قُدِّم في مجلس بريتاني تم التأكيد على الخصائص التي كان أنصار الحسية ورقة الشعور أكثر إعجاباً بها. وهكذا وُصِف دو كوديك بأنه «محسن وصديق كريم ومعلم طيب مع خدمه الذين أحبوه ووقروه؛ والأب الأكثر رقة، الذي عندما كان في كيمبرلي قضى معظم أوقات صباحه يلعب مع أطفاله الذين هاموا به». ومن جهتها ردت الحكومة الفرنسية في مزاج حماس العائلة نفسها معلنة أن الأرملة كوديك سوف تتلقى تقاعداً قدره ألفي ليفر في السنة وكل طفل 500 ليفر اعترافاً بمساهمة والدهم الفريدة للوطن. وبأوامر الملك الذي كان مهتماً إلى حد حماسي بالمسائل البحرية، كان يجب أن يبنى ضريح ضخم في كنيسة سان لويس في بريست مع نقش خاص مصمم لتعليم طلاب الكلية البحرية المحلية: «أيها الشباب في البحرية، أكبروا وقلدوا مثال كوديك الشجاع». وعندما اقترح سارتين وزير البحرية برنامجاً كاملاً من اللوحات التي تحتفي بانتصارات الحرب الأمريكية صممت معركة دو كوديك لأن تكون القطعة المركزية.

إغراء دو كوديك كنوع من المغامرين البحريين الجدد هام. لأن البحث عن جذور



الصورة 15، صورة لو كوديك

الثورة الفرنسية يجب أن يكون على القمة بدلاً من أي وسط متخيل في المجتمع الفرنسي. وفي حين أن أي بحث عن أي برجوازي مستاء سيكون عديم جدوى، فإن حضور ارستقراطي «وطني» شاب مستاء أو على الأقل محبط واضح تماماً من تاريخ المشاركة الفرنسية بالثورة الأمريكية. فتلك الثورة لم تخلق النزعة الوطنية الفرنسية، كما يفترض بعضهم أحياناً، بل الأحرى، أعطت تلك الوطنية الفرصة لتعريف نفسها في لغة «الحرية» وأن تثبت نفسها بنجاح عسكري يثير الإعجاب. كان ذلك بين نوابيه وسيغر - وحتى في قلب البلاط نفسه - أن غدت تلك العواطف أكثر اتقاداً في سبعينيات القرن الثامن عشر. والترحيب بلافايت عند عودته من أمريكا عام 1779 دليل على ذلك. من شاب ريفي متهور على نحو مضحك تحول، في أعين الكبار، إلى مثال للفارس الفرنسي المعاصر. وواقع أنه وضع تحت الإقامة الجبرية رمزياً لأسبوع كامل في باريس في بيت عائلة زوجته لتهوره في الذهاب إلى أمريكا على الرغم من عدم موافقة الملك، لم يخدم إلا تمييز السمة الوطنية الجديدة من التقاليد المملة. وفوق ذلك، كان لديه آنئذٍ الدفاع الأفضل الممكن حيث توصلت فرنسا رسمياً إلى اتفاقية مع الكونغرس، كان لديه الدفاع الأفضل الممكن. وقد كتب إلى الملك في مزاج متواضع لكنه يتسم بتبرئة الذات الثابتة العزم، «حبي لبلدي، ورغبتي في أن أشهد إهانة أعدائه... هي، يا سيدي، الأسباب التي حددت الدور الذي لعبته في القضية الأمريكية».

أومأ لويس بعطفه من خلال دعوة لافايت إلى الانضمام إليه في الصيد، وماري أنطوانيت، التي صرفته ليس من زمن بعيد باعتباره شخصاً ريفياً مغروراً، لم تملك الآن إلا أن ترفع مكانته. وكان بتدخلها أن مُنِح ترقية كبيرة في المكانة ليغدو قائد سلاح الفرسان الملكي (في سن الحادي والعشرين من عمره). وقد امتدت شهرة لافايت أبعد من البلاط إلى الوسط الباريسي الأوسع، المتلهف للاحتفال بالأبطال الشباب. والسيدة كامبان Campan وصيفة الملكة، كتبت تلك الأشعار في مسرحية دي بيلوي غاستون وبايارد وأخذها رواد المسرح كمديح لمغامرهم.

لقد أُعجبت بحصافته واحببت شجاعته

ومع هاتين الفضيلتين لا يعرف المحارب عمراً.

كتبت السيدة كامبان: «لقد نالت هذه الأشعار الإعجاب والتصفيق وطُلب أن تعاد مرة وأخرى في مسرح فرانسيز... لم يكن ثمة مكان، لم تنل فيه المساعدة التي قدمتها الحكومة الفرنسية إلى قضية الاستقلال الأمريكي التصفيق بنشوة».

شهرة لافايت لحظة هامة في صياغة وطنية جديدة، أصّلت وحدّثت نوعاً كان

محصوراً سابقاً في المثل الكلاسيكية. وقد أعطت أيضاً تلك الوطنية لوناً أيديولوجياً مميزاً مهما كانت مسحته ضعيفة. وسيكون من السذاجة أن نتخيل أن الشعبية وحدها استطاعت أن تدفع فرنسا إلى طريق المزيد من التدخل العدواني في الحرب الأمريكية، لو لم يقرر فرجين وموريبا Maurepas، وزيرا الملك، ذلك النهج لأسباب لا تتوافق كلية مع «الحرية» أو أفكار عصرية خيالية أخرى. ولكن كما سنرى لاحقاً، في فرنسا لويس السادس عشر، كان أمن الولاية الوزارية والسياسات المرتبطة بالوزراء أنفسهم إلى حد ما محكوم برعايةٍ تمتد إلى ما بعد فرساي. وفي الأقل، فإن الحملة المنسقة للهتافات التي حيّت عودة لافايت والطبيعة الحسية الرقيقة لمآثره في أمريكا لم تلحق على الإطلاق ضرراً بهؤلاء الذين قرروا ضمن الحكومة الضغط على السياسة الخارجية باتجاه حرب شاملة ضد الإمبراطورية البريطانية.

لم يكن طبعاً لافايت نفسه من قام بالتنسيق. فقد كانت سمعته الشخصية وسمعة ذلك البطل البعيد «شبيه الإله» واشنطن أكثر إضاءة على نحو لا يدعو للإعجاب من ظاهرة الكهرباء التي ولدها بنجامين فرانكلين Benjamin Franklin. كان فرانكلين، على سبيل المثال، من أنجز فرصة كبرى لإعلان الكونغرس منح لافايت سيفاً رسمياً تقديراً لخدماته. كان لديه عمل الحرفي الباريسي الأكثر براعة على السيف، الذي حمل الشعار الذي يميل إليه لافايت دون قصد منه «ولم لا؟» نقشت على مقبضه. لكنه أضاف إليه أيضاً صورة القمر المشرق وشعار «Crescam ut Prosim» دعني أغدو أكثر قوة لخير الإنسانية) وهو شعار ربط قضية أمريكا بسعادة الإنسانية، موضوع بارز في دعاية فرانكلين الدبلوماسية. وكان على قراب السيف ميداليات رمزية تمثل فرنسا تصرع الأسد البريطاني وأمريكا تقدم أكاليل الغار للافايت، بالإضافة إلى مشاهد من مساهمات المركيز العسكرية. وقدم حفيد فرانكلين السيف للافايت باسم الكونغرس في معسكر الهافر La Havre أمر قُصِد منه أن يكون قوة عسكرية مكلفة بغزو إنكلترا. وقام لافايت بدوره جيداً في دعم الفرصة، معبراً عن أمله بأنه قد يحمل السيف إلى عمق إنكلترا» ـ أمل كان لابد من أن يحرم منه بسبب عدم قدرة الأسطول الفرنسي ورداءة طقس قناة العبور. وطبيعي شُحِن الحدث كله كما كان ببلاغة رمزية شديدة وبُلِّغ على نطاق واسع في الصحافة الفرنسية، وقُدِّم السيف والنقش الذي استندت إليه التصاميم ثانية للاستهلاك الشعبي.

كانت شعبية فرانكلين الشخصية واسعة جداً إلى درجة لم تبدُ أنها ضُخِّمت لتسمى هوساً. كانت حشود من الناس تحيط به حيثما ذهب، ولاسيما عندما كان يخرج من داره

في باسي Passy، فقد كان مظهره معروفاً ربما أكثر من الملك، وكان يمكن أن تُشاهَد صورته على الزجاج المنقوش والبورسلان المطلي والألبسة القطنية الملونة وعلب السعوط والمحابر، بالإضافة إلى المنتجات، التي يمكن التنبؤ بها أكثر، المطبوعات الشعبية التي تصدر من شارع سان جاك في باريس. وفي حزيران عام 1779، كتب إلى ابنته أن كل هذه الصور «جعلت وجه والدك معروفاً مثل قمر حقيقي... من عدد الدمى التي صنعت منه الآن يمكن القول حقاً إنه قد حُوِّل إلى دمية في هذا البلد (ثمة مجانسة شفهية بين دمية ووثن معبود في كلمة دمية)». وفي مناسبة شهيرة، دفعت سمعته الملك إلى الانزواء فطنة، لأنه، في محاولة لجعل ديان دي بوليناك Diane de Polignac تكف عن مدائحها للرجل العظيم اقتنى مبولة من البورسلان الفاخر رسمت صورة فرانكلين داخلها.

كان فرانكلين، طبعاً، مصمم شهرته الشخصية الغريبة، وعلى نحوٍ أوسع، القضية الوطنية، على شاطئ الأطلسي. وإذ أدرك أن الفرنسيين ينسبون إلى أمريكا صفات مثالية كمكان للبراءة الطبيعية والصراحة والحرية، استغل تلك الصورة المبسطة بكل ما فيها من شيء له قيمة. لم يكن الصاحبي Quaker النموذجي، لكنه استغل أيضاً سمعة استقامة وبساطة تلك المجموعة غير المفهومة تماماً ليقدم نفسه أكثر إلى الرأي الفرنسي الرفيع. وعرف فرانكلين أن هذه الصورة شيء غير قابل للفساد، وصديق فاضل قديم له مكانته لأنه بدقة أضاف عدم الارتياح للجوانب المزخرفة على نحو مترف في أسلوب البلاط ـ التي، في الحقيقة، كانت في طريقها إلى الزوال في الأسلوب الأكثر اعتدالاً للملك والملكة الجديدين. وهناك فإن اختياره العرضي لقبعة فريدة من فرو القندس ـ المستخدمة في كثير من طبعات صورته الترويجية ـ والمستمدة بشكل مباشر من صور جان جاك روسو الأولى. وقد نجح فرانكلين أيما نجاح بلفائف شعره البيضاء غير المسرحة ومعطفه البني العادي على نحو يدعو للانتباه، الذي كان يرتديه متعمداً في لقاءات البلاط، متأثراً على نحو واضح بالحس الشعبي. حيث وصفت السيدة كامبان Mme Campan بسذاجة ظهوره في البلاط: «في لباس مزارع أمريكي» لكنها أكدت على تعارض ذلك مع حاشية فرساي «ذات القلادات والمعاطف المزخرفة ولفائف الشعر المبودرة والمعطرة» بشكل صارخ. وقد ذهب المادح المأجور وكاتب اليوميات هيلارد دوبرتيل Hilliard d'Auberteuil أبعد، وعملياً، حوّله إلى شيء مما خلقه خيال جان جاك روسو أو أحد «الرجال الصالحين» في ميلودراما غروزيه: «كل شيء فيه يعبر عن بساطة وبراءة الأخلاق البدائية... لقد أظهر للجمهور المندهش رأساً جديراً بتسريحة غيدو Guido (ريني Reni) على جسم منتصب يرتدي ثياباً شديدة البساطة... تكلم قليلاً. وقد عرف متى يجب أن يكون غير مهذب دون

أن يكون فظاً وبدت كبرياؤه طبيعية. إن شخصاً كهذا صنع ليثير فضول باريس. لقد اجتمع الناس حوله عندما مرّ وقالوا: «من هذا المزارع العجوز الذي يمتلك هذا المظهر النبيل؟»

كان فرانكلين، الذي لُقّب «بالسفير الكهربائي»، يدرك جيداً الرغبة العارمة بالتعليم العلمي التي أمسكت بالنخبة الفرنسية وكيف يستثمرها. وقد كتب جون أدامز John Adams، ليس دون شيء من كراهية: إنهم يعتقدون في كل أنحاء فرنسا «أن عصاه الكهربائية أنجزت كل تلك الثورة». وغدا علم فرانكلين سمة حيوية لإغرائه فقد بدا أنه عمل القلب مثلما هو عمل العقل: لقد كانت حكمة وتحولت إلى أخلاق. ولهذا السبب تُرجِم عمله روزنامة ريتشارد البائس Poor Richard's Almanack إلى الفرنسية بعنوان علم ريتشارد الطيب La Science du Bonhomme Richard، وبالنتيجة غدا الأكثر مبيعاً عام 1778. كان المجتمع الباريسي في ذلك الوقت، في أية حال، متعطشاً للتعليم العلمي ولم يكن ثمة نقص في كل من العلماء الهواة والمحترفين، من المحتالين الذين لا يمكن تصديقهم إلى التجريبيين الأكثر دقة، الراغبين بنشر استكشافاتهم إلى الملأ. عملياً كان كل عدد من جورنال دي باري Journal de Paris اليومية زاخراً بتقارير التجارب من الأقاليم كما العاصمة وإعلانات عن سلسلة محاضرات عامة يقدمها أكثر الشخصيات شهرة في اختصاصها، مثل فوركروي Fourcroy وبيلاتر دي روزييه Pilatre de Rozier. وهكذا فصورة فرانكلين، الذي استطاع أن يصل بفرع إلى السماء من أجل نار الكهرباء السماوية، غدت مضفورة بالاحتفال بمزاياه «الأمريكية» الأخرى، والأكثر خصوصية تلك المتعلقة بالحرية. ربما كانت صياغة ترغو الذكية، «لقد استولى على النار من السماء والصولجان من الطاغية»، لعباً غير ضار على الكلمات، لكنها سرعان ما أصبحت نوعاً من عبارة متداولة عن دور فرانكلين باعتباره بشير الحرية. لقد جُعل في متناول الناس أولاً من خلال ميدالية تحمل صورته، ثم على عدد من أعمال الحفر، وموضوع صناعة أيقوناته العامة ذات الصواعق والأسود البريطانية المطروحة أرضاً أصبحت موضوعاً عاماً للبورسلان المطلي والأنسجة الملونة، حتى في تلك التي ظهرت في فرساي. وإذ قُدِّمت على نحو جدير بالاحترام عرضياً، كان للرابط بين سقوط المستبدين والنار السماوية تضمينات منذرة بالسوء في فرنسا ذات الحكم المطلق. ولأن ذلك أشار على نحو لا مفر منه إلى أن الحرية، في مزاج رومانسي، شيء طبيعي وبالتالي قوة لا يمكن مقاومتها في النهاية، أسهم أكثر في استقطاب متنام بين الأشياء الطبيعية من جهة («الإنسانية»، «الحرية»، «الوطنية») والأشياء المصطنعة من جهة أخرى («الامتيازات» و«الحكم المطلق» والبلاط -

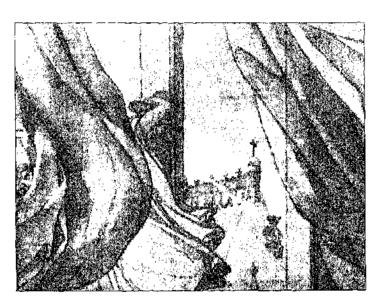


الصورة 16، مارغريت جيرارد (بعد فراغونارد) «داخل جني فرانكلين» مانعة الصواعق الإلزامية على اليمين

الحاشية»). وليس مدهشاً أن هذا السؤال عن الحرية والصاعقة قد صودق عليهما بحماس في الثورة، وهكذا ففي لوحة جاك لويس ديفيد Jacques - Louis David التصويرية لقسم قاعة التنس Tennis Court، على سبيل المثال، تنفجر صاعقة فوق فرساي في حين تنفخ الرياح عصفة هواء نقياً عبر فسحات النوافذ المكتظة بالناس.

كان افتتان المجتمع الحديث بالقضية الأمريكية أمراً سهلاً: الشيء الأكثر جدة الذي يصحبها بعد الروايات الإنكليزية والأوبرا الإيطالية. ويصعب الحكم على ما إذا كانت تصاميم النسيج الجميلة التي صنعها جان بابتست هوت Jean - Baptist Huet في جوي Jouy عام 1784، التي تحتفل «بالحرية الأمريكية» و«الاستقلال الأمريكي» في أعمال مجازية ولوحات لواشنطن وفرانكلين، هي دليل على الجدية التي أخذت بها الثورة أو أنها زي استهلاكي. عندما تصف السيدة كابمان سيدات البلاط الثلاثمائة اللواتي يفتنّ اللب واللاتي اخترن ليزيّنّ رأس فرانكلين المبجل بتاج من الغار، يبدو أن الجنون في ما يتعلق بـ «المتمردين» تقلص إلى مستوى مسابقة جمال. ومع ذلك ثمة مؤشرات أخرى للمشاركة الأكثر جدية بالقضية الأمريكية التي انتشرت خارج عالم البلاط والمجتمع المخملي. ففي آذار عام 1783، على سبيل المثال، أعلنت جريدة جورنال دي باري عن مجموعة كاملة من أعمال الحفر مع التعليقات النصية لمعارك الحرب الأمريكية مقابل ليفر واحد: سعر عالٍ لحرفي مؤهل أن يدفعه لكنه جيد ضمن المجموعة القارئة الأوسع من الحرفيين والتجار الصغار. وفي مرسيليا، قلبت مجموعة من المواطنين تداعيات الرقم 13 المشؤومة رأساً على عقب بتعبيرهم عن تضامنهم مع المستعمرات المتمردة بمعاملة رقمها كشيء سحري. وفي مجموعة الرقم 13 هذه، لبس كل منهم رمزاً لإحدى المستعمرات وذهبوا في نزهات في اليوم الثالث عشر من الشهر الذي رفعوا فيه ثلاثة عشر نخباً لأمريكيين. وفي عرض احتفالي آخر في 13 كانون الأول عام 1778، قدّم بيدانزات دي مايروبر Pidanzat de Mairobert قصيدة بطولية مكونة من 13 بيتاً شعرياً، الثلاثة عشر خُصّص الثالث عشر منها لمديح لافايت .

كانت عواقب المشاركة الفرنسية في الحرب الثورية، في الواقع، مدمرة ولا يمكن ردها. حاول المؤرخ الأمريكي فورست مكدونالد Forrest Macdonald أن يظهر درجة عالية من التوافق بين المحاربين الفرنسيين العائدين من الحرب واندلاع العنف في الأرياف عام 1789. وحديثاً، تبين هذا من خلال بحث أكثر دقة لأن يُشك فيه، على الرغم من أنه تبقى هناك حالات لافتة للانتباه في الجنود العائدين الذين ظهروا في أحداث الثورة،



الصورة 17، رسم جاك لويس ديفيد قسم قاعة التنس، 1791 تفاصيل
صاعقة البرق تضرب المصلى الملكي *Chapel - Royal*

والأكثر شهرة اللفتنانت إيلي Lieutenant Elie ولويس لا ريني Louis La Reynie، اللذين أسهما في السيطرة على الباستيل في 14 تموز. غير أن القضية في ما يتعلق بسبب «أمريكي» في الثورة الفرنسية يجب ألا تستند على هذا النوع من الحرفية الجغرافية. لن تستطيع مقاربة كيفية أن تفشل في تسجيل الأهمية الاستثنائية لمغازلة الحرية المسلحة لقسم من الارستقراطية التي كانت غنية وقوية وذات نفوذ. لم يكونوا بمفردهم ليشكلوا أي نوع من معارضة ثورية مستقلة للتاج على نحوٍ يمكن تصوره. لكن ما إن انتقلت الأزمة المالية للملكية إلى جدل سياسي، حتى كانت كلمة «حرية» جديرة بأن تأخذ حياتها الخاصة - وتغدو متوفرة لهؤلاء الذين أُعِدوا ليلعبوا السياسة من أجل رهانات عالية جداً. فـ سيغر Segur، الذي يجب أن يكون مجرد مساهم، كتب إلى زوجته عام 1782، قبل أن يبحر مع الجيش الفرنسي، أن «السلطة التعسفية تثقل كاهلي. والحرية التي سأقاتل من أجلها، تلهمني الحماسة الأكثر حيوية وسأحب أن ينعم وطني بمثل هذه الحرية التي ستقارن بملكيتنا وموقعنا وعاداتنا». والواقع أن سيغر، في أعلى سلم طبقة النبلاء، أمكنه أن يفترض بشكل مرح أن تحولاً كهذا الذي يمكن أن يقارن بالملكية يمكن أن يفترض سذاجة قصر النظر، لكن ذلك يفسر أيضاً كيف أن كثيرين من أنداده أمكنهم أن يأخذوا طبيعة أمريكا التي يمكن أن تحتذى جدياً دون أن يحلموا يوماً بأنها ستؤدي مباشرة إلى دكتاتورية الفضيلة.

وفي الشعور بالخفة الذي حيا الانتصار العسكري العظيم والسلام الرائع عام 1783، كانت قلة من المعلقين راغبين في صب الماء البارد على الابتهاج. والأكثر

شيوعاً، رأى كاتب مثل الأب جنتل Abbé Gentil المثال الأمريكي كمساهمة في طريقة ما من الحماس والاضطراب «التجديد» فرنسا أو حتى، بشكل أكثر عمومية، العالم كله. وكتب، «في قلب هذه الجمهورية الوليدة حديثاً ستغني الثروات الحقيقية العالم الذي سيحظى بها». وفي عام 1784، وضع السجال الأدبي والأكاديمي في تولوز Toulouse كسؤال لجائزتها أهمية الثورة الأمريكية. وكان الفائز نقيباً في كتيبة عسكرية في بريتون Breton، واضح أنه أحد مريدي روسو الذي رأى أنها منارة الفضيلة والسعادة ونموذج يجب أن يحاكى في فرنسا. والكثير مما أُبلغ عنه في الحرب، لاسيما من خلال المعلقين الذين لم يكونوا شهود عيان، أكدوا على تلك الجوانب التي قدمها الأمريكيون كمبشرين لنوع جديد من عصر ذهبي من الحب والتناغم الأكثر شبهاً بالطفولة. والأب روبن Abbé Robin(ماسوني بارز)، على سبيل المثال، الذي كتب على نحو مسهب عن المشاهد الطبيعية الأمريكية والسكان، ولاحظ أنه عندما يقيم الأمريكيون مخيماً يعزفون الموسيقى.

ثم، يجتمع الضباط والجنود والنساء الأمريكيات ويرقصون معاً. إنه عيد المساواة... هؤلاء الناس لا يزالون في الزمن السعيد حيث يتم تجاهل الفروق في المولد والمرتبة ويمكن أن ترى، بالعين ذاتها، الجندي العادي والضابط.

كان هناك، في كل حال، بعض المتشائمين، الذين قدروا في بصيرتهم الذكية ما افتقروا إليه، قيل أن الملكة كانت مضطربة المشاعر على نحو واضح بشأن الحماسة التي شعرت بها النخبة والعامة على حد سواء بإهانة الملكية. والأكثر جدارة بالاهتمام، أن أكثر وزراء لويس السادس عشر ذكاء، تورغو Turgot، الذي جادل بمرارة ضد التدخل النشط في أمريكا، متوقعاً أن تكاليفها ستكون ساحقة وأنها ستؤجل، ربما إلى الأبد، أية محاولة ضرورية للإصلاح، ذهب أبعد ليشير إلى أن مصير الملكية قد يتوقف على هذا القرار المصيري. لكنه خسر المناظرة أمام وزير الخارجية الهائل القوة، فرجين Vergennes، الذي كان إرباك التاج البريطاني في أمريكا فرصة ذهبية له. لم يكن فرجين مثير حرب. كان دبلوماسياً محترفاً طوال حياته، وفي الحقيقة، نصيراً مخلصاً لمفهوم القرن الثامن عشر العام حول «توازن القوة.» لكنه توصل، بعد حرب السبع سنوات الكارثية لجانب واحد، إلى استنتاج ليس غير عقلاني أن بريطانيا قوة إمبراطورية معتدية جشعة، وأنه يجب أن تلتزم بالخط الذي أرسته معاهدة باريس عام 1763، التي طالبت بنوع ما من العقاب الصحي المفيد. وقد برع فرجين بتحالف مع «العائلة الملكية» في اسبانيا، ومع الجمهورية الهولندية، في سياسة خارجية مصممة لتقديم بريطانيا معتدية، والتحالف بوصفه متدخلاً

لحفظ استقلال الأمريكيين الذين يطالبون باستقلالهم بشكل عادل. وكانت الأسباب التي أخذت فرجين فرنسا عبر الأطلسي أو روبيكون، بعدئذٍ، عملياً بالكامل، و، كما افترض، أيديولوجيا خالية من المخاطر. لا شيء يمكن أن يوجد بعيداً في ذهنه أكثر من ترويج رسالة معرفة على نحو مبهم «للحرية». وفي عام 1782، بعد كل شيء، تدخل عسكرياً إلى الجانب الرجعي في قضايا جمهورية جنيف الهامة استراتيجياً، حيث أسقط تحالف من مواطنين ذوي عقول ديمقراطية وحرفيين طبقة النبلاء الحاكمة. و، كما أوضح، كانت أسبابه في كل من حالتي جنيف وأمريكا هي نفسها براغماتية:

المتمردون الذين أجبرهم على الانسحاب من جنيف هم عملاء بريطانيا بينما المتمردون الأمريكيون هم أصدقاء لسنوات تأتي. لقد تعاملت مع كل منهما، ليس بسبب نظاميهما السياسي بل بسبب مواقفهما تجاه فرنسا. هذه هي أسبابي في الدولة.

وفي الحقيقة، في عام 1778، عندما اتخذ القرار الحاسم للدخول في علاقات معاهدة مع أمريكا، أو حتى عام 1783، عندما وقعت معاهدة فونتان بلو - Fontaine bleau، بدت وجهة نظر فرجين المضيئة للحرب مبررة. مقابل كل الحبر الأحمر على كتب رواية الحكومة، لا أحد تجرأ جدياً أن يشير إلى أن السياسة الأمريكية كانت، لأسباب مالية أوسياسية، خطأً خطيراً. كانت فرنسا قوة عظمى، وعملت جيداً، على نحو رائع تماماً، ما تفعله القوى الكبرى لمواصلة تفوقها في العالم وتدفع الآخرين في المنافسة. والأرجح أن الخزينة البريطانية كانت تعاني بشكل حاد مثل الفرنسية وأن سياستها كانت في وضع أكثر اضطراباً. كانت الآنديز الغربية الفرنسية تصب المال من اقتصاد السكر إلى الوطن الأم ونجاحات أسطول سفرين Suffren في جنوب الهند أشار إلى أنه حتى هناك كانت الاحتمالات لمعافاة اقتصادية أكثر إشراقاً. وكما عبّرت الفيكونتيسة دي فارس فوسيلاندري Vicomtesse de Fars - Fausselandry، «بدت القضية الأمريكية قضيتنا وكنا فخورين بانتصاراتهم. وبكينا لهزائمهم، ومزقنا النشرات وقرأناها في بيوتنا جميعاً. لم يفكر أحد منا بالخطر الذي يمكن للعالم الجديد أن يقدمه للعالم القديم». أو، كما علّق آخر من «المتمردين» الفرنسيين، الكونت دي سيغر، في العاقبة الحزينة للثورة الفرنسية، «لقد سرنا مبتهجين على سجادة من ورد، وقلما تخيلنا أن جهنماً تحتنا».



الصورة 18، لويس السادس عشر

من صور مجموعة الشخصيات الأكثر شهرة

Sources and Bibliography

For Talleyrand's visit to Voltaire, see Colmache (82 - 86). Voltaire's last months in Paris are vividly recorded in No. 276 of Pidanzat de Mairobert's wonderfully gossipy L'Espion Anglais ou Correspondance Secrete entre Milord All Eye et Milord All Ear, published in London but widely available in Paris. Lafayette's expedition to America is treated in detail in the first two volumes of Louis Gottschalk's monumental biography, Lafayette comes to America (Chicago 1935) and Lafayette joins the American Army (Chicago 1937). Citations from the letters to his wife are from this second volume. Stanley J. Idzerda, in an extremely persuasive and important article, "When and Why Lafayette Became a Revolutionary", in Morris Slavin and Agnes M. Smith (eds.), Bourgeois, Sans - culottes and Other Frenchmen:

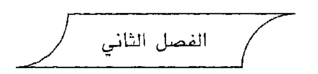
Essays on the French Revolution in Honor of John Hall Stewart (Waterloo, Ontario, 1981, 7 - 24), has attacked Gottschalk's emphasis on callow adventurism and expediency and has reasserted the ideological and psychological roots of Lafayette's commitment. The letter to Vergennes on page 25 is cited in Gilbert Bodinier, Las Officiers de L'Armee Royak Combat -

tants de La Guerre d'Indèpendance des Etats - Unis de Yorktown à L'An Il (Vincennes 1983, 285).

Lafayette's devotion to Washington is probably best read in their correspondence, edited by Louis Gottschalk, The Letters of Lafayette to George Washington 1777 - 1799 (New York 1944), For further insight into the companionship of the young liberal nobility, see Lettres Inédites du Général Lafayette au Vicomte de Noailles 1780 - 81 (Paris 1924).

The history of French patriotism before the Revolution remains a seriously underinves - tigated topic. For outline sketches, see Jean Lestocquoy, Histoire du Patriotisme en France (Paris 1968); and Marie - Madeleine Martin, Histoire de L'Unité Française: L'Idée de La Patrie en France des Origines à Nos Jours (Paris 1949). A more specific study that documents the rise of a more aggressive patriotism after the Seven Years' War is Frances Acomb, Anglo - phobia in France 1763 - 1789 (Durham, N.C., 1950). A key contemporary work is J. Ros - sel, Histoire du Patriotisme Français (Paris 1769). For another powerfully Romantic discourse on the passion for the patrie, see "Discours sur les Evénements de l'Année 1776," in Le Courrier d'Avignon (1777: 6). Gilbert Chinard has provided a helpful intro - duction to his edition of Billardon de Sauvigny's Vashington (Princeton 1941) that also describes the theater history of his Hirza ou Les Illinois. The performance history of de Belloy's Siége de Calais may be found in the 1787 edition of the same play; see also Acomb, Anglophobia (58 - s9). And

John Lough, Paris Theatre Audiences in the 17th and 18th Centuries (Oxford 1957). The best account of du Couëdic's battle and his cult is in Georges Lacour - Gayet, La Marine Militaire de La France sous Le Règne de Louis XVI (Pans 1901, 297 - 98), and for the decision to exhibit paintings of the battle in the naval academies, ibid. (575). For the similar cult of the "Belle - Poule, "see L'Espion Anglais (1778, vol. 9, 146 - 47). See also Brest et L'Indépendance Américaine (Brest, 1976); Lee Kennett, The French Forces in America 1780 - 1783 (Westport, Conn., and London 1977); and Jonathan R. Dull, The French Navy and American Independence (Princeton 1975). On representations of American themes in French travel literature, decorative art and engraving, see the exhibition catalogue by Betty Bright P Low, France Views America (Eleutherian Mills Historical Library, Wilmington, Del.) and Les Français dans La Guerre d'Indépendance Américaine (Musée de Rennes 1976). Durand Echeverrials Mirage in the West: A History of the French Image of American Society to 1815 (Princeton 1956) was a pioneering study in this field. For Lafayette's reception in France and the cult of Franklin at court, see Madame de Campan, Mémoires sur La vie de Marie¯Antoinette (Paris 1899, 177 - 79). There is a large literature on Franklinomania in France. See, in particular, the fascinating article by James Leith, "Le Culte de Franklin avant et pendant La Révolution Française," in Annales Historiques de la Révolution Française (1976, 543 - 72); the exhibition catalogue by Louise Todd Ambler, Benjamin Franklin: A Perspective (Fogg Museum of Art, Cambridge, Mass., 1975); Gil - bert Chinard, "The Apotheosis of Benjamin Franklin," in Proceedings of the American Academy of Arts and Sciences (1955); Jonathan R. Dull, "Franklin in France¯ A Reap - praisal," in Proceedings of the Annual Meeting of the Western Society for French History (no. 4, 1976); and Kenneth M. McKee, "The Popularity of the American' on the French Stage in the French Revolution," in Proceedings of the American Philosophical Society (vol. 83, no. 3, 1940). Much of this material is brought together by Philip Katz, The Image of Benjamin Franklin in the Politics of the French Revolution 1776 - 1794 (Harvard University Program for Social Studies Dissertation, 1986). The account of the "13" celebrations at Marseille is in L'Espion Anglais (1778, vol. 9, 75 - 76). The Abbé Robin's comments on Americans are cited by Gilbert Bodinier, Les Officiers de l'Armee Royale Combattants de la Guerre d'Indépen - dance des Etats - Unis de Yorktown l'An II (Vincennes 1983 345) For Vergennes' American policy, see Orville T. Murphy, Charles Gravier, Comte de Vergennes: French Diplomacy in the Age of Revolution 1719 - 1787 (Albany 1982); his comparison of Genevan and American policy is on p. 400.



آفاق زرقاء وحبر أحمر

I ـ الأيام الجميلة

مثل كل جيله، ترعرع لويس السادس عشر ليبحث عن السعادة. فجده لويس الخامس عشر، أعاد تصميم فرساي حول السعي إليها وكانت لديه قابلية طبيعية للانغماس فيها. لكن في ما يتعلق بخليفته الشاب، كانت السعادة عملاً شاقاً، وكونه ملك فرنسا، جعلها بعيدة المنال تماماً. وتدريجياً أحاط به القلق، سيتذكر لاحقاً مناسبتين جعله عمله ملكاً سعيداً فعلاً. كانت الأولى حفل تنصيبه في حزيران عام 1775، والثانية، زيارته، إلى شيربورغ Cherbourg في حزيران 1786. تلفّع في المناسبة الأولى بمعطف لغز الملكية الغامض، وظهر في الثانية رجلاً معاصراً: عالم وبحار ومهندس. وكانت الشخصية الملكية سبباً لتعليق المشاهدين في المناسبتين، وربما الاهتمام. غير أن ذلك كان جزءاً من براءة لويس أنه لم يعِ أبداً أية مشكلة. إذا كانت سلطته تدين بكل شيء للماضي فحسه المفرط التطور بالواجب وجّهه على نحو ثابت باتجاه المستقبل. وستمثل الثورة هذه الخاصة الشبيهة بالإله الروماني يانِس Janus صاحب الوجهين بوصفه منافقاً أكثر منه متردداً. لكن وحدها معادلة الماضي ـ المستقبل الخيانة الوطنية هي التي وضعت الملك في مأزق سينهي عهده وحياته. لقد بدأ عام 1774، بآمال كبار، ترددت أصداؤها في كل أنحاء فرنسا، أن المستقبل سيكون سعيداً بتجديد العصر الذهبي.

كان رمز هذه الآمال هو الشمس. وفي التتويج في ريمز Reims، عندما كان لويس في العشرين من عمره، زينت أشعة الشمس، الأشعة الأكثر وضوحاً التي تذكر بأوج الملكية تحت حكم لويس الرابع عشر، زين كل عمود وقوس نصر نُصِب للمراسم، وترددت أصداء موضوع التجديد على قاعدة نصب يمثل العدالة بنقش يعلن فجر الأيام

السعيدة. ومع ذلك، لم يكن التتويج نشوة خالصة. فالتوتر بين الماضي والمستقبل لعب على هموم الحاضر، لاسيما وأن فرنسا كانت تعاني من آلام أعمال شغب خطيرة من أجل الحبوب لم تشهد مثلها منذ سنوات في الوقت الذي كانت تُعَدّ فيه مراسم التتويج. وفي الأحداث، حثّ المراقب العام، ترغو Turgot، لويس على التحلي بالتواضع: فيبسط الطقوس ويقيم الاحتفال في باريس بدلاً من ريمز. وقد أعرب عن رأي خاص أنه "من كل النفقات العديمة الفائدة والأكثر تفاهة ومدعاة للسخرية هو التتويج «Sacre». وجادل، لكن إذا ما كان يجب أن يكون ثمة تتويج، فالأفضل أن يكون بحضور الباريسيين، الذين يمكن لعواطفهم الملكية أن تستخدم بعض الرعاية، فيتأثر الغرباء وتلهو الحشود، وتأتي الفاتورة أقل من سبعة ملايين ليفر قدرت لمراسم التتويج في ريمز.

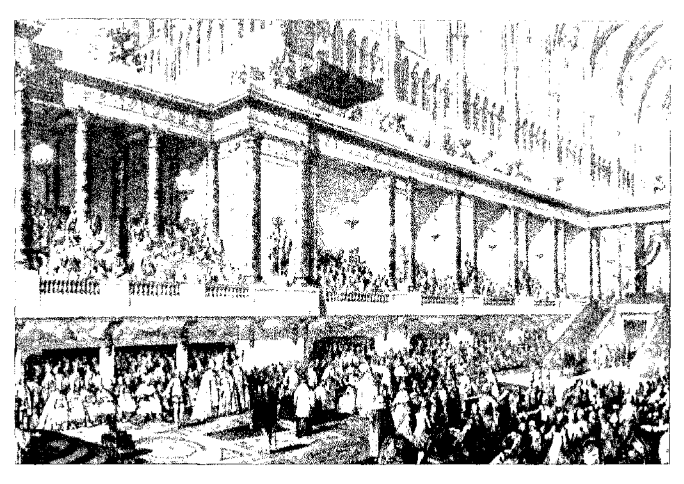
غير أن لويس كان جازماً. ربما تأثر بحماس كاهن الاعتراف في البلاط، الأب بوفي Beauvais، وأسقف باريس، الذي هو نفسه متحمساً لإقامة المراسم في ريمز وليس في نوتردام، وأصر الملك على الأشكال التقليدية، حتى القسَم «أن يستأصل الهرطقات» الذي بدا هجوماً بلا مُسوِّغ على المشاعر الرقيقة المتسامحة التي اتسمت بها سبعينيات القرن الثامن عشر. كان ذلك عَرَضاً لانفصام شخصية لويس أنه باتخاذه ذلك القسم في حينه سيذهب إلى إعتاق البروتستانت وتكون سلطته الشخصية مناسبة لتشريع ذلك عام 1787.

سيكون خطأ افتراض أن ما دفع لويس إلى تبني أبهة العصور الوسطى كاملة في حفل تتويجه بمثل تلك الحماسة هي تقوى رجعية أو انغماس ذاتي في شؤون السلالة. كان الأمر كذلك على الأغلب، حدسياً على الأقل، فقد شارك الرأي العام المتقدم من خلال محامٍ وبائع كراسات شاب من لورين، هو مارتن دي موريزُت Martin de Morizot، الذي أيد التتويج كشكل من «الانتخاب الوطني»: أهمية التحالف الوثيق العرى بين الأمير وشعبه. وفي هذا الرأي كان المقصود من العرض أن يقارب زواج فينيس والبحر الذي يقيمه الدوجDoge (قاضي القضاة) كل عام الذي يمثل الصالح العام، أكثر منه شعيرة أو رد فعل مزخرف. وكانت هناك ملامح طقوسية محددة ـ تحرير السجناء من خلال الرحمة الملكية، الطقس الغريب لمس المريض بالسل الرئوي لإحياء ذكرى قوة الشفاء الإعجازية للأيدي الملكية ـ التي قد تحمل شهادة لهذه النوايا الطيبة. وعلى الرغم من ذلك، كما في مناسبات كثيرة في المستقبل، سمح لويس لآخرين أقل انسجاماً مع الرأي العام منه للتدخل، مع نتائج مؤسفة لسمعته. وفي هذه الحالة، فقد عدَّل رجال الدين المسؤولون عن

تنسيق ترتيبات المراسم العنصر الذي كان يمكن أن يُفسَّر على أنه تمثيل للعلاقة بين الأمير والشعب تماماً. فقبل عائلة بوربون Bourbons، مرت فترة من الزمن كان الناس يدلون فيها بموافقتهم بقول نعم Oui بعد القسم الأول، واستبدل هنري الرابع ذلك «بموافقة ضمنية» روتينية، غير أن المناشدة الشكلية للشعب ألغيت بالكامل في تتويج لويس الخامس عشر. وهي إيماءة غير لبقة لم تذهب دون ملاحظة أقلها عبر الصحافة السرية، التي زعمت أن ذلك سبَّب سخطاً عارماً بين الوطنيين الحقيقيين.

وهكذا فالمناسبة العظيمة التي قصد منها أن تكون مثل الدواء لاضطرابات الطحين والحبوب انتهت إلى إرضاء قلة قليلة في الحقيقة. حيث انزعج الحرفيون المحليون لاستدعاء النجارين ومصممي الديكور الباريسيين للعمل في أقواس النصر والرواق المقنطر الطويل الذي قاد إلى شرفة الكاتدرائية. وكان ثمة تذمر كبير من القمرة التي كان يجب أن تُبنى لاستخدامات الملكة الخاصة والتي استخدمت مراحيض إنكليزية فيها. وكانت العائلات الفلاحية في المنطقة غاضبة تماماً جراء إلزام رجالها بإعادة بناء بوابة المدينة في سواسُن Soissoun، وهكذا استطاعت عربة التتويج أن تمر عبرها، في وقت كان فيه عملهم مطلوباً على جناح السرعة في الحقول. ولم يكن التجار سعداء لأن عدداً قليلاً من الأجانب جاؤوا لينفقوا دون حساب ويخلفوا في النفس أثراً قوياً. وفي الحقيقة، كانت الأسَرة في الفنادق حول ريمز متوفرة بكثرة نظراً لأن الطبقة العليا من شمال فرنسا وجنوبها التي كان من المتوقع أن تأتي بأعداد غفيرة، امتنعت عن المجيء بسبب الأسعار الباهظة التي طلبها أصحاب الفنادق المحليون.

كان الحدث، لإصلاحيين مثل تورغو، تسلية مكلِفة وسيئة الإعداد قادت إلى مفارقة تاريخية مضحكة مثل وعاء الزيت، الذي يزعم أنه أُرسِل إلى الملك كلوفيس Clovis نقلته حمامة مقدسة. وكان الحدث، لتقليديين مثل الدوق دي كروي Duc de Croy، سوقياً بطريقة ما، والتصفيق الذي انهمر على الملك والملكة، كما علّق، كان نتيجة العادة الجديدة وغير المرغوبة لتحيتهما في عروض مسرحية عامة. وتحول الحدث كله إلى أوبرا، لكنه كأوبرا لم يكن دون سلطة محددة لتحرك هؤلاء المشاهدين الذين كانوا هناك. وراقب تاليران الشاب، وهو يشاهد أباه الراضي عن نفسه يضع قبعته الكبيرة السوداء ذات الأرياش، كيف تجتمع الخيلاء والعاطفة لتوليد حماسة غير عقلانية. وعندما سُمِح للعامة بالدخول في حشد غفير إلى الكاتدرائية وقُرِعت الأجراس، رأى دموع الفرح تسيل على خدي الملك الوليد بينما الملكة الشابة، تتجاوز الصعاب، وتشق طريقها.



الصورة رقم 19 للرسام مورو لو جون قسم تتويج الملك لويس السادس عشر عام 1775

إذا بدأ لويس عهده بجعجعة كبيرة لاحتفال قديم، كان عليه أن يستمر به في مزاج مضاد لوعي رزين. لا شيء أفرحه أكثر من علم الميكانيك ولو كان عليه أن يختار لاختار أن يعيش في عالم الأرقام بدلاً من الكلمات، والقوائم بدلاً من الحكي. كل شيء قيّمه أحصي بشكل إلزامي: الـ 128 حصاناً التي ركبها، الـ 852 رحلة التي قام بها بين 1756 و1769، (كان هذا وجود بدوي أقل مما تقترح القائمة، لأن الكثير من الرحلات تكونت من رحلات يومية ضمن منطقة محددة على نحو ضيق في إل دي فرانس Ile de France، حيث أقيمت معظم القصور وأكواخ الصيد. غير أن لويس دوّن بصدق كل رحلة مملة من فرساي إلى مارلي Marly «6 مرات»، ومن فرساي إلى فونتان بلو«6» وهلم جرا. حتى تزجية الوقت التي اندفع إليها بحماس شديد ـ الصيد ـ قُلِّص في كتابة لوائح الحقيبة اليومية. وهكذا فنحن نعرف أكثر عما اصطاده يومياً أكثر من أفكاره عن الأحداث السياسية في باريس خلال تموز عام 1789 ـ الشهر الذي انهارت فيه ملكيته.

ومع ذلك، كما أوضح فرانسوا بلوش François Bluch، لم يكن ثمة شيء تافه في

إدمان لويس السادس عشر على الصيد. كان ذلك أحد المسارح التي امتاز فيها دون جدال والتي لاءم فيها دور الملك الفارس: فارس وإمبراطور chevalier et imperator، المحارب في الغابة. كان على ظهر الحصان شجاعاً وحتى مجيداً؛ وهي ميزة علق عليها القرن الثامن عشر آمالاً كبيرة، والتي وجد معاصروه أنه يفتقر إليها بشدة في مظاهره العامة الأخرى. لكن هناك عالماً آخر لاذ إليه هذا الرجل الأخرق جسدياً. كان ذلك مكتبه الخاص المليء بالأدوات الرياضية، والخرائط الملونة يدوياً والخرائط البحرية والمناظير والألحان السداسية والأقفال التي صممها وصنعها شخصياً. والسعي إلى صنع قفل مثالي كان رمزاً للذكاء السامي لأن الملك فشل مراراً في صنع أشياء تعمل كما يشتهي. لكنه في شقته الخاصة تحرك بهدوء في معطفه الصوفي البسيط بين العدسات المصقولة والأجواء المحلقة والنحاس المصقول والأدوات الفلكية بكل الحرية والسلطة التي يملكها مجوسي ساحر.

كان ذلك في العالم البحري أن اجتمعت كل هذه المواهب معاً. فمثل أبيه وجدّه لعب لويس بدمى السفن والمراكب الثلاثية الصواري في حوض معروف باسم فينيسيا الصغيرة La petite Venise في فرساي. وقد نقل معلمه الشخصي، نيكولا ماري أوزان Nicolas Marie Ozanne، الذي درّس الرسم البحري لطلاب الكلية البحرية في بريست، إلى طالبه المتلهف كلاً من المعرفة والحماسة للبحر. وهكذا غدا لويس هائماً وخبيراً حسن الإطلاع باختصار ـ عن كل شيء بحري: من تصاميم الباخرة إلى المدفعية البحرية والأمراض البحرية وأدوائها، عدة البحر وحركة المد والجزر، حسابات الصابورة (ثقل الموازنة) والحمولة، المناورات العسكرية ولغة إشارات العلم. حتى إنه أصر وساعد في تصميم هندامات جديدة تلغي الفروق القديمة بين كبار العاملين في الباخرة والعاملين العاديين. وقد خطط شخصياً رحلة لا بيروس La perouse إلى اوستراليا ونيوزيلندا مع المستكشف، وقد وضع مسار تقدمها على خرائط خاصة حتى تحقق متألماً من أنها غرقت في مكان ما من المحيط الهادي الأوسترالي. لم يكن بحاجة لمن يوضح له أن الطريق لاستعادة السلطة الاستعمارية التي فقدها جده في حرب السنوات السبع تبدأ ببرنامج راديكالي للبناء البحري. ولذلك كان حريصاً على أن يعهد بمهمة بناء الأسطول إلى الرجال الأكثر موهبة وقدرة: في البداية ترغو نفسه، ثم العبقري سارتين Sartine، الذي أسهم أكثر من أي شخص آخر في تحويل الأسطول إلى مكافئ للأسطول البريطاني، وبعد سقوطه، دي كاستري de Castries، الذي لا يقل بعد نظر (لكنه ربما أقل مسؤولية مالية) من سلفه. فقد كان الأسطول للملك ووزرائه مستقبل فرنسا الاستعمارية: الأفق اللازوردي

لأطلسي كبير وربما لإمبراطورية شرقية.

يجب أن يأتي الأمر كما لو أنه لا توجد مفاجأة، ثم، لتكتشف أنه بعد التتويج، أن حدث عهده الذي يستذكره لويس برضا تام كان هو زيارته إلى المرفأ العسكري الجديد في شربورغ Cherbourg على شبه جزيرة النورماندي في كوتنتين Cotentin. مقابل الساحل الجنوبي لإنكلترا، سيكون لمرفأ جديد وبناء دفاعات في شربورغ أهمية كبيرة لاحترام الذات الوطنية الفرنسية والإستراتيجية العملية أيضاً. فقد تعرض المرفأ لغارة بحرية بريطانية في عام 1759 وتم احتلاله بقيادة الكابتن وليم بلي William Bligh الذي فرض شرط معاهدة سرية يمنع أعمال البحرية الفرنسية في دنكرك Dunkirk (وحتى تشترط وجود مراقبة بريطانية في الموقع)، الأمر الذي سبب شعوراً مريراً بالمهانة. التزم فرجين بسياسة تحدي البريطانيين في أمريكا، وطرد الوجود البريطاني من دنكرك، المناسبة التي وصفت بأنها أثارت «فرحاً وطنياً عارماً». غير أن قابلية مرافئ القنال للخطر كانت ما تزال تلعب دوراً في خطط التدخل الفرنسي الطموحة، التي أحبطت عام 1779 (كما في مرات كثيرة سابقة ولاحقة) من خلال استمرار الطقس السيئ. سيوفر المرفأ الجديد والمحمي بقوة الملاذ الذي كانت الأساطيل الفرنسية بحاجة إليه دون أن تضطر إلى التخلي عن حملات كاملة. فليس عبثاً، عندئذٍ، أن استقبلت أخبار تحويل شربورغ في وستمنستر Westminster بقلق وسخط بالغين. فمع رياح مؤاتية كان مرفأ بورتسموث على بعد 3 ـ 4 ساعات من شربورغ.

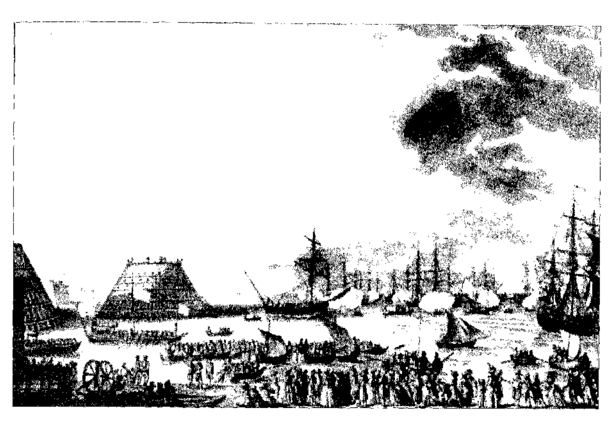
عندما بدأ لويس عهده عام 1774 كانت شربورغ أكبر قليلاً من قرية صيد سمك موحلة عدد سكانها نحو ستة آلاف نسمة يعيشون في رتابة عصف الرياح حول بقايا أبنية دمرها الأسطول الملكي. وبحلول زمن الثورة تضاعف عدد سكانها تقريباً، غير أن الأكثر أهمية هو أنها أصبحت مكاناً لتركيز هائل من رأس المال والعمل والهندسة التطبيقية. كانت شربورغ الجديدة، في الأقل للملك ورئيس مهندسيه م. دي سيسار M. de Cessart، رمز فرنسا تلد من جديد في ضوء العلم التطبيقي والنشاط البحري. وكان مشروع إنشاء مرفأ شيئاً ضخماً في التصور والتصميم. في زمن كانت فيه اللوحات وأعمال النقش والحفر للأعمال القديمة الضخمة سائدة، لابد أنه بدا حالاً مشروعاً فريداً من العظمة والنظرة إلى المستقبل في الخيال. وأحد المهندسين الأكثر تواضعاً، دي بريتونيير de Bretonnière اقترح بناء جدار بحري كبير أو إقامة حاجز يمكن أن يبنى المرفا خلفه. غير أن الفكرة الأكثر إثارة للعجب والخطة الأكثر استحالة، خطة دي سيسار هي التي

أغرت قائد شيربورغ المعين حديثاً، وهو مستشار تشغيل يدعى شارل فرانسوا دوموريز Charles François Dumouriez، قادم حديثاً من فتح كورسيكا Corsica. وقد أدهشت الفكرة أيضاً الأخيلة السارحة للملك ووزير أسطوله دي كاستريز de Castries.

قضت خطة سيزار بصنع صناديق مجوفة هائلة الحجم بخشب البلوط بشكل مخروط مقطوع يثبت بالحجارة والصخور، لإقامة نوع من سلسلة حواجز عبر مراسي السفن. وهذا المكان الذي يغلق سيشكل المرفأ بعدئذٍ. كان كل مخروط بقطر 142 قدماً عند قاعدته ويرتفع إلى 60 قدماً من خط المياه إلى قمته المسطحة. وهو يتطلب 20,000 قدم مكعب من الخشب للبناء و، عندما يُملأ يزن 48,000 طن. ومعالجة هذه الكتل الهائلة كان عملاً دقيقاً يتطلب البراعة. يجب أن تُقطَر من الشاطئ إلى أمكنة رسوها، لا تُملأ إلا بما يجعلها تتوازن وبما تحتاج لمنعها من الانقلاب. وحالما تصبح في مكانها، تُملأ عندئذٍ بما تبقى من حجارة عبر 30 فتحة في جوانب المخروط، وعندما تغدو ثقيلة كفاية للغوص بشكل مناسب، تغلق بالإسمنت وبالتالي تشكل القمة نوعاً من رصيف. دعت خطة دي سيزار الأصلية لاستخدام ما لا يقل عن 91 من هذه الأشياء الاستثنائية. كانت خطة جنونية بشكل كافٍ لتغري المخبولين بثقافة ذات مزاعم طائشة بالعلم. بعد كهرباء فرانكلين ـ عصا البرق الوطنية ـ كان أي شيء ممكناً. صعد الناس إلى السماء فوق فرساي في مناطيد مملوءة بالغاز، وجلس آخرون في أحواض من نحاس ليجربوا القدرة العلاجية لجاذبية الشخص القوية إلى الآخرين. وفي هذا المناخ من الهذيان العلمي، يجب أن تكون سلسلة جبال دي سيزار تحت الماء قد بدت متواضعة غالب الظن.

غاص المخروط الأول بنجاح في حزيران عام 1784 بحضور وزير الأسطول دي كاستريز. ومشجعاً بتقدم المشروع، أرسل الملك أخوه الأصغر، أرتوا Artois ليراقب غوص المخروط الثامن في أيار عام 1786، وكان تقريره المثير هو الذي جعل الملك يقرر القيام بمهمة فريدة إلى شيربورغ لمعاينة الأعمال مباشرة. كانت تلك المهمة مغادرة استثنائية. منذ بداية عهد لويس السادس عشر تخلت عائلة بوربون عن أي نوع من «التقدم» في كل أرجاء فرنسا وجعلت الملكية مقيمة ضمن تكنات البلاط الضخمة في فرساي. وفرنسا، أو الجزء الذي لديه مشكلة منها، يأتي إلى الملك، وليس العكس. وهكذا، كما لاحظ نابليون لاحقاً بشكل فظ، عندما أعلن لويس نيته الذهاب إلى نورماندي «كان ذلك حدثاً عظيماً».

وفي الحادي والعشرين من حزيران، مع ما عُدَّ عندئذٍ حاشية متواضعة من 56



الصورة 20 مخروط شيربورغ وهو يُقطَر إلى المرفأ، 1786

شخصاً، انطلق الملك والملكة من فرساي إلى ساحل النورماندي الغربي. ارتدى لويس معطفاً قرمزي اللون مطرزاً بزهور الزنبق الذهبية صنع خصيصاً للمناسبة لكن كان واضحاً أنه كان مهتماً بتقديم نفسه إلى الناس بطريقة معتادة أكثر منها ملكية: أبو الشعب الطيب bon père du peuple الذي كان لويس الثاني عشر قد لُقّب به. وفي قصر هاركورت Château d'Harcourt، حيث أقام الملك ليلة مع حاكم النورماندي، عفا عن ستة هاربين من الأسطول كانت محكمة في كان Caen قد حكمت عليهم بالإعدام. وفي كان نفسها، امتلأت الشوارع بحشود تهتف فيما رئيس البلدية قدم مفاتيح المدينة تحت أقواس النصر المزينة بالورد. وصل لويس إلى شيربورغ في الثالث والعشرين. وكان متلهفاً لرؤية أعمال المرفأ، فتلا قداساً عند الساعة الثالثة صباحاً وأُخِذ في قارب ثلاثي الصواري يجذف فيه 20 مجذفاً في القرمزي والأبيض، إلى موقع المخروط التاسع. وفي الوقت نفسه قُطِر المخروط إلى مكانه المحدد، وبعد ساعتين استقر المخروط بنجاح. وحالما كان في مكانه فُتحت المخازن وجعلوا يملؤون المخروط حتى استطاع الملك أن يأمر بغوصه. وقد استغرق ذلك ثماني وعشرين دقيقة (مسجلة طبعاً في يوميات لويس). وفي لحظة الغطس، رمى كبل مشدود بإحكام ينطلق من أحد البراميل التي تحافظ على استقرار المخروط، ثلاثة رجال إلى الماء غرق أحدهم على الفور. ووسط الهتاف وتحيات الأسطول التي

حيث الغوص، لم تُسمَع صرخات الرجال الذين سقطوا في الماء. لكن لويس، الذي كان يراقب الحدث بمنظاره من منصة المخروط التالي، رآه لكن بوضوح تام. وقد روعته الحادثة فقدم تقاعداً لأرملة الرجل فيما بعد.

اقتضى الأمر أكثر من حادثة موت عرضية لإخماد حماسة المناسبة. فوسط تصفيق مستمر جلس أفراد الحاشية لتناول وجبة خفيفة باردة أعدت لهم تحت خيمة أقيمت فوق أحد المخاريط. لم ترتبط العظمة والعبثية على هذا النحو الوثيق قط.

أمضى لويس ما تبقى من الرحلة في استعراض الأسطول ومراقبة المناورات التي في عهده فحسب غدت ممارسة معيارية للأسطول، وتناول العشاء على متن باخرة أخذت اسم باتريوت على نحوٍ ذي دلالة. وعندما تحدث مع الضباط والأفراد خاطبهم بألفة عفوية، على نحو يشبه كثيراً طريقة الملكة البريطانية في القرن العشرين، خبير بالتفاصيل التكنولوجية من منطلق الشعور بالواجب. لكنه بقدر ما كان فرحاً كان واجباً في ما يخص الملك، وعلى نحو عادي تروي أسرار المذكرات النقدية على نحو بذيء أنه في هذه الرحلة:

أُعلِم الملك على نحوٍ دقيق بكل شيء يتعلق بالأسطول وقد بدا حسن الاطلاع على البناء والتجهيزات بالإضافة إلى مناورات السفن. حتى مصطلحات هذه اللغة غير المتمدنة لم يجد فيها شيئاً جديداً وهو يتكلمها مثل بحار.

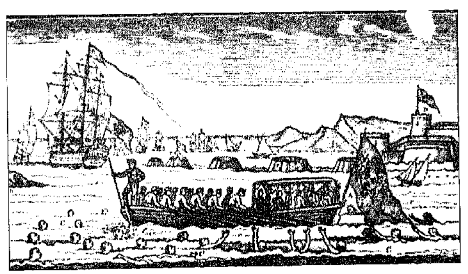
في الحقيقة كان إحساس الملك الفظ الرديء بالدعابة، الذي أرعب البلاط والمجتمع الباريسي (استمتع على نحو غريب بفتح نوافير فرساي ليبلل المشاة على حين غرة)، وكان مناسباً تماماً لأملاح شيربورغ. فعندما سقطت حاشيته على متن الباخرة باتريوت، وتقاذفت أمواج المرفأ الباخرة، قهقه عالياً دون تعاطف. وفي عبور آخر قاسٍ لمصب نهر السين من هونفلور Honfleur إلى الهافر Havre في رحلة العودة، حذرهم قبطان العَبّارة بصوت عالٍ عندما أخطأ الوقت للمناورة، ووبخ نفسه واعتذر على نحو متكرر للملك. وقد ردَّ لويس، «لا شيء لتعتذر عنه، إنها لغتك المهنية، وكان يجب أن أتقنها أيضاً».

كانت الزيارة، لكل المهتمين ربما ما عدا أفراد الحاشية الذين أصيبوا بدوار البحر، ناجحة نجاحاً باهراً. طبعات شعبية ونقوش وسيل غير عادي من قصائد النشوة التي تعلن النصر. لكن الحشود التي نادراً ما تنعم بفرصة رؤية الملك بدت متأثرة حقاً وقد رد لويس بدماثة طبيعية، وهذه ميزة سيفقدها تماماً في الأيام الصعبة عام 1789. لصيحات «عاش ملكنا ـ vive le roi «في شوارع شربورغ رد دون أي تلقين، «عاش شعبي

ـ vive mon peuple . بدت عام 1786 كما لو أنها كذلك في الحقيقة، معتدلة وعفوية. وفي عام 1789، ستبدو، كما لو كانت في الحقيقة، «مُنتزَعة عنوة ودفاعية».

وثمة، علاوة على ذلك، حاشية هامة لتاريخ الأيام الجميلة في كوتنتين. لأنها إذا أظهرت الملكية في الضوء الأفضل الممكن ـ المألوف، المحبب، النشيط، الوطني: ملك للمواطنين أكثر منه للرعية ـ فهذا الانطباع الرائع جاء بثمن. لأن مشروع المرفأ العظيم في شيربورغ كان، في الحقيقة، فكرة خيالية غالية الثمن، حتى إنها ربما كانت إخفاقاً ذريعاً مدمراً. حيث أن نفقات المخاريط ارتفعت بطريقة تنذر بالخطر فيما صار واضحاً أنه لا الوقت ولا المال يسمحان بالإنفاق على نحو غير محدد على البناء والتغطيس. فخُفِّض العدد الإجمالي المخطط 90 إلى 64. وبالتالي اتسعت المسافة بين مخروط وآخر والنتيجة غالباً ما انحرفت السلسلة، فانهارت المخاريط كل على الآخر وهشم البحر جذوع البلوط. وانقضت الديدان البحرية الجائعة بشراهة على الجذوع الباقية فثقبت المخاريط بشدة إلى درجة بدا بعضها يشبه مصافي خشبية ضخمة مع الحجارة تسقط عبر الثقوب المنفرجة. وعلاوة على ذلك، كما صار جلياً أن المخاريط يمكن أن تقام بنجاح خلال شهرين أو ثلاثة في السنة فحسب، وحُسِبت المدة، فتبين أن العمل سيستغرق 18 عاماً حتى ينتهي.

ليس من غير ندم، توقفت الأعمال لوضع المزيد من المخاريط عام 1788 وبعد عام عُلِّق المشروع، واستبدل بالخطط الأصلية لبناء حاجز بحري أكثر تواضعاً. بين عام 1784، عندما غاص المخروط الأول، وكانون الأول عام 1789 عندما أُوقِف المشروع،



الصورة 21، رسم خشبي للمركب الملكي في مرفأ شيربورغ الشخوص في الصورة الأمامية هم «شباب» قيل كانوا يسبحون إلى الجانب ليعبروا عن حماسهم لملكهم.

استهلك ما لا يقل عن 28 مليون ليفر. وهو مبلغ هائل غير عادي. لقد كان، في كل الاعتبارات، مبادرة الدفاع الإستراتيجية الأكثر شعبية في زمنه وكان فشلاً باهظ الكلفة ومثيراً للسخرية، وعندما في عام 1800، بعين إلى القنال التي كانت لا تزال غير مضيافة، جاء مهندسو القنصل الأول ليطلعوا على مرفأ شيربورغ وقد وجدوا مخروطاً واحداً لا يزال يترنح أمام الأمواج، كان المخروط التاسع، المخروط الملكي. لقد عاش سبع سنوات أكثر من الملك البحري الذي رفع كأساً من النبيذ الأحمر بجانبه ليشرب نخب حياته الطويلة.

II ـ محيطات الدين

في صبيحة يوم دافئ عام 1783، في ميناء بريست على المحيط الأطلسي، رأى ريني دي شاتوبريان René de Chateaubriand رؤيا. في وصفه الشخصي وكان لا يزال شاباً رومانسياً، ومع ذلك لم يكن مستعداً لهذا النوع من الحبور الذي شعر به عند رؤية أسطول لويس السادس عشر عائداً إلى الميناء.

> *ذات يوم، سرتُ على شاطئ البحر إلى النهاية البعيدة في المرفأ. كان الجو حاراً فتمددت على الشاطئ وخلدت إلى النوم. أيقظني صوت عال فجأة: فتحت عيني مثل أوغسطس Augustus عندما رأى زوارق ثلاثية المجازيف في الطريق إلى صقلية بعد نصر سيكتس بومباي Sextus Pompey. دوّت طلقات المدافع غير مرّة، وازدحم المرفأ بالسفن: لقد عاد الأسطول الفرنسي العظيم، بعد توقيع معاهدة السلام (معاهدة فرساي)، وناورت السفن وأشرعتها مشرعة بالكامل، تلمع تحت وهج النار والنور، وتزدان بالأعلام، راحت تعرض أجزاءها الأمامية والخلفية والجانبية، وتتوقف لإلقاء مراسيها وسط مساراتها، أو تستمر لتركب الأمواج. لا شيء منحَني فكرة أسمى عن الروح البشرية....*

كان نجاح الجيوش الفرنسية في المحيطين الأطلسي والهندي مثيراً حقاً للكثيرين من معاصري شاتوبريان (وكان سفرن Suffren أكثر الأبطال شهرة). ففي عام 1785، على سبيل المثال، صوّت مجلس الطبقات في بريتاني (لم تتمتع بريتاني بعلاقات مثلى مع آل بوربون) لإقامة تمثال للملك لويس السادس عشر تخليداً لدوره في استعادة بسالة وبراعة الأسطول. وتقرر أن يقام التمثال قرب هضبة قلعة بريست لتراه السفن مثل تمثال رودس Rhodes وهي تدخل الميناء العظيم.

غير أن الأفراح بمشاهدة فوضى الملكية البريطانية والقناعة المتأخرة بهزائم حرب

السنوات السبع، حملت معها فاتورة باهظة الثمن. فقد تمّ إنفاق مبلغ 227 مليون ليفر عام 1781 وحده، عام يورك تاون، أُنفِقَت على الحملة الأمريكية، ومنها 147 مليون ليفر على الأسطول وحده. وقد بلغ ذلك قرابة خمسة أضعاف المبلغ الذي يُخصّص عادة للأسطول في أيام السلم، حتى عند إعادة بناء قوّة بمقاييس لويس السادس عشر. كان يُطلَب من هذه القوة أن تؤدي أربع مهمات عسيرة بصورة متساوية. المهمة الأولى كانت نقل القوات العسكرية إلى أمريكا والمحافظة على تموينها. وكانت الثانية إحباط أية محاولة للتعزيزات البريطانية، وإذا كان ضرورياً مناوشتها بطريقة عدوانية. وكانت الثالثة حراسة منشآت الأسطول الرئيسية في الوطن (درس من الحرب الكونية السابقة)؛ وفي النهاية، أمل فيرجين ووزراء أسطوله بتقصير مدّة الحرب، إما بالتهديد أو فعلاً بتنفيذ غزو بحري لبريطانيا سنة 1779. غير أن النجاح كان ناقصاً بوضوح، لأن سفن الأسطول الفرنسي التي تمتعت بتنفيذ كل تلك المهمات زادت المسافات ومن ثم كلفة الحرب. انطلقت مناشدة سريعة «لتبرّع وطني» لترميم الأسطول عقب معركة القديسين الكارثية، وكما في عام 1762، تحملت جهات عامة وخاصة القسم الأعظم من العبء. فقد أسهمت غرفة تجارة مرسيليا بمليون ليفر لبناء 74 سفينة حربية حصينة التي حملت اسم غرفة تجارة مرسيليا Commerce de Marseille امتناناً لها. ومثلها كانت حماسة الحكام والبرجوازيين في ميناء ميدي Midi، الذين أضافوا مبلغاً قدره 312،414 ليفر لدعم عائلات البحّارة الذين ماتوا. وأسهمت مؤسسات أخرى في التبرّعات، مثل مجالس الطبقات في برغندي وبريتاني، وحتى شركة ضرائب المزارعين الخاصة التي تتلّقى الشتائم سمت سفينتها المزرعة Le Ferme دونما خجل. لكن لم يكن ممكناً خوض الحرب اعتماداً على تبرّعات المواطنين في ثمانينات القرن الثامن عشر أكثر من أي وقت مضى قبل ذلك أو بعده. وكان يجب على المراقب العام لدى لويس السادس عشر أن يذهب إلى قرض أقل كثيراً من غيرية السوق لدعم التزاماتهم العسكرية. لأنه بينما موّلت الحرب البحرية السابقة جزئياً من قروض، وجزئياً من ضرائب مباشرة فُرِضت مؤقتاً على الشرائح السكانية كافة، جاءت نسبة 91 بالمائة من الأموال المطلوبة للحرب الأمريكية من القروض.

تبلغ التقديرات الأفضل لنفقات التحالف الأمريكي في أشكالها العسكرية السرّية والعلنية ـ من 1776 إلى 1783 ـ 1,3 مليار ليفر، ما عدا الفوائد المترتبة على الديون الجديدة التي جلبتها الحكومة على نفسها نتيجة لذلك. وبالتالي، يمكن القول، دون مبالغة، إنّ تكاليف سياسات فيرجين الإستراتيجية العالمية جلبت الأزمة الختامية للملكية

الفرنسية. لأن مواصلة سياسة هجومية في المحيطين الأطلسي والهندي لم يكن المقصود منها أن تكون على حساب الدور الفرنسي التقليدي الذي قام على دعم توازن القوى بين السلالات الحاكمة في أوروبا. ولدعم تلك الدبلوماسية القديمة كانت لا تزال ثمة حاجة إلى 150 ألف جندي في الحد الأدنى. لم تحاول أية قوة أوروبية أخرى تدعيم جيش قارّي كبير وتعزيز أسطول بحري عابر للقارات في الوقت نفسه. (و، جدلياً، لا تستطيع دولة فعل ذلك دون تكبّد نفقات توهن استقرارها المالي في المدى البعيد). فقد كانت الثورة نتيجة هذه القرارات التي اتخذتها الدولة أكثر من أي لا مساواة في مجتمع قام على الامتيازات أو على دورات عنف الجوع التي اجتاحت فرنسا في ثمانينيات القرن الثامن عشر.

إذا كانت أسباب الثورة الفرنسية معقدة، فإن أسباب انهيار الملكية ليست كذلك، فالظاهرتان ليستا متطابقتين، ما دام إنهاء الحكم الاستبدادي في فرنسا لم يستلزم بذاته ثورة بمثل هذه القوة التحويلية كما حدث في فرنسا. لكنّ نهاية النظام القديم كانت الشرط الضروري لبداية عهد جديد، وهذا ما تحقق، في المرحلة الأولى، بسبب أزمة الحركة المالية. فقد أملى تسييس الأزمة المالية استدعاء مجلس الطبقات.

ولننصف وزراء لويس السادس عشر فقد كانوا مقيّدين على قرون مأزق. كان منطقياً لهم أن يرغبوا باستعادة مكانة فرنسا في الأطلسي مذ عرفوا بشكل صحيح أنّ أعظم الثروات تُجمَع من جزر السكر في البحر الكاريبي والأسواق المحتملة في المستعمرات التي تتكلم الإنكليزية. وفي هذا المعنى، اقتضت الإستراتيجية الاقتصادية الحكيمة سياسة التدخّل إلى جانب الأمريكيين. وقد دافع الرسميون، خلال الحرب وبعد سلام 1783، عن هذا التدخّل بما أنه مصمم ليس لإلحاق الممتلكات الإمبراطورية بل لضمان حرية التجارة يقيناً. فبدا لويس السادس عشر ـ مثل حامي حرية الملاحة ـ ويظهر على أكثر المنحوتات شهرة. تحققت الأهداف على المدى القصير دون شك، حيث بلغت التجارة الأطلسية من نانت وبوردو إلى الأنديز الغربية الفرنسية شأواً غير مسبوق في الازدهار خلال العقد الذي سبق الثورة. وفي هذا المعنى، حققت الاستثمارا العسكرية ريعية عالية من غنائم الإمبراطورية.

وجعلت النتائج المالية لتلك السياسة بالذات ذلك النصر باهظ الثمن. فقد أوهن تصاعد العجز في ميزان المدفوعات أعصاب الدولة إلى درجة أن سياستها الخارجية كانت مسلوبة الحرية الحقيقية في العمل بحلول عام 1787. ففي تلك السنة منعت المتطلبات

المالية الصرفة فرنسا من التدخل بشكل حاسم في الحرب الأهلية في جمهورية هولندا لدعم أنصارها، الذين حملوا لقب الوطنيين. وما أثار الجدل آنذاك هو أنّ الحرب التي هدفت لاستعادة قوة الإمبراطورية الفرنسية انتهت إلى تسوية سيئة إلى درجة بدا فيها الملك والوطن الأم كينونتين مختلفتين، وسيمضي وقت طويل قبل أن يتصالحا، ولن يمر وقت طويل حتى تتسع العملية إلى درجة بدا البلاط فيها طفيلياً غريباً يتغذّى على جسد الأمة «الحقيقي».

لابدّ من التأكيد على أنّ السياسات ـ المالية والسياسية والعسكرية أيضاً ـ هي التي جعلت الملكية تركع على ركبتيها. اعتاد المؤرخون متأثرين إلى حدٍّ مفرط بعدم الاستعمال الذي ينطوي عليه مصطلح «النظام القديم» (مصطلح لم يجرِ استعماله حتى سنة 1790 حيث ورد في رسالة ميرابو إلى الملك، بمعنى النظام السابق... وليس القديم) تتعقب مصادر أزمة فرنسا المالية إلى بنية مؤسساتها، بدلاً من تتبع قرارات خاصة اتخذتها الحكومات. وقد عززت التأكيدات الشديدة على التاريخ المؤسساتي والاجتماعي على حساب السياسة انطباع الإدارات أنها وقعت في شرك داخل نظام ميئوس منه، نظام محكوم بالانهيار في يوم أو آخر تحت ضغط تناقضاته بالذات.

وكما سنرى، لم يكن شيء من هذا القبيل صحيحاً. ما بدا له أفضلية من وجهة نظر الثورة قد يبدو عنيداً عصياً على التقويم إذا ما كان في الواقع مفتوحاً على عدد من المقاربات في التعامل مع مشكلات فرنسا المالية. استقرت المشكلة بالأحرى في المصاعب السياسية في دعم قرارات السياسة في تلك إلى المرحلة التي قد يتوجب الدفع مقابلها، وفي تراجع الملك المتكرر عمّا اعتبره مؤقتاً البديل السياسي الأقل إيلاماً. وكما أوضح دي تكفيل أنه إذا كان ثمة أي شيء فهو ليس كره الإصلاح بل الهوس به الأمر الذي جعل الإدارة المالية المتماسكة شاقة إن لم تكن مستحيلة. ولعل خطأ دي تكفيل يكمن في افتراضه أنّ المؤسسات الفرنسية بصورة جوهرية كانت عاجزة عن حل مشكلات النظام المالية. وتبعاً لهذا الرأي، لم يكن هناك مشكلات قصيرة مدى، بل مشكلات بنيوية متمركزة في العمق ولا يمكن تغييرها ـ حتى بالثورة ـ ظنّاً منه أنه رأى أمراض المركزية والقبضة الثقيلة لبيروقراطية الحكم الاستبدادي تتكرر على نحو لا نهائي وبائس عبر التاريخ الفرنسي.

إلى أي مدى وصلت الأزمة المالية الفرنسية الشديدة بعد الحرب الأمريكية؟ صحيح، لقد سببت تلك الحرب ديناً ضخماً، لكن ذلك لم يكن أسوأ من ديون أخرى

بالمقارنة جلبها النظام على نفسه لخوض غمار حروب أخرى اعتبرت أيضاً ضرورية لبقاء موقع الأمة قوة عظمى. وهؤلاء الذين سارعوا إلى إدانة وزراء لويس السادس عشر بسبب تبذيرهم الشديد يجب أن يتريثوا للتفكير بأنّه لا توجد دولة ذات مطامح إمبراطورية لجأت حقاً إلى تأجيل ما تعتبره مصالح عسكرية يتعذر اختزالها بدعوى اعتبارات ميزانية متوازنة. ومثل المدافعين عن القوة العسكرية الجبارة في القرن العشرين، أمريكا والاتحاد السوفياتي، أشار أنصار الموارد الضرورية المماثلة في فرنسا القرن الثامن عشر إلى احتياطيات البلد الديموغرافية والاقتصادية الواسعة وإلى اقتصاد مزدهر يتحمل تلك الأعباء. في الحقيقة زعموا أنّ ازدهار الاقتصاد مرهون بالإنفاق العسكري المباشر في قواعد الأسطول مثل بريست وطولون وغير المباشر في حمايتها الذي أعطي إلى القطاع الأسرع توسعاً في الاقتصاد.

وعلاوة على ذلك، كان العنصر الأهم هو أنه في كل مناسبة أعقبت حروب القرن الثامن عشر، حدثت مرحلة ضبط مؤلمة لكنها ضرورية لتسمح لأموال المملكة بأن تأتي إلى نظام سهل القياد مرّة ثانية. شهدت النهاية البائسة لحروب لويس الرابع عشر، على سبيل المثال، شبح الإفلاس المصرفي وتفكك الجيش الفرنسي الواقعي في الميدان، والتمرد على الضرائب والمجاعات العامة على نحو متزامن. وبلغ حجم الدين قرابة 2,6 مليار ليفر tournois عام 1714، بمعدّل 113 ليفر لكل مواطن في دولة عدد سكانها 23 مليون نسمة ـ وهذا المبلغ يعادل ثلثي الدخل السنوي لمعلّم نجار أو معلم خياط ـ لكل شخص في رعية ملك الشمس. وفي الخروج من آثار الكارثة، كان ثمة محاولة للتعلّم من المنتصرين، الطرف الهولندي ـ الإنكليزي باستيراد مبادئهم المصرفية إلى المالية العامة الفرنسية. حيث أتيحت فرصة للمقاول الاسكتلندي، جون لو John Law، أن يدير وفي النهاية يصفي الديون الفرنسية مقابل ترخيص حصري لمصرف فرنسا المؤسس حديثاً. ولسوء الحظ، استخدم لو رأس المال المكتتب في المصرف للمضاربة في شركات عقارات وهمية أمريكية، وعندما انفجرت الفقاعة المضخمة، انفجر مبدأ مصرف إدارة العجز الوطني. وفي الحقيقة، لم تكن مضاربات لو أكثر إفراطاً، أو في الواقع أكثر استحقاقاً للشجب من مقامرة مماثلة قامت بها شركة بحر الجنوب في بريطانيا. لكن مبدأ المصرف العام نجا من الانهيار لأن مثل هذه المؤسسات المالية انتقلت على نحوٍ أكثر صرامة إلى الرقابة البرلمانية. في فرنسا، لم تكن ثمة مؤسسة مشابهة تستطيع العمل مثل كلب حراسة جدير بالاعتماد يضمن مستقبل المودعين ودائني الحكومة. وكما قال ميشيل مورينو بدقة: إنّ الفرق بين الدينين هو أن عجز فرنسا كان عبئاً ثقيلاً لأنّه فهم على نطاق

شعبي واسع بأنه دين «ملكي» بينما كان الدين البريطاني ديناً «وطنياً».

وبسبب ضعف أنظمة مصرف إدارة الدين، كانت الاستراتيجيات المالية مفتوحة للحكومات الفرنسية للحفاظ على ديونها في مستوى القابلية للإدارة. انغمس المراقبون العامون في مرحلة الوصاية بعد موت لويس الرابع عشر في سجّلات قاسية لحجم الديون وتدخلوا في برامج إيفاء الدين بصورة متطرّفة. كان ذلك بالتأكيد نوعاً تقليدياً من أنواع الإفلاس المصرفي من خلال تقسيط الدين، لكن المدهش هو أنه لم يُضعف الثقة المستقبلية بالتاج الفرنسي. ما دام هناك رأس مال داخل الدولة وخارجها، كان البحث عن الاستثمارا الأعلى ربحية من أنواع الاستثمار المحلية الأخرى. لم تفتقر فرنسا للدائنين، كانت الموازنة الفرنسية عام 1726 متوازنة إلى هذا الحد أو ذاك، لكنها بعون التضخّم النقدي تمكنت من تقليص القيمة الحقيقية للديون، ونجت أموال الأمة في حرب التقسيم البولونية في ثلاثينيات القرن الثامن عشر دون أعباء جديدة مفرطة.

انعكست الصورة في الحربين الرئيستين اللتين تلتا: حرب الخلافة النمساوية من عام 1740 إلى 1748، والحرب التي لا تزال أكثر إثارة، حرب السنوات السبع من عام 1756 إلى 1763. كلفت الحرب الأولى في البر حوالي مليار ليفر، وبلغت تكاليف الحرب الثانية، مع بناء الأسطول، 1،8 مليار ليفر، كما ارتفع معدل العجز إلى 1,2 مليار ليفر عام 1753، وارتفعت الفوائد السنوية إلى 58 مليون ليفر، نسبة 20 بالمائة من الدخل الحكومي. ومع ذلك، قدّر المراقب العام ماكولت دي أرنوفيل Machoult d'Arnouville، بعد الحرب، أن تسديد العجز ممكن خلال خمسين أو ستين عاماً، مفترضاً عدم نشوب حروب جديدة. كان افتراضاً أقرب إلى افتراض عدم وجود فرنسا، أو على نحوٍ أكثر جدية، عدم وجود بريطانيا. حيث ارتفع العجز إلى 2,234 ليفر بعد الحرب التالية عام 1764 بالدرجة الأولى مع خدمة الدين وحدها تأخذ نحو 60 بالمائة من الميزانية، أو ضعفي معدلها قبل عشر سنوات. ففي 13 عاماً ارتفع حجم الدين نحو مليار ليفر.

في حين أن هذا يجعل المحاسبين يتجهمون (إذا كانوا حسني الاطلاع)، إلا أنه بذاته لم يضع فرنسا على المسار إلى الثورة. فقد شهدت أواسط القرن الثامن عشر اتساعاً هائلاً على صعيدي الكم والكيف، في معايير الحرب وتعقيداتها، مما فرض أعباء ثقيلة على القوى الرئيسة المتحاربة كافة. كانت بروسيا الهوهينزوليرنية، التي تعودنا على أن نعتبرها قصة نجاح للبيروقراطية العسكرية، في ورطة شديدة عند نهاية حرب السنوات

السبع، مع أن المعونات البريطانية أبقتها مكتفية ذاتياً. وكان عليها، لكي تشفى من عللها حقاً، أن تستورد نظام الضرائب الفرنسي: مراقبة الدولة régie، التي أدت إلى تحقيق مستوى ما من الاستقرار المالي. ولم تسلم الدول المحايدة من الأزمات، فالجمهورية الهولندية، التي انشغلت بتمويل أي زبون، وكل زبون، واجهت أزمة خطيرة عامي 1763 ـ 1764. ورزحت بريطانيا، مثال المنافسة المالية الآخر، تحت عبء الديون (كما سيحدث خلال الحرب الأمريكية) بالدرجة ذاتها والحجم ذاته شأنها شأن عدوها الرئيس. ولسنا وحدنا من يعرف الآن أنّ عبء الضرائب البريطانية على الفرد وصل إلى ثلاثة أضعاف الفرد الفرنسي، وبحلول عام 1782، وصلت النسبة المئوية من العائد العام المستخدمة لخدمة ديون بريطانيا إلى 70 بالمائة ـ وهذه نسبة مئوية أعلى كثيراً من معادلتها الفرنسية.

وهكذا في الشروط المطلقة، وحتى بعد الدمار المالي الهائل الناجم عن الحرب الأمريكية، لا توجد سوى أسباب قليلة لرؤية مستوى العجز المالي الفرنسي يؤدي بالضرورة إلى الإخفاق التام. لكنّ الفهم المحلّي للمشكلات المالية، وليس حقيقتها الواقعية، هو الذي دفع الحكومات الفرنسية المتعاقبة من القلق إلى الإنذار بالخطر إلى الذعر المالي التام. إذن كانت العناصر التي حددت أزمة الدولة الفرنسية المالية آنذاك سياسية ونفسية بالكامل، وليست مالية أو مؤسساتية. جرت المناظرات، في كل مناسبة، بعد حروب منتصف القرن الباهظة التكاليف، مثلاً، حول عملية إدارة الديون والرغبة النسبية في فرض ضرائب جديدة كبديل لإمكانيات القروض المختلفة. وقد أسفر ذلك عن إيجاد بدائل تقنية صغيرة على نحوٍ واضح في الإستراتيجية المالية التي كانت، كما حاول جميس ريلي أن يثبت في تاريخ رائع للمشكلة، كانت مدمّرة بصورة غير متكافئة. كان أحد المتغيرات هو الاهتمام المتنامي بجدولة تسديد الدين. برزت اللهفة لتطويق الأوهام الأكثر مراوغة ـ تسديد الديون الرئيسة ـ إقناع الحكومات الفرنسية بفكرة تغيير عروض القرض مما دعوه «الالتزام بدفع مبالغ سنوية دائمة» (الذي يمكن أن يمضي إلى ما بعد مصطلح حياة وحيدة) إلى «الالتزام بدفع مبالغ سنوية مدى الحياة» التي تنتهي بوفاة صاحبها. وفي حين ربما بدا ذلك فكرة جيدة للمدراء أصحاب فكرة تسديد الدين، فقد عنى في التطبيق أن التاج يدفع الآن 10% لدائنيه بدلاً من نسبة 5% على القروض الدائمة. أضاف ذلك عبئاً ثقيلاً على أعباء الخدمة الحقيقية للمستقبل.

ثانياً، كان ذلك في أعقاب الحرب النمساوية وحرب السنوات السبع أن ذهب المستشارون العامون الذين حاولوا أن يستمروا في ضرائب الحرب المباشرة المؤقتة ذهبوا

بطيش مقاومة سياسية قوية وواضحة. وقد كان سبب ذلك السخط كله في اسم «الحريات» الفرنسية الذي عنى أنّ هذه الضرائب كانت مفروضة على فئات السكان بغض النظر عن مرتبتها الاجتماعية. قد يبدو الأمر غريباً لنا أن «الرأي العام» الفرنسي (لأنه شيئاً كهذا يدعى «الرأي العام» كان موجوداً) لم يرَ هذه المعارضة بأن دافعها هو الحماية الجشعة للاستثناءات الضريبية. بل في خمسينات القرن الثامن عشر وستينياته، عندما انطلقت الهجمات على الاستبداد الحكومي تكوّن الرأي العام السياسي، في معظمه، إما من الناس الذين كانوا في قلب نظام الامتيازات، أو هؤلاء الذين كانت لديهم فرصة جيدة لدخوله. وفي هذه الظروف أصبح «الامتياز»، مرادفاً «للحريات». وضع «حديث» يمكّن التاج أن يطلب من رؤساء المجموعات ذات الامتيازات حشد المساندة الشعبية لاستثنائها من الضرائب، لم تكن ثمة قدرة على تصوره في ذلك الزمن. كان ذلك خارج حدود السؤال قبل عشرين عاماً، حتى في سنة 1789، تمّ فعل ذلك بممانعة شديدة. فعلى سبيل المثال، قدم المراقب العام سيلويت Silhouette عام 1759 عرضاً يقضي بفرض ضريبة على المواد الترفيهية، مثل أطباق الذهب والفضة والمجوهرات والعربات ـ والعزوبية (عدم الزواج) أيضاً ـ لكنّه أُعفي من منصبه بسبب طول المدة التي قضاها، وخرج وسط فيض من الشتائم. كان لويس الخامس عشر، في أواخر عهده غير المدون بشكل محدد، مستعداً لفرض معايير مالية غير شعبية بواسطة أمر ملكي لتحقيق العدالة royal fiat of the lit de justice. ولكن بسبب حساسية حفيده المفرطة لمسألة الشعبية، حاول وزراء لويس السادس عشر تجنب أي شيء خارج القانون. فكانت الصيغة التفاؤلية لسياسات ترغو التي أعلنها عام 1775 هي «لا للإفلاس المصرفي، لا للضرائب، لا للقروض». وقرر جاك نِكر Jacques Necker، مدير عام عمليات التمويل في جنيف، تمويل الحرب الأمريكية الهائلة بالقروض أكثر من الضرائب. كان الفرق الحقيقي بين الورطة البريطانية والورطة الفرنسية، عقب تلك الحرب، هو أنّ وليم بيت William Pitt استطاع زيادة الدخل من الضرائب الجديدة دون التهديد بأزمة سياسية حادّة، وهو خيار لم يكن متاحاً لنظرائه الفرنسيين.

جادل المؤرخون لفترة طويلة من الزمن الآن أن ما فعله وزراء التاج الفرنسي أو ما لم يفعلوه حيال مسألة الديون كان ضئيل الأهمية، لأنّ المشكلة الفعلية كانت في طبيعة ملكية النظام السابق نفسه. سأل أمسترونغ Harmstrung بامتياز: كيف يمكن لحكومة تتألف من رجال اشتروا مناصبهم أو توارثوها أن تأمل حتى بالقليل من الفعالية الإدارية؟ فحتى بالإرادة الأفضل في العالم والموظفين المؤهلين (ولا شيء من ذلك يمكن التعويل

عليه)، كانت الحكومة الفرنسية فراغاً يشرف على فوضى. وإذا أضفنا إلى ذلك عجزها المالي الكبير، فالغريب ليس في أنها انتهت على نحوٍ سيء، بل في أنها بقيت طوال تلك المدة.

لكن هل هذا البرهان صحيح؟ يفترض البرهان، لنبدأ بذلك، أن دولة القرن الثامن عشر، لتعمل بشكل صحيح، عليها أن مقاربة نسخة ما من حكومة «الخدمة المدنية». ويمكن أن يُعرَّف هذا بأنه حكومة يحتكر الوظائف العامة فيها موظفون يتقاضون رواتب، تدرّبوا على العمل الإداري، يُوظَّفون حسب الجدارة، محررين من أي مصلحة خاصة في المنطقة الإدارية التي يعملون فيها، ومسؤولين أمام نوع ما من هيئة سيادية نزيهة. صحيح كفاية أن الخطوط العريضة لهذه الآلية الإدارية كانت واضحة في علم «الحكومة القضائية» خلال القرن الثامن عشر وأنه، للمرة الأولى، رعيل من أساتذة القضاء والسياسة ـ ما يمكن أن نسميه الحكومة والمال ـ كانوا منشغلين لاسيما بإنشاء كراسٍ في الجامعات، خاصة في البلدان التي تتكلم اللغة الألمانية. لا يتطلب الأمر أكثر من نظرة سريعة إلى واقع حكومة القرن الثامن عشر في كل أنحاء أوروبا لنرى أنّ هذه المبادئ كانت أكثر احتراماً في خرق القانون. فقد كانت البيروقراطية البروسية الأوسع شهرة، على سبيل المثال، مرتعاً للفساد والرشوة، وكانت صنيعة سلالات من النبلاء الذين استوطنوا مكاتبها في شكل جماعات واسعة. وفي تلك الدولة كان يتمّ تعيين موظفي الحكومة المحليين، ليس على قاعدة استقلاليتهم عن المجتمع المحلّي لمالكي الأرض بل بسبب التصاقهم بهم. وبالمقارنة كان الولاة الفرنسيون رموزاً للاستقامة والموضوعية. وحتى في بريطانيا، كانت حكومة هانوفر سيئة سمعة لأنها عمدت إلى خلق وظائف ذات عمل ضئيل لكسب مجموعات من الموالين السياسيين. لا يعني هذا أنني أشير إلى أنّ القدرة الإدارية لم تكن ممكنة في هذا النظام، بل الأمر نفسه يصح على الحكومة الفرنسية شأنها شأن أية حكومة أخرى.

ويقال إن أهداف الحكومة ضلّت سبيلها جدياً في غابات الامتيازات التي نمت في فرنسا بشكل خصب. تمّ تعريف الامتياز أخيراً في الإعفاء الضريبي. وحرية النبلاء ورجال الدين في توجيه الضرائب التي مُنِعت على نحو واضح عن الخزينة الملكية التي كانت بحاجة ماسة إلى المال. غير أن ذلك مضلل أن نرى الطبقات صاحبة الامتيازات تُزال برمتها من قاعدة ريع الحكومة. كان النبلاء خاضعين لضريبة مفروضة على تعداد الأفراد، وضرائب الملكية الأخرى المباشرة مثل ضريبة 5% على أملاكهم. وخضع النبلاء في بعض

الحالات، لضريبة الأراضي: الضريبة المباشرة الرئيسة للنظام السابق، وبينما جرى فرض ضريبة الأرض في بعض المناطق على عدد الأشخاص، فُرضت في مناطق أخرى على الملكيات. ويعني هذا، على سبيل المثال، إذا استحوذ نبيل على ملكية كجزء من مهر من عائلة أخرى تنحدر من أصل برجوازي، يترتب عليه، وعلى ورثته، دفع ضريبة الأرض عن الملكية. وما دام أسلوب إرث الملكية أكثر انسياباً، ويجري تبادله بين جماعات اجتماعية متباينة، غدا الأسلوب الأكثر شيوعاً في فرنسا، وارتفع عدد النبلاء الملزمين بدفع ضريبة الأرض في الاحتمالات كافة.

وأخذت الحصانة المالية كملمح من ملامح الامتياز، آنذاك، تتقوض بشكل مستمر وثابت إلى المستوى الذي قاد الكتاب الأرستقراطيين قبل الثورة إلى اقتراح إلغائها تماماً بسرور. ولكن للسبب نفسه، لو وُضِع أصحاب الامتيازات بالكامل ضمن الطبقات التي تخضع للضرائب مبكراً جداً، لما أحدثت العائدات الإضافية فرقاً كبيراً في مشكلات العجز. وما يمكن قوله في هذا السياق، هو أنّ مبدأ الاستثناء في قمّة المجتمع رشح بوصفه حاجة إلى التهرب في القاعدة. وهكذا أدرك كثيرون في فرنسا ـ كما تشهد عرائض الشكوى قبل الثورة ببلاغة ـ أدركوا علاقتهم بالدولة كنوع من لعبة مالية مجموعها صفر. وقد عنى ذلك للمزارعين المفقَرين نقل قطع الأثاث القليلة مما يملكونه ـ سرير وبعض الأواني ومعزاة هزيلة ـ إلى قرية غير دائرته لتجنب التقييم. ولأن الدائرة كانت وحدة ضريبة الأرض، كان ذلك من نوعاً من تكتيك التهور اليائس الذي ساعد على بناء «رأسمال المزارع في الأرياف»، كما توهّم المنظّرون الاقتصاديون في ذلك الزمن. وعلى مستوى البرجوازية المدينية عنى تكديس المال الكافي لشراء واحدة من آلاف الوظائف الصغيرة في البلدية التي تمنح الإعفاء من الضريبة. وهكذا كان ثمة، في كل بلدة كبيرة ولاسيما في باريس، أعضاء نقابة باعة المحار ومعايري كثافة الأجبان والألبان ومراقبي الأحشاء الحيوانية، الذين فاخروا بمناصبهم الصغيرة وتمتعوا بإعفاءاتهم.

صار الفساد والقابلية للرشوة المرتبطة بالامتياز، وليست مرادفة له، الطاعون الأخطر، وفي حكم المؤكد عائقاً لوقف نزيف التاج، لأن بيع المناصب وشراءها كان في فرنسا أكثر عمقاً وتجذراً من أية قوة عظمى أخرى في أوروبا. بدأ كممارسة قروسطية، لكنّ هنري الرابع قنون بيع المناصب كطريقة لجمع الريع للتاج عام 1604. وفي الواقع أقرض الشاري مبلغاً من المال للحكومة (سعر الشراء)، مقابل ما استلمه كعائد مال وعلاوات (ضمانات) من المنصب. ونال منزلة (بما فيها الإعفاء الضريبي) وذلك إذا كان

هناك من جوانب غير مالية في المنصب القابل للفساد جعل الفرنسيين يقاومون إلغاءه بعزم.

قام عدد من الوزراء بمحاولات جريئة في عهد لويس السادس عشر لتقليص اعتماد التاج على هذا النوع من الريع، ولكن بعد سقوط نِكر، بدا أنه ما يزال وسيلة عصية على المقاومة في زمن أزمة مالية. كانت النسبة التي تدفعها الملكية على المناصب القديمة، أو على إنشاء مناصب جديدة، بين 1% و3% ـ وهي أدنى كثيراً مما يُدفع على أنواع أخرى من القروض. ووفقاً لرأي دافيد دي بيان David D. Bien، جُمع نحو 45 مليون ليفر من بيع المناصب في الفترة الواقعة بين الثورة الأمريكية والثورة الفرنسية ـ ليس مبلغاً كبيراً إذا قسّمناه على تلك السنين، لكنّه دليل على العراقيل التي واجهت الإصلاح الراديكالي. وهكذا في الوقت ذاته الذي كان فيه هدف الحكومة الطويل الأجل محاولة توسيع نطاق السيطرة على الأموال والوظائف، كانت احتياجات المدى القصير الأجل تجعل تحقيق ذلك أكثر تعقيداً بدل أن تسهله.

وكانت المشكلة أيضاً مسألة موقف. لأن الامتيازات غدت متاحة على نطاق واسع ولا ترتبط ـ كما كان في السابق ـ بالولادة أو المنزلة الاجتماعية، فقد شكل هؤلاء الذين كان يمكن أن يفقدوا منزلتهم الاجتماعية وأموالهم النقدية أيضاً تحالفاً يتوسع يوماً بعد يوم. وحتى بين الكتّاب الإصلاحيين الذين وجهوا السخط إلى أي نوع من أنواع الإساءة في استخدام السلطة والمفارقة التاريخية، كان هناك قليل من الحماس لنوع ما من دولة بيروقراطية غير فاسدة. حيث تلّهف فولتير Voltaire ودالِمبر d'Alembert، على سبيل المثال، كأي شخص آخر للحصول على منصب سكرتير ملك خطوة أولى إلى أشياء أعظم. ولم يعرف وزراء لويس السادس عشر الإصلاحيون أبعاد المشكلة وحسب، بل كانوا قلقين من أي هجوم شامل. وكان نِكر المنيع على أية هفوة بصورة فائقة وحده مستعداً لمواجهة تحدّي أصحاب المناصب المتمردين، حتى أنه كان في البلاط آنذاك ـ هدفاً شعبياً دائماً ـ أنه حدد المكاتب العديمة الفائدة على نحوٍ فاضح لإصلاحها. ولكن، طالما جرى التعامل مع المناصب كنوع آخر من الملكية الخاصة ببساطة، فلا أحد كان بإمكانه أن يتخيّل مصادرتها دون تعويض مناسب. أشارت التقديرات الدقيقة إلى وجود قرابة 51 ألفاً من المناصب القابلة للفساد والرشوة في فرنسا عشية الثورة، تمثّل رأس مال يتراوح بين 600 و700 مليون ليفر. وستكلف إعادة شرائها فوراً الدولة ما يعادل ريع عام كامل تقريباً. ويعني هذا إغلاق فرنسا عاماً كاملاً، لنقل العبء إلى القطاع العام.

ضربت فكرة المنصب الحكومي كنوع من ملكية خاصة المشاعر الحديثة، بما أنه في

التعريف متناقض مع المصلحة العامة. وفي الحقيقة، الميزة الأكثر قدماً زمنياً في النظام القديم، يبدو أنه غير قادر على التمييز بدقة بين عالَمي العام والخاص في شؤون حيوية مثل أمواله. ولكن حتى هنا، ثمة حاجة إلى منظور ما للحكم على إخفاقات الملكية الفرنسية بمعاييرها بدلاً من معايير النظرية الإدارية الحديثة. استجرّت الدول الأوروبية المحاربة كلها في تلك الآونة ـ ولزمن ليس قصيراً ـ ريعها من ثلاثة مصادر: الضرائب المباشرة ـ كما في فرنسا ـ جباها موظفون حكوميون، والقروض من مجموعات ومؤسسات وأفراد ربطوا مصالحهم الخاصة بمصلحة الدولة، وأخيراً الضرائب غير المباشرة التي أدارها بيروقراطيون في بعض الأمكنة، وتمّ تلزيمها في أمكنة أخرى لأفراد يدفعون للدولة مبلغاً من المال مقدماً لقاء حق جباية الضرائب بأنفسهم. غطى الفرق بين ما أقرضوه وبين ما جبوه الأرباح ونفقات العمل. استخدمت الدولة النابليونية، التي تؤخذ كدولة بيروقراطية بامتياز، في الحقيقة الحالات الثلاثة كلها كما فعل النظام السابق تماماً، ولم يتمّ الإبقاء على الأموال منتظمة آنذاك إلا بواسطة أشكال الابتزاز العسكري الأشد قسوة، وانتزعوا عنوة مبالغ ضخمة من المال من الدول التي «حررها» الجيش الفرنسي.

وهكذا ما مدى خطورة النتائج الناجمة عن دمج أعمال مملكة القرن الثامن عشر مع العمل الإداري في تصريف شؤونها المالية؟ تردد لزمن طويل أنّ فوضى هذه الترتيبات، على سبيل المثال، أدّت إلى إرجاء ظهور موازنة نظامية حتى حاول نِكر تقديم ميزانيته الخاصة المنشورة عام 1781. ولكن كما أظهر مايكل مورينو Michel Morineau في دراسته المثلى لهذه القضايا أنه في الظرف الذي انعدم فيه وجود سجلّ عام، كانت هناك بالتأكيد ترتيبات مكّنت المراقبين العامين من توزيع حصص الإنفاق بين إدارات الدولة ورؤية كيفية إنفاق تلك الأموال عملياً بعدالة ودقة وموثوقية في تلك الإدارات. وقد أجمع المؤرخون كلهم على أنّ الملكية لو امتلكت الجرأة لتأخذ على عاتقها مباشرة عمل إدارة وجباية الضرائب غير المباشرة، لوفرّ ذلك أرباحاً ضخمة ذهبت إلى «الوسطاء» التجاريين الذين فرضوا الضرائب بالنيابة. ومن جهة أخرى، في كل حال، كانت ستتحمل عبء تلك التكاليف الإضافية للإدارة، التي ربما عادلت المكاسب، لا لنشير إلى الكره الذي لا بد أن ينجم عن فرض الضرائب على السلع الأساسية. وقد أكّدت التقديرات أنّ سقوف جباية الريع الفرنسية وصلت إلى نسبة 13 بالمائة في الإجمال، مقارنة مع 10 بالمائة في بريطانيا، حيث يقوم الجهاز الإداري المركزي بإدارة الجمارك والرسوم. فإذا كان ذلك حقاً هو الذي في خطر، فلا غرابة أن يكره المراقبون العامون إفساد نظامهم المعتاد مقابل نوع من سيادة نظرية على عمل عام.

إنها سياسات النظام السابق، وليست بنيته العملية، هي التي قربته من الإفلاس المصرفي والكارثة السياسية. ومقارنة مع النتائج التي نبعت من القرارات العظيمة للسياسة الخارجية، والامتياز والفساد والإدارة غير المباشرة للريع، كانت أقل أهمية كثيراً. ففي جذور مشكلاتها كانت نفقات التسليح التي اقترنت بالمقاومة السياسية لفرض ضرائب جديدة، وتنامي رغبة الحكومات بقبول التزامات عالية الفائدة من المقرضين المحليين وعلى نحوٍ متزايد الأجانب. لا شك كان تهور الحكومات الفرنسية في ثمانينيات القرن الثامن عشر أن تدخر لنفسها الكثير من المشكلات. لكن ذلك أحرز شكلاً متفوقاً من الوعي المتأخر إلى الحد الذي يجعل أمريكياً في ثمانينيات القرن الثامن عشر يقرر أنه شيء عديم النفع مثل بليد ذهن ميئوس منه.

III ـ إقطاعات مال وحروب ملح

لعلّ النظام السابق كان أكثر فعالية في تأمين نفسه بعائد، وحتى في إدارته، أكثر مما يُعترَف به عادة. لكنّ للفلاح الذي يتهرب من جابي الضرائب في دائرته قلما كانت تلك مشكلة. في الواقع، إذا كان هناك جانب واحد للصورة التقليدية للملكية الذي يظل دون تدقيق على نحوٍ مؤكد من خلال البحث الحديث، فهو الحقد الصريح بين كل شرائح المجتمع تقريباً (لكنّه يغدو يأساً أكثر ضراوة في قاعدة المجتمع) لجهاز جباية الضرائب في الدولة والسيد الإقطاعي على حدّ سواء. وكما شهدت عرائض الشكوى (cahiers de doléances) التي رافقت انتخابات مجالس الطبقات، كان جباة الضرائب باسم الملك هم «أعداء الشعب». وعلى المستوى الأبسط في المجتمع، وقعت هذه اللعنة على رأس الفرد التعيس الذي أرهقته مهمة جابي ضرائب الأرض في المنطقة. إذا ما فشل في جمع الحصة المخصصة لتقييمه بواسطة مكتب الناظر فقد تتعرض أملاكه الخاصة، وحتى حريته للمصادرة الجائرة. لكن إذا كان فعالاً جداً في عمله، فقد يقع في مصير أكثر سوءاً، ويسلبه سكان قريته في سكون الليل.

وفي قمة المجتمع، استهدف نوع مماثل من العداء تجّار المال (المرابين) المتنفذين gens de finance . ففي لوحة داريغراند Darigrand النقدية العنيفة «ضد الممول - L'Anti Financier»، التي عُرِضت عام 1763، أظهرت المنقوشة واجهات المباني في فرنسا جاثية أمام لويس الخامس عشر، بينما كان يتلقى الشكر (مبتسر بطريقة ما) لقاء فرضه ضريبة ملكية واحدة وبذلك يحرم المرابين سبب وجودهم. وتفرض العدالة بسيفها المسلط



الصورة 22، واجهة المبنى لِ دارينغراند ضد الممول (المرابي)

على الممول أن يتخلّى عن كسبه الحرام عند قدمي المزارع الفقير. وفي اللوحة ذاتها تمّ وصف المموِلين أنهم مصاصو دماء sangsues يسمّنون أنفسهم من ممتلكات الشعب. وابتكرت المسرحية التي كتبها الناقد الساخر ليساج Lesage شخصية تركاريه Turcaret الغريبة المتناقضة: شخص وضيع المنبت وقاس وجشع وانتقامي ونبيل تافه في دنيا المال الذي تغدو سوء سمعته ممكنة الاحتمال بسلوكه السوقي الهزلي. وتتبلور في المسرحية جملة من المضامين التي يمكن أن تسمّى «وطنية رومانسية»، في العداء تجاه المموِلين: فالمدينة تلتهم ممتلكات الريف البريء، والرفاهية تغذي بقاءها بتأبيد الفقر والفساد والظلم في تحالف ضدّ البساطة الريفية. وكان ذلك في مظهر المواطنين الوطنيين فوق كل شيء أن النقاد مثل داريغراند هاجموا جماعة المال لأنانيتهم، ويتدربون تماماً على ما سيعنيه اليعاقبة الثوريون عندما وصموا الرأسماليين أنهم أغنياء جشعون.

كلّما جاء أي من المقرضين البارزين إلى البلاط لهذا النوع من المعالجة، كانت تُفرد أقسى عبارات الذم ضد جمعية جباة الضريبة غير المباشرة. ارتكزت قوتهم، بعد كل شيء، على جوهر النظام، وكانوا مسؤولين عن أكثر من ثلث العائدات في فرنسا. تعاقد

التاج مع مجموعة من هؤلاء الرجال كل ست سنوات لقاء كفالة، أو عقد إيجار، يلتزمون من خلاله بدفع مبلغ محدد من المال للخزينة مقدماً مقابل الحق بجباية ضرائب غير مباشرة محددة. كانت تلك الضرائب، بصورة رئيسية وغريبة ضرائب الملح والتبغ بالإضافة إلى عدد من الرسوم الضئيلة على سلع مثل الجلد والأدوات الحديدية والصابون، المواد المعروفة بشكل جمعي أنها مواد مساعدة. (وكانت ثمّة ضرائب أخرى تجبى على شكل رسوم جمركية - رسوم عبور - كانت تفرض بصورة رئيسية على نقل الخمور من منطقة جمركية إلى أخرى، أو عند الدخول أو الخروج من المدن).

اجتذب جباة الضريبة حصة متفاوتة من الكراهية، ليس لأنهم كانوا العنصر الأكثر رجعية في المكنة المالية في الدولة، بل لأنهم كانوا الأكثر فعالية بطريقة وحشية. كانت المشكلة في ضريبة الإقطاعات التي قيل إن الفجوة بين ما دفعه الشعب وما تلقته الخزينة الملكية هي الأكثر بروزاً. وواقع أن ربحهم - أو الفرق بين ما جبوه وبين ما دفعوه للتاج - ظل سراً تجارياً، لم يسعف في تخفيف الفكرة الشديدة التبسيط التي تصفهم أنهم عصابة من النهابين الجشعين، ولصوص قطاع طرق مرخصين ملكياً. إذا كان ثمّة رمز واحد لعدم مسؤولية النظام السابق القاسية لاحتياجات الشعب الأساسية، فقد جسّدته جمعية متعهدي الضريبة في شخصيتها الجمعية والفردية.

ليس مدهشاً أن الثورة ستفرزهم لجلب الانتباه. ففي عام 1782، كتب الكاتب الشعبي والصحفي لويس سيباستيان مرسييه Louis - Sébastien Mercier أنه لم يستطع السير بمحاذاة أوتيل دي فيرم Hôtel des Fermes في شارع جرنال سان أونور - Grenelle - Saint Honoré دون أن تتملكه الرغبة في «تغيير هذه الآلية الضخمة اللعينة التي تمسك كل مواطن ببلعومه وتسحب دمه». سيكون أحد الأعمال المميزة الأولى لانتفاضة باريس العظيمة في تموز عام 1789 تهديم حاجز الرسوم الضريبية الذي أُقيم لاعتراض المهرّبين. سيصيبهم فردياً أسوأ مما لحق بممتلكاتهم. وقد طوردوا بسمعتهم أنهم مصاصو دماء اقتصاديون، وقد أشيع أيضاً على نطاق واسع أنهم أخفوا ثلاثمائة إلى أربعمائة مليون ليفر من غنائمهم. وحذّر مارا: «ارتعدوا، يا مصاصي دماء الفقراء البؤساء التعساء»، وطالب ليونارد بوردون Léonard Bourdon في تشرين الثاني من عام 1793، أن «يدفع مصاصو دماء العامة هؤلاء (باتوا يعرفون الآن مباشرة بأنهم مرادفون لجباة الضريبة) إما أن يقدموا حساباً بسرقاتهم ويعيدوا ما سرقوا إلى الأمة أو أن يُسلّموا إلى سيف العدالة». وفي أيار عام 1794، وسط أحد أكثر مشاهد الإعدام الجماعي إثارة، تمّ إعدام مجموعة منهم بمن

فيهم العالم الكيميائي لافوازيه Lavoisier بالمقصلة.

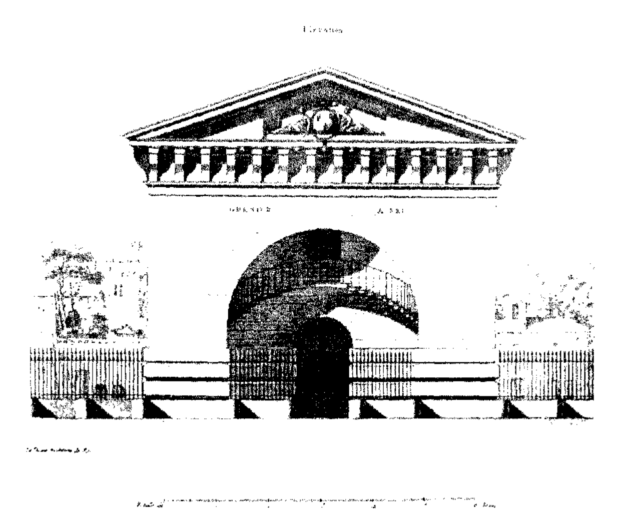
لم تكن جمعية جباة الضريبة غير المباشرة، في كل حال، مجموعة مضاربين في ديون التاج ومبتزي الشعب فحسب، بل كانوا دولة ضمن الدولة أيضاً. نصف مؤسسة تجارية ومالية، ونصف حكومة، وطاقم من الموظفين، بلغ نحو 30 ألف موظف في الحد الأدنى، كانوا رب العمل الأكبر في فرنسا بعد مؤسسة جيش الملك وأسطوله. وشُكّل من ذلك العدد قوة عسكرية موازية من 21 ألف خفير ارتدوا زياً موحّداً، وتسلّحوا ليس بالأسلحة وحسب، بل وبحق الدخول والتفتيش ومصادرة أية ممتلكات أو أثاث يعتبرونه مشبوهاً. وأُمِروا برسم خريطة خاصة لفرنسا، لأغراض مالية، قسمت فيها فرنسا إلى سلطات متعددة ومنفصلة (la grande gabelle, pays de quart bouillon، الخ. . .). لكل سلعة فرضوا عليها ضريبة. لم يكونوا مجرّد جباة للضرائب وفارضي رسوم. ففي المواد الرئيسة التي اهتموا بها ـ لاسيما الملح والتبغ ـ كانوا منتجين ومصنّعين ومكررين وأصحاب مستودعات وباعة جملة ومحددي أسعار وبائعي مفرّق محتكرين أيضاً.

ولكي يدرك المرء الكيفية التي تسللت بها جمعية جباة الضريبة إلى الحياة اليومية لكل عائلة فرنسية لن يحتاج إلى أكثر من تتبع رحلة كيس الملح الملتوية من مسابخ بريتاني إلى المطبخ. فقد خضع كيس الملح، في كل مرحلة، للمراقبة والفحص والحراسة والتسجيل، وإعادة الفحص وإعادة التسجيل، وفوق كل شيء إلى فرض الضريبة قبل أن يصل إلى يدي المستهلك. كانت هذه السلعة أسيرة لحق جمعية جباة الضريبة في ممارسة قواعد الضبط الصارمة من بداية العملية إلى نهايتها. توقف كل شيء على سيطرتهم على التسعير. ففي عام 1760، على سبيل المثال، طُلب من منتجي الملح من سباخ نانت Nantes الغريبة أن يبيعوا إنتاجهم لجمعية جباة الضريبة بأسعار ثُبِّتت بعد مفاوضات أحادية الجانب. شُحِن الملح من هناك إلى المستودعات الساحلية عند مصبّات الأنهار حيث عُبِّئ في أكياس مسجلة ومختومة. كان كل من هذه المستودعات مخصصاً لتزويد عدد من المستودعات الأبعد في الداخل، المستودعات التي تمّ نقل الملح إليها بالزوارق. كانت مجموعة المستودعات الثانية مبنية على تخوم الأنهار الصالحة للملاحة، حيث كان الملح يُنقل منها بالعربات إلى مجموعة من المستودعات الأخرى، وكان يخضع للتفتيش في كل مرحلة من مراحل هذه الرحلة. تنتهي العمليات أخيراً في المستودعات المركزية التي استأجرتها جمعية جباة الضريبة. كانت تلك المستودعات عبارة عن مبانٍ ضخمة يعمل فيها عدد كبير من الكتبة والحراس تحت أمرة رئيس مسؤول عن بيع الملح، بعد فرض الضريبة

طبعاً، للمستهلك. وكان ينبغي قطع فاتورة وإيصال على نسختين لكل عملية بيع. وفي ما يتعلق بهؤلاء الذين يعيشون بعيداً عن المستودع المركزي، كانت توجد امتيازات مرخصة للقرية الصغيرة للبيع للسكان المحليين ولكن بسعر أعلى قليلاً من تعرفة جمعية جباة الضريبة الرسمية.

حتى لو لم يمتلك المجلس حق تحديد سعر الملح، فالوزن البيروقراطي الخالص في توزيعه الرسمي سيزيد سعره كثيراً. كانت بيوت قليلة تستطيع الاستغناء عن هذه المادة الأساسية، لكنها لم تُمنح إمكانية الامتناع عنها، ما دامت ملزمة قانوناً بشراء كمية محددة سنوياً، تُحدد بتقييم فردي. ولم يجد المستهلك ذو الموارد المحدودة والمأسور بهذا النظام المدهش من الرقابة والضريبة إلا مخرجاً واحداً مع أنه غير قانوني: التهريب. وهنا عملت خريطة جمعية جباة الضريبة المالية الدقيقة ضد أمنهم الخاص. فما دام الملح يمكن أن يُجلَب عبر حدود الدولة بأسعار تقلّ عشرة أمثال عن سعر جمعية جباة الضريبة، فقد ازدهر التهريب على طول الحدود الجمركية الواسعة الانتشار. وقد طُبِّق هذا بقوة أكبر على أنظمة التبغ قرب الحدود الاسبانية في الغرب وسافوي في الشرق. لكن تهريب الملح أنجز حالة ملحمية من حرب شبه دائمة بين جيش جمعية جباة الضريبة وعصابات المهربين تركزت في الجزء الغربي من فرنسا. فرضت الدولة عقوبات دراكونية صارمة على المهربين، في محاولة لمنع التهريب: الجلد، الوسم بالحديد الحامي، السجن، (وفي حال الاعتداء على الحراس) الإعدام بخلع الأوصال على عجلة التعذيب. ومع ذلك تعاون مئات الأشخاص وربما الآلاف من رجال ونساء وأطفال وحتى الكلاب المدرّبة في التجارة الخطرة لكن المربحة في غرب فرنسا. قدّر نِكر ـ الذي تعوّد استخدام الأرقام المشكوك بصحتها في كل شيء ـ أنّ قرابة 60 ألف شخص متورطون في عمليات تهريب الملح. كان ذلك الرقم مبالغ فيه بالتأكيد، ولكن بين 1780 و1783، كان معروفاً أنّ 2342 رجلاً و896 امرأة و201 طفلاً عملوا في منطقة أنجر Angers على طول الحدود مع بريتاني. ومقابل كل إدانة كان ثمة خمسة اعتقالات ذات دليل ضعيف لمتابعة الدعوى.

كانت جمعية جباة الضريبة أكثر لطفاً في ما يخصها. ففي حين تقاضي الحراس والموظفون أجوراً بائسة، كانت وظائفهم مضمونة تماماً بالإضافة إلى مكافآت هامشية غير منتظمة. وفي 1768 يبدو أن جمعية جباة الضريبة ابتكرت أول خطة تقاعد مشتركة، قامت على حسم من الأجر أضافت إليه الشركة مبلغاً مماثلاً. (وقد وصل المبلغ المودع في صندوق التقاعد إلى260 ألف ليفر بحلول عام 1774). وكان الحارس بعد عشرين عام من



الصورة 23، رسم معماري للرسام س. ن. لِدوكس، لبوابة في جدار جمارك باريس

العمل الوظيفي يستطيع أن يتقاعد بمعاش تقاعدي مدى الحياة اعتمد على مرتبة المتقاعد وأقدميته.

كانت جمعية جباة الضريبة نسخة مضغوطة عن حكومة النظام السابق غنية في فضائلها وآثامها. حيث قدّمت على المستوى المحلي مزيجاً استثنائياً من الأبوّة المشتركة ومبادئ تجارية بلا عوائق شديدة، قواعد تنظيمية ومشاريع، إدارة فعّالة وبيروقراطية ثقيلة، إجراءات مدروسة وقسوة عسكرية اعتباطية. وقدمت، في قلب عملها في باريس، وجهاً مغايراً تماماً: وجهاً مصقولاً، مدينياً، تكنوقراطياً و، فوق ذلك كله، ثرياً لا يقاوَم. مع ذلك تعرّض عديدون للشتائم، وكان بعضهم موضوع أعمال مسرحية وكتابية، وقد عرفت جمعية جباة الضريبة أنها محط أنظار الجميع. كانت بيوت جمعية جباة الضريبة هي الأروع، وغرف استقبالهم ملأى باللوحات الفنية الساحرة، معظمها نتيجة ذوق مغامر

للوحات الهولندية المخصصة للقاعات الخاصة بالإضافة إلى رسوم فرنسية دائمة الحيوية. كانت بناتهم موضوع شهوة مثل صيد جائزة، وغالباً ما تزوجن من صفوة الأسر النبيلة العريقة، لاسيما الأسر الأرستقراطية ذات المكانة القانونية، التي تدد خطباؤها بجمعية جباة الضريبة حتى وهم يحصون حجم مهر العروس المأمول.

وكان أعضاء جمعية جباة الضريبة بعيدون من كونهم صياحين أجلاف حديثي نعمة ماديين الذين رسمهم فن المسرح الساحر لِـ تركاريت Turcaret. ولم يشذ الفيلسوف هلفيتيوس Helvétius في دمج التأمل الفكري لدى نوع جسور مع المضاربة المالية لدى نوع متعقل. فعندما مات عام 1771 ترك ثروة كبيرة لأرملته الكونتيسة دي ليغينيفيل داوتريكور Comtess de Ligniville d'Autricourt، التي أدارت الصالون الأروع في باريس، تحيط بها مجموعة من قطط أنقرة، تجيب كل واحدة منها باسم مختلف، وترتدي كل واحدة منها وشاحاً حريرياً. وبالمثل ذاعت شهرة سلالة لابوردي على نحوٍ جدير بالملاحظة، وهي السلالة التي كانت في الأصل من تجّار سكر الأنديز الغربية من بوردو. وجان ـ بنجامين، الرئيس الثالث لجمعية جباة الضريبة، بالإضافة إلى تعزيزه فطنة العائلة في التجارة والمال، كان مؤلّفاً غزير الإنتاج وعالماً وكاتباً في الموضوعات الطبية والجيولوجية والآثار وأشياء آخرى. لكنّ الأكثر روعة بين هؤلاء الرجال جميعاً هو أنطوني لافوازيه الذي يُحتفى به باعتباره الكيميائي الفرنسي الأعظم.

كان لافوازييه استثنائياً، لكن الحقيقة هي أنه استطاع تطبيق ابتكاراته العلمية على ما هو قديم وقمعي، مثل جدار الجمارك العظيم الذي كانت جمعية جباة الضريبة تشيده حول باريس، الذي يحكي كثيراً عن تناقضات فرنسا لويس السادس عشر. كان لافوازييه، مثل كثرين في ثقافة ذلك الزمن، رائداً وملغزاً، حاد الذهن فكرياً وأسيراً للمؤسسة، مهتماً برخاء الجماعة لكنه يعمل لمؤسسة خاصة هي الأكثر حرصاً على مصلحتها بطريقة غريبة في الوقت نفسه. ومع ذلك لا شكّ في أن لافوازييه آمن بعلمه ليكون منسجماً مع مهنته بصورة كلية وذلك بإدارة جمعية جباة الضريبة وفي وعيه أنه يخدم فرنسا بروح المواطن الوطني الحقيقي.

لم يكن عمل لافوازييه الروتيني بالتأكيد عمل ذلك الأرستقراطي الواهن الشديد البساطة في النظام السابق الذي يعيش للمتعة وتخدمه جماعات من الخدم المتذللين. كان ينهض عند الفجر ويعمل إمّا في سجلات جمعية جباة الضريبة أو في مخبره الخاص من السادسة صباحاً وحتى التاسعة. وكان يشتغل في أوتيل دي فِرميه حتى ساعة متأخرة من

بعد الظهر، في مكتبه، ويشارك في اجتماعات واحدة أو أكثر من اللجان الخمسة التي عيِّن فيها (بما فيها إدارة الملح الصخري الملكية وأعمال البارود). يرجع إلى مختبره بعد تناول غذاء خفيف، ويعمل ثانية من السابعة وحتى العاشرة مساء. يجمع الأصدقاء والزملاء، ممن يهتمون بالعلم والفلسفة مرتين أسبوعياً، للاستماع إلى قراءة ورقة ومناقشة موضوع دارج بصورة غير رسمية. ولم تكن حياته العائلية أقلّ ألفة وإنتاجية. كانت زوجته فنّانة تشكيلية بطريقتها، وتُبيّن صورة جاك ـ لويس دافيد الرائعة والصورة الثنائية المفعمة بالحياة الزوج والزوجة كأنهما شريكان مهنيان وصديقان جمعتهما الرابطة الزوجية.

لم يقتنع لافوازييه بالإشراف على عمل جمعية جباة الضريبة من بعيد، شأنه في ذلك شأن الموظفين الأوائل. فكان يذهب دورياً في جولات تفتيش إلى المكاتب الإقليمية والمستودعات. وعلى الرغم من أنه كان يصطحب حاشية من 18 شخصاً (بمن فيهم الحراس الذين لبسوا الزي الرسمي وحملوا السلاح) ومجموعة من الكتبة والمحاسبين. كانت تلك الرحلات طويلة ومرهقة، واستغرقت أحياناً بضعة أشهر. ونعرف أنه في رحلات مماثلة بين عامي 1745 و1746، زار مسؤول مثله، اسمه م. غيز M. Gaze قرابة 32 مستودعاً للملح و35 مقراً جمركياً و22 مخزناً للتبغ، وسوّى الخلافات القائمة بين موظفي جمعية جباة الضريبة المحليين، واطلع على العديد من مواقع الحرّاس العسكريين قدر المستطاع. ولم يكن لافوازييه أقل نشاطاً منه.

على الرغم من منزلة لافوازييه العلمية وسعة أفقه الذي يجعل منه نوعاً من معجزة، فلم تكن تلك الميزات شاذة في فرنسا لويس السادس عشر حيث كان المشاهير مثقفين وإداريين ورجال أعمال في آن معاً. وقد واجه مثل هؤلاء الرجال مخاطر محددة في أداء الأدوار الثلاثة. واستطاع لافوازييه، كعالم، أن يرتقي ويتراجع طبقاً لحالة المدّ والجزر المتقلبة، وأن يمضي في زي علمي كان السمة الأهم في الحياة الثقافية في فرنسا القرن الثامن عشر؛ لاسيما في عقد ثمانينياته. لم يكن ضمانه المالي حصيناً ضد التبدّلات غير المتوقعة في سياسة الحكومة. فعلى الرغم من أنّ الممولين وُصفوا جدلياً بأنهم مضاربون دون مخاطرة، فقد كانوا عرضة لخطر، شأنهم شأن حاملي الأسهم، رفض الحكومات المفاجئ وغير المتوقع لدفع الدين من ذلك النوع الذي حدث في عشرينيات القرن الثامن عشر وسبعينياته. بهدف السيطرة على العجز المالي. وقد أفلس ممولون كثر بقدر ما أحرز كثر ثروات طائلة.

كان لافوازييه نموذجاً لغالبية أعضاء جمعية جباة الضريبة، بمعنى أنه لم يمول



الصورة 24، للرسام جاك لويس ديفد لافوازيه وزوجته

أعماله من رصيده الخاص الذي كان وديعة ضخمة لكي يعزز موقعه، بل استدان واضطلع بدور الشركاء النيام (أو ما ندعوه جامع الأموال على طاولة القمار، بمعنى البقية الظاهرة على ظهر الحصان التي تتسع لراكب إضافي). موّن الشركاء حصة من رأسمال عمله وأعاد

دفعها لهم مع قسط من راتبه، وربح المشروع. وقد عنى ذلك في الواقع أنه كان يتاجر وهو على حافة الخطر وأنه في ظروف غير متوقعة معاكسة لن يكون سيد مصيره بالكامل. إذا قررت الحكومة تغيير شروط العقد أو إلغائه، فسوف يجري سباق فوري على وظائف جباية الضريبة ـ كان مسموحاً للعاملين في جباية الضريبة بإصدار ملاحظات عن المفاوضات حول تدابيرهم الشخصية. حدث ذلك فعلياً عام 1783، عندما حاول رئيس المراقب العام درميسون إلغاء عقد «إيجار سالزار» (كان كل عقد يسمى باسم متعهده الأصلي). لكنّ العاملين في جمعية جباة الضريبة رفضوا تقديم أوراقهم مجادلين أنّ الحكومة تهدف إلى انتزاع المسوؤلية من خلال التدّخل بالعقود. فتراجعت الحكومة أمام الغضب الشعبي وأعادت إصدار العقد القديم.

كانت هذه الأزمة عرضاً لفساد المصلحة المشتركة التي وحدّت الملكية وجمعية جباة الضريبة. فمن جهة كان التاج بحاجة ماسة أكثر من ذي قبل، إلى نوع من العائد المباشر المدفوع مقدماً الذي قدمته جمعية جباة الضريبة برغبة في تقديم العون، وكان لديها ميل ضعيف أن تأخذ على عاتقها المشروع الهائل لجباية الضرائب غير المباشرة. ومن جهة أخرى، كان الأشخاص الأكثر جرأة في الإدارة يتوصلون إلى إدراك أن ثمن عمليات النقل المتكررة للأرصدة القصيرة الأجل يعتمد اعتماداً متزايداً على التعرفة التي يطلبها العاملون في جمعية جباة الضريبة ودائنون آخرون من هولندا أو جنيف. وكان ذلك يفضي إلى رفع نسب أرباح جمعية جباة الضريبة دون شك، ورفع معدل الفائدة للدائنين لتبلغ معدّلات عالية إلى درجة كانت خدمة القرض تستهلك نحو 50 بالمائة من العائدات الإجمالية الحالية عام 1788. وكان ذلك في تلك المرحلة لم يكن أمام الحكومة من خيار، كما سنرى، سوى التخلي عن ضبط الوضع المالي بتعديلات طفيفة وتلجأ بدلاً من ذلك إلى حلول سياسية صارمة لمشكلاتها. وانتهت تلك الحلول لتكون ثورية.

IV ـ الآمال الأخيرة الأفضل

الحوذي

الإفلاس العام حالة ذهنية. والمرحلة الدقيقة التي تقرر فيها حكومة ما أنها استنفذت مواردها تماماً وباتت عاجزة عن أداء وظيفتها الأساسية الأهم، حماية سيادتها، اعتباطية تماماً. لكنّ القوى العظمى لا تذهب إلى الإفلاس أبداً. فمهما يكن الوضع المالي الذي أخذت تعاني منه مريعاً، ثمة ممولون دائماً يترصدون في الزوايا مستعدون لجعلها تقف

ثانية على قدميها، لكن بثمن. ولم يكن ذلك الثمن إلا في العصر الحديث تخلياً جزئياً عن السيادة ـ لقرارات صندوق النقد الدولي، على سبيل المثال، أو في عهد الإمبريالية الفيكتورية، لجان الدين الدولية التي فرضها البريطانيون وشركاؤهم على الهيئات المالية المصرية والصينية المنهكة. وقد بدت لحظة الحقيقة تتبدى، أمام الملكية الفرنسية في أواخر عقد ثمانينيات القرن الثامن عشر، عندما فقدت القدرة على توقع عائد مستقبلي لضمان قروض جديدة. وكانت تلك الديون مطلوبة لخدمة ديون سابقة. وفي هذه المرحلة بدا الجهاز التقني لإعادة التمويل قد تعطل، بينما لم تكن ثمة وكالة مالية دولية تترصد في الزوايا لتأخذ الدين على كاهلها وتملي شروط إعادة الدفع، فإن عودة عودة جاك نكر ارتبطت بإحداث سوق المال الدولية، التي كانت الشيء الأقرب لمثل هذه الوكالة. غير أن شكلاً أكثر شعبية من السلطة السياسية المحلية ستكسب الثقة العامة ضرورية لضمان سمعة الحكومة. فقد غدا الإنقاذ المالي عندئذٍ متوقفاً على التغيير السياسي.

كان الأمر جلياً لسلسلة متوالية من وزارات لويس السادس عشر، التي خبرت كل منها الحاجة إلى إصلاح الطريقة التي يحصّل التاج فيها عائداته. في الحقيقة، حتى في عهد لويس الخامس عشر، كانت تلك هي الأولوية الضاغطة للمراقبين العامين، لكن خلال خمسينيات القرن الثامن عشر، وأكثر في ستينياته كانت الذراع السياسية التي كيّفوها للبدء بإصلاح ضريبي هي الحكم الاستبدادي. ومرة وثانية في سبعينيات القرن الثامن عشر دعا لويس الخامس عشر إلى الهيئة القضائية لنطق الأمر الأكثر تأكيداً في المفردات الملكية: «الملك يرغب بذلك» Le roi le veult وضد ذلك الأمر لا يوجد استئناف.

جاء لويس السادس عشر إلى الحكم راغباً في أن يكون محبوباً، وكان منسجماً مع شخصيته الأليفة ولو بطريقة مشوشة. وبقيت هذه العاطفة المثيرة للشفقة حيّة على الرغم من حروب الدقيق الضارية التي نغّصت سنوات عهده الأولى، عندما رجع الثائرون من بوابات القصر الملكي في فرساي (كون الحاشية أخلت القصر بذكاء). لذلك تخلص من الوزراء المصنّفين مع الحكم الاستبدادي القوي في عهد جده وعيّن مكانهم إصلاحيين سيبتكرون بطريقة ما تغييرات ليبرالية سياسياً ومثمرة مالياً. وكانت المشكلة هي أنه لم توجد وزارتان لديهما أفكار متطابقة يجب أن تتبعها استراتيجيات التغيير. لم تكن سياساتهما غير منسجمة وحسب، بل عرّفت كل منها حكومتها كنقيض للحكومة التي سبقتها عملياً في الطاقم والإجراءات. ولا حاجة للقول إن ذلك ما كان ليقدم نتائج إيجابية.

كان هناك ثلاث طرق تقليدية تعامل بها المراقبون العامون مع الأعباء المالية المتزايدة للحكومة الفرنسية: الإفلاس الخادع والقروض من المؤسسات المالية المحلية والأجنبية والضرائب الجديدة. وقد استخدم المراقب العام الأخير في عهد لويس الخامس عشر الأب تيراي Abbé Terray الطرق الثلاث. لكن ترغو، المراقب العام الأول في عهد لويس السادس عشر، أبطل الطرق الثلاث جميعاً، واقترح بدلاً منها دروس النظرية الاقتصادية الليبرالية، لاسيما الفيزوقراطية، التي يدل اسمها بالذات على أنها «قانون الطبيعة» وبالتالي غير قابلة للدحض.

جادلت طائفة الفيزوقراطيين مع المؤسسات والتنظيم والحماية ـ يد الدولة الثقيلة ـ التي كانت تخنق الإنتاجية ومشروعات الأعمال في فرنسا. حواجز جمركية داخلية، قيود على نقل الحبوب وسلع رئيسة أخرى، تعرفات مدروسة للرسوم والضرائب: فغدا كل ما يلزم هو أن يتنفس الاقتصاد الهواء الطلق النقي من خلال تبادلات السوق. يجب إلغاء عبء الضرائب غير المباشرة المتباينة وضرائب الممتلكات في بعض الأقاليم الفرنسية دون أخرى واستبدالها بضريبة ملكية واحدة ـ الضريبة الواحدة impot unique. سيسّهل ذلك الأمر على الفلاحين ـ المنتجون الحقيقيون الوحيدون للثروة ـ حساب نفقاتهم بدقة، والتوجه إلى تزويد السوق بالسلع، حيث في المسار الطبيعي للأشياء تعوم الأسعار المرتفعة إلى المداخيل الريفية وتكديس رؤوس الأموال في الأرض. ومن ثم يعاد استثمار تلك الادخارات والأرباح في تحسينات تقنية، وهكذا تتحسن الإنتاجية أكثر وتخلق دخلاً في المتناول يُنفق على السلع المصنّعة المنتجة في المدن. وهكذا يتعايش القطاعان المديني والريفي في تبادلية ساحرة، فتكتظ فرنسا بالريفيين القانعين العقلانيين الذين يحرثون وينتجون ويدخرون وينفقون وفق إيقاعات السوق العميقة.

كانت تلك هي النظرية في أية حال. كان أشهر مؤلفيها طبيبي القصر كويسني Quesnay ونقيضه المزاجي السريع الانفعال المركيز دي ميرابو Marquis de Mirabeau والد الخطيب الثوري. كان غريباً كفاية أن ميرابو بنى اسمه منددا بالانتهاكات التي اقترفتها الرأسمالية والنزعة الفردية على ما تصوره بشغف أنه الفضائل الأبوية لسادة النظام الإقطاعي. وكان ذلك في مقابلة شخصية طويلة التي وصفها ميرابو في ما بعد أنها «تحطيم جمجمة غوليات» هو الذي جعله يهتدي إلى مبادئ عدم التدخل الحكومي في الاقتصاد laissez - faire. وسواء كان ذلك للأحسن أو للأسوأ، فقد عمل كثيرون من المراقبين العامين في عهد لويس الخامس عشر الذين تعاقبوا في ستينيات القرن الثامن عشر على

إزالة القيود من طريق نقل الحبوب داخلياً وخارجياً، بالإضافة إلى القواعد التنظيمية لمكان البيع والسعر. جاءت النتيجة مجاعة فورية وأعمال شغب، تم نهب مخازن الحبوب، وتوقفت الناقلات قبل بدء سيرها، وأرغم التجار على البيع بالأسعار التي قررت الحشود أنها «عادلة». أعاد تيراي، عام 1770، معظم القيود، وأرغم التجار ثانية على الترخيص رسمياً وبيع إنتاجهم في الأسواق المخصصة، وعاد الهدوء.

مع ذلك فأعمال تيراي التي تبدو في غالبيتها فائقة الحساسية، قد سوّيت بصورة رديئة بالطريقة التي اختار هو وزميله موبو Maupeou الذي انتخب لتنفيذها: عبر وثيقة مرسوم ملكي مطلق. وعندما جاء ترغو إلى المنصب مراقباً عاماً عام 1774، كان قد عمل فترة وجيزة وزيراً للأسطول، ولم يكن ذلك لأنه اقتصادي وحسب بل سياسي ليبرالي ايضاً. ولو استطاع كسب تأييد القضاة النبلاء، لتمكّن من تقديم السياسات التي تجنب الوقوع في الزيادة الاعتباطية للعهد السابق في ما يتعلق بالإفلاس والقروض والضرائب. ولذلك، وبموافقة الملك، أطلق القضاة من السجن الذي أرسلهم إليه المستشار موبو. وقد كانت فرضيته الخاطئة أنهم سيؤيدون إصلاحاته من منطلقي العرفان بالجميل والعقلانية. لكنّ لاشيء من هذا القبيل كان بسيطاً تماماً في فرنسا لويس السادس عشر.

ونتج عن تعاطف ترغو مع آراء الفيزوقراطيين أنّ تحرير العالم الاقتصادي الفرنسي سيسفر تلقائياً عن نوع من الرخاء الذي يكفل حلّ مشكلات الحكومة المالية. وكان ذلك سيحدث بطريقتين: سوف تجدد الثقة الشعبية سحر قوة المنتجات الاقتصادية الكبيرة وتحرر الاقتصاد من الحاجة إلى قروض إضافية جديدة ما دامت القروض القديمة جديرة بالثقة وتفي بالغرض. وستزدهر التجارة والصناعة إلى درجة تقديم المبالغ الكافية لإصلاح الخلل، من خلال دورة رأس المال المتزايدة. كان ذلك كله طبعاً السلف المباشر للتمويل العام لل'نتاج، وكان له فرصة في النجاح فوراً مثل نسخته بعد مئتي عام في إمبراطورية مختلفة، لكنها بالمثل واسعة جداً مالياً.

ولئلا يبدو هذا الوصف ساخراً جداً لابدّ من المسارعة إلى القول إنّ ترغو لم يكن من النوع المتفائل غير الواقعي. فهو رجل كئيب نسبياً ويسائل نفسه، ويجد متعته الأساسية في عمله، ويمتلك رأياً ضبابياً عن الطبيعة البشرية، ورأياً متفائلاً جداً في إمكانيات تحسينها. كان، بإيجاز، نموذجاً للسنوات الأخيرة من عصر التنوير.

ولد ترغو في عائلة لها تاريخ عريق في الخدمة المدنية، فقد كان الأب مستشاراً للتجار في باريس وتوّج عمله خبيراً في تخطيط المدن بتصميم وبناء قناة الصرف الكبرى



الصورة 25، للرسام جوزيف دوريه: صورة ترغو

على الضفة اليمنى من نهر السين. وجاء ابنه آن - روبرت إلى الرقابة بعد أن أمضى عدداً من السنين حاكماً لامعاً ومجداً في إقليم ليموزين الفقير جنوب غرب فرنسا. وقد عمل هناك بجد ليقدم شيئاً جيداً في شق الطرق وإقناع الفلاحين بأن يزرعوا البطاطا ويستهلكوها، ذلك المحصول الذي ساد الاعتقاد بأنّه لا يناسب حتى الحيوانات، وبالتالي فهو أقل تغذية من الكستناء المسلوقة وعصيدة الحنطة السوداء، اللتين كانتا طعام ليموزين Limousin الأساسي.

ولسوء الحظ لم يكن إقليم ليموزين مناسباً لتطبيق أفكاره الأكثر ارتباطاً بالذهن، لاسيما تلك التي نشرها حول تراكم رأس المال، لأنّه من الصعب أن تراكم أي رأسمال وأنت تعيش على الكستناء المسلوقة، أو، لتلك القضية، البطاطا. ولم تبرز الفرصة لتطبيق تلك الأفكار على مستوى وطني إلا عندما عندما أصبح ترغو مراقباً عاماً الأفكار. بعيداً من التعاقب العملي للمراقبين العامين الذين جاؤوا إلى المنصب لا شيء في أذهانهم سوى البقاء الشخصي والوطني، «جاء ترغو،» كما قال كارلايل Carlyle: إلى مجلس الملك حاملاً في ذهنه ثورة سلمية كاملة». بعث مذكرة إلى الملك عام 1775 بين فيها رؤيته في تحويل فرنسا إلى الحرية الاقتصادية والسياسية زاعماً أنها «في ظرف عشر

سنوات ستصير دولة لا يمكن تمييزها. . . فالتنوير والأخلاق والحماس لخدمتك وخدمة الوطن، ستتفوق فرنسا على كل الشعوب الأخرى الموجودة، والتي وجدت أبداً.

كانت طريقة ترغو العملية الأساسية هي إزالة العقبات التي تعوّق انسياب التجارة الحرّة وحرية العمل وحرية السوق في التسعير، في حين يمنح بعض التشجيع الفعّال لما اعتقد أنها مشروعات المستقبل. اتخذ التشجيع شكل التعليم والإعانات مباشرة. تمّ إيفاد رجال جديين من لابسي القبّعات الثلاثية الزوايا لدراسة صناعة الفحم الحجري البريطانية، وتم تقديم المنح بأسلوب غرفة التجارة الأكثر جدارة بالتكريم لأنوال الحرير الآلية في ليون Lyon، ومكنات صهر الرصاص في روان Rouen و- بصورة محسوبة - صانعي البروسلان في ليموج Limoges. وجنّد صديقيه المثقفين كوندورسيه Condorcet ودالمبر d'Alembert للعمل في لجنة لدراسة الملاحة النهرية والتلّوث، ومن صميم تصميمات والده العظيمة شرع المراقب العام ببناء «آلة ترغو» التي كان مفترضاً فيها تكسير كتل الجليد عند مصبّي نهري المارن والسين، وبدلاً من تكسير الجليد، حطمت الآلة ذاتها بعد تكاليف باهظة لم يكن تعويضها ممكناً. والأكثر مدعاة للسعادة هو أنه وضع الأسس لنظام جديد للبريد ونقل الركاب، والمراسلات البريدية الملكية، باعتماد عربات نقل خفيفة عُرفت باسم «ترغوية» قلّصت زمن الرحلات بين المدن الفرنسية إلى النصف وجعلت الحلم بسوق وطنية شيئاً أقل منافاة للعقل.

ومع ذلك كان خط الهجوم الرئيسي لترغو موجهاً ضد الحواجز التي اعترضت سبيل تحقيق اقتصاد حر. أولاً، في البدء ينبغي أن تكون الرسوم المحلية على الحبوب (باستثناء باريس ومرسيليا) ومعها ذهبت احتكارات صانعي الشموع والتجار والحمالين. بينما مثّل ذلك تفكيك نظام التموين الذي أرسى تيراي قواعده، تابع ترغو بحكمة منع التصدير إلى الخارج. ومع ذلك اختار الزمن الأسوأ الممكن للإصلاح. فقد شهد عام 1774 عودة المحاصيل السيئة، ومعها العودة إلى المجاعة وارتفاع الأسعار وغضبُ الشعب الموجّه إلى المحتكرين المتهمين بتخزين المحاصيل طمعاً بجني الأرباح عبر رفع الأسعار. فكانت النتيجة الطبيعية لذلك استئناف أعمال الشغب في ربيع عام 1775، الشغب الذي شابه أحداث أواسط ستينيات القرن الثامن عشر: توقفت المراكب في المحطات النهرية، ووقعت هجمات على مخازن القمح والمطاحن، وتمّ البيع القسري بالأسعار التي طالبت بها الحشود. وأخفقت ميليشيا الحرس الفرنسية في باريس بمنع حشد من سلب

دير سان ـ فكتور، بسبب انشغالها في تنظيم احتفالات نيل البركة لرايات فوجها في كنيسة نوتردام.

أُضطر ترغو لاستدعاء قوّة عسكرية من 25 ألف جندي للتعامل مع تلك الممانعات الوقحة ضد تحرير التجارة، وتشكيل محاكم ميدانية سريعاً وتنفيذ عقوبات شنق تحذيرية. تعرّض رئيس الحرس الملكي في فرساي، الأمير دي بوا لتأنيب قاس على تهوّره، لأنه وعد حشداً من خمسة آلاف شخص، كانوا على أهبة الاستعداد لتفجير قصر فرساي، وعد أن يبيعهم رطل الدقيق بقرشين. وكما جرى في الجولة الأخيرة من جولات تجارة الحبوب الحرة، تجاهلت الشرطة المحلية والقضاة على نطاق واسع أوامر ترغو بالتحرك الفوري لضمان الأمن الاجتماعي، وكان ذلك الإجراء بالإضافة إلى محصول أفضل هو ما أدى إلى استعادة الهدوء في صيف عام 1775. اعتقد ترغو، ملسوعاً بالجدل العنيف ضد سياساته، (كما يفعل بعض المؤرخين المتعاطفين معه حتى يومنا)، أنّ «حرب الدقيق» كانت مؤامرة مدبّرة وأن الشعب تظاهر بأنه جائع بهدف إرباك وزارته.

وصمم ترغو بالمثل على أن يفكك إجراءات تنظيم تجارة اللحوم. لم يتوقف عند بوابات باريس في هذه الحالة، بل ألغى مباشرة العدد الكبير من الموظفين والمسؤولين الرسميين، الذين تمتّعوا بحق تحديد أسعار تجار الماشية للجزارين. طبقاً لإجراءات الضبط القديمة، لا يستطيع الجزارون جمع مادتي الدهن والشحم، (مادتان رئيستان في تصنيع شموع الإنارة) بعد الذبح، بل كان ينبغي أن تجمعها نقابات خاصة استمتعت باحتكار بيعها. وقع هؤلاء أيضاً تحت فأس ترغو. حدث ذلك في وقت لم يحمل سوى بشائر محدودة بالنجاح، فقد شهد عام 1775 تفشي طاعون الماشية، ونفقت قطعان الماشية في الدولة، وفي محاولة لإقامة مكان صحي، تمّ الطلب من الفلاحين قتل مواشيهم المصابة ودفن جثثها في الكلس، وهرع محافظو ترغو المهتمون كثيراً، مباشرة إلى قلب المقاومة المحلية. اكتظت الغابات والسهول بالفلاحين الناشطين ليلاً، وتنامت عمليات الصدام بينهم وبين القوات المحلية، نتيجة لمحاولتهم تهريب الأبقار عبر حدود المصح، لاسيما في المناطق الجنوبية الغربية.

ومع المراسيم الستة وصلت سياسات ترغو إلى حيّز التحقق بأقصى جدية. اهتمت العناصر الأساسية في حزمة الإصلاحات المقررة بإلغاء نقابات التجارة، والتي قيّدت العمل والإنتاج والسلع والخدمات بمؤسسات مرخصة احتكرت التدريب والسلع والخدمات. كان نظام النقابات غريباً عن رؤيا ترغو للسوق، التي تحدد الأجور والعرض

والطلب لكل هذه العناصر الاقتصادية. فقضت إصلاحاته بتفكيك غالبية النقابات، ما عدا نقابات الحلاقين وصانعي الشعر المستعار وعمال الحمامات العامة، لأن رؤساء مكاتبها طالبوا بتعويضات خاصة. وتمّ استثناء الصاغة والصيادلة وعمال الطباعة، لكن لأسباب مغايرة جداً، فقد كانوا مثار اهتمام الشعب لأنّ تجارتهم محترمة (الثروة والصحة والحكمة)، وبقيت هذه النقابات خاضعة لنوع من التراخيص. أما الأكثر غرابة في المراسيم هو أنها حظرت بصراحة جمعيات أرباب العمل وجمعيات العمل من إقامة اجتماعات لإجراء مفاوضات على الأجور، أو على أي شيء آخر، وقد أيّدت الثورة هذا المبدأ عام 1791.

جاء الاقتراح الرئيس الآخر حاملاً أوامر حظر عمل خدمة القسري، السخرة، التي يدين فيها العامة للدولة، والتي وفرت الرجال لأعمال شملت تنفيذ العديد من مشاريع شق الطرق. أصاب ترغو في افتراضه أنّ السخرة أثارت سخط سكان الريف الفرنسيين بسبب إبعاد مصدر ثمين من القوة العاملة (في الحقيقة غالباً الوحيد) عن مزرعة العائلة الصغيرة تماماً عندما تكون الحاجة ماسة للعمل، سواء في الحراثة أو في الحصاد. إذ يمكن استبدال السخرة بالعمل لقاء مبلغ من المال، لكنّ الافتراض المسبق أنّ الفلاح ينتمي إلى نوع آخر من الاقتصاد النقدي حيثما كان ملائماً، وللغالبية الساحقة من الفلاحين الفرنسيين لا شيء من ذلك القبيل كان صحيحاً. مع ذلك، كان العنصر الأكثر جرأة وخلافية في عمليات الإصلاح، هو اقتراح استبدال السخرة بضريبة تُفرَض على الملكيات، تدفعها شرائح السكان كافة. وهكذا يغدو بإمكان الدولة أن تشق الطرق من خلال متعهدين بشروط عقدية تُنشَر لتبين طبيعة العلاقة بين كلفة الأعمال المحلية والعائدات المأخوذة لتمويلها. أعاد هذا الإجراء توزيع أعباء تمويل مشاريع الطرق والأقنية بين السكان جميعاً، وصار في الواقع نوعاً من سحب امتياز آخر من الطبقات المستثناة.

قابل النبلاء حظر السخرة آنذاك بعداء علني شديد من خلال صوتهم الجمعي في المحاكم. فعلاوة على تخفيف الامتيازات، هدد الإلغاء بالقياس حق النبلاء في طلب الخدمات الموازية من المزارعين العاملين في أراضيهم، وهذه نتيجة ربما دارت في خلد ترغو. انجرّ مدافعاً عن إصلاحاته إلى معركة تبادل آراء استثنائية ومعبرة مع ميرومسنل Miromesnil، حامل الأختام (بمرتبة وزير عدل)، حيال شرعية الامتيازات. ادّعى ميرومسنل أنّ الامتيازات قامت على أساس الإعفاءات الممنوحة لطبقة المحاربين مقابل خدمة التاج بدمائهم. «إذا جردت النبالة من مزاياها، تدمّر الشخصية الوطنية، وإذا توقفت

الأمة عن أن تكون مقاتلة، ستقع فريسة للأمم المجاورة سريعاً». أثار ذلك الادعاء السخيف حفيظة ترغو، ليذكر خصمه بالحقيقة البديهية الواضحة «أنّ الأمم التي يدفع النبلاء الضرائب فيها، مثلهم مثل باقي فئات الشعب، ليست أقل شجاعة من أمتنا. وفي الأقاليم التي تُدفَع فيها ضريبة الرؤوس، حيث يُعامل النبلاء والعامة سواسية... ليس النبلاء أقل شجاعة وليسوا أقل التحاماً بالتاج. وجادل أنه عاجز، بسبب تلك المسألة، عن تذكر أي مجتمع سادت فيه فكرة إعفاء النبلاء من الضرائب، واعتبر الأمر أكثر من حالة قديمة الطراز يرفضها المثقفون جميعاً، حتى في طبقة النبلاء.»

كانت المصالح الأنانية الضيقة المقلّدة بصورة موازية مسؤولة عن معارضة مماثلة لإلغاء النقابات. دافع ترغو عن الإجراءات ببلاغة فلسفية رفيعة عن الحقوق الاقتصادية الطبيعية. «حدد الله للبشر حاجات معينة وجعلهم يعتمدون على موارد العمل، جعل حق العمل ملكية البشر جميعاً وتلك الملكية أولية مقدسة وباقية». لكنّ لمناوئيه هدّم الإجراء الملكية أكثر مما حماها، لأنّ عدداً من سادة تلك النقابات كانوا قد كفوا عن يكونوا ذوي الأيدي الصلبة أبناء هؤلاء الذين يعملون بمشقة في مريلاتهم الجلدية. كان هؤلاء في الواقع هم المشترون الأرستقراطيون لوظائف البلدية ومناصبها العاطلة التي لم يكترثوا لرؤيتها تختفي باسم تغيير ما محدد نظرياً للصالح العام. لم يعمل المهنيون المهرة الحقيقيون بسبب تلك المسألة والذين وظفوا رأسمالاً ثميناً، بصرف النظر عن السنوات التي قضوها في التدرّب، في نظام منحهم مهارة في العمل وأسعار مكافئة. فكان لعالم ترغو الجديد الشجاع في الاقتصاد الحر إمكانية قلقة جداً، مقارنة مع تلك الضمانات.

ومع ذلك، لعبت مادة إصلاحات ترغو في أيدي هذه المعارضة أقل من الطريقة التي حاول تنفيذها بها. لأنه حالما اتضح أن اعضاء المحاكم الذين أعيدوا إلى مناصبهم ليسوا في الواقع المخلوقات الأليفة التي ستوافق على الإصلاحات الملكية. انهار ترغو تماماً ليعود إلى التنفيذ القانوني المطلق نفسه الذي وجد أنه بغيض جداً لدى موبو وتيراي. لم يمضِ بعيداً جداً إلى حد إلغاء المحاكم المعترضة، بل حثّ لويس السادس عشر، الذي كان شخصياً يكره أن يلعب دور المستبد، ولا يرغب بتقليص سلطة القضاء lit de justice، إلا إذا كان ذلك ضرورياً. بدت طريقة تجاهل الأطراف الأخرى في تنفيذ الإجراءات رديئة، لاسيما وأن ترغو شجّع على نقل السلطات إلى جمعيات إقليمية، وأسس هيئتين في إقليمي بيري وأُوت ـ غوين Berri and Haute - Guienne عام 1774. لقد كان في الواقع المراقب العام الذي استخدم الاعتقال التعسفي بموجب المذكرة

المختومة وانتهى عدد من المناوئين لسياساته بطريقة بارعة إلى الباستيل معتبراً نفسه أكثر المراقبين العامين ليبرالية.

هذا هو سبب خراب الوزير، الذي ضمن، بالإضافة إلى خصومه الشخصيين الكثيرين في البلاط أنه لن يستطيع بعدئذٍ الاعتماد على شخصيات من داخل الوزارة ممن كانوا حلفاءه سابقاً. وبحلول ربيع عام 1776، أخذ يشكو للملك من الزمر التي باتت تظهر علناً في المجلس، وطلب من لويس أن يُلقي بثقل سلطته الكاملة خلف الإصلاحات. ولم يكن أسلوبه في عرض الأمر لبقاً.

أنت شاب لا تستطيع الحكم على الرجال، وأنت قلت، يا سيدي، إنك تفتقر إلى الخبرة وتحتاج إلى دليل. من يجب أن يكون ذلك الدليل؟ . . . يعتقد بعضهم أنك ضعيف يا سيدي، وقد خالجني الشك أحياناً بأن شخصيتك تعاني من هذا الخلل. ومن جهة أخرى رأيتك في مناسبات أكثر صعوبة تبدي شجاعة حقيقية.

لم يُثمر ذلك النقد المدرسي. فبعد ثلاثة عشر يوماً، طُرد ترغو وسط الهتافات المعتادة في الحكم المطلق. وذهب معه العديد من رجاله والكثير من إجراءاته. وعادت النقابات ولو في شكل واهٍ، ومنحت الإدارات المحلية حق الخيار في استخدام السخرة أو الخضوع لضريبة.

كانت تلك درب الثورة السلمية الطويلة التي تمنّى ترغو أن ينجزها. وغالباً بالتعريف كانت مقاربته الاقتصادية الضخمة لحل المصاعب الاقتصادية والمالية في فرنسا تحتاج إلى وقت، إذا كان لها أي نصيب بالنجاح على الإطلاق. وقد نصحه زميله الدنيوي الهادئ موريباس، الذي شاهد في عامه السبعين، وزارات تتشكل وتُقال مع الفصول، أن يقوم بإصلاحاته خلال سنوات بدلاً من تطبيقها دفعة واحدة بسرعة محمومة. لكنّ ترغو كان في عجلة مسعورة، وكان قدر الحياة الآيلة إلى الزوال ضاغطاً: فقد ردَّ على موريباس، «نموت في عائلتنا في سن الخمسين». وقد شعر أن قدر الموت أسرع إلى النظام، فقال للملك، دون إجراءات صارمة، «ستدفع الطلقة الجديدة (في حرب جديدة) الدولة إلى الإفلاس».

V ـ الآمال الأخيرة الأفضل

المصرفي

كان الفيزوقراطيون، وترغو واحد منهم، أقوياء بالغايات ضعفاء بالوسائل دائماً. فقد أخفقوا في كل جهودهم الفكرية الفعالة أن يروا التناقض في نزعتهم الليبرالية الملحة

تتحقق بأدوات حكم استبدادي. حتى أنهم فاخروا قليلاً في دعوة السياسة الاستبدادية «بالحكم الاستبدادي القانوني»، المطلوب منه أن يجلب الأرض الموعودة للعمل الحر والتجارة الحرة والأسواق الحرة. ولم يسمحوا لأي نوع من الفوضى القصيرة الأمد ـ مثل أحداث الشغب والحروب ـ التي شكلت الحقيقة الواقعية اليومية في دولة القرن الثامن عشر. كان مفهوماً ـ ولاسيما إذا أخذنا تحذير ترغو الكئيب حيال الكوارث التي ستعقب نشوب حرب أخرى بالحسبان ـ أنه إذا كانت مثل هذه الحرب مغرية عبر الأطلسي، فستتحول الملكية إلى إجابة من نوع مختلف تماماً.

يحسن بنا أن نفترض أن ترقية جاك نِكر Jacques Necker، بعد فترة قصيرة من العمل كما هو معتاد مساعداً للمراقب العام كلني Clugny، مثلت نقلة من النظرية إلى النزعة العملية pragmatism. وفي المعنى الذي كان نِكر فيه متحمساً للاستدارة إلى مالية القروض مترافقة بالإصلاح الإداري فيما كان ترغو سيتجنب ذلك، وتلك كانت الحال حقاً. لكنّ الصلاحيات الفعلية التي اضطلع بها نِكر، بوصفه مديراً عاماً، (لأنه كبروتستانتي كان ممنوعاً من شغل منصب المراقب العام)، بسبب نوع من الغموض ـ غموض المثقف ـ استبدل بآخر: ذلك المتعلق بالبنك البروتستانتي. وبما أنه دخيل كان محظوظاً مرتين. فهو غير ملام عن الأمراض التي أوجعت فرنسا الكاثوليكية، ظُنَّ أنّه يجسّد مجموعة القيم المضادة التي رُبِطت ببساطة بالرأسمالية البروتستانتية: الأمانة والاقتصاد في الإنفاق والثقة القوية. لكن أيضاً لأنّه دخيل ذو روابط قيّمة بسوق الديون الدولية، السوق التي أخذت تتبدى أنها بديل لابتزاز الصعوبات المالية gens de finance.

نظر الرأي العام إلى نِكر كساحر مصرفي: شخص ما يستطيع سحب الأرانب من القبّعات والمال من الهواء العليل. استثمر بنوع من القوى الإعجازية المرتبطة بقوى فرانكلين الكهربائية أو أحواض الدكتور مسمر Mesmer المغناطيسية أو مناطيد مونتغلفييه Montgolfier. ولم تثر حاله العادية الغامرة إلا إطراء هؤلاء الذين أرادوا معارضته حتى أبعد بالممولين المنغمسين في الملّذات، أو الفيزوقراطيين الأدعياء. بدا أنه المواطن الكامل الصلب حقاً الذي استقر في عشه الزوجية مغموراً بالسعادة التي أبدعها خيال جان جاك روسو Jean - Jacques Rousseau. وقد أدارت زوجته سوزان Suzanne الصالون الأكثر تأثيراً في باريس ونشرت قليلاً من الجدية البروتستانتية بين الناس من خلال الأعمال الخيرية للمعوزين والمرضى. وعندما انفجرت تبكي خلال أحد نقاشات قادة التنوير الصريحة للإلحاد، وحده غريم Grimm وجد المشهد أكثر براءة وفعل.



الصورة 26، للرسام جوزيف سيفرين دبلسيس. صورة نِكر

أمّا ديدرو، وفعل ديدرو، الذي كانت مسرحياته البرجوازية ترطب المسرح الباريسي آنئذٍ، الشيء نفسه واعترف للسيدة نِكر قائلاً: «حقاً إنه لأمر سيئ أنني لم أتعرف عليك مبكراً. لو عرفتك لألهمتني بذوق من النقاء والكياسة، التي لا بد كانت ستنتقل إلى كتبي».

وجدت حيوية مدام نِكر وحماسها صدىً محدوداً لدى ابنتها جيرمين ـ مدام دي ستيل Mme de Staël مستقبلاً. ولم يعكس بريق الجانب الأنثوي في العائلة إلا الفضائل النقية المحببة لروسو الشجاع الصارم في البديل الأكثر جرأة. كان ينبغي أن يكون قدّيساً لا أن يتحوّل ذهنه إلى المداهنة عقب نشر كتابه تقريظ كولبرت Elogy of Colbert عام 1773. لم يكن كذلك. لكنه بطريقة ما كان شخصاً شديد الثقة بالذات. وهذا ما تؤكده إحدى الجمل في التقريظ: «إذا كان الرجال قد صُنعوا على صورة الله ومثاله حقاً، فإن وزير المالية، الشخص الثاني بعد الملك، الأقرب إلى تلك الصورة».

وفي الجو المرتقب شراً بحرب وشيكة، كان إيمان نِكر بنفسه قوياً وحاسماً، لاسيما وأن أفضل ما استطاع المراقب العام السابق، كلغني، أن يجده هو اليانصيب. وبينما جاء تغورت من قلب العمل الحكومي والتأمل الفلسفي، جاء نِكر من عالم العمل

التجاري. جاء من جنيف إلى باريس وهو في الثامنة عشرة من عمره، لينضم إلى مصرف العائلة تيلوسون إي سي Thélusson et Cie، وبعد وفاة الشريك الأكبر، تسلّم إدارة المؤسسة. تسلّم كأس القربان المسمم من الشركة الفرنسية الهندية لكي يدير دفتها، واستطاع أن يحول دون انهيار الإمبريالية الفرنسية في شبه القارة، وساعد الحكومة في تأمين الحبوب خلال مرحلة شاقة في ستينيات القرن الثامن عشر، وكانت الخبرة مرشدة نِكر لنشر بحثه الخاص حول تجارة الحبوب خلال فترة تجديد تفكيك القواعد التنظيمية التي قام بها ترغو، وهو توقيت. لسع الوزير بجلاء فكتب إلى نِكر يخبره ما فيه الكفاية. وكرر نِكر القول إنه يؤيد بقوة المبادئ العامة لتجارة الحبوب الحرّة، مندهشاً حقاً من لهجة ترغو الغاضبة. لكنها كانت تحفظاته التي أكدت على أنه في فترات أزمة مجاعة، لابدّ للحكومة من أن تضطلع بمسؤولية التسعير وتوفير الاحتياجات، وقد أدهشت تلك التحفظات جماهير قرائه في وقت كان فيه الريف المحيط بباريس مشتعلاً بأعمال الشغب.

كان الشيء الأهم في حكومة يسيطر على سياستها وزير الشؤون الخارجية فرجين هو ان نِكر وعده بتمويل السياسة الأمريكية دون التعرّض للنتائج القاتمة التي توقّعها ترغو. والسؤال الذي ثار حول سمعة نِكر منذ ذلك الحين هو هل وفى بتلك الوعود. وكان الإجماع الطاغي حتى وقت قريب سلبياً. فقد عومل نشر كتابه التقرير المالي Compte Rendu الشهيرة بأنه جزء من دعاية شخصية ماكرة ـ علماً بأنه كان الميزانية الأولى التي يتاح لها تُنشَر على نطاق واسع. ووُصفت بالضبط أنها نوع من ابتهاج جيد مزور قاد الملكية الفرنسية في درب زهرة الربيع إلى الدمار.

كان سقوط نِكر من السمو نتيجة حتمية للتوقعات غير الواقعية التي انتشرت عن قدراته. وقد خرج مؤخراً رأي حول إدارته أكثر اتزاناً وتعاطفاً وفي النهاية مقنعاً لإدارته جراء بحث دقيق، وعلى نحوٍ جدير بالملاحظة من أوراق نِكر في قصر شاتو دي كوبت في سويسرا. برز نِكر من تلك المصادر متعقلاً بل إصلاحياً مصمماً أكثر منه مشعوذاً محتالاً. على الرغم من أنه مثل ترغو رأى الازدهار الأساسي للتاج متوقفاً على الاقتصاد المتطور بحرية، لكنه لم يكن مستعداً للتضحية بأولوية استعادة الموثوقية الملكية في خطط اقتصادية طويلة أجل. وما يّحسب لنِكر هو الوفورات الفورية القياسية في الإدارة العقلانية وزيادة العائدات إلى الحد الأقصى.

عرف أنّ من المستحيل إلغاء الإدارات الفاسدة بضربة واحدة، فركّز على المجالات

التي بلغ الهدر فيها حداً ملحوظاً وحيث حرمت الإدارات الفاسدة التاج من الدخل. وهكذا ألغى 48 وظيفة للمدراء الماليين العامين، لكل منها دائرته المالية لجباية الضرائب المباشرة، واستبدلها بـ 12 موظفاً مسؤولين أمام وزارته مباشرة. وفعل الشيء ذاته للحكام الستة الذين ضاعفوا الإجراءات الإدارية في وزارته دونما فائدة، والـ 305 جابٍ لمداخيل المياه والغابات، وليس أقل من 27 خازناً عاماً ومراقباً عاماً من الإدارات العسكرية تمت إقالتهم. وهكذا تشكلت الكتيبة الأولى من أعداء نِكر الأقوياء.

أضاف نِكر إلى هذه المجزرة التي نفذها بحق المكاتب العاطلة والإدارات عدداً من الأسر الملكية حيث وجد الفرصة متاحة للاقتصاد في الإنفاق. فاختفت نتيجة لذلك قرابة 406 مكاتب يعملون في مطبخ الملك. لم يكابد أحد في فرساي من مرارة الجوع جرّاء ذلك، أو ظل بسبب ذلك ينتظر الوجبة، لأن كل الوظائف الـ 406 كانت مناصب رسمية سمحت لأفراد الحاشية ارتداء الثياب في المناسبات الخاصة والظهور في المكان المخصص، وبات الجميع يُنفّذ الأوامر طبقاً لطقوس البلاط. أبعد 13 رئيساً للخدم و5 مساعدين في حجرة حفظ المؤن وإعداد الأطعمة، كما أبعد 20 من حملة الكؤوس (لم يقلقه حاملو كؤوس الخمرة الملكية الأربعة)، و16 من مسرعي شواء اللحوم الملكية، وجماعات الذواقة، وكتائب من مطفئي الشموع وألوية من مقدّمي الملح (المؤسف أكثر) المساعدين العشرة المتخصصين بتقديم الفاكهة. وفي المجموع تم إلغاء ما لا يقل عن 506 وظيفة في الإدارات الفاسدة، وتم توفير قرابة 2,5 مليون ليفر سنوياً. لكنّ منتقدي نِكر شكوا من أن ذلك الوفر لا يوازي ذلك الجهد كله، لاسيما وأن المدير كان ملتزماً بتعويض كل هؤلاء بمقدار من رأس المال ما مجموعه 8 ملايين ليفر خلال خمس سنوات. غير أن هذا عنى أن الإصلاح بعد أربع سنوات سوف يدفع ما عليه وبعد ذلك سيكون وفراً صافياً. لعلّ الأهم أن ذلك مثّل العودة إلى رقابة حكومة صارمة في إمبراطورية ضخمة من المحسوبية التي غدت ببساطة لعبة شخصية للحاشية. وقد بدا لويس السادس عشر مرتاحاً: «أرغب بوضع النظام والاقتصاد في كل جزء من أجزاء بيتي»، أخبر واحداً من أفراد الحاشية هو الدوق دي كويني Duc de Coigny، «ومن كان لديه ما يقوله ضدَّ هذا سأسحقه كما أسحق هذه الكأس». وعندما ألقى الملك كأساً على الأرضية للتأكيد الدرامي، ومستحثاً إجابة الدوق المرضية: «لعل الأفضل أن تقلل لا أن تسحق».

كان نِكر مستعداً لإزعاج جمعية جباة الضريبة، مقارناً إياها دون مداهنة بنوع من الأعشاب الضارة التي تزدهر في المستنقعات، ويبدو من المرجّح أنّه، مثالياً، أراد إلغاء

نظام العقود برمته وإعادة مسؤولية جباية الضرائب غير المباشرة إلى الدولة. لكن ثمة شيء يمكن فهمه (لاسيما وقت الحرب) لقد أجفل من التكاليف الإدارية التي ستستتبع ذلك مباشرة، و لا حاجة لذكر الاختفاء الفوري للسلف المقدمة للعائدات. لكنه كان مصمماً على أن يأخذ للدولة حصة أعلى من أرباح جمعية جباة الضريبة المتراكمة، وبعد انتهاء «عقد إيجار ديفيد» عام 1780، نقل عدداً من الضرائب، لاسيما رسوم الخمور والمشروبات الكحولية إلى الطريقة الأكثر مباشرة، إشراف الدولة. في الشكل، كانت جباية الضرائب، لا تزال تُجبى بواسطة فريق ثالث، لكنّه بدلاً من جمع كل المال، مهما بلغ حجمه كان الجباة مخولين بنسبة مئوية من الدخل بالإضافة إلى المبلغ المخمن مسبقاً. حتى في جمعية جباة الضريبة التي تابعت جمع ضريبة الملح، أوضح نِكر أنّ الدخل يجب أن يزيد عن المال المدفوع مقدماً للاستئجار، بمبلغ محدد، وحينئذٍ يغدو التاج شريكاً في الأرباح. كانت تلك ضربة بارعة لأنها أصابت قلب مسألة المالية الفرنسي: ليس لأنّ نظام جمعية جباة الضريبة ذاته يحرم التاج من الدخل، بل لأن جمعية جباة الضريبة هي التي تجمع فوائد الإنتاج الوطني الذي يتزايد بسرعة وليس الدولة. وغد واضحاً عندئذٍ أن الضرائب غير المباشرة، وليس المباشرة، هي المجال الحقيقي لزيادة العائد.

اتسع مبدأ المشاركة في الربح المالي بنفقات إدارية قليلة وامتدّ إلى مجالات أخرى رابحة. فحُوِّل البريد الملكي ونظام النقل، اللذين كان ترغو قد أجّرهما بعقد لجمعية جباة الضريبة، بدلاً من ذلك إلى إشراف الدولة، الذي بدأ يزدهر في ثمانينيات القرن الثامن عشر بصورة لافتة. وتمّ تطبيق نظام الشركة التي تشرف عليها الدولة على إدارات الأراضي الأميرية والغابات، حيث تنامت الحاجة للخشب نتيجة للتوسع الهائل في المباني المدينية التي بدأت تنشأ في عهد لويس السادس عشر، وهذا ما جعل ذاك المصدر مربحاً جداً.

كانت كل هذه الادخارات التي صممها نِكر لغاية واحدة: تحقيق التوازن بين عائدات التاج المعروفة ونفقاته. وقد انعكس ذلك التوازن في كتاب التقرير المالي Compte Rendu وفي الحقيقة كان نشر الكتاب عام 1781 حدثاً هاماً. حيث قررت المطابع الملكية والناشر الأشهر في باريس بانكوك Panckoucke طباعة ما كان بمعايير ذلك الزمن ضخماً، طبعة غير مسبوقة واقعياً من عشرين ألف نسخة (من مؤسسات مختلفة) وقد بيعت الطبعة الضخمة خلال عدة أسابيع. وقد تمّت ترجمة الكتاب سريعاً إلى اللغات الهولندية والألمانية والدانمركية والإيطالية والإنكليزية، واشترى دوق رتشموند

وحده ستة آلاف نسخة. قال الواعظ البروتستانتي رابو سان ـ إتيان Rabaut Saint - Etienne : «لقد ولّد الكتاب تأثير نور مفاجئ وسط العتمة». ومارمون Marmont، الذي كان مرشحاً ليغدو واحداً من ماريشالات نابليون ادّعى أنه تعلّم القراءة من كتاب التقرير. لكن على الرغم من أنه حقق منزلة الكتاب الأكثر مبيعاً، لم تستطع شعبيته إنقاذ نِكر من السقوط. لم تطبَع طبعات جديدة للكتاب بعد عام 1781، وصار نوعاً من كبش محرقة للمراقبين العامين المتعاقبين، لاسيما كَلوني Callone الذي وصف الكتاب أنه خدعة سخيفة، وادعاء بأنّ كل شيء كان جيداً، بينما كان كل شيء معتلاً جداً في الواقع.

تمحور اتهامهم حول أنّ نِكر أقام توازناً رديئاً ومزيفاً، بصورة مدروسة، لم يحمل واقعية إلى عبء خدمات الديون الجديدة. لكن نِكر لم يزعم أبداً أنه سيغطي كلفة ديون الحرب. كان هدف الكتاب مختلفاً جداً. قصد أن يظهر أنه طالما، في زمن السلم، التزامات التاج الثابتة يمكن أن تُلبّى من الدخل الحالي، فإن القروض الطويلة الأمد لأغراض «استثنائية» كالحرب يمكن أن تمول بشروط أفضل مما كانت عليه الحال في النصف الثاني من القرن عموماً. اعتمد كل شيء على الثقة العامة والسمعة الطيبة، تبعاً لعقله السويسري المنطقي. ومع ذلك المقدار المراوغ الموجود، لم يوجد ما يمنع البحث عن تمويل للأغراض الخارجية والعسكرية، الأغراض التي كانت الحكومة تعتبرها قضايا رئيسة، وكذلك الرأي العام. ومع أخذ مناخ الدعم العاطفي السار للحرب الأمريكية بالحسبان، قلما كان ثمة أي جدال حيالها.

الاستنزاف المالي الذي وصفه كولوني للويس السادس عشر عام 1786 أنه حالة طارئة، والتي كانت في الحقيقة عجلت بالثورة الفرنسية، كان يمكن أن تعزى مباشرة لا إلى تمويل نِكر زمن الحرب بـ 530 مليون ليفر، بل لقروض خلفائه زمن السلم وإلى تخليهم عن اقتصادياته بالكامل. خلقت عمليته الرامية لتخفيف الإنفاق ثلة من الأعداء بين أصحاب المناصب المعزولين. وكان في الحكومة وزراء، بينهم فرجين، الذي بات بعيداً جداً عن سياساته شكلاً ومضموناً. واجه نِكر التحدّي في أيار عام 1781 جدياً، بالطلب إلى الملك أنّ يعينه في المجلس الملكي على الرغم من مذهبه البروتستانتي ولقب المدير العام. وقد رد كل من موريباس وفرجين أنهما سيستقيلان إذا حدث ذلك. فاستقال نِكر في 19 أيار.

أعاد جولي دي فلوري Joly de Fleury، الذي خلفه في المنصب غالبية الجباة والمحاسبين الذين صرفهم نِكر، مباشرة، وباشر كولوني فورة إنفاق فاضحة ومدروسة

باسم الملكية، إذ اشترى الغنم والرخام وشجع الأعمال العسكرية الطموحة، مثل أحواض الأسطول في طولون ومشروع الميناء العظيم في شيربورغ. وكان كولوني مبذّراً إدارياً أيضاً، وتخلّى عن مقتضيات المحاسبة الدقيقة التي سببت مشكلات حادة في الجيش والأسطول (لاسيما في ميدان توظيفاتهم) وفي الأعمال المنزلية الملكية. وكما يوضح آر. دي. هاريس بدقة، عندما تم فرض الضريبة العشرينية الأخيرة، كإجراء حربي والتي كان يجب أن تُبطَل عام 1786، اكتشف كولوني فجأة أن العلاقة بين الدخل العادي والإنفاق لم تكن فائضاً كما أشارت وثيقة نِكر، بل عجزاً مقداره 112 مليون ليفر. كانت تلك حالة طارئة فعلاً لكن من فرضها ليس نِكر بل خلفاؤه ولا يُلام أحد أكثر من كالوني Calonne.

وقد تحسّر نِكر على الفرص التي أضاعها في ما بعد:

آه! ماذا كان يمكن أن يتحقق في ظروف أخرى. يتألّم القلب من التفكير في ذلك. لقد بذلت قصارى جهدي لإبقاء السفينة عائمة خلال العاصفة... وذهبت أيام السلام للآخرين.

لكن كما جرى مع ترغو جزئياً، فقد كلفه تصميمه على أن يضمن سيطرة حصرية على المالية جعله يخسر أصدقائه في البلاط. وقد أصر، بالتحديد، وربما ليس دونما سبب معقول، على عضوية المجلس الملكي، بدلاً من القيام بدور الدخيل الذي ينطوي عليه منصبه المدير العام الذي يتصف بمفارقة تاريخية. لم تكن تلك مجرّد مسألة تتعلق باحترام الذات. إذ كان يخسر النفوذ داخل الحكومة لصالح السياسات التوسعية العسكرية لـ دي كاستريز وسيغور وحاول بتهور التوسّط لإنهاء الحرب الأمريكية قبل أن تقوّض الملكية. أفقده ذلك تأييد فرجين. وصنع له هجومه على جمعية جباية الضريبة ووظيفتها جماعة من الأعداء الأقوياء، لكنّ الأمر كان على مسألة محددة هي التي جعلت نِكر يصر على أن يمنح حق القبول في المجلس الملكي.

لقد جادل دائماً أن الدعم السياسي الواسع لا ينفصل عن النجاح في أي برنامج إصلاحي جاد. وقد ذهب نِكر الدخيل أبعد من ترغو وأسلافٍ آخرين إلى ما وراء العالم السياسي المطّوق بالمحكمة والبلاط، بحثاً عنه. أسس جمعيات إقليمية منتخبة في إقليمي بيري وأوت غوين ونقل إليها مهامها التي كان ترغو قد عهد بها إلى الحكام. كانت تلك طريقة للاختبار الدقيق للمؤسسات من القمة إلى القاعدة، الطريقة التي دافع عنها ترغو (الذي اقترح سلسلة من الهيئات المنتخبة من جمعيات القرى وصولاً إلى ممثل وطني)،

وبينما اجتمع أعضاء جمعيات نِكر في الطبقات التقليدية الثلاث، كان ممثلو الطبقة الثالثة ـ العامة ـ حاضرين، لأول مرة، «بأعداد مضاعفة» للتساوي مع عدد ممثلي طبقتي النبلاء ورجال الدين. وكان ذلك عندما لم يواجه مجرد معارضة من حاكم بوربوني، بل إهمالاً كلياً، على اقتراحه القاضي بإنشاء جمعية ثالثة في مولين، هو الذي جعل نِكر يطلب ذلك من الملك. في الحقيقة مثل هذا كان موقعه، إذ كان عليه أن يطلب من أحد خصومه، ميرومسنل Miromesnil، أن يقدم الاقتراح إلى الملك في المجلس، شيء ما رفض الوزير أن يفعله.

بينما غالباً ما تحدّى نِكر أنصار تقاليد العهد السابق، لم يكن ثمة هجوم أكبر منزلة من المبدأ المركزي في كتابه التقرير المالي Compte Rendu. إذ ادّعى أحد منتقديه أنّ ماهية الحكومة الملكية تكمن في سرّيتها، «وسيستغرق الأمر زمناً طويلاً قبل أن تستطيع جلالتكم شفاء الجرح الذي أصاب كرامة العرش». لكن تأسيس نوع من المحاسبة في الحكومة الفرنسية كان جوهر المسألة في ما يتعلق بـ نِكر. وقد أحاط به رجال مخلصون ومؤهلون، مثل مساعده الوفي برتراند دوفرسن، ولم تكن مثل هذه الشعبية عائقاً بل الشرط العملي للنجاح المالي حقاً. وكانت جوهر الموثوقية. وكان كتاب التقرير المالي شأنه شأن أي شيء، تمريناً في التعليم العام. فلغته البسيطة المدروسة بروية، وسعيه لجعل الشخص العادي يقرأ الحساب المالي، تشهد لمحاولته الجادة خلق مواطنين مهتمين بشؤون وطنهم.

وهكذا فقد كانت المسألة أكثر من قضية أسلوب إدارة مالية. إذ برزت من موضوع عميق وعاطفي في ثقافة فرنسا أواخر القرن الثامن عشر، الموضوع الذي انبثق من الأخلاق الشخصية العامة، والذي سيحقق اللحمة بين الاثنين في الخطاب والسلوك في الثورة. كانت تلك معارضة للشفافية والغموض، الصراحة ضد الرياء، الاهتمام بالشأن العام ضد الاهتمام الذاتي، الوضوح في مواجهة التنكر. وستعرف الثورة سلوكيات النظام السابق، التي تؤكد على أنواع عدم الصدق والإخلاص المهذب، وهي شكل من الخيانة أن عدم الولاء خيانة، لكن في ذلك الحين، في شكل مكيدة بلاط، كانوا كافين لجعل الملك ينأى عن دعم رجله الإصلاحي الأكثر نجاحاً.

لـ نِكر، كانت حماية السرية، في الحقيقة، هي المنقذ للحكم الاستبدادي. لم يكن ذلك لا أخلاقياً وحسب، بل تهوّراً أيضاً. اعتقد أنّ الفرق الحقيقي بين الثقة البريطانية وبين الثقة الفرنسية هو القدرة البريطانية على استخدام المؤسسات التمثيلية، كالمحكمة (مهما كان نقائصه) لتمثيل علاقة الثقة المتبادلة والقبول بين الحكام والمحكومين. وقد

كتب: «إنّ الرباط القوي بين المواطنين والدولة وتأثير الأمة على الحكومة وضمان الحرية المدنية للفرد والدعم الوطني الذي يقدمه الشعب دائماً للحكومة في الأزمات يسهم كل ذلك في جعل الشعب الإنكليزي فريداً في العالم».

لكن إذا كان سخيفاً أن نحاول تقديم صورة للتاريخ الدستوري الإنكليز في فرنسا، فلابدّ لنا من أن نقوم بمسعى وفاقي للمضي في هذا المنحى على الأقل. اعتقد أنّ النتيجة الأسوأ لعزله هي تمزيق هذه الوحدة بين تخفيض الإنفاق والتحرير السياسي قبل أن يتاح له زمن للإقلاع. هل ستكون ثمة فرصة أخرى في وقت يبدو فيه نِكر والإصلاح مرة ثانية حلاً، وفي الحقيقة الحل الوحيد، سيكون ذلك على الأرجح في ظروف الهيجان الشديد. خشي آخرون بوضوح من الأسوأ، كتب غريم تقريراً إثر انتشار خبر طرد نِكر جاء فيه:

يخال المرء أن فاجعة عامة قد حلّت... نظر الناس بعضهم إلى بعض في رعب صامت، وبحزن يضغط الشخص على يد الآخر ويمضي كل في سبيله.

CHAPTER TWO

BLUE HORIZONS, RED INK

i "LES BEAUX JOURS"

On the coronation of Louis XVI, see H. Weber, "Le Sacre de Louis XVI," in Actes du Colloque International de Soréze, Le Régne de Louis XVI (1976, 11 - 22); idem, "Das Sacre Ludwigs XVI vom 11 Juin 1775 und die Kite des Ancien Régime," in Ernst Hinrichs, E. Schmitt and R. Vierhaus (eds), Vom Ancien Régime zur Französischen Revolution: For - schungen und Perspektiven (Göttingen 1978); also the superb essay(virtually a small book in itself) by Jacques Le Goff, "Reims, Ville du Sacre," in Pierre Nora (ed), Les Lieux de Mémoire, vol. 2, La Nation (Paris 1986, part I, 161 - 65). Turgot's complaints about the expenses of the coronation as well as details of the decorations were reported by Pidanzat de Mairobert in L'Espion Anglais 1775, 320 - 27).

Louis XVI's upbringing is described in P. Girault de Coursac L'Education d'un Roi:

Louis XVI (Paris 1972); much of his diary was published by L. Nicolardot,Journal de Louis XVI (1873). For the royal visit to Cherbourg in June 1786, see Histoire Sommaire de Cher - bourg avec Le Journal de Tout Ce Quis'est Passé au Mois de Juin 1786 (Cherbourg 1786); Voyage de Louts XVI dans la Province de Normandie ("Philadelphie" [Paris] 1786); Gazette de France (July 4, 1786); J. - .M. Gaudillot, Le Voyage de Louis XVI en Normandie (Caen 1967); and Georges Lacour - Gayet, "Voyage de Louis XVI á Cherbourg," in Revue des Etudes Histor - iques (19o6). For the King's familiarity with nautical culture, see Louis - Petit de BachauMémoires Secrets pour Servir á l'Histoire de la République des Lettres (36 vols., London 1781 - - 89,July 2, 3, and,9, I786).

For Louis' passion for the hunt (and for the best general survey of the reign), see François Bluche, La Vie Quotidiernie au Temp de Louis XVI (Paris 1980).

ii OCEANS OF DEBT

The passage from Chateaubriand is from Mémoires d'Outre - Tombe (Paris 1849, vol. 1, 91). Figures for the cost of the French navy are taken from Dull, French Navy and American Independence; naval construction is also helpfully tabulated in T. Le Goff and J. Meyer, "Les Constructions Navales en France," in Annales: Economies, Sociétés, Civilisations (1971, 173ff.)

The two articles which, taken together, make an overwhelming case for revising traditional assumptions about the incidence and burden of French taxation are Peter Mathias and Patrick O'Brien, "Taxation in Britain and France 1715 - 1810," in Journal of European Economic History (1997, 6o1 - 50); and Michel Morineau, "Budgets de l'Etatet Gestion des Finances Royales au i8e Siècle," in Revue Historique (198o, 289 - 336). Other important studies on finance are J. E Bosher, French Government Finance 1770 - 1795 (Cambridge, England, 1970), and C.B.A. Behrens, Society, Government and Enlightenment: The Experience of Eighteenth - Century France and Prussia (New York 1985, especially chapter 3). The emphasis in these works on the structural and institutional blocks to solvency is, however, seriously put into question by an exceptionally powerful if rather technical work of James Riley, The Seven Years' War and the Old Regime in France: The Economic and Financial 882

Toll (Princeton 1986). François Hincker, Les Français Devant l'Impôt sous l'Ancien Régime (Paris 1971), is a clear and helpful survey of the problem. The standard institutional history, now somewhat dated, is Marcel Marion, Histoire Financiére de la France Depuis 1715 (Paris 1921). On venality as a source of revenue before the Revolution, see the important contribution by David D. Bien, "Offices. Corps, and a System of State Credit: The Uses of Privilege under the Ancien Régime," in Keith Michael Baker (ed.), The Political Culture of the Old Regime (Oxford 1987, 89 - 114).

iii MONEY FARMS AND SALT WARS

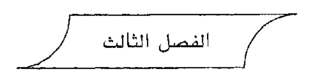
For the Farmers - General, see George Matthews, The Royal General Farms in 18th - Century France (New York 1958), and Yves Durand, Les Fermiers Généraux au XVIIIe Siécle (Paris 1971); also Jean Pasquier, L'Impôt des Gabelles en France aux XVII et XVIIIe Siècles (Paris 1905). On the salt smugglers, see the superbly evocative account in Olwen Hufton, The Poor of Eighteenth - Century France (Oxford 1974). On the stereotypes of the "financiers," see H. Thirion, La Vie Privée des Financiers au XVIIIe Siècle (Pads 1895), and Jean - Baptiste Darigrand, L'Anti - Financier (Amsterdam t 763).

iv...LAST BEST HOPES: THE COACHMAN

There are two excellent accounts of Turgot's career: Douglas Dakin, Turgot and the Ancien Régime in France (London 1939), and Edgar Fauré La Disgrâce de Turgot (Paris 1961). For a much more hostile approach (which is quite persuasive in places), see Lucien Langier, Turgot ou la Mythe des Reformer (Paris 1979). Some of Langier's prosecution is borne out by R. P. Shepherd, Turgot and the Six Edicts (New York 1903) For the effects of physiocratic reform on the grain trade, see S. L. Kaplan, Bread, Politics and Political Economy in the Reign of Louis XV(2 vols, The Hague 1976). On physiocratic theory, see G. Weulersse, le Mouvement Physiocratique en France 1756 - 1770 (2 vols., Paris 1910) and the important intellectual history by Elizabeth Fox - Genovese, The Origins of Physiocracy (Ithaca, N. Y., 1976), Ronald L. Meek (ed), Turgot on Progress, Sociology and Economics (Cambridge, England, 1973).

V LAST BEST HOPES: THE BANKER

Two works have contributed to a major reassessment of Necker's administration: Jean Egret, Necker: Ministre de Louis XVI (Paris 1975), and R. D. Harris, Necker. Reform States - man of the Old Regime (Berkeley 1979), the latter based on new documentary research at Coppet bearing out many of the claims made in the Compte Rendu. See also H. Grange, Les Idées de Necker (Paris 1974), and Edouard Chapuisat, Necker 1732 - 1804 (Paris 1938).



هجوم على الحكم الاستبدادي

I ـ مغامرات م. غيلوم ـ *M. Guillaume*

ذات صباح في شهر آب عام 1776، وقف سيد قوّي البنية في ثياب رثّة نسبياً عند حوض السفن في روتردام. كان يراقب بتركيز حركة المراكب الخشبية فيما تُبحر في القناة باتجاه دردريخت Dordrecht وهو ينفث غليونه، ويعتمر قبّعته الثلاثية الزوايا بلامبالاة فوق شعر مستعار شهد أياماً أفضل. لقد أدهشه هذا المشهد الاعتيادي تماماً إلى درجة الذهول. وقد وصفه في يومياته بقوله: إنه مشهد من أهم المشاهد التي رأيتها في حياتي: مدينة عائمة برمّتها، وقد سُمّر فوقها بيت جميل مصنوع من ألواح الخشب». وقد دفعه الفضول إلى السؤال عندما توقّفت السفينة التالية، عما إذا كان يستطيع زيارة الكوخ العائم ورحبت به امرأة d'un certain âge على ظهر السفينة، وما زاد في ذهوله أن المرأة هي صاحبة الأسطول كلّه، وقد استقبلته، كما كتب: «بمنتهى التواضع ومنتهى العفاف، بصفتي مسافراً».

عُرف المسافر خلال رحلاته العديدة بأنه «م. غيلوم»، لعلّه كان الرجل الذي يحظى بالحب كله في فرنسا. كان شريتيان غيلوم دي لاموانون دي مالرب Chretien Guillaume de Lamoignon de Malesherbes، الذي كان قبل ثلاثة أشهر مضت زميل ترغو ورئيس أعمال التدبير المنزلية الملكية. كانت رؤية هذه الغلة العائمة التي تقودها ربانة تبعث على الخوف، لمالرب، بعيدة جداً من فرنسا النظام القديم، كما يستطيع أن يتذكر. مثل الآخرين جميعاً في جمهورية هولندا صرحت أنها تمتلك الثروة وحرية انتقال البضائع والأشخاص والمناصب المألوفة التي تتناقض بشدة مع بلاط فرساي الذي جاء منه. راقت هولندا لِـــ م. غيلوم كثيراً، وفكّر بصورة غريبة، مثلما فعلت قافلة كاملة من الزوار

الفرنسيين الشهيرين، التي ضمت ديدرو Diderot ومونتسكيو Montesquieu ودارجنسون d'Argenson، لقد حافظت على البساطة في السلوك حتى في أقصى درجات قوّتها. وعلاوة على ذلك، كانت أمة مدخّني الغليون، بينما كان السعوط وحده المسموح في فرنسا بعلب برّاقة ومناديل مزركشة، وأناقة عمل يقتصر على الإبهام والسبابة. ولا أحد هناك يبدو أنه يعير اهتماماً كبيراً للمظاهر، التي كانت أيضاً ما دام مالرب كان مشهوراً بتحركه المتثاقل، حتى في البلاط، في معطفه البني القذر وجواربه السوداء، الذي يبدو للعالم كله مثل صيدلاني في بلدة صغيرة أكثر منه وزيراً للملك.

كان مسافراً متقد العاطفة، وقد أتاح له صرفه المعتاد من المنصب (العقوبة التي دفعها نتيجة تفكيره المستقل) الوقت لإشباع رغبته في مهنته الحقيقية: علم النبات. فلم يكد يقدم كتاب استقالته إلى الملك لويس السادس عشر إثر طرد ترغو، حتى ذهب بعيداً في رحلة سيراً على الأقدام إلى جنوب غرب فرنسا لإلقاء نظرة على زراعة الكرمة وغابات الصنوبر الرملية في لاندز جنوب غرب بوردو. زعم أنّ مهمته الحقيقية في الحياة هي النجاح في دحض نظريات عالم الطبيعة بوفون، الذي شجبه بوصفه نذلاً وأحمق، وإعادة الاعتبار لعمل معلمه المفكر لينايوس Linnaeus. وكان من شأن كتابه «الأعشاب الطبية Herbier» في أربعين مجلّداً، بالإضافة إلى الحديقة العلمية الأكبر مساحة في فرنسا، إنجاز مشروعه العظيم. لـ مالرب، كان قصره ببساطة نوعاً من سقيفة في حديقة عظيمة مع مكتبة ذات مرجعيات نباتية لآلاف الأعمال ذات العلاقة. وكان في مجموعته العظيمة القرانيا الفرجينية وشجر العرعر البنسيلفاني والراتينجية الكندية إضافة إلى أشجار الصمغ الاستوائية وغابات البندق البرازيلية. وكان لديه مجموعة كاملة من أشجار الدردار الإنكليزية شحنت من دوفر على باخرة خاصة وتم ازدراعها في التربة الجديدة. وله، كان المنظر الأشد إيلاماً في العالم ـ بعد حال السجون في باريس ـ هو غابة محترقة مثل الغابة، التي شاهدها خلال تجواله الطويل في بروفينس عام 1767. عمل ذهنه الموسوعي بسرعة في هولندا. راقب كل شيء منتشياً بثقافة حيث عُوِّضت الكارثة الطبيعية بالبراعة الطبيعية. هددت مستعمرات الأرانب الكثبان الرملية، فرد الهولندي على ذلك باكتشاف نوع من الأشجار السطحية الجذور التي تحول دون انجراف الرمال. وحتى الطحالب والأعشاب البحرية تستخدم لتقوية السدود والحواجز المائية. لقد شعر مالرب مستلقياً في فراش نظيف، ذات صباح من أيام شهر آب الدافئة، في أعالي شمال شبه جزيرة هولندا، وهو ينظر من نافذة غرفته إلى المحيط، شعر أخيراً أنّه تطهّر من قذارة سياسات البلاط.



صورة 27، صورة مالرب

في الحقيقة، لم يكن سعيداً أبداً في منصبه. حاول قس بروتستانتي بعد عامين في سويسرا أن يقدم للمجهول، المجادل المثقف منصباً شاغراً في أبرشية. وعندما حاول مالرب أن يتخلص من الأمر، افترض القس أنه يسأل عن حقه بتحديد الموعد، فأضاف بطريقة مطمئنة، «لكنني أنا رئيس الأبرشية» Mais moi, ministre. ورد على صاحبه عندئذٍ نابذاً اسمه المستعار مؤقتاً، «وأنا وزير سابق» Et moi, ex - ministre. في الواقع استمتع في رفضه السلطة الرسمية. رفض عرض صديقه ترغو في أول مناسبة حاول فيها المراقب العام إقناعه باستلام المنصب عام 1774. وبعد فترة وجيزة من مغادرته الوزارة وجد نفسه في فندق، حيث كان هناك رجلان يندبان طرد مالرب الرائع. وقد جادل م. غيلوم بحرارة حول ملاءمة الوزير السابق للمنصب مصراً على أنّ مالرب لم يُخلَق لهذا العمل ببساطة.

كان هناك طبعاً عنصر معكوس من الرضا الذاتي في هذا كله. لقد هاجم على نحوٍ واعٍ موقف رجال القبّعات bonnête homme معجباً حقاً برأي روسو ومتطابقاً معه. وقد واصل ارتداء الثياب الطويلة التي تمتد حتى القدمين عندما كان رئيس أعمال التدبير المنزلي الملكية، ولم تكن تلك مسألة استغراق معتاد بالأناقة، بل تحدياً متعمداً لقواعد التشريفات في فرساي التي فرضت ارتداء ثياب البلاط على الوزراء. إذا كان الاقتصاد هو نظام يومنا، فدعنا نبدأ به. فقد أحرز نقاطاً أكثر من قصّة معلم الرقص الشهير مارسيل Marcel (التي ربما كانت صحيحة)، الذي تم استئجاره لتدريبه وتوجيهه. فيئس من العمل،

وحذّر والد مالرب أنّ الولد بهذا السلوك السيئ لا يستطيع أن يأمل خيراً في أن ينجح في أية وظيفة عامة أو تميز سياسي. وبخلاف لابسي القبّعات المثاليين الآخرين، مثل بنيامين فرانكلين، كان مالرب ضعيفاً في المراءاة أو الاعتبارات الاجتماعية. وقد واجه ما يكفي من المحن الشخصية والتعاسة لتحببه إلى جيل اعتقد أن الحزن شارة للنبالة. ففي عام 1771 وجد مالرب جثة زوجته ماري فرانسوا، إبنة رئيس جمعية جباة الضريبة غريمود دي لا رنييه، قرب منزله في الغابة. ربطت بندقية قديمة إلى شجرة بخبرة دقيقة، ولفّت شريطاً حريرياً أزرق على الزناد، وصوبت فوهة البندقية إلى صدرها، وشدّت الشريط. وقد كتب روسو في مؤاساته الإطراء الأفضل الذي عرفه: «لم تعرف كيف تكذب ولا كيف تخادع. وفي ذلك بعض العزاء في البلوى التي لابد أن تشعر بها كل القلوب المرهفة الشعور».

سكنت تناقضات نبلاء النظام القديم السياسية كلها داخل مالرب. فما دام لا يصلح مزاجياً للبلاط، كلّفه ترغو بالإشراف على أعمال التدبير المنزلي الملكية. وقد تظاهر هناك أنه لا يرى مخلوقات الشقق الكبيرة يضحكون خلف أيديهم من تلك البومة التي جاءت إلى ما بين الطواويس. وقد استخدم سمعته التي لا يرقى إليها الشك ليُعّد الطريق لهجوم نِكر الشامل على منصب البلاط، لم يكن لدى مالرب ما يعتذر عنه فيما يتعلّق بنسبه رغم مظهره وأساليب عمله، فقد تحدّر من عائلة تنتمي إلى أشهر السلالات النبيلة التي حكمت فرنسا. وتزوج من واحدة ذات ثراء فاحش بسبب بعض شهوته في ما يملك الآخر، وعندما نالت العائلة شهرة في عهد الكاردينال مازارين بوصفها عشيرة عظيمة تملك الثوب الكهنوتي ـ نبلاء السلطة القضائية ـ عمل أفراد العائلة، شأنهم شأن غيرهم، في المناصب الملكية وفي المحاكم المستقلة التي تحوّلت إلى معارضة غير رسمية للحكم الاستبدادي. شغل والد مالرب منصب مراقب وشغل ابن عمه منصب وزير عدل حازم ـ حامل الأختام ـ في عهد لويس السادس عشر.

عندما تبوأ مالرب منصباً في عهد لويس الخامس عشر كانت المسألة أسلوباً لكبح سلطة الاستبداد أكثر من تقويتها. بدأ عمله قاضياً وهو في العشرين من عمره. وشغل، بين عام 1750 وعام 1775، منصبين هامين للدفاع عما اعتبره مالرب، بالاشتراك مع عدد من أفراد النخبة، الحريات الأساسية. وكانت الحرية الأولى حرية القراءة. فشغل، من عام 1750 إلى عام 1763 منصب مدير المكتبات: المسؤول الرسمي الذي تمتّع بصلاحية الموافقة على نشر الكتب أو منعها من النشر. ويصعب القول ما إذا كان موقفه قد تميز

بالكياسة الخلّاقة. فقد نشرت الكتب التي تدعو إلى الإلحاد صراحة، والكراريس التي تدعو إلى قتل الملك، وكراريس الفن الإباحي في عهده. والأكثر أهمية حظي روسو ومحرري الانسكلوبيديا ديدرو ودالمبرت بالحماية التي احتاجوا إليها لإنتاج أعمالهم العظيمة. ففي عام 1752، أمر المجلس الملكي، مغتاظاً من مواد في المجلّد الثاني تهاجم اليسوعيين، بقمعها وفرض غرامات باهظة على كلّ من يثبت أنه يطبعها أو يوزعها. والأسوأ، تلقّى مالرب أمراً بمصادرة المخطوطات الوثيقة الصلة بالموضوع، فضلاً عن مصادرة النسخ المجلدة وغير المجلدة. لكنّه بدلاً من ذلك، حذر ديدرو قبل وصول الشرطة وأقنعه بإخفاء النسخ غير القانونية في بيته الخاص، مفترضاً أنّه المكان الأخير الذي قد يبحثون فيه عن مادة محظورة.

وفي منصبه الآخر، كرئيس لمحكمة المساعدين، أثبت مالرب أنّه ليس أقل رغبة في استخدام المنصب الرفيع للدفاع عن المواطنين (لأن الكلمة كانت تستخدم على نطاق واسع) المناهضين لعملاء الحكم الاستبدادي. تركز معظم أعمال محكمة المساعدين على سماع استئنافات ضد قرارات المحاكم الإدارية المختصة بالضرائب والسلطات المالية: موظفي جمارك وجباة الضرائب وموظفي جمعية جباية الضريبة غير المباشرة. ولعّل ذلك ما جعل المحكمة واحدة من أكثر المؤسسات شعبيةً في النظام السابق، وربما تعززت سمعتها ومصدر التعاطف معها من حقيقة أن معظم محاميها وقضاتها جاؤوا من شريحة اجتماعية من النبلاء أدنى من كبارهم في المحاكم.

استطاع رئيس محكمة المساعدين أن يكون مثل كلب صيد عندما يقتنع أن ظلماً قد وقع. مثلاً، اعتقل مدرب صقور متجول من ليموزين، اسمه مونرات Monnerat، بتهمة التهريب، وأودع في زنزانة في قبو سجن بيستر لعشرين شهراً دون استجواب. وبعد إطلاق سراحه، حاول، من خلال محكمة المساعدين، أن يرفع دعوى ضدَّ جمعية جباية الضريبة، بهدف الفوز بتعويض عن الأضرار التي لحقت فيه. وقد نتج عن ذلك إعادة اعتقاله، عند هذه النقطة عارض مالرب الاعتقال وطالب بالقبض على موظف جمعية جباية الضريبة. وقد أدى ذلك إلى صدام مباشر بين المحكمة والمراقب العام، تيراي، الذي لم ينتهِ إلا عندما حل تيراي المحكمة. ولكن إذا امتلك التاج اليد العليا مؤقتاً، فإن الحادثة أكدت، بعد إعادة تشكيل المحكمة في عهد لويس السادس عشر، موقفها حامية للمحكومين في مواجهة العدالة الإدارية الاعتباطية لن تكون أعلى أبداً.

تمتعت المحكمة بمهمة ثانية لا تقل أهمية عن الأولى. شأنها شأن المحاكم البرلمانية الثلاث عشرة العليا، احتفظت بحقها في (تسجيل). فلا يغدو المرسوم قانوناً إلا بعد التصديق، على الرغم من أنّ التاج تمتّع بصلاحية رفض إطالة عدم المصادقة بإصدار قرار من وزارة العدل يأمر بتنفيذ المرسوم فوراً. ومن ناحية ثانية، تمتّعت المحكمة بحق «الاعتراض»، بالاشتراك مع المحكمة. وزال هذا الحق في ذروة الهيمنة الملكية في القرن السابع عشر، ولكن إثر موت لويس الرابع عشر عام 1715، أعاد الوصي على العرش ذلك الحق وبهذه الضربة الواحدة أعاد تجديد سلطة المحاكم السياسية. مع ذلك، كانت الاعتراضات في الواقع مجرّد لوم انتقادي أو احتجاجات ـ غالباً في شكل محاضرات مطوّلة ـ ضدّ السياسات التي اعتبرتها انتهاكاً للقوانين الأساسية في المملكة. تضمن القانون الأساسي، كما سنرى، مسألة لخلاف جدي. لكن فيما غدت سياسات لويس الخامس عشر المالية أكثر شدة بعد كل حرب من حروبه الكبرى التي خاضها، أخذت الاعتراضات تزداد وتصبح أكثر ولعاً بالمجابهة أيضاً.

اهتّمت غالبية الاعتراضات الصادرة عن المحكمة بخرق قانون الامتياز الممنوح للاستثناء من الضرائب، مثل ضريبة العشرين vingtième، ومع ذلك زعم المحكمة أنّه يتصرّف برد فعل ضد الاعتداء على «الحريات». لكنّ تلك الاعتراضات التي جاءت من محكمة المساعدين منذ عام 1759 فصاعداً تمتّعت بطابع أكثر راديكالية. فقد استعمل مالرب الرئاسة للهجوم على جهاز فرض الضرائب برمته، لاسيما مظالم التخمين والجباية. جادل، في المقام الأول، متسلحاً برأي مونتسكيو، أنّ الضرائب لم تُفرض في ظل الملكية الفرنسية في العصر الوسيط دون موافقة الشعب ممثلاً بمجلس الطبقات، أبداً. ثانياً، كان بديهياً ألّا يزيد حجم الضرائب الإجمالي عن الحاجات المثبتة للدولة. وفي ما يخص العلاقة الصحيحة بين العائدات والنفقات الضرورية يجب أن تُستَرَد، وينبغي تقديم شكل ما من المحاسبة العامة. ثالثاً، يجب معالجة فرض الضرائب ـ بين طبقات المواطنين المختلفة وبين المناطق المختلفة في البلد.

سيمضي أبعد من ذلك عام 1771. أقنع المستشار موبو، المستاء من عرقلة المحكمة، الملك لويس الخامس عشر باتخاذ إجراء صارم. فأُلغيت المحاكم المستقلة كافة، لصالح هيئات قضائية معيّنة تنفذ أوامر الملك. وفي شباط عام 1771، قدَّم مالرب اعتراضاً بالنيابة عن المحكمة التي ضمنت حلّها الوشيك بعد ذلك. لكن ليس قبل الهجوم على التاج بسبب انتهاك حقوق الملكية الأساسية بحرمان أعضاء المحاكم من مناصبهم.

لم يكن ذلك أكثر من الحذو حذو خط المحاكم المقبول. لكن الاعتراض حمل شوكة في ذيله. فقد جادل مالرب في نهاية الاعتراض بأنّ الأمة التي تُحرَم من «الهيئات الوسيطة» التي تدافع عن «قوانينها الأساسية» تمهّد الدرب للحكم الاستبدادي المطلق، وليس ثمّة بديل لذلك سوى استدعاء جمعية الأمة، ربما مجلس الطبقات. و الشاهد غير القابل للفساد الذي يجسده ممثلو الأمة سيبيّن لك، على الأقل، إذا ما كانت الحقيقة، كما يزعم وزراؤك بلا توقف أن القضاة ينتهكون القانون، أو أن القضية التي ندافع عنها اليوم ليست سوى الناس الذين تحكم بهم ولهم».

كانت القاعدة الشرطية، حتى التعاقدية لهذه السيادة درباً طويلة من الحكم الاستبدادي المُعلَن في كلام لويس الخامس عشر الرسمي في كرسي العدالة: «إننا نحمل تاجنا بأمر من الله وحده». وفي شهر آذار استدعى الملك كما ينبغي الرئيس المتمرد إلى فرساي المراسم المخزية التي هو نفسه سيلغي فيها اعتراض المحكمة. لكن في الطريق إلى هذا الامتهان الطقوسي طرأت حادثة غير عادية. عندما وصل إلى أبواب الجناح الملكي، جدار الأشخاص المتبجحين المزخرفين، الذين قدموا ميزة كبيرة بالانحناء للقضاة في أرديتهم السوداء، توزعوا في الوسط ليفسحوا الطريق للرجل البدين القصير القذر المقبول دخوله إلى الملك. استذكر أحد زملاء مالرب فعل الاحترام غير المتوقع هذا في ما بعد أنه «مذهل» ووصف «الاحترام والتقدير... وكل شيء آخر كان مثيراً لأن القضاة ... كانوا يواجهون صعوبات أحياناً في دخول الجناح الملكي حتى عندما يطلب الملك حضورهم».

كان أمل مالرب للعهد الجديد أن ينجو لويس السادس عشر من بلاطه. لذلك، شارك كارهاً في وزارة ترغو بتفاهم أنه لن يُختار في عالم صغار الخدم كما دعا الحاشية على نحوٍ ازدرائي. وخشية أن يظل غير مفهوم نشر قبل استلام المنصب اعتراضه الأخير الذي كان اتهاماً شديداً للحكومة الفرنسية قلباً وقالباً. كان معظم الرسالة الطويلة ذات الأدلة القوية مناقشة مساوئ جمعية جباة الضريبة وموظفيها، ومظالم ضريبة الرأس والأرض والحاجة لاستبدال «السرية» الراسخة في الإدارة برقابة ومحاسبة عامة. لكنّ مالرب تعهّد شخصياً أن يعمل على أن تكرار هذا يعني بالضرورة تدمير سلطة الحكام البيروقراطية واستبدالها بسلطة منتخبة عبر جمعيات محلية وإقليمية. وعندما يتمكن التاج من أن يعتمد على تمثيل وطني مخلص فحسب ستعامَل الحكومة بأنها موضع ثقة بدلاً من عبء طغياني من خلال هؤلاء الذين سلموا لها أن تحكم.

لا حاجة للقول إنّ لويس السادس عشر فقد البوصلة. فبدلاً من أن يرى الاعتراض مناشدة للتغيير في أساسيات الحكومة وطبيعتها، اعتبره دفاعاً مملاً عن إجراءات تدريجية محددة، إجراءات لم يكن يعارضها بصورة خاصة. وبالمثل، في العام ذاته، أخفقت مذكرة ترغو عن البلديات، والتي اقترحت تفكيكاً أكثر قسوة للحكومة، تبدأ بجمعيات القرية المحلية، لتصل في النهاية إلى تمثيل وطني في أن تؤثر على الملك. وقد نزل الكثير من تحفيز مالرب للملك أن يمنح الاحتجاجات العامة تقبلاً جديداً واهتماماً بالخير العام نزل على آذان صمّاء، أو مُني بالهزيمة أمام مزاعم اللياقة التقليدية التي قدمها موريباس. لذلك، بينما كان لويس قانعاً أن يزور مالرب شخصياً سجن بيستري وسجن الباستيل (اللذين خرج منهما مشدوهاً من أوضاع الزنزانات الأكثر سوءاً) رفض توسّلات الوزير أن يرافقه. ولن يلغي، كما أوصى مالرب بقوة، مذكرات التوقيف (الأداة التي يستطيع التاج بواسطتها اعتقال وحجز السجناء دون استجواب). لا شيء قُدِّم أكثر من وعد كاذب لاقتراحات الوزير العزيزة عليه في ما يتعلق بالتسامح العام إزاء المذهب البروتستانتي.

تبددت الآمال العظيمة التي عقدوها على لويس السادس عشر وقت تتويجه، تبددت سريعاً، لكن مجيئها من الرجلين الأكثر قوة في فرنسا آنذاك، اعتراض مالرب ومذكرة ترغو، شكل نموذجاً لملكية بديلة في فرنسا: محلية أكثر منها مركزية، انتخابية أكثر منها إدارية، علنية أكثر منها سرّية، قانونية أكثر منها تعسفية.

دخل مالرب في نزاع مع الملكة قبل أن يمضي وقت طويل عندما رفض أن يمنح سفارة لأحد أكثر المفضلين لديها. لكن عندما سقط صديقه ترغو من السلطة صار قادراً على الرحيل بضمير مرتاح ونظيف: لم يعرض استقلاله لخطر فساد المنصب. رجع إلى حصنه، يتأمل النبتات الصغيرات ومخطوطه الضخم حتى ساعة متأخرة من الليل، يرتدي عباءة رمادية صوفية ناعمة وقبعة نوم بيضاء. لم يقنط أبداً من الملكية. وقد شهد عام 1775 قبوله في الأكاديمية الفرنسية، حيث ألقى خطاباً افتتاحياً مفعماً بالتفاؤل في مستقبل فرنسا. لقد كان قدره الذاتي وقدر مليكه في الحقيقة أكثر توحداً مما تخيّل. حيث سيلعب دور المحامي ثانية، وسيكون موكّله التعيس لويس السادس عشر.

II ـ إعادة تعريف السيادة:

تحدي المحاكم

لم يكن مالرب ثورياً، كما ستظهر الأيام. والنبرة الحادة في هجومه على «الحكم الاستبدادي» و«الطغيان الوزاري» ستكون غير قابلة للفهم لو لم يقرها الاستخدام الطويل في سجالات أعضاء المحاكم. فقد كانت نبرة مقاومة قضاة المحاكم للسياسة الملكية عنفاً مشحوناً بالسخط منذ خمسينيات القرن الثامن عشر. إذ بقدر ما سعى التاج على نحوٍ يائس إلى علاجات لمأزقه المالي في الضرائب المفروضة على أصحاب الامتيازات والمحرومين منها على حدّ سواء، غدا القضاة أشد غيظاً. وصار حبّهم للصدام أكثر من نوبة مزاج سيء جمعي. وقد مثّل ذلك جهداً منسقاً لاستبدال الحكم الاستبدادي غير المقيد للويس الرابع عشر بملكية أكثر «دستورية». وفي ذلك النظام الجديد يجب أن يحول وسطاء السلطة الشرعية وممثلو«الأمة» الفعليون دون أي تجاوز في السلطة الحكومية.

في عملية التحوّل هذه من حكم مطلق إلى حكم ملكي «مختلط»، وجد القضاة عوناً لها في تغير التأكيد على تعريف الذات في الحكومة. وفي مجاراة ابتكار نظرية الإدارة في القرن الثامن عشر (بشكل رئيسي، لكن ليس حصرياً، في ألمانيا)، تعوّد موظفو التاج على التعبير عن ولائهم ليس لشخص الملك، بل لكينونة الدولة الموضوعية. فقد اعتبر الحكام، الذين يشار إليهم بأنهم مفوضو الحكومة المركزية، أنفسهم أعضاء إداريون في المجلس الملكي أكثر منهم انبثاقاً للسلطة المتوارثة. وقد لاحظ ذلك التبدّل صديق ترغو الأب فيري، الذي أشار إلى أنّ ما «ألفه أثناء شبابه (مثل) «اخدم الملك» لم يعد يتردد على شفاه الفرنسيين... ويتجرأ المرء على القول إننا استبدلنا «اخدم الملك» بِـ «اخدم الدولة»، وهي عبارة صارت تجديفاً منذ عهد لويس الرابع عشر».

لا يمكن إلقاء اللوم إزاء هذا التمييز البارع لكن الهام على الغموض من طرف لويس الخامس عشر. ما دامت الخلافات مع المحاكم على السياسات الدينية والضريبية غدت في نهاية عهده أكثر عنفاً والملك صار أيضاً أكثر استبدادية وتصلباً. وقد أثار موت ولي العرش المبكر عام 1765 احتمالاً جلياً لمرحلة جديدة أخرى من عدم الاستقرار السياسي التي استمرت حتى بلغ حفيد لويس سن الرشد. ربما بدا الأمر في تلك الظروف هاماً لاسيما لاجترار المبادئ التي يتعذّر اختزالها بوضوح، والتي قامت الملكية عليها. في رد على زعم محكمة الروين أنه أقسم للأمة في أثناء تتويجه، قاطع لويس قراءة الاعتراض مؤكداً بنبرة لا تخلو من الاستياء قائلاً إنه أقسم لله وحده. وفي الوثيقة التي كتبها له

غلبرت دي فواسين عام 1766، واستخدمت كوصمة عار ضد محكمة باريس في الثالث من آذار، طوّر وجهة النظر التقليدية للحكم الاستبدادي بوضوح لا يقبل الجدل. حيث أصر على أنه «في شخصي أنا وحدي تكمن سلطة السيادة»،

> مني وحدي تملك المحاكم وجودها وسلطتها. وتلك... السلطة يمكن أن تمارَس باسمي... ولا يمكن أن تنقلب ضدي أبداً. لأنها، السلطة التشريعية، تنتمي إلي وحدي حصرياً دون أي قيد أو تجزئة. فالنظام العام كله ينبع مني ما دمت أنا حارسه الأعلى. شعبي وشخصي واحد والشيء نفسه وحق الأمة ومصالحها التي يتجرأ على أن يجعلها بعضهم جسماً منفصلاً عن الملك هي بالضرورة موحدة مع ما أملكه ولا تستطيع أن تستقر إلا في يديَّ.

أثار كلام لويس الخامس عشر بعض الاستياء بمزاعم الأيديولوجيا التشريعية. غير أنه دفاع شكّلت مزاعمه المضادة المتعلّقة بعدم فصل السلطة التشريعية اعترافاً ضمنياً بأنّ هذه البديهية كانت مهددة حقاً. فمنذ 15 عاماً على الأقل كانت المحاكم هي التي اتخذت المبادرة إلى تطوير شيء مثل نظرية دستورية للحكومة التي تستبدل الحكم الاستبدادي الذي بنسخة معدلة من الملكية الأكثر تقييداً وتجزئة يجب استبداله بترجمة ملكية أكثر قيداً وانقساماً.

ما الذي كانت المؤسسات مسؤولية عنه في هذه التبدّلات؟ لم تكن المحاكم، كما تشير تسميتها، النظائر الفرنسية لمجلس العموم البريطاني، بل كانت 13 محكمة مستقلة لتطبيق القوانين، متواجدة في باريس وفي مراكز الأقاليم، تتألف كل منها من هيئة من القضاة النبلاء، في محاكم مختلفة، بلغ عددهم من خمسين إلى مئة وثلاثين. وقد تباينت مناطق سلطتها القضائية بصورة كبيرة مع بعضها في المناطق النائية مثل بيرن في الجنوب الغربي وميتز على الحدود الشرقية اللتين عملت فيهما المحكمتان بوصفهما محكمتين إقليميتين. ومن جهة أخرى مارست محكمة باريس سلطتها القضائية على منطقة واسعة من وسط فرنسا وشمالها امتدت من بورغندي شمالاً عبر إل دي فرانس وأورليانز إلى بيكاردي على ساحل القنال. وكان مجال صلاحياتها متسعاً أيضاً، فكانت تنظر في كل من الدعاوى المستأنفة وفي مجموعة واسعة من الدعاوى البدائية التي تبدأ بتهمة عدم احترام السلطة والعصيان والتحريض عليه وسرقات قطاع الطرق إلى الاستخدام غير القانوني للخاتم الملكي، وتحقير العملة إلى أنواع أخرى من تزوير العملات والتلاعب بالوثائق (في مجتمع كان فيه الأمر القضائي والنص البيروقراطي المكتوب غاية في الأهمية) إلى الجناية

الكبرى. وبالإضافة إلى أنّها أصدرت أحكاماً في غالبية الدعاوى المدنية والجنائية التي تتعلّق بأصحاب الامتيازات، وعملت مثل رقيب على المسرح والمطبوعات، وحارس على الأخلاق الاجتماعية. غير أن ما جعل سلطتها عسيرة بصورة خاصة على التعريف هو أنها كانت مشتركة مع سلطات موظفي الملك الإداريين ـ المراقبون والحكام في تموين المدن وتحديد الأسعار في مواسم الجفاف وتنظيم الأسواق والمعارض وحفظ الأمن فيها.

وهكذا كانت المحاكم مؤسسات وأعراف وتقاليد وعادات. وقد مثّلت في المراكز التجارية الفاعلة في فرنسا ـ مثل بوردو ـ الوسيلة التي تحولت من خلالها الثروة الخام إلى وضعية قانونية ومكانة سياسية. أما في البلدات الإقليمية الأكثر ركوداً مثل ديجون وغيرينوبل وبيسانكون، فقد دار اقتصاد ومجتمع المنطقة حول وجود أفواج من الناسخين والكتبة والمحامين الصغار والوسطاء وباعة الكتب، ولا ضرورة لذكر التجارة المساعدة التي دعّمت نمط حياتهم الأرستقراطي: صانعو العربات والخياطون وصانعو الشعر المستعار والاسكافيون وصانعو الأثاث ومعلمو الرقص وأصحاب الاصطبلات. وكان هذا الإحساس بالتضامن الاجتماعي بين أصحاب الأردية ـ النبلاء ممن يرتدون رداء القضاء ـ وشركائهم المواطنين يُستعرَض في كل تشرين ثانٍ عبر مشاهد مدروسة تحيي عودتهم إلى الجلسات من إجازاتهم التي قضوها في الريف. وفي هذا «القداس الأحمر»، يرتدون الأرواب القرمزية بدلاً من الأرواب السوداء المعتادة، ويطوفون في شوارع المدينة بصحبة مجموعة من الميليشيا وجوقة موسيقية، حيث يتلقون بركة رجال الدين لعامهم الجديد، وليس قبل ممارسة المراسم الرزينة، يرقصون رقصة متأنية ويتبادلون انحناءات الاحترام الخاصة بهذه المناسبة (تُعرف هذه الرقصة برقصة الرؤساء)، ثم يأخذون مقاعدهم في النهاية.

عُرف المبنى الذي شغلته المحكمة في كثير من الأماكن بـ قصر العدل palais de justice. أما في باريس فقد عرف بـ كابيتول فرنسا Capitole de la France، وقد مثّل طموحهم بمجلس الشيوخ على خير وجه. وجنباً إلى جنب مع كنيسة نوتردام وحدائق التوليريه تشكل كتلة ضخمة وصفها المعاصرون أنها مدينة مصغّرة بذاتها. كانت باحتها سوقاً رددت صدى صيحات الباعة والجوالين يملؤون المكان بمبيعاتهم من كل نوع ـ باعة المناديل وشراب الليمون البارد وباعة الكتب. تخصص عديدون من مالكي أكشاكها في الطبعات الرخيصة والهجائيات، التي غالباً ما وجهت ضدّ الحكومة، وذلك كان محمياً من الشرطة في هذا الحرم الداخلي للعدالة. لقد كانت مكاناً حيث يتركز القيل والقال

والشائعة والفضيحة لتصنع نهراً غزيراً من الأفكار التي تصدر عن قصر العدل إلى جزر الصحفيين والمشهرين الذين ينتظرون على ضفتي نهر السين لملء جعبتهم بأخبار اليوم.

أكّد رؤساء المحاكم ومستشاروها داخل حجرات قصر العدل وضعهم في المملكة بأسلوب استخدام التعابير الرمزية. فصمم مظهر «الحجرة العظيمة المطلية بالذهب» لتبعث على الخوف، حيث تقطر بزخارف سقف متوج بالشعارات وشتى أنواع الزينة والأسلحة، وزُيِّنت الجدران بالصور الملكية واللوحات الفنية التاريخية التي تمثل عظمة القضاء. جلس أصحاب الرداء القضائي على مقاعد بشكل وردة الزنبق التي كانت ممنوعة بوضوح على أصحاب مرتبة الدوق وأعضاء آخرين من طبقة نبلاء السيف (النبلاء ذوي المكانة العسكرية) ونبلاء الدم (السلالة الحاكمة وحاشيتها) من دخول المحكمة. فمنذ عام 1681، عندما امتلك رئيس المحكمة بوتييه دي نوفيون الجرأة ورباطة الجأش للبقاء مرتدياً قبعته في حضرة الدوق المتحدر من السلالة الحاكمة، بقي ذلك التقليد حقاً مصاناً، لعلها مسألة قد تبدو تافهة لنا، لكنها أعلنت بصوتٍ عالٍ في القرن الثامن عشر أنّ ذلك الاحترام واجب لهم من نبلاء السيف وليس العكس. وحتى طبيعة قبعاتهم، والقلنسوة، المزينة بأشرطة من ذهب كانت إشارة إلى علاقة مباشرة بالتاج منذ أن تم الاحتفاظ بها، كما يشير دارسو المحاكم القديمة، لتكون شارة القبعة الملكية، لاسيما التي منحها فيليب العادل لمحاكمه المستقلة.

وهكذا ليس مدهشاً أن يعي نبلاء القضاء مكانتهم الجمعية بقوة ويكونوا غيورين من أية محاولات لانتهاك سلطاتهم المحلية. وعلى نحوٍ لا مفر منه، غدت المحاكم منتديات للبيانات السياسية التي ارتبطت باعتراضاتهم، تُقدَّم عندما تتطلب المراسيم الملكية التسجيل في المحاكم قبل نفاذها. وكان ذلك في هذا المطلب أن رأى مفكروهم مبدأ التصديق الذي زعموا أنه يجعل الملكية شرطية أكثر منها استبدادية. وكان الأساس لتلك الحجة تاريخياً. لأنه على الرغم من أن حقيقة القضية هي أن المحاكم ترجع إلى القرن الثالث عشر فقد أعلنت أنها أكثر قدماً كثيراً. حيث أكدّ الأب لابوريو في كتابه **تاريخ النبلاء** أنّ «المحكمة تمثّل الأمّة الفرنسية في حالتها القديمة». وأماطت مجموعة كاملة من الآثاريين الجادين اللثام عن مخطوطات ومجموعة تشريعات غاية في القدم تثبت أن المحاكم تحدرت مباشرة من المجموعات الفرنسية التي عرفتها منذ العصور الوسطى المبكرة. ولم تكن سلسلة نسبهم معاصرة وحسب، بل ربما كانت سابقة لتأسيس الملكية الفرنسية. فقد ابتدع المنظرون الدستوريون كثيراً من قصص الماضي القابلة للاستخدام

خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر. إذ حدد علماء الآثار الفرنسيون انبثاق الحرية في غابة تيوتونيك، حيث اجتمعت الجماعات الفرنسية، مع رمح وحصان، في تجمعات بدائية. وتلك التجمعات القبلية هي التي فوّضت السلطة إلى الرؤساء الذين صاروا ملوك السلالة الأولى ـ الميروفنجية.

وما عناه ذلك أن المحاكم برأيهم لم تكن قط شيئاً تابعاً للملكية (كما ادعى لويس الخامس عشر). وكشرط لتأسيسها وخلال العصور الوسطى اعترف التاج أن سلطته محدودة بمسؤولية قانونية. كانت المحاكم كلاب حراسة تلك المسؤولية، وكانت وحدها الحكم عندما وإذا ما هدد الحكم الاستبدادي الزاحف باكتساح السلطة الملكية الشرعية. لم يكن ذلك الرأي خفياً ومقتصراً على مماحكات أصحاب الكتب القديمة. فقد أعار مونتسكيو في كتابه **روح القوانين** ، الذي اعتمد على عمل تاريخي سابق ونشر لأول مرة عام 1748، وقد حظي باحترام عظيم ورواج واسع. كان مونتسكيو نفسه رئيساً لمحكمة بوردو، في زمن ادعت فيه المحاكم أنها تحمي حريات الفرنسيين من سياسة الضرائب التي يفرضها التاج، أصبح كتابه الأفضل مبيعاً بين ليلة وضحاها، فصدرت منه 12 طبعة في ستة شهور. وهنأ شيفالييه دي سولار مونتسكيو في نيسان عام 1750 على ما قال إنّه الطبعة الثانية والعشرين لذاك الكتاب. وكتب بيلون ذو الروح الجميلة: «بعد خلق الشمس، سيقدم هذا الكتاب كثيراً لتنوير العالم».

وفي عام 1762 مُنح وساماً على عمله إثر إنتاج ألكساندر ديلير كتاب جيب من مقتطفات حررها تحت عنوان: **الجني مونتسكيو** ، مصممة للاستخدام في السجالات. قبل أن يغدو هذا النوع من البراهين التاريخية المطمورة في هذا العمل ليس نظرية وحسب، بل إلى الذخيرة للصراعات الفكرية السياسية الحادة. عندما نُقِضت اعتراضات المحاكم، وسعت الملكية إلى تطبيق المرسوم بالأمر، رد القضاة بإضراب قضائي. وبالمقابل تلقّوا تهديداً بالنفي إذا رفضوا أوامر التاج. وفي ظل هذه التهديدات، استشهد رئيسا محكمتي آيكس وديجون بتأكيد مونتسكيو أنّ القضاء يشكل هيئة وسيطة بين الملك وشعبه، التي لا يمكن إلغاؤها دون إلغاء دستور فرنسا ذاته. وحذّر اعتراض محكمة تولوز عام 1760 بصورة أكثر جدية:

> *ويح للسلطة التي تقوم على أنقاض القوانين... سيضطر الأمير فيها لأن يحكم دولته كما يحكم أرضاً محتلة.*

لم يكن أنصار هذا الرأي من نبلاء القضاء وحسب. فقد كان الأمير دي كونتي من

أبرز الملتزمين بالتحالف معهم بين نبلاء السيف، وهو ابن عم الملك وخطيب بليغ مفوّه. وكان لي بيج le Paige، أمين أرشيفه، واحداً من أدهى الدعاة للمحاكم وأكثرهم عناداً. وفي الطرف الآخر من طيف النمط الارستقراطي، عميقاً في بويتو الريفية الراكدة، شجع الضابط المتقاعد الفارس البارون دي لازارديير (بعد بعض الشكوك الأولية) ابنته بولين ذات الـ 17 ربيعاً في طموحاتها لتغدو مؤرخة للعصور الوسطى ومنظّرة سياسية. وبعد ساعات طويلة قضتها مع المخطوطات والحوليات المغبرة، قدّمت رواية ضخمة في عدة مجلدات عن تأسيس الملكية الفرنسي وعلاقتها بتجمّعات العصور الوسطى المبكرة. كان عملها أكثر من عرض زمني متسلسل للأحداث. فقد قُدّم في نسخته الكاملة كنظرية مثيرة حيال شرعية المؤسسات السياسية الفرنسية. ولكن في الآونة التي كانت فيها الآنسة لازارديير تضع اللمسات الأخيرة على عملها، تفجّرت الثورة واجتاحت السلطة، وتفرّقت عائلتها وأقامت في مواقع سكنية مأساوية عديدة: في المنفى البريطاني وفي جيش ملكي وبين الجثث المدماة جرّاء مذبحة سجن باريس.

تبدو القضايا التي حفزت على ذلك الصراع العنيف حول طبيعة الملكية سرّية أو متناقضة ظاهرياً كثيراً مقارنة مع ما كان سيحصل. فقد وُصمت الحكومة بأنها استبدادية في خمسينيات القرن الثامن عشر، بداية عندما حاولت تطبيق مذكرة البابا التي عُرِفت باسم مذكرة يوجينيتوس التي تنكر أسرار المعمودية المقدسة والزواج وتقديم الشعائر النهائية لمن ليس قادراً على أن يثبت أنّه مستقيم ومعصوم عن الخطأ. وقد صُمّم هذا الإجراء لاستئصال الهرطقة الكاثوليكية الينسينية[1]، المذهب الذي اتخذ رأياً أكثر صرامة من العرف المقبول عن الخلاص، والذي كان له أنصار في مستويات عالية في المحاكم، لاسيما في باريس. ولكن عندما جاء الأمر المسألة العملية بأن الكهنة يرفضون عملياً الأسرار المقدسة لأشخاص عاشوا حياتهم مثاليين بصورة جلية، كانت المحاكم قادرة على التحول إلى الهجوم باسم الشعب والدولة. قالوا، إن اليسوعيين قرروا الهيمنة على الكنيسة الفرنسية لصالح مخططات عالمية كاثوليكية، وبعملهم هذا يحولون الملكية إلى نظام استبدادي أجنبي. وقد نجحوا في إرغام الحكومة على اتخاذ مواقف معاكسة تماماً أدّت إلى تمزيق الرهبنة اليسوعية في فرنسا عام 1762. وبالمثل، عندما هددت الضرائب بالتأثير على الطبقات صاحبة الامتيازات، مثلاً، اتخذ رؤساء المحاكم موقفاً حماة لِـ «حريات الأمة» ـ سخرية لم تخفَ على فولتير الذي اعتبرهم منافقين.

---

(1) الينسينية مذهب لاهوتي يقول إنّ الخلاص بواسطة موت المسيح مقتصر على فئة قليلة ـ المترجم.

لم يبلغ الصراع المرير درجة الفوران إلا في السنوات الأخيرة من عهد لويس الخامس عشر. حيث قرر المستشار موبو عام 1770 أن يحبط خطة مقاومة المحاكم بإلغاء الوظائف ذات اللقب التي منحت القضاة سلطاتهم الشرعية، وأنشأ في الوقت نفسه محاكم جديدة مسؤولة مباشرة أمام التاج، ونُفيَ القضاة المناوئون. لم يعنِ ذلك شكلاً ما من سيبيريا النظام القديم. ففي معظم الحالات أرسل القضاة على عجل ودون مراسم إلى أماكن استجمام ريفية حسنة التجهيز حيث (تشير قائمة وجباتهم) لا يفتقرون إلى ملذات الحياة في إثني عشر لونا من الطعام. وفي بعض الحالات، مع ذلك، كابد قادتهم عذابات السجن الحقيقية، من خلال مذكرات مختومة. وحتى قبل أزمة موبو، عانى أحد القضاة المتحدثين الأكثر بلاغة، برتون لا تشالوتاي، دونما محاكمة قانونية، السجن طوال تسع سنوات قبل إطلاق سراحه.

كانت الرد الأولي على انقلاب موبو عاصفة الغضب السجالي الشديد الذي وصف هذه السياسات أنها مقدمة لِـ «نظام استبدادي شرقي» في فرنسا، وتم نشر مالا يقل عن 207 كتيبات وكراسات عام 1771، هاجمت المستشار والوزارة بقسوة، وكتب الفيلسوف دنيس ديدرو إلى صديق في روسيا أنّ الأزمة «جعلت الدستور يترنّح عند الحافة... ولن تنتهي بالاعتراضات هذه المرة... بل ستتسع تدريجياً إلى أن تحرق المملكة».

كان مخطئاً. فعلى الرغم من الإجماع الواضح في غضبهم، كانت شريحة النبلاء القضاة في الواقع منقسمة بعمق في سلوكها. كان لديهم الكثير ليخسروه: مناصبهم ومكانتهم وألقابهم وبعض العلاوات الكبيرة ذهبت معهم. وبالتالي ليس مدهشاً أنه عندما خفت شدة السجالات المعارضة عامي 1772 و1773، وقّع كثيرون منهم بهدوء بالموافقة على محاكم موبو الجديدة الأليفة، وخاطروا بنفي بعض رفاقهم القدامى. غير أن موت الملك المفاجئ عام 1774 جاء بنهاية مباغتة لتجربة حكومة بيروقراطية لا يعترض شيء دربها.

ومع ذلك، دفعتهم إمكانية إضعافهم إلى دفاع أكثر راديكالية عن موقفهم الدستوري. وبصورة خاصة ولّد ذلك تضامناً جعل داعيتهم القوي، لو بيج، يزعم أنهم يعكسون وحدة تاريخية. جادل أنّ المحاكم الـ 13 هي الأبناء المقسمون اعتباطياً في الجسد الواحد الذي مارس قيوداً قانونية على الملكية. وتحول حقهم بالاعتراض تدريجياً إلى شيء ما مثل الحق بالتمثيل. وفي عام 1771 كانت محكمة رين في بريتاني أول محكمة تدعو بوضوح إلى عقد اجتماع لمجلس الطبقات بوصفه الكابح الوحيد الممكن للطموحات المفرطة إلى حكم استبدادي وزاري، مناشدة كررها مالرب مراراً.

وحتى في هذا المناخ السياسي الساخن كان ممكناً لبلاغة المعارضة أن تتجاوز حدودها في النظر بعواقب الأمور. ففي عام 1775، بعد أن أعاد لويس السادس عشر المحاكم أرسل محام شاب، مارتن دي ماريفوكس، يسعى إلى حظوة لدى محكمة باريس، نسخاً من كراس له بعنوان **عزيزي القانون** إلى القضاة. ربما توقّع أن يحظى بالتشجيع على ملاحظاته العادية حيال الطغيان الوزاري وذكرى أزمتهم لا تزال في البال. لكنّ الأرضية التي بنى عليها انتقاده ضدّ السلطة التعسفية كانت جديدة على نحو خطير: ليست تلك السابقة التاريخية أو القوانين الأساسية، بل المساواة الطبيعية:

لقد وُلد الإنسان حرّاً. فلا أحد يمتلك أية سلطة طبيعية على نظيره، إذ أن القوة وحدها لا تمنح مثل هذا الحق، والسلطة التشريعية تنتمي للشعب ولا يمكنها أن تنتمي لغير الشعب.

ميّزت المحكمة على الفور ما كان ترجمة مُحجبة بحجاب يكاد يكون شفافاً لكتاب روسو **العقد الاجتماعي**، واستخلصت الاستنتاجات المنطقية، لكن بدلاً من تهنئة الشاب المتحمّس أصدرت أمراً بحرق كتابه بواسطة الجلّاد العام.

وحدثت مجازفات أخرى تورّطت في معارضة التاج ـ مجازفات لم تجلب لنفسها الانتقام الرسمي بل أطلقت العنان لانفجار شعبي خطير. ففي ذروة أزمة موبو، ظهرت إعلانات عامة تهدد بنوع من انتفاضة عامة. كان الاعلان الأشهر بينها: «يجب أن تغادروا باريس، يجب تهشيم المستشار على عجلة التعذيب، ويجب إعادة المحكمة أو ستحترق باريس». وكان ثمة إعلانات أخرى ذات طابع أكثر شؤماً تربط على نحوٍ مباشر الغضب بالجوع والسياسة بالعيش.

الخبز بقرشين، (أعيدوا) المحكمة، الموت للمستشار أو الثورة.

عندئذٍ، ارتسمت حدود جدية لقدرة المحاكم على العمل كطليعة تمرّد عام ضد التاج. حيث إذا كانوا خطباء معارضين، فإنهم أيضاً قضاة يشنقون (ويحرقون ويعذبون): مؤيدي السلام الأهلي، وأداة معاقبة التحريض على التمرد. وخشية أن يتخيل بعضهم أنهم حققوا آمالهم الذاتية بوصفهم رسل الحرية، لابدّ أن يتذكّر أن حكماً قضائياً صدر عن إحدى المحاكم يقضي بحرق شاب من طبقة النبلاء على الخازوق، كان قد أُدين بتدنيس معبد، واقترفت شناعات قضائية أخرى كانت أقل انتشاراً. وكان ذلك بالضبط موضع رفض فولتير، وقد كتب محاكاة لاذعة ضدّ اعتراضاتهم التي دعمت «القوانين الأساسية»،

قوانين المنصب الفاسد الأساسية... القانون الأساسي الذي يتيح لهم تدمير الريف وتحويل ممتلكات الأرامل واليتامى إلى المحامين».

عند عودة المحاكم عام 1775، كانت ملزمة برفض الصيغ الأكثر اختزالاً التي وضعها ترغو على قدرتها على دعم التشريع الملكي. لكنها غالباً ما تجنبت الصدامات الأكثر احتمالاً مع التاج الذي أرغمها عام 1771 على الاختيار بين العصيان والزوال. وبدلاً من ذلك، فالمراسم التي أعدت لعودتها كانت استعراضات لأساطير الانسجام - بين التاج والقضاة وبين القضاة والشعب. كانت تلك الاحتفالات شاملة أحياناً وغير قابلة للتصديق. ففي ميتز، على سبيل المثال، أقامت الجالية اليهودية (التي كان عليها أن تتحمل الكثير من أعباء النبلاء المحلّيين) مهرجاناً خاصاً، الذي كانت الإضاءة الزينية فيه شيئاً عبرانياً من سفر أشعيا: «سيعيد حكامكم وقضاتكم كما كانوا وستسمى مدينتكم مدينة العدل والإيمان». وفي بوردو استقبل النبلاء القضاة وفوداً جاءت للتعبير عن الامتنان مثلت التجار، بمن فيهم بائعات السمك في المدينة، اللواتي تنقل الرئيس بينهن بلطف وكياسة.

حدثت المظاهرة غير العادية التي فاقت كل المظاهرات الأخرى في مدينة بيرنيان من إقليم الباو (حيث كان نبلاء القضاء منقسمين بحدة في ولاءاتهم). فبالإضافة إلى الخطابات التقليدية وأناشيد التهنئة وطاقات الورد، حمل المتظاهرون مهد الملك هنري الرابع، الذي وُلد في المدينة على الأكف في موكب مهيب طاف الشوارع. بذل الحاكم المحلّي قصارى جهده بالتعاون مع المحكمة، لكي يبقى الموكب منضبطاً قدر المستطاع لكنّ الموكب تحوّل سريعاً إلى مناسبة شعبية لتقديم الطاعة التلقائية. ولدى عبور الموكب والمهد، ركع الناس على ركبهم في صمت مهيب، وقد حُمِل المهد إلى منصة أنشئت خصّيصاً ووضعت تحت رواق عند بوابات المدينة. واستمع مندوبو التاج هناك إلى الإجلال الذي قُدّم لذكرى هنري الرابع، وقد بُذِلت جهود متوددة لربط ذكرى الملك الأكثر محبة من آل بوربون بتجسيدهم الأخير.

دخلت المحاكم السنوات الحاسمة في أواسط ثمانينات القرن الثامن عشر بإرث مختلط. فمن جهة صار موقفها قيداً دستورياً لا مفر منه على السلطة الملكية التعسفية غير قابل للتحدي. فكان على دعاتها ومؤرخيها الذين ثوّرتهم سنوات أزمة موبو لكل النوايا والأهداف أن ينجحوا في إقناع الجمهور الملّم بالقراءة السياسية بعدالة قضيتها الأساسية. وإذا تصرّفت بتهذيب تجاه لويس السادس عشر ووزرائه بصورة تفوق تصرفها مع جده،

فذلك لأنه تم تحمُّل المزيد من الألم لتجنب استيائها. فقد استطاعت أن تظهر نفسها أنها خطرة، عندما يُطرَح الموضوع، كما كان دورها في سقوط ترغو الذي طُرِح على نحوٍ مدوٍّ. ولكن لو سببت ضرراً يتعذر إصلاحه لمصداقية الحكم الاستبدادي، فلن يكون ارتقاؤها ذاته غير معرّض للخطر أو خلو من المخاطرة. وتشير الحماسة البالغة لبعض الكتّاب الذين أيدوها، وعنف اللغة السجالية التي استخدموها آنئذٍ، والأشكال العاطفية التي عبرت الحماسة الشعبية بها أحياناً تأييداً لقضيتها إلى تضييق مجال المناورة. حيث أثار حماسها لتقديم نفسها هيئة شبه مستقلّة بعض الأسئلة الخطيرة التي ظلت معلقة دون حل. وإذا كان يجب إقامة نوع من التمثيل الوطني، فكيف يجب أن يُشكّل؟ وإلى أي مدى ستكون قادرة على الدفاع عن الامتياز والحرية كشيئين متبادلَين؟ كان ذلك على هذه القضايا الخرقاء (لاسيما على تشكيل مجلس الطبقات وإجراءاته) التي قسمت وحدة معارضة النبلاء لسياسة التاج عامي 1788 و1789، وهكذا فالرفاق الذين وقفوا كتفاً إلى كتف في حملة ضدّ الحكم الاستبدادي وجدوا أنفسهم فجأةً منقسمين في خيار الألم غير المسبوق: كن محافظاً أو كن ثورياً. وبين خطباء محكمة باريس الذين يرتدون الرداء الأسود سيرسل هذا رؤساءها مثل داليجر وجولي دي فلوري d'Aligre and Joly de Fleury إلى هجرة مبكرة، ومتحدثيها الأكثر إثارة للحماس مثل أدريان دوبورت Adrien Duport إلى العمل الثوري، ودستورييها مثل دبريمسنيل d'Eprémesnil إلى المقصلة.

III ـ هل تتحمل طبقة النبلاء المسؤولية؟

كان الرئيس هينول Henault قاضياً في الصباح، وكان أرستقراطياً في المساء. كان يرتدي الأردية السوداء الداكنة صباحاً، ويشجب شرور الطغيان الوزاري. وإذا ووجه بالاستبداد، فلن يحجم لا هو ولا زملاؤه عن واجبهم في حماية «قوانين الأمة الأساسية». سينتظر عند الغروب تماماً إحدى عرباته الاثنتي عشرة ويعود إلى الفندق الضخم في شارع سان أونر Saint - Honoré حيث كان يعقد جلسات محكمته. وسيُقدّم له الطعام بوفرة مما كان يُعترَف به عامة أنه مطبخ باريس الأفضل، وكان يأكل من أطباق الخزف الفرنسي الموضوعة على طاولة رخامية خضراء. وما دامت غرفة طعامه مؤثثة بـِ 28 كرسياً و10 كراسي ذات ذراعين، فقد كان في موقع لاستقبال جماعة وغالباً ما فعل. وتكون الضيافة تحت ضوء شمعدان كريستالي بوهيمي ضخم ومحاط بمجموعة مدهشة من اللوحات الفنية التي تشارك فيها اللوحات الإيطالية التاريخية الجدار مع أعمال الرسام الفرنسي واتو Watteau والرسام الهولندي تر بورش Ter Borch.

كان التناقض بين الحكي السياسي والبيئة الاجتماعية نوعاً من جريمة أخلاقية بالنسبة للحس الثوري المرهف. قد يبدو ذلك للقارئ المعاصر غير مناسب، لأنّ الكبار والنبلاء على الأقل استطاعوا البقاء دون منازع بشكل عام قادة طبيعيين للمعارضة السياسية حتى عشية الثورة. وقد يبدو ذلك شاذاً أيضاً أن ملكية محبطة الإرادة بشدة بمعارضة جمعية من نبلاء القضاء لم تستغل قابلية للنقد الاجتماعي بطريقة أكثر حسماً.

كان هذا، في الواقع، ما أوصى به الوزراء الأكثر بعد نظر بالضبط. وبالرجوع إلى عام 1739، كتب رينيه لويس دي فوير René louis de Voyer، الماركيز دارجنسن d'Argenson، الأبعد رؤية وحيوية بين العاملين في بلاط لويس الخامس عشر بحثاً يبين فيه ما دعاه شخصياً: «الديمقراطية الملكية». وقد عُرف في دوائر البلاط (التي، مثل مالرب، مقتها) بأنه «الوحش»، لم يكن دارجنسن وزير حكومة عادياً. لقد كان مولعاً بالروايات الإنكليزية، والناقد المعجب برواية فيلدينغ توم جونس، لكنه كان أيضاً صديق فولتير، والقارئ النهم للكاتب البريطاني ألجرنون سيدني الذي عاش في القرن السابع عشر والمتهم بالمشاركة في الإعداد لقتل الملك، وكان المدافع عن قوّة جوّية فرنسية تحلّق في مناطيد الهواء الساخن. كانت مقترحاته الإصلاحية في كتابه **تأملات في حكومة فرنسا** راديكالية جداً إلى درجة لم تُنشَر إلا في عام 1764، أي بعد ثلاثين عاماً من كتابتها، وفي أمستردام. وقد اعتقد كثيرون أنّ مؤلفها الحقيقي لا بد أن يكون جان جاك روسو.

لكنه دارجنسن ابن حامل أختام لويس الرابع عشر وسليل إحدى أعرق العائلات القضائية الفرنسية، والذي أعلن أنّ إرث النبالة مصدر الشرور جميعاً في كل من الحكومة والمجتمع الفرنسي. فعدم شعورهم بالمسؤولية هو الذي أفسد الأقاليم وجعلها تتعفن، وهي التي تعاملت مع الإدارات العامة مثل ممتلكات خاصة مستحوذة عرضياً، والتي أحبطت، ولو من دون قصد، أصحاب النوايا الطيبة لدى الحكام أصحاب الضمائر الحيّة. والطريقة الوحيدة لتجاوز عرقلتهم، في رأيه، هي أن تعتنق الملكية الديمقراطية، لأنّ «الديمقراطية» صديقة الملكية بقدر ما الأرستقراطية «عدوتها». وقد حاول أن يثبت أنه إذا كانت المحاكم تستهدف تمثيل «الشعب» فدعوتهم الصريحة يجب أن تكون بالدعوة لتشكيل جمعيات إقليمية منتخبة. ويمكن انتخاب الممثلين على مستوى الوطن بصورة غير مباشرة ويحاسبهم منتخبوهم كل سنتين. وعلى هذه القاعدة فإن الملك ـ الذي سيكون في مأمن من فساد البلاط بالحكم من قصر تويليري لا من فرساي ـ سيشرف على جمهورية

مواطنين حقيقية، بدلاً من هيئة خانعة من التابعين. وهتف دارجنسن «يا لها من فكرة رائعة... جمهورية يحميها ملك».

داخل هذه المملكة، تبقى الطبقات مستقلّة لكن الوراثة فيها تُلغى. ستُمنَح النبالة على نحوٍ مقيد وتبعاً للخدمة والجدارة ولن يكون لها إلا مكانة شرفية. فبين جماعة من المتساوين، سيتمتع الجميع بالحقوق والواجبات ذاتها. لن يدفع المواطنون إلا الضرائب الضرورية لحمايتهم وسيفعلون ذلك مسرورين لأنهم في الحقيقة يتخلون عن جزء من ملكيتهم الخاصة لصندوق ملك عام يستطيع كل شخص أن يزعم أنه له مثله مثل غيره محكوم بهيئة شريفة من الموظفين العامين الذين يحصلون على مناصبهم بالتعيين لا بالشراء. وستبدو الخدمة العسكرية شرفاً أكثر منها عبئاً نظراً لأنه من هذا التحوّل سينشأ دون شك إحساس متجدد بالوطن.

وتوقعت فرنسا دارجنسن الجديدة على نحو غريب الوصفات الثورية لأعوام 1789 ـ 1791، ولاسيما بتأكيدها على الوحدة بين المواطنين والملك وإلغاء أية سلطات وسيطة يمكن أن تقوم بينهما. ليس هذا لنشير إلى أنّ يوطوبيا دارجنسن ستكون مجرّد تجمع من أفراد مبعثرين يثب كل منهم في مواجهة الآخر مثل حبّات فاصولياء في زجاجة. فقد أدرك أنّ «الديمقراطية الملكية» ستكون أكبر من مجموع أجزائها: وطن مطهر تغدو فيه المصالح الفردية منسجمة في نوع جديد من جماعة متعاونة.

لم تكن تلك الفكرة وراء الإمكانية الأبعد أن تغدو مثل هذه الفانتازيا حقيقة واقعية في أواخر القرن الثامن عشر. فشقيق ماري أنطوانيت، الإمبراطور جوزيف الثاني من آل هابسبورغ، تخيل نفسه حاكماً مطلقاً متنوراً وأباً للوطن. ومع أنه صرف النظر عن أية فكرة للتمثيل المحلي أو الوطني باسم العلاقة غير المنقطعة بين السيادة والمواطنين، فقد شنّ هجوماً عنيفاً وعنيداً على أرستقراطيته المتوارثة. واستهدفت مراسيمه المتتابعة من قلمه الذي لم يجف أن تشارك الطبقة الشعبية والطبقة الارستقراطية المدارس ذاتها، والمقابر ذاتها، والضرائب ذاتها. وقد أرسل النبلاء الذين ناهضوا برنامجه القاسي لخدمة الدولة، التي وحدها تبرر مكانتهم، إلى أداء أعمال مفيدة، مثل كنس الشوارع في فيينا.

لم تكن أجور التهور أكثر مكافأة من أجور التحفظ، فقد انتهى عهد جوزيف، مثلما انتهى عهد لويس السادس عشر، بعصيان شامل عام 1790. وكان أحد الأسباب الرئيسة للانهيار هو عدم كفاية الموارد البيروقراطية المزمنة التي قد تضعها الملكية في الميدان لفرض إرادتها على النبلاء المحليين وضدهم. ومع أن آل بوربون لم يواجَهوا بضرورة إدارة

إمبراطورية تمتد دون انقطاع من نهر شيلدت إلى نهر الدانوب، لكن اعتمادهم على النخب المحلية لإدارة إقليمية فعّالة لم يكن أقل خطورة. وكان نموذج الحكومة المركزية (حكومة تكررت على نطاق واسع في رواية دوتكفيل الشهيرة للحدث)، الموروثة من كولبرت ولويس الرابع عشر، المكونة من المفوضين والحكام الذين أنجزوا بإخلاص أوامر المجلس الملكي، وإذا كان ضرورياً ضد عرقلة القضاة والمجالس البلدية المحلية. وقد تميز تاريخ عهد لويس الخامس عشر بالصدام بين الحكام والمحافظين والقادة العسكريين الإقليميين من جهة، والمحاكم المتمرّدة من جهة أخرى. غير أن حكاية التعاون المحلّي، كما هي الحال غالباً، كانت واحدة. كان خيار الحاكم، بعد كل شيء، مهما كانت رغباته، محدوداً. فقد كان طاقم مكتبه الجدير بالازدراء مسؤولاً عن كل شيء من تحركات القوات العسكرية إلى احتواء زحف الأوبئة وانتشارها، ومن الطرق العامة الرئيسة والجسور والأقنية إلى مؤسسات الإنعاش الشعبي وقمع قطّاع الطرق. ففي عام 1787، على سبيل المثال، لم يكن لدى برتراند دي ملفيل، حاكم بريتاني، إلا عشرة موظفين يستطيع دعوتهم للعمل في مكتبه المركزي. صحيح كان مدعوماً بـ 63 مساعداً محلياً subdélégués لكنهم إمّا تقاضوا أجوراً بائسة للغاية، أو أنهم لم يتقاضوا أجراً على الإطلاق، وغير متواجدين باستمرار. وفي إقليم دوفين، زعم الحاكم بو دي لا كيز La Caze أن من الـ 65 مساعداً لديه ثمة عشرون منهم مؤهلون حقاً للقيام بواجباتهم.

كان خيار الحاكم، في هذه الظروف، الاعتماد قدر استطاعته على التعاون مع الشخصيات ذات النفوذ محلياً، سواء كانوا من القضاة أو أعضاء المجلس البلدي في المدن أو المحاكم المحلية في الريف. وفي معظم الحالات كان ذلك هو الشيء الطبيعي الذي يجب فعله، فقد كان موظّفو الإدارة الملكية والمحاكم، بعد كل شيء، ليسوا غرباء بعضهم عن الآخر كما تشير أيديولوجياتهم الخاصة غالباً. كانوا جميعاً موظفين نبلاء، يرتبطون بالتربية وغالباً بالعلاقات العائلية سواء بالزواج أو الدم. حيث قدّمت العائلات الشهيرة، مثل لاموانون Lamoignon وجولي دي فلوري Joly de Fleury أعضاء لمناصب رفيعة في الحكومة الملكية والمحاكم، وعائلة موبو Maupeou، التي تُذكر غالباً لتقديمها المستشار الذي كان السوط الأقسى على المحاكم، أرسلت أعضاء إلى محاكم المستقلة لفترة طويلة. وينطبق الأمر ذاته على عائلة سيغوييه Seguiers والعديد من السلالات المماثلة. وعلاوة على ذلك، أدركت حكومة لويس السادس عشر الحاجة إلى تحقيق الانسجام قدر الإمكان بين مصالح الحكومة والنخب المحلية من خلال النأي منذ البداية عن سياسة عدم إرسال حكام إلى أقاليم يرتبطون فيها بعلاقات شخصية أو عائلية.

وكان ثمة سبب آخر يفسر عدم احتمال أخذ عائلة بوربون بنصيحة دارجنسن هو أنها تؤسس سلطانها على نصب النبالة المتوارثة. فقد فاخر كل من لويس الخامس عشر وحفيده بأنه «السيد الأول في فرنسا». حيث تكمن في هذا اللقب المألوف مجموعة كاملة من الافتراضات حول الشرعية الملكية التي أعاقت جميعاً وجود ملكية ثورية. وقد عنت العبارة، بالتحديد، أن التاج موجود لحماية مجموعة معقدة من الكينونات المشتركة، كل منها يستثمر في شيء ما مثل «دولة صغيرة مستقلة»، التي معاً تشكل المملكة. ورداً على مراسيم ترغو في آذار عام 1776، قارن سيغوييه، المحامي العام في محكمة باريس، هذا النظام بسلسلة عظيمة تربط الحلقات المختلفة معاً ـ الطبقات الاجتماعية الثلاث أو المراتب، النقابات والمجالس البلدية، الجامعات والأكاديميات، الجمعيات التجارية والمالية، المحاكم والمجالس القضائية. وكان التاج نفسه في الوسط يمسك السلسلة معاً، ودون ضمانة في إيمانه القوي في هذه القضية ستسقط هذه التبادليات الدقيقة متباعدة إحداها عن الأخرى ومعها الأمن الاجتماعي برمته.

وطبعاً عبث لويس السادس عشر، في أوقات مختلفة، بإمكانية تكييف هذا المفهوم الذي يعوّق سلطته في رئاسة الامتياز. فذهب تأييده لإصلاحات ترغو ومن بعده لإلغاء نِكر الوظائف الفاسدة في هذا الاتجاه، ولكن في الحالتين، أعقب التجربة تراجع مهين وعودة ما سبق إلغاؤه. وكان موقف التاج حقاً غامضاً جداً في ما يتعلق بالامتياز. فمن جهة، ظل الموقف في مصلحة التاج، ولو لم يكن إلّا لأسباب مالية، أن يوسّع سلطته الأبوية إلى المناطق المتمرّدة في المجتمع. وقد حاول نِكر، كما رأينا، أن يستبدل الوسطاء الفاسدين في الجهاز الإداري المالي بموظفين إداريين تمكن محاسبتهم مباشرة. ومن جهة أخرى، كان التاج مشغولاً أيضاً ليس بمجرد إجازة الامتياز بل وتوسيعه حتى في تلك المجالات المالية نفسها. كان ذلك جزئياً نابعاً من ممانعة إلغاء نظام بيع المناصب الذي جلب للخزينة التي تعاني من ضغوط شديدة نحو أربعة ملايين ليفر سنوياً. ولكن كان ذلك أيضاً لأن في إحداث كل منصب كان مأمولاً خلق اتجاهات جديدة من الجماعات والولاءات التي تقوي أكثر مما تضعف القبضة السياسية للملكية.

قد يبدو الأمر ظاهرياً أدنى إلى قصر نظر ميئوس منه. لو رغب التاج حقاً في تعبئة سلطته، كان لا بدّ له، تبعاً لرؤية هذه الأيام، من العمل على كبح عالم الامتيازات المشتركة ومؤسساتها بدلاً من توسيعه. غير أن هذا الرأي الحديث معتّم بمفردات الثورة المعيارية ذاتها المرتبطة بسوء فهم طبيعة الامتياز الحقيقية في فرنسا أواخر القرن الثامن

عشر. كان يمكن للامتياز أن يعمل بنجاح كما فعل بدقة لأنه لم يكن ما جعلته السجالات الثورية التالية أن يبدو هو: نظام قديم متحجر للاستبعاد الذي هو بالتعريف مدخل مرفوض لصاحب الطموح المؤهل والذي جعل، على نحو متراكم، أي نوع من التقدم الاجتماعي والاقتصادي مستحيلاً.

بداية، لم يكن الامتياز احتكاراً للنبلاء. فقد دخلت عشرات الآلاف من العامة إلى حظيرته، إما بفضل الوظائف التي شغلوها في المجالس البلدية والنقابات، أو من خلال الزواج من عائلات تتمتع بالامتياز. وعلى نحوٍ معاكس، كما رأينا سابقاً، لم يحمل الامتياز ولاسيما النبالة معهما دائماً حقوق الإعفاء من الضرائب. لكنّ الأهم من كل ذلك، هو أن الدخول إلى مراتب الامتياز صار أكثر يسراً والفوز به أسهل في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. فالاعتراض ضد النبالة، على أرضية الاستبعاد، كان أن تقرع على باب مفتوح. والذي يفسر سبب بحث المؤرخين عبثاً عن طبقة ثورية مزعومة ـ لنقل إنها البرجوازية ـ المحبطة من الحركية الاجتماعية، واستندت على تدمير الطبقات صاحبة الامتيازات. ففي عام 1789، ستكون ثمة مثل هذه المجموعة حقاً لكنّ غالبية أعضائها البارزين والأقوياء لم يأتوا من الخارج بل من النبلاء ورجال الدين. ولم يكونوا نتاج «ردّ فعل أرستقراطي» بل نقيضه الدقيق: تحديث أرستقراطي.

لم يكن الدرب إلى النبالة في أي عهد مضى ممهداً أو أكثر اتساعاً مما كان عليه في عهد لويس السادس عشر. يرى غاي تشوسيناند ـ نورغارت في تأريخ مثير للإعجاب لمجتمع وثقافة النبالة هذه عملية تمثل اجتماعية لا تتطلب مجهوداً لمعرفة كنهها، «فالنبيل لم يكن أكثر من بورجوازي ناجح». ولو أخذنا المحاكم ـ هذه المعاقل للقيم الأرستقراطية ـ مثالاً، سنجد أن ثلثي قضاة برلماني ميتز وبربينان كانوا من العوام الذين نالوا لقب النبالة حديثاً. وفي بوردو وباو ودواي وتحديداً النصف، وفي روين وديجون الثلث. كانت باريس هي الاستثناء الكبير، ولكنّ ذلك يرجع بصورة رئيسة إلى أنّ القضاة هناك حصلوا على ترقية من داخل النظام القضائي بناء على قواعد أشد صرامة في تحديد الأولوية المهنية. وتحرك سلّم المكانة داخل تلك الهيئة بإعادة تأكيد القدرة على التوقع. تم منح النبالة لربع العائلات الفرنسية ـ نحو ستة آلاف عائلة ـ خلال القرن الثامن عشر ولقرابة الثلثين خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر. يصرّ تشوسيناند نوغارت على أنّ ذلك شكل طبقة اجتماعية فتية. وإذا كان لورنس ستون مصيباً حقاً بأن الأرستقراطية البريطانية لم تكن مفتوحة، بل كانت نخبة مغلقة نسبياً، يجب عكس الصورة البالغة التبسيط لكل من فرنسا وانكلترا بالكامل. ففي

بريطانيا قاوم مالكو الأرض الأرستقراطيون القادمين الجدد في محاولة لتشكيل قشرة متينة فوق المجتمع والسياسة، بينما كانت النخبة في فرنسا مرنة ومتغايرة الخواص، تتلمس باستمرار درب المصادر الإنسانية والازدهار الاقتصادي.

كان يمكن إحراز لقب النبالة في فرنسا عبر طرق متعددة متباينة. كان ذلك ممكناً بتلقيه من التاج مباشرة من خلال «صكوك براءة»، كرمز لأداء خدمة مميزة. وقد تمّ تمييز ضباط الجيش والمهندسين والحكام وبصورة متزايدة الفنانين والمهندسين المعماريين والأدباء، بهذه الطريقة. ومن امتلك المال استطاع شراء إدارة تمنحه اللقب، مثل أمين سر الملك. انضم ما لا يقل عن 1500 إلى نظام النبالة من خلال غرفة تجارة باريس بهذه الطريقة. جاء بعد ذلك الشخصيات المحلية ذات النفوذ ـ مثل رؤساء البلديات وأعضاء المجلس البلدي الموظفين المسؤولين عن حراسة الأسواق والتجار والقضاة وحتى كتبة البلدة ـ كانوا جميعاً يمتلكون حقاً بالنبالة إذا خدموا بشكل متواصل لمدة محددة، غالباً لمدة لا تزيد عن سنتين. يضاف إلى ذلك مجموعة كاملة من أصحاب الشأن الاجتماعي، ممن أقاموا حفلات استقبال كبيرة للملك أو لأحد أفراد العائلة الملكية، يمكن أن يحصلوا على شارة رسمية تُعرّف بهم وتؤهّلهم للترقية إلى الطبقة الثانية.

ويؤكّد تشوسيناند توغارت على التبدّل الهام الذي طرأ على المعايير المدوّنة لمنح النبالة في النصف الثاني من القرن. فبدلاً من النسب الذي أشير إليه تغدو أسباب الترقية، على نحوٍ ثابت تقريباً، هي الخدمة والموهبة والجدارة. وهكذا، كما يجادل، حيث كان البرجوازي الممنوح لقب نبيل في القرن السابق يتوجب عليه أن ينسلخ نهائياً عن خلفيته وينغمس تماماً في ثقافة جديدة وغريبة في قيمها، سارت عملية الدمج الاجتماعي باتجاه معاكس تقريباً. فقد غدت النبالة مستعمرَة بما يظن المؤرخون المعاصرون قيم «البرجوازية» : المال والخدمة الاجتماعية والموهبة. وقد مثّل هذا التحوّل انقطاعاً في استمرارية التاريخ الفرنسي المتواصل. ولأنّ تاريخ ولادة طبقة «المتميزين» التي هيمنت على المجتمع الفرنسي والحكومة حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى على الأقل يرجع إلى القرن الثامن عشر، يمكننا الآن أن نعرف أنّ تلك النخبة لم تكن خليقة الثورة والإمبراطورية بل خليقة العقود الأخيرة من ملكية السلالة البوربونية، وسارت إلى القرن التاسع عشر ليس نتيجة للثورة الفرنسية، بل على الرغم منها. يبدو معنى النظام القديم في تلك الظروف خطأ في التسمية أكثر من أي وقت مضى.

إذا انفتحت النبالة الفرنسية لدماء جديدة، فقد كانت أيضاً منفتحة لآراء وأشغال

جديدة. وإحدى الأفكار المبتذلة السائدة في تاريخ النظام القديم هو أن الامتياز كان معادياً للمشروعات التجارية. لكن حتى التدقيق السريع لاقتصاد الفرنسي في القرن الثامن عشر (الذي كان هو نفسه أكثر دينامية وأكثر وفرة مما تسمح به الصور الشديدة التبسيط) يُبين أن النبلاء شاركوا بعمق في شؤون المال والأعمال والصناعة ـ بالتأكيد مثل نظرائهم البريطانيين. وحصل النبلاء الأغنياء على دخولهم من مصادر مختلفة وواسعة شملت إيجارات وأرباح الأراضي المزرعَية والسندات الحكومية وضمانات الديون والملكيات غير المنقولة المدينية. هذه الحقيبة مألوفة، لكنّ المعروف أقل هو إلى أي حدّ كانوا شركاء هامين في الصيرفة والتجارة البحرية، لاسيما في اقتصاد المحيط الأطلسي المزدهر، وفي المشروعات الصناعية من النوع الأكثر ابتكاراً. ففي قلب النخبة الفرنسية، إذن، كان ثمة نبالة رأسمالية ذات أهمية هائلة لمستقبل الاقتصاد الوطني.

لن يدهِش هذا الأب كوير، الذي نشر كتابه تطوير نظام النبالة التجاري ودفاعاته عام 1757، بهدف التغلّب على الإجحاف المتلاشي الذي حاولت النبالة فيه إخفاء طبيعة العمل المخزي ـ ومقاومة ما اعتبره الإقطاعية العاطفية الجديدة لبطله «الفارس دارك». كانت مهمة الفارس إقصاء الأرستقراطية عن دنيا المال المسممة أخلاقياً وإعادتها إلى دنيا القيم البسيطة للخدمة الوطنية، وعلى نحوٍ مفضل العسكرية. سيؤثر المذهبان الفكريان على الجيل الثوري، ربما فكر الفارس الصليبي أكثر من فكر الأب رجل الأعمال. ولكن ثمّة شك ضئيل بتلاشي النفور من الأغنياء الذين يبحثون عن استثمارا تعود بالربح وزيادة رؤوس الأموال. فقد صدر مرسوم ملكي، عام 1765، أزال رسمياً آخر العقبات الرسمية التي اعترضت مشاركة النبلاء (آخر غير قرار المحكمة) مباشرة في التجارة والصناعة.

لقد شاركوا ومن خلال مشاركتهم في صندوق لرؤوس أموالهم، أسسوا مجموعة واسعة من المصالح التجارية، من تجارة استيراد الخيول إلى إحداث شركة لتحويل الخمور الفاسدة إلى خل. وصنّعت إحدى المؤسسات زيت الإنارة واستحوذت على احتكار إنارة شوارع باريس وشوارع المدن الإقليمية. وقد فاز النبلاء بمواقع جيدة في السياسة الخارجية، ولذلك ليس مدهشاً أن نكتشف أنّ عائلات شهيرة عملت في بناء السفن وتجارة السلاح، لاسيما في بريتاني. غير أن التجارة الاستعمارية مع مخاطرها العالية لكن بمعدلات عائداتها العالية هي التي اجتذبتهم مثل الذباب إلى قدر عسل، فجُمِعت ثروات كبيرة في الأنديز الغربية وفُقِدت.

كان مستثمرون كثر في هذه الأعمال (كما في المصارف والشركات المالية التي تدير

الديون الملكية) شركاء صامتين. ولكن كان ثمة عدد كبير من النبلاء منخرطين بالعمل في المشاريع الصناعية الأساسية في فرنسا. فعلى سبيل المثال، الأخ الأصغر للملك، الكونت دارتوا، قد يكون الصياد المتهوّر والمدمن على لعب الورق، الذي لم يعمل شيئاً جيداً إلى درجة تعرضه لهجاء الصحفيين الشعبيين. ومع ذلك، كان مالكاً لعدد من مصانع البورسلان والحديد، وفي الحالة الأخيرة اهتم شخصياً في تنظيم عقود تحدد تفاصيل الأفران والتجهيزات الثقيلة. وامتلك النبلاء البارزون مناجم الفحم الحجري، ومنهم الدوق راستيغناك Rastignacs من بريغورد، والدوق دي براسلين من النورماندي، والدوق دامونت في البولونيز والدوق دي لِفيز في روزيلون، وكان محامي عام محكمة ديجون في برغندي، غايتون دي مورفيو، المقاول الأول في شالون ـ سو ـ ساون، الذي يجري التجارب على فحم الكوك حيث استخرج منه الوقود لمعامل زجاجه. وامتلك دوق دارليان معامل زجاج في كوترت، ومعامل نسيج في مونتراجيس ودارليان، وامتلك الفيكونت دي لوجي معامل ورق، وكان لدى دوق دي لا روشيفوكو ـ ليانكورت معمل للكتان ـ والأمثلة كثيرة وتمتد طويلاً. لكنّ الصناعة التي تقدّمت على سواها كانت صناعة ـ التعدين ـ التي سيطر النبلاء عليها بالكامل. فأسست سلالة دي ونذِل الشهيرة، أعمالاً ضخمة في لاكريسُت، وهي لسبب ما غير واضح ظُنَّ أنها بورجوازية مع أنها حظيت بالنبالة منذ عام 1720 ـ على الأقل منذ أن قدمت عدداً كبيراً من القضاة البارزين ـ وبالشراكة مع خازنين عامين أرستقراطيين، سانت جيمس وسيريلي، نمت الشركة لتغدو المركز الصناعي الأكثر مناعة عمالاً ورأس مال في أوروبا الغربية. وبالمثل كان الأرستقراطيون الرأسماليون هم الذين قدموا أصول المقاولة ـ المالية والبشرية ـ للبدء في بناء محركات بخارية، والشروع بالاستثمار الميكانيكي لمناجم الفحم الحجري واستقدمت مكنات تصنيع القطن من بريطانيا إلى المعامل في شمال البلد وشرقه.

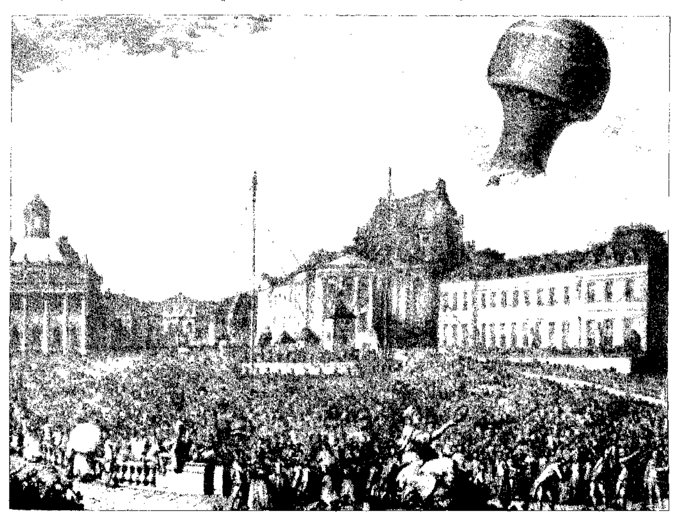
فالنبلاء الفرنسيون، إذن، لم يظهروا حرجاً وهم ينقبون عن المال. وقد انغمسوا إيجابياً في حكومة الأثرياء. والزيجات التي قامت بين الشباب النبلاء، الذين أفرطوا في الرهن المزرعةي، والوريثات البورجوازيات الثريات التي تكاثرت خلال القرن لم تكن، كما يؤكد تشوسيناند نوغارت، هذه الحالات حالات زواج غير متكافئة، بل كانت فرصاً ذهبية. كان ذلك على الأقل، لأن تعليم ونمط حياة البرجوازيين الأثرياء والنبيل المتكلف العظمة كان في كل المعاني والأشكال لا يمكن التمييز بينها. والعظمة إلى هذه الدرجة أوتلك كانت وظيفة الثروة وليس الوضع القانوني.

لم تكن النبالة كلها في هذا الموقع المحظوظ. فمقابل كل نبيل مقاول يتفحّص أفران فحم الكوك، أو دواليب غزل النسيج في شعره المستعار المبودر وبنطاله الحرير كان ثمة عشرة نبلاء ممن زرعوا في ممتلكاتهم الريفية، في شروط أرستقراطية خسّة. عاش قرابة 60 بالمائة من النبلاء ـ نحو 16 ألف عائلة ـ في شروط وظروف تراوحت بين الانهيار المتواضع والفقر المدقع. وكان في القاع الاجتماعي نحو 5 آلاف عائلة، كابدت الفقر والعوز وعجزت عن امتلاك تجهيزات النبالة الدنيا ـ السيف والكلب والحصان. باع، من حالفهم الحظ، سمك الترويت من نهر أو الطيور الفريدة من غابة امتلكوها اسمياً. لقد عاش كثيرون في شروط لا يختلفون فيها عن الفلاحين الذين أحاطوا بهم، وليس الفلاحون الأكثر غنى بالضرورة. فعلى سبيل المثال، حرث نبيل ريفي يدعى أنطوني دي رومينغايل، يعيش قرب أنغوليم، حقوله الصخرية بثوره مثلما فعل جيرانه الفلاحون بالضبط. لم يترك لابنه، بعد وفاته، سوى بعض الكراسي الخشبية وديونه. ورزح آخرون تحت الديون ودخلوا السجن أو تحوّلوا إلى متسولين يتلقّون الصدقات والتبرّعات من الكنيسة.

وعلى مستوى أعلى قليلاً عاشت طبقة أرستقراطية مُفقرَة تعتمد على دخل مزارعها وإيجارات ضئيلة. وفي ما يتعلق بهذه الطبقة ـ ربما 40 بالمائة من المجموع الإجمالي ـ لم تكن ثمة إمكانية لسؤال من أي نوع عن الحياة المدينية. غالباً اعتمد أعضاؤها بشكل حاسم على تعيين أطفالهم للعمل في الكنيسة أو الالتحاق بالجيش للحفاظ على سلامة ممتلكاتهم. كان هؤلاء هم البوبروكس الذين شاهدهم آرثر يونغ في منطقة بورديليه ـ النبلاء الذين خزائن ملابسهم شديدة التواضع فيضطرون للبقاء في أسرتهم ريثما يعاد إصلاح بناطيلهم.

ووصفة الأب كوير لهؤلاء النبلاء المعوزين ـ ينبغي عليهم في الحقيقة مغادرة الأرض والالتحاق في السوق كأعضاء منتجين لثروة عامة سريعة ـ كانت محكومة بأن تقع على آذان صمّاء. وإلى حدٍّ ما قرؤوا على الإطلاق (ليس محتملاً أنهم قرؤوا) كانوا على الأرجح أكثر استجابة لدعوة الفارس دارك الهادفة إلى تجديد الواجب الوطني. وعلاوة على ذلك كان هؤلاء النبلاء الأكثر فقراً هم الذين تمسكوا بامتيازاتهم بعناد لا يلين. كان الامتياز، في حالات كثيرة، كل ما لديهم وفي حالات أخرى، كانت رسومهم الإقطاعية هي الفارق بين الفساد السياسي والفقر. وكان ذلك بوعي ما لمأزقهم أن قانون سيغور المشهور الذي أقر عام 1781 والذي يخصص مناصب في الجيش للعائلات النبيلة التي

استطاعت اقتفاء أثر سلالتها إلى أربعة أجيال. غالبا ما أسيء فهمه كدليل على "رد الفعل الارستقراطي"، كان قانون سيغور في الواقع شهادة على الشعور بأن هناك حاجة ماسة متزايدة لحماية جزء من المملكة العامة على الأقل من مخاطر غزو المال، والرقة الكلية الوجود بالفروق الاجتماعية في كفّة الميزان الأخرى، استطاع «الكبار» تحمّل الاستغناء عن الكثير من امتيازاتهم كلها. وعندما دافعوا عنها، لم يكن دفاعهم من أجل قيمة مالية، بقدر ما كان شكلاً من الاعتقاد في أولوية المؤسسات المشتركة. ففي عام 1788 و1789 سينقسمون في الواقع على اتجاهات الجيل والتقاليد أكثر من المكانة الاجتماعية والوضع الاقتصادي فيما إذا يجب الاحتفاظ بالفروق القانونية التقليدية أو التخلي عنها. بين النبلاء الأكثر فقراً، يبدو أن الرأي هو أنه يجب أن يكون أكثر توافقاً في معارضة إلغاء امتيازاتهم.



الصورة 28، منطاد مونغلفييه فوق فرساي

وللسخرية، كانت العملية الانتخابية هي التي، للمرة الأولى، ألغت المسافة الشاسعة بين القوي والأقزام داخل طبقة النبلاء، وهكذا تمكنت الأكثرية الفقيرة عملياً أن تملي على الأقلية الغنية والرفيعة الثقافة ما يجب أن يكون عليه الوضع الجمعي للنبلاء. وعملية مماثلة للاستقطاب داخل الطبقة الأولى ـ رجال الدين ـ حدثت، كما سنرى، والنتيجة المعاكسة، مع كهنة الأبرشيات الفقراء يفرضون الديمقراطية على حكومة الأساقفة الغنية. ولكن في الحالين، وقع تفكيك النظام القديم ليس عندما غضب المنافسون الضعفاء من استبعادهم من الامتياز الذي عزموا على تدميره بالقوة. بل جاء ذلك من الداخل، المفتون برؤيا دارجنسن أن يغدو الارستقراطيون مواطنين مهدمين جدران معبدهم ومعلنين حلول ملكية ديمقراطية على أطلاله.

وبحلول عام 1788، هاجم النبلاء الراديكاليون مونتسكيو، مثال النزعة الدستورية النبيلة. حيث اتهمه المحامي الشاب، مونييه، بأنه دافع عن كل شيء وجد أنه يجب أن يترسخ. ووجه إليه اللوم معلق آخر هو غروفيه على نحوٍ أقسى:

يا مونتسكيو، لقد كنت قاضياً ونبيلاً وغنياً، وقد وجدت ذلك ملائماً... أن تستعرض فوائد حكومة شغلت فيها موقعاً يجلب المنفعة.

وذهب الكونت دانتريغ حتى أبعد في التصريحات الارستقراطية والأكثر أهمية أنها الأولى التي تدعو إلى التصفية الذاتية. ومنطلقاً بطريقة هامة من سابقة تاريخية وقوانين مغرقة في القدم إلى مفردات أكثر راديكالية في الحقوق الطبيعية، زعم أن الشرعية تنتصر للطبقة الثالثة وحدها، لأنها:

لأنها الشعب والشعب هو أساس الدولة، في الحقيقة هو الدولة ذاتها، والطبقات الأخرى هي مجرد تقسيمات سياسية في حين أنه وفقاً لقوانين الطبيعة الثابتة الشعب بالقانون هو كل شيء... فالأمر هو أن كل السلطات الوطنية تكمن في الشعب وله كل دولة توجد ومن أجله وحيداً.

وهكذا تمت مناجاة الشعب، ومع ذلك، لن يتصرف وفق الأسلوب الذي رسمه له الراديكاليون الارستقراطيون. وإذا كان الكونت دانتريغ قد بدأ ثورياً فسينتهي ثورياً مضاداً.

CHAPTER THREE

ABSOLUTISM ATTACKED

i THE ADVENTURES OF M. GUILLALIME

The standard life of Malesherbes remains the excellent work by Pierre Grosclaude Malesherbes, Témoin et Interpréte de son Temps (Paris 1961). On his developing political ideology, see the excellent anthology and critical introduction by Elizabeth Badinter, Les Rémonstrances de Malesherbes 1771 - 7775 (Paris 1985). At least two other works are worth

consulting: J. M. Allison, Malesherbes (New Haven 1938), and his first biographer, Boissy d'Anglas. Essai sur la Vie, les Ecrits et les Opinions de M. de Malesherbes (Paris 1819).

ii SOVEREIGNTY REDEFINED: THE CHALLENGE OF THE PARLEMENTS

A number of essays in the important work edited by Keith Michael Baker. The Political Culture of the Old Regime (Oxford 1987), address this theme, in particular those by Dale van Kley and William Doyle. Baker has also published an important essay on the mutation of opposition ideology, "French Political Thought at the Accession of Louis XVI", in Journal of Modern History (June 1978, 279 - 303). The axioms of royal absolutism as restated by Louis XV are examined in the essay by Michel Antoine, "La Monarchie Absolue", in the same volume. The fundamental discussion on the development of oppovocabulary and ideology in Parlementaire discourse remains a remarkable work, much ahead of its time: E. Carcassonne, Montesquieu et It Débat sur la Constitution Française (Paris 1927). For the diffusion and popularization of Montesquieuan ideas, see Franco Venturi, Utopia and Réform in the Enlightenment (Cambridge,1971). Carcassonne's one important omission is the contribution of Jansenist rhetoric at the time of the attack on the Jesuits, a subject covered by the remarkable work of Dale van Kley, The Jansenists and the Expulsion of the Jesuits from France 1757 - :765 (New Haven and London 1975). See also the same author's The Damiens Affair and the Unravel - ling of the Ancien Régime 1750 - 1770 (Princeton 1984). J. Flammermorit published the full texts of the Rémontrances du Parlement de Paris au XVIII Siècle (3 vols., Paris 1888 - 89). The same author's work on the Maupeou crisis has now been superseded by Durand Echeverria, The Maupeou Revolution: A Study in the History of Libertarianism:

France 1770 - 1774 (Baton Rouge, La., 1985). See also Jean Egret. Louis XV et l'Opposi - tion Parlementaire (Paris 1970), and William Doyle, "The Parlements of

France and the Breakdown of the Old Regime 1771 - 1788", in French Historical Studies (1970, 429). For the royal case in the crisis, see David Hudson, "In Defence of Reform", in French Historical Studies (1973, 51 - 76). Accounts of the ceremonies for the return of the Parlements at Metz and Pau may be found in Pidanzat de Mairobert, L'Erpion Anglais, (1775, voL 2, 200); see also H. Carré, "Les Fétes d'une Réaction Parlementaire", in La Revolution Française (1892).

There is now an abundance of fine studies that treat the Parlements as a social as well as a political institution. The pioneers in this area were Franklin Ford, Robe and Sword:

The Regrouping of the French Aristocracy after Louis XIV (Cambridge, Mass., 1953), and François Bluche, Les Magistrats du Parlement de Paris 1715 - 1771 (Paris 196o), which reone of the masterpieces in this genre but covers, alas, only the period to the Maupeou crisis. Bailey Stone's excellent The Parlemen: of Paris 1774 - 1789 (Chapel Hill, N.C., 1981) continues the story through to the Revolution and shows exactly how the judicial nobility divided over how far, in both tone and substance, to press their redefine - of sovereignty. William Doyle's superb The Parlement of Bordeaux and the End of the Old Regime 1771 - 1790 (New York 1974) studies one of the most eloquent of the sovereign courts, but also shows the hesitation of its personnel during the Maupeou crisis. The most important and far - reaching tract produced by a Bordeaux magistrate was Joseph Saige's Catéchisme du Citoyen (Bordeaux I 775, reprinted 1788). Other important local studies are M. Cubells, La Provence des Lumiéres Les Parlementaires d'AiX au XVIIIe Siècle (Paris 1984), and A Colombet, Les Parlementaires Bourguignons la Fin du XVIIIe Siècle (Dijon 1937), now supplemented by Brian Dooley, Noble Causes: Philanthropy Among the Parlementaires in 18th - Century Dijon (Harvard University Dissertation, 1987).

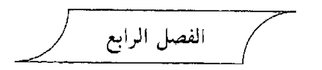
iii NOBLESSE OBLIGE?

There is no good modern study of d'Argenson, but this extraordinary figure is, in any case, best studied through his own writing, especially the Considérations sur la Gouverne - ment de la France, published thirty years after they were written (Amsterdam 1764).

There is now a large literature on questions of social mobility and privilege. Two starting points must be Cohin Lucas, "Nobles, Bourgeois and the Origins of the French Revolution" in Past and Present (6o, August 1973, 84 - 126), and the important revisionist work of Guy Chaussinand - Nogaret, The French Nobility in the Eighteenth Century: From Feudalism to Enlightenment (trans. William Doyle, Cambridge, England, 1985), whose position on the noblesse commerçante I follow very closely. The Kress Library of the Har - vard Business School possesses contracts for trading and industrial syndicates at the end of the eighteenth century which make the active participation of the nobility dramatically evident. See, in this connection, the Abbé Coyer. Développement et Défense du Système de la Noblesse Commerçante (Amsterdam 1957) Patrice Higonnet's important Class Ideology and the Rights of Nobls During the French Revolution (Oxford 1981) begins with a discussion of the

degree of separation and fusion of bourgeoisie and nobility and challenges some of the revisionist assumptions. Other important studies are: David Bien, "La Reaction Aristocratique avant 1789", in Annales: Economics, Sociésés, Civilisations (1974); Alfred Cobban, The Social Interpretation of the French Revolution (Cambridge, England, 1964); R. Forster, The Nobility of Toulouse in the 18th Century (Baltimore 1960); idem, The House of Saulx - Tavannes, Versailles and Burgundy 1700 - 1830 (Baltimore and London 1971); idem, "The Provincial Nobles: A Reappraisal", in American Historical Review (1963); J. Meyer, La Noblesse Bretonne au XVIIIe Siècle (Paris 1972); and G. V. Taylor, "Non - Capitalist Wealth and the Origins of the French Revolution", in American Historical Review (1967). Gail Bossenga has extended David Ben's methods to create a fresh and exceptionally illuminating approach to the social and political history of institutions in this period. See, in particular, "From Cops to Citizenship: The Bureaux des Finances Before the French Revolution", in journal of Modern History (September 1986, 610 - 42), where she shows the privileged holders of office, paradoxically, developing theories of solidarity and citizenship with which to defend the reforming encroachments of the crown on their corporation.

Grouvelle's attack on Montesquieu is cited by Carcassone, Montesquieu et le Débat, 620.



البناء الثقافي لمواطن

I ـ حشد جمهور

عند الساعة الواحدة من بعد ظهر يوم التاسع عشر من أيلول عام 1783، وعلى صوت قرع طبل، تأرجح جسم كروي حريري ناعم وهو يعلو إلى السماء متقلقلاً فوق القصر الملكي في فرساي. ارتفع ستين قدماً، وكان ملوناً بالأزرق اللازوردي ومزيناً بالزنابق الذهبية. كان في السلّة المعلّقة من عنقها خروف، اسمه مونتسييه بمعنى «المتسلّق إلى السماء»، وبطة وديك. وعندما أحدثت عصفة ريح شديدة شقّاً في أعلى المنطاد، ثارت المخاوف حول سلامة الملاحين الذين جاؤوا من حول صومعة الحبوب. ومع ذلك، بقي الجميع أحياء طوال فترة الطيران التي دامت ثماني دقائق بصورة معقولة تماماً. وإذ هبط المنطاد في غابات فوكريسون، على بعد عدة أميال من القصر، وجدوا أنّ الخروف يقضم القش بهدوء بينما جثم الديك والبطة في أحد الأركان. لكنّ القصّة كانت تشبه إحدى خرافات لافونتين التي تقطع الشك باليقين. فقد أصرّت بعض التقارير على أن عنق الديك قد دُقّت أثناء الهبوط، وتقارير أخرى على أنّ جناحه الأيمن قد شُجِج بركلة من الخروف. ثم كان الإجماع حميداً، وجاء في أحد التعليقات، «كان الحكم أنهم لم يعانوا، ولكنهم كانوا، لنقل على أقل تقدير، مندهشين جداً».

لم تقتصر الدهشة على المسافرين. فقد قدرت رواية للحدث أن ما يربو على 130 ألف متفرج، شاهدوا الحدث، وحددت غالبية التقارير الرقم بـ مائة ألف مشاهد. لا تعني هذه التقديرات العددية شيئاً، لكنّ المؤكد أنّ حشداً ضخماً قد تجمع أمام باحة القصر، حيث أُقيمت منصة خاصة ثمانية الأضلاع للمناسبة. جاء معظم الحشد من باريس، حيث أصبح إيتيان مونغلفييه Etienne Montgololfier شهيراً. فقد أرسل في شهر آب الماضي

منطاداً صغيراً إلى الأعلى، وكان مشحوناً بالغاز السريع الاشتعال (بدلاً من الهواء الساخن الذي استخدمه في تجاربه الأولى). وقد تحدّى ستة آلاف مشاهد هطول المطر المتواصل ودفعوا للفوز بمقاعد مشاهدة خاصة في ساحة شامب دي مارس بينما راقب جمهور أكبر كثيراً الحدث وقوفاً. وتزايدت توقّعات الطيران الأكثر روعة الذي سيحظى بالمباركة الملكية الرسمية.

وهكذا غصّت الدروب والطرق العامة المؤدّية إلى فرساي بحركة العربات عند الساعة العاشرة صباحاً. ثم شقّت جيوش من المشاة دروبها سيراً على الأقدام، أو في محفّات، باتجاه مبنى الوزراء. انشدّ الجميع مثل حجاج إلى معجزة تتناقلها الألسن وقرروا ألّا يفقدوا ما تم الاتفاق عليه عموماً أنه حدث عهد جديد. وتغنى تلك الليلة تقرير يستشهد بنبوءة العصر الذهبي، «دعونا نردد مع أوفيد: أنّ ثمّة أشياء كثيرة ستتحقق الآن، كانت تعتبر حتى اليوم مستحيلة بالمطلق». وكتب ريفارول، وهو متحمس آخر: «أخيراً، اكتشفنا السرّ الذي تنهّدت القرون لكشفه: سيطير الإنسان الآن، وبذلك سيكيِّف لخدمته قوة مملكة الحيوان كلها، وسيغدو سيّد البر والبحر والجو». وكانت هناك ملاحظات أخرى أكثر سخرية من هذا الهوس بالمنطاد. علّق مؤلف كتاب سر التطابق (ربما كان لويس بتيت دي باشامونت)، علّق بطريقة جافة: «لقد صدم اختراع م. دي. مونتغلفييه الفرنسيين كثيراً إلى درجة أعاد الحيوية للمسنين والخيال للفلاحين والوفاء لنسائنا».

وكانت مناطيد الهواء الساخن ذات أهمية كبيرة في طرق أخرى لأنها ساعدت على إعادة تنظيم طبيعة المشهد العام في فرنسا. وقد أدى عملهم ذاك إلى ولادة جمهور صار يصعب احتواؤه ضمن حس اللياقة في النظام القديم.

كان الصعود إلى فرساي في حد ذاته خرقاً كبيراً لبروتوكول البلاط. فقد شُيِّد القصر حول التحكم الرسمي بالمشاهدين الذي من خلال سر الحكم المطلق تم الاحتفاظ به وإدارته. توسّطت حجرة خلاء الملك القصر لأسباب رمزية ومعمارية. وكان الدخول إلى حجرته الشخصية ـ تأمر به هيئة التشريفات بدقة، فالقرب أو البعد، والمقابلة الرسمية أو الصرف من الخدمة، هي التي تُعرِّف مرتبة النبلاء الذين يُسمَح لهم بالحضور إليه. والمظهر الخارجي للقصر الذي يواجه البلدة عبر عن هذه الإجراءات المحسوبة في الزمان والمكان من خلال مواجهة الزائر الذي يقترب بحجرات تضيق بالتتابع تدريجياً. من الاصطبلات والغراند كمون Grand Commun الذي يحتوي على المطابخ، حيث المكان كان ضيقاً، إلى «قاعة المرمر» في الوسط التي استقر فيها مخدع الملك، والسفير الزائر سيفاوض

سلسلة من الحواجز أو أو النوافذ المصبعة بالقضبان، كل واحدة منها تسمح بإجراء آخر في الدخول.

وقد اكتسحت الحشود الثائرة كل هذه التشريفات التدريجية جانباً بطريقة غير طقوسية في السنة الأولى من عهد لويس السادس عشر عندما زحفت إلى القصر لتطالب بإعادة تثبيت أسعار الدقيق والخبز. وسيغدو القصر ثانية، في تشرين أول عام 1789، مغموراً بغضب وجوع زحف ثوري من باريس. ولكن، قبل ست سنوات، تخلص مشاهدو منطاد مونتغلفييه الأبرياء بوضوح من الحماية المدروسة في إجراءات البلاط بكثير من الفظاظة على الأغلب. والحدث بعد كل شيء لم يُنفَّذ خلف القصر في الحديقة حيث يمكن أن يكون محروساً بحرص أكبر بواسطة فيالق من الحراس السويسريين المقيمين، بل جرى في مكان غير مسوّر في ساحة الوزراء. وبينما وقف الجنود في صفوف لحماية المنطاد ذاته وحماية مونتغلفييه، لم تُبذَل محاولة جدية لكبح الحشد أو تنظيمه بدقة، حيث كانت مسافات مطلوبة بصورة عامة تبعاً لقواعد النظام السابق التنظيمية. ولا كان ذلك ممكناً، أبعد من تقديم أماكن خاصة لأفراد العائلة المالكة الحاضرين، للحفاظ على مراتب كبار الحاشية في فوضى الحشد الضخم. وبدلاً من أن يكون شيئاً لامتياز البصر ـ اختصاص فرساي ـ كان المنطاد بالضرورة ملكية بصرية لكل فرد في الحشد. كان المشهد على الأرض، إلى حدٍّ ما، مشهداً أرستقراطياً، غير أنه في الجو غدا مشهداً ديمقراطياً.

فتح العلم الرسمي المغلق في الأكاديمية الملكية الطريق لعلم التجربة العامة المسرحية. وعلى الرغم من أنّ المناطيد حملت شكلاً من الشارة الملكية بصورة عامة، فهذا الاحترام الرسمي لا يمكنه أن يخفي حقيقة أن الملك لم يعد قبلة لكل الأنظار. لقد أزاحه من مكانه ساحر أكثر قوة: المخترع. كان الأشقاء مونتغلفييه صنّاع ورق من فيغاري في جنوب شرق فرنسا. لكن، شأنهم شأن عشرات الآلاف من المتعلمين الفرنسيين، كانوا علماء هواة أيضاً. صفّق الحشد استحساناً لهم بصورة مدوّية، وهنأهم الملك والملكة، وكرّمتهم الأكاديمية، وقورنوا باستمرار مع كريستوفر كولومبس، واقتربوا كثيراً من نموذج جديد للبطل المواطن: أمثال فرانكلين في طبقة الجو العليا. ويرسم وصف نموذجي معاصر إيتيان مونتغلفييه كصورة مصغّرة للفضائل المعتدلة ـ في وقت واحد الروماني التقليدي والفرنسي المعاصر: في الثياب والسلوك، نقيض رجل البلاط المسرف في أناقته وزينته.

ألبس ثياباً سوداء، وأصدر أوامره بهدوء ورباطة جأش خلال فترة التجربة كلها. وقد بدت صرامة ملامحه وسكونه مثل إعلان حقيقة أنّ هذا الطبيب القادر امتلك ناصية نجاح التجربة. لا يوجد أحد أكثر تواضعاً من م. مونتغلفييه.

وسارت مع هذه السمعة بالفضيلة والفائدة، مسحة من الاستقلال وحتى العصيان. وكان شريك مونتغلفييه العلمي الرئيسي م. شارل، هو أستاذ الفيزياء الذي كان أول من اقترح إنتاج الغاز عن طريق حمض الكبريت بدلاً من حرق القش المرطّب والخشب، الذي استعمله في رحلات طيران المنطاد الأولى. تاق شارل نفسه للطيران، لكنه اصطدم برفض الملك القاطع، الذي كان تبعاً للتقارير المبكرة يراقب تطوّر طيران المنطاد بانتباه شديد. وقد اقترح إرسال مجرمين في السلة قلقاً من مخاطر رحلة المنطاد الأولى، الأمر الذي أثار سخط شارل ورفاقه. حيث جاء في أحد التقارير أن رده كان: «يستطيع الملك أن يحكم حياتي، لكنه ليس حارساً على كرامتي». وقد ثمّن النقّاد المتحمّسون عالياً وسريعاً رحلة طيران المنطاد المأهولة بالبشر بوصفها تنطوي على مضامين جدية في الحفاظ على الوضع الراهن. ومع ذلك، صار التهريب فوراً محط اهتمام، لأن تهريب البضائع بالمنطاد ستجعل مخافر الجمارك وأسوار إدارات جباية الضرائب فائضة عن الحاجة. وقد تنشب حرب في الأجواء. وسخر ريفارول من أكثر هذه المخاوف جنوناً، إذ زعم أنّ الدين فقد قبضته ما دام، لأجيال المستقبل، لن يبدو افتراض العذراء أكثر إعجازاً. وعلاوة على ذلك:

بدا كل شيء مقلوباً رأساً على عقب ـ العالم المدني والعالم السياسي والعالم الأخلاقي. شاهدوا جيوشاً تذبح بعضها بعضاً في الجو، والدم يهطل على الأرض مثل المطر. وقد ينزل العشّاق واللصوص عبر المداخن ويحملون معهم ثرواتنا وبناتنا إلى أمكنة بعيدة.

وكان الأكثر استقلالية على نحوٍ واعٍ بالذات بين طياري المناطيد، والأصغر عمراً على نحوٍ مميز هو بيلاتر دي روزييه Pilatre de Rozier، وكان طبيباً في السادسة والعشرين. نجح برفقة ضابط في الجيش المركيز دارلاند، في إطلاق أول منطاد يقوده إنسان في الحادي والعشرين من تشرين الثاني عام 1783. كان الجمع بين عالم وجندي ـ معرفة تقنية وجرأة بدنية ـ صيغة نموذجية للطيران واستكشاف الفضاء الذي سبق وتأسس. لكن بيلاتر دي روزييه، أكثر من علماء كثر آخرين، كان مهتماً بالجمهور. مواطن من ميتز في اللورين، كان واحداً من المحاضرين الأكثر بروزاً الذين ألقوا محاضرات، بعد

الظهر، عن موضوعات علمية في باريس، لجمهور متلهف للموضوعات الجديدة. وقد افتتح ما سماه متحف العلوم في شارع سان أفوي عام 1781، الذي صُمم خصيصاً لخدمة المجموعات التي استُبعدت من الأكاديمية الملكية. وزُوِّد المتحف بمجموعة من الأجهزة والكتب والتجهيزات المخبرية، وأتاح الفرصة للهواة أن يحتكّوا بالمتعلّمين والمشاركة في المناقشات العامة والخاصة. كان مسموحاً للنساء ـ شريطة تزكيتهن من ثلاثة أعضاء في النادي. وقع طلبات الاشتراك أكثر من 700 مشارك يتحدّرون من الطبقات كافة ويعيشون أوضاعاً اجتماعية متباينة، واستمعوا جميعاً إلى بيلاتر يحاضر في فن السباحة بالإضافة إلى عرضه رداء مانع للماء يخرج جافاً من حمام مملوء بعمق ست أقدام. وبين المخترعات الأخرى التي جرى عرضها قبعة مصممة لحمل ضوء للإنقاذ الليلي، واختار بيلاتر قراءات من كتابه الكهرباء والمغناطيس.

أكمل بيلاتر دي روزييه أوراق اعتماده كمواطن منطاد باستشهاده على مذبح العلم، وهو في الثامنة والعشرين من عمره، بينما حاول عبور القنال الإنكليزية من بولون، في حزيران عام 1785، انفجر منطاده وسقط بيلاتر ورفيقه من علو 1500 قدم فوق الصخور، مقابل كروي، خارج الميناء بالضبط «محاطاً بلهب بنفسجي» على مرأى حشد ضخم يراقبه على الساحل. وقد أعلنت تقارير مروعة التفاصيل بشكل مثير. تهشم جسد بيلاتر، وانفصلت إحدى قدميه عن الساق، و«سبح البطل الشاب في دمائه». عامله البلد مثل محارب ميت، وكتب أحد المؤبّنين: «لقد قيل إنه أحبّ المجد كثيراً. أواه، كيف يستطيع فرنسي أن يكون فرنسياً ما لم يحبّ المجد». وندبه جان بول مارا من إنكلترة: «تنفطّر القلوب كلها حزناً». أُقيمت جنازات مشتركة في أبهة جليلة في بولون وبلدته الأصلية ميتز، وأمر الملك بصك ميدالية، ووضع تماثيل نصفية له، وقدم معاشاً تقاعدياً خاصاً لعائلته. ولاستكمال سيناريو، كان بإمكان روسو أن يكتبه، أو أحد كتّاب المسرح الوجداني، ماتت خطيبة بيلاتر بعد ثمانية أيام من موته، ربما قتلت نفسها.

لعلّ فكرة أنّ الطيران بالمنطاد وجه من وجوه التسامي وأن ممتهني هذا الطيران أشباه آلهة رومانسيين مسببة للعدوى. وأحد أكثر الملاحين الذي لم يعرف الكلل، هو فرانسوا بلانشار François Blanchard، الذي عبَر القنال الإنكليزية من دوفر مع زميله البريطاني الدكتور جيفريس قبل أربعة شهور من حادثة بيلاتر. وفي رحلته الثالثة من روان هبط في حقل، حيث حيّاه الفلاحون المشدوهون وصفقوا له كما لو أنه قادم من خارج الأرض. ولم يقتنعوا إلا بعد أن خلع ثيابه وسمح لهم أن ينخسوه في مناطق حساسة في



الصورة 29، تحطم منطاد بيلاتر روزييه



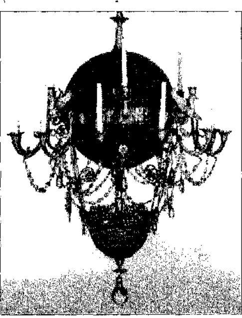
الصورة 30، فرانسوا بيلاتر دي روزييه، العالم كبطل

جسده. لكنّ النخبة المحلية كانت مستغربة وفضولية مثل الفلاحين بطريقتها. وهبط بلانشارد وسط عاصفة من الإثارة والمنافسة على من سيحظى بالشرف الرفيع لاستضافته تلك الليلة بينما كان المنطاد يُملأ بالهواء. وقد استيثرت النساء بالحدث أيضاً، وكنّ غالباً أشجع من الرجال في متابعة فضولهنّ العلمي الواسع الإطلاع. ففي هذه الرحلة نفسها، على سبيل المثال، أصرّت المركيزة دي بروسار والكونتيسة دي بوبان والسيدة ديجان على أن يُسمح لهن بنوع ما من تجربة الطيران. وقد أرسلهن بلانشار إلى علو ثمانين قدماً ـ بينما ربط المنطاد بحبال رفيعة على الرغم من اتخاذهن إجراءات الحيطة في سرعتهن وارتفاعهن. وقد كتب في وصف صحفي معجباً: «لم تصدر عنهن أية علامة من علامات القلق حتى عندما بلغن الارتفاع الأقصى».

حدثت مشاهد مماثلة في كل أنحاء البلد من ليون إلى بيكاردي، ومن بيزانسون إلى حدائق لوكسمبورغ في باريس. تبنّى أنصار المقاهي المتنافسة في القصر الملكي والكافيو والناسيونال فرق المناطيد المتنافسة كما لو أنها باتت أحصنة سباق مفضّلة. ورسمت لوحات المنمنمات وكُتيبت الأغاني احتفاء باستخداماتها عرضت في الصالات في باريس. ونُشِرت الكتب التي تقدم نصائح مفصلة عن كيفية صناعة المنطاد، أو صورة مطابقة له على الأقل. كان بالإمكان صناعة منطاد بكلفة ستة ليفرات، وكانت صناعة الأرخص تكلّف أربعين سوسة، أي ثمن خمسة أرغفة كبيرة من الخبز. نصحوا بغشاء مثانة من أحشاء ثور لنموذج الثلاثين بوصة، تُلصق معاً بأفضل أنواع الغراء السمكي. وتمّ تحذير الهواة من استخدام غاز الميتان بسبب مخاطر اشتعاله، وأوصى النقّاد ببناء مناطيد صغيرة بأشكال الفاكهة ولونها، وهكذا في لحظات النزوة ومتع المساء يمكنها الارتفاع في الجو والبقاء معلقة فوق آنية الخمرة الصهباء.

ولكن طيران المنطاد كان أكثر من متعة سائدة. كان جمهورها هائلاً واكن معجباً بنفسه من غير تكلّف، وتحدث كل منهم، ليس بلهجات المجتمع المهذّب، بل بالمفردات العاطفية في تسامي روسو. لقد اقترنت في هذا الأسلوب الشاعري الرهبة والمرح معاً، بصورة ثابتة، فراحت المشاعر تعبّر غالباً في لغة الجسد. عندما ارتفع منطاد السيدين شارل وروبرت فوق سان كلاود في تموز عام 1784، كتب أحد المشاهدين: «رجال ونساء، عظماء، ومتواضعون جثوا على ركبهم، يكملون المشهد الخارق للغاية، الذي رأوه يوماً». كان الأكثر درامية، أن حشداً ضخماً، اعتراه الخوف فجأة، في سهل دي بروتيو إلى جوار الرون بالقرب من ليون، رأى الهلاك الوشيك لبيلاتر دي روزييه ومونغلفييه وستة مسافرين، بمن فيهم ابن الأمير دي لين Prince de Ligne، يهبطون شاقولياً وسط الدخان

الصورة 31، هبوط منطاد السيدين تشارل وروبرت في 1 كانون الأول عام 1783.
دوق دي تشارتر الذي سيغدو قريباً دو أورليان، يشاهَد يحيي الملاحين بعد طيرانهم لتسعين دقيقة من حدائق تويليري.



الصورة 32، أندريه غال، شمعدان في شكل منطاد مونتغلفييه

واللهب. كان رد فعلهم الجماعي أن «رفعوا أيديهم وسواعدهم بحركة لاإرادية كما لو أنهم يدعمون المنطاد في سقوطه». وعندما تبين أنهم نجوا من حطام منطاد يطير على ارتفاع 300 قدم، حلّوا عرباتهم، وحملوا الناجين كلهم على أكتاف حشد متماوج من المحتفلين. يغطيهم العرق والدخان، يوقفون باستمرار أثناء تقدّمهم من هؤلاء الذين أرادوا أن يروهم عن كثب ويعانقوهم». وقد أُمطِروا بوابل من الهتاف والاستحسان تلك الليلة بالذات في عرض غلَك Gluck لمسرحية **إفيجينيا في أوليد** على مسرح الأوبرا. قدّم المغني الذي يلعب دور أغاممنون تاجاً وضعه مونغلفييه على رأس زوجته بطريقة مميزة، ووضع بيلاتر (منافسه في التواضع) تاجه على رأس مونغلفييه.

في كلمات أخرى، نجح مونغلفييه وبيلاتر روزييه وبلانشار في إنشاء علاقة صداقة مع جماعات غفيرة متنوعة من الناس بطريقة مباشرة دون وسطاء. وقد تصرفت حشود المتفرجين التي أطلقت العنان لعواطفها المتحررة في كل الدرجات وهي تشاهدهم يتصرفون بالضبط كما لم تكن تتوقع في النظام القديم. ففي ليون، على سبيل المثال، كما في مدن إقليمية أخرى ـ لاسيما تلك التي لديها محاكم ـ كانت المناسبات الحاشدة تُنظَّم عبر المواكب الدينية أو المدنية. حيث كانت منزلة المشاركين هي التي تفرض تماسك تلك المناسبات وبنيتها، أو الأزياء التي يرتدونها أو الرموز التي يحملونها. فقد عبَّرت مراسمهم عن العالم المشترك والتراتبي الذي نشأوا فيه يتقدمهم رجال الدين والشخصيات المحترمة.

غيرت الخصائص الجسدية الكاريزمية كل ذلك. بما أن العرض لم يكن متوقعاً، كانت حشوده متنافرة وعفوية وتستثار غريزياً. ومع ذلك لم تكن دهماء ولا تجمعاً عفوياً. وقد منحهم إحساسهم أنهم يشاهدون حدثاً محرراً ـ تنبؤاً بمستقبل ليس موقوفاً لشيء محدد ـ نوعاً من الصداقة المؤقتة في الهواء الطلق تحت رذاذ الصيف الباريسي أو ندف الثلج في شتاءات ليون. ومع أنها كانت أقل شراسة بهلوانية من الألعاب الجمبازية السبارطية الجديدة التي أوصى بها روسو (والتي صدرت بأمر اليعاقبة لاحقاً)، فقد قدمت مثالاً لرؤية الفيلسوف لمهرجان الحرية: حيث تكون التجربة هي النبيلة وليس الجمهور في لمحات السمو المعنوية.

لم تكن المناطيد هي العرض الوحيد لاجتذاب نوع من الحشود التي تراجعت فيها فروق المكانة من خلال الحماس المشترك. فقد كانت العقود الأخيرة في النظام القديم جديرة بالملاحظة لعدد من الظواهر الثقافية التي تقاربت فيها الأذواق الشعبية وأذواق



الصورة 33 للرسام غابرييل دي سانت أوبن، صالون عام 1753

النخبة. فكان حجم وتنوع الجمهور الراغب بمشاهدة المسرح الشعبي (مسرح البوليفار) والأغنية الشعبية وحتى معارض الصالون التي كانت تقام مرة كل سنتين مثل تلك التي ثوّرت الفروق التقليدية في النظام الاجتماعي والقانوني المحفوظة في الأشكال الرسمية في الفن الذي رخصته الملكية. الوصف المفعم بالحيوية الذي كتبه الصحافي الشعبي بيدانزات دي ميروبير Pidanzat de Mairobert لجمهور الصالون في نهاية سبعينيات القرن الثامن عشر يؤكد هذا المزج غير المقيد للنماذج الاجتماعية في مكان محصور حيث ضُغِطت الأجساد والأصوات والعطور بشدة ودُفِعت معاً فصنعت مزيجاً إنسانياً هائلاً ومضطرباً في بيئة صالون كاري الرائعة في اللوفر. ويُقحَم الزائر في فجوة من حرارة وزوبعة من غبار وضجيج، فيضطر إلى الصعود على درج مكتظ بالناس دائماً. «وهناك»، في جوٍّ سام مشرَّب بزفير أشخاص غير أصحاء... يجعله الصخب المتواصل الذي يشبه تكسر أمواج البحر أصماً، «ومع ذلك يرى المرء خليطاً من كل أوساط الدولة وكل مرتب المجتمع وكل الأعمار والجنسين....».

والرجل الشديد التأنق المتأفف أو المرأة التي تنضح عرقاً، الرجل ذو العمل العرضي من سافوي الذي يحتك بأكتاف علية القوم، وامرأة السوق التي تروج العطور مع امرأة من الطبقة العليا، تجعل الأخيرة تشد على أنفها لتتخلص من رائحة البراندي القوية التي تجعلها تغادر المكان، والفنان المبتدئ الذي ترشده غريزته وحدها، يرمي مجرد تعليق الذي، بسبب لهجته الهزلية، فيحث المثقف الأبله على الضحك بينما الفنان

المختفي في الحشد لا يحل معنى منه ويحوله إلى ربحه. وهناك أيضاً تلاميذ المدرسة يقدمون وصية لأساتذتهم... لأن هؤلاء التلاميذ الشباب يتشرون بين هذا الجمع الهائل الذي غالباً ما يقدم الأحكام الأكثر تعبيراً وقوة.

كان الصالون في الأصل محفل السلطة الأكاديمية والمؤسساتية. فقد كانت الأكاديمية، في ظل هؤلاء، الذين يرعون العرض المنظم، مقسمة إلى ثلاث طبقات واضحة تماماً. وعلى جدران المعرض، المراتبية الرسمية للأنواع ـ مع لوحات التاريخ في الأعلى فمشاهد الحياة البيتية في الوسط ثم الحياة الساكنة في الأسفل ـ محفوظة بدقة. غير أن هذه الشكليات الرسمية غدت غير ضرورية مع ارتفاع المد المشوش وتدفق الإثارة العامة. ففي ستينيات القرن الثامن عشر وسبعينياته لم تكن اللوحات التي اجتذبت الحشود وأثارت التعليق في الصحافة هي التاريخيات المتسمة بالأبهة التي قدمها فنانون رسميون مثل برينيه Brener ولاغرينيه Lagrenée بل النوع الدرامي العاطفي الذي قدمه غروز Greuze.

وكانت ثمة عملية مماثلة تحطم الحدود تحدث في المسرح. وكانت الأكثر مفاجأة، كما يبدو، مسرح باريس الذي كان مقسماً إلى عالمين متعارضين بحدة. الدراما ذات الذوق الرفيع والاحترام الرسمي التي تقدمها مسارح مرخصة مثل الكوميديا الفرنسية Comedia Français والأوبرا Opera، بالإضافة إلى المسارح العظيمة ذات الأعمدة والأروقة التي قدمت قائمة ثابتة من المسرحيات الكلاسيكية وكوميديات موليير المقبولة أدبياً. ألقى الممثلون مقطوعاتهم المكونة من بيتين شعريين ذات تفعيلات سداسية وفق التقاليد القديمة في فن الخطابة والإيقاع. مقابل العالم الخشن والأرضي في مسارح البوليفار التي تنافست فيها الهزليات الفاسقة الغنية باللهجة العامية والمزاح المتدني السوية على جذب الانتباه بالعروض الغريبة المثيرة والأدوار الخطيرة ومشاهير الأغاني الشعبية.

غالباً ما رسم المؤرخون القرن الثامن عشر بوصفه المرحلة التي خضعت فيها أخيراً الثقافة الشعبية إلى حراس الذوق الأخلاقي الرسمي الصارمين. لقد حاولوا أن يثبتوا من خلال احتلالهم مكاناً مركزياً في حياة الناس، أن الثقافة الشعبية غدت هامشية وأنها أذعنت لتشارك في حملة التقدم والتنوير. سيحاول اليعاقبة الثوريون في الحقيقة أن يفعلوا شيئاً من هذا القبيل. لكن شكراً لبحث مايكل روت برنشتين Michele Root - Bernstein وروبرت إشروود Robert Isherwood إذ نعرف الآن أن شيئاً ما مثل عملية معاكسة كان يعمل خلال العقود الأخيرة من النظام القديم. فقد كان المسرح الرسمي هو الذي يفقد حيويته، وإلى حد ما، جمهوره، والمسارح الشعبية هي التي أصبحت موضع الجاذبية

الرئيسية. والظاهرة الأكثر إثارة للدهشة، التي لاحظها المعلقون على نطاق واسع، هي أن العالمين لم يكونا يبذلان جهداً للافتراق بل كانا يتقاربان. كان ثمة جمهور وحيد يتشكل، متعطش للمتعة، يمتد من العائلة الملكية والبلاط إلى الفنانين والحرفيين وأصحاب المتاجر والتجار والجنود. ذهبوا جماعات لمشاهدة زواج فيغارو في مسرح الكوميديا الفرنسية Comedie - Française، حيث كانوا يستطيعون الوقوف في الجزء الخلفي من الصالة الصاخبة أمام خشبة المسرح. أو كان بالإمكان مقابل 12 أو 24 قرشاً أن تكون زبوناً دائماً لـِ نيكوليت غراند دانسور في بوليفار دي تمبل، مع مجموعتها الفائزة في الأكروبات والهزليات الساخرة والمسرحية الإيمائية والأدوار المسرحية الساخرة والأغاني والدراما العاطفية (ولبعض الوقت كان نجمها الجذاب قرداً أخذ اسم تركوت الذي سخر من الممثل الجدّي العظيم موليه).

ثمة عدد لا يحصى من الأمثلة على هذا الانصهار الثقافي الذي كان يجري. قدمت جريدة جورنال دي باري Journal de Paris معلومات يومية عن مسرح الأوبرا «العالي» والكوميديا الفرنسية والكوميديا الإيطالية، لكنها أدرجت أيضاً ذات الجاذبية الحالية في (المنوعات والهزليات الغامضة) في مسرح المنوعات وأمبيغو كوميك Ambigu Comique. وكان الانتقال من عالم إلى آخر سائداً. فمؤسس مسرح الأمبيغو كوميك أودينو Audinot، كان هو نفسه مغنياً (وابن مغنٍّ) في الأوبرا كوميك وقدم عروضاً مسرحية في فرساي قبل أن يؤسس مسرحه المزدهر في البوليفار. والعمل العظيم في سبعينيات القرن الثامن عشر «المضروب» الذي يعرض الخادم العاثر الحظ، جانو Janot، الذي لأنهم أفرغوا عليه مبولة، يحاول أن يجد تعويضاً قانونياً وبدلاً من ذلك يجد نفسه في السجن. وبحلول عام 1780، كانت مسرحية المضروب قد عرضت ألف مرة، وجعلت من ممثلها الأساسي، فولانج Volange، أحد مشاهير باريس وقدمها في عرض خاص أمام الملك والملكة في فرساي.

وفي الحقيقة، كانت العائلة الملكية منخرطة كثيراً في ثقافة هذه المرحلة كالآخرين تماماً. فأرتوا Artois، على سبيل المثال، معروف أنه ألف أشعاراً ساخرة لاذعة وغالباً أغاني شعبية داعرة هاجمت ناظمي القصائد الغنائية في بونت نوف Pont Neuf. ومع أن الملك تجهّم على ماري أنطوانيت التي تكثر التردد على مسارح باريس كشيء يخرق اللياقة، فغالباً ما فعلت ذلك وابتكرت، من خلال رد فعل الجمهور، على حضورها، مقياساً للشعبية العامة. فكان طول التصفيق مدعاة للسرور، غير أن صمتاً جليدياً أو ما هو

أسوأ عزز إحساسها بالغربة عن تأييد الجمهور بحلول أواسط ثمانينيات القرن الثامن عشر. ومع ذلك بقيت الملكة مهتمة كفاية باللهجة المحلية المحكية الواقعية في الأسواق Poissard مقابل درجة الصوت Pitch ـ لتجلب أعضاء من فرقة مونتنسييه إلى التريانون لتعليم مجموعتها الخاصة من ممثلي البلاط (بمن فيهم أرتوا) بلهجتهم المحكية الواقعية. وبين تلك الفرقة كانت عائلة غرامون Grammont، التي مثّل أفرادها شمولية العالم الدرامي. في المنزل على البوليفار حيث بدأت مع فرقة نيكوليت المتخصصة بالسير على الحبل المشدود والتهريج، لكنها اعتادت على تقديم عروضها في فرساي، ستستمر عائلة غرامون ليغدو أفرادها ضباطاً في الجيوش الثورية، وقوات الصدمة الباريسية المكلفة بتطبيق القوانين الثورية وعزل الخونة لتقديمهم إلى المقصلة.

ومع ذلك، كان دوق دي شاتر Duc de Chartres، هو الذي بذل قصارى جهده لمأسسة البوتقة الثقافية هذه بتحويل الباليه رويال إلى المكان الأكثر استعراضاً للمتعة والسياسة في أوروبا. ففي عام 1776 أعطي هذا المكان الرئيسي، الذي كان يحاذي حدائق الكاردينال ريشيليو ذات مرة ويحد اللوفر والتويلريه، من أبيه دوق دي أورليان Duc d'orléans. وقد قاده الجمع بين نموذج الحياة المسرف هذا ومبادرة المقاول إلى الحلم بخطة باهظة الكلفة لتحويل الحدائق إلى مصيف بمبنى ذي أروقة وقناطر يجمع بين المقاهي والمسارح والمتاجر والأمكنة الأكثر شبهاً بالاستجمام. واستخدم المهندس المعماري فيكتور لويس Victor Louis، الذي ابتدع مسرحاً فخماً في بوردو، لتصميم المكان الداخلي، لكن لا حاجة للقول إن الطموح سبق التمويل ولم يحدث هناك أي شيء حتى عام 1784 يشبه الخطة الكاملة التي شرع بتحقيقها. وفي الوقت نفسه قامت صالة عرض للآثار الفنية مبنية من الخشب بمحاذاة القصر. معروفة باسم حقل تارتاري Camp des Tartares، وسرعان ما غدت مكاناً مشهوراً للعاهرات والنشالين. يتمكن المرء في الداخل بفرنكات قليلة من أن يُدهَش بمقاس خصر باول بتربرودت Paul Butterbrodt الألماني الذي يزن 400 رطل أو (بفرنكات قليلة أكثر) يعاين جسد بل زوليما Belle Zulima الشمعي العاري التي زُعِم أنها ماتت منذ مائتي عام ولا تزال في حال رائعة.

بحلول عام 1785، عندما توفي دوق أورليانز الكبير تاركاً ابنه مع مال كافٍ لإنجاز العمل، نجح بالاس رويال على الرغم من ذلك بجلب الثقافة الشعبية الخام والرابليه إلى قلب باريس الملكية والأرستقراطية. قبل عقد من ذلك كان لا يزال ممكناً رؤية مركز باريس كمكان حصري يحفظ الفن الرسمي، ومع الأشكال «الدنيا» التي أُبعِدت إلى



الصورة 34 للرسام فيليبرت لويس ديبوكورت صالة عرض الأعمال الفنية في القصر الملكي بالاس رويال

الشوارع ومعارض سان جيرمان وسان لوران. لقد أعطى تطويق هذه الأشكال غير الرسمية ضمن هذه الأمكنة الكبيرة للمتعة حتى رجال الشرطة إحساساً بأن الأعمال المسيئة للقانون محصورة في مناطق يمكن التنبؤ بها وإذا اختار المواطنون المحترمون أن يترددوا إليها فهي مخاطرتهم. يمكن لمسارح النخبة أن تنظر شزراً إلى الشعبية المتنامية وازدهارها الذي تحسد عليه، غير أنها كانت راضية برؤيتها تعمل في أماكن غير أنيقة وخارج الأحياء العصرية.

لقد غيّر قدوم باليه رويال بوصفه مهرجان ترفيه للشهوات دائم كل ذلك بقسوة. فقد كان عملياً آمناً باعتباره مكاناً خاصاً للدوق أورليان من دوريات الشرطة وقد استثمرت هذه الحرية إلى أقصى مدى. كتب مرسييه Mercier : هذا المكان المسحور مدينة صغيرة فخمة محاطة بمدينة كبيرة. رَحَّب شارتر/ أورليان على نحوٍ مثير بافتتاح مسرح بوجوليه Beaujolais سمّي باسم شقيق تشارتر بثلاث دمى متحركة طول الواحدة ثلاثة أقدام واستمر بممثلين أطفال، وفي مسرح المنوعات Variétés Amusantes، تُعرَض الأعمال الساخرة والميلودراما، التي جاءت من الشوارع، في صالات مكتظة بالمشاهدين. ازدهرت المقاهي من كل الأنواع، من فوي Foy الأكثر رزانة إلى غروت فلامان Grotte Flamande الخطرة. يمكن للمرء أن يزور صانعي الشعر المستعار وصانعي القلادات، ويحتسي عصير الليمون من الأكشاك، ويلعب الشطرنج أو الداما في مقهى تشارتر Café de Chartres الآن غراند فيفور Grand Vefour، ويصغي إلى عازف غيتار متنقل يعزف لحن الأسقف (يفترض

أنه عُزل من وظيفته) الذي كان متخصصاً في الأغاني الفاسقة، ويسعى إلى الهجائيات السياسية (غالباً فاسدة) يكتبها ويوزعها فريق من الكتاب المستأجرين يعملون للذوق؛ تنظر نظرات غرامية إلى الفانوس السحري أو عروض ظل خفيفة، أو تلعب البليارد، أو تتحلق حول نسخة مصغرة لمدفع يُطلق عند الثانية عشرة تماماً ظهراً في الوقت الذي تضربه أشعة الشمس.

وداخل الأمكنة الضيقة في مسارح البوليفار كان صعباً إذا لم يكن مستحيلاً الاحتفاظ بأي نوع من الفروق الرسمية في المرتبة الاجتماعية. كان مسرح نيكولت يستوعب 400 شخص في مساحة ليست أكبر من أربعين قدماً في ست وثلاثين قدماً. والشموع المصنوعة من الشحم الحيواني قلما تعطي ضوءاً كافياً يسمح لكثيرين بطريقة للظهور الاجتماعي وعنت أسعار نيكولت القذرة الرخيصة أن الناس الذين هم من عوالم اجتماعية مختلفة بحدة يُحشَرون معاً مثل السردين. لكن حتى في الجادات وأروقة اليالي رويال، حيث التنزه (لن نقول تحرش بغي برجل)، كان التحديق والمعاينة تسلية، وكانت الشروط والطبقات تختلط معاً دون تمييز. وفي الصخب كان سهلاً أن تخطئ بمومس ترتدي بطريقة متباهية وتعبث بمحاكاة أشياء رائعة مقابل زوجة كونت تتزين بأشياء حقيقية. يلبس الجنود الشباب أزياءهم التي لا تظهر عليها شارات المرتبة أو لا تلاحظ أو لا تحدد لإغراء الفتيات. ويأتي القضاة النبلاء في أرديتهم السوداء من المحكمة يلبسون الزي نفسه مثل محامين متواضعين أو كتاب عامين. وهذا دليل ساطع على أن المعاصرين كانوا يستسيغون هذا الخليط الاجتماعي. فلويس سيباستيان مرسييه، الذي شجب تلك الشوارع لأنها تشجع ضعيفي العقل على الانغماس بالملذات بين «المواطنين الشرفاء، كان مغرماً بالبالي رويال، حيث شهد «تشوش الطبقات والاختلاط واحتشاد الناس». والمايور دي سان باول، كتب بشكل أكثر غنائية، وأصر على أن «كل طبقات المواطنين تتواجد معاً من السيدة ذات المكانة إلى الفاسقة، ومن الجندي المتميز إلى أصغر عامل في مزرعة».

كانت المرتبة الاجتماعية أكثر ظهوراً طبعاً داخل القاعات المحترمة في مسرح الكوميديا الفرنسية أو الأوبرا. غير أن شروط الظهور الحاكمة (كما في كل دوائر النظام القديم) لم تكن لا المولد ولا الطبقة بل المال. وعلاوة على ذلك، حتى في المسرح «الجدِّي» يوجد بعض الدليل على انصهار متزايد للطبقة الوسطى وحتى الجمهور الأدنى في الطبقة الوسطى: وراء المتاجر ومعلمي الورش المهنية من الأعمال «الشريفة» مثل صناعة الموبيليا والساعات. وفي مناسبات خاصة، مثل مولد ولي العرش عام 1781،

كانت تقدم عروض مجانية ويكتظ المسرح بهذا النوع من النظارة الأكثر تواضعاً. لكن حتى خلال الموسم النظامي، فقد مكّن السعر الزهيد نسبياً للدخول الطلاب وكتبة المحاكم من ارتياده. وغالباً جداً ما كان المتلهف للذهاب إلى المسرح يستطيع الدفع لهذا المكان بالتوقيع مع واحد من مجموعات المصفقين المستأجرين للهتاف أو السخرية من ممثلين أو مسرحيات يعتمد ذلك على التكليف. ولأن الترخيص متوقع في الصالة، كان الأثر الذي تخلفه الليلة الأولى يحدد نجاح أو فشل المسرحية. وقد اضطر الكاتب المسرحي مارمونتيل Marmontel، الذي لم يكن صديقاً للصالة، عندما هتفوا له بنجاح عمله بلازاريوس Belisarius الذي حاز على رضا الجمهور، إلى التسليم «بأنه يوجد بالتأكيد بعض هؤلاء المتنورين جداً بين الجمهور غير المثقف».

إذن هل ارتبط «أطفال الجنة» les enfants du paradis بأطفال الوطن les enfants de la patrie على نحوٍ وثيق؟ إنه لأمر صعب أن نعرف ما إذا كان الامتزاج الاجتماعي الواضح في جمهور المسرح وبين المتجولين في حدائق المتعة يمكن أن يؤخذ كمؤشر دقيق على انهيار المرتبة الاجتماعية في نظام فرنسا القديم. فنحن، بعد كل شيء، نتعامل هنا مع باريس العاصمة في وضعها الأكثر استرخاء. لكن مقابل ستارة المسرح الخلفية التي تعج بصخب المواطنين العالي تتحول حوادث معزولة للعداوة بين الكبير والصغير، صاحب الامتيازات، والمواطن، إلى نموذج مثالي للدراما الاجتماعية والسياسية: وتلك من المفارقات التاريخية. وهكذا بهذا المعنى، كانت هناك في الحقيقة تجارب «بروفات» للمسرح العظيم في مجلس الطبقات تعتمل في جمهور باريس.

والقضية البارزة هو النزاع الشهير على مقعد في المسرح الذي وصل إلى محكمة باريس ذاتها. وجاء النزاع ليرمز إلى انتقال إحدى المسرحيات التي قدمت على المسرح إلى مبنى الاجتماعات العامة: أن الغطرسة الأرستقراطية استضعفت المواطَنة الفاضلة. ففي 9 نيسان عام 1781 نشب خلاف في مقصورة في مسرح كوميدي فرانسيز. وكان المتخاصمان هما برنوت دبلسيس Pernot - Duplessis، أحد المراقبين في المحكمة والكونت موريتون تشابريلان، رئيس حرس الكونت دي بروفينس ـ الأخ الأصغر للملك. وكانت قضية المحكمة التي طُرِحت مركزة على أن المدعي «رجل شريف في كل النواحي، معروف بلطف أسلوبه وكياسة تصرفه»، وكان يرتدي بذة سوداء رائعة ولا يضع شعراً مستعاراً في ذلك المساء. والضابط من جهة أخرى، وصل متأخراً مرتدياً معطفاً وردياً ويضع سيفاً وقبعة ذات أرياش ـ بكلمات أخرى، جوهر الموضوع أحد أفراد

الحاشية العسكرية. ووفقاً لسجلات المحكمة حدث ما يلي:

تشابريلانت: *ماذا تفعل هنا؟*

دبلسيس: *أنا في مقعدي.*

تشابريلانت: *انسحب، أقول.*

دبلسيس: *لدي حق أن أكون هنا مقابل نقودي... لقد دفعت مقابل مقعدي، ولن أنسحب، سأبقى.*

تشابريلانت: *أف ـ أيها الصغير تجرؤ على إهانتي (عند هذه النقطة دفع المدعي) أنا الكونت دي تشابريلانت، رئيس حرس المونسنيور شقيق الملك، لديّ الحق بالأمر هنا، وذلك بأمر الملك. إلى السجن أيها الوغد، إلى السجن...*

دبلسيس: *لا يهم من تكون، رجل مثلك لا يمكنه أن يجعل رجلاً مثلي يقضي ليلته في السجن دونما سبب.*

ربح الأرستقراطي المتعسف معركة المقصورة، لكن الحرب ربحها المحامي القويم أمام القضاء. فقد استدعى تشابريلانت الحرس الذي جرَّ دبلسيس من شعره إلى الطابق السفلي حيث احتجزوه لنحو أربع ساعات ونصف ـ إلى ما بعد انتهاء العرض تماماً. لكن ذلك، لنقل على الأقل، كان عملاً طائشاً أن توجه إهانة إلى أحد أعضاء المحاكم المستقلة، حتى لو، كما زعم الدفاع، أن الكونت لم يصدق أن أحداً بمثل هذه «الفظاظة» يمكنه أن يكون قاضياً. وأكد محامي دبلسيس، بلوندل Blondel على التعارض بين موظف الحاشية الرفيع المقام واحتقار الحقوق القانونية الأساسية والسرعة في استخدام القوة التعسفية والرجل المتزن الهادئ الذي يرتدي ثياب القانون المتواضعة. كان الأمر، كما أوضح في المحكمة، في الصالح العام الدفاع عن الفرد مهما كانت منزلته متواضعة كمواطن إذا ما وجهت إليه أية إهانة في مكان حيث المال وحده يضع العامة والنبلاء في منزلة واحدة». (التأكيد مضاف). ولا حاجة للقول، إن المحكمة حكمت لدبلسيس وأمرت الكونت أن يدفع ستة آلاف ليفر مقابل الضرر ـ هذا مبلغ كبير ـ بالإضافة إلى الاعتراف أمام المحكمة بأن الرجل الذي وجِّه إليه الإهانة «كان رجلاً من أهل الشرف والاستقامة».

توجد قضايا أخرى مماثلة حيث حُوِّل المسرح إلى ميدان معركة للحقوق التي هي موضوع خلاف. ففي بوردو عام 1784، على سبيل المثال، مُنِع رئيس البلدية ومستشاروه من دخول المسرح بأمر الحاكم العسكري بل سُجِنوا عندما أصروا على الدخول. حاول

الحاكم بعدئذٍ أن يجعل رئيس البلدية (وهو نبيل) يحاكم في محكمة عسكرية. شعر بعمله ذلك بالشفقة على قوته العسكرية ضد المزاعم المدنية لرئيس البلدية في ممارسة السلطة في المسرح بدعوى مواطنيه المشاركين.

إذن، استطاعت السياسة أن تؤثر على المسرح، ولكن بالمثل، كان المسرح قادراً على ابتكار الدراما السياسية. وكان العمل الأكثر إثارة للإعجاب بين كل هذه الحالات طبعاً هو عمل بومارشيه «زواج فيغارو». يجب أن تؤخذ الظروف الشاقة التي عُرِضت فيها هذه المسرحية لتمثل محطة على درب انهيار النظام القديم. مثَّل بومارشيه في حينه مقاتلاً من أجل حرية التعبير ومثَّل الملك ضابطاً صارماً خائفاً وفظاً. لكن هذا السيناريو البسيط تعقد كثيراً بواقع أنه في الوقت الذي حان فيه لـ فيغارو أن يُكتَب ويُقدَّم على المسرح، كان بومارشيه نفسه غير مضطهد بل قاضياً متمكناً لديه ثروة كبيرة ونفوذ قوي. وأهمية الخطبة اللاذعة ضد النظام المستقر التي وضعها على لسان فيغارو في الفصل الخامس لم تكن لتأتي من شخص من طبقة دنيا أدبياً بل من شخص من أبناء المؤسسة المفضلين.

ومع هذه التحفظات، سيكون خطأ بالمثل الحطّ من رومانسية بومارشيه بشكل عام باعتباره خطأ مجرد أرستقراطي آخر يلعب على التطابق مع الزي الحديث الراديكالي. إن حياته الجديرة بالملاحظة كانت قد اتسمت بالغموض الاجتماعي في فرنسا أواخر القرن الثامن عشر. كان قاضياً وسجيناً وأحد رجال الحاشية ومتمرداً ودبلوماسياً وجاسوساً ورجل أعمال ومفلساً وناشراً ومعلناً ومن النخبة المطلقة وغريباً وليس لديه مسار لسيرة حياة لا تنقطع في تقدمه إلى الأعلى من فنان متواضع إلى نبيل متبجح. في مراحل كثيرة تميزت سيرة حياته بالقفزات التي تثير العجب في الشهرة التي تصطدم أيضاً برفض وإحباط يثير العجب أيضاً. إذا أبدى تناقضاً ظاهرياً باجتهاد، فقد وصل إلى ذلك بشكل طبيعي. مَثُل ذات مرة أمام المحكمة كمدافع ضد القذف والتشهير، فارتدى لباس «الرجل الشريف» ـ معطفاً أسود وبنطالاً قصيراً (ورفع وجهه ليبدو شاحباً على نحو خاص) ـ لكنه لم يستطع مقاومة العبث في الوقت نفسه بخاتم ماسي ضخم قدمته له الإمبراطورة النمساوية ماري تيريزا. وفي عام 1787 سيستأجر المهندس المعماري الحديث ليموين Lemoyne ليبني له قصراً يثير الإعجاب يتباهى بمائتي نافذة ويكلف نحو مليون ليفر لكن سيختار له موقعاً في الضاحية الأقل حداثة، سانت أنطوان Saint - Antoine: قلب باريس الحرفية ونقطة ارتكاز النزعة الراديكالية المتطرفة أثناء الثورة.

لفهم الخطاب غير المسبوق في زواج فيغارو ولماذا غدا يُستخدَم عصا للضرب على رأس العناصر الأكثر فظاظة في النظام القديم، يجب أن نرى كيف أن مؤلفها انحاز إلى طرف الإنسان الطيب والمواطن المتضرر. ومثل روسو، كان بومارشيه ابن صانع ساعات بروتستانتي، لكنه بعكس الفيلسوف وسع معرفته في تلك المهنة ليغدو عبقرياً ومخترعاً مدهشاً على طريقته. سرق معلمه مفخرته باختراع ميزان الساعة المزدوج العمل ففضح بومارشيه المختلس وأصبح في وقت قصير جداً مشهوراً وغنياً. قُدِّم للملك لويس الخامس عشر بعمر 22 عاماً، وعُيِّن صانع ساعات للبلاط. وفتح له الارتباط بالممول الثري باريس دوفورني Paris Duverney السبيل إلى النبالة وكما ينبغي اشترى طريقه إلى ذلك عام 1761. وفي سن التاسعة والعشرين، بعدئذٍ، توقف عن أن يكون بيير أوغستين كارون وصار مخولاً باستخدام اسم مزرعته بيومارشه. ومنذ أن حصل على النبالة، والأسلوب الجديد والخدمة المفترضة مسبقاً أصبح أيضاً قاضياً مساعداً في المحكمة التي كانت تنظر في الجرائم ضد قوانين اللعب ـ لاسيما في ترويع المحكمة التي أظهر فيها عدم ضعف خاص لحشود منتهكي ملكية الآخرين المثيرين للشفقة والمهني والهاوي الذي يتمسح على الأرض أمام مقعده.

كانت مسرحية «حلاق اشبيليا» طبعاً هي التي صنعت اسمه كاتباً مسرحياً مع أنه أتبعها بسلسة متوالية من الأعمال الدرامية الضعيفة على الأرجح التي تعرض كل التعبيرات الصحيحة للحساسية المترفعة: الصداقة، الحب الخائب، الذرية الكريمة وما شابه ذلك. وعندما أصبح شخصية شهيرة أصبح أيضاً هدفاً للأزواج الحساد والكتاب الانتهازيين المأجورين. وذوقه الشخصي للمتع من كل الأنواع لم تجلب له إلا المزيد من الهجمات. لكن في ما يتعلق بكل شهرته الرديئة (وهو يستحق بعضها تماماً)، تشارك بومارشيه الفارس مع بومارشيه المواطن. فالفاجر والمتباهي كان أيضاً داعية مغامراً خطيراً للأمريكيين الذين جهزوا أسطولاً خاصاً كاملاً وقوات عسكرية دائمة للمتمردين والذين جيبهم الخاص صنع فارقاً بين تصعيد كلفة المساعدة الفرنسية والنفقات الملكية السرية. وجلب له مشروع آخر أكثر أهمية نسبياً دماراً أكبر. فقد قرر أن يتبنى نشر أعمال فولتير الكاملة ومخطوطاته عندما يئس الناشر الباريسي الكبير وبائع الكتب بانكوك Pankoucke من المشروع. حرر بومارشيه العمل الكبير، وعالج مع الأطراف المتحدية كل الجوانب (بمن فيهم فريدريك الكبير قيصر بروسيا) الذي لم يهتم لنشر مراسلاته، فأنشأ مطبعة في لورين، واشترى نموذجاً في إنكلترا وحاول أن يبدأ حتى بإيجاد ثلاثين ألف مشترك مسبقاً. وعلى نحو متوقع، كان كل ما حصل عليه ألفي مشترك عادي. أخذ يعاني من الدفع وتخريب أصحاب المطابع لمكناته



الصورة 35، للرسام جان مارك ناتيير، صورة بومارشيه

وفرار أمين صندوقه ببعض الفواتير. وإذ انخفض إنتاجه إلى 72 مجلداً بقياس ربعي، أخفق المشروع إخفاقاً مدوياً تجارياً بنسب فلكية. لكنه كان مجداً ثقافياً، وربما الشيء الأجمل الذي فعله بومارشيه يوماً.

كانت تلك مقدرة بومارشيه التي لا شك في أنه تقمص فيها كل الشخصيات التي أعارت زواج فيغارو صوتها العام. حطمت المكانة ومزجت الأنواع. جلبت السخرية اللاذعة من المسرح الشعبي إلى القاعة الجليلة في مسرح كوميدي فرانسيه. وأعطت ممثليه المؤهلين مثل لويس كونتات (سوزان) وداز نيكورت (فيغارو) اللذين كانا قادرين على لعب أدوارهما بتلقائية وجدة شهرة سريعة. بينما كانت هناك دور كوميديا كثيرة في الشوارع تهاجم بعنف طموح قوة السادة، لم يفعل واحد منها ذلك بمثل هذه العربدة اللاذعة. كان ذلك أقرب إلى نوع من «دراما الشعب» التي دعا إليها مرسييه عام 1773 أكثر من أي شيء شوهد في البلد. هؤلاء الذين لم يعرفوا إلا النسخة الأوبرالية التي قدمها موزارت ودابون Dapont يعرفون فيغارو الذي تخلص من كثير من الأذى الظالم. كما علق مؤلف **الرسالة السرية**، فإن أسلاف بومارشيه.

كانت لديهم دائماً النية بصنع الضحك الكبير على حساب الضحك الصغير؛ أما هنا، فقد استطاع المبتذل أن يضحك على حساب العظيم وإذا كان عدد هؤلاء الناس العاديين بهذا الحجم فلا يندهشنَّ أحد للحشود الضخمة من النظارة من كل مسالك الحياة التي استدعاها فيغارو.

لا يمكن أن يكون هناك شك بأن بومارشيه أحبَّ أن تُنتَج المسرحية دون أي تدخلات رسمية. لكن حالما عُرِضت بشكل أخرق أمسك بالفرصة للدعاية لها كمعركة بين الحكم الاستبدادي المتغطرس وحريات المواطنين. وعلى نحو نموذجي: كان قادراً على أن يضعها في هذا المظهر لأن بين المواطنين التواقين لرؤية المسرحية كانت ماري أنطوانيت ومعظم البلاط الملكي. أعطى بومارشيه المخطوطة إلى شامفورت Chamfort صديق تاليران وهو بدوره وضعها في أيدي فودرويل Vaudreuil المفضل لدى الملكة. نُظِّمت قراءة خاصة والشيء الذي لايحتمل شجب النظام القائم، والأفضل أن الملكة أحبتها. كان الملك أقل متعة. في وسط المونولوج الرديء السمعة لفيغارو في الفصل الخامس قام عن كرسيه و، في نوبة من بلاغة وبصيرة، أعلن أنها «مثيرة للقرف. يجب ألا تعرض أبداً، ويجب أن يدمر الباستيل إذا لم يكن لعرض المسرحية عواقب خطيرة».

ومع أن المشروع كان رسمياً ممنوعاً، استخدم بومارشيه كل الوسائل لإبقائه حياً. فأضاف إلى المسرحية على نحوٍ ماكر أغنية شعبية

"Marlbrouck S'en Va - t - en Guerre". "Va - t - en Guerre"

كانت ميالة إلى السخرية قليلاً، وتعني أنها حرب جعجعة (أكثر من أفعال)،

والأغنية كانت قد أُلِّفت في عهد لويس الرابع عشر، عندما تم ترويج شائعة مزيفة أن خصمه، دوق مارلبورو، قُتِل في المعركة، تم إحياؤها في ثمانينيات القرن الثامن عشر وغُنِّيت لتسخر من هوان البريطانيين في أمريكا وفي المحيط الهندي، حيث الأدميرال سفرين Suffren يربك الأسطول الملكي. تبنى بومارشيه الأغنية كأن معركته هي المعادل الدرامي للحملة العسكرية والتلميحات المازحة في الأغنية كما لو أن عدوه يجب أن يركع تحت قدميه سريعاً. في ثقافة الشارع والصالون حيث الإبهام المفهوم كان مفترضاً أنه لغة رسمية، لم يذهب التلميح دون أن يُلاحَظ.

وكالمعتاد، مع أنه، كانت تلك لهفة قسم من النبالة الحديثة أن تذل البلاط الذي حطم سلطة النبلاء. نُسِخت مخطوطات المسرحية وتم تداولها على نحو خاص بين كل البيوت العظيمة من الليبراليين (وليس الليبراليون كثيراً) من النبلاء كان لبعض هؤلاء مسارحهم الخاصة حيث أمر الشرطة لا يمكن تطبيقه. وكان هناك خطر أن تستمر هذه العروض الخاصة، وما كان أكثر إحراجاً، خطر عرض أول رعاه الدوق العظيم باول في سنت بطرسبورغ الذي أثمر اتفاقاً غير رسمي يمكن للمسرحية بواسطته أن تعرض في باريس على ممتلكات الملكة في صالة دي مانو بليزير Salle des Menus Plaisirs، التي كانت مع الأوبرا تستخدمها في «البروفات». وفي 13 حزيران عام 1783 احتشدت جموع غفيرة في الشوارع خارج المسرح تغني بتحدٍ: مارلبروك Marlbrouck. وقبل نصف ساعة من رفع الستارة، أرسل الملك حاجبه مسلحاً برسالة مختومة ليأمر بالتخلي عن العرض. «تحت طائلة سخط جلالته»، ما عنى بشكل واضح فترة في السجن. كان رد بومارشيه يشبه فيغارو في تهديده. «حسن أيها السادة، قد لا يُقدَّم عرض هنا، لا بأس، لكنني أقسم لكم أنها ستُعرَض، وربما في صالة كنيسة نوتردام بالذات».

كان هذه المواجهة بين مواطن والسيادة، في تلك اللحظة، غير حاسمة. وافق بومارشيه على القيام ببعض التنقيحات ـ انتهت جميعها إلى كونها غير ذات صلة بالموضوع ككل ـ ولان الملك، دون أن يخفي توقعه بأن المسرحية ستكون فشلاً ذريعاً. وقد أُحبِط على نحو مرير، ففي 21 نيسان عام 1784، عُرِضت في مسرح فرانسيز الكلاسيكي الجديد (الأوديون الآن). وشهدت البارونة دون ـ كيرتش الحادة الملاحظة الشجار الذي وقع بالأيدي في الخارج بين الحشد الهائل الذي تجمع أمام المسرح في محاولة لانتزاع المقاعد القليلة المتبقية. لم تكن راديكالية، وقد فتنها العرض، وعلى نحو خاص إذا لجأنا إلى عمل النقاد الذين ظنوا أنها نجحت لأنها لعبت على الجمهور بالطريقة الأكثر فجاجة. كتبت في مذكراتها عام 1789 أنها، بالعكس،

ربما زواج فيغارو هو الشيء الأكثر ذكاء الذي كُتب أبداً عدا ربما أعمال السيد فولتير. إنها مدهشة، قطعة حقيقية من الألعاب النارية. قلبت قواعد الفن من طرف إلى آخر وهذا يفسر سبب عدم وجود لحظة ملل واحدة طيلة فترة العرض التي استمرت أربع ساعات.

لكنها امتلكت الفطنة لتلاحظ البلادة عند الأرستقراطيين في الجمهور الذين قهقهوا عندما صبّ فيغارو جام غضبه على الكونت ألمافيفا.

لأنك سيد عظيم تظن نفسك عبقرياً... النبالة والثروة والمكانة والمناصب! كلها تجعلك عالياً جداً وقوياً! ماذا فعلت لتمتلك كثيراً جداً؟ لم تعطِ نفسك مشقة أن تولد وهذا هو الأمر: في ما يخص البقية أنت شخص عادي بينما أنا، اللعنة على ذلك، ضعت في الحشد المجهول، وكان عليّ أن أستخدم كل علومي ومهاراتي لمجرد أن أبقى حياً.

شاركت البارونة أوبركيرتش في عاصفة التصفيق التي حيَّت الخطاب، ولاحظت السادة الكبار في الجمهور يضربون على خدودهم (ils se sont donnés un soufflet sur leur proper Joue) ضحكوا على حسابهم وما هو أكثر سوءاً جعلوا الآخرين يضحكون أيضاً... إنه لعمي غريب!».

ومع ذلك هناك إشارات إلى أن تعبيري «برافو» و«مرة أخرى» احتضرا على شفاه النبلاء عندما بدؤوا يدركون أهمية الهجوم الذي كان موجَّهاً ليس على الملكية أو الوزراء بل عليهم بالذات. وحالما انتقلت فيغارو من المسرح الفرنسي في كانون الثاني عام 1785، بدؤوا ينسقون حملة هجوم مضاد. أولاً، شجب أسقف باريس الوحشية من المنبر، وتبعه الكاتب سورد Suard، متخذاً وضع راهب، بنقد لاسع وساخر. وقد استخدم بومارشيه احتقاراً مدمراً في رده في جريدة جورنال دي باري. فقال بعد التصدي لهجوم «الأسود والنمور» الضاري، إنه لن يحط من قدره بمواصلة الرد على مجموعة قليلة من الطفيليين، لأن ذلك سيضعه في موقع «الخادمات الهولنديات اللواتي عليهن أن يضربن المفارش كل صباح للتخلص من بق الفراش الصغير القذر».

وفي 6 آذار جلبت المادة الصحفية إلى اهتمام الملك و، كما يفترض لا يزال يستشعر الألم من رغباته التي أحبطت، أخذ الإشارة إلى المخلوقات البرية (بدلاً من المؤذية) كهجوم شخصي. كان ذلك كافياً لوضع بومارشيه في السجن. ولويس، الممتلئ غلاً وكبرياء، قرر أن التوبيخ الأكثر تحطيماً يمكن أن يعطيه لساخر سيكون الإذلال الساخر، وفي ذلك المساء، بينما كان على طاولة اللعب، خربش على ظهر ورقة سبعة

البستون أن بومارشيه يجب أن يُسجَن ليس في الباستيل (مكان الحجز المعتاد للكتاب المتمردين) بل في سانت لازار Saint - Lazare، وهو مركز لتأديب الفتيان الجانحين. وفي المدة القصيرة، أخذ هذا الامتهان الطريف الرياح من أشرعة بومارشيه. رفض الخروج من سجنه، عرف أنه غدا مرمى نفايات، ولم يستعد أبداً ثقته المرحة بنفسه التي ساندته خلال عثراته الكثيرة. وفي الأيام الأخيرة أصبح هو نفسه كبش فداء لكل من الراديكاليين والرجعيين على حد سواء.

قد تكون إقامة بومارشيه في سانت لازار قد حولته من هجومي بشكل دائم إلى دفاعي، لكنها لم تفعل الشيء نفسه في فيغارو. فقد استمرت المسرحية الأكثر شعبية على نحو ساحق والنجاح القوي لمسرح باريس «الشرعي». كان لدى بومارشيه أعداء كثر ابتهجوا لتوبيخه واعتقدوا أن تنصيبه لنفسه كبطل للحرية كان تموضعاً نفاقياً، لكن كان لديه أصدقاء كثر في «الحشد المجهول» يصغون بانتباه إلى وصف فيغارو لنفسه أنه «رجل شريف» ملزم بالتذلل والانبطاح عند أقدام الأرستقراطية المزدرية والذي تقرحت موهبته وذكاؤه عند الحواجز التعسفية للمنزلة الاجتماعية. ولأن ذلك إذا كان أسطورة بين النوادي الثورية والحشود كانت هناك فيالق فيغارو متلهفة لتنتقم من الألمافيفات الارستقراطيين، إنها حقيقة واقعية أن كتاب المسرح السابقين وناشري الكراسات والفنانون ومدراء المسرح كانوا الأنصار الأكثر حماسة للمقصلة.

II ـ أدوار الممثلين:

أطفال الطبيعة

قبل سنة من مكوثه التطهيري في سجن سان لازار، كان لدى بومارشيه فكرة ترويجية ملهمة، اقترح إعطاء الأموال من مسرحية زواج فيغارو لقضية ذات جدارة: تشجيع الإرضاع الأمومي. كان يفترض إنشاء مؤسسة رعاية أمومة في باريس تقدم المعونات للأمهات اللواتي بطريقة ما يرسلن أطفالهن إلى مرضعات القرى ليستطعن العمل.

في باريس ظنَّ القائم بمقام رئيس الشرطة، لِنوار Lenoir، أنه ربما واحدة من ثلاثين أماً من العشرين ألف طفل يلدون سنوياً يرضعن أطفالهن. وكانت هؤلاء النسوة غالباً على نحو حصري من العائلات الميسورات اللواتي أيدن دفاع روسو العاطفي عن الإرضاع المنزلي للطفل. والأخريات اللواتي كان باستطاعتهن تحمل النفقات، جلَبن مرضعات إلى

بيوتهن أو أرسلن أطفالهن إلى الضواحي. غير أن الأكثرية الواسعة من الأسر المتواضعة والفقيرة كانت تستخدم مكتباً رسمياً ووكلاء سفر Meneurs لإيجاد مرضعات في قرى الأرياف المحيطة بالعاصمة. وكانت العائلات الأكثر فقراً تتخلى عن أطفالها على درجات الكنيسة لصالح ملاجئ الأيتام Foundling Hospital التي كانت هي أيضاً ترسلهم إلى المرضعات في الأرياف للعناية بهم. وكانت مرضعة القرية سبباً حاسماً في موت واحد من كل طفلين يرسلان بهذه الطريقة: الفقر المديني متضافراً مع العوز الريفي. كانت النساء المحبطات من العون الضئيل الذي يتلقينه مقابل الرضاعة، يضللن الوكلاء أحياناً حول قدرتهن على الإرضاع ويطعمن الطفل حليب الحيوانات أو مرقة اللحم المسلوق - bouillie pap المصنوع من الماء والخبز المغلي (وغالباً المتعفن). وستكون أفواه الأطفال متخمة بالخرق النتنة أحياناً. وكان الأطفال الذين يجلسون في قذارة الحيوان والإنسان يعلقون على كلاليب في أطواق قماطات لا تغير أو يعلقون من الروافد الخشبية في أرجوحة مرتجلة. وكانت حمّات الديزنتاريا تخرجهم من بؤسهم بعشرات الآلاف، وغالباً ما كان الوكلاء المسؤولون عن إبلاغ الآباء (أو ملجأ الأيتام) عن تقدم الطفل يخفون موته ويضعون المال في جيوبهم.



الصورة 36، فيغارو محسناً للأمهات المرضعات، 1785

وقد حرك بومارشيه، الذي تأثر بتقارير صناعة الموت الصغيرة هذه، فيغارو ليأتي إلى نجدة المرأة المرضعة. لوحة محفورة محلية تعرض مشروعه. تظهر فيغارو يوزع الصدقات إلى الأمهات المرضعات الممنوحات بسخاء. وأخريات خلفه يحيين محررهن من «سجن المرضعات». ويعرض فيلسوف هذا المشهد السعيد «للمساعدة الاجتماعية» وفوقهم «الإنسانية» تقدم لوحة منقوشة بالعبارة التالية: «قدموا العون للأمهات المرضعات».

أغاظ نجاح بومارشيه في المسرح أعداءه في باريس ما يكفي. لم يكونوا مستعدين بالتأكيد لرؤية هالته تضيء حتى بشكل أكثر سطوعاً من خلال العمل الخيري. غير أن أسقف ليون سمع بالفكرة ورحب بـ 85,000 ليفر منحة أنشأت مؤسسة في تلك المدينة. وتبعاً لما قاله معظم الناس، كان ذلك نجاحاً، فقد أجمعت التقارير على تراجع معدلات وفيات الأطفال. كان ذكاء من بومارشيه، الذي دافع باستمرار ضد اتهامه بالخلاعة والفسق، أن يربط نفسه بمثل هذا العمل الخيري السامي المبادئ. وضد النقاد الذين نبذوا مسرحيته باعتبارها شيئاً تافهاً هزلياً، مليئة بالنكات لكنها خالية من الجوهر، سلطت الخطة الضوء على موضوعاتها الأخلاقية الأساسية: الدفاع عن البراءة الزوجية ضد الشهوانية والقوة الأرستقراطية. ففيغارو هو نفسه لقيط يكتشف أن أمه واحدة من الوسائل التي أحبطتها استراتيجيات ألمافيفا. وكما في كل «المسرحيات البروجوازية» في خمسينيات القرن الثامن عشر، فإن انتصار الفضيلة على الرذيلة (كما الذكاء على المنزلة الاجتماعية) هو حل العقدة الحاسم في **زواج فيغارو**.

وعلاوة على ذلك، لم تكن تغذية الثدي مجرد اهتمام بالصحة العامة، صحيح أن أنصارها غالباً ما كانوا يؤكدون على أن تقليصها لوفيات الأطفال سيمكّن فرنسا من النجاة من تهديد تراجع عدد السكان (الدائم في الذهن الرسمي). لكن هذا التعارض البلاغي بين الحيوية ومعدلات الموت، ممارسة طبيعية واجتماعية، تستمد إقناعها من السياسة الأخلاقية للثديين، فالمقاومة لتغذية الثدي، كما تمت محاولة تسويقها، نهضت من هيمنة الانغماس الذاتي الحسي على الواجب المنزلي. فقد افترض أن ذلك الموقع والفعالية الجنسية مثار خوف على نحوٍ متبادل من تلويث الحليب أو إثارة قرف الرجال. وهكذا فالكتاب الذكور بمن فيهم روسو وصديقه الدكتور ترونشين Dr. Tronchin غالباً ما عزيا التناقص في رضاعة الأم إلى الشهوانية الأنثوية أو القلق من الأزواج الآثمين. ومع ذلك وجهت ماري أنجيليك لو ريبورس Marie - Angélique Le Rebours، التي نشرت عام

1767 **نصيحتها للأمهات اللواتي يرغبن بإرضاع أطفالهن** ، اللوم بطريقة منطقية إلى الامتعاض الذكوري من انقطاع عاداتهم الجنسية وانتقدت الرجال الذين أصبحوا على نحو عنيف حساداً أو ساخطين ضد وجود الأطفال الباكين. وكان في الرهان فكرة الثدي المتنازع عليها إما أنه مغرٍ حسي، نصفه معروض في تقويرة الصدر الدارجة، أو أنه هبة طبيعية مقدم في وفرة نزيهة من الأم للطفل، وفي مسرحية مكتوبة للإعلان عن فضائل رضاعة الثدي، بعنوان، **الأم الحقيقية** (لسبعة أشهر) توبخ زوجها بشكل لاذع لمعاملتها كشيء للإشباع الجنسي. «هل أحاسيسك غريزية إلى درجة تنظر إلى هذين الثديين ـ كنزي الطبيعة الجديرين بالاحترام ـ أنهما مجرد زخرف، مُقدَّر لهما أن يزينا صدور النساء؟»

وقد أمكن للإثارة الجنسية والأمومة، أحياناً، أن تصبحا مرتبطتين في طرق غير معتادة، على الأقل في تجربة روسو، الذي كان أكثر نفوذاً من أي أحد آخر في الحملة من أجل الرضاعة البيتية. في **الاعترافات** ، اعترف (بين أشياء أخرى) بالاستثارة بحلمة ثدي منتفخ مضغوط تحت الموسلين في تقويرة في الصدر. وبالمثل كان اكتشاف حلمة مقلوبة على ثدي عاهرة من البندقية التي لأجله حولت الفتاة من مخلوق جميل متسامٍ إلى مسخ بغيض ومثير للشهوة الجنسية. كانت العلاقة التي شكلت حياته كلها هي مع حاميته، السيدة وارن Mme de Warens (التي لا تكبره إلا باثني عشر عاماً)، والتي، بعد أن يصبحا حبيبين، استمر يناديها «ماما». وبالمثل، كان جان بابتست غروز Jean - Baptiste Greuze، الرسام الذي جعل الأناشيد الرعوية والأعمال الدرامية للحياة البيتية مسألة اهتمام عام أكثر من أي فنان آخر، والذي كان يتلقى الشكر المتكرر من دنيس ديدرو Denis Diderot لأخلاقية موضوعاته، كان قادراً تماماً على التلاعب المخادع في الشهوانية والبراءة، كما في عمله **القبعة البيضاء** عام 1780 أكثر مما توحي الصورة بدقة.

كانت المسائل أكثر من بسيطة لمعظم الذين قرأوا روسو وأصغوا إلى عمل ديدرو «الدراما البرجوازية» في مسرح كوميدي فرانسيز وشاهدوا لوحات غروز عن السعادة والأسى البيتي في الصالون. فما كان يُعلَن هو تناقض ثقافة البلاط الركوكية (المفرطة في الزخرفة) مع انغماسها في الزخرفة المتلاف وإصرارها على الذكاء والطريقة والكياسة والأسلوب. وفي وضع هذه التأثيرات الشكلية اللا أخلاقية، كان الاحترام يجب أن يُنقَل إلى عالم الفضيلة. ففي هذا العالم الجديد كان يجب تفضيل القلب على العقل، والعاطفة على المنطق والطبيعة على الثقافة والتلقائية على الحساب والبساطة على الزخرفة والبراءة على التجربة والروح على الفكر، والبيتي على الزي الدارج، وشكسبير وريتشاردسون على

موليير وكورناي، والمشهد الإنكليزي للحديقة على الحدائق العامة الرسمية الفرنسية والإيطالية. وقد ولّد ذلك مفردات أدبية جديدة، مشربة بإيماءات عاطفية لم تعلِ شأن الصوت الذكي المشرق في الفطنة الركوكية وحسب، بل حتى الصفات الصوتية المبجلة في الكلاسيكية أيضاً. فاستخدام الكلمات المسرف مثل الرقة والروح يمنح عضوية مباشرة في جماعة **الإحساس**، والكلمات التي كانت تُستخدَم بطريقة عرضية مثل الصداقة استثمرت بمشاعر المودة القوية. وأفعال مثل يسكر عندما تترافق مع كلمات مثل فرح وعاطفة تصبح صفات شخصية نبيلة أكثر منها فاسدة. كانت الكلمة الأساسية الإحساس: القدرة الحدسية للشعور القوي. فأن تمتلك قلباً حنوناً كان شرطاً مسبقاً للفضيلة.



الصورة 37. للرسامة أديلايد لابيل ـ جيارد، لوحة السيد ميتوار وطفليها: اللوحة الفرنسية الحديثة الأولى للرضاعة، عُرضت في الصالون عام 1783



الصورة 38، للرسام جان بابتست غروز، القبعة البيضاء



الصورة 39، شعور الفضيلة من تقويرة الصدر، لوحة مورو لو جون *Moreau le Jeune* لعمل روسو هليوز الجديدة *La Nouvelle Héloïse*

بدأت التعبيرات الخارجية للمشاعر الداخلية، في هذه الفترة، تغدو مقبولة وقلادات الحجر الكريم المنقوشة التي تحمل صورة المحبوب أو العلبيات المتدلية من قلادة أو سلسلة التي تحتوي على خصلات شعر من الأزواج أو الأطفال صارت شارات مألوفة للقلب الحنون. وعندما تكون خصلات الشعر لمحبوب رحل من هذا العالم، تغدو الأهمية أكثر إثارة للمشاعر، وبحلول ثمانينيات القرن الثامن عشر، حلت التعبيرات عن الحزن غير المكبوتة قدراً اجتماعياً مثل الرد المتوقع على وفاة طفل. استعارت رسائل الحب الغلو في الوجد من عمل روسو **هيلوزا الجديدة** ثم تراكمت التعبيرات عن العاطفة على قمة كل ذلك. وفي مثال ليس غير نموذجي من رسائل حبها الـ 180، قالت جولي دي لسبيناس Julie de Lespinasse، بطلة **هيلوزا الجديدة**، وهي تلهث: «صديقي، Mon ami، أحبك كما يجب على المرء أن يحب، ما يفوق، الجنون والنشوة واليأس».

وفي هذا العالم من الحكي والتعبير الذي يعاد صنعه، كانت الدموع تُثمّن ليس كدليل على الضعف بل السمو. كانت تُعزّ بدقة لأنها (كانت مفترضة) لا يمكن توقيفها: الروح تروي ملامح الوجه مباشرة. كانت الدموع عدوة مواد التجميل ومخربة مظهر التهذيب الكاذب. والأكثر أهمية، كانت نوبة البكاء الكافية تشير إلى أن الطفل محفوظ بطريقة إعجازية داخل الرجل أو المرأة. وهكذا فأبطال وبطلات أعمال روسو، بدءا بنفسه، ينشجون ويبكون وينتحبون لأقل إثارة، ولكن هكذا فعل مراجعو الأوبرا عند سماع غلُك Gluck ونقاد الصالون عند رؤية غروز. عند رؤية النسخة الثانية لعمل الرسام فتاة تبكي على عصفورها (الكناري) الميت في الصالون عام 1765، خمّن شارل ماثون دي لاكور Charles Mathon de La Cour عمر الفتاة (نحو 11 عاماً) تماماً على المسرح حيث «تبدأ الطبيعة بتلطيف القلب ليستقبل الانطباعات الأكثر عذوبة»، مع نتيجة أن دموعها كانت طفولية وغير بالغة. ثم تابع ليعاين بتفاصيل دقيقة مثل الرسام معالجة هذا الحزن الندي:

> *يرى المرء أنها تبكي لوقت طويل ثم تستسلم في النهاية لإجهاد حزن عميق. أهدابها ندية، جفونها حمراء، ثغرها لا يزال في الانقباض الذي يجلب الدموع، وإذ يتطلع المرء إلى صدرها يمكنه الشعور برعدة نشيجها أيضاً.*

وزعم أن «النقاد المتخصصين والنساء والمتغندرين والمعلمين والظرفاء والجهلة والحمقى»، هم جميعاً برأي واحد حول هذه اللوحة، لأن المرء يرى فيها الطبيعة،



الصورة 40، للرسام جان بابتست غروز، فتاة تبكي على كناريها الميت



الصورة 41، «دموع غالية ونفيسة» تبكي كتعبير عن إخلاص، لوحة
للفنان باربييه الأكبر *Barbier the Elder* من طبعة عام 1783 لـ هيلوز الجديدة

ويشارك حزن الفتاة ويرغب فوق كل شيء بأن يعزيها. لقد قضيت مرات عديدة ساعات كاملة أتأملها بانتباه إلى أن غدوت سكران بحلاوة حزنها ورقته».

كانت تلك قدرته على إشراك المشاهد بشكل مباشر في عالم العواطف المعروضة (بينما في الوقت نفسه، كما حاول مايكل فرايد أن يثبت، يقدم العمل التخيلي لنسيانهم إلى المشاهد) الذي يفسر قوة الإقناع في أعمال غروزِ الفنية المحلية. «أثرني، أدهشني، دعني أنفعل، اجعلني أهتز، أبكي، أرتعد وأغضب»، أمر ديدرو، وليس ثمة شك، في أية حال، بأنه في أكثر لوحاته طموحاً ـ على سبيل المثال، عرس القرية عام 1761 ـ فعل غروزِ ذلك تماماً لعدد كبير من المشاهدين. يُبلِّغ معاصرون كثر عن أن تدفق الشعور الذي اخترق الحشود التي تجمعت حول الأعمال بكثافة إلى درجة، كما يقول ديدرو، على المرء أن يكافح بشدة ليجد طريقاً إلى رؤيتها. وعقب ماثون دي لاكور على لوحتي الابن الشرير، و عقاب الابن الشرير، اللتين مثلتا شاباً يهجر أسرته لينضم إلى الجيش ثم يتأخر في العودة فيجد أن أباه قد توفي، أنه لا يعلم ما إذا كان يستطيع إسداء النصح لغروزِ أن يكملهما كلوحتين، بما أن المرء يقاسي كثيراً ليراهما [في الواقع]. إنهما تسممان الروح بعاطفة رهيبة وعميقة تجعل المرء يشيح بناظريه» .

يكتسب التغيير الثقافي القاسي الذي مثله هذا الهيجان الحار في الإحساس الرومانسي أهمية أكثر من أدبية. فقد عنى خلق طريقة محكية ومكتوبة ستصبح الصوت العام للثورة، مشتركة بين ضحاياها وأكثر منفذيها ضراوة. إن خطابات ميرابو وروبسبيير بالإضافة إلى رسائل ديمولا والسيدة رولاند والاحتفالات المنسقة لجمهورية تبث مناشدات إلى الروح والإنسانية المحبة والحقيقة والفضيلة والطبيعة وطمأنينة حياة العائلة. وشكلت الفضائل التي تدعو لها لوحات غروزِ الأساس الأخلاقي لما كان على الثورة أن تفهم أنه فضيلة. كتب ميرسييه عام 1787: «إنها الفضيلة التي تكتشف بسرعة الغريزة ما الذي يفضي إلى تحقيق النفع العام. يستطيع العقل بلغته الماكرة رسم المشروع الأكثر ريبة بألوان آسرة غير أن القلب الفاضل لن ينسى أبداً مصالح المواطن الأكثر تواضعاً. دعونا نقدم رجال السلطة الفضلاء على السياسيين الأذكياء». كانت هذه بالضبط وجهة نظر روبسبير، الذي لم تعن له السياسة، كما قيل مراراً، أكثر من فضيلة اجتماعية. فالأمومة، والرضا الزوجي الذي تتبدد فيه الشهوة العرضية من خلال إفراز الحليب الذي يمليه الضمير، واحترام الكبير، والعطف على الصغير: لقد تمَّ اعتناق كل هذه القيم لتكون مدرسة للمواطنة. وفي هذا المخطط للقيم يمكن ألا يوجد تمييز بين العالمين الخاص



الصورة 42، لجان بابتست غروزيه، لوحة عقاب الابن الضال



الصورة 43، لجان بابتست غروزيه، لوحة الأم المحبوبة

والعام. في الحقيقة، كانت النزعة البيتية المرحب بها تعتبر رسمياً صفة ضرورية للوطنية. وقد تكون لوحة الأم المحبوبة تمجيدها الفني، التي طلبها جابي الضرائب والكاتب الغزير الإنتاج لابورد Laborde لتمثله وعائلته في حال سعادة بيتية نموذجية. وعندما عرضت في الصالون أطراها ديدرو باعتبارها «ممتازة من ناحيتين: كعمل فني وكنموذج للحياة الصالحة. إنها تبشر السكان وترسم بشعور عظيم السعادة والقيمة التي لا تثمن للهناء البيتي».

ترعرع جيل الثورة منسجماً مع هذه الطريقة المنمقة في التعبير. تعثر غروزِ بشدة عام 1769 عندما حاول أن يحول مواجهته الأب ـ الابن إلى جنس رسم تاريخي في لوحته سفيروس وكاراكالا، التي يتهم فيها الإمبراطور الروماني ابنه بمؤامرة. وبدلاً من ترقية غروزِ إلى مرتبة عليا في الأكاديمية سببت احتقاراً عاماً ساحقاً لاعتراف «في قدرته كرسام لمشاهد الحياة الاجتماعية». ولكن على الرغم من أن شهرته تضاءلت بعض الشيء في سبعينيات القرن الثامن عشر قبل الطريقة الأحدث والأكثر صرامة في رسم التاريخ الروماني، احتفظت الدراما البيتية في خمسينيات وستينيات القرن الثامن عشر بقبضتها على الخيال الاجتماعي بل وسَّعت نفوذها من خلال النسخ المعدلة للرسام جان جورج ويلي وآخرين.

ومع أن لوحات غروزِ، مثل مسرحيات ديدرو وروايات روسو، تصنف أحياناً أنها «بورجوازية»، فإنه لأمر حاسم أن نقدر أن أنصارهم بدأوا بقمة المجتمع الفرنسي. وإذا كان النظام القديم قد فسد ولاؤه من خلال عبادة الإحساس، فكثير من الخراب (كما في جوانب أخرى كثيرة) كان من عمل يده بالذات. فلوحة عقد الزواج، التي مثلت عملياً مراسم بروتستانتية مع كاتب العدل يقف باعتباره كاهناً والذي رمز إلى اعتباره نقيض الزيجات الملكية الفخمة في فرساي، اشتراها وزير لويس الخامس عشر للفنون، الماركيز دي ماريني Marquis de Marigny. كانت أخته خليلة الملك السيدة دي بومبادور وكانت هي التي نظمت العرض الأول لأوبرا روسو **عراف القرية** في فونتنبلو Fontainebleau عام 1751. لقد اهتم ملحنها بأن يرتدي بشكل عفوي للمناسبة «بلحية غير مسرحة كما يجب وشعراً مستعاراً كيفما اتفق». وفي بساطة محيطها الريفي، والقصة والموسيقى مثلت الأوبرا انتصار الطبيعة البريئة براءة الأطفال على منتجات ثقافة المدينة والبلاط. وقد أطرتها جريدة مركور دي فرانس Mercure de France بدقة لـ«الحقيقة وبساطة التعبير النادرة في الموسيقا».

ومع ارتقاء لويس السادس عشر العرش، لم يرحل هذا الافتتان. في الحقيقة والد

الملك، ولي العرش، كما قيل كان متأثراً جداً بتمجيد روسو للفنون الجميلة البسيطة إلى درجة أنه هو الذي وفر تعليم صنع الأقفال لابنه. ولم تفش ماري أنطوانيت، بتوجيه صانعة ثيابها روز برتن Rose Bertin، سراً أنها تفضل الأزياء البسيطة نسبياً المنثورة بالورود الناضرة ومحبة الريف التي كانت تتطلبها تلك العقيدة. والتزمت صديقتها إليزابيث فيجي ليبرن Elizabeth Vigée - Lebrum برسم صورتها بهذه الطريقة غير الرسمية المروعة، التي تكتمل بسلال وقبعات من القش. وخلق «القرية البسيطة» للملكة في التريانون الصغير petit Trianon الذي قام به المهندس المعماري ميكي مصمم المشهد الطبيعي الذي يكتمل بالبقرات المزينة بالأشرطة والخراف الألبية وطاحونة الماء، وكان صادقاً ولو أسيء الحكم على محاولة تشجيع براءة الحياة الريفية بين أبهة نظام تشريفات البلاط. وفي عام 1789، سيبدو لماري أنطوانيت عزف لحن رعوي وسلق بيض طازج لفطورها بينما الفلاحون المهزولون يشحذون على طرقات (إل ـ دي ـ فرانس) فرنسا، محاكاة فاحشة.



الصورة 44، لجان بابتست غروزيه، عقد الزواج

ولا يزال الأكثر إثارة للدهشة هي أن ماري أنطوانيت زارت عام 1782، ضريح روسو في إرمنفيل Ermenonville، التي تبعد 25 ميلاً خارج باريس. لأنه إذا كان

الإحساس ديناً غير رسمي للمواطنين الناشئين، فإرمينفيل هي معبده الأكثر تقديساً. هناك قدم الماركيز دي جيراردين، الثري والضابط في سلاح الفرسان وعضو جمعية جباة الضريبة غير المباشرة، ملاذاً أخيراً حيث استطاع روسو أن يعمل ويمشي قرب المعتزل القريب الذي نصح به لنفسه والآخرين. ومثل طفل حتى النهاية، ألح روسو على تبني جيراردين وزوجته بوصفهما أباه وأمه الأحدث والأخيرة. مات روسو في مطلع تموز عام 1778، ولم يكد جسده يبرد حتى أخذوا في العاصمة يتداولون القصص التي ترجم في كلماته الوداعية لزوجته تيريز Thérése: تعبيرات ندم لتخليه عن أطفالهما الخمسة لملجأ الأيتام، وأمكنة وجود الـ «مذكرات» أو«الاعترافات» التي قيل إنها غير مسبوقة في صراحتها وعدم تحيّزها والتي كان أشخاص مشهورون معنيون مثل ديدرو ومدام ديبيني d'Epinay يرغبون بأن تبقى طي الكتمان. وقبل مضي وقت طويل، بدأ المتفرجون الفضوليون يصلون إلى مزرعة جيراردين، بدءاً بمحرري جريدة جورنال دي باري، الذين عرفوا روسو جيداً والذين كانوا متلهفين إلى أن يضعوا أيديهم على أية نتف أدبية متبقية. وبحلول أواسط 1779، كان روسو، الذي اجتنبه كثيرون خلال حياته، قد استحوذ على هالة الشهرة الدائمة. فأقيم له نصب في جنيف، وتمثال نصفي في باريس شكّله هودن على غرار إحدى صوره، وتضمن سجل وفيات للفرنسيين الممجدين تضمن صورته ونعيه إلى

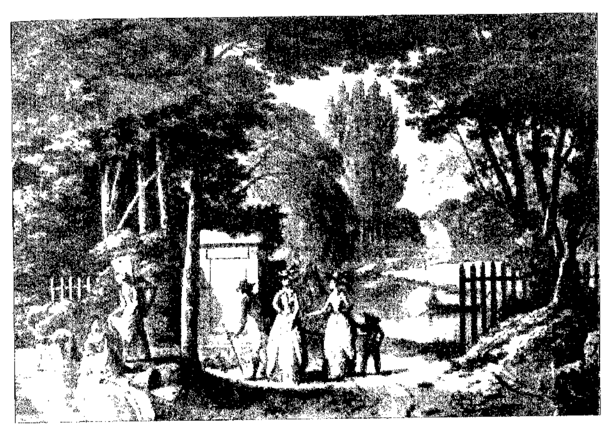


الصورة 45، الفضيلة النباتية كدرس نموذجي لوحة للفنان مورولوجون الشخصية إميل التي أبدعها روسو

جانب فولتير وتورين والملك هنري الرابع، وإحياء لعراف القرية كانت تقدم لجماهير غفيرة في باريس. وفي عام 1781، طبعت مجموعة من ألحان روسو بعنوان **تعازي لأحزان حياتي** ووُهِبت الأموال باسم أرملته إلى دار الأيتام. وكان بين المشاركين الملكة وبنجامين فرانكلين.

ومبكراً في عام 1780، كما زعم مؤلف أسرار المذكرات، «جاءت نصف فرنسا إلى إرمينوفيل لتزور الجزيرة الصغيرة الموقوفة له، حيث يجدد أصدقاء أخلاقه وتعاليمه كل عام رحلتهم الفلسفية القصيرة». وقد ضمَّن لوك فنسنت تيري إرمينوفيل في دليله المخصص لزيارة البلد حول باريس. غير أن الماركيز دي جيراردين، مالك المزرعة، هو الذي بعمق تفكير وفر دليل سير كامل للقادمين. كان متنزهه رحلة ذهنية ومشهداً طبيعياً طبوغرافياً لإحساس روسو. وقد جعل جيراردين الأمر واضحاً أن حديقته ليست مزرعة لسيد إقطاعي بل نوعاً من هدية مجانية لكل محبي روسو. وأكد «لا حاجة إلى إذن من السيد لدخول هذه الحديقة»، وسيكون سعيداً بتقديم الدليل الشخصي لأي من «المشاهير الأجانب أو الفنانين».

«لكم، يا أصدقاء روسو أقدم نفسي»، كتب جيراردين بتعبير مناسب للإخلاص، وقد كُتِب دليله، كما لو أن يداً صديقة تقود المريد خلال مشهد الفضيلة. كانت تفترض ليس مجرد معرفة حميمة بأعمال روسو وحياته وحسب («هنا يمكنك أن ترى قمرته»، هناك حيث سانت برو Saint Preux جلس يتأمل بهدوء شعوره المحبط) بل ذوقاً مشتركاً في الطبيعية. تبدأ الرحلة التي تستغرق ثلاث إلى أربع ساعات بقرية صغيرة، التي تبعاً لِـ تيري «تبدو مسكونة بمحبين مخلصين»، وتتقدم إلى «غابة حيث الصمت المطبق والعزلة تستولي على المرء أينما تقدم مرتاعاً إلى أعماق الغابة». وإذ تندهش بظهور مفاجئ لمعبد صغير مكرس للطبيعة، معبد يشرف على سهل حيث ينتصب تمثال آخر للفلسفة، ومن ذلك المكان إلى «برية» مزروعة بأشجار الصنوبر والأرز والعرعر، ومع صخور منحدرة تبرز وشلالات صغيرة، ومن هناك يمكن للمرء أن يمشي إلى بحيرة توجد إلى جوارها صخرة منقوشة بأشعار بترارك وجولي في كتاب هيلوز الجديدة. وبعد ذلك قد يأتي اقتراح ما بحضور رجل، لكن باستقامته المهنية القصوى: طاحونة الماء ومعصرة الخمر - برج قوطي قبل أن يندثر، جداول مليئة بالسمك الكبير، وسهل «هولندي» مخصص لتربية قطيع مكتنز قريب من مكان يملؤه جيراردين في أيام خاصة بالريفيين الذين دربوا ليقدموا مشهداً بهيجاً يطلقون أنفسهم للمرح في لهو بريء ومنافسات موسيقية.



الصورة 46، مدخل الحديقة، لوحة لرسام مجهول في منتزه جيراردين

والشيء المقدس للحج هو بالطبع ضريح روسو، الذي أقيم على جزيرة من أشجار الحور في وسط البحيرة. هناك على مقعد واضح أنه مقدم للأمهات ليرضعن أطفالهن بينما أطفال آخرون يلعبون راضين، يمكنهم أن يتأملوا النصب الأكثر تواضعاً الذي أقامه جيراردين، ونقشه بهذه الكلمات:

بين هذه الحورات، وتحت ظلها المسالم

يرقد جان جاك روسو.

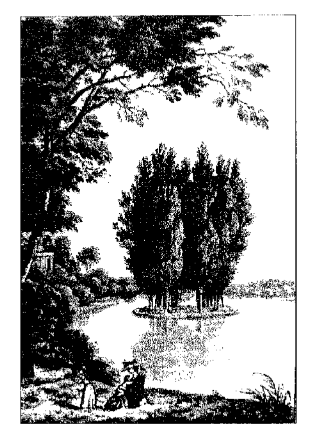
أيتها الأمهات والرجال الطاعنون في السن والأطفال الصغار،

أيتها القلوب الصادقة والأرواح الحنونة،

صديقكم يرقد في هذا القبر.

عند هذه النقطة، يكون البكاء إلزامياً. «دعوا دموعكم تفيض بحرية»، كتب جيراردين، كما لو أن ذراع المؤلف حول كتف الحاج. «فلن تسفح أبداً مثل هذه العبرات الشهية أو الجديرة بأن تبكيها».

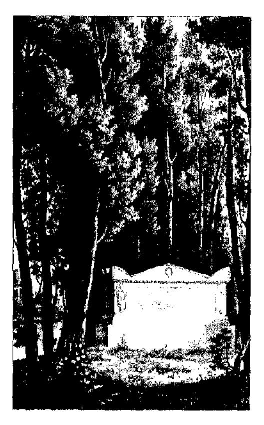
وذهب بعض المريدين الأكثر حماسة حتى أبعد في البحث عن شبح العبقري



الصورة 47، جزيرة الحور، لوحة لرسام مجهول في منتزه جيراردين

المعتزل. فقد رحل لويس سيباستيان مرسييه عبر سويسرا مع صديقه الجنيفي إيتيان كلافييه Etienne Clavière ليزوروا أمكنة وأناساً مهمين في حياة روسو. ومانون فيليبون Manon Philipon، كفتاة، تمثلت على نحو عاطفي بجولي، أخذت زوجها، الوزير الجيروندي رولاند في المستقبل، بجولة مماثلة ورتبت للبحث عن رئيس البلدية الذي شهد زواج روسو من تيريز. وغير مقتنعة بهاجسها الخاص الشخصي، مثلت زوجها بدور ولمار Wolmar، الأكبر سناً، الصارم نوعاً ما لكن الشخصية المخلصة الذي تتزوجه جولي بفعل الواجب مفضلة إياه على المعلم الشاب المخبول سان برو Saint Preux. وقد جعلت هذه المماثلة واضحة تماماً في رسالتها إلى رولاند: «القد دمرت للتو جولي كما لو أن الأمر ليس المرة الرابعة أو الخامسة... يبدو لي أننا سنعيش جيداً مع كل هؤلاء الأشخاص وأنهم سيجدوننا نروق لهم مثلما يروقون لنا».

وقد عزز نشر **الاعترافات** عام 1782، مع وعدها التقديمي أنها «ستعرض صورة صادقة في كل النواحي للطبيعة»، الرابطة الشخصية التي شعر بها مريدو روسو الذين لا يمكن إحصاؤهم، به. ففي حياته، كما أظهر روبرت دارنتون، كتبوا إلى ناشره مارك



الصورة 48، ضريح روسو في إمينوفيل لوحة منقوشة لرسام مجهول في منتزه جيراردين

ميشيل ري Marc - Michel Rey في أمستردام يستفسرون عن رفاهه الشخصي وصحته كما لو أنه صديق حميم. لا شيء في الاعترافات ـ ليس الاعتراف الصريح بتخليه عن أطفاله وإدمانه على العادة السرية والمازوكية وعلاقته الجنسية الثلاثية مع السيدة دي وارن Mme de Warens والعامل في حديقتها ـ لا شيء هزّ إيمانهم في نقائه الأخلاقي الأساسي. فالصراحة المثيرة في اعترافاته بالإثم بالإضافة إلى الفضيلة قوّت وجهة نظرهم أنه كان الإنسان الأكثر استقامة في عصرهم. واقتناع روسو المتشكك أنه مضطهد من الفلاسفة الحسودين مثل صديقه السابق ديدرو وفولتير وملشوار غريم Melchior Grimm غذّى الغربة التي شعر بها كتاب كثر اعتقدوا أنهم لم يتلقوا التقدير من المؤسسة الأدبية في باريس. هم أيضاً عزوا هذا النقص بالاعتراف إلى مؤامرة العاديين من الكتاب. وشاركوا أيضاً ازدواجية روسو كثيراً حول ضرورة الاعتماد على الرعاة الأرستقراطيين وازدرائه للزي الفاسد وحكم العقل الرديء الطبع.

وغدا روسو، بعدئذ، لاهوت الطبقة الأدبية الدنيا (وضعت الفواصل هكذا). صار في الحال عزاء المنبوذين والمساءة معاملتهم والمتسكعين ونبيهم. واتخذوا التزامه بالطبيعة والفضيلة والحقيقة إنجيلاً لهم.

لقد اهتم المؤرخون طويلاً بالحكم على تأثير روسو على جيل الثورة بقياسهم ألفة أو عدم ألفة الجيل مع الأعمال الرسمية في النظرية السياسية، لاسيما العقد الاجتماعي. بينما هناك دليل يكبر باستمرار على أن هذا العمل في الواقع قرِئ وفُهم قبل الثورة. صحيح ولا ريب أنه لم يصل قط إلى مجموعة قرائه الكبيرة التي هامت بسيرته التربوية إميل و هيلوزا الجديدة. لكن أن نفترض تأثيراً ضئيلاً لهذه الأعمال على الولاء السياسي يعني أن نتبنى تعريفاً ضيقاً جداً لكلمة سياسي. فبقدر ما تعالج كتابات روسو السيادة وحقوق الإنسان، تعالج أيضاً الفضيلة الشخصية وعلم أخلاق العلاقات الاجتماعية التي تشحذ النفور من الوضع السائد وتعرف ولاء جديداً. لقد خلق، في الواقع، جماعة من المؤمنين الشباب. كان إيمانهم في إمكانية ولادة جديدة جماعية أخلاقية وسياسية التي يمكن أن تستعاد فيها براءة الأطفال إلى سن البلوغ ومن خلال ذلك تستمر الفضيلة والحرية متعاونتين.

غير أن السبيل إلى تحقيق ذلك ظل غامضاً على نحو غريب في كل كتابات روسو. ففي حياته أظهر نفسه حذراً من، إذا لم يكن بصراحة معادياً لـ، أية إشارة للتمرد. وما أبدعه ليس خريطة طريق إلى الثورة، بل لغة يُسمَع سخطها صوت الثورة وتتضح أهدافها. ومعظم ما قدمه طريقة فيها تعذيب الأنا ـ الذي كان تسلية شعبية سائدة في أواخر القرن الثامن عشر ـ يمكن أن يلطف بالمشاركة في مجتمع من الأصدقاء. وفي مكان لا تقبل المعارضة فيه المصالحة بين الفرد مع سلامة حريته وحكومة متلهفة إلى اختصارها، استبدل روسو السيادة التي لم تكن فيها الحرية مغربة لكن، كما كانت، موضوعة في الثقة. كان استسلام الحقوق الفردية للإرادة العامة هو نفسه مشروطاً بتلك الكينونة التي تحفظها، وبالتالي يمكن للمواطن حقاً أن يزعم (هكذا ذهبت النظرية) أنه لأول مرة يحكم نفسه.

والطبيعة المتناقضة المستحيلة في هذه الصفقة كان يجب أن تكشف كل ما هو وحشي خلال الثورة نفسها. لكن في ما يتعلق بأتباع روسو في ثمانينيات القرن الثامن عشر، فتحت الرؤى مجتمعات ممكنة قد تكون قادرة على دمج المستبد «أنا» ضمن الرفاقية «نحن». وتلك، على الأقل، كانت الرؤية المطمئنة التي قدمها عرض من فصلين بعنوان الاجتماع على حقول الإليزيه، التي مثلت استقبال روسو بين الخالدين. في الحضور كانت، طبعاً جولي مع حبيبها الحزين سانت برو يحمل باقة ورد، إميل يهاجمه في أعماق الغابة وحش التعصب وتنقذه الحقيقة؛ ومشهد حيث توجد أم مرضع، وطفل يرضع، ومرضعة تمجد فضائل ثدي الأم. ومع ذلك بقيت إحدى مزايا العرض متناقضة.

حيث يظل روسو صامتاً طيلة العمل كله بطريقة غير عادية ومفصولاً عن مخلوقاته بالذات. فعندما تعلن عواطفه عن نفسها عبر قوة الفصاحة الشعبية تغدو خطاب الثورة ليس إلا.

III - تخطيط الصوت:
صدى العصور القديمة

في عصر أحد أيام آب عام 1785، رأى مراسل لِـ جورنال دي باري شاباً في أواسط عشرينياته يخاطب حشداً على منصة مقابل الشاتليه. وكان ذلك الشاب هو هيرول دي سيشل Hérault de Séchelles يمارس لأول مرة حقه في الكلام بتلك الطريقة بوصفه محامياً عاماً معيناً حديثاً في المحكمة. كان موضوعاً مدروساً لعصر إحساس القلب. رجل عصامي جاء من عائلة فقيرة، ويبدو أنه، رغب في التعبير عن امتنانه لحظه الجيد وجمعه ثروة بتقديم هبة لفقراء دير سان سلبيس Saint Sulpice. وبشكل مهمل، خرج عن الأشكال الرسمية المتبعة في تقديم مثل هذه الهبات والمحكمة في الشاتليه بالنتيجة أعلنت أنها غير مقبولة. أخذ هيرول على عاتقه مهمة الضغط على مزاعم المحسن وخطب في الحشد عن عبثية الإلغاء. لكن موضوع خطابه كان أقل أهمية من شكله المحكي. لأنه كما كان واضحاً للصحفي، والحشد، أن ذلك كان عرضاً لخطبة عامة يختبر المتحدث الشاب فيها قدراته في التأثير على جمهور تجمع عفوياً.

وتبعاً لهذه الرواية نفسها، التي نشرت في الجريدة، كان عرض هيرول الأول كمتحدث عام ناجحاً، والأكثر من ذلك كله، كان مؤثراً لتجنبه المبالغات المبهرجة للمنصة (مع أن هذا اليعقوبي مستقبلاً، في الواقع، كان قد أخذ دروساً في الإلقاء على يد الفنانة كليرون):

> *لم يكن في خطاب القاضي الشاب مزاعم ليستلهم البلاغة. كان أسلوبه رصيناً وهادئاً مثل خطاب القانون نفسه: امتلك شيئاً من السيطرة على عواطفه الضرورية جداً للعقل إذا كان ينبغي أن يكتشف الحقيقة. برز الإقناع والتنوير بهدوء وبدرجات من كلماته... ومجرداً من تلك القياسات التي لا شيء لديها تفعله مع المنطق... كل هؤلاء الذين سمعوا هذا القاضي الشاب يتحدث يمكنهم أن يقدروا الحكمة التي جعلت نبرة خطابه تتقدم على طبيعة قضيته.*

حتى لو كان أسلوب هِرول المختار هو ذلك الأسلوب الرزين لرجل القانون، فقد كان العرض بمجمله محسوباً مسرحياً لذلك الغرض. عندما انتهى، انطلق تصفيق عالٍ بين

الحشد، ورد بالحط من قدر نفسه، ملوحاً إلى القضاة الكبار الذين سبقوه في الكلام. كانت تلك مهنة مسرحية ذات نظام عالٍ والتي بسببها سيصبح هِيرول مشهوراً بإنصاف في المؤتمر وحتى، في النهاية، على منصة المقصلة قبل قطع رأسه مع رفيقه دانتون. وقد بدا في عام 1785 حتى للمراسل الواقعي غير العاطفي من جورنال دي باري ينز صدقاً وإخلاصاً. «لم تبدِ موهبة قط هذا الكم من الكياسة مثلما فعل (هِيرول) طمس نفسه ليرجع شهرته هو بالذات إلى مواهب الآخرين». يفكر أحدهم بـ بيلاتر في مسرح ليون يأخذ تيجان الغار عن جبينه ويضعها على رأس مونتغلفييه: بطولات رومانية جديدة.

بعد الصرامة والتواضع جاء الإحساس. عند نزوله من المنصة، فوجئ هِرول بزملائه الكبار في المهنة، بمن فيهم الخطيب المشهور جربييه Gerbier الذي خاطبه علناً باعتباره «والده» المهني. قال الكاتب، «لم تتأثر روحه أبداً كما في هذا المشهد».

وعلى الرغم من أنه أثر بدهاء على جو جديد في دور الخطابة القانونية، كان هِيرول، في السادسة والعشرين من عمره، شيئاً من معلم. فقد شارك راديكاليين كثر أكثر فصاحة وطموحاً في هذه الفترة خلفية أرستقراطية. وكان مثل لافايت يتيماً من معركة مندن Battle of Minden، حيث أبوه، الكولونيل في سلاح الفرسان هاجم خطوط البريطانيين في إيماءة دون طائل الأمر الذي أدى إلى سقوط وردة الأرستقراطية العسكرية الفرنسية، ثم توفي متأثراً بجراحه في كاسل Cassel، عام مولد هيرول. كان جده زميل مدرسة لفولتير وقائد شرطة في باريس، حيث حاول أن يقمع مهاجمة الكلاب للثيران وينظم إزالة القمامة من شوارع المدينة القذرة. من هذه التقاليد في الوطنية والخدمة العامة الشاب نعم هيرول دي سيشيل بموهبة النضج المبكر والحزم والوعي الذاتي «بأن يستخدم رداء القاضي لا سيف المحارب». وقد عُيِّن بعد أن تعلم على يد الخطباء وتشجيع وتأييد أقربائه محامياً في المحكمة في سن التاسعة عشر عاماً، وهذا أمر مدهش. وقد صنع شهرة بالتخصص في الدفاع عن هؤلاء الذين يمكن أن يمثلوا بحق أنهم «ضحايا الاضطهاد» متعلماً ربما من أحد الأعمال الجديدة ذات القيمة في الخطابة القانونية ـ عمل بيير لويس جن Pierre Louis Gin بلاغة المحامي (1768). وشملت قضاياه، على سبيل المثال، الدفاع عن زوجة، حكمت عليها محكمة رين بالفصل عن زوجها وإبعادها إلى الدير بطلب زوجها، وذلك بسبب ابنة غير شرعية أراد أبوها أن يستولي على ملكية الوراثة من أمها.

وفي عام 1779 وسع هيرول مجاله البلاغي بالكتابة لمسابقة الأكاديمية، تأبين للأب سغر Suger، المبدع الكبير لِـ سان ـ دنيس في القرن الثاني عشر، لا يزال في بداية

عشرينياته، وفي حماسه الفكري، يردد صدى روسو (تخمين)، و، أقل تخميناً، المؤرخ الطبيعي بوفن Buffon. وفي عام 1783 بدأ رحلة عمل إلى زيوريخ مع صديقه الأرستقراطي مايكل لوبلتييه (من جماعة أخرى من جماعات المحكمة الكبيرة) لرؤية الرجل العظيم. تصر مصادر قريبة من بوفن على أن العالم كان مصاباً بألم حاد بسبب حصاة في المرارة ولم يكن قادراً على رؤية هيرول ولوبلتييه. غير أن هذا لم يمنع الأخير من أن يضع في التداول، في الحقيقة طبع، رواية تفصيلية عن لقائهما. وفي هذه الرواية وصف بوفن أنه حكيم جليل، حفظت بساطة الطبيعة نفسها فيه، وأنه منح بركته لمساعده الشاب المتحمس. كان يرتدي رداء أصفر ذا خطوط بيضاء وأزهار زرقاء.

جاء لتحيتي، بشكل مهيب، فاتحاً ذراعيه... وقال،

«أعتبرك صديقاً قديماً ما دامت لديك الرغبة برؤيتي».

تطلعت إلى ملامح جميلة ورزانة نبيلة. وبغض النظر عن سنواته الثماني والسبعين، على المرء أن يقول، هو في الستين، وما كان أكثر فردية هو أنه تحمل ست عشرة ليلة دون أن يرقد له جفن وفي معاناة غير معقولة لا تزال مستمرة، ظل نشطاً مثل طفل وهادئاً كما لو أنه في تمام صحته.

ماهراً بالترقية الذاتي، كان هيرول شاباً خطيباً قوياً (وجميلاً على نحو مدهش) وشهرته بالنتيجة وصلت إلى الملكة. كان بعد كل شيء، رسمياً واحد من «رجال الملك» (عينته الحكومة في المحكمة. استقبلته في البلاط وكان جلياً أنها كانت مفتونة بثقته المفرطة بالذات إلى درجة أنه كان لديها لفاع مطرز خصيصاً هدية. استمتع هيرول بإظهار هذا الامتياز، وقيل إنه وضعه كل أيام حياته كيعقوبي مخلص إلى اليوم الذي قطعت فيه المقصلة رأسه. وفي عام 1786، بعد سنة من عرض الشاتليه، منح شرف افتتاح ما سمي «الخطب» بعد عودة محكمة باريس إلى دورة جديدة. كانت مناسبة اجتماعية كبيرة، وفي غازيت دي تريبيون Gazette des Tribuneaux أبلغ محام صديق أن «خطابه كان منتظراً بشوق كبير من جمهور غفير. كان مليئاً بالأشكال والجمال الذي ميز خطباء الجمهوريات القديمة... لقد قوطع بعواصف تصفيق متكررة وكان ملحوظاً أن المحامين على نحو خاص مأخوذين بالحماسة التي بإمكانها أن تثير الرجال والتي عبرها يكتشفون قدراتهم الخاصة وسر قوتهم».

إن نجاح هيرول الاستعراضي المبكر، عندئذٍ، ربما ساعده على طريقه المولد والتعليم والصلات. غير أن ذلك صنعه إلى حد كبير استخدامه للبلاغة بشكل منهجي، كما

اعترف بذلك في كتابه **تأملات في الخطابة**. كان قادراً على استخدام مؤهلاته الخطابية للترقي ضمن سلم مهنة في النظام القديم ثم يبدأ كشخصية عامة بشهرة من أجل الاستقامة والاستقلال. ومع ذلك، ففكرة استخدام مهنة المحاماة كنوع من منبر شعبي معمم لها حدودها التي عندما تُختبَر بحدة فقد تستبعد، أكثر مما تتشرب، الراديكالي. يعتمد الكثير على الخط الذي سيتخذه الخطيب. وكان يمكن الاعتماد على هيرول وزميله تارجت، الذي سيصبح ثورياً وأحد مؤلفي دستور عام 1791، لدعم جانب القضاة في معظم الخلافات مع الملك. ولم يكن حتى أواخر 1788 أن اختلفا مع البلاط على شكل وتكوين الجمعية العامة. لكن الرجل الذي عمل في ستينيات القرن الثامن عشر أكثر من أي شخص آخر لابتكار مفهوم وممارسة مهنة محاماة مصممة لمخاطبة الشعب مباشرة - سيمون لِنغت Simon Linguet - وقد فعل ذلك كجزء من حملة ضد القضاة.

لم يكن لنغت أقل من ظاهرة في الحياة العامة في النظام القديم. كان شوكة في خاصرة كل المؤسسات الحاكمة عملياً، فطوّر طريقة خطاب وكتابة، توقعت بالضبط الأسلوب الثوري في الاتهام النزق والغضب الانفعالي. وحتى عهد قريب جداً كان لِنغت يعتبر بلا قيمة، وفي الأفضل، فضول غريب غير تقليدي، شيء خصوصي ليكون له أي تأثير جدي على اتجاه سياسة النظام القديم. وقد بذلت دارلين غاي ليفي قصارى جهدها في سيرة حياة رائعة وضعتها خلصته من هذا الغموض ليغدو بسرعة واضحاً أنه لا توجد زاوية في عالم فرنسا السياسي في تلك الفترة لم يكن لموهبته وشهرته لمسة فيها. فقد اكتسب كمحامي محكمة ناشئ في ستينيات القرن الثامن عشر شهرة وغرابة لتبنيه سلسلة من القضايا الاستعراضية، بما فيها قضية تشيفالييه دو لا بار، المتهم بجدع صليب يمثل المسيح مصلوباً وحكم عليه بقطع لسانه، وقطع رأسه وحرق رأسه وجسده كل على حدة على الخازوق. وإذ شُطِب من جدول المحامين لأنه يستخدم المهنة بشكل منهجي لمحاربة المحاكم والقضاة، استدار إلى الصحافة، حيث كانت مواهبه في اللسع والهجوم القوي مؤثرة تماماً مثل خطابه. وقد تنبأ جانبان في كتابته الخطبة الثورية بشكل مباشر أكثر من أي شيء آخر: اهتمامه بمعارضة خطابة «الحرية» بقضايا الجوع والملكية والوجود، و**مذكرات الباستيل** الغاضبة التي كتبت عام 1783 بعد حكم سنتين بمذكرة مختومة letter de cachet. ومذكرات لِنغت، المطلوبة كثيراً، فعلت أكثر من أي شيء آخر لخلق رمز أسطوري عن استبدادية النظام القديم الذي ركز في ذاته كل الغضب والحقد واليأس الذي تراكم في أواخر ثمانينيات القرن الثامن عشر.

كان لِنغت في الحقيقة هو مخترع المحامي العام، وبالتالي هو الذي مكّن الجيل التالي أن ينزلق بسهولة من خطبة المحكمة إلى السجالات السياسية. وتاريخه... قرن الإسكندر، الذي نشر عام 1762 نظر إلى اليونان القديمة في ما يتعلق بمثال الخطيب القانوني القادر على أن يوضح للناس «دوافع القلب الإنساني». وبالعكس جردت الدولة الحديثة المحامي العام من أي دور هام في الإجراءات القضائية، التي تغلفها إما بالسرية أو توقعها في شرك التقاليد القانونية الشكلية. وكان الأمر يعود إلى الخطيب الموهوب ليحل هذا الغموض بعرضه مباشرة لنقد الناس.

وتقدم لِنغت في قضاياه أمام المحاكم ليفعل ذلك بالضبط مستخدماً حشود النظارة الذين جاؤوا لسماعه يتكلم في القاعات الكبرى في المحكمة تماماً مثل جمهور مسرح، مستثيراً إياهم للتصفيق والهتاف والصفير والبكاء وضرب أقدامهم على الأرضيات أكد أن لديه قضايا (فاز بعدد قليل منها) سترتبطه مباشرة بقضايا الإحساس. ففي قضية لا بار La Barre بذل قصارى جهده لينجح فيها، مبتدعاً لوحة سمعية جديرة بـ غروز. حيث انتقد شهادة اعتراف أحد مرافقي لا بار الشباب بأنها نتاج التخويف الوحشي، رسم صورة بالكلمات «هذا الطفل العاثر الحظ يسجد عند قدمي القاضي».. وبالإضافة إلى قضية لا بار دافع عن زوجة الفيكونت دي بومبل Vicomte de Bombelles البروتستانتية التي هُجرت من أجل امرأة كاثوليكية والتي نُقِل أطفالها إلى إصلاحية كاثوليكية. خسر لنغت القضية لكنه فاز بتصفيق العامة. لقد فاجأ تكتيكه بمخاطبة الجمهور هيئة المحكمة. وأمر قاضٍ ملكي المحامين الشباب ألا يتخذوه (لِنغت) مثلا... سواء كان ذلك فنه الخطير في تغطية كل شيء بالسخرية... أو... في الجراءة المطلقة العنان في صياغة مناجاة مستقلة إلى العامة ومحاولة استخدامها كمتراس للتأثير على تصويت القضاة».

كان يمكن حتى لهذا الأسلوب المشوّش العام أن يكون مقبولاً لو كان لِنغت أكثر مطاوعة سياسياً. لكنه بدلاً من التعبير عن التضامن مع المحاكم في نزاعها مع البلاط، فنظريته نظرية القوانين المدنية أيدت عملياً «الاستبداد الشرقي» باعتباره النظام الأمثل ما دام وحده استطاع ضمان حماية الناس من الحرمان المادي. وإذ اتخذ موقفاً رجعياً جداً إلى درجة أصبح، في الحقيقة، راديكالياً، دافع عن العبودية كنظام اجتماعي أكثر احتمالاً بأن يضمن تبادل الالتزامات والوجود مما سيكون «حريات» سوق العمل. وعلاوة على ذلك، هاجم لنغت الخصوصيات الشخصية وقدرات القضاة (الذين ترك كثيرون منهم

تعليمهم القانوني ليكون رغبة ما داموا قد اشتروا مناصبهم) على القرار في القضايا الهامة.

وباسم العدالة الملكية وحماية الفقراء، بعدئذٍ، صعّد لنغت هجوماً مباشراً على نظام النبالة القانوني برمته. بما أنه، في الوقت نفسه، شنّ هجوماً عنيفاً مماثلاً على الفلاسفة باعتبارهم نخبة أخرى تتجدد بذاتها، رتب لجمع ائتلاف منيع من الأعداء. وفي عام 1775 أصبح زبون نفسه في إجراءات التجريد من رخصة العمل بالمهنة التي خسرها، لكن بعد أن اندفع 500 شخص من أنصاره من الصالة إلى قاعة المحكمة العليا ملوحين بعصيهم وسكاكينهم. أعلن المحامي العام (لنغت) مهزوماً لكنه لم ينحنِ وفقاً لكل الروايات فيما كان ينفخ عالياً في مزمار من قصب، «يمكنني أن أذعن كما فعل سقراط. لكنني لا أريد أعدائي (Anituses أن يرتاحوا دون عقاب. أنتم تزعمون أنكم تحاكمونني. أنا أوافق على كل ذلك، لكنني سأضع بيني وبينكم هذا القاضي الأعلى الذي يخضع له أكثر القضاة استبدادية: «الرأي العام»».

غدا لِنغت بطلاً مستحيلاً لجيل كامل من الكتاب الشباب والمحامين المتلهفين إلى عرض أنفسهم في دورة المحامي العام الإغريقي ـ الروماني، الذي قدَّم نفسه بوعي ذاتي أنه روسو المحاكم المضطهَّد والمعزول والمنبوذ وغير القادر على كبت الحقائق التي يمليها القلب على الشفاه. كان الشخص الأول الذي اقتفى أثره جاك بيير بريسو - Jacques Pierre Brissot عندما وصل إلى باريس من الأقاليم. سيحاول بريسو أيضاً استخدام المهنة القانونية ليجعل ما كتبه من حجج مسموعاً. ومثل نموذجه، نفد صبره هو أيضاً من العملية البيزنطية التي بواسطتها يمكنه دخول نظام المحامين. فنظم حملة من أجل ولادة نسخة معدلة لما تخيل أنه كان المحامي الجمهوري الروماني متبرماً من تدربه. سيكون بمقدور المحامين في مثل هذا النظام الجديد، أن يخاطبوا الناس مباشرة، متحررين من كل تقييدات المهنة التراتبية، وغير مقيدين بأي نوع من الرقابة على الآراء، وستعين الدولة القضاة على قاعدة الاستقامة والفصاحة. اعتمدت رؤية بريسو الخيالية للدفاع الفاضل مباشرة على حنين لِنغت إلى عصر قديم حيث كانت هناك اجتماعات لا يمكن تخيلها لكل الأمة حيث يستطيع رجل واحد أن يخاطب عشرين ألفاً..»

حظيَ لنغت والمعجبون به بامتياز تفضيل الحكي على الكلمة المطبوعة لأنهم اعتقدوا أنها بطريقة ما أقل كفاءة من التغريب. والصوت، في هذا المعنى، حُفِظ ليكون كلاً لا يتجزأ من المرء، حيث أن الكراس أو البحث يمكن أن يراقب ويُقمَع أو تعدله

السلطة بطريقة أكثر سهولة. يعلن الصوت الخطابي، المفترض أنه أكثر تلقائية في تعبيره، بإخلاص الميزات الخاصة في الفرد وهكذا فهو أقل انفتاحاً على السفسطة والكتمان والبراعة التي يمكن أن تُجلَب إلى الصفحة المكتوبة. وعندما ذهب لنغت إلى إنكلترا في سبعينيات القرن الثامن عشر، أصيب بالرعب لاكتشافه كم كانت الخطب في المحكمة مملة وذات صيغ موصوفة وتفتقر إلى الأصالة، وقد ميزها بحدة عن نوع الخطبة الرومانية الجديدة التي ستكون الصوت المبشر بالفضيلة العامة.

وكانت هذه هي الفضيلة العليا التي توصل الثوريون إلى تمجيدها عالياً. في الحقيقة، الكلام العلني في المنتديات المختلفة ـ النادي الثوري، المؤتمر، وحتى معسكر الجيش ـ سيفترض شأناً إستراتيجياً. ففي لحظات حاسمة عديدة، ما يصنع فرقاً بين الحياة والموت، النصر والكارثة، هو القدرة على هز الجمهور الكبير أو المحدود. والشلالات العظيمة من الخطابة التي تتدفق من أفواه خطباء الثورة أغرت المؤرخين الرومانسيين في القرن التاسع عشر، الذين أعجبوا بتوهجها المسرحي، إلى درجة أنهم حاولوا أن يعيدوا إنتاج هذه الخطب كنماذج في روايتهم للأحداث. وذلك بدوره، قاد الروايات الحديثة، حتى وقت قريب إلى التقليل من شأن تأثير البلاغة المحكية على الولاء للدولة. لكن ردود ميرابو الحاسمة المشهورة على التدخل الملكي في الجمعية العامة، وخطاب ديمولا الناري فوق طاولة في البالي رويال في 12 تموز عام 1789، وبلاغة سان جست Saint - Just المثيرة أمام الجيش في سامبر إي موز Sambre - et Meuse لعبت جميعاً دوراً حاسماً في إحلال الشعور بالتضامن الأخوي محل موجة أولية من الخوف والغضب. وبهذا المعنى، لن نبالغ إذا قلنا: الخطابة خلقت «الشعب» وليس العكس. وعلى نحو معاكس، قد يكون الفشل في أن تُسمَع حكماً بالإعدام. فقد عمد روبسبيير إلى أن تتم محاكمة دانتون دون جمهور مخافة أن يفسد صوته الهادر الجهير مسار المحاكمة بوجود جمهور عام حاشد. ومع ذلك كان إخفاق خطاب روبسبيير نفسه أمام المؤتمر الذي علا صوته على صوت روبسبيير وأكد هزيمته في التاسع من ترميدور.

وبالتالي، كان الأسلوب الشعبي قوة شعبية. وكانت هناك مصادر للتدريب على الخطابة أخرى، غير منصة المحاماة، لإثراء فن الخطابة. فذهب هيرول، على سبيل المثال، إلى المسرح لصقل توقيته وتغيير مقامات صوته. علمته الأستاذة كليرون، وحاول أن يحاكي أسلوباً محدداً في المسرح الكلاسيكي: وكان من الممثلين موليه ودي لاريف،

المشهورين بلعب الدور الرزين للأبطال الآباء. وكان لعدد مدهش من الثوريين الآخرين صلات مباشرة أو مهنية بالمسرح ـ كولوت دي هيربوا، كميل ديمولا، الأخوة شنييه والثوريون المتطرفون رونسن وكثيرون غيرهم. فيليب فابر من بلدة بيرينين الصغيرة في ليموكس استدار إلى الأسلوب الأكثر فخامة ـ الذي سمي باسمه «فابر ديغلانتين» بعد أن فاز بجائزة **وردة الخليج الذهبية** (إغلانتين) في الفصاحة من أكاديمية تولوز. وكانت تلك هي التي دفعته إلى الانطلاق في مهنته المتنقلة ككاتب مسرحي وشاعر وكاتب أغانٍ وعازف غيتار وممثل متنقل والذي انتهى أخيراً في باريس عشية الثورة بسلسلة من الإخفاقات المثيرة.

كانت عظات المنبر في الكنيسة شكلاً آخر هاماً «للبروفة». فقد حاولت الكنيسة أن توقف تقدم العلمانية بإطلاق إرساليات إنجيلية تبشيرية في كل من باريس والأقاليم في الجزء الأخير من القرن الثامن عشر. وقد لاقت قدراً كبيراً من النجاح، وجاء عدد من الخطباء الأكثر قوة في الثورة من هذه الخلفية الكنسية. فكلود فوشيه، أسقف كالفادوس الذي بشر بإنجيل المساواة الاجتماعية في لقاءات «دائرته الاجتماعية» في نوتردام، كان واحداً من تلك الشخصيات، وكان الأب غريغوار، الذي قدم مبادئ التسامح والحقوق المتساوية لليهود آخر.

ثمة فرص كثيرة للخطابة العامة خارج مملكة السياسة في العالم العلماني. احتاجت الأكاديميات إلى أعمال تأبينية لشخصيات بارزة توفيت حديثاً وشخصيات متوفاة منذ زمن بعيد أرادت أن تمجدها. أنجزت خطابات استقبال الأعضاء الذين قبلوا حديثاً في المناصب الوظيفية نفسها. وقد غدت بعض الشخصيات الجديرة بالملاحظة من النخبة الباريسية شهيرة لقدراتها الخطابية. فقد فاز شامفورت صديق تاليران، على سبيل المثال، بجائزة الفصاحة عام 1769 من الأكاديمية وانتخب عضواً فيها عام 1781 لدقته الخطابية. وقدمت الدراما الكلاسيكية مثالاً على فن الإلقاء الرصين المفضل في هذه العروض، غير أن قاعة المدرسة اللاتينية كانت المصدر الأكثر ترجيحاً التي جاء منها عملياً كل الطموحين إلى الخطابة العامة.

وكما يشير التقرير عن خطاب هيرول عام 1786، لم يكن ثمة مديح للخطباء أعلى من المقارنة مع شخصيات من العصر القديم التي سعت إلى محاكاتها. كانت الثورة الفرنسية مسكونة بنموذج الجمهورية الرومانية على وجه التحديد، وكانت خطابات شيشرو بالإضافة إلى خطبه التي وردت في أعمال سالوست Sallust وليفي وبلوتارك التاريخية

مصدراً ثراً للاقتباس. فاقتبس كميل ديمولا، على سبيل المثال، من شيشرو نحو 43 مرة خلال فتراته القصيرة نسبياً في الاجتماعات الثورية، واقتبس بريسو منه من خلال بلوتارك عشر مرات. ونشر الأب بوازجلين، الذي سيكون ممثلاً لرجال الدين عام 1789، عملاً عن البلاغة في العصور القديمة قبل عشر سنوات أجمل فيه شهرة هذا النموذج الذي زعم فيه أن شيشرو عندما تكلم في مجلس الشيوخ، كان أبو وطنه Père de la patrie . «وتابع بوازجلين ليشكو من غياب الخطابة الجدية نسبياً في زمنه بالذات، لأنه «لم تعد هناك موضوعات عظيمة للمعالجة». وكان يجب أن يُعالَج ذلك قبل زمن طويل جداً. غير أن هؤلاء الذين سعوا إلى بعث التقاليد القديمة في الخطابة السياسية ربطوها (في أثينا وروما الجمهورية) بممارسة الحرية. وهكذا غدت نقابة المحامين» «نقابة الشعب»، أو محامي الشعب» كما انتهى إلى أن يُسمّى في الاجتماعات الثورية التي استطاع فيها صوت هؤلاء الذين يسعون إلى إقناع ممثلي الشعب أن يُحاكَموا بإنصاف.

تلك كانت المواطنة الفعالة التي كان يُعتقَد بأنها وُجدت في فترات معينة في الأزمنة القديمة التي سعى الجيل الثوري إلى بعثها من خلال قوة الخطابة. والأرجح أنهم وجدوا ذلك أولاً في المدرسة، حيث كانت مصدراً رئيساً للمقررات الدراسية في كليات كثيرة. فهذه كانت الحال، على سبيل المثال، في كوليج لويس لوغران Collège Louis - le Grand، حيث تلقى روبسبيير وفتيان كثر آخرون منحة دراسية ـ الذين جاء بعضهم من خلفيات أكثر تواضعاً في التجارة وإدارة المحلات التجارية والمهن الفنية التي تتطلب المهارة. تذكر كميل ديمولا أن معلمين مثل الأب رويا Royau، في المدرسة نفسها، علموا تلاميذهم أن يُعجَبوا بالبساطة والاقتصاد (في الإنفاق) والصرامة والشجاعة ووطنية أبطال الجمهورية الرومانية. وكان ذلك في الكلية أن طولِب الطلاب بقولبة الخطابات على منبر شيشرو بدقة مستخدمين الاستهلال والسرد والتأكيد والرفض وخاتمة الخطبة. وهناك أيضاً كانوا يتعلمون المحسنات البلاغية: الاستعارة والمجاز والتعجب والاستفهام ـ التي شارك معظمها في معرض التعبير الثوري.

لم يكن ثمة شك بأن جيل الثورة وجد في أبطال العهود الجمهورية القديمة نماذج أدوار مثيرة ـ وفي الوقت نفسه، شحذ ذلك الإعجاب أفكارهم التي أفرطت في تبسيط العصر الذي عاشوا فيه المماثل للإفراط الأسوأ في الفساد المموه الذي شُجب في كتب التاريخ الرومانية. فقد قرؤوا، على سبيل المثال، في تاريخ سالوست مؤامرة كاتيلينس أنه بعد هزيمة قرطاجة «بدأت الفضيلة تفقد رونقها... نتيجة للثروة والأبهة والجشع». وفي

المقابل، في العصر الذهبي للجمهورية.

هُذِّبت الأخلاق في البيت والحقل... سادت العدالة والاستقامة بينهم ليس بفضل القوانين بقدر ما كان الفضل يعود للطبيعة. احتفظوا بالشجار والنزاع والقتال لأعدائهم، وتنافس المواطنون في ما بينهم على الجدارة وحسب. أسرفوا في النذور لآلتهم، واقتصدوا في بيوتهم وأخلصوا لأصدقائهم...

ولأن هذه الفكرة عن العلاقة النموذجية بين الأخلاق الخاصة والفضائل العامة بدت متشابهة لم يفعل شيئاً روسو لإحباطها باعتبارها نموذجاً. وبالمثل زودت تسمية شيشرو للرجال الجدد homines novi، الذين نهضوا بفضيلة مدنيتهم الراسخة وفصاحتهم، جيل ثمانينيات القرن الثامن عشر بشارته الجماعية الخاصة بالجدارة.

وكانت النتيجة خلق رابطة قوية من التماثل بين الجمهوريتين القديمة والحديثة. عندما كانت في سن التاسعة، حملت مانون فيليبون نسخة من بلوتارك معها إلى الكنيسة، وتذكرتُ أنني «من تلك اللحظة أرخت الانطباعات والأفكار التي ستجعلني جمهورية». فقراءة التاريخ «بعثت فيّ حماسة ثابتة لصالح الفضائل العامة والحرية». وفي الحقيقة كان بعضهم مستثاراً جداً إلى درجة وجد أنه من الصعب إن لم يكن المستحيل أن يتصالح مع الحاضر. فمرسييه، الذي درّس في الكلية في عشرينياته، كان معجباً آخر بالأقدمين وبعد انغماسه في عظمة الجمهورية وجد أن الأمر «مؤلم أن يغادر روما ويجد نفسه أنه لا يزال من عامة الناس في شارع نوير Noyer».

شاركت النزعة الوطنية الرومانية (لأنها نادراً ما كانت أثينية) بعض فضائل عبادة الإحساس، غير أنها في نواحٍ أخرى، كانت تُؤكّد بطريقة مختلفة. وفي ما يتعلق بشيء واحد، كانت أقل ميلاً إلى البُكاء كثيراً، بل أعلت من شأن امتلاك النفس الرواقي على التدفق العاطفي. لقد كانت، على نحو واعٍ ذاتياً تماماً، «رجولية» أو ثقافية ذكورية: صارمة، عضلية ومرنة أكثر منها رقيقة وحساسة ومتعاطفة. كأسلوب هندسة معمارية وزخرفة داخلية عملت الكلاسيكية الجديدة مع الأشكال التي تحتوي على المزايا الأساسية والبسيطة: تيجان الأعمدة التي كانت بسيطة للغاية بدلاً من الشكل الكورينثي المعقد أو الأيوني الدقيق. وروّجت نشر الجداريات الرومانية (الذي قام به اليعقوبي المتطرف لاحقاً سيلفان ماريشال بين آخرين) من مدينتي بَمبي وهركلانيوم القديمتين مثل عمل فني شكلي.

وقد رتب بعض المتحمسين للعصور القديمة السفر إلى مواقعها الأكثر شهرة للتحادث مباشرة مع أشباحها. وذهب بعضهم حتى أبعد إلى شبه جزيرة البيلوبينيز، وقلة

منهم إلى صقلية ونابولي وكامبينيا. غير أن الزوار الفرنسيين مالوا لأن يكونوا أقل من نظرائهم الإنكليزيين في الرحلة العظيمة. وغالباً، كان ذلك تأسيس جائزة روما التي أطلقتها أكاديمية الفنون ومدرستها في المدينة نفسها التي جعلت من الممكن للرسامين الفرنسيين الطامحين أن يشربوا من رأس نبع الثقافة الكلاسيكية. كان المدير الجديد للفنون لدى لويس السادس عشر (المراقب الأعلى رسمياً على الأبنية)، لاسيما دانجيفيلييه d'Angiviller، مهتماً باستخدام المنحات الدراسية المتوفرة بالطريقة النخبوية (القائمة على الكفاءات) الأكثر صرامة من الحال التي كانت في عهد سلفه ماريني Marigny. وأطلق أيضاً في أواخر سبعينيات القرن الثامن عشر برنامجاً لتشجيع جيل جديد من الرسم التاريخي مصمم على نحو صريح لغرس الفضائل العامة المرتبطة بروما الجمهورية: الوطنية، الثبات، الاستقامة والاقتصاد (في الإنفاق).

وبالتالي عُرِض الأبطال الذين جسدوا هذه القيم في قياسات كبيرة في صالونات العرض: جونيوس بروتس، الذي حكم بالإعدام على أولاده بالذات عندما أدينوا بالتورط في مكيدة ملكية، وموسيس سكافولا، الذي تحمل آلام حرق يده في النار لاستعراض ثباته الوطني، وهوراتيو كوكلز، الذي دافع عن الجسر وحيداً دون مساعدة ضد الاتروسكانيين، غايوس فابريسيوس وسيبيو، اللذان امتدحت كتب التاريخ منعتهما ضد الفساد. وما أضيف إلى ذلك كان مثال مشاهد لحظات الاحتضار الأخيرة للفلاسفة ذوي الاستقامة الثابتة - سقراط، سينيكا، كاتو - الذين ارتضوا الموت بإرادتهم ولم يذعنوا للطغاة.

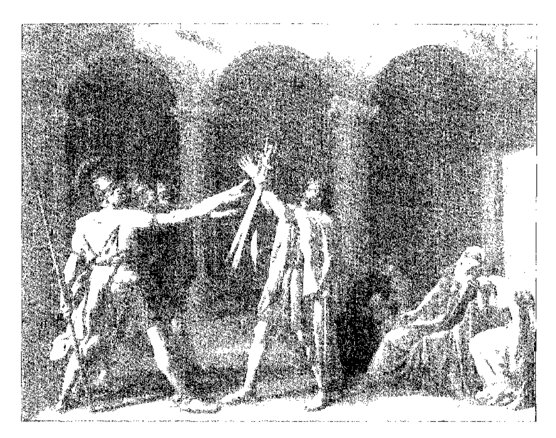
كان كثيرون من هؤلاء المشاهير صورة مألوفة في الدعاية الذاتية الرسمية للثقافات الجمهورية الأخرى، فقد عُرض بروتوس وغايوس وسيبيو، على سبيل المثال، بشكل بارز في ديكورات مرسومة ومنحوتة في مبنى الحكومة في أمستردام في أواسط القرن السابع عشر. غير أنهم كما بدوا في صالونات أواخر سبعينيات وثمانينيات القرن الثامن عشر، لاسيما في لوحات جاك لويس ديفيد - سجلوا رسالة جديدة ذات بلاغة مثيرة للقلق: المعادل الصوري لبلاغة لنغت.

وكانت اللوحة التي رسمها ديفيد لقسم الهوراثيين، التي ظهرت - أخيراً، بقياس أكبر من المعتاد - في الصالون عام 1785 هي الأكثر استعراضاً في مثل هذه البيانات المرسومة. وقد كُتِب الكثير حول هذه اللوحة الاستثنائية، والسجال حول مضامينها السياسية أو الافتقار إليها، لم يُستنزَف بعد على الإطلاق. لقد كانت قطيعة جدية مع التقاليد الأكاديمية غير متزمتة وواعية ذاتياً حتى هؤلاء الذين كرستهم الكلاسيكية الجديدة

مثل بوسان Poussin لا تقبل الجدل. حيث استخدمت على نحو متعمد لغة اللون المنقى والكئيب ولم تُعِر اعتباراً للتشكيل «الهرمي» الإلزامي لترتيبات عمل فني بارز الملامح ضمن إطار محدود، مع مجموعات من الشخصيات المقسمة بشكل حاد إلى ثلاث مجموعات مستقلة. وما يبقى مثيراً للخلاف هو ما إذا كانت هذه التغييرات الدرامية في الشكل قد شكلت بذاتها نوعاً من المفردات الراديكالية وتم إدراكها كذلك من معاصريها. فقد رسم ديفيد موضوعه، بعد كل شيء باعتباره مكلفاً بمهمة ملكية رعاها دانجيلفييه، وكل سيرته كانت نموذجاً للصاعد ذي الموهبة التي نقلته بسهولة عالياً إلى الشهرة والثروة في ثمانينيات القرن الثامن عشر. ألسنة الحال الرسمية مثل ميركو دي فرانس Mercure de France ومراجعات كثيرة غيرها مثل عمل مِترا Metra في جريدة كوريسبندس سِكرِت كانت متفقة على أصالة العمل. لكن العمل كما رأينا في حالة بومارشيه وحتى روسو، لم يكن ممكناً للبلاط والملك (أعظم العظماء) أن يصادق على ما يبدو أنه الإدراك المتأخر للرسائل الأكثر تدميراً.

وما ليس فيه شك هو أن لوحة قسم الهوراتيين أثارت ضجة غير مسبوقة في الصالون نفسه وفي أوساط النقاد في باريس. تحدَّثت ميركور بحماسة عن أن «البنية عمل عبقرية جديدة، إنها تعلن خيالاً عبقرياً وشجاعاً».. يعود جزء من شهرتها في الأقل إلى الاهتمام السردي الشديد بالقصة. تحدى أبناء هوراس الثلاثة ثلاثةً من أندادهم في معسكر الخصم إلى قتال حتى الموت لإنقاذ قوميهما من دمار حرب عامة. لكن القصة تتعقد بواقع أن أحد أبناء هوراس كان متزوجاً من أخت للكوراثيين، وكانت أختهم، كاميليا، مخطوبة لأحد أعدائهم. انقلبت المعركة لتكون مهلكة إلى درجة أن رومانياً واحداً من الأخوة بقي على قيد الحياة وإذ يعود فيجد أخته في حداد على خطيبها يقتلها في ثورة غضب وطنية.

ثم ضمت قصة الهوراثيين الموضوعات الأخلاقية للفضائل المحلية المعروضة في لوحات الإحساس sensibility في ستينيات القرن الثامن عشر وسبعينياته إلى الملاحم العسكرية والوطنية في الجيل التالي. وقد تخيل ديفيد مشهداً لم يكن متوقعاً لدى أي من مصادر التوقع، بما فيها الأكثر ألفة ـ مأساة كورنيل الهوراسيون Les Horaces . فاللحظة التي جعل فيها الأب أبناءه يقسمون على التضحية الوطنية كانت حيث السيف العاطفي ذو الحدين المشحوذين بشدة. وجعل العزم الذكوري العنيد للوطنية في يسار اللوحة ووسطها يبدو ضد مجموعة الجنس اللطيف على يمين اللوحة مع الحزن الذي ضرب النساء



الصورة 49، للفنان لويس جاك ديفيد قسم الهوراثيين، 1785

والأطفال الذين عكست ملامحهم ببراءة مأساة على وشك أن تقع. كان هذا الترابط المذهل بين البطولي والتراجيدي هو الذي أثار المعجبين الكثر باللوحة، الذين لم يترددوا بوصفها ليس في سياق البلاغة الكلاسيكية الجديدة بل أيضا في ذلك الصدق العاطفي المعروف باسم روسو. وكان التقرير الذي نشرته جورنال دي باري مثالا:

> *على المرء أن يشاهد (هذه اللوحة) بالتأكيد ليفهم كم تستحق من الإعجاب. لقد عاينتها... تصميم صحيح... أسلوب نبيل دون بهرجة متعمدة... لون حقيقي ومنسجم ... تأثير قوي وواضح وبنية مفعمة بالطاقة، تعزز تعبيراً قوياً ورهيباً (أي، على وجوه المجموعة المركزية) الذي يتعارض مع الانهيار الذي يخيم على مجموعة النساء. وفي النهاية إذا كان علي أن أحكم وفقاً لشعور الآخرين وشعوري الخاص، يشعر المرء عندما يرى هذه اللوحة بعاطفة تمجد الروح و، لنستخدم تعبير جان جاك روسو، تمتلك شيئاً ما مثيراً للمشاعر يجتذب المرء، فقد لحظت اللوحة كل الصفات المميزة جدياً إلى درجة تجعل المرء يصدق نفسه أنه انتقل إلى الأيام الأولى للجمهورية الرومانية.*

سيكون شيئاً ما غير ناضج أن ترى في اللوحة (حتى لو رأى بعض النقاد) نبوءة

ديفيد آخر اليعاقبة واضحة. ولو انفعل عمداء الأكاديمية (لاسيما بيير، الرسام الرسمي الأول لدى الملك) لعدم تقيد اللوحة بالمبادئ التقليدية، فلا يوجد دليل أفقد ديفيد الحظوة لدى دانجيفلييه أو لدى البلاط، الذي طلب منه أن يرسم المزيد. وإذا كانت يد الهوراتي الممدودة، ستغدو طريقة عامة لأداء القسم الثوري ـ وسُجّلت في لوحة ديفيد الأخيرة غير المنتهية لِـ قسم قاعة التنس عام 1789 ـ فسيكون ذلك لأن الثورة انتحلت الإيماءة. غير أن عدم ملاحظة أن كل المكونات المطلوبة للخطابة الثورية معلنة بطريقة استعراضية في هذه اللوحة: الوطنية، الأخوة، والشهادة سيكون قصر نظر مماثل أيضاً. وحيث، في ما يخص جيل سابق من رواد الصالون، ولدت الفضيلة العامة وترعرعت في حجر عائلة رقيقة، فقد فُطِمت الآن بموقف تحدٍّ وحشي.

IV ـ نشر الكلمة

لنفترض أنه كان لدى أحد رجال الحاشية توق شديد للمطبوعات المحظورة: صفحة إشاعات مفعمة بالإثارة عن جاسوس إنكليزي أطلقها بيدانزات دي ميروبير Pidanzat de Mairobert من لندن، أو اعترافات روسو، أو مذكرات الباستيل لـِ لنغت، أو الهجوم المثير للفتنة الذي أطلقه الأب رينال ضد الاستعمار الأوروبي ـ تاريخ... شركتي الإنديز الغربية والشرقية. فأين سيذهب ليجدها؟ ليس بعيداً، كان ثمة أسفل المنحدر من شرفة قصر فرساي كشك كتب يعود للسيد لِفيفر حيث، في الوقت المناسب والمبلغ المناسب، يمكن تلبية الرغبة المختارة من كل هذه الأشياء. بدا لِفيفر مطمئناً بخط مباشر إلى أحد الطابعين الأكثر إنتاجية للكتب المحظورة، روبرت ماكول روين Robert Machuel Rouen وزوجة من سلالة بائعة كتب مريغوت Mérigot، في موقعه كبائع مجاز في كشك عند المدخل إلى السلطة الملكية. غير أنه تجاوز الحدود المرسومة له عام 1777 بترويجه كراسات جنسية فاحشة تشهر بالملكة فعلاً ـ ربما الشهيرة أناندريا، التي صورتها في ثلاثية ممارسات سحاقية. فاعتقل في حينه وبعد إطلاقه من الباستيل أنهى عمله في مهنة أكثر أماناً صاحب متجر ألعاب.

وكما يمكن أن يبدو الأمر، كان البلاط والفئة العليا من النبلاء المروّعة هي الزبون الرئيس لتلك الأعمال التي أضرت كثيراً بسلطتها هي بالذات. كان في بلدة فرساي عدد من المتاجر حيث كان الباعة المحترفون (باعة كتب متجولون) (Colporteurs) يفرغون موادهم. فديلورمه Delorme، على سبيل المثال، الذي استخدم دنكرك ميناء دخول لكتبه،

كان لديه منفذه في فرساي وكان وحيداً بلا شك. وكانت شهية البلاط للأدب الجريء ـ السياسي والجنسي ـ يمكن قياسه من دوافع أن منافذ مماثلة نشأت في البلدات التي تؤمها الحاشية فصلياً، لاسيما كمبايين Compiègne وفونتانبلو Fontainebleau وسان كلود Saint - Cloud. وقد عنت حصانة الأرستقراطية الكبيرة من التفتيش والاعتقال بشكل أقل مباشرة أن باعة الكتب المتجولين استخدموها على نحو غير خجل لتهريب سلعهم. فسائق عربة الدوق دي براسلين كان بائع كتب مهربة حقيقي بطريقته الخاصة، وفي عام 1767 اكتُشِفت ست بالات من الكتب السرية في إحدى العربات تحمل أسلحة الماريشال دي نوايبه Maréchal de Noailles. حتى شقيق الملك الأصغر، أرتوا (الذي مثل شارل العاشر الذي كان ميالاً لاتخاذ هذا الخط العياب في الأدب التحريضي) قيل إنه كان يحمي بائعي الكتب المشهّرة.

يبدو أن هذه القصص تثبت وجهة نظر دي تكفيل أن النظام القديم جلب دماره بالذات عابثاً على نحوٍ غير مسؤول بأنه نصف مفهوم وحسب، ولكن ما وجد أنه مسلٍّ: المعادل الأدبي لتناذر فيغارو Figaro syndrome . فقد بدت مواد التحريض والقذف للكتاب المعادين للثورة، الذين يستذكرون كارثة 1789، أكثر شراً وشؤماً ودليل مؤامرة دُبّرت بين أتباع فولتير وروسو الملحدين والماسونيين ودوق أورليان. ألم يكن القصر الملكي بعد كل شيء أحد الأوكار الأكثر شهرة بالظلم والخطيئة، حيث حتى الشرطة كانت ممنوعة من الانقضاض على باعة التفاهات الأدبية؟

على نحو مفهوم، تجنب المؤرخون الجدد أي شيء يمكن أن يُفسّر بأنه يؤيد نظرية المؤامرة الأدبية في الثورة الفرنسية. ولأنهم فشلوا بأن يكتشفوا في مكتبات ذلك الزمن العمل الذي تعترف به الثورة رسمياً ـ العقد الاجتماعي لـ روسو ـ صرفوا النظر إلى حد كبير عن مفهوم الجيشان كنتاج لعادات القراءة الخطيرة. أعاد اكتشاف روبرت دارنتون لخط خصيب من التشهير الأدبي ـ أشياء مختلطة من التشهيرات الجنسية الفاحشة والهجاء اللاذع والنظرية السياسية الراديكالية ـ إقرار بالأهمية المزعجة للمطبوعات المحفوفة بالمخاطر. لكن بينما صحيح تماماً أن منتجي الكثير من تلك المواد وجهوا معظم نارهم المدمرة على نبلاء الأدب والمؤسسة السياسية، سيكون مضللاً أن نراهم جميعاً غرباء ودخلاء ولا منتمين. بالعكس، كان ذلك من داخل المعسكر المحصّن جيداً من الراديكالية الأرستقراطية ـ القصر الملكي أو فناء قصر العدل ـ التي اضطلعت واجهاتها العريضة بالهدف. ولم يكن ذلك عدم الربط، بل الربط بين عالم الرعاية ذات المال والسجالات

النارية هو الذي سبب الضرر البالغ لأصحاب المقامات الرفيعة في النظام القديم.

تخلت الثورة في بداية شعورها بالخفة والنشاط عن كل أشكال الرقابة على النشر وضبطه. فكان تدفق المعلومات المطبوعة الناتج استثنائياً الذي، في المقابل، بدا النظام القديم أنه كان ملزماً قانونياً بالحرمان منه. وفي الواقع، شهد العقد الأخير من الملكية تكاثر الأدب السريع الزوال من كل الأنواع ـ الجرائد والمجلات الأدبية والبروشورات والكراسات والأغاني والقصائد المطبوعة. ويجب أن يكون هذا التحول في الصحافة قد أنجز الكثير ليخلق الجمهور النهم للأخبار والمتلقي سياسياً الذي يوالي الصحفيين الثوريين الذين قاتلوا لكسبه وامتلاكه.

لم يكن الحصول على الأخبار السياسية ممكناً إلا من الخارج قبل أواسط سبعينيات القرن الثامن عشر. كان ثمة مجلتان مرخصتان رسمياً في فرنسا: غازيت دي فرانس Gazette de France ومركيور دي فرانس Mercure de France، وهي سليلة مجلة أدبية تأسست في ثلاثينيات القرن السابع عشر. قدمت الغازيت وجهة نظر أسطورية إلى حد كبير عن الملكية، تتقدم عبر المراسم غير المضطربة والإدارة غير المثيرة للخصام، وكانت مركيور مليئة بالمقالات غير المؤذية من عالم الأكاديميات المهذب والأدب الأنيق. كان المصدر الرئيسي للأخبار الأجنبية الموثوقة هو الجرائد الهولندية، وكانت ليدن غازيت هي الأكثر أهمية بينها جميعاً، وكانت تطبع كل أسبوعين. وطُبِعت جرائد مماثلة في مدن هولندية أخرى مثل أمستردام وأوتريخت، وفي المنطقة البابوية، أفينون، وعبر الحدود تماماً في جنيف أو كولونيا. كانت تُملأ بالتقارير العسكرية والأحداث السياسية في كل دولة كبرى في أوروبا وشمال أمريكا عملياً، وقد عرضت نفسها أنها ذات علاقة بالأحداث وموثوقة، متجنبة الحكايات التي تتجمع مصادفة أو الشائعات. والأكثر أهمية، كما أوضح جيرمي بوبكن، أنها نشرت بشكل كامل البيانات الأساسية «للمعارضة السياسية» في فرنسا: احتجاجات القضاة ومساعدي المحاكم. وبإعطاء ذلك أهمية، فإن عائلة لوزاك (مثل ناشرين آخرين كثر، فرع من عائلة هغنوت المشتتة)، التي حررت ليدن غازيت، لم تخفِ تأييدها لإحدى وجهات النظر المعادية للحكم الاستبدادي في الدستور الفرنسي. وبصرف النظر عن ذلك، لم تكن الجرائد هي الوحيدة المسموحة بشكل ضمني في فرنسا، بل كان مسموحاً لها أن تعلن عن أمكنة بيعها في كل أرجاء فرنسا وتجتذب الاشتراكات وتستخدم البريد الملكي لتوزيع الصحيفة. والتقدير الأفضل لتداول ليدن غازيت يشير إلى ما يقارب أربعة آلاف، وهذا عدد كبير بمعايير القرن الثامن عشر.

وكان الرجل الذي بذل الجهد الأكبر ليدير عمل الجريدة من فرع صغير للرسائل المهذبة إلى مشروع تجاري حديث هو الناشر المنيع شارل جوزيف بانكوك Charles Joseph Panckoucke. نشأ بانكوك في مدينة ليل برعاية أبيه، الذي كان مؤلفاً وبائع كتب بطريقته، وتحوّل إلى الكتابة والترجمة قبل الانتقال إلى باريس عام 1760. وهناك اشترى دارين لبيع الكتب والنشر كبيرتين، ودخل أبعد إلى العالم الأدبي بزواجه من أخت أحد الأشخاص المتوفرين باستمرار، سوارد Suard. غدا بانكوك سريعاً جداً القطب البارز جداً في تجارة الكتب في باريس. تحمل الآلام التي لم يُسمَع بها مع مؤلفيه، وسافر لمقابلة فولتير في فيرني وبوفون في مونتبارد فأشبع أناهما و، في وقت اشتهر بالاحتيال والقرصنة، حاول أن يطمئنهما بدخل مُرضٍ، وتقديم السلف في بعض الحالات.

وبالمثل كان بانكوك مدير جريدة مقداماً. قدم جريدتين قويتين وهامتين، جورنال دي جنيف، وجورنال دي بروسِل (بروكسل)، وفي عام 1774 استخدم لنغت لتحرير الأخيرة. وعلى نحو يمكن التنبؤ به، رداً على عادة لنغت في رمي الأسيد على وجوه كل الشخصيات البارزة الفكرية والسياسية في عهده ارتفع التداول، ووصل إلى نحو ستة آلاف، غير أن بانكوك الممزق بين الفطنة التجارية والتوق إلى الاحترام، وجد لنغت يتصيد على نحو قاتل بعض المؤلفين المفضلين لديه شخصياً إلى درجة لا يمكن تحملها فتخلص منه بعد سنتين، ووضع مكانه أحد الأهداف المفضلة لِ لنغت، لا هارب La Harpe. ومن لندن، بدأ لنغت جريدته الشخصية، **الحوليات السياسية والأدبية** ، التي وضعت معايير جديدة في القدح الساخر، ومع ذلك كانت أيضاً مليئة بالمواد الحية في الفنون والعلوم. وقد نشرت الحوليات ما لا يقل عن 71 عدداً بين عام 1777 و1780 عام احتجاز لنغت في الباستيل بالتزود، على نحوٍ أكثر مفاجأة، بترخيص ضمني حماه من المقاضاة ما لم يتعرض علناً للمحترمين من الناس. كانت الحوليات توزع كلها في باريس عن طريق تاجر ألبسة ثري، ليكوسن Lequesne. وتظن كاتبة سيرة لنغت أن التوزيع يمكن أن يكون قد ارتفع إلى عشرين ألفاً.

لم يقتنع بموطئ قدمه، فأنشأ بانكوك الجريدة اليومية الأولى، جورنال دي باري، لتجدول بشكل أساسي الأحداث اليومية وتقوم ببعض المراجعات الموجزة وتقدم الرسائل الأخبارية، بالتعاون مع صهره سورد محرراً وشريكاً. ثم جاءت مركيور دي فرانس التالية عام 1778، وقد اتضح في هذه الجريدة الجانب المعدل بشدة في الصحافة. توسعت مركيور من مجلة قليلة النشاط ومترسمة إلى 48 صفحة وتباهت بمجموعة متنوعة من

الموضوعات: تقارير إخبارية عامة من العواصم الأوروبية والأمريكية ومقتطفات من الجرائد، لكن أيضاً أغانٍ شعبية (موسيقى وأشعار مطبوعة)، حزازير وألغاز، مراجعات موسيقى ومسرح وأدب. ففي 8 أيار 1784، أعطي عدد زواج فيغارو 16 صفحة لمراجعة كل شيء بذاته. كانت خطة ناجحة وارتفع توزيع المركيور إلى نحو عشرين ألف عشية الثورة. إذا كان تقدير أحد المعاصرين لمعدل التوزيع على القراء صحيحاً، يبدو عندئذٍ ممكناً أن صحيفة بانكوك تمتلك أكثر من مائة وعشرين ألف قارئ في الوقت الذي تبلغ فيه تفاصيل مروعة عن هزيمة حكومة لويس السادس عشر الكاملة. وقد لاحظ أحد المعلقين، «انتشرت هذه المراجعة في كل مكان إلى العامة كما إلى النبلاء، في صالونات الأرستقراطية كما في منازل البورجوازية الأكثر تواضعاً، تقدم البهجة إلى البلاط والمدينة على حد سواء». ولم تكن هذه مجرد ظاهرة باريسية، فنصف نسخ المركيور كان يباع في الأقاليم.

كان ثمة أشكال أخرى من الدعاية لتغذية الشهية الأدبية المتلهفة لدى الفرنسيين. مراجعات فضائح ذوي الشأن مثل كوريسبندس سكرت Correspondence Secret التي تعزا إلى ميترا وميموار سيكرتيه Mémoires Secrètes التي كانت تنشر في شكل محفوظات، وتسهب مطولاً في الحديث عن السياسة الجنسية في البلاط والفضائح المرتبطة بالمال و، إذا كان ممكناً على الإطلاق، رجال الدين. وفي حين أنه من المستحيل قياس توزيعها، إلا أن الإنكليش سباي English SPY أو كوريسبندس أف ميلورد Correspondence of Milord التي ترى وتسمع كل شيء الواردة من لندن، والتي كررت معظم تلك الأقاصيص وحققت انتشاراً واسعاً في المناخ الحسي المثير لسنوات ثمانينيات القرن الثامن عشر.

يصعب تجنب انطباع أن عالم الأدب المتدني في عهد لويس السادس عشر كان مثل إمبراطورية نمل: أعمدة السعاة ذوي الطاقة الحية والعزيمة التي تحمل أشياء ثمينة إلى مقاصد عديدة. وبالتأكيد عجَّت فرنسا بهؤلاء الممونين للشائعات والأيديولوجيا والتعبئة والرشوة والسرعة وهم يسافرون على طرق قديمة وشبكات ناجحة. كانت القنوات والأنهار حاسمة لانتقالهم. بدأ بعضهم باستخدام مستودعات محطات المواصلات في المرافئ البعيدة وغير المعتادة مثل أغدي Agde على البحر المتوسط وسانت مالو Saint - Malo على شاطئ بريتون ومن ثم بحذر شقوا طريقهم إلى المنبع في مراحل متعقلة. كان التهريب خارج أفينون، المحاطة بالأراضي الفرنسية، أكثر خداعاً، لكن قوارب صيد السمك في

الرون كانت تُستخدَم لنقل بالات الكتب والصحف إلى المصب في تاراسكون وأرلي Arles . وكانت ثمة طريق أخرى مرتبطة بالقنال الملكية في تولوز، التي أمكن السفر عبرها غرباً باتجاه بوردو. وعمل آخرون على الحدود الشرقية من ستراسبورغ إلى دنكرك محاولين تجنب مواقع الجمارك الكبيرة في سانت مينولد Sainte - Menéhould في المدخل إلى شامبان Champagne وبيرون Peronne عند بوابة بيكاردي Picardy .

في أية حال، يمكن للمرء أن يفترض أن الباعة المتجولين قاموا بعملهم على نحو جيد كفاية لِـ ليون ورون ومرسيليا وبوردو ومعظم المدن الكبيرة التي امتلأت بالأعمال التي يُزعَم أنها «محظورة». كان يمكن الحصول عليها في باريس، ليس من القصر الملكي وحسب بل من مواقع في بونت نوف Pont Neuf والمرافئ والسكك الحديدية ـ أسلاف باعة المواد المستعملة المعاصرين. مع أنها ممنوعة علناً إلا أن باعة تلك الكتب كانوا ينادون عليها في أروقة المسارح وفي الأوبرا ويجولون على المقاهي والمعارض مع طرود تحت أذرعهم. واستخدم آخرون أشكال العرض الممكنة الأكثر بساطة ـ ينشرون بضاعتهم على قطعة قماش في عرض عام كامل في الشوارع. وقد غدا بعض الباعة مشهوراً جداً وقوياً، مثل كولمان وبرودونت دي رونكور وباردولوب، وكان بعض الأكثر مَنَعَةً نساء، مثل الجديرة بالملاحظة غراند جيفوت، التي كانت تبيع من كشك على رصيف دي أوغستين وشريكتها الأرملة ألانيو، التي ظلت تزداد قوة حتى سبعينيات عمرها.

كان ثمة درجة استثنائية من المشاركة في الجريمة من جهة السلطات في كل هذه التجارة. فجيراردين، على سبيل المثال، البائع الذي تخصص بالتشهير القاسي ضد الملكة، عمل بحصانة من الجادة المغلقة في الأورانجيري في قلب التويليريه Tuileries الحدائق التابعة للقصر الملكي. وكانت ساحة فندق أوتيل دي سوبيس Hotel de Soubise الآن مقر الأرشيف الوطني مكاناً شبه عام آخر ممتلئ بالأدب الهدام، وقبل أن تكون نوادي اليعاقبة والكورديليين ثورية كانت منازل دينية مع اختلاف أنهم استمتعوا أيضاً بالبائعين الجوالين الموجودين في كل مكان. وحوليات لنغت، بهجماتها التي تضع مانعاً على حاشية البلاط والأكاديميين وبانكوك وجامعي الضرائب من الفلاحين، التي كانت خاضعة لرقابة واحدة: قائد شرطة باريس، لنوار، الذي أثبت أنه ناقد كيِّس إلى حد كبير.

لماذا؟ ربما استمتع لنوار بعرض الإصلاحيين والنقاد المعلن للملكية الذين أنفسهم يتحملون جرعات كبيرة على أيدي لنغت (الذي استمر يقدم نفسه كموالٍ ملكي وإن يكن نزقاً). ولكن هناك سبب للاعتقاد أيضاً بأنه فكر أن من المفيد أن يعلم ما يجري في

الجماعات ذات الآراء المتطرفة أكثر من دفعها للعمل تحت الأرض، وبكلمات أخرى، بالاشتراك مع مستويات كثيرة أخرى في السلطة الرسمية توصل إلى قبول وجود الرأي العام، وبدلاً من أن يكون هدفه العاجز، فضل، بقدر ما يستطيع، أن يكون المتلاعب به. وربما ظل آخرون مثل دوق أورليان وابنه دوق دي شارتر Duc de Chartres أكثر جرأة في رؤية الرأي والشائعة والقذف سلاحاً مفيداً في إحراج خصومهم المباشرين. ربما كانت فائدة تكتيكية قصيرة أجل، ثم شكلت تلك الرعاية لهذا العالم المتقلب في الرأي مخاطر طويلة أجل غامضة بالكامل. وفيما تسابقوا إلى المواقع في الاحترام العام، ظل رعاة الفضائح والغمز بقناة الأشخاص يفترضون أن موقعهم يستند إلى أساس وطيد، في حين كانوا ينزلقون في وعث رملي فعلاً. كان مستحيلاً أن يستمر المبدأ العام في الاحترام غير المشكوك فيه، بينما كان يُخرَّب يومياً، لاسيما بالهجمات الشخصية على البلاط والوزارة والكنيسة والأكاديميات والقانون.

ولا كان هؤلاء الذين عبثوا بصندوق باندورا واعين كم أصبح اتساع أنصار السجالات والدعاية. لا بد أن مرور الأفكار قد بدا مطوقاً وأكثر أماناً من داخل قاعة استقبال السيد العظيم الذي كان يفك طرود الكتب الممنوعة ذات الوشاح الوردي: قضية أزياء باريس، هنا اليوم، غداً لن يكون حاضراً. لكن الاحتفاظ بجدران الرأي المهذب كان يضعف بسرعة، جاء في تقرير لمرسييه، «تقرأ باريس أكثر عشر مرات منها قبل قرن مضى»، وكان التغير وظيفة عدد القراء بالإضافة إلى حجم وتنوع القضية. اكتشف دانييل روش Daniel Roche من دراسة توقيعات الوصيات أرقاماً مذهلة في ما يتعلق بمعرفة القراءة والكتابة لدى البالغين في العاصمة عند نهاية النظام القديم. في مونمارتر على سبيل المثال، ينتمي نحو 40 بالمائة من الموصين إلى الحرفيين أو الطبقات التي تتلقى مرتبات، واستطاع 74 بالمائة من الرجال و64 بالمائة من النساء توقيع أسمائهم. وفي شارع سان أُونرِ Saint - Honoré ـ وهو شارع حديث بلغت التعليم 93 بالمائة. وفي شارع الحرفيين Saint - Denis، استوعب 93 بالمائة من الرجال و73 بالمائة من النساء صكوك زواجهم ووقعوها. وفي كلمات أخرى، كانت معدلات التحرر من الأمية في فرنسا أواخر القرن الثامن عشر أعلى منها في الولايات المتحدة في أواخر القرن العشرين. ولم تهيمن الأمية إلا في مجموعات العمل اليومي غير المؤهل والحمالين في السوق وعمال البناء والمؤسسات التي تعمل في تحميل السفن وتفريغها وتنظيف المداخن وسائقي العربات، الذين كان معظمهم عمالاً مهاجرين من الأقاليم. وفي المقابل، وكان خدم البيوت، الذين جاؤوا أيضاً

من الأرياف، عملياً كلهم غير أميين، قادرين على قراءة عقود عملهم. قامت «المدرسة الصغيرة» التي روجتها الإرساليات الكاثوليكية في القرنين السابع عشر والثامن عشر بعملها على خير وجه. فعند عام 1780، تبعاً لـِ روش، نظمت الطبقات الشعبية 35 بالمائة من كل الوصيات و40 بالمائة من هؤلاء الذين يديرون المتاجر والأعمال التجارية الصغيرة.

ما قرأه هؤلاء السكان، طبعاً لم يربطهم بالضرورة بواقع تقلبات الرأي العام. لا يوجد شك بأن الأدب الديني والتعبدي ظل منتشراً على نطاق واسع، تلته الفانتازيا وقصص الجن التي تدعى «المكتبة الزرقاء» وكانت متوفرة بسعر رخيص من أكشاك بونت نوف وحكايات سان لوران وسان جرمان. ولكن إذا لم يشربوا مباشرة من نبع روسو، فهناك أمثلة كثيرة من الأدب الشعبي الذي نقل الرسائل نفسها: للبراءة المُفسَدة، شر المال المديني، ووحشية السلطة.

ولا يوجد شك، على سبيل المثال، بأن رستيف دي بريتون Restif de Bretonne الذي رسم مغامرات جنسية مفصلة لقصصه الشخصية عن الفتيان والفتيات الذين ينزلون إلى مصبات الصرف الصحي المدينية لاقت نجاحاً هائلاً بين القراء البسطاء والمثقفين. وكان ذلك الأدب غير الملتزم ـ التقويمات ولصق البيانات والإعلانات ـ الذي سيربط على نحو متزايد عامة الناس في المدن الفرنسية بعالم الحوادث العامة. سيلصق كل صباح في باريس أربعون من لاصقي الوثائق المدينة بأخبار المعارك التي ربحت والتي خسرت، مراسيم الملك والحكومة، الأعياد العامة التي تميز حدثاً ما سعيداً، إشارات في حينها إلى نقل الأقذار أو نقل قبور. وفي لحظات الأزمة ستشوه أو (بشكل غير قانوني) تحل محلها بلاغات تحاكي أوامر الحكومة على سبيل السخرية أو تشهر بالوزراء. وكانت وفرة نظام إعلانهم البصري تجارياً توهج العالم الشفوي للباريسيين، الذي تناغم كما كان مع كل أغاني العالم. والأهمية التالية «للمارسييز» أو الكارمانول Carmagnole بوصفها أناشيد ثورية لا يمكن أن تُفهَم إلا إذا كان الولع الكوني بأغاني فرنسا لويس السادس عشر مقدراً حق قدره. كانت الأغاني تباع لدى البائعين المتجولين في الشوارع وعلى الجسور والأرصفة وحيث تغنّى في المقاهي، وكانت موضوعاتها تشمل الكون كله من الأجواء التي يمكن التنبؤ بها في أغاني الغزل والإغراء والرفض إلى موضوعات أخرى تنشد ترانيم ميلاد أبناء الحرية في أمريكا، وتهتك البلاط الملكي، وعفة الملك وشبق الملكة.

امتدت إمبراطورية الكلمات ـ المحكية أو المقروءة أو المقدمة بشكل خطاب أو المغناة ـ في نهاية النظام القديم إلى حدود بعيدة جداً. وفي حين كانت في حالتها الأكثر

إثارة في باريس، كانت بلا شك ظاهرة حصرية بالمدن الكبرى. ربما لم يكن هناك ما يشبه القصر الملكي تماماً في الأقاليم، غير أن البائعين المتجولين وباعة الكتب المغامرين والزبائن المتلهفين كل ذلك كفل نشاط كل من صحافة الجريدة وسوق الأعمال السرية في بوردو وليون ورين ومرسيليا كما في العاصمة. وكان يمكن أن توجد أيضاً جماعات نقاش أخرى: المحافل الماسونية، والأكاديميات الأدبية والعلمية وجمعيات زهرة الثالوث والمتاحف التي كانت النخب المحلية تفتخر بها. وإذا كان بعضها قد راعى الاحتفاظ بمميزات المكانة التي توازي التقسيمات الاجتماعية الرسمية، فتح معظمها أبوابه على نحو ثابت للأعضاء المتماثلين، الذين صقل إحساسهم بالاحتواء والرفض في هذه الأخويات الثقافية وعيهم وضميرهم الاجتماعي.

وفي عوالم ما بعد الكلمات ـ في العروض التي تقدم في الهواء الطلق: في أوبرا روسو الصغيرة، التي كانت لا تزال تُقدَّم في ثمانينيات القرن الثامن عشر، وفي لوحات غروز المشبعة بالدمع ـ كانت كتائب المواطنين تصطف. في الحقيقة، كان قد اكتمل بناء شخصياتهم الفردية والجمعية في أواسط ثمانينيات القرن الثامن عشر. كانوا مخلصين للطبيعة، ذوي قلوب رقيقة، يزدرون الأزياء، ويشمئزون من تباهي القوة، متحمسين في وطنيتهم وساخطين على مساوئ الحكم الاستبدادي. وفوق كل شيء كانوا رسل الفضيلة العامة الذين رأوا فرنسا على وشك إعادة ولادة جمهورية أصدقاء. وكان ذلك مع أيديهم مترابطة وأقلامهم تخربش رسائل على عجل ورثائهم تكرر الخطب والأغاني أن هذا الجيش من المواطنين الشباب تيقن وكأن حكومته قد انهارت.

CHAPTER FOUR

THE CULTURAL CONSTRUCTION OF A CITIZEN

i COLLECTING AN AUDIENCE

Robert Darnton first drew attention to the balloon as one of the scientific novelties provoking a kind of generalized social hyperbole, in Mesmerism and the End of the Enlighten - ment (Cambridge, Mass., 1968). For the Versailles balloon ascent, see LArt de Voyager dans l'Air (Paris 1784, 68ff.), and [Rivarol], Lettre à M. le Président de xxx sur le Globe Airostatique (London 1783); more ironic comments appear in François Métra, CorresponSecrète Politique et Litteraire... (London, February 15, 1784); the heroic description of Montgolfier appears in B. Pingeron, L'Art de Faire Soi - Même les Ballons (Paris 1784, 15). One of the many ecstatic odes in praise of Montgolfier, Le Roy's le Globe - Montgolfier (1784), compares him with an eagle:

Quel volume! Quelpoids! Quel vol majestueux
Quel pompeux appareil dans les airs se deploie
Paris,j'entends ses cris de suipris & de joie...

The ironic remarks on social chaos brought about by ballooning were Rivarol's in Lettre (12 - 13). On Pilâtre de Rozier, see Vie a Mémoires de Pilàtre de Rozier (Paris 1786); also Léon Babinet, "Notice sur Pilâtre de Rozier" in Mémoires de l'Académie de Metz (1865). The daily Journal de Paris (1782) gives notices of the lectures by Pilâtre de Rozier on Electricité et Aimant at the musé as well as other lectures on physics and chemistry; the number of February 11, 1782, offers demonstrations of his waterproof robe. The reac - tion of the public to the ascent at Saint - Cloud is described by Linguet in his Annales Politiques (London, vol. 11, 296 - 303). The Lyon ascent is vividly described in the supple - ment to the second edition of L'Art de Voyager dims l'Air; the flight of Blanchard in Nor - mandy in Journal de Paris (July 18, 1784, 893 - 96); see also the elaborate engraving in the same journal (July 28, 1784, 968). Pilâtre's death is described in [J. - Pl Marat], Learn de L'Observateur Bons.Sens [sic] (London 1785). The instructions on home - made balloons appear in Pingeron.

Pidanzat de Mairobert's description of the Salon appears in L'Espion Anglais (vol. 7, 72). Thomas Crows Painters and Public Life in Eighteenth - Century Paris (New Haven 1986) is the most important discussion of the Salon's public and critics. The public of the boule - vard theaters is brilliantly treated in Robert M. Isherwood, Farce and Fantasy: Popular Entertainment in Eighteenth - Century Paris (New York and Oxford 1986), as well as in another excellent study, Michele Root - Bernstein,

Boulevard Theater and Revolution in 15th Century Paris (Ann Arbor 1984), which deals with some of the same material as Isher - wood but is more ambitious in giving it political implications. The author also provides (8o) a splendid sense of the physical milieu of the little theaters on the boulevard du Temple. Linguet's Annales Politiques for 1779(236)contains a eulogy of Audinot's L'Am - bigu Comique theater and especially the use of child actors and mimes "which bring tears to the eyes, excite terror, admiration and produce all the effects that are so often missing from the grand theaters and in the best plays..." (Linguet also urged a révolution in the ballet in which dancers would become true actors and their dances narratives rather than "a succession of ridiculous pirouettes without object or design."

On the theatrical background of Ronsin and Grammont, see Richard Cobb, The Peo - ple's Armies (Les Armées Révolutionnaires) (trans. Marianne Elliott, New Haven and Len - don 1987, 68 - 69). On the public of the Palais - Royal, see François - Marie Mayeur de Saint - Paul, Tableau du Nouveau Palais - Royal (2. Paris 1788). See also Isherwood, Farce and Fantasy (248 - so), and Louis - Sebastien Mercier, Le Tableau de Paris (12 vols., Paris 1782 - 88, vol. 10, 242). Marmontel's remark on audiences is cited in the useful work by John Lough, Path Theater Audiences in the 17th and 18th Centuries (Oxford 1957, 211). The account of the dispute in the Comédie - Française is taken from Bailey Stone, The Parlement of Paris (102ff.); Mme de Campan's Mémoires (201 - 04) give an account of the reading of figaro to the King; the Mémoires de la Baronne d'Oberkirch (new edition, Paris 1970, 303 - 04), give a vivid account of the atmosphere surrounding the performance of Figaro and her response to it.

ii CASTING ROLES; CHILDREN OF NATURE

On Beaumarchais' maternal nursing scheme, see Nancy Senior, Eighteenth - Century Studies (1983, 367 - 88). The standard tract on this subject was Marie - Angélique Rebours, Avis aux Méres qui Veulent Nourrir... (Paris 1767). Rousseau's influence on breast - feeding habits and the moral philosophy of nature is discussed in Carol Blum's outstanding work, Jean - Jacques Rousseau and the Republic of Virtue (Ithaca, NY, 1986); also Joel Schwartz, The Sexual Polities of Jean - Jacques Rousseau (Chicago 1984. See also Susan 0kin, Women in Western Political Thought (Princeton 1979. 99 - 196), for Rousseau's treatment of women. Moissy's play La Vraie Mêre is cited in Anita Brookner, Greuze, the Rise and Fall of an Eighteenth - Century Phenomenon (Greenwich, Conn., 1972), which also gives an excellent account of the cult of "sensibilité." Edgar Munhall's exhibition catalogue, Jean - Baptiste Greuze 1782 - 1805 (Wadsworth Atheneum, Hartford, Conn., 1977), has excellent entries on, among other paintings, Girl Weeping and The Marriage Contract; see the same author's "Greuze and the Protestant Spirit", in Art Quarterly (Spring 1964, 1 - 21). Charles Mathon de La Cour's comments on Greuze's weeping girl are in his Lettres à Monsieur xxx sur les Peintures et les Sculptures et les Gravures Exposées dans le sallon [sic] du Louvre en 1765 (Paris 1765, 5I - 2). Michael Fried, Theatricality and Absorption: Painting and Beholder in the Age of Diderot (Chicago 1980), is an important

discussion of the formal techniques of moral and dramatic absorption in Greuze's work. Mercier's remark on the virtuous heart is in Notions Claires sur les Gouvernements (Pans 1787) and is cited by Norman Hampson, Will and Circumstance: Montesquieu, Rousseau and the French Revolution (London 1983, 77). Diderot's famous comment on the Mére Rien - Aimée can be found in J. Seznec, The Salons of Denis Diderot (Oxford 1975, vol. 2, 155). Guides to the "moralized landscape" were given not only in Girardin's own Promenade of 1788 but, in a potted version, in Luc - Vincent Thiéry's important Almanath des Voyageurs (1785) and the Guide des Amateurs (1788). The posthumous tributes to Rousseau, his plays and memoirs are described in P - P. Plan, Jean - Jacques Rousseau Raconté par les Gazettes de Son Temps (Paris 1912). Robert Darnton, "Readers Respond to Rousseau", in The Great Cat Massacre, gives a powerful sense of the personal identification felt by readers with the author. D. G. Chariton, New Images of the Natural in France (Cambridge, England, 1984), is an excellent discussion of many of the implications of the Romantic cult of nature, including those of gender and child - rearing. Other useful works on related themes are D. Mornet, Le Sentiment de La Nature en Franc ede J. - J. Rousseau à Bernardin de Saint - Pierre (Paris 1907); and Paul van Tighem, Le Sentiment de la Nature dans le pré - RomanSne Européen (Brussels 1912).

iii PROJECTING THE VOICE: THE ECUO OF ANTIQUITY

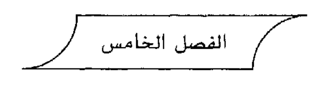
The report on Hérault de Séchelles' speech appears in the Journal de Paris of August 7, 1785 (897); for details of his career and early works, including the account of the journey to meet Buffon, see Hubert Juin (ed.), Oeuvres Littéraires et Politiques de Jean - Marie Herault de Séchelles (Edmonton, Alberta, 1976); see also Hérault de Séchelles, Oeuvres Littéraires (ed. Emile Dard, Paris 1907). Jean Starobinski has recently published two important articles, "Eloquence Antique, Eloquence Future: Aspects d'un Lieu Commun d'Ancien Régime", in Baker (ed), Political Culture(311 - 27), and, at greater length, "La Chaire, la Tribune, le Barreau", in Pierre Nora (ed), Les Lieux de Mémoire, voL. 2, La Nation (Paris 1986, part 3, 425 - 85). For the continuing humanist tradition of eloquence, see the splendid work by Marc Fumaroli, L'Age de L'Eloquence: Rhétorique et Res Literaria de La Renaissance au Seuil de L'Epoque Classique (Paris 1980). (I am most grateful to Natasha Staller for drawing my attention to this important work.) The standard work for pre - revolutionary legal eloquence is P. - L. Gin, De l'Eloquence du Barreau (Paris 19768). On revolutionary eloquence and rhetoric, see Hans Ulrich Gumbrecht, Funktionen der Parliamentarischen Rbetorik in der Franzsischen Revolution (Munich 1978); Simon Schama, "The Self - Consciousness of Revolutionary Elites", in Consortium on Revolutionary Europe (Charles - ton, S.C., 1978); Lynn Hunt, "The Rhetoric of Revolution.", in her Politics, Culture and Class in the French Revolution (Berkeley and Los Angeles 1984). The standard anthology of revolutionary eloquence is still François Alphonse Aulard, les Orateurs de la Révolution Française (2 vols., Paris 1905, 1906 - o7). François Furet and Ran Halevi are currently preparing collections of revolutionary oratory, the first volume of

which is to appear in May 1989. On Linguet's turbulent career at the bar, see Darline Gay Levy's excellent biography, The Ideas and Career of Simon - Nicolas - Henri Lingua (Urbana, Ill., 1980); his ideas on the relationship between antique virtue and oratory appear on pp. 17 - 21. On the Academy speeches and éloges, see the Recueil des Harangues Prononcées par les Messieurs de l'Académie Française (1760 89).

For education in Latin oratory and the reading of Sallust, and the imitation of Cicero, see Harold T. Parkerl The Cult of Antiquity and the French Revolution (Chicago 1937). a book well ahead of its time. For the neoclassical program of exemplary virtues in the arts, see Robert Rosenblum, Transformations in Late Eighteenth - Century Art (Princeton 1967) and Hugh Honour, Neo - Classicism (London and New York 1977). On the oath of the Horatii in particular, see Crow, Painters, and also Norman Brysonl Word and Image: French Painting of the Ancien Régime (Cambridge England, 1981). The report in the Journal de Paris on the Horacec appears September 17, 1785 (1092). On the reform program of the Comte d'Angiviller, see the unpublished dissertation of Barthélemy Jobert, Ecole des Hautes Etudes en Sciences Sociales (Paris). Further discussion of David's crucial reinterpretation of Roman virtues may be found in Robert Herbert, David, Voltaire, Brutus and the French Revolution (New York 1973) and in the forthcoming work on David and the Revolution by Warren Roberts (Chapel Hill, N.C., 1989).

iv SPREADING THE WORD

Robert Darnton's work has transformed the ways in which historians understand censorship, the commerce in banned books and the crucial area of "impolite" readingl See, in particulars The Literary Underground of the Old Regime (Cambridge, Mass., 1982); for his extraordinary account of the production and diffusion of the quarto edition of the Ency - clopédie, see The Business of the Enlightenment: A Publishing History of the Encyclopédie, 1775 - 18oo (Cambridgel Mass., 1979). On prohibited books there are still some important details to be gleaned from J. - P. Belin, Le Commerce des Livres Probibés à Paris de 1750 - 1789 (Pans 1912). On the Dutch gazettes, see Jeremy Popkin, "The Gazette de Leyde in the Reign of Louis XVI", in Jack Censer and Jeremy Popkin (eds.), The Press and Politics in Pre - Revolutionary France (Berkeley 1987); see also, especially for Linguet, idem, "The Prerevolutionary Origins of Popular Journalism", in Baker (ed), Political Culture. For Panckoucke's all - important contribution see Suzanne Tucoo - Chala, Charles - Josepb Panckoucke (Pau 1977). For literacy rates, see Daniel Roche, Le Peuple de Paris (Paris 1981,208 - 09) and, more generally, chapter 7); for the provincial academies, see the same au - thor's classic work Le Siècle des Lumières en Province (2 vols., Paris 1978). The provincial diffusion of culture may also be understood from Daniel Mornet's classic study, based on libraries, Les Origines Intellectuelles de la Révolution Française (Pans 1910).



تكاليف الحداثة

I ـ كم كان النظام القديم جديداً؟

تذكر السيدة دو جنلي Mme de Genlis في مذكراتها الفاتنة أنها ارتدت وزوجة أخيها مثل فتاتين من فتيات الفلاحين. وجمعتا ما استطاعتا من حليب المزارع في إقطاعيتهم متنكرتين وحملتاه على ظهور الحمير إلى البيت. ثم صبتا الحليب في مغطس، حوض محلي معروف يمكنه استيعاب أربعة أشخاص، ونشرتا فوقه تويجات الورد وانتقعتا فيه لنحو ساعتين.

كان هذا على الأرجح نوع الأشياء التي فكر بها تاليران عندما ندب تلاشي العيش الرغيد douceur de vivre في النظام القديم. ومازال هذا العبث الاجتماعي، الذي يرسم مخططه فراغونار بالألوان الشاحبة، وتصمم ثيابه دايانا فريلاند، وينيره الوهج الغسقي ويعطّر بزهور الصيف، مازال باقياً كأسطورة تاريخية سارة. ولا بد من أن هناك شيئاً ما حولهم تافه وخادع للذات، مثل أن يلهو الملك بصناعة الأقفال وتنصرف الملكة إلى العناية بخروفها. وخلف فرنسا هذه الحالمة والعابثة، يهرع المؤرخون لتذكيرنا، حقيقة واقعية عادية: جيوش من الشحاذين المهزولين يموتون على الطرقات، شوارع باريس تمتلئ بالروث وفضلات الجزارين، إقطاعيون قساة ينتزعون القروش الأخيرة من الفلاحين الذين لا يجدون ما يقتاتون سوى ثريد الكستناء، سجناء يتعفنون في العنابر لسرقة قالب سكر أو تهريب علبة ملح، حصان وكلب صيد يخربان محاصيل قائمة باسم حق السيد بالصيد، لفات من الخرق البالية القذرة تودَع صباح كل يوم على درجات كنائس باريس تحتوي على أطفال حديثي الولادة مع ملاحظات مؤسية تطلب التعميد، أربعة في سرير في المستشفى الوطني يقضون نحبهم بالديزنتاريا التي يتشاركونها.

لم تتعايش هذه المتناقضات لكثر من هؤلاء الذين أصبحوا ثوريين وحسب، بل جعلوا كل منها ممكناً. فقد تغذى الثراء الفاحش والحماقة على البؤس واليأس الشديد. تخيل لويس سيباستيان مِرسييه، في عمله التخيلي المستقبلي، عام 2440، فرنسا وقد تحررت بمعجزة من الحكم الاستبدادي والفاقة ويحكمها ملك ـ مواطن ودود. في معرض مليء باللوحات الرمزية التي تمثل القرن الثامن عشر أخذ شكل عاهرة ترتدي ثياباً مبهرجة ذات خدين وشفتين ملونتين تحمل وشاحين ورديين يخفيان سلاسل حديدية.

وعلى الأرض كان ثوبها من أسمال بالية ومغطى بالأقذار، وقد غاصت قدماها في نوع من مستنقع وفيما كانت قدماها بشعتين كان رأسها يتلألأ ... وكان خلفها عدد من الأطفال بملامح شاحبة هزيلة يبكون من أجل أمهم وهم يلتهمون كسرات خبز أسود.

الانطباع الذي تنقله هذه الصور هو اليأس المقيم، عالم يحتاج لأن يُنسف إذا كان يجب أن يَغَيّر يوماً. وافتراضياً حالما صيغ المصطلح، غدا «النظام القديم» ينوء بثقل المعاني التقليدية والهرمة دلالياً، التي استحضرت مجتمعاً متكلساً بالمفارقات التاريخية، الذي يمكن لمجرد صدمة شديدة العنف أن تحرر عضويته الحية في الداخل. فهذا النظام القديم الخدر مؤسساتياً، العاجز اقتصادياً، المصاب بضمور ثقافياً والمنقسم إلى طبقات متباينة اجتماعياً كان عاجزاً عن أن يحدث نفسه بنفسه. كان لا بد للثورة من أن تهشمه إرباً قبل أن تقوم بدور المسرع العظيم على الطريق السريعة إلى القرن التاسع عشر. سلفاً، كان كل شيء يعاني من قصور ذاتي، ثم سلفاً، أصبح كل شيء فاعلاً، وسلفاً، كانت هناك الاتحادات والجماعات، ثم، جاءت النزعة الفردية والمجتمع. باختصار، كانت الثورة تصنع شرط المعاصرة.

ومع ذلك، يمكن الجدل أن الثورة الفرنسية بقدر ما كانت قطعاً للمعاصرة كانت حافزاً لها أيضاً. لكن ليس في كل النواحي، ما دامت الثورة في طورها الأكثر كفاحاً، أبدعت فعلاً سياسة من نوع جديد، انتقالاً مؤسساتياً لسيادة الإرادة العامة (حسب روسو) التي ألغت المكان والزمان الخاص، وخلقت نوعاً من عقيدة عسكرية أكثر شمولية من أي شيء عرفته أوروبا قبل ذلك. لسنة واحدة، ابتدعت ومارست ديمقراطية تمثيلية، ولسنتين، فرضت مساواة قسرية (مع أن هذا تبسيط). لكنها لعقدين من الزمن كان نتاجها نوعاً جديداً من دولة عسكرية.

لكن ليس هذا ما يعنيه معظم المؤرخين حين يكتبون عن الثورة التي تبشر بحداثة

معادية «للنظام القديم». فما يفكرون به عادة هو عالم يحل فيه رأس المال مكان العرف باعتباره فيصل القيم الاجتماعية، حيث يدير المحترفون لا الهواة مؤسسات القانون والحكومة، وحيث تقود التجارة والصناعة لا الأرض النمو الاقتصادي. وفي الواقع كل هذه الجوانب، مع أنها فترة التغيير الكبير، لم تكن الثورة بل أواخر القرن الثامن عشر. وفي الحقيقة، يمكن الجدال في أن الثورة استمدت كثيراً من قوتها من محاولتها (اليائسة في النهاية) كبح عملية التحديث لا تسريعها. وفي نواحي كثيرة كانت جميعها ناجحة بامتياز. ففي عام 1795، كانت القيمة الإجمالية للتجارة في فرنسا أقل من نصف ما كانت عليه عام 1789؛ ولم تتجاوز عام 1815 حدود 60 بالمائة. ولم ينتعش زخم التغيير الاقتصادي والاجتماعي في فرنسا إلا عندما تلاشت الثورة والدولة العسكرية التي خلقتها عند قيامها.

لقد عنى إلغاء الامتياز، طبعاً، إزالة الفروق القانونية التي تُرى بحق أنها شيء سابق للمعاصرة. ولكن بما أن توفر الألقاب كان يغدو مسألة مال وجدارة، وليس وراثة، يبدو أن هناك الكثير مما هو مشترك بين امتيازات القرن الثامن عشر والفروق الشرفية والأشكال الشائعة في كل المجتمعات الحديثة خلال القرن التاسع عشر وحالات كثيرة في القرن العشرين. ولم تكن بالتأكيد تتعارض مع بناء اقتصاد حديث أو دولة حديثة. وبالمثل، إذا كانت الثورة قد ألغت الأشكال الرسوم الاجتماعية القديمة على أراضي الإقطاعيين، فالكثير منها كان قد استبدل بالمال وتحولت ببساطة إلى ريع في «النظام الجديد».

لم يكن «النظام القديم»، إذن، مجتمعاً عجوزاً في طريقه إلى القبر. ولم يظهر أنه كان يحتضر، وهناك إشارات إلى الحيوية والطاقة حيثما يتطلع المؤرخون. بل كان النظام من الملك نزولاً إلى النخبة أقل هوساً بالتقاليد منه بالحداثة وأقل انشغالاً بالإقطاعية منه بالعلم. ومبنى اللوفر العظيم لا يحتوي على لوحات ونقوش وأوسمة الأكاديمية الفرنسية والأكاديميات الأخرى وحسب بل على نتاج الأكاديميات العلمية وأكاديمية الطب وهي المؤسسة الملكية الأحدث. وعلاوة على ذلك، فقد بادرت الملكية عام 1785 إلى توسيع أقسام أكاديمية العلوم لتشمل علم المعادن والتاريخ الطبيعي والزراعة. وإذا كان لموهوبين في الفنون مثل جاك لويس ديفيد أن يسكن في شقة باللوفر، استطاع أيضاً أساطين الرياضيات الحديثة مثل لاغرانج، أن يتمتعوا بإغراء العودة إلى فرنسا من برلين. كان العباقرة يُرَقون باكراً ويُمطَرون بالمكانة والشرف. فأصبح فوركروي، المخترع الكيميائي الأعظم في ذاك العصر، بروفيسوراً وهو في التاسعة والعشرين في الجاردان دو روا Jardin

du Roi وأحد نجوم الأكاديمية؛ وكان لغاسبار مونج، وهو ابن بائع متجول ومؤسس الهندسة الوصفية، كرسياً في الأكاديمية وهو في الخامسة والعشرين. ووُضِع آخرون في مراكز الشرف الاحترام العام، مثل لالاند عالم الفلك، وهوي Hauy عالم المعادن ولاسيما عالم الرياضيات لابلاس، الذي منح منصباً خاصا في المدرسة العسكرية.

ولم تكن هذه الحماسة للعلم قضية نظرية تأملية خالصة. فقد سعى التاج والحكومة جاهدَين، حيثما كان ممكناً، إلى تطبيق المعطيات الجديدة على الأغراض العملية. فأنتجت التقنية العسكرية مدفع الغريبوفال وبندقية المشاة المسكيت اللتين، بالإضافة إلى التغييرات التكتيكية التي قدمها المطور العظيم غوبير، أسستا هيمنة السلاح الفرنسي على مدى ربع قرن تالٍ. وكان في ضواحي باريس، في فانف، وشارنتون وجافيل حيث عدد من الورش المخصصة كلها لتطوير العمليات الكيميائية التي تساعد الصناعة: الزاج للتبييض، والغرافيت للرسم، والغازات غير القابلة للاشتعال.

لقد ساهمت الشراكة بين الحكومة والأكاديميات في مشهد التنوير الأخير ـ لاسيما تلك التي رعتها شخصيتها النموذجية الماركيز دو كوندورسيه ـ فالتجميع التجريبي للمعلومات هو الخطوة الأولى نحو مجتمع يمكنه أن يحرر نفسه تدريجياً من الفقر والجهل والمرض. وانهمر مطر من الورق من باريس على الأقاليم صمم لتوفير المعلومات التي بناء عليها تُتخَذ التدابير. لا شيء، على سبيل المثال، سبق أكاديمية الطب التي وزعت نشرة دورية عن بيئة الأمراض المحلية وإصاباتها الفصلية ومساهمة المياه الملوثة والشوارع القذرة وسوء التغذية وما شابه ذلك على 150 طبيباً. وصدرت عن اللوفر تعليمات لصناع عصير التفاح في النورماندي عن كيفية تجنب تعفن البراميل، ولفلاحي سولون التوقف عن تناول الجودار الذي تفسده الآفات الزراعية الذي كان يصيبهم بالتسمم الأرغوتي (مع تأثيرات جانبية محتملة لغنغرينا وتعفن القدمين). ونُظمت محاضرات جوالة للمدام دو كودري الرائعة قدمت خلالها دورات في المبادئ الأساسية لتوليد النساء في الأقاليم مستخدمة الرحم الآلي القادر على التقلص بمعدلات مختلفة كوسيلة إيضاح. وتلقت دعاية م. بارمنتيه للبطاطا كمحصول عجيب الذي سينقذ فرنسا من المجاعة دعماً رسمياً إلى حد أن الملكة استبدلت ورود سترتها المعتادة بورد البطاطا إيماءة إلى الاهتمام بشؤون الناس.

وحيثما استطاعت الحكومة أن تشغل نفسها بالصالح العام، فعلت. فبعد خمس عشرة مذكرة تعالج مشكلة فضلات المذبح الرهيبة، حاولت نقل بعض الجزارين من ساحة

سان جاك، والحد من الرمي العرضي للأقذار بإنشاء حفر تجميع ضخمة في مونتفاكون Montfaucon وأزعجت باسم الصحة العامة راحة الموتى (الذين كان يظن أن بخارهم المزعج يسمم الجو)، فنبشت بقايا الجثامين من كنائس باريس ونقلتها إلى مقبرة أنشأتها حديثاً في بير لاشِيز Père Lachaise، وألغي التعذيب في أرض «بالكاد» تعيش عام 1787، وفي النهاية تحقق مشروع ترغو بإعتاق البروتستانت في السنة نفسها وحلَّ رسم موحد محل مجموعة الرسوم الجمركية الداخلية المحيرة.

هذه دون أدنى شك قائمة شاملة. وثورة التفعيل الرسمية الرائعة التي تفهرسها يمكن أن تُقرأ ـ بأسلوب دتكفيل ـ كبرهان إضافي على التأثير القاتل لتدخل الجهاز الإداري. غير أن الكثير مما أُنجِز صنع فارقاً يمكن قياسه وكان إيجابياً في الغالب على حياة الناس التي تتأثر بالحكومة الحية الضمير. وكان حتى الحكام الذين كثيراً ما أُسيء إلى سمعتهم قادرين على تغيير الأوضاع في مناطقهم للخير الدائم. وجد ريموند دو سان سوفوار Raymond de Saint - Sauveur معظم منطقة روزيلون الجنوبية الغربية، ولاسيما عاصمتها بيربينان، في حالة فقر مدقع هدام عندما وصل. كان لدى المدينة مخزون أغذية لشهر واحد وكانت الطريق إلى كاتالونيا التي يمكن استيراد المزيد من المؤن منها منهارة. ودمرت الأمطار الجارفة معظم الجسور القليلة القابلة للاستعمال في المنطقة. فأعاد خلال بضعة أسابيع فتح المعابر الجبلية مستخدماً جماعات من العمال (استؤجر بعضهم من برشلونة). وقبل مضي السنة كان قد أصلح الجسور وأنشأ صفوفاً من الحواجز الحصوية والخنادق كدفاع بدائي لكنه فعال ضد المزيد من السيول في المناطق المنخفضة. وبنى في السنوات الثلاث التالية ينابيع جديدة لتزويد بيربينان بمياه نظيفة، توفرت من سبعة سبل عامة أو نقلت (بثمن) في أنابيب إلى منازل الميسورين. تم تشكيل فرقة إطفاء مأجورة من اثني عشر رجلاً دائمين، ونظام تنظيف شوارع خلال أشهر الصيف. وشيدت حمامات عامة، وأنيرت الشوارع، وخفرت المدينة ليلاً، وأقيم مشغل خيري atelier de charité لتدريب الأطفال الفقراء على «الفنون المفيدة» (تمشيط الصوف وغزله ونسجه). وذهل سان سافوار، الأب لتسعة أطفال، بجهل المبادئ الأساسية للتوليد الذي وجده خلال جولتيه التفتيشيتين الطويلتين على ظهر البغال في مناطق الجبال الداخلية فأسس دورة قبالة في بيربينان كان يمكن لكل قرية في الإقليم أن ترسل امرأة واحدة للتعلم مجاناً. وبنى منتجع مياه معدنية في التلال، يتيح علاج المرضى الفقراء كما الأغنياء.



الصورة 50، تثورت الصحة العامة المدينية بواسطة مواسير الرصاص، لوحة من وصف الفنون والمهن.

كان للحاكم أحلام أكبر لتحويل روزيلون إلى منطقة اقتصاد مزدهر محورية تمتد من لانغويدو إلى كاتالونيا لا تعيقها حدود الدولة أو اللغة. فأُنشئت جمعيات زراعية بمعونات ملكية، وأنتِجت سلالات جديدة من الخراف في المزارع النموذجية. وخفف في الوقت نفسه من ضراوة الحرب ضد مهربي الملح، موجهاً اللوم علانية إلى الضرائب العالية ومدركاً أن عمل رجال الشرطة الوحشي سيقابل بوحشية معاكسة من عصابات التهريب أيضاً. لم يتحقق الكثير من أحلام سان سافوار الأكثر طموحاً، لكنه استطاع أن يموّل برامج أشغاله العامة بالمعونات الحكومية المباشرة دون فرض المزيد من الضرائب على

السكان المحليين. لا شيء من هذا جعله محبوباً بالضرورة، وعلى غرار حكام قديرين وشرفاء آخرين، أجبر على الهرب من منصبه عام 1790، يلاحقه حشد ثوري. بيد أن منجزاته كانت أساسية في كل حال وأفصحت بصورة مصغرة عن الطاقة والفعالية التي تميزت بها الحكومة في نهاية النظام القديم.

كان لويس السادس عشر الرمز في مركز كل هذه المساعي العامة. فهناك دليل ساطع على مشاركته واهتمامه النشط في معظم هذا الشأن العام رغم إدمانه الصيد، وصمته غير المعبر في المجلس، وتسامحه المتزايد عن إسراف زوجته وأخوته. ففي اليوم الذي تلا عيد الميلاد عام 1786، على سبيل المثال، حضر حدثاً، جعله أكثر رضاً حتى من ظهوره في شيربورغ، حيث شهد الملك معجزات التنوير والعمل الخيري والمهارة في مدرسة خاصة للأطفال العميان ـ الأولى من نوعها في العالم ـ بإدارة فالنتين هوي Valentin Haüy، الأخ الأصغر لعالم المعادن العظيم. قرأ عشرون تلميذاً، جميعهم عميان منذ الولادة أو سن الرضاعة، بصوت عال من كتب طبعت خصيصاً بحروف نافرة، وحددوا أماكن ومعالم على الخرائط، وغنوا وعزفوا على أدوات موسيقية إجلالاً لحضوره. كان باستطاعة الأطفال الأكبر سناً أيضاً أن يعدوا حروف الطباعة ويغزلوا خيوطاً ويحيكوا جوارب. كان ثمة فتى في الحادية عشرة مؤثراً بشكل خاص، لو سوير Le Sueur، الذي كان أول تلامذة هوي، اكتشف يشحذ بائساً لنفسه وأخوته وأخواته السبعة، والذي غدا عندئذٍ أعجوبة الصف، ويكاد يكون أستاذاً بطريقته. أقامت أكاديمية الموسيقى أول حفل موسيقي خيري من مجموعة حفلات لهذه «المدرسة الخيرية» قبل بضعة شهور، وقد تأثرت مشاعر الملك كفاية ليهبها مبالغ ومنحاً دراسية خاصة. واخترع معهد مماثل يديره الأب لِبي Abbe L'Epe لرعاية الصم والبكم أول نظام لقراءة الشفاه، الذي مكّن رعاياه أن يعيشوا حياة طبيعية وسعيدة بالتأكيد.

وقد دمر الإرهاب هذه المعاهد باعتبارها بقايا سيئة سمعة للعمل الخيري للحكم الاستبدادي والخرافة الكهنوتية، وأعاد الأطفال إلى طيبة المواطنة بشكل عام (بكلمات أخرى، للشحاذة والاضطهاد). لكن أن يتبين في ثمانينيات القرن الثامن عشر أن بإمكان المصابين بالعمى والصمم، الذين يعامَلون تقليدياً أنهم منبوذون لحقت بهم اللعنة في المعرفة العامة، أن يعملوا ويكونوا سعداء رجالاً ونساء هو دلالة كافية على أن زمناً أفضل كان وشيكاً.

وحتى المواسم الكارثية والانهيار الصناعي الذي حدث في أواخر ثمانينيات القرن

الثامن عشر، كان هناك بعض الأسباب للتفاؤل بإمكانيات الاقتصاد الفرنسي. هنا أيضاً، بصرف النظر عن التراجع في الإنتاج الزراعي على نحو يصعب التحكم به، كان النموذج نموذج نمو وتحديث مزقته الثورة بطريقة كارثية. وترى أفضل التقديرات أن ذلك النمو في نطاق 9.1 بالمائة في السنة. لكن لم تتمكن الصناعة من أن تتقدم بمعدل يمكن مقارنته بمعدلات النظام القديم إلا خلال العهد الإمبراطوري، عندما أغلقت السلطة العسكرية فرنسا في وجه المنافسة البريطانية ووسعت الإمدادات المادية والأسواق الاحتكارية في «فرنسا العظمى».

كانت البضائع والبريد والمسافرون عام 1780، تنتقل في كل أرجاء فرنسا بمعدل وحجم وتواتر تحول دراميا عما كان عليه قبل عشرين سنة وحسب. فبواسطة عربة ديليجنس diligence السريعة والموثوقة (مع أنها كثيرة الارتجاج) كانت تستغرق الرحلة ثمانية أيام من باريس إلى تولوز بدلاً من أربعة عشر يوماً، وثلاثة أيام إلى نانسي بدلاً من أسبوع ويوم واحد إلى أميان بدلاً من اثنين. كانت عربة روان تغادر باريس كل يوم ظهراً وتصل إلى مقصدها في اليوم التالي صباحاً. ومع أن العمل لُزِّم لشركة خاصة، فقد أحكمت الدولة قبضتها على أسعار عادلة للمسافرين والبضائع. فقد كانت أجرة مقعد داخلي في عربة ليون، على سبيل المثال، 114 فرنكاً، متضمنة الطعام والمبيت. ومن جهة أخرى، كانت أجرة المقعد في المقاعد العلوية خمسين فرنكاً دون طعام، فيُسمَح للمسافر أن يحمل حقيبة واحدة مجاناً شرط ألا يتجاوز وزنها عشرة أرطال.

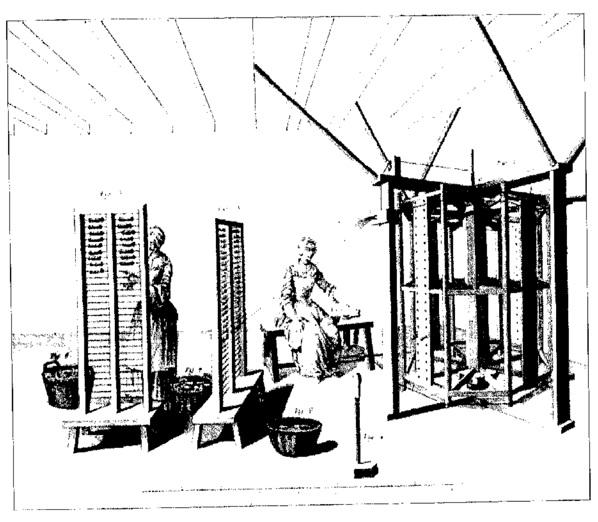
لقد أدى تحسين المواصلات ـ بواسطة شبكة أقنية مائية وطرق برية ـ إلى توسيع الأسواق. وإذا كانت فرنسا لما تزل بعيدة عن نوع السوق الموحدة وطنياً الذي كان قائماً عملياً في بريطانيا، فقد كان ينبعث من نزعتها المحلية المفرطة. ففي أواخر حكم لويس السادس عشر، لم يكن يباع ويُستهلك أكثر من 30 بالمائة من إجمالي البضائع الزراعية (أكثر السلع بطئاً في الوصول إلى اقتصاد السوق) خارج مراكز إنتاجه. ولو أن هذا لم يعنِ أكثر من حمل عربة من البيض والحليب والخضار تنقل من مزرعة أو قرية إلى بلدة صغيرة، فقد مثَّل ذلك تغيراً بالغ الأهمية في الاقتصاد الريفي وتبدلاً في حياة الفلاح القائمة على تأمين قوام العيش إلى مزارع يتعامل بالنقد. ثم صنع الإلغاء التقدمي ـ والمفاجئ جداً آنذاك ـ لحواجز التعرفة فارقاً كبيراً للتجارة الأكثر بعداً، لاسيما إذا أخذ المرء بعين الاعتبار أن حمل أخشاب من اللورين إلى البحر المتوسط كان يواجَه بأربعة وثلاثين رسماً جمركياً مختلفاً في إحدى وعشرين محطة عبور.

كانت التجارة الفرنسية الدولية كذلك، عشية الثورة، أفضل من أي وقت مضى، قدرت قيمتها بمليار ليفر، تركز معظمها في الموانئ المزدهرة للاقتصاد الأطلسي. فقد خبرت بوردو تزايداً في عدد السكان مثيراً للإعجاب عائمة على التجارة الاستعمارية مع مستعمرات الكاريبي الفرنسية، من 60,000 نسمة عام 1760 إلى 110,000 عام 1788. وكان يعاد تصدير 87 بالمائة من السكر و95 بالمائة من القهوة و76 بالمائة من النيلة من الكمية والقيمة الهائلة للبضائع التي كانت تُفرَّغ هناك بربح كبير. وقد شاركت موانئ أخرى مثل نانت في بريتاني في التجارة المنتعشة ـ بالعبيد وبضائع المستهلك أيضاً ـ واستفادت مجموعة كاملة من المرافئ من التجارة والخدمات الإضافية الهامة مثل، صناعة السواري والأشرعة وإصلاحات السفن، مخازن المدفعية البحرية وغير ذلك. وبالمثل كانت مارسيليا، على البحر الأبيض، في موقع تُحسَد عليه، تتاجر بشكل أساسي مع بلدان شرق المتوسط، وتصدر أيضاً بضائع صوفية من صناعات لانغويدو المزدهرة.

حتى الصناعة الفرنسية، الباهتة دائماً مقارنة بالتوسع العظيم الذي يحدث في بريطانيا، كانت تنمو في نهاية النظام القديم. كانت فرنسا بلا منازع القوة الصناعية الأكثر أهمية في القارة، ومع أن إنتاجها بالأرقام المطلقة يبدو شاحباً بجانب الأرقام البريطانية، كان معدل نموها في بعض القطاعات متفوقاً في الواقع. فقد كان الناتج في كل من القطن المصنع واستخراج الفحم، على سبيل المثال، ينمو بنسبة 3,8 بالمائة في السنة. حيث ازداد الإنتاج 700 بالمائة خلال النصف الثاني من القرن في مناجم أنزين العظيمة وحدها، وارتفع رقم القطن المصنع في فوغس نسبة 1,800 بالمائة. وبلغ نمو فرنسا في الصناعات المعدنية نسبة 500 بالمائة بين عام 1720 وعام 1790 مقارنة مع نسبة 100 بالمائة في بريطانيا. ووضعت معلومات أخرى المقارنة في منظور الأهمية النسبية. ففيما كان 25 بالمائة مما يقدره المؤرخون نمواً في الناتج الوطني الإجمالي في بريطانيا كان صناعيا عام 1790، كان الرقم المكافئ في فرنسا 20 بالمائة (صحيح نصفه تقريباً جاء من صناعة الأقمشة). سيكون بلا جدوى الادعاء أن فرنسا كانت تعبر نوعاً من الانفجار التصنيعي كما في بريطانيا، ولكن ما لا يمكن دحضه بالمثل هو أن الخط البياني عشية الثورة كان يتجه بحدة إلى الأعلى.

لم يكن هذا مجرد معطيات معلومات، مع كونها مؤثرة. كانت روح الإنتاج المقاولاتي والدقة التقنية اللتان غالباً ما افترض أنهما مفقودتان من فرنسا تبين أنهما موجودتان في الواقع. فمنذ مطلع ستينيات القرن الثامن عشر، على سبيل المثال، تعهدت

أكاديمية العلوم سلسلة مجلدات رائعة تؤلف معجم الفنون والحرف. وإذ استخدمت كليشيهات غزيرة الإنتاج ذات تقنية بالغ الدقة وجمال رائع، لم تكن تلك المجلدات مجرد مؤلفات أساسية حول تقنية الصناعة التقليدية بل حول أحدث الآلات أيضاً. وفيما بدأت بمجلدات عن الحرف الفاخرة ـ بورسلان، زجاج، أثاث ـ لكن سرعان ما توسعت لتشمل الكثير من عمليات الإنتاج الصناعي في الفولاذ والفحم وصباغ الأقمشة وإنتاج الحرير الآلي وتكرير السكر. وقد كتب مجلدات الإنتاج الآلي للقطن، على سبيل المثال، رولاند دو لا بلاتييه Roland de la Platière، المفتش العام على صناعات إقليم بيكاردي في الشمال الشرقي.



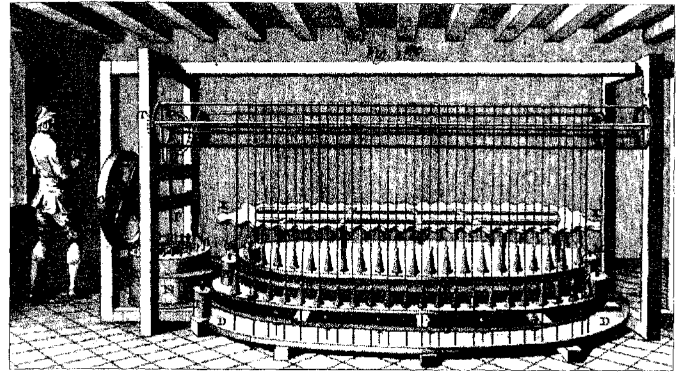
الصورة 51، رومانسية التقنية قد طعمت هنا على مدونة رسم زيتي تغزل فيها امرأة وتنسج التي ترمز إلى الفضيلة.

لوحة، صنع الحرير من وصف الفنون والحرف.

وبدا أن مشاريع جديدة تشمل المكننة تقفز إلى الوجود كل شهر تقريباً في ثمانينيات القرن الثامن عشر، تربط رأس المال بالتقنية. وقد جلبت في بعض الحالات استثمارا جديدة لاهتمامات قديمة ضعفت بسبب الحاجة إلى رأس المال. ففي عام 1786، أنشئت شركة جديدة، بتشجيع من المدرسة الملكية للمناجم التي افتتحت عام 1783، برأسمال كبير، لإعادة فتح مناجم نحاس بيغور في البيرينيه الفرنسية. وكان الشركاء الذين وقعوا عقد الشركة خليطاً مثالياً لأرستقراطيين من عالم المال العالي (سانت جيمس وباش دو مونتغويون)، قضاة ذوو عقول رجال أعمال مثل (فرانسوا جان رومل) ورجال بنوك مثل تيلوسون وسييه. وكان النجاح الآخر العظيم هو الاتحاد الذي شكله الأخوة بيرييه لتشغيل محرك ضخ آلي جبار في شايو Chaillot صمم لتزويد باريس بمخزون مياه نظيفة لأول مرة.

وقيل الكثير، حتى أكثر مؤرخي ذاك الزمن تفاؤلاً قال ذلك، إن فرنسا كانت في الواقع اثنتين. الأولى تتعصرن، في محيط باريس وحوضها، مع تجارة أطلسية ومتوسطية مزدهرة؛ أقمشة في الشمال الشرقي لاسيما في شامبان والمناطق الشرقية؛ الفحم في با دو كاليه؛ أفران التعدين والسباكة في اللورين. كانت هذه فرنسا ذات رأس المال المركَّز والعمل والتقنية المبتكرة (حتى لو كان بعضها مسروقاً من البريطانيين في البداية) والاستثمارات المغامرة، والمواصلات الجيدة، فرنسا التي يوجهها السوق. لكنها تتعايش مع فرنسا أخرى في المركز: منومة ولامبالية، منغلقة على تقاليدها القديمة والمحلية في العرض والطلب، لا تقلقها أية دوافع سكانية قوية، حيث المدن محكومة بالقانون، ويشرف رجال الدين والحكومة على مناطق ريفية نائية تكَوِّن الجزء الأعظم من قوام عيش الفلاحين والمزارعين. حيث كان يقابل كل مولهاوس وهايانج وبوردو أماكن أخرى كثيرة مثل تور، حيث اشتكى الحاكم عام 1783 أن السكان «يفضلون الكسل الذي ترعرعوا فيه على الاهتمام والعمل القاسي المطلوبين في المشاريع الكبرى والاستثمارات الجريئة.

هناك الكثير من الحقيقة في هذا التباين، لكنه يحجب عمليات هامة أخرى كانت، إذا عنت أي شيء، تميل إلى حث فرنسا النائمة على النهوض، والتي جعلت توزع المشاريع الصناعية والتجارية بطريقة أكثر عدلاً. وكان أكثرها تميزاً التكاثر الضخم للصناعات الريفية الصغيرة في ضواحي المراكز الأكثر عراقة. وإذ تحرر المقاولون من قيود النقابات القديمة، أخذوا يقدمون المواد الخام بشكل متزايد إلى حائكي وناسجي القرى (ويزودونهم أحياناً بالأدوات الرئيسية) ويستلمون البضائع المصنعة مقابل أسعار متفق



الصورة 52، لوحة معمل قطن من وصف الفنون والحرف

عليها مسبقاً. وهكذا فقد قبع خلف الاقتصاد الهاجع ظاهرياً في المدن المتوسطة الحجم والصغيرة عملية نشر تجارة شاملة في الريف. ظُنَّ لبعض الوقت أن هذا عامل معيق لعملية التصنيع، لكن أينما حدث (في معظم أرض الراين، على سبيل المثال، كما في فرنسا) يمكن أن يرى بوضوح أنه مكمل أكثر من أنه منافس لتحديث التصنيع. وقد بقيت بعض العمليات ـ مثل النسيج ـ صناعات ريفية صغيرة، بينما سرعان ما أصبح الغزل مركَّزاً في المعامل الآلية. هكذا كان الأمر في فلاندر الفرنسية، مثلاً، حيث كانت خسائر ليل صناعة روبِاي ـ توركوين Roubaix - Tourcoing.

وفي بعض المناطق غيرت هذه الشراكة النصف صناعية والنصف منزلية الاقتصاد المحلي. ففي حالة مدينة محكمة غرينوبل، عمل أكثر من ستة آلاف رجل وامرأة داخل جدران المدينة وفي ضواحيها لنحو ستين صانع قفازات، يقصون ويخيطون ويعطرون الجلود المدبوغة ثم يدرزون ويطرزون المنتجات المنتهية. وقد آوت بعض المحلات الكبيرة حوالي عشرين عاملاً، لكن الأكثر شيوعاً كان نموذج الأربعة أو الخمسة حرفيين يتقاسمون مكاناً منزلياً.

وقد تطورت تطوراً معقداً مدن أخرى متوسطة الحجم، مثل روان في النورماندي، التي رأت سلعتها الرئيسية التقليدية ـ الأقمشة ـ تتضاءل في مطلع القرن. وأحيا بعض

الرأسماليين الإنتاج باستيراد تجهيزات مصانع بريطانية وإنشاء معامل غزل حديثة، فيما ظل آخرون يستخدمون العمالة الريفية. ونوعت المدينة ذاتها تجاراتها، فصدرت المزيد إلى منطقة باريس وأماكن أخرى في النورماندي، وصنعت بضائع للحرفيين الريفيين المحليين الذين يمكنهم في الأوقات المناسبة أن يشتروها وجهزوا سوقاً للمنتج التجاري وعولجت المنتجات الزراعية للسوق. وربما كان لروان سمعة لا تحسد عليها باعتبارها المدينة ذات الرائحة الأكثر كراهية وغير الصحية في شمال فرنسا، لكنها اقتصادياً كانت واحدة من أكثرها نشاطاً. وعند نهاية النظام القديم كانت تنتج (بالإضافة إلى القطن المصنع) الجوارب الصوفية، القبعات، البورسلان، الورق، السكر المكرر، الزجاج، الصابون، الكتان المبيض بطريقة كلور بريثوليت الجديدة، منتجات النحاس وحمض الكبريت.

كانت روعة خلايا النحل هذه التي تئز بالفعالية التجارية ما أبهج قلوب المتفائلين مثل المركيز دو كوندورسيه. مع أنه كان متحمساً لرؤية إمبراطورية العلم والمنطق تدفع جانباً آخر المعوقات المؤسساتية لهيمنتها، آمن أنه لا يوجد سبب يفسر عدم حدوث ذلك في ملكية إصلاحية متنورة مثل مملكة لويس السادس عشر.

II - رؤى المستقبل

لم تعبر رؤية النظام القديم للرأسمالية الخيرية أبداً عن فرحه التطوري بطريقة غير تقليدية كما في ميثاق م. فورتشن ريكارد Testament of M. Fortuné Ricard الرائع. وقد كتب الميثاق، الذي نُشِر كملحق لطبعة فرانكلين الفرنسية المعروفة عالمياً، بعنوان **تقويم ريتشارد الفقير**، شارل ماثون دو لا كور، وهو رجل آداب وناقد فني من ليون. يتذكر م. ريكارد الخيالي في النص جده ذاته، الذي علمه القراءة والحساب ومبادئ الفائدة المركبة عندما كان يافعاً. قال وهو يخرج 24 ليفر من جيبه: «تذكر يا بني، أنه مع الاقتصاد والحساب الدقيق، لا يوجد مستحيل أمام الإنسان. إذا استثمرتها وتركتها دون أن يمسها أحد، فسيكون لديك ما يكفي لتقوم بأعمال خير من أجل راحة روحك وروحي عند دنو منيتك».

وفي سن الواحدة والسبعين كان ريكارد قد جمع 500 ليفر من المبلغ الأصلي. ومع أنها لم تكن ثروة كبيرة، فقد كان لديه خطط عظيمة لها. فقسمها إلى خمسة أجزاء من 100 ليفر، واقترح أن يودَع القسم الأول لمائة سنة والثاني لمائتي سنة وهكذا دواليك. وسيولد كل جزء بهذه الطريقة مبالغ يمكن من خلالها تمويل برنامج طموح على نحو

متدرج. سيغل المبلغ الأول، بعد قرن، مجرد 13,100 ليفر، ستقدم جائزة منه لأفضل مقالة لاهوتية تثبت انسجام التجارة والدين. وبعد مائة سنة أخرى سيوسع المبلغ الثاني وقدره (1,7 مليون ليفر) برنامج هذه الجائزة إلى ثمانين مكافأة سنوية لأفضل عمل في العلوم والرياضيات والآداب والزراعة «مثبتة من خلال المحاصيل الأفضل» ومكافأة خاصة «للأعمال الفاضلة». والمبلغ الثالث (بعد ثلاثمائة سنة) سيبلغ أكثر من 226 مليون ليفر، يكفي لإنشاء خمسمائة «صندوق وطني» في كل أرجاء فرنسا للخلاص من الفقر وللاستثمار في الصناعة والزراعة، يديره «أكثر المواطنين أمانة وحماسة». وسيكون المبلغ المتبقي وقفاً لاثني عشر متحفاً في باريس والمدن الرئيسية في فرنسا، يؤوي كل منها أربعين مفكراً متفوقاً في كافة الحقول. يعيشون براحة لكن ليس بثراء، سيكون لديهم قاعة موسيقى ومسرح ومخبري كيمياء وفيزياء ومعارض تاريخ طبيعي ومكتبات وحدائق اختبار ومعارض وحوش. ستفتح المكتبات والمجموعات الفنية للعامة كل يوم مجاناً ويقدم أعضاء المتحف محاضرات عامة كل في اختصاصه. ولن تُقبَل العضوية «إلا بعد تقديم برهان، ليس على النبالة، بل الأخلاق «وأن يقسموا» أنهم يفضلون الفضيلة والحقيقة والعدالة على كل شيء آخر».

هذه أشياء تتسم بالاندفاع لكنها لا شيء مقارنة مع ما سيلي في القرنين الرابع والخامس في وصية ريكارد. حيث سيفي المبلغ الرابع (30 مليار ليفر)، كما فكر، لبناء مئة مدينة جديدة «في أجمل المواقع التي يمكن للمرء أن يجدها في فرنسا» يعيش في كل منها أربعون ألف نسمة، مصممة على خطوط مثالية من الجمال والصحة والتعاون. وسيكون ممكناً بالمبلغ الأخير (3,9 تريليون ليفر) حل كل ما تبقى من مشاكل العالم. ستفي ستة مليارات الدين الوطني الفرنسي (حتى مع معدل تبذير آل بوربون)؛ وستفعل 12 مليار كبادرة شهامة وبداية نوايا طيبة الأمر ذاته للبريطانيين. وسيذهب الباقي إلى صندوق عام ليوزَّع بين كل قوى العالم **شرط ألا تذهب إلى الحرب فيما بينها**. وفي نهاية كهذه، سيخسر المعتدي مصدر ثرائه، الذي سوف ينقل لضحية الهجوم. ومن مبلغ اختصت به فرنسا، ستُسوَّى كل المشكلات المربكة: ستُشترَى كل المناصب الفاسدة فوراً؛ وستضع الدولة نظام قابلات ورعاة أبرشيات بأجور محددة؛ وسيسوَّى وضع نصف مليون قطعة أرض غير محروثة وتعطى لفلاحين بحاجة لأرض. ستغطي المدارس البلاد و«مآوي الملائكة» المخصصة لفتيات سن السابعة، اللواتي ستتم تنشئتهن للحياة والتعليم المفيد وسيُعطَين مهوراً عندما يبلغن الثامنة عشرة ويتخرجن. وأخيراً، ستزود المدن بالحدائق

والساحات والنوافير، ويقضي على مصادر العدوى ـ بتصريف مياه المستنقعات وتجفيف الحمآت ونقل المقابر إلى وديان نائية وجميلة.

ستولد هذه المدينة الشاملة ـ التي هي هجين من رؤى روسو وكوندورسيه عن الجمهورية المثالية ـ ليس بالثورة أو العنف، بل ببساطة وتدرج عملية الفائدة المركبة. كانت ثمرة من ثمرات الخيال المطلق في فرنسا المُحدَّثة دون ألم التي تتحول بالحكمة الجماعية ورأس المال المدخر إلى محسن ليس لفرنسا ذاتها وحسب، بل للعالم كله. اعتنقت رؤيا ماثون دو لاكور للمستقبل العصرية دونما حس بالخوف من شر مرتقب. وفي الحقيقة بنيت قلعتها في الغيوم على ما رآه أنه إنجازات حكومة متنورة واضحة وغير محدودة. لم يكن شرطها الصريح أن يثبت أعضاء نخبتها المفكرة «ليس نبلهم بل أخلاقهم» دعاية معارضة للأحوال السائدة، بل تنسجم معها.

ومع ذلك قدر آخرون أن المعاصرة ليست نعمة بل نقمة. فمركزة رأس المال والتقنية، في قوة عمل الإنسان المديني والتجارة الريفية، التي أبهجت «معاصرين» مثل كوندورسيه، لوَّنت معلقين آخرين بالكآبة والتوجس. وملأت المعاصرة، أكثر من أي شيء، الكثيرين منهم بنوع من سخط مشروع حوَّلهم إلى ثوريين.

ارتدَّ عدد كبير من هؤلاء المتشائمين إلى متفائلين. عندما نشر سيمون لينغيه Simon Linguet ـ الذي نجده في كل مكان باعتباره صوت التغريب ما قبل الثوري ـ مذكرته الأولى عن الهموم الاقتصادية في عام 1764. حيث اقترح آنذاك تعميق نهر سومي وحفر قناة جديدة عبر منطقة بيكاردي لربط مدينة أميان بالبحر. وقد عرف أن هذا سيواجه بمعارضة من سادة النسيج أصحاب الامتيازات في أبيفيل Abbeville، وهي مدينة لا تبعد إلا أميالاً قليلة عن مصب النهر. لكن رؤيته كانت من نوع الاستثمار الذي يسوي مصالح المدينتين ويخلق مكان شكهما المتبادل طاقة اقتصادية مشتركة. كانت هولندا نموذجه حيث، افترض (مخطئاً تماماً)، أعار الغنى المشترك دعمه لمثل هذه المشاريع وتجنب مظاهر الخيلاء التي لا قيمة لها مثل الأبنية التذكارية ومساكن المدينة الأرستقراطية. شابت المشروع، مع أنه نوقش بفصاحة، مسحة تشاؤم واقعية بشأن إمكانيات الاتفاق. (في الواقع، أعيد إحياؤه في ثمانينيات القرن الثامن عشر بمقياس أكبر كثيراً وربما كان سيشاد لولا الثورة.)

ومهما كانت خيبة لينغت في ستينيات القرن الثامن عشر، فقد أحاط بثقافة الحداثة التجارية على الأقل. لكنه بدَّل رأيه بعد عشر سنوات وخلال، وزارة ترغو، شنَّ على سياسة تجارة الحبوب الحرة هجوماً مدمراً إلى درجة أنها أُوقِفَت. فقد رسم لينغت مشهداً

كثيباً لأهوال المجتمع الصناعي في مسار الجدل ضد هاجس الفيزيوقراطيين بالفوائد طويلة الأجل وتجاهلهم لاحتياجات الحاضر. وإذ عاد إلى أبيفيل، مع سادتها يضطهدون عمل أيديهم فيأخذونه أو ينبذونه كما تملي دورات العمل التجاري، أوقف معادلة رأس المال والتقنية مع الرخاء والسعادة التي قدمها الطبيعيون وكوندورسيه على رأسهم. في أي مدينتين «يمكنك أن تكون متأكداً من أن المدينة حيث معظم الناس هم عند نقطة الموت جوعاً هي المدينة التي تُستخدَم معظم الأيدي فيها بتشغيل المكوك. لا تملك مدينة في فرنسا أنوالاً أكثر من ليون وهكذا فليون هي المدينة الفرنسية ذات العدد الأكبر من الفقراء المعوزين إلى الخبز. «في هذا المكان العديم الشفقة قد يُبنى مشفى جديد لكنه لن يكون كبيراً كفاية ليؤوي» كل أولئك الذين كدوا خمسين سنة في صنع الحرير... . يذهبون إلى هناك يئنون ليموتوا على فرشات من القش». لقد ظن أن الرأسمالية الصناعية وعدت بالجنة وقدمت النار. خلقت سيداً جديداً من المقاول وصنعت من كادحيه المدينيين ساكني كهوف شبه بشر، حُكِم عليهم أن يعيشوا في «بيوت».

> *هي جحور عادية مثل تلك التي تبنيها القنادس؛ حفر مظلمة حيث تلجأ قطعان الحيوانات الكادحة، لا تتنفس إلا هواء نتناً، يسمم بعضها بعضاً بعدوى لا يمكن تجنبها في ذاك الحشد، الذي يستنشق في كل لحظة بذور الموت في الوقت الذي يكد فيه دونما راحة ليكسب ما يكفي ليطيل حياته البائسة.*

كانت بلاغة لينغت رؤيوية وحلوله (مثلما كانت) غريبة لكن ليست دون معنى. كان رده على أزمة الخبز المستمرة، على سبيل المثال، أن يتوقف الفرنسيون عن هوسهم بالحبوب ويتوجهون إلى طعام يعتمد على البطاطا والسمك والذرة والخضار والأرز. بل كان مستعداً لمحاولة إقناعهم بأن الكستناء (التي كانت تعتبر أسوأ من الجوع) إذا أعدت بطريقة مناسبة، قد تكون مستساغة ومغذية.

كان هناك آخرون، أيضاً، الذين أشعل رفضهم النزعة التجارية والمدينة الحديثة نيرانهم الثورية. لم تتجه كراهيتهم المتناقضة للنظام القديم ضد ما حفظه، بل ضد ما دمره. لقد مجّدوا عرضاً كاملاً من أنماط إنسانية متخيلة ومثالية: الحرفي الماهر المستقل (راجع صانع الساعات، الذي غالباً ما كان أطفاله) الذي دمرته الآلات، تحول إلى بدوي متنقل يسن السكاكين أو منظف مداخن ترك ليحط من قدره كبائع جوال في الغابة المدينية؛ وحارث الأرض الذي دمره جشع سادة الإقطاع الذين سلبوه نقوده لدفع ثمن بيوتهم الفخمة في المدينة، أو الذين، باسم حقوق الملكية المطلقة، ألحقوا الحقول العامة التي

رعى فيها أبقاره وأغنامه بأراضيهم أو رفضوا إعطاءه ممراً إلى الغابات حيث جمع وقوده. كان المجادلون روسو التطبيقي، لكنهم سيوجهون عام 1789 استغاثة مميزة إلى أعداد كبيرة من الناس الذين تضرروا حقاً من الطرق الموصوفة، إلى هؤلاء الناس، الذين فاقمت سرعة تحديث الملكية وضعهم ولم تلطفه. وما أرادوه لم يكن تنويراً اجتماعياً أو أشغالاً عامة بل عدالة بدائية.

لم يعبر أي عمل عن هذا الحس بالغضب ضد عالم مقسم إلى ترف وإملاق أفضل من مجلدات ميرسييه الاثني عشر صورة باريس. كان هو أيضاً مثل لينغت متفائلاً محسّناً، مع أن نزعته التفاؤلية كانت دائماً أضعف قوة من تشككه. تحولت فرنسا في كتابه سنة 2440 إلى جنة من نموذج فضيلة روسو، ترتفع فوق أطلال فرساي وأنقاض الباستيل ويحكمها ملك متواضع وحي الضمير. وضع مواطنوها أصحاب الجدارة قبعات كُتِبت أسماؤهم عليها لكن النبالة المتوارثة قد اختفت. يبدو أن كل هذا قد حدث بالسحر السياسي. فقد قيل لزائر المستقبل، «لا يحتاج الأمر إلا إلى صوت قوي لإيقاظ العامة من نومهم.... . والحرية والسعادة ملك أولئك الذين يمتلكون جرأة على الاستيلاء عليهما». ومع ذلك لم يظهر ذلك الاضطراب الرؤيوي للعنف الذي سرعان ما رأى مرسييه أنه حتمي.

غدا ميرسييه نوعاً ما من خبير بالكوارث مفتوناً بكل من الجيولوجيا التي أشارت إلى نظامية الاضطرابات الأرضية الكبيرة في تاريخ الأرض الأساسي، وعلم الآثار الذي تضمن نظيرها في الحضارات السابقة. راقب فرنسا ولاسيما باريس من منظوره في منفاه بسويسرا مسرعاً على طول المسالك التي أعدها العلم والتجارة نحو دمارهما ذاته. وقد رحب بذلك ايجابياً كمطهر مخيف لكنه ضروري لتنظيف المدينة من الإفراط في كل من الغنى والفاقة. «هل تبيد حرب أو طاعون أو مجاعة أو هزة أرضية أو فيضان أو حريق أو ثورة سياسية هذه المدينة الرائعة؟ ربما تجلب تركيبة من هذه الأسباب مجتمعة دماراً ماحقاً.

كانت باريس ولما تزل لمرسييه مكاناً عفناً ينز بالقذارة والدم ومستحضرات التجميل والموت، وبنوع ما من كائن شره لا يقاوَم. تعرقت بمتع حيوان لاحم ودفنت نفسها تحت كفن مريض من البؤس والعوز. أحب مرسييه معرض القصر الملكي ورعب الحفرة الضخمة المكشوفة من الأجساد في كلامار. كانت الاستعراضات والمسرحيات الهزلية في الهواء الطلق ومشهد المساجين المحكومين في بيسيتر وهم يُهشّمون بقضبان فولاذية على عجلة التعذيب؛ والعاهرات في العربات المذهبة؛ والشرهون المتخمون بالطعام الشهي

إلى درجة كلّت فيها أفواههم؛ والنتانة التي تنبعث من المجاري والقنوات المكشوفة؛ والمنتحرون يرمون أنفسهم من جسور السين.

أعلن لويس سيباستيان مرسييه، نصير كتابة روسو عن الجحيم المديني من موقعه في مونت بلانك الحرب على عاصمة إمبراطورية المال والموت الشاسعة. وقد تصورت مخيلته الرومانسية، التي تعمل على رؤيا من السمو والفظاعة، تخيل زلزالاً هائلاً كونياً. حيث ستهتز الأرض وتنفتح في زلزال ثانٍ مثل زلزال لشبونة، و«خلال دقيقتين سيُهدَم عمل قرون، وتُدمَّر قصور وبيوت، وتُهدَم كنائس، وتمزق قناطرها إرباً.. .».. ستكون تصفية حساب العدالة مع النزعة المادية، فلا يمكن لجمهورية مواطنين حقيقية أن تولد إلا من مثل يوم الحساب هذا.

CHAPTER FIVE

THE COSTS OF MODERNITY

Fernand Braudel, L'Identité de la France, vol. 2 Les Hommes et les Choses (Paris 1986, especially 267 - 306), emphasizes the importance of pre - Revolutionary industrial growth in France, as well as (238 - 39) the rapid growth of market possibilities through the transfor.

mation of communications between the 1760s and the 1760s. For further detail on commercial and industrial change in the old regime. see Ernest Labrousse et al., Histoire Economique et Sociale de la France (vol. 2, 166o - 1789), especially the contributions of Pierre Léon, "L'Elan Industriel et Commercial" (499 - 528). For French Atlantic trades, see Paul Butel, "Le Commerce Atlantique Français sous le Régne de Louis XVI", in Le Régne de Louis XVI (Actes de Colloque International de Sorèze 1976, 63 - 84). On the application of science to industry, see the essay by D. J. Sturdy in the same volume. On other aspects, see C. Ballot, L'Introduction du Machinisme et l'Industrie Française 1780 - 1815 (Paris 1923); G. Chaussinand - Nogaret, "Capitalisme et Structure Sociale", in Annales: ESC (1970); and R. Sedillot, Les de Wendel et l'Industrie Lorraine (1958). For evidence of the entrepreneurial ethos in pre - Revolutionary France and a specific appeal for a commercial nobility, see, for example, [L.H. Dudevant], L'Apologie du Commerce (1777); also the elaborate and fascinating account of coal and ore mines in Exposition des Mines (1772). many of which, including the Anzin coal mines, were noble - owned. The most spectacular document of elite interest in industrial technology (as well as in the mechanization of older craft and luxury trades) is the multivolume Description des Arts et Métiers (Académie Roy - ale des Sciences, Paris 1761 - 88) - for example, L'Art du Fabricant de Velours de Coton, commissioned from the Academy of Science in 1779 specifically with British competition in mind and to exploit French West Indian raw cotton supplies from Guadeloupe, Saint - Domingue and Cayenne.

On the intendants, see Vivian Gruder, The Royal Provincial Intendants (Ithaca, N.Y., 1968); and for the practical details of their administration, see the superb collection of documents and correspondence published by R. Ardascheff as Pièces Justificatives, volume 3 of his monumental work, Les Intendants de Province sous Louis XVI (Paris 1900 - o7), from which I drew material on Saint - Sauveur in the Roussillon.

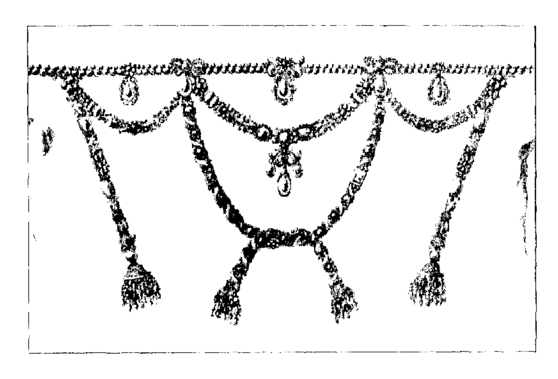
On the blind school, see Valentin Haüy, Essai sur L'Education des Aveugles (Paris 1786), which includes a description of the royal visit on December 26.

The emblématic depiction of eighteenth - century France in L. S. Mercier's L'An

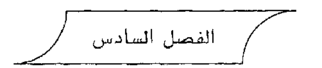
2440 (3 vols, 1786 ed.) is in volume 2, p. 68ff. See also Henry Majewski, The Pre - Romantic Imagination of Louis - Sébastien Mercier (New York 1971). Mercier is also interestingly discussed by Norman Hampson. Will and Circumstance. Linguet's more optimistic writing on economic change is in his Ménoires sur ten Objet Interessant pour la Province de Picardie (The Hague 1764), and his apocalyptic comments on industrialization are cited in Levy, Ideas and Career (86 - 87). his Annales Politiques for 1777 (83 - 84) has a wonder - fully evocative account of the extremes of wealth and poverty in France's economic acceleration.

القسـم الـثانـي

آمـــال



الصورة 53، قلادة الملكة الماسية



هيكل السياسة

I ـ غضب أقارب الأم وعقبات السلالة الملكية

كان هنا نوع من قلادة حجمها أكبر من المعتاد، باختصار كان ذلك دارجاً في ثمانينيات القرن الثامن عشر، عرفت باسم **النهر**. وكما يوحي الاسم، التف حول الرقبة وتدفق بلطف فوق الصدارة نحو الخصر. وفي الوقت الذي كانت الأزياء تغدو فيه أكثر بساطة، كانت قلادة **النهر** مادة مبهرجة، مرتبطة كثيراً بالممثلات في القصر الملكي، اللواتي لن يتوردن خجلاً من عرض كرم المحسنين إليهن. في إحدى الأمسيات في المسرح رأى صديقان شابان مثل **ذلك النهر** تماماً يصب فوق الفستان المقور الصدر لمحظية رائعة. ولاحظ أحدهما، «انظر إلى هذه، **نهر** ينساب إلى الأسفل كثيراً». وأجاب رفيقه، «ذلك لأنه **يعود** إلى منبعه».

لم يكن المزاح عن الجنس والجواهر أمراً جديداً. لكن في عام 1787، سيلاحظ قراء المجلة التي تنشر الشائعات **صورة باريس المتحركة** *moving tableau of paris*، حيث كان الهزء يُنشَر، أكثر من تورية جنسية ملطخة. تلطخت سمعة الملكة لسنتين بفضيحة، كانت واسطة العقد فيها قلادة ماسية من 647 ماسة متألقة و800، 2 قيراط. صنعها جوهريا القصر بومر وباسينج، والمدام دو باري في البال، غير أن لويس الخامس عشر توفي قبل أن يتمكنا من تسليمها. كان سعر 1، 6 مليون ليفر بنداً مدمراً في قائمة جرد سابقة، وقد بدت ماري أنطوانيت زبونة محتملة منذ البداية. كانت بالفعل قد اشترت من الشركة نفسها قرطي «ثريا»، ودبوس زينة وسواراً. وعندما شحت مواردها المالية ذهبت مراراً إلى الملك، الذي يدللها عادة. وقد أبدت نقطة ضعف نحو الماس بوصفها امرأة

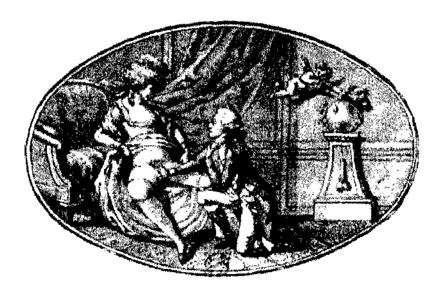
شابة الأمر الذي أبلغ عنه السفير النمساوي الذي لم يكن موافقاً على ذلك، الأمر الذي أكسبها توبيخاً قاسياً من أمها الملكة ماريا تيريزا التي كتبت لها: «يمكن لملكة أن تحط من قدرها وحسب بهذا النوع من التبذير الطائش في الأوقات العصيبة».

بحلول ثمانينيات القرن الثامن عشر، بدا أن ماري أنطوانيت قد حفظت هذا الدرس في القلب، طالما أنها أصبحت أكثر وعياً في تجنب الترف الجلي. وفي أية حال امتنعت مراراً عن اقتناء القلادة. يدفعه القلق (وربما معرفة ضعف ماري أنطوانيت أمام الدراما البرجوازية التي تهرق الدموع) اصطنع الجوهري بومر مشهداً في البلاط، فسكب دموعه، وصرخ، وأغشي عليه وهدد بالانتحار ما لم تأخذ الملكة القلادة من يديه. لم ينفع الأداء العظيم شيئاً. ولو أنها مالت إلى تجاهل النداءات الرسمية من أجل الاقتصاد، لم تكن الأشياء ذات الحجم الكبير من ذوق الملكة. كانت بمجملها مبالغاً فيها ـ نوع من السوقية المنفوشة ضمتها إلى دائرة دو باري. وإذ رفعت الجوهري الناحب عن ركبتيه نصحته أن يفكك القلادة ويحصل على ما يستطيع من الحجارة المفصولة.

ستقطَّع هذه الحلية المزخرفة الدينصورية إلى قطعها حقاً، لكن ليس صانعها من سيفعل ذلك. في الواقع لم يبدأ تاريخها الشعبي بعد. لأنها غدت الجائزة في خدعة ثقة لجرأة تحبس الأنفاس. قضية القلادة الماسية ـ كما أصبحت بالأحرف الكبيرة ـ كثيراً ما استغلت كمشهد فضائحي ثانوي للدراما «الحقيقية» للخزينة الفارغة، دراما الفلاحين المتضورين والحرفيين الهادرين الذين أنذروا بنهاية الملكية الفرنسية. بدت أدوار الشخصيات، التي عرضت أمام جمهور القراء الفرنسيين عندما كشف عن المؤامرة الغريبة في صيف 1785، نماذج مثالية لنظام يأكله الدود بالفساد: كاردينال فاسق، ساذج، أرستقراطي؛ مغامرة ماكرة تدعي أنها تتحدر من ملوك فرنسا الفالوا؛ دجال من نابولي قال إنه ولد في المشرق العربي وباستطاعته الوصل بفنون الشفاء المستورة؛ خادمة شقراء وخط الشيب شعرها اختيرت في القصر الملكي لتمثيل شخصية الملكة؛ دائنون سيئو حظ يعصرون أيديهم ويفرقعون براجمهم؛ عدد من صانعي الجواهر من أرصفة باريس ومن البيكاديللي وشارع بوند، الذين ألقوا على مناضدهم حقائب سوداء أرجوانية ملفوفة بألماس بحجم بيض السمن. وكانت ماري أنطوانيت في مركز ذلك كله بالضبط، على نحوٍ لا يمكن تجنبه. كان ذلك تحولها في الرأي العام من ضحية بريئة إلى مستهترة مدانة، من ملكة فرنسا إلى «مومس نمساوية» *(putain autrichienne)*، التي ألحقت الضرربشرعية الملكية إلى درجة لا يمكن حسابها.



الصورة 54، صور الكاردينال دو روهان، جين دو لا موت، نيكول لو غوي وشخصيات أخرى في قضية القلادة الماسية.



الصورة 55، «دستوري»: مثال غرافيك متأخر لجسم السياسة، يحتمل أنه يعود إلى أواخر 1790. يد لافايت على «جم - هورية» الملكة.

لم يكن هناك ما لا يمكن اجتنابه في هذا الشأن. فقد كانت الملكة لاعباً ثانوياً مهملاً في المكيدة حتى غدت القضية تحت الضوء. غير أن الهيستريا المتراكمة حولها، حتى قبل أن تخرج المكيدة إلى العلن، عنت أنها ستكون مشتبَهة بالتواطؤ، وفي إغواء الآخرين إلى حتفهم في خدمة شهيتها التي لا تشبع إلى الترف: وهو تعبير يدمج الثراء الفاحش والدافع الجنسي بطريقة تخدم المعنى.

لقد صممت ماري أنطوانيت في كل الطرق سقوطها بالذات، مهما كان ذلك غير متعمد. كانت بالضبط سمعة عاطفتها الطفولية البسيطة ما جعل لويس، كاردينال روهان، يعتقد أن بإمكانه استعادة مركزه في البلاط من خلال وصالها، بدلاً من التقرب إلى الملك مباشرة. فقد أبقى آل بوربون عائلة روهان الغنية جداً ذات التاريخ الطويل في التآمر، والمتباهية بالفندق الأكثر روعة في ضاحية مارايه Marais، على صلة لصالح الطرفين. كانت فترة دو روهان سفيراً إلى فيينا كارثية بالمثل، منفرة والدة ماري أنطوانيت، الإمبراطورة ماريا تيريزا.



الصورة 56، هجاء رمزي لطقوس عربدة ماري أنطوانيت.
يرمي الملك تاجه فيما تمسك ملكة وحشي الصولجان.
«يغدو الشعب بلا شرف ويستحق قيوده عندما يطأطئ رأسه
تحت صولجان الملكات» التعبير المنقوش على اللوحة.

كان تشوق دو روهان المعروف ليكون مقبولاً في فرساي الحظ الذي كانت جين دولا موتي تبحث عنه بالضبط. ادعت أنها تنتمي إلى آخر ملوك الفالوا، هنري الثاني، وهي التي ولدت في فقر ريفي مدقع وقاتم، وكانت بهذا النسب الرث أيضا قد مثلت نوبات إغماء في طريق السيدة اليزابيث، أخت الملك، إلى أن فازت بفرصة لتروي لها قصتها عن الأصول النبيلة المداسة بالأقدام. وإذ أصيبت السيدة إليزابيث بصدقها الجلي، عينتها في موقع متواضع في فرساي، الذي تقدمت منه لتقنع دو روهان أنها إحدى حميمات الملكة. وإذا ما قدم لها عرضاً من حين إلى آخر، فثمة احتمال كبير بأن يستحم يوماً ما في شعاع ابتسامة ماري أنطوانيت. نهض دو روهان مثل عثة إلى اللهب، وأخذ يزود جين بمبالغ من المال بشكل دوري مفترضاً أنها ستذهب لأعمال خيرية مفضلة لكنها في الواقع ذهبت عادة إلى صانع ثيابها.

كان الفصل الحاسم في كوميديا الإقناع هذه قد اقتبس مباشرة من **زواج فيغارو**. ففي العاشر من آب 1784، ألبست جين دو لا موتي مصممة القبعات الشقراء (التي وصفت فيما بعد، دون إنصاف، أنها عاهرة مبتذلة) نيكول لو غاي Nicole Le Guay ثوب الملكة المفضل من الموسلين الأبيض وأدخلت إلى أيكة فينوس في حدائق فرساي في الساعة الحادية عشرة ليلاً. هناك وجدت الكاردينال منتظراً فدفعت وردة واحدة في يده. وكان لديها سطرٌ واحدٌ لتقوله (مع أن دو روهان تخيل فيما بعد أنها نطقت اثنين) - «تعرف ما معنى هذه» - قبل أن تهرع عائدة إلى العتمة التي جاءت منها. وإذ داخ فرحاً بإشارة العطف هذه التي انتظرها طويلاً، أصبح دو روهان ألعوبة بيدي جين دو لا موتي. وانتقلت مبالغ أكبر وأكبر من أحدهما إلى الآخر.

أتى العرض بالمصداقية، وفي تشرين الثاني جعلت الجوهري (اليائس الآن) يأتيها بالعقد فيما كان دو روهان مسافراً. وعندما رجع أقنعته أن الملكة ترغب باقتنائه وتدفع أربعة أقساط. كان واضحاً أن رسالة مزورة تفوض الكاردينال بالعمل باسمها أكدت ذلك. كان على دو روهان، باعتباره سفيراً، أن يلاحظ أن الرسالة موقعة بشكل غير صحيح «ماري أنطوانيت فرنسا»، لكن الانتباه لم يكن دعواه القوية أبداً. وفي 29 كانون الثاني 1785، جُلِبت القلادة إلى قصر الكاردينال وانتقلت فوراً تقريباً إلى رسول الملكة المزعوم (عشيق جين، دو ريتو). جزأها وشرع بالعمل المخادع ببيعها كمواد مسروقة في أنحاء باريس. عندما ثارت الشبهات، أخذها زوجها المتآمر إلى لندن، حيث باع الحجارة،

جزئياً مقابل نقد، وجزئياً مقابل أشياء من ضمنها دبابيس زينة من الياقوت وعلب عطوس مطلية وزوج ملاقط هليون من الفضة.

ذهب النجاح برأس جين فجأة، وطاشت. فقد غدت قادرة على أن توفق بين ممتلكاتها وادعاءاتها وفضلت لقب «البارونة فالوا دو لا موتي» واشترت عقاراً كبيراً في بار ـ سور ـ أوب Bar - sur - Aube التي شق طريقه إليها ما لا يقل عن اثنين وأربعين حمل عربة من الغنائم الأنيقة ـ مفروشات آدام، أعمال فنية، مطرزات أوبوسون ـ في ربيع عام 1785. وفي غضون ذلك، انتظر الكاردينال من الملكة أن تتباها بحليتها الجديدة وتعطيه إشارة ما، أية إشارة، من نعمة. لكن خاب أمله. جاء قداس الشموع (الذي قالت الملكة، في رسالة، أنها رغبت أن تلبس القلادة فيه) وذهب. ومرت أسابيع وأشهر. والأمر الأكثر جدية، لم يأتِ المال الذي كان يفترض أن يدفع منه دو روهان القسط الأول 40.000 قطعة فضية في الأول من آب. كان بوهمر، الجواهري الذي يجيد التقديم المسرحي، ما زال في جهل سعيد من هذه الصعوبات. في 12 تموز دفع برسالة في يدي الملكة أشارت إلى أن «الماس الأكثر جمالاً في العالم يعشق أعظم وأفضل ما في الملكة». وقد افترضت ماري أنطوانيت أنه قد فقد عقله مجدداً وحرقت الرسالة.

وعشية اليوم الذي كانت فيه الدفعة الأولى مستحقة، أعلمت جين دو روهان أن المال لن يتوفر حتى تشرين الأول. فحاول أن يهدئ صانعي الجواهر، اللذين كانا يرزحان تحت ضغوط الدائنين. مذعنة بغرابة لكشف المؤامرة، أخبرت جين دو موتي صانعي الجواهر مباشرة أنهما قد خُدِعا برسالة مزورة. فذهبا بدورهما لمقابلة مدام كامبان، وصيفة الملكة، في 5 آب. لم تستغرق الحقيقة المخيفة وقتا كي تظهر، وفي الخامس عشر استدعي دو روهان إلى حضرة الملك. اعترف بأنه قد ضللته امرأة تدعي أنها تعمل للملكة وتوسل إلى الملك أن يخفي الفضيحة من أجل عائلته. لكن لويس، بشكل يمكن فهمه، كان في قبضة غضب أبيض، فأمر بالقبض على الكاردينال وزجّه في الباستيل.

فيما كان على تارغيت محامي دو روهان أن يصفه مكبلاً «بالأغلال» في الباستيل، انتقل في الواقع إلى شقة فرشت خصيصاً خارج أبراج السجن حيث أمضى تسعة أشهر يستضيف تياراً لا ينقطع من الزوار المميزين، وحيث قدمت وجبات خفيفة من المحار والشامبانيا للضيوف، وجُلِب للكاردينال كتباً مختارة من مكتبته وحاشية من خدمه لمساعدته في التغلب على مصاعب الأسر.

ومع ذلك، كانت كلمة **الباستيل** (بعد ظاهرة النجاح التي حققتها **مذكرات** لينغت،

التي أسهبت في الحديث عن عذاباته) كافية لضمان أن يغدو دو روهان شهيداً في نظر العامة. فقدمه سيل عظيم من الكتيبات والنشرات أنه الضحية المثيرة للشفقة لاضطهاد حاكم مطلق. في محاكمته أمام محكمة باريس، لعب تارغيت بمهارة على موضوع آخر مثير للشفقة في العهد الأخير للتنوير مدعياً أنه لم يُوقّع بالكاردينال إلا «لإفراطه بالصراحة "crédule par excès de franchise"، وبساطة طبيعته، وطيبة مزاجه الواثق بالناس، ودافعه الفروسي لخدمة الملكة إلخ. وقد ساعد الدفاع واقع أن بعض ذلك كان حقيقياً على الأقل. فقد كان، في الواقع، غراً ساذجاً بسجل أخلاق شخصية بائس. غير أن ذلك لم يكن كافياً ليستحق القوة الكاملة للادعاء الملكي، وكانت النتيجة (مع أنها بهامش بسيط) براءته. كانت جوقات التهليل العامة عالية جداً وثائرة جداً إلى درجة جعلت دو روهان يعود مباشرة إلى الباستيل لليلة ريثما تهدأ الأمور كفاية ليخرج بأمان.

نشرت خلاصة دعوى المتهم، باسم **مذكرات**، في مجموعات ضخمة وتوفرت على نطاق واسع للعامة، كما كانت هناك رسومات للمتهمين الرئيسيين، حيث أصبحت الإجراءات نوعاً من مسرح عام مُثّلت فيه الدراما المنافية للطبيعة والعقل أمام عدد هائل من المشاهدين. وأصبح واضحاً قبل مضي وقت طويل أن من كان يُحاكم لم يكن دو روهان، ودو لا موتي والمشاركون معها في المؤامرة بقد ما كان النظام القديم ذاته. ومع أن فرص البراءة لبعض المتهمين كانت ضئيلة، والحق يقال، فقد هرع بعض أكثر محامي المحكمة قوة وفصاحة إلى تولي القضية بسبب وهج إشباع الغرور إلى الدعاية. ويستطيع المؤرخ من قراءة الخلاصات أن يرى مباشرة أنهم قاموا بعمل رائع منوعين مرافعاتهم اعتماداً على مزايا الزبون الخاصة، لكن ثمة في كل قضية احتكاماً إلى فكرة أو أخرى من الأفكار الثابتة في ثمانينيات القرن الثامن عشر.

كيف يجب الدفاع عن نيكول لو غوي، «بارونة دوليفا»، كما كرمتها جين دو لا موتي بسخاء؟ دعاها المدعي العام عاهرة، لكن الدفاع قدمها فتاة ضعيفة، تيتمت في سن باكرة، واستقرت في غرفة صغيرة في شارع دو جور du Jour قرب سانت أوستاش (في الأرجح ملائم كثيراً للقصر الملكي) وعملت مصممة قُبعات لتؤمن لقمة عيشها، مخلصة لحبيبها أغراها وعد دولا موتي بخمسة عشر ألف ليفر مقابل لعب دور الملكة. بكلمات أخرى كانت طفلة الطبيعة الحساسة القابلة للسقوط، وقد وُظّفت لوحة غروزيه الثلاثية الأبعاد لخدعة بارعة هي أنه ليس لديها إلا ومضة فهم واهنة جداً. وقد ساعدتها الأنباء بأنها ولدت طفلاً غير شرعي في الباستيل لتعزز انطباع الشفقة هذا. وكذلك فعلت عدم

قدرتها على أن تجيب على أسئلة المحكمة خلال ذرفها للدموع. كان ذلك واضحاً، كما ادعى محاميها بلوندِل، أن للفتاة (روحاً) *de l'ame*. وقد بُرِّئت. أصبح كاليوسترو، المشعوذ المغمور، متنبئ الكاردينال الشخصي بادعائه التواصل مع آلهة النيل والفرات. استغل تأثيره لإقناع دي روهان أنه بالفعل كان مفضلاً لدى الملكة. وإذ اتهم بالتبجح أن عمره ألف سنة وسخافات أخرى، تبنى الدور غير الملائم المشكك بالتنوير، فأعلن مباشرة أنه في السابعة والثلاثين من العمر ـ ومع ذلك استغل الولوع بالاستشراق من خلال الاستمرار بالادعاء أنه ولد وترعرع في المدينة ومكة وسافر إلى شرق المتوسط ليكتسب «فنه». وقد سجن هو وزوجته أيضا في الباستيل، وأثار كاليوسترو مشاعر المحكمة بمرافعاته التي تناشد مشاعر الأسى لديهم عند رؤية مثل هذين الزوجين القرينين ينفصلان. «أكثر النساء لطفاً وفضيلة قد جرت إلى الجحيم نفسه؛ تفصلها جدرانه السميكة وأقفاله عني... . تئن ولا يمكنني سماعها» والكثير من هذا الحكي الطنان الرنان.

وحتى جين دو لا موتي وجدت تقنية عملية. فناشدت التاريخ، إلى ذكرى الفالوا الذين قالت إنها تتحدر منهم، ومخططات النسب المتقنة الملوح بها لإثبات القرابة. في الحقيقة، ربما لم تكن مزورة بالكامل. كان هناك، في ثمانينيات القرن الثامن عشر، طائفة متنامية من الفرسان المحبطين، التي ربطت نفسها بالكراهية الرومانسية للجديد، لعالم يهيمن عليه النقد والفساد. وكان هذا العالم بالضبط ما مثلت جين دو لا موتي عناصره الطبيعية. وقد أعدت لتقدم نفسها يتيمة فرنسا القديمة، بطلة من الريف، بريئة ضلت مثل فتيات قصص رستيف دو بريتون العديدات المحذرات اللواتي سقطن. مع أنها قد تبدو مذهولة، فقد ألحقت الندوب بسمعتها المبتكرة ذاتها مقابل سمعة الملكة، مدعية أن ماري أنطوانيت قد رغبت بالقلادة بالفعل، وأنها كتبت العديد من الرسائل لتقول ذلك وأنها كلها أصلية، وليست مزورة. (حرق دو روهان كل الرسائل التي رآها، في حماسته التي في غير محلها لإنقاذ الملكة من الحرج، بحيث لم يعد هناك دليل أثبات معاكس يمكن أن يقف ضد هذا الادعاء).

لم يُجدِها هذا نفعاً في المدى القصير. أدين زوجها غيابياً بالعمل في سفينة شراعية مدى الحياة. أدينت وأرسلت إلى لا سالبترير La Salpetriere دون تحديد مدة، لكنها حكمت أيضاً بالجلد العلني وثوب الإعدام حول رقبتها، وأن توسم بالحرف v (مقابل voleuse ـ سارقة). في لحظة الخزي العظيم هذه، وفي حضور حشد هائل، انزلقت يد الجلاد من الكتف حيث يجب أن يسمها وحرق بدلاً من ذلك علامة كبيرة تحت الجهة

الداخلية لصدرها. لا أحد رأى ما حصل سينسى ذلك. عندما هربت من السجن بعد عامين إلى لندن، حيث شنت نقداً لاذعاً حاقداً ضد الملكة، وقد وجدت جمهوراً جاهزاً.

كانت الضحية الرئيسية للإصابة الحقيقية في كل القضية هي: ماري أنطوانيت (مع أن وضاعة الملك في المضي بالقضية على نحو مؤذٍ تناقضت مع معنى الكاردينال السيئ الطالع للشرف المهدور). بطريقة ما تكتنفها الألغاز، وحدها الملكة برزت من القضية بصورة المسرفة والمومس المنتقمة التي لا تتورع عن فعل أي شيء لتشبع شهواتها. فقيل إنها تعمدت علناً أن تدمر دو روهان لأنه لا يستجيب لعروض صداقتها غير المحتشمة (سيناريو مدهش) وتلاعبت على نحوٍ حاقد بِـ دو لا موتي لتوقع به. جعلتها أكثر النشرات هجاء وخيالا آنذاك مرتبطة بأفعال سحاقية مع جين، التي نبذتها عندما بدت الخيارات الجنسية الأخرى أكثر إثارة. وقد أكرِهت على أن تعترف بهذا المشهد: «يا لها من نشوة! لقد ظننت أنني رأيت أوليمبوس ينفتح وأنني دخلت، لأن نشوتي ليست بشرية».

ما كان شيء من هذا أن يحدث لو لم يكن هناك مسحة غنية ولا أخلاقية في السلوك الجنسي المثير في البلاط لِلوصل عليه. ومع أن هذا النوع من الفن كان قديماً للغاية (يدين بشيء لسويتونيوس Suetonius وفيما بعد لأريتينو Aretino) فقد تطور إلى طور ناضج بشكل خاص خلال السنوات الأخيرة من حكم لويس الخامس عشر، عندما أصبح «سجل ماخوره» الخاص في فرساي، Parc aux Cerfs (حديقة الأيائل)، رائجاً، لم ينافسها في المبيع سوى النسخ التي لا تحصى من حكايات مدام دو باري، التي كتب نموذجها الأصلي بيدانزات دو مايروبير Pidanzat de Mairobert. لقد جعل دعم ماري أنطوانيت «للثالوث» السيئ السمعة المؤلف من تيراي وموبو وداغويلون Terray, Maupeon, and d'Aguillon الهجائين المناهضين لموبو أن يربطوا الجنس بالطغيان. فغدت القصص العامة عن اللواطة والزنا وسفاح القربى والممارسات الجنسية الجماعية نوعاً من الكناية عن تكوين مريض. عندما مات لويس الخامس عشر فجأة بسبب الجدري على الأرجح، أشيع أن ناقلة المرض فتاة جلبتها له مدام دو باري.

كانت البنية السياسية لفرنسا والبنية الجسدية للعاهل، في مخيلة العامة، واحدة وذات الشيء. كان جسد الملك دائماً مملكة عامة، وكانت منطقة أو أخرى من مناطقها تمتاز بكونها موقع السلطة الخاص. وضع ملوك الفرانك الميروفينجيين Merovingian Frankish سرهم المقدس في خصلات شعرهم الطويلة المتدلية. حتى عندما جردهم الكارولينجيون «محافظو القصر» من سلطتهم، تم الحفاظ على الميروفينجيين طواطم

مقدسة، بالغت حد الكمال بطول ضفائرها إلى الخصر، وتُجلَب في عربات تجرها الثيران كي تضفي الشرعية على خلفائها. عبدت طقوس البلاط في فرساي الجسد الملكي حيث بني التسلسل التراتبي تبعاً لمن يلبس الملك خفه أو يناول الملكة قميصها. كان جسد لويس الرابع عشر ـ في الواقع هيكل ضخم استثنائي ـ يبرز لرعاياه كما لو أنه قد نصب بقوة فوق بشرية. كان يقال عن شهية الملك الاستثنائية أنها نتيجة تجويف معدة أكبر مرات عديدة من الطبيعية (لأنه بخلاف لويس السادس عشر لم يسمن مطلقاً) وكانت مقاييسها الإلهية ما وُصِف للعامة كما ينبغي بعد فحص الجثة.

في نظام قائم على حكم السلالة، تقع أكثر المناطق أهمية في جسد الملك تحت الخصر دون منافس. وبالمقارنة مع نظرائهم في أماكن أخرى كثيرة، كان آل بوربون ناجحون جداً في إعادة إنتاج أنفسهم. وكانت معدلات الموت الكارثية بين الأولاد البكر توازنها قدرتهم على إنتاج ورثة ذكور قبل أن يموتوا. وهكذا كان لويس الخامس عشر الحفيد الأكبر للويس الرابع عشر، ولويس السادس عشر حفيد سلفه. وبالعودة إلى الظروف الغامضة لموت الملك العجوز، أُلّف الكثير عن قرار لويس السادس عشر أن يُلقَّح. فيما برزت البثور على الجذع الملكي، أعلنت الأنباء عن تقدمها المرضي إلى العالم في الخارج. أرسلت ماري أنطوانيت لأمها الإمبراطورة الأمر ذاته (التي كانت بكل جوارحها مع الإجراء)، معلقة بشكل خاص على البثور المثيرة للخوف التي ظهرت على الأنف الملكي. لكن بينما كان هذا مثالاً جديراً بالإعجاب لرعيته، تركزت آمالهم الأكثر إلحاحاً على مكان آخر. فعلى مستوى الإجماع العام لدى الملك باعتباره أباً للوطن ثلاث واجبات رئيسة: أن يؤمن الخبز لشعبه، وأن تفوز مملكته بمعاركها، وأن تُزوَّد بالورثة. وفي السنوات التي تلت توليه كان هناك شكوك على الهدفين الأوليين غير أن فشله في الشأن الأخير أثار معظم التعليقات.

ومع أن ابنتهما الأولى ولدت عام 1778، لم تُشبَع آمال السلالة إلا عندما أنجب وريث بكر بعد ثلاث سنوات. فأقيم حفل عظيم في أوتيل دو فيل؛ أطلِقت فيه الألعاب النارية وأقيمت المآدب فرحاً في شوارع باريس؛ وذهب وفد من نساء السوق بالفعل لتهنئة الملكة.(سيعدن بعد ثمانية سنوات في مزاج غير ودي.) كان الفرح عاماً لأن مجرد قدرة الملكة على حمل أطفال كان موضوع تعليق لاذع من العامة لبضع سنوات. والمشكلة الحقيقية، في أية حال، تكمن في شريكها. فلعدة سنوات(ليس مؤكداً عددها)، كانت العلاقات الجنسية بين لويس وماري أنطوانيت معقدة، إن لم تكن في الواقع معوقة، بسبب

ضيق فتحة قضيب الملك. وهذه حالة تحرم القلفة من مرونتها، وتجعل الانتصاب مؤلماً. هكذا كان الجماع، من وجهتي النظر الزوجية والسلالية، بلا حماسة وغير مرض. كانت الملكة مرتبكة وتعيسة؛ مشى الملك على خطى الخنزير الذكر والغزال الذكر بكل الحماسة التي يمتنع عنها في الفراش. يبدو أن الشريكين أسرا لجوزيف الثاني عندما زار أخته عام 1777، طالما أنه كتب تقريراً طبياً مميزاً عن المشكلة بدوره إلى أخيه ليوبولد.

لدى (لويس) انتصابات قوية وسليمة، يدخل العضو، يبقى هناك دون حراك لدقيقتين ربما وينسحب دون أن يقذف لكن لا يزال منتصباً ويقول تصبحين بخير؛ وهذا غير مفهوم لأنه أحياناً تأتيه انبعاثات ليلية عدا مرة واحدة في محلها وهو يحاول في هذا، ويقول بوضوح لا يفعل ذلك من قبيل الواجب أبداً.

يبدو أنه نجم عن هذا التدخل الأخوي في هذه القضية الحساسة عملية جراحية بسيطة لتصحيح الوضع غير الطبيعي. وفي آب ـ بعد شهرين من رسالة جوزيف ـ كتبت ماري أنطوانيت مبتهجة لأمها، موضحة بجلاء أن زواجهما الآن أصبح «مكتملاً تماماً».

كان فشل الحمل الملكي من أن يتحقق في السنوات السبع الأولى من الزواج كافياً، في كل حال، ليطلق الألسنة بالقيل والقال وينهي الفترة الجميلة التي استمتعت فيها ماري أنطوانيت بالمجيء إلى فرنسا. ومع ذلك كان موقفها ذاته من موقعها هو ما ألحق الأذى الأكثر جدية. لقد ترعرعت في بلاط هابسبورغ حيث نبذت مظاهر الاحتفالات التقليدية والتشريفات لمصلحة حكومة أكثر بساطة، وأسلوب أكثر مشاركة. جاءت أمها نفسها إلى العرش فتاة صغيرة في لحظة كارثية في تاريخ الإمبراطورية ـ خسارة سيليسيا لمصلحة فريدريك العظيم ـ وقد تعلمت الاستبدادية المتنورة بالطريقة الصعبة. كان أخوها جوزيف محطم أصنام شهيراً عندما يصل الأمر إلى طقوس الأدب في البلاط. ومع ذلك فهم كل منهما متى يجب على الملوك أن يكونوا «خدم الدولة» وكان ذلك هاماً بشكل خاص لإظهار صورة المخلص الذي يضحي بنفسه من أجل رعاياه.

لكن كان هذا السلوك الرزين تحديداً هو ما استخفت به ماري أنطوانيت عندما وصلت إلى فرساي. كانت عروساً في الخامسة عشرة وملكة في التاسعة عشرة، وأسرفت مثل كل الفتيات المراهقات من جيلها في النهل من الأدب العاطفي. كانت مكتبتها مليئة بريتشاردسون وروسو ومرسييه وحتى ريستيف دي بريتون. كان عشقاً للورود، وعلى الأرجح الأبيض الفرح وبغض الرسمية المتبلدة، بعد كل ذلك، الفضائل الدارجة. لكن كان يفترض أن يُخبأ كل ذلك خلف قناع الولاء.

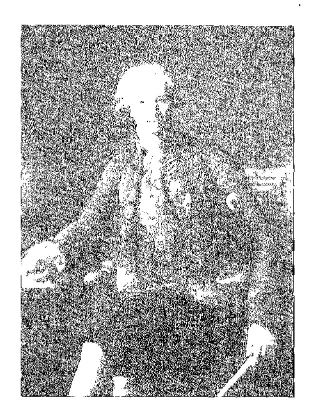
غالباً من البداية، لم تقم الملكة بأي تنازل لدورها العام. فهقهت على حروب نق الوصيفات، تثاءبت أو تنهدت بتكبرعلى الاحتفالات المسلم بها والتي لا تنتهي التي خلفتها عارية في برد شقتها في فرساي فيما تابعن مناقشة عملية تغيير الملابس الملكية أو انتقاء الوشاحات الملكية. والأسوأ من كل ذلك، بدأت تتمرد ضد ارتداء المشدات والمخصرات تماماً. وكانت أخوات الملك مضجرات، وزوجات أخوته غير متعاطفات بطريقة عدوانية، والأسوأ، كن حاملات. ثم بدأن يفهمن تدريجياً أن ماري أنطوانيت ليست مستعدة لتسلم نفسها إلى الدور الاعتيادي الذي تلعبه ملكات البوربون وأميراته: إنتاج الورثة بعيداً عن الأنظار بعض الشيء وترك الملك يلهو كيفما يشاء. وإذا ما حدث شيء، فقد انعكست الأدوار، بقي لويس مرتبكاً، ومنعزلاً ومنكفئاً فيما أصبحت زوجته تحب الخروج بجرأة. وقد صدم أخوها بالتحدي غير المهذب لهذه الأعراف. وكتب لأخيه ليوبولد: «لا تحترم القواعد وتخرج وتركض في الجوار وحدها أو مع قلة من الناس دون إشارات خارجية لمكانتها. تبدو تفتقر إلى اللياقة قليلاً، وإذا كان هذا مناسباً لشخص دون منصب عام فهي لا تقوم بعملها...».

رأى جوزيف بوضوح أن أخته أرادت امتيازات ودلال الملكية وأن تبقى حرة في المطالبة بأنها حقاً فرد دون منصب عام. وقد تنبأ بأن هذا سيؤدي إلى فقدان شعبيتها في البلاط، وسيقوض شرعيتها. لكن ماري أنطوانيت بقيت عازمة على تصميم هويتها الخاصة. فرفضت مستشارتها المعينة رسمياً، الأميرة نوايبه Noailles، واختارت أصدقاءها الشخصيين. كانت الأولى في هذه المجموعة الأميرة دو لامبل de Lamballe، التي مات زوجها بالسفلس، وتركها أرملة في التاسعة عشرة. وألحقت بها الأميرة دو غويميني de Guémenée، في النهاية والأكثر كارثية، الفاتنة على نحو لا يقبل الجدل لكن الغبية يولاند دو بوليناك. لم يكن أي من ذلك ليخلق مشكلة كبيرة لولا حقيقة أن الملكة استخدمت سلطتها لتمطر الهدايا والمناصب والأموال على صديقاتها المفضلات. وما أرعب المقتصد مالرب أن الملكة أحيت منصب المشرف على منزل الملكة الزائد عن الحاجة، بأجر 150.000 قطعة فضية في السنة مخصصة للأميرة دو لامبل. وجاءت مع كل واحدة من المفضلات قبيلة كبيرة من الأقارب والأصدقاء الحميمين الذين التصقوا بجوانب سفينة الدولة الملكية بعناد القشريات البحرية. كان هناك عمات مفلسات، أخوة مبذرين، جدود أوغاد، بارونات معدمين ومزارع مرهونة في الأنتيل، يجب أن تسوّى أوضاعها جميعاً وجعلها ناجحة. وهكذا ما بدا للملكة بريئاً كفاية ـ أن تسدي معروفاً لصديقاتها ـ بدا لحكم

أقل تحيزاً مثل شبكة هائلة من الوظائف العاطلة والكسب غير المشروع؛ إمبراطورية «مدام عجز الميزانية»، كما دعاها أخو زوجها بروفنس Prouvence.

وبقدر ما كافحت الملكة أكثر من أجل الاستقلال، بدا عدم اللياقة يكبر. وإذ أُحبِطت بمزاج لويس غير المرح وانشغال أخيه بروفنس التام بمتع الطعام والشراب، لابد أن الأخ الأصغر، أرتوا، قد بدا مثال الأناقة والسحر وعلى نحوٍ يمكن تخيله الذكاء (مع أن هذا يمطّ المصداقية). لكن، دون شك، جعلها أرتوا تشعر أنها ذكية وحلوة شمائل و- بعينيها الكبيرتين وشفتها السفلية الناتئة وظل ذقن آل هابسبورغ - جميلة. وقد أمضيا وقتاً طويلاً معاً في المسرح، وعلى طاولة اللعب وحفلات الموسيقا الرشيقة التي كانت تسلية باريس الموسيقية كل ليلة. وكانا من أنصار غلك Gluck ضد خصمه بيسيني؛ ويا للعجب، كانا من أنصار بومارشيه. وأنشأا معاً مسرح هواة البلاط في التريانون، حيث عرضا عمل روسو **عراف القرية** وعمل بومارشيه **حلاق اشبيليا**.

كان هناك **موظفون فرسان** آخرون في المتناول للقيام على إطراء الملكة وتسليتها: آرثر ديلون Arthur Dellon، دوق لاوزون Duc de Lauzun، أكسل فون فيرسن Axel von Fersen، بارون بيزينفال Baron de Besenval، أمير ليني Prince de Ligne ولاسيما كونت فودرويل Comte de Vaudreuil. عدا لاوزون - الذي عبث غاضباً مع الملكة في إحدى النزهات إلى مضمار السباق في سهل دو سابلون لأنه عوقب بالإبعاد - لم يكن أي منهم من خلفية نبيلة عريقة. كانوا جميعاً حسب الشائعات غير المتسامحة واضحي النسب الأجنبي أو الخليط: كان آل ديلون إيرلنديين - من أنصار جيمس الثاني، وكان فيرسن من جنود البلاط السويديين، وجاء الأمير ليني من عائلة هابسبورغ الهولندية. وقد بدا جلياً أن الملكة شعرت بارتياح مع هؤلاء الأجانب والحديثي النعمة أكثر منها مع طبقة البلاط العريقة، غير أن المفضلين لديها تملقوا شعورها بالغربة. وقد بدأت حملات الهمس التي تعقبت سلطانها في القصر ذاته. كان فودرويل هدفاً خاصاً. جاء من عائلة لديها مزارع في الهند الغربية وقد لفت الأنظار إليه في مجتمع باريس بتبديده ثروته من زراعة قصب السكر متحرراً من كل قيد قدر ما استطاع. وكانت خليلته المفضلة لدى الملكة، يولاند دو بوليناك، وقد فتح له هذا بدوره ليس مجرد نعمة وجود الملكة بل مجموعة من الوظائف أيضاً - بعضها مربح جداً، وجميعها ذات مكانة عالية. ففي سنة 1780 وحدها صار المسؤول الأكبر عن طيور الباز في فرنسا وحاكم ليل وقائد معسكر. وبدوره، تابع فودرويل مصالحه الخاصة. فعمل على أن تغدو إليزابيث فيغي - ليبرُن Vigée - Lebrun،



الصورة 57، للرسامة إليزابيث فيغي ـ ليبرُن الكونت فيردويل

التي رسمت عام 1784 صورة الكونت محملة بالزينة، أهم رسامة في البلاط (ليس أكثر مما كانت تستحقه)، وينضم أخوها إلى مجموعة سكرتارية الملك، وهكذا أسبغ عليه النبالة، ويلتقي زوجها ـ التاجر زبائن كثر من علية القوم وأصحاب المال بشكل دائم. لقد استمتع فودرويل بأن يكون منشر غسيل النظام القديم، وأفضل ممثليه الهواة (بإجماع عام ألمافيفا مُلهَم). يجرجر ديوناً هائلة، ويخربش لأصحاب الوظائف أن يدفعوا تلك الديون دون أن ينجح تماماً، ربما مثّل فوردويل كل ما تصوره الثوريون عندما وصفوا البلاط أنه ملعب أطفال فاسدين وجشعين.

ومعظم الظن أن هؤلاء الرجال (عدا، ربما، فيرسن وهذا، بعد زمن طويل) لم يكونوا أي شيء أكثر من مجموعة أصدقاء يمكنها أن تطري الملكة. لكن الأسلوب غير الرسمي الذي شجعته والظهور الذي خاطرت بممارسته في المسارح الثلاثة الرئيسة في باريس: الكوميدي ـ فرانسيز والأوبرا والكوميدي إيطاليان (ضد رغبات الملك المعلنة) ـ كان محتماً أن تلعب فيه أيدي مروجي الإشاعات ومروجي الصور الإباحية. لم تكن ماري أنطوانيت مستعدة على الإطلاق لنوع النقد الذي فتحت نفسها عليه من خلال إعادة تصميم الهوية الملكية: كانت **الطبيعة** الكلمة الدارجة بحلول ثمانينيات القرن الثامن عشر وافترضت سعيدة أنها بتصرفها على نحوٍ «طبيعي» ستؤخذ بالبراءة التي كانت عليها تقريباً.

لكن ما بدا عفوياً لها ظهر فاسقاً بطريقة مروعة للكثير من رعيتها. وكان هناك، في غضبهم، رد غريزي، أكثر منه عنصر قلق جنسي نفسي. فقد مثّلت ماري أنطوانيت ـ مع أنها لا يمكن أن تكون قد حلمت بذلك ـ تهديدا للنظام المستقر للعلاقات بين الجنسين. وإذا كان يفترض أن يكون الملك الرأس الرمزي في النظام الأبوي، فللسبب ذاته كان يفترض في زوجته أن تظهر وجه طاعة وتواضع وخضوع خاص. لم تكن دائماً هذه هي الحال في التاريخ الفرنسي، طبعاً، وليس مفاجئاً أن نجد مجموعة «تواريخ» مباغتة في ثمانينيات القرن الثامن عشر تظهر عناد ملكات (يعني، رؤوس عنيدة ومستقلة) ـ لاسيما آن ملكة النمسا(أرملة لويس الثالث عشر) وحتى الأكثر سوء سمعة كاترين دي مِديسي ـ كلتاهما نظيرتان من وراء ستار رقيق لصاحبة المنصب الحالية.

والأكثر أهمية هي الصراحة التي مثلت فيها الملكة أنوثتها. فما كان مباحاً، وحتى متوقعاً، في خليلة للملك كان بطريقة ما غير مسموح في ملكة. وما جعل الأمور أسوأ هو أن هذه الأنوثة كانت تقدمها وتصممها نساء أخريات بطريقة نزيهة وحصرية إلى هذا الحد أو ذاك. فأصبحت روز بِرتِن Rose Bertin، خياطة الملكة، واحدة من أكثر النساء نفوذاً في فرنسا، وهي من شجعت ماري أنطوانيت بالتخلي عن فستان البلاط الرسمي (نسيجاً ورمزاً) لصالح الأردية الفضفاضة البسيطة من الشاش الأبيض الشفاف والقطن والموسلين التي غدت الملكة تفضلها. كان الظهور الرسمي، بكامل فساتين الطوق الموسع المنفوخ والتسريحة المكومة، محصوراً «بزيارات يوم الأحد» وحتى عندئذٍ، كما تذكر السيدة دو لا تور دو بان، غدا مألوفاً أن تشتكي من وحشة الروتين. بالتأكيد، كان ذلك هو الوجه الأكثر لا تقليدية للملكية، الذي ظهر في رسومات صديقة الملكة الأخرى الأكثر أهمية، إليزابيث فيغي ـ ليبرُن، الذي أثار مزيداً من التعليقات.

مع أن الكثير من أعمالها ذات نوعية رائعة بشكل واضح، فقد كتب عن فيغي ـ ليبرُن، حتى في الآونة الأخيرة، أنها مجرد مضيفة بسيطة في النظام القديم: وصيفة مع فرشاة ولوحة ألوان رسام. عانت من الحنين العاطفي إلى النظام القديم كما من الكلاسيكية الجديدة غير المبالية. غير أنها كانت في زمانها معترف بها كظاهرة بشكل صحيح، تعرض ما لا يقل عن أربعين لوحة في الصالونات في فترات منتظمة. وفي عام 1783، السنة التي أصبحت فيها إحدى امرأتين قُبلتا في الأكاديمية الملكية (الأخرى هي منافستها أديليد لابيل ـ غيارد Adelaide Labille - Guiard)، تشهد **المذكرات السرية** على نفوذها وشهرتها:

عندما يعلن أحدهم أنه حضر للتو من الصالون، الشيء الأول الذي يُسأل عنه هو:

هل رأيت السيدة لبرن؟ ومباشرة ما يطرحه الجواب هو: السيدة لبرن ـ أليست مدهشة؟ ... أعمال الميزفا الحديثة هي أول ما يجتذب عيني المشاهد، تناديه ليعود مراراً، تأسره، تمتلكه، تنتزع منه صرخات الفرح والإعجاب... اللوحات المعروضة هي أكثر ما يطرى، ويحكى عن موضوعات النقاش في باريس.

ويكمن جزء من فتنة اليزابيث فيغي لبرن في شخصيتها كما في فنها. ابنة رسام مغمور وأم مصففة شعر من أصل فلاحي، تدربت ذاتياً بعد وفاة والدها عندما كانت في الثانية عشرة. وقد صنعت شهرة كأعجوبة مستخدمة نماذج من عائلتها لكن مقدمة إياهم بأسلوب واضح ومعبر ضارع فيه تألق ألوانها توهج الأوضاع والبنية. كانت في التاسعة عشرة مدرجة في أكاديمية الرسامين سان ـ لوك. دفعها زواجها من صاحب أرض أمها، التاجر ليبرن، إلى مجتمع باريس وقدم لموهبتها صندوق عرض مسبق الصنع في المعارض والسهرات التي أقيمت في منزلهم بالمدينة. كانت ذكية وفصيحة وجميلة على نحوٍ أخاذ: تركيبة نجاح في باريس ثمانينيات القرن الثامن عشر. ونجحت في أن تميز نفسها عن كتلة الأكاديميين المملين أو الذين يمتنعون عن الكلام زيفاً بترويج عقيدة عدم التكلف، في حياتها كما في فنها. لم تقدم في سهراتها سوى السمك والطيور والسلطة. وفي العشاء الشهير في اليونان عرت ليبرن من ادعاءاته «بمسح بودرته وفك جدائله الجانبية ووضع إكليل غار فوق رأسه» فيما كانت كعكة العسل والزبيب الكورينثي تُقدَّم مع النبيذ القبرصي.

حملت الرسامة أجواء البساطة المتفاخرة هذه إلى البلاط مباشرة. في مذكراتها(المثالية دون شك) تتذكر اليزابيث أغنية غريتري Grétry ثنائية مرتجلة مع الملكة. ونظرت بإعجاب في مناسبة أخرى عندما ألزمت ماري أنطوانيت أميرتها البالغة من العمر ست سنوات أن تتناول العشاء مع (بالواقع تقوم على خدمة) فتاة فلاحة بعمرها. اختفت بودرة الشعر والتسريحات المشغولة بشكل مضنٍ والمخصرات وموسعات التنانير إلا في المناسبات الرسمية. شجعت أن ينسدل الشعر بدلاً من ذلك في خصلات طبيعية على الكتفين، واستعملت الورود والأعشاب كزينة على قلنسوات القش والقبعات الريفية ذات الحواف العريضة. كُشِف عن الخط الطبيعي في الجسد تحت الفساتين الشفافة الفضفاضة من الشاش القطني ذو اللون الأبيض أو العاجي المتجمع تحت الصدر، والمربوط بشريط على نحوٍ غير محكم. رُسِمت الدوقة دي بوليناك، التي كانت، في كل المعايير، جميلة بشكل أخاذ، بهذا اللباس الرسمي الجديد تظهر وكأنها فاكهة مقطوفة طازجة وحلوة. حتى عندما كانت صاحبات الصور يترددن في الذهاب كل الطريق نحو عدم الرسمية، وجدت فيغي ـ ليبرن طرقاً لجعل أوضاعهن الجسدية أقل جموداً.



الصورة 58، إليزابيث فيغي ـ لبرن، لوحة تمثل صورتها

لأني كرهت الرداء الذي تلبسه النساء آنذاك حاولت بكل الطرق أن أجعله أكثر حيوية وقد سعدت عندما حزت على ثقة جليساتي، اللواتي سمحن لي أن أزينهن كما أرغب. لم تكن الشالات موضة بعد لكنني استخدمت وشاحات كبيرة منسوجة برقة حول الجسد وفوق الذراعين التي حاولت بها أن أقلد أسلوب رافائيل ودومينيشينو الجميل.



الصورة 59، للرسامة إليزابيث فيغي ـ ليبرن، دوقة دو بوليناك



الصورة 60، للرسامة إليزابيث فيغي ـ ليبرن، باشانتي

كان كل هذا مجسداً بوصفه لباس البراءة الطبيعية، لكن مثل بعض وضعيات فتيات غروزيه، اللواتي منهن كان يستوحي، كانت لها قوة شهوانية واضحة. في لوحة فيغي ـ



الصورة 61، للرسامة إليزابيث فيغي ـ ليبرن، السيدة غران

ليبرن باشانتي، المرسومة سنة فضيحة القلادة الماسية، كان هذا جلياً، لكن بعض العناصر في هذا التصميم المتهم جنسياً نقلت إلى فن التصوير: الأسنان المضيئة لابتسامة فم مفتوح أو البؤبؤين المستديرين المتجهين للأعلى في رسم الممثلة «المصونة» كاترين غران، زوجة تاليران لاحقاً. ومع ذلك، فلوحة غران استثناء في تقديم امرأة كنوع من ملكية جنسية. معظم مجموعة اللوحات النسائية الضخمة التي أنجزتها فيغي ـ ليبرن في ثمانينيات القرن الثامن عشر خالية بشكل لافت للنظر من الإفراط بالتزيين الجنسي الإيحائي. بدلاً من جعل رؤوسهن تستدير عن المشاهد وأجسادهن مكشوفة، تحدق النساء المرسومات هنا ـ حتى الرسامة ـ مباشرة إلى الخلف بتعبير الاستقلال المتحدي. عادة ما يُشاهَدْنَ في مجموعات من الأصدقاء أو مع أطفالهن في وضعيات غير ممنوعة من العاطفة والعناق. كان هذا الرفض للفوز بالحظوة ما وجده المعاصرون مثير وباعث على القلق في آن معاً.

ولما وصل الأمر إلى تقديم الملكة، طبعاً، تدخلت بعض الهموم الخاصة بين أسلوب فيغي ـ ليبرن «الطبيعي» والتكليف. في المرة الأولى التي استدعيت فيها إلى البلاط سنة 1778، كانت في الثالثة والعشرين، صنعت كما يفرض الواجب صورة تقليدية بالكامل، ترى ثلاثة أرباع الوجه بشكل جانبي، مزين بالريش وتلبس رداء منفوخاً ضخماً مثل البرميل. وبحلول1783، حدث تحول واللوحة التي ظهرت للملكة في الصالون

عرضتها برداء موسلين بسيط، تحمل وردة. تبعتها أخرى في نفس المنوال، نُسخ كثير منها للسفارات الفرنسية في الخارج وزبائن خاصين.

لم يساعد أي من هذا على وقف تدهور سمعة الملكة. وفي الواقع ربما سرعتها في الظهور بما يؤكد صورة العادية التي لا تعير اعتباراً للمكانة. وفي أية حال، كان ثمة في صالون عام 1785 قلق حول كيفية تقديم ماري أنطوانيت إلى الجمهور. كانت الصورة المعروضة تلك السنة من رسم فنان البلاط السويدي فيرتموللر Wertmuller وتظهرها تسير في الحديقة في فرساي مع أطفالها. كان المتوقع افتراضياً أن تروق للمعجبين بالمجموعات العائلية العاطفية. لكنها فسرت على نحوٍ أخرق يعزز وجهة النظر غير المتسامحة أنها دعاية منزلية تخفي الخلاعة الخاصة. أزيلت اللوحة والبديل كُلِّفت به فيغي ـ ليبرن، التي استغلت التعاطف مع خسارة الملكة طفلها بجعلها تجلس مع أطفالها الأحياء أمام مهد خالٍ على نحوٍ يشي بالمعنى المتوخى. ومع أن العمل كان رائعاً، فقد عانى أيضاً من الدفاع الأيديولوجي الذي أخذ وضعاً قلقاً مع رسم التفاهات المنزلية. لأنه وإن كان هناك جهد لعرض ماري أنطوانيت كأم، تضع غرفة أطفالها مقابل قاعة المرايا في فرساي ولفها برداء من المخمل الرسمي كان ملزماً بأن يدل على أنها أيضاً لما تزل ملكة. عرضت اللوحة في الصالون عام 1787، قوبلت بترحاب متفاوت.

في الوقت الذي غدت هذه اللوحة تشاهد فيه، أصبح الصالون المكان الوحيد الذي يمكن رؤية الملكة فيه خارج البلاط. حيث انكمشت عن عيون العامة مجروحة بوابل الصور الإباحية العنيفة التي لا بد أنها عرفت بها. وفي المناسبات القليلة التي جازفت فيها بالذهاب إلى المسرح كانت تستقبل بصمت جليدي أو بهمسات. ومقابل هذا الصمت كانت الأغاني المرحة المهينة التي يمكن أن تسمع في جميع مقاهي باريس وعلى جسر بونت نوف pont neuf على نهر السين:

Notre lubrique reine	ملكتنا الداعرة
D'Artois le débauché	مع أرتوا الفاسق
Tous deux sans moindre peine	معا دون مشكلة
Font ce joli péché	يرتكبان الخطيئة الحلوة
Eh! mais oui - da	ولكن ماذا يهم
Comment peut - on trouver du mal	كيف يمكن للمرء أن يجد أذى
à ça	في ذلك؟
Cette belle alliance	هذا الثنائي الرائع
Nous a bien convaincu	أقنعنا بالتأكيد
Que le grand Roi de France	أن ملك فرنسا العظيم
Est un parfait cocu	زوج فاسقة مثالي
Eh! mais oui - da	ولكن ماذا يهم
Comment peut - on trouver	كيف للمرء أن يجد أذى
du mal à ça	في ذلك؟

تحزر آخرون على حجم آلة الملك و/ أو فعاليتها، أو عدد عشاق الملكة من الجنسين وفترات حظوتهم. صكت عملة معدنية فعلاً في ستراسبورغ تظهر المقطع الجانبي للملك بقرني ديوث واضحين ملصقين برأسه. كان أدب العامة أشد صفاقة. أحد النصوص الشعبية، العاشقان شارلو(أرتوا) وطوانيت، بدأ بماري أنطوانيت تستمني ثم تتابع طقوس العربدة.



الصورة 62، للرسامة اليزابيث فيغي ـ ليبرن، ماري أنطوانيت *en gaulle*



الصورة 63، للرسامة اليزابيث فيغي ليبرن، ماري أنطوانيت وأطفالها

كان النموذج الأصلي للعديد من هذه المنتجات هو **تاريخ تجربة حياة ماري أنطوانيت**، الذي نشر أول مرة عام 1781، والثانية عام 1783 ثم مراجعات سنوية لمتابعة

الأحداث هكذا حتى إعدامها عام 1793. حرق جلاد المملكة خمسمائة وأربعاً وثلاثين نسخة في الباستيل عام 1783 لكن كان ما يزال موضوعاً مفضلاً لمهربي الكتب السرية وقد وزع على نطاق واسع في باريس. كان شكلاً من سيرة اعتراف ذاتية، التي بدت أحيانا تتنبأ بدقة بأكثر الاتهامات الثورية حدة:

يا كاترين دو مديسي، يا كليوباترا، يا أغريبينا، يا ميسالينا، لقد تجاوزت أفعالي أعمالكن، وإذا كانت ذكرى عاركن لما تزل تثير رجفتي، إن كانت تفاصيلها المرعبة تجعل الشعر ينتصب من جذوره والدموع تنسكب من العيون، فأية عواطف ستصدر من معرفة الحياة القاسية والماجنة لماري أنطوانيت... ملكة بربرية، زوجة زانية، امرأة بلا أخلاق، ملطخة بالجريمة والفسوق، وهذه عناوين زينتي.



الصورة 64، رسم مطبوع من الهجاء الجنسي تاريخ تجربة حياة

ماري أنطوانيت

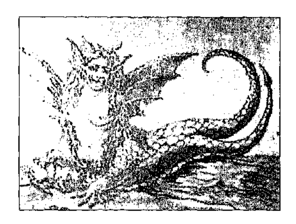
والـ «حياة» التي تتبع هي، كما تعترف، حياة «عاهرة حقيرة» : كانت تمضي الليل قبل التتويج عام 1775 على بورت نويف في ريمز، إحدى «جزر الحب» لابسة مثل باشانتي، تتسافد لثلاث ساعات مع «هراقلة» متقين؛ تتعلم أوضاعاً جنسية من أرتوا في التريانون؛ تجرب حسب إرادتها مع سيدات من منزلها، لا سيما مع بولنياك. كانت الآثام الثلاثة الأكثر بروزاً في هذا الأدب هي الاستمناء والسحاق والشبق الذي لا يشبع. لم يكن هذا مصادفة، ما دام كل واحد منها مصور بشكل جلي في أدب ثمانينيات القرن الثامن عشر الطبي، مدون في كل من الكتاب العلمي والأكثر توقعاً في المنشورات السوقية: دغدغة تنكرية كتثقيف. ويظهر بيان اعتراف ماري أنطوانيت عن الشهية الجنسية في الهجائيات libelles نوع أعراض الغلمة المعروفة جيداً لدى قراء كتاب المدينة الفاضلة Bienville ، أو **بحث حول الغضب الأمومي** قبل إنها تقر بالشبق القسري. «يصبح جسدي قلقاً بمجرد رؤية رجل وسيم أو امرأة جميلة، يملأ الفرح وجهي، ولا أستطيع أن أخفي رغباتي».

وكانت ماري أنطوانيت في الهجائيات *libelles* وحشاً جنسياً، أصيب بمرض معدٍ من النوم مع كاردينال فاسق، وبما أن السحاق كان معروفاً بال «الخطيئة الألمانية»، فهو وجود غريب في الجسد السياسي. وبالتالي غالباً ما اعتبرت انحرافاتها الجنسية استراتيجيات سياسية.

انفجرت أزمة سياسية عام 1785 عندما حاول أخوها إمبراطور النمسا جوزيف الثاني أن يفتح بالقوة مصب نهر شيلت وبذلك يتمكن من توسيع حرية الملاحة من موانئ هولندا النمساوية في أوستند وأنتويرب. كان في ذلك خرق لالتزامات معاهده وقعتها فرنسا مع الجمهورية الهولندية، التي تغدو في وضع الخاسر من هذا التغيير، وبما أن القوتين كانتا حليفتين في الحرب الأمريكية، ستكون الحركة المنطقية معارضة المناورة النمساوية، وإذا دعا الأمر التهديد بالحرب. وقد تدخلت الملكة بشكل فاعل منزعجة من هذا الاحتمال وأقنعت الملك أن يلطف الموقف الفرنسي. مع أن الأزمة هدأت بذاتها، أخذ أولئك المعادون للملكة تدخلها كمثال آخر عن استعمارها البلاط لمصلحة قوة أجنبية. أصبحت، أكثر من أي وقت مضى، ماري أنطوانيت النمسا.

ثارت كل هذه الشيطانيات الجنسية ـ العاهرة الجاسوسة، المهيمنة على الملك، ملوثة الدستور ـ في جدل عنيف عالي السمية وساهمت دون شك في تآكل السلطة الملكية السريع على نحوٍ لافت في أواخر ثمانينيات القرن الثامن عشر. في بدايات الثورة، عندما

قامت الملكة بدور أكثر عدوانية في السياسة وكانت مشتبهة على نطاق واسع بإثارة المكائد العسكرية ضد الجمعية الوطنية، أثار منتقدوها أيضا مصدر وحشية آخر لتدعيم الصورة الحالية الكريهة. ففي منتصف ثمانينيات القرن الثامن عشر، راجت الروايات عن «خطافة» ـ مخلوق مجنح وحشي الشهوات وذو مخالب لا ترحم ـ قيل إنها اكتشفت في سانتا في بالبيرو. وقد صنع نقاشو الطبعات الشعبية، الذين يبحثون دائماً عن القصص الجديدة، كثيراً منها وظهرت الملكة كما ينبغي بالتأكيد في هيئة رعب الخرافي، تقبض على «حقوق الإنسان» بمخالبها.



الصورة 65، «خطافة اكتشفت في سانت في، البيرو»



الصورة 66، ماري أنطوانيت كخطافة

كان تحطيم صورتها شيئاً محزناً. لقد خلعت قناع الملكية من أجل مصالح الطبيعة والإنسانية (كما من أجل ميولها ذاتها) لتنتهي وحدها من كل النساء تمثل شيئاً غير طبيعي ولا إنساني. وعندما، في النهاية، استدعيت «الأرملة كابت Capet» لتمَثُل أمام المحكمة الثورية، غدا دمج الجرائم الجنسية والسياسية صريحاً. لقد أهنيت جداً بلغة الهجائيات

ووصفت أنها «بلا أخلاق في كل النواحي، وأغريبينا جديدة» ؛ واتهمت بأنها في عصبة مع الإمبراطور و(قبل الثورة) هربت سراً مائتي مليون ليفر، واتهمها أخيراً رئيس تحرير جريدة الأب دوشين Le Père Duchesne ورئيس كومونة باريس الثورية، جاك - رينيه هربرت، بسوء معاملة ابنها ذاته جنسياً، ولي العهد السابق المسكين، الذي بلغ حينها إحدى عشرة سنة. قيل أنها والسيدة إليزابيث، أخت الملك، (حسب اعتراف الصبي) جعلتاه ينام بينهما «في الوضع الذي اعتاد عليه في إطلاق الشهوات والرغبات الأكثر بغضاً». علمتاه أن يستمني لكن ليس، كما ظن هربرت، لمجرد متعتهما ذاتها بل لأهداف سياسية أكثر شراً. واستناداً إلى التقديرات المروعة لتأثيرات الاستمناء المبينة في كتاب للدكتور تيسو، **الاستمناء**، كان الاتهام أنهما قصدتا أن» يُوهِنا بنية الطفل ربما للهيمنة على عقله».

وردّت ماري أنطوانيت منزعجة من هذه التهم، «سأبقى صامتة لن أتحدث في هذا الموضوع لأن الطبيعة تلزمنا بأن نمقت كل هذه الجرائم». وكان ردها النهائي بطريقة لوحة الملكة الأم لِـ فيغي - ليبرن: «أناشد كل الأمهات الموجودات في هذه القاعة - هل مثل هذه الجريمة ممكنة؟»

II - صورة كَلوني Calonne

في الرابع عشر من شباط 1787 استدعى المراقب العام، كلوني، تاليران إلى فرساي. فذهب بمشاعر مختلطة حسب روايته الشخصية. فمن جهة كان يشعر بالإطراء من الاهتمام. كان كلوني قد أقنع الملك أن يجمع مجلساً للأعيان الذي كان يفترض أن يدرس الخطوات الضرورية لإنقاذ المالية العامة الفرنسية من الإفلاس. مع أن المجلس قُصِد منه أن يكون استشارياً حصرياً، كان افتتاحه (تأجل مرتين لكنه الآن تقرر في 22 شباط) قد نودي به فعلاً بوصفه بداية عصر جديد في التاريخ الفرنسي. وقد طلب كلوني في رسالته إلى تاليران أن يساعد في مسودة مذكرة ستوضع أمام الأعيان كأساس لمشاوراتهم، وإذ أدرك تاليران أن هذه قد تكون فرصة فريدة لتقوية سمعته، لم يكن باستطاعته أن يرفض مهمة بمثل هذه الأهمية.

ومن جهة أخرى لم يكن شديد الحماس لأن يتخلى عن وسائل الراحة في باريس مقابل ملل فرساي، لاسيما في مطر الشتاء الأسود. كانت الحياة جيدة للرجل الذي يدعوه أصدقاؤه على نحو ساخر «الأب دي بيريغور». كان في الثالثة والثلاثين قد أوجد نوعاً من عش عائلي لم يعرفه عندما كان طفلاً - مع أنه نسخة غير تقليدية. كانت عشيقته، الكونتيسة

دي فلاهو و(هي ذاتها ابنة غير شرعية لأحد ملتزمي جمع الضرائب غير المباشرة)، تزوجت في الثامنة عشرة من ضابط في الرابعة والخمسين من العمر. كان أخو زوجها، الكونت أنجيفييه Angiviille، المشرف العام على أبنية الملك(أي، قهرمان الثقافة الرسمية) زود الكونتيسة الصغيرة بشقة خاصة في اللوفر. وهناك أسست صالوناً من ممثلين ومفكرين مدللين، لكن أيضاً منزلاً ménage *سعيداً مع تاليران، الذي، أصبح أباً لطفل رضيع نشيط عام 1785. ويصف هؤلاء المختارون القلة المصرح لهم بالدخول إلى دائرة العائلة جواً من الحميمية اللطيفة المتناقضة تماماً مع شخصية الأب العامة على الرغم من سمعته في ما يتعلق بالعزلة. فالحاكم موريس، الوكيل التجاري الأمريكي، الذي كان متيماً فعلاً بأديلايد دي فلاهو، أزعج نفسه أكثر برؤية تآلفهما الواضح أنه لا يتزعزع.*

كان تاليران يتعشى عادة مع عشيقته وابنه، لكنه كان يفطر متأخراً مع أصدقائه في بيته بشارع دو بلشاس. وكان قد فهم بفطنته المعتادة أن مجتمع باريس عبارة عن مجرة تتكون من ثريات صغيرة من الكواكب، تدور كل منها في فلكها الخاص، تقطع أحياناً طرق بعضها وتتصادم أحياناً. وكان الأمر الأساسي أن تُعرف كمركز إحدى تلك الثريات، وقد حقق ذلك في الوقت الذي بلغ فيه الثلاثين من عمره. وكانت الأقمار التي دارت حوله جميعها وضاءة على نحوٍ ساطع: شوازيل ـ غوفييه، الذي أكسبته رحلاته في اليونان شهرة الخبير وكرسياً في الأكاديمية؛ الكونت ناربون (الألمع بين أوغاد لويس الخامس عشرالكثر)، متحدث، وعديم أخلاق وذو صلات قوية؛ الكاتب الفزيوقراطي الشاب دوبون دي نِمور؛ دوق لوزون، البطل الأمريكي المحارب الذي عزز استبعاده من حضور مجالس الملكة سمعته بدلاً من أن يلطخها؛ الطبيب العالم الإلزامي، الدكتور بارتيه من مونتبلييه؛ والمصرفي السويسري الإلزامي أيضاً، بانشو، العدو الشرس لجاك نِكر.

كان الأمر كما لو أن تاليران بنى هذه المجموعة مثل وجبة دسمة لكن متوازنة جيداً، الصرامة الفكرية لدى بانشوا ودو بونت دو نِمور توازن الحلويات الدسمة لدى لوزون ودوبون. كانوا يناقشون شؤوناً جدية لكنهم كانوا يفعلون ذلك بما يستحق من الوقار. وكانت هذه الطريقة في تحويل المهمة الصعبة إلى عمل خفيف هي التي زكّت تاليران لدى كَلوني، الذي كانت طريقة عمله مشابهة كثيراً. كانا جارين قريبين وكان كل منهما يحضر مناسبات الثاني الاجتماعية. ومع ذلك لم يكن الأسلوب الجميل، في كل حال، كافياً لولا أن كَلوني رأى شيئاً آخر أكثر أهمية بكثير في تاليران: تقدير قوة المعلومات. بعد

الاحتفال به كراهب عام 1779، أعطي منصباً كنسياً في ريمز كان كافياً لإعالة حياة رغيدة، لكن تاليران كان أكثر طموحاً. فوجّه نفسه إلى المنطقة الوحيدة في عالم الكنيسة التي وجدها داعمة: إدارة الأعمال. وفي هذا المجال، وكيلاً عاماً بعين على الممتلكات الهائلة لحكومة الأساقفة، كان في بيئته. كان الجشع التطبيقي موهبة وقد مارسها بوعي لمصلحته الخاصة ومصلحة نظامه.

كانت موهبته الرئيسة الأخرى بيروقراطية، وقد باشر كوكيل عام بمسح هائل لكل مصالح الكنيسة الاقتصادية، الذي يتراوح من معاشات رعاة الأبرشيات في القرى إلى المستشفيات وبيوت الفقراء التي ترعاها الكنيسة في البلد كله. ذات مرة وجد نفسه في إحدى جولاته التفتيشية يتيه في قضايا لم تكن جزءاً من أية مذكرة تقليدية لكن رأت عينه دفاعاً عن الشؤون العامة أنها تتطلب اهتماماً. ففي بريتاني، على سبيل المثال، صدم كثيراً بأعداد النساء اللواتي فشل أزواجهن في العودة من البحر، لكن الذين لا يمكن اعتبارهم في عداد الأموات رسمياً، فسعى للسماح لهن أن يتزوجن مرة ثانية بعد انقضاء عدد من السنوات. لكن الجمعية العامة للإكليروس عام 1785 اعتبرت الاقتراح غير مناسب ورفضته بشدة، ومع ذلك تأثر كثيرون جداً بإمساك تاليران بحقيبة هائلة من الأرقام والمعلومات ذات الصلة بالكنيسة. وكان تقريره الضخم، كما علق أسقف بوردو، «رمزاً للموهبة والحماسة» وعوضته الجمعية بالتالي على خدماته بمكافأة خاصة بلغت أربعة وعشرين ألف ليفر.

بهذه السمعة من العمل العنيد واللباقة السياسية، وظف كَلوني تاليران ليعمل كوكيل ومساعد غير رسمي. كان تجنيده الأكثر بروزاً وصعوبة هو أونوريه غابرييل ميرابو، الابن المتهور لأب مستبد سجنه عدة مرات لأفعال مختلفة من التحدي. ومع أنه أكبر من تاليران بست سنوات، بدأ ميرابو يلقي باقات الإعجاب المتدفق عند قدميه. وجد وظيفة في بلاط فريدريك الأكبر في برلين، لكن صفتها غير الرسمية ضايقت ميرابو وقبل مضي وقت طويل انقلب على معلمه. فتشكى من تاليران قائلاً: «يمكنه أن يبيع روحه مقابل المال بسرور، وسيخرج الأفضل من الصفقة لأنها ستكون مبادلة شيء تافه بالذهب». ومع ذلك في بداية عام 1787، اشترك الرجلان في الشعور بأهمية مجلس الأعيان المزمع إنشاؤه. كتب ميرابو إلى تاليران أنه رأى «نظاماً جديداً للأمور يمكنه أن يعيد إحياء الملكية. سأرى نفسي مشرفاً ألف مرة في أن أكون أصغر سكرتير لهذا المجلس، الفكرة التي (توخى أن يضيف) من حسن حظي أن أنالها أولاً.. .» وتوسل إلى تاليران أن يطلقه من منفاه البروسي كي

يتمكن من المشاركة في هذا البعث التاريخي.

بأمثال هذا الصخب الذي يزعق في أذنيه استجاب تاليران لدعوات كَلوني. آمال متضخمة في عهد جديد، في أموال تخصص للصحة، ثقة عامة تزهر مع زهور اللبن الثلجية، جعلته قلقاً بشكل واضح. لكنه فعلاً توقع أن كَلوني، الذي كان حقيقة معجباً به، يمسك الأمور بقوة. بيد أنه سيخيب أمله بشكل مفاجئ.

رأى تاليران عند الدخول إلى مكتب كَلوني الخاص أن هناك مجموعة متنوعة بشكل غريب. تضمنت بيير غِربييه، قاضٍ كبير في محكمة باريس، خطيب شهير وأحد الجواهر القليلة العدد التي غُفِر لها لعملها في محكمة موبو. ربما كان هذا التاريخ السابق ما زكاه لدى كَلوني كذرائعي مفيد. كان معه مستحاثة طاعنة في السن من ثلاثة عهود، الماركيز دو لا غالازييه de la Galaizière، الذي بدأ مهنته الطويلة كحاكم تابع للوصي على العرش. وكان هناك دو بون دي نِمور من مجموعة تاليران الخاصة، واثنين آخرين من مساعدي كَلوني اللذين كانا يعملان على مشاريع ستقدم إلى الأعيان. وما إن جلسوا، حتى قُدِّم لكل رجل حزمات كبيرة من الوثائق مربوطة بشرائط، التي أعلن كَلوني أنها كانت المواد الخام التي منها كان يفترض بهم أن يضعوا برنامج إصلاح يمكن أن يكون معقولاً للمجلس ـ أو الذي على الأقل سيقنعه بأن يتجاوز العقبات. دُهِش تاليران، الذي أعطي مشروع استعادة تجارة الحبوب الحرة. ومثل كل الآخرين، عرف أن كَلوني كان مريضاً جداً (قال أصدقاؤه بنوبات سعال دامية؛ وقال أعداؤه بعقاب الفسق)، وأن هذا قد أخّر إعداد مشاريع الإصلاح وافتتاح المجلس(الذي أعلن أصلاً في 29 كانون الثاني). لكنه لم يتوقع أنه سيكون لديه مجرد أسبوع ليحول المعلومات الخام إلى شكل مقنع كفاية لينزع سلاح النزوع إلى الشك الذي كان الجميع يتوقعونه من الأعيان.

رأى فجأة أن المراقب العام، الذي أعجب به لسنوات كحاكم داهية في الأعمال العامة، قد وقع في تخبط سياسي كبير. لأنه فشل تماماً في الإمساك بنتائج النهايات المفتوحة لمبادرته. ربما هذا وحده يمكن أن يفسر العفوية الجلية في تحضيراته. كان واضحاً لتاليران أن كَلوني رأى المجلس كخاتم مطاطي مطيع في ما يخص ضريبة الأرض التي كان على وشك أن يقترحها.

كان الكشف المفاجئ عن كَلوني كمقامر متهور أكثر قلقاً لتاليران لأنه شارك الرأي العام بالمراقب العام أنه مدير مؤهل لإدارة الاحتمالات غير المتوقعة. كان كَلوني قد عين في المكتب سنة 1783 إثر هلع جلبته محاولات سلفه دورميسون في الإصلاح المالي.

وكان كل ما فعله دورميسون هو إحياء مخططات نكر في اقتطاع جزء من الضرائب غير المباشرة لشركة تديرها الدولة ريجي régie. وقد حاول أن يعطي كايس دوسكومب - تأسس عام 1776 كمحاكاة دون رأسمال كافٍ لبنك إنكلترا - بعض الفعالية من خلال طلب تداول عملته الورقية. لم يكن هذا بالأمر العظيم، لكن في الحالة العصبية لسوق باريس المالية كان كافيا لبدء سباق على الأوراق المالية لجمعية جباة الضريبة غير المباشرة ذاتها، التي كانت تستعمل على نطاق واسع لانجاز المدفوعات التجارية. ملس كَلوني الريش المنفوش باستعادة الشروط الكاملة لعقد جباية الضريبة غير المباشرة وأوضح أنه سيعمل من داخل وليس ضد الاتفاقيات المالية الحالية. وبدلاً من أن يشق طريق العملة الورقية لِـ كايس، فضَّل أن يرفع الثقة بالبنك من خلال السماح باستعمال نقوده في تسوية الضرائب وتوسيع امتيازه. والأكثر أهمية أنه آمن أن قدرته على النمو ستُربَط بالنجاحات التجارية الظاهرة، وبالتالي من عام 1785 ستُربط الربحية بالفوائد الحقيقية للآجال المحددة (بدلاً من المضاربات قصيرة الأجل).

لقد وُجِّه لوم شديد لكَلوني (لاسيما من نِكر، آنذاك) بسبب هذا التسليم البليد للمصالح المناطة به. كان، كما قال النقاد، قد بادل الهدوء القصير الأجل بكارثة طويلة الأجل. وما دام استمر عندئذٍ، على مدى السنوات الثلاث التالية، في اقتراض ما يزيد على خمسمائة مليون ليفر ليبقي الحكومة عائمة، يصعب الجدل مع هذا الحكم السلبي على إدارته.

لكن كَلوني لم يكن مجرد رأس فارغ يتحكم بمحفظة فارغة. فقد تبع نظامه سياسة مبدئية من نوع ما، حتى لو تبين في النهاية أن هذا لم يكن سليماً على نحوٍ مدمر. كانت، في أية حال، مهيمن عليها لاعتبار رئيسي واحد هو أن نِكر، أكثر نقاد كَلوني مثابرة، فشل في أن يأخذ بالحسبان أن تكاليف السلام ثقيلة تقريباً كتكاليف الحرب. حيث عكست حسابات نِكر الافتراض أنه بعد نهاية الحرب الأمريكية، يمكن للحكومة الفرنسية أن تلتزم بمستوى أكثر تواضعاً بشكل ملحوظ في الإنفاق العسكري. لكن فرجين، الذي ظل الشخص المهيمن في الحكومة حتى وفاته في شباط عام 1787، أدرك عكس ذلك. فقد آمن أنه للاستفادة من الفرص التي أتاحها سلام عام1783 ينبغي أن تبقى المعدات وجاهزية البحرية والجيش الفرنسي في مستوى عال. ووجهة النظر هذه كانت مدعومة من دو كاستري de Castries وسان - جيرمان Saint - Germain، وزيري البحرية والجيش وكل منهما هجومي وإصلاحي ومدير عسكري عصري. وبعد انتصارات سوفرن Suffren في

المحيط الهندي كانت هناك فرصة للتحالف مع القوة الصاعدة لسلطان مايزور Mysore لاستعادة النفوذ الفرنسي في منطقة كارناتيك Carnatic في شبه الجزيرة. فأن نتجاهل هذه الأمور، جادل فيرجيني، هو أن ندعو إلى هزيمة أخرى على غرار حرب السبع سنوات. كان هذا المطلب، أكثر من أي صرف مبذر في البلاط، ما حكم مثال كَلوني في الاستدانة السيئة الحظ. مع أنه كان طيشاً على الأرجح في ما يتعلق بالمراقب العام أن يشتري قصري رامبويه Rambouillet وسان ـ كلود Saint - Cloud للتاج، فالنفقات على كل أشياء البلاط ـ بما فيها بيوت أخوة الملك المسرفين ـ لم تتجاوز أربعين مليون ليفر من ميزانية إجمالية تبلغ نحو ستمائة مليون، أو 6 إلى 7 بالمائة. لوضع هذا في منظور، كان يقارب نصف حصة الميزانية البريطانية المصروفة على الملكية.

وإذا أخذنا هذا المطلب بالحسبان، ماذا يمكن لكَلوني أن يعمل لدعمه؟ لم يترنح مباشرة من احتمال إلى احتمال بذرائع مرتجلة تماماً. بالعكس، إذا كان ثمة شيء تحت سيطرته هو أن الحكومة أكثر قرباً من سياسة اقتصادية متناسقة منذ تورغو Torgot. اعتمد كلوني ذو الخلفية البسيطة في الاقتصاد والمال على ثلاثة مصادر للنصح. الأول كان ايزاك بانشاو القادم من جينيف الذي ظهر عمله عن التمويل العام سنة 1781 وفاز بسمعة رائعة بين كل أولئك الذين استبعدتهم تزكية نِكر لذاته.(عرضت باريس، مثل كل شيء آخر، نخبة من المصرفيين السويسريين.) كانت نصيحة بانشاو الأساسية لكَلوني أن يتجنب الأذى الهيكلي للآلة المالية مقابل و، الأرجح، أن يجعل عملها أقل عجزاً عن طريق خلق حدود ائتمان جديدة بشروط أفضل. عنى هذا على وجه الخصوص تجنب الهجمات المباشرة على جامعي الضرائب غير المباشرة بل السماح بالمنافسة من البنوك في أمستردام، حيث يمكن أن يعوم الدخل السنوي إلى نحو 5%. في ثمانينيات القرن الثامن عشر، غدت القروض الهولندية كما السويسرية هامة فجأة، حيث أعطت الإدارة مزيداً من المرونة في مواعيد وشروط إعادة الدفع.

كان مجال التنفس الذي أمنه هذا الائتمان الجديد ليس لمجرد القعود بل لجهود متناسقة لتطوير البنية التحتية والأداء الاقتصادي الفرنسي. وهنا جاء دور مجموعتي مستشاري كَلوني الأخريين إلى اللعب: الجيل الثاني من الفزيوقراطيين، والأكثر قدرة من الرسميين الملكيين المدربين على متابعة المشاريع الاقتصادية. وكان بين مجموعة كَلوني من الشباب البيروقراطيين مولين Mollien، وغودين Gaudin، والأب لويس Abbé Louis، ماريت Maret ـ سيصبحون جميعاً في مركز الحكومة النابليونية وبعضهم (مثل لويس) يكاد

يكون من الثوابت الدائمة في الإدارة المالية الفرنسية في مطلع القرن التاسع عشر. وإذا ما افترض المرء أن مثل هذا «النظام القديم» كان مقدراً له أن يختفي عن وجه الأرض ينبغي أن يُدهَش من معرفة أن معالجي المعلومات هؤلاء الأحياء هم جزء من المستقبل أكثر من الماضي. وقد توصلوا مع الفزيوقراطيين أمثال دو بون دي نِمور إلى وضع سياسة اقتصادية اعتبرت تسوية بين المشروع الحر وأبوية الدولة. كان عدد من تلك التدابير ثورياً إلى حد مدهش وتطلب تحضيراً حذراً. وواقع أنها قُدِّمت كجزء من رزمة الضريبة إلى الأعيان يجب ألا يحجب أهميتها المستقلة في كل حال.

ففي «مشروع الرسم الموحد»، على سبيل المثال، كانت حواجز الجمارك الداخلية الكثيرة ستلغى وتُفرَض تعرفة واحدة بدلاً منها. كان هذا إيماءة إلى الإيمان بمبدأ عدم التدخل في السوق أقل أهمية من التأميم الاقتصادي(مرة أخرى توقع السياسة النابليونية) طالما أن حرية التجارة داخل فرنسا كانت ستكمل بفرض حواجز أشد على حدودها. شوهد التمييز الدقيق نفسه في استعادة التداول الحر لتجارة الحبوب. تحررت التجارة المحلية لفترة من الزمن، ورُبِط التصدير إلى خارج البلاد (الذي كان مصدر شكوى مريرة في الماضي) بمؤشر الأسعار الجارية. إذا ارتفع فوق سقف معين، يُعاد الحظر على التصدير. وفوق كل شيء، كانت العلاقات الاقتصادية مع بريطانيا محكومة بما يمكن أن يسمى انتهازية الدولة. جُلِب المهندسون إلى شمال فرنسا لتركيب مغازل آلية وشبه آلية، وفي نهاية عام 1786 ارتفعت الآمال باختفاء ماثيو بولتون وجيمس واط الشهيرين من داخل الأراضي البريطانية. وقد زارا باريس حقاً لكن لاستشارتهما حول المحركات البخارية التي ستستخدم في مضخة آلية جديدة في مارلي Marly ليس إلا.

وفيما نمت الشركات المساهمة بالفعل في هذه الفترة، غدا المال الناتج من العمل مع الدولة مهماً في تلك الآونة في تمويل المؤسسات التي تحتاج إلى رأسمال مغامر ليبدع مع المعامل الجديدة. ومع ذلك بدا أن ما أعطته حكومة كَلوني بيد أخذته بالأخرى، ما دامت القمة في السياسات الجديدة هي الاتفاقية التجارية مع بريطانيا، الموقعة عام 1786، والتي فتحت أسواق كل طرف لبضاعة الآخر.لا حاجة للقول إنه فيما ازدهر الحرير والخمر الفرنسيان تبعاً لهذا الاتفاق، تعرضت الأقمشة وأدوات حديدية أخرى لهجوم ضارٍ من منافسة رخيصة من صناعات بريطانية أكثر تقدماً. لكن يبدو أن وجهة نظر كَلوني ومستشاريه هي أن هذا تنافس صحي، وعلى المدى الطويل، سيحفز المنتجين الفرنسيين على محاكاة منافسيهم البريطانيين.

أخطأت مجموعة بسيطة من هذه المبادرات الاقتصادية الهدف، مع أن معظمها كان مشرفاً. افترضت حكومة كَلوني باستمرار (مثل تورغوت قبله) أن هذه الخطط يجب أن تفرض على فرنسا، بدلاً من أن تقترح عليها. وعلى الأرجح هذا هو سبب أن العديد ممن كانوا خدموا معه صاروا بيروقراطيين نابليونيين جيدين. ترعرع في التقاليد المطلقة بخدمة التاج حاكماً، أولاً في موطنه الفلاندر ثم في ميتز في عمومية الـ «أسقفيات الثلاث». كانت المنطقتان على جانب كبير من حيث أهمية مشاريعها الاقتصادية، لاسيما بالأقمشة، وكان لكَلوني سجلاً مشرفاً في تشجيعها. لكنه كان صورة مصغرة لموظف دي تكفيل de Tocqueville المركزي ـ الذي يقدم إعانات هنا وهناك، ويمنح جوائز لتجارب ملهمة في تمشيط الصوف آلياً مثل مدير مدرسة يكافئ الطلاب المجتهدين.

وبوصفه مراقباً عاماً، لم يكن أفضل في العلاقات العامة. بالفعل أظهر كَلوني بعض الاهتمام بالكتاب مثل ميرابو وبريسو، لكن مجرد جواسيس في مجتمع الأدب السري أو كتاب مأجورين يمكن استخدامهم لضخ مقالات دعائية في خدمة الخط الرسمي. (تبين أن ميرابو غير قادر على هذا النوع من الموالاة المثابرة.) وفي معظم الأحوال، مع ذلك، تعاون مع إصرار فرجين لتكميم قدح الصحافة المعارضة، وسد طرق تهريبها وتجفيف مصادر الرأي المعادي. وكان أولئك الناشرون أمثال بانكوك المستعدون للقبول برأي معتدل(في زئبق فرنسا Mercure de France اللطيف نسبياً) قابلين للتدجين من خلال التعاون.

حققت سياسة خنق المعارضة بعض النجاح، لاسيما في السنوات الأولى من إدارة كَلوني. ففي أوج قواه، جلس عام 1784 أمام السيدة فيغي ـ ليبرن بملامح، إذا حكمنا من خلال اللوحة المنتهية، تعبر بجلاء عن الرضا الذاتي. غير أن الرسامة حرصت على أن تعطي موضوعها مسحة ذكاء يقظ في عينيه ومن خلال رموز المكتب المبعثرة على الطاولة. تدل صورة كَلوني على مكانة عالية مصانة بضمير الواجب. ولاحقاً فحسب سيُكشَف عن السخريات غير المقصودة في التمثيل بطريقة مؤلمة. ظل كَلوني لفترة من الزمن يحمل رسالة واضحة موجهة لسيده الوحيد، الملك، أكثر الوثائق أهمية على مكتبه هي جدول Caisse d'Amortissement ـ «صندوق الدين الغارق» المفترض أن يدخر الموارد التي يمكن تكريسها لخفض جوهري في الدين الوطني الهائل. غير أن كَلوني، وليس الدين، من سيغرق بحلول عام 1787.

وعندما كان مستحيلاً هز سمعة كَلوني بتهمة التبذير والثراء، غدت صورة تحكي قصة خياط معظَّم. فهنالك الردنان المربوطان على الطريقة الفالنسية Valencienne ومعطف



الصورة 67، للرسامة إليزابيث فيغي ـ ليبرن، صورة كَلوني

التافتا الفلورنسي، كلها من فانزو ودوسوني Vanzut et Dosogne أكثر بائعي الثياب غلاء في باريس. وهناك المحابر الفخمة من صانع جواهر الملكة غرانشيه Granchez على رصيف كونتي Conti، حيث اشترى كَلوني عصا خيزران ذات مقبض ذهبي متقن حسب حديث القصر الملكي. تكاد الصورة تفوح منها رائحة عطر الخزامى الذي كان معروفاً أنه يفضله. ولم يقم المراقب العام بأية محاولة لإخفاء حبه لوسائل الترف المكلفة. فقد ألبس

خدمه الكثيرين بذات كاملة، وجهز مقاعد عرباته بالفراء ليبقي سائسيه دافئين في الشتاء. وبصرف النظر عن مقر المراقب الذي أعاد زخرفته من الأعلى إلى الأسفل، كان يستطيع أن يختار مكان إقامته في أحد القصرين أو في منزل شارع سان دومينيك، حيث كانت مجموعة لوحاته الرائعة تستقر - من أعمال واتيو Watteau، رامبرانت Rembrandt، تيتيان Titian، جورجيوني Giorgione، بوشيه Boucher، فراغونار Fragonard وتينيان Teniers.

وبالمثل كان مطبخه ممتازاً أو مشهوراً، ذلك يعتمد على ما إذا كان المرء مدرجاً على قائمة الضيوف الدائمين. أشرف رئيس الطهاة، أوليفيه، مثل بارون على طاقم من معدي أنواع مرق اللحم والمعجنات واختصاصات أخرى لطاولة الطعام. كان هناك ثلاثة من الخدم للعناية باللحم المشوي، مع مساعد مطبخهم المخصص لهم المدعو تانتان. كان لدى كَلوني ضعفٌ نحو الكمأة، التي كانت تُرسَل له بالسلال من بيريغور، وجراد البحر والحجل الصغير و، لمزيد من العجب، «معكرونة نابولي» Naples تؤكل مع جبن البارمازان أو الجبن السويسري، طبق يظن المرء أنه غير متجانس مع الردنين المربوطين. عندما ذهب من قصره غير الرسمي إلى القصر الرسمي في فرساي، كان كَلوني متأكداً من أنه سيعيد تقديم روائعه على مستوى ملكي مناسب. ففي عهده أقيمت آخر الحفلات الراقصة في فرساي بمرح رائع الذي سيبدع لأجيال المعجبين بالماضي مشهد الملكية القديمة تتهادى على خطى رقصة منويت في وقت كانت فيه نوافير المرمر تطلق ماءها المعطر إلى أحواض محار مروحي.

كان كل هذا شيئاً عظيماً طالما استمرت القروض تُموَّل وبقي مناخ الاقتصاد معتدلاً. لكن المشهد العام في كل هذه الأمور اسودَّ كثيراً ابتداء من عام 1785. ففي أمستردام، تعقدت إمكانية المزيد من القروض ذات الفائدة المنخفضة بسبب أزمة سياسية هددت بأن تصبح ثورة. فقد أدى جفاف سيء ذاك الصيف إلى المحصول الأسوأ منذ سنوات. وبدا ذلك بدوره مرجحاً لأن يستنفذ القدرة الشرائية للمستهلك الفرنسي ويفاقم وضع السوق التي تأذت جدياً بسبب تدفق المصنوعات البريطانية بعد الاتفاقية التجارية.

عندما تضافرت كل هذه الأخبار السيئة مع قضية القلادة الماسية، صار بالإمكان وضع تفسير نقدي على نحوٍ عقابي على إدارة كَلوني لشؤون الدولة. وعلى الرغم من كل جهود البوليس العنيفة لإخماد الطوفان، كان الطلب على الكراسات البذيئة والمذكرات السفيهة شديداً والإمداد في المتناول لإسكات المعارضة. في رأيهم، أصبح تبذير كَلوني المالي مرتبطاً على نحوٍ ما بإسراف البلاط والتآمر والكذب والانغماس بالملذات. في هذا

الوقت ذاعت قصة تقديمه للسيدة فيغي ـ ليبرن علبة كرات تبخير، كل واحدة ملفوفة بورقة نقدية قيمتها ثلاثمائة ليفر وضعت في التداول أول مرة. في الواقع، كان يشاع أنه عشيقها، قصة عزتها فيما بعد إلى خليلته الحقيقية الكونتيسة دو سيريس التي استعارت عربتها للذهاب إلى المسرح وتعمدت أن تتركها خارج منزل كَلوني طوال الليل كي تؤكد الإشاعات.

يمكن، بجهد بسيط، جعل الكثير من مبادرات كَلوني الشديدة الوضوح تبدو مثل مؤامرات ضد المصلحة العامة. ففي عام 1785، قرر بناء على نصيحة أحد السماسرة، مودينييه Modinier، أن يعيد سك العملة المعدنية مجدداً، معدلا حصتها الذهبية ـ الفضية بما يتماشى مع معدلات السوق. وقد أمهل المراقب العام سنة سماح قبل أن تحل النقود المعدنية الجيدة بشكل مؤكد محل القديمة متوقعاً بعض الارتباك. لكن لأصحاب الدكاكين أو طواحين الريف ذوي الصناديق تحت فرشات النوم، كانت الخطة عملاً مموهاً بغطاء شفاف من الابتزاز الذي سيبدل نقوداً «جيدة» بنقود «سيئة». وبالمثل أثار جدار الجمارك الجديد لجباة الضريبة غير المباشرة (طالما أن باريس لم تكن تتمتع بالإعفاء من الرسوم الداخلية المسموحة لبقية مناطق البلاد) شكوكاً عميقة. كان المهندس المعماري الكلاسيكي الجديد الخيالي لو دو Le doux، مفوضاً من لافوازييه، قد صمم أروقة صالة مدهشة مع تماثيل وزخارف قديمة لتزيين حواجز البوابات العديدة، لكن هذا لم يفعل شيئاً لتجريد هؤلاء الشكاكين(بالفعل غرابة الخطة ربما قوتهم). الجدار الجديد، قيل شعبياً، سيوقع الباريسيين داخل فخ سجن قذر من الناحية الجوية بحرمانهم من هواء الريف الضروري لكي يتبدل هواء المدينة، مصدر العدوى والأوبئة. وقد حسب أحدهم الحجم الدقيق للكمية المفقودة من الهواء المنعش التي ستنجم عن الجدار الجديد. فلا عجب، كما يقول المثل، كلما علا الجدار حول باريس زادت باريس في كلامها Le mur murant Paris rend Paris murmurant.

كانت هناك تهم أخرى مشابهة للمصلحة الشخصية. إذ قيل، تظاهر كَلوني أنه رجل دولة، وما هو إلا مضارب انتهازي. فَشركته، **شركة الأنديز الجديدة** (أطلقت لمحاولة الاستفادة من الفرص الجديدة المتاحة في جنوب الهند) هي مشروع مزيف صمم لاستخلاص المال من السذج الذين يسهل خداعهم دونما أمل بعائدات متوقعة. وكانت ثمة عقود وشركات أخرى مختارة، مثل الاتحاد الذي تأسس لإمداد باريس بالماء العذب بمضخات بخارية، مزيفة لتعطي شروط مسبقة تفضيلية للمستثمرين داخله. وقطعة بعد قطعة جمعت في النهاية لوحة لِـ كَلوني كانت أقل تملقاً من لوحة السيدة فيغي ـ ليبرُن. فكان

الرجل الذي يكمم الصحافة ويخنق الرثات وينهب الجيوب ويخفض العملة ويبدد الثروة الوطنية ويحضر حفلات الرقص في البلاط.

مع شهرته في مثل هذه الصعوبات، لماذا يشرع كَلوني في خطوة خطيرة وثورية مثل مجلس الأعيان، حيث ستتعرض كل سلطته إلى تدقيق علني مفتوح؟ الجواب المألوف هو أنه لم يكن لديه أي بديل، وهذا بالفعل ما شرحه للملك في آب عام 1786 عندما ذكر الموضوع أول مرة. قدَّر العجز في السنة الجارية ب 80 مليون ليفر (واكتشف لاحقاً أنه 112 مليون). كان بذلك يستهلك ما يقارب 20 بالمائة من الدخل الحالي. لكن قسماً أكبر كثيراً يجب أن يُخصّص لدفعات الفائدة على القروض السابقة. والأسوأ بعد، أن جدول سداد الديون السريع نسبياً الذي قبله نِكر خلال الحرب الأمريكية كان يعني دفعات كبيرة ستكون واجبة السداد في السنة التالية. ومع ذلك لم يكن المزيد من القروض غير متخيل، لكن كما اكتشف كَلوني في تشرين الثاني عام 1785، عندما حاول أن يعوِّم الجولة الأخيرة، لم يعد بإمكانهم أن يضمنوا الدفعات من الدخل الحالي أو المستقبلي. وقد عنى ذلك أن عليه أن يفعل ما كان يتجنبه طوال الوقت: فرض ضرائب جديدة، قيمتها الفعلية أقل من قيمة ضمانها في الدين العام.

كان رد فعل الملك على إخباره بخطة جمع مجلس للأعيان يضفي شرعية على الضريبة الجديدة هو: «يا للعجب، تقدم لي ما قدمه نِكر بالتمام والكمال». وكان حقاً الإحساس بنِكر يتنفس في صدره بالتأكيد هو ما دفع كَلوني إلى اقتراحه الدرامي. نشر المدير العام العجوز آراءه **في الإدارة المالية الفرنسية** عام 1784 وفي سياقها هاجم نِكر إدارة كَلوني، ولاسيما إدمانها على قروض جديدة في زمن السلم. وفي السنة التالية، عندما كانت فضيحة القلادة الماسية في أوجها، عاد من منفاه السويسري إلى استقبال حماسي في باريس. كان جزء من قرار كَلوني إعلان الحقيقة الرهيبة للعجز على الشعب، وتقديمها كإفلاس وشيك، هو ليفند تفاؤل **التقرير** *Compte Rendu* الذي صدر عام 1781 بنظرته الفرحة إلى الفائض بين الدخل «العادي» والإنفاق تحديداً، فقال، لم يكن ثمة فائض لدى نِكر بل عجز بلغ في ذاك العام نحو 40 مليون طعة نقدية في الواقع.

ورغم الدليل على تصاعد العداء العام، قرر كَلوني أن يلعب لعبة نِكر ذاتها بالتوجه إلى طلب الدعم الشعبي. لم تكن مجرد مناورة ساخرة كما شك تاليران. كان المراقب العام بتحريضه ناجين من نظام تورغو مثل دو بون دي نِمور، يعود إلى سياسة ملكية شعبية، حدد خطوطها دارجنسن d'Argenson في أربعينيات القرن الثامن عشر، التي بطريقة ما تقفز فوق

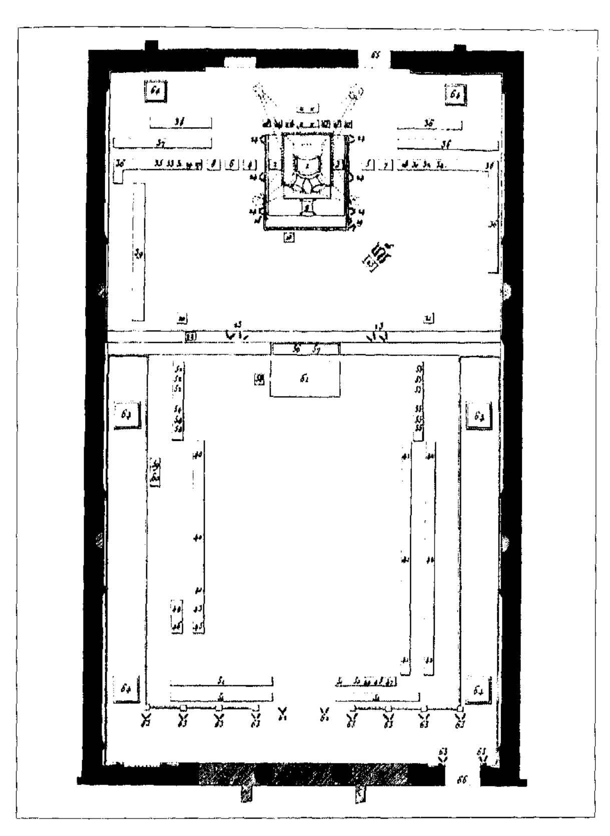
رؤوس المصلحة الفردية والعائق البرلماني لتحقيق حرية عمل جديدة بمباركة الشعب.

وهكذا صُمِّم مجلس الأعيان بوصفه تمريناً في ما يمكن أن يسمى الاستبدادية الشعبية. ولكن، كما رأى تاليران، حتى قبل أن يعقد جلسته الأولى، أنه سيغدو، حتماً، تدريباً على آلية التمثيل الوطني.

III ـ استثناءات الأعيان

انعقد مجلس الأعيان أخيراً في صالة الأفراح الصغيرة Salle des Menus Plaisirs في فرساي في 22 شباط عام *1787* وقد أعطت التأجيلات العديدة بين إعلان الملك الرسمي في آخر يوم من السنة القديمة والاجتماع الأخير أعداء كَلوني الكثر فرصة لتصعيد حملة المعارضة. وقد ساعدتهم حقيقة واضحة هي أن الحكومة في ظرفها الحرج، كانت تنهار، مادياً وسياسياً. كان فرجيني مريضاً جداً وتوفي في 13 شباط، تاركاً المراقب العام يفقد أكثر مؤيديه قوة. كان حافظ الأختام، ميرُمنسيل Miromensil غاضباً لأنه أقصي عن النقاشات الأولى والنقد المفتوح. أما لويس السادس عشر فقد وعد بمساندة كاملة بعد أن أعاده تحول كَلوني الذي لا يمكن التنبؤ به من متفائل مشرق إلى عراف بالمستقبل. وإذ وقع المرسوم بتفويض المجلس كتب إلى كَلوني: «لم أستطع النوم ليلة البارحة من السعادة وحسب». ومع ذلك فقد تبين أن أرقه يعود إلى تعدد أسباب القلق. وفيما دنا موعد الافتتاح غدا أشد انفعالاً وليس أقل بشأن التجربة القادمة. وخسارة فرجيني، الذي تطلع إليه دائماً من أجل نصح أبوي، هزته بعنف. كان دونما شك يعي مغزى تعليق الكونت دو سيغور de Segur على سماع الإعلان: «لقد استقال الملك للتو».

وغدا رد الرأي العام على مبادرة كَلوني ـ بعد حماسه الأولي ـ حذراً في الوقت نفسه. كانت هناك شبهات انتشرت على نطاق واسع بأن المراقب العام قد أسرف بالمتعة ثلاث سنوات وهو الآن على وشك أن يرسل الفاتورة للشعب. كانت البلاغة المبالغ بها عن الأزمة الوطنية، كما قيل في الكراسات، طريقة خيالية لتمويه مساراته. والشيء الأسوأ، كان الهجاء يوجه أسلحته إلى الحدث. والطبعة الشعبية الأكثر شهرة تقدم قرداً يخاطب فناء للدجاج: «أعزائي المخلوقات، لقد جمعتكم هنا للتشاور بشأن الصلصة التي سوف تُقدَّمون بها». والأكثر أهمية، يبدو أنه كان هناك تنويعات كثيرة على اللحن نفسه تظهر في مدى قصير من الزمن. وقيل لمجموعة أخرى من الحيوانات أنها سوف تُذبح دون حق بالنقض



الصورة 68، مجلس الأعيان؛ مخطط أرضية من بطاقة الجلوس.

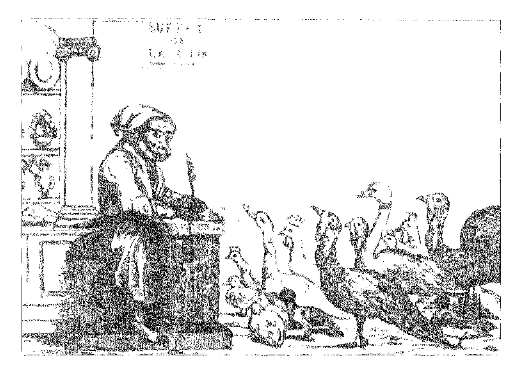
تشير حدود الأقدام المقعد الرسمي أو المراكز البارزة

لكنها تتمتع بفخامة تقرير كيفية طبخها بالضبط. وقد اكتشف على أبواب مقر المراقب العام ملصق يعلن عن محاكاة ساخرة يقول: «ستقدم فرقة من الجنود الكوميديين عرضاً في فرساي في التاسع والعشرين»، وستفتتح برنامجها متجاوزة الثقة والموافقات الإلزامية.

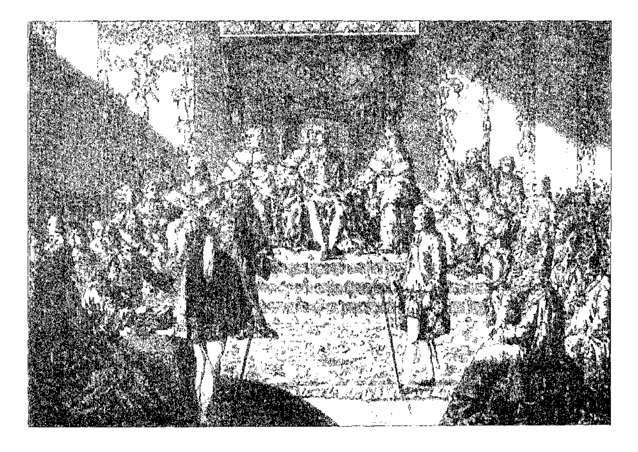
توقع كَلوني هذه المعارضة. في الحقيقة كانت لتجنب قدر الماضي في إصلاحات الضرائب الملكية ـ المقاومة البرلمانية ـ لذا قر قراره على مجلس أعيان، وهو شكل استشاري استخدِم آخر مرة عام 1626. وإذ اقترح ضم مجالس مقاطعات منتخبة إلى الخطة أمل أن ذلك سيبطل الطلب المتزايد على دعوة مجلس الطبقات. وقدم مثل هذا المجلس أيضاً عضوية مسيطر عليها بحزم لا يمكنها أن تدعي التمثيل. بدا أن التركيبة الاجتماعية لأعضائها الـ 144 تؤكد خشية كَلوني. فقد كان أمراء الدم السبعة ـ شقيقا الملك بالإضافة إلى دوقيات دي بوربون de Bourbon، وأورليانز Orléans، وكوندي Condé، وبنتيفر Penthièvre، وكونتي Conté ـ رؤساء سبعة مكاتب استشارية منفصلة. وكان تحتهم مباشرة سبعة أساقفة رئيسين، بمن فيهم شامبيون دو سيسه Champion de Cicé، أسقف بوردو الليبرالي والمعجب بنكر، وخصم آخر لكَلوني هو لومينيه دو براين Loménie de Brienne أسقف تولوز. وتبع هؤلاء سبع دوقيات بالوراثة وماريشالات فرنسا الثمانية وستة ماركيزات وتسعة كونتات، وبارون واحد ورؤساء المحاكم وكبار الموظفين بمن فيهم عمدة باريس وعمدة التجار التضمين الأكثر مفاجأة كان لافايت، الذي لم يعجب نزوعه الراديكالي المتنافي الملك والملكة، لكنه الذي أضيف بناء على وصية نسيبه نوابيه Noailles.

تبعاً لظاهره، لم يبد المجلس مثل نادٍ للثوريين. لكن ما أن افتتحت الجلسات حتى غدا واضحاً أن الشخصية الأرستقراطية المكثفة للمجلس لم تحل مطلقاً دون التطرف السياسي. ولم تقنع الأعضاء بأن يكونوا أدوات طيعة في برنامج كَلوني. وقد بدأ العصيان من الأعلى بالذات طالما أنه، من كل أمراء الدم، وحده أرتوا كان مستعداً أن يقدم دعماً مخلصاً للحكومة. أما أخوه الأكبر»، «مسيو Monsieur» فكان على وجه الخصوص عنيفاً بشأن الإجراء والآخرين، أمثال أورليان وكونتي، اللذين كانا مشهورين بسخط البلاط عليهما، فتابعوا طبعاً النقد اللاذع.

لكن المراقب العام لم يكن ليُسلِّم بهزيمة شخصية على الإطلاق. بعد ملاحظات الملك الافتتاحية الرسمية، التي لمح فيها ليس للحاجة إلى عائدات وحسب بل إلى مبدأ



الصورة 69، طبعة هجائية لمجلس الأعيان



الصورة 70، لوحة للرسام جان لويس برييه، مجلس الأعيان

توزيع أكثر مساواة لعبء الضريبة، نهض كَلوني فقدم خطاباً طويلاً قوياً فكراً وفصاحةً. كانت صفته المميزة دائماً لساناً واضحاً مدعوماً بنوع من كلاسيكية تطبيقية كان يستعملها في عمله الحكومي. وكان الملك ذاته قد تلقى عينة من هذا الأسلوب في آب الماضي عندما قدم كَلوني مذكرته مقسمة إلى العناوين التالية:

1 ـ الوضع الحالي 2 ـ ما العمل بشأنه؟ 3 ـ كيف تفعل ذلك؟

كان هذا النوع من الوضوح التعدادي الصارم مناسباً لعاهل يصنع الأقفال، لكن شيئاً أكثر تعقيداً كان مطلوباً للأعيان المربكين، وبمساعدة دو بون دي نِمور، أعطاهم كَلوني ذلك. بدأ خطابه بشكل سيء، بمراجعة عدوانية لنِكر وما يساويها من مراجعة تخدم إدارته. فقال، لقد استدين ما لا يقل عن 250.1 مليون ليفر منذ عام 1776، كثير منها لخوض «الحرب الوطنية» وتكوين بحرية قوية. غير أن هذه الطريقة في المتابعة غدت في النهاية هزيمة للذات وملوثة «بالإساءات»، التي قصد بها الإرباك البالغ للتمويل الخاص والعام والاستثناءات غير المبررة باسم الامتياز. والرد على هذا الوضع المؤسف كان ثلاثياً. وقد جاءت العدالة المالية أولاً. فبدلاً من فوضى الضرائب المباشرة المعقدة، فإن ضريبة الأرض التي ستُفرَض على كل الرعايا وتأخذ بالحسبان ظروف المزارع وثروته من موسم إلى موسم. وكانت الاستشارة السياسية ثانياً: سوف تنتخب المجالس المحلية ـ الدائرة، المنطقة والمقاطعة ـ لتساهم في تقييم وتوزيع وإدارة الضريبة. وجاءت الحرية الاقتصادية ثالثاً وأخيراً. وستستبدل السخرة corvée (التجنيد للأعمال العامة)، التي سرقت عمل الفلاح في الوقت الذي يحتاج فيه إليه كثيراً، بضريبة مالية. والأمر الأكثر أهمية، سينهي تبني الرسم الوحيد حروب التهريب المخيفة ويخلق عصراً جديداً من الأسواق التجارية في الدولة. ومن حافة الكارثة ذاتها ستستعيد الأمة قدرها. وأنهى بخاتمة رائعة:

قد يتذكر الآخرون شعار ملكيتنا: "si veut le roi; si veut la loi" [كما يرغب الملك، يكون القانون]. أما شعار صاحب الجلالة (الآن) فهو "si veut le bonheur du peuple; si veut le roi" [ما تتطلبه سعادة الشعب، يرغب به الملك].

كان معظم برنامج كَلوني استعادة لِـ تورغو. في الحقيقة، كان اقتراح المجالس المحلية الذي وضع مسودته دو بون دي نِمور مؤسساً على المذكرة السابقة التي كانت قد كتبت لتورغو منذ عقد مضى. (لم يكن مسروراً من أن يكتشف أن ميرابو قد انتحل نسخة ووزعها مذيلة باسمه الشخصي.) لكن حقيقة التاريخ السابق للإصلاحات لم تضعف

ثوريتها الأصيلة. وعلى سابقة المواجهات البرلمانية، لا بد أن كَلوني توقع مقاومة نتيجة لانتهاكات الامتيازات المتضمنة في انعدام الاستثناءات لطبقتي النبلاء ورجال الدين في ضريبة الأرض. لم يكن مخيباً بالكامل، ففي بعض المكاتب كانت هناك بعض الهمسات أن المقترحات هاجمت الامتيازات ودققت في قانونية المجالس المحلية.

مع ذلك ما كان بالفعل مدهشاً في مناظرات المجلس أنها وُسِمت بقبول واضح لمبادىء مثل المساواة المالية التي لبضع سنوات خلت لم تكن قابلة للتفكير فيها. فقد أظهر فيفيان غرودر Vivian Gruder كيف أن الشخصية الاجتماعية للأعيان ـ بوصفهم ملاك أراضي ورجال أعمال زراعيين ـ أعطتهم إحساساً قوياً بوفرة الامتيازات. وبهذا المعنى، مثل كثر غيره، كانوا منذئذٍ جزءاً من نظام «جديد» وليس «قديماً» وكانوا ينتظرون فرصة لإعطاء اهتماماتهم الجديدة شكلاً مؤسساتياً على نحوٍ مميز. ولم يكن هناك، على سبيل المثال، أية معارضة على إلغاء الاستثناءات عن رسوم تدفع على نقل المنتج من المقاطعات إلى الأسواق. واقترحت بعض المكاتب أن تلغى كل الاستثناءات من ضريبة الطاية، واقترحت أخرى أن تكون النبالة (ما عرف الجميع أنه كان) مسألة مكانة بشكل أساسي ولا تمنح النبيل أي نوع من الاستثناءات.

بكلمات أخرى، جاروا ثورية كَلوني، خطوة بخطوة، وفي حالات عديدة سبقوه كثيراً. كان قد افترض أن الضريبة الجديدة المدفوعة بدل عمل الخدمة **السخرة** سوف يدفعها المسخرون سابقاً. غير أن ثلاثة مكاتب أصرت على أن تكون ضريبة عمل عام مناسبة يدفعها الأشخاص. وناقش آخرون أن ضريبة الملكية الجديدة يجب ألا تكون محدودة بالأرض بل تقع على أنواع أخرى من الملكية مثل العقارات المدينية (التي للكبار فائدة خاصة فيها). وطالب آخرون مجدداً بأن ترتكز الضريبة على تسجيل الأرض الشامل الذي يمكن مراجعته دورياً لضمان تقييم عادل. وركزت اقتراحات كثيرة على ضرائب منخفضة على أولئك الفقراء ولاسيما العمال المياومين.

وحيث وقع خلاف، لم يكن لأن كَلوني قد صعق الأعيان بإعلانه عن عالم جديد مالي وسياسي، بل لأنه لم يذهب بعيداً كفاية أو لم تعجبهم الطرق العملية المبنية في البرنامج. لم تقترح النقاشات حول ضريبة الأرض مجموعة من ملاكي الأراضي الأغنياء (لأن هذا بالفعل ما كانوا) يطرقون كعوبهم للانقضاض على ما يهدد امتيازاتهم. حملوا شبهاً أكبر بالجلسات المطولة في أكاديمية ريفية، التي تجتمع لتناقش تأثيرات النسخ المعدلة البديلة للعدالة المالية على الإنتاج الزراعي. أبلغ دو بون دي نِمور أنه دهش من

الألفة بالنظرية الحالية المعروضة في النقاشات. عندما اقترح كَلوني أن تعتمد الضريبة على النسبة المئوية للناتج الإجمالي في أية سنة كانت (سيتغير المعدل قليلاً اعتماداً على نوعية الأرض)، جادل الأعيان لفرض ضريبة على صافي الإنتاج بعد طرح كلفة البذور والعمل والأدوات. وفضلوا مبلغاً ثابتاً أيضاً ليُقسَّم على مستوى الدائرة بدلاً من آخر يرتفع كل سنة مع مستويات الإنتاج. فالأخير سوف يعيق الإنتاجية، كما زعموا مع الصوت الحقيقي للاقتصاد الجديد. وعلاوة على ذلك، بينما ظن كَلوني أن الضريبة يجب أن تكون حسب النوعية، اعتقدوا أن صعوبات التقييم تفرض أن تكون نقداً.

فيما مال المؤرخون إلى حذف الأعيان كحدث عرضي سريع الزوال في السباق إلى السلطة الذي سبق بداية الثورة، تؤكد مجرد نظرة على النقاشات أن شيئاً بالغ الجدية كان وشيك الحدوث. (فضريبة الأرض، كما عدلها الأعيان، ستتبناها الثورة و، بتغير بسيط، ستستمر في فرنسا حتى الحرب العالمية الأولى.) فقد نوقشت الضريبة المفروضة على ضوء علاقتها بالفعاليات الاقتصادية الأخرى، ولأول مرة لم يكن هناك خلاف حيث كان قبولها مشروط بحزم على شكل تمثيل ما. وفي الواقع، كان هناك عدم رضا عن حدود سلطة المجالس الريفية المتوقعة التي عبر عنها بالصوت أكثر. أراد لافاييت، كما هو متوقع، أن ينقل كل سلطات الحاكم ـ على كل أشكال الضريبة المفروضة (ليس ضريبة الأرض وحدها): الأشغال العامة، إدارة الإيواء وما شابه ذلك ـ إلى هذه السلطات المحلية. وعمل أعيان كثر على الخط البرلماني لأن الجسم الذي يجب أن يدرس أي شكل جديد من الفرض ينبغي أن يكون مجلس الطبقات. وفيما لعب كَلوني بأمان باشتراط دخل ستمائة ليفر كمؤهل للتصويت في مجالس الأبرشيات، دعمت أغلبية المكاتب في الواقع تخفيض هذه العتبة. وكان هذا ما يزال بعيداً عن الديمقراطية، ومع ذلك كان هناك إحساس حقيقي أن الجماعات المنتخبة يجب أن تكون تمثيلاً عريضاً «للمصالح» في الأمة.

كان واضحاً أن هذا السيناريو الذي تنافست فيه نخبة فرنسا في ما بينها بروح الجماعة من أجل جوائز في الصالح لم يكن ما توقعه كَلوني. بل الأحرى كما لو أنه استعد ليقود بغلاً عنيداً مع عربة كبيرة الثقل، ليجد أن البغل كان حصان سباق وقد عدا بعيداً، تاركاً السائق في الخندق. شدد فيفيان غروديه، بشكل منطقي، أن الهوية الاجتماعية للمجموعة كملاك أراض هو ما جعلهم راضين عن التخلي عن الامتيازات والمفارقات التاريخية التي هوجمت بسببها طبقتهم المنغلقة لزمن طويل. لكن فيما لعب التحديث الاقتصادي للمجموعة دون شك دوراً في الواقعية التي اقتربوا بها من

الإصلاحات، كان أيضاً حسهم المشترك للحظة التاريخية ما حث تظهيرهم للغيرية الوطنية. وإذ توزعوا دور الكورس الأخرس، وجدوا فجأة أنهم، فردياً وجماعياً، يملكون صوتاً قوياً ـ وأن فرنسا كانت تصغي. كان هذا الاكتشاف الذاتي المفاجئ في السياسة مسكراً وهناك إشارات إلى أنه على الرغم من أنهم عادة ما يُصرَف النظر عنهم باعتبارهم ذيل المؤخرة في النظام القديم، ففي ما يتعلق بالوعي السياسي الذاتي كان الأعيان أول الثوريين.

وبدلاً من الحاجة إلى المراقب العام ليتم عملية الإصلاحات، سرعان ما أوضحوا له أن تنحيته شرط النجاح. فقد كانت سمعته عندئذٍ ملطخة تماماً بالفضائح والشبهات بالنفاق وبالتالي لن يتمكن من دعم مصداقية المجلس. وفي آذار، ظهرت تفاصيل عن الصفقات العقارية التي أقنع فيها كَلوني الملك أن يقايض بعض الممتلكات المبعثرة مقابل مقاطعة سانسير Sancerre الأقل قيمة في ضوء غير محبذ. فقد بدا أن كَلوني وأصدقاءه كانوا بين أوائل مشتري تلك العقارات وأكثرهم تفضيلاً. وفي البورصة، طرحت أسئلة عن شركة الأنديز وعن تعويم الاتحاد المتعاقد على تزويد باريس بحاجتها من الماء. وبدَّل ميرابو، الذي كان مفترضاً أنه ما يزال على الأقل مؤيداً تعوزه الحماسة، مساره بشكل درامي بنشره استنكاراً لهذه الصفقات التي كان فيها كَلوني بشكل خاص محل شبهة. وفي مكتب أرتوا، الذي يُعتبَر العضو الأكثر ولاء في المكاتب السبعة، خرق لافايت المراتب بتصريح علني يهاجم «وحش المضاربة». وأصر على إجراء تحقيق جنائي شامل لكشف هؤلاء المتورطين في إثراء أنفسهم على حساب «عرق ودموع وحتى دماء» الشعب.

وقد رد المراقب العام، المتضايق على كل الجوانب، مهاجماً للمرة الأخيرة، مستخدماً تقنيات الجدل العام التي صُوِّبت نحوه. كانت مقياساً لمدى تغير لغة النقاش كثيراً حيث أن بيانه إلى العامة حمل في نواته الاتهام بأن الطبقات صاحبة الامتيازات التي لا تمثل خططه هي أفضل من يتآمر ضد الشعب. وقد رد كلوني مثل خطيب ثوري عام 1789 أو حتى يعقوبي يستنكر «أنانية الأغنياء» على السؤال الذي يفكر فيه الجميع: «هل سيتم دفع المزيد؟ بالتأكيد. لكن من سيدفع؟ وحدهم أولئك الذين لم يدفعوا كفاية. سيُضَحّى بأصحاب الامتيازات، أجل ـ عندما تتطلب العدالة ذلك وتتطلب الحاجة فعله. أو هل الأفضل فرض ضريبة مرة أخرى على من ليس لديه امتيازات، الشعب؟»

لم تنقذ كَلوني مناشدة الرأي العام بهذه الطريقة المباشرة والصريحة. وفي الواقع،

ربما جعلت موقفه أكثر سوءاً. كان قد أصبح غير محبوبٍ كثيراً حيث قوبل هذا الهجوم الأخير بوصفه حيلة ماكرة لإخفاء مسؤوليته الشخصية في الإساءات الخاصة والعامة. والأكثر جدية، أخذ يخسر الحظوة في البلاط بسرعة. كان الملك محبطاً، بل ساخطاً، لاكتشافه المدى الحقيقي للعجز الذي يفوق تقدير كَلوني بـ 32 مليوناً. كان الرقم الدقيق، في هذا الوقت، نظرياً إلى حد ما، لكن كانت الثقة التي وضعها الملك في وزيره هي الإصابة الرئيسية. ليست المرة الأخيرة التي يبدأ فيها الندم على جرأته السياسية والزحف نحو المخرج الأقل ألماً. وليست المرة الأخيرة التي تظهر فيها الملكة لتقدم مرشحاً. فيما أفل نجم كَلوني، بدأت تحسب المناسبات التي أبى فيها أن يحترم مشيئتها (ما عنى عادة مالاً ومناصب لأصحابها). لقد أصغت بحذر، عندئذٍ، عندما أوضح لها بريتويه Breteuil أن رحيل كَلوني لا بد منه لإنقاذ برنامج الإصلاح. وإذ اغتاظ الملك أكثر فأكثر من الموقف الذي وضعه فيه كَلوني أعطى جدية لنواياه من خلال السماح بنشر الردود على بيانه.

حاول كَلوني أن يستخلص أي رصيد يمكنه من موقف صعب على نحوٍ متزايد. عرض أن يستقيل بشرط أن يصادق على البرنامج، لكنه لم يكن يساوم من موقع قوة، مثل تورغو ونِكر قبله، دُفِع إلى المناورة بإنذار نهائي يستحيل تنفيذه، مطالباً بإزاحة أكثر خصومه قوة. بدا، أولاً، أن الملك سيقابله في منتصف الطريق بالتخلص من ميرُمسنيل Miromesnil، لكن ثبت أن هذا مجرد مقدمة لفعل سلطة حكيمة Solomonic. وأقيل كَلوني في 8 نيسان/ إبريل.

كان هناك أكثر من مجرد استقالة. فقد كانت العبارة التي قُدمت لصرفه، مثل تورغو، هي العار disgrace. وفي هذه الحال، حرص الملك على غسل سلطته ذاتها بتخطئة سلطة كَلوني. كان «الكل سعيداً»، نقل الخبر أحد المراسلين في البلاط. سرت الملكة بأن تتخلص من تفاحة سيئة وتحظى بفرصة إدخال وزير من اختيارها شخصياً. كان أمراء الدم جميعاً سعيدين أن يروا الحاكم القافز يختفي عائداً إلى العتمة. هدر الرأي العام بفرحه لزوال المضارب الرئيسي وحرقوا تمثال كَلوني على جسر البونت نوف. لم يضيع لويس السادس عشر شخصياً أية فرصة ليعبر عن سروره بأفعال انتقامية تافهة. فجرَّد الوزير من الوشاح الأزرق من مرتبة سان إسبريت، الذي تمتع بالظهور به، وأُجبِر تسليم ضيعته في هانونفيل Hannonville كشكل من كفالة مقابل المزيد من الإجراءات. وفي طريقه إلى المنفى، كثيراً ما حاصرت حشود غاضبة أو ساخرة عربة كَلوني واقتربت كثيراً من ممارسة العنف ضده شخصه.

كان كَلوني الأول في صف طويل من الساسة الفرنسيين الذين سيصبحون ضحايا مجازفاتهم الشخصية. لكنها ستكون خطيئة كبيرة أن يُصرف بوصفه مجرد وزن خفيف، مستغلين على نحوٍ طائش الأزمة المالية مقابل فائدة قصيرة أجل. كان، في الواقع، أول شخصية عامة تفهم العقابيل السياسية للشخصية العامة، وكانت الصورة التي رسمها للأعيان عن انقطاع طويل في التاريخ الفرنسي، مع كل عدم عبقريته، صحيحة تماماً. وكانت اللغة التي تكلمها ورؤيته لما سيأتي، بكلمات أخرى، أكثر أهمية من مسألة دوافعه لفضح ذلك. فبعد كَلوني، كان كل شيء ممكناً.

نموذجياً، استمر بحماية رهاناته. وفي افتراض غير صحيح أن نفيه لن يدوم طويلاً (في الواقع لم يكن إلا مقدمة لنفي إضافي من فرنسا)، اشترى كلوني بعض المؤن لعودة إلى مجتمع باريس. وفي يوم عاره بالضبط طلب من دير يقع في شارع سانت دومنيك القريب من منزله أن يؤجره مكاناً كافياً لحفظ ألف زجاجة خمر، التي لن يختبر عينة من غناها أبداً.

CHAPTER SIX

BODY POLITICS

i UTERINE FURIES AND DYNASTIC OBSTRUCTIONS

The smutty joke about the rivière diamonds appears in [Pierre Jean - Baptiste Nougaret], Spectacle et Tableau Mouvant de Paris (vol. 3, 1787, 77). This publication is a wonderful source of miscellaneous information, gossip and scandal on Paris at the end of the old regime My account of the Diamond Necklace Affair is reconstructed from the printed primary sources, especially the justificatory memoirs bound together as the Recueil des Mémoires sur L'Affaire du Collier (Paris 1787). Serious research on the pornographic libels

against the Queen is only just getting under way, though see Hector Fieischmann, Les Pamphlets Libertins Contre Marie - Antoinette (Paris 1908). Robert Darnton's "The High Enlightenment and the Low Life of Literature", in Literary Underground, discusses the political importance of the libelles. The important essay by Chantsl Thomas, "L'Hérone du Crime: Marie - Antoinette dans les Pamphlets", in J. - C. Bonnet et at. (eds.), La Car - magnole des Muses (Paris 1988), appeared too late, alas, for me to take into account its discussion of much of the same evidence. The principal items considered here are the many editions of the Essai Historique sur la Vie de Marie - Antoinette, Reine de France. La Vie d'Antoinette; Les Amusements d'Antoinette; Les Passe - temps d'Antoinette were all slight variations on the Essai. The Memoirs of Antonina Queen d'Abo (London 1791) was an English version of yet another variation that appeared shortly before the Revolution. Other items in the canon were the spurious history Les Amours d'Anne d'Autriche ("A Cologne", 1783); Anandria (possibly by Pidanzat de Mairobert, 1788); Les Amours de Charlot et Toinette (1789); Le Bordel Royal, Suivi d'Entretien Secret entre La Reine et le Car - dinal de Roban (1789); Le Cadran des Plaisirs de la Cour ou les Aventures du Petit Page Chérubin (1789). Information about the new editions of Bienville's La Nympbomanie ou Traité sur La Furcur Uterine (Amsterdam 1778) comes from the printed catalogue of the book - seller Théophile Barrois le Jeune, who sold from a shop on the quai des Augustins and who evidently specialized in sexual and obstetric works, since he also adver - tised Tissot's tract against masturbation, Onanie; Angélique Rebours' work on breast - feeding; Vacher's treatise on tumors of the breast; and innumerable books on venedisease. The record of the Queen's trial before the Revolutionary Tribunal was published as Acte d'Accusation et Interrogatoire Complet a Jugement de Marie - Antoinette (Paris 1793).

Elisabeth Vigée - Lebrun's own Mémoirs, while not without interest, are, alas, a model of tact and. discretion. The best source on the artist's career is an outstanding exhibition catalogue by Joseph Baillio, Elisabeth Vigée Lebrun (Kimball Museum, Fort Worth, 1982), from which I take the comment on her in the Mémoires Secretes. See also Anne Passez, Adelaide Labille - Guiard (Paris 1971). There is, however, a great deal of research still to be done on women artists of the 1780s and 1790s. Marie - Antoinette's correspondence with her mother and brother has been translated and published by Olivia Bernier as The Secrets of Marie - Antoinette (New York 1985)...

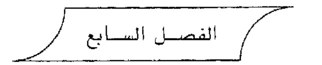
ii CALONNE'S PORTRAIT

On Talleyrand's work as agent - general of the clergy, see Louis S. Greenbaum, Tally - rand, Statesman - Priest: The Agent - General of the Clergy and the Church at the End of the Old Regime (Washington. D.C, 1970). The best modern biography of Calonne is Robert Lacour - Gayet, Calonne (Paris 1963), but the much older work of G. Susane. La Politique Financiére de Calonne (Paris 1901,), is still an important study of his administration. Wilma J, Pugh, "Calonne's New Deal", Journal of Modern History (1939, 289 - 312), offers a generous view of his reforms. The opposite view of Calonne's responsibility for the financial crisis is presented in R. D. Harris, "French Finances and the American War 1777 - 1783", in Journal of Modern History (June 1976). James Riley's important article "Life Annuity Based Loans on the Amsterdam Capital Market Toward the End of the Eighteenth Century", in Economisch - en - Sociaal Historisch Jaarboek (vol. 36, 102 - 30). is the best account of French efforts to raise annuity funds on the Dutch money market and the manner in which Calonne short - circuited the enterprise in 1786 - 87. My own conclusions derive in part from a remarkable series of handwritten tableaux of the ordinary

revenues and expenditures of the kingdom, from 1786 to 1789, the first of which appears to come from Calonne's office of the Contrôle and may well have been prepared for the Assembly of the Notables. These documents are now preserved at the Kress Library of Harvard Business School.

iii NOTABLE EXCEPTIONS

Much the most important study on the Assembly of the Notables is Vivian Gruder, "Class and Politics in the Pre - Revolution; The Assembly of Notables of 1787", in Ernst Hinrichs et al., Vom Ancien Régime. See also A. Goodwin, "Calonne, the Assembly of French Notables of 1787 and the Origins of the Révolte Nobiliaire", in English Historical Review (1946). See also Jean Egret, The French Pre - Revolution (trans. W. D. Camp, Chicago 1977, chapters 1 and 2). P. Chevallier (ed.) has published the Journal de L'Assemblée des Notables (Paris 19600) kept by the Briennes.



الانتحــارات

1788 ـ 1767

I ـ الثورة عند الأبواب

كان ممكناً في صيف عام 1787 أن تسافر يومين باتجاه شمال شرق باريس وتصل إلى منطقة تدور فيها ثورة. كان الوضع في ما يتعلق بهذا الاضطراب مضللاً: فقد كانت الساحات ذات الجملونات والقنوات الهادئة في جمهورية هولندا مثلاً للاستقرار السياسي. وكان عنصر العنف، الذي بدأ عفوياً ثم أصبح مدبراً لاحقاً والذي سيغدو علامة مميزة للثورة الفرنسية، غائباً إلى حد كبير في هولندا. إذ لم تكن هناك عربات محملة بالأرستقراطيين المدانين ولا سلال هدايا تحمل رؤوساً مقطوعة في أمستردام. إلا أن اضطراب السياسة الهولندية في ثمانينيات القرن الثامن عشر لم يكن أقل ثورية طالما كانت الثورة هي موضع الحديث. فقد كانت أفواج من ميليشيا المواطنين المسلحين هي: ميليشيا الفيلق الحر تسيطر على مدن أوتريخت وليدن وهارلم. وقد قامت تلك الميلشيات بعروض وتدريبات تحت رايات تمجد «الحرية أو الموت»، وأعدت مراسم أداء القسم نهاراً وإطلاق الألعاب النارية الثورية ليلاً. وفي اجتماع كبير في ليدن عام 1785 ضم الآلاف من رجال الميليشيات الوطنيين، تعاهدوا على «ميثاق الحرية» الذي يلزمهم بالدفاع المشترك.

علامَ تعاهدوا؟ تم إنشاء «هيكل الحرية» في ساحة أوتريخت الرئيسة لإعلان هزيمة مذهب الحكم المتوارث والأرستقراطية وانتصار النظام الانتخابي. وقد مارس الفيلق الحر نفوذه في المدينة نفسها لتحريك الحشود ضد النظام الوطني القائم في تاون هول. ونُصِّب

سكانه «ممثلو الشعب» المنتخبون بصورة مباشرة، الذين لم يكونوا غير قادة وضباط الميليشيا. ونشر بيان متطرف في ليدن عام 1785 يذكّر كثيراً بإعلان **الاستقلال الأمريكي** و**تعاليم المواطن الأساسية** للمحامي بوردو سيج Saige، بل يؤكد على ذلك الأمر بصورة أقوى. وقد أكد ذلك البيان على أن «الحرية حق أكيد لجميع المواطنين في الكومونولث. ولا توجد قوة على الأرض تضاهي القوة المستمدة حقاً من الشعب... . يمكن أن تتحدى أو تقف في وجه الاستمتاع بهذه الحرية التي يتوق الجميع إليها». وبالمثل، «ليست السيادة شيئاً آخر غير صوت الشعب».



الصورة 71، للرسام رينيه فينكل، لوحة منقوشة لِـ أوتو ديرك غوردن، كابتن فيلق الحرية في أوتريخت، عام 1786

خلال خمس سنوات، تحول المشهد السياسي في هولندا من عالم نخبة مقيدة بلطف إلى فعالية جموع مشوشة ومندفعة. أما الصحافة فكانت غير مراقَبة راديكالية موجهة إلى مجموعة من القراء من أصحاب المتاجر وأبناء المهن الصغيرة. وكانت صحيفتا بوست فإن نيدر ريجن Post van Neder Rijn وبوليتيك كروجر Politicke Kruijer الأسبوعيتان هما الصحيفتان الأكثر شعبية وكانت نسخ كل عدد منهما تصل إلى نحو خمسة آلاف شخص

على الأقل. كانت صفحاتهما تشجب الأمير ويليام الخامس البرتقالي بوصفه سكيراً أبله وزوجته البروسية امرأة سليطة ومتعجرفة. وامتد قبل ذلك بوقت طويل الأعداء المستهدفون إلى أولئك الأرستقراطيين المتمردين (الطبقات التقليدية الحاكمة باسم الملك في تلك المدن) الذين يسعون للحفاظ على نظامي محاباة الأقارب وحكم القلة. وقد أدت محاولات كمّ أفواه الصحافيين الوطنيين إلى تحول المحررين والناشرين إلى أبطال شعبيين بين ليلة وضحاها. فقد وسّع هِسبه Hespe، المحرر في صحيفة كروجر في أمستردام، شهرته كسجين سياسي باقتنائه بطاقات زيارة شخصية مطبوعة ذات أغلال محطمة شعاراً شخصياً له. وبعد ذلك سرعان ما تدفق سيل الهجوم العنيف من عالم الصفحات المطبوعة إلى عالم الصور: انتشرت الرسوم الكاريكاتورية التي تشهر بالـ «البرتقاليين» والأرستقراطيين ورسوماً مضادة للوطنيين في المقاهي والحانات. أما المؤسسات المنافسة فقد زينت مقراتها وشاراتها برموز ملائمة: شجرة البرتقال والشرائط البرتقالية لمؤيدي رأس السلطة، العقدة السوداء والكلب الأسود كيشوندة keeshond لمناوئي السلطة. كانت نبرة السجالات سوقية بطريقة عدوانية. فقد صوَّرت إحدى المطبوعات الوطنية كلبها الأسود وهو يرفع قائمته الخلفية على شجرة البرتقال. حتى الحياة الأهلية تراجعت أمام الهجوم الضاري لغزو الشعارات. فقد غطت شعارات أنصار الطرفين المتقاتلين علب السعوط والأقداح والأباريق والأطباق الخزفية. أما الألواح التي يرق العجين عليها وأوعية صنع المهلبية فكانت تنقش بالشعارات التي تتماشى مع خط العائلة حيث ينطبع النقش على رغيف الخبز أو الحلوى بعد قلبها من الوعاء.

سبق هذا الإتخام للحياة اليومية بالنزاع السياسي بشكل مباشر الوضع الذي ساد خلال الثورة الفرنسية. كانت هناك أوجه شبه أخرى كثيرة: تحول المشاعر الوطنية عن التعاطف مع الأمير إلى التعاطف مع المواطنين، واتهام زوجة الأمير بدوافع شريرة أجنبية، وإنشاء النوادي لـِ «تعريف» المواطنين بحقوقهم وتأكيد على المراسم والعروض العامة لاستعراض «الحرية المسلحة». ورغم أن النزاع بدأ كاحتجاج على سلطة الموظف الحكومي Stadtholder وتحكمه في التعيينات المحلية، غير أن الأساليب الراديكالية التي استخدمت لفرض تلك المطالب ولّدت بدورها غايات جديدة. فبعد مهاجمة العائلة الملكية House of Orange انقلب جميع الصحافيين وقادة الفيلق الحر ضد النظام التقليدي للحكم بأكمله في هولندا التي كان يُنصَّب فيها «الحكام» مدى الحياة فتمَّ استبدالهم بأعضاء اختيروا من العصبة نفسها. ومقابل هذه «الأرستقراطية»، التي كانت توصف في الأدب

السجالي بـ «الوحشية القوطية» و«الاستبداد»، كان يفترض أن يقوم نظام ديمقراطي على أسس الانتخابات المباشرة المتكررة ينقي الأجواء السياسية الهولندية ويعيد خلق الجمهورية بالقوة المتخيلة لأصولها.

مع أن خطاب الثورة الهولندية قد تم التعبير عنه في مصطلح الحقوق العامة لأواخر القرن الثامن عشر، فهنالك الكثير حول هذه الثورة المصغرة التي كانت تبدو محدودة على نحو مشوش في نظر الزائر الفرنسي. وفي مناسبات إحياء ذكرى الأبطال الذين سقطوا شهداء كالأميرال رويتر Admiral Rugter وجوهان دو ويت Johan de Witt، سيشعر ذلك



الصورة 72، إبريق شاي ذات شعارات ثورية وطنية



الصورة 73، لوح تقطيع خبز ذو رسم كاريكاتوري لـ وليم الخامس

الزائر أنها لاشيء إلا صدى للماضي ولا تحمل أية بشائر للمستقبل. وستبدو أشبه بنزاع بين زمرتين أكثر منها حرب بين «الأرستقراطية» و«الديمقراطية». بل على الرغم من أن الاضطرابات الوطنية لم تكن تؤخذ على محمل الجد بالقدر نفسه الذي أُعطي للشؤون الأمريكية، كانت هناك ظروف معقدة جعلت قدر كل دولة منهما مرتبطاً بقدر الأخرى.

كانت الجمهورية الهولندية حليفاً وعنصراً هاماً أكثر منه سيء الطالع في التحالف المعادي للبريطانيين الذي قاده فرجين Vergennes منذ الحرب الأمريكية. أضف إلى ذلك أن سوق المال في أمستردام أصبح بشكل متزايد مصدراً حيوياً للقروض قصيرة الأمد والمرتبات السنوية، التي كان يؤمن معظمها من خلال الاتحادات التجارية التي كانت هي نفسها ذات عواطف وطنية أكثر منها ملكية. وبدا أن المال والسياسة «الأمريكية» يسيران خطوة بخطوة. وبما أن العائلة الحاكمة كانت بشكل تقليدي مع البريطانيين، فكلما كانت درجة ضعفه وارتباكه أكبر ازدادت فرص تأسيس نظام فرانكفوني وطني بدلاً منه. غير أن هذه الفرصة الذهبية لم تكن تخلو من المخاطر. فسرعان ما تحولت المواجهات في الجمهورية الهولندية إلى حرب أهلية امتدت إلى جميع المناطق، وأصبح قتال الشوارع أكثر عنفاً، وارتفع بالتالي مستوى الحذر في فرساي. وقد أبلغ مندوب فرنسي من هولندا في تقرير له أن «الاهتياج هنا قد وصل إلى ذروته وإذا لم يتوقف الأمر يُخشى من حدوث انفجار لا يمكن تقدير عواقبه».

وفي كل حال أخذ الصراع طابعاً عسكرياً تفاقم في ربيع عام 1787. ففي أيار وقعت أول معركة قرب أوتريخت، وإن كان ذلك على نطاق صغير، استطاع فيها الوطنيون السيطرة على زمام الأمور. وفي نهاية حزيران، احتجز الحرس الوطني الأميرة ولهيلمنا Wilhelmina بينما كانت تحاول السفر من معقل الملكيين في غيلدرلاند Gelderland، إلى لاهاي The Hague لحشد الأنصار والمؤيدين. فسجنت عند حدود هولندا الشرقية في معتقل غير لائق. وقد أبدى أخوها ملك بروسيا، الملك فريدريك ويليام Frederick William، استياءه الشديد من ذلك العمل المهين واستعد لغزو هولندا بتحريض من السفير البريطاني.

ماذا كان في وسع فرنسا أن تفعل في هذه الأزمة؟ لم يخف لويس السادس عشر امتعاضه من تصرف الثوريين الهولنديين ولم يرغب بالتدخل لصالحهم. وأوضح، يرجن قبل موته في شباط، أن رضاه عن إقصاء النفوذ البريطاني يجب ألا يُؤخذ على أنه مصادقة على العصيان المسلح. ولكن على الرغم من هذه التحفظات كان الانطباع السائد في هولندا أن فرنسا ستستخدم قوتها العسكرية لتوازن وتمنع تهديد أي تدخل أنغلو ـ بروسي.

وتعالت في فرنسا نفسها أصوات مجلجلة تنادي بأن قضية الحرية لا تتجزأ - فالواضح في أمستردام وأوتريخت كان واضحاً في بوسطن وفيلادلفيا. فقد نشر ميرابو Mirabeau بياناً (بمباركة نصيره دوق أورليانز) بعنوان «إلى الباتافيين» (To the Batavians) يشجب فيه السمعة المخزية لرجال السلطة. وسافر لافايت Lafayette بمشقة إلى الحدود الهولندية متوقعاً تسميته قائداً للقوات الوطنية، ليكتشف (لاشمئزازه) أن القيادة قد أعطيت لأحد المرتزقة غير جدير بالأمر هو راينغراف Rhinegrave من سالم Salm.

والآن، المأزق الذي يواجه السياسة الفرنسية حاد. فإذا لم تحرك ساكناً لإحباط الغزو البروسي ستتعرض مصداقية القوة والسلطة الفرنسية لخزي كارثي عند أبواب فرنسا عملياً. ومجرد ظهور أي إشارة تدل على وجودها العسكري، مع وجود إشاعات بالتعبئة، قد يكون كافياً لوقف الغزو البروسي، ولكن في حال دعت الخدعة إلى الخيار بين الحرب أو التراجع فسيكون الأمر أكثر إزعاجاً. ولكن دخول أي حرب لصالح قضية يرفضها الملك يبدو عملاً طائشاً بالمثل. وخلال الأحداث، كان المال هو العامل الحاسم. فعلى الرغم من أن وزيري الحربية والبحرية، سيغور Ségur ودي كاستريز de Castries، رأيا أنه من غير المعقول وضع ثمن لشرف وسلامة فرنسا، إلا أنهما كانا واقعين تحت سلطة رئيس الوزارة الجديد لوميني دي براين Loménie de Brienne. وباستعادة حسابات تورغت Turgot حول تكاليف الحرب الأمريكية، التي عززتها الدروس القاسية للإدراك المتأخر، حذّر براين من أن أي عمل عسكري سيجر الدولة على الفور إلى الإفلاس. وكانت عبارة و«لا بنس واحد pas un sou» هي الرسالة الكالحة التي نُقِلت من قصر فرساي إلى السفير الفرنسي في لاهاي.

لم يستغرق البريطانيون ولا البروسيون وقتاً طويلاً ليكتشفوا أن إشاعة وجود ثلاثين ألف جندي فرنسي يعسكرون عند الحدود الجنوبية للجمهورية خدعة. ولكل ميليشيات المواطنين المبالغ بقوتها، فقد تلاشت المقاومة الوطنية المسلحة أمام القوات البروسية، وخلال شهر وصلت قوات دوق برونسيك من رماة القنابل إلى أمستردام ولاهاي. هرب آلاف الوطنيين والمرارة تعتصرهم إلى فرنسا حيث أضافوا عبئاً إضافياً على الدين الفرنسي من خلال طلبهم (وتلقيهم) رواتب بوصفهم لاجئين جديرين بالاحترام. وقد أعلن لافايت حزنه على شرف فرنسا الملطخ، الذي سما في أمريكا وهوى إلى الحضيض في هولندا.

ما فعلته الأزمة الهولندية هو كشف، وبطريقة سافرة مؤلمة، عدم مصداقية السلطة الفرنسية. وما حدث كما يبدو هو أن فرنسا لم تستطع أن تقدم سياسة خارجية تناسب قوة

عظمى. فاستبعاد براين للخيار العسكري كان اعترافاً كئيباً بأن الملكية قد غدت رهينة العجز المالي. وعنى أيضاً أن الملكية لن تستعيد أبداً حريتها في العمل عبر أي نوع من المسكنات. وبدفع الجدل إلى نقطة أبعد، كان واضحاً منذ تلك اللحظة المؤلمة أن الحكم الاستبدادي بشكله التقليدي قد انتهى. ولكن كان هناك خياران متبقيان، لن يستطيع أي منهما استعادة مصادر قوة التاج الفرنسي التي تمتع بها لويس الرابع عشر. الأول كان إصلاحاً من الأعلى قوي كفاية لتحفيز الدعم الشعبي الذي من خلاله يمكن للتاج أن يحتفظ على الأقل بالمبادرة في إعادة صياغة الدستور. أما الثاني، وهو خيار غير مبشر، فكان نوعاً من التنازل الذاتي تنتقل من خلاله سلطة الدولة من التاج وحده إلى شكل من نظام شبه برلماني تناط بمجلس الطبقات. وقد اعتقد بعض المراقبين عام 1787 أن ذلك قد حدث فعلاً، حيث ذكر دو بونت دي نيمور في تقرير له عن اجتماع للأعيان ما يلي:

«في الأول من شهر أيار كانت فرنسا لا تزال ملكية والأولى في أوروبا. وفي التاسع منه ... صارت فرنسا جمهورية يظل فيها الحاكم يتحلى بلقب وشرف الملكية لكنه مجبر دوماً على جمع شعبه لسؤاله وتحقيق رغباته، والتي لن يكون الريع العام دون هذه الموافقة الوطنية الجديدة مستوفياً الشروط أبداً. لقد أصبح ملك فرنسا ملك إنكلترا».

ومع ذلك، لم يكن الجميع مستعدين لتقبل فكرة أن النظام القديم قد انتهى فعلاً بسبب عدم الحيوية. فتاريخ حكومته الشهيرة السابقة برمته، حكومة لوميني دو براين، أمنّت دفاعاً صلباً عن إمكانيات حكومة استبدادية مستنيرة ومنفتحة. وهزيمتها الأخيرة كانت اعترافاً بأن التمثيل كان شرط الإصلاح وليس العكس.

II ـ الحكومة الأخيرة في النظام القديم

من أجل بقائها، كانت الملكية الفرنسية تحتاج إلى إصلاح قائم على عزم وطيد وسياسة بارعة. وقد أخذ العزم على الإصلاح من حكومة لوميني دو براين كل شيء لكنها لم تولِ البراعة السياسية اهتماماً. وكان هذا مفاجئاً لأن براين كان شخصية من المعارضة تم تعيينه لإضفاء الشرعية على الإصلاحات التي انتقدها سابقاً في مجلس الأعيان Assembly of the Notables. ولكن ما إن أصبح هذا الغريب عن الحكومة من أفرادها، حتى وقع هو الآخر ضحية الادعاء التقليدي بأن الحكومة والسياسة لا يتفقان. فمن وجهة نظر الحكومة تعني السياسة معارضة، والمعارضة هي كلمة مرادفة للعرقلة أو العقبة. وبالتالي فإن الإصلاح يجب أن يؤخذ من بين أنياب تلك العقبة بدلاً من تحقيقه من خلال التعاون.



الصورة 74، لومني دي براين

في الواقع لم يكن براين معادياً صلباً للحكومة من خلال التمثيل، ولا حتى مجلس الطبقات. ففي خريف عام ١٧٨٨ عهد إلى الحكومة أمر جمع ذلك الجسد، وتعهد بأن يتم ذلك في عام ١٧٩٢ على أبعد تقدير. ولكن نظراً للوضع المالي المتدهور لفرنسا، كان براين غير مستعد لانتظار قرار مجلس الطبقات بعد تشكيله. المال أولاً والانتخابات لاحقاً. تلك كانت أولوياته للعمل على ما يراه (وهذا منطقي) حالة وطنية طارئة (وقد توصلت حكومات الثورة بعد عام ١٧٨٩ إلى النتيجة نفسها).

كانت معظم المشكلات التي واجهت براين ناجمة عن خيبة أمل الشعب. فقد وصل براين إلى الحكم بوصفه المستفيد من فضيحة كَلوني Calonne المخزية. فقد مرت فترة انتقالية عُيِّن خلالها العجوز بوارد دي فوركو Bouvard de Fourqueux مراقباً عاماً، لكن ذلك كان تحديداً لأنه اعتُبِرَ تابعاً لـ كَلوني الذي ظل مكروهاً لدى الأعيان. أما براين، فقد بدا، بالمقابل، مقبولاً للجميع. فالملكة قامت متحمسة بتأكيد مزاعمه (على نحوٍ يصعب تصديقه إلى حدٍّ ما في ما يتعلق بهجوم الوزير السريع على نفقات أصحاب الوظائف العاطلين الذين يتقاضون رواتب دون عمل وعلى نفقات البلاط) أمام زوجها. وكان رجال الدين، الذين قلقوا من خطط كَلوني لمهاجمة إعفاءاتهم المالية، مسرورين لرؤية أحد أساقفة تولوز في مركز رفيع. وافترض الرأي العام أنه سيتجنب من الآن فصاعداً أي شكل

من الإجراءات التعسفية وسيقوم بتطبيق الإصلاحات من خلال التشاور والعمل مع ممثلي الشعب. عندما ألقى الملك خطاباً أمام الأعيان في 23 نيسان، أشار بشكل رئيسي إلى مواقف براين الشخصية من عدد من القضايا الهامة. وقد علّق رئيس أساقفة آيكس على ذلك قائلاً: «لم يتكلم أي ملك من ملوك إنكلترا لغة أكثر صدقاً أو أكثر وطنية قط».

لم تكن كل تلك الافتراضات مربكة. ففي المنصب، عدّل براين قانون ضريبة الأراضي الذي فرضه كَلوني بالطريقة التي أوصى بها عندما كان واحداً من الأعيان. فبدلاً من الضريبة النسبية التي كانت تجبى عيناً وتزداد حسب الإنتاج أعاد براين تعريف الضريبة بوصفها مبلغاً محدداً من المال تقرره حاجات العائد كل عام. بعد ذلك يتم تقسيم ذلك المبلغ على حصص مما يسمح لدافعي الضرائب بأخذ فكرة واضحة عن التزاماتهم الضريبية من عام لآخر. وقد أزال ذلك الإجراء على الفور ما أشيع أنه شكل من ضريبة شرير يتزايد دون تحديد. وتبنى براين أيضاً إرادة الأعيان توسيع الضريبة إلى كل فئات الشعب (وليس أولئك الذين كانوا خاضعين سابقاً للسخرة وحسب) لتحل محل عمل السخرة الإلزامي في الدولة. أما البنود الأخرى التي كانت على أجندة كَلوني، كإعادة التجارة الحرة في الحبوب وإنشاء اتحاد جمركي، فلم تكن موضوع خلاف وتم تمريرها إلى برنامج الحكومة الجديدة.

حالما أصبح بإمكان الأعيان تفتيش دفاتر الحكومة، لم يعد الوضع الكئيب الذي أعلن عنه كَلوني يشاهَد كنوع من أعمال الخدمة الذاتية الدعائية. كان حقيقة واقعية مروعة ـ نظراً للعجز المالي الحالي لنحو 140 مليون ليفر (تبين لاحقاً أن الرقم يصل إلى 161 مليون ليفر). وقد أعطت ضخامة هذه الأزمة براين الثقة بأنه، على عكس سابقه، يستطيع أن يعوّل على نوع من الإجماع الوطني لابتلاع العلاج المالي الصعب. وعلاوة على ذلك، كانت الإدارة التي جمعها حوله لمساعدته على تحقيق التزاماته بشأن تخفيض النفقات وتحسين العائد تمتلك مهارات فكرية وإدارية هائلة. لقد كانت، وهذا صحيح، مجموعة من الأصدقاء المقربين وحتى بعض الأقارب. فقد استطاع براين إقناع لاموانون Lamoignon ابن عم مالرب Malesherbes بترك العمل في علم النبات من أجل الصالح العام وأن يصبح حافظ الأختام، أما لا لوزيرن La Luzerne، ابن أخ مالرب، فقد أصبح وزيراً للبحرية بعد استقالة كاستريز إثر الأزمة الهولندية، وأصبح شقيق براين نظيره في وزارة الحربية.

وفي أية حال لم تواجه الحكومة في بداياتها اتهامات بأنها مؤلفة من مجموعة

عائلية، وكان ذلك يعود جزئياً لسمعة أفرادها الطيبة لما يتحلون به من نزاهة وذكاء. كان كريتيان فرانسوا دو لاموانون Chrétien - François de Lamoignon أكثر رؤساء محكمة باريس إثارة لإعجاب الشعب واحترامه، وبالتالي فقد كان يُفتَرَض أن يكون رابطة مفيدة مع القضاة العنيدين بصورة معروفة. وظل مالرب البطل الشعبي المحبوب، وحالما انضم إلى الحكومة في صيف 1788 قام بتقليص نفقات الأسرة المالكة التي كان قد بدأها في ظل حكومة تورغت. فبيعت القصور والبيوت الزائدة عن الحاجة مما وفر للخزينة خمسة ملايين فرنك. وتجرأ مالرب بالتطاول على أكثر شؤون البلاط حرمة، الصيد، وأدان جميع صيادي الصقور والذئاب والخنازير البرية. وبدمج الاسطبلات الملكية الهامة والأقل شاناً، وفَّر ما يقارب 2 ـ 4 مليون ليفر، على الرغم من أنه بعمله هذا كان يثير حنق الملكة عليه التي وجدت صديقها المفضل، دوق كواني Duc de Coigny، من بين الأشخاص المستغنى عنه. وأُلغيت وظائف الخدمات البريدية التي أوجدت كوظائف عاطلة لعائلة بوليناك مباشرة، وتم تخفيض الراتب التقاعدي لمن هم دون الخامسة والسبعين بشكل كبير (مصدر معروف لسوء الاستخدام) .

وقد ساعد كل ذلك مصداقية مزاعم الحكومة ظاهرياً بأنها ستحكم بحزم وصرامة من أجل الصالح العام. وقد بنا براين نفسه شهرته الشخصية في ما يتعلق بالاستقلال من خلال انتقاداته العلنية كأحد الأعيان. لقد أتى من حلقة المطارنة المثقفين (مثل ديلون Dillon مطران ناربون، وبواغلان Boisgelin مطران آيكس) الذين جمعوا بين مفاتن الدنيا وتعقيداتها الدنيوية وصلابة فكرية ملحوظة. ومع أنه عانى من مرض جلدي غالباً ما ترك وجهه كتلة من جرب وأنسجة تتقشر، كان لوميني دي براين رجلاً جذاباً ومحبوباً، وكان يتمتع بذكاء كَلوني لكن دون غروره ومكره. وحده المؤلف المسرحي مارمونتِل Marmontel، الذي عمل في لجنة لوضع مشروع خطة للتعليم الوطني، ظنَّ: «أن مرحه مثير للقلق ورزانته ماكرة لأن يوثّق به».

لم يرغب براين أن ينظر إليه بوصفه مهندس عملية الإنقاذ المالي وحسب ـ مع أنها كانت حاسمة. وكان يرى أن شرعية حكومته المكتسبة من اعتبارها إدارة إصلاحية سيطال عملها ميادين كثيرة مختلفة في الحياة الفرنسية. وتحت إلحاح مالرب (الذي كان بدوره واقعاً تحت ضغط القس رابوت سان إتيان Rabaut Saint Etienne) تعهد بإعطاء الحرية المدنية للبروتستانت، وهذا إنجاز ليس بالبسيط في ظل حكومة أسقف الكنيسة الغاليكانية. وقد أمل رابوت بالحصول على حرية كاملة، أي حق البروتستانت العام في ممارسة

عقيدتهم، بما فيها العبادة العلنية في الكنائس. وحثّ أيضاً على فتح أبواب الوظائف العامة منذئذٍ فصاعداً للبروتستانت. وكان ذلك يعني دفع لويس السادس عشر (الذي تعهد في قسم التتويج بأن «يستأصل الهرطقة») للذهاب أبعد مما هو مستعد له. فاستمرت منابر الوعظ المحمولة التي كان القساوسة الفارون يحملونها على أكتافهم لينصبوها هنا وهناك لإلقاء عظاتهم لبعض الوقت. غير أن الإجراء الذي أُقِرّ لم يُدِن «الهرطقة» وسمح بتسجيل حالات الزواج والولادات والوفيات بشكل رسمي ولأتباع الكنسية الإصلاحية بممارسة الأعمال التجارية والمهن الأخرى. وبعد مرور قرن على مرسوم نانت، أصبح الهوغونوتيون (البروتستانت) أفراداً مدنيين من جديد.

وفي الروح الليبرالية القضائية نفسها، أُلغي التعذيب الذي كان يستخدم لانتزاع المعلومات من المعتقلين حول شركائهم. وقد شمل ذلك بعض وسائل التعذيب وأشكاله كالسحق بالنعال ولولب الضغط على الإبهام وخراطيم المياه وهكذا انضمت إلى المشعلة العامة للمفارقات التاريخية التي توهجت بسرعة وفرح في السنة الأخيرة ذاتها من عهد الملكية القديمة. وقد أوصت لجنة ترأسها عضو المحكمة (والثوري لاحقاً) تارغت Target بتأجيل تنفيذ أحكام الإعدام للسماح بمراجعة الملك لتلك الأحكام وتخفيف العقوبة ـ مع أن هذا الإجراء لم يكن مقبولاً في النهاية في محكمة تارغت. أما إدارة السجون ـ المسؤولة عن تأمين الأمكنة والملابس ـ فقد خضعت هي الأخرى إلى مساءلة إصلاحية.

لم يكن الأكثر قوة بين زملاء براين جميعاً وزيراً على الإطلاق بل شخصية كانت سلطتها السياسية والفكرية مركزة إلى درجة تثير الخطر تقريباً. كانت تلك الشخصية جاك Jacques، الكونت دي غيبر Comte de Guibert، الذي كان ناقداً مسرحياً وحائزاً على تقدير الأكاديمية الفرنسية وحتى بروز نجم كلوزويتز Clausewitz، كان الكاتب العسكري الأكثر تأثيراً في أوروبا. أصبح في عمر الثالثة والأربعين واحداً من ألمع عباقرة الحياة الفكرية الفرنسية. كانت تلم به أحياناً نوبات كآبة رومانسية متشائمة قاسية، فيبرز أمام الناس يثير القلق في نفوس المجتمعين بمعلوماته العلمية والفلسفية والأدبية الشاملة. وقد كتبت عنه جرمين دو ستايل Germaine de Staël، ابنة نِكر Necker، والتي لم تكن من الذين يتأثرون بسهولة، قائلة: «كان حديثه الأكثر تنوعاً وغنىً وحيوية الذي سمعته في حياتي».

رسخ غيبرت شهرته قبل ستة عشر عاماً بعد تأليفه «مقالة في التكتيك». وقد تنبأت تلك الوثيقة المتبصرة والمثيرة للفزع بوقت لن تعود فيه الحرب هي الرياضة الأنيقة للعائلات الحاكمة ولن ترغم فيه الجيوش على الاصطفاف في صفوف للمشاة بطريقة

فريدريك العظيم Frederick the Great العقلانية. وبدلاً من ذلك، كما تنبأ غيبرت، سيتم نشر جيوش ضخمة من مجندين إلزاميين مشوشين في حروب أيديولوجية وطنية يغدو التمييز فيها بين المدنيين والجنود مبهماً وحيث يمتد مسرح عملياتها بشكل وحشي ليتخطى أرض المعركة إلى كافة المناطق والبلاد. وبناءً على تلك الرؤية قام غيبرت بإعادة صياغة الأمور اللوجستية، وسلاح مدفعية الميدان والهندسة الحربية، مؤكداً على عناصر أخرى كالحركة في القتال وعدم العمل بشكل ثابت منتظم والقابلية للتكيف: كلها أخطاء أساسية في كتب قواعد الحرب القديمة. وفي آذار/ مارس 1788 قام بجمع أفواج الفرسان والمشاة في فرق مدمجة تم تدريبها بشكل مكثف لتكون جاهزة للمعركة. لذا، ليس مدهشاً، كان غيبرت، وهو شخصية مقتطعة من نسيج «النظام القديم»، هو المهندس الحقيقي للهيمنة الفرنسية العسكرية (كما يعترف نابليون علناً) في السنوات اللاحقة.

وكتب في مقطع كثيراً ما يستشهد به:

«لنفترض وحسب ظهور شعب في أوروبا ينضم بسبب قيمه الصارمة إلى جيش من المواطنين في خطة محددة للعدوان، ويلتزم بها - مدركاً كيفية خوض حرب بطريقة اقتصادية والعيش على حساب العدو... إن أمثال هؤلاء الناس سيقهرون جيرانهم ويطيحون بدستورنا الضعيف كما تلوي العاصفة أعواد القصب».

كان غيبرت رسمياً نائباً لوزير الحربية، كونت دي براين (شقيق لوميني الأصغر) الذي خلف سيغر بعد استقالته إثر الأزمة الهولندية. ولكنه فعلياً كان هو من يمسك بمقاليد الأمور عقب تشكيل المجلس الحربي الجديد المؤلف من تسعة ضباط عاملين وإداريين ومخططين استراتيجيين: هيئة أركان عامة ناشئة. وظناً منه أنه يستطيع أن يوفر المال ويجعل الجيش أكثر كفاءة وقدرة في الوقت نفسه، أغلق غيبرت المدرسة العسكرية في باريس، التي لطالما رآها مدرسة لتخريج الارستقراطيين أكثر منها مكان تدريب جدي. واستبدلت في حينه باثنتي عشرة مدرسة إقليمية، وُقِفت لها أموال سخية لمساعدة أبناء سادة الوطن. وقد كان بونابرت واحداً من خريجي تلك المدارس، ملائم كفاية لبراين. أما المعهد العسكري الملكي، وهو معهد شرفي آخر، فقد تم تقليصه، وفي يتعلق بالألقاب الشرفية، التي كانت تعطى لأبناء الأسرة المالكة فحسب، كانت تزول بمجرد موت حاملها. وقلص غيبرت أيضاً بشكل حاد العدد الإجمالي في سلك الضباط الفرنسيين معتقداً أن تضخمه قد أضعف قيمة معنى المرتبة العسكرية وأوهن تسلسل القيادة. والأهم من ذلك كله، قضى غيبرت على الفساد المعروف وذلك بسحب شراء المؤن العسكرية من

أيدي المتعهدين الخاصين ووضعها تحت إدارة الدولة المباشرة ـ وهذا شيء آخر من الأفكار الجديدة التي استمرت أثناء الثورة.

وبكل هذه وغيرها من الإصلاحات، استطاع غيبرت أن يوفر حوالي ثلاثين مليون ليفر. وبفضل تلك المدخرات تمكن من رفع راتب الجندي العادي لينتشله من الفقر المدقع الذي وقع فيه. ولكن من المضلل أن نقدم غيبرت على أنه قائد التنوير والإصلاح في الجيش، فالجانب المظلم من شخصيته شاهد عليه. فإذا صنع شيئاً فقد جعل من شروط الانضباط في الجيش رمزاً أشد للوحشية إذا كان أقل استبداداً. ولم يكن من أنصار المساواة الاجتماعية، بل على العكس، ففي حين كان مستعداً لرؤية الشباب اللامعين من أبناء الطبقة الوسطى والمهنيين يتسلمون مراكز في سلاح المدفعية وفي ميدان الهندسة، كان يرى أن سلك الضباط يجب أن يكون في معظمه من النبلاء. وللمفارقة، لم يكن هذا منسجماً مع رؤيته لولادة جيش جديد من المواطنين. وما كان يريد أن ينتزعه من الجيش هو روح المال واستبداله بمثال روماني جديد في التضحية الوطنية والشجاعة البدنية. وقد ربط تلك القيم بصفات نبالة جديدة: المرء ليس ما يتمتع به من امتيازات وبالتأكيد ليس المال بقدر ما هو اعتراف لا يتزعزع بإخلاصه وتفانيه في خدمة الدولة.

كان المقصود في شيء من هذا البرنامج أن يحبب الجنود، أفراداً وضباطاً، بغيبرت. لم يكترث الضباط بتلاعبه المفاجئ باستقلال أفواجهم ولا حتى بموقفه المتزمت من نظام الترفيعات. أما الجنود، فقد خبت فرحتهم بتحسن رواتبهم بسبب العقوبات القاسية المدونة في الأدلة الجديدة. ولا كان بمقدور استراتيجيي المدرسة القديمة مجرد التفكير بمفاهيم غيبرت الوحشية حول حرب غير مقيدة ودمار شيطاني يحلان على عدو مستضعف. كان الأثر العام لإصلاحاته مقلقاً، بل ربما محبطاً في المدى القريب. كان إصلاحه إصلاحاً ثورياً لكنه وقع في شرك حكومة ملكية.

بقدر ما غدت إصلاحات حكومة براين خيالية، قل حب الشعب لها. لم يكن إعطاء البروتستانت حريتهم شعبياً وأثار مظاهرات في الشارع بالمناطق الأكثر ورعاً في غرب فرنسا وجنوبها الشرقي. (وسيستمر ذلك ليكون واحداً من الانقسامات الكبيرة خلال الثورة). وكان المقصود من الجمعيات الإقليمية، التي أبقى عليها براين من مقترحات كَلوني والتي خرجت إلى الوجود عامي 1787 و1788، ممارسة اللامركزية. لكنها كانت موصومة في معظم أنحاء فرنسا (صحيح ليس فيها كلها) بأنها من ألاعيب الحكومة: أدوات سياساتها الضريبية.

لم تكن الأزمة المالية التي حدثت في أواخر ربيع عام 1787 على خطورتها ولا الفوائد المعروفة للإصلاحات الحكومية كافية لتعطيل الاعتراضات السياسية التي ازدادت قوة على نهج الحكومة التقليدي. فمجلس الأعيان الذي صممه كَلوني لتجنب المعارضة، بأخذ أعضائه أنفسهم على محمل الجد، تحول إلى أولويات تقليدية في رؤوسهم. ولم يعد التمثيل والموافقة ضروريين كشيء ثانوي للحكومة بل شرطاً لعملها. وبإخراج قضيته إلى العلن ـ وحرفياً إلى منابر رجال الدين ـ جعل كَلوني السياسة قضية اهتمام وطني. وما إن فُتح صندوق بندورا بهذه الطريقة، حتى تبين استحالة إغلاق غطائه وأخفقت إدارة براين بسبب الخلافات نفسها التي حطمت آمال سلفه. فعلى الرغم من استعداد الأعيان لإجازة القروض لإنقاذ الحكومة من الإفلاس الفوري والموافقة على الإصلاحات الاقتصادية، في مسألة ضريبة الأرض وضريبة الطابع التي تكملها، إلا أنهم كانوا صلبين للغاية. فمجلس الطبقات وحده يملك سلطة جعل مثل تلك الإجراءات قانونية. وإذ ووجه براين بهذا العناد، حلّ المجلس في الخامس والعشرين من شهر أيار.

باتت البدائل الآن أمامه واضحة بقسوة. كان باستطاعته تحويل الملكية إلى نظام تمثيلي مباشرة من خلال عقد مجلس الطبقات وافتراض أن ذلك سيولد ثقة العامة ـ وبالتالي المال العام ـ المطلوب لمؤازرة الحكومة. أو كان بإمكانه محاولة التغلب على معارضة المحاكم المتوقعة على السياسة الضريبية الجديدة بواسطة مزج حكيم بين الترغيب والترهيب. كانت مخاطر السياستين واضحة، لكنها لم تكن كذلك في صيف 1787 التي بواسطة طريقة العمل تساعَد مسألة الاقتراض الحيوية أو تتأذى. وفي الوقت الذي كان متوقعاً فيه أن يقوم الملك بممارسة دوره القيادي، انهار ليغرق في عالم الصيد والطعام، القتل والأكل. لقد شوهد في إحدى المرات يبكي وينتحب لفقدان فرجين. ولكن في ظل هذا العجز الرهيب كان واضحاً لبراين أن لويس غير مستعد لقبول نوع من نظام دستوري يمكنه أن ينتج إصلاحاً من خلال الإجماع.

ولم يدع هذا من سبيل إلا المواجهة.

III ـ أغنية البجعة التي غنتها المحاكم

كان مجلس الأعيان مثلاً جديراً بالملاحظة لمجموعة مختارة للكشف المطاوع بدلاً من إثارة المعارضة. وبقدر ما كان تذمره مسموعاً بحماس مزيداً من التصفيق في الكراريس والنشرات. لقد تحول كلاب حضن الحكومة إلى كلاب صيد نشطة للشعب. فقد جاء قضاة

إقليميون ومستشارون في البلديات وأساقفة كثر إلى فرساي محايدين على الأقل تجاه قضية الإصلاح الضريبي وجدوا أنهم بمجرد إعاقة يمكنهم أن يمارسوا سلطة أكثر مما تخيلوا يوماً. وهكذا عُرِّف دخولهم إلى الحياة السياسية أنه معارضة أكثر منه تعاون. وحتى بعد أن صُرِف الأعيان، استمرت هذه المقاربة ذات الضراوة الخلاقة.

وكانت محكمة باريس هي الحجر العثرة المباشرة لبرنامج الحكومة. عندما قدمت إدارة براين مقترحاتها إلى تلك المحكمة في أيار وحزيران عام 1787، عقدت المحكمة بشكلها الموسع بوصفها محكمة نبلاء. وقد تضمن هذا التوسيع عدداً من عالم النبلاء العلمانيين، الذين كان كثيرون منهم شخصيات معروفة ـ كما كان القضاة البارزون أنفسهم. وقد كانت شدة معارضة المحكمة غير مقدرة، ما دامت المحكمة (بالإضافة إلى الزيادة من النبلاء) قد بدأت تنقسم من الداخل على التكاليف السياسية للمعارضة. ففي الحقيقة أسر الرئيس داليغرِ D'Aligre، الذي مثّل كبير القضاة سناً ومهنة، لبراين أنه يتوقع درجة من التعاون من المحكمة في تسجيل القروض وبعض البنود الرئيسية التي تُرِكت من أجندة الأعيان، لاسيما اتحاد الهيئات الجمركية وإعادة تأسيس حرية تجارة الحبوب. وقد تحقق ذلك في البداية فعلاً. حتى الجمعيات الإقليمية، التي كان يُنظَر إليها بشك عميق أنها معتمدة على الحكومة أكثر منها هيئات تشاورية حرة حقاً، فشلت في أن تثير معارضة متحدة بين المحاكم الإقليمية. غير أن داليغر وزملاءه ذوي الميول الحكومية مثل سيغوييه وُوجِهوا بمجموعتين أخريين داخل المحكمة استخدمتا القوة الخطابية البحتة للإمساك بالمبادرة السياسية ووصم التعاون مع الحكومة بأنه خيانة للتقاليد القضائية.

وما جعل الأمور تزداد سوءاً هو أن الأكثر قوة من هاتين المجموعتين جاءت من المراتب العليا في الهيئة القضائية. كانت بقيادة جان جاك دبرِمنسيل Jean - Jacques d'Eprémensil وهو شخص قصير وبدين كانت بلاغته اللاذعة أكثر من تعويض على فقدان إنشات من طوله. كان موقف دبرمنسيل محافظاً، بل رجعياً، لكن ذلك لم يعرض شعبيته للشبهة. بل على العكس ربما عززها، مادام الكثير مما كان يجب أن يغدو مشاعر ثورية استجر قوته من رد الفعل المجروح أكثر من النزعة التقدمية السامية المبادئ. كانت خطابة دبرمنسيل عودة إلى المقاومة ضد المستشار مابو Maupeou والمراقبين العامين الذين عملوا في عهد لويس الخامس عشر. لقد كرر وجهة نظرهم العامة أن المحاكم تمتلك مسؤولية حراسة «القوانين الأساسية»، في فرنسا ضد الخطط الوزارية حول «حريات

الشعب». لكن كان لديه خطط أكثر طموحاً لإعادة البناء الدستوري، نصّت باختصار على أنها «تفكيك سيطرة آل بوربون على فرنسا». وقد قصد أن يأخذ الجدل إلى ما بعد حدود المقاومة إلى المراسيم غير القانونية والضغط بدلاً من حصة إيجابية في صنع التشريع: في الحقيقة، إعادة تعريف السيادة. فقد أوضح في عام 1777 أن هذا ليس دور المحاكم. وبدلاً من معارضتها كان يجب أن تعمل كالقابلة لمجلس الطبقات، الذي تكمن فيه حقاً هذه المسؤولية لسن القوانين الجديدة. وكانت هذه معارضته بعد عشر سنوات. لا بد أن براين قد افترض أن شدة الأزمة المالية ستقنع الخطباء مثل دبرمنسيل على تعليق هذه العقيدة حتى تمر الحالة الطارئة على الأقل. غير أن أسود المحكمة كانوا غير ميالين إلى الرأفة السياسية. بل العكس، كانت بدقة ورطة الحكومة التي رأوا أنها تقدم فرصة كبرى لفرض نهاية الحكم المطلق. كانت ستغدو ثورة فعلاً لكنها ثورة ليست مصنوعة بالدم بل بالقانون: النسخة الفرنسية للثورة البريطانية المجيدة عام 1688.

والمشكلة مع هذا التكهن لما يمكن أن يحدث هو أن الإيمان به لم يكن مشتركاً بين كل هؤلاء الذين، في ذلك الوقت، هرعوا لمؤازرة دبرمنسيل. فقد رأت المجموعة الأكثر شباباً وراديكالية من المحامين في المحاكم (بمن فيهم هِرولت دي سيشل وصديقه لبليتيير دي سانت فارغو) أن مجلس الطبقات ليس نهاية بل بداية فرنسا الجديدة. كانت المجموعة التي قادها أدريان دوبورت دي بريلافيل ذي الثمانية والعشرين ربيعاً أقلية داخل القضايا الكبار في الغرفة العليا، لكنها أحرزت مجموعة أكبر وأكثر صخباً بين المحامين في المحكمة العليا والمحامين في المحكمة الدنيا وقضاة التحقيق Maitres d'enquête. أصبح دوبورت نفسه مستشاراً في الغرفة في عمر غض تسع عشرة سنة، كان صديقاً لـِ لافايت وجعل منزله في شارع دي غراند شانتيير مركزاً للنقاش حول المستقبل السياسي لفرنسا. وفي منزل دوبورت (أسقط «دبرافيل «الأرستقراطية» ليتساوى بالطبقة الثالثة عام 1788)، لم يكن الكلام عن الامتيازات التقليدية والطبقات القديمة بقدر ما كان حول السيادة المناطة بالمواطنة. وقد عرض الكثير من هذه البراهين الراديكالية في كتاب سيج Saige التعليمي «**كتاب المواطن سؤال وجواب**»، العمل الذي قرئ على نطاق واسع والذي صدرت منه طبعة جديدة عام 1788. كان يجب أن تتجسد هذه السيادة الجديدة في تمثيل وطني، في ما يتعلق بمجموعة دوبورت وبالوطني عنوا بالضرورة معارضة الامتياز والتمييز والفصل بين الطبقات الاجتماعية.

طالما أن المحكمة نفسها هي التي بدت موضع تركيز المقاومة وبالتالي هدف قوة

الحكومة، فستتقارب المجموعتان في عرض للتضامن. كان للمجموعتين مصلحة في حرمان الحكومة من أية إمكانية لتنفيذ برامجها دون دفع ثمن التقويض الدستوري. ولكن حالما يمنح ذلك الثمن، وتأتي مسألة التمثيل إلى المقدمة، ستبرز الفروق بوضوح مفاجئ ومؤلم. وفي النهاية ستميز بين المواطنين والنبلاء، والثوريين والمحافظين. وقد رأى السفير البريطاني أن الحملة الراهنة ستهزم نفسها في النهاية بطريقة أو أخرى. إما سيغضب البرلمانيون الحكومة لتتخذ إجراءات قمع صارمة أو تتخلى المحاكم عن المؤسسات التمثيلية الأكثر أصالة. وفي أية حال كان ذلك هو«النفس الأخير في المحاكم المستقلة». ولم يكن كل القضاة غافلين عما سيحدث في المستقبل. فـ إيتيان باسكويه، الذي سيرتقي في النهاية إلى منصب مستشار إمبراطورية نابليون لكنه كان عام 1788 محامياً شاباً سريع التأثر، استذكر في مذكراته أن:

> *كانت الرؤوس العاقلة في الغرفة العليا قلقة من أن شيئاً ما سيحدث. لم أتمكن أبداً أن أنسى ما قاله أحد هؤلاء القضاة الكبار لي عندما مرّ خلف مقعدي ورأى مدى حماسي آنئذٍ «أيها الشاب، فكرة مماثلة أثيرت في عهد جدك». وهذا ما قاله بعدئذٍ، «أيها السادة، هذه ليست لعبة أطفال، المرّة الأولى الذي سترى فرنسا فيها مجلس الطبقات، سترى فيها أيضاً ثورة رهيبة».*

كانت أية تحفظات مثل هذه تصطخب بقوة في خطب دبرمنسيل الملهمة فلا تكاد تُسمَع. فقد انتقلت خطة براين لزيادة العائدات بضريبة على الأرض مع رسم طابع إلى يدي دبرمنسيل مباشرة. لم يكن المذكر المباشر بالضريبة وحده هو الذي أثار «القضية المقدسة» للحرية في أمريكا، بل كان خطيب المحكمة قادراً على أن يمثل الضريبة بأنها فرض سيضرب كلاً من الغني والفقير على السواء، ستجمع تحت جلبابها التجار وباعة الكتب وأصحاب المتاجر والنقابات المهنية في مواعين من الورق، وتجهز ذريعة أخرى أيضاً للأيدي الثقيلة في الحكومة لتضغط على أكتاف المواطنين العزل. وعن موضوع الغرامات التي ستفرض بحق هؤلاء الذين يُكتَشَف أنهم تركوا أوراقهم دون طوابع، قدّم دبرمنسيل شلالاً من ميلودراما خطابية:

> *ذلك وحشي أن نتخيل المواطن المتوحد الذي يعيش في المعتزل الأكثر بعداً، والتاجر الهادئ الذي يعمل على زيادة التجارة الوطنية... والممارس الحكيم الذي يركز عمله على إعالة أفراد عائلته ـ يواجهون جميعاً إمكانية مروعة أن يجدوا أنفسهم مربوطين معاً بسلسلة واحدة ويخضعوا في اللحظة التي قلما يفكرون فيها*

أنهم عرضة للغرامات التي سيبتلع عبؤها... البريء بالإضافة إلى المذنب...

رفض المحكمة الذي استساغ دور الدفاع عن الضعيف والمريض رسم الطابع مباشرة في 2 تموز. وبعد أسبوعين لقيت ضريبة الأرض المعدلة المصير نفسه. كان واضحاً للحكومة آنئذٍ أن الأغلبية في المحكمة ميالة إلى إحباط أية إجراءات تعيد حرية عمل الدولة. وهكذا أصبح الصدام محتماً. وفي السادس من آب دعا سرير العدالة إلى الاجتماع في البرلمان. كانت الغرفة العليا مكتظة بمئات القضاة والنبلاء يتعرقون في أرديتهم في حرارة الصيف اللاهبة. وعلى الرغم من جدية المناسبة فقد أخذ لويس السادس عشر وجود «السرير» الطقسي بالمعنى الحرفي للكلمة ونام مبكراً خلال الإجراءات، مما اضطر لاموانن Lamoignon أن يرفع صوته فوق الغطيط الملكي القوي القادم من زاوية سرير العرش. قال، كان راضياً أن المحكمة قبل المبادئ التي وضعها الأعيان (لأنها في الحقيقة سجلت المراسيم حول تجارة الحبوب وضريبة الخدمة الإقطاعية واتحاد الجمارك). إذن يجب أن تكون قوانين الضريبة مسجلة في الشكل التقليدي ما دام الملك يريد ذلك Le roi le Veult.

أعلن دبرمنسيل في اليوم التالي أن تطبيق المراسيم غير قانوني وهكذا تكون باطلة، وجهة النظر التي أعطيت الصيغة الرسمية في اجتماع ضخم. فقد نصَّ «المبدأ الدستوري في الملكية الفرنسية»، بشكل صريح «على أن الضرائب يجب أن يوافق عليها هؤلاء الذين يجب أن يتحملونها». وفي 10 آب أخذ المحكمة الهجوم المعاكس أبعد بالتحريض على اتخاذ إجراءات جنائية ضد كلوني (الذي، في ذلك الوقت، كان آمناً في لندن). واغتنم دي بورت الفرصة وشن هجوماً ضارياً على الوزير غير الجدير بالثقة. أُعلِن أنه مصدر سوء السمعة والفساد - المالي والسياسي والجنسي. في الحقيقة، قيل إنه كان بغيضاً إلى درجة أنه أسس نوعاً من مصادقة ضمنية ليتجنب الحرمان من الحماية القانونية فحسب. وكان نقد دي بورت اللاذع، الذي اعتمد على سجالات عنيفة كان يتداولها مكتوبة برغاس وكارا آنئذٍ، لحظة هامة في التاريخ الخطابي الثوري. كانت تلك المرة الأولى أن تمتد مقاضاة سياسي ما إلى اتهام عام لإدارة قائمة، حتى ولو لم يكن لتلك الإدارة دور في سلوكه. سيكون هذا التجريم بالترابط أداة عامة للمجموعات المعارضة مستثمرة حاجة الجمهور إلى وغد الذي يمكن أن يلام على أية كارثة يمكن أن تقع قريباً. وسوف تنتج هذه الحملات خلال الثورة ليس مجرد أنذال بل خونة، ولن يوصَموا بالعار وحسب بل ستُقطَع رؤوسهم بالمقصلة.

وعندما ركبت المحكمة عالياً على أمواج زبدية من الخطابة، حافظت على دعم شعبي صاخب وقوي. فخلف الغرفة العليا، نقابة العاملين في القانون ـ الكتبة والمرافعون وحاملو المحفات والطابعون، الباعة المتجولون كومونولث قصر العدل في باريس كلها ـ شكل مصفقين دائمين وصاخبين يهتفون لأبطالهم، ويطلقون أصوات الاستهجان ضد الأنذال (مثل الكونت دارتوا) ويحثون القضاة على عروض أعظم للتحدي. وبدورهم يأخذون هذا المظهر الخارجي للمسرح إلى البونت أوف والبَلاس رويال والمقاهي وإلى صحيفة في كراسة التي كانت تنمو يومياً تعبر دون قيد عن شجبها لحكومة «النظام الاستبدادي». وكانت الملصقات الحكومية تمزق حال إلصاقها، وقد أحرقت صور لاموانن في الشوارع. وفيما أصبحت المقاومة أكثر جرأة، انهار براين ولاموانن إلى صور مبسطة أُعِدَّت لهم تعتبرهم معادين للثورة. كان ثمة ضرب ما من التفكير الحذر من جهتهم الذي توقع على نحو غريب التكتيكات الحسنة التنظيم في القرن التاسع عشر المعادية للثورة. أولاً سنوا مرسوماً يغلق «المسرح» ويبعد الممثلين ـ ونُفي المحكمة إلى ترويه Troyes في 15 آب. وفي السابع عشر من آب حوصر قصر العدل في باريس بالحرس السويسري الذي أغلق مداخل ومخارج الغرف ليمنع توقيف العمل بالمراسيم المطبقة. وتلا ذلك حملة تطهير لإسكات المعارضة. فتمت إغارة على أصحاب المطابع وأغلقت المجلات والأكثر إثارة للدهشة أغلق كل نادٍ أو جمعية يُشتَمّ منها أنها معارضة. وقد شمل ذلك تلك الأوكار الرديئة السمعة للمخربين، نوادي الشطرنج.

لم يفعل النفي إلى ترويه واستخدام القوة المفاجئة والشديدة كثيراً لإسكات الصخب في الشوارع. غير أنه بلا شك أيقظ القضاة أنفسهم. لقد فعل ذلك، في كل حال، جعلت بعض الأقل شجاعة بينهم يصغون إلى النصائح المتعقلة التي قدمها القضاة الأكبر سناً مثل داليغر وسيغويه. وفي الوقت نفسه، خلال آب، كان ثمة تغيير مثير للاهتمام يحدث. كان الحكام في الأقاليم يدشنون الجمعيات بحماسة وطنية ويعلنون بمباهاة أنها يجب أن تكون نقلاً للسلطة من موظفي الملك إلى الشعب. وما دامت الجمعيات قد جندت من المستويات الدنيا في المهنة القانونية ومن الموظفين والأطباء بالإضافة إلى النبلاء الموالين ـ بكلمات أخرى، من الطبقات التي تقرأ ـ فقد صُمِّمت بشكل مدروس لتقوض مزاعم المحاكم في تمثيل الأمة، ولاسيما في قضايا الضريبة. وقد أكدت الكلمات الختامية للحكام على هذه الثورة السلمية. فأعلن برتييه دي سوفيني Bertier de Sauvigny في افتتاح جمعية إل دي فرانس في الحادي عشر من آب: «لقد استدعتكم الأمة... متنورة باهتمامكم ومستثارة بالروح الوطنية التي سوف تظهرونها

بحماسة لا تقل عن حماستي لإيجاد تناسب عادل للضرائب... وستفيض عيونكم بالدموع بالعبء الشديد الوطأة لوضع الضريبة».

وكان دي لا غلازييه، في الألزاس، في خطاب جدير بالذكر في العشرين من آب، أكثر إدراكاً لأهمية تلك اللحظة. فأخبر الجمعية، أنها

حقبة هامة في تاريخ أمتنا في هذا القرن... الزمن، وتقدم المعرفة، وتغير السبل والآراء التي نقوم بها والثورات الضرورية (كلمته بالضبط) في النظام السياسي للحكومات. فعلى مدى ثلاثين عاماً شاهدنا أفكاراً وطنية تثير نفسها على نحو واضح في كل الرؤوس. حيث يرغب جميع المواطنين في الوقت الحاضر بأن توجه إليهم الدعوة لدعم الخير العام. لا يمكن لهذا الميل أن يشجع كثيراً فرغبات الملك فوق سعادة كل رعاياه.

وقد تنافس الحكام في أمكنة أخرى في ما بينهم بالتعبير عن حماستهم للصالح العام. ففي كاين Caen، على سبيل المثال، قارن كوردييه دي لوني Cordier de Launay لويس السادس عشر بصولون Solon وليكورغس Lycurgus وزعم أن قلبه شخصياً «يلتهب بالروح الوطنية الجديدة».

لقد مثل هذا التشجيع المرخص به في هذا النوع من اللغة بشكل واضح محاولة من الحكومة للتدخل في العلاقة بين المحاكم والشعب. وبالتأكيد على العدالة الاجتماعية في عمل تقدير الضريبة واختيار الطاقم الذي ربما بطريقة أخرى كان يظن أنه ينتمي إلى المعسكر البرلماني، كانت الحكومة تحاول أن تظهر أن الإصلاحات شعبية أكثر منها بيروقراطية. وقد ضاعت جهودها دون أدنى شك. إذ تشير كل الأدلة خلال الخريف إلى أن الجمعيات الإقليمية قد بدأت في الواقع عملها بشكل جدي وأن المعارضة البرلمانية غدت مفككة وغير فعالة. وقد يكون هذا التطور هو الذي حثَّ على الموقف الأكثر مصالحة في محكمة النبلاء في باريس.

وفي الوقت نفسه، كانت ثمة أصوات أكثر اعتدالاً في الحكومة تحاول أن تنجز تسوية تمكن من جمع العائدات دون مواجهة سياسية. وكانت إضافة مالرب في آب ذات أهمية خاصة ما دام لا أحد يعرف أكثر منه أخذ الاجتماعات بجدية. وقد ذكّر زملاءه أنهم سواء أحبوا ذلك أو لا فإن «محكمة باريس في ذلك الوقت هو صدى جمهور باريس... ومن باريس هو صدى الأمة كلها... وهكذا فنحن نتعامل مع الأمة برمتها وتلك الأمة يستجيب الملك لها عندما يرد على المحكمة». ولم يكن مالرب خائفاً أيضاً من إمكانية

مجلس الطبقات. وفي الحقيقة تصوره كطريقة لتعزيز سلطة الملكية أكثر منه لتقليصها.

كان ثمة، إذن، مجال للتفاوض على الجانبين. ولكن في التسوية التي برزت في أيلول، كان براين هو الذي بدا أنه ذهب أكثر من نصف الطريق.

فقد ألغيت ضريبة الأرض الجديدة التي كانت دائماً في قلب برنامج الإصلاح والتي عليها تعتمد إعادة البناء الرئيسية للمالية العامة. ومعها ذهب رسم الطابع غير المأسوف عليه. وطلب براين مكانهما بالضبط نوعاً من المسكّن أمل هو وكَلوني أن يتجنباه: ضريبة عشرينية ثانية تقليدية (تُفرَض، مثل العشرينيات السابقة، على كل أقسام السكان). ويجب أن تُجمَع هذه الضريبة لخمس سنوات، التي بنهايتها يُستدعى مجلس الطبقات. وسحب أيضاً مرسوم تعليق عمل المحاكم. أملت الحكومة بالتخلي عن المواجهة أن تشتري خمس سنوات من السلام السياسي التي تُعالَج خلالها المشكلات المالية للدولة. ولن يكون هناك مجرد ضوء في نهاية النفق بل توهج الشمس الملكية. ولمحكمة باريس في التاسع عشر من تشرين الثاني وسَّع لاموانن الصورة الذهنية المغرية لما سيحدث عام 1792:

> *جلالته بين طبقاته، محاطاً برعاياه المخلصين، يقدم لهم بثقة الصورة المريحة للنظام المتعافي في ماليات الزراعة والتجارة التي تتبادل الدعم في ظل رعاية الحرية، وأسطول وجيش متجدد ببنية اقتصادية وعسكرية أكثر منعة، وإلغاء المساوئ والمفاسد، وبني مرفأ جديد على القنال الإنكليزي لضمان عظمة العلم الفرنسي (شيربورغ!)، وقوانين قد أصلحت وتعليم عام قد تحسّن...*

ومع أن أكثر العقول راديكالية بين القضاة كانت ممانعة في قبول أي شيء تقدمه الحكومة، كان الرأي منقسماً على درجة العرقلة التي على المحكمة أن تضعها في طريقها. وبالنتيجة، كانت نتيجة إجراءات 19 تشرين الثاني غير مؤكدة، كانت الحكومة لا تزال تفتقر إلى البراعة. فقد حاصرت ثانية قصر العدل بالحرس قلقة من ترويع القضاة المعتدلين. وفي ظل هذا الوجود العسكري ثارت النفوس. فقد كاد دبرمنسل والكونت دارتوا أن يتضاربا بسبب مسألة جدية توقيف عربتيهما الشخصيتين في الفناء. غير أن الشكل الذي أخذته الجمعية كان المقصود منه التأكيد على: جلسة ملكية يُسمَح فيها لمختلف الآراء أن تعبر عن نفسها، وجلس الملك على منصة بدلاً من تحت مظلة على سرير يشير إلى الدافع الذي لا يقاوم في سرير العدالة.

وبعد يوم طويل من الخطابات المفككة بدا مرجحاً أن المحكمة في الواقع سيسجل

المراسيم الجديدة. ولكن دورة كاملة غير مخططة من الأحداث هشمت الإجماع الممانع. ربما استثير الملك نفسه بالدعوات المتكررة لاستدعاء مجلس الطبقات قبل عام 1792 فصمم على تجنب التصويت وأمر بتسجيل المراسيم، كان، في الحقيقة، قد حوّل على نحو متهور الجلسة الملكية غير الرسمية إلى سرير عدالة ملزم الطاعة. وكان الرد على هذا الإجراء السريع صمت مطبق، وفي النهاية حطم الصمت الشخص الأقل ترجيحاً. ابن أخت الملك فيليب دوق دي أورليانز، نهض على قدميه. كان هذا، إذا صحَّ القول، الأقل توقعاً. العائلة المالكة بأكملها ـ آل بوربون، كوندي، أورليانز ـ (استثني آل كونتي) كانوا مشهورين بعدم قدرتهم الجلية على التعبير عن أي شيء في العلن ليس مفروضاً بمراسم رسمية. فأرتوا الذي كان يستطيع أن يشتعل على نحو مؤثر في مجالسه الخاصة، صارع مرات عديدة للدفاع عن إرادة الملك في محكمة باريس لكنه كان ينهار دائماً إما إلى فأفآت متفككة أو صمت عابس. أما أورليانز، صاحب الرويال بالاس، فقد أحب أن يحيط نفسه بالموهوبين والمثقفين. والمجموعات الأدبية ذات الخطابات الرتيبة (بمن فيهم ميرابو وكودرلوس دي لاكلس) الذين أثاروا جميعاً سجالات باسمه أعطت أورليانز سمعة غير جديرة بالتقدير فيما يتعلق بالكلام السياسي. غير أن تدخله في 19 تشرين الثاني كان على الرغم من ذلك صدمة هائلة لكل الذين يحطون من قدره والذين يعجبون به على السواء. وإذ استدار نحو الملك مباشرة قال: «سيدي، أتوسل جلالتكم أن تسمح لي أن أكون عند قدميك وفي قلب هذه المحكمة (المشهد) أنا أعتبر هذا التسجيل غير قانوني».

إنها واحدة من تلك اللحظات المسرحية التي تجمدت في الزمن وتزينت في مذكرات ابنه، ستُمثَّل باعتبارها المشهد الثوري الأول. أما رد الملك المعصوم عن الخطأ فلفت الانتباه إلى الملاحظة الأسوأ الممكنة ـ والطرافة تبعت الوقاحة. «التسجيل قانوني لأنني سمعت آراء الجميع» ثم أتبع هذا الاستنتاج غير المتفق مع المقدمات بدعابة مازحة فظة موجهة إلى أورليان» «آه حسن، لا يهمني، أنت المعلم، طبعاً». لم يستطع تأثير هذا العرض الغريب أن يكون أكثر دماراً: الحكم المطلق الذي فشل في أن يمتلك شجاعة قناعاته.

عند تلك النقطة، غادر لويس وأخوته المحكمة، وبقي أورليانز ليتلو نصاً كان واضحاً أنه مُعَدّ له يؤكد عدم قانونية الإجراءات. كانت تلك إستراتيجيته ليتحول إلى بطل شعبي تعاظمت أكثر باعتقاله ونفيه إلى مزرعته في فيليه كوتريه Villers - Cotterêts، حيث استمتع بسمعة شهيد من أجل قضية الحرية. وبدأ حتى قصره يأخذ شكل محكمة بديلة.

واعتقل برلمانيان آخران أيضاً اعتبر أنهما تحدثا بعدم احترام.

أثبت تدخل أورليانز أنه نقطة انعطاف أخرى في تخريب أي نوع من التعاون بين الحكومة والمحاكم. قرر براين متكيفاً على نحو أكثر انتظاماً مع عرض القوة أن لديه القليل ليخسره بالضغط على مسألة الضريبة أكثر من اتفاقيته في أيلول المقترحة مع المحاكم. تقرر أن تكون ضريبة العشرين مفتوحة النهاية، لكنها الضريبة المطلوبة لتلبية رقم عائد محدد للحكومة. وأي تقصير يجب أن يُعوَّض مما هو معروف الاشتراكات ـ في الحقيقة، إضافات تُجبَى من خلال المحاكم الإقليمية. وقد بدا ذلك على نحو يدعو إلى الريبة مثل التخلي عن ضريبة أرض نُشِرت خلسة.

تضررت بنتيجة هذه المناورة مصداقية المحاكم الإقليمية بوصفها حصناً لرفاهية الشعب بشكل خطير. فبدأ أعضاؤها إما بمقاومة الحكام أو بطريقة أخرى التخلي عن التعاون مع الحكومة وإبداء الدعم بدلاً من ذلك للمحاكم. وفي كانون الثاني/ يناير عام 1788، أبلغ لافايت واشنطن عن فرحه الشخصي بجمعية أوفرني Auvergne في ريوم Riom، حيث نجح في محاولات صعبة لجمع عائد إضافي. وكتب أكثر اعتداداً بنفسه: «كان حظي جيداً أن أدخل المسرة إلى قلوب الناس وشيئاً لأنني لم أرضِ الحكومة إلى درجة عالية جداً». وعلاوة على ذلك فإن المبدأ الذي يسمح بأن المحاكم الثلاث عشرة هي في الحقيقة مجموعة واحدة متحدة مخولة بحماية حريات الفرنسيين حقق تقدماً جعل محكمة باريس تمضي ربيع عام 1788 تصدر سلسلة من البيانات الرسمية سارية المفعول تعلن أنها هي الملك. وفي 11 نيسان أبلغ محكمة باريس الملك أن «إرادة الملك وحدها ليست كافية (لتسنّ) قانوناً». وفي 29 نيسان رفض رسمياً أن يصدق على أية جباية إضافية للعائدات، وفي 3 أيار ألح على أن مجلس الطبقات هو شرط مسبق لفرض ضريبة في المستقبل وأن الرسائل المختومة Lettres de Cachet والاعتقالات التعسفية الأخيرة غير قانونية.

من جهتها، لم تكن الحكومة آنئذٍ ميالة إلى الهدوء. ففي 17 نيسان/ إبريل، مثَّل لاموانن، في خطاب مكتوب إلى الملك، السلطة الملكية بأنها درع ضد المصالح المحلية. إذا استطاعت المحاكم أن تفرض شيئاً على الإرادة، «لن تكون الملكية شيئاً غير أرستقراطية القضاة، ونقيضاً لحقوق ومصالح الأمة كما هي نقيضه لحقوق ومصالح السيادة». غير أن هذا التكتيك «للحكم المطلق الشعبي» لم يكن محصوراً في الردود الخطابية. كان سلاحه الأقوى مجموعة من الإصلاحات القضائية المثيرة والجريئة. كانت

تستهدف بشكل صريح تحطيم سلطة المحاكم المعارضة مرة والى الأبد. ولكن الممارسة العارية عنت أنها شرط مسبق لنظام عدالة جديد بالكامل يراهن بشكل معقول على دعم الرأي العام. ومرة أخرى استهدفت الحكومة بدهاء رجال القانون الأدنى في الهرمية القانونية (والممنوعين من التقدم بسبب القضاة ذوي المراتب العليا) للتعاون. كانت المحاكم الصغرى في الأقاليم قد رقيت فجأة إلى وضع المحاكم العليا grandes bailliages وغدت هذه المحاكم هي التي تعالج منذئذٍ فصاعداً الأغلبية الواسعة من القضايا الجنائية والمدنية.

وستغدو المحاكم محصورة بالقضايا التي تهم النبلاء والقضايا المدنية التي تزيد عن عشرين ألف ليفر. في الواقع، ستُقَلَّص إلى مجلس تحكيم داخل النخبة. وجُرِّدت أيضاً من سلطتها السياسية في تسجيل المراسيم قبل أن تغدو قابلة للتنفيذ. ستعطى هذه السلطة بدلاً من ذلك «لمحكمة مطلقة» مركزية واحدة تعينها الحكومة. وبهذا الحجم الذي خفض العمل بشكل قاسٍ، توقفت كثير من الوظائف التي كانت مطلوبة للمحاكم عن خدمة أي غرض وستُلغى. والمحاباة الأرستقراطية المتروية في الإصلاحات تأكدت أكثر بإلغاء «المحاكم الإقطاعية» التي أدارت طبقة النبلاء من خلالها العدالة الشخصية لفلاحيهم التابعين.

ومع الأحكام الجديدة التي تتعلق بالسجون وإجراءات أحكام الإعدام، استهدف برنامج لاموانن الثوري خلق «عدالة متنورة» : سريعة، غير منحازة، ممكنة الوصول إلى غالبية الفرنسيين ومتحررة من السيطرة الأرستقراطية الفاسدة. وبالمقارنة مع الإصلاحات الكثيرة الأخرى في تلك الفترة، كانت هجوماً مباشراً على مؤسسات السلطة والمثال الأكثر درامية على ذبح النظام القديم الذي قامت به حكومته ذاتها. وكان لهذا السبب أن أعضاء كثيرين في النخبة المثقفة الليبرالية، مثل الماركيز دي كوندرسيه، وجد أنه من الصعب نكران قيمة تلك الإصلاحات. وفي موقف مماثل، اعتقد لالي تولندال أن «المحكمة الكاملة المطلقة الصلاحية» ستكون هي على الأرجح المحكمة التي سينتج «الماغنا كارثا» لفرنسا.

ومع ذلك، كان أي تقييم عقلاني للإصلاحات يتلاشى في صخب صباح الغضب ضد الطريقة التي قدمت بها. وكانت أيضاً ذات تضمينات جغراسية أثارت المعارضة أكثر من الموافقة. فخفض مرتبة المراكز البرلمانية عنى فقدانها احتكار العدالة على البلدات المجاورة في الإقليم، وأثار عش دبابير الغيرة المحلية. ففي بريتاني على سبيل المثال، سترى رين أن امتيازاتها انتقلت إلى مراكز منافسة مثل نانت وكويمبر Quimper. وفي كل

أرجاء فرنسا كان هناك عدد لا يحصى من منافسات البلدات الصغيرة من أجل أن تكون مراكز إدارية وقانونية - نظمتها بدقة الفئات المهنية التي نهضت لتحقيق مكاسب من نقل السلطة. وقد استمرت هذه المعارك بين موظف الأقاليم بعنف - وبالمعنى الحرفي للكلمة أحياناً - أثناء الثورة.

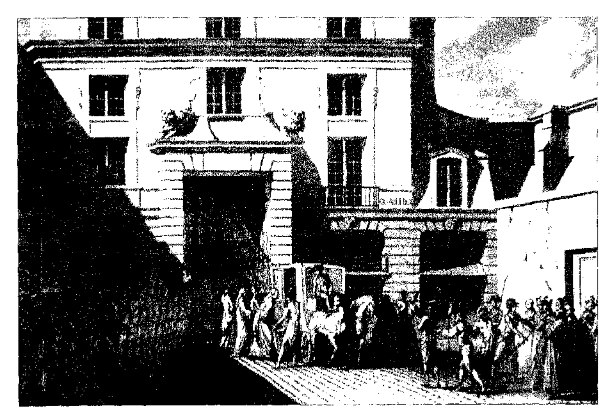
وفي معركة الكراريس ضد لاموانن، قيل بشكل عام أن روح المستشار مابيو الذي صمم الهجوم الأخير على المحاكم تتلبسه. وأظهرت السجالات الأكثر تطرفاً براين ولاموانن في ميثاق مع قوة ظلامية أكثر منعة - الشيطان - لتدمير حريات فرنسا. وفي الحوار بين الوزير الأسقف... والوزير حافظ الأختام الملكية، يعترف براين أن المحاكم العليا كانت تستهدف تضليل الشعب في الاعتقاد أن العدالة ستبقى. لكن إذا ألغيت المحاكم، «فسيحرمها (المحاكم الجديدة) من نسمة الحياة الأضعف».

لاموانن: لكن العدالة موزعة بشكل بائس جداً.

> *براين: وماذا يهم ذلك...؟ وإذا صرخ أحدهم، لا يهمني بكاء الأفراد على الإطلاق. ينبغي أن نخشى احتجاجات المحاكم وحسب... لكن سريعاً (الفرصة المبهجة) لن تكون المحاكم المستقلة قادرة على الكتابة ولا على الكلام. وعبقريتي ستكون قادرة على المضي قدماً دون أن يتعقب معارضون غير مناسبين خطواتي...*

ضَمِنَ الحجم الكبير للسجالات المعارضة للحكومة وجرأتها أنه مهما كانت الامتيازات التي تجسدت للصالح العام «في إصلاحات لاموانن، فسوف يُستولى عليها من خلال ارتداداتها السياسية. والحكومة، ربما لم تكن واثقة من تقبلها ما دامت قد عزمت على تطبيق البرنامج بسرعة وقوة مفرطة. ففي 6 أيار اعتقل دبرمنسيل وغواسلار Goislard، قائد المعارضة في باريس. بعد يومين تحدى لاموانن عدوانية المحاكم الغاضبة بل العنيدة بتطبيق المراسيم في كرسي العدالة. وفي كل أرجاء فرنسا، تكرر سيناريو القرار العسكري هذا في اثني عشر مركزاً آخر من المحاكم المستقلة ذات السيادة، حيث أسندت للقوات العسكرية مهمة إقناع القضاة أن يغادروا بسلام إلى «إجازتهم» الإلزامية.

لم ينجح شيء من ذلك. لا الدعاية الرسمية حول التأثيرات المفيدة للإصلاحات ولا التخطيط العسكري الذي مثَّل دوراً استطاع أن يهدئ التدفق الهائل للغضب العام. لقد امتد ذلك من البروليتاريا القانونية المتمثلة بحملة المحفات وصانعي الشعر المستعار والناسخين وأصحاب الأكشاك عبر هيئات المحامين في المحاكم الدنيا والعليا إلى كبار النبلاء ورجال الدين. وكانت الصخب يُسمَع من أقصى فرنسا إلى أقصاها الآخر. وما كان ينذر



الصورة 75، للفنان نيكوبه نقش يمثل اعتقال ديرمنسيل وغواسلار في 6 أيار 1788

بالسوء للحكومة بشكل خاص هو أن المقاومة للمراسيم ظهرت عملياً أكثر شدة في الأقاليم منها في باريس. ففي باو في البيرينيه، اندلعت مظاهرة عنيفة في 9 حزيران فتحت أبواب القصر العدلي لتطالب بإعادة المحكمة إلى وضعه السابق، ولم يكن لدى الحاكم الملكي بديلاً إلا أن يدع الهيئة القضائية تبقى ويهدئ الوضع ـ ويهاجم علناً أوامر حكومة فرساي ـ غير قادر على استدعاء قوات عسكرية بالسرعة الضرورية كون الإقليم نائياً. وفي مدينة البريتونيين رين، لم يستطع الحاكم، برتراند دي مولفييه، النجاة من الرجم بالحجارة إلا بصعوبة، وفي أوائل حزيران، عندما طُلِب من القضاة المغادرة بموجب مذكرة مختومة، كان الحاكم، وليس القضاة، الذي أحرز قصب السبق إلى تراجع سريع. وقد تطلب الأمر نشر نحو ثمانية آلاف جندي في المدينة قبل أن يهدأ الوضع في تموز. وفي بيسانشون وميتز وديجون وتولوز وروين كانت هناك معارضة منظمة كفاية لأن الحكومة أمرت بنفي القضاة المتمردين. وفي بوردو وآيكس ودوي Douai ـ كما في محكمة باريس التي خضعت عرضياً ـ ظلت المحاكم قائمة، لكنها أعلنت أن المراسيم يجب أن تكون عمل الحكم المطلق غير المقيد.

لقد بدا كما لو أن المحاكم غدت فعلاً ما كانت دائماً تتظاهر أنها: المدافعة عن الشعب. ومع ذلك في لحظة انتصارها، ترددت في أن تبتهج به. فعنف الدعم الشعبي

أدهش الكثير من القضاة، ولم تكن الدهشة مستساغة دائماً، فالغارات المرتجلة على القصر العدلي أو على قاعة المجلس البلدي المحلي وإرادة الحشود في الشارع لمواجهة القوات العسكرية طرح أسئلة النظام العام، الذي، كما تعود حراس السلم الأهلي، جعل القضاة يرتقبون شراً. فمحكمة باو Pau الذي شهد بعض التظاهرات الأكثر عنفاً، التي عارضت في حينه مراسيم أيار لكنها ذهبت لتسوغ احتجاجها على الأرض الذي أدى إلى أعمال شغب مستمرة وتدمير الممتلكات ضد «الشرطة النظامية» التي غدا الآن وضحاً أنها «ضعيفة».

ولهؤلاء الحساسين لمثل هذه الأشياء، كان ثمة مؤشرات تدعو إلى القلق أكثر أن الأزمة كانت تتوقف بسرعة لتغدو حرباً أهلية بين النخبة. ففي مدينة رين، أُخبر السفير البريطاني بأن تنبؤات محذرة من سقوط الملكية يتم تداولها بين الناس العاديين. وعن الوضع الفروسي للويس السادس عشر، قيل إن الصولجان الذي يمسكه بيده قد بدأ يتدلى، ربما بنحو ستة إنشات خلال الأشهر القليلة الماضية. وفي أوائل تموز كانت هناك أخبار أكثر سوءاً. عبَّر شاهد عن ذلك بقوله إنه في إحدى عشيات منتصف الصيف الحارة شاهد شخصياً، بشكل محدد الحصان الحجري الذي كان الملك يجلس عليه قد تعرق قطرات من الدم الدهني اللزج.

IV - يوم القرميد

لم يكن مشهد الدم في مدينة غرينوبل تخيلياً، ففي يوم الشغب، 7 حزيران، شاهد هنري بيل Henri Beyle ابن الخامسة (الذي سيغدو لاحقاً ستاندال) من شقة أبويه أن صانع قبعات مياوم جريح، يداه حول كتفي رفيقيه، يُسحَب إلى مكان آمن. يزعم ستاندال أنه كان دائماً مفتوناً بالدم. كانت ذاكرته الأولى عض خد السيدة بيسون دي غالون Pison de Gallon التي طلبت أن يقبلها طفل بارز الأسنان في حقل من نبات اللؤلؤية. وبعد عامين، ضغط وجهه على النافذة ليشاهد الدم ينزف من ثقب في ظهر صانع القبعات الصغير حيث تلقى طعنة بحربة من أحد جنود القوات الملكية. وقد تابع المراقبة فيما قميص الرجل وبنطاله الأصفر اللون تلطخ بلون قرمزي أكثر عمقاً. وقد أُخِذ صانع القبعات ببطء وألم إلى منزل أحد الجيران، وهو تاجر ثري ليبرالي اسمه بيير. وفجأة أدرك أبواه ما الذي كان يتفرج عليه ابنهما فأخذاه بعيداً من النافذة وعنَّفاه كما لو أنه يسترق النظر. وقد رتب هنري الذي لم يحبط بعد قليل للعودة إلى مركز المراقبة وشاهد الجسد يسحب ستة أدراج إلى

الأعلى متأطراً في النوافذ المستطيلة الواسعة في المنزل المقابل. على بسطة الدرج السادسة، ليس مثيراً للدهشة، كان الرجل قد توفي. كان ذلك، كما كتب ستاندال في سيرته الذاتية المفككة **حياة هنري برولارد** «الدم الأول الذي سفح من أجل الثورة». وفي ذلك المساء، روى والده شيروبن بابل، قصه وفاة بيروس لأسرته.

تبعاً للظاهر، لم تكن غرينوبل هي المكان الأرجح لأن تكون «مهد الثورة»، كما أحبت أن تدعو نفسها في ما بعد. ستاندال ـ الذي خلط كرهه الشديد لأبيه بكره بلدته الأم ـ لم يذكرها بأية حميمية. فقد كتب لاحقاً، «غرينوبل لي مثل ذكرى نوبة مخيفة لسوء هضم ليس خطيراً لكنه يثير الغثيان على نحو رهيب». وقد تسبب في سوء الهضم هذا ما سماه ضيق التفكير الإقليمي الخانق في البلدة. ولكن في حين لم تكن غرينوبل مثل بوردو بأرصفتها المزدحمة والمال الذي يأتي بسرعة والذي يُنفَق بسرعة أكبر، لم تكن بركة راكدة تماماً في ذاكرة ستاندال. وقد أنتجت المدينة أكثر من حصتها في فلسفة التنوير، مثل الأب مابلي Mably وكونديلاك Condillac. وموقعها الرائع على نهر إيزار Isère عند وادي بلدة سافو الألبية وضعتها على مسار الحج إلى روسو. وقد أقام هناك جان جاك عام 1768 عندما كان يجمع النباتات بنشاط في الجبال. وبعد سنة كان باستطاعة غرينوبل أن تتباهى بتقويمها الخاص لربات الجمال Almanach des Muses الذي احتذى بمجلة أدبية ناجحة تحمل الاسم نفسه ظهرت أولاً في باريس عام 1765. وظهرت بعد فترة وجيزة جريدة أسبوعية تباع بسعر ثلاثة قروش وتدعو«أي مواطن مهتم في أخذ دور في رصد القضايا الهامة» أن يسلم مواده للنشر. وفي هذا الوسط الصغير لكن الحي، أسس جد ستاندال لأمه، الدكتور غاغنون Gagnon مكتبة عامة مزدهرة ومدرسة مركزية جديدة للطلاب الواعدين. وكانت اهتمامات غاغنون الطباعية التي تراوح من دراسات عن الاحتباس البولي إلى تاريخ البراكين في أوفيرن نموذجية لنخبة المدينة ذات العقول الموسوعية واليقظة سياسياً في البلدة. وفي الوقت الذي نشر فيه أنطوان بارناف سجاله المدمر ضد إصلاحات لاموانن بعنوان «**روح سن المراسيم القانونية**»، كان بإمكانه أن يطمئن بمجموعة قراء دقيقة وساخطة.

وفي جوانب عديدة كانت رتابة غرينوبل هي التي جعلتها ناضجة للنهوض المديني الكبير الأول في الثورة. وفيما كان لمحكمة دوفين جمهورها المعتاد في الأدب، والمحامين الذين من السهل إثارتهم وذوي الرواتب البائسة، وناشري الكراسات والمعلمين والكتاب المأجورين. كان كل خطر على المحكمة المستقلة تحدياً مباشراً لكل

من قوتهم وإحساسهم بالمكانة، ولكن غرينوبل كانت أيضاً مركز الصناعة الإقليمية بأربعة آلاف وخمسمائة حرفي مؤهل ينتجون القفازات الجيدة التي كانت تُصدَّر إلى كل أنحاء البلد وبعيداً إلى فيلادلفيا وموسكو. ومع ألياف القنب التي صنعت مجموعة هامة أخرى في قوة العمل. كان الحرفيون يُدفَعون تدريجياً من المركز القديم في البلدة إلى شارع سان لوران في الضفة المقابلة من نهر إيزر وإلى ضاحية تري كلواتر Tres Cloitre في الجنوب الشرقي. وبينما زادت سنوات الازدهار فرص التشغيل، فإن التوقف المفاجئ لدورة التجارة الصاعدة عام 1788 الذي ترافق مع زيادة حادة في أسعار الخبز، جعل هؤلاء العمال جوعى وساخطين. كانوا ينافسون من أجل وظائف إضافية مع مجموعة كبيرة من المهاجرين من المناطق المحيطة من حيفودان وسافوي الذين استقروا في غرينوبل كعتالين وبوابين وخدم في البيوت وسائقي عربات.

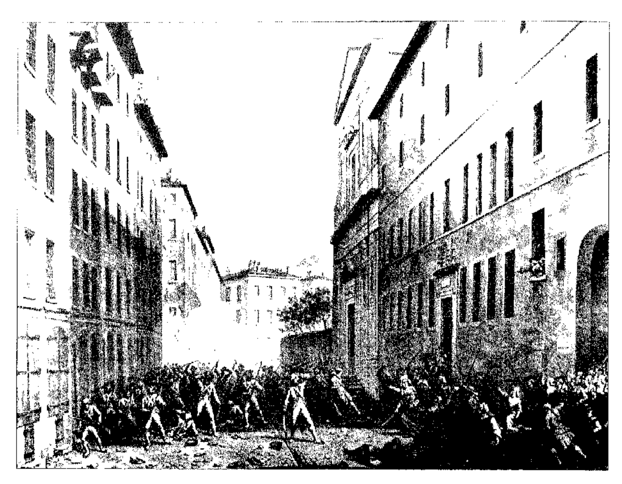
ومع أخذ هذه التوترات بالحسبان فقد كان طيشاً من الحكومة أن تبدأ عملها في يوم السوق: يوم السبت 7 حزيران. ذهب القضاة إلى اجتماع في منزل رئيسهم السابق ألبرت دي بيرول، وفي 20 أيار تابعوا مسار زملائهم في باريس وأقاليم أخرى في إعلان أن تطبيق مراسيم أيار غير قانوني. وأمر براين بعد عشرة أيام قائد شرطة دوفين، الدوق دي كلرمون ـ تونير Duc de Clermont - Tonnerre، أن ينفي القضاة من غرينوبل وفي السابع من حزيران تم تنفيذ المذكرة المختومة كما يجب. كان ثمة فوجان من الجند ـ البحرية الملكية والأوستراسي Austrasie ـ في المتناول لولا التدخل الحاسم من الحشود العامة. نموذجياً، كانت نقابة الكتبة القانونيين basoche هي التي بدأت عمل اليوم بتحريض الناس في الأسواق وتوزيع الكراسات والملصقات التي تهاجم براين ولاموانن بعنف. وقد انتقل الاحتجاج من الخطاب وصيحات الاستهجان والأناشيد إلى إضراب. وعند الساعة العاشرة صباحاً أغلقت الأكشاك والمتاجر أبوابها وخرج صانعو القفازات وألياف القنب من ورش عملهم وتدفقوا إلى مركز المدينة وتوجهوا إلى قصر العدل ومنزل دي بيرول في شارع فولتير. كان هدفهم منع رحيل القضاة بالقوة إذا اقتضى الأمر، ولهذه الغاية فكوا أربطة أحصنة العربة التي كانت مُعدَّة لنقل الرئيس، وأخذوها من فناء القصر العدلي. وأغلقت مجموعة ثانية أبواب المدينة لمنع التعزيزات من الوصول ونظمت مجموعة ثالثة نفسها لمحاصرة منزل الحاكم شخصياً.

عند هذه النقطة، كان شيرمون ـ تونير بصفته قائد الحامية في مواجهة اتخاذ قرار لا يُحسَد عليه. كان القرار الذي سيواجهه كل ضابط يوضع في مأزق مماثل طوال الثورة

الفرنسية ـ وفي كل الثورات القادمة التي لا تحصى. هل يرسل جنوده إلى الشوارع لاحتواء أو منع أو إخضاع الحشود العامة؟ وإذا فعل ذلك، هل ينبغي أن يكون بكامل أسلحته؟ وإذا فعل ذلك أيضاً، ففي ظل أية ظروف يمكنهم أن يطلقوا النار؟ وأي من هذه السيناريوهات، إذا لم تكن كلها، يمكنها ألا تكون مجازفة تجعل الوضع أسوأ حالاً بدلاً من تحسينه؟ ومثل كثيرين من الضباط الذين يوضَعون في هذا المأزق، قام برد غير متحمس، لكن ليجد أن القرار قد أفلت من يديه من خلال عنف الأحداث التلقائية.

أُرسِل الجنود إلى مواقع الشغب بمجموعات صغيرة نسبياً، مسلحة لكن بأوامر عدم إطلاق النار. وقد كان حضورهم كافياً لإثارة سخط الحشود العامة أكثر لكن لم يكن الغضب مركزاً كفاية لترويع تلك المجموعات العسكرية. وقد صعد عدد كبير من سكان غرينوبل إلى أسطحة منازلهم وبدأوا برشق الجنود غير المحميين بالقرميد حتى أخذ وابل منه يقعقع على الأرصفة في الأسفل وعندما بدأت القوات تلحَق بها إصابات خطيرة، ردّت المجموعتان بشكل مختلف. أطاع جنود الأوسترازي العقيد بوازو، الذي منعهم من إطلاق النار حتى عندما هو نفسه أصيب في وجهه بإحدى قطع القرميد. أما مشاة البحرية الملكية فكانوا أقل رزانة. ففي موقع غرينِت، المقابل مباشرة لمنزل ستاندال، استثيرت مجموعة من ذلك الفوج أكثر مما تتحمل فأطلقت النار وأصابت فتى في الثانية عشر من عمره توفي لاحقاً بسبب النزيف من فخذه التي مزقها الرصاص. وهناك أيضاً أصيب صانع القبعات. وقد عرضت الثياب المشبعة بدم الضحايا في الشوارع وصدحت أجراس الكنائس التي جلبت مزيداً من فلاحي الأرياف الذين سمعوا أن أصدقاءهم وعائلاتهم التي ذهبت إلى سوق غرينوبل تتعرض لهجوم عسكري.

عند عصر ذلك اليوم، كان كليرمون تونير والحاكم كاز دي لا بوف Caze de la Bove يبحثان بشكل يائس عن حل يجنبهما القمع الدموي أو الاستسلام. وقد جعلوا الأمر معروفاً للبرلمانيين أنهم سيسحبون القوات من الشوارع مقابل رحيل القضاة الفوري. وفي ذلك الوقت، ربما كان القضاة متحمسين للاستجابة، غير أن القرار استولى عليه غضب الحشود الساخطة. ودون شهية لقتل، أخلى شيرمون تونير مسكنه hotel واستولت الحشود المهتاجة على المدينة. وقد نُهِب منزل الحاكم بدئاً بأقبية خموره وانتهاء بقمرة تاريخه الطبيعي، التي أخذ منها نسر محنط صار تذكاراً للنصر. رمي الأثاث إلى الشارع وأُحرِق وهُشِّمت المرايا. ورُفِع ألبرت دي بيرول وزملاؤه رؤساء المحكمة على أكتاف مجموعة تهتف لهم مكللين بورد حزيران. غير أن دي بيرول البالغ من العمر اثنين وثلاثين عاماً

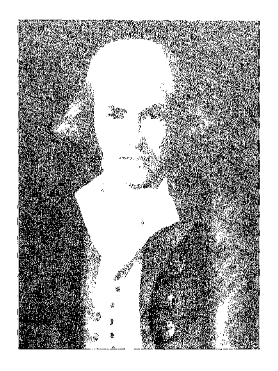


الصورة 76، يوم القرميد: غرينوبل في 7 حزيران عام 1788

الأنيق والمختال إلى حد ما، الذي حاول اكتساب هذه الشهرة، وقد حققها الآن، لم يكن متيقناً من أنه مهتم بها، ولابد أن القضاة، الذين أُلبسوا أرديتهم الحمراء المزركشة بفرو القاقوم وقاموا بمسيرة نصر ظاهري إلى القصر العدلي، حيث كانت النوافذ مضاءة، لجلسة خاصة طالبت بها الحشود، لم يكونوا متأكدين أيضاً ممن كان القائد ومن المَقود. كانت لحظة حقيقة غير مريحة ستحدث مرة وأخرى في السنوات التي تلي.

وفي النهاية، كانت الخمر قد أُفرِغت في المآوي، وسقطت آخر الألعاب النارية في سانت أندريه على الأرض، وتلاشت الصيحات ضد التوأم الشيطاني، براين ولاموانن. وأسرع القضاة الكبار الذين غدوا أكثر حذراً من الخطر منهم بابتهاجهم بنصرهم، إلى الانتقال من المدينة قبل حدوث أية أضرار أخرى متعمدة. غير أن الشباب الأكثر صلابة والأشد عزيمة بينهم مثل القاضي الملكي جان جوزيف مونييه وأنطوان بارناف ـ رأوا أن الاضطرابات وعجز السلطة الملكية الفاضح مناسبة يجب البناء على أنقاضها.

كان يوم القرميد، إذن، ثورة مثلثة. فقد ميزت انهيار السلطة الملكية وعجز القوة



الصورة 77، لرسام مجهول، صورة جان جوزيف ـ مونييه.

العسكرية في مواجهة الاضطراب المديني المستمر. وقد حذرت أيضاً نخبة المستفيدين من ذلك الاضطراب أن هناك ثمناً غير متوقع سيدفع جراء تشجيعهم أعمال الشغب والذي قد ينقلب عليهم بسهولة. والأهم من ذلك كله، نقلت المبادرة للمزيد من الفعل السياسي إلى أيدي مجموعة أكثر شباباً وأشد راديكالية التي ليس لديها مشاعر حذرة من مناداة الشعب.

بعد أسبوع، بدأ مونييه بتنسيق رأي أكثر منهجية. لقد كان اليد المنظمة المركزية التي حولت عمل الشغب المفكك إلى مبادرة سياسية كبيرة. لم يكن مونييه قد بلغ الثلاثين من العمر بعد، وهو ابن تاجر أقمشة، مثل آخرين كثر من جيل 1789 نتاج إحباط بورجوازي من النظام القديم، بل الصعود الهيّن إلى الترقية الاجتماعية. درس القانون في جامعة محلية، حيث أطلق عليه زملاؤه اسم كاتو الرجل الصاحي والمعتد بذاته. وقد تزوج مونييه بعد أن أصبح محامياً مرموقاً عام 1782 ابنة محامي عام باسم الملك. وفي السنة التالية، في الخامسة والعشرين، أصبح مونييه نبيلاً، من خلال شرائه منصب المحامي العام الملكي مقابل 23.000 ليفر. بكلمات أخرى، لا شيء على الإطلاق في سيرته الاجتماعية ستوجهه نحو الثورة إلا، لنكن محددين، إيمانه الشخصي بتجديد فرنسا كأمة لمواطنين مخلصين لملك يكرِّم تمثيلهم. ويمكن أن يكون جد ستاندال، الدكتور غاغنن، هو الذي وضعه على ذلك المسار. لأن الأكاديمي الموجود في كل مكان في هذه البلدة الصغيرة هو الذي أعار مونييه الشاب الأعمال السياسية والفلسفية الموجودة في مكتبته التي بدأت بنيانه

الفكري. وبعد عشرين سنة في منفاه في يمار، سيمتحن على نحو موجع طول أناة غوته في صرف النظر عن أهمية عمانوئيل كانت.

ذهبت أهدافه في صيف عام 1788 أبعد من الهدف المحافظ تقليدياً المتمثل باستعادة المحاكم. ففي 14 حزيران، في تحدٍّ لحظر فرضه كليرمونت ـ تونيير، نظم اجتماعاً في أثيل دي فيل حضره أكثر مائة ممثل للطبقات الثلاث: رجال الدين والنبلاء والطبقة الثالثة. كانت المجموعة الأخيرة الأكثر عدداً، وقد ضمت، بالإضافة إلى ثلاثة أعضاء مستشارين في المجلس البلدي لمدينة غرينوبل، الدكتور غاغنون، أبو مونييه شخصياً وعدداً من المحامين وكتاب العدل والأطباء (وعدداً من التجار أيضاً): الطاقم التقليدي للطبقة الثالثة السياسي. وجّه الاجتماع مناشدة إلى الملك مباشرة لإعادة المحكمة وسحب الإصلاحات الجديدة. وطلب أيضاً عقد مجلس الطبقات المحلي في دوفين وحدد أن يكون هناك «انتخابات حرة» لتلك الهيئة. وفي مجلس الطبقات كان يجب أن يكون عدد الطبقة الثالثة مساوياً للطبقتين الأخريين مجتمعتين، وهذا هو البيان الرسمي الأول للمبدأ الذي سيغدو حاسماً لمجلس الطبقات ذاته (الذي طالب به الاجتماع أيضاً). وبينما كان ثمة بعض التردد أمام هذا المبدأ، فقد سيطرت فصاحة مونييه على الاجتماع وتَمَّ إقراره في النهاية في انفجار «للتوافق الأخوي». كانت هذه البديهية التي حددها بارناف في ما بعد بأنها أساس «ثورة ديمقراطية».

وقد تمخضت عن اجتماع غرينوبل توقعات هامة أخرى ستغدو موضوعات ثورية عامة: الأول وصف القوى المعارضة بأنها عملاء. وهؤلاء الذين تجرؤوا أن يقبلوا مناصب في محاكم لاموانن، فقد أعلن، يجب أن «يعتبروا عملاء للوطن»، وينبغي التعامل معهم على هذا الأساس. وكان الثاني هو الاهتمام بأن النظام السياسي الجديد يجب أن يهتم بالمظالم المادية للشعب الذي أوجد ذلك النظام. لم يُقتَرح أي شيء راديكالي خطير هنا: صندوق اشتراكات لمساعدة العاطلين عن العمل أو الحرفيين المحبطين. غير أن واقع أن المحامين العامين كانوا قد بدأوا بمعالجة المسائل السياسية والاجتماعية فقد كان ذلك بحد ذاته تطوراً مصيرياً. وفي النهاية أصدر الاجتماع مناشدة مدوية للبلدات والقرى في منطقة دوفين كلها للاجتماع في غرينوبل للإعداد من أجل تمثيلها الجديد.

بين هذا الاجتماع والاجتماع الثاني، الذي تقرر ألا ينعقد في غرينوبل بل في شاتو دي فيزيل Château de Vizille الذي يملكه أيضاً التاجر كلود بيرييه Claude Périer، كانت

غرينوبل تحت تأثير اندفاع عاطفي وطني قوي. وكان المستشارون في أوتيل دي فيل يستقبلون الوفود والعرائض يومياً، كان بعضها من دوائر انتخابية سِيِّست بقوة لأول مرة. فعلى سبيل المثال احتج طلاب الرويال كوليج ـ دوفين دي غرينوبل على مع أنهم «لا يزالون في أعمار صغيرة فسيصبحون يوماً ما مواطنين» وذلك يتطلب منهم أن يعبروا عن التضامن القوي مع متقدميهم سناً. وتم توقيع بيان أكثر استثنائية، رسالة خطية إلى الملك وقعتها «الرعية الشديدة التواضع والشديدة البسالة، كل نساء إقليم دوفين»، تذكره بأن النساء خلال قرون من الزمن كنّ دائماً مؤثرات على «العاطفة الوطنية... وليست ثمة واحدة منا وُلدت دون حماسة وطنية ملتهبة ومستعدة لتقديم التضحيات العظيمة وبذل الجهود الكبيرة..».

لقد حاولت أن تخيفنا بعلامات سلطتك؛ بقوة الجنود وحرابهم وبنادقهم ومدافعهم ودروعهم. لكننا لن ننسحب خطوة واحدة. وسنواجههم بجبهة شجاعتنا غير المسلحة إلا بثيابنا الرقيقة وخوذات من الشاش، ولكن حتى نفسنا الأخير، ستطالب إرادتنا وقلوبنا باستعادة قضاتنا والامتيازات وإعادة بناء الشروط التي وحدها تستطيع أن تصنع قوانين صحيحة...

قبل سنة كاملة من الثورة التي فُكِّر عادة بأنها يجب أن تبدأ، كان مثل هذا الكلام العام قد تشرب بخطابة روسو عن الفضيلة. فلم يكن ثمة مواطنون وحسب، بل مواطنات أيضاً.

كان جزء من صعوبة كليرمونت ـ تونير هي أنه ظن نفسه واحداً من هؤلاء المواطنين، وكان مستحيلاً الفصل بين الواجب للملك وضميره المرهف. وقد استبدل في حينه بشخصية أكثر مناعة، المحارب القديم الثمانيني الماريشال دي فو Maréchal de Vaux . وتحت نظرته المشؤومة جاء ذلك الموكب من «الممثلين» من كل الطبقات ومن كل البلدات في أرجاء دوفين (مع أنها لما تزل تحت سيطرة أنصار غرينوبل) على قدميه إلى قصر بيير في فيزيل في الحادي والعشرين من تموز. اصطف الجنود على طول الطريق، لكنهم اليوم بخلاف يوم القرميد، بدوا لبعض المشاركين أكثر وداً منهم منذرين بسوء. والماريشال دي فو، الذي بدا مهدداً بالخطر جداً، أثبت أنه ليس أشد ثباتاً من أسلافه فعندما ووجه بحتمية الاجتماع رد، «آه حسن، سأغمض عيني». كان ثمة 50 عضواً من رجال الدين بين الممثلين الذين بلغ عددهم 491 مندوباً في فيزيل، وما لا يقل عن 165 مندوباً من النبلاء ـ فريق ممثل حاكم ـ و276 مندوباً من الطبقة الثالثة (الذين

كان منهم 187 مندوباً من غرينوبل وأنصارها). انتخب الكونت دي مورغ Comte de Morgues رئيساً ومونييه لأمانة السر المنصب الهام جداً.

في الاجتماع الأسبق في أوتيل دي فيل، ذهب مونييه إلى بعض الحدود لإعداد أجندة للمحادثات، ومع أنه بعد سنة سيحتج بشدة ضد ما ظنّ أنه اغتصاب الجمعية الوطنية للسلطة الملكية، ففي تموز 1788، شرع مونييه نفسه تمريناً على إعادة البناء السياسي، وفي فعله ذلك لم يكن مسلحاً في المطلق بسلطة قانونية إلا ما أعلن أنه يجب أن يكون نوعاً من تفويض من «قوانين الشعب»، وهي صيغ مطاطة كفاية لاستخدام أي احتمال. ومع ذلك لم يستطع أن يتخيل الجمعية في فيزل كبروفة للجمعية الوطنية، فالشعور بالنشاط الذي تولد بين الطبقات الثلاث من خلال العمل بشكل متناغم معاً ولف أنفسهم بجلبات الخطابة الوطنية كان في الحقيقة إيذاناً مباشراً بمشهد فرساي بعد أقل من سنة.

في فيزيل، أكد مونييه ثانية إقلاعه عن الخطابة البرلمانية التقليدية باستداناتها من مونتسكيو والتأكيد على الحقوق المحفوظة تاريخياً. ويقترف بعد برهة وجيزة هرطقة رفض مفهوم الدستور «الممعن في القدم» أو«الأساسي» لفرنسا الذي قيل إن الحكومة تنتهكه. ولكن حتى في فيزيل كانت اعتراضاته على سلوكها قائمة بدلاً من ذلك على الحقوق الطبيعية وبديهية أن الحكومات قد تأسست لحماية الحريات الفردية ـ وهو تصور جديد بالكامل و«أمريكي» بشكل واضح في فرنسا، حيث قال «حقوق الناس مشتقة من الطبيعة وحدها، وهي مستقلة عن التقاليد «التاريخية». وفي الغياب الواضح لأي دستور، كما ظن، يجب على المرء أن يبتكر دستوراً جديداً من خلال مجلس الطبقات. وفي الجمعية دق مونييه ناقوس الخطر. «خير الوطن هَمّ جميع المواطنين عندما تلم به الأخطار... ولا يمكن اعتبار جمعية ما غير قانونية عندما لا يكون لها هدف آخر غير سلامة الدولة». وكان وصمه أي شخص يقبل منصباً من براين بأنه «خائن» قد تكرر وعرّف بأنه واجب على كل الطبقات الثلاث الدفاع الموحّد عن أي شخص تضطهده الوزارة. وعلاوة على ذلك، ليس إلا الممثلون الحقيقيون للشعب ـ مع مضاعفة ممثلي الطبقة الثالثة لتساوي الطبقتين الأخريين ـ يمكنه أن يصدِّق على أي نوع من الضرائب.

لقد أعطيت كل هذه المبادئ أهمية شكلية في الجمعية. فقد رأى بارناف، الذي كان واحداً من أكثر المراقبين صفاء ذهن للأحداث، أن أهمية الاجتماع تكمن في هز خطابة المعارضة الفضفاضة من قبضة النزعة المحافظة البرلمانية، لقد أثار النبلاء القضاة أزمة

كافية ستحبط إصلاح الحكومة لكنها فقدت السيطرة على سياستها. ففي دوفين، دُفِعت مسائل التمثيل إلى المقدمة حتى قبل أن يعلن عن مجلس الطبقات. وقد جرفت خطابة الوطن أصحاب الامتيازات في دعم كل من مضاعفة ممثلي الطبقة الثالثة والمناقشات المشتركة والتصويت المشترك ـ المسائل الكبرى التي قسمت بحدة الدولة السياسية.

وعلى الرغم من الطابع غير الشرعي بالكامل للجمعية، وافق لويس السادس عشر في الثاني من آب على عقد مجلس طبقات دوفين في رومان. وعلى مراحل انسحب من الثبات الراسخ الذي أصر عليه من خلال حكومته. عُقِدت اجتماعات أخرى على نحو تلقائي هيمن عليها عادة النبلاء انتخبت وفوداً أرسلت إلى فرساي لتسأل إما عن طبقات الإقليم أو الأمة. وقد جاء أحد تلك الوفود من بريتاني في 12 تموز. رفض الملك مقابلته، وكنتيجة عُقِد اجتماع لكل النبلاء الكبار من بريتاني في باريس، في أوتيل دي اسبانيا. وفي رد، أُرسِل 12 من قادته إلى الباستيل، وآخرون بمن فيهم لافايت (يصعب تصديق أن يصف نفسه بريتوني من طرف أمه)، جُرِّدوا باختصار من رعاية البلاط. وعلى نحو مماثل أُرسِل وفد ثانٍ من رين إلى السجن. غير أن لويس لم يكن معداً ليرى الحقيقة تحت السطح. فحيث حملة لويس الخامس عشر ضد المحاكم لم تنته إلا بوفاة الملك، سيدفع حفيده الملكية إلى الانتحار. وقد لاحظت أخته الرقيقة الشعور إلى حد بارز، السيدة إليزابيث، أنه حتى في تموز،

> *الملك يتراجع... إنه خائف أبداً من اقتراف خطأ. فحالما تمضي ثورة غضبه الأولى، لا يعود يقلقه أي شيء إلا خوفه من أن يكون قد اقترف مظلمة ما ... يبدو لي أنه في الحكومة، كما في التعليم، ينبغي ألا يقول المرء «سأفعل ذلك» حتى يتأكد من أنه على صواب. لكن إذا ما قال ذلك، فيجب لا ينسحب خلسة مما أمر به.*

في هذا المزاج من التردد الانفعالي ـ الذي سيستمر حتى نهاية حكمه ـ عكس لويس قراره وسمح لوفد بريتوني آخر بمقابلته، ووعده بعقد مجلس طبقاته.

وبعد أسبوع، في آب أصبح هذا الانحراف السياسي لا يمكن عكسه عندما أصدر الإعلان الذي كانت الأمة بأسرها تنتظره: سينعقد مجلس الطبقات في فرساي في 1 أيار عام 1789. وحتى الاجتماع ستُعلَّق محكمة لاموانن المطلقة التي صدقت بموجب القوانين الجديدة. وفي غرينوبل، كما في كل أنحاء فرنسا، تمت تحية الإعلان بشعور من النشاط: مزيد من الألعاب النارية، نوافذ مضاءة، أغانٍ، ومسيرات بالمشاعل تعبر عن إخلاصها للملك، ومع ذلك ليس لوزرائه.

وفي مواجهه الدليل المتزايد على أن سياستهما لم تكن قابلة للتطبيق، حاول براين ولاموانن أن يبقيا في السلطة. وحتى بحلول تموز لم يكن متعذراً الدفاع عن موقعهما تماماً. فخارج المراكز البرلمانية ـ كانت المحاكم الإقليمية قيد الإنشاء في الواقع ـ لاسيما في ليون وفالنس Valence. وربما كانت جذابة لبعض العناصر في الطبقة الثالثة الذين كانوا قد بدأوا بفصل أنفسهم عن الهيمنة الأرستقراطية. ولا براين سلّم بأن دعوة مجلس الطبقات كان بحد ذاته نهاية لحكومته. وقد كان على صواب تماماً ليبرهن أنه كان دائماً من مؤيدي الطبقات وأنه لم يختلف مع منتقديه إلا على (المهم) مسألة التوقيت. وقد أخذ هذه العملية في «الدعاية الشعبية». للملكية أبعد من خلال دعوة الأمة لجعل «أفكارها» حول الشكل الذي يجب أن يأخذه مجلس الطبقات. كانت هذه محاولة ذكيه لاستثمار الانقسامات التي غدت مرئية بوضوح بين النبلاء و«الوطنيين» على طريقة» التمثيل، و، بإضافة، مجرد أي نوع من الدولة السياسية ستعقب الملكية المطلقة التي تحتضر الآن.

غير أن دعوة الملكية للشعب، التي استعملت كعصا لضرب المعارضين، تمت رؤيتها ـ كما تمت رؤية لجوء كلوني المتأخر إلى الرأي العام وكما ستتم رؤية دعوات ملكية مماثلة طوال فترة الثورة ـ في الحال الأفضل محاولة يائسة وفي الأسوأ مخادعة. لم ينقذ ذلك براين. ففي الحقيقة، كما غدا واضحاً أن السلطة في فرنسا تتفكك بسرعة، بدأت إزاحة إدارة براين تبدو شرطاً مسبقاً لأي نوع من حكومة فعالة. كان ثمة أزمة قصيرة أجل للنظام، بنشر القوات المتوفرة في المراكز الإقليمية المختلفة بعيداً في رين وآيكس الأمر الذي فتح فراغاً خطيراً في المركز. ولكن ما أنهى براين في الحقيقة لم يكن عجزه عن تطبيق مراسيم أيار بقدر ما كان الموت المفاجئ للرصيد العام.

ففي أيار/ مايو قدمت الجمعية العامة لرجال الدين، التي كانت الحكومة تعتمد عليها من أجل منحة دون مقابل don gratuit وهو مبلغ كبير تقليدي يُصوَّت عليه كمساهمة مالية جاء هذه المرة على نحوٍ يدعو للسخرية. وكان واضحاً أن تمردها إيماءة للتضامن السياسي مع المحاكم. وكان الأسوأ الذي يأتي في آب. ففي بداية آب، أُبلغ براين من خلال رئيس الرقابة، غوجارد، أن هناك مجرد 400,000 ليفر متبقية في الخزينة ـ أو ما يكفي لعمل الحكومة لبعد ظهر يوم واحد. كان رد فعل براين الأول بعد الصدمة الأولى (وهذا مفهوم) أن يفكر بسبب انتظار غوجارد إلى النهاية القصوى ليدعه يعرف هذه المعلومة الهامة. وفي معتزل عن الآخرين توصل باختصار إلى الاحتمال الذي كان استنتاجاً صحيحاً: في الجماعة التي يتزايد عددها المتلهفة لترى براين يرحل، انتظر

غوجارد متعمداً حتى غدت الورطة مروعة جداً إلى حد لا يستطيع الوزير فيها أن يأمل بإخراج نفسه من المأزق.

وقد نجحت الحيلة. كانت التدابير اليائسة هي كل ما تبقى لـِ براين إذا كان سيحفظ رواتب الجيش ـ الذي بدونه سينهار ما تبقى من نظام في الداخل سريعاً. كانت الأزمة المباشرة بسيطة تماماً. فقد جعل الانحدار الشديد لضمانات الحكومة مستحيلاً لجمعية جامعي الضريبة غير المباشرة والجهات المالية الأخرى التي تعتمد عليها الدولة أن تلبي التزاماتها المتوسطة الأجل، أن تجمع رأس مالٍ مقدماً في سوق المال. وفي الواقع، فإن الضمانة الإضافية التي يمكن استدانة المال مقابلها انخفضت قيمتها إلى الدرجة التي لم تعد فيها تمثل استثماراً آمناً. وعلاوة على ذلك، في ما يتعلق بالعجز الراهن، فإن «توقعات» العائدات المستقبلية كانت قد رُهِنت أيضاً إلى أجل بعيد لتغيِّر ذلك الحساب المتعقل.

كان الرهان سياسياً بقدر ما كان مالياً. فحتى في وضع يائس بوضوح، لم يكن ثمة شيء حول البنية الحقيقية للمؤسسات الملكية التي جعلت المقرضين المحتملين يلغون قيمتها جملة وتفصيلاً. أو بالأحرى، ذُكِّروا أنه في عهد مابيو سار الكساد جنباً إلى جنب مع التخلف عن دفع الدين (مهما كان ذلك بارعاً). وكان الحديث هو أن مجلس الطبقات قد يثبت أنه ضامن أفضل من التاج لاستثماراتهم.

لم يكن ذلك الحقيقة كلها، آنئذٍ، أن تصف أزمة الدولة الفرنسية في آب 1788 باعتبارها إفلاساً. فقد كانت حكومة براين وليس فرنسا، هي المفلسة، بقدر السرعة التي جمع فيها خليفته، نكر، قروضاً من كل الأنواع تدعمه بوفرة. (قدرة نِكر الشخصية على كسب القروض من الزملاء في سوق الأوراق المالية ومن الشركات في باريس التي قدمت للحكومة مالاً كافياً للعيش عليه حتى تم التحقق في النهاية من مثوى الشهداء الذي سيذهب مجلس الطبقات إليه.) لكنه كان المستفيد من التغيير الدرامي في النظام. ففي أسابيعه الأخيرة، انتزع براين بشيء من الإقناع قرضاً أمكنه اللجوء إليه لقليل من الإسعاف المالي. حيث أخذ شكل سندات بفائدة خمسة بالمائة لكن دون تحديد فترة سداد ثانية صدر في 16 آب. ستقدم دفعات بأكثر من 1200 ليفر، ثلاثة أخماسها نقداً وخُمسَين في هذه السندات، وتلك ذات المبالغ الأقل ستستلم نسبة أعلى قليلاً من النقد وهكذا دواليك.

كانت تلك، في الحقيقة، محاولة لتضليل حاملي السندات بالنقود الورقية، ولكنها شوهدت كمعادل مالي للأزمة الهولندية. ففي أيلول عام 1787 تخلت فرنسا عن السياسة

الخارجية حتى استطاعت أن تتحمل نفقاتها. وفي آب عام 1788 تخلت عن السياسية حتى تستطيع أن توافق على واحدة.

V ـ ألعاب النهاية

كان موت الرصيد فكرة قديمة في الثقافة الشعبية. فقد حملت المطبوعات التي تحيي هذا الحل المروع للعقدة صور هياكل عظمية تكشر وهي تحمل أوراقاً لا قيمة لها ومحافظ مالية فارغة. وفي 16 آب عام 1788، مات الرصيد في باريس ورمى موته السوق الضخمة في أوراق الحكومة في ذعر مالي. وبخلاف نسخة فرانكلين وروزفلت المعدلة لكشف الحساب عام 1933، لم تطمئن ملاحظة المرسوم الملكي أن «لاشيء في خطر إلا من خلال... الخوف» أحداً. فحوصر كِاس دسكونت Caisse d'Escompte بحملة السندات الذين يطالبون بردِّ دين سنداتهم وكان يجب أن يغلق مخافة أعمال العنف. استمر الحصار ثلاثة أيام وليالٍ قبل أن يكون لإعلانين حكوميين إضافيين يضمنان تلك الأوراق أثر مهدئ مؤقتاً. ولكن ليس لغير تسوية العلاقة أن تسترد القليل من الثقة المطلوبة للحفاظ على الحكومة من التفكك. كان في مجلس براين بعض الحكي عن المحاولة المستحيلة ـ جلب نِكر إلى الوزارة ـ لكن إذا كان يجب أن تُبعَث فرنسا بحكومة تمثيلية، فلا يمكن عمل ذلك من خلال أكثر أنصار الحكم الاستبدادي قوة. وفي كل حال، لم يكن نِكر مهتماً بأن يشارك بمجده أسقفاً سمعته سيئة وهو يصغي إلى قرع طبول التصفيق يتردد لعودته. وفي 25 آب، استقال براين، وفي ليلة اليوم نفسه ملأ عشرة آلاف شخص الرويال بالاس يهتفون بأصوات خشنة ويطلقون الألعاب النارية احتفاء بالخبر.

وفي الأسبوع الذي تلا، كانت باريس تعطي دفقاً هائلاً من الكراهية سببها ارتفاع شديد بأسعار الخبز. كانت دمى براين ولاموانن المصنوعة من القش تحرق ليلة بعد أخرى، وعلى بونت نوف كان كل من لا ينحني لذلك الطوطم الشعبي، تمثال هنري الرابع، يعامل بخشونة، ويَروي شاهد عيان إنكليزي:

> *خرجت للمشي ليلاً ورأيت مكان دوفين كله متوهجاً من حرق الأسقف وأضواء النوافذ، وبحراً ضخماً من الرؤوس غطت المكان كله وآلاف وعشرات الآلاف كانت مغلفة بالارتباك والجلبة وأعمال العنف.*

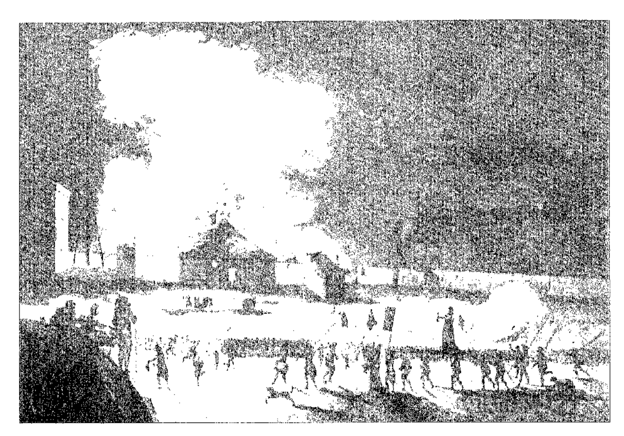
وفي التاسع والعشرين كان ثمة تمثال لعرض الملابس أُلبس زي الأسقف براين قُدِّم للمحكمة وحُكِم بأن يقوم بتحسينات جديرة بالاحترام أمام تمثال هنري الرابع قبل أن

يُحرق. كان هناك الكثير من هذه النيران التي تُضرَم في الهواء الطلق التي أصبح وقودها مشكلة للمحتفلين. فتم الاستيلاء على الأكشاك التي تعود للنساء بائعات البرتقال في بونت نوف وعندما أُحرقت، انتزعت محارس خفراء الجسر من شاغليها لتحرق أيضاً.

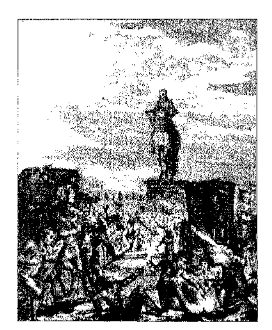
لم يرق هذا لميلشيات الحرس الفرنسي أو القوات العسكرية التي عبثت تدريجياً للسيطرة على أعمال الشغب. وفي ليلة استقالة براين استخدم الجنود النظاميون لإخلاء مكان دوفين من المحتفلين، وفي الأيام التي تلت أخذ الجنود الفرسان يهاجمون تدريجياً المدنيين المسلحين بالهراوات والزجاجات والحجارة. وفي التاسع والعشرين، خرجت الأمور عن السيطرة كفاية لأن الضابط في موقع القيادة سيأمر بإطلاق وابل من النار في الهواء قبل أن ينسحب الجمهور. إذن قدرة السلطات على حفظ الأمن والنظام في العاصمة قد اختبرت جدياً.

في غرينوبل بدأت طقوس جنازة الحكم الاستبدادي بشكل بسيط واستثنائي. ففي 12 أيلول، ذهب الماريشال دي فو المتقدم في العمر الذي جاء إلى غرينوبل متباهياً أن «لديه 10,000 رتاج لإغلاق القصر العدلي»، إلى قبره الشخصي. وُضِع جثمانه في شابل أردنت Shapelle ardente في تابوت أسود محاط بمئات الشموع. وتنفس هنري بيل الصغير أدخنة لاذعة وفغر فاه على آكل لحوم. كان نظام الطاعة العسكري الذي تجسد في الماريشال القديم يتعطل بجانب جثمانه. كان قارعو الطبول الذين عينوا ليقرعوا مارش الميت لموكبه يتذمرون من أن ثيابهم السوداء الملفعة التي رميت فوق الطبل شُغِلت بسرعة وإهمال بشكل غير عادل. وبالحق، كما قالوا، حقهم أن يحصلوا على ما يكفي لصنع بنطلونين، ولم يكن ذلك إلا من خسة تلك الشحيحة الغنية، ابنة الماريشال، التي سلبتهم أجورهم.

ثم جاء موت آخر، أكثر إزعاجاً وتشويشاً. ففي 8 تشرين الأول وُضِع أسقف غرينوبل، هاي دي بونتفيل Hay de Bonteville في الكاتدرائية كما يليق بأسقف ولكن غُطّي وَجهه بقطعة نسيج لم يُسمَح لأحد أن يرفعها. وقد اتضح السبب سريعاً. ففي الليلة السابقة انسحب إلى مكتبه في شاتو دي هربي Château d'Herbeys، أحرق كل أوراقه ووضع ثلاث رصاصات في مسدس. ثم وضع المسدس في فمه، وضغط على الزناد وأطلق النار. حتى فيما كان يعمل لدعم وطنيي غرينوبل، بدا أنه يرتبط ببراين ولاموانون سراً ويقدم لهما الدعم، كان واحداً من سيئي السمعة الذين أراد مونييه أن يستأصلهم من الجسم السياسي. ففي الاجتماع التمهيدي للطبقات في دوفين برومان، كان الأسقف،



الصورة 78، في موقع دوفين، 28 آب عام 1788



الصورة 79، انحناءة المسلحين لتمثال هنري الرابع على جسر بونت نوف

الآن محروماً من شركائه في الحكومة حكى عدة كلمات عن الحماقة، كما بدا في مجموعة من الرسائل إلى مونييه التي توسل فيها إليه (كأمين سر المجلس) أن يمحوها من

المحاضر. غير أن إحساس مونييه بالحقيقة لم يكن مرناً. لم يستطع أن يحس (ما رآه الآخرون) أن هاي دي بونتفيل كان مضطرباً بشدة. كتب الأسقف، لقد دفعتني إلى اليأس، وبعد عدة أيام تصرف تبعاً لذلك. وكان ذلك هو الانتصار الأول للفضيلة الثورية على الضعف البشري.

لم تذهب الجوانب العقابية في وفاة الأسقف دون ملاحظة في غرينوبل. فقد كانت كما قال الرأي الوطني المحلي، نهاية مناسبة لجبان وخائن - في الحقيقة، فيما كان النظام القديم في عملية قتل ذاته، كانت ثمة مصلحة متسارعة في ظاهرة الانتحار. وجد مالرب جسد زوجته في الغابة. وفي ربيع عام 1789، ابن أخته لاموانن، الذي سعى كثيراً وفشل في المحاولة، وُجد هو شخصياً مقتولاً بطلق ناري في بيته الريفي. والمرجح أن هذه كانت حادثة صيد، ومالرب العجوز في حزنه وقلقه كان ميالاً بالتأكيد إلى قبول الحكم الرسمي. ففي الدولة السياسية، في كل حال، حيث لم يكن لدى لاموانن أصدقاء، كان شائعاً أن يقال إنه قتل نفسه، وبعد كل شيء، كان ذلك هو الشيء اللائق الذي يجب أن يفعله.

لم تكن نهاية براين أكثر سعادة، فباستقالته رتَّب لتجنب العبء الكامل للعار الذي أسقط كلوني. لكنه لم يكن شخصية عامة. فخلال وزارته، رقي من أسقف تولوز إلى ذلك المنصب في سنز Sens جنوب شرق باريس. وقد عاد إلى هناك في محاولة لمعالجة المشكلة. وفي حين كان على كلوني أن يغدو معادياً للثورة في بريطانيا، بذل براين قصارى جهده أن يلتزم بالأرثوذكسية الوطنية. ففي عام 1791، كان واحداً من عدة أساقفة من النظام القديم الذين أدوا القسم المدني، الذي كان مطلوباً تبعاً للدستور الثوري المدني. وفي إيماءة إضافية للإيمان الوطني الجيد أعاد قبعته الكاردينالية إلى روما. ومع ذلك لحق به الإرهاب على نحو يتعذر تغييره، فاعتقل في منزله في شباط 1794. وبقي تحت الرقابة في المنزل، وقد وجد متسعاً من الخصوصية ليبتلع جرعة مميتة من الأفيون وضرب من العشب السام، (الداتورة) كان يستخدمه لتخفيف آلام مرضه الجلدي.

وبعد كل شيء شاهد النظام القديم يقترف جريمة الانتحار.

CHAPTER SEVEN

SUICIDES

THE REVOLUTION NEXT DOOR

For the Dutch Patriot Revolution of 1783 - 87, see Simon Schama, Patriors and Liberatons: Revolution in the Netherlands 1780 - 1813 (London and New York 1977, chapter 4). See also idem, "The Past and the Future in Patriot Rhetoric"; Jeremy Popkin, "Print Culture in the Netherlands on the Eve of Revolution"; and Nicolaas C. F van Sas, "The Patriot Revolution: New Perspectives", all in Margaret Jacob (ed), Enlightenment and Decline: The Dutch Republic in the Eighteenth Century (forthcoming).

ii THE LAST GOVERNMENT OF THE OLD REGIME

The most comprehensive and balanced account of the Brienne administration is Egret, Pre - Revolution. Guibert is probably best studied from his own Essai sur La Tactique (Pans 1774). See also Guibert, Ecrits Militaires 1772 - 1790 (ed. L.Menard, Paris 1977), and for a discussion of their implications, Geoffrey Best, War and Revolutionary Europe 1770 - 1870 (Landon 1982, 56 - 58). On Malesherbes and the emancipation of the Protestants, see Grosclaude, Malesherbes 559 - 602).

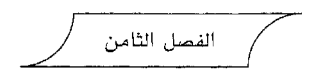
iii THE SWAN SONG OF THE PARLEMENTS

See Egret, Pre - Revolution, for the political conflict. For the pamphiet literature, see Boyd C. Shafer, "Bourgeois Nationalism in Pamphlets on the Eve of the French Revolution", in Journal of Modern History (1938, 31 - 50). The Pasquier and d'Eprémesnil citations are from Stone, Parlement of Pans(158 and 171). De La Galaizière's address and the remarks by Bertier de Sauvigny and Cordier de Launay are all published in Ardascheff, Intendants (vol. 3, 187ff.) For the Lamoignon speech, see Egret, Pre - Revolution(168). The anti - Brienne pamphlet is Dialogue entre M. L'Archevêque de San et M. le Garde des Sceaux (1788). For another violent attack on Lamoignon's reforms, see H. M. N. Duveyner, La Cour Plénière (1788), a pamphlet that was lacerated and burned by the public executioner. The story of the bleeding statue is from Oscar Browning (ed.), Despatches From Paris 1784 - 1790 (London 1909 - 10, vol. 2, 72).

iv THE DAY OF TILES

Stendhal's account is given in The Life Henry Brulard(trans. B.C.J.G. Knight,

London 1958, 76). See also Charles Dufayard, "La Journée des Tuiles", in Revue Historique (vol. 38, 305 - 45). For Grenoble in this period, see Vital Chomel (ed.) Histoire de Grenoble (Grenoble 1976); Paul Dreyfus, Grenoble de Césir à L'ympe (Grenoble 1967). Kathryn Norberg, Rich and Poor in Grenoble 1600 - 1814 (Berkeley 1985) is an important social history of the town. The politics are covered in Egret, Pre - Revolution, and Mounier's part in Egret, La Révolution des Notables: Mounier et les Monarchiens (Paris 1950). See also F Vermale, "Les Années de Jeunesse de Mourtier 1958 - 787" in Annales Historiques de La Révolution Française (January - February 1939). On the assembly at Vizille, see Charles Bellet, Les Evénements de 1788 en Dauphiné; Champollion - Figéac, Chroniques Dauphinesses.



الفصل الثامن

مظالم

من خريف عام 1788 إلى ربيع عام 1789

I ـ 1788 وليس 1688

تسقط الملكية عندما لا يقاس ثمن إنقاذها المالي بالأرباح أو المناصب بل بالامتيازات السياسية. ففي عام 1788، عانت الملكية من نزيف الثقة بالنفس من جانب مقرضيها ومشاركيها المحتملين. حيث أن ترددهم في تقديم أموال جديدة مقابل «التوقعات» المعتادة من العائدات حدَّد نقلة في الثقة من الجهاز الإداري إلى شكل تمثيلي للحكومة. فقد كانت إصلاحات إدارة براين الأخيرة والمسعى الأكثر قوة للقيام بتغييرات لإنقاذ السيادة دون تعديل فلسفتها الأساسية. وفشلها الواضح في التغلب على المقاومة إلا من خلال القوة العسكرية المستمرة كان قاتلاً. ومنذئذٍ فصاعداً، كان ثمة إيمان راسخ آخر يرتقي: أن الحرية الوطنية ستنتج المال حيث إصلاح الحكم الاستبدادي فشل في تحقيق ذلك.

لم يكن ثمة شيء ضروري أو حتى منطقي حول هذا الربط. فدول أخرى في أزمنة أخرى، بما فيها حكومات فرنسية أخرى مثل الإمبراطورية البونابرتية، سوف تستخلص الاستنتاج المعاكس بالضبط وتعود إلى العصرنة الإدارية ودائرة الموظفين في ثمانينيات القرن الثامن عشر. وممولو القوى العظمى في القرن التاسع عشر، لاسيما آل روتشيلد فضلوا عموماً نظام الحكم الاستبدادي على النظام الليبرالي كضامن لقروضهم. لكن كان ثمة مناسبة هامة أخرى عام 1788: مرور قرن على الثورة المجيدة (الثورة البريطانية)، منارة الكتابة التاريخية الليبرالية الفرنسية منذ فولتير ومونتسكيو. وفي ذلك الانتقال النظامي

للسلطة من ملكية مطلقة إلى ملكية دستورية رأى المعلقون الفرنسيون ليس اكتمال الفضيلة السياسية وحسب بل أصل النجاح المالي البريطاني أيضاً. وباعتباره موضع الثقة العامة (وبالتالي المال العام)، كان المحكمة البريطاني، هكذا جرى البرهان، حصناً أقوى من وكلاء التاج الوزاريين، وسواء كانت هذه الفكرة صحيحة أو لا ليس هاماً. فما كان يُحسَب حسابه هو الاعتقاد بأن الحرية والقدرة على إيفاء الديون شريكان طبيعيان. نظرة إلى النجاح المالي في أمريكا المحررة قد تكون أعطت هؤلاء المتفائلين سبباً ما للارتياب، غير أن لا أحد، ولاسيما لافايت، كان مهتماً بمثل هذه المسائل عام 1788). ففي اليوم الذي عُيِّن فيه نِكر مكان براين، ارتفعت الاعتمادات الحكومية ثلاثين نقطة. وقد أصر نِكر، منذ البداية، على أن المحاسبة العامة هي مفتاح النمو المالي. وهكذا كانت الفرصة الموضوعية لمجلس الطبقات، التي أولاها الوزير المسؤولية، كافية ليقدم المشاركون القروض المطلوبة من أجل الحفاظ على حكومة فرنسا تعمل وجنودها يقبضون رواتبهم.

لم يكن انتقال التفويض المالي، في أول الأمر، إجراء نابعاً من قناعة سياسية خالصة. فقد حسب المستثمرون في القروض الحكومية ـ سواء كانوا في باريس أو جنيف أو لندن أو أمستردام ـ أن نظاماً جديداً سيكون أكثر احتراماً لالتزاماته من النظام القديم على الأرجح. وكان هذا صحيحاً تماماً حالما صار واضحاً أن الملكية لن يُسمَح لها أن تقدم الإصلاحات الضرورية لإعطائها حرية تصرف جديدة. غير أن هؤلاء الذين صنعوا قراراً مثل هذا في الصالونات في ضاحية سان جرمان كانوا، مثل حيوانات اجتماعية، أعضاء الطبقة الاجتماعية نفسها مثل أعضاء المحكمة. تقليدياً، حتى في الأوضاع الصعبة للغاية مثل أزمة مابيو في سبعينيات القرن الثامن عشر، عرَّفوا مصالحهم ليس في التضامن الآلي مع نبلاء القضاء بل في خدمة التاج. ومن تلك الخدمة كان يمكنهم أن يتوقعوا أن جمعية جباة الضريبة غير المباشرة أو مقاولي الديون الأخرى، ربحاً ضخماً وعلاوات وموقعاً نبيلاً. وما حدث خلال عهد لويس السادس عشر، أولاً في ظل تورغت ونِكر ثم براين، هو أن الأسس الجوهرية لذلك الولاء المستمر قد تضررت جدياً بسبب الإصلاحات. وفي كلمات أخرى، احتاجت محاولات الملكية لضمان دخول مباشر إلى العائدات وتعزيز النمو الاقتصادي في فرنسا في تلك الفترة على نحو أكثر فعالية إلى النجاح تماماً إذا كان لها أن تنجح على الإطلاق. كان النجاح الجزئي مثل الفشل الذريع تماماً، لأنه عنى العودة إلى الممولين الذين غدت مصلحتهم في استمرار الملكية موضع نقاش آنئذٍ.

من وجهة النظر هذه، فإن الحكومة التي شكلها مجلس الطبقات ستكون أكثر اعتماداً على الدائن. وسيزيل إجماع أوسع العقبات لمصادر جديدة من العائدات وتلك التي بدورها ستكون ضماناً أكثر قوة لمزيد من القروض. وهكذا ستكون فوائد النزعة الليبرالية سد نقصها الذاتي. غير أن هذه النتيجة السعيدة افترضت أن نسخة فرنسية لعام 1688 (علّق عليها مونتسكيو) التي فيها سيادة فعالة ستمر بسلاسة من بلاط الحكم الاستبدادي إلى جمعية يهيمن عليها الكبار: نبلاء المال والقضاء. وستغدو مترافقة مع ذلك التغيير الخطير نوعاً ما من وثيقة فرنسية للحقوق، تجرد الحكم المطلق من سلطاته القضائية التعسفية ـ المذكرة المختومة Lettres de Cachet وما شابهها ـ وتضمن أمن الفرد والملكية وحرية النشر والاجتماع سلمياً أيضاً. وسيحاسَب الوزراء الذين اختلسوا أموالاً عامة لأغراضهم الخاصة (لا يزال هاجس كَلوني يتكرر بقوة) أمام ممثلي الأمة. ما سيحدث بالضبط، سيظل التاج يملك حقاً لا يُنازع بتعيين الوزراء باقتراح وربما نقص التشريع. غير أن شرعية حكومته ستخضع منذئذٍ فصاعداً للمراقبة العامة.

هذه، إذن، كانت فكرة الإصلاح الدستوري الذي ستمتلك فيه الشخصيات الكبيرة في فرنسا الدور الكبير. كان ذلك في رأس دبرمنسيل وشخصيات اخرى ذات شهرة في القانون في المحاكم بلا شك عندما نظموا إعاقة منهجية لإصلاحات براين، وما حصلوا عليه بدلاً من ذلك كان ثورة. لم يصبح مهندسو سقوط الملكية خلفاءها بل أول وأكثر المتأذين إثارة.

كيف حدث هذا؟ التفسير الطويل المقدس هو التالي، في اللحظة الأخيرة، غدت التوقعات الأرستقراطية بالخلافة مقيدة بظهور مفاجئ لطبقة سياسية جديدة ـ البورجوازية. وقد أمسكت هذه الطبقة الثالثة المحبطة في مساعيها باتجاه الحركية الاجتماعية وامتلاك المناصب بالقيادة السياسية لتدمير ليس الملكية وحسب بل النظام «الإقطاعي» القديم برمته وتنصيب نفسها سيدة في القرن التاسع عشر.

لا تحتاج الطبيعة التخيلية لهذا التفسير التكرار هنا. فخلق بديل سياسي للمحافظين الأرستقراطيين لم يحدث خارج النخبة بل داخلها، وكان بلا شك اختراع الشخصيات التي نالت مكانة النبالة حديثاً نسبياً مثل مونييه. والرجل الأول الذي عَرَّف الأمة السياسية الحقيقية بالطبقة الثالثة هو الأرستقراطي البارز الكونت دانتريغو. وقد أكد مثل هؤلاء السياسيين أن مجلس الطبقات ببساطة لا يمكن أن يُلوِّح به في وجه الملكية دون معالجة طبيعة تمثيله. إن الأمر كما لو أن رعاة الملك وليم الثالث قد حددوا زمرة قوية بارزة ملتزمة بقضية الإصلاح البرلماني.

وقد كانت نتيجة هذا السجال المبكر حول التمثيل بشأن وحدة «النخبة الوريثة» المفترضة حاسمة، ما عنى أنه بدلاً من طبقة سياسية جديدة تستجمع قواها حول قادتها الطبيعيين (كما حدث فعلاً في إنكلترا عام 1688 أو، إلى حد كبير، في أمريكا عام 1776)، حدثت انشقاقات واسعة لم يكن هؤلاء الذين على الجانب الراديكالي في ذلك الانقسام مستعدين لاستخدام القوة الشعبية ولغة الاستقطاب الوطنية والخيانة لفرض أيديولوجيتهم وحسب بل ومتحمسين لذلك أيضاً.

وماذا كانت تلك الأيديولوجية؟ يمكن قياس راديكاليتها في المقام الأول بما لم تكن. لقد أنكرت تاريخ الماضي ووازعه. وهذا بذاته رحيل مذهل من اللغة المبجلة للمعارضة إلى الحكم الاستبدادي منذ عهد لويس الخامس عشر. لقد أكدت على أن الدستور يجب أن يبنى من جديد، ولا يُنقَذ ببساطة من الضمور. ومعايير هذا البناء الجديد يجب أن تكون عقلانية ووطنية. وكانت هذه معايير فضفاضة على نحو خطير، وقبل مضي وقت طويل ستجعل الخلافات بين الثوريين تلك الأولويات غير متكاملة بل متعارضة. «فالعقلانيون» ـ أنصار الحداثة، والملكية الشعبية والاقتصاد الليبرالي والنظام القانوني ـ مثل بارناف، تاليران الماركيز دي كوندوسيه والفلكي سيلفان بيلي Sylvain Baily كانوا جميعاً نتاج عصر التنوير الأخير. والمؤمنون بالحرية والتقدم والعلم والملكية الرأسمالية والإدارة العادلة هم ورثاء روح عهد لويس السادس عشر الإصلاحية ـ والمتنبئون الأصلاء «بالوجاهة الجديدة» التي ستبرز بعد أن تتخذ الثورة مجراها الطبيعي. كانت لغتهم عقلانية ومزاجهم معتدل. وما كان في أذهانهم هو أمة مناط بقوتها أن تزيل العقبات أمام الحداثة من خلال ممثليها. ومثل هذه الدولة (في كل احتمالاتها، ملكية) لن تشن الحرب على فرنسا ثمانينيات القرن الثامن عشر بل تحقق وعدها.

ومع ذلك، لم تمتلك العقلانية احتكار الكلام عام 1788 و1789. فنوع الفصاحة المطلوبة لتحريك الغضب الشعبي إلى الدرجة التي يمكن أن يستخدم فيها كرافعة قوة لم تكن المعتدلة بل الحارة. ووقادو الحرارة الثورية لم يكونوا مُعَدِّين لتسليمها إلى التهدئة لصالح التغيير الدستوري المعتدل. كانوا لا يسترشدون لا بالعقلانية ولا بالحداثة بل بالعاطفة والفضيلة. كان التنوير لهم، مثل معظم فرنسا الحديثة، في الحال الأفضل نعمة غير خالصة. كتبَ المحامي تارجت:

«لقد أحرزنا التنوير، لكن المطلوب هو أن نسعى إلى الوطنية والنزاهة والفضيلة وندافع عن مصالح شعب عظيم. ينبغي على المرء أن ينسى نفسه ويراها مجرد جزء

من كل هو عضو فيه، ويحرر نفسه من وجوده الفردي، ويشجب كل كبرياء بالانتماء إلى شيء ما esprit de corps، وينتمي إلى المجتمع العظيم وحسب مثل طفل في أرض الآباء (un enfant de la patrie).

كان المجتمع الذي يمكن أن يقاس ويُشكَّل ويدار ويُعرَّف ويُميَّز أقل أهمية من ذلك الذي يمكن تبسيطه وإضفاء السمات الأخلاقية عليه وجعله ويُصنَع أكثر براءة. وحجر العقد في حكومته يجب ألا تكون العقلانية بل العدالة وفي ما يتعلق بالثقافة الأساسية اقترحوا أن أن تكون بديلاً للإقامة في الطبيعة. فهذا الوطن سيكون جماعة من المواطنين محبين لأطفالهم وبلا شفقة على أعدائهم. مجتمع من أصدقاء سيكون، مثل روسو، منشئ أخلاقه، ووحشاً ضد الأعداء ـ وهؤلاء الذين يرتدون ثياب الصداقة والتفاهم هم بعض الأسوأ فيه. وأحد الأشياء الأكثر نبلاً في المواطن هو أن يكشف هؤلاء غير المخلصين الخطرين. من البداية، إذن، كانت الخطابة الثورية مكيفة لنبرة متوترة من التيه والغضب. كانت لهجتها غريزية أكثر منها عقلانية ومثالية أكثر منها واقعية، وأكثر قوة عندما تقسم الفرنسيين إلى مواطنين وخونة، وأكثر إثارة عندما تكون أكثر عقابية.

وتوقع الرضا ـ في معنى الخلاص في القرن الثامن عشر ـ كان ما يشد الفرنسي العادي إلى السياسة لأول مرة. وكانت تلك مساهمته التي ستقلب الأزمة السياسية إلى ثورة دموية كاملة. كانت حماية الفقراء ومعاقبة الخونة، بعد كل شيء، المهمات كان من المفترض أن تقوم بها الملكية. ولكن مثل الخادمة في الوقت الحاضر، بدت حكومتها أن عليها أن تتخلى عن ذلك الدور الحمائي. فعلى سبيل المثال، بدلاً من ضمان مؤن الحبوب بسعر محدد، ألزمت نفسها ـ مؤخراً عام 1787 ـ بالمبادئ الحديثة لحرية التجارة. وبدت النتيجة لكثيرين أسعاراً عالية كارثية وفرصاً لخزن المؤن بقصد المضاربة التي ذهبت دون عقاب. وفعلت أشياء أخرى عديمة ضمير باسم نوع ما من مبدأ مُبهَم، ومنحت الراحة للأعداء أنفسهم الذين كان يفترض بها أن تلاحقهم. لقد أُعطيَت الحرية للبروتستانت الذين أمكنهم آنئذٍ أن يصبحوا أسياداً على الكاثوليكيين الشرفاء الفقراء في الجنوب والجنوب الشرقي. وسُمِح للمنسوجات البريطانية بالدخول إلى فرنسا. ويجب أن يكون كل هذا نتاج نوع ما من مؤامرة ضد الشعب.

وبمهارة خطابية كبيرة، كانت هذه المظالم تُغذّى بنار متقدة من الغضب أثاره السياسيون الراديكاليون عام 1789. ومن جهة أخرى، أعلنوا لغة الاتهام، التي كانت أيضاً أداة لتصنيف الأعداء والأصدقاء، الخونة والوطنيين، الأرستقراطيين والأمة. وعلى

نحو يدعو للدهشة، لم يكن مهماً كثيراً أن هؤلاء السياسيين أنفسهم أقروا كثيراً من تلك الإصلاحات التي أهانت وتحدَّت الناس العاديين كثيراً ـ الحرية للتجارة الداخلية والتحرير الديني، على سبيل المثال. وكانت هذه التناقضات (في ذلك الوقت) تُحجَب بإيمان راسخ بأن جمعية ما للأمة ستغدو المحكمة التي تسوّى فيها المظالم ويُحكَم فيها على هؤلاء المسؤولين عنها. وبالتالي، غدا هؤلاء الذين أعلنوا أنهم ضد جمعية مثل هذه غير وطنيين بالتعريف وعُرِّف هؤلاء الذين دافعوا عنها أنهم أصدقاء الشعب. وقد عزز واقع أن الملك نفسه طلب من شعبه أن يسلم مظالمه في الوقت نفسه الذي ينتخب فيه الممثلين إلى مجلس الطبقات هذه القناعات البدائية. لأنها بدت دعوة لمساعدته على تمييز الوطنيين المزيفين من الحقيقيين.

لقد فُقِدت الفرصة للإصلاح الدستوري عندما أصبح حفظ الفروق الاجتماعية ـ مراتب النظام القديم ـ يوصَم بأنه غير وطني. (عملياً كان العكس هو الصحيح في بريطانيا.) وكان الأسوأ هو، أن هذه الفروق غدت تحدد بأسباب المعاناة الشعبية. فعندما أصبح الأرستقراطي مرادفاً للعدو الوطني، عنى ذلك أن كل من يرغب بحماية فروق المكانة في الهيئات السياسية في النظام الجديد يحدد نفسه أنه غير جدير بالمواطنة. وأصبح مثل هؤلاء الناس، في الحقيقة، خارج الأمة، غرباء حتى قبل أن يهاجروا.

وقد انقلبت إمكانية إعادة تنظيم الولاء بهذه الطريقة على أربع قضايا دفعت فرنسا بعيداً عن التطور باتجاه الثورة في ذلك الوقت الحاسم.

أولاً، كان يجب أن يكون هناك مجموعة انشقاقية على نحو مؤذٍ داخل الأرستقراطية والنخبة الكنسية صممت على أن تتخلى عن مكانتها لصالح الدور المفضل للقادة المواطنين. من يمكنه أن يميز بشكل أفضل بين الغيري والأناني، بين الوطني ومن يمكن أن يكون متآمراً؟ وبالسبب نفسه يجب أن تكون المجموعة نفسها قد أُعِدَّت لإثارة وتحريك وإدارة العنف الشعبي في مقاضاة غير المواطنين ومعاقبتهم.

ثانياً، كان هؤلاء الذين دافعوا عن دولة تقوم على الطبقات المنفصلة دون قوة مكافئة لحماية موقعهم. فقد جُلِبت الحشود إلى الشوارع لإزاحة الحكم الملكي الاستبدادي. لكن ما إن صار جلياً أن تلك الحشود لن تخنع للطاعة السلبية، لاسيما عندما كان الخطباء والمنشورات تحضها على المزيد من العمل في النصف الثاني من عام 1788 كله وربيع عام 1789 حاولت المحاكم أن تتصرف مرة أخرى كما لو أنها القائمة على النظام العام وأن تعتمد على القوات الملكية لرجال شرطتها ـ حال محرجة إذا أخذنا

ماضيها القريب بالحسبان.

ثالثاً، جعلت الحكومة موقفها أكثر تأزماً بترك مسألة تشكيل مجلس الطبقات الحيوية مفتوحة. براين طبعاً، قصد ذلك على نحو كامل في تموز عندما أصدر مذكرة عامة «للنصيحة» بشأن شكل المجلس الذي يجب أن يُؤخذ. وإذ قصد أن يستثمر الانقسامات التي كشفها بشكل صحيح بين القضاة، جعل ممكناً لهؤلاء الذين يدافعون عن تمثيل «وطني» حقيقي أن يزعموا أنهم يعكسون رغبة الملك الحقيقية أكثر من المحافظين.

وفي النهاية، عبَّر الملك عن رغبته بأن يسجل شعبه مظالمه في الوقت نفسه الذي ينتخب فيه ممثليه بربط المحنة الاجتماعية بالتغيير السياسي. لم يحدث ذلك في بريطانيا عام 1688، ولم تلك مسألة في أمريكا عام 1776، وستثبت الفارق الحاسم. وفي هذا المعنى على الأقل، في حين لم تسبب البنية الاجتماعية ثورة فرنسية فعلت القضايا الاجتماعية ذلك.

وإذ انعكس ذلك على طبيعة الخطابة الوطنية منذ روسو، يمكن للمرء أن يرى أن هذا كان محتماً أن يحدث. ولأن أدواته العاطفية كانت قد كُيِّفت على نحو صحيح مع حلّ المصائب الاجتماعية من كل الأنواع: الفلاحون الذين وقعوا في شرك المقرضين المرابين، والجنود الذين لا يدفع لهم ضباطهم الصارمون الذين اشتروا مناصبهم أجوراً كافية، والنساجون الذين أخرجوا من العمل بفعل قوى السوق التي لم يفهموها، وبائعات الورد في المحلات الصغيرة اللواتي لم يستطعن منافسة الباعة المتجولين، ورعاة الأبرشيات المفقرين الذين وُجهوا بضخامة غنى أسقف أرستقراطي واحد. وعندما أُخبِر هؤلاء الناس جميعاً، وغيرهم، أن جمعية وطنية حقيقية، بسبب نوعية أخلاقها العالية - ووطنيتها العامة - ستعوض لهم وترضيهم، منحوها تأييدهم المباشر لتغيير مؤسساتي كاسح. وهذا بالضبط ما حدث في أواخر عام 1788 وأوائل عام 1789. فقد كان جلب الوطنية السياسية مع الاضطراب الاجتماعي - الغضب والجوع - (لنستعير المجاز الكهربائي المفضل لدى الثوريين) مثل الجمع بين سلكين مشحونين بالتيار. انطلق ضوء من التوهج الحراري المتألق والحرارة عند تماسهما. وفي تلك اللحظة كان صعباً أن يُدْرَك ماذا ومن سيُستهلّك في الإضاءة.

II ـ الانقسام العظيم

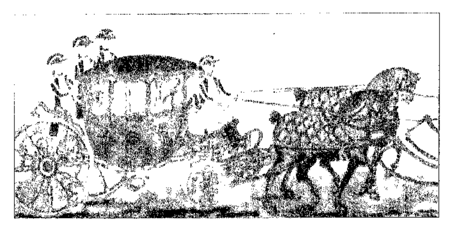
من آب/أغسطس إلى كانون الأول/يناير عام 1788

كان ثمة صيف هندي آخر باقٍ لقصر فرساي. ففي 10 آب عام 1788، عُقِد اللقاء الرسمي الكبير الأخير لسفراء سلطان ميسور Mysore في جنوب الهند، تيبو صاحب. كان الإيمان بقوة إمبراطورية الملكية الفرنسية جلياً في قارة بعيدة في قصره في سيرينغباتام. فالعلم الفرنسي لا يزال يخفق من القواعد البحرية في المحيط الهندي وعبقرية الميكانيك الفرنسي أنتجت ساعة بشكل نمر للسلطان، الذي عندما يُجرّح سيتابع ليفترس رامي قنابل بريطاني في فمه. ألن تساعد فرنسا نمر كارناتيك على تخليص الهند من لعنة الإمبريالية البريطانية؟

لم يكن ذلك أولوية ذات أهمية عليا لـِ براين. قدّم الملك للسفراء تطمينات لطيفة حتى من نوعية أقل أهمية مما قُدِّم للهولنديين، وخصص لهم عربة تجرها ستة جياد بيضاء. وفي دار الأوبرا حيث أُعطوا المقاعد الأفضل، أُعجِبت السيدة دو لاتور دو بان Mme de Latour du Pin بأخفافهم الصفراء المثبتة، بطريقة شرقية، على حافة مقصورتهم. ولما كانوا تقريباً عند خشبة المسرح كان صعباً أحياناً القول أين انتهت الفانتازيا وأين بدأ الواقع.

لم تحزِن مشكلة مثل هذه مالرب. ففي إحدى الأمسيات في ذلك الصيف وُجد، مع لافايت، يشرب في بار إحدى الضواحي بقرب جدران مركز الجمارك التي تطوق باريس الآن. فقد أسعدت هذه البارات حيث وضعت المقاعد والطاولات في الهواء الطلق مالرب. كانت البارات في لاكورتييه ولي بورشيرُن تكتظ كثيراً في الأشهر الحارة. لكن ذلك ترك مع ذلك عدداً كبيراً من القائمة التي اقترحها دليل تيري Thiéry's Guide ـ لا نوفيه فرانس، ولابتيت بولون، ولا غروس كايلو، ولوغواند إي لو بتيت جنتيلي ـ كلها تستجيب لذوقه وغير بعيدة عن منزل ابنته، حيث أحب في تلك الأيام أن يتناول الغداء.

في تلك الأمسية جلب لافايت للمساعدة في استضافة زائرين أجنبيين، رجل شاب إنكليزي هو ساموبل روميلي، والآخر من جنيف هو إيتيان دومونت. وقد وصلا قادمين من دوفر، إلى فرساي في وقت مناسب لرؤية سفراء تيبو ذوي العمامات يمرون عبر القاعة الكبيرة في القصر. كان روميلي محامياً شاباً ناضجاً، نتاج شبكة الأفكار «المتقدمة» التي انتشرت من الجامعات السكوتلندية من خلال الأكاديميين المنشقين وجمعية ليونار في برمنغهام. كان رأسه ممتلئاً بالمشاريع، وفي حينه ضمه الجناح الليبرالي في حزب الأحرار البريطاني الذي اجتمع في منزل اللورد شلبورن في بوود Bowood. وهكذا أصبح أصدقاء شلبورن الكثر في فرنسا، بمن فيهم الأب موريل ومالرب نفسه، أصدقاء روميلي



الصورة 80، عربة السفراء الهنود

وتحدثوا عن الأفكار الأمريكية في الوطنية والحرية، المرتبطة معاً في وحدة رفاقية عبر القنال.

كان روميلي مأخوذاً «بالدفء والبساطة» التي اكتشفها في مالرب. وقد جعله فرحه الواضح في مباهج حياة العائلة أكثر جاذبية يمرح مع أحفاده، كان يقذف بشعره المستعار إلى جانب بعيد في غرفة الجلوس ويضطجع على سجادة وهكذا تستطيع الأيدي والأقدام الصغيرة أن تتسلق بمرح إلى بطنه. وكان عدم الرسمية في التعامل مع الراشدين والصغار على حد سواء الشيء الوافد إلى الأوساط التقدمية في حزب الأحرار وسيظهر ذلك في صور العائلة لفنان وسطهم الاجتماعي الأكثر تألقاً، توماس لورنس. غير أن ذلك غالباً ما تضافر مع تطابق واعٍ للذات مع الزي الدارج الذي تنافر مع المزاج البروتستانتي الرزين الروميلي. وكان دومونت مقطوعاً من نسيج مماثل، راعي كنيسة منفي من الثورة الديمقراطية في جنيف التي سحقها فرجين عام 1782. وكبطل لتحرير البروتستانت عام 1787، كان مالرب موضع إعجاب مسبق، وعندما اصطحبهما في جولته المعتادة للإصلاحيين إلى سجني بيستر Bicêtre وسالبترير Salpêtrière دُهِشا أكثر بجدية هدفه. وكانت ثمة روابط أخرى تشد الشاب والكبير في جمعية إنسانية. كان روميلي وهو صديق القائد الإنجيلي في الحملة ضد تجارة العبيد، وليم وايبرفورس، الذي يعمل في الحركة ضد العبودية التي سيكرس لها جزءاً كبيراً من حياته، وينشط أصدقاؤه في باريس بالمثل في جمعية أصدقاء السود Société des Amis des Noirs أيضاً.

وقد استطاع مالرب أن يظهر لمعجبيه الشابين بشكل معقول أنه «رجل الشعب»، في ما يتعلق بكل منزلته الأرستقراطية وخدمته في الحكومة. وبأسلوبه الصريح ومعطفه البالي وكمي بنطلونه المثنيين القذرين عامل لافايت وحتى ميرابو بعجرفة في هذا الزي التنكري. وفي البار خطط لمزحة صغير تدور على التعارض بين المظهر الغريب والشهرة

الديمقراطية. «هل تسنى لك أن سمعت شيئاً عن المركيز دي لافايت؟» سأل صاحب البار. وقد توقع أن يكون الجواب «طبعاً، سيدي، مثل العالم جميعاً ـ عند النقطة التي يستطيع فيها أن يكشف هوية صاحبه في الشراب ذي الشعر الأحمر. لكن للمزيد من مرحه (إلا ما يخص لافايت) جاء الرد، «لا، سيدي، لا أستطيع أن أقول أعرفه، بالله عليك، من يكون؟»

ستكون العلاقة بين القادة والمقودين، وبين المدافعين عن حقوق الشعب والشعب الذي ينادونه هكذا بحرية، واحدة من المسائل الكبرى في الثورة. لكن في صيف وخريف عام 1788 بدا الأمر غير إشكالي، على الأقل، في الوسط الذي تحرك فيه روميلي ودومونت. ومع أن معنويات مالرب كانت محبطة برؤية التاريخ يعيد نفسه والإصلاحات ذات النية الطيبة قد أفشلتها سياسات الحكم الاستبدادي، فإن فرصة مجلس الطبقات ملأته بحماسة وتفاؤل متجدد وعلاوة على ذلك، كان واحداً من المتكلمين الأوائل من أجل «جمعية وطنية» حقيقية لا تثير مخاوف بشأن مغادرة القديم بشكل راديكالي، شكل عام 1614 الموصوف. وفي تلك النسخة المعدلة لاجتماع الجمعية، تداولت الطبقات وصوتت في مجموعات منفصلة. فإجراءات زوجة ولي العهد قد نقضت تلك السابقة، ومونييه وزملاؤه قد عزموا على أنه عندما تجتمع جمعياتهم الإقليمية يجب أن تكون مجموعة واحدة، وتصوّت كممثلين أفراد. وفي تموز قبل اتخاذ قرار دعوة مجلس الطبقات، كتب مالرب إلى الملك بلغة فظة على نحو ينصح بالمثل بتغيير شجاع ـ التغيير الذي، كما اعتقد، يضع الأساس لملكية شعبية حقاً.

ما هو مجلس الطبقات الذي تنصح به؟... إنه بقية البربرية القديمة، ساحة معركة حيث ثلاثة أقسام من الشعب نفسه يأتي لقتال كل منهم الآخر، إنه تعارض كل المصالح مع المصلحة العامة... وسيلة تهديم، وليست وسيلة تجديد. انظر هذه البنية القديمة كما يجب أن تكون، أثراً لا نرتبط بها إلا بالذاكرة. استولِ على الخيال الشعبي بمؤسسة تفاجئه وابعث فيه الفرح... لتكن ملكاً في نهاية القرن الثامن عشر لا تدعو إلى اجتماع طبقات القرن الرابع عشر الثلاث، دعه بدلاً من ذلك يدعو أصحاب الملك في أمة عظيمة تتجدد بمدنيتها. ملك يخضع لدستور يشعر أنه أنزل مرتبته، ملك يقترح دستوراً يحرز مقابل ذلك المجد الأعلى بين الناس واعترافهم بالجميل الأكثر حياة وبقاء.

كان هذا الحماس الدرامي في سابقة تاريخية ميزت مرحلة الانعطاف الكبيرة الأولى

في الثورة. ففي 25 أيلول، بعد يومين من إعادة إقرار الدعوة العامة، أعلن محكمة باريس أن مجلس الطبقات يجب أن ينعقد وفقاً لأشكال عام 1614 بالضبط. وخسر دبرمنسيل بين ليلة وضحاها كل الشعبية الهائلة التي أحرزها خلال المواجهة مع لاموانون Lamoignon. وصار موضع احتقار وسخرية بعد أن كان بطل الحشود. وقد صادرت الأحداث في دوفين التي روّجت في باريس كثيراً هذه المحاولة لتؤكد على مجلس الطبقات التقليدي.

وعلاوة على ذلك، كان جهاز القمع القانوني قد فُكِّك إلى حد كبير في الصيف بتوصية محددة من خطباء المحكمة. والرقابة على المطبوعات، سلاح المحكمة التقليدي، أُبطلت، لتسمح لسيل من الوثائق السياسية أن تأتي مثل طوفان إلى الشوارع. وبحلول أيلول، كانت تظهر الكراسات بمعدل شيء ما مثل عشرة كل يوم. وثانياً، أقلية واضحة داخل المحكمة قادها أدريان دوبورت وهيوز سيمونفيل وغاي جان تارغت كانوا أنفسهم يلحون على نوع جديد من مجلس الطبقات، الذي يكون فيه عدد ممثلي الطبقة الثالثة مساوياً لعدد ممثلي الطبقتين الأخريين، والتي يجري التصويت فيها «بالرأس» أو فردياً، وبالتالي أية محاولة لعرقلة القرارات الشعبية سوف تهزم عددياً. وما تم اقتراحه هو، في الحقيقة، شكلاً جديداً من التمثيل ـ ليس بواسطة هيئات مشتركة بل بالمواطنة. كل مجموعة تريد أن تعزل نفسها عن الجسم العام للمواطنين وتطالب بتمثيل خاص أو غير متناسب تعزل نفسها فوراً بطريقة ما «خارج الأمة».

وعلى نحو متناقض ظاهرياً، في ذلك الحين، كانت «الطبقة الثالثة» اختراعاً للنبلاء المواطنين. وفي تشرين الثاني، اجتمعت مجموعة دعت نفسها أولاً جمعية الثلاثين ومن ثم النادي الدستوري في منزل دوبورت مرتين في الأسبوع، لأربعة ساعات أو أكثر، لمنافشة طبيعة التمثيل القادم. لم تكن مجموعة راديكالية حصراً. كان دبرمنسيل بين المجموعة، كما كان هناك زميل «دستوري» آخر من المحكمة، هو ساباتيير دي كابر، لقد بذلا قصارى جهدهما للبرهان لصالح الحفاظ على فصل طبقة النبلاء كحصن منيع ضد قوة إفساد أصحاب الأموال الذين زعموا أنهم سيسيطرون على تمثيل عام. والأغلبية في نادي دوبورت، مع ذلك، كانت صلبة في أن الطبقة الثالثة يجب أن تمتلك تمثيلاً مساوياً على الأقل للطبقتين الأخريين مجتمعتين وأن الجمعية يجب أن تكون عندئذٍ مدروسة. وتصوت بشكل مشترك.

كان عدد كبير من الجمعية رجالاً بنوا شهرتهم كـ «رجال ذوي اهتمامات عامة» ومشاهير وطنيين. كانت صورتهم الذاتية تفترض مسبقاً علاقة حماسية بين قادة ومواطنين.

البرلماني تارجت، على سبيل المثال، الذي قطع على نحو أكثر حسماً مع زملائه المحافظين، كان قد غدا إله الـ Basoche يهتفون له في الغاليرات. خطبته التجريبية الأولى كانت ملحمة عاطفية خليقة بأن تكون إحدى أكثر ابتكارات روسو المثيرة للغثيان. تضمنت حق القرويين في سالينسي بإقليم بيكاردي أن يختاروا سنوياً زهورهم. كانت هذه الشعائر قد تبناها النبلاء ذوي التفكير الصحيح مثل أنشودة رعوية وعشيقة أورليان السيدة دي جنلي ذهبت إلى سالينسي لتعزف على القيثارة في تتويج الزهرة. وعندما زعم أحد الأسياد المحليين أن حق اختيار الزهرة يعود له وليس لكبار القرية، وأنه رفع القضية إلى محكمة باريس، مثَّله تارجت في المحكمة باعتبارها محكمة تقليدية للقوة بين البراءة والقوة. وفي عام 1788 أشاع كثيراً من الموضوعات نفسها وبسطها على مقياس السياسة الوطنية.

ولافايت، وأنسباؤه آل نوييه، والدوق دي لا روشيفوكولد ـ ليانكورت، ودوق دي لوين ودوق دي لوزون كانوا بطريقة ما مواطنين خطابتهم أكثر تأثيراً لأنهم تلقوا الترحيب من قمة طبقة النبلاء. وفي ما يتعلق بكثير منهم، علاوة على ذلك، كانت تلك المرحلة الثانية من حملة شديدة مستمرة بدأت في أمريكا. كانوا رجال حاشية ضد البلاط وأرستقراطيين ضد الامتيازات وضباطاً أرادوا أن يحلوا النزعة الوطنية محل السلالة. ومع أنه كان ملتزماً بالجمعية الوطنية، لم يكن لافايت دون بعض المخاوف من عواقب السياسة الشعبية. وفي محاولة لتقريبه إلى خطهم، جعله المحكمة «بطل العالمين» مستشاراً فخرياً. وقد أقلق هذا زميله عضو لجنة الثلاثين، كوندرسيه، الذي عرف نقطة ضعف لافايت للتملق. وقد كتب إلى فيليب مازي الأمريكي:

إذا ذهبت إلى منزل لافايت حاول أن تطرد شيطان الأرستقراطية الذي سيكون هناك لإغرائه في قناع مستشار المحكمة أو نبيل بريتون. ولتلك الفرصة خذ في جيبك زجاجة صغيرة من مياه بوتوماك ومنضحة مصنوعة من خشب بندقية الجيش القاري وقدم صلواتك باسم الحرية والمساواة والعقل، التي ليست إلا لاهوتاً واحداً في ثلاثة أشخاص.

وضمت مجموعة دوبورت آخرين بينهم تاليران، الذي أخذ يراقب لافايت بعين ماكرة، وكان ميرابو الذي يغلي راديكالية سجالية، في هذا الوقت يسوي فضائح من كل نوع، جنسية ومالية ودبلوماسية تنهار على مسمعه، ومصرفيون من جنيف مثل كلافييه وبانشاد، كلاهما حليفان سابقان لـِ كَلوني والآن يعودون إلى مبادئهم الديمقراطية لعام 1782، والأبوان موريلت وسييه Sieyès والكاهن القادم من الأقاليم رابو سانت ايتيان،

وليس آخرهم لويس سباستيان مرسييه نبي الكشف والرؤيا النبوئية. و«مؤامرة الرجال ذوي النية الطيبة»، كما سموا أنفسهم، ضمت عدداً من هؤلاء الذين قدموا الأفكار لبرنامج إصلاح كَلوني، وبينهم دو بون دي نيمور والأب لويس.

وفي حين لم يتفقوا على تفاصيل كثيرة، شاركت أغلبية النادي كلها في بعض المبادئ الأساسية التي وسمت انشقاقاً جدياً في المناقشات البرلمانية. فقد رفضوا بديهية أن هناك نوعاً ما من «دستور أساسي» التي كانت المحاكم مهتمة بالحفاظ عليه جملة وتفصيلاً. وأضاف رابو سانت إيتيان أن «القانون الأساسي» هو خير الناس الأعلى ـ salus populi Lex est. وأضاف تارجت أن الواقع الموضوعي الذي أملى أن يذهب علماء الآثار للتنقيب في تاريخ شارلمان والكارولينجيين هو برهان كافٍ على أن فرنسا لا تملك دستوراً والآن ثمة ضرورة إلى خلق دستور من البداية دون العودة إلى أي شيء.

وفي ما وراء باريس، كان هناك عاصفة إقليمية تتمركز حيث دخل الأبطال المدينيون للطبقة الثالثة، بعد مثال مونييه في دوفين، في صراع مع النبلاء الأكثر محافظة Conservative على بنية طبقاتهم الإقليمية ـ وفي نطاق أوسع على التمثيل الوطني. وقد وقع الصراع الأكثر شراسة في مثل تلك المعارك في إقليم بريتاني، حيث استخدم آنئذٍ جيل جديد من المحامين في مدن مثل نانت ورين (درسوا تكتيكات الشارع في المعارك من أجل المحاكم) الخطابة وضغط الحشود للدفع من أجل إعادة تعريف جذري للتمثيل. وقد وجد آرثر يونغ، الكاتب في الشأن الزراعي الذي زار نانت في أيلول، «أن نانت مشتعلة مثل أية مدينة في فرنسا تكافح من أجل الحرية»، وأصغى إلى النقاشات التي «تثبت حجم التغيير الكبير الذي يحدث وسط الفرنسيين». والسجالات التي تصدر عن قراءة النوادي واللجان السياسية التي تكاثرت في بلدان إقليم بريتون عام 1788 مثل الفطور خلقت فكرة السخرية من حرمة قانون العهود القديمة، ولاسيما ذلك العزيز على نبلاء الإقليم. وكتب المحامي فولني في جريدة «خفير الشعب» : «ما يهمنا، ماذا فعل آباؤنا أو كيف ولماذا فعلوا ذلك...؟ وحقوق الإنسان الأساسية، وعلاقاته الطبيعية بأصدقائه في دولة المجتمع ـ هذه هي القواعد الأبدية لكل أشكال الحكومة». وكانت التأملات الوطنية لأستاذ القانون في رين البروفيسور جان لانجوانيه أشد قسوة في محاكاتها الساخرة لعقبة الاتجاه المحافظ.

العبيد السود ـ إنكم تُحوَّلون إلى منزلة البهائم ـ لكنه ليس اختراعاً! وأبناء الملوك الآسيويين ـ العادة هي أن الأكبر فيكم يخنق أخوته ـ لكنها ليست اختراعاً! ويا

شعب بريتاني أنت معوّز وبائس والنبلاء أثرياء ـ لكن ذلك ليس اختراعاً!

وقد ألح لانجوانيه على أن المطلوب هو دستور للحاضر، وليس تبجيل الآثار الباقية. «هل رداء عام 1614 يناسبنا أكثر مما يناسب رداء أي طفل رجلاً في ريعان الحياة؟» وبالمثل، فإن مصطلح الامتياز، الذي كان مرادفاً للحريات في الصراع بين التاج والمحاكم، كان محكوماً الآن أن يكون نقيض الحرية. والاستقامة السياسية الآن تقتضي ليس حماية تلك الامتيازات بل إلغائها.

وفي معظم أرجاء فرنسا (وفي بعض الحالات في بريتاني الصعبة المراس) كان النبلاء مستعدين للتسليم على الأقل بجزء من هذه المطالب التي قدمها الراديكاليون منهم كما أنها مطلب المتحدثين الصادقين باسم الطبقة الثالثة. وكما ستظهر بيانات الشكاوى والتوقعات المحلية ـ فإن أغلبية الطبقة صاحبة الامتيازات كانت مستعدة للتخلي عن الميزة الأكثر وضوحاً في وضعها وهي الإعفاء الضريبي. فكثير من ذلك الإعفاء قد تآكل إلى درجة لم يعد فيها تضحية كبيرة، لاسيما للنبلاء الأغنياء، الذين تباهوا به كامتياز. غير أن طلب أن يذيبوا مكانتهم كلها في نوع من اتحاد أكثر عمومية للأمة كان أكثر إثارة للشقاق بين الأقاليم وضمنها. والزعم المتكرر، أن الطبقات المنفصلة يجب أن تستمر لأنها ببساطة دامت طويلاً، وقع على آذان صماء على نحو متزايد.

وفي نهاية عام 1788، عندئذٍ، فقدت حرمة الماضي قوتها على الإقناع. فذهب المحامي البرلماني بيير لاكرتيه بعيداً ليندم على أن كل الآثار واستخدامات الماضي لم تتلف في نار عظيمة (شيء ما ستشرعه الثورة رمزياً عام 1793). وبدلاً من ذلك، حاول كوندورسيه والأعضاء الذين يشاركونه الرأي أن يثبت أن العقل ينبغي يرشد واضعي الدستور الجديد. ووافق الكونت دانتريغ على أن «المبادئ الحقيقية المحددة بشكل عقلاني» سوف تظهر أن الحرية السياسية والمساواة المدنية أمام القانون هي الأسس السليمة لمثل هذا النظام الجديد. غير أن دانتريغ، وهو صديق جان جاك روسو، تابع ليقدم القضية الأكثر راديكالية (النموذجي في النبيل المواطن) أن الدولة والشعب هما واحد والشيء نفسه:

> *الطبقة الثالثة هي الشعب والشعب هو أساس الدولة، إنه في الواقع الدولة نفسها، والطبقات الأخرى هي موضوعياً فئات سياسية بينما قوانين الطبيعة غير القابلة للتغيير هي أن الشعب هو كل شيء. ويجب أن يخضع كل شيء له (الشعب)؛ ويجب أن تكون سلامته هي القانون الأول في الدولة... والحق تكمن كل السلطة الوطنية في الشعب وللشعب توجد كل الدول...*

لن يعيش تغزل دانتريغ بالسيادة الشعبية طويلاً. فبعد أن انتخب إلى مجلس الطبقات، أخذ يندم على سجالاته وغدا معادياً للثورة متحمساً مثلما كان نصيراً للديمقراطية. ومع ذلك فقد طُبِعت كراسته أربع عشرة مرة ولُخِّصت في بديهية شعبية «الطبقة الثالثة ليست طبقة، إنها الأمة ذاتها».

وإذا أصبحت هذه الفرضيات الثورية حقائق بدهية عامة، أخذ الدفاع عن فصل الطبقات لون المصلحة القطاعية (الفئوية) والجشع واللا وطنية والتغافل عن هموم الشعب العامة. ولأن الملك طلب أن يسمع تلك الهموم، فمثل هذه الأفكار قد تُمَثَّل بأنها ضد الملكية. وقد خلق إصرار نِكر على الطبيعة المهنية لإدارته وامتناعه عن إعلان رأي في المسائل الحاسمة بمضاعفة عدد ممثلي الطبقة الثالثة والتصويت بالرأس فراغاً سياسياً ملأته السجالات أكثر من الحلول. وفي 5 كانون الأول/ديسمبر توسع ذلك الفراغ عندما تخلى محكمة باريس عن عناده المبكر. فقد أعلن نفسه بالاتفاق مع تارجت أنه لا يوجد في الحقيقة سابقة دستورية ليتبعها مجلس الطبقات. وبدلاً من ذلك سيوحي «العقل والحرية والرغبة العامة Voeu général» شكل المؤسسة الجديدة!

كان حل نِكر المؤقت توجيه الدعوة إلى جمعية ثانية للأعيان لتقديم المشورة حول شكل مجلس الطبقات. لكن في حين كانت سابقتها راديكالية أكثر من المتوقع، كان العكس صحيحاً في الجمعية الثانية. فلم تقبل إلا أقلية المواقف «الوطنية»، والأسوأ أن أمراء الدم ـ باستثناءات هامة لأورليانز والأكثر مفاجأة شقيق الملك بروفينس ـ أعلنوا في مذكرة حررت في 5 كانون الأول، أن «الدولة في خطر» وأن

ثورة تُعَدّ في مبادئ الحكومة، وقد نجحت في إثارة العقول. فالمؤسسات ذات القدسية والتي ازدهرت الملكية بواسطتها لقرون كثيرة تُحوَّل الآن إلى مسائل إشكالية أو تُنتَقَد بأنها جائرة.

وتابعوا، فأن تستسلم لوجهة نظر الغالبية من الممثلين، هو أن تسلم فرنسا إلى أخطار جسيمة. وإذا ما انتصرت «ثورة الطبقة الثالثة في دستور الدولة» تنبؤوا فسيأتي الملوك ويذهبون تبعاً لتقلبات الرأي العام الذي ارتدى لبوس الإرادة الوطنية.

لم تكن مذكرة الأمراء تفتقر إلى إدراك الأشياء وملاحظتها في ما يتعلق بأخطار النهج الذي كانت الملكية تُدفَع إليه في حالة من التفاؤل غير الموَجَّه. غير أنها في ما يخص كتاب كراسات الطبقة الثالثة أُخِذت كدليل مباشر على مؤامرة ضد «الملكية الشعبية» وهي عملية قيد الإنشاء. وعندما احتدم السجال كانت الحكومة أكثر ممانعة في تقديم



الصورة 81، للرسام سرجنت نِكر يأخذ قياس فرنسا: ربيع عام 1789

الاتجاه. وفي 27 كانون الأول عمّق مرسوم عاجل على نحو استثنائي، دون أي نوع من تمهيد، هذا التشوش، فقد أعلن ضد نصيحة مجلس الأعيان أن تمثيل الطبقة الثالثة سيتضاعف. لكنه امتنع عن البت بالتداول المشترك والتصويت الفردي، وهو قرار صنع سخرية من الكرم تجاه الطبقة الثالثة؛ ويبدو أن وجهة نظر نِكر كانت بطريقة ما أن مجلس الطبقات سوف يتوصل إلى اتفاق دون فوضى كبيرة.

كانت كل هذه المبادرات التي تتلمس طريق الحل وإعادة النظر والتشوش مغايرة تماماً لوطنيي الطبقة الثالثة، الذين امتلك وجهة نظرهم فضيلة الوضوح والحسم. وبعيداً مع هؤلاء الذين زعموا لزمن طويل أنهم يمثلون الشعب لكن، عندما صار ذلك التمثيل في اليد، كشفوا عن أنهم ليسوا أبطال الشعب بل مضطهديه. كان يمكن تحويل أية قضية راهنة إلى خطابة وطنيين وأصحاب امتيازات. وقد حاول الدكتور جوزيف إغناس غيلوتين (يسوعي سابق وطبيب) في عريضته باسم **المواطنين القاطنين في باريس** أن يقنع الآخرين بمضاعفة تمثيل الطبقة الثالثة على أساس هذه الميزة تماماً. وقد تبنت وجهات نظره ست نقابات تجارية في المدينة وتم توزيع ستة آلاف نسخة تحت حمايتها. حاول المحكمة أن يمنع تداوله وفي الثامن من كانون الأول اتخذ خطوات ضد غيلوتين نفسه. وقد حوكم أمام

المحكمة لكن تظاهرة حاشدة لصالحه كانت صاخبة جداً تهدد المحكمة أن براءته المنتصرة قرار قد سبق اتخاذه عملياً.

كان ثمة ميزة إضافية واحدة في الطبقة الثالثة التي في شتاء عام 1788 ـ 89 القاسي ستعزز زعمها بأن تكون التجسيد الحقيقي للأمة الجديدة التي تولد ثانية وهي: عملها. فقد سبق للكراسات الكثيرة التي صممت هوية الطبقة الثالثة أن رسمت تعارضاً بغيضاً بين الامتيازات التي تستملك بالمال وإنتاجية العامة، وهذا المصطلح هو نفسه الذي يستحضر شعار مجرفة الشغل. وكانت مذكرة حول مجلس الطبقات وضعها موظفون كبار في نانت جازمة في هذا الشأن:

الطبقة الثالثة تحرث الأرض، تبني سفن التجارة وتزودها بالطاقم، تدعم المصانع وتديرها، تغذي المملكة وتمدها بأسباب الحيوية والنشاط... وقد حان الوقت لأن يعار هذا الشعب العظيم شيئاً من الأهمية...

كما سيوضح بيان قرية في فوزجي، هارفييه ـ سو ـ مونتفور، الفكرة ذاتها أكثر بالقول إن النبلاء الذين زعموا أنهم يدعمون جلالته، «يفعلون ذلك مقابل معاشات تقاعدية كبيرة من الدولة»، في حين أن «الطبقة الثالثة تدفع طوال الوقت وتعمل ليلاً ونهاراً على فلاحة الأرض التي تنتج الحبوب لتطعم الشعب كله».

والمطبوعات الكثيرة التي بدأت بالظهور في ذلك الوقت تبرز حارث التربة يحمل على ظهره الطبقتين صاحبتي الامتياز، عرضت الفكرة نفسها بشكل أساسي.

وتُرِك لكراس الأب سييه: كم هي الطبقة الثالثة؟ Qu'est - ce que le Tiers - Etat? الكراس الأكثر وضوحاً في كل الكراسات أن يحدث الانشقاق بين المفيد وغير المفيد حاسماً. «ما هو الضروري لكي تزدهر أمة من الأمم؟» سأل الكراس سؤاله الأول في أسئلته الخطابية الشهيرة. وجاء الجواب، «هو جهود الفرد والأعمال العامة. وكانت الطبقة الثالثة هي التي تسد حاجات كل الطبقات الأخرى. إذن ليست الطبقة الثالثة «طبقة» محددة. لقد كانت الأمة ذاتها. وهؤلاء الذين زعموا مكانة خاصة خارج الأمة كانوا بذلك يعترفون بتطفلهم. ولسوء الحظ وسوء التقدير، فإن الطبقة الثالثة، التي كانت كل شيء، لم تكن، سياسياً، أي شيء. ولم تستطع أن تسعى إلى أن تكون «شيئاً ما»، كما عبَّر عن ذلك سييه، إلا عندما هدد ضعف أصحاب الامتيازات الوطن.

كانت الطبقة الثالثة فكرة ونقاشاً قبل أن تكون حقيقة اجتماعية واقعية. وكان كراس سييه ابتكارها الأكثر إلهاماً: قوياً ومقنعاً وجلياً ـ ولا يمكن إنكاره بوضوح إلا باستحضار



الصورة 82، :لنأمل أن تنتهي اللعبة على خير".
امرأة الطبقة الثالثة تحمل ثقل الطبقتين الآخريين

شبح التاريخية غير المخيف. لم يعط شكلا وصورة للدولة الجديدة وحسب، بل أشار بأصبع مهددة إلى هؤلاء الذين يعزلون أنفسهم عنها. لقد حذر سييه: "يستحيل، أن نقول أي مكان سيشغله النبلاء ورجال الدين في النظام الاجتماعي. إن ذلك يعادل سؤال ما المكان الذي يجب أن يُعيَّن لمرض خبيث يدمر جسم رجل مريض ويعذبه".

III - جوع وغضب

في 13 تموز/ يوليو عام 1788، انفجرت عاصفة برد فوق قسم كبير في وسط فرنسا من روين في إقليم النورماندي إلى تولوز جنوباً. وقد كتب عامل الحدائق السكوتلندي، توماس بليكي، الذي شهدها، عن حجارة كبيرة للغاية قتلت الأرانب وطيور الحجل ومزقت أغصان أشجار الدردار. وكان مطر الألواح البيضاء الجليدية قاتلاً ولا يحتاج إلى تضخيم. لقد أبادت براعم العنب في الألزاس وبرغندي واللوار، وأفسدت القمح الناضج في حقول أورليانز، وجعلت التفاح غير الناضج في كلفادوس كأنه مصاب

بالجدري، وأضعفت الزيتون والبرتقال في منطقة ميدي. وفي الإقليم الغربي من بيوس Beauce، كانت محاصيل الحبوب قد نجت من عاصفة بردية في 29 أيار غير أنها خضعت تماماً للضربة الثانية في تموز. وكتب المزارعون في منطقة إل دي فرانس جنوب باريس، حيث أبيدت الخضراوات ومحاصيل الفاكهة وهي تنضج: «لقد تحوّل الريف الذي كان يأخذ الألباب إلى صحراء قاحلة».

وتبع ذلك قحط في معظم فرنسا، الذي، بدوره، تلاه شتاء قاسٍ لم يشاهَد مثله منذ عام 1709، عندما قيل إن نبيذ بوردو الأحمر قد تجمد في قدح الملك لويس الخامس عشر. وقد راجت القصص نفسها التي تم تداولها قبل ثمانين عاماً عن البرد القارس. فقد قيل إن الطيور تجمدت في أعشاشها، وجاءت الذئاب تبحث عن طرائد من مخابئها في كوفن إلى سهول لانغويدو. وتحوّل الناس الفقراء في المناطق النائية مثل تارن والأرديش إلى غلي أشجار الحديقة لصنع الثريد. لقد كانت الحقيقة الواقعية الثابتة سيئة كفاية. فقد أوقفت الأنهار المتجمدة طواحين الماء عن تحويل الحبوب إلى طحين، ومنعت نقل الإمدادات الطارئة إلى المناطق التي كانت بحاجة ماسة إليها. وقد كسا الثلج العميق الأرض من الجنوب الأكثر بعداً في هوت غارون Haute - Garonne، وغربي تولوز، حيث بين 26 شباط/ فبراير و10 نيسان/ إبريل كانت ثمة هطولات جديدة بين يوم وآخر. وقد وصف ميرابو إقليم بروفينس في كانون الأول أنه زاره ملاك الدمار. «لقد انطلقت الكوارث من عقالها. حيث وجدت في كل مكان أناساً ماتوا بسبب البرد والجوع، وفيما كان ثمة قمح، لم يكن هناك طحين لأن الطواحين كلها كانت متجمدة».

وجلب ذوبان الثلج بلاياه الخاصة. ففي أواسط كانون الثاني، ذاب نهر اللوار فجأة فأرسل طوفان الماء فوق الحقول والمراعي واندفع خلال الحواجز البدائية لحفظ المياه إلى شوارع بلوا Blois وتور Tours. قبل ثمانين عاماً، حدثت مجاعة واضحة: امتلأت الطرق بالجثث التي قضت جوعاً. وفي عام 1789، جاءت الأخت الصغرى لتلك المجاعة ـ ندرة la disette ـ لكنها كانت سيئة كفاية. فمساوئ المناخ تلت حصاد عام 1787 الذي لم يكن أفضل من عادي. وشكّل الرغيف الذي وزنه أربعة أرطال قوام عيش أرباع الفرنسيين، والذي في الأحوال العادية يستنزفْ نصف دخلهم. وقد ارتفعت الأسعار من 8 قروش في صيف عام 1787 إلى 12 قرشاً في تشرين الأول عام 1788 و15 قرشاً في الأسبوع الأول من شباط. وكانت ثمة حاجة إلى رغيفين لإطعام أسرة من أربعة

أشخاص كل يوم، بينما كان معدل الأجر اليدوي للعامل من 20 ـ 30 قرشاً في اليوم، وعامل البناء المياوم 40 قرشاً في الأغلب. وقد عنت مضاعفة أسعار الخبز ـ وخشب التدفئة ـ فقراً مدقعاً. قدّر بعض رجال الدين في شتاء عام 1788 أن أكثر من خمس سكان باريس، أكثر من 100.000 نسمة كانت تتلقى نوعاً ما من معونة. وفي تلميحات كبيرة، باعت شخصيات كبيرة مثل دوق أورليانز لوحاتها ـ قيل لتقديم يد العون للفقراء ـ غير أن أعمال الخير المنعزلة لم توفر الطعام أو الخشب الكافي أبداً لجعل الشتاء محتملاً لآلاف الضحايا.

لقد أصابت النكبة مجموعات مختلفة من السكان بطرق متباينة وهي تجر الجميع إلى مستوى البقاء مما ظنت أنها نجت منه بأمان. فقد أصاب خراب المحاصيل العمل الثمين للعمال المياومين الذين لا يملكون أرضاً، والذين معظمهم عمال مهاجرون. كانوا قد تركوا عائلاتهم، وانطلقوا في مسار معتاد إلى العمل الموسمي في كروم العنب وحقول القمح وبساتين الزيتون آملين أن يعودوا للإقامة على أراضيهم الصغيرة. والآن قد لا يعودون أبداً وعليهم أن يصارعوا لتجنب الهلاك تماماً. وللملاكين الصغار ـ métayers ـ الذين يشكلون القسم الأعظم من سكان الريف، كانت النكبة هي الدورة الأخيرة لبرغي ربط القرض والإفقار. كانوا قد استأجروا أراضي صغيرة من السيد الإقطاعي بالإضافة إلى ما لديهم من أرض صغيرة، وأخذوا البذار والأدوات وحيوانات الجر مقابل حصة بالمحصول لإطعام أسرهم. وقد أعاق هذا العبء أي نوع من الفائض، وغالباً ما كان صغار المالكين ملزمين بشراء أغذية إضافية لضمان بقائهم. إذن، كانوا مستهلكين مثلما كانوا منتجين، واستبعدت الزيادات العقابية في أسعار الخبز وحطب التدفئة في نهاية الثمانينيات أية فرصة قد يمتلكونها من تحقيق الربح من الارتفاع التدريجي في قيمة محاصيلهم. ومع موسم حصاد اشتد قتامة بالصقيع أو البَرَد والضرائب التي يدينون بها للسيد الإقطاعي والدولة، كان مقرضوهم على الأرجح يطالبون بإيفاء القرض. وكانت النتيجة انتزاع الملكية والنزول إلى مرتبة غير الملاكين ـ وفي الوقت الحاضر، العاطلين عن العمل. وفي المناطق المزدهرة نسبياً مثل الريف حول فرساي، وفقاً لِـ جورج لفيفر، شكل أرباب الأسر الذين انتزعت أراضيهم نحو ثلث مجموع عدد سكان الريف. وفي منطقة النورماندي السفلى ارتفع الرقم إلى ثلاثة أرباع عدد سكان الريف. وهكذا انضموا أيضاً إلى المد المرتفع من الناس المعوزين الذين يجرون أقدامهم باتجاه الكنائس لطلب الحسنة من خبز وحليب، أو باتجاه المدن الكبيرة.

وإذا ما وصلوا إلى مدينة ما، غالباً ما يكون الاستقبال كئيباً. فالعمال المهاجرون ملؤوا الأمكنة في العمل العرضي: عتالون، سائقو عربات، منظفو مداخن، بائعو مياه.

غير أن الأزمة في الريف تضخمت إلى كساد انتقل إلى بقية الاقتصاد. فقد قلّصت قوة الشراء المنخفضة السوق للأشياء المصنعة التي كانت تعاني أصلاً من مزاحمة البضائع البريطانية الأقل سعراً التي جاءت كالطوفان نتيجة الاتفاقية التجارية عام 1786. ففقد الحرفيون المهرة أعمالهم، وتلاشت أعمال القطعة على الأنوال في ورش صغيرة، وأوقِف عمال البناء كأنما الازدهار في البناء المبني في المدن الكبرى قد توقف فجأة. وقد بلغ عدد العاطلين عن العمل في المدن الصناعية مثل ليون خمسة وعشرين ألفاً وفي رون عشرة آلاف. وارتفع العدد في أميان Amiens القريبة من نقطة دخول المصنوعات البريطانية إلى ستة وأربعين ألفاً.

ووسط دليل على دمار عام، بذل نِكر ما استطاع لتقديم بعض الإسعاف. فحظر تصدير الحبوب الممنوح بموجب مراسيم أصدرها براين عام 1787، وشرع بسياسة استيراد نشطة مستخدماً نحو خمسين مليون ليفر لكل من الحبوب والأرز. ومع ذلك لم يكن الحصول على الإمدادات سهلاً. فقد قطعت الحرب الروسية التركية في المتوسط المصادر الشرقية لجنوب البلد، وعوّق نزاع آخر في البلطيق أكثر المصادر التقليدية من بولونيا وشرقي بروسيا. وفي الشمال، جعلت الأطواف الجليدية التي تجمعت في مصب نهر السين وملاذات مرافئ مثل الهافر تفريغ حمولات البواخر مستحيلاً. وكانت الإمدادات التي وصلت إلى فرنسا، في كل حال، غالية الثمن ما دامت البلدان الأخرى، في معظمها تعاني من المأزق نفسه. كانت تتنافس على ما يمكن أن يتوفر من الحبوب. وجعلت الأنهار والقنوات المتجمدة النقل بواسطة القوارب بطيئاً وصعباً. وعندما وصلت الحبوب والجودار البولونية في النهاية إلى الشمال والشمال الشرقي عبر هولندا والأراضي الواطئة النمساوية، فسدت الحبوب وأنتجت دقيقاً أصفر ذا رائحة نتنة جداً.

باختصار، ربما لم تكن هي اللحظة المبشرة بالنجاح لسؤال الناس في فرنسا أن يعبروا عن مظالمهم. ومع ذلك من أعماق حاجتهم وإحباطهم، فإن صورة الأب الملك (هكذا كان يخاطَب في بيانات المظالم) افترضت جانباً مقدساً تقريباً، يعطي رعاياه فرصة نوع من جمهور بديل. وهكذا لكل أهواله، يجب ألا يؤخذ شتاء عام 1788 ـ 1789 على أنه حكم مسبق بالإعدام على التجربة السياسية العظيمة التي كانت قائمة آنئذٍ غير أن ذلك عنى في الذهن الشعبي، عمل دستور جديد كان بطريقة ما مرتبط بملء البطون الفارغة. سيشحن هذا النزعة الوطنية والتمثيل أكثر من أي شيء آخر يمكنه أن ينقذهم مما هم فيه. وتماماً مثل الحرية التي لم تكن إجابة سحرية لمشكلة القدرة على تحمل ما يجب أن

يُنفَق، لم تكن المساواة إجابة لمهمة إطعام السكان الأكثر استعصاء في سنوات القحط.

وإذ استرد الناس رشدهم، لن يذهب الاعتماد المتبادل بين الطعام والحرية بعيداً. وقد قام وهم أن المؤسسات السياسية الجديدة قد توفر القوت حيث لم يفعل النظام القديم، قام على اعتقاد أن وكلاء النظام القديم الطفيليين استخدموا قدراتهم بشكل مدروس لتدبير الأزمات التي يستطيعون من خلالها جني الأرباح. وفي هذه المعاهدات مع المجاعة pactes de famine كانت الندرة الدورية إشارة إلى المضاربين في الحبوب أن يمنعوا إمداداتهم عن الأسواق لرفع الأسعار إلى اللحظة التي يمكنهم فيها أن يستغلوها لتحقيق الربح الأقصى. وقدمت سياسة تحرير تجارة الحبوب من القواعد التنظيمية التي تتطلب مبيعات مرخصة في أسواق محددة فرصاً إضافية لمثل هذا الممارسة ليس إلا. وقد دعم ذلك الاعتقاد الذي كان الشعب بحاجة إليه ليوجه اللوم إلى: المضاربين Agioteurs وأصحاب المخازن accapareurs، الذين طلبت بعض الشكاوى الريفية عقوبة الموت لهم، ولكن تماماً كما هو في الغالب كان ثمة وزراء في الحكومة مشتبهين بالتواطؤ في مؤامرتهم. كان ممكناً في بداية الثورة أن تلقي المسؤولية في إطالة أزمة القوت على الأرستقراطيين العنيدين الذين قيل إنهم يتآمرون لتجويع الناس من أجل إخضاعهم. غير أن الإدارات الثورية المتعاقبة سقطت ضحية تهمة أن نزعتها الوطنية الخاطئة وحماسها العقابي هو الذي أبقى الناس أسرى دورة الجوع. وعندما تحسنت المحاصيل وأُطعِم الجنود مثل الجراد الزاحف في البلدان التي كانوا يحتلونها، تقلصت المشكلة.

كانت الرابطة بين الغضب والجوع هي التي جعلت الثورة ممكنة. ولكن كان يرجح أيضاً أن تنفجر الثورة جراء المبالغة في تضخيم التوقعات.

بدأت تلك التوقعات جدياً عندما دعا الملك رعاياه للاجتماع في دوائرهم ومناطقهم لانتخاب ممثليهم وكتابه قائمة بكل شكاويهم وآمالهم في المستقبل.

في معنى ما، أكدت هذه الممارسة تماماً الاعتقاد التقليدي أن الملك سيأتي دائماً لنجدة شعبه في محنته. لكن ذلك لم يتأكد أبداً في طريقة مباشرة وشاملة مثل هذه المرة. وأحداث الثورة التي تلت كانت درامية إلى درجة صرفت الانتباه عن عظمة التجربة التي كانت تجري في كل أنحاء البلد من شباط إلى نيسان عام 1789. لا شيء مثل ذلك حدث في الماضي قط، ليس في فرنسا ولا في أي مكان آخر ـ وبالتأكيد ليس في ذلك المثال في التفوق الدستوري، مملكة بريطانيا العظمى. فقد تم إعداد خمس وعشرين ألف عريضة في عمل متزامن من الاستشارة والتمثيل لم يُسبَق في كماله.

طبعاً، لم تكن كلها تحاكي صوت الشعب الصريح، فمكنة الانتخاب إلى مجلس الطبقات التي بدأت عملها في الدعوة الملكية في 24 كانون الثاني/يناير ضمنت أنه بينما ينتخب النبلاء ورجال الدين ممثليهم مباشرة، ستكون عملية إنتاج ممثلي الطبقة الثالثة غير مباشرة. فالجمعيات المحلية، باسم العصور الوسطى مناطق النفوذ bailliages كان يجب أن تدعى للاجتماع، وتنتخب واحداً لكل مائة مقترع ـ وقد عُرِّف هؤلاء بطريقة فضفاضة بأنهم جميعاً مقيمون يدفعون الضريبة من عمر خمس وعشرين سنة فأكثر. (وعلى نحو واضح ظهرت الأرامل في المجالس المحلية يجادلن متفائلات أن المرسوم الملكي لم يحدد الجنس). وهكذا خلق جمهور الناخبين عدداً بلغ نحو ستة ملايين نسمة. ومع كل ما تنطوي عليه العملية وتعقيداتها، كانت، حتى ذلك الوقت، التجربة الأضخم عدداً في التمثيل السياسي التي مورست في أي مكان آخر في العالم.

وفي أغلب الأحيان، اجتمعت تلك الجمعيات الأولية في كنيسة القرية ووضعت مسودة عريضتها وانتخبت مندوبيها ليمثلوا الجماعة في جمعية أعلى. وفي بعض المناطق انتخبت تلك «الجمعية العامة» بعدئذٍ المندوبين لكن في مرات غير قليلة كان عليها أن تقلص مستوى تمثيلها في عدة مراحل قبل أن تصل إلى اختيار نهائي لمندوبي الطبقة إلى فرساي. وضمنت الإجراءات أيضاً أن يكون بالضرورة الأكثر بلاغة وتعلماً وخبرة سياسية الذي يبقى من خلال عملية الغربلة. وفي الممارسة، عنى ذلك، المحامين والموظفين العامين على نحو ساحق ـ أنصار الأكاديميات المحلية والجمعيات الفكرية sociétés de pensée ـ مع مجموعة قليلة من الأطباء وكتاب العدل والآباء السابقين المتنورين (مثل سييه) ورجل الأعمال العرضي الذي لبى المعايير المطلوبة.

ومن جهة أخرى، كانت الجمعيات المحلية متحررة على نحو ملحوظ من أي نوع من التخويف الرسمي. فقد وفى نِكر بالتزامه بعدم تحيز صارم وحرية تامة من المراقبة أثناء الانتخابات. كان شيئاً مشتركاً، على سبيل المثال، في ما يتعلق بموظفي الحكومة المحلية أن يشرفوا على الجمعيات حيث الدولة وموظفيها من الحكام إلى الوكلاء جباة الضريبة، فكانوا يُشجَبون بصراحة لأعمالهم الاستبدادية الحقيرة والفاحشة الكثيرة. وقد ضُمت كل هذه الاتهامات إلى العريضة النهائية. وهكذا، في ما يتعلق بكل التصفية بعيداً عن المعتقدات والشخصيات تقدم العرائض بياناً كاملاً على نحو يثير الدهشة عما كان يعتمل في ذهن الشعب الفرنسي في الوقت الذي كانت فيه دولته السياسية تولد من جديد في أواخر الشتاء وأوائل الربيع.

تحدثت العرائض بصوتين. رفع عدد كبير منها صوت الوحدة الوطنية، وتحدث في انسجام جديد بالملاحظة، غالباً من الطبقات الثلاثة، كانت بياناتهم مهتمة بالمسائل السياسية والقانونية بالدرجة الأولى وكان صوتهم هو صوت ذلك العالم المديني المتعلم في فرنسا المحدثة. وجاءت من الريف والحرفيين في البلدات لهجة أشد حدة تكرر على نحو مطيع من حيث الشكل صيغاً ورعة في سياسة الطبقة الثالثة، غير أنها في الصميم اهتمت بالمسائل اليومية للضريبة والعدالة وسوط الميليشيا (كلمة سوط fleau هي المصطلح الأكثر شيوعاً المستخدم في عرائض المناطق الريفية جميعاً) وقوانين الصيد، في كلمات أخرى، بمسائل البقاء.

وهكذا ليس مدهشاً أن نوع اللغة الأول ـ ذلك التغيير السياسي ـ كان موحد المعايير كثيراً. كان ثمة جهود واعية لإعادة إنتاج «برنامج» معلَن يضم معظم المبادئ الأساسية التي تكررت في أدب الكراريس في خريف عام 1788. فقدم سييه الكتاب الأول للجمعيات المحلية الذي طبعت منه آلاف النسخ ووُزِّعت، مع ملاحظة تشبه التصديق من دوق أورليانز، في كل أنحاء فرنسا. وقد نُصِح رعاة الأبرشيات بشكل خاص بأن يستفيدوا من الكراس التوجيهي، الذي لا يقترح (بقوة) ما يمكن أن يقال وحسب، بل الطريقة والأسلوب الذي يجب أن يسجل في العريضة. غدت عرائض أخرى مشهورة بطريقتها الخاصة كبيان نموذجي لليبرالية في المستقبل ـ والوثيقة الأكبر حجماً هي تلك التي أعدها دوق دي نيمور للطبقة الثالثة في نيمور.

كانت الرسالة هي نفسها في جميع العرائض. وكان مجلس الطبقات هو جسم الأمة المركب، ويجب أن يستدعى بشكل دوري، كلما اقتضى حال الأمة ذلك. وقد اقترحت بعض الوثائق دورات كل ثلاث سنوات، وأصرت الأكثر جرأة على وجوب الجلوس حتى يضعوا دستوراً جديداً. وحدَّد عدد من العرائض على نحو خاص السلطة التشريعية بالجمعية الوطنية وأصرت، في أسلوب إنكليزي، على الفصل بين السلطات، وعملياً، طالبت كلها أن تصادق على أية ضريبة. ويجب ضمان حرية الشخص والتفكير والتعبير والنشر، الذي عنى إلغاء مذكرات التوقيف المختومة Lettres de cachet، وأي شكل من العدالة التعسفية (مثل المحاكم العسكرية) وكل أشكال الرقابة على المطبوعات عملياً. وقد جاء في عرائض لا تُحصى أن التدخل في البريد هو اعتداء مباشر على الحرية الشخصية.

وفي المسائل المالية كان هناك توافق مماثل. كان يجب أن تدمج ديون التاج باعتبارها ديناً وطنياً. وستكون هناك ميزانيات منشورة كل سنة، التي ستكون كل وزارة في

الدولة مسؤولة بشكل كامل عنها. وكان يجب أن يُلغى شراء الوظائف (وفوق كل شيء في المالية) ولا دافع ضريبة يجب أن يُستثنى من أية التزامات بسبب المكانة الاجتماعية أو مزاعم الامتياز، وإذا كان لا بد من بقاء النبلاء (كما قالت بعض عرائض النبلاء) فيجب أن تكون مسائل فخرية تماماً، وما سماه رابو سانت إيتيان «الجزء المزين من الأمة».

أما عرائض النخبة الليبرالية، سواء كانت في الطبقة الأولى أو الثانية أو الثالثة، فقد شرحت عندئذٍ أجندة أكاديميها السجالية في قضايا الدولة. فقال كثيرون منها، يجب أن يكون هناك خطة للتعليم الوطني. ويجب إلغاء ألعاب اليانصيب وبيوت القمار والأشياء التافهة الأخرى التي تغري الناس بالابتعاد عن تقويم النفس جدياً. وألزم عدد كبير نفسه أيضاً بالمبادئ الاقتصادية الليبرالية: إلغاء النقابات وكل أشكال القيود على الحرية وحركة العمل، وقمع الحدود الجمركية الداخلية وإنهاء كل أشكال جباية الضريبة غير المباشرة بطريقة التلزيم. وقد كانت في معظم هذه الجوانب، على نحو متناقض ظاهرياً، عرائض النبلاء (تلك المتوقعة من نيمور) التي اقتربت جداً من الصيغة «البورجوازية» في اهتمامها بالمساواة بين الحرية الشخصية والحرية الاقتصادية. ومع أخذ مشاركة هؤلاء في الكثير من أعمال طبقتهم في التجارة والصناعة والمالية والتقنية بالحسبان، فربما تكون هذه أقل إدهاشاً كما يمكن أن يبدو لأول وهلة. غير أن الأغلبية الكبيرة من عرائض النبلاء أعلنت أنها تؤيد تلك البديهية «البورجوازية» الأساسية، المساواة أمام القانون.

كانت تلك رؤية فرنسا المستمرة مع أكثر الصفات التحديثية المشتركة في سبعينيات وثمانينيات القرن الثامن عشر. سوف تذوب المرتبة الاجتماعية في المواطنة، العلم والتعليم، في ظل دليل المفضل، سيتخلص من الجهل الوحشي والفقر والمرض في الشعب. وستصل المصلحة الذاتية المتنورة لتسود على الأرض وتخلق طبقة فلاحية مزدهرة، التي من خلال الطرق العقلانية في الزراعة يمكنها أن تنتج فائضاً كافياً لتحول نفسها إلى زبون للبضائع المصنوعة. وذلك بدوره سيفيد قوة العمل التي قد تكون قادرة على النأي بنفسها عن الحماية الدفاعية إلى الفرصة المقاولاتية. وفي هذه المملكة الانتقالية تعين إدارة مسؤولة بناء على الجدارة والقدرة، تحكم بصرامة ونزاهة. وستكون الوطنية والخدمة العامة مثالاً، يبدأ بملك غير مسبوق بشعبيته، وستزدهر الفنون كما لم تشهَد ذلك قط والحقبة الجديدة ستنتمي في الوقت نفسه لفرنسا والإنسانية جمعاء.

والمدهش أن عدداً كبيراً من النبلاء تشاركوا في هذه الأفكار. وقد سُجِّلت تلك الأفكار في عرائض المدن الكبيرة: في باريس التي يقيم فيها 4.000 نبيل، وفي تلك

المدن الكبيرة مثل بوردو وروين، والمراكز الإقليمية الأصغر مثل إيكس Aix وسامو Saumur وغرينوبل Grenoble وبلو Blois وأورليان Orléans. وحتى أعضاء بعض التجمعات الأكثر بعداً، مثل بلدة النبلاء موسيل Moselle في منطقة Pont - à Mousson التي أصرت باسم «العقل الذي نوره الفلاسفة» على أنه يجب أن تُلغى كل الاستثناءات المالية في ما يخص طبقتها، ويجب أن يُعامَل المواطنون جميعاً بالمثل في لغة مسؤوليتهم القانونية عن الضريبة وأن أي نوع من الامتياز الشخصي مهما كان يجب أن يُوضَع له حد. وفيما افترض النبلاء أنه يجب أن يكون هناك نوع ما من التعويض مقابل إلغاء شراء الوظائف، كان التفكير أن ذلك لا يمكن أن يتم إلا بالتدريج وفي صالح الدولة لم تكن جوقة مكتملة التناغم، وكان التأثير المتناقض ظاهرياً في المكنة الانتخابية أن تمنح تمثيلاً لعدد كبير من النبلاء في المناطق النائية الذين لم يكونوا يوماً جزءاً من الثقافة الحديثة والذين يمتلكون لقبهم للتمسك به من أجل الاحترام. ففي بريتاني كانوا السيوف الفولاذية épées de fer، الذين أخذوا دوراً في شجارات الشوارع في رين خلال كانون الثاني عام 1789 ضد الحشود التي تدعم مقترحات الطبقة الثالثة للتصويت الفردي وليس الطبقة. وإذ شعروا بالتفوق في كل من الصراعات الجسدية والسياسية، رفضوا انتخاب مندوبين إلى مجلس الطبقات على الإطلاق. وفي مكان آخر، أخذت مجموعات من النبلاء الأقل افتتاناً بفكرة حل مكانتهم الاجتماعية المتوارثة في أمة من المواطنين موقفاً للتصويت من خلال الطبقة وانتخبوا مندوبين إلى مجلس الطبقات يؤيدون وجهة نظرهم. وفي كوتنتن، على سبيل المثال، في كوتانس، تمجد المندوبون في أسماء شهيرة مثل لكلير دي جوين Leclerc de Juigne واشارد دي بونفلوا Achard de Bovouloir وبودراب دي سوتفيه Beaudrap de Sotteville وأرثر دي فيلارنوا Arthur de Villarnois. وفي حين دعموا الشروط العامة لـ «توافق الطبقات»، أوضحوا أنهم سيجتمعون ويدرسون ويصوتون باعتبارهم كينونات «متميزة ومنفصلة ومتساوية وحرة».

كان بين نبلاء باريس من اعترضوا بمرارة على أن قواعد الانتخاب فرضت عليهم الانفصال عن شركائهم المواطنين في الطبقة الثالثة في «الكومون» القديم، وكان هناك مجموعة كبيرة من الآراء المختلطة بين النبلاء المواطنين في دوفين وبروفنس ولانكويدو من جهة، ونبلاء العائلة الحاكمة في بريتاني وبورغندي وفرانتش كومت ونورماندي العليا من جهة أخرى. وكان القرار في عدد من جمعيات النبلاء على التصويت الفردي أو الطبقة بأغلبية قليلة جداً: واحد وخمسون مقابل ثلاثة وأربعون في بلوا Blois، على سبيل المثال. وكان هناك نبلاء كثر، من ذوي الشخصيات المنقسمة بين وجود مديني معاصر وإدارة

مزرعة إقطاعية، جادلوا أنه لأغراض القضية الوطنية - مثل الضريبة والحرب والسلام - ينبغي أن يناظروا ويصوتوا بشكل مشترك، لكن في القضايا التي تهم طبقاتهم الخاصة يجب أن يحتفظوا بهوية منفصلة. وكان آخرون لا يزالون يُقدِّرون (مثل بِكر) أن يُترَك القرار للطبقات ذاتها، وهكذا إذا «تطلبت حاجات الأمة ذلك» فسيكونون مستعدين للتصويت بشكل مشترك في النهاية. وفي بلوا Blois، عندما أعيد التصويت بهذه الطريقة بالضبط، انخفض عدد الذين قرروا التصويت حسب الطبقة جدياً إلى 28 وعدد الذين كانوا مستعدين لدعم تسوية «مختلطة» بلغ 68. وإذا أضيفت عرائض هذه الجمعيات المستعدة للتصويت حسب الرأس في مثل هذه الظروف من أجل «القضية الوطنية» إلى تلك التي التزمت بالتصويت فردياً بالمبدأ، إذن في الواقع أغلبية النبلاء الفرنسيين في عام 1789 (60% تقريباً) اتضح أنها تؤيد الجمعية الوطنية بشكل حقيقي.

عندئذٍ، أثبتت الطبقة الثالثة أنها مشروع سياسي مشترك، صممه بداية أعضاء النبلاء الأحرار وصار ممكناً من خلال الانقسامات العميقة داخل نخبتهم الخاصة. وداخل رجال الدين (الإكليروس)، كانت ثمة مجموعة مماثلة من الأساقفة المعَدِّين لتأييد الشكاوى المريرة لرعاة أبرشيات القرى (تمثلوا بوفرة في جمعيات طبقتهم) ضد طبقة أرستقراطية كنسية محظية كثيراً. لكن دون ريب خلقت عملية الانتخابات نفسها فرصة لأناس جدد - إلى حد كبير من المهنة القانونية والوظائف الرسمية العامة - ليؤكدوا وجودهم كمتحدثين لصالح الطبقة الثالثة. وضمن رجال الدين، حدثت عملية راديكالية هامة، شكل بواسطتها رعاة أبرشيات الريف أنفسهم كمعارضة لهرمية أساقفة الأبرشيات. وبهذا الفعل حررت المجموعتان نفسيهما من رعاتهما، إلى درجة كانوا فيها حازمين أن عليهم ألا يتمثلوا في مجلس الطبقات من خلال النبلاء، مهما يكن مفيداً.

وتجربة احتقار انطوان لافوازيه نموذجية في الفصل. مع أنه قد يكون غير شعبي باعتباره رئيس جمعية جباية الضرائب غير المباشرة - والأسوأ، كمخطط لجدار جمارك جديد يطوق باريس - كان لافوازيه أيضاً رائداً في الزراعة الجديدة. باعتباره سكرتير اللجنة الملكية للزراعة، التي أُنشِئت بناء على إلحاحه، أنفق مبلغاً كبيراً من ماله في محاولة تجريبية لتحسين ما كان، جدالياً، الريف الزراعي الأكثر فقراً في كل أنحاء فرنسا: سولون sologne. منطقة مستنقعات، أنظمة صرفها سيئة، رطبة جنوب وادي اللوار الأوسط، كان مناخ منطقة سولون رهيباً إلى درجة يصيب بشكل منتظم محصوله من الجودار بآفة زراعية تفسده، ويجبر الفلاحين على استهلاك الحبوب حتى عندما تهاجمها فطريات أرغوتية. وقد

أدى ذلك، في الأقل، إلى حالات هلوسة مترافقة بتسمم أرغوتي. وغالباً أيضاً ما أدى إلى شكل من الشلل الشرياني الذي ينتهي إلى غرغرينا وحالة معروفة لأطباء فرنسيين كثر عاينوه باسم «دبيب الحشرات» : إحساس (المصاب) أنه يؤكل حياً من النمل.

وفي تقرير طويل قدمه لافوازيه إلى اللجنة عام 1788 وصف نتائج عمل شاق لعشر سنوات في مزرعته النموذجية في فريتشين Fréchines، حيث قضى ثلاث سنوات في محاولة لخلق مروج من نبات الفصة قبل تحويلها إلى البرسيم والسنفوان بشكل أكثر نجاحاً وتقديم البطاطا والبنجر. وقد استوردت الكباش والنعاج من أسبانيا والأبقار من منطقة شانتيلوب Chanteloup مهجنة مع سلالات محلية من الحيوانات الأكثر صلابة. وفي نهاية العقد، كان لا يزال يستخلص بطريقة متشائمة أنه على الرغم من أن كل ذلك قد أثمر بعض النتائج المرضية، فقد كان غير مجدٍ توقع مزارع مقيم أن يفعل ذلك «ما دام في نهاية سنة (مثقلة بالضرائب) لا يبقى هناك عملياً أي شيء للمزارع الذي يعتبر نفسه محظوظاً بالبقاء حياً، حتى ليعيش حياة بائسة تكتنفها الأمراض».

كان لافوازيه للجماعة الصغيرة من مالكي الأرض في اللوار وإل دي فرانس بطلاً. وقد كان مطلوباً جداً أن يحدد نفسه مواطناً وطنياً من خلال إنجازه الانتخابي كمندوب للطبقة الثالثة. وكان هذا ممكناً من الناحية التقنية ما دام المرسوم الملكي لم يحدد إلا اثنين من المقترعين الأربعة الأوائل الذين يجب أن يكونوا من الطبقة الثالثة. غير أن هذا الشرط ذاته سبب قدراً كبيراً من الشعور السيئ في جمعياتهم عندما حاول حسنو النية لكن المرعيين من النبلاء الليبراليين الاستفادة من ذلك. وقد شارك لافوازيه بوضوح في أحد هذين الاجتماعين على الأقل، ما دام قد وقّع محاضر الجمعية في لا شابيل فندموا، ولكنه رُفِض في فيل فرانكو دائرته الأصلية، بشكل فظ من الطبقة الثالثة باعتباره غير مؤهل اجتماعياً للانتخاب.

وفي حين كان المشهد من أعلى إلى أسفل عندئذٍ، مشهد وحدة وتوافق على نحو سائد كان ذلك المشهد من أدنى إلى أعلى غالباً متشكياً وخلافياً. إذا كانت بيانات النخبة وثائق النزعة التنويرية المتفائلة، فقد كانت بيانات هؤلاء الناس مرثاة حقيقية ـ .deléances كانت نبرتها مزيجاً من الأسى والغضب، وكانت مناشدتها إلى القضايا البدهية للعقل والطبيعة أقل منها للأب الملك الذي قد يردّ لهم مظالمها. قارن أحد الشعراء المحليين في ألنفييه Allainville القريبة من بتيفييه Pithiviers «القلب الطيب» لدى الملك الإصلاحي بنحلة تلقح الأزهار. غير أنه أيضاً توسل إليه أن ينقذ القرويين من محصلي ضريبة الملح

gabelle، «هؤلاء مصاصو دم الأمة الذين يشربون دموع البائسين بكؤوسهم الذهبية».

أما رعاة الأبرشيات وكتاب العدل أو المحامون المحليون الذين أنتجوا الشكل المكتوب لهذه الشكاوى فقد ضمنوا أنهم وضعوا الفهرس العام للإصلاحات السياسية. وقد انتقل كثيرون من هؤلاء الكتاب في البلدات الصغيرة من قرية إلى أخرى في أسابيع آذار لمساعدة السكان المحليين على تنظيم اجتماعاتهم وتزويدهم بوثيقة أساسية، إلى حد يجد المرء عملياً وثائق متطابقة أعيد إنتاجها في عرائض القرى الصغيرة المتجاورة. ولكن كان هناك تنوع لافت. غالباً ما كانت العريضة تبدأ باعتبارها رسولاً شخصياً تقدم للملك جولة تعريفية للقرية وأرضها، وتوضح كيف أن صعوباتها متجذرة في كل من الطبوغرافية والبارونات الإقطاعيين الذين خيموا فيها. فَ قرية كابريريه، على سبيل المثال، في جبال الجنوب الغربي، التي يقطعها نهر لُط Lot، ويزورها هذه الأيام سياح كثر في طريقهم إلى معاينة العنب الأسود في كاهور Cahors القريبة. غير أن فلاحيها في عام 1789 فشلوا في تقدير روعة مشاهدها الطبيعية. تقول عريضتهم: «تقيم المجاعة في الزاوية الأكثر ترويعاً ورداءة في العالم وليس لديها ملكيات على الإطلاق غير الجروف وعملياً غير الجبال التي يصعب الوصول إليها المغطاة بشجيرات ونباتات فقيرة أخرى ونادراً بالمراعي... ويمكن التأكيد بإنصاف على أن مجموعة سكان كابريريه واحدة من الأكثر فقراً والأشد بؤساً في المملكة». ولم تكن المسالك التي تؤدي إليها صالحة حتى للخيول أو الحمير، وهكذا كان المرء بحاجة إلى ست ساعات للسير إلى كاهور. ليس مثيراً للدهشة، أن يبقى المكان مهجوراً لمدة طويلة من رعاة الأبرشية. وهكذا كانت مطالبها الطاغية بسيطة وليست ثورية على الإطلاق: طريق لائقة وكنيسة.

وفي مكان آخر، وصفت وحشية الجغرافية أو المناخ على نحو أسوأ بالنهب الإنساني، وبعد مراجعة وضعهم المادي، تابعت عرائض القرية لتضع قائمة طويلة بالمتنمرين ذوي الرخص الذين جعلوا حياة الفلاحين صعبة بشكل خاص. وعلى نحو ثابت، كان موظفو الضرائب على رأس القائمة هؤلاء الذين يتبعون الحكومة والسيد الإقطاعي، والوكلاء من كل نوع والمنفذين porteurs de contrainte، الذين في قرية كمبروغر Comberouger في مقاطعة تارن الذين دُفِع لهم ثلاثين قرشاً في اليوم لترهيب السكان المحلين كي يدفعوا ضرائبهم أو يستولوا على الأشياء القليلة التي يمتلكونها.

وكان جباة ضريبة الملح هم الأسوأ. كانت هذه الضريبة تعتبر رجعية ومتخلفة على نحوٍ خاص طالما، كما عبَّرت إحدى العرائض، مع التسامح بالتضخيم، «الملح هو

الشيء الوحيد الذي على الفقراء أن يضعوه في قدورهم». فعريضة كانفِن Kanfen وهي قرية تقطنها 74 نسمة خارج بلدة تيونغي في منطقة آردين (شمال شرق فرنسا)، كانت شديدة البلاغة في هذا الشأن. أوضحت أن معظم سكانها أُجبروا على العيش كعمال مياومين في المزارع بسبب ندرة المرعى والحبوب والحطب. وبأجورهم التافهة ـ أحياناً خمسة قروش في اليوم ـ قد لا يتمكنون من تحمل شراء الملح بأسعار عالية تُفرَض عليه ضريبة. وهكذا كانوا يُضطَّرون إلى شراء مؤونة ثمانية أيام من الملح المهرب و«يعودون مرتعشين» إلى بيوتهم حيث، محتمل جداً، يكون عملاء محصلي ضريبة الملح يترصدونهم مختبئين خلف سياج ما. سيُهاجَم المجرم ويعتقل ويُجبَر على دفع الضريبة، وإذا لم يكن قادراً على فعل ذلك، يقاد إلى السجن دون إبلاغ عائلته. «وإذا كانت امرأة من يعتقلونها»،

لا يستحون من تفتيش كل مكان ويهاجمونها بالشتائم المقذعة... وإذا دخلوا بيتاً ويفعلون ذلك كل إشراقة يوم... ليس كأناس شرفاء، بل كعصابة لصوص مسلحة بالسيوف الضالعة وسكاكين الصيد والعصي ذات الرؤوس الفولاذية.

وإذا كانت امرأة في السرير، يفتشون السرير، لا يميزون ما إذا كانت مريضة ولا يخجلون مما هم يفعلون أبداً، فيقلبون الفراش رأساً على عقب.

ندع لكم أن تحكموا على ما يحدث إذا ما جاءت عصابة إلى منزل حيث توجد امرأة حامل. غالباً ما ينتهي الأمر بموت ثمرة رحمها.

وهناك أشياء كثيرة أخرى غير مرغوبة صنَّفها المزارعون أنها «سياط» : الطحانون الذين يسلبونهم بالاحتيال مقادير غير محددة من الحبوب كرسوم لهم بدلاً من مبلغ محدد من المال، وحراس الطرائد الذين يهاجمونهم بالكلاب إذا وضعوا أفخاخاً للأرانب التي تلتهم محاصيلهم، و«المتشردون» (عادة عامل مهاجر دون عمل يبحث عن حظيرة لينام ويطلب صدقة) الذين قيل إنهم يغزون الأرياف المستقرة بأعداد كبيرة. وكانت الشكاوى المعادية للسامية مألوفة في الألزاس واللورين تزعم أن اليهود كانوا يفرضون رباً مدمراً على قروض الفلاحين. وكان في بريتاني شكاوى من محتكري التبغ المحميين الذين يلقون القبض على زبون مقابل فدية ثم يعطونه شيئاً عفناً «أغلب الظن يسمم التعيس أكثر مما يهدئه». والعريضة نفسها من بواس Boisse أفردت لصوص الخيول كنوع خاص من الجريمة لا تمنعهم عقوبة محددة في عمل السفن ويستحقون عقوبة الموت. وفي الجنوب والجنوب الشرقي كان ثمة انتقاد لاذع للفئات الدينية التي تعيش على الأراضي الخصبة بينما يتضور الفلاحون. ففي أونزاين Onzain، في اللوار الأوسط، ذهبت العريضة بعيداً لتطالب بإلغاء

كل المراتب الدينية مباشرة لأنهم طفيليون لا جدوى منهم، وازدرت موظفي وخفر الحاشية الإقطاعية بسبب جهالتهم ووحشيتهم المسلحة.

وازدادت الهجمات على هذه المجموعات بشكل تلقائي، غير أنها استثيرت بحملات الدعاية التي أدارها أعضاء في تلك الجماعات نفسها التي تتعرض للهجوم. فالعريضة الأكثر سخطاً ضد ثروة أساقفة الأبرشيات والأديرة التي قدمها العضو الأوغستيني دوغاستيليه Ducastelier، الذي ألحّ على أن تعاد الكنيسة إلى «ثروتها الأولية» لتفوز «بقداستها الأولية» **فذهب الرب في الهيكل**. «يجب أن يعيش عشرون مليوناً على نصف ثروة فرنسا في حين رجال الدين ومصاصو الدماء يلتهمون النصف الآخر». يجب أن يكون الكهنة، ببساطة تامة، «مواطنين في الدولة». وبالمثل، «كان قاضياً أرستقراطياً من شاتليه، هو أندريه جان بوشي دارجي، من قارن المحاكم الإقطاعية بـ «مصاصي الدماء الذين يضخون قطرة الدم الأخيرة من الأجساد التي ربطوا أنفسهم بها».

وكان العلاج لكل هذه المساوئ ليس كثيراً من الحرية بقدر ما كان كثيراً من الحماية (كان الملح هو الاستثناء الوحيد.) كان أحد الموضوعات الذي تخلل كل عرائض الطبقة الثالثة هو إعادة عقارب الساعة إلى الوراء وإخضاع التعريفات الحديثة لحقوق الملكية لمسؤولية مشتركة تقليدية. فحيثما كانت ثمة إشارة إلى الوراثة، كانت دائماً للإلحاح على التقسيم المتساوي للأرض بين الورثة (حتى لو كانت بالضبط هذه الممارسة العرفية التي كانت تنتج قطع أراض غير قابلة للنمو.) ويجب أن تنظم تجارة الحبوب مرة أخرى وألا يُسمَح إلا لهؤلاء المرخصين الرسميين أن يبيعوها، ومن ثم في أسواق محددة بشكل رسمي. وأرادت دائرة نوتردام دي فرانكويل في النورماندي أسعار حبوب معينة «بمعدل يتحمله الفقراء». ويجب أن تكون حقوق جمع فضلات الحصاد محمية. ويجب عدم تشجيع بل منع تسييج الأرض العامة التي اعتاد الفلاحون أن يرعوا حيواناتهم عليها، كما يجب منع تصريف مياه البرك لتحويلها إلى مروج مسيجة، ما دام ذلك أيضاً يسلب القرية من مكان لسقاية قطعانها.

وكانت الغابات التي استخدمت تقليدياً للرعي وجمع الحطب للحرق مصدراً رهيباً للنزاع. ففي بورغندي، على سبيل المثال، دفعت ثلاثة مطالب منفصلة: لبناء الأسطول (على الرغم من بعدها عن البحر) وصناعة البناء في المدن والأكثر أهمية ازدهار صناعات التعدين، التي كان النبلاء يستثمرون فيها بقوة، أسعار الخشب للتحليق عالياً. وقد فضلت الإدارة الحازمة لهذا النوع من الملكية منذ ستينيات القرن الثامن عشر فصاعداً أنها لا

تستطيع أن تتحمل أن تكون عاطفية ـ أو حتى تقليدية ـ بشأن مثل هذا الاستثمار القيّم. فكان يتم اللجوء إلى حراس الغابات الخاصة لضمان استبعاد الحيوانات التي يدمر رعيها الشجيرات الصغيرة وملاحقة الفاعلين.

وفي مونتات قرب كاهور، كان القرويون متأكدين من أن التغيير كان للأسوأ. كان الحصاد أقل وفرة مما كان قبل مئات السنين، فقد تركتهم التراخيص والأسيجة وقطع الغابات دون مرعى لحيواناتهم وبالتالي دون سماد لتخصيب التربة التي غدت مستنزفة. وتضاعفت الضرائب والإيجارات وأسعار السلع الأساسية، كما ساءت ظروف الحياة. وكانت النتيجة أن مزارعي مونتات «وجدوا أنفسهم غرباء في ممتلكاتهم عينها واضطروا أن يبدؤوا بحياة المتجولين والمشردين... والسعادة، التي هي الأساس لكل آمالنا وآلامنا وأعمالنا هربت منا... ولسنوات عديدة تُحيق بنا الكوارث التي تقضي على محاصيلنا، والضرائب التي لا تُعَدّ تتراكم على رؤوسنا وهي أشد مما نحتمل..». وكل ما طالبوا به هو:

أن يكون لنا ملكيتنا الخاصة التي نستطيع بواسطتها العيش على قليل من الخبز المبلل بدموعنا وعرقنا، غير أننا لبعض الوقت الآن لم نستمتع حتى بهذه السعادة... فكسرة الخبز الأخيرة أُخذت منا إلى حد نحن محرومون حتى من آمالنا بالمستقبل؛ ومع أن اليأس والموت هما موردنا الوحيد فقد سمعت أفئدتنا صوتك الأبوي (صوت الملك) وقد جعلنا ذلك نقفز فرحاً.

كانت مونتات مدفونة عميقاً في واحدة من أكثر المناطق جفافاً في جنوب غرب منطقة ماسيف الوسطى Massif Central. كانت منطقة وسط أراض ذات زراعات صغيرة pays de petites cultures حيث تدافع كثيرون من أجل أرض صغيرة فقيرة التربة وحيث مئات آلاف منهم تخلوا عن نصيبهم بجني المحصول على مساحاتهم الصغيرة في سفوح التلال وصاروا عمالاً متنقلين دون أرض. ولكن حتى في الأراضي ذات الزراعات الكبيرة pays de grandes cultures، حيث كانت قطع الأرض أكبر، والمحاصيل التي تزرع للبيع في أسواق المدينة أكثر شيوعاً وأفضل وصولاً، والأرض أكثر خصباً، وجني المحصول أكثر وفرة، كان الكثير من الشكاوى هو نفسه. وذلك لأنه في تلك المناطق (مثل إل دي فرانس وبيوس ووادي اللوار والفلاندر الفرنسية وأرتوا)، كان الفلاحون أكثر غنىً، مع ممتلكات كبيرة وقليل من التعليم، قد شعروا على نحو أكثر حدة بالتهديدات التي يواجهها أمنهم الجديد من خلال تطورات النصف الثاني من القرن. ومقاومتهم لتسييج الأراضي

العامة وتجفيف البرك وأرض الغابة ربما يوصَف على نحو أفضل بأنه صراع من أجل موارد رأس المال مع وكلاء العقارات الإقطاعية أكثر منه نزعة محافظة عمياء. لكنه كان قائماً على مبادئ وأفعال جماعية وليس فردياً أعزل. وتماماً قبل عام 1789، تفاقمت المقاومة ضد مخصصات ملاك الأراضي عبر جمعيات القرى والمحاكم المحلية، حيث بالتماسك المتزايد فإن وكلاء الحكومة كما هو غالباً لم يتخذوا موقفاً ضد السيد الإقطاعي، وبالنتيجة، في الوقت الذي أطلق فيه النداء لرفع العرائض، كانت قيادة القرية المحلية، التي هي عادة في يد المزارعين الأغنياء، قد عرَّفت شكاويها واختبرت قوتها ضد النبلاء المحليين مسبقاً مفترضة أن التاج سيكون حليفها في حملتها من أجل الحقوق المحلية المشتركة.

كان رؤساء القرية هؤلاء (في الفلاندر الفرنسية الذين كانوا يسمون حرفياً هوفمانِن hoofmannen) هم أنفسهم غير منيعين ضد الانتقاد. حيث، كما في بيوس وبراي Brie، كانوا يحققون أرباحاً كأفراد من التسييج وتقسيم الأرض العامة، وقدمت العرائض مجموعة من الشكاوى المريرة من الفلاحين الأقل غنى على ذلك الهدف تماماً. وفي حالات كثيرة، كما في شاتِنيه وبِيليه ومارلي وسرفان ـ إن ـ براي، اتهم الفلاحون الأغنياء مباشرة بإفقار الكثيرين، وقدمت مطالب لتحديد حجم المزارع بأرض يمكن أن تُحرَث بأربعة محاريث. فقد جاء في عريضة فوسيه حيث اتهم المزارعون بتسليف المال للمزارعين الفقراء بشروط ابتزازية بنية مدروسة لاستخدام حبس الرهن لالتهام ملكيتهم «لقد حان الوقت لوضع حد لطموحات مالكي الأرض الأغنياء» وفي فوليرون، القريبة من لوزارتشي، كان ثمة مطلب صريح من أجل قانون «يُبقي الأرض في المزارع الصغيرة كما كانت في الأزمنة الماضية وعندما يكون بالإمكان تقديم العمل للمقيمين في الجوار».

وهكذا وقع النظام القديم الريفي في تناقضات ستستمر خلال الثورة. فمن جهة كانت الحكومة ملتزمة برؤيا فزيوقراطية للمستقبل: أسواق نقد، أرض متطورة، تراكم رأسمالي، أسعار أعلى للمنتج، محاصيل علفية ـ معقلنة، زراعة «إنكليزية» عبر جمعياته الزراعية، ومزارعه التجريبية (مثل المزرعة التي بذل فيها لافوازيه جهوده الرائدة في منطقة فقيرة في سولون) وسياسات تجارته الحرة، غير أن الحاجات المتتالية للضرائب (التي يمكن جمعها بطريقة أسهل عبر المؤسسات المشتركة) والسلام الاجتماعي دفعته باتجاه معاكس بالضبط، باتجاه الحماية والتدخل.

وكان واضحاً كثيراً من العرائض أن كثيرين في فرنسا أرادوا حكومة في الريف

أكثر، لا أقل. فقد طالبت جمعية بعد أخرى برجال شرطة أفضل ضد لصوص القطعان والخيول، والمشردين اللصوص والمزورين ـ وحتى، في كلوي في لواريه، ضد الدجالين والمشعوذين الذين جاؤوا كالوباء، قيل إنهم كانوا يغزون المنطقة باستمرار يؤذون الناس والحيوانات على السواء. وأرادت القرى ـ في كل من المزارع الكبيرة والصغيرة ـ رعاة أبرشيات حيث لا توجد، ورواتب أفضل لتلك التي لديها، ومدارس وطرقاً وجسوراً وملاجئ للفقراء والعاجزين. وكان الموضوع المشترك هو رغبة بنقل المسؤولية الاجتماعية من السلطات القضائية الخاصة ـ أكانت جمعية جباة الضريبة أو المحاكم الإقطاعية أو الأبرشية المحلية ـ إلى سلطة حكومة التاج ومن خلالها الأمة. وهكذا فالعدالة الملكية (أو الوطنية) وحدها ينبغي أن تقرر من يمتلك الحقوق على مجاري الماء أو الأراضي البور، سواء كانت أرضاً يمكن أن تبقى مفتوحة أو تُسَيَّج. والشراكة المتخيلة كانت بين سلطة شديدة التدقيق وجماعة محلية فعالة وقوية.

وبدا أيضاً بديهياً أن الدولة المشاركة حقاً من النوع الذي طُرِح في عرائض المناطق الريفية لا تقارن بالاستغلال مما تبقى من الحقوق الإقطاعية التي تنطوي على مفارقة تاريخية. وقد هوجمت هذه بضراوة من الكتاب مثل الأب كلرجي وزميل ترغوت بونسر، ولاسيما عندما تستخدم حجة لابتزاز المال من السكان المحليين، الذين بدورهم حُرِّروا من التزامات تقديم بعض الخدمات. فكّر كلرجي أن مثل هذا الزعم ـ من كونت إقطاعي حر ـ أنه يمتلك الحق بقيادة خدمه للصيد في الشتاء و«هناك يجعلهم يفتحون أحشاءهم ليدفئ قدميه في غائطهم» زائف جملة وتفصيلاً. ففي بورغندي ونافرناي لا تزال مثل هذه الأشياء الشاذة موجودة مثل تسليم لسان ثور يُذبَح من أجل مسرة قصر الإقطاعي. وفي فوجي vosges، طلب حق مماثل هو تقديم خصى العجول للمناسبة نفسها. وكان الأكثر إغاظة هو بقية الميت الذي يحتاج إلى إذن السيد الإقطاعي في ما يتعلق بفلاح ليبيع أرضه والذي يمنعه من توريثها بوصية إلى أي شخص غير قريب مباشر شاركه بيته. ومع ذلك كانت هذه مجرد مزق ونتف من إقطاعية تلاشت في بقية فرنسا.

والأكثر نموذجية، حوّل مدراء السيد الإقطاعي الامتياز إلى رسوم مقابل خدمات مزعومة عوضاً عن: الطحن، التخمير، عبور نهر، أخذ الحيوانات إلى السوق ـ بالإضافة إلى رسوم البدل المطلوبة كل سنة مقابل امتياز الزراعة نفسه على ما كان، في معنى حامل اللقب، أرض السيد. مثل هذه الخدمة والرسوم القانونية ضبطت بطريقة عدوانية كشكل جديد لممارسة العمل، يكتمل مع معظم الوثائق الأرشيفية حتى تاريخه (ليس تناقض

لفظين في فرنسا القرن الثامن عشر) ومهنة جديدة للباحثين لجعل المزاعم تتوقف، إذا ما فُنِّدت في المحكمة (كما كانت على نحوٍ متزايد).

إذن من بدايتها، كانت الثورة تعدو سريعاً في اتجاهات متعاكسة. يريد قادتها الحرية وتفكيك القواعد التنظيمية وحركية العمالة، وتعميم التجارة، وفعالية اقتصادية عقلانية. غير أن العوز الذي سيحث الناس على اقتراف أعمال العنف عملياً ـ المرخصة، كما افترضوا من الملك ـ برز من الحاجات المعاكسة تماماً. وكان هذا صحيحاً جداً في ما يتعلق بحرفيي المدن كما كان للفلاحين في الأرياف. فقد هاجم عدد لافت من العرائض في كل من المدن نفسها ولاسيما من المناطق الريفية التي تعتمد على النسيج والغزل في ورش صغيرة، هاجم المكننة ودمج العمليات الصناعية في المصانع. ومع ذلك كانت صلبة في شجبها بيع التجزئة الذي لا يتطلب براعة وتنظيماً في المعارض والأسواق. حيث كان ينظر إلى الباعة المتجولين والتجار المتنقلين من كل الأنواع أنهم متطفلون على التجارة يمررون سلعاً رديئة بأسعار تخفض أسعار هؤلاء الذين ينبغي أن يدفعوا الرسوم النقابية المهنية ويُختَبَرون لسنوات في التدريب على المهنة من أجل الشهادات الرسمية.

صحيح، كانت هذه الأفكار متوقعة، إذا أخذنا أن الجمعيات الأولية للطبقة الثالثة في المدن كانت تنظمها النقابات المهنية والاتحادات بالحسبان، وبالتالي يتوقع المرء أن تطغى آراء معلم أصحاب الحرفة بدلاً من العمال البارعين المتنقلين، كما حدث حقاً. ولكن سيكون من السذاجة على نحو مماثل افتراض أن معلمي المهن والعاملين كانوا منقسمين بالضرورة حول مخاطر تفكيك القواعد التنظيمية للعمل ببساطة لأن المسائل الأخرى ـ وبشكل أساسي أجر الحد الأدنى ـ كانت عنصراً هاماً معتاداً في النزاع. ففي معظم المدن الكبيرة، كانت العداوة الطويلة الأمد بين الحرفيين المستقرين منذ زمن طويل في مهن مثل الخياطة والعمل المهاجر الذي ينتج قطعاً للبيع في أكشاك مرتجلة في السوق. وحتى في باريس، حيث كانت سوق العمل مرنة، لم يكن واضحاً على الإطلاق أن عرائض النساء بائعات الأزهار ومزينات القبعات لم يمثلن العمال بالإضافة إلى أنصار النقابة المهنية. فقد كنّ مهتمات جداً بأنه «في هذه الأيام يظن أي شخص أنه يستطيع تشكيل باقة أزهار» وأن «النساء المجردات من المبادئ» يُسقِطن «بائعات الأزهار المستقيمات إلى الدرك الأسفل من الفاقة بممارساتهن المشوشة». لم يكن ذلك فعل نصيرات النقابات المهنية، بل «أمهات العائلات، اللواتي عليهن أن يدفعن ثلاثين قرشاً كل يوم مقابل الطعام»، واللواتي كن يُدفَعن إلى الخراب من خلال السوق الحرة. وكن

معاديات لاسيما لممارسة النسوة من خارج الضواحي اللواتي يأتين عند طلوع فجر اليوم ويعرضن أزهارهن بثمن أقل من المتفق عليه. وقد طالبن، يجب ألا يُسمَح لأحد بأن يبيع قبل الساعة الرابعة فجراً بين الفصح ويوم القديس مارتن (11 تشرين الثاني) أو قبل الساعة السادسة صباحاً في بقية أيام السنة.

وفي المدن الإقليمية الأصغر مثل مرفأ الهافر على القنال الإنكليزية، غدت هذه العداوات أكثر وضوحاً. ففي العريضة نفسها التي شكت من عدم المساواة في الأجر، رفضت نقابة نجاري السفن بقوة ممارسة بناة السفن باستخدام العمالة الواسعة على قاعدة العمل اليومي. وبالمثل، أخذ باعة القهوة وعصير الليمون والخل استثناء بعدم ترخيص المنافسات التي تسرق موادها من السفن التي تفرغ حمولتها وتنشئ أكشاكاً تبيع بسعر منخفض. وأصر صانعو القبعات على أن سوق الهافر الذي يفتح مرتين في الأسبوع يدمر عملياً جماعتهم، لأن «الناس يُخدَعون بأشخاص دون أية معرفة يتسللون إلى هذه المهنة». والزيادة في السرقة والسكر والشجارات العنيفة في البلدة كانت بسبب، كما ظنوا، هذا التعويم والعنصر غير المنضبط.

وعلى الحدود المتغيرة بين المدينة والريف، كانت هذه النزاعات حادة بصورة خاصة. وكان السيناريو المعتاد هي الصعوبة التي يواجهها رجال البلدة في فرض القواعد التنظيمية بشأن تسويق المنتج الذي يُجلَب من المناطق الخلفية في الضواحي. لكن أحياناً يمكن أن يكون هؤلاء مزارعون من القرى «خارج الجدران» الذين يشعرون أنهم ضحايا الاستغلال التجاري. فقد كانت تجارة السماد هماً كبيراً لجماعات صغيرة كثيرة في جنوب باريس وغربها ـ هي الآن محطات نهائية في شبكة المترو ـ مثل فانڤ وإيغري وبانتان ولافييت. كانت هذه القرى الصغيرة الصاخبة لزمن طويل رهينة نقابة اللحامين في باريس، التي مُنِحت حق رعي قطعانها في حقول تلك القرى. وتبعاً لهذا الاحتكار، كانت منطقة نصف القطر حول باريس، في الحقيقة، مُطالَبة بإطعام بطن المدينة الكبير. كان المزارعون المحليون غير مُرخَّص لهم أن يربوا حيوانات أو أن يبيعونها للمدينة على حسابهم.

وفي كل حال، كان مسموحاً لهم أن يزرعوا الملفوف والبصل والجزر والفاصولياء. وفي تقدير لتسليم مروجهم للحامين في باريس، مُنِحت تلك القرى حق روث الشوارع مجاناً من المدينة: روث يستحق وزنه ذهباً كسماد في سوق الحدائق. ومنذ أواخر سبعينيات القرن الثامن عشر، شكت العرائض من الحواجز التي أقيمت لتستوفي رسوم عربات نقل السماد على أجور شحن تلك المادة الغالية خارج باريس منتهكة الاتفاق أن

هذا الشيء مقابل شيء آخر. وفيما استغلوا بهذه الممارسة الجديدة، هم بدورهم لم يُسمَح لهم باستيفاء أي رسم على لحوم التجار مقابل المرعى. والإصلاح، برأيهم، لا يكمن في الحل الليبرالي بالسماح لكل طرف أن يستوفي المعدل السائد مقابل خدماته، بل الأحرى إعادة الشروط التقليدية للاتفاقية. وإذا لم يتم فعل أي شيء هددوا أن يبيعوا قطعان اللحامين بطريقتهم الخاصة المباشرة.

وقد أثارت عمليات تحديث اقتصادية أخرى ردوداً غاضبة. شكل أحد المقاولين وهو ديفيه دي لا نوير Defer de La Nouerre مؤسسة لتحويل أحد روافد نهر السين، إيفيت Yvette إلى قناة جديدة، وقد أثار ذلك معارضة عنيفة من كل الدوائر الواقعة على مسار الرافد، حيث أن الخطة ستسلب ضاحية سانت مارسيل مصدر ماء رئيس، وتدمر صناعة التطريز الفرنسية المعروفة بِ غوبلين Gobelin، والأسوأ من كل شيء حرمان 16 طاحونة مائية من القدرة على إنتاج الدقيق. وفي شباط عام 1788 حظرت محكمة باريس المشروع وأمرت ديف أن يصلح أي دمار سببه في الأعمال التمهيدية وإعادة النهر إلى مجراه الأصلي، غير أن حكومتي براين ونِكر فضلتا المشروع، وبوضعها غير المستقر، هددت عرائض الجماعات المتأثرة بالانتقام ما لم تتوقف الأعمال في المشروع.

إنها هذه الأنواع من الشكاوى المحلية المحددة جداً هي التي أمكنها أن تثير المشاعر القوية في شتاء وربيع عام 1789. وكما في الدعاوى أمام المحاكم، التي كانت حالات منفصلة للأنواع بين الرأسمالية الناشئة، وحقوق الجماعات المحلية. فقد أسهمت بدور كبير في تسييس جمعية الطبقة الثالثة من خلال حبك تلك الشكاوى في نصوص العرائض ومن خلال إجراءات انتخاب المندوبين إلى مجلس الطبقات. وفي هذا المعنى على الأقل كانت سياسة الأمة مكونة من عدد لا يحصى من الشكاوى المحلية كما كانت من النعوت العالية الصوت في صنع الدستور. وكما ستكون الحال أثناء الثورة، فإن مصالح الوسط والمصالح المحلية، ومصالح النخبة والعامة لم تشد الحبل في الاتجاه نفسه دائماً.

ففي حين أن عرائض النبلاء الليبراليين عرضت صورة مغرية لتحديث فرنسا الذي يجري بسرعة والذي سيكمل التغييرات العظيمة التي تمت في سبعينيات وثمانينات القرن الثامن عشر من خلال هز القيود مثل فراشة تخرج من الغلاف الكلسي للخادرة، أرادت عرائض الطبقة الثالثة، غالباً جداً، العودة إلى الشرنقة. من خلال التضمين أشاروا إلى فرنسا أسطورية يحكمها ملك عادل كريم يرى الجميع ويهتم بالضعفاء ورجال دين متجاوبين. وفي ذلك الكومنولث المثالي، ستعمل الإدارة بطريقة ما على أن تكون في كل

مكان ولا في مكان، تحضر في المجموعة المحلية عندما تدعو الحاجة (كما في تعزيز قوات الشرطة التي طالبت بها عرائض كثيرة) لكن أن تكون حذرة فلا تعامل الحقوق المحلية بقسوة. وبالتالي ستنجح مثل هذه الحكومة في إنشاء علاقات متبادلة وعادلة بين المواطنين وبين المواطنين والحكومة.

وفوق كل شيء كان يجب أن تكون فرنسا متحررة من مفاسد الحياة الحديثة. فقد حثت عرائض لا تحصى من الطبقة الثالثة على إلغاء بيوت القمار واليانصيب ـ وفي بعض الحالات حتى المقاهي ـ بوصفها أمكنة سيئة سمعة تبتلع روادها من الشباب في الفقر والانغماس في الملذات. وفي ما يتعلق بالعالم المرقش ـ بالمفلسين والمرابين والمضاربين بالحبوب ـ فهؤلاء يستحقون عقابهم الأشد ضراوة، مثل الوسم بالنار. وحثت عرائض كثيرة على إلغاء الفرق المسرحية الصغيرة ـ مسارح الشوارع (البوليفار) ـ بحماسة كان يمكن أن تبعث الدفء في قلب جان جاك روسو. وكما لو أنهم تبعوا الخطابة الرؤيوية لِـ مرسييه، رغبوا بأن يشقوا دملة حياة المدينة المسمومة وينظفوها من أردانها.

طبعاً، كان هذا أن تطلب المستحيل، غير أن طلب المستحيل تعريف جيد للثورة.

IV ـ الأرانب الميتة وورق الجدران الممزق

آذار/مارس ـ نيسان/ابريل 1789

وقعت الإصابات الشديدة الأولى للثورة الفرنسية على الأرانب. ففي10 و11 آذار عام 1789، شكّل قرويو نيوفييه أنفسهم في جماعات صغيرة مسلحة بالهراوات والمناجل وبحثوا في المروج والغابات عن أعدائهم الصغار الكثيري التناسل. وقد رافقتهم كل الكلاب التي يمتلكونها، وعنى نباحها «هَوْ هَوْ» لبقية فريق الصيد مقتلاً مرضياً. فحيث لم يجدوا أرنباً، وضعوا الأفخاخ في تحدٍّ لقوانين الصيد الدراكونية التي روَّعت الفلاحين طويلاً إلى طاعة متجهمة.

وقامت غزوات مماثلة في كل أنحاء إل دي فرانس وأمكنة أخرى في شمالي فرنسا من أراضي الكونت دوازي Comte d'Oisy في أرتوا Artois إلى تلك التي تعود للأمير دي كونتي في بونتواز Pontoise. وإذ احتقروا قوانين الصيد التي حمت الطيور والحيوانات، والقائمين بدور «القادة» الذين فرضوا ذلك عليهم، عاثوا بأحذية ذات مسامير النعل القصيرة خلال الغابات المحظورة أو تسلقوا فوق الأسيجة وجدران الحجارة. كان العشب مجزوزاً في حقول الحبوب ليكشف أعشاش الحجل والتدرج والبكاسين ونقار الخشب،

كُسِرت البيوض أو تُرِكت الفراخ للكلاب. لقد هُشِّمَت أراضي الأرانب، وأستؤصلت الأرانب من وراء الصخور. وفي القرى الجريئة أقيمت الوجرات لجائزة الصيد الأكثر أهمية، اليحمور، الذي هو أيضاً المستهلك الأكثر نهماً للبراعم الخضراء. وكانت أكثر الهجمات إثارة للروعة هي التي وقعت على تلك القصور المصغرة: أبراج الحمام، التي رأى الفلاحون فرق الغارات الجوية تنطلق منها ضد بذورهم، وتعود بأمان مطلق إلى مجمع سيدها الإقطاعي. لقد كانت، كما تقول إحدى العرائض... «لصوص طائرة». وفي إحدى مقاطعات اللورين، دعا ما لا يقل عن تسع عشرة عريضة إلى تدميرها بالكامل، فيما ألحت ست عشرة عريضة على أن يُغلَق على اليمام والحمام، في الأقل، لخمسة عشر يوماً بعد البذار.

لا يمكن أن نصف ذلك أنه انتهاك للحرمة ما دام لم يوجد شيء مختلس بشأن القتل. في بعض الحالات، كانت الطرائد المذبوحة تُعلَّق على سواري مثل تذكارات الصيد وتستعرض حول القرية. في البداية أسرعت العصابات إلى الدوريات الراكبة لخدمة القيادات المسؤولة. لكن كان ثمة ببساطة عدد كبير من الفلاحين العازمين الذين لم يكونوا مُعَدِّين لرؤية محصولهم الربيعي يتحول إلى علف للأرانب، بعد أن خرب المناخ محصولهم الشتوي. وفي بعض الأمكنة، مثل أراضي الأمير دي كوندي قرب شانتيلي، تجاهل الفلاحون ببساطة قوانين الصيد واصطادوا عمداً. وعندما ركضوا نحو حراس الطرائد، كما في 28 آذار، أطلقوا النار عليهم وأردوهم قتلى في المكان.

لقد تعثرت المحاولات التنظيمية المنهجية بمواجهة هذا النوع من العصيان الجماهيري، وقبل وقت طويل أدارت السلطات عينا عمياء إلى الكثير مما كان يحدث. ففي وازي Oisy اجتاح أشخاص من قرى متحدة محمية صيد الكونت المحلية. وفي هربلي Herblay، حيث كان الذبح ضارياً على نحو خاص، اعتقل زعيم التمرد، المسمى على الأرجح باسم الجزار توسانت، لمدة وجيزة، ثم أُطلِق سراحه. وفي تحدٍ لإدارات محميات الصيد والمجازفة بعقوبات تنطوي على الجلد والوسم والنفي، اعتقد قتلة الأرانب والطيور أنهم يمتلكون الحق تبعاً لشكل إرادة الملك. فقد أصرت إحدى العرائض في إل دي فرانس Ile - de - France على أن «الإرادة العامة للأمة توجب إلغاء قوانين الصيد لأنه يوفر ثلث عيش المواطنين وهذه غاية ملكنا الصالح الذي يرعى الصالح العام لشعبه ويحبه».

لليائس، كان شيء ما مُرضٍ بصورة خاصة بتدمير برج الحمام. ولكن عندما أخذ

محتواها المشوه ينتشر فوق مروج أرض الريف، كانت ثمة رسالة واضحة وبليغة تُنقَل إلى السادة الإقطاعيين في فرنسا. أعلنت الثورة ضد مناطق الصيد حركة من الشكوى الشفهية إلى الفعل العنيف. لقد كان الأمر كما لو أن استشارة الملك للشعب قد أنتج فرضية أن الملك قد أجاز الآن ما كان غير قانوني، وأن هذا القانون، وعلى نحو أوسع إرادة الأمة، ألغت تخصيصات الامتياز الجشعة. وقتل الطرائد لم يكن مجرد فعل يأس، لقد كان في ضوء عام 1789 عملاً وطنياً.

وقتل طرائد السيد الإقطاعي، بعد كل شيء، كان مفضلاً لتحويل الغضب إلى أشخاصهم. وما يلفت النظر أنه خلال تمردات الريف في عام 1789 اختيرت سلسلة من الأهداف الحيوانية أو الحية لتفريغ الحقد الغريزي. سفح الدم من خلال أضحيات بديلة، مثل تماثيل عرض الثياب التي أحرقت على جسر بونت نوف Pont Neuf، فقد قامت جائزة الحمامات البيضاء التي خنقت في أبراجها أو الأهداف اللاحية أكثر مثل شعار النبالة المشوه بعنف على العربات أو مقاعد الكنيسة بالوظيفة الرمزية نفسها: قربان للحرية.

والهجمات على نقل الحبوب، التي انطلقت في الوقت نفسه تقريباً، اتبعت النموذج نفسه أيضاً. وكما في «حروب الطحين» عام 1775، اعتقد المتمردون أنهم ينفذون إرادة الملك على نحوٍ أكثر إخلاصاً من السلطات التي اغتصبت اسمه. لقد أعلن مرسوماً، هكذا أشيع، أن سعر سيتير setier القمح وهو يساوي 100 لتر يجب أن يُخفَّض من 42 ليفر إلى 24 ليفر - كما لو أن هناك عدالة بدائية مورست في عكس الرقمين. وكان يجب تخفيض سعر الخبز إلى قرشين للرطل تماماً بدلاً من 4 قروش سعر السوق. وأعداء الملك هم أنفسهم أعداء الشعب: المضاربون، أصحاب مخازن الحبوب، الطحانون المحتالون، أصحاب البنوك ذوو الأرباح الفاحشة. وفراغ السلطة الذي أُعلِن بالانتخابات إلى مجلس الطبقات عزز هذا الانطباع وجعل قيادة الهجمات على القوارب والعربات ومخازن الطحين أكثر جرأة. وكان الرائع في تلك القيادة هي النساء. ففي فروفلي Viroflay كانت النساء هن اللواتي أنشأن نقطة تفتيش على الطريق بين فرساي وباريس، يوقفن الشاحنات ويفتشنها من أجل الحبوب أو الطحين قبل أن يسمحن لها بالمرور. وفي جوي Jouy، أمرت عصابة أخرى من النساء أن تُباع الحبوب بسعر أقل من معدل السوق والمزارع الأكثر أهمية في المنطقة المجاورة، رجل يدعى بيور Bure، تركهن يأخذنه بطريقة حكيمة بأي سعر يطلبنه. وكانت الحكاية في الريف المحيط بباريس من بورغ - لا - رين إلى رامبوليت هي نفسها تتكرر.

وفي أوائل ربيع عام 1789، كانت جغرافية التدخل الشعبي أوسع كثيراً مما كانت

قبل أربعة عشر عاماً. وقد شهدت الفترة من أواسط آذار إلى أواسط نيسان هجمات على الأفران ومخازن الحبوب في كل أرجاء منطقة نورد، من كاميري وفالنسين إلى دنكرك وليل. وفي بريتاني، لم تخمد في الواقع أعمال العنف منذ قتال الشوارع في كانون الثاني في رين لكنه انتشر إلى البلدات الصغيرة مثل مورلي Morlaix وفان Vannes. وبين 30 آذار/مارس و3 نيسان/ابريل فرضت أعمال الشغب في بيسانغون التي قادتها نساء معظم أسعار الحبوب ومضت إلى تحطيم منازل القضاة العنيدين.

وقد تطلب اتساع أعمال الشغب وشدتها في الريف قوات لاحتواء الحركة قبل أن تغدو انتفاضة عامة. غير أن وباء التمردات في البلدات الريفية ادى إلى نشر القوات المتوفرة بشكل متباعد جداً. وأكثر فأكثر، تُرك الأمر للجماعات المحلية أن ترد الخطر بذاتها قدر استطاعتها. ومبكراً في نيسان/ابريل 1789 وضعت تروييه Troyes مثالاً بتشكيل ميلشيا مدنية مسؤولة عن السلطات المحلية بدلاً من موظفي التاج. وبعد عام، عُقِدت اجتماعات لأغراض انتخابية منحت زخماً أكبر لهذه الأيلولة في السلطة بسبب التوتر وتم تسليح الحراس المتطوعين في مرسيليا وإيتامبه وأورليان وبيوجنسي Beaugency. كانت تلك نقطة حاسمة في انهيار السلطة الملكية. جاء الاعتراف أولاً بأن الملك كأب معيل لم يستطع أن يعيل رعاياه. ثم جاء الدليل الساطع أنه لا يستطيع أن يحميهم أيضاً.

في باريس طبعاً، كان ذلك الغضب والجوع الأكثر خطورة مجتمعَين. وبالإجمال، كانت المدينة ساخطة لأنها مُنِعت من الاجتماع على غرار دوفين، ككومونة متحدة (حقها القروسطي). وقد سبقت الاجتماعات الانتخابية العشرون للنبلاء في باريس (بالإضافة إلى الكثير من اجتماعات رجال الدين) عرائضهم بشكوى رسمية أنهم هكذا حرموا من بركات الأخوة الوطنية. وحيث أن سدس المواطنين محرومين من حق التصويت بسبب مؤهلات الضريبة في أمكنة أخرى من فرنسا، في باريس مؤهل الضريبة الأعلى ستة ليفرات ضمنت أن المعدل قد ارتفع إلى الربع. وقد علق كراس نموذجي يعارض هذا الاستبعاد بغضب أن «مندوبينا لن يكونوا مندوبينا. فالأشياء قد أعدت بطريقة لا يمكن أن يكون لنا فيها دور في انتخابهم، ومدينة باريس، المقسمة إلى ستين دائرة، ستكون بكل الطرق، مثل ستين قطيعاً من الخراف».

وكان العامل الباريسي بالتالي هو الأول الذي يختبر، في المدى القصير، الشعور بخفة التمثيل الوطني الذي تبعته لسعة التغريب. وبمعزل عن الركود الصناعي، فنهر السين المتجمد قد أخذ أسباب العيش من عمال الأرصفة وعمال السفن والأخشاب القائمة،

وقد استمرت الظروف القاسية حتى الربيع مضيفة إلى ذلك العمال العاطلين في البناء والدهان والنجارة. وعندما اعتدل المناخ إلى حد ما في نيسان أرسل نحو اثني عشر ألف عامل من الأكثر حاجة للحفر في هضاب مونمارتر، وآخرون لكشط الأرصفة أو تنظيف الأنهار والأقنية. غير أن حجم المحنة أغرق مشاريع العمل المتواضعة هذه.

في مخازن بيع الخبز، تقلب سعر رغيف الخبز التي تزن أربعة أرطال الهامة من كل الأوجه بين 12 و15 قرشاً. وفي شباط غُرِم 27 خبازاً بخمسين ليفراً لكل منهم بسبب تجاوز سقف السعر المسموح به وهو 5.14 قرشاً. وقد اعترضت نقابتهم فوراً على ذلك، بسبب النقص وأسعار الجملة العالية. كان مستحيلاً لهم أن يبيعوا بهذا المستوى دون غش بالقمح أو تلويث الرغيف على نحو خطير ببدائل أخرى. جاء في تقارير الصحف أن الرجال كانوا يبادلون قمصانهم مقابل الخبز و، في إحدى الحالات، أزالت امرأة مخصرها وأعطته للخباز مقابل رغيف خبر. في مثل هذه الظروف بدت إحدى عرائض الفقراء تجادل من أجل أجر حد أدنى قانوني يضمن الحياة لجميع القادرين على العمل من رجال ونساء. وعريضة أخرى من الطبقة الرابعة كتبها دوفورني دي فيلييه حثت على فرض ضرائب كبيرة على الأغنياء لإعالة الفقراء، مادام الجشع خلق مجتمعاً «يُعامَل الناس فيه كما لو أنه يمكن التخلص منهم عند الحاجة».

وفي نهاية نيسان/ابريل بعد أسبوع على عقد الاجتماعات الأولية للطبقة الثالثة التي تأخرت كثيراً، خرج البؤس والشك عن السيطرة في العنف. كانت المناسبة إحدى الشائعات المتداولة في ضاحية سان أنطوان (مباشرة إلى شرق الباستيل)، أن صانع ورق الجدران ريفيلون Réveillon قال إنه سيخفض أجور عماله إلى 15 قرشاً في اليوم. وقد أنكر ريفيلون وزميله ضحية مصنع نِترات الصوديوم هنريوت الذي أنكر القصة بطريقة ساخطة. لقد كان، في الواقع، أحد أكثر أرباب العمل الذين يتمتعون بضمير حي في باريس، كان يدفع متوسطاً بين 35 وخمسين قرشاً في اليوم وقد احتفظ بمعظم قوته العاملة المسجلة خلال الفترة الأقسى من الشتاء عندما جعل الطقس عملهم مستحيلاً. لكنه كان تماماً نوع المقاول الرأسمالي الذي يضمن أن يثير حنق كل من الحرفيين المستقلين والعمال المهرة المياومين الذين شكلوا الأكثرية في ضاحية سان أنطوان.

سيرة عمل ريفيلون قصة نموذجية لرجل الأعمال العصامي الشائعة في نهاية النظام القديم. بدأ عاملاً متدرباً بسيطاً في ورق الجدران لكنه ترك الصناعة التي تراقبها النقابة المهنية من أجل خط أكثر حداثة وحرية في صناعة ورق الجدران. تزوج امرأة ثرية،

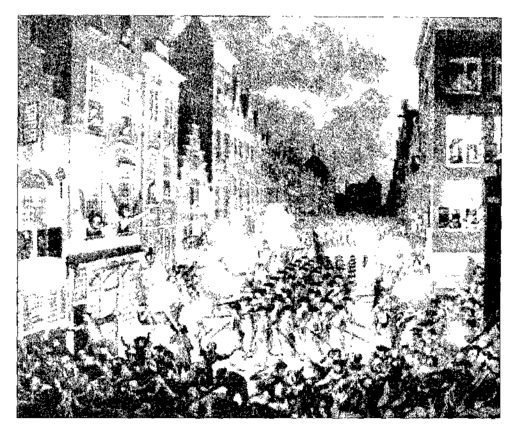
واستخدم المهر لشراء أعماله. وفي عام 1789 كان يقيم في الطابق الأرضي من منزل كبير اشتراه ريفيلون من ممول مُدمَّر انتقل أثاث منزله إلى الرجل العصامي مقابل شققه في الطوابق العليا. وبدلاً من مجرد الطبع والتصميغ والإكمالات، امتلك ريفيلون مصنع ورق جدرانه الخاص، وهكذا يراقب عمليات الإنتاج كلها، وكما أظهر تاريخ مونتفلفييه، كان ثمة علاقات وثيقة بين صانعي الورق وعالم العلم وكان ذلك في ورشة ريفيلون أن بيلاتر دي روزييه قام بتجاربه الأولى في صناعة المناطيد. وقد اشتغل ريفيلون بالكيمياء كفاية ليكتشف عملية جديدة لصنع الورق الرقي، الذي تحول عنه في أعماله في براي Brie. وبحلول عام 1784 كان يستخدم أربعمائة عامل، ويستخدم تصاميم أفضل الفنانين في غوبلين، وتلقى ميدالية ذهبية خاصة للتفوق في التصنيع. وقد أعد أيضاً لتصدير منتجاته إلى إنكلترا.

كان تماماً نوع المشروع الحديث الذي رآه حرفيو الضاحية تهديداً. فقد كان التركيز على العمل، واستخدام الأطفال خارج نظام التمهن، ودمج العمليات الصناعية جميعاً كافية لتعزل ريفيلون كعدو. والأسوأ، منزله، تيتونفيل، الذي وقع على زاوية شارع دي مونترويه de Montreuil وشارع ضاحية سان أنطوان، الشهير بأثاثه الرائع ومكتبته الضخمة، والأكثر أهمية مخزون خمره الكبير والمحبوب الاقتناء الذي يتسع لألفي زجاجة.

كانت مصيبة ريفيلون نتيجة تأملاته التي لم تستوعب الاقتصاديات الحديثة جيداً. ولما قاله عملياً في لقاء انتخابي في دائرة سانت مارغريت هو أنه «طالما كان الخبز هو أساس اقتصادنا القومي، «يجب أن يُحرَّر توزيعه، الأمر الذي يسمح بانخفاض أسعاره. وذلك بدوره سيسمح بتكاليف أجور أقل، وأسعار تصنيع أقل ومنافسة أسرع.

كانت تلك دعاية جيدة لغرفة التجارة، لكن عندما تؤخذ مع تعليقات مماثلة من هنريوت، فليس صعباً أن تبدو مثل تهديد لتخفيض الأجور. غير أن المظاهرات الأولى لا يبدو أنها انطلقت من ضاحية سانت أنطوان، حيث يعيش عمال ريفيلون (عدد قليل منهم تورط بأعمال الشغب)، بل في الضاحية الأكثر فقراً سانت مارسل عبر النهر. كانت هذه الدائرة تحت هيمنة المخمرين وعمال مدابغ الجلود الذين تضررت صناعاتهم بشده بسبب تجمد نهر بيافر Bièvre الذي تعتمد عليه عمليات تصنيعهم. حشد من عدة مئات مسلحين بالعصي شقوا طريقهم باتجاه سانت أنطوان وهم يصرخون «الموت للأغنياء، الموت للأرستقراطيين». وانطلقوا بمظاهرة صاخبة إلى مصنع ريفيلون مسلحين بالعصي. وركض بائع الكتب سيمون هاردي، الشخص الأكثر قيمة بالتدخل في باريس، باتجاه إحدى المجموعات من المتظاهرين، التي كانت تعد أنئذٍ نحو 500 شخص، يحملون مشانق

صورية علقوا عليها صورة ريفيلون وإعلاناً يقول «مرسوم من الطبقة الثالثة تدين وتشجب المذكورين أعلاه ريفيلون وهنريوت اللذين يجب أن يشنقا ويحرقا في ساحة عامة». وفي الوقت الذي وصلوا فيه مكان دي غريف de Grève تضخم العدد إلى ثلاثة آلاف. وهناك حاولوا أن يوقفوا حركة السير ويغرزوا خازوقاً قبل أن يتقدموا إلى منزل ريفيلون في شارع مونترويه.



الصورة 83، أعمال شغب ريفيلون، نيسان 1789

شكلت جمعية الناخبين من دوائر باريس الستين نفسها إدارة غير رسمية عملياً، وأدارت عملها في أركيفتشي Archevêché. وقد أرسلت ثلاثة متطوعين شجعان، إثنين منهم صانعي نسيج للتحدث إلى الحشود. «من أنتم ولماذا تريدون أن توقفوننا عن شنق ريفيلون؟» سأل أحدهم من الحشد. وبشهامة عظيمة مستعارة مباشرة من المسرح، رد صانع النسيج تشارتون: «أنا المعيل للعديد منكم (يعني رئيسهم في العمل)، وأنا أخوكم جميعاً». «حسن إذن، ما دمت أخانا، عانقنا (برهان الأخوية، الذي كثيرون من اليعاقبة الأشد حماسة لم يستطيعوا استخدامه في أوج صعودهم). «بكل رغبة» رد تشارتون، «إذا رميتم عصيكم»، وأوضح أن ريفيلون وهنريوت وطنيان جيدان وصديقان للشعب وقد بدا

أنه امتلك التأثير المهدئ المطلوب، عندما تفرق المتظاهرون.

ومع ذلك، لم تنتهِ المشكلة. وإذ منِعوا من الوصول إلى منزل ريفيلون بواسطة مجموعة من خمسين حارساً (من الحرس الفرنسي)، رتّب المتظاهرون للوصول إلى منزل هنريوت، الذي حطموه من الأعلى إلى الأدنى وهشموا أثاثه وحرقوا البقية في الشارع.

وفي اليوم التالي، 28 نيسان، ساءت الأمور أكثر، كان ثمة حشد بحجم حشد اليوم السابق تخطب فيه امرأة في الأربعين من العمر هي ماري جان ترُمو - Marie - Jeanne Trumeau، زوجة حامل عاملة مياومة من ضاحية سانت أنطوان. ومع شاب في الرابعة والعشرين من العمر بيير جان ماري Pierre - Jean - Mary أدرج في سجلات المحاكمة بأنه كاتب، حثّت الحشد على متابعة ما بدأه في اليوم السابق. وإذا شقوا طريقهم عبر نهر السين، ازدادت التعزيزات من سان مارسل بالناس على النهر: حمالو السفن العاطلون عن العمل وهؤلاء الذين يدفعون الأطواف الخشبية. ومع المخمرين والدباغين من سانت أنطوان حشدوا جمهوراً منيعاً تراوح عدده ما بين خمسة آلاف وعشرة آلاف واجه حاجزاً من الحرس الفرنسي أمام منزل ريفيلون.

هدد مثيرو الشغب بفعل شيء أكثر خطورة من تدمير ملكية ريفيلون أو سحق أمن باريس، بوقف سباق الخيل في فنسين Vincennes . لأنهم سواء كانوا يعيشون في الفنادق في ماراي Marais أو في سان جرمان، فإن جمعيات مالكي الأحصنة المخصية والمهرات، والكثيرين الآخرين الذين سيراهنون عليها، عليهم أن يمروا عبر سانت أنطوان للذهاب إلى مضمار السباق. وأعمال الشغب هي أعمال شغب لكن ازدحام حركة السير كانت مسألة جدية حقاً، إذا لم نشِر إلى الشتائم والتلويح بالقبضات على أي شخص في عربة أنيقة لا يظهر الحماس للطبقة الثالثة. فدوق أورليانز، بطل الحشد و(الفارس ذو المكانة)، كان استثناء. قُدّمت له التحية كما (لو أنه آخر) «أبو الشعب»، أطل الدوق من عربته، ولوّح بود وتكلم بصوت عالٍ بمعنى أن كل أصدقائه يجب أن يهدؤوا. ولما ردوا بحجة أن كل شيء على ما يرام ولكن أصحاب الأعمال الجبناء سيخفضون الأجور إلى 15 قرشاً في اليوم. ردّ أورليانز بالطريقة الوحيدة التي عرفها ـ بنثر حقائب من النقود بين الحشد، ويخرج بهتاف وتصفيق يعطيه حق قدره.

وعلى نحو مفهوم، هدأ التوتر، غير أن الحشد ظل في المكان وهكذا فعل الحراس أمام منزل تيتونفيل. وقد بقي الحشد على تلك الحال لعدة ساعات حتى عودة الذين ذهبوا إلى السباق. وعلى نحو معقول، حوِّلت حركة المرور عند حاجز ترون Trône ـ كله، أي،

ما عدا عربة زوجة أورليانز التي أصرت على الطريق المباشر إلى القصر الملكي.

وعلى نحو مقدر لا يُرَدّ، انقسم الحرس ليدعوها تمر وفجأة تبعها آلاف، صبوا في مصنع ريفيلون. رتب صاحب المصنع وأسرته ببساطة للهرب عبر الحدائق التي فروّا منها إلى الباستيل للسلامة. وفي غضون ساعتين لم يبقَ شيء في منزلهم ومصنعهم إلا العدد الكبير من الزجاجات في القبو، الذي حتى حشد من آلاف لم يكن قادراً على استهلاكه في مرة واحدة. حرائق هائلة في الحديقة استهلكت الورق والصمغ ـ مادة مثالية للاحتراق ـ والطلاء والأثاث واللوحات.

وعلى نحو متأخر، شقت قوة عسكرية من عدة مئات ـ مكونة من مفارز الحرس الفرنسي، وحرس المدينة Guêt والقوات النظامية مسلحة بمدفع وتقرع الطبول ـ طريقها إلى المنزل. وإذ أُمطِرتْ بوابل من الحجارة والقرميد، أطلقت نارها في الهواء أولاً، وعندما لم يكن لذلك تأثير، أطلقت النار على الحشد مباشرة، حتى الماركيز دي فِرير Marquis de Ferrières المعروف باعتداله، صادف أن رأى المشهد، فوصف ذلك أنه مذبحة، مع أن سجلات العدد الدقيق من القتلى تراوحت بين 25 و900 قتيلاً. وبالتأكيد كان ثمة 300 إصابة بين المدنيين على الأقل ويبدو محتملاً أن هناك عدداً كبيراً من الإصابات الخطيرة.

وفي محاولة لإظهار القوة، قُبِض على رجلين ينهبون ـ بواب وعامل بطانيات ـ فحوكما وشنقا في الثلاثين من نيسان ـ وبعد ثلاثة أسابيع حوكمت مجموعة أخرى من سبعة أشخاص وأحد أعضاء المجموعة، كاتب الرسالة العامة ماري، حكم بالإعدام بعد عرضه في الشوارع مع إشارة تعلنه «محرضاً». وخمسة من رفاقه، بمن فيهم شاب بعمر خمسة عشر عاماً يتدرب على صنع المفاتيح، أُجبِروا على مشاهدة موت ماري قبل أن يوسموا بوصمة «GAL» على كتف كل منهم ويرسلون للعمل في السفن مميزين بتلك العلامة. أما ماري جان ترُمو فقد أرجئ تنفيذ حكم الإعدام الذي صدر بحقها بتدخل شخصي من ريفيلون نفسه.

كانت أعمال شغب ريفيلون في كل المعاني إلا واحداً إشارة لا تخطئ إلى الأشياء التي ستأتي. وكان الاستثناء هو أن ميليشيا الحرس الفرنسي وكثيرون منهم من طبقات مثيري الشغب نفسها أطاعوا الأوامر ولم يعزلوا أنفسهم (كما سيفعلون بعد ثلاث أشهر) عن القوات النظامية. لكن كان ثمة إشارات واضحة إلى أنهم أيضاً شعروا بالإساءة إليهم من السلطة، لاسيما عندما أنزلت رتبة الرقيب الذي أعطى الأمر بالسماح لدوقة دي

أورليانز أن تمر. فجمعوا أعطيات من بين الرجال لتعويض ما خسره من راتبه وفي الوقت نفسه تبرؤوا من الضابط الذي أمرهم بإطلاق النار على الحشد.

لقد سُفِك دم كثير في شغب ريفيلون أكثر من أي يوم آخر في الثورة حتى الانتفاضة الكبرى عام 1792 التي ستسقط الملكية. وهكذا ليس مثيراً للدهشة أن يأتي بوصفه صدمة عنيفة على حكومة مدينة. ولم تعد الحكمة المقبولة أن باريس يمكن أن تُضبَط بقوتها المنسقة البالغة ستة آلاف أو نحو ذلك معقولة. كان ثمة حاجة واضحة للجيش، مع أن الصورة الذهنية ملأت كثيرين من النخبة بكل من الخشية من شر مرتقب وإعادة الطمأنينة. وقسَّم الشغب المعلقين أيضاً إلى نبلاء مواطنين الذين رُوِّعوا بسفك الدماء والآخرين مثل كابتن من حامية ستراسبورغ من سلاح الفرسان الملكي الذي قطعت الضجة عشاءه في الماراي Marais وذهب ليتفرج على المشهد شخصياً. وكان ما رآه ليس مأساة بل «بل 1500 أو 1600 من قمامة الأمة، منحطين بآثام مخزية... يتقيؤون البراندي ويقدمون المشهد الأكثر إثارة للغثيان والاشمئزاز».

وقد اضطر الضباط الذين كانوا يراقبون العراك إلى الانسحاب بسرعة عندما لوحظ أن اثنين منهم يضعان الوسام العسكري لسانت لويس على أزيائهم الرسمية، الذي يستثير حنق الحشد، غير أن الذي أزعج الكابتن حقاً هو«الإهانة» في ملاءمتهم الشعار المحترم للطبقة الثالثة ـ يعيش نِكر والطبقة الثالثة» ـ هتافاً لمعركتهم. والأهمية الحقيقة لشغب ريفيلون هو أنه أشار إلى مدى قابلية قيادة الناس المنصبة ذاتياً للعطب إذا ما نشأت على أكتاف القوة الشعبية. ومادام خرفيو ضاحيتي سان أنطوان وسان مارسل قد تعلموا أن يصدقوا أن سبب مصيبتهم يمكن عزوه إلى «الأرستقراطيين» وعدد آخر من الأشخاص غير الوطنيين، فاستمرار تلك البلوى تفترض أن الخونة لا يزالون في السلطة. فالجوع، في كلمات أخرى، كان مكيدة. وقد عنى منطقها أن كشف المؤامرة وإبادة هؤلاء المسؤولين سيضع الخبز في أفواه الجوعى.

من جهتهم، اشتبه ممثلو الطبقة الثالثة في باريس المروعين بأن مثيري الشغب أنفسهم مرتشين من الجواسيس الملكيين لإثارة الاضطراب وبالتالي إرباك سلطتهم الجديدة. وريفيلون، بعد كل شيء، كان ناخباً ـ واحداً من صنفهم رجلاً معاصراً، ليبرالياً في سياساته، ونموذجاً للرأسمالي في مهنته. ولكن كان الأمر بالضبط أن هذا النوع من الرضا الذاتي عن العنف الثوري سيصنع حرباً. ومع أن زعماء الحشد في نيسان 1789 كانوا سيئي طالع، وأشخاصاً عاجزين عن الإفصاح عن آرائهم، كان ثمة آخرون ضمن

أصحاب الحق بالتصويت مستعدين لتكييف هذه الخطابة بتوجيه الاتهام الاجتماعي. وأخذت الكراريس تُوزَّع في شوارع باريس وظلت أمينة لسياسة عدّ صف الخبز. وما لم يقله أي شخص بعد كان أحد العناوين، ولم يكن العمل من عضو في «الطبقة الرابعة» بل عمل محامٍ في المحكمة هو دو لا هاي .De La Haie وما قاله هو أن الخبز يجب أن يكون الشيء الأول في «مجلس الطبقات» وأن واجب المواطنين الحقيقيين الأول هو أن «تنتزعوا من بين فكي الموت مواطنيكم الشركاء الذين يئنون على أبواب جمعياتكم». والكاتب نفسه وصف ما سيسفر عنه أحد الاجتماعات الانتخابية قبل أسبوع حيث صادف عدداً من المواطنين الذين مُنِعوا من الدخول بسبب فاقتهم:

كان لديهم شيء واحد ليقولوه:

«هل هم مهتمون بنا، يا سيدي؟ هل يفكرون بتخفيض سعر الخبز؟ لم نأكل شيئاً منذ يومين».

كان ثمة نوعان من المزاج الثوري في باريس عام 1789. كان الأول هو مزاج الرجل المعاصر: سيلفان بيلي Sylvain Bailly، وهو *فلكي وأكاديمي* ويقيم في ضاحية شايلوت، *وكانت الجمعية الناخبة له معادلاً لنوع من إعادة الولادة السياسية.*

عندما وجدت نفسي وسط جمعية الدائرة، فكرت أنني أستطيع أن أتنفس هواء جديداً. كان ذلك استثنائياً حقاً أن تغدو شيئاً ما في النظام السياسي وبجدارة قدرة المرء وحدها كمواطن... تلك الجمعية، وهي جزء ضئيل على نحو غير محدد من الأمة، شعرت على الرغم من ذلك أنها جزء من سلطة الجميع وحقوقهم ولم تقدم زعماً أن هذه الحقوق والسلطة تسلفها نوعاً ما من سلطة.

وكانت تلك السلطة التي واجهت بالضبط تحدي **الصيحات الأربع لأحد الوطنيين من الأمة**. ولجعل ذلك التحدي حقيقة، أكد الكاتب على أنه ينبغي تسليح المواطنين وحالاً. ولجعل ذلك واقعاً حقيقياً، يجب إبادة الأرستقراطيين وهكذا تنجو الأمة من «مكيداتهم الجهنمية». فأي معنى للتبشير بالسلام والحرية لرجال يموتون جوعاً؟ وأية فائدة سيقدم دستور حكيم لشعب من الهياكل العظمية؟»

كان ذلك هو الصوت الثاني للثورة. وخلال العام الأول من الثورة، سيتناغم الصوتان كجوقة للطبقة الثالثة، مواطنين وأخوة. ولكن قبل أن يمضي وقت طويل سيغيب الأرستقراطيون عن الأنظار أو يهلكون ويبقى الجوع. وعند تلك النقطة ستبدأ مسيرة صاخبة أكثر خطورة.

CHAPTER EIGHT

GRIEVANCES

ii THE GREAT DIVIDE

The evening with Malesherbes is described in Samuel Romilly, Memoirc (London 1841, vol. 1, 71 - 72); for Malesherbes' memorandum, see Grosclaude, Malesherbes (655 - 663). On radical pamphlet literature in the autumn of 1788. see especially Carcassonne, Montesquieu et le Débat; the excellent and underused study by Mitchell B. Garrett, The Estates - General of 1789 (New York and London, 1935); Shafer, "Bourgeois Nationalism"; and a number of important studies in Baker (ed.), Political Culture, especially those by Keith Baker, François Furet, Ran Halevi and Lynn Hunt, all of which bear on the crucial issue of representation. For d'Antraigues, see Carcassonne, Montesquieu et Le Débat (614 - 15), and his important Mémoire sur Les Etats - Généraux (1788). On the background of double representation, see George Gordon Andrews, "Double Representation and Vote by Head Before the French Revolution", in South Atlantic Quarterly (vol. 26, October 1927, 374 - 91). Mirabeau péré's memorandum on doubling in provincial assemblies was published as Précis de L'Organisation ou Mémoire sur les Etats Previnciaux (1758). Condorcet's comment on Lafayette is given in Louis Gottschalk, Lafayette Between the American and the French Rewlutions (Chicago 1950, 416). On noble opposition, see Daniel Wick, "The Court Nobility and the French Revolution: The Example of the Society of Thirty" in Eighteenth - Century Studies (1980, 263 - 84); also Elizabeth Eisenstein, "Who Intervened in 1788?" in American Historical Review 1965, 77 - 103). Arthur Young's description of the atmosphere in Nantes at the end of 1788 is in his Travels in France in the Years 1788 and 1789 (ed. Constantia Maxwell, Cambridge, England. 1929. 117). The Volney comment is cited in Garrett, Estates - General (127); Lanjuinais in ibid. (139). The text of the arrêt of the Parlement of Paris on December 5 is given in J. M. Roberts (ed.), French Revolution Documents (Oxford 1966, vol. 1, 39 - 42). and that of the Memorandum of the Princes of the Blood in ibid. (46 - 49). On Sieyès, Qu'est - ce que le Tiers Etat? see Paul Bastid, Sieyês et sa Pensée (Paris 1970, 344 - 49), and more recently the discussion by Roberto Zapperi in his edition (Geneva 1970). See also Lynn Hunt, "The National Assembly", and Pierre Rosenvallon, "L'Utilitarisme Francais et les Ambiguités de la Culture Politique Prerévo - lutionnaire", who argues Sieyès' debt to Helvétius for a theory of representation based on social utility; both essays are in Baker (ed.), Political Culture. For Necker's policy toward the elections, see R D. Harris's biography. For a rapidly developing polemic against the suselessness" of the

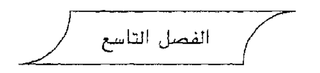
nobility, see, for example, the play Triomphe du Tiers Etat ou les Ridicules de la Noblene (n.d., but probably early 1789), in which the views of the noble who had described the "Peuple" as "insects swarming at our feet" are refuted by the village schoolmaster, who insists that "we are all equal because we are all brothers... " and who concludes his speech by declaring (21) that "I was born free and rational [raisonnable], there are my prerogatives." The Guillotin petition is discussed in C. - L. Chassin, Les Elections et Les Cahiers de Paris en 1789 (Paris 1888, vol. I, 37).

iii HUNGER AND ANGER

For Mirabeau's journey to Provence in winter 1789 and for his career at this time, see the excellent biography by Guy Chaussinand - Nogaret. Mirabeau (Pans 1982). Arthur Young, Travels, has vivid accounts of the distress endured as a result of the poor harvest and terrible winter of 1788 - 89. The standard introduction to the twenty - five thousand cabiers de doléances is Beatrice Hyslop, Guide to the General Cabiers of 1789 (New York 1936), though both the categories of her classification and the gloss she puts on them give a specific bias to her analysis. A helpful and fairly representative small sample may be studied in Roberts, Documents (55 - 95). During the centenary year of 1888 - 89. commissions throughout the departments of France embarked on the huge enterprise of publishing all the cahiers of the three estates. I have relied on those records for my own readings, and in particular those edited by Camille Bloch for Orléans, the Loiret and the Beauce; D. F Lesueur and A. Cauchie for Blois and the Loir - et - Cher (Blois 1907); Emite Bridrey for the Manche and Cotentin; E. Le Parquier for Le Havre (Le Havre 1929); V. Malrieu for Montauban; E, Martin for the bailliage of Mirecourt in Lorraine (Epinal 1928); D. Ligou on Rivière - Verdun in the Tarn - et - Garonne (Gap 1961); V. Fourastié on the Quercy (Cahors, 1908); Brian Dooley's unpublished Harvard University Ph.D. dissertation on the Côte d'Or; and especially the spectacular archival work of C. - L. Chassin on Paris and the countryside hors des murs. The citation from Ducastelier is published in Chassin (vol. 4, 31); for the d'Argis pamphlet, see Cahier d'un Magistrat sur les Justices Seigneuriales (1789).

iv DEAD RABBITS, TORN WALLPAPER

On the riots of the spring of 1789, see Jean Egret, "The Pre - Revolution in Provence", in J. Kaplow (ed.), New Perspectives on the French Revolution (New York 1965); also "Les Origines de la Révolution en Bretagne" (1788 - 89)in Revue Historique (1955, 213). For the game riots see Georges Lefebvre, The Great Fear of 1789: Rural Panic in Revolutionary France (trans. Joan White, Princeton 1973, chapter 4, and especially 44ff.); see also the same author's Paysans du Nord Pendant La Révolution Française (Paris and Lille 1924). The Réveillon riots are best followed in the documents published by Chassin (vol. 4, especially 579 - 86). On Orléanist politics in the spring of 1789. see G. A. Kelly, "The Machine of the Duc d'Orléans and the New Politics", in Journal of Modern History (1979, 66 - 84).



ارتجال أمة

I ـ نوعان من وطنيّ

من الماركيز دي فِربيه إلى السيدة دي فِربيه

20 نيسان/إبريل 1789

حبيبتي الجميلة، وصلت إلى أورليان، وها أنا آخذ بضعَ دقائقَ للتحدث إليك. لم تتعبني الرحلةُ على الإطلاق. فقد كان الطقس رائعاً، لقد نمنا في أورليانز، وقطعنا النهر مع أن الساعة كانت الثامنة مساءً تقريباً، فانهيار الجسر خلق عقبةً للمسافرين. تناولت طعام العشاء بشهيةٍ، ونمت جيداً. أصحابي في السفر جيدون جميعاً، فالسيد دي. شاتر حسنٌ رضيٌّ أكثر مما أُخبِرت، يجادلُ بالحجةِ جيداً رغم أنه ـ ربما ـ متطرفٌ قليلاً في أفكاره. هناك ثورةٌ في سان ـ مور تحتاج إلى مائة رجلٍ من فوج (أنجو). ثمن رطل الخبز في «تور» يكلف خمسة قروش بينما ثمنه في «بلوا» خمسة قروش ونصف القرش، الناس جد خائفين وقلقين من الموت جوعاً....اشترينا برميلاً من الخمر في بيجنسي «Beaugency» سنرسله إلى فرساي. لقد كلفنا 195 ليفر livres دون احتساب كلفة الضرائب والشحن، لكن بإمكاننا على الأقل أن نؤمّن لأنفسنا خمراً لائقاً غير مغشوش.

ستعملين بجد لبيع قليلٍ من القمح في السوق، فالمرء لا يستطيع أبداً معرفة ما قد يحصل، لا تنسي الفقراء، قدّمي لهم الصدقة بما يتناسب وحاجاتهم.

سنصل إلى باريس غداً مساءً، وسنستقر في شارع «جاكوب»، لست متأكداً في أي فندقٍ سننزل. أستودعك الله، يا حبيبتي الجميلة، أبعدي كل القلق، أعرف إخلاصك جيداً فلا أخاف لأنك تستطيعين إنذار نفسَك بسهولة.

أشعر أنني بصحة جيدة، وهذا هو الأمر الجوهري، أما البقية، فلها أن تحدثَ كما يرضي الله، لكنني سأنجز واجباتي دون إعاقة، لا مع ولا ضد، بل وفقاً لما يتراءى لي أنه الصواب.

قبلي لي صغيرتي سيرافين Séraphine وتشارلوت Charlotte، وأخبريهما أنني أحبهما كثيراً. اذكريني لِـ م. دي لا مِسلييه. سأكتب الخميس.

وهكذا بدأ شارل إل دي فرييه مارسي وهو سيد لديه مزرعة وهاوي آداب في أواسط العمر وهادئ إرسال أكثر من مائة رسالة إلى زوجته هنرييت، التي بقيت من الربيع إلى أواخر الخريف في قصرهما في بواتو Poitou للإشراف على الحصاد ثم انضمت إلى زوجها في باريس خلال الشتاء. ولعامين، غدا فرييه مشاركاً في حياة بلده السياسية. وفي الوقت الذي استكمل فيه ولايته في الجمعية الانتخابية، كانت فرنسا تتغير بكل ما للكلمة من معنى. عاد الملك والملكة إلى باريس مكللين بالعار بعد عملية هروب فاشلة إلى الحدود، وبدت الحرب مع شقيق الملكة إمبراطور النمسا مؤكدة. وأطلقت النار على المتظاهرين الذين يطالبون بجمهورية في ساحة شامب دي مارس. وما زاد في ترويع فرييه هو أن شقيقه انضم إلى الهجرة، وخلال فترة الإرهاب، أرسل فرييه بتعقل إلى الكومون المحلي ستة أكياس مليئة بالسندات والإيجارات والوثائق الأخرى التي طلب المؤتمر الوطني أن تُطمَس «وبالتالي يمكن حرقها عند قدمي شجرة الحرية، وفقاً للقانون».

ستقدم هذه الكفارة الصغيرة في خريف مستقبل ثوري كئيب. ولكن في عام 1789، في طريقه إلى مجلس الطبقات مندوباً للنبلاء في بواتو، كان فرييه مفعماً بالتفاؤل الربيعي. ولم يفعل المشهد الدخاني للكارثة الذي سارت عربته خلاله متمهلة شيئاً يوهن معنوياته العالية الصبيانية. ربما رأى آخرون أكثر تناغماً مع ثقافة الكآبة الرائجة شيئاً ما في انهيار الجسر على نهر اللوار أكثر منه شيئاً غير مناسب للمسافرين. وفي أوج ذوبان كانون الثاني، وتماماً عندما بدأت العربة العامة من سومر Saumar بالعبور أنهار القوس الأول. ولم ينقذ السائق أرواح ركابه إلا بعمل تلقائي حيث قطع عنان الحصان الأول وأرسله يطير إلى النهر فيما تقوضت الأقواس المتبقية واحداً بعد آخر.

كان جسر بون دي تور Pont de Tours بناء نموذجياً لمعاصرة النظام القديم: دُرِس هندسياً بدقة وصمم ليكون وسيلة للنقل التجاري وانتقال الأفراد. كان قد افتتح قبل عشر سنوات من وقوع الكارثة وحسب. وكان معظم التفاؤل المهتاج في ذلك الوقت ينهار على طول طريق فرييه. وإذ وصل إلى باريس، أخذ يثرثر مستشاراً لزوجته عن العشاءات

والمسرح وأزراره المذهبة المطابقة للموضة. كان منتشياً بالقصر الملكي والذهاب إلى السيرك ودور الكتب والمقاهي المكتظة بالناس الذين يصغون إلى الخطباء السياسيين مثل ريفيين كثر. ولكن ما أدركه بسرعة هو إذا كانت اللحظة مشحونة بالإثارة، فهي مشحونة بالخطر أيضاً. ففي إحدى الأمسيات ذهب إلى دار الأوبرا ليشاهد غلك Gluck في مسرحية **ايفيجينا في أوليس** لكن، كما سرد الحكاية لهنرييت، «بينما كنت أستسلم للعواطف العذبة التي ثارت في نفسي، كان الدم يتدفق ضاحية سان أنطوان». وما زاد في خوفه أن أحد أصدقاء العائلة، الأب روي، كان متهماً بأنه أحد المحرضين في شغب ريفيلون. وكان ثمة هجوم بعد مغادرته أورليانز بأربعة أيام على مخزن حبوب ونهب دير كاريوسيان Carthusian convent بقيادة رجال زوارق وبنائين وحرفيين آخرين وزوجاتهم مسلحين بالبلطات. وكما في باريس ومدن أخرى كثيرة في أرجاء البلد. سقط قتلى، وتدخلت القوات العسكرية، وشكل المواطنون ميلشيا للدفاع. وكتب الماركيز المهتز خوفاً، «يجعل هذا كله مملكتنا البائسة ترتعد ـ سلسلة من أعمال رعب وأشياء بغيضة».

في فرساي، استعاد روعه، لأن اليوم العظيم الذي تعلقت عليه آمال كثيرة مستحيلة كان يقترب. ظن فريبه نفسه رجلاً من عصر التنوير: عقلانياً مطبوعاً على حب الخير العام ومهتماً برفاه الشعب وفوق كل شيء مثقفاً، بطريقة رجل مهذب. وقد جمع بين البحث الفلسفي والعلمي والتعبير الأدبي إذ أنه سليل الشاعر دو بالي de Ballay. ظهر كتابه الأول بعنوان «**الإلحاد**» (وهو عنوان مضلل لأنه مليء بالدعوة إلى الإيمان بدين طبيعي قائم على العقل وفيه وضعَ كاهن من الريف التعليق البعيد الاحتمال وهو«ليس اللاهوت إلا علم كلمات»)، عام 1785، وبعد سنة نشر عملاً آخر بعنوان **المرأة في النظام الاجتماعي والطبيعي**. وكان عدد من أنداده في جمعيتهم في سومر أعضاء ذوي آراء مشتركة في نادي العقل، وهكذا ليس مدهشاً أن نجد عريضتهم واحدة أكثر ليبرالية للمكانة. فقد أكدت في مقدمتها على المساواة أمام القانون للمواطنين جميعاً، وأبدت قلقها من طغيان التمثيل ليس لدى العامة بل رجال الدين، وعلى نحوٍ ملح مثل أية مذكرة للطبقة الثالثة أعلنت أنه لا يمكن جمع أية ضريبة حتى تتأسس حريات مدنية وسياسية أساسية معينة.

وقد قررت الجمعية مجارية هذه النزعة الفردية الوطنية ألا تفرض على مندوبيها الالتزام بتعليمات مثل ما إذا كان يجب التداول والتصويت بالرأس أو الطبقة. وسيكون، بطريقة، «تأسيس الدستور» هو الذي، بطريقة سحرية، سيقودهم إلى فعل الشيء الصحيح. وهكذا يبدو أن نبلاء بوانتو ينتمون إلى تلك المجموعة «المختلطة» التي ترك فيها تحديد التصرف للأحداث السياسية غير المتوقعة.

وفي كل حال، لم تشكل المسألة عبئاً شديداً على عقل فريبه وهو يهندم نفسه لافتتاح مجلس الطبقات الرسمي. وقد اكتشف بين النبلاء العداوة الخبيثة ضد نِكر باعتباره محرضاً لمشكلاتهم وأنه أعيد للمنصب بسبب ذلك. ورأى بشيء من الريبة، كيف أن بعض زملائه من المندوبين، مثل الكونت دي غالسينوبير Comte de Gallissonnière، يمكنهم أن يخضعوا لتأرجح رد فعل البلاط ويتصرفون بشكل مختلف تماماً عما يفعلون في سومر، ولكن في الأيام التي سبقت الافتتاح الرسمي رمى نفسه بشغف إلى «الجانب الفرح وربما المضحك» من الأحداث: عرضه المسرحي.

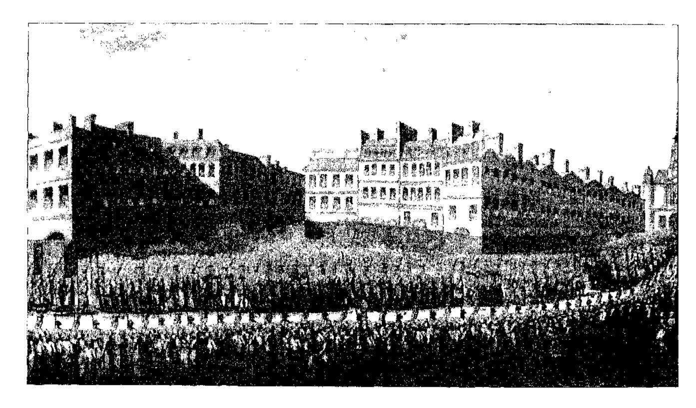
وقد أثار فِريبه شيئاً من الهزل فيما اختال بملابسه المبهرجة أمام هنرييت في رسالة: معطف حريري أسود... سترة من القماش الذهبي أو الفضي، شريط زينة لربطة العنق، قبعة مريشة، ولهؤلاء الذين في «حداد عظيم» (الذين قرر أن يعد نفسه بينهم) ستكون القبعة، مثل قبعة الملك، على هنري الرابع مع حافتها المرفوعة إلى الوراء فوق الجبين. ودمدم الماركيز أن القبعة ستكلفه 180 ليفر على الأقل (أو ثلث الراتب الوسطي لرعاة الأبرشيات الريفية الذين يشكلون أكثرية طبقة رجال الدين). ولكن، بشكل غريزي، فهم أن مسألة اللباس، مثل جوانب أخرى في التشريعات، ليست أشياء تافهة على الإطلاق، فهي جزء مكمل في المشهد المصمم لتعليق عدم التصديق. وفي مكان النزعة الشكية، يجب أن يكون هنالك خشية وانتعاش من جانب المشاركين والمشاهدين على حد سواء. فعبر القانون، هم معنيون أن يشعروا بأنهم مشاركون في طقس فرنسا المتجددة: حيث انتظم الماضي والحاضر والمستقبل وتناغم مثل بعض المتحولات الأوفيدية. وقد قدِّر لتلك أن تكون إشراقة ثانية للشمس التي بذلت قصارى جهدها لتتسنم الأفق في يوم التتويج قبل أربعة عشر عاماً.

لقد نجحت الاستراتيجية برأي فِريبه. فقد كان خلال مراسم الافتتاح مع حاله يشعر بحماسة وطنية. حيث كتب في السادس من أيار إلى هنرييت بنبرة إخلاص غالباً صوفية لفكرة فرنسا ـ «فرنسا حيث ولدت، حيث أمضيت أسعد أيام حياتي، حيث نشأت أولى أحاسيسي الأخلاقية..». وواضح أنه لم يكن يبالي نفسياً باستقبال الملك المطول للمندوبين في 2 أيار. وبدلاً من ذلك، ارتفع قلبه مثل قبرة إلى تبويق الأبواق الفضية، التي ينفخ فيها مبشرون جلسوا على أحصنة بيضاء ولبسوا مخملاً أرجوانياً مزيناً بزهور الزنبق. وفي يوم الاثنين الرابع من أيار، شاهد لويس السادس عشر، تقدم له التحية بالفلوت والطبول في كنيسة نوتردام متوجاً بأسرته وحاشيته فيما غنت الجوقة «الخالق الغفور». ثم مشى في موكب إلى كنيسة سانت لويس خلف المائة السويسريين (الحرس ـ المترجم)

ذوي معاطف زي النهضة المزينة بمعينات قرمزية وذهبية، وخلف مربي طيور الباز الملكيين الذين ركبوا مع طيور ذات رؤوس مغماة معلقة على معاصمهم. وتبعتهم مجموعته ـ نهر من حرير أشرطة زينة وأرياش تتدفق بين ضفتين من السجاد الباريسي الذي تدلى من المنازل المحاذية للشوارع.



الصورة 84، أزياء الطبقات الثلاث



الصورة 85 موكب مجلس الطبقات

حتى عندما سار ببطء يسمع من حين إلى آخر صيحة «يعيش الملك»، بدأ الجانب العقلاني في فرييه يؤكد وجوده، ونمت أفكاره فجأة على نحو أكثر كآبة. أظهرت فرنسا نفسها هنا في كل مجدها. لكنني قلت في سري، هل ينجح المخربون الطامحون الشريرون الذين تغريهم مصالحهم الأنانية فحسب في بعثرة كل شيء عظيم وجدير بالاحترام إلى حدّ أن كل هذا المجد سوف يتبدد مثل دخان تعصف به الرياح؟» لكنه عند سانت لويس استسلم ثانية لسحر الطقوسي.

تزينت النوافذ الجميلة بالنساء الأكثر جمالاً، تشكيلة القبعات والرياش والعباءات، والتعاطف النبيل يطفر على وجوه الجميع، والبهجة النشوى التي تشع من العيون كلها، الأيدي المصفقة والملامح التي تعبر عن الاهتمام الأكثر رقة، الأنظار التي حيتنا وتبعتنا حتى عندما كنا نضيع عن النظر، آه، يا فرنساي العزيزة، يا شعبي الودود الطيب. لقد أقمت تحالفاً أبدياً معك. لم يكن لدي وطن قبل اليوم. الآن لدي وطن وسيبقى دائماً عزيزاً عليّ.

وكما أحسَّ فرييه بالقلق، مع أن، الوسيلة عينها التي استخدمت لإغراء تحليقه في النشوة الوطنية عملت ضدها كونها مشتركة مع الطبقة الثالثة. تاريخياً، الطقس العام الذي يدعم أسطورة جماعة واحدة أعطى أهمية عظيمة، في الزي والرايات لتلك الجماعات التي كانت، في الحقيقة، مستبعدة من السلطة بالضبط. هكذا كان الأمر في بندقية عصر النهضة أو أمستردام القرن السابع عشر، في أيام عرض «الأخويات» والجمعيات الخيرية، ورجال الميلشيات الذين شاركوا بالكامل في اللون ومظهر الاحتفال. وكان ثمة شيء أكثر من ذريعة لثياب تنكرية عبر دمج هذه الأسطورة: لقد ولدت ولاء معززاً للدولة.

وقد حدث العكس تماماً في الأسبوع الأول من أيار في فرساي. فقد عومل افتتاح مجلس الطبقات ليس كمناسبة عامة تنحل فيها المراتب في مهمة وطنية، بل كمراسم لفرع من البلاط. وبدلاً من أن يكون شاملاً، كان حصرياً، وبدلاً من يكون مكاناً مفتوحاً، كان مغلقاً، وبدلاً من أن يعكس الحقيقة الاجتماعية في فرنسا أواخر القرن الثامن عشر الذي تآكل فيه موقعها عملياً بالملكية والثقافة، أكد تراتبية تنطوي على مفارقة تاريخية. ربما تخوف بِكر من هذا. فقد أراد مثل ترغوت عام 1775 أن تكون المراسم روتينية وأن تنتقل المناسبة إلى باريس. وإذ رفض الملك، الذي كان أسير خبرة الأساتذة في الاحتفالات وهؤلاء الذين صاغوا القانون حول السوابق التاريخية. وكان معظم ذلك منحولاً. فقبعة زي هنري الرابع عملياً تعود أكثر لأزياء هنري الرابع في ثمانينات القرن الثامن عشر منها

للبحث الأثري الجدي في أيار عام 1614. فالتقاليد يعاد ابتكارها للمناسبة تماماً مثل التتويج في القرنين التاسع عشر والعشرين في بريطانيا سوف تصنعها لتقلد الملكية بهالة إمبراطورية.

وكانت عاقبة كل هذا ضمان أن شكل مجلس الطبقات هو في حرب مع جوهره. وبقدر ما تبجح ممثلو الطبقتين الأولى والثانية بشكل متألق، غرّبا الثالثة وحرضوها على تفجير المؤسسة برمتها. فمن البداية لدغت باستخفاف دون مبرر. فبينما استقبل الملك مندوبي الطبقتين ذات الامتيازات في قمرة الملك، نقل ممثلو الطبقة الثالثة إلى قاعة أخرى حيث مروا به في صف طويل مثل تمساح تلاميذ نكدين. كان زيهم تعوزه الأناقة مثل زي رجال الدين فيما كان زي النبلاء شهيراً. فقد ظهروا في الأسود من الرأس إلى القدمين مثل الغربان بين الطواويس، أو مثل صور البورجوازيين المتحركة في المسرح: مؤتمر الصيادلة. ومع ذلك، أخذ بعض منهم شيئاً من زي قبعة فرانكلين الرجالية، وعرفوا كيف يقلبون هذا الامتهان إلى فائدتهم. رفض رجل عجوز من رين، مايكل جيرارد، أن يرتدي الزي المخصص. البذة السوداء والبيضاء وأخذ مقعده في صالة الأفراح الصغيرة Salle des Menue Plaisirs مرتدياً بذة بنية قطنية. وسريعاً صار معروفاً باسم «الأب جيرارد»، لقد بدا مثل صورة الفضيلة الريفية، كما لو أنه شُكّل لمنقوشات مور ولأعمال روسو.

ولكن كان هناك حضور آخر ملّح بشدة بين مندوبي الطبقة الثالثة الذي تحدى الامتصاص في الحشد الذي تجاهلهم. اختار حجماً كبيراً من ميرابو: جبل من لحم وعضلات حُشِرت بصعوبة في معطف أسود وبنطلون قصير. كان طوله المعروف قد استطال بعقصات شعره المعروف جيداً الذي سرحه إلى الوراء وكوّمه مثل برج قوطي في أشكال ضبابية فانتازية. وفي الخلف، سقطت لفيفات منه على حقيبة من التفتة السوداء تأرجحت على كتفيه. شبه بعضهم هذا الشخص الوحشي الأشعث بشمشون، الذي استمد قوته من شعر رأسه. وآخرون مثل المندوب أدريان دكوينسوي Adrien Duquesnoy، ظنوا أنه يشبه نمراً شُوِّه تعبيره في زمجرة عندما تحدث بقوة. وقد حقق ميرابو الذي أدرك تماماً شهرته بوصفه رجلاً وحشاً أفضل ما يمكن من ذلك، يرفع رأسه عندما يمشي إلى الوراء في إيماءة مبالغ بها من الازدراء يستحيل ردها. كان لكل من شاهده، والناس يرفعون أعناقهم ليفعلوا ذلك ـ قوة طبيعية: ملحد وخطير ولا يمكن احتواؤه ضمن ثياب أو عرف. بدا وجهه الضخم أنه شُكِّل من بعض المقذوفات البركانية التي ابتردت، ربما مؤقتاً، إلى قشرة من الزجاج البركاني: مُندَّب بحفر سوداء وجرب وفوهات (وبشرته التي تثير

الملاحظة هي نتيجة إيمان أمه الذي ضلّل في علاج عشبي لمسح بثرات الجدري في تدبير لم يُشفَ منه أبداً.) وقد اعترفت جرمين دي ستايل Germaine de Staël، التي لم يكن لديها سبب لتقدير رجل شوّه سمعة أبيها علناً، بكر، بسبب الخيلاء والجبن، أنه كان من المستحيل أن تصرف عينيها عن هذا الشبح حالما يُشاهد.



الصورة 86، ميرابو

عرف الشريف غابرييل ركوتيه، الكونت دي ميرابو، ومع ذلك فهو مندوب الطبقة الثالثة، كيف يقايض على مظهره وتاريخه الهام مثله أيضاً منذ زمن طويل. كان والده، فيكتور، يمارس تناقضات النبلاء فلقّب نفسه بـ «صديق الإنسان» و، قبل أن يتحول إلى فزيوقراطي غيّر علامته الأبوية الاقطاعية في بروفنس إلى نظرية في العلاقات الاجتماعية.

وكما لاحظ ابن «صديق الإنسان» بشكل لاذع «لم يكن صديقاً لا لزوجته ولا لأطفاله». فقد ترعرع ميرابو في تحدٍ قتالي ضد أبيه المرعب، الذي يكرهه، ومع ذلك الذي قدّر له أن يشبه الشخص الذي كرهه في أوجه كثيرة. فقد وقع والد ميرابو في حب وصيفة زوجته، فعينها في المنزل وفي النهاية أبعد زوجته المعَذَّبة، كما شكت في دعواها ضده، دون قطعة لباس واحدة. وميرابو الذي لام أباه ولكن الذي أحبته أمه قليلاً، والذي في مرحلة ما أطلق عليه النار من مسدسه وأخطأه، وظف خيوطه في عمل مثير للعجب طويل في الغزل. فأصبح كازانوفا آخر لكن ليس في المعنى الذي يخطئ الناس عادة في قراءته باعتباره جهاز تفريغ للبيدو (اللذة)، بل كازانوفا حقيقياً، وقع في حب كل امرأة جميلة رآها. لم تكن بشاعة غابرييل المذهلة، مثل عرج تاليران، عقبة في هذه الفتوحات. فقد استخدم ذلك كوسيلة للرغبة واصطحبها مع صوت جهير مدوٍّ ربما صنع للأصوات المتصاعدة المتحمسة التي طالبت بها الحقبة الرومانسية. لقد كان، باختصار، مثل أبيه «سامياً ومخيفاً».

في الجيش، خدم ميرابو في الغزو الفرنسي لكورسيكا عام 1769، وساعد في إخماد حريتها سنة ميلاد نابليون بونابرت. وإذ حظر عليه أبوه فيكتور العمل في الجيش، أمضى بقية أيام شبابه في حياة غجرية: يكتب كراسات ملتهبة، يفر مع وريثة ثروة، يغوي زوجات، يراكم ديوناً أدهشت حتى نبلاء بروفنس، ويفعل كل شيء ممكن يضمن إثارة غيظ أبيه. ولكن في فرنسا النظام القديم كان الغيظ الأبوي يأخذ شكل الحجز في السجن، وقد وضع فيكتور ابنه غابرييل في السجن بسبب جنوحه، أولاً في شاتو ديف في ميدي، ولاحقاً، عندما فرّ مع صوفي مونييه، لكن تم الإمساك به في أمستردام وانفصل الحبيبان، في شاتو دي فنسين Château de Vincennes. ومع أن توقيفه الأخير استمر ثلاث سنوات كاملة، من عام 1777 إلى عام 1781، لم يكن محنة كما حاول ميرابو أن يصوره، طالما تمتع بمسكن خاص وأصحاب محبين وحتى بحديقة خاصة، التي حاول فيها (بشكل طبيعي) إغواء زوجة سجانه.

ثم نجحت فتاة هولندية في النهاية، لبعض الوقت، في تخليص ميرابو من مصاعبه.

هي أيضاً عانت من علاقات أبوية معقدة، كونها ابنة غير شرعية لكاتب هولندي مشهور، هو أونو زوييه فان هارن Onno Zwier van Haren. وفي ممارسة مخادعة أظهرت أكثر مما أخفت، منحها لقبه «نهرا Nehra» إعادة ترتيب حروف اسمه. وخلال تجوالهما في هولندا ولندن وباريس وبرلين، هنرييت إميلي («ي تلاي Yet Lie» كما سماها ميرابو، ليس عبثاً على الأرجح)، من أرض المياه، أخمدت نار ميرابو وجعلته، لأول مرة، رجلاً تأملياً: شخصاً ما قادراً على فهم ذاته. كانت سياسة ميرابو أكثر مما قُدّرت عادة ثمرة تجوال ذكي: نوعاً من شخص عالمي. التقط من هولندا بلاغة السجالات الوطنية وتاريخ النزعة الجمهورية البطولية، وأخذ من إنكلترا النموذج المؤسساتي للتمثيل، ومن سويسرا جنيف الممارسة الصحفية. غير أن نزعته إلى التهور والموهبة المسرحية التي نقل من خلالها أفكاره فقد كانت هي أفكار ريكوتي بالخالص Riqueti.

انفصل ميرابو في عام 1789 عن «يت لاي» وتخلص في النهاية من عفريت السخط الأبوي بصيرورته، في عيون سكان بروفنسال، أباهم الجمعي: أبو وطنه Le père de sa patrie، كما كان يُنادى في الأمكنة العامة. عاد إلى منطقته الأصلية في كانون الثاني ذلك الشتوي الاستثنائي يسعى إلى انتخابه مندوباً نبيلاً إلى مجلس الطبقات. فقد سُمِح لبروفنس باعتبارها منطقة زراعية أن تنتخب من خلال جمعياتها الريفية. وقد عبرت مقاومة تلقائية عن نفسها لهذه الترتيبات في «الجمعية العامة» في المدن التي دعا رؤساء بلدياتها إلى اجتماعات في لامبسك في أيار الماضي. وقد أُعطيت تلك المعارضة زخماً أكبر قوة من خلال المثال الموحي في دوفين وحملة الكراس في الخريف. وفي كانون الأول وقع أكثر من 200 معارض لحق الولايات باحتكار تمثيل الإقليم على عريضة.

وقد كان بإمكان حركة الإصلاح أن تنجح بالضبط لأنها امتلكت حلفاء داخل طبقة النبلاء والإكليروس. فقد أبقت الطبقات بطريقة حمقاء على تقليد استبعاد كل النبلاء الذين ليس لديهم مزارع من طبقتهم. وضمن الإكليروس، كان ثمة سخط مرير بين رعاة أبرشيات القرى المفقّرين من الثروة الهائلة التي يتمتع بها الأساقفة، الذين جاؤوا جميعاً على نحو يمكن توقعه من العائلات الأرستقراطية البارزة، وكان يدعمهم في هذه العداوة قسم كبير من البروتستانت في تلك المنطقة. وضمن البلدات، كان رؤساء البلديات والمجلس البلدي «مستشارون» جاؤوا في معظمهم بالمثل من القطاع الأكثر غنى من أصحاب الامتيازات ويستخدمون خصومة كل من العمال المهرة المياومين ومعلمي الورش الصناعية.

وفي النهاية، لكن ليس أخيراً، كانت بروفنس تعاني من أزمة طعام حادة، وقد تركز الغضب الشعبي على قائمة من الأوغاد الذين يمكن تحديدهم للومهم على ذلك. وكان يُعتقد أن تمثيلاً جديداً للمواطنين، كما كان يعتقد في كل أرجاء فرنسا، سيقدم الإجابة، التي كان ميرابو سريعاً في التقاطها على أهمية كل ذلك وعرض نفسه بأنه النبيل بطل الشعب. لقد أعلن هذا الدور حتى في امتلاك مزرعة في آيكس Aix، حيث وضع نفسه بدقة بعيداً منها وخلف رتل النبلاء وهكذا ببعض المسافة أمام الطبقة الثالثة.

هاجم ميرابو داخل الجمعية قانونية دستورها. من تزعم أنه يمثلها؟ لم يمثل النبلاء الكثيرين دون إقطاعيات، لم يمثل الإكليروس رعاة الأبرشيات المتواضعين في الكنيسة، وهكذا أيضاً الطبقة الثالثة، لم تكن شيئاً غير مجموعة من رؤساء البلديات الذين كثيرون منهم أرستقراطيون اعتمدوا بشكل جبان على أصحاب الامتيازات من أجل مناصبهم. «ويل للطبقات ذات الامتيازات، لأن الامتيازات سوف تزول، والشعب باقٍ إلى الأبد!» كانت تلك نبوءته المهددة في خاتمة خطبته. وإذ استعاد رئيس الجمعية رشده بالهيجان واستثير بالتصفيق الحاد الذي حياه من المقصورات العامة، علق عمل الجلسة في محاولة لإسكات ميرابو. ولكن دون جدوى. فخلال أربع وعشرين ساعة أنتج بياناً من ست وخمسين صفحة بعنوان، «إلى الأمة في بروفنس»، وزع في شوارع آيكس Aix.

وبحجة أن الأوراق لم تكن كاملة في ما يتعلق بتأهله من حيث الملكية أو المزرعة، مُنِع ميرابو عندئذٍ من تمثيل النبلاء، غير أن هذا طبعاً زاد في شعبيته وحسب. فحيثما ذهب كان يحاط بحشود تبتهج له وتنشد اسمه وتتلوى حول محفته في رقصات بروفنسية، يغنون له بأصوات عالية بآلات الناي والرق. ففي مرسيليا، فرشت سعف النخيل عند قدميه بشكل تجديفي وتوّج جبينه بالغار. والأمهات قدمن لأكثر المنغمسين في الملذات شهرة في فرنسا أطفالهن ليضمهم ويقبلهم. وفي لامبسك Lambesc قرعت الكنيسة أجراسها لشرفه وحُمِل وزنه الثقيل على أكتاف قوية. وكان يرد بكلمة في كل المناسبات، «أصدقائي، لم يخلق الرجال لحمل رجل، وقد سبق لكم أن ساعدتموني كثيراً».

وإذ يشرب في هذا الإعجاب المفرط العرضي كان ميرابو بارعاً كفاية في معرفة كيفية استثماره. وقد وضع مع المحامي بريمون جوليان Brémont Julien، الذي عمل مديراً لحملته الانتخابية، مزايا شخصية اجتماعية مصممة حسب العرف: المدافع عن الشعب. ففي آيك (حيث برزت ذكريات روما قوية) قارن نفسه بـ ماريوس الغراتشي Marius of the Gracchi الذي ضايقه الأرستقراطيون. وفي مرسيليا، أنتج كراسه الترويجي الخاص الذي

يدعي أنه جاء من «مواطن في مرسيليا إلى أحد أصدقائه حول م م. ميرابو ورينال». بعد عدة تعليقات إلزامية حول رينال، مصدر اتهام شعبي هائل للاستعمار الأوروبي، يُقدِّم ميرابو بوصفٍ خجول:

هذا المواطن الطيب هو الرجل الأكثر بلاغة في عصري، يهيمن صوته في اللقاءات العامة مثل الرعد يقهر هدير البحر، وتبرز شجاعته التي هي مع ذلك أكثر إدهاشاً من موهبته وليس ثمة قوة بشرية تجعله يتخلى عن مبدأ.

إنه كلام منمق، ومع ذلك لن يكون وحده كافياً ليعطي ميرابو مصداقية. ربما كان دمه يغلي، لكن رأسه كان حكيماً كفاية ليحتفظ برباطة جأشه في الأزمات. والأكثر حسماً في ما يتعلق بالظروف الثورية عرف كيف يستخدم موقفه الممتاز مع حشود المدن والقرى في بروفنس لاحتواء أعمال الشغب. لأنه في أواخر آذار غدت أجزاء كثيرة من بروفنس دون حكومة، وكان الهدف الأول حكومة الأساقفة. وفي الرابع عشر، نجا أسقف سيسيْرون بصعوبة من رشقه بالحجارة في مانوسك. وفي ريتز كان على الأسقف أن يدفع فدية مقدارها خمسين ألف ليفر له ولقصره، غير أن نظيره في طولون لم يمنح هذا الخيار. فأُحرِق قصره فيما تلكأت مجموعات من البحارة والقوات النظامية بالقدوم لإنقاذه. وغدت الهجمات على القصور الإقطاعية في الريف مألوفة. كتب حاكم تور Tour، توجد حرب مفتوحة هنا على ملاك الأرض والملكية. وقد نُفِّذت جميعاً باسم إرادة الملك ورغبته!

وفي الثالث والعشرين، تعرضت دار البلدية ومقر الحاكم في مرسيليا للتدمير والنهب. فغادر ميرابو راكباً على عجل من آيكس وأخذ زمام الأمور من الحاكم العسكري الذي فقد شجاعته دي كارمان de Caraman، وغدا في الموقع، الدكتاتور الإقليمي المعين ذاتياً، فمنع مغادرة باخرة حبوب من المرفأ ونظم ميلشيا من المواطنين (الأولى من نوعها في فرنسا)، ووزع شارات وردية حمراء Red rosettes بوصفها شارة سلطته الثورية. وقد ملئت البلدة بالخطابات والأوامر والتحذيرات والنصائح كتبها جميعاً وطبعها وأُلصقت في الأسواق حيث ذات زمن كان يصغى إلى مراسيم الملك هناك.

وعلاوة على ذلك أعلنت نبرة تلك المذكرات ولادة لغة سياسية جديدة «لغة محادثة أخوية. لم يعد بطلهم «الكونت» بل «ميرابو» دون زيادات الذي تحدث مباشرة إلى «الشعب». كان خطابه غالباً غير مكتوب بقدر ما كان محكياً، أكثر شبهاً بالحكي الذي يفسر شيئاً ما في رفقة شراب مع أصدقاء. كان أسلوب الشفافية: أسلوب الرجل المحترم مثال روسو. وقد كان ميرابو متمكناً من تعبيره وجريئاً كفاية ليس لمحاولة تهدئة مشاعر

سكان مرسيليا الملتهبة بل ويبرر الضريبة أيضاً:

يا أصدقائي الطيبين، جئت لأخبركم بما أفكر حول أحداث الأيام الثلاثة الماضية في مدينتكم المجيدة. اصغوا إلي، أود أن أكون مفيداً لكم فحسب ولا أخدعكم. لا يريد أحد منكم إلا الشيء الجيد لأنكم جميعاً أناس شرفاء، لكن ليس الجميع يعرفون ما المطلوب فعله. حتى إنه قد يخطئ المرء بشأن مصالحه الشخصية. دعونا أولاً نفكر ملياً بالخبز... في الوقت الحاضر، يا أصدقائي الأعزاء، إذا كان القمح غالي الثمن في كل مكان، فكيف يمكن أن يكون رخيصاً في مرسيليا؟... مدينة مرسيليا، مثل كل مدينة أخرى، تدفع شيئاً ما من أجل نفقات المملكة ودعم ملكنا الطيب. تؤخذ النقود من هذا المصدر وقليلاً من ذاك...

بعد يومين، تبعت آيكس مرسيليا في عمل شغب، وردت القوات النظامية بإطلاق النار على الحشود. تعرض الأسقف في بريتون للترويع. «عامة الناس في كراهيتهم لا يهددون شيئاً لكن ثمة موت ولا يتكلمون عن شيء بل يمزقون قلوبنا ويأكلونها». واستدعي ميرابو مرة ثانية بوصفه مهدئاً، فأنشأ ميلشيا من المواطنين لتوفير النظام الذي سيثق به الناس وتوزيع الخبز بثمن محدد. وليس مدهشاً أن ثمن هذه الجهود قد دفع بسخاء. فقد انتخب بهوامش كبيرة للطبقة الثالثة في كل من مرسيليا وآيكس. وبعد خطابات مداهنة إلى مواطني مرسيليا لتجنب الإساءة، قرر في النهاية أن يذهب إلى فرساي كمندوب لـِ آيكس.

وبروايته، لم يكن ميرابو محترماً وحسب. لقد كان محبوباً. فالخروف الأسود في عائلته أصبح الفارس الأبيض لدى الشعب. والرجل الذي كرهه أخوه الرجعي واحتقره كان لديه بروفنس كلها أخوته. والابن الذي لم يستطع أن يسر أباه العنيد أبداً صار أباً لبلد من الأطفال المتبنين. فكتب عن هذا الوقت، «لقد أطعت مثل أب موقر، وغسلت النساء والأطفال يدي وثيابي وخطواتي بدموعهم».

II ـ نظام جديد للأشياء *Novus Rerum Nascitur ordo*

أيار/ مايو- حزيران/ يونيو 1789

في هذا المفصل الحاسم، كان الكثير متوقعاً من نوع ثالث من الوطنيين: الملك. فقد ظهر في عرائض الريف مثل «أغسطس جديد سيجدد العصر الذهبي». لكن بخلاف أغسطس القديم، في كل حال، غدا لويس في قرارة نفسه شبه إله يتقلص أكثر فأكثر. وفيما دنا موعد مجلس الطبقات، ازدادت مخاوفه. لم يكن مقتنعاً بقدرة نِكر على تهدئة الأزمة،

وأبدت زوجته وأرتوا احتقارهما لتعيينه. فعمل على تهدئة أعصابه التالفة بالصيد والأكل وعمل الأقفال ليس إلا. وفي إحدى المناسبات فقد سيطرته بالمعنى الحرفي للكلمة. فقد كان ملزماً بأن يستخدم سلم الأدراج ليصل إلى المرصد بسبب الإصلاحات التي تجري لألواح الأردواز في سقف قاعة المرمر، حيث يمشي لويس. عند الدرجة الخامسة، بدأ السلم ينزلق. كان السقوط أربعين قدماً إلى الفناء تحت وليس غير فعل لا إرادي بهلواني لأحد العاملين الذي أمسك ذراعي الملك وشده سليماً وأنقذه من سقوط مفاجئ وأذى خطير.

والملك الممتن أجرى كما ينبغي معاشاً جيداً قدره 1200 ليفر للرجل الذي أنقذ حياته. كانت الإيحاءات الملكية اتجاه عمل طوعي بطولي بسيطة لتقارن بالمشكلة الحادة حول ما إذا كان سيحتفظ بقيود البروتوكول أو يتحرر منها. كان معلم المراسم لديه، ذو السنوات الثلاث والعشرين المركيز دو درو بريزي de Dreux Brézé دون فائدة، وكان إجماع الحاشية هو أنه يجب أن يُحتَفَظ بكل المشاهد التقليدية بدقة لتجنب انطباع أن مجلس الطبقات يمكنه حقاً أن يغير الأشياء كما قد أشيع في عرض البلاد وطولها. وهكذا وافق الملك، على سبيل المثال، على الاحتفاظ بالأعراف والتقاليد، بالإضافة إلى عمل أخرق، في أحسن حال، هو الطلب من أي عضو في الطبقة الثالثة يخاطب العرش أن يفعل ذلك على ركبتين محنيتين.

وفي حرارة اللحظة، في كل حال، يمكن أن تقدم أكثر الأشياء تخطيطاً بشكل سيء وأخرق. عند نهاية خطابه يوم الافتتاح في قاعة الأفراح الصغيرة، رفع لويس قبعته ـ أثر من هنري الرابع من جلد القندس ذات رياش بيضاء وماسة متألقة موضوعة في الوسط ـ في تحية مألوفة للجمعية. وبعد تلويحة عرضية بطريقة ملكية صحيحة وضعها على رأسه، تُبع بالنبلاء، الذين هكذا افترضوا تفوقهم على الطبقة الثالثة المحرومة من الامتياز. وإما غير متأكدين مما كان يجب فعله، أو أن أحدهم أراد إثارة الشقاق بشكل محسوب، اقترفت الطبقة الثالثة عندئذٍ انتهاكاً شنيعاً للبروتوكول بوضعها قبعاتها أيضاً. وفي ارتباك وفوضى عظيمة، أبقاها بعضهم ورفعتها الأكثرية وإذ شاهد هذا، شعر لويس أن عليه أن يرفع قبعته أيضاً. كانت لحظة مبهجة لِ غوفرنر موريس، العميل الأمريكي، الذي راقب بمرح متزايد. لكن للملكة، التي شحب لونها غيظاً، كان الانهيار الطقوسي إشارة سيئة لأشياء ستحدث.

كان يمكن لفضيحة القبعة العظيمة ألا تكون مشكلة لو أن الجمعية كانت مسحورة

بما كان سيقوله الملك. لكن رده لم يكن كذلك بالضبط. كان خطابه مختصراً إلى درجة أنه كان روتينياً ومزيجاً غريباً من الحماسة والإغاظة. فبينما أشار إلى «اليوم العظيم، المرغوب بحماسة شديدة». قام الملك أيضاً بإحالة قابلة للإثارة إلى «الرغبة المبالغ بها كثيراً بالاختراعات». إذا بدا هكذا أنه يتكلم بصوتين، فذلك لأنه كان عليه أن يجد صوته الخاص. لا ريب كان هناك نزاع عواطف يجري داخل شخصيته الخاصة، يغريه هتاف الشعب ويروعه معناه. غير أن ذلك النزاع لم يكن شيئاً مقارنة بالمعركة التي كانت تدور في الخارج في وزارته، بشكل أساسي بين نِكر المتفائل المنفتح الذهن وبارنتين حافظ الأختام الأكثر تصلباً، الذي رفض أن يفكر بأي شيء غير الشكل التقليدي للطبقات المنفصلة.

كان بارنتين، في الواقع، الذي تكلم بعد الملك، فواصل نبرة الامتياز المثيرة للضغينة بعرض الخلاف على مسألة صحافة حرة لكن بإعلان تحذيرات من السلطة الأعلى ضد «الاختراعات الخطيرة». وكان عدم سماعه قد أفسد أي أذى يمكن لخطابه قد سببه لفرص المصالحة. كان نِكر، كالعادة، أفضل استعداداً للتعامل مع الاستحالة السمعية في قاعة الأفراح الصغيرة التي طولها 120 قدماً، ما دام خطابه الخاص حول المالية استمر ثلاث ساعات كان كذلك تماماً. قرأ نصف الساعة الأولى ثم ناول النص إلى أمين سر اللجنة الملكية لشؤون الزراعة، بروسونت، الذي اختاره تماماً بسبب بروز صوته الجهير. وكان التأثير غير محسوب على نحوٍ كارثي. ولساعة بعد أخرى قاسية، أطلقت المعطيات المالية الكئيبة لـِ 280 مليون ليفر عجزاً صرخة ذعر في الجمعية التي كانت تنتظر بدلاً من ذلك فعلاً عظيماً ما من البلاغة الخطابية. أرادت أن تسمع نِكر المسيح المالي، وليس نِكر المحاسب. وما كان أكثر خطورة هو الانطباع المتنامي أن الوزير اعتبر الاجتماع أنه مساعد إداري أكثر منه خالق سيادة.

فيما جرى خطاب نِكر بطريقة رتيبة، صارع الملك، كالعادة، في معركة خاسرة ضد التثاؤب الملكي. تململ المندوبون، وسعلوا وغفوا قليلاً وعطسوا وغطوا في نوم عميق. والسيدة دي لا تور جون بان، التي جلست على مقاعد جمهور النبلاء، عانت من كرب الإزعاج ليس لديها شيء إلا ركب هؤلاء الذين خلفها حيث تسند ظهرها. أما جرمين دي ستايل، التي كان يفترض بالمناسبة أن تكون تمجيداً لأبيها، غدت مكتئبة أكثر فأكثر، وقد فاضت عيناها بالدموع تبعاً لشاهد آخر قريب منها.

وعلى الرغم من هذه البداية غير الواعدة، كانت شعبية الملك الشخصية لا تزال

ممتلكات ضخمة للحكومة. لقد بدت جديرة بالثقة حيثما جرى ذكرها (ولم يكن ثمة مكان فسيح للمناورة)، قوطع خطابه بانفجارات من التصفيق الموالي - ولم تكن من الطبقتين صاحبتي الامتيازات فحسب. وفي ما يتعلق بالسبب المتناقض ظاهرياً هو أن أعمال العنف الشعبية قد اقترفت باسمه، وكانت الثورة ثورته ليأمر.

كان ذلك بالضبط أمل ميرابو، لأنه إذا لم يعد أرستقراطياً، فلن يكون ديمقراطياً أبداً. حتى في بروفنس، في لجة سعيه إلى شد الانتباه إليه والإعجاب به، لم يخفِ نزعته الملكية. وما سعى إليه، وألح عليه مراراً وتكراراً هو ملكية جديدة، ملكية غير مدعومة بالتراتبية الاجتماعية والامتيازات، بل بالتأييد الشعبي. يميل المؤرخون إلى صرف النظر عن هذا الرأي باعتباره ذريعة متبناة على نحو مزيف من أجل الارتقاء الذاتي. وسيكون الأمر تافهاً أن نزعم أن ميرابو لم يكن عام 1789 ينهشه الطموح، وأنه رأى نفسه وزيراً أول لملكية كهذه. ولكن سيكون بالمثل سذاجة أن نرى مفهوم الملكية الشعبية فكرة حمقاء جوهرياً. فقد كانت بعد كل شيء، ما كان في ذهن دارجنسن بالضبط قبل نصف قرن تقريباً - ملك نشط يعرف سيادته ضد الامتياز والأرستقراطية وليس ممثلها، وقد جاء شيء ما مثل هذه الملكية الوطنية الاستفتائية بعد كل شيء لتنجح في كل من الإمبراطوريتين البونابرتيتين. ويبدو سليماً أن نقول، في كل حال، إن ميرابو كان سيكره الحكم الاستبدادي للبونابرتيين. وقد اعتقد، تشجعه وجهة نظر شِلبورن والمحافظين عن الملكية، أن ضمانتها الأفضل تكمن في حكومة تنتخبها السلطة التشريعية، وتظل خاضعة لمحاسبتها. وتلك كانت بالضبط النكهة البريطانية في وجهة النظر الدستورية هذه التي لم تؤهله في أعين مجموعة من المواطنين.

لأن ميرابو إذا كان الشخصية البارزة الأكثر شهرة بين المندوبين، فلم يكن الموهبة السياسية الوحيدة. ومعظم أعضاء جمعية الثلاثين التي التقت في منزل أدريان دوبورت فازوا بالانتخاب، بمن فيهم تارجت والأخوان دي لاميث والأب سييه. جلس لافايت في صف النبلاء عن أوفيرن Auvergne وأرستقراطيون مواطنون آخرون، مثل لالي - تولندال وكليرمونت - تونير، ضمته إلى الطبقة الثالثة. وبين رجال الدين يجب أن نجد تاليران، الذي ترقى أخيراً إلى منصب أسقف أوتن واحتفل بقداسه الأول والأخير في الكاتدرائية على رسامته، وأسقف بوردو الليبرالي الأكثر إقداماً، البطل دي سيسه. والشخصيات الأخرى التي قامت بمساهمات هامة في تحويل مجلس الطبقات إلى جمعية وطنية كانت أيضاً بين مندوبي الطبقة الثالثة: مونيه وبارناف من دوفين ورابوت سانت إيتيان من نيمز Nimes.

كانت هذه المجموعة المركزية موهوبة بوفرة في الفكر والبلاغة، لكنها جاءت إلى فرساي أيضاً لأنها اختبرت تدريباً سياسياً مكثفاً، أولاً في تمردات صيف عام ١٧٨٨، ومن ثم في حملات الكراريس والانتخابات المكثفة في الخريف والشتاء التاليين. ومرّ بعض أعضائها، مثل مونييه وميرابو بتجربة الحشود الغاضبة في الشوارع. وحتى الأكاديمي الفلكي غير الأرضي على نحو واضح بيلي (الذي كان اختصاصه أقمار المشتري) أمكنه الزعم أنه أحرز تعليماً سياسياً هائلاً لأنه أشرف على انتخابات باريس إلى الطبقة الثالثة. وفي تحدٍّ مدروس للتوزيع الملكي، قدمت دوائر باريس الستون جماعة من 407 ناخباً ـ أكبر كثيراً من المجموعة التي كان مخططاً لها ـ وفي تظاهرة أخرى أيضاً للاستقلال الذاتي، كونت هذه الجمعية شكلاً غير رسمي من الكومونة التي أعلنت الحكومة إلغاءها علانية. وفي فندق دوفيل، أشرف بيلي على اللجنة التي ادعت لنفسها سلطة حكومة واقعية في باريس.

لا شيء من هذا عنى أن إجماعاً برز في الطبقة الثالثة على مسألة استراتيجية في دستور نهائي من أجل فرنسا المتجددة. كان ميرابو بصورة خاصة قوة ممزقة من خلال تكرار إصراره بشكل مجاني على حق اعتراض ملكي قبل أن يكون نقاش المسألة مطلوباً. لكن كان ثمة توافق أقوى كثيراً على المسألة التكتيكية حول كيفية معالجة علاقتهم مع الطبقتين الأخريين. وكان ميرابو هنا أكثر مساعدة مقدراً بشكل صحيح قوة العطالة الذاتية المعيقة. وفي الأيام التي تلت الافتتاح، اتفق المندوبون على ألا يؤكدوا صحة أوراقهم الثبوتية أو يبدؤوا أي نوع من المداولات إلا كهيئة مشتركة تدمج الطبقات الثلاث. وقد ضمن هذا الانتهاء إلى طريق مسدود، لأنه صار من الجلي سريعاً أنه على الرغم من وجود أقلية بارزة وواضحة من النبلاء (بمن فيهم دوق أورليانز، الذي أثار حنق الملك بجلوسه كمندوب)، فقد كانت الأكثرية من النبلاء تفوقهم عدداً إلى حد كبير .وقد رفضت أن تتزحزح عن دعوتها إلى اجتماع منفصل.

في الواقع، يبدو أن موقف النبلاء قد تصلب عملياً مقارنة بالخط الأكثر مرونة واعتدالاً الذي اتخذ في كثير من اجتماعاتهم. فبينما كانوا جميعاً مُعَدِّين للتخلي عن إعفاءاتهم الضريبية، إلا أنهم في مواجهة تصاعد العنف في الريف غدا كثيرون منهم الآن أقل تأكداً من إلغاء الرسوم الإقطاعية المحلية أكثر مما كان واضحاً في العرائض، مخافة أن يقدموا نوعاً ما من شهادة لهجوم عام على الملكية. وحتى قلة قليلة كانت مستعدة لإذابة هويتها الجمعية في جمعية عامة. فالكونت دانتريغ، على سبيل المثال، الصوت الأول والأعلى الذي حدد الطبقة الثالثة كمرادف للأمة، غدا الآن شديد التمسك بالشكل. فقد

أصر على أنه حتى تدعى جمعية تأسيسية ما للاجتماع ـ التي يمكنها أن تفعل ما تشاء ـ يجب أن يكون المندوبون بالضرورة ملتزمين بالأعراف السابقة للطبقات عام 1614. ربما كان هذا التغير في مزاج النبلاء الجمعي الذي لابد وأنه قد حدث تقدمة للقوى الساحرة في فرساي ذاتها. ففي لجة الشعور بالنشاط الوطني في الاجتماعات الانتخابية، ومع كل متحدث يزايد على الآخر في شهامة وجهات نظره، شعر عدد كبير من النبلاء بالقدرة على تظهير رؤيا لفرنسا متحررة. وإذ جمعوا معاً في الأحداث التي اتسمت بسمة طقوسية شديدة وفروسية زائفة في المدينة القصر، شعروا أنهم تحت سيطرة تاريخهم المتجدد. وكان هذا صحيحاً بصورة خاصة للنبلاء ذوي الدم الملكي الذين انتخبوا مندوبين بغض النظر عن الاحترام الخالص لحملة شعار النبالة المحتقن بصورة مؤثرة. وكان رد فعلهم على «الكولونيلات الشباب» المعاصرين من مجموعة أورليانز الذي كانوا يحثونهم على أن يكونوا «وطنيين ومواطنين جيدين» هو موقف أشد عناداً ضد الزي الرائج في العاصمة. فهم الذين يمثلون دم وتراب فرنسا وليس هؤلاء المتبجحون بثيابهم من القصر الملكي.

لقد أثرت مشاعر الأخوة الفروسية هذه ـ نسخة قوطية لمجموعة المواطنين ـ حتى على أبطال المعاصرة مثل فريير Ferrières. فمع أنه لم يكن مبالياً بمسألة التصويت الفردي أو الجماعي إلا أنه اعترف لزوجته أنه لم يكن في باله أن يهجر الأنداد من إخوانه. حتى لافايت شعر بأنه يُمتَن بصخب القرق القادم من جبل فرنون، وحيث البابا واشنطن كان ينظر على نحو غير موافق إلى السلوك الغريب الطائش الفرنسي وقابليته للتغير.

ومع ذلك، اتخذت الأمور موقفاً مختلفاً تماماً مع رجال الدين. وذلك، في النهاية هو ما وجد مخرجاً من الورطة. حيث الناخبون الصغار غالباً ما أنتجت نتائج قديمة على نحو غير متوازن في الطبقة الثانية، والعكس صحيح في الأولى. لأن الأمر في الكنيسة، أكثر من أية مجموعة أخرى في فرنسا كان الانقسام بين الأغنياء والفقراء هو الأوضح على نحو مرير. وكان في الرهان ليس بعض المبادئ المُعرَّفة بشكل مجرد حول العدالة الاجتماعية أو الحقوق الطبيعية ـ بل مصير الرسالة المسيحية برمتها. وفكرة تنوير فرنسا التي تتعلمن بشكل ثابت تفشل في أن تأخذ بالحسبان مدى عمق جذور الإيمان المسيحي الراسخ في مناطق واسعة من البلد. (كانت حملة «تفكيك المسيحية» أكثر ضروب الفشل الحتمية والمثيرة للكآبة التي شهدتها الثورة الفرنسية.) لم يكن الأمر مجرد أن الكنيسة في فرنسا كانت تمرر الوقت وحسب. بل الأرجح أنها كانت تختبر أحد اضطراباتها الدورية التي كانت مزاعم الكهنة فيها أنها تجسد الروح الحقيقية للإنجيل الأصلي ـ التواضع وعدم

الملكية وتدريس الإنجيل من خلال الأعمال الخيرية والتعليم ـ الذي تتم مناقشته مقارنة بالحقيقة الواقعية الدنيوية لعالم الأعمال التجارية الكبيرة للأساقفة.

في حده الأقصى، كان الانقسام مروعاً. تمتع الأساقفة الأغنياء مثل ستراسبورغ بدخل خمسين ألف ليفر في السنة. والقساوسة الأكثر فقراً ـ اعتمدوا على دخل ثابت دون ملكية أو عائدات إضافية ـ مثل بريبوتي في روين الذي عاش على 300 ليفر في السنة، فيما كان المرتب العام لراعي الأبرشية 700 ليفر في السنة. وتبعاً لراعي أبرشية سانت ـ سلبيس في نيفر Nevers، ما إن تُدفَع نفقات الأبرشية والطعام والثياب لخادمه الوحيد، يتبقى له خمسة قروش في اليوم ـ أو ربع الأجر اليومي لعامل بسيط غير مؤهل في باريس. وكتب الأب كاسييه نفسه «عندما يكون القس محظوظاً كفاية، بعد عشرين سنة من العمل وبائساً جداً ليحصل على عيش متواضع بـ 400 أو 500 ليفر يمكنه أن يعتبر أنه جمع ثروة، وإذ يأخذ ملكية كنيسته، يستطيع أن يحدد موقع قبره في فناء الكنيسة، بصفته الفقير الأول في الأبرشية».

لم يكن كل قساوسة البلد بهذا الوضع البائس اليائس، فقد أكمل نحو نصفهم ـ وهم القساوسة المستفيدون ـ دخلهم من الأعشار التي تُدفَع لكنيسة وجزء صغير آخر من غلة عائد الملكية التي قد تزرع مباشرة أو تؤجر. غير أن هذا لا يزال يجعل قساوسة البلد في الجمعية العامة الممثلين الحقيقيين لمعظم الفرنسيين. لقد كانوا بالتأكيد الأكثر قرباً إلى الشعب وتتطلع إليهم الطبقة الثالثة بملء حريتها أكثر من المحامين والموظفين والحرفيين الذين شكلوا تلك المجموعة. وفي جانب آخر هام استطاعوا أيضاً أن يزعموا التحدث إلى دوائرهم، للمجموعة الأكبر (ربما 70%) من أربعين ألف قس ريفي هم محليون في أبرشية مقاطعتهم أو منطقتهم. وقد أحدث هذا تعارضاً قوياً مع العائلات الأرستقراطية التي اقتسمت المناصب الأسقفية الكبرى بينها وأرسلت أقرباءها الشباب إلى هذه الأبرشية أو تلك دون أية فكرة من أي نوع غير علاقات الملكية الصريحة.

كان تاليران، على سبيل المثال، ينتظر بفارغ الصبر، منذ عام 1786، أحد الكثيرين المهيئين لسكتة دماغية في أسقفية بورج Bourges فيستخدمه في تعبئة أصدقائه وعلاقاته في حملة من أجل الخلافة، غير أن الفتى العجوز أظهر قدرة على استعادة حيوية تثير الغيظ، ومع مرور الوقت استسلم ومات، ونصير تاليران، كالوني، حل محله براين غير المتعاطف. وقد أُجبر على أن يسوّي المسألة حتى تقع وفاة أخرى في وقت مناسب ـ في ليون ـ تنتج الشاغر المرغوب.

ونُقِل الأسقف صاحب المنصب في أوتن إلى ليون، وأخيراً وجد تاليران نفسه على ركبتيه في 16 كانون الثاني عام 1789، مع كل القداسة التي أمكنه جمعها يقسم أن يطيع الخلافة البابوية لسانت بيتر و«يصون ويدافع ويزيد ويروج سلطة وألقاب وامتيازات وحقوق الكنيسة المقدسة». وفي اليوم التالي وضع يديه على طيلسان أسقف أوتن، قيل إنه مصنوع من صوف خروف مبارك رعى في مراعي المسيحيين الأوائل في العهود القديمة، والأكثر ملاءمة، وعلى دخله الأسقفي البالغ 22 ألف ليفر، بالإضافة إلى فائدته القديمة في سانت ريمي، وواحدة جديدة في بواتييه وهذا يجعل الدخل الإجمالي الشريف أكثر من 52 ألف ليفر في السنة. وفي ذلك المساء تناول المدافع عن سانت بيتر طعام العشاء كالعادة مع عشيقته، أديلايد دي فلاهو Adelaide de Flahaut في اللوفر.

وقد أُنجِز هذا الانتقال الهائل للملكية والسلطة دون أن يذهب تاليران إلى أي مكان قرب أوتن. كان يوم 12 آذار قبل أن يتلطف بالوصول إلى دخوله الرسمي إلى الكاتدرائية، حيث أقسم (ثانية) أن يبقى وفياً «لقسمه في أوتن». وكان الأسبوع المقدس (الذي يسبق الفصح) يقترب، لكنه كان الأسبوع السياسي، وليس الجدول الزمني الديني الذي حدد ظهور تاليران، لأنه كان متحمساً لأن ينتخبه رجال الدين في جمعية أوتن، ولهذه الغاية فقد أعد عريضة نموذجية لاجتماع رجال الدين في الأسقفية. لقد كانت وثيقة نموذجية لصورة فرنسا في خياله: عقلانية، ليبرالية، دستورية ـ لا تهتم على الإطلاق بالعناية بالروح. ولضمان الانتخاب في الثاني من نيسان تحمل مشقة حركات أنه أسقف جيد ـ بحضّ طلاب المعهد اللاهوتي على الصلاة، ومحاولة (لم تنجح) إقامة قداس دون غربلة قواعد الخدمة الدينية و، في وجهة أكثر سفوراً، يبشر بالشيء المألوف ـ «تأثير الأخلاق على قادة الشعب» ـ لطلبة كلية دينية علمانية. وبعد عشرة أيام على انتخابه إلى الجمعية، في 10 نيسان، وبعد أقل من شهر على وصوله إلى أوتن، اختفى لسبب وجيه. كان ذلك أحد الفصح وكان عليه أن يتجنب تلاوة القداس مهما كلفه ذلك.

يصعب تخيل المسافة البعيدة بين مفهوم تاليران للكنيسة وصور كهنة البلد لها، الذين شكلوا نحو ثلثي طبقة رجال الدين تقريباً في فرساي. سيكون خطأً أن نرى أسقف أوتن لا أخلاقياً جملة وتفصيلاً. فكما أثبت باعتباره وكيلاً عاماً لرجال الدين، كان فهمه للكنيسة، كما افترض، «معاصراً». رجال دينها موظفون روحيون لدى الدولة تنيط بهم مسؤوليات تعليمية واجتماعية، ويقدمون نوعاً من الإشراف الأخلاقي الذي يلطف التوق الشعبي للإيمان دون التجرؤ على القيام بدور القاضي بين الناس أو المشاركة في الحكم. وإذا

فشل هذا كثيراً في تلبية قسمه الأسقفي، فقد كان فكرة ستغدو مؤسساتية في ظل حكومة المديرين والدولة البونابرتية ـ ولمعظم القرن الذي يأتي.

والأمر، في كل حال، بعيد من نوع الإنجيل الاجتماعي لروسو«قس من سافوي» Savoyard Vicar، حيث يجب على الأرواح البسيطة أن تتجنب مفاسد الملكية والحياة المدينية، والأفضل أن تقود أطفال الطبيعة إلى كينونة نقية أخلاقياً. قادت خيوط كثيرة في التاريخ الديني الفرنسي إلى هذه التقوى المُعرَّفة بشكل صارم في الينسنية Jansenism، والنزعة الريتشرية Richerism وشكل من المشيخانية Presbyterianism التي كانت أحياناً بروتستانتية صريحة وأحياناً أخرى ضمنية. كانت أيضاً، في كل حال، مطمورة في كثير من العرائض الأكثر غضباً كان على رعاة الأبرشيات ـ في كل من المدن والريف ـ أن يقولوه. كان عدوهم هو الثروة، سواء كانت ديرية أو أسقفية أو أرستقراطية أو علمانية أو دينية. كان ناقوس خطرهم قد قرع من أجل الفقراء والمجوّعين والمدينين والمتشردين، الذين أطعموا وأُسكِنوا في الظروف الأكثر سوءاً.

وقد بعثت قوتهم العددية في الجمعيات الانتخابية وتشابك إنجيلهم مع بلاغة الطبقة الثالثة الجرأة في نفوس القساوسة لمواجهة أسياد الكنيسة مباشرة. سأل أحد رعاة الأبرشيات من تشارلي ليحطم طموحاتهم: «من أنتم، أيها السادة القساوسة الكبار؟ لا شيء. أنا (خوري) راعي أبرشية، ولن يتأثر لقبي أبداً». وفي بيزييه Béziers، شعر أسقف أغدي Agde بالرعب جراء حشد من 260 راعي أبرشية في جمعية مكونة من 310 خوري. وغالباً ما فشل الأساقفة أو مرشحوهم بالفوز في الانتخابات تماماً. وآخرون لم يخفوا خوفهم من أن يضطروا إلى الجلوس في وفد مفوض مع رعاع مقدس. وكان التعليق اللبق لأسقف لوسون Luçon على انتخابه مع خمسة رعاة أبرشيات: «ليس دون كره قبلت هذا التكليف».

وضد الأردية الأرجوانية والقرمزية للأساقفة والمطارنة، ارتدى رعاة الأبرشيات أرديتهم السوداء بتحدٍّ واعٍ ذاتياً أنهم مندوبو الطبقة الثالثة. وليس مفاجئاً، أن يشارك عدد كافٍ منهم موقف الطبقة الثالثة ليقسموا طبقتهم أقل من الوسط في مسألة التحقق من الأوراق الثبوتية.

لشهر كامل بعد افتتاح الدورة في 5 أيار، شلّت إجراءات الطبقات (عندما تعمد ميرابو وزملاؤه أن ذلك ينبغي أن يحصل) في مسألة التحقق من الثبوتيات. إذ حالما انتهت المراسم كان لمندوبي الطبقة الثالثة أن يجلسوا حيث يختارون في القاعة الكبيرة الأفراح

الصغيرة Menus Plaisirs. لكنهم تركوا مقاعد الطبقتين الأخريين بحذر شاغرة أثناء اليوم عندما كان يمكن أن يعودوا للتداول المشترك. وفي اليوم الثامن عشر نشروا دعوات رسمية للتحقق المشترك، محاولين إثبات أن الطبقات الثلاث جميعاً ليست أكثر من تقسيمات تعسفية لمجموعة واحدة ويجب أن يتابعوا بالطريقة التي تتوافق مع ذلك.

شعر فريبه بالسأم والغضب، حيث كتب لهنرييت في 15 أيار: «طبقاتنا لا تفعل شيئاً. نجتمع كل يوم عند التاسعة صباحاً، ونغادر عند الرابعة بعد الظهر، ننفق وقتنا في نميمة غير مفيدة». ومع أنه جاء بثبوتيات ليبرالية، فبقدر ما مرّ الوقت غدا أكثر قلقاً من «مكائد» الطبقة الثالثة، التي لامها على المأزق. حتى إنه تناول العشاء مع أرتوا وآل بولناك وفودروييه Vaudreuil، الذي فتنه بسحره المديني. وصدح منشياً لـِ هنرييت: «لقد أصبحنا أصدقاء أنا والكونت فودرييه». وقد أطرته ديان دي بولناك وصار تحت أمرها. وكتب معلقاً على حرية النقاش أن منزلهم هو **فندق الحرية** L'Hôtel de la Liberté.

وجهة نظر ميرابو عن الحرية مختلفة تماماً. وفيما كان فريبه ينسحب من الرأي العام كان ميرابو منشغلاً بتشكيله. وفي 7 أيار بدأ بنشر **يوميات مجلس الطبقات**، مصممة لتقديم أعماله ـ ومحررة على ما تستقيه من معلومات منها. وحملت رايتها أسطورة **نظام جديد للأشياء يُولَد** Novus Rerum Nascitur ordo. وقد أغلقتها الحكومة فوراً، وهكذا ضمنت مجموعة كبيرة لخليفتها، **رسائل م. دي ميرابو إلى دائرته الانتخابية**. ولم يتم تبني حملة تحدي الحكومة من خلال الترويج الذاتي عرضياً. تبدو استراتيجيته قد تحولت إلى إمكانية نهائية لوضع نِكر على رأس وزارة يمكنها، على نحو متزامن، أن تطلب ثقة الملك والجمعية معاً. ولعدة أسابيع، كانت تعليقاته، العامة والخاصة، تنتقد نِكر بقسوة، غير أن صديقه مالوييه Malouet، الحاكم السابق لِـ سان دومينغ Saint - Domingue، والموظف العالي الوحيد في الطبقة الثالثة كشف في الأسبوع الأخير من أيار، أنه في ما يتعلق بكل صدام الشخصيات، فإن مواقف الرجلين في الجمعية لم تكن متباعدة كثيراً. أراد كلاهما التحقق من الأوراق الثبوتية العام المشترك، وأراد كلاهما خلق ملكية شعبية. ولكن ما إن طارت هذه الطائرة الورقية حتى سقطت على الأرض. ذهب ميرابو لمقابلة نِكر في مكتبه. فسأله نِكر وهو منكب على أوراقه دون أن يتطلع إليه: «حسن، يا سيد، يخبرني السيد مالوييه أن لديك مقترحات تريد أن تقدمها لي، ما هي؟» وردّ ميرابو، «مقترحاتي هي أتمنى لك يوماً طيباً»، ودار على عقبه وخرج يستشيط غضباً.

ومع أن «المفوضين» قد أرسلوا من الطبقات لإجراء نوع ما من المفاوضات، فلم

ينجحوا إلا في التأكيد على الاستقطاب في الطبقتين الثانية والثالثة. ففي 3 حزيران، أخذ مندوبو باريس مقاعدهم، مع سييه الأخير في قائمته، الأمر الذي عزز القوى الراديكالية كثيراً في الجمعية، التي كانت عندئذٍ تشير إلى نفسها باسم «العوام» Commons. وقد عنى هذا التحول الراديكالي، على وجه الخصوص، تخريب تسوية أنجزها نِكر بمشقة، سيتم بموجبها عودة المندوبين الانتخابيين داخل كل طبقة إلى لجنة عامة للمصالحة مكونة من ممثلي من الطبقات الثلاث. وفي 10 حزيران، قاطع ميرابو قراءة الاتفاقية ليسمح لِـ سييه تقديم اقتراح. صرف الاقتراح النظر عن التسوية على أرضية التصلب من طرف النبلاء وعرض بدلاً من ذلك إرسال إنذار أخير إلى الطبقتين الأخريين، قبل المضي في المناداة على أسماء الحاضرين. وهذا يفرض التسليم بالمأزق أو الاستسلام. وفي كل حال، كان ذلك عملاً من التنصيب الذاتي الثوري في السلطة ـ مع أنه لم يكن الأول في خط هذه الانحرافات التي بدأت في غرينوبل قبل سنة.

في دراسة متأنية حديثة لدور نِكر في أحداث عام 1789، وضع آر.دي. هاريس R. D. Harris أن فكرة ارتقاء الطبقة الثالثة فوق الطبقتين الأخريين هو ما حكم جوهرياً على أية محاولة للتسوية ودفع فرنسا إلى الثورة بدلاً من التغيير السلمي زعم غير منطقي. وهو يرى هذا أنه ممارسة مشؤومة للحكم الأكثري على الأقليات غير المحمية. والبديل هو شكل حكومة مشتت، على شاكلة النموذج البريطاني نوعاً ما، مع أرستقراطية محمية في مجلس أعلى، وعوام يشكلون هيئة تمثيلية دنيا.

غير أن هذا يعني أن نتنهد على خيار غدا طرازاً قديماً. مما لا شك فيه أن بديلاً كهذا كان يمكن إدراكه نظرياً في ما يخص نِكر (الذي انهارت نسخته للمجلسين التشريعيين في جنيف مرات ومرات)، أو في ما يتعلق بمعتدل مثل مالوييه. لكنها بكل ما للكلمة من معنى تغفل تاريخ الانتخابات برمته، وخطابة الجمعيات والتوقعات المادية التي كانت تتوقف على تغيير سياسي أكثر طموحاً. لم يعد الأمر مجرد سؤال تحسين تحديث الملكية وحسب، بل نوعاً ما من ولادة جديدة للجمعية. فالمواطنة، لمندوبين كثر من الطبقة الثالثة، مثل بارناف من غرينوبل وروبسبيير من أراس Arras، وكما ألح روسو تماماً، شيء غير قابل للقسمة. إنها التعبير عن تبادل سامٍ بين الإرادة الفردية والعامة: الطريقة الوحيدة التي يمكنهم من خلالها التصالح وبناء كلٍ متكامل حقاً. كان ذلك، لتكن متأكداً، بالضبط نوعاً من «إغراء غريب وغير ملموس... للحقوق المثالية الرؤيوية في الطبيعة «التي وجد آرثر يونغ أنها مرفوضة بشدة، لكنها كانت صوت الثورة الحقيقي.

ولـم يتـم التوصـل إلى هذه اللحظة ـ للأفضل أو الأسوأ ـ من خلال المداولات الحكيمة حول حكومة يمكنها أن تعمل وفق العرف الدستوري الأمريكي. وأن ترغب لو أنها فعلت هو أن تخطئ العملية التي من خلالها تتكشف السياسة في فرنسا ـ عملية كانت دائماً مسرحية ومفرطة في الدرامية بصورة انفعالية دائماً. ربما كانت باعثة على الأسى مثل موجات من التصفيق من الجمهور العام على الإجراءات الجمعية، التي ربما لم يعَوِّد آرثر يونغ نفسه عليها أبداً وفكر أنها «غير لائقة بكل ما للكلمة من معنى». ولكن من خلال مثل هذا العمل المسرحي والواقعية الزائدة في النزعة الرومانسية، وبانحدارها العاطفي من الشعور بالنشاط إلى الإرهاب، أن استطاع المدافعون عن التغيير تعبئة جمهورهم. وقد كان السجال القائم على المنطق إلى جانب هذه الفكرة تماماً. وكما لاحظ إيتيان دومونت، «كان الشعب في باريس ممتلئاً بغاز قابل للاشتعال مثل منطاد».

وعلى نحو متناقض، كان ميرابو يرتبك أحياناً بهذه التلقائية الجامحة نظراً لأنه كان اللاعب الأكثر مكراً في اللحظة الساحرة للجماهير، «جمهور التلاميذ الذين يهربون من المدرسة عندما تسنح لهم فرصة ويُجنّون فرحاً لأنهم يُوَعدون بيوم عطلة إضافي». وفي محاولة لجلب شكل من النظام إلى الإجراءات، شجع صديقه من جنيف دومونت أن يترجم بيان القواعد البرلمانية البريطانية لِـ روميلي ـ وهي مبادرة جلبت له عاصفة من السخط لأنه خضع لأعراف قديمة وأجنبية.

جُرِفت هذه الاعتبارات كلها جانباً في 13 حزيران، ففي ذاك التاريخ ردّ ثلاث رعاة أبرشيات على الدعوة التي اقترحها سييه، وبما أن الطبقة الأولى صوتت لصالح التحقق بشكل منفصل بهامش ضيق 133 مقابل 114، كانت اللحظة حاسمة. كان الثلاثة جميعاً من بواتو ـ من إقليم فريبه ـ وقائدهم جاليه، راعي أبرشية شيرينيه، أصبح مشهوراً لتقواه ووطنيته. ابن حدائقي في مزرعة سيد إقطاعي (حياة نباتية أكثر استقامة!)، كان لثلاثين عاماً مثال تواضع القديسين، حيث دأب على تقديم المساعدة للمرضى والمحتاجين بينما عاش في الظروف الأكثر فقراً. لقد كان فقيراً جداً إلى درجة أنه في البداية لم يتحمل نفقات الرحلة إلى فرساي، التي، بالإضافة إلى نفقات عيشه دُفِعت بالتبرع. وإذ سار إلى قاعة الأفراح الصغيرة وأعلن حضوره قوبل بهدير من التصفيق، وقد عانقه زملاؤه مرة وأخرى وحُمِل على الأكتاف عالياً في هيئة المنتصر إلى أحد المقاعد.

وفي الرابع عشر من حزيران فيما تقدم التفقد بعناد، ظهر عدد أكبر من القساوسة الذين أمطرتهم بريتاني واللورين، بمن فيهم غرايغوار Grégoire، راعي أبرشية إمبرمِنيل



الصورة 87، الطبقة الثالثة. تتوسل مساعدة رعاة الأبرشيات «خذ يدي، يا سيدي راعي الأبرشية، أنا أعلم أنك ستكون معنا» العبارة المنقوشة

Embcrménil وبطل حقوق اليهود. وبحلول يوم التاسع عشر من حزيران كان هناك أكثر من مائة ينضمون إلى الجمعية، التي ادعت اسماً جديداً لنفسها في ذاك الوقت. وقد بدأ السجال على موضوع الاسم قبل يومين، وكشف بسرعة شخصيات سياسية مختلفة. فقد أصر سييه، ما زال الصوت الأكثر راديكالية، على أن الجمعية ما دامت تمثل «96%» من الأمة، فيجب ألا ترجئ أكثر «عمل الإحياء الوطني العام» ولم تكن تسميته لمثل هذه الهيئة، في كل حال، شيئاً من البيانات الملهمة: «الممثلون المعروفون الحاضرون». وكان مونييه أكثر حذراً فاقترح «القسم الأعظم من الممثلين الذين اجتمعوا في غياب القسم الأصغر. وقد حاول ميرابو، بشكل نموذجي، أن يقلل من حجم هذه الصعوبات المطبقة حول التسميات المزعجة باقتراحه «ممثلي الشعب»، وقد انتقد هذا الاقتراح لأنه يحمل إيحاءات عامية مفرطة! وقبل الانتهاء من الإجراءات في العاشرة مساء تلك الليلة، قرر الاجتماع بأكثرية كبيرة أن تدعو نفسها «الجمعية الوطنية» و، ثانية باقتراح ميرابو - أن كل الضرائب الحالية يجب أن تعلن أنها ملغاة وباطلة ما لم تقرها تلك الهيئة.

كانت لحظة تعريف ذاتي. صوّت 90 مندوباً ضد أكثرية من 490. غير أن مخاوفهم من هذا العمل في التعيين الذاتي كانت قد غُمِرت بتدفق نوبة انفعال وطنية عالية. فإرثر

يونغ، الذي يتصف بالرصانة عادة، لم يكن أكثر حصانة من المشاركين في هذه الفورة من الأدرينالين السياسي.

مشهد ممثلي 25 مليوناً من الشعب يطلعون لتوهم من آثام مائتي سنة من السلطة التعسفية وينهضون لبركات دستور أكثر حرية، بأبواب مفتوحة تحت أنظار الرأي العام، قد تأخر ليدعو المشاعر الحية في كل شرارة مستترة، وكل حركة في صدر حر، ويتخلص من أية أفكار ربما تطفلت أنهم شعب معادٍ غالباً لوطني وسكنت بفرح على فكرة السعادة المجيدة لأمة عظيمة، والهناء للملايين الذين لم يُولَدوا بعد.

III ـ لوحات حية *Tableaux Vivants*

حزيران/ يونيو 1789

في الرابع من حزيران، توفي ولي العهد. كان في السابعة من عمره والثاني من الأطفال الملكيين الذي مات في طفولته. في ولادته عام 1781، انفجرت الألعاب النارية في السموات فوق باريس، وقد شهد أوتيل دي فيل Hôtel de Ville مأدبة تثير الإعجاب لأصحاب الامتيازات والعوام على حد سواء. وفي مماته لم تكد تشعر فرنسا بذلك، وكان أوتيل دي فيل مقر ما كان، في كل شيء إلا الاسم، حكومة ثورية محلية. وفي وقت كان فيه رغيف الثمانية أرطال أغلى منه في أي وقت مضى، جاء في التقارير أنه تم تخصيص 000.600 ليفر لإقامة مراسم الدفن. وقد بلّغ فربيه زوجته بذلك على نحوٍ جاف كما لو أنه استعد ليذهب وينثر الماء المقدس على جثمانه في مودون Moudon، «ترين يا حبيبتي الطيبة، ميلاد وممات الأمراء ليس شيئاً من الاقتصاد».

باختصار، كان طفلاً رائعاً محبباً، وبالتأكيد تفاحة عيني أمه وأبيه. لكنه لم يتمتع بصحة جيدة، وغدا واضحاً مؤخراً أن السل الرئوي قد أتلف رئته اليمنى. لقد تحمل مرضاً طويلاً يسبب الهزال غدا فيه نحيلاً إلى درجة أن أضلاعه وحوضه برزت خارجاً في زوايا غير منتظمة من جذعه. وعندما توفي أخيراً، كان والداه ذاهلين، والأكثر لأن الأزمة السياسية لم تفسح مجالاً للحزن الشخصي. فقد أحبِط لويس، في كل حال، بسبب انهيار لجنة المصالحة، التي عوّل عليها كثيراً والتي كتب إليها رسالة إطراء شخصية. وبدا فقدان ابنه ووريثه صفعة أكثر سوءاً. فانسحب من الشأن العام وبعد أسبوع من الإقامة الرسمية غادر فرساي كلية إلى المنزل الريفي في مارلي لو روا Marly - le - Roi وقد أنهكه الحزن.

جاء وفد من الطبقة الثالثة كما ينبغي ليقدم تعازيه. غير أن أبا الوطن père de patrie أراد، ببساطة، أن يبقى لبعض الوقت أبا أسرة في ثوب الحداد. وعندما أُخبر عن إلحاحهم على أن يسمح لهم بالدخول، ردّ «أليس بينهم أب؟»

وفيما تعافى، وقد فعل ذلك بالاعتماد على دعم أسرته المباشر. لم يكن ذلك عدم اكتراث. فقد وصلت الأخبار إلى مارلي عن سلطة الطبقة الثالثة المعيَّنَة ذاتياً باسم الجمعية الوطنية وإعلانها أن الضرائب الحالية غير قانونية. كان الأمران تحديين للسيادة، وقد اعتقد أرتوا والملكة، ليس على نحو غير واقعي، أنه إذا كان على الملكية أن تستعيد السيطرة أبداً على مصيرها فيجب أن تفعل ذلك الآن. وإذ افترضوا أن ضرباً ما من موقف يجب أن يتخذ، واحداً من مسارين للعمل كان ممكناً: تدخل عسكري مباشر، والذي لا يملك التاج قوات كافية بعد، أو تأكيد على سلطة الملك القانونية، المترافقة بوعد بإصلاحات متفق عليها. وحتى في الخيار الأخير، فإن نِكر، الذي استذكر جيداً مصير إصلاحات براين، لم يرَ شيئاً إلا كارثة. لكن أرتوا الذي لامه على أزمة التاج دفعه جانباً بفظاظة، ولم يخفِ عزمه على التخلص من الوزير. وعند الاقتراب من قاعة المجلس قبل الاجتماع الحاسم في 19 حزيران، صرخ أن نِكر بوصفه أجنبياً ومحدث نعمة لا عمل له هناك.

وضع نِكر بدعم ثلاثة من زملائه هم مونتمورين وسانت بريست ولا لوزرن La Luzerne قائمة بمقترحاته للإصلاح التي تبعت بإخلاص كثيراً من مطالب العرائض المتوافقة.

وقد أعطيت أهمية بارزة إلى تلميحات «الواجب الوطني» مثل إلغاء الإعفاءات الضريبية لأصحاب الامتيازات. وهي المسألة التي غدت الأكثر مدعاة للنزاع. وقاربت خطة نِكر حل التصويت «المختلط»، وعلى نحو مفترض آملاً أن يفصل النبلاء المعتدلين عن الأقلية الرجعية. كان يجب أن يسمح للمندوبين أن يصوتوا بشكل مشترك على القضايا «الوطنية» مثل دورية الجمعية لكن ليس على مسائل ذات علاقة بالطبقات المنفصلة. وقد أراد نِكر، الذي عمل على هذا البرنامج إلى أواخر أيار، أن يصدر الملك جوهره في «إعلان» يتسم بالعظمة الذي يمتع راديكالية قادة الطبقة الثالثة. غير أن الفرصة فاتت، وغدت تسويته محكومة الآن بألا تسر أحداً. فالاحتفاظ بمجتمع طبقات ضمنية في أحكامه لم تكن مقبولة جملة تفصيلاً من الجمعية الوطنية لعامة المواطنين التي تشكلت في السابع عشر من حزيران. وهكذا كانت الخطة محكومة بعدم القبول من تلك الهيئة التي كانت تعزز كل يوم بزيادة عددها من رجال الدين.

ومع ذلك فقد كانت راديكالية جداً للرجعيين في البلاط. وقد بذل أرتوا والملكة ما بوسعهما لإقناع الملك بالحاجة إلى إزاحته دون أن يخفيا كرههما للرجل الذي لاماه بسبب أزمة التاج. وفيما بدا الملك على وشك قبول برنامج نِكر، قاطعت الملكة الجلسة لمحادثة مع زوجها. وعندما عاد، لذعر نِكر، تنحى الملك عن دعم الخطة، وألح على أنها يجب أن تخضع لمجلس موسع لمزيد من الدراسة. وكل ما تمت الموافقة عليه هو العناصر المهددة في الخطة، التي ذكَّرت نِكر بكل وضوح بمصير إصلاحات براين. وسيواجه الملك الجمعية في جلسة ملكية تمهيدية كبرى، تبرز على نحو متزامن نزعته الخيرية الأبوية في الإصلاح وعظمته المهيبة في إلغاء انتهاكات 17 حزيران.

كان على مكتب المراسم في فرساي أن تعمل بفعالية ثانية من أجل حدث بمثل هذه الأهمية ثانية، كان يجب إقامة منصة ومقاعد مميزة بشكلها للطبقة الثالثة وتقدم الخدمة لكل الجمعية. ولكن بسبب ما حدث في 17 حزيران، لم تعد صالة الأفراح الصغرى ببساطة جزءاً من ملكية لتُنَظَّم حسب رغبة الملك. لقد أصبحت في الواقع، الأرض الأولى التي ترسم حدودها الأمة.

وهكذا عندما وجدت الأمة نفسها تُطرَد من بيتها دون إنذار من خلال العمال الذين يعدون القاعة للمجلس الملكي، افترضت أن هذا عمل متعمد أكثر منه خطأ ناجماً عن إهمال وسد الحراس المسلحون، بعد كل شيء، المدخل الذي وضعت عليه إعلانات تعلن باختصار الجلسة الملكية. وقد وصلت الرسالة من رئيس المراسم إلى بيلي في الدقيقة الأخيرة دون إشارة إلى مكان بديل للاجتماع. وبدا الأمر على نحو غير مريب كأنه الخطوة الأولى في حل الجمعية. انقلب الغم إلى غضب شديد فيما وقف المندوبون حول المكان تحت المطر الشديد. وتذكر الدكتور غيلوتين ـ بطل حملة تقديم عريضة كانون الأول في باريس قاعة تنس يملكها أحد أصدقائه في شارع دي فو فرساي Du Vieux Versailles. والى ذاك العنوان اندفع ستمائة مندوب انتعشوا بالرطوبة، يتبعهم جمع حاشد.

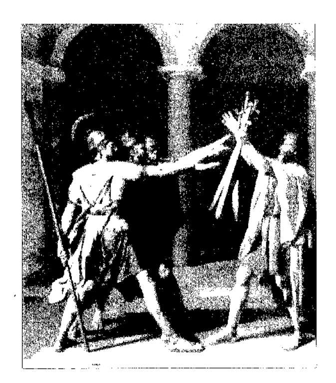
ومع أنه كان حقيقة واقعية ـ أي الملكي ـ التنس الذي يُلعَب هناك، كانت الصالة العارية التي ترجع الصدى هي النقيض الكامل للقصر المزين بإسراف الذي جاؤوا منه لتوهم. كانوا هناك في عالم الملكية، مكان سمح لهم. وكانوا هنا، كما قصد روسو، عارين في مواطنة أخوة بدائية. لم يكن ثمة شيء غير أجسادهم وأصواتهم المرتدة من السقوف الداخلية المطلية بالزفت التي ترتد عنها عادة كرات التنس. تم استئجار طاولة بسيطة من خشب الصنوبر من خياط مجاور، خدمت مقعداً للرئيس، بيلي. اكتظ المكان

بالجمهور في الاستديوهات السفلية وحشروا رؤوسهم عبر النوافذ. كان واضحاً أن عرضاً على وشك البدء. ولكن من أي نوع؟

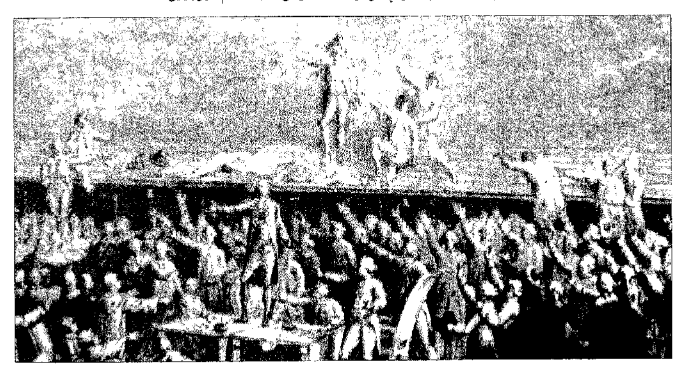
حاول سييه أن يبرهن على أن المندوبين يجب أن ينتقلوا كهيئة إلى باريس وتعالج تمثلية فرساي مرة والى الأبد. ولكن كان مونييه، الذي لم يكن بحاجة إلى دروس في ارتجال السلطة (وكان مهتماً بتقديم المقترحات الأكثر راديكالية)، هو الذي قدم بديلاً. فأعلن أن أعضاء الجمعية الذين «جرحوا في حقوقهم وكرامتهم» قد حُذِّروا من أن هناك محاولات لدفع الملك إلى نهج عمل كارثي. وضد خطر الحل، يجب أن يقسموا بدلاً من ذلك يميناً «لله والوطن ألا نتفرق أبداً حتى نصيغ دستوراً راسخاً ومنصفاً كما طلبت دوائرنا الانتخابية». كانت تلك إيماءة عبقرية خالصة، لأنها خلصت الجمعية من التفكك بالرسو في مكان محدد. وحتى تلك اللحظة، تم تحديد ترتيب مؤسسات السيادة في فرنسا من خلال المكان الذي أعطي لها لتشغله» قصور العدل وقاعات المجلس والمحاكم. غير أن اقتراح مونييه وضع سفينة الدولة على بحر من التجريد. فحيثما اجتمعوا كان يجب أن تكون الجمعية الوطنية.

أي نوع من لغة يمكن أن تلبي تطلعات التفخيم في تلك اللحظة؟ بمعنى أنهم وضعوا أنفسهم في تاريخ جديد بالرومان، تشاركوا في تبني إيماءة قدمت للهواريتين من خلال جاك لويس ديفيد، والتي اعتقدوا أنها كانت مهنة الشهداء الوطنيين. ووقف بيلي على طاولة الخياط ليعطي نفسه أهمية رئاسية، ووضع يداً على قلبه ـ إيماءة من الدرجة الأولى إلى إخلاص روسو ـ ورفع الأخرى بالأمر. وبالأيدي اليمنى ممدودة والأصابع مشدودة، أصبح المندوبون الستمائة رومانيين جدداً، يرددون صدى القسم في نسخة صقلها بارناف، لم يمتنع إلا واحد منهم، هو مارتن دوتش أف كاستلنودَري Martin d'Auch of Castelnaudary ـ رُسم في لوحة ديفيد للمشهد جالساً مقطباً ويداه مشبوكتان بإحكام في حجره. ميَّز إرثر يونغ الطبيعة الثورية للحدث مباشرة. كان «تبنياً لمسؤولية السلطة كاملة في المملكة. فقد حوّلوا أنفسهم بضربة واحدة إلى المحكمة الإنكليزي الطويل الذي انتفض ضد الملك شارل الأول».

في اليوم التالي، اجتمع المجلس الموسع في فرساي، وأجل الجلسة الملكية يوماً واحداً إلى الثالث والعشرين ليتيح وقتاً أطول للنقاش (وخاف بعضهم من تعزيزات عسكرية). فاقم تأثير قسم قاعة التنس العداء لـنِكر من طرف أخوة الملك. صرخ أرتوا باللعنة عليه ولم يخفِ عزمه على التخلص منه. وكان اليوم التالي أكثر سوءاً. فعلى الرغم



الصورة 88، الجزء الفردي من لوحة جاك لويس ديفيد، قسم الهورايتين



الصورة 89، صورة مجهولة، لقسم قاعة التنس

من دعم الوزراء زملاء نِكر، كان الأمراء عازمين على رفض أي تعدي على السلطة المستقلة للطبقات في أي شأن مهما كان. وفي وجهة النظر تلك، تبع ذلك أنه لا يمكن أن يوجد شأن يمكن أن يُعلَن أنه «وطني» وهكذا تنظر فيه الجمعية كلها. وأية امتيازات على

جانب الطبقات ذات الامتيازات كما لإعفاءاتها الضريبية وما شابه ذلك سيكون لهم بشكل خالص ليختاروا، وليس للسلطة التشريعية العامة. كل هذا سوف يُطرَح باسم حرمة «الدستور الفرنسي».

كان رفض الأهداف العامة للأمة رد فعل مثير عاد إلى ما قبل برامج الإصلاح في الثمانينيات، وما قبل ترغوت إلى نوع ما من فرنسا فانتازية قائمة على النظام التقليدي والطاعة التراتبية. كانت تلك فرنسا التي لم توجد في الحقيقة الواقعية قط إلا في المشهد المجرد في قائمة المرايا، التي أضيئت بشمعدان ملك الشمس المصنوع من الفضة بطول خمس أقدام.

هل يحاول لويس السادس عشر أن يغير نفسه إلى لويس الرابع عشر؟ قبل الاجتماع الأخير في 22 حزيران، سأل الملك مونتورين وسانت بريست، الوزيران اللذان ساعدا نِكر، عن آرائهما. لم يكن الاثنان تحت أية أوهام أن موقف المواجهة هذا لن يلقى الموافقة أبداً. يجب أن يُعزَّز. لكن لا توجد أموال في الخزينة للدفع لمن يطبقها و، قال مونتمورين، سياسة رد الفعل تضمن ألا يصوت مجلس الطبقات على أية عائدات إضافية. وما هو البديل؟ حاول سانت بريست أن يجعل الملك يرى أنه، مهما كانت التغييرات المؤسفة غير المصدقة، فإن «ثقل الظروف الراهنة» هي ما يجب أن يحكم قراره. وكتب دون مغالاة، «يهدد غرق السفينة شرايين الدولة». وأوضح على نحو صحيح تماماً أنه، تاريخياً، لم يكن ثمة شيء غير قابل للتغيير في الدستور الفرنسي في كل حال. كان قبول التغيير ضرورياً عندما تتطلب الظروف ذلك، لأن «لا شيء يبقى نفسه تحت الشمس» - اختيار تعبير شائع غير ملائم، إذ أن عهد لويس بعد كل شيء بدأ بشعار شمس جديدة تشرق على فرنسا.

كان كل هذا بلا طائل. فالمستشارون الثلاثة - بارنتين ودي لا غاليزييه وفيديو دي لا تور، الذين كتبوا خطاباً بذلك للملك - دعموا الخط المتشدد لأرتوا وبروفنس. استبدل الملك عندئذٍ خطة نِكر بخطتهم واستعد لصدام الإرادات الحتمي في اليوم التالي.

ومع أن المناسبة كانت جلسة ملكية، وليست عرش العدالة، فإنها امتلكت كل أجواء التأكيد التقليدية للإرادة الملكية. أحاط الجنود بقاعة الجمعية. للمرة لأخيرة تتعرض الطبقة الثالثة للامتهان دون مسوغ يجعلها تدخل من باب جانبي بينما كان مندوبو الطبقتين الأخريين جالسين. وفصلت أيضاً بالقوة عن مندوبي طبقة رجال الدين، بما فيهم الآن الأساقفة الليبراليون من بوردو وفيان Vienne، الذين هرعوا لنجدة جمعيتهم. لم يكن نِكر

حاضراً ليصغي إلى الهزيمة الرسمية لكل محاولاته من أجل المصالحة. عندما تكلم الملك، كان الوضع يتسم بالانفعال الملموس الذي لم يكن واضحاً في الجلسة الافتتاحية يوم 5 أيار. كان، كما قال، «الأب العام لكل رعيتي» وقد ترك الأمر لهم كي ينهوا الانقسامات غير السعيدة التي عوقت عمل مجلس الطبقات. عندئذٍ قرئت له 15 مادة، واحدة بعد أخرى، التي تجعل نيته واضحة جداً في الاحتفاظ بالطبقات الثلاث وإلغاء الإجراءات «غير القانونية» المتخذة في 17 حزيران والحدود «غير الدستورية» التي وضعت على المندوبين بتكليف دوائرهم الانتخابية. ثم يتبع ذلك مجموعة من الملاحظات الشخصية بما فيها التعليق الميال إلى تهنئة الذات: «يمكنني القول، دون وهم، إنه لم يفعل أي ملك هذا الكثير لأية أمة».

كانت حبة دواء مُرّة لتبتلع. ومقترحات الإصلاح الخمسة والثلاثين التي تلت قُصِد منها تحليتها، لكنها كانت مغطاة بقشرة رقيقة جداً من بودرة السكر وحسب. نص البند الأول بشكل بديهي على أنه لن تحصل أية ضرائب جديدة إلا بموافقة ممثلي الشعب ـ وفي الوقت نفسه جعل ذلك التمثيل بالذات موضع نقاش. تحفظات مماثلة تبعثرت خلال النص. منحت حرية الصحافة شريطة ألا تؤذي الدين أو الأخلاق أو كرامة المواطنين: عملياً الوضع الراهن .Status quo وألغيت مذكرات التوقيف الملكية Lettres de Cachet إلا في حالات التحريض على الفتنة أو الجنوح الأسروي (يجب أن يكون لدى ميرابو سبباً وجيهاً لابتسامة ساخرة على تلك الفكرة.) يمكن إلغاء الإعفاءات الضريبية، لكن إذا وافق أصحاب الامتيازات على ذلك فحسب، وكل الرسوم والحقوق الإقطاعية يجب أن تُحفَظ وتحمى كشكل من الملكية التي يجب ألا تُنتَهك.

وفي النهاية، أصدر الملك تحذيراً، إذا «تخلت الجمعية عنه» في جهوده، فسيضطر إلى «أن يتقدم وحيداً من أجل الصالح العام، وسأعتبر نفسي وحيداً لأكون ممثل الأمة الحقيقي». إذا كان ذلك ضرورياً، ثم وبممانعة شديدة، سيحول نفسه إلى حاكم مطلق متنور. أما الآن، «فإني آمركم، أيها السادة، أن تفضوا الاجتماع فوراً وتجتمعوا غداً في غرف منفصلة لاستئناف جلساتكم».

لم يحدث شيء من هذا القبيل. ففي الثاني والعشرين، بينما أُفسِدت خطة نِكر في المجلس الملكي، تابعت الجمعية الوطنية اجتماعاتها محصنة الآن بأكثر من 150 عضواً من رجال الدين ومجموعة من النبلاء عدّت 47 مندوباً الذين عبروا عن مرادهم بشكل واضح الانضمام إلى أخوتهم المواطنين. وفي عرض لمشاكسة صبيانية، استأجر أرتوا

فعلياً قاعة التنس ليمنعهم من الاجتماع لكن، في روح اقتراح مونييه، فإن كنيسة سانت لويس تفعل ذلك أيضاً. وهناك قرروا أن يجتمعوا فوراً بعد الجلسة الملكية مباشرة.

بعد خروج الملك والحاشية، في صمت مطبق، دخل النجارون لتفكيك المنصة والمنابر التي استخدمت للمناسبة. ظلت الطبقة الثالثة جالسة في تحدٍّ وسط القعقعة والطرق وتحولت مرة أخرى إلى جمعية وطنية. وتحت رئاسة بيلي أكدوا جميعاً بعناد قراراتهم السابقة. وكان ميرابو، الذي لا تُضارَع معرفته بالاعتقال العاجل بأي شخص في الجمعية، حضّ زملاءه بصورة خاصة على إعلان الحرمة الشخصية للمندوبين. قال، مهما تكن الإصلاحات قد احتوت من أشياء جيدة، فقد فُرضت بالطريقة الأكثر إهانة. لم يكن «لانتدابكم» أن يفرض قوانين بل «للمنتدب» أن يتلقى القوانين من «كهنوت الأمة الذي لا تنتهك حرمته». أي هجوم على تلك الحرمة يجب أن يكون، في تعبير جديد صاغه، اعتداء على الأمة Lèse - nation .

عند تلك النقطة، استجمع الماركيز الشاب دي درو بريزيه de Dreux Brézé، الذي أمره الملك بشكل محدد أن يعد القاعة للطبقة الثالثة، ما يكفي من الشجاعة ليردد الأمر الملكي بمغادرة القاعة حالاً. كانت ملاحظاته موجهة إلى بيلي، لكن كان ميرابو الذي تدلى رأسه الأشعث على الفتى الذي يرتدي ثياباً نفيسة، قبعة على رأسه يتنازل بإعطاء الأوامر «لغير أصحاب الامتيازات». كان ميرابو مريضاً، وواهناً بسبب التهاب الكبد، وربما لم يكن صوته قد حمل ذلك الدوي العالي المعتاد. وتختلف الروايات حول ما إذا كانت الكلمات التي تلت هي ما زعمها ميرابو شخصياً: «اذهب وبلّغ هؤلاء الذين أرسلوك أننا هنا بإرادة الشعب ولن نخرج إلا على أسنة الحراب».

ومع ذلك ليست دقة التقرير هي المسألة. كان لا بد من أن تتشكل الثورة الفرنسية من مثل هذه المشاهد الحية Tableaux vivants التي تبلور في شكل مسرحي كثافة العاطفة التي اختبرها المشاركون. فبهذه الشهادة الدرامية وحدها يمكن لرسالتها أن تُبلَّغ إلى الملايين الكثيرة التي يمكنها هكذا أن تشاركها شعورها بالخفة والنشاط، وتغدو مشاركة في نتيجتها وهكذا تربط نفسها بالولاء لها. لقد أصبحت الآن نوعاً جديداً من دين.

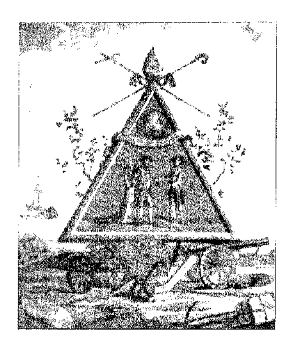
أثار تدخل ميرابو غضب بيلي باعتباره دعوة للسلاح لا مسوغ لها، لكنه كرر قرار الجمعية أن تتابع إجراءاتها. انسحب درو بريزيه، يمشي ببطء إلى الخلف، القبعة على رأسه، تماماً كما تقتضي اللياقة الرسمية: توديع مناسب لطقس فرساي المستبد. كان تراجعاً ببساطة. وكان رد لويس السادس عشر، في كل حال، استسلاماً ليس أقل كمالاً أنه عبّر عن

ذلك عرضاً. إذ أنه هزّ كتفيه عندما أُبلغ بقرار الجمعية. وعلق، «آه، حسن، ليبقوا».

وكما في صيف وخريف عام 1787، فعل الملك أسوأ ما هو ممكن باستعراض السلطة الملكية ومن ثم التراجع عن فرضها. لقد غدا على نحو متزايد غير مؤهل لتقرير ما إذا كان يستطيع فعلاً أن يغدو نوعاً من ملك الشعب كما أراد ميرابو أو المدهون بزيت ريمز الذي كرسه ملكاً مسلحاً بالراية الفرنسية. وصار السؤال فجأة أكثر إلحاحاً، بما أن شغباً شعبياً بدا يُصنَع وسط فرساي في رد على غياب نكر البليغ الدلالة عن الجلسة الملكية. فقد شوهد بعد ظهر ذلك اليوم عدة مئات من المندوبين ذاهبين إلى مكتب الرقابة العامة في إيماءة تضامنية، وقد انضم إليهم بسرعة حشد من نحو خمسة آلاف، يهتفون «عاش نِكر». وماري أنطوانيت التي كانت الأكثر جرأة على تحدي الشعب، غدت الآن الأولى التي يروعها تدفق الشعب إلى فناء القصر ومن ثم إلى مدخله، غير محمية بميلشيا الحرس الفرنسي. وإذ طلبت أن ترى نِكر توسلت إليه ألا يستقيل وفي مقابلة منفصلة تابع الملك القضية.

والآن بما أن سياسة الخط المتصلب قد انهارت، وافق نِكر على البقاء في منصبه بشرط أن ينفذ الملك برنامجه الأصلي المصمم على إعادة توحيد الطبقات الثلاث. وإذ ترك الملك سار بين المندوبين وأبناء المدينة المبتهجين، وهو يحاول أن يلطف ابتهاجهم، فأخبر المندوبين «أنتم أقوياء جداً الآن، لكن لا تسيئوا استخدام سلطتكم». وفي مواجهة هذا الانتصار الشعبي، غادر الملك إلى مارلي وسائق عربته يحاول التعامل مع حشد فظ منذر بالسوء.

كان لا يزال هناك محاولات متقطعة يجب على السلطة الملكية أن تفرضها في اليوم الذي تلا الجلسة الملكية، وصل بيلي إلى القاعة ليجدها مطوقة بالقوات العسكرية التي، كما في اليوم السابق، كان لديها أوامر ألا تسمح لأي من المندوبين من طبقتي النبلاء ورجال الدين بدخول القاعة ولا أي شخص من الجمهور. غير أن سخطه تلاشى عندما غدا واضحاً أن الضابط المكلف بهذه المهمة غيّر ولاءه في الحقيقة إلى جانب الجمعية الوطنية، وأن رجاله كانوا يتآخون بحماسة مع المندوبين مصرين على أنهم أيضاً مواطنون». أخذ «رجال الدين الوطنيون» عندئذٍ عبر مدخل خلفي إلى قاعة الأفراح الصغيرة، حيث قادهم أسقف فيان Vienne، وغدوا ثانية جزءاً من الجمعية الوطنية. ومؤخراً في ذلك اليوم، نجا أسقف باريس، الذي أُفرِد على نحو خاطئ باعتباره عدواً أساسياً للشعب، بصعوبة من رجم عربته بالحجارة.



الصورة 90، «أن تتأخر خير من ألا تأتي أبداً» إعادة توحيد الطبقات الثلاث
داخل مثلث مقدس نقش بأسطورة *Omnes Cives* : الجميع مواطنون

وجلب اليوم التالي 25 حزيران مشهداً حياً آخر إلى حوليات الجمعية الوطنية عندما انضم سبعة وأربعون عضواً من النبلاء الأحرار في النهاية إلى الجمعية. كانوا قد سبقهم اثنان من مندوبي دوفين الثمانية، وقد انضمت البقية إليهم في حملتهم الرائعة، bonne Compagnie، كما عبروا عن ذلك في اليوم التالي. كانوا بقيادة ستانيسلاس كليرمونت تونير Stanislas Clermont Tonnerre وضموا كثيرين من الأعضاء في نادي دوبورت في الخريف الماضي: لالي تولندال الأب المبرئ، دوق دايغويلون Duc d'Aiguillon، ودوق دي لويين Due de Luynes، لارشفوكولد، ألكساندر دي لاميث، مونتمورنشي دي لوكسمبورغ، وليس آخراً ابن خال الملك نفسه فيليب، دوق دي أورليانز. لم يكن هؤلاء محدثي نعمة، بل المجموعة الأعلى من النبلاء: رجال مات أجدادهم على أرض معارك المائة عام، الذين أحاطوا بالملك الشمس الشاب ومسيراته العسكرية في فرانش كومتِ وفلاندرز، والذين كانوا مارشالات وضباطاً وكبار محسني فرنسا. الآن هم مواطنون.

كان الغائب لافايت. كان غيابه جديراً بالملاحظة أكثر من أي شيء آخر بما أنه واحد من النبلاء الأحرار الذين بأشخاصهم أغلقوا الطريق على: مجموعة من القوات العسكرية أرسلت لتخويف الطبقة الثالثة بعد الجلسة الملكية. انتمى لافايت إلى مجموعة من سبعين أخرى أو هكذا المندوبين النبلاء التي صوتت سابقاً لصالح إعادة الوحدة لكنها

شعرت بأنها محكومة برغبات دوائرها الانتخابية أن تبقى منفصلة ما لم يأمرها الملك بطريقة أخرى. كان ثمة إمكانية لجلب عدد كبير لو كانت الجمعية الوطنية مستعدة لاحترام إمكانية احتفاظهم بنوع ما من الهوية المستقلة في قضايا تخص النبلاء. لكن أن تطلب هذا يعني أن تطلب من الجمعية أن تتخلى عن مقدمة هويتها المبتكرة حديثاً: عدم قابلية المواطنة للقسمة. وقد رفض الاستماع إلى «موفد» من النبلاء على أرضية أن استقباله سيشكل اعترافا بتلك المزاعم الخاصة.

وفي السابع والعشرين من حزيران احتضر مجلس الطبقات أخيراً، أعطاه الملك رصاصة الرحمة Coup de grâce وكان هو الذي دعاه إلى الوجود. حيث كتب إلى مندوبي الطبقتين صاحبتي الامتيازات، «انضموا» إليهم لتتوحدوا «لأنجز أهدافي الأبوية». وبهذا لا يعني بالضرورة استسلاماً غير مشروط لإجراءات 17 و20 حزيران ـ إزالة الطبقات ضمن



الصورة 91، نكر يقود لويس السادس عشر إلى الطبقات الثلاث المتحدة. تحت ميداليات هنري الرابع ووزيره، سالي.

سيادة غير قابلة للقسمة مناطة بالجمعية الوطنية. وحتى بعد التوحيد النهائي، في الثانية بعد الظهر، الذي أنجز في جو من الجدية والرزانة غير السعيدة بدلاً من المصالحة المبهجة، تابع بعض النبلاء ورجال الدين تفسير الرسالة الملكية بمعنى التداول بشكل مشترك في قضايا ذات مصلحة مشتركة.

جرفت هذه التحفظات كلها جانباً في فورة عظيمة من الاحتفال الشعبي خارج الأبواب. أضيئت شوارع فرساي، انفجرت المفرقعات النارية بعد الظهر في الجو. ملأت حشود المغنين والراقصين الساحات والشوارع المؤدية إلى القصر، تهتف «عاش نِكر، وأخيراً كما في الغالب «عاش الملك». وقد أطل لويس وماري أنطوانيت بشكل مرتجل مقتنعين بمزاج الشعب اللطيف. وقفا على شرفة غرفة نوم لويس الرابع عشر يتطلعون إلى ساحة المرمر، حيث مثّل موليير لملك المشمس وقاد لالي فرقة موسيقية له. حاولا أن يظهرا سعيدين، وحاول لويس أن يلوح بيده. غير أن الملكة هي التي كانت قبلة الأنظار كلها، ليس بسبب بهاء مظهرها، بل بسبب تواضعه. فالحزن على وفاة ولدها، كما قيل، وخط شعرها بالشيب الذي أسدلته على كتفيها مثل مواطنة. لم تكن ثمة جواهر مرئية. دخلت إلى الغرفة، ومحاولة أن تحبس دموعها، أحضرت أمام الجمهور المندهش ولديها. ومعاً، الأب والأم والأطفال بعقصات شعر أشقر مسدلة على أكتافهما وقفا بهدوء أمام الناس الذين يهتفون بصوت أجش. كانت المرة الأولى في مواجهات كثيرة مثل هذه ستأتي، كان القليل منها دمثاً كهذه. في تلك اللحظة من الزمن، مع ذلك، أعطى مشهدهم معنى جديداً لملاحظة بيلي مبكراً عصر ذلك اليوم عندما قال: «الآن عائلتنا كاملة».

من الماركيز دي فرييه إلى السيدة دي ميدِل، الأحد 28 حزيران:

سأقول كلمة واحدة لك، يا أختي العزيزة، ما دمت ربما قد انتابك القلق على ديفرسي وعليّ. لقد اقتربنا من الكارثة الدموية الأعنف، تجديداً لأهوال مذبحة سانت بارثولمو إيف Saint Bartholomew's Eve*. يبدو أن ضعف الحكومة يسمح بكل شيء... ولم تخدم الجلسة الملكية إلا بجلب النصر للطبقة الثالثة. ففي المساء نفسه اضطر الملك إلى أن يغير إعلانه مع أننا وافقنا عليه... وفي يوم الجمعة، انضم خمسون عضواً من النبلاء، كان على رأسهم دوق دي أورليانز إلى الطبقة الثالثة مع أن معظم دوائرهم الانتخابية تمنعهم بوضوح من التصويت الفردي. كان يمكنني أن أفعل الشيء نفسه بالتأكيد بقناعة أقوى بما أن عريضتي لم تقل شيئاً فاصلاً حول التصويت كطبقة أو فرد وأنا بالتأكيد غير مكترث بطريقة المشاورات...*

ولكنني لم أفكر أنني أستطيع التخلي عن طبقتي في الظروف الحرجة التي وجدت نفسي فيها. يتحدث الناس بصراحة في القصر الملكي عن ذبحنا، وقد وضعت علامات على منازلنا من أجل هذا القتل ووضعت على بابي علامة «أ» بالأسود (بمعنى محروم من حماية القانون). كان يفترض أن تتم هذه المجزرة ليلة الجمعة أو السبت. ولأقول الحقيقة كانت فرساي كلها شريكة في الجريمة.

كان البلاط يتوقع، في أية دقيقة، أن يرى نفسه يُهاجَم بأربعين ألف قاطع طريق مسلح الذين، كما قيل، كانوا في الطريق قادمين من باريس. وقد رفض الحرس الفرنسي أن يطيع الأوامر. مجموعات كاملة هجرت وذهبت إلى الرويال بَلاس حيث قُدِّم لهم الشراب والبوظة وقدموا عرض النصر، ومن حسن الحظ أن الرجل الذي دُبِّرت باسمه هذه المؤامرة الشيطانية (أورليانز) جبان جداً ليكون وغداً. وهكذا مرت ليلتا الجمعة والسبت بهدوء، وقد كتب الملك إلينا عبر رئيسنا، م. دي لوكسمبورغ يوم السبت في السابع والعشرين أن ننضم إلى الطبقة الثالثة...

يبدو كل شيء هادئاً الآن، مع أن الحرس الفرنسي لم يعد يعترف بضباطه. فانقسام القوات عام وكل شيء يعلن عن ثورة عظيمة... سيُحتفَل بمجلس الطبقات لعام 1789 براية من الدم تُحمَل إلى كل أرجاء أوروبا...

وداعاً يا عزيزتي، يا أختي الطيبة، الوضع ليس مريحاً جداً. ولو كان هناك رجل واحد فحسب يمكن الاعتماد عليه، لن أعتبر الأشياء بهذا الإحباط، لكن الوزراء غير مؤهلين إلى حد كبير.

ضمي ميديل لأجلي

المخلص

تشـــارلز إيـلـــي

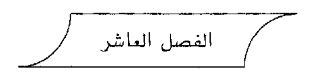
CHAPTER NINE

IMPROVISING A NATION

The passages from Ferrières are taken from Henri Carré (ed), Correspondance Inédite, 1789, 1790, 1791 (Paris 1932) For details of Mirabeau's role in the Estates - General, see

Chaussinand - Nogaret, Mirabeau, and for the Provence riots of 1789 see Egret, "Pre - Revolution in Provence1" in Kaplow (ed.) New Perspectives. The popular biography by Antonia Vallentin (trans. E. W. Dickes), Mireau (London 1948). is still a valid and entertaining account of his life and politics. On the nobility in the Estates - General, see J. Murphy and P. Higonnet, "Les Deputés de la Noblesse aux Etats - Géneraux de 1789", in Revue d'Histoire Moderne et Contemporaine (1973). On the clergy, see R. E Necheles, "The Curés in the Estates General of 1789", in Journal of Modern History (1974); M. G. Hutt, "The Curés and the Third Estate: The Ideas of Reform in the Period1 787 - 89", in Journal of Ecclesiastical History (1955 and 1957); Pierre Pierrard, Histoire des Curés de Cam - pagne de 1789 à Nos Jours (Paris 1986, especially 15 - 3o); and especially the outstanding work of Timothy Tackett, Priest and Parish in Eighteenth - Century France: A Social and Political Study of the Curés in a Diocese ofDaupbiné 1750 - 91 (Princeton 1977) See also C. Langlois and T. Tackett, "Ecclesiastical Structures and Clerical Geography on the Eve of the French Revolution", in French Historical Studies (1980,352070).

For the atmosphere in Paris during May and June, see Young, Travels in France. Robert D. Harris's Necker and the Revolution of 1789 (Lanham. Md., New York and London 1986) gives careful consideration to Necker's role in these months and corrects the conventional wisdom concerning his alleged passivity. Harris's superbly detailed study also makes a powerful case against the inevitability (and the desirability) of Third Estate sovereignty. The book is indispensable reading for any balanced judgment of the politics of 1789. For the full text of the royal speech of June 23, see Roberts, Documents (vol. 1, 115 - 23).



الباستيل
تـموز/يوليو 1789

I ـ نوعان من قصر

بُني قصر فرساي Versailles ضد باريس.

تروي النافورة الأولى، التي تُرى في حديقة القصر على منحدر من الشرفة، الحكاية. تقف لاتونا في حوض دائري حاملة طفلها الرضيع أبولو، لقد فرَّت من غضب جونو الغيورة، التي كان زوجها جوبيتر يتقرب منها. وعندما تتوقف في طريق فرارها لشرب بعض الماء، يهاجمها الفلاحون، الذين جندتهم الإلهة المنتقمة. وإذ يشاهد جوبيتر مأزقها، يتدخل ويحوّل الفلاحين إلى ضفادع. هذه هي اللحظة التي التقط فيها النّحات الحكاية، ببرمائيات في حجم القطط جاثمة أو قافزة باتجاه الحورية، تنق في أشكالها المسخية. لا يزال بعضها يحتفظ بجذوعه البشرية بينما تغيرت رؤوسها إلى أعين منتفخة وأفواه واسعة فاغرة.

والقصة، لملك الشمس، ذات أهمية شخصية مباشرة. فوالدته، آن ذات الأصل النمساوي، قد أُجبرت على الخروج من باريس بسبب ثورة الفروند Fronde، حاملة طفلها الرضيع 'أبولو' مثل هارب. وفي سني رشده، عزم لويس الرابع عشر ألا يقع أسيراً مرة أخرى أبداً في أيدي الشعب أو نبلاء باريس. ومع أن القصر في فرساي بدأ كنُزل للصيد ومكان للتمثيل المسرحي المُقنَّع والقصف، غير أن الملك سرعان ما جعله المكان الذي

يستطيع فيه أن يعيد تعريف حكمه الاستبدادي .وقد أنفق وزيره كولبرت Colbert مبالغ طائلة على اللوفر Louvre آملاً أن يجعله لويس مركز حكومته الرئيسي، لكن دون جدوى. فأن يكون ملك الشمس يعني أن يشيد مملكة رمزية من حجارة وماء، رخام ومرايا، يجتاز فيها الملك والكوكب مسار اليوم بهدوء لا تعكر صفوه فوضى حياة المدينة. وتطغى فيه موسيقى البلاط على نقيق الضفادع .

نجحت الإستراتيجية لمدة قرن من الزمن. وبقيت باريس وفرساي عالمين منفصلين. إذا اضطرب سلام الملك في فرساي فذلك بسبب سكان البلدات المحلية والفلاحين، لأن المشي لست ساعات من باريس كان رادعاً ضد المظاهر الشعبية. ولم تكن رحلة كتلك مروعة وقتاً ومسافة فحسب، بل خطيرة أيضاً .فقد كانت طريق بوا دي بولون Bois de Boulogne، التي يجب أن يمر عبرها المسافرون للوصول إلى الطرق الغربية، ممتلئة بالعصابات واللصوص والعاهرات.

لكن الرحلة في العربة، في كل حال، كانت تستغرق ساعتين أو ثلاث في حدها الأقصى. وفي عهد لويس السادس عشر أعيد تحويل مركز الثقل إلى الشخصيات الرفيعة المستوى في البلاط من القصر إلى المدينة. أُقيمت فنادقهم في حي سان جيرمان أو جددت ببذخ في الماريه، وأماكن استجمامهم الأوبرا ومسارح المدينة والحفلات الموسيقية، بالإضافة إلى ملاهي البلاط التي بدت قليلة الأهمية وثانوية. كان الفن الأفضل صالون الحدث كل عامين والحديث الأفضل في ولائم العشاء الخاصة و«المجالس» كتلك التي يمكن إيجادها في منزل دوبورت Duport أو نِكر Necker . والأكثر أهمية، انجذبت المبادرة السياسية من أروقة وأجنحة فرساي إلى قصر العدل والقصر الملكي. وهكذا غدا رجال البلاط الذين عرفت مكانتهم وهويتهم ذات مرة في التسلسل الهرمي في القصر مغيبين شيئاً فشيئاً. وقد علَّق ميرابو، «حتى في قيود الطغيان، حافظت باريس دائماً على استقلالها الفكري الذي أُجبِر المستبدون على احترامه. ففي عهد الفنون والآداب، صيغت باريس بتلك الفلسفة، وعبر الفلسفة بتلك الأخلاق الشعبية».

لكن قبل أن تتوصل باريس إلى جلب الملك من فرساي، كان الرويال بالاس Palais - Royal قد هزم قصر فرساي. لقد كان نقيضه في كل شيء، وفي الواقع كان خصمه .كان في قلب فرساي جناح خاص ينظر الملك فيه بالقضايا، وقد شُكِّل من غرف معرضة للخطر متباعدة كل واحدة عن الأخرى حيث أن الدخول في كل مرحلة يمكن أن يُمنَع أو يُسمَح كما تقتضي الطقوس واللياقة. وامتد جناحان هائلان طول كل منهما نصف

ميل شمالاً وجنوباً، تابعان بكل المعاني، كانا سكناً لخدمات حكومة وقصر الملك الكلي القدرة نظرياً. أما الرويال بالاس فكان مكاناً مفتوحاً مطوّقاً بالأعمدة، معادلاً باريسياً للأمكنة الجمهورية مثل بيزا سان ماركو Piazza San Marco في فينيسيا. لم تعطِ هندسة بنائه أية تعليمات. وبالأحرى أغرى بالتباطؤ، المشاهدة، التصفح، القراءة، الشراء، التحدث، المغازلة، السرقة، الأكل - كل شيء بعشوائية - بترتيب عفوي مرتجل أو لا ترتيب على الإطلاق. وبينما كان فرساي المكان المخفور الأشد دقة في فرنسا، حظر الرويال بالاس، كونه من أملاك الدوق أورليانز، وجود أية قوات شرطة مهما كانت إلا إذا استدعاها مالكه. وإذا وضعت فرساي قدراً كبيراً من النظم بواسطة هرمية المراتب، فالعمل الدؤوب في الرويال بالاس خلطها جميعاً على نحوٍ لا تقوم لها قائمة بعد ذلك. وإذا دعت فرساي إلى الانضباط العام؛ احتفل الرويال بالاس بالفوضى العامة للشهوات.

كانت التعابير في البلاط، وإلى حدٍّ ما في اجتماعات المجلس، محترسة، في كل المعاني، أما في الرويال بالاس، يمكن قول أي شيء، والأفضل هو الأكثر تطرفاً. وفي المقاهي مثل مقهى فوي Café Foy، راقب أرثر يونغ Arthur Young.

حيث تصغي الحشود المتوقعة من ممر ضيق إلى خطباء معينين الذين يخطبون بجمهورهم من مقاعدهم أو طاولاتهم بغضب. ببساطة لا يمكن تخيل الحماسة التي يُصغى بها إليهم والتصفيق المدوي الذي يتلقونه لكل رأي فيه جرأة أو عنف أكثر من السائد ضد الحكومة الحالية.

كما أدهشته تماماً دمقرطة الألعاب النارية. في فرساي، نشأت عروض الألعاب النارية، منذ أيام لويس الرابع عشر، بحذر لتقديم الإجلال للسلطة الملكية. في الرويال بالاس، اشترت لباقة آل أورليانز باثني عشر قرشاً مفرقعات نارية من كل الأشكال الصاروخية والأفعوانية بقدر ما تشتري خمسة لير من مصادر إمداد نظامية. وفي ليلة 27 حزيران، في احتفال لمِّ شمل الجماعة، انفجرت سماء باريس بالضجة واللون بينما بقيت السماء فوق فرساي صامتة حزناً.

لم يعد ثمة شك أن الرويال بالاس قد أصبح إمبراطورية الحرية عندما ذهبت مجموعات متمردة من الحرس الفرنسي إلى هناك في 28 حزيران لتعلن أنها لن تطلق النار على الناس في أي ظرف من الظروف. وذهبت مجموعتان منهم في الثلاثين إلى الجمعية الوطنية باللباس المدني لتشجب قائدها، الدوق دو شاتليه Duc du Châtelet، وقد اعتقلهم الفرسان وأرسلوهم، مع دزينة من رفاقهم، إلى سجن آبي Abbaye. وعندما انتشر نبأ

الاحتجاز، كانوا قد أُطلق سراحهم بواسطة حشد من أربعمائة شخص تابعوا بعدئذٍ دعوة الجنود لعشاء احتفالي عام. فتح الدوق أورليانز مبانيه وأراضيه للشرب طوال الليل، ومحروسين بـ «أخوتهم ـ المواطنين» نام الجنود من سلاح المدفعية على أرضية قاعة موسيقى المنوعات. وفي اليوم التالي، عُلّقت السلال من أمكنة إقامتهم الجديدة في فندق جنيف داخل الرويال بالاس، وبالتالي كان بإمكان ذوي النوايا الطيبة تقديم مساهمة وطنية لأبطالهم. وإذ لم يرغب المقترعون بالتسليم لتحدٍّ كامل للسلطة، دبروا في أوتيل دو يل والجمعية الوطنية تسوية إنقاذية تحفظ ماء الوجه التي وافق من خلالها الحراس على العودة إلى السجن لليلة واحدة، ويُعفى عنهم بعدها ويطلق سراحهم.

ليس مدهشاً أن ثورة باريس بدأت هناك، في جو السُكر والتحدي المهذار الذي ساد في الرويال بالاس. لكنها وُلِدت ثورة أقل مرحاً منها يائسة. ففي تموز، ارتفعت أسعار الخبز إلى مستويات لم تكن أعراض ندرة فحسب بل مجاعة. حيث كانت الظروف في كل أرجاء فرنسا المدينية تقترب بسرعة من مستوى حرب الطعام. فقد فرض القائمون بأعمال الشغب في المدينة الفرنسية الثانية، ليون Lyon، في أواخر حزيران، بيع الحبوب معفية من الضرائب باعتقاد خاطئ أنهم ينفذون أمر الملك. وفي باريس، غدت الهجمات المتفرقة على الحدود الجمركية حول المدينة تتكرر كثيراً مما أوجب أن تتمركز القوات هناك وفي الأسواق وترافق كل القوافل لتحمي الحبوب والدقيق. وكانت لاسيما أيام الأربعاء والسبت، التي كان يبيع فيها الخبازون الجوالون بضائعهم في الأسواق المسقوفة Les Halles وأسواق أخرى مخصصة، مناسبات محفوفة بالمخاطر. كان الخبازون الممنوعون من نقل أرغفتهم غير المباعة المتبقية في أكشاكهم آخر اليوم، وهكذا كانت الحشود الجائعة تجتمع في ذلك الوقت بأمل الصفقات. وكان عندئذٍ خطر العنف والاستيلاء على الأرغفة هو الأشد حدة.

وفي مطلع تموز/ يوليو كانت ثمة أزمة للفقراء أيضاً في ناحية عصيبة أخرى. ففي نهاية الأسبوع الأول منه كان الموعد النهائي المرعب: موعد دفع الفواتير كلها، بما فيها الإيجار. وكما يصف ريتشارد كوب Richard Cobb بشكل حيّ، كان موعد تموز هو الأسوأ، طالما أن موعد تشرين الأول سيكون موسم الحصاد قد حل والخبز أرخص، وفي كانون الثاني غالباً ما تكبر الرحمة وتتسع الثقة بسبب أشهر الشتاء القاسية. أما في تموز، قبل الحصاد، فتكون أسعار الخبز في أعلى مستوياتها والدخل المتوفر في المستوى الأدنى. وفي عشية يوم تسديد الفواتير، السابع، تفر عائلات بأكملها وجاليات العائلات،

تأخذ معها أحياناً الألواح التي استخدمتها للنزول من النوافذ العالية. كان وقت خوف، وعدم استقرار ورحيل.

لذلك عندما وصلت الأخبار إلى الرويال بالاس يوم الأحد، الثاني عشر من تموز، أن الملك طرد نِكر وأرسله بسرعة إلى المنفى، تسببت بموجة فورية من الذعر وبسخط. لأن نكر قد أصبح ليس رمزاً لانتصار الطبقة الثالثة Third Estate وحسب، بل الأب المُطعِم père nourricier أيضاً. فقد عرضته مطبوعات كثيرة لا تحصى احتفت بشهرته جالباً للوفرة: الرجل الذي صنع من الإفلاس قدرة على إيفاء الديون، وخلق عملاً حيث كانت البطالة وقدَّم خبزاً حيث كانت المجاعة. كانت شهرته بالاستقامة هي التي حامت فوقه مثل هالة، في تباين مباشر مع الأرستقراطيين، الذين لن يتوقفوا عند شيء، حتى الإعداد لمجاعة، لإزاحته من السلطة. (لم يكن كل هذا الإطراء غير مستَحَق. فقد استخدم نكر ثروته الشخصية كضمان لشحنة حبوب من المؤسسة المصرفية هوب Hope في أمستردام.)

وفكرة أن المجاعات لم يسببها المناخ فحسب بل المؤامرة لها تاريخ طويل في فرنسا. لكنها لم تحظَ بمشاركة أوسع ولا عُبِّر عنها بغضب أشد من عام 1789. وإذا كان الخبازون والطحانون الذين منعوا مخزوناتهم عن السوق لرفع الأسعار أعلى هم الأوغاد المباشرين، فوراءهم تكمن عصبة أرستقراطية أكثر شراً. كان هدفها الحالي إضعاف الثقة بـ نكر وضمان إبعاده. ومع ذهابه، كما قالت الكراسات، يمكن أخذ الناس رهائن حتى تنحل الجمعية الوطنية بأمان. وقال كاتب أحد الكراسات، «لا يمكن للقرون الماضية تقديم سابقة لمؤامرة شريرة كتلك التي دبرتها الأرستقراطية المحتضرة ضد الإنسانية».

في بعض الأحيان، تتحول نظريات المؤامرة لتكون صحيحة. لم يكن هناك، طبعاً، مكيدة لتجويع الناس إلى درجة الإذعان، لكن بالتأكيد كان ثمة تصميم على إبعاد نكر وحلّ الجمعية الوطنية. وفي 9 تموز، على سبيل المثال، تم التعبير عن الآراء حول نكر بطرق مختلفة بشكل لافت في كل من فرساي والرويال بالاس. فعندما كان على وشك الدخول إلى المجلس الملكي، حيَّاه أرتوا نكر بهز قبضته إليه، وشتمه باعتباره «خائناً أجنبياً» و«برجوازياً تافهاً» ليس له «مكان» في المجلس وينبغي أن يعود إلى «المدينة الصغيرة» التي ينتمي إليها. وفي الاجتماع نفسه ذهب الأمير بعيداً ليخبر الوزير أنه فكر أنه ينبغي أن يُشنَق. وفي اليوم نفسه في الرويال بالاس، صفعت «امرأة من علية القوم» علناً لأنها كما زُعِم بصقت على صورة للوزير البطل.

وبدت هذه المخاوف والشكوك كلها مؤكدة بالعدد المتزايد للقوات في باريس وحولها. وضخمت تقديرات عددهم التهديد، لكنها لم يكن ثمة خطأ في بروز الجنود الألمان والسويسريين بينهم. (حتى بعض الأفواج الفرنسية الوطنية كانت من متحدثي الألمانية من لورين Lorraine.) وكان يعتقد بشكل عام أن القوات الأجنبية، في ائتلاف مع عصابات «لصوص مسلحة»، تطوف في الريف وتستجمع قواها لغزو البلدات بوصفها سلاح انتقام لنظام الحكم لاستبدادي.

لم يكن التركيز العسكري الحسن التنظيم تلفيقاً لجنون العظمة الشعبية. فقد أعطى لويس السادس الأمر الأول من سلسلة أوامر متتابعة لأفواج الحدود بالزحف في 22 حزيران، عندما كان ما يزال يتوقع الجلسة الملكية ستجهض الجمعية الوطنية. عندما أخفقت تلك السياسة، استدعى قوات أكثر في السادس والعشرين. وفي السادس عشر من تموز، كان ينبغي أن تكمل سلسلة من الإمدادات العسكرية القوات في منطقة باريس وفرساي لأكثر من عشرين ألف. وكان واضحاً أن عدداً من الأفواج ـ أكثر من الثلث ـ أجنبية، يتحدث معظمها الألمانية. ادعى الملك أن تلك القوات كانت قد حُرِّكت لتكبح الفوضى المحتملة في باريس وحولها. لكن للملكة وأرتوا ومجموعة الوزراء الذين يقودهم بريتول Breteuil المتلهفين ليروا ظهر نكر، كان العرض العسكري للقوة هو الأداة التي من خلالها يستطيع التاج استرداد حرية الفعل.

لابد أن تكون تلك الخطة قد أُحبطت بقلق أولئك الذين أنيط بهم تنفيذها، الذين خافوا أن تكون سلسلة إصدار الأوامر على وشك الانفراط. وكانت ثمة بعض الأسباب لمخاوفهم. فخلال ثمانينيات القرن الثامن عشر ارتفع معدل الفرار في الجيش الفرنسي إلى



الصورة 92، امرأة تُضرَب لبصقها على صورة نكر

ثلاثة آلاف سنوياً. وحدث هذا على الرغم من العقاب الوحشي الذي تعرّض له المذنبون الأوائل: يركض عشرة عبر تحدٍّ لخمسين رجلاً مسلحين بالحراب. وفي الثاني من تموز كتب السفير البريطاني تقريراً أن هذه المحنة نفسها طُبقت على جنديين من الفوج السويسري ساليس ـ ساماد Salis - Samade تواطآ مع الحراس الفرنسيين المتآمرين. وشُنق اثنان آخران.

وكانت المشكلة الأخطر أن استياءً من المؤكد أنه كان يقتصر على المجندين لكنه تسارع إلى مراتب الضباط الصغار. إذا كان ثمة أي مكان في النظام القديم تنسجم فيه الواقعية الاجتماعية للسجالات حول الاحتكارات الأرستقراطية والترقية المحبطة، لكان ذلك في الجيش. وإصلاحات غيبرت Guibert، ربما أحدثت بعض التحسن في الدفع لكنها جلبت معها أيضاً الانضباط البروسي وعدم تسوية في حفظ تعيينات الضباط للنبلاء «القدامى». ومع أن قانون سيغور Segur قصد تقديم حماية للنبلاء الأكبر سناً والأكثر فقراً، بقيت الشكوى الأكثر شيوعاً تفسد الأبناء الصغار للسلالات الحاكمة الغنية التي تُقدَّم لها التعيينات العسكرية فور تخرجها من الكلية. وهؤلاء الضباط المستشارون وضباط الصف الذين سئموا ذلك، والذين رأوا كل أمل بالارتقاء إلى فئة الضباط قد أغلقت بالقانون الجديد. عندئذٍ، لأسباب وجيهة، أحرزت الخطابة المعادية للأرستقراطية تقدماً في المراتب الأدنى.

ربما كان لدى الجنود في الجيش النظامي تَقبُّل أقوى لمطابقة أنفسهم بمواطني الطبقة الثالثة. وفق صامويل سكوت مارس أكثر من ثمانين بالمائة منهم عملاً آخر في الوقت نفسه، وجاءت نسبة عالية بشكل مدهش من أصول حرفية مدينية. إذن، لم تكن القوات المقاتلة في الجيش الملكي قوة فلاحية على الإطلاق بل أقرب لعمال الضواحي الذين نهبوا أعمال ريفلون Reveillon وسيشكلون أكثرية «فاتحي» الباستيل. وكان ذلك التضامن المرتجل بين الجيش والشعب حاسماً في الرابع عشر من تموز، عندما انضم نحو خمسين جندياً نظامياً إلى الناس الذين يقتحمون القلعة. لكن حتى قبل ذلك التاريخ، كانت تقارير ممانعة الجيش لاستخدام القوة ضد الاستيلاء على الحبوب أو البيع بالإكراه تغدو مألوفة.

كانت هذه الأخوّة الغريزية واضحة أكثر بين وحدات الحرس الفرنسي. إلى أن اعتقد بحث جان شانيو Jean Chagniot الضخم أن الحراس عموماً هم الأكبر سناً والأكثر استقراراً بين السكان الباريسيين وغالباً ما يمارسون الأعمال للتعويض عن رواتبهم

الضئيلة. لدينا الآن صورة مختلفة تماماً، لكنها الصورة التي تجعل قابليتهم للتأثر بالدعاية الثورية واضحة أكثر أيضاً. كان معظم الحراس شباناً، من أصول ريفية، لاسيما من بلدات شمالية مثل أميان Amiens وكاين Caen وليل Lille، وبعيدين من الاستقرار. كانت سلسلة من الإصلاحات في ستينيات وسبعينيات القرن الثامن عشر قد حدَّت من احتمالات ـ كانت مفتوحة لأسلافهم في مطلع القرن ـ الحفاظ على الدكاكين أو أكشاك السوق. كان نصف الرجال متزوجين ولديهم عائلات، وقد دعمتهم زوجاتهم في بعض الأحيان. لكن ضباط وجنود الجماعة العسكرية الذين كثيراً ما اعتمد عليهم النظام القديم لتكملة الألف وخمسمائة أو نحو ذلك من الشرطة كانت في الحقيقة مزعزعة، مُفقَرة وغالباً متمردة. وبين ضباط الصف، لاسيما الرقباء، كما اشتكى أحد الضباط القدماء، كان ثمة «شعور بعدم مساواة التي لسوء الحظ في القرن الحالي مزجت معاً كل المواقع والمراتب». قال جان ـ جوزيف كاتول Jean - Joseph Cathol، أحد أبناء كاتب العدل في مدينة أوفرنا Auvergnat ورقيب في الحرس، قال لاحقاً إنه في عام 1788 بدأ يقرأ للمرة الأولى صحفاً «تفضح نذالة القساوسة والنبلاء» وأخذ سخطه السياسي المتكشف حديثاً إلى صفوف الجند. كان آخرون ممن هم أقل انشغالاً في الجدل السياسي قد ولِدوا ببساطة على الطريق بواسطة مناخ المعارضة الذي وجدوه في الحانات حيث شربوا والرويال بالاس حيث تنزهوا. في الثاني عشر من تموز، على سبيل المثال، عسكري مستجد من فوج ريناك Reinach في فرساي اثنان من الحراس، في رفقة نساء وكان واضحاً أنهم سكارى، قالوا له، «تعالَ معنا، المال والترقية ينتظرانك في باريس».

مهما كان مزيج الأسباب، كانت أعمال شغب ريفيلون، لقوات الحرس الفرنسي، نوعاً من نقطة تحول صادمة أصبحوا بعدها يمقتون إطاعة الأوامر بشدة. وبدؤوا، على نحو متزايد أيضاً، يلبون طموحات اسمهم بوصفهم وطنيين أصليين. وفي السادس من تموز في فرساي كادوا يتعاركون مع الفرسان الناطقين بالألمانية الذين تحركوا لإخافة سكان البلدة. وفي الثامن من تموز تم اعتقال جان كلود مونيه Jean - Claude Monet، وهو بائع بطاقات يانصيب متجول، لتوزيعه كراسات تحرض على الفتنة بين الجنود، التي كان أحدها يناشد رماة المدفعية من «رفيق قديم في الحرس الفرنسي». وتقول إحدى رسائلها: «نحن مواطنون قبل أن نكون جنوداً، وفرنسيون لا عبيداً».

أصبحت الانطباعات مستقطبة بسرعة كبيرة. ظهرت من جهة لتكون الملكة النمساوية وأتباعها في البلاط، يدعمها الآن الجنود الفرسان الهنغاريون والفرسان الألمان. عسكروا

في ساحة مارس Champ de Mars في إنفاليد Invalides، وقد قيل، كانوا يستعدون لنسف الرويال بالاس. وكان يعد معسكر آخر في سانت دنيس Saint - Denis لقصف المدينة بالقنابل من بتس ـ مونتمارتر Buttes - Montmartre. وجاء في التقارير أن خصم نيكر الرئيسي، بريتول، قال في المجلس، «إذا كان علينا أن نحرق باريس، إذاً ستحترق باريس»، والآن، بدا، لديهم الرجال والوسائل لفعل ذلك. كان الجنود الوطنيون هم الذين وقفوا ضد هذه المؤامرة الشيطانية بقيادة الحرس الفرنسي، لكن مع قوات أخرى مستعدة لتتبع ينبغي أن يكون الناس مهددين بشكل جدي. وفي ناغيس Nagis، «القريبة من باريس ما يكفي ليكون الناس سياسيين»، وفي 30 حزيران، قال صانع الشعر المستعار الذي سرح شعر إرثر يونغ، «كن متأكداً من أن الجنود الفرنسيين لن يطلقوا النار أبداً على الشعب»، وأضاف، «لكن إذا كان عليهم فعل ذلك، فالأفضل أن يُطلَق عليهم النار من الموت جوعاً».

شارك ميرابو هذا الرأي. «الجنود الفرنسيون ليسوا مجرد آلات... سيرون فينا أقاربهم وأصدقاءهم وعائلاتهم... لن يفكروا أن واجبهم أن يضربوا دون السؤال عمن هم الضحايا...؟» لكنه عبَّر في 8 تموز في خطاب إلى الجمعية الوطنية أنه كان ظلاماً منذراً بالشر. وفي خطاب ذي قدرة تنبؤية، رسم صورة للحرب الأهلية الوشيكة. ومع أن عدد القوات بين فرساي وباريس قد ضخّم كثيراً ـ عند ثلاثة وخمسين ألفاً ـ لم يستطع أحد أن يغفل عن قرقعة المدفعية على الطرقات والجسور، ومجموعات المشاة التي تحفر مواقع لها كما وصفها. وكان الأسوأ من كل شيء هو الخداع الواضح الذي يُمارَس ـ واجه الرجال العصريون عيب النظام القديم غير القابل للإصلاح. هؤلاء الذين باشروا هذه الحماقات، سأل بلاغياً، «هل تنبأوا بالنتائج التي يستتبعونها على سلامة العرش؟ هل درسوا في تاريخ كل الشعوب، كيف تبدأ الثورة...؟»

لمس قوةً في الجمعية. راقب المندوبون، بعجز وقلق، بينما انتصبت الخيام، أولاً في ساحة ماربر Cour de Marbre، ثم في أورانجري Orangery ذات الأعمدة العظيمة التي بناها منسارت على نمط سيرك روماني. وقفت أهرامات من بنادق المسكيت تستند على الأعمدة ذات النمط الدوري. أعطت بلاغة ميرابو صوتاً لفكرتهم المجتمعة، ورُحِب بَخاتمة خطابه بأمواج من التصفيق الحاد فوق رأسه المتعرق. عندما هدأ التصفيق، كان قد أُعِد خطاب للملك الذي تكلم، بدقة شديدة وحسب عن «الخطر... وراء كل حسابات التعقل الإنساني... سيولِّد وجود القوات [في باريس] إثارة وإخلالاً بالأمن وقد يبدأ...

عمل العنف الأول بحجة المحافظة على النظام العام سلسلة مرعبة من الشرور». وطُلِب من لويس سحب قواته ونزع فتيل هذا الوضع المتفجر.

وفي 10 تموز، بعد يومين، ردّ الملك. حاول تهدئة مخاوف الجمعية بالادعاء أنه تم استدعاء الجنود لاحتواء الفوضى العنيفة في باريس من هول أعمال شغب ريفيلون، وأنها جاءت «لحماية»، لا لتخويف، الجمعية. كانت كل هذه اللغة الكلاسيكية التمهيدية للانقلاب العسكري. بل أضاف الملك اقتراحاً غير مبرر بنقل الجمعية إلى نوايون (Noyons) أو سواسون Soissons إذا كانت «شروط» متابعة أعمالها في فرساي لا يمكن الدفاع عنها في فرساي!

لم يصدقه إلا الملكيون الأكثر سذاجة. كانت الحقيقة بالطبع أنه في يوم خطاب ميرابو نفسه ـ وربما حرضه ـ قرر لويس السادس عشر في اختبار للقوة: قوته ضد القوة التي ادعتها الجمعية الوطنية. لقد كان العمل أكثر مخادعة وأسرع مما تجرأ هؤلاء الذين حثوا على هذه المواجهة ـ لاسيما الملكة والأمراء ـ أن يأملوا به. كما يبدو، كان لديه ما يكفي مما أُخبر به عما هو جيد له وللملكية. لقد اشتد سخطه من نكر المستقيم بعين ذاته إلى شيء قريب من مقت عندما عامله الوزير بتكبر في 23 حزيران. قرر لويس السادس عشر في مرحلة ما من ملاحقته لخنزير بري وطائر وذكر غزال الرو، التي توبعت بكامل القوة، الدفاع عن شرف البوربونيين Bourbons.

احتاج أولاً إلى موافقة بريتول، الذي سيعُيَّن خلفاً لنكر في الوزارة التي ستعارض الجمعية الوطنية. وعندما أُعطيت، أبلغ الملك الأمراء في العاشر. مع أن تخطيطهم العسكري دعا لأن تكون كل القوات المتوفرة مستعدة في السادس عشر، لم يكن أحد ليخمد حماسة الملك الجديدة لتوكيد ذاته. كانت عطلة نهاية الأسبوع، علاوة على ذلك، مثالية للضربة غير المتوقعة. لن تجتمع الجمعية الوطنية يوم الأحد ويمكن تسريع خروج نكر من البلد قبل أن يكون لديه وقت للرد.

كان الوزير على وشك البدء بعشاء عائلي تماماً في الساعة الثالثة بعد ظهر يوم السبت في الحادي عشر، عندما وصل وزير البحرية، لا لوزيرن La Luzerne، ومعه رسالة من الملك. كانت موجزة وتصيب الهدف. طلبت من نكر أن ينتقل بنفسه دون ضجة ـ سراً ـ من فرساي، وفي الواقع من فرنسا، والعودة إلى سويسرا. أخفى نكر الملاحظة، تكلم بإيجاز مع زوجته وطلب العربة التي يأخذ بها عادة نزهته المسائية. حوالي الساعة الخامسة كانت حقيبة تقذف إلى داخلها؛ السيدة نكر، لا تزال منهمكة في جلستها المسائية،

وزوجها يتبعها. ينبغي للحافلة، بدقة، التحول جنوباً باتجاه ماكوني Mâconnais، ليون والحدود السويسرية. بدلاً من ذلك سافرت إلى الشمال الشرقي باتجاه بروكسل، حيث ترجل آل نكر من العربة في اليوم التالي. من هناك كتب رسالة إلى مصرفيي مؤسسة هوب Hope الهولندية، يؤكد لهم أنه على الرغم من إقالته فإن المليوني لير التي أقرضوها كضمان لشحنات الحبوب الوشيكة لفرنسا تبقى صالحة.

كان فعل رجل محترم honnete homme، في تباين دراماتيكي مع قلق الملك النكد الذي صرفه من الخدمة.

II مشاهد: المعركة من أجل باريس
12 ـ 13 تموز/يوليو 1789

لم يكن ثمة شك أبداً بالجاذبية التي دفعت حقاً الزبائن نحو متحف شمع السيد كورتيَس Curtius. أظهر لو غران كوفير Le Grand Couvert العائلة الملكية مع شقيق الملكة، جوزيف الثاني، يستمتعون بعشائهم. وكانت ذروة العرض التي أبرزت أيضاً المشاهير والأبطال مثل فولتير Voltaire وفايس أدميرال ديستانغ Vice Admiral d'Estaing. شكّل ورسم كل منها بيتر كروتز Peter Creutz (لأنه كان الاسم الألماني الذي ولد به)، والذي كانت سيرته واحدة أخرى من قصص نجاح مقاولي العروض الفنية الموهوبين في فرنسا القرن الثامن عشر. فقد رأى مايور دو سانت بول Mayeur de Saint - Paul، في كتابه عن بوليفار تمبل boulevard du Temple الذي تخصص بالسخرية من الحياة المنحطة والمتخصصين بالمحاكاة الساخرة التي تكتَشَف هناك، كورتيس بوصفه نموذجاً للرجل العصامي: موهوب، داهية و، فوق كل شيء، مجتهد. لقد عرف سوقه بالتأكيد. كان كورتيس قادراً مقابل قرشين للرأس على أن يحشد خطاً كبيراً لا يتوقف من الزوار من كل مسارات الحياة. عندما كانوا ينتهون معجبين بمهارته ومتخيلين أنفسهم يضحكون مع فولتير، أو ينشجون مع روسو أو ينظرون خلسة إلى ماري أنطوانيت تجهز نفسها للسرير، كان بإمكانهم أن يشتروا واحداً من تماثيله الشمعية لـ «شبان أنيقين» أو«فاسقين» لإثارة القهقهات الوقحة في البيت.

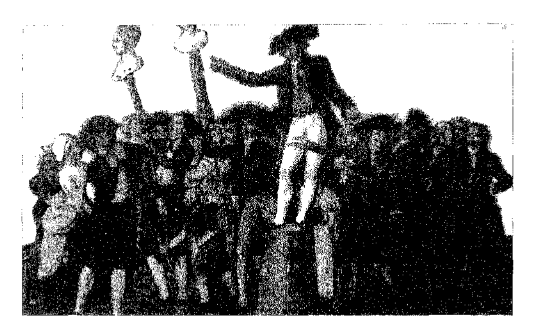
لم يتردد كورتيس متشجعاً بنجاحه وازدهاره، عندما بدأ الرويال بالاس بتأجير حيز تجاري في عام 1784. فأخذ الصالون رقم 7 وملأه بالمزيج الناجح نفسه من الأبطال العسكريين والثقافيين ومشاهد البلاط التي خدمته جيداً في البوليفار ومعارض سان ـ

جيرمان وسان ـ لورين. ليقدم التسلية لزبائن أعلى مقاماً قليلاً، أضاف فاصلاً بشكل درابزين ما أوجد سعرين للدخول: اثنا عشر قرشاً للقسم الأمامي، وقرشين للقسم الخلفي. حيث كان عليه التنافس هناك مع بعض الجاذبيات المنافسة القوية مثل باول بتربرودت Paul Butterbrodt التي تزن أربعمائة رطل ومازال الأسوأ الوغد الذي عرض نموذجاً شمعياً على أنه «زوليما الجميلة the beautiful Zulima»، الميتة منذ مائتي سنة لكنها حُفِظَت بأعجوبة ومتاحة لاستكمال المعاينة مقابل قروش قليلة. لكن كورتيس عرف كيف يبقى في مقدمة المنافسين. فلجأ إلى حيلة التكلم من البطن وقدّم عروضاً يومية من الظهر حتى الساعة الثانية ومن الخامسة حتى التاسعة. وأصبح مهتماً بالأحداث الجارية، وأضاف أبطال الساعة ـ لافايت، ميرابو، تارغت و، بالطبع، دوق أورليان والسيد نِكر.

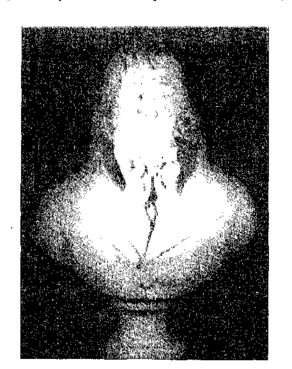
لذلك عندما رأى حشداً من ألف نسمة يتحركون إلى الصالون رقم 7 في حالة من صخب وطني عند الساعة الرابعة يوم الأحد الثاني عشر من تموز، كان ينبغي أن تكون لديه فكرة جيدة عن الشخص الذي جاؤوا لأجله. وإذ تنازل كورتيس عن تماثيل أورليانز ونكر النصفية، كان قادراً على إلقاء خطبة وجيزة جديرة بأفضل ممثلي ثياتر فرانسيه Théâtre - Français: «أصدقائي»، تكلم منفعلاً، «إنه [نكر] في قلبي دائماً لكنه لو كان بالفعل هناك سأفتح صدري لأقدمه له. لدي شبهه وحسب. إنه لكم». أداء هائل. وزحفت رؤوس القادة مبتعدة منتصرة بواسطة الحشد المبتهج.

كان الرويال بالاس طوال ذلك اليوم قدر تغلي بالإثارة. اعتقد الملك ومستشاروه أن الأحد هو الوقت الأفضل لنشر أخبار نفي نكر (كما اكتشفوا، مع كل سريتهم، أن عليهم أن يفعلوا ذلك)، بما أنه يمنع رداً فورياً من الجمعية الوطنية. لكن في ما يتعلق بالمركز غير الرسمي للمعارضة ـ الرويال بالاس ـ كان الأحد يوماً مثالياً للعروض الدرامية المنظمة. كانت مكتظة بالمعجبين بالمشاهد، الكسالى، الخطباء، الفلاحون من قرى خارج الجدران hors des murs، الحرفيين من سكان الضواحي. وعند الساعة الثالثة تجمع حشد من ستة آلاف أو نحو ذلك حول رجل شاب، شاحب الوجه وداكن العينين، ينسدل شعره فوق أكتافه، يصرخ مهتاجاً من إحدى الطاولات أمام المقهى.

كان عمر كميل ديمولان Camille Desmoulins آنئذٍ ستة وعشرين عاماً، الابن المفضل لعائلة كبيرة من غويس Guise في بيكاردي Picardy. كان والده برتبة ليفتنانت كولونيل في جباة الضريبة bailliage المحلي، وقد اقتصد ووفر ليرسل ولده المبكر النضوج إلى باريس للتعلم.



الصورة 93، تماثيل نكر ودوق أورليانز لـ كورتيس أخذها الحشد كنصب لأبطال، في 12 تموز عام 1789، (لوحة [*La Sueur*] المائية من سلسلة خمسة عشر مشهداً من الثورة الفرنسية)



الصورة 94، مارتن، تمثال نصفي لـ *Camille Desmoulins*

وأقنع أخوته وأخواته أنفسهم بمهن مثل ضباط صغار في الجيش، وزيجات متواضعة و، في حالة إحدى الأخوات، الرهبنة المحتومة. ذهب ديمولان Desmoulins إلى مدرسة لويس العظيم الثانوية Lycée Louis - le - Grand، حيث قابل ماكسيميليان روبسبيير Maximilien Robespierre من أراس Arras ومزيج كبير من الفتيان ـ بعضهم

أرستقراطي، كثيرون بورجوازيون، بعضهم حتى من خلفيات حرفية ـ الذين شكلوا طلاب ذلك المعهد الاستثنائي. وقد تشرب مثلهم شيشرون وتاسيتس وليفي بعمق وشعر بإثارة رومانية في دمه.

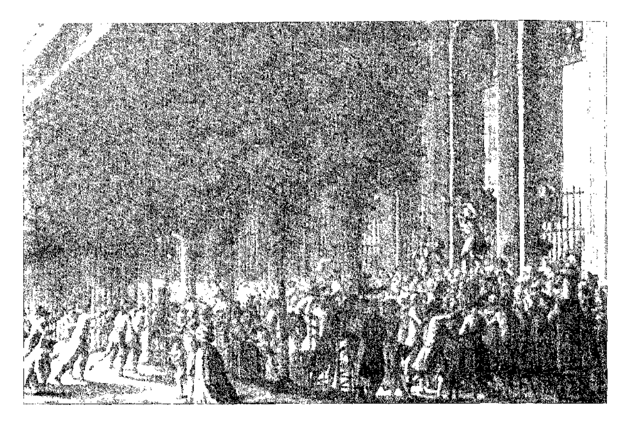
مع أن والده أمِل أنه سيتوجه إلى القانون، حاول دزمولين النجاة من الكتابات العرضية، منتجاً، بجهده، «قصيدة غنائية لمجلس الطبقات».تحررت فرنسا» في حزيران 1789 [La France Liberté] قبلها الناشر مومورو Momoro، الذي أحب أن يسمي نفسه «الطابع الأول للحرية». ومع ذلك لم تنشر إلا بعد سقوط الباستيل بأيام قليلة، كراسة ديمولان مثال رائع لخفقان القلب وخطابة النشيج المثير التي انتشرت بعدئذٍ في الرويال بالاس. ومن الأسطر الأولى يفترض نمطها جمهوراً لا قراء:

> *أصغوا، أصغوا لباريس وليون، الرون وبوردو، كاليه ومرسيليا. الشيء ذاته، صرخة شاملة تُسمَع من أقصى البلد إلى أقصاه الآخر... يريد الجميع أن يكونوا أحراراً.*

> *سيحشد رسل الحرية قواتهم عبر الصوت لا العين. لأنه بينما العين تغري، الصوت يهذب. وكمدمن شاب على الرويال بالاس، كان دمولين منشغلاً لاسيما بالإغراء الجنسي كسلاح قوي للفساد الأرستقراطي والملكي. وقد كتب، تبذل الملكية قصارى جهدها لإفسادنا لكي «تضعف الشخصية الوطنية وتحط من قدرنا بتطويق شبابنا بأماكن الإغراء والفسق ومحاصرتنا بالعاهرات».*

> *سيُحبَط هذا النموذج المكيافيللي، لأنه في العاصمة وحدها كان ثمة أكثر من ثلاثين ألف رجل مستعدين للتخلي عن كياستهم لتوحيد أنفسهم، «عند الإشارة الأولى، مع الجماعات المقدسة في الوطن». وقد تلقوا أمواً من مسرح البلاغة. «الوطنيون وحدهم يرفعون أصواتهم الآن. أعداء الشعب جيد أنهم صامتون أو، إذا تجرؤوا على الكلام... فسيميزون أنفسهم على الفور للعقاب على جريمتهم وخيانتهم».*

واستخدم ديمولان، معتمداً على تمارينه المدرسية في الأدب الكلاسيكي، في خاتمة خطابه نفس نبرة المجاهد من أجل الفضيلة Virtue Militant، ولكن للمزيد من التأثير أضاف يتمثل الاستشهاد الوطني في اللوحات التاريخية الكلاسيكية الجديدة في الصالون وعلى خشبة المسرح. وكان الدم هاماً في هذه المشابَهة. قارن دزمولين نفسه مع المحارب الصريع أوتيرادس Otyrhades، الذي كتب «انتصرت سبارطة» بدمه على راية أسيرة. «أنا الذي كنت جباناً أشعر الآن أنني رجل جديد



الصورة رقم 95، برتو. خطاب دمولين في حديقة القصر الملكي

[لذلك] يمكنني أن أموت بسعادة لسبب مجيد. ومطعوناً بالضربات، أنا أيضاً سأكتب بدمي «فرنسا حرة!»»

وهكذا كتب ديمولان مخطوطة العرض الذي سيقدمه والذي سيكون له أثر مثير هائل أمام الحشد في مقهى فوي في 12 تموز. حيث كتب لوالده أنه، عند الوصول إلى الرويال بالاس نحو الساعة الثالثة، انضم إلى بعض الزملاء الذين حثوا المواطنين على حمل السلاح ضد الخيانة التي طردت نكر، «الذي طلبت الأمة أن يبقى». مخلوق من اندفاع (مطيع هكذا للطبيعة، لا الثقافة)، قفز إلى طاولة، رأسه «مختنقة تحت حشد كبير من الأفكار» التي حوّلها إلى أصوات دونما اهتمام بنظام. عن نكر، قال يجب أن يشيد له نصب تذكاري، لا أن يحكم عليه بالنفي. «إلى السلاح، إلى السلاح و[إذ قطف بعض الأوراق من شجرة كستناء] أضاف، دعونا جميعاً نأخذ عقدة خضراء، لون الأمل». واعتقد دزمولين في تلك اللحظة أنه رأى الشرطة تصل ـ أو هكذا ادعى. سمحت له الريبة أن يأخذ وضع الضحية الوشيكة للاستبداد. المذبحة الجديدة في ليلة القديس بارثولومو الوشيكة الحدوث، وحذر: فكرة مرجعية تصبح للتو فكرة عامة في الخطابة الوطنية والتي ستتعزز بالمسرحية الأكثر شعبية عام 1789: مسرحية شارل التاسع Charles IX لـ ماري ـ جوزيف شينيه Marie - Joseph Chénier. مشيراً إلى صدره بيد وملوحاً بمسدس باليد

الأخرى (قطعة أخرى من عمل المسرح التي ستصبح قياسية في المؤتمر)، تحدى ديمولان أدوات الاستبداد: «نعم، نعم، أنا الذي أدعو إخوتي إلى الحرية؛ وأُفضِّل أن أموت على أن أخضع للعبودية».

كان رد الجمهور مرضياً. كان ديمولان بطلاً آنياً، محاطاً بالسواعد تعانقه، وصيحات «مرحى»، والقبل، والأيمان النارية بعدم التخلي عنه أبداً. وقد استثير خارجاً وسط صياح عظيم وحشد مبتهج أمسك بأي شيء أخضر يتوفر ـ شريطة، أوراق، أغصان كاملة: جيش صغير يبحث عن أبطال وبنادق.

كان الأبطال مفقودين شخصياً: نكر في بروكسل، وأورليان يمثل في أعماله المسرحية غير الاحترافية في سانت ـ لو Saint - Leu. (وإذ علم بثورة باريس، امتطى أحد أعضاء فرقته، رسام يدعى جيروكس [Giroux]، حصانه بسرعة فائقة لا يزال بزي سيكلوب بوليفيمَس Polyphemus the Cyclops وكاد حشد على الحاجز يؤذيه مفترضاً أن تكون عينه الواحدة العلامة الشريرة لجاسوس للشرطة.) لكن كورتيَس استطاع أن يقدم شخصيات مفوَّضَة من الشمع. وما افتقروا إليه في البلاغة عوضوه أكثر مما أُعِدوا له في القابلية على التحرك والتصرف المعتدل الذي قد لا تحبذه شخصياتهم الحقيقية بصدق.

انتقل المسرح من مكانه المعتاد إلى الشارع. وهناك، كان بجدية شديدة وانتقل فوراً إلى فرض مسرحيته الخطيرة على عالم مثير للمتعة بذاته. وكان الآن مطلوباً من الجمهور أن يقدم انتباهه الكامل للثورة. وهكذا غزا حشد من ثلاثة آلاف شخص الأوبرا، حيث كانت أوبرا أسباسي Aspasie لِـ غريتري Grétry على وشك أن تبدأ، معلنين اليوم يوم حداد على فقدان نكر. وأغلقت المسارح الأخرى، لاسيما تلك التي في الرويال بالاس وشارع تمبل Temple، نفسها دون دعوة إضافية. أعلن عملاء سوق الأوراق المالية (البورصة) Bourse المجاورة أنها ستبقى مغلقة يوم الاثنين، اليوم التالي، هكذا يسدد عنصر جديد من الإنذار المالي إلى الإحساس المتراكم بالأزمة. ومثل ديمولان، فجأة شعر ممثلون كثر في هذه الدراما بأن عليهم أن يؤطروا أنفسهم ضمن لحظة تاريخية مضاءة على نحوٍ متألق. فقد أُخِذ كل ما قالوه أو فعلوه بعين الاعتبار وكأن تاسيتس جديد يؤرخ لهم حتى عندما كانوا يمثلون دوره. وقد أصبحت جاذبية هذا الوعي الذاتي أكثر علانية فيما الموكب، الآن نحو ستة آلاف أقوياء، رفعوا رايات سوداء ولبسوا معاطف وقبعات سوداء للدلالة على الجدية الجنائزية للمناسبة.

ما كان هذا ليثير اهتمام السلطات كثيراً لو لم تترافق الخطابات والهتافات

والأجراس بالمطالبة بالأسلحة. فقد كان واضحاً للبارون دي بزنفال Baron de Besenval، الذي كان آنئذٍ مسؤولاً عن القيادة العسكرية في باريس ومنطقتها، تلك الستة آلاف من وحدات مختلفة من الشرطة ـ الألف حارس ودوريات الحرس الجوالة Guet constabulary سلاح النشابية والهركوبة في بناطيلهم الرسمية ومجموعات من خفر الطرق maréchaussées (المتمركزة خارج حدود المدينة) ـ قد لا تستطيع التعامل مع الشغب المتصاعد. كانت القوات النظامية متمركزة في سانت ـ دنيس Saint - Denis وسيفر Sèvres وسانت كلاود Saint - Cloud وضمن المدينة في الإنفاليد Invalides والمدرسة العسكرية Ecole Militaire في ساحة لويس الخامس عشر وفي ساحة الإليزيه. أما في ساحة مارس Champs de Mars، فقد رقصت النساء مع الفرسان الهنغاريين من فوج برشيني Berzcheny في ذلك الصباح نفسه، قبل أن تصل أخبار نفي نكر إلى باريس. وبعد ساعات اصطف الرجال في ترتيب قتالي. ونُقِلت أربع قطع مدفعية إلى جسر لويس السادس عشر. لكن كيف وأين ينبغي استخدام هذه القوة العسكرية كانت إشكالياً في باريس في تموز عام 1789 كما كانت قبل سنة في غرينوبل Grenoble وفي عدد لا يحصى من المدن في كل أرجاء فرنسا طوال الربيع.

في ساحة الفاندوم Vendôme، وصلت الأمور إلى الذروة. فقد أمر الأمير لامبسك Prince de Lambesc، الذي يقود مجموعة من القوات الألمانية الملكية Royal - Allemand المتمركزة في ساحة لويس الخامس عشر (التي ستعاد تسميتها قريباً لتغدو ساحة الثورة والآن فسحة لطيفة باتفاق الجميع من ساحة الكونكورد) أن يخلي الساحة. كان الإجراء المعياري للفرسان أن يستخدموا سيوفهم، غير أن النتيجة المعيارية بالمثل هي أن الخيول كانت مطوقة إلى درجة لا تستطيع الحركة فيها. فانسحب الفرسان الذين يفوقهم الحشد عدداً إلى ساحة لويس الخامس عشر. وسار الحشد من ساحة الفاندوم إلى حدائق التوليريه Tuileries، واشتبك هناك مع الجنود، وسُحِل الرجل، الذي كان يحمل تمثال دوق أورليانز النصفي الذي صنعه كورتيس، خلف حصان إلى ساحة لويس الخامس عشر. وبينما كافح فرسان آخرون للدخول إلى الحدائق، انتقل الحشد، وهو يصرخ «القاتل» Au meurtre، إلى المصطبة المسورة، حيث رمى الجنود بأي شيء وقع في يديه. انهمرت الكراسي والحجارة من موقع بناء وحتى أجزاء من التماثيل المحطمة ترعب الخيول وتجرح الجنود.

وقد استمرت المناوشة ما يكفي لينتشر خبر «أن الألمان والسويسريين يذبحون



الصورة 96، فرسان الأمير لامبسك في التويليريه

الناس» في أرجاء المدينة، ووصلت وحدات من الحرس الفرنسي إلى مسرح المعركة في تشكيل قتالي لمواجهة قوات لامبسك. وقد كانت المرة الأولى التي تواجه فيها قوة مسلحة منظمة جنود الملك، مصممة على القيام بهجوم مضاد. والذي لا يزال يثير الدهشة، كان الحراس في قوة كافية لإخراج قوات الفرسان من التويليريه تماماً. ومن تلك اللحظة، أخذ القتال يدور من أجل السيادة على باريس.

على الرغم من أسابيع التخطيط والاستعداد العسكري كلها، أولاً من خلال الماريشال دي بروغلي Maréchal de Broglie، ثم بزنفال، لم تكن لمعركة. كان واضحاً أن المجموعة المحاصرة في ساحة لويس الخامس عشر احتاجت للنجدة، لكنها قُدِّمت من الفوج السويسري ساليس ـ ساماد بالطريقة الممكنة الأكثر إرهاقاً. وبينما كانت الشمس تغرب كان الجنود يعبرون نهر السين بمركبين فحسب، وبنادقهم منصوبة في مقدمتي المركبين لتعوق النار من الضفة اليمنى، حيث عزز الحرس الفرنسي مواقعه. وبعد ساعتين من هذا التقدم اليائس، حاولوا إعادة التشكيل في ترتيب قتالي تحت سماء ليل دامس الظلام. وطلع الصباح بينما كان الحرس الفرنسي يطلق النار عليهم من مواقعه في الشوارع. عند الساعة الواحدة قرر قائد فوج ساليس ـ ساماد أن الموقع متعذر الدفاع عنه. وعندما عاد بزنفال إلى مسرح الأحداث، اتخذ القرار الأكثر خطورة لإخلاء المنطقة كلها، بالانسحاب غرباً إلى جسر دو سيفر Pont de Sèvres.

لقد سلَّم انسحاب القوات الملكية من مركز المدينة المكان لأعمال عنف تلقائية. حيث أُجبر صانعو ومصلحو الأسلحة النارية على التخلي عن البنادق والسيوف

والمسدسات وأحزمة الكتف. وقد جاء في تقرير أحد رؤساء ورش صنع السلاح فيما بعد للجمعية الوطنية أن ورشته اقتُحِمت ثلاثين مرة وفقد 150 سيفاً و4 نصل سيف و58 سكين صيد، و10 مشابك مسدسات و8 بنادق.

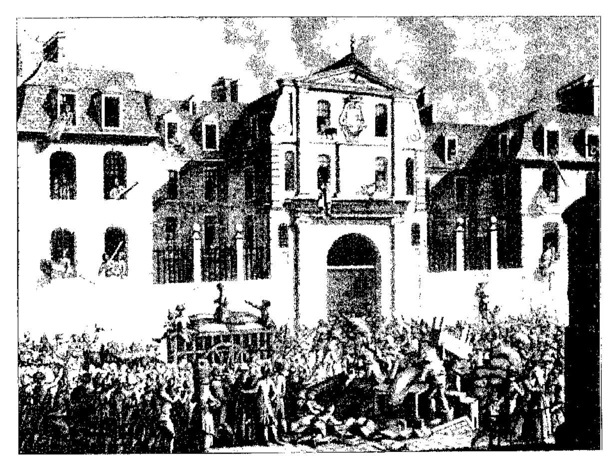
وبدأت الحشود مسلحة بهذه التشكيلة من الأسلحة ـ بالإضافة إلى سكاكين المطبخ والخناجر والهراوات ـ في الجهة الشمالية من المدينة تحطم الرمز المكروه لسجنها: سور جمعية جباية الضريبة غير المباشرة وحواجزه الخمسة والأربعون. وكان الجدار الدفاعي المغلق هو التحفة الفنية الأخيرة لـ لافوزيه Lavoisier، بارتفاع عشرة أقدام، ومحيط ثمانية عشر ميلاً، المزود بمكاتب جمارك رائعة موزعة على مداخله من تصميم كلود ليدو Claude Ledoux. لم يكن الحشد مهتماً بالتكنولوجيا أو فن العمارة. فالسور عنى أسعاراً عالية وشرطة قاسية: مصدر إغاظة ومجاعة. وقد تصدع في أماكن عديدة، ثم تحطم كيفما اتفق، وخدمت الحجارة كنوع آخر من السلاح يستخدَم ضد الجنود. ونُهِب أربعون مكتب جمركي، وحرِقت أبوابها وفرشها مع الأوراق وسجلات الضريبة. كان بين المهاجمين خمسة عشر مهاجماً وصفوا أنفسهم (عام 1790) أنهم مهربون فشلوا، في فورة اللحظة،



الصورة 97، المنقوشة لـ سرجنت، ليلة 12 ـ 13 تموز في باريس:
البحث عن الأسلحة بواسطة المشاعل. كان سرجنت ثورياً متحمساً وصديقاً لكل من دانتون وديمولان

كما علق جاك غوديشو Jacques Godechot، في إدراك أنهم يضعون أنفسهم خارج العمل. كانت معظم الحشود من الضواحي الشمالية وشملت عدداً من البنائين، وبالتالي فالرهان معقول أن بعض هؤلاء الذين ساعدوا في بناء السور شاركوا عندئذٍ في تحطيمه.

كان الهدف الثالث، طبعاً، الخبز أو، في الأقل، الحبوب والدقيق. لم يكن دير القديس سانت لازار Saint - Lazare (مشهد إذلال بومارشيه) سجناً فحسب بل مخزناً تجارياً أيضاً. وقد جذب لنفسه حتماً سمعة أنه بيت مليء بالرهبان البدينين يقيمون على أكوام هائلة من الحبوب. وقد نهبته حشود مؤلفة من بعض الباريسيين الأكثر فقراً وجوعاً، ونقلت كل أنواع الطعام التي وجدتها. فأخذت كميات كبيرة من الحبوب والنبيذ والخل والزيت وخمسة وعشرين قالب جبن وربما رأس كبش مجفف.



الصورة 98، نهب دير سان لازار

كانت الملكية قد خسرت باريس أثناء تلك الليلة الفريدة من الشغب والدمار الواسع الذي لا يعترض سبيله شيء. وما كان ثمة أمل باسترداد المدينة إلا باستعداد بزنفال

لاستخدام قواته في اليوم التالي لاحتلالها والتعامل بقسوة مع الفوضى. لكن العملية غير المنظمة المشوشة الليلية إذا فعلت أي شيء فقد أضعفت قدرته حتى على إصدار الأوامر أيضاً. وقد أخبره ضباطه أن جنودهم، حتى السويسريين والألمان، لا يمكن الاتكال عليهم، ولم يكن راغباً في البدء بالهجوم.

وقد جوبه يوم الاثنين في الثالث عشر بتهديدٍ أخطر من نوع الخراب التلقائي في اليوم السابق. ففي الساعة الحادية عشرة من الليلة السابقة كان ثمة اجتماع لبعض الناخبين في أوتيل دو يل Hôtel de Ville. قرروا الدعوة لجلسات طارئة في كل مقرات المقاطعات الستين فجر اليوم التالي. وكانت الطريقة الوحيدة الممكنة لإعلان ذلك هي بقرع الإشارة المميزة لأوقات الخطر ـ ناقوس الخطر ـ وتأكيد الرسالة بطلقات المدفع وقرع الطبول. وهكذا مع ذلك الدوي المتنافر ـ رنين أجراس الكنيسة وطلقات المدافع ـ استدعي المواطنون إلى واجبهم الوطني.

وكان الاهتمام الأكبر في أوتيل دو يل هو السيطرة على الوضع الذي كان يهدد بالانحلال إلى الفوضى. وكانت الوسيلة، كما في مدن فرنسية أخرى لا تحصى، تشكيل ميليشيا مقيدة بالعناصر الانتخابية من السكان: الذين، بكلمات أخرى، لديهم شيء يفقدونه. كان ينبغي تعبئة وحدات من ثمانمائة في كل مقاطعة، مشكِلةً بمجموعها جيش مواطنين من ثمانية وأربعين ألفاً. وحتى عندما قُدِّم عذر قلة الخبرة الأكيدة والحاجة للإرشاد والتدريب من الحرس الفرنسي، كان قوة مهيبة ـ كبيرة كفاية لتؤدي واجبها المزدوج في إحباط أية محاولة أخرى للقمع والاحتواء العسكري و، عند الضرورة، معاقبة العنف غير القانوني. وقد كان العامل الحاسم في نقل السلطة المتمثل في هذا الإجراء هو شرط الشارة المميزة للميليشيا. بما أن تقديم هندام نظامي كان غير ممكن في وقت قصير، كان ينبغي وضع عقدة أشرطة على المعاطف والقبعات. وقد استُبعِد اللون الأخضر عندما اكتُشِف أنه ليس لون الأمل وحسب بل اللون المميز لزي خدم الكونت دارتوا Comte d'Artois. وكبديل شدد أكثر على انتقال الشرعية، أصبحت ألوان باريس، الأحمر والأزرق، هي ألوان مواطنيها الجنود. والطبيعة الرسمية لهذا الخيار، في كل حال، لم تَحُل دون تفسيرات أكثر رومانسية. وقد وصف دزمولين بقدرته كوطني قادر على نظم الشعر ألوان الهندام أن الأحمر، يمثل الدم الذي يجب أن يراق من أجل الحرية، والأزرق، يمثل الدستور المقدس الذي سيكون نعمتها النهائية. وكان كورتيَس أحد الأوائل الذين ارتدوا الألوان الثلاثة، الذي تطوع بخدماته للميليشيا في اليوم الأول من خدمتها.

لم تفعل أعتدتهم العسكرية الأولى كثيراً لكرامة الميليشيا الجديدة، مع أن تلك الأعتدة قدمت لوناً مسرحياً أكثر. اقتلعوا الأسلحة والرماح القديمة وسيفاً يقال إنه يعود لبطلهم الشعبي هنري الرابع Henry IV ومدفعاً مرصعاً بالفضة كان قد قُدِّم للويس السادس عشر من ملك سيام Siam عند نهب ورش صيانة الأثاث الملكية Garde - meuble قرب التوليريه. كان الحصول على المزيد من تجهيزات الجدية أشد صعوبة. فقد نُقِل البارود من الترسانة العسكرية Arsenal إلى الباستيل بأوامر من بزنفال قبل أيام قليلة. وعندما طُلِب من مدير الإمدادات الملكية prévôt des marchands، دي فليسيل De Flesselles، أن يسلم الأسلحة من أوتيل دو يل سلمهم ثلاث بنادق لا غير. وتحولت الاقتراحات البديلة التي قدمها ـ الدير الكارثوسياني Carthusian قرب اللوكسمبورغ ومصنع الأسلحة في شارلفيل Charleville ـ لتكون مطاردات أوزة برية، إلى درجة أن الثقة بـ دي فليسييه قد تعرضت لخطر شديد في نهاية اليوم. وقد وافق على أن يطلب من قائد الحامية في إنفاليد، دو سومبريو de Sombreuil، تسليم الثلاثين ألف بندقية التي هي تحت تصرفه، لكنه ماطل أيضاً، مجيباً أنه ينبغي أن يطلب الإذن من فرساي أولاً.

وفي النهاية، قدّم مركب في ميناء سانت نيكولا Saint - Nicolas خمسة وثلاثين برميلاً من البارود، وتمّ توزيع ما يكفي من الأسلحة والبارود للدوريات تلك الليلة، الثالثة عشرة. وبعكس الليلة السابقة، شعر البرجوازيون المتعاطفون مع الثورة بالأمان الكافي ليخرجوا إلى الشوارع حالما رأوا الميليشيا تنزع أسلحة العمال في الشارع - worker sorties. وكان ثمة عمليات شنق تحذيرية للناهبين، ومرة أخرى أنارت الشموع ومصابيح الزيت البيوت والشوارع.

وكان ذلك باكراً في الصباح التالي، مع غيوم منخفضة معلقة فوق باريس، أن رُبِحَت المعركة. حيث تجمع حشد هائل، قدره بعضهم بثمانين ألف متحمس غير راضين بالجواب الذي تلقوه ليلة البارحة، في إنفاليد. قبل بضعة أيام، كان ثمانون من رفاقهم الذين في إنفاليد قفزوا إلى المعسكر واستجابت البقية بعمل إبطاء يشل أمر دو سومبريو بتخريب الثلاثين ألف بندقية في ثكنته. ربما لم يكن المحاربون القدماء العشرون غير الصالحين للخدمة الذين خُصِّصوا لهذا العمل في ريعانهم للقيام بهذا العمل، لكنهم على الأرجح لو لم يصابوا بالحماسة الوطنية أيضاً لاستطاعوا تفكيك أكثر من عشرين بندقية في ست ساعات. وبعد بعض المفاوضات العقيمة، فتح ثقل العدد مدخلاً بالقوة وبالكاد فرَّ دو سومبريو مع زوجته. وقد ساعدت الحامية الغزو أكثر مما أعاقته و، على نحوٍ أكثر

خطورة، لم تكن ثمة محاولة لتعبئة القوات المتمركزة قرب ساحة مارس. وتمّ توزيع أكثر من ثلاثين ألف بندقية، عشوائياً نوعاً ما، بالإضافة إلى مدفع (الذي لم عُطّل بشكل غير ملائم أيضاً).

لم يكن نصراً حاسماً تماماً. لأنه على الرغم من دليل الارتداد بين بعض القوات والقصور الذاتي لقادتهم، كانت لا تزال ثمة إشاعات منذ وقت طويل أن الأفواج ستزحف والمدافع ستُطلَق من مونتمارتر. وما نفع المدافع والبنادق دون بارود؟ وفي هذا الوقت عُرِف على نطاق واسع أين يوجد البارود الذي يجعل جيش المواطنين لا يقهر في باريس: من الباستيل. ولم يكن متبقياً إلا الذهاب والحصول عليه.

III ـ هل دُفِن حياً؟ أساطير وحقائق في الباستيل

كان للباستيل عنوان. كان محدداً بالرقم 232، شارع سانت ـ أنطوان، كما لو كان منزلاً سكنياً ما مفرط النمو مليئاً بالغرف المفروشة والضيوف من مشارب مختلفة يشغلون غرفاً تنوّعت وفقاً لمواردهم المالية ومنزلتهم الاجتماعية. كانت ساحته الخارجية (باستثناء فترة ثورة تموز) مفتوحة للناس، الذين استطاعوا المجيء والتحادث مع البواب (الذي جلس في الكوخ الصغير)، والتجول حول الدكاكين التي ازدحمت عند مدخله أو معاينة تقدم حديقة خضار مديره.

لكنه كان حصناً أيضاً، ارتفعت أبراجه المستديرة الثمانية ذات الجدران التي سماكة كل منها خمسة أقدام فوق الترسانة العسكرية والضاحية السكنية. وقد جعلته اللوحات التي تحتفل بسقوطه ودماره يبدو أطول مما كان في الحقيقة. فلم يكن البرج الأعلى من الأبراج المبنية بشكل غير نظامي أكثر من ثلاثة وسبعين قدماً، لكن هوبرت روبرت Hubert Robert، المتخصص بعظمة الآثار، أعطاه سمواً بابلياً. وفي لوحته، غدت تلك الجدران أسواراً مثل جرف صخري هائل أخضعتها شجاعة وإرادة أناس فوق بشرية.

سينتهي هوبرت روبرت نفسه، مثل آخرين كثر جداً من المتحمسين الأوائل لها، إلى سجين في الثورة. لكنه في عام 1789 كان قد أصبح نصيراً لعلم الجمال الرومانسي: العواطف الجارفة للسمو والاضطراب المحدد في أول مطبوعة عظيمة لـ إدموند برك Edmond Burke. كان مرشده المرئي غيامباتيستا بيرانيسي Giambattista Piranesi، الذي اتبعه في تقديم مشاهد البناء في العصور القديمة التي تؤول إلى بقايا مثيرة للصور الذهنية. وربما، بعدئذٍ، شارك أيضاً بيرانيسي في كابوسه، the carceri d'invenzione : سجون



الصورة 99، هوبرت روبرت، تدمير الباستيل

العقل التي غدت فيها العبقرية الميكانيكية في العصر الحديث تُطبَّق على علم الكبح والألم. طبعاً، ارتفاع الباستيل في لوحته، ذات الأشكال البالغة الصغر التي تعدو متهللة فوق فتحات جدرانه، يوحي بقلعة قوطية هائلة تكتنفها العتمة والسرية، مكان يختفي فيه الرجال دون إنذار ولا يرون ضوء النهار بعدئذٍ حتى ينبش الحفارون الثوريون عظامهم من القبور.

كانت تلك أسطورة الباستيل. وكانت حقيقتها الواقعية أكثر ابتذالاً وإثارة للملل. فقد شُيِّد في نهاية القرن الرابع عشر بوصفه حصناً ضد الإنكليز، ثم حوَّله شارل السادس إلى سجن حكومي. والكاردينال ريتشيلو Cardinal Richelieu، في أية حال، من أعطاه سمعته المشؤومة باعتباره المكان الذي يختفي فيه سجناء الدولة في ظروف غامضة. وطوال حكم آل بوربون Bourbons، احتجز معظم سجنائه، وليس كلهم، بمذكرات توقيف عرفية

بتفويض خاص من الملك ودون أي نوع من دعوى قضائية. ومنذ البداية، كان كثيرون منهم ذوي نسب رفيع وهم: متآمرون ضد الملك ووزرائه؛ وكان آخرون سجناء دينيين، بروتستانت و، في مطلع القرن الثامن عشر، «مهووسين» كاثوليك متهمين بإثارة الهرطقة. وكان ثمة فئتان هامتان أخريان من سجناء الباستيل. كانت الأولى الكتّاب الذين كانت أعمالهم تحرض على الفتنة وخطرة إما على الآداب العامة أو النظام أو كليهما. وكانت الثانية جانحين، عادة شباباً، الذين قدمت عائلاتهم استرحاماً للملك لاحتجازهم.

وقد تنوعت ظروف الحجز كثيراً. السجون التحت أرضية السيئة السمعة، القذرة الرطبة التي تجتاحها الحشرات، ولم تعد مستعملة في فترة حكم لويس السادس عشر، لكن القبب تحت السقف مباشرة كانت بمثل ذلك السوء تقريباً، بما أنها كانت تسرب الثلج والمطر في الشتاء وتخنق السجناء بالحرارة في الصيف. في ما يتعلق بأغلبية السجناء، لم تكن الظروف، في أية حال، سيئة بقدر ما هي في سجون أخرى، ولاسيما الرعب الذي ساد في سجن بيستر Bicetre. (وفي ما يخص هذه المسألة، يُعتبَر الباستيل جنة مقارنة مع ما قدمه طغاة القرن العشرين). فالمبالغ المخصصة للحاكم لتأمين معيشة المراتب المختلفة هي: خمسة عشر ليفر في اليوم لمستشاري المحكمة conseillers، وتسعة للبرجوازيين وثلاثة لعامة الشعب. وعلى نحوٍ متناقض، تم تخصيص المبلغ الأعلى تسعة عشرة ليفر في اليوم «للمثقفين» الذين خلقوا أسطورة الفظاعة والأعمال الشريرة. وحتى بالتسليم أن الحاكم ومجموعته جنوا فائدة من هذه المخصصات بلا شك، فقد عاش سجناء الباستيل فوق مستوى عيش معظم سكان فرنسا.

احتجز معظم السجناء في غرف مثمنة الزوايا، بقطر يبلغ نحو ستة عشر قدماً، في مستويات متوسطة من خمسة إلى سبعة طوابق برجية. تحت صورة لويس السادس عشر فيها لكل سجين سرير بغطاء صوفي أخضر وطاولة أو اثنتان وعدة كراس. فيها جميعاً مدفأة أو موقد، وكان السجناء قادرين في غرف عديدة على تسلق نافذة ثلاثية القضبان بسلم من ثلاث درجات مقابل الجدار. وكان يسمح لكثيرين منهم بإدخال ممتلكاتهم والاحتفاظ بالكلاب أو القطط للتعامل مع الحيوانات والحشرات الضارة. وقد استفاد الماركيز دي ساد Marquis de Sade، الذي احتجز هناك حتى الأسبوع ما قبل الأخير لسقوط الباستيل، من هذه الامتيازات تماماً. حيث أدخل (بين أشياء أخرى) مكتباً وخزانة ملابس، ضرورية لحاجات ملبسه؛ مجموعة قمصان كاملة، شورتات حريرية، معاطف فراك ذات لون بني، عباءات، أزواج متعددة من الجزمات والأحذية، مناصب ناره وملاقطه المفضلة، أربع

صور عائلية، أنسجة مزدانة بالرسوم والصور يعلقها على الجدران الجصية البيضاء، وسائد وأغطية مخملية وفرشات لجعل السرير أكثر راحة، مجموعة من القبعات، ثلاثة أنواع من العطور - ماء الورد وماء البرتقال وماء الكولونيا - التي يمسح بها جسمه والكثير من الشموع وزيت المصابيح الليلية. كانت هذه ضرورية حيث في إذن الإدخال عام 1784 أدخل أيضاً مكتبة من 133 مجلداً، تشمل كتب تاريخ هيوم Hume Histories، الأعمال الكاملة لـ فينيلون، روايات لـ فيلدنغ Fielding وسموليت Smollett، الإلياذة the Iliad، مسرحيات مامونتل Marmontel، أدب الرحلات حول كوك Cook وأعماله أيضاً وبوغنفيل Bougainville في البحار الجنوبية بالإضافة إلى تاريخ النساء الشهيرات Histoire des Filles Célèbres وخطر حب الغريب Danger d'Aimer Etranger.

إذا كان دائماً ثمة مبرر للباستيل، فقد كان المركيز دي ساد. لكن إذا كانت الجرائم التي وضعته هناك مثيرة للاشمئزاز الشديد (بمقاييس أي قرن)، فظروف عيشه ليست كذلك. فقد تلقى زيارات أسبوعية تقريباً من زوجة عانت طويلاً وعندما تتعب عيناه من القراءة والكتابة، يأتي طبيب العيون ليراه في أوقات منتظمة. ومثل آخرين في برج «الحرية»، استطاع المشي في باحة الحديقة المسورة وعلى الأبراج. ولم يكن يُمنَع إلا عندما كان يسيء استخدام ذلك الحق بصراخ مرح أو رمي أشياء قذرة على عابر سبيل (الذي فعله على نحوٍ متكرر عام 1789).

وتنوع الطعام - تلك المناسبة الحاسمة في حياة السجناء - أيضاً وفقاً للظروف الاجتماعية. فقد أطعِم المحتجزون العامة بسبب أعمال شغب «حرب الدقيق» عام 1775 على الأرجح حساء وعصيدة، تغطى أحياناً بطبقة رقيقة من لحم الخنزير المقدد أو دهن فخذ الخنزير. لكن كان لديهم احتياطي كافٍ من الخبز والنبيذ والجبن. فليس بالضرورة أن تكون نبيلاً، في أية حال، لتتمتع بمطبخ أفضل كثيراً. فقد سال لعاب الكاتب مارمونتل Marmontel عندما تذكر «الحساء الفاخر، وشريحة لحم البقر الشهية، وفخذ الدجاج المسلوق الذي يرشح دسماً [إطراء القرن الثامن عشر]؛ والطبق الصغير من الأرضي شوكي أو السبانخ المقلي أو المتبل؛ والأجاص الرائع حقاً؛ والعنب الطازج؛ وزجاجة نبيذ برغندي المعتقة وقهوة موكا الأفضل».

لم يرغب أحد بأن يكون في الباستيل. لكن إذا ما احتجز المرء هناك، يمكن جعل الحياة للأكثر امتيازاً محتملة. كان الكحول والتبغ مسموحاً، وفي عهد لويس السادس عشر كان ورق اللعب يُدخَل لأي شخص يشارك زنزانة مع آخرين بالإضافة إلى طاولة البليارد لـ

بريتون Breton الأرستقراطي الذي طلب واحدة. وفكر بعض المحتجزين من الأدباء بقضاء فترة في الباستيل التي تؤكد أوراق اعتمادهم كخصوم حقيقيين للاستبداد. كتب الأب مورلِت Abbé Morellet، على سبيل المثال، «أرى مجداً أدبياً ينير جدران سجني. فإذا ما اضطهدت سأغدو معروفاً أفضل... وستكون تلك الأشهر الستة في الباستيل تذكية ممتازة وتصنع ثروتي على نحوٍ لا يخطئ».

يشير اعتراف مورلِت إلى أنه بينما أصبحت حقيقة الباستيل ذات مفارقة تاريخية أكثر، غدت شيطانيته أكثر أهمية في تعريف المعارضة لسلطة الدولة. إذا كان ينبغي تصوير الملكية أنها (ليس دون إنصاف تماماً) استبدادية، مهووسة بالسرية ومسكونة بقوى نزوية على حياة وموت مواطنيها، كان الباستيل هو الرمز المثالي لتلك الآثام. ولو لم يوجد، إنه لسليم أن نقول، كان ينبغي اختراعه.

وقد أعيد اختراعه في بعض المعاني بتعاقب كتابات السجناء الذين عانوا فعلاً داخل جدرانه لكن رواياتهم عن المؤسسة تجاوز أي شيء أمكنهم اختباره. كانت رواياتهم مفعمة بالحيوية ومثيرة للقلق حتى أنهم نجحوا في خلق معارضة شديدة احتشد حولها منتقدو النظام. المعارضة المانية Manichean بين السجن والحرية؛ السرية والعلن؛ التعذيب والإنسانية؛ التجريد من الشخصية والفردية؛ الهواء الطلق والغموض المطبق كانت العناصر الأساسية للغة الرومانسية التي عبر فيها الأدب المعارض للباستيل عن نفسه. كان النقد قوياً جداً إلى درجة أنه عندما تم الاستيلاء على القلعة، كانت الحقيقة المثبطة تحرير سبعة سجناء وحسب (بمن فيهم مجنونان وأربعة مزورين وجانح أرستقراطي تورط مع دو ساد) لم يُسمَح لها بالتطفل على التوقعات الأسطورية. وكما سنرى، أعادت الدعاية الثورية صياغة تاريخ الباستيل، في النص، والصورة والهدف، لتجعله أكثر مطابقة للأسطورة الإلهامية.

كانت ثمانينيات القرن الثامن عشر العهد العظيم لأدب السجون. يكاد لا يمر عام دون مساهمة أخرى في هذا النوع، يحمل عادة اسم بوح الباستيل La Bastille Dévoilée أو شكلاً مختلفاً ما للشيء نفسه. وقد استخدم الأدوات القوطية القياسية لإثارة رعدة الاشمئزاز والخوف مع لحظات تسارع نبض الأمل. ولاسيما، كما أوضح مونيك كوتريه Monique Cottret، اعتمد على الإرهاب المألوف لدفن المرء حياً. كان ذلك مثل شغل شاغل في أواخر القرن الثامن عشر (وليس في فرنسا وحدها) أنه كان ممكناً الانضمام إلى جمعيات تتكفل أن ترسل أحد أعضائها إلى قبره ليصغي إلى إشارات وأصوات القدرة على

الحياة ويشتري بوليصة تأمين في تلك القبور الحية.

وفي ما كان إلى حد بعيد جداً الأعظم والأكثر شيوعاً باستحقاق من الكتب المضادة للباستيل، كتاب لينغوت Linguet **مذكرات الباستيل**، الذي صوَّر السجن مثل قبر حي تماماً. وفي بعض أقوى مقاطعه الأكثر قوة صور لينغوت الأسر كأنه موت، والشيء الأسوأ للشخص الميت رسمياً أنه يعي طمسه الشخصي بالكامل.

احترقت مذكرات لينغوت بحرارة بوحه الشخصي. قال إنه أُغري بالعودة إلى فرنسا عام 1780 من إنكلترا، حيث نشر كان ينشر الحوليات السياسية Annales Politiques، في التفاهم السريع أنه سيكون معفى من المقاضاة، في الواقع، لكنه حالما عاد تقريباً، زُج به في سجن الباستيل بسبب هجومه على الماريشال دوراس Maréchal Duras. وصفه للظروف المادية التي تحملها أكثر تعذيباً من أي شيء اختبره مورلت أو مارمونتل أو دي ساد ولم تثبت في أرشيف الباستيل جملة وتفصيلاً. لم لا يوجد سبب لافتراض أنه كذب عندما كتب عن «فرشتين أكلتهما الديدان؛ وكرسي خيزران كان مقعده مجرد خيوط قليلة تمسكه، وطاولة مهترئة... وطبقين من الصيني، واحد للشرب، وحجري رصف لإشعال النار». (فيما بعد أحضر له السجانون منصباً وملاقط للنار ـ مع أنها، تذمر، لم تكن نحاسية.) وجاءت لحظاته الأسوأ عندما فقست بيوض العث والسوس وتحول سريره وبياضاته الشخصية إلى «غيوم من الفراشات».

ومهما تكن هذه الظروف قذرة، كانت المحنة الفكرية للسجن لا المادية التي سببت لـ لينغوت أشد المعاناة والتي ينقلها بأصالة مذهلة في كتابه الصغير. في الواقع، المذكرات هي الوصف الأول لعلم نفس السجن في الثقافة الغربية وللقارئ المعاصر نوع من قوة تنبؤية ما تزال تجعل قراءتها تثير الاضطراب. كان ميشيل فوكو Michel Foucault مخطئاً تماماً في افتراض أن تصنيف السجناء كان أحد التقنيات التي كانت أشدها قمعاً. فقد عارض لينغوت بشدة كبيرة غياب تصنيف كهذا. واشتكى «الباستيل، مثل الموت نفسه، يساوي بين كل الذين يبتلعهم: مدنسي المقدسات الذين عزموا على تدمير وطنهم بالإضافة إلى الرجل الشجاع الذي ذنبه الوحيد أنه دافع عن حقوقه بحماسة بالغة» [ذلك هو نفسه]. كان الأسوأ هو وجوب مشاركة المكان نفسه مع المسجونين لجرائم أخلاقية بغيضة.

ظهر كل شيء في نظام السجن، حتى عندما بدا، سطحياً، بصرف النظر عن الوحشية فيه، جزءاً من خطة شريرة لتجريد السجين من هويته: «الأنا» التي هي لدى أنصار النزعة الرومانسية مرادفة للحياة نفسها. فعند الإدخال، على سبيل المثال، كانت

ثمة أشياء تعتبر خطرة تُصادَر وتُدوّن في قائمة جرد، لتعاد عند إطلاق السراح، وضمت هذه الفئة المقص والمال، مثل الإجراءات المعاصرة تماماً. وكانت تُتلى أسباب هذه المصادرة على السجين، وقد وجد لينغوت هذا العمل مهين على نحو متعمد: التصغير المنهجي للراشد العاقل إلى مستوى طفل تابع. ووجد أن ذلك الشرط قد عُزّز بكل سبل القسر التافهة، مثل فرض الحراسة أثناء التدريب في ساحة صغيرة عالية الجدران.

وكان الأسوأ عدم القدرة على التواصل، الأمر المغيظ لاسيما لكاتب والرهيب في أسر غير محدّد المدة. وإذ يُعتقَل المرء دون إنذار ـ وفي الليل عادة ـ من العالم الحي، كانت ضحية هذه الحالة من الخطف تحرَم عندئذٍ من كل وسائل التبليغ عن وجودها إلى الأصدقاء أو العائلة في ما وراء الجدران. لم تكن في الواقع هذه مشكلة لمعظم السجناء، لكن لينغوت حُرِم لبعض الوقت من أدوات الكتابة وكان سوء الحظ هذا هو أكثر ما أحزنه. وانضمت السماكة الكبيرة للجدران، التي تجعل من الصعب التحدث، أو سماع، السجناء الآخرين أو بالفعل استدعاء طبيب لمرض مفاجئ، إلى معنى قبر حي. ثم أصبحت جدران الباستيل هي الحد الفاصل بين الوجود وعدم الوجود. وعندما أُحضِر له حلاق السجن، قدم لينغوت الملاحظة الساخرة المروعة التي غدت مشهورة: «هاي، يا سيد، أنت تستخدم موسى حلاقة؟ لماذا لا تحلق (تجتث) الباستيل؟»

IV ـ الرجل الذي أحب الجرذان

إذا كان لينغوت الكاتب الذي مكّن الآلاف الذين قرأوا كتابه من الشعور، بالنيابة، بحجب الضوء، فثمة كتاب آخر، مختلف تماماً لكنه شعبي بالمثل أعطى قراءه نشوة النجاة. وفي هذا المعنى، كانت السيرة الذاتية «للفارس» لاتود Latude التتمة المثالية لمذكرات لينغوت.

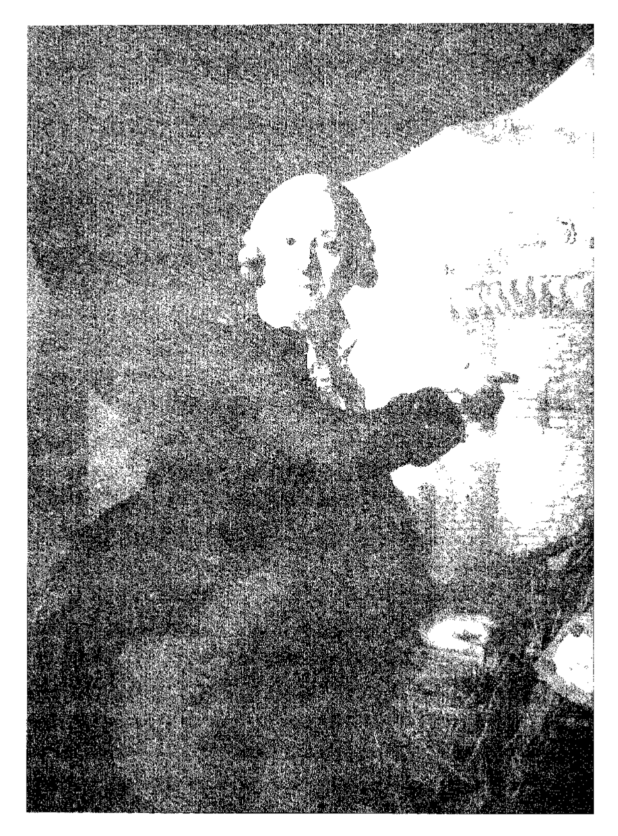
كان «لاتود» في الحقيقة جندياً يدعى دانري Danry الذي وجد نفسه دون موارد أو إمكانيات في باريس بعد نهاية حرب الوراثة النمساوية. مثل عدد لا يحصى من المغامرين الصغار، حاول أن يستخدم وسائل محاباة البلاط للارتقاء لكنه فعل ذلك بخدعة محفوفة بالمخاطر غير تقليدية. فكتب في عام 1750 رسالة شخصية إلى السيدة دو بومبادور Mme de Pompadour ـ هدف عدد لا يحصى من المؤامرات الشخصية ـ يحذرها من رسالة مفخخة ربما أرسلت لها منذ وقت قصير. استطاع دانري/ لاتود أن يكون واثقاً من هذا لأنه هو نفسه من كتب مثل هذه الرسالة. وكُشِفت الخطة غير الناضجة بسرعة كبيرة، وبدلاً من

تلقي معاش تقاعدي عرفاناً بالجميل لإنقاذ حياة خليلة الملك، وجد لاتود نفسه في الباستيل. منقولاً بعد أشهر قليلة إلى فنسن Vincennes، قام بالهرب لما يمكن اعتباره المرة الأولى في سلسلة من الفرارات.

وقد أنعش وصف لاتود للحظات حريته الأولى، الركض عبر الحقول والكروم، والوصول إلى الطريق العام، والاختفاء بعيداً في غرفة مؤونة chambre garnie في باريس، مصداقيته. غير أن المدهش أكثر كان قراره أن يحرر نفسه من خوف الاكتشاف بالكتابة مجدداً للسيدة بومبادور، موضحاً حماقته وملقياً نفسه تحت رحمتها. وإذ تعرف على شخصيات بارزة ليس أقلها الدكتور كويزناي Dr. Quesnay، عهد إليه بمذكرة الاعتذار هذه.

كان ثمة خطأ فادح. كان لاتود واثقاً بسذاجة بالغة بالرحمة إلى درجة أشار حتى إلى عنوانه في الرسالة. وفي يوم أو نحوه أعيد إلى الباستيل: نكسة وليست هزيمة. أصبح البريء معتاداً على مكر العالم بسرعة. وخلال أشهر قليلة استنبط صندوق بريد سري حيث حفر قرميدة متقلقلة في كنيسة السجن، وأمضى مع أليغر Alègre، رفيقه في الزنزانة، ستة أشهر يصنع سلماً من حبال سيأخذه للحرية مجدداً. تتطلب هذه القطعة الاستثنائية من العمل تضحية كبيرة لأن الدرجات ينبغي أن تكون مصنوعة من خشب التدفئة الذي يُعطَى للسجناء أثناء الشتاء. مُزقت القمصان وأغطية السرير، إلى أجزاء، عُقدت وأُعيد درزها بعناية فائقة، وشكلت الطول. صُنِعت سكين مثلمة من قضيب حديدي من حامل طاولتهم. مع ولعه بإعطاء أسماء مقدسة لأدوات الحرية (وأيضاً احتراساً من الكشف) سمَّى لاتود سلم الارتقاء «يعقوب»، الحبل الأبيض بـ «حمامته». وصوَّر نفسه في مذكراته أنه حرفي مثالي: مقتصد، مجد، مبدع ونقي الطوية ـ وجان جاك أنه محكوم.

في ليلة الخامس والعشرين من شباط تسلق السجينان مدفأة زنزاتهما، «اختنقا على الأغلب من السخام واحترقا تقريباً أحياء»، ثم فككا المقضب إلى أجزاء ليتيح لهما العبور إلى سطح أحد الأبراج. من هناك استخدما السلم المكون من ثلاثمائة قدم ليهبطا إلى أحد الخنادق. قال لاتود، هناك أحسّ بوخزة ندم لاضطراره إلى التخلي عن أدواته والسلم الذي خدمه كثيراً جداً: «نصب تذكاري نادر ونفيس للمثابرة البشرية والمزايا التي هي حصيلة حب الحرية». لم يكن الرجلان حرَّين بعد. توقف المطر الذي اعتمدوا عليه لإبعاد الحراس الذين كانوا يقومون بجولاتهم الاعتيادية، مسلحين بمصابيح ذات إضاءة واسعة. كانت الطريقة الوحيدة للخروج هي العمل من الأسفل، وإزالة قرميد الجدار، قطعة بعد



الصورة 100، للرسام أنطوان فيستيه *Antoine Vestier*، صورة لاتود، 1789

أخرى، بأقل ضجة، لفتح مخرج نهائي. وعندما أحدثوا أخيراً فتحة كبيرة تكفي للخروج عبرها، تدلى الرجلان، في الظلام، دون تردد في قناة لجر المياه وكادا يغرقان.

اختفيا بعد هذه المحنة لفترة في دير سان جرمان Abbaye Saint - Germain بمساعدة خياط قبل أن يفترق طريقاهما عبر البلدان الواطئة. في أنتويرب، قابل لاتود رجلاً من سافوي الذي، دون أن يطرف له جفن، سرد عليه قصة الرجلين اللذين فرّا من الباستيل. قال إن أحدهما قد أُعيد أسره، ويبحث رجال الشرطة الذين يتحركون بحرية عبر الحدود عن الآخر. وقد وجدوا لاتود في أمستردام و، قيدوه إلى طقم فرس جلدية فظيعة «أكثر إذلالاً من أي عبد»، وأُخذ ثانية إلى الباستيل. لم تستمر حريته إلا ثلاثة أشهر.

هذه المرة قُيِّد جناحا عصفور السجن. وُضِع لاتود في إحدى الغرف التحت أرضية المرعبة ليكون الفرار مستحيل تماماً. وكان ذلك أنه في هذا الحبس الكابوسي حقاً أن اكتشف رفاقاً جدداً: الجرذان. مقارنة بالوحشية التي تحملها لاتود، بدت الجرذان محببة. فدربها مستخدماً قطعاً من الخبز على أن تأكل خارج طبقه وتسمح له بحك جلدها حول الرقبة والذقن. وقد منحها أسماء أيضاً، والبعض، مثل الأنثى «رابينو ـ هيروندل»، ستتوسل مثل كلب أو تقوم بحيل قفز لتحصل على قطعها من الخبز. واكتمل مشهد أنشودة ريفية في الجحيم عندما دبر لاتود لصنع فلوت بدائي من قطع صغيرة من قضبان حديدية، وهكذا، من وقت إلى آخر، استطاع أن يعزف لحناً لأصدقائه القوارض بلحن خفيف أو راقص وهي تقضم فضلاته راضية. كانت، كما كتب، «عائلته الصغيرة»، الستة والعشرون جميعاً، وراقب لاتود بجد دورة حياتها ـ تزاوجها وتكاثرها، معاركها وألعابها ـ بكل الاهتمام الرقيق لمعلم حارس من أنصار روسو.

ومرت السنوات. وشغل لاتود نفسه بإعداد مشروع إصلاح رماة وحملة الرماح في الجيش الفرنسي، الذي كان واثقاً أن وزير الحرب يود أن يراه. فاستخدم رقائق الخبز لأنه كان محروماً من الورق، يرطبه ويسطحه بلعابه ثم يجففه، وكان يخفف دمه بالماء ليستخدمه حبراً. وعندما سيق خارج الزنزانة، حزن لفقده الجرذان لكنه كوّن عائلة جديدة من طيور الحمام، إلى أن قُتلت في نوبة انتقامية بأوامر من مدير السجن. وقام بفرار آخر في عام 1765، أُجهِض ثانية بسذاجة لاتود التي لا يمكن شفاؤها عندما قدم نفسه إلى مكتب وزير في حكومة فرساي يثق بسمعته في أعمال خيرية. فأعيد إلى قلعة نسن، ولم يكن إلا في عهد مالرب الجديد الذي غدا مطلعاً على مأزقه فنقله إلى شارينتون

Charenton، مستشفى للأمراض العقلية. وهناك التقى مجدداً مع داليغر d'Alègre، رفيقه القديم في الفرار، الذي دمرت سنوات سجنه سلامته العقلية تماماً. وإذ رأى داليغر لاتود ظن أنه الرب وغمره بدموعه وبركاته.

وأخيراً أطلق سراح لاتود في عام 1777، لكنه نشر فوراً كتابه **مذكرات الانتقام**، الذي كفل اعتقاله مجدداً، أولاً في سجن القلعة الصغيرة Petit Châtelet ثم في سجن بيسيتر Bicetre. وقد واصل هناك كتابة بيانات عن محنه الكثيرة، التي وجد أحدها طريقه إلى بائعة كتيبات ومجلات فقيرة، السيدة ليغرو Mme Legros. فقامت بحملة من أجل لاتود عند أبواب الشخصيات الكبيرة Les Grands ووجدت أخيراً جمهوراً يود تقديم المساعدة تمثَّل بالسيدة نكر وحتى في الملكة. وفي آذار عام 1784 أُطلِق سراح لاتود أخيراً، ومع أنه «نُفي» رسمياً من باريس لم يسمح له بالعيش هناك وحسب بل مُنِح معاشاً تقاعدياً ملكياً مقداره أربعمائة لير في السنة. وبخلاف داليغر ظل لاتود بطريقة ما خلال ثمانٍ وعشرين سنة قضاها في السجن بعقل سليم جداً، وأصبح بسرعة شخصاً مشهوراً. كرمته الأكاديمية الفرنسية، ورحب به جفرسون، أصبح المستفيد من مال عام.

بدت قصة لاتود، التي نشرت في أشكال وطبعات كثيرة قبل الثورة، مثل نصر للرجل الشريف honnête homme على الشقاء الأسوأ الذي استطاع الاستبداد التسبب به. وقد ساهمت مع مذكرات لينغوت وكتابات أخرى مثل **بوح الباستيل**، في حملة متنامية، أولاً لتقييد **المذكرة المختومة** وتسريع سجن أولئك الذين يهددون الأمن العام بشكل حقيقي، ثم تدمير الباستيل تماماً. وقد ترافقت هذه الخطط مع خطط تزيين الساحات والمنتزهات المدينية. وفي عام 1784، اقترح المهندس المعماري برغنيارد Brogniard مكاناً مفتوحاً، دائرياً، ذي صفوف كشيء متمم لمذكرة بريتول التي تحد من استخدام المذكرات المختومة، وقد أعادت الأكاديمية الملكية المعمارية إحياء المشروع في حزيران عام 1789.

وقبل أن يدمر جيش المواطنين الباستيل بأسابيع قليلة وحسب، كانت قد صدرت مذكرة رسمية بتدميره. وفي المكان الواسع المفتوح الذي سيوجد بعد إزالته سيُنصَب عمود، ربما برونزي، أعلى من السجن القديم. ستُثبَّت قاعدته بالصخور التي ستنطلق منها النوافير، على أن يتوافق مع الجماليات الرومانسية الجديدة. سيفي نقش بسيط بالغرض ليشير إلى الأجيال القادمة بانتصار نزعة الخير على الاستبداد: «لويس السادس عشر مسترد الحرية العامة».

كان يجب ألا يتحقق هذا النصر السلمي. فقد أنهت محاولة الملكية فرض إرادتها بالقوة العسكرية أية إمكانية لإعادة صياغة شرعيتها بوصفها مانحة حرية. بل بدلاً من ذلك، وقفت أبراج الباستيل، ومدفعها مصوب من الفتحات، رمزاً للصلابة. وهكذا، على الرغم من ذلك، بينما لم يتعب المؤرخون من التوضيح، فحشد الألف شخص الذي تجمع أمام ساحته الخارجية جاء من أجل البارود لا لتدميره، وكان، دون أي شك، معبأ أيضاً بالقوة الهائلة لغموض الباستيل الشرير.

والماركيز دو ساد de Sad، الذي، عرف تماماً كيف يستغل ذلك. قرر الانضمام إلى قائمة شهداء الباستيل الجديرين بالتقدير من خلال الموجز الذي قدمته زوجته أثناء زياراتها الأسبوعية عن الأخبار الواردة من فرساي. فغدت خطاباته الصارخة المتكررة من نزهات البرج لعابري السبيل فجأة سياسية في مطلع تموز. وإذ حُرِم من تلك النزهات، تابع الإبداع المهني التقليدي في الباستيل بصنع مكبر صوت مرتجل من مبولة تستخدم لجمع بوله وفضلاته ورميها في الخندق. من نافذة دو ساد، في فواصل منتظمة، مثل نشرات الأخبار كل ساعة، جاءت إذاعة إعلانات عن حقيقة أن المدير دو لاوناي de Launay خطط مذبحة لكل السجناء؛ وأنهم يُذبَحون في ذلك الوقت وينبغي أن يحررهم الشعب قبل فوات الأوان. وقد نقل دو لاوناي الذي كان يتصرف بانفعال في تلك الآونة، دو ساد، المتسبب بالمشكلة في الخامس من تموز إلى تشارنتون، حيث عبر عن سخطه إزاء المعاملة المهينة بحجزه مع كثيرين مصابين بالصرع والجنون.

وقد أصبح دو ساد ثورياً.

V ـ الرابع عشر من تموز/يوليو 1789

ولد برنارد رينيه دو لاوناي Bernard - Rene de Launay في الباستيل، حيث كان أبوه مديراً، وسيموت في مساء الرابع عشر من تموز في ظل أبراجه. سخر الأرستقراطي الثوري دو ساد من «الماركيز المزعوم الذي كان جده خادماً خاصاً». والحقيقة أن المدير كان موظفاً مثالياً ثانوياً في النظام القديم، وذا ضمير حي إلى حدٍّ معقول إذا كان صارماً بطريقة ما؛ وبالتأكيد يُعتَبر تغييراً مقارنة بالضباط المتشددين في فرض النظام مثل المدير دي بيرير de Berryer، الذي جعل حياة لاتود بائسة جداً.

كان في الرابع عشر من تموز قلقاً، لسبب وجيه. بدا أن نتيجة غياب الاستقامة الكلية للسلطة الملكية في باريس قد آلت إليه. فقد أخلى البارون دو بزنال de Besenval

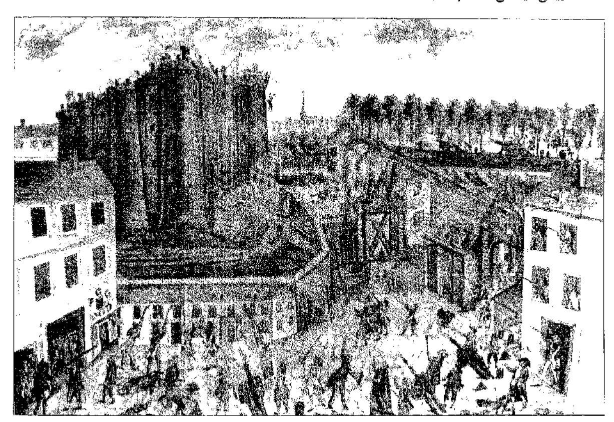
مركز المدينة فعلياً. وأرسل له قائد موقع إنفاليد Invalides وديعة ضخمة 250 برميل بارود (نحو ثلاثة آلاف باوند)، مع أنه ليس لديه إلا قوة صغيرة ليدافع عن السجن بها. وفي استجابة لطلب عاجل للتعزيزات العسكرية، أعطي، في 7 تموز، اثنين وثلاثين رجلا أيضاً من الفوج السويسري لضمهم إلى اثنين وثمانين متقاعداً مصاباً بعاهات دائمة تمركزوا هناك. ولم يكن محتملاً أن يدافع المتقاعدون المصابون المعروفون جيداً في الضاحية كرجال ودودين خاملين عن القلعة حتى الرجل الأخير. والأسوأ، في حالة الحصار، كان لدى الباستيل مؤونة طعام ليومين فحسب ودون أي مورد مياه داخلي على الإطلاق. وفي النهاية، كان ذلك على الأرجح ما قرر اتفاقية استسلامه.

تجمع أمام الفناء الخارجي نحو تسعمائة باريسي. ضموا بضعة رجال ذوي مكانة وأملاك مثل سانترSanterre، صديق ريفيلون الذي امتلك مصنع بيرة هورتنسيا Hortensia Brewery الشهير، المتخصص بنوعي بيرة من النمط الإنكليزي التي كان الطلب عليها كبيراً جداً في العاصمة. كان ثمة أيضاً عدد كبير من الجنود والحرس الفرنسي الذين تركوا وحداتهم. غير أن العدد الأكبر كان من المهنيين المحليين الذين يعيشون في ضاحية سان ـ أنطوان، نجارو إنشاءات وموبيليا، صانعو قبعات، صانعو أقفال، إسكافيون، خياطون ومن على غرارهم. وفقاً للقائمة الرسمية لفاتحي الباستيل vainqueurs de la Bastille، كان ثمة أيضاً عدد مقبول من تجار النبيذ ـ واحد وعشرون، الذين يمكن القول أنهم مالكو الخمارات التي قدمت وباعت النبيذ والتي كانت مراكز رئيسة للسياسة وجارها القيل والقال. كان أحدهم، كلود تشولات Claude Cholat، الذي كانت خمارته في شارع نوير rue Noyer، يقدم صورة غرافيك «بدائية» حية تماماً للأحداث اليومية. كانت معظم عائلات هؤلاء الستمائة الذين لدينا معلومات عنهم جائعة بلا شك، مثل كثيرين من الأربعمائة في الحشد الذين جاؤوا إلى باريس من الأقاليم، ونظراً لأن 14 تموز شهد فيه سعر الرغيف زنة الأربعة باوند ارتفاعاً بلغ مستوىً قياسياً.

كانوا أيضاً فريسة لخوف كبير. فقد انتشرت أثناء الليل إشاعات أن القوات كانت على وشك المسير أو في طريقها من سيفر وسانت دنيس لسحق ثورة باريس. ويبدو أن الباستيل عُبِّئ بوفرة، بخمسة عشر مدفعاً لكل منها ثمانية رماة على الأبراج وثلاثة إضافية في الفناء الداخلي مصوبة إلى البوابة. اثنتا عشرة بندقية إضافية على المتاريس يمكنها أن تطلق كرات تزن الواحدة منها باوند ونصف، وفي قلقه حشد دو لاوناي مجموعة غريبة تماماً من قذائف الحصار مثل حجارة الرصف وأدوات حديدية صدئة لإسقاطها على

المهاجمين، إذا كان ذلك ضرورياً.

كان الهدف الأولي للحشد ببساطة تحييد البنادق والاستيلاء على البارود. ولهذه الغاية، طلب مندوبان من أوتيل دو يل مقابلة المدير، وبما أن الساعة كانت حوالي العاشرة صباحاً فقد تمت دعوتهما للفطور. حتى بمقاييس اليوم الأخير للنظام القديم، بدت هذه تسلية مطولة. كان الحشد، من البداية، مرتاباً عندما رفض لاوناي دخول أي شخص سوى المندوبين فطلب ثلاثة جنود «رهائن» في المقابل. وقد عمَّق هذه الشكوك الغداء المطول الذي ترافق مع عمل غامض حول متراس البنادق (في الحقيقة انسحابهم من الثغور). وجاء مندوب ثانٍ،هو ثريوت دو لا روزيير Thuriot de La Rozière، من المركز الرئيسي لمقاطعة سانت لويس لا كلتور Saint - Louis - la - Culture، سُمِح له أيضاً برؤية لاوناي، وهذه المرة مُزوّداً بتعليمات خاصة. يجب أن تُنقَل البنادق مع بارودها وتسلَّم للميليشيا التي تمثل مدينة باريس، وينبغي إدخال وحدة من الميليشيا إلى الباستيل. ردَّ لاوناي أن هذا مستحيل حتى يتلقى التعليمات من فرساي، لكنه أخذ ثُريوت إلى المتاريس ليعاين سحب البنادق.



الصورة 101، الاستيلاء على الباستيل كما رآه أحد المقاتلين، صاحب الحانة كلود تشولات. الحالة العادية لطبعة شعبية، كُثفت أحداث اليوم كلها في صورة واحدة.

كانت حوالي الحادية عشرة والنصف. لم يتحقق الكثير في أي من الجانبين. لم يمنح ثريوت Thuriot أياً من الطلبات الأساسية التي تقدم بها، ومع أنه بذل جهوداً لإقناع المصابين بالتوصل إلى اتفاقية مع الشعب، أصر ضباط لاوناي أنه سيكون مخزياً تسليم القلعة دون أوامر واضحة من قادتهم. وقرر ثريوت أن يقدم تقريراً إلى الناخبين في أوتيل دو يل يطلب فيه تعليمات تفاوض إضافية. كانوا يقاومون تأجيج الوضع، وفي الواحدة والنصف كان ثريوت على وشك العودة إلى الباستيل مع ناخب آخر، إثيس دو كورني Ethis de Corny، مزوداً ببوق ورجل عالي الصوت سيعلن بواسطته للناس إزالة البنادق، عندما اهتز أوتيل دو يل لصوت انفجار تلاه أزيز نار بندقية مسكيت آتياً من القلعة.

بينما كان قد ذهب، انفجر نفد صبر الحشد أخيراً واندفع داخلاً، وسمعت صيحات «أعطونا الباستيل»، وضغط التسعماثة للدخول إلى الفناء الخارجي غير المحمي، وأصبحوا أكثر غضباً في تلك اللحظة. وتسلقت مجموعة، تضم جندياً سابقاً الآن صانع عربات، إلى سطح متجر عطور يحاذي البوابة إلى الفناء الداخلي و، إذ أخفقت بإيجاد المفاتيح إلى الفناء الداخلي، قطعوا سلاسل الجسر المتحرك. سقطوا دون إنذار، قتلوا واحداً من الحشد الذي وقف تحت الجسر، وفوق الجسر أغرق جسده مئات المحاصرين. وفي هذه اللحظة صرخ الجنود المدافعين على الناس أن ينسحبوا أو سيطلقون النار عليهم، وهذا أسيء فهمه أيضاً كتشجيع للمجيء أبعد. كانت الطلقات الأولى قد أطلقت. وفي ما بعد سيدعي الطرفان أن الآخر أطلق النار أولاً، لكن بما أن لا أحد بين المتشاجرين عرف أن الناس قطعوا الجسر المتحرك، افترضوا أنهم استدرجوا إلى الفناء الداخلي ليحصدهم المدفع في المجال الضيق.

كان ذلك جزءاً مع كل افتراضات الخيانة والتآمر الأخرى ـ من التحية القلبية التي كانت وراءها خطة موت وتدمير. أرتوا وأولئك المسؤولون عن إبعاد نكر؛ دو فليسل de Flesselles، الذي أرسل الباحثين عن الأسلحة إلى مطاردات لا جدوى منها؛ الملكة، التي ظهرت رحيمة بالرغم من الانتقام المدبر الذي كان قد ظهر بين جميع هؤلاء الأوغاد طالما كان الناس معنيين. والآن دو لاوناي، المدير الذي أنزل الجسر المتحرك ليحصل على تصويب أفضل، انضم إليهم. كان الغضب الذي أطلقته هذه «الحيلة» التي قطعت الطريق على وفود لاحقة من الناخبين (التي كان يوجد الكثير منها) المرور عبر المتقاتلين وتنظيم نوع ما من وقف النار.

غدت المعركة جدية. وقد تعزز الحشد عند الثالثة والنصف بعد الظهر بعشرات من

الحرس الفرنسي والجنود الذين تركوا وحداتهم، بمن فيهم عدد من المحاربين القدامى الذين شاركوا في الحملة الأمريكية. وكان ثمة اثنان على وجه التحديد، الملازم الثاني جاكوب إيلي Jacob Elie، قائد مشاة الملكة، وبيير أوغستين هولين Pierre - Augustin Hulin، مدير مصبغة الملكة، لعبا دوراً حاسماً في قلب الهجوم المفكك إلى حصار منظم. مثل عدد من المشاركين الأساسيين في أحداث 1789، كان هولين ثورياً من جنيف في 1782، وفي مقابلة مع السيدة دو ستايل Mme de Staël في اليوم السابق أقسم على «الانتقام لأبيك من هؤلاء الأوغاد الذين يحاولون قتلنا»، وعد ربما وجدته أو لم تجده سارأ.

جاء هولين وإيلي بذخيرة وافرة من الأسلحة أخذت من المصابين في ذلك الصباح. كان معهم مدفعان، الأول برونزي والآخر مدفع تايلندي مرصع بالفضة تمّ الاستلاء عليه من المخزن الملكي في اليوم السابق. كان لعبة لويس الرابع عشر، ثم، سينهي النظام القديم في باريس.

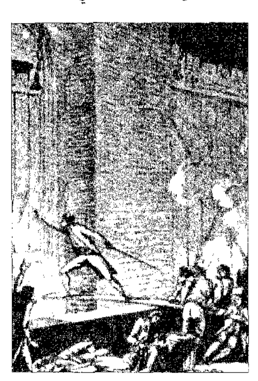
لقد تقرر تصويب البنادق على البوابة مباشرة (حيث بدا أن الكرات ترتد دون أذى عن الجدران التي تبلغ سماكتها ثمانية أقدام). قبل فعل ذلك، مُلئت العربات بالروث والقش المشتعل، التي أشعلها سانتير Santerre لتوفر تغطية الدخان لحركات المحاصرين، الذين ينبغي أن يتحركوا من الطريق إلى البوابة. فعل إيلي هذا في مغامرة له بمرافقة حميمية لبائع ألبسة رجالية معروف بـ فيف لامور «Vive l'Amour» . سحبت المدافع الثقيلة على عربات مدفع، ثم لقمت وصوبت.

تفصل بوابة خشبية الآن مدفع المحاصرين عن مدفع المدافعين ـ ربما مائة قدم عن بعضهم. لو فتحوا النار كل على الآخر، ستكون مجزرة مروعة مضمونة. لكن إذا لم يستطع المهاجمون رؤية البنادق الدفاعية، فقد كانت القوات المدافعة على دراية تامة بالخطر الذي يحدق بها. وإذ جوبه بممانعة متزايدة من المصابين لإطالة القتال، غدا لاوناي نفسه مرتبكاً. في أية حال، لم يكن ثمة طعام يمكن معه مقاومة الحصار الطويل، لذلك كان اهتمامه الرئيسي الآن استسلاماً يحفظ شرف وحياة الحامية. كان لديه بطاقة واحدة ـ البارود. فكر في أحلك لحظاته ببساطة بتفجير المخزن بكامله ـ وتدمير قسم كبير من ضاحية سانت ـ أنطوان بدلاً من الإذعان. لكنه اقتنع بالعدول عن فعل اليأس هذا، وعزم على أن يستخدم التهديد ليضمن إخلاءاً مشرفاً على الأقل.

دون راية بيضاء متوفرة، تدلى منديل من أحد الأبراج وتوقفت بنادق الباستيل عن

إطلاق النار. وفي حوالي الخامسة، مذكرة تطلب مثل هذا الاستسلام، كتبها المدير ـ وتهدد بالتفجير ما لم يقدَّم ـ كانت مغروزة من خلال شق عبر جدار الجسر المتحرك للفناء الداخلي. وُضع لوح فوق الخندق مع رجال واقفين فوق إحدى نهايته لتثبيته. وقع الشخص الأول على اللوح في الخندق لكن الثاني ـ الذي كانت هويته مثار جدل حار بعد ذلك ـ استردها. رُفِضَ الطلب، في أية حال، وفي استجابة إلى الغضب المتواصل للحشد كان واضحاً أن هولين كان مستعداً لإطلاق المدفع التايلندي عندما انهار الجسر المتحرك فجأة.

اندفع الفاتحون vainqueurs إلى داخل السجن، حرروا السجناء السبعة جميعاً، استولوا على البارود ونزعوا سلاح الجنود المدافعين. الحراس السويسريين، الذين خلعوا معاطفهم النظامية بتعقل، واختلطوا بالسجناء ولم يصابوا بأذى. لكن تمّ التعامل مع بعض المصابين بوحشية. فصلت يد جندي اسمه بيكار Béquard تقريباً، كان واحداً من أولئك المسؤولين عن ثني دو لاوناي عن تفجير البارود، حالما فتح إحدى بوابات القلعة. وتحت تأثير أنه أحد حراس السجن، استعرض الحشد اليد التي ما تزال قابضة على المفتاح في الشوارع. بعد ذلك المساء لم تتحدد هويته مجدداً، هذه المرة أحد رماة المدفع الذي أطلق النار أولاً على الناس، شُنق في ساحة دو غريف de Grève، مع أحد رفاقه، أمام صف الحراس السويسريون الثلاثين كجمهور إلزامي.



الصورة 102، ميلارد يأخذ طلب دو لاوناي للاستسلام، من تاريخيات جانبنه

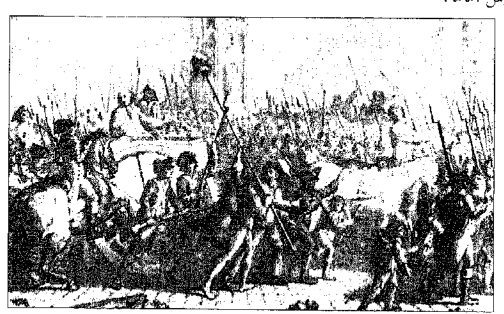
قضت المعركة نفسها على حياة ثمانية وثلاثين من جيش المواطنين. سيموت خمسة عشر آخرين من الجراح. توفي واحد من مجموعة ذوي الإصابات التي تقيم في الباستيل في القتال وجُرح ثلاثة. كان عدم التوازن كافياً للحشد ليطلب نوعاً من تضحية عقابية، وقد قدمه دو لاوناي في حينه. كل الضغينة التي إلى درجة كبيرة استبقت الحامية كانت مركزة ضده. كانت رموزه في القيادة ـ السيف والعصا ـ انتزعا منه وسيق نحو أوتيل دو يل خلال حشود هائلة، التي كانت جميعها مقتنعة أنه هُزِم في مؤامرة شيطانية لذبح الناس. أعد هولين وإيلي لمنع الحشد من قتله في الشارع، ومع ذلك لُكِم وضُرِب أكثر من مرة على نحو خطير. طوال المشي كان يغطى بالسباب والبصاق. قُدِّمت خارج أوتيل دو يل اقتراحات متنافسة مثل كيف يجب أن يلاقي مصيره، تضمنت اقتراحاً أن يربط إلى ذيل حصان ويُسحَل على الحصى. وقال طاهي حلويات اسمه ديسنو Desnot أنه سيكون من الأفضل أخذه إلى أوتيل دو يل ـ لكن في تلك اللحظة صرخ دو لاوناي، الذي لديه ما يكفي من المحن، «دعوني أموت» ووجه بحذائه ضربة مباشرة على فخذ ديسنت. كان قد غُطّيَ بطعنات السكاكين والسيوف والحراب المندفعة وتدحرج إلى قناة ماء وقضي عليه بوابل من طلقات مسدس.



الصورة 103، اعتقال دي لاوني، من تاريخيات جانينه

بدأت الثورة في باريس برؤوس مرفوعة عاليا فوق الحشد. كانت رؤوس أبطال، مصنوعة من الشمع، حُملت بالنيابة عن القادة. احتاجت إلى إنهاء متناسق: رؤوس أكثر، هذه المرة تصلح لأن تكون نصباً تذكارية للمعركة. تسلم ديسنت سيفاً، لكنه رماه جانباً واستخدم سكين جيب ليقطع رقبة لاوناي. بعد قليل، أطلقت النار على دو فليسيل، الذي اتهم بالتضليل المتعمد للناس حول مخازن الأسلحة، حالما خرج من أوتيل دو يل. غُرزَت الرؤوس على االرماح التي تمايلت وسقطت فوق الحشود المبتهجة الضاحكة المنشدة التي ملأت الشوارع.

بعد تسعة أيام كان ثمة رأسان آخران للعرض: رأس برتيير دو سوفني Bertier de Sauvigny، محافظ باريس، ورأس فولون Foulon، أحد الوزراء في الحكومة الذي كان ينبغي أن يحل مكان نكر. أتُهم الأخير بمكيدة المجاعة، لذلك حشي فم رأسه المقطوع بالعشب والقش والروث للدلالة على جريمته الخاصة. اعتقد الرسام الشاب جيروديه Girodet أن هذه الرمزية رائعة جداً حتى أنه أنجز رسماً تخطيطياً دقيقاً عندما مرت الرؤوس أمامه.



الصورة 104، اللوحة لـ جان لويس بريور، نقش. برتيير دو سافوني يميز رأس فاولون المقطوع.

أكثر من الإصابات الفعلية في القتال (التي، كما رأينا، كانت محدودة جداً)، كان هذا العرض للتضحية العقابية التي شكلت نوعاً من سر ثوري مقدس. بعضهم، الذي احتفل بالثورة طويلاً فيما عُبر عنها بمجردات مثل **الحرية**، تقيأ لمنظر الدم يندفع إلى وجهه. الآخرون الذين كانت أعصابهم أشد صلابة ومعداتهم أقل غثياناً صنعوا بسهولة

الاتفاق الحديث الذي بواسطته استطاعت السلطة أن تكون أكثر أمناً من خلال العنف. خدع المستفيدون من هذه الصفقة أنفسهم بالاعتقاد أنهم استطاعوا تشغيلها ويمكنهم إيقافها مثل الحنفية وتوجيه قوتها بانتقائية تامة. وقد سئل بارنا، السياسي من غرينوبل، الذي كان عام 1789 بين المتحمسين دون تحفظ للجمعية الوطنية، عما إذا كان موت فولون وبيرتيير ضرورياً حقاً لضمان الحرية. أعطى الجواب الذي، تحول إلى أداة للحالة الثورية، سيعطي الحق لقتله على المقصلة:

«ماذا، إذاً، هل ثمة دم نقي هكذا؟»

VI ـ حياة الباستيل بعد سقوطه: الوطني بالوي والإنجيل الجديد

نشر العدد الأول من جريدة ثورات باريس، في السابع عشر من تموز، كان مكرساً لوصف مطول ـ ومشوش إلى حد ما ـ للعصيان المسلح. وقد صُوِّرت ذروته حول الباستيل كاحتفال عائلي بهيج، مع فتيان مشردين يتعابثون حول القتال:

بذلت النساء قصارى جهودهن لدعمنا، وحتى الأطفال ركضوا بعد كل وابل من القلعة إلى هنا وهناك يجمعون الرصاصات والقذائف ثم يعودون مراوغين بمرح ليحتموا ويعطوا تلك القذائف لجنودنا.

وجاء الأجداد بعد الأطفال. جلب تحرير السجن إلى ضوء النهار بطاركة، رجال تقدموا بالعمر سجنهم الحكم الاستبدادي وقد نسوا سجنهم. «فتحت الزنازين لتتحرر ضحايا بريئة ورجال مسنون موقرون أذهلهم أن يشاهدوا ضوء النهار». وكان الواقع أقل إثارة. كان أربعة، من السجناء السبعة، مزورين حوكموا بدعاوى قضائية قانونية نظامية. الكونت دو سولاج Comte de Solages، مثل دو ساد de Sade، سُجن بناء على طلب من عائلته لفجوره وكان سعيداً كفاية عند إطلاق سراحه. مُنِح سكناً مجانياً في أوتيل دي روين Hôtel de Rouen في منطقة أوراتوار Oratoire قبل أن يختفي في المدينة، الأمر الذي جعل أقاربه يندمون كثيراً. كان السجينان الباقيان مجنونين، وعاد كلاهما بأمر واضح مقتضب إلى تشارينتون Charenton. كان أحدهما، ربما، «ماجر ويت Major Whyte» (وُصِف في المراجع الفرنسية أنه إنكليزي وفي المراجع الإنكليزية أنه إيرلندي)، مثالياً للدعاية الثورية، يحمل كما فعل لحية تصل إلى خصره. بدا مع سجادته ذات الشراشيب الفضية وشكله المنكمش النحيل، للناس الذين يتوقعون رؤية كثيرين من أمثال لاتود

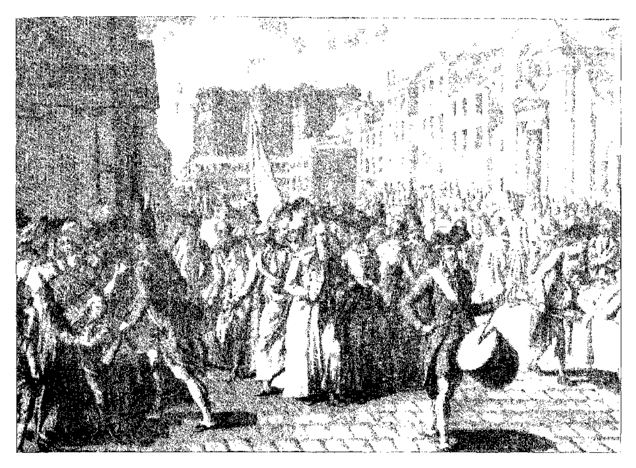
يبرزون من الزنزانات تجسيد المعاناة والاحتمال. وهكذا وايت الذي دُعي الميجور دي ليمنزيتي major de l'immensité وحُمِل هنا وهناك بانتصار عبر شوارع باريس، بلطف وليته لوّح بيديه متراخياً في تحية، لأنه في ظرفه المحتار ما زال يفترض أنه يوليوس قيصر.

كانت هذه قوة الباستيل الرمزية لجمع البؤس كله الذي حُمّل «الحكم الاستبدادي» مسؤوليته الآن، وقد تعززت تلك الحقيقة بالأوهام القوطية بينما كان المبنى يُنهَب. فأعلن عن قطع درع قديمة أنها «مشدات حديدية» شيطانية استخدمت لتقليص الضحية وآلة مسننة كانت جزءاً من مطبعة صحفية قيل أنها دولاب تعذيب. وقدمت مطابع لا حصر لها لورش عمل شارع سانت ـ جاك rue Saint - Jacques، التي زادت إنتاجها لخدمة الجوع الشديد للأخبار، صوراً رهيبة على نحوٍ مناسب، فنشرت هياكل عظمية واقفة، وأدوات تعذيب ورجالاً في أقنعة حديدية.

حدثت مواجهة حقيقية بين الأسطورة والحقيقة الواقعية في السادس عشر عندما جاء لاتود ليعاين موقع أسره. ولدهشته أُعطي الحبل والسلم الحلقي وأدوات فراره، كل ما وجده الحراس قبل ثلاث وثلاثين سنة وحافظوا عليه بضمير حي. وقد قُدّمت بشكل احتفالي للهارب الشهير بوصفها «ملكية مكتسبة بسند مستحق». وقد عرضت طوال الخريف في الصالون إلى جانب لوحة رائعة لـ لاتود رسمها أنطوان يستييه Antoine Vestier التي يشير فيها البطل إلى طريق فراره ويعرض السلم متباهياً كأنه صفة قدسيته الثورية.

صار الباستيل، بعدئذٍ، أكثر أهمية «بعد سقوطه» مما كان كمؤسسة عاملة في الدولة. فأعطى شكل وصورة كل العيوب التي عرفت الثورة نفسها في مواجهتها. وتحوّل من شبه فارغ، ومفارقة تاريخية مأهولة بعدد جد قليل من السجناء إلى مركز وحش الحكم الاستبدادي، ودمج كل هؤلاء الذين أفرحهم الاستيلاء عليه بوصفهم أعضاء في الجماعة الجديدة للأمة. كان المشاركون والشهود والمحتفلون كلهم أصدقاء الإنسانية وجالبي الضوء إلى قلعة الظلام.

لم يدرك أحد الفرص الخلاقة التي قدمتها القلعة المأسورة أفضل من بيير ـ فرانسوا بالوي Pierre - François Palloy. سيكون، في الوقت نفسه، المقاول ومدير عمل التدمير الأضخم في التاريخ المعاصر. ومع أنه استخدم كتّاب مذكرات وشعراء وفنانين تصويريين، فقد كان مفهوم بالوي للمنفعة السياسية في عبادة الباستيل هو الذي حوله إلى رمز وطني ودولي للإنسانية المحررة. فقد أعاد بتدمير الصرح بناء أسطورة، جُمِعت وسُوِّقت ووُزِّعت وغدت متاحة للجمهور والزبائن في طول البلاد وعرضها.



الصورة 105، «ساعة الحرية الأولى» ـ استعراض سجناء الباستيل عبر الشوارع. لاحظوا الطول المؤثر للحية والمظهر البطريركي للسجين الأكثر وضوحاً.

أدرك بالوي أيضاً (وهنا لم يكن وحده) أن الثورة خلقت طلباً على نوع جديد من التاريخ: ملحمة الإنسان العادي. سيُربَط بطريقة جديدة، ليس إلى وقت الراحة ولا تحيز جيبون Gibbon الساخر أو فولتير Voltaire، لكن بقطع مقصوصة على نحوٍ انفعالي ـ الأحداث الراهنة actualités ـ التي جُعِل التاريخ فيها معاصراً بشكل مباشر لحياة القارئ. وفي ذلك الحاضر المكشوف باستمرار، استطاع القارئ ـ المشارك إدخال تجربته الذاتية، ولو بشكل غير مباشر. وقد استدعى ذلك أيضاً أسلوباً جديداً في التقديم مليئاً بالمبالغة والإعجاب الوطني. وبدلاً من التفكير في القرون بطريقة باحث مبتدئ، سيُجزّأ التاريخ الجديد إلى وحدات ذاكرة الرجل العامل ـ يوم واحد أو أسبوع. وفي النهاية، أن تقدم يد العون الفورية لأولئك الذين كانوا بعيدين جغرافياً عن الحدث، وتأخذ مذكراتها شكلاً ملموساً ـ هدايا ـ وإذا كان ضرورياً تُنتَج على نطاق واسع إلى حد أن المواطن يمكنه من خلال التأمل بها أو لمسها أن يشارك في قوة اليوم الثوري العظيم. ومجلة جان ـ فرانسوا جانينه **أحداث تاريخية مصوَّرة** Gravures Historiques، التي ظهرت كل ثلاثاء من تشرين

الثاني 1789 إلى آذار 1791، قدمت هذا العرض الشبيه بجريدة السينما، تقدم مقابل ثمانية قروش صورة منقوشة لحدث شهير ونصاً توضيحياً من ثماني صفحات. كانت هذه أهمية الرابع عشر من تموز التي كرست ثمانية أعداد منفصلة لذلك اليوم وحده.

من هو «بالوي الوطني» ؟ كان أيضاً مثالاً آخر للبورجوازي العصامي الذي نجح خلال الازدهار المديني الاقتصادي في النظام القديم والذي لم يكن بالتأكيد بحاجة إلى ثورة ليجمع ثروته. أبوه وأمه من عائلات مالكة لحانات، ومع ذلك دبروا لإرساله إلى كلية هاركور Collège d'Harcourt، المليئة بأبناء الأرستقراطيين الليبراليين. أخذ مثلهم رتبة ضابط في الجيش وفي العشرين، في ما كان يجب أن تبدو خطوة إلى الوراء لكنها كانت فعلاً حركة ذكية، أصبح بناءً متدرباً. وتزوج بعد عام من ابنة أستاذه وأطلق نفسه في صناعة البناء، التي كانت في سبعينيات القرن الثامن عشر ومطلع ثمانينياته خط العمل الرابح الأكثر جاذبية في باريس. عمل بالوي في البيوت الخاصة في سان ـ جيرمان Saint - Germain، وجدار جمعية جباة الضرائب Farmer - Général (الذي ساعد على تدميره فيما بعد)، سوق اللحوم الجديد في سو Sceaux وانتقل بسرعة من بنّاء إلى وكيل عمال إلى مقاول. وقد راكم بحلول عام 1789 ثروة مذهلة من نصف مليون ليفر، وامتلك ثلاثة منازل، ورثت زوجته أحدها من أبيها، بالإضافة إلى عدد من المتاجر ومجموعة من العقارات قيد التطوير في ذلك الوقت. كان لديه كل زخارف النجاح الدنيوي ـ عربة، أثاث



الصورة 106، هاردنر *Hardener* (بعد كلوغر *Klooger*)، تحوّل تحرير سجين إلى فانتازيا قوطية. لاحظوا الهياكل العظمية المتحللة للسجناء المكبلين، كل الرسوم من خيال رسام.

جميل، مكتبة كبيرة ومجموعة ببراعة ـ بالإضافة إلى الكثير مما أحبت باريس أن تقتبسه من لوحات التاريخ الروماني باعتبارها أمثلة ملهمة للجيل الحالي. وكان في ربيعه الرابع والثلاثين.

ومثل ثوريين آخرين كثر، لم يكن بالوي فاشلاً ساخطاً، بل نموذج قصة نجاح لرأسمالية النظام القديم. لم يَحُل هذا، في أية حال، دون اندماجه الفوري بقضية **الوطن**. وفي الرابع عشر من تموز كان قائد ميليشيا منطقته المحلية في إل سانت لويس Ile Saint - Louis. تماماً ضمن مجال سماع معركة الباستيل، ادعى أنه انتقل إلى مسرح الأحداث وعند وصوله تلقى رصاصة عبر قبعته المثلثة إلى جانب الملازم إيلي. ومع أن خطأً وقع في تهجئة اسمه باعتباره «باليه Pallet» في القائمة الرسمية، لم يكن ثمة شك أنه فاز ببراءة فاتح a brevet de vainqueur ليضمن أنه أحد التسعمائة المقدسين.

لم يستغرق بالوي إلا يوماً واحداً ليدرك أنه كفاتح vainqueur ومهندس بناء ورئيس عمال مجرب كان في موقع يمكنه من الحصول على القطعة الأكثر أهمية في العقارات حتى ذلك الوقت. وفي الخامس عشر جلب ثمانمائة رجل إلى الباستيل، مستعدين للبدء بعمل الهدم إذا ما وافق الناخبون. وبدء السباق قبل إطلاق شارة البدء خلق له أعداء مباشرة. حيث كان لدى المهندسين المعماريين خطط لحفظ الباستيل كنصب تذكاري لحكم الاستبداد الساقط؛ واعتقد بعض الضباط في ميليشيا الحرس المتطوع (ستغدو قريباً الحرس الوطني) أنهم ينبغي أن تكون لهم وصاية أحادية على المبنى. غير أن ماسرَّع خطط بالوي للتدمير هو القلق بين الناخبين من أن القوات الملكية قد تستعيد القلعة من خلال الممرات تحت الأرض التي أشيع أنها تمتد على طول الطريق من قلعة فانسن Château de Vincennes. ومارست أساطير الباستيل، بعدئذٍ، سيطرة حتى على السجناء السابقين ذوي التفكير الواقعي مثل ميرابو. لأنه في رد على تقارير السكان المحليين أنهم سمعوا أنين ومحادثات من مكان عميق في الأرض، قام ميرابو بجولة في السجن والزنزانات والأقبية تحت الأرض، ودق على الجدران والأبواب برفقة ابن أحد السجانين السابقين ليرى ما إذا كان ثمة فعلاً رابط مثل متاهة مع قلعة نسن إلى الشرق.

وعندما أراح تفكيره، صعد ميرابو إلى الأبراج من أجل طقس أقل شراً. فلوَّح للحشود في الأسفل، وحرك معولاً على الشرفة وأسقط الحجر الأول الذي ردَّ عليه الجمهور بتصفيق حاد. وتبعته شخصيات بارزة أخرى مثل بومارشيه Beaumarchais والماركيز دو لوسينان Marquis de Lusignan، ثم فُتِح بعدهم للجميع. وفي الأيام القليلة

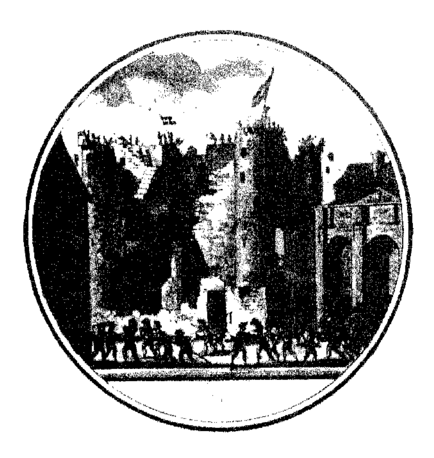


الصورة 107، للرسام دونشيري *Donchery*، صورة لبالوي الوطني

التالية، تبعثرت الأوراق، أو أُحرِقت أو أُخفيت كتذكارات، وأضرمت الحرائق في النهار وانفجرت الألعاب النارية في الليل. قام السجانون، الذين قُبِلوا عندئذٍ كوطنيين جيدين، بجولات مخفورة إلى الزنزانات، وزينوا حكاياتهم لتتطابق مع الأسطورة القياسية للتعذيب والعبودية. وحبست النساء أنفسهن طوال الليل إلى حد يستطعن فيه الادعاء صباحاً أنهن نمن مع الجرذان والعناكب وضفادع الطين التي رافقت لاتود.

كان بالوي، خلال كل هذه الاحتفالات، يخطط لعمله. كان لا بد للجنة الدائمة في أوتيل دو يل، التي تأسست عندئذٍ كسلطة تنفيذية بلدية، أن ترخّص العمل. كان بالوي مجرّد واحد من خمسة متخصصين عُيِّنوا ليشرفوا على الهدم، كان آخرون مسؤولين عن حرفة النجارة، والأعمال الخشبية والحدادة وأشياء مماثلة. لكنه سرعان ما رسخ نفسه بوصفه أكثر من عضو في هيئة. وعلاوة على عمل هدم البناء، كان الباقي ثانوياً وكان طاقم بالوي الأكبر كثيراً، الذي بلغ عدده ألف عامل تقريباً في أقصاه. كان يُدفَع له 150 لير في الشهر وبدوره دفع جيداً لرجاله: 45 قرشاً في اليوم لرؤساء العمال و40 قرشاً لمساعدي رؤساء العمال و36 قرشاً للعمال. عندما كان العمل نادراً بشكل استثنائي والأسعار مرتفعة في أواخر صيف عام 1789، كان العمل نعمة لاسيما للسكان المحليين في سانت أنطوان والمناطق الواقعة إلى شمال وجنوب السين مباشرة حيث تمّ استخدام معظم العمال اليدويين غير النظاميين منها.

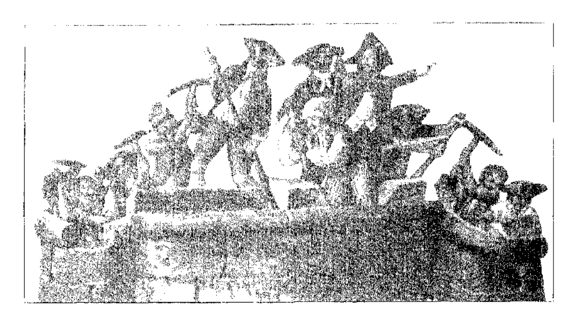
لم يقدم بالوي العمل والدفع فحسب، بل أعطى بنية للمشروع كله. كان مطلوباً من



الصورة 108، للرسام ديماشي *Demachy*، هدم الباستيل عمل جارٍ، عام 1789

كل الرجال في الموقع أن يحملوا بطاقات هوية، صممها بالوي شخصياً بشكل خاص بالألوان الوطنية الثلاثة: الأبيض للمقاولين والأزرق لمفتشي الموقع والأحمر للعمال. أظهر الجميع كرة متوجة بزهرة الزنبق وشعارات الطبقات الثلاث والشعار المتفائل أيها الأحرار اتحدوا *Ex Unitate Libertas*. أصبحت البطاقات نفسها أشياء غالية سريعاً التي قال جامعوها أنهم يقدمون أكثر من اثني عشر ليرٍ مقابل كل منها. في الموقع طوال فترة العمل، تصرف بالوي كرئيس عمل أب، يقيم الحفلات للعمال ويلعب مع الأطفال الكثيرين الذين أسهموا في العمل ويبقيهم بعيدين عن الحطام المتساقط. واستخدم عصاً ومصفقة لدعوة الناس إلى الانتباه، وكان أيضاً شرطياً وقاضياً وهيئة محلفين، فيغرم المسيئين الذين يتشاجرون نتيجة السكر أو يضبطون متلبسين بسرقة. وقد شُنق اثنان من هؤلاء المجرمين، ولخص بالوي في نهاية العمل الإصابات كالتالي: «أربعة حوادث عصيان مسلح، خمس عشرة حادثة مفاجئة؛ ثماني جرائم قتل وجريحين» ـ التي شعر بجلاء أنها عادية ومتوقعة في مثل هذه الظروف.

وعلى الرغم من كل هذه المعوقات، تقدم العمل بسرعة مدهشة. حيث كُشِفت



الصورة 109، لو سور *Le Sueur*، لوحة بالألوان المائية، هدم الباستيل

العوارض والقناطر والدعامات مع نهاية تموز، وطوال تموز، هُدِّمت الأرضيات نزولاً الأرضيات بسرعة. وضُهرت ساعة البرج، التي أظهرت سجناء بالأغلال يضربون ساعات الوقت، في مسبك، وفي آب دُفِع للنحات دِمون Dumont أربعمائة لير لتحطيم الأشكال الحجرية الأربعة لكل من سان أنطوني Saint - Anthony وشارل الخامس Charles V وشارل السادس Charles VI وجان دي بوربون Jeanne de Bourbon التي زينت مرفأ سان أنطوان Porte Saint - Antoine.

دُمر معظم الباستيل في نهاية تشرين الثاني. كان ثمة بعض القلق بين العمال بأن حماسهم كان الآن على وشك أن يضعهم خارج العمل. وكان بالوي نفسه مهتماً أن المهمة ينبغي ألا تنتهي على أطلال القلعة. هكذا، بينما استكمل العمل المادي، كانت نسخته الملهمة من عمل الباستيل قد بدأت للتو.

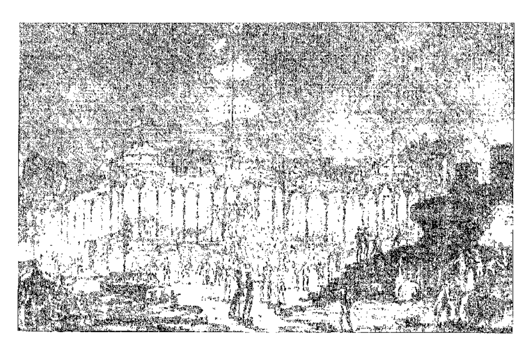
اقتضى بعض ذلك مشروعات جديدة. وقد قبلت البلدية اقتراحه لبناء منصة على جسر بونت نف Pont Neuf مقابل تمثال هنري الرابع Henri IV، حيث أمكن نصب مدفع الباستيل. خلال أشهر الشتاء أنهى عدد من جماعات العمل الأصلية خنادق وقنوات القلعة. غير أن معظم طاقات بالوي ذهبت باتجاه تعزيز بدعة الباستيل كَمَعلَم سياسي سياحي، مكتملة بجولات يرافقها مرشدون سياحيون، محاضرات تاريخية وروايات من فاتحي الباستيل vainqueurs عن أحداث الرابع عشر من تموز. وفي مطلع عام 1790، أخذ طبيب بريطاني ابنه ميلينجن Millingen، لزيارة هذا المعلم السياحي الشهير.

تجمهر الآلاف ليشاهدوا بقايا الباستيل، وقادني والدي لأتأمل هذه القلعة المنهارة

للسلطة الاستبدادية. في الزنزانات المدمرة القريبة من القناة والمبتلية بجرذان الماء، وضفادع الطين وزواحف أخرى كانت ما تزال تُشاهَد الحجارة التي استراح عليها السجناء التعساء، المحكوم عليهم بالموت في الزنزانات، منسيين من العالم كله، محكومين بالدفن أحياء، وكانت الحلقات الحديدية التي كانت تُثبَّت إليها الأغلال لا تزال مثبتة ببراغي إلى المقعد الصواني تولد انطباعات بأوصال تتألم.

كان الشيء الهام إنتاج - بالمعنى المسرحي - أحداث تلخص كلاً من فظائع الباستيل والنشوة بسقوطه إلى حد يمكن فيه تعبئة موجات متتابعة من زيارة الوطنيين للحماسة الثورية. كان الحدث الأول لبالوي طقوس نظّمها لطواقم العمل نفسها، التي غدت هكذا الفائزة vainqueurs ببناء القلعة. وفي 23 شباط شُيِّد «مذبح» وسط الدمار (في الأول بين كل المهرجانات الثورية التي ستتبعه)، بشكل كامل من كرات وسلاسل وقيود حديدية نُصِبت بين الركام. وفي اليوم التالي، بعد طقوس دينية في كنيسة سانت - لويس، أقسم سبعمائة عامل بالولاء للدستور، ومن خلال آلة ميكانيكية عجيبة مبتكرة دمرت الأدوات الحديدية العقابية ذاتها لتظهر مجموعة هائلة من الأزهار (صناعية، نظراً للفصل؟). وبعد معجزة المرحلة هذه، شق السبعمائة طريقهم في موكب إلى أوتيل دو يل يحملون نموذجاً للباستيل صنعوه من حجارته.

لم تكن فكرة نموذج الباستيل لبالوي لكنها لأحد بنائيه اسمه داكس Dax. ونموذجياً، في أية حال، أخذ بالوي فكرة مهنية بارعة وحوّلها إلى مشروع رئيسي - مطالباً، كما فعل، باعتماد للخطة. وقد ساعدته تطورات أخرى في ربيع عام 1790 على استمرار الاهتمام بالباستيل. ففي نهاية نيسان اكتشفت أجزاء صغيرة وقطع من هياكل عظمية بشرية في الأساس ووصفت حالاً بأنها بقايا السجناء الذين ماتوا في الأسر، مقيدين إلى الجدران، منسيين من سجانيهم. وفي كل الاحتمالات كانت عظام الحراس التي يعود تاريخها إلى عصر **النهضة**، غير أن الفرصة لنبأ مثير كانت لا تقاوم: أُخرجت بإجلال وأُخذت في 1 حزيران في أربعة توابيت منفصلة (مع أنه لم يكن ثمة من هو متأكد أية عظام تعود لأي شخص) إلى مقبرة سانت - بول، حيث أعيد دفنها. وفي عظته استخدم أسقف كالڤادوس Calvados الراديكالي، كلود فوشيه Claude Fauchet، العظام الجافة ليمثل نفسه بالنبي حزقيال وهو يحيي «يوم جديد للثورات، لأن العظام قامت لصوت الحرية الفرنسية؛ خلال عقود من الاضطهاد والموت جاءت لنبوءة تجديد الطبيعة وبعث حياة الأمم».



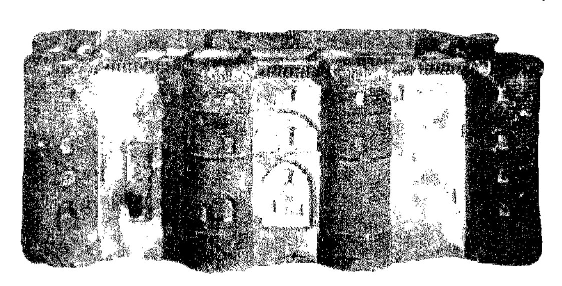
الصورة 110، الرقص ومأدبة الشعب التي أقيمت على بقايا الباستيل في 14 تموز، عام 1790

لفترة، كانت الاستعدادات الضخمة لعيد الاتحاد في ساحة مارس تلقي بظلها على مشاريع بالوي الخاصة، لكن تاريخها ـ الرابع عشر من تموز ـ ساعد على إبقاء الاهتمام بالباستيل. قبل الذكرى السنوية الأولى، كانت ثمة مسرحيات تعيد تمثيل اليوم العظيم، وعدد كبير من المطبوعات والنقوش، وأشعار وأغان كلها حنطة لمطحنته. لم يكن أقلها أن مئات آلاف الرجال من الحرس الوطني في الأقاليم الذين جاؤوا إلى باريس للاحتفال العظيم بالوحدة الوطنية والذين كانت زيارة الباستيل لهم حجاً إلزامياً. رمى بالوي للحراس كرة ضخمة على بقايا الباستيل، مع إضاءة وألعاب نارية رائعة وخيم كبيرة مزينة بالعلم الثلاثي الألوان ولافتة كبيرة جداً كُتِب عليها **هذا وقت الرقص** Ici l'on danse.

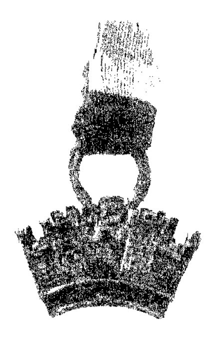
وحتى الآن ترك ذلك عدة ملايين من رجال فرنسا الذين كان سقوط الباستيل لهم حدثاً بعيداً. وكان يجب المجيء بهم إلى الجانب الوطني الذي وضعه بالوي في دليل سياحته الثورية. وكان ينبغي على «رسل الحرية» أن يقوموا بعمله بإعداد خاص ومتميز لكل المقاطعات الثلاث والثمانين التي قسمت فرنسا إليها. وسيكون بينهم ابن بالوي البالغ من العمر عشر سنوات؛ فوشيه Fauchet؛ ديزولكس Dusaulx، مؤلف الكتاب الشعبي **عمل سبعة أيام** (إعادة خلق العالم في تموز 1789) ورجل آخر من أصدقاء بالوي، تيتون بيرغراس Titon Bergeras، الذي سيصمّ لاحقاً الجمعية التشريعية بصوته الخطابي الجهوري. وحيث كان ممكناً كان ينبغي على لاتود نفسه أن يصحب الرسل مع سلمه ليقدم رواية شخصية لمحاولاته.

لإمداد رسله. أنتج بالوي 246 صندوقاً للهدايا. وطبق فكرة داكس Dax، بالذهاب إلى إنتاج وابتكار كل نوع يمكن تخيله من آثار الباستيل التي بقيت له. من «الأغلال» ومواد حديدية أخرى صُنِعت محابر؛ وصُنعت مراوح تصور المعركة من أجل القلعة من شتى أوراقه؛ ومثقلات الأوراق من حجارته بشكل باستيل صغير؛ علب سعوط؛ خناجر احتفالية. حتى ولي العهد تلقى مجموعة أحجار دومينو رخامية على شكل الباستيل. كان يمكن بيع هذه الأشياء أو تقديمها مجاناً لوطنيي المقاطعات، لكنها كانت مواداً إضافية في الصناديق، التي وضبها بالوي بدقة.

تألفت كل مجموعة من ثلاثة صناديق. في الأول كانت **قطعة المقاومة** pièce de résistance، نموذج قياسي للباستيل، كامل فعلاً في كل التفاصيل، بأبواب عاملة، شبكات حديدية وجسور متحركة. رسم مصغر لسلم لاتود معلق على برج ملائم ومشنقة صغيرة كاملة مع حبل متدلٍ أضيف إلى الفناء ليكون مؤثراً (مع أنه لم تُنفّذ إعدامات في الباستيل أبداً). ورسم مصغر لمشاهد المعركة مكون من مدفع وكرات وراية بيضاء. ورسمت الساعة بتوقيت 5:30 : لحظة الاستسلام المقدسة. وضم الصندوق الثاني اللوحة الخشبية للنموذج ولوحة منقوشة للملك؛ وضم الثالث صوراً تتعلق بـ «الهياكل العظمية» وإعادة دفنها، لوحات للشخصيات الثورية مثل لافايت وبيلي، وكرة ودرع من الباستيل، السيرة الذاتية لـ لاتود، خريطة للقلعة وأشعار عن الأحداث المتنوعة كتبها بالوي نفسه. وكانت المادة الأخيرة في الصندوق الثالث - متوفرة أيضاً للعامة في باريس - هي «كسرة رغيف، ثخنها من إنشين إلى ثلاثة، حُضّرت في سراديب الزنزانات بنفس وعرق ودم السجناء التعساء».



الصورة 111، نموذج للباستيل صنع من حجارته



الصورة 112، قلادة على شكل الباستيل



الصورة 113، صندوق مغلف بالجلد مزين بالباستيل، الحارس والمدفع

يمكن التقاط فكرة مهمتهم مع الإنجيل الجديد من تجربة أحد الرسل وهو: الممثل فرانسوا أنطوان ليغرو Francios - Antoine Legros . بالنظر إلى ظروف السفر وحمولة ثلاثة وثلاثين صندوقاً كان ينقلها، مقياس رحلة ليغرو كان شبه ملحمة قصيرة صغيرة. انطلق في تشرين الثاني عام 1790 إلى برغندي Burgundy، مسافراً عبر ميلن Melun وأكسير Auxerre وديجون Dijon، ثم توجه جنوباً نحو بروفانس Provence . وفي ليون Lyon ساعد في اعتقال متآمرين ضد الوطن، لكن قرب سالون Salon هاجم قطاع الطرق قافلة بغاله. نجح ليغرو في قتل واحد منهم، لكن طلقة المسدس أخافت حصانه، الذي هرب، رامياً إياه وكاسراً ساقه. في الوقت الذي وصل فيه إلى طولون Toulon نفذت نقوده (مصروف بالوي البالغ تسعة ليرات في اليوم الذي يرسل إليه بشكل متقطع لم يكن كافياً)، فاضطر إلى الانضمام مجدداً للفرقة التي كان يمثل فيها على الفور. وعلى الرغم من أن أداءه في مسرحية فولتير زائير Zaïre «لم يلقَ النجاح الذي توقعته»، كما اعترف. يبدو أنه كسب ما يكفي لمتابعة مهمته، حيث أبحر على سفينة إلى باستيا Bastia في كورسيكا Corsica، المرحلة الأخيرة في رحلته الاستثنائية. وفي الوقت الذي أنهى فيه رحلته كان قد أمضى عشرة أشهر في الطريق، وقطع نحو 1500 ميلاً.

إذا كانت جهود الرسل قد أنهكتهم، فقد كان بالوي أقل إنهاكاً بالتأكيد. بدلاً من أن تكون الثورة قد صنعت ثروته، يبدو فعلياً أنه فقدها بالتزامه الذي لا يعرف الكلل بنشر الإنجيل الجديد. كان ثمة طلب متواصل على تذكاراته، وقد جاء أحدها من مكان بعيد مثل «جمعية القديس تاماني St. Tammany في نيويورك» عام 1792. لقد أنشأ بالوي ما أمِل أنه سيكون «متحف حرية» دائم قرب البون نوف Pont Neuf .

سياسياً، في أية حال، كان يفقد قوته. وأسطورة الوحدة الوطنية المُدخرة في بدعة الباستيل كانت تُختبَر بقسوة عام 1792 حيث ساءت سمعة كثيرين من أبطال بالوي المحببين. فميرابو، الذي صُنع تمثاله النصفي من حجارة الباستيل وعُرض في جنازته في نيسان 1791، اكتشِف بعد سنة أنه متآمر ملكي؛ ولافايت، الذي قدّم له سيفاً مصنوعاً من أربعة مزالج من الباستيل، رحل فجأة إلى النمساويين في العام نفسه. والأسوأ من كل شيء، الملك، الذي زينت صوره كل صناديقه، ألقي القبض عليه يفر من البلد. وحتى تموز 1792، قبل شهر من سقوط الملكية النهائي، كان بالوي لا يزال يأمل بأن الملك سيظهر في مراسم أعدت لإطلاق المشروع الملكي لعمود في موقع الباستيل.

وفي كانون الأول عام 1793 ذهب ليرى صديقه القديم سيتزن كورتيس Citizen

Curtius، الذي كان منشغلاً بصنع رأس لخليلة لويس الخامس عشر السيدة دو باري Mme Du Barry ليشتمه الوطنيون الصالحون. عرف بالوي عبقرياً آخر عندما رأى أحدهم. أُعجب بالشبه، وأخبره كورتيس بنوع من لغة عمل أنه أجل، اعتقد أنها جيدة لاسيما وأنه قادر على الذهاب إلى مقبرة الجيرونديين Girondins ومعاينة الشيء الحقيقي الذي عانى منه حديثاً. وعلى الرغم من البرد، جلس في الحال لينجز بقدر ما استطاع الصورة الشمعية الأفضل لينقل تعبيرها عند إطلاق رصاصة الرحمة.

وجد بالوي نفسه بعد ثلاثة أسابيع في سجن لا فورس La Force، وعلى الرغم من ذلك يدعو نفسه ديوجين بالوي الجمهوري Republican Diogenes Palloy، الضحية كما أصر لمؤامرة جائرة وخائنة. في الثامن من شباط 1794، كتب الرجل الذي قاد فرنسا إلى الاعتقاد أنه مع هدم الباستيل لن تلطخ السجون وجه الحرية في فرنسا، مما دعاه سجنه، يؤكد براءته ووطنيته، ولا يزال يلبي الرغبات ويعطي تعليماته لإرسال نماذج الباستيل إلى المقاطعات «المتحررة» حديثاً. وقد أُطلِق سراحه في السابع عشر من آذار، ولكن مع أنه مد يده للمساعدة في احتفالات الجمهوريين، لاحظ برعب غير مكتوم في تموز مع أنني «حتى الآن لم أستخدم بقايا الباستيل، الموقع المقدس لبدايات الحرية، للأعياد المجازية... يريد المواطنون الآن أن يروا مشهداً من نوع آخر ووضعوا هناك 'نافذة صغيرة' للمقصلة».

VI ـ باريس، ملك الفرنسيين

لم يُكتَب في السجل اليومي للويس السادس عشر يوم 14 تموز عام 1789، إلا كلمة واحدة «Rien» (التي تعني لا شيء). ويجد المؤرخون بشكل ثابت ذلك أنه عَرَض هزلي لنأي الملك السيئ الطالع عن الواقع السياسي. لكنه لم يكن شيئاً من هذا القبيل على الإطلاق. فلم يكن سجله اليومي إلا مفكرة أقل من إحدى قوائمه التي تدوِّن عدد ما يقتله بقسوة في الصيد. ومنذ أن قوطعت تسليته المفضلة باستمرار قليلاً أو كثيراً، كان صعباً أن يكون ثمة كلام فصيح أكثر سلبية حول مأزقه من عبارة لا شيء «Rien».

ربما كان صحيحاً أنه كان مؤلف جزء كبير من محنته. كانت شعبيته الشخصية، لاسيما خارج باريس، لا تزال هائلة. وحتى بعد قسم قاعة التنس Tennis Court Oath كان لديه فرص كثيرة ليستغلها كما أراد ميرابو ونكر، وإنشاء ملكية دستورية حقيقية. وقد تبددت كل تلك الفرص. ولا يزال الأسوأ، أظهر لويس نفسه إما خاضعاً بضعف ـ كما في أعقاب

الجلسة الملكية séance royale ـ أو رجعياً على نحوٍ مراوغ، كما في البناء العسكري لإقالة نكر.

في عشية الرابع عشر، أبلغ صِهر لافايت ورفيقه الثوري المتحمس، الفيكونت دو نواييه Vicomte de Noailles، أحداث اليوم في باريس للجمعية الوطنية. وقررت الجمعية بدورها نقل هذه المعلومات إلى الملك الذي استبقها بالإعلان أنه كان قد قرر سحب الجنود من مركز باريس إلى سيفر Sèvres وسان ـ كلود Saint - Cloud. عبَّر عن حزن عدم تصديقه أنه يمكن للدم أن يراق نتيجة لأية أوامر أعطيت للجنود لكنه لم يعرض، كما أرادت الجمعية، إعادة نكر. ومؤخراً في تلك الليلة وصل اثنان من ناخبي باريس أكدا تقارير نواييه، لكن يبدو أن الخطورة الكاملة للوضع لم تكن واضحة للملك بعد.

ولاحقاً في تلك الليلة، عند الساعة الحادية عشرة، طلب الدوق دو لا روشفوكو ليانكور Duc de La Rochefoucauld Liancourt، واحد آخر من دائرة لافايت أيضاً، أن يقابل الملك في جناحه الخاص. والحكاية شهيرة، نسخة من قصة مواطن ـ نبيل يبلغ لويس، للمرة الأولى، عن سقوط الباستيل. فيرد الملك بالسؤال «هل هو تمرد؟» ويجيب ليانكورت، «لا، يا سيدي، إنها ثورة». بينما كان لويس قد عرف بالانتفاضة من نواييه والناخبين، يمكن تماماً أن هذا التغيير حدث ويُحتمَل أن يكون وصف ليانكورت النابض بالحياة لموت دو لاوناي ودو فليسيه هو الذي أقنع الملك أخيراً بفداحة الحدث المباشر. فقد انهارت قوته العسكرية في العاصمة ومعها أية محاولة ممكنة لاستعادة سلطته على الجمعية الوطنية بالقوة.

وتقرر في الجمعية صبيحة اليوم التالي، إرسال نائبين لرؤية الملك وطلب إقالة وزارة بريتول Breteuil. وفيما كانا على وشك المغادرة، قدم ميرابو واحدة أخرى من اعتراضاته الشهيرة التي وفقاً لها توازن التابعون الفاسدون للقوى الأجنبية ليدوسوا بأقدامهم الحقوق الوطنية لفرنسا المحررة:

> *أخبر الملك أن الجماعات الأجنبية التي تحيط بنا زارها الأمراء والأميرات والمفضلون من الجنسين الذين صنعوا كثيراً منها... لقد أُتخم هؤلاء التابعون الأجانب طوال الليل بالذهب وتنبأ الخمر في أغانيهم الفاحشة بعبودية فرنسا وهلاك الجمعية؛ أخبره أن... حاشيته رقصت على أنغام الموسيقى البربرية وأن مشهداً كهذا يبز مذبحة سان ـ بارثولومو Saint - Bartholomew . . .*

كان قد أنهى خطبته عندما أُعلن عن وصول لويس. ميرابو نفسه أكد مجدداً على

إسكات التصفيق التلقائي، ملحاً على استقبال أكثر بروداً، إلى أن تُعرَف نوايا الملك على الأقل. ونصح: «صمت الناس درس للملوك». لم يكن بحاجة لأن يزعج نفسه، لأن طريقة وصول الملك كانت مدهشة جداً، وعارية على نحوٍ مربك، إلى درجة أنها بلغت حد التنازل. جاء سيراً على الأقدام دون موكب أو حاشية، ولا حتى برفقة حارس يرتدي بنطلوناً ويضع شعراً مستعاراً. كان أخواه إلى جانبيه، بروفنس وأرتوا، مادياً وفكرياً إلى يساره ويمينه، على التوالي. أكد للجمعية انسحاب الجنود الباقين من ساحة مارس وأنكر بوضوح أية خطة ضد سلامة أعضاء الجمعية الوطنية.

مع أن الملك أحجم عن إعلان استدعاء نكر، كان التأكيد الرسمي على انتهاء التهديد العسكري كافياً لكسب موجة عظيمة من الهتاف داخل الجمعية. تدفق نحو الحشد المتجمع في الخارج وأنتج أيضاً برهاناً آخر من تلك البراهين، التي تعكس نصف نشوة ونصف تهديد، والتي استدعت حضور العائلة الملكية إلى شرفة القصر. وعند الساعة الثانية، غادر موكب ضخم من ثمانية وثمانين نائباً في أربعين عربة لينقل الأخبار الجيدة إلى باريس. كان لافايت على رأسه، كنائب لرئيس الجمعية. كان القسم الأخير من الرحلة، من ساحة لويس الخامس عشر إلى أوتيل دو يل، على الأقدام وتحول إلى نوع من مسيرة انتصار عبر المدينة. في المبنى حيث، بعد واحد وأربعين عاماً، سيظهر بطريقة مماثلة. خاطب لافايت الحشد الضخم، الذي كان مغطى بعقد أشرطة وطنية. وأعلن أن الملك قد خُدع، لكنه عاد الآن إلى نزوعه الكامل لفعل الخير. وفي رد تعهد الناخبون بالولاء. وفي ما يبدو أنه كان اقتراحاً مرتجلاً (قدمه بريسوت دي وورفيل صديق لافايت) وقبله الحشد، وافق لافايت على قيادة ميليشيا باريس الجديدة. وبالمثل أصبح بايلي عمدة المدينة. تبع ذلك شعيرة دينية Te Deum في كنيسة نوتردام حيث أقسم لافايت على أن يدافع عن الحرية بحياته.

لقد احتضر بلاط البوربونيين المهيب بسير الملك النادم إلى الجمعية. وفي صبيحة السادس عشر من تموز اجتمع المجلس الملكي للمرة الأخيرة بشكله التقليدي. كانت لديه أشياء خطيرة لمناقشتها. جعل مارشال دي بروغلي Maréchal de Broglie الأمر واضح تماماً، نظراً لتفكك الجيش، أية محاولة لهجوم مضاد على باريس خارج النقاش. ما الذي، إذاً، يمكن إنقاذه؟ أرادت الملكة وأرتوا أن ينتقل الملك إلى عاصمة إقليمية، الأقرب إلى حدود بروسية أو نمساوية والأفضل ميتز Metz، على سبيل المثال، وهناك يحشد القوات الملكية. فحذر دي بروغلي واقعياً الملك أنه مع سلسلة القيادة التي تتفكك بسرعة بالغة قد لا يستطيع ضمان سلامة الملك في أية رحلة طويلة.

ولم يبقَ ثمة شيء إلا الاستسلام، بقدر ما يستطيع أن يفعل ذلك بطريقة لائقة.

كان إذلال الملكية لا يُحتمَل لأخ الملك الأصغر ومجموعته. وفي تلك الليلة نفسها، 16 تموز، غادر أرتوا، مع الأمراء كونتي Conti وكوندي Condé وأصدقائه من آل بولنياك Polignacs والأب فرموند Abbé Vermond، المستشار الشخصي للملكة منذ أن كانت أميرة في فيينا جميعاً فرساي إلى الحدود. وقد أثبتت الهجرة كل ما قالته الكراسات الثورية عن البلاط: أنه مجموعة أجنبية تقيم على نفقة الأمة. وستضيف الآن إلى ذلك العار سمعة أنها عميلة جيوش أجنبية تعتمد عليها لإعادة تأكيد سلطتها في فرنسا. في الحقيقة، لم يخفِ أرتوا سر الواقع أنه توقع نوعاً ما من تحالف بين الأفواج الفرنسية الموالية والقوى غير المحددة حتى الآن (لكن في الأرجح نمساوية) لهزم الثورة. لم يتوقع، في أية حال، أن يستغرق الإخضاع خمس عشرة سنة أخرى.

وفي اليوم التالي، السابع عشر، انطلق لويس السادس عشر في طريقه إلى كانوسا Canossa. كان لا روشفوكو ليانكور La Rochefoucauld - Liancourt قد استحثه على أن يبدي نواياه الشخصية الطيبة بالظهور في باريس، لكن ذلك لم يحدث إلا بعد أن تحقق المجلس بشكل مرّ مما حدث في السادس عشر فقبل ما لا يمكن تجنبه. وفي أية حال، فُرِضت عليه مسألة الحكومة. فلاقى إعلان استدعاء نِكر وإقالة وزارة بريتول ارتياحاً عاماً وسبق للجنود أن بدأوا بجمع أشيائهم في ساحة مارس والانسحاب إلى سيو، حيث فرَّ خمسة وسبعون آخرون في الحال.

لن تكون المرة الأخيرة، التي جنَّد فيها لويس مكانته في عجز سيئ طالع خذله في لحظات توكيده الذاتي المتقطعة. دون إظهار أية إشارات رعب، اتخذ إجراء لتستمر الحكومة الملكية إذا لم يعد. فعقد عزمه وعهده وفوَّض بروفنس، الذي قرر وحده بين الأمراء الملكيين البقاء في فرنسا، بالسلطة بوصفه جنرال ثانٍ في المملكة. صلى الملك في الكنيسة الملكية مع عائلته ثم انطلق مرتدياً معطف فراك صباحي بسيط، دون أي من تابعي صاحب جلالته. وكانت عربته مع أنها تجرها ثمانية أحصنة سوداء، غير مزخرفة أيضاً. قبل أن تجري مفرزة صغيرة من حراسه الشخصيين، الذين زيد عددهم بحامية كبيرة من ميليشيا فرساي في هندام مرتجل ربطت أشرطة قبعاتها بصعوبة. كان وراءهم مائة نائب من الجمعية الوطنية وحاشية كبيرة، منتشرة دون نظام من فرساي، تغني وتهتف «يعيش الملك Vive le roi» و«تعيش الأمة Vive la nation» وتلوح بالرماح والأسلحة النارية ومناجل التشذيب.

كان الطقس، كما وصفه المعاصرون دائماً كأنه عامل ثوري، شريكاً للغم الملكي. فكأن الشمس التي أشرقت متألقة على موكب إلى باريس أعلنت كسوف وهم ملك الشمس. شيَّد الملك لويس الرابع عشر فرساي ملاذاً من قيود العاصمة، المكان الذي استطاع فيه أن يطلق العنان لإرادته الأبولونية في الحجر والماء والشعائر والأيقونات. وفي عام 1775، عند تتويجه في ريمز Reims، كان يُعتقد أن لويس السادس عشر سيبدأ عصراً جديداً من التنوير الشمسي. لكنه بدلاً من ذلك أسقط الشمس على الأرض.

أي نوع من الملوك افترض هو أن يكون الآن؟ حيثما ذهب كان الجواب نفسه: ليس لويس الرابع عشر بل هنري الرابع. عقيدة البوربوني الأول، الذي أنهى حروب الدين واغتاله كاثوليكي متعصب، بلغت الآن معدلات تتنامى بسرعة. افترض أن يضم في شخصه كل أشكال النزعة الخيرية والإنسانية والحكمة؛ كان النموذج الأصلي للمواطن - الملك الذي لا يزال شعب فرنسا بأكثريته الساحقة يأمل أن يراه يتجسد ثانية في لويس. وفوق كل شيء آخر، وُصِف هنري، في الأشعار والأغاني الشعبية، أنه الملك ـ الأب المثالي، الذي لن يؤذي شعب فرنسا إلا إذا استطاع هو نفسه قتل أطفاله. وقد تمَّ التعبير عن ذلك المفهوم نفسه في تصميم فخم لنصب تذكاري جديد لهنري الرابع أُعِد بشكل صريح لربط الشهيد الوطني بتجسده الجديد، لويس. مبنى دائري بقبة كان يجب أن يحاط بصفين من الأعمدة. في وسطها تمثال للملك الصريع «في وضعية أب صالح وسط أطفاله... يرتدي زياً بسيطاً أحبه». على القاعدة سيكون الإهداء «إلى هنري السادس من الإنسانية جمعاء»، وكان يجب في يوم احتفالي عظيم أن يضع لويس تاجاً على رأسه ويقول الكلمات (كما لو أنه يعلم نفسه) «Voilà le modèle des Souverains» (هنا النموذج للملوك).

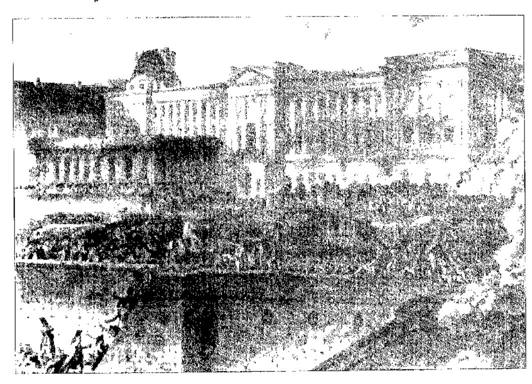
لم تكن مفاجأة، عندئذٍ، أن الترحيب بـ لويس السادس عشر في ميناء تشايلوت، لمَّح بيلي إلى هذا باستمرار مذكياً السلف ولاسيما لدخوله إلى باريس عام 1604. مقدماً للملك مفاتيح المدينة ـ عادة ارتبطت بدخول المنتصرين ـ وقد حسَّن عمدة المدينة المشهد الأصلي أيضاً. فقال «هذه هي المفاتيح نفسها، التي قُدِّمت لـ هنري الرابع؛ الذي فاز بإعجاب شعبه؛ والآن شعبه يفوز بإعجاب مليكه». ربما لم يُعجَب لويس بعكس الصيغة.

ثم تلت تعديلات جدية أخرى على مداخل النصر الملكية. ملوك الفالوا Valios Kings في النهضة الفرنسية ـ فرانسوا الأول، هنري الثاني وشارل التاسع ـ كان يحييهم كبار القوم بإعلان هويته بوصفه الهرقل الغالي، سيد (وأحياناً حتى إمبراطور كما في طريقة

شارلمان) فرنسا وألمانيا. بدلاً من ذلك وجه لافايت التحية لـ لويس السادس عشر بلباس مدني، مرتديا واضعاً الأشرطة الزرقاء والحمراء المميزة للمدينة (و، بشكل منذر بالسوء، ألوان بيت أورليانز)، وأخذ عبر الشوارع التي اصطف على جانبيها الحراس المواطنين المسلحين إلى ساحة لويس الخامس عشر. وانضمت نساء السوق إلى مؤخرة الموكب، وقد ارتدين الزي الأبيض الذي يحتفظن به للمناسبات الرسمية، وتزيّن بأوشحة حمراء وزرقاء وحملن الورود. وفي أوتيل دو يل، فوق مدخل على شكل قوس من السيوف المسلولة شُكّل من أجله ـ كما لو أنه ولاء وتحدٍّ في الوقت نفسه ـ استطاع الملك أن يقرأ التصميم الرسمي لهويته الجديدة:

لويس السادس عشر، أبو الفرنسيين، وملك شعب حر

وإذ أذعن لويس لهذا الاختراع الجديد لموقع الملك، قبل بعدئذ عقدة الأشرطة التي قدمها بيلي له على درجات أوتيل دو يل وعلقها على قبعته بينما أطلق البوق والمدفع طلقات الابتهاج المرافقة. بعد كلام موجز وغير مسموع داخل القاعة الكبيرة Grande Salle، حيث حاول الملك التعبير عن رضاه بتعيينات لافايت وبايلي ـ شرعية أخرى



الصورة 114، للرسام، جي. بي. هول *J. - P. Houel*،
منظر اللوفر لحظة وصول الملك إلى باريس، في 17 تموز عام 1789

للأفعال التي لم تكن له سيطرة عليها ـ أظهر نفسه مجدداً على الشرفة مرتدياً عقدة الأشرطة.

وعند العاشرة من تلك الليلة، وصل لويس إلى فرساي، منهكاً ومضطرباً، مع أنه أكثر راحة لأن اليوم انتهى دون إراقة دماء. حيّا زوجته التي شعرت بالراحة كثيراً وأطفاله بحنان. بدت سلامتهم الجسدية هي اهتمامه الأكبر على نحو متزايد. فقد أصبح لويس السادس عشر، أخيراً، مجرد أب عائلة آخر مع بلاطه الملغى عملياً ومراسمه الملكية الرسمية المنتزعة منه. وقد وافق من أجل حمايتهم أن يغدو«والد فرنسا الصالح» bon père de la France أيضاً. سيزعم المثاليون في ملكية ثورية أن اللقب الثاني ما هو إلا امتداد للقب الأول. فيما استطاع المتشائمون (الأقلية عام 1789) أن يروا العائلة تتنازع مقدماً. ولم يكن واضحاً، لاسيما لـلويس السادس عشر، إذا ما وقع نزاع مثل هذا، لأي من العائلتين سيكرس بقية حياته.

CHAPTER TEN

BASTILLE

ii TWO KINDS OF PALACE (THE PROBLEMS OF ORDER IN PARIS)

For the history of the Palais - Royal, see Isherwood, Farce and Fantasy (chapter 8); also W. Chabrol, Histoire et Description du Palais - Royal a du Théâtre Français (Paris 1883).

Jacques Godechot's The Taking of the Bastille (trans. Jean Stewart, London 1970) is a superb narrative account of that event with a number of contemporary eyewitness accounts appended. On the military security of the capital. two works are essential: Samuel F Scott, The Response of the Royal Army to the French Revolution: The Role and Development of the tine Army(Oxford 1978, especially 46 - 70); and the definitive monograph by Jean Chagniot, Paris et L'Année au XVIIIe Siécle (Paris 1985), which, among other things, completely revises many of the conventional clichés about the gardes françaises. On other problems of order, see Alan Williams, The Police of Paris 1718 - 1789 (Baton Rouge, La., and London 1979). For the revolutionary crowd, see George Rude, The Crowd in the French Revolution 1789 1794 (Oxford 1959); see also the very interesting work by R. B. Rose, The Making of the Sans - culottes: Democratic Ideas and Institutions in Paris 1789 - 92 (Manchester 1983). Sec also Jeffrey Kaplow, The Names of Kings: The Parisian Laboring Poor in the Eighteenth Century (New York.1972, especially chapter 7). The best work on the social anatomy of the most revolutionary Faubourg is Raymonde Morinier, Le Faubourg Saint - Antoine 1989 - 1815 (Paris 1981), which is also important for understanding the Réveillon riots.

ii SPECTACLES: THE BATTLE FOR PARIS

For Curtius, see Mayeur de Saint - Paul, Le Dàoeuvrt ou L'Ecpion du Boulevard du Temple (London 1781); also Tableau du Nouveau Palais - Royal (1788). On Desmoulins, see R. Farge, "Camille Desmoulins au Jardin du Palais - Royal.", in Annales Révolutionnaires (1914, 446 - 74).

iii BURIED ALIVE? MYTHS AND REALITIES IN THE RASTILLE

I have taken my accounts of the histories of Linguet and Latude from the texts of their memoirs, reprinted by J. - F Barrière, Mémoires de Linguet et de Latude (Paris 1886); Latude's memoirs were originally published as Le Despotisme Dévôilé ou Mémoires de Henri Masers de Latude. Though historians have been understandably

skeptical of F Funck - Brentano's excessively optimistic claims about conditions in the Eastille, the meticulous research of Moniquc Cottret, La Bastille à Prendre (Paris 1986). confirms the view that the prison was rapidly becoming redundant under Louis XVI, and that conditions for most of the inmates were a great deal better than at other places of incarceration. Cottret also has an important discussion of the various elements of Bastille mythology. See also H. - J. Lüsebrink, "La Bastille dans l'Imaginaire Social de la France â la Fin du XVIIIe Siècle (1774 - 1799)", in Revue d'Histoire Moderne et Contemporaine (1983). On the importance of Linguet's Mémoires, see Levy, Ideas and Career.

For the events of the fourteenth I have largely followed Godechot, The Taking of the Bastille; see also Jean Dussaulx, De L'Insurrection Parisienne et de La Prise de la Bastille (Paris 1790).

vi THE AFTERLIFE OF THE BASTILLE:

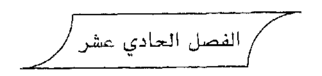
PATRIOTE PALLOY AND THE NEW GOSPEL

For Palloy, see H. Lemoine, Le Démolisseur de La Bastille (Paris 1929); V. Fournel, Le Patriote Palloy et L'Exploitation de La Bastille (Paris 1892); and Romi, Le Livre de Raison du Patriote Palloy (Paris 1956), which is a fascinating and underused document.

Popular songs celebrating the fall of the Bastille are collected and analyzed in Cornwell P. Rogers' immensely valuable The Spirit of Revolution in 1789 (Princeton 1949).

القسم الثالث

خيارات



المعقول واللامعقول

من تموز/ يوليو إلى تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1789

I ـ أشباح

تموز ـ آب

ذهبت السيدة دي لاتور دو بان Mme de la Tour du Pin إلى منتجع المياه المعدنية فورج لِزيو Forges - les Eaux في النورماندي للمعالجة في الماء في تموز عام 1789. فعندما كانت في التاسعة عشر من عمرها وجدت أن مخاض ولادة طفلها الثاني كان مؤلماً وقد ألح طبيب العائلة على المعالجة والراحة. تتحدر هنرييتا لوسي الذكية وذات الطبيعة الطيبة من عشيرة كاثوليكية أنجلو إيرلندية من آل ديلون Dillons، هاجرت إلى فرنسا إثر طرد الملك جيمس الثاني عام 1688. وفي الوقت الذي ولدت فيه عام 1770، كان آل ديلون قد أصبحوا راسخي الجذور في شريحة النبلاء العسكرية بأفواجهم الخاصة وصلاتهم بالعائلات الأكثر غنى وتطوراً في البلد. وقد قرأت وهي طفلة في عصر التنوير، مثل كل جيلها، ريتشاردسن وروسو وحتى ديفو من حزب الأحرار. وقدَّم لها خال جدها أسقف ناربون، الذي اكتشف ذكاءها، معلم العلوم تشابتال (الذي أصبح لاحقاً وزير الداخلية في عهد نابليون). وقد غدت قادرة على معاينة مناجم الفحم الحجري والكبريت التابعة لعائلة ديلون في سيفيني بصفتها ذات معرفة وخبرة في الكيمياء والفيزياء والجيولوجيا وعلم المعادن.

وقد استقبلتها الملكة في البلاط، وأُطلِقت أيضاً إلى المجتمع الراقي من النبلاء

الأحرار في باريس، حيث كان لالي تولندال ابن خال بعيد، الأخوان دي لامِث المهتمان بالسياسة قريبين من خلال زواجها بـ دي لا تور دو بان. وخلال أيام الفرح الأخيرة في النظام القديم، الذي كما كتبت، «ضحكنا فيها وشربنا بطريقتنا إلى أن بلغ الوضع حدّ الكارثة»، ظلت لوسي واعية بحذر.

لقد أحاطت الثورة في صيف عام 1789 بعائلتها. حيث قيل إن حماها، الشخصية البارزة، هو وزير نِكر للحربية (وقد عيِّن لاحقاً في هذا المنصب). وكان زوجها يقيم في حامية عسكرية على بعد أربعين ميلاً في فالنسين Valenciennes، لكنه، قلقاً عليها أكثر فأكثر، غادر فوجه (بشكل متأخر عن وقت الإجازة الآمنة) لينضم إليها في النورماندي. وإذ التم الشمل، أمضت العائلة عطلتها الأخيرة الهادئة والسعيدة من النوع الذي يستذكره بحدة الناجون من الثورات.

وفي صباح يوم 28 تموز، عندما كانت على وشك الذهاب إلى ركوبها الصباحي المعتاد سمعت جلبة كبيرة في الشارع أسفل شقتها. كانت ثمة حشود من القرويين تنشج وتلوي أيديها المتشابكة توجعاً، تنتحب وتتضرع إلى الله «أن يبيدهم». وكان في وسطهم رجل يرتدي «معطفاً أخضر ممزقاً قذراً»، يمتطي فرساً رمادية اللون، كان لا يزال فمها يزبد وكشحاها ينزفان من شدة الركوب. قال لجمهوره المروَّع، سيكونون هنا في غضون ثلاث ساعات. إنهم في غيلفونتان Gaillefontaine (على بعد خمسة أميال) ينهبون كل شيء ويشعلون النار في مخازن الحبوب». وإذ نقل هذه الرسالة المفيدة، انطلق مبتعداً لينشر الخبز الجيد في نوفشاتل Neufchatel.

عنت «هم» في هذه الحال القوات النمساوية التي قيل إنها غزت فرنسا من هولندا. ولكن في أسابيع الذعر الذي ضرب البلاد بعد سقوط الباستيل. قد تعني «هم» بسهولة البحارة البريطانيين الذين قيل إنهم نزلوا في برست وسان مالو Saint - Malo، أو الفوج السويدي بقيادة الكونت دي أرتوا في الحدود الشمالية الشرقية، أو الثلاثين ألف جندي إسباني الذين يعدون للاستيلاء على بوردو. والأكثر شيوعاً قيل إن «هم» يجب أن تكون «حشود قطاع الطرق» الذين يتجمعون في جيوش يدفع لها أرتوا والأمراء أو النبلاء عموماً لتنزل عقوبة انتقام دموية بالطبقة الثالثة بسبب تهورها. وكان هذا خاصة احتمالاً رهيباً ما دام قطاع الطرق يستمتعون، كما كان مفترضاً، بالأعمال الوحشية مثل الاغتصاب وتقطيع الأوصال وحرق المحاصيل ومخازن الحبوب والأكواخ.

ونظراً لأن زوجها راح إلى المنتجع، بقيت لوسي وحيدة تحاول أن تهدئ هذه

الأرواح الشريرة المثيرة للقلق الشديد. لم يكن ثمة حرب، طمأنت القرويين. فزوجها الذي كان موقعه على الحدود الهولندية النمساوية مباشرة، سيكون بالتأكيد قد علم ما إذا كانت هناك قوات تتحرك. غير أن فورج Forges كانت وسط منطقة صارت شديدة الاضطراب بسبب أعمال الشغب على الطعام المستمرة في روين، التي تقع على مسافة 25 ميلاً إلى الشمال الغربي، والتعليمات قد أعطيت في ليل Lille أن تقرع أجراس الكنائس عند أقل إشارة خطر. وقد وجدت لوسي عندما ذهبت إلى الكنيسة أن راعي الأبرشية كان على وشك أن يشد الحبل وإذ قدّرت أنه إذا ما قُرِعَت أجراس الكنيسة فلن تكون ثمة إمكانية لرد الذعر فأمسكت القس بياقة ردائه الكنسي وحاولت أن تعترض عليه وتمنعه من إطلاق جرس الإنذار. لا بد أن مياه فورج قد أعادت قواها، لا يزالان يتصارعان حول حبل الجرس عندما وصل زوجها. ومعاً، وعد الزوجان أن يذهبا إلى غيلفونتان حيث كان يفترض أن النمساويين يعسكرون، ثم يعودان لتحرير القرية من مخاوفها.

لم تكن إثارة اليوم قد تلاشت بعد. ففي غيلفونتان واجههم الفلاحون ببنادق صدئة يطالبون بمعرفة ما إذا كان الجنود ليسوا في فورج. بدا تجمع المحليين قد اقتنع بالنفي المهدئ إلى أن اعتبر أحدهم وهو ينظر بإمعان إلى لوسي أنها الملكة. وللحظة كانت في خطر، ثم يطلق صانع مفاتيح ضحكة، ويُصِرّ على أن الملكة الحقيقية بعمر السيدة دو لا تور دو بان وحجمها مرتين. وإذ نجت، عاد الزوج والزوجة إلى فورج، حيث افترضت القرية كلها أن النمساويين أخذوهما أسيرين، ولن يُسمَع عنهما أي شيء أبداً.

كانت مشاهد مثل هذه تتكرر في كل أرجاء شرقي فرنسا من هينوت Hainout وبيكاردي في الشمال إلى برغندي وفرنش كومِث عبر شامباني Champagne والألزاس. ممر غربي لما سماه المعاصرون (الخوف) الذي وسم منطقة بواتو ووصل إلى الريف حول فرساي. حتى في الأزمنة القديمة، لم تكن قوة من أربعة آلاف شرطي كافية للتعامل مع هستريا جماعية على هذه الدرجة. ولكن الآن وقد انهارت سلطة الحكومة المركزية، فإن تأثير ذعر كهذا لا بد أن يمزق فرنسا إلى أجزاء من ميلشيات الحماية الذاتية والكومونات البلدية ذات الحكم الذاتي، المجندة كلها لمراقبة الأفق وملاقاة جيوش قطاع الطرق أو الاسبانيين أو النمساويين.

وكان الذعر يستمر أحياناً لمدة ساعات. ولكن في المزارع الصغيرة في فو Vaux، قرب كريل Creil وماري فيكتوار مونيه Marie - Victoire Monnet، اختبأت الكبرى في

أسرة من 15 طفلاً في مكان تخزين التبن مع ثلاث من أخواتها. وقد زودتهن أمهن برغيف خبز وربع قالب من الجبن الأبيض، كافية لمقاومة الحصار عدة أيام توقعتها القرية. وكان قد قيل إن قطاع الطرق ذبحوا الرجال في البلدة المجاورة. وبعد الجلوس لثلاث ساعات في مخزن الحبوب الحار والمغبر واستهلاك الخبز والجبن، انقلب رعب البنات إلى سأم والسأم إلى خيبة. فنزلت ماري تتبعها أخواتها بشكل انفعالي ودون إشارة لأذى مؤكد عادت إلى المنزل، حيث وجدت البنات أمهن وبقية الأطفال محتارين بالمثل من عدم ظهور العنصر الجنائي المروع.

وكانت النتائج في أمكنة أخرى أكثر خطورة. ففي المدن الكبرى مثل ليون وديجون (كلتاهما قريبتان من الحدود)، حرس آلاف من الرجال المتطوعين في ميلشيات الجسور والبوابات لأسابيع في النهاية بتوقع أنه إذا خفضوا الحراسة فلا بد أن يأتي قطاع الطرق. وفي الوقت نفسه، طبعاً، حاولوا أن يعالجوا الهجمات العنيفة على مخازن الحبوب ومتاجر الخبازين ومنازل الموظفين في الإدارة الملكية داخل حدود المدينة. كانت تلك الحالة الأولى لتنادر الوطن في خطر Patrie en danger: الطوارئ الوطنية التي ستوّلد سلطة لأنظمة أكثر عقاباً بطريقة ثورية.

إن الاستيلاء على مخازن الأسلحة والذخائر المحلية وإنشاء ميلشيا تنفيذية مسؤولة عن ارتجال لجان ثورية، جعل الأجيال الأخيرة من المؤرخين ذوي الميول الملكية إلى افتراض أن الذعر ذاته كان مؤامرة، صممه متآمرون مثل دوق أورليان لقلب فرنسا إلى ما يشبه معسكر مسلح يتعذر إصلاحه واسترداد السلطة التقليدية. وفي الوقت نفسه، وُصِم البلاط، وبتوسع كل طبقة النبلاء، بأنها معسكر عدو: غرباء لا يمتلكون وخزة ضمير إزاء تخطيط مذبحة للرجال والنساء الفرنسيين من أجل استعادة امتيازاتهم التي فقدوها بكل ما للكلمة من معنى.

في الحقيقة، صحيح أن حالة البارانويا (بمعنى جنون الاضطهاد وجنون الارتياب) التي كانت الميزة الأكثر وضوحاً في السياسة الثورية لم تكن من نتاج الرعب عام 1789، لكن كان واضحاً بالمثل أن نظريات المؤامرة المنظمة بشكل متعمد هي نفسها تخيلية. فالخوف الشديد، كما بيّن مؤرخه جورج لففر Georges Lefebvre، يحمل كل مؤشرات الذعر العفوي.

لقد حدث ذلك في ما مضى. ففي عام 1703، عندما ظهر أن جيوش لويس الرابع عشر تخسر حرباً في مقاومة غزو فرنسا وعندما حلت المجاعة في أجزاء واسعة من البلد،

انتشر اعتقاد أن الملك وليم الثالث قد أمر النهابين البروتستانت أن يأخذوا ثأراً غير مقيد. ولم يكن لنشر أخبار أن الملك وليم ميت منذ أكثر من سنة موضوعياً أي تأثير على حالة الهستريا. وفي عام 1789، انتشر الذعر بالطريقة نفسها، بواسطة راكب يظهر فجأة على حصان رُكِبَ بوحشية، يعلن بقناعة راسخة أن الذبح دون تمييز يحدث في القرية المجاورة. ومثل هؤلاء الناس كانوا يُصدَّقون لأنهم كانوا من النماذج التي يفترض أن يكون لديها مدخل خاص إلى مثل هذه المعلومات: مديرو فنادق، سعاة بريد، جنود. وإذا كانوا رجالاً ذوي سمعة جيدة كانت كلمتهم يمكن الاعتماد عليها. ففي روشِشورت Rochechauart قرب ليموج، في 29 تموز، على سبيل المثال، جاء السيد لِنغو دي بروييرِ Sieur Longeau de Bruyeres راكباً على حصان يجري بسرعة إلى البلدة وهو يصيح على ظهر حصانه أنه رأى بأم عينيه مذبحة للعجز والنساء والأطفال الصغار. «شيء رهيب، مخيف، النار والدم في كل مكان... أنقذوا أنفسكم ...**وداعاً**، **وداعاً** ربما للمرة الأخيرة..».

وما رآه فعلاً لن نعرفه أبداً، على الرغم من إشارته إلى «البيوت المحترقة» يمكن أن تشير إلى إحدى الحرائق الكثيرة للوائح المزارع والسندات الإقطاعية التي أشعلت فيها النار في ذلك الصيف. لكنها أقل من أن تستطيع إطلاق سلسلة رد فعل في جو أواخر تموز السريع الاستجابة. وكما لاحظ لفيفر، في وقت كان فيه الجوع في الأرياف للأخبار من باريس يُزوَّد بشكل غير دقيق وعلى نحو غير متوقع بعربات البريد كانت مصداقية الذين «يعينون أنفسهم» من الحاشية و«شهود العيان» عالية على نحو متباين. وعلاوة على ذلك، أكدت البيانات الرسمية أن هناك في الواقع «عصابات قطاع طرق» يدفع لها البريطانيون، كانت ميالة إلى تخريب النظام الجديد بأعمال عشوائية مخالفة للقانون.

وهكذا، قرب أنغوليم Angoulême، قيل إن عاصفة غبار أنذرت بوصول عصابات قطاع الطرق. وفي سان أومِه Saint Omer في الشمال وبيوكاييه Beaucaire في الجنوب، كان الذعر قد بدأ عندما شوهد غروب الشمس منعكساً في نوافذ القصر المحلي فأقنع الناس أن عصابات النهب قد أشعلت النار في الممتلكات وفي شامباني الجنوبية Champagne، في الرابع والعشرين، عُبِئَ ما لا يقل عن ثلاثة آلاف رجل لإحباط ما جاء في التقارير أنه عصابة من قطاع الطرق ولكن ما ثبت بعد التدقيق عن كثب أنه قطيع كبير من الأبقار.

وكان الرد على نحو ملحوظ عاماً. فكما اكتشفت السيدة دي لا تور دو بان، لا ينتظر أحد لمزيد من التأكيد. كان جرس الإنذار يُقرَع، ويرسل أي شخص في الحقول

ركضاً إلى ساحة القرية. وهناك تجمتع ميلشيا القرية مسلحة بالمناجل والمذاري إذا لم يوجد شيء آخر أكثر إلحاحاً. وكان يتم إجلاء النساء والأطفال أو يخبأون، وترسل مجموعة لتحذير المزرعة المجاورة وتساعدها في الدفاع، وإذا ما ظهرت على الطريق مجموعة مهما كان مظهرها متعدد الألوان وغير متجانس وإذا كانت مسلحة مصادفة فسيذهب تقرير بالتأكيد يؤكد قرب وصول «عصابات النهب» التي جُنِّدوا ضدها.

لم يُستحضَر شبح قطاع الطرق حديثاً عام 1789. فالخوف الكبير كان مجرد شكل مركز إلى الحد الأقصى للمخاوف العامة من المتجولين والمتشردين ـ رجال دون مكان إقامة لا يعترفون بقانون ـ الذي شارك فيه القرويون وسكان المدن وموظفو الحكومة على حد سواء في فرنسا القرن الثامن عشر. أعاد أولوِن هوفتن Olwen Hufton على نحو مثير للمشاعر موجات الهجرة الكبيرة التي أخذت عمال الريف الأكثر فقراً من أراضيهم غير الملائمة في الجبال ومناطق الغابات إلى السهول المأهولة الأكثر كثافة للعمل الموسمي وقت الحصاد. فقدت بعض الأقاليم ـ بينها أوفرن في الوسط وليموزين وبيرنييه في الغرب وفوجه Vosges وجورا Jura ومورفان Morvan وسافوي Savoy، كلها في الشرق ـ الجزء الأكبر من سكانها الذكور في هذه الموجة من الهجرة. كانت الطرق موسومة بعلامات جيدة وعلى طولها استجدى المهاجرون وغالباً سرقوا الفاكهة من البساتين والبيض من أقنان الدجاج غير الموصدة ليوفروا قوت يومهم المحفوف بالخطر. كانوا أحياناً يأتون بعائلة كاملة من اثنين، ما دام الأطفال يقومون بتأثير أفضل كشحاذين فعلاً.

لم يعد بعضهم أبداً، استقروا مع أبناء منطقتهم في أحياء المهاجرين في المدن الكبرى مثل مرسيليا وباريس. غير أن الكساد في أواخر الثمانينيات قلص على نحو متزامن الطلب على عمل الحصاد وأضعف إمكانيات العمل العرضي في صناعات البناء، وحتى في الأسواق. وفي الوقت نفسه، فإن التضخم الشديد في أسعار الطعام (لأن لا أحد من هؤلاء الناس كان يستطيع أن يطعم نفسه من أرضه) والمديونية حوّلت عدداً لا يحصى من الملاك الصغار إلى بروليتاريا ريفية. تعقب هوفتن Hufton طريق تدفق الفقراء ذي الاتجاهات في هذا «الاقتصاد القائم على العمل المؤقت أو البديل» : من المدن إلى الريف للبحث عن العمل المنكمش، ومن القرى إلى المدن من أجل الشيء نفسه.

وعندما تحولت الصعوبة إلى يأس، تجمع عدد من هؤلاء الذين أصبحوا معتادين على الاستجداء. وغدا الخط الفاصل بين الاستجداء والابتزاز غامضاً، في الأقل للسلطات التي حكمت بأن المتجولين يجب أن يصبحوا على التوالي شحاذين متجولين

وفي النهاية متشردين. ويبدو أن العصابات الإجرامية كانت في تزايد في ثمانينيات القرن الثامن عشر، وأعمالها المثيرة العرضية كانت تُنقَل على نطاق واسع وتنتشر شفوياً من شخص إلى آخر. ولكن كان ذلك تجريم الفقر في اللغة الرسمية الذي غزا مخاوف هؤلاء الذين هم فوق الفاقة بقليل في الهرم الاجتماعي. وما ميزهم من أعدائهم المتخيلين هو أنهم، كقرويين ظلوا يدافعون عن قطع أرضهم الصغيرة أو تراهم في الحصاد عام 1789 (أفضل كثيراً من موسم السنة السابقة). كانت الحروب المحلية في تموز وآب، عندئذٍ، قد قامت بين هؤلاء الذين كان لديهم شيئاً ما ليفقدوه وهؤلاء الذين تخيلوا أن ليس لديهم شيء ليفقدوه.

في الواقع لم تكن هذه هي الحال. فالعنف الذي أشعل الخوف الكبير لم يبدأ في كثير من الحالات بدون وجه وجماعات دون مكان إقامة، بل بين رجال مستقرين في البلد مثلهم. وكان استمرار أعمال العنف في الربيع، الذي وُجِّه ضد التجهيزات الإقطاعية، لوائح المزارع التي تسجل التزاماتهم عيناً وعملاً ورموزاً أخرى لمرؤوسيه مثل مروحة الطقس التي يملكها السيد وتزيين مقصورته في الكنيسة بشعارات النبالة. كانت الهجمات في بعض المناطق المعرَّفة بوضوح في فرنسا - نورمان بوكاج Norman Bocage، بيكاردي، برغندي، فرنتش كومت، الألزاس - على القصور في كل مكان. وفي بعض الحالات، كما على القصر الكبير في سينوزان Senozan قرب ماكون Macon الذي يعود لشقيق تاليران دُمِّر القصر بالمعنى الحرفي للكلمة. ولكن كان هناك عدد من النكبات الجديرة بالملاحظة، وقاد الفلاحين المهاجمين أناس من نوعهم بشكل مميز: بعضهم فلاحون موسرون، وفي مناسبات كثيرة موظف القرية المحلي، الموظف الحكومي. وفي معظم الحالات تقريباً، علاوة على ذلك، كانوا يزعمون أنهم يقومون بعمل الملك، كما افترضوا أنه لم يمنعهم وحسب بل شجعهم على التوقف عن دفع أية ضريبة إقطاعية. وفي فرنتش كومتِ، حيث كان النظام الإقطاعي قديم الزي على نحوٍ عادي، حاولت مجموعة مسلحة من الفلاحين في طريقها لحرق قصر أن تؤكد للبارون تريكورنو Tricornot أن «لدينا أوامر الملك، لقد طُبعت، لكن لا تقلق، فأنت لست على القائمة». وفي ماكونيز Mâconnais، قال راعي أبرشية بيرون Péronne إنه رأى شخصياً ورقة مكتوبة بخط اليد باسم الملك تجيز للفلاحين دخول القصور وطلب السندات في ما يتعلق بالضرائب الإقطاعية، وإذا لم تقدَّم مثل هذه الوثائق، فقد يتقدمون بعدئذٍ للحرق والنهب بحصانة من العقاب.

هذا التمييز بين العنف والإجراءات غير القانونية ـ أن مثل هذا العنف كان في الواقع أكثر قانونية من تلك التي قاومها هؤلاء ـ كان لها ما يقابلها في أعمال الشغب من أجل الطعام في المدن التي استمرت بالتفجر في كل أرجاء فرنسا خلال الصيف. فقد أعطيت الأوامر في شربورغ وستراسبورغ، في اليوم نفسه، 21 تموز، أن يباع الخبز بقرشين للرطل (بدلاً من معدل السوق الذي يقارب ضعف هذا السعر تقريباً)، وثانية على أرضية أن الملك أمر أن يموّن رعاياه المواطنون بطريقة ملائمة. وكان غضب العنف في المدينتين والبلد عندئذٍ موجهاً إلى هؤلاء الذي افترضوا أنهم يحبطون إرادته: موظفو البلدية الذين قيل إنهم يملكون مخازن حبوب ودقيق لرفع الأسعار وعصابات النهب والأرستقراطيون الذين حصدوا الحبوب ولما ينضج في الحقول ليُجوِّعوا الناس. وكانت النتيجة في الحالين إضرام النار. وفي المدن، لم تكن الأهداف البشرية نهب منازلهم وحسب (مع القبو الذي يلعب دائماً دوراً هاماً) بل أحياناً، كما في سانت دنيس، فقدوا أرواحهم أيضاً. وفي الريف، كانت الإصابات البشرية نادرة ولكن غالباً ما كان الخَزَنَة ووكلاء مزارع الإقطاعيين يُضرَبون بشدة قبل أن يُطرَدوا.

وكانت النتيجة انهيار عام في بنية السلطة المحلية، أعقب ذلك بسرعة تشكيل سلطات مسلحة جديدة، أعطيت سلطة احتواء الاضطرابات. ولكن كان أيضاً هذا التفشي الحقيقي للاضطراب الذي، كما جاء في التقارير ذات مرة، غذى توقع اندلاع أعمال قطع الطرق واللصوصية. قرأ سكان المدن تقارير عن نهب وإحراق في الريف كدليل على أن الرعب المروع الذي يهددهم من خلال المهاجرين والأرستقراطيين على الطبقة الثالثة يتحرك باتجاههم على نحو لا يرحم. وسمع سكان الأرياف روايات عن الشغب والتدمير في المدن وافترضوا أن جماعات (رجال دون طلب) ينتشرون من باريس والمدن الكبرى الأخرى باتجاه الحقول والأكواخ. وفي هذا العالم المجنون على نحو خطير عالم الإدراك المزيف المتبادل، يمكن للأفراد أن يظهروا في مظهر واحد في البلد وآخر في الريف.

وقد استخدم فريدريك ديتريتش Frédéric Dietrich، على سبيل المثال، وهو العالم الموهوب، وصاحب مصانع الحديد ورجل الأعمال، أعمال الشغب التدميرية الضخمة في الحادي والعشرين من تموز لطرد الموظفين الملكيين الكبار في ستراسبورغ وكلينكلِن Klinglin من السلطة. وقد غدا ديتريتش في مكانه رئيس بلدية المدينة الأول، تدعمه ميلشيا مسلحة من المواطنين. وفي الريف، في كل حال، كان بطل الطبقة الثالثة أيضاً معروفاً بأنه البارون دي ديتريتش، سيد روثو Rothau الذي كان قصره مهدداً لو لم يلغي كل حقوقه

الإقطاعية. وكان الأكثر عرضة للخطر ورش الحديد ومناشر الخشب التي كانت تزودهم بالوقود. كانت هذه أهداف رئيسة لحقد الفلاحين الملتهب، الذين رأوا حقوقهم الاعتيادية بالخشب المصادر.

تكمن أهمية الخوف الكبير الحقيقية في فزع السلطة التي كشفت عنه في قلب الحكومة الفرنسية، على الرغم من أنها خلقت ـ من خلال الإهمال ـ فرنسا العشرة آلاف كومونة، لم تكن اللامركزية المسلحة ما أراده معظم الناس على الإطلاق. بالعكس، كما أظهرت العرائض مراراً وتكراراً، كان المطلوب هو المزيد من رجال الشرطة. واستغاثات الشعب المتكررة باسم الملك المهيب والمحسن لممارسة العنف أو التهديد به تشير إلى حجم هاجسهم العميق بالشر جراء الفراغ الذي أحدثه انهيار السلطة الملكية. وتاق الناس أنفسهم الذين رجموا عربات الحكام الراحلين بالحجارة وهم مرحون أيضاً لاستعادة بعض السلطة الأبوية الكبيرة التي تطعمهم وتحميهم من مساوئ المسؤولين. وفي هذا المعنى، لم يقصد العنف الشعبي عام 1789 ـ على الأقل خارج باريس ـ أن يكون في خدمة التجديد، بل الحماية.

وإذا لم يكن غرض أعمال الشغب والتسليح الشامل ثورياً، فقد كانت نتائجه ثورية بالتأكيد، إذ كان الفلاحون وسكان المدن على السواء واعين تماماً أن نوعاً من الحدود تم تجاوزه عندما حرقوا سندات ملكية البيوت والأراضي الإقطاعية أو استخدموا سكاكينهم في أبراج الحمام. لقد طمأنوا أنفسهم أنهم ينفذون ضرباً من قانون أخلاق بدائي مفوضين من الجمعية الوطنية والملك والذي أبطل بشكل كامل المؤسسات التي كانوا أسرى لها. لكن لم يكن تنفس الصعداء بعيداً من خوف مرتقب بعقاب. ماذا لو كانوا مضلَّلين؟ أو ماذا لو ساد الوزراء الذين فصلوا الملك عن شعبه المحب لزمن طويل ثانية؟ في تلك الحال قد يحل بهم مصير رهيب.

وأحد الردود على هذا النوع من خوف الموت المتخيل بيانياً، كما رأى رينيه جيرارد René Girard في حالة العصور القديمة، هو تجسيد الرعب وتسليطه على طرف ثالث ما الذي قد يتركز عليه الخوف من الموت بطريقة تقديم الأضحية. ضع طريقة أخرى، يتحمل الأفراد أو المجموعات مسؤولية الخطر الذي وجدت الجماعات نفسها فيه منفصلة عن الجمهرة التي قيل إنها ترعرعت فيها قوية ثم دمرت في أعمال هي على نحو متزامن تحدٍّ واستعطاف. قدمت فرنسا في عام 1789 كل أنواع أكباش الفداء في هذه الطريقة ـ بعضها تخيلي وبعضها حقيقي. ففيما يتعلق بالقرويين في الجماعات المستقرة في

منطقة ماكونيز Maconnais الذين أخذوا المشاعل إلى النظام الإقطاعي قد يكون خصم انتقامهم الرهيب قاطعوا الأخشاب والفحامين في غابات وجبال مورفان وجورا. وفي ما يتعلق بفلاحي الألزاس كان الغرباء الذين يجب أن يبادوا بالتأكيد هم اليهود، الذين تعرضت منازلهم للنهب والحرق والذين ألحقت الإصابات بأشخاصهم في ما يمكن أن يوصف أنه مذابح منظمة تماماً. والباعة المتجولون الذين عرفوا بأنهم متجولون غير مؤذين إلى هذا الحد أو ذاك يبيعون جلود المناجذ أو الأرانب أو العلاجات المزيفة أُخذوا الآن إلى الجانب الشرير في المسممين. وكان عبيد البواخر الشراعية مجموعة مفضلة أخرى في شيطنة الخوف، فقد أشيع أن الأرستقراطيين سيطلقون سراحهم قريباً تمهيداً لانتقام رهيب. وقد ادعى بعض الفلاحين أنه قابل عبيد بواخر أُطلِق سراجهم، يحددونهم بعلامة الوسم بحروف GAL على ظهورهم أو أكتافهم.

وكان الأكثر ترويعاً من أي شيء آخر هو الأفراد الذين أخذوا يرونهم الآن ليسوا فرنسيين بالمعنى الضيق للكلمة citoyens de la patrie، بل غرباء، غرباء حقيقيين. وقد أظهر أرتوا وكوندي بهجرتهم في 16 تموز أنهم يجب أن يكونوا قادة تلك الجمعية السرية من الغرباء، وقد أخذوا، كما قيل عموماً، ملايين الليفرات معهم من الذهب الفرنسي ليدفعوا للمرتزقة الأجانب الذين سيكونون أدوات انتقامهم. والأسوأ من كل ذلك، كما قالت أحاديث المقاهي، إن ماري أنطوانيت، هي الوحيدة التي بقيت خلفهم لتنظم تدمير الجمعية الوطنية في صميمها. فقد وجد آرثر يونغ في تجواله عبر برغندي وفرنتش كومت بطريقة أخرى أشخاصاً مثقفين ومتعلمين في ديجون وبيسانشون يصرون على أن الملكة تحضر لتقويض الجمعية الوطنية وتسميم الملك وتعيين أرتوا محله. وكان الأكثر انتشاراً هو قصة أنها كتبت لأخيها الإمبراطور في فيينا تطلب منه قوة غزو من خمسين ألف جندي.

وكان تأثير هذه الحال الطويلة من القلق هو خلق سياسة البارانويا ـ ذهان الشك وذهان العظمة وذهان الاضطهاد التي ستغمر الثورة بالكامل في النهاية. ومفهوم أن فرنسا نعمت، بين عام 1789 و1791، بنوع ما من جنة الفرح الليبرالي قبل نصب المقصلة هو وهم مطلق. فمنذ البداية عينها، خلق العنف الذي جعل الثورة ممكنة في المقام الأول الفروق الوحشية بين الوطنيين والأعداء، المواطنين والأرستقراطيين، داخل ما لا يمكن أن يوجد فيه ظلال الإنسان الرمادية.

وقد وجد آرثر يونغ نفسه في هذا الرعب والغضب الشديد أن عليه أن يتعامل مع الموظفين الصغار المسكونين بهاجس جواز السفر أبعد إعاقة وبلادة من أي شيء خبره في

ظل النظام القديم. وإذ تمت مضايقته مراراً وتكراراً، كتب بغضب يمكن فهم أسبابه أن «جوازات السفر هذه أشياء جديدة من رجال جدد في سلطة جديدة تظهر أنهم لا يحملون ألقاب الشرف بطريقة متواضعة». وكإنكليزي يسافر بلا هدف يمكن للسلطات المحلية أن تفهمه جيداً (ما دام البحث الزراعي والعلمي بدا سبباً طائشاً غير محتمل لركوب طرق الرون ووديان السون Saône)، فقد وقع في شك شديد. وقد أخذت ملاحظاته الشديدة الاهتياج المدونة على عجل دليلاً على أنه جاسوس للملكة أو أرتوا أو، في الفيفاري Vivarais، للكونت دانتريغ Comte d'Antraigues. وقد أوقِف خارج بيسانشون بسبب عدم حمله جوازاً ثم رفضوا أن يعطوه واحداً على أرضية أنه لا يستطيع أن يثبت أن لديه معارف يمكن الاعتماد عليهم في البلدة. وقد تبع صدام صاخب غدا فيه ذلك المزارع من منطقة سفولك Suffolk البريطانية أكثر غضباً عندئذٍ: «هذه هي المرة الأولى التي أتعامل فيها معكم أيها السادة من الطبقة الثالثة ولا شيء يعطيني فكرة رفيعة عنكم». وهز المسؤول كتفيه استهجاناً، وهو يرد: «يا سيد، أنا لا أبالي على الإطلاق» «Monsieur, Cela m'est fort égal» وإذ شعر بالسخط يغمره، زخرف الشاب في النهاية سلاح الكاتب الأخيرة الوعد أن يضمن كل المحادثة في كتابه التالي. غير أن هذا التهديد الخطير لم يبدُ أنه قلص تردد الموظف. «يا سيد أنا لا أكترث لذلك أبداً».

وقد صدم يونغ مراراً وتكراراً بالتباين بين خطابة النخبة الثورية الرفيعة، لاسيما في باريس، وعدم الثقة الفظة واللامبالاة السياسية والمعلومات المضللة أو العنف المشوش الذي خبره في الأقاليم. وعندما شاهد عصبة تهتف وهي تنهب أوتيل دي فيل في ستراسبورغ، وجد من الصعب أن يربط المشهد بالأقوال الحكيمة الفخمة التي كان يسمعها من كل الأطراف في حفلات المساء soirées في باريس وفرساي.

في الواقع، شعر بعض المريدين الأكثر تحمساً للتغيير بالاضطراب بسبب خروج الأمور من اليد، فعلى سبيل المثال، لالي تولندال قريب لوسي دي لا تور دو بان يمكن أن يكون قد أسرع بنمو نزعته المحافظة من خلال الأحداث في شاتو دي سولسي Château de Saulcy، الذي يملكه أصدقاؤه. وقد وصف فرار السيدة دي ليستني de Listenay من القصر المحترق مع بناتها، والفارس دامبلي D'Ambly سحل إلى مذبلة بشعره وانتزعت حواجبه، وأوقِف آخرون من أصحابه طويلاً في الوقت الذي اختلف فيه الحشد على ما يجب أن يُنزل بهم، وبالمثل ألقي القبض على أسرة ستانيسلاس كليرمونت تونير في الانتفاضة العنيفة في فوفيلييه Vauvilliers التي انتهت بمقتل أو إصابة عشرين

فلاحاً من قبل القوات النظامية، وأخرجت الدوقة من مخزن التبن حيث وجدت ملاذاً.

كان ذلك مزيجاً من الخوف والنزعة الوطنية التأكيدية هي التي جرفت مندوبي النبلاء ورجال الدين في الجمعية الوطنية ليلة الرابع من آب. كان النظام الإقطاعي يتآكل لزمن طويل في فرنسا خارج معاقل الإقطاعية مثل برغندي وبريتاني وفرنتش كومتي. ففي معظم البلد تحول الأمر الى شكل من ممارسة العمل التجاري، ولم يكن ثمة سبب يفسر لما يجب على العمل التجاري أن يتبع الجهاز الرسمي للسلطة الإقطاعية التي حظرته. نموذجياً، كان النبلاء المواطنون الذين نهضوا على أقدامهم في جلسة 4 آب ليقترحوا وعندئذٍ ليأمروا بإلغاء مجتمعهم العرفي المعتاد من الشريحة العليا: رجال مثل دوق دو شاتيليه Duc du Châtelet ودوق دايغويلون Duc d'Aiguillon، اللذين يمكن لثروتهما الضخمة بسهولة أن تقاوم قطع حقوقهم في الطحن وجباية الضريبة. ولكن لهؤلاء الأرستقراطيين أنفسهم أيضاً تاريخ ثابت بتسليف دعم جدي لقضية الحرية الوطنية التي ترجع إلى خدمتهم لأمريكا في سبعينيات القرن الثامن عشر. وهكذا يجب على المرء ألا يحكم على تدخلهم المشهور بوصفها مسألة موقف عقيم أو محاولة كلبية Cynical لإنقاذ شيء ما من الحطام.

لم يكن بالإمكان توقع الانفجار ما دامت الجمعية تناقش ظاهرياً الحاجة الملحة للحفاظ، بدلاً من تعليق، الضرائب الحالية حتى يكون بالإمكان تشريع ضرائب جديدة. عندئذٍ حوّل الفيكونت نواييه Vicomte de Noailles صهر لافاييت المناظرة المحدودة إلى فعل خطابي ثوري مخطط بدقة. وقال، «عامت المملكة بين خيارين تدمير كامل للمجتمع وحكومة ستثير الإعجاب في كل أرجاء أوروبا». ولإنجاز الخيار الثاني كان ضرورياً تهدئة الناس بطمأنتهم أن الجمعية مهتمة بشكل فاعل بسعادتهم. ومع أخذ ذلك بالحسبان اقترح الالتزام الرسمي بأن يدفع المواطنون جميعاً ضرائب تبعاً لمواردهم وإلغاء كل الضرائب الإقطاعية الخاضعة لفك رهنهم والإبطال الفوري لأية بقايا من العبودية الشخصية مثل الإعالة كل الحياة mainmorte والإعفاء من الخدمة العسكرية Corvée.

وتلقى نواييه التأييد من صديقه الدوق داغويلون، أحد أكبر ملاك الأراضي في فرنسا، الذي أشار بشكل محدد إلى «مشاهد الرعب» في فرنسا وعصيان مسلح قد يبرر بمصادر الغيظ التي يتحملها الناس. ولن يظهر شيء التزام الجمعية بالمساواة في الحقوق أفضل من إلغاء بقايا «البربرية الإقطاعية» التي يشكو منها الناس.

كانت لحظة اكتشاف الذات المرتجلة، مع أنها كانت معدَّة من خلال الثورة الثقافية

التي حدثت في قلوب النبلاء منذ سلام باريس. فقد أعلنت طليعة النبلاء الليبرالية منذ وقت طويل أنها تريد أن تغير مكانتها الاسمية بحمل الألقاب و«الخرافات» الإقطاعية في ما يتعلق بالمنزلة الأرستقراطية الجديدة «للمواطن». والآن كانت لديهم الفرصة لتقديم ذلك الزعم بنجاح. وفي ليلة الرابع من آب اغتنموا تلك الفرصة. فبعد نوايبه وداغويلون، تعاقب أصحاب ألقاب الدوق والمركيز والفيكونت والأسقف والمطران فنزعوا عن أنفسهم الألقاب إلى العري السعيد في «المواطنة» مثل مساعدي كاهن خائفين أضحكتهم إثارة الاستهلال.

فتحدث السيد البريتوني لوغوين دي كرغال le Guen de Kergall عن الألقاب المخزية التي «تتطلب من الرجل أن يظل مربوطاً إلى المحراث مثل حيوان جرّ» وذلك «يجعل الرجال يقضون الليالي بطولها يخوضون في المستنقعات لمنع الضفادع من إزعاج نوم السادة الشهوانيين». واقترح دوق دو شاتِليه Duc du Châtelet (ربما لرعب رعاة أبرشيات كثر في الجمعية) إلغاء ضريبة العشر للكنيسة. واقترح أسقف تشارتر المركيز دو سانت فارجو de Saint - Fargeau إلغاء كل الحقوق الحصرية بالصيد وتفويض الفلاحين بقتل أي حيوان يتعارض مع محاصيلهم أو لمجرد طعامهم الخاص. وتحدث الفيكونت بوهارنيه Beauharnais عن الحاجة إلى المساواة المطلقة في إصدار الأحكام الجنائية وقبول المواطنين المتساوي جميعاً في كل من المناصب المدنية والعسكرية، لكن ليجد نفسه مفضلاً لدى المركيز دي بلاكون De Blacon، الذي تباهى أن مجلس طبقات دوفين، تلك الهيئة الطليعية الشهيرة قد دشنت نظاماً كهذا. أما الماركيز دي سانت فارغو، والماركيز هيرولت دي سيشيل Hérault de Séchelles الزميلان في محكمة باريس، فلم يقترحا إلغاء كل استثناءات النبلاء من الضرائب وحسب بل أن يكون المرسوم ذا مفعول رجعي إلى بداية عام 1789.

ثم تبع ذلك مَشْغَلَة الالتزامات الجماعية. فالامتيازات الإقليمية نفسها والدساتير الخاصة التي كانت تدافع بعناد ضد الإصلاحات في النظام القديم كمكونات يتعذر اختزالها في «الدستور الفرنسي» رميت الآن بلا اكتراث إلى كومة المفارقات التاريخية الملغاة وتقدم ممثلو البلاد القديمة ـ برغندي، أرتوا، لانغويدك، دوفين، الألزاس، فرنتش كومتي، نورماندي، ليموزين ـ ليضحوا بامتيازاتهم، ولحق بهم مندوبو المدن صاحبة الامتيازات مثل ليون وبوردو ومرسيليا وليست الأخيرة باريس. وبالمثل غدا فساد المناصب وتوارثها ـ «حريات» أخرى عوقب مابيو وبراين لتهديدها ـ منبوذاً، كما كان أي

نوع من التعدد في الرتب الكنسية ذات الدخل لرجال الدين. وما ذهب هي مجموعة تاليران من رئاسات الأديرة المولدة للدخل، وما ذهب كانت أفواج لافايت الخاصة. وكما قال فريبه، كان هو نفسه من ضاع في «لحظة النشوة الوطنية».

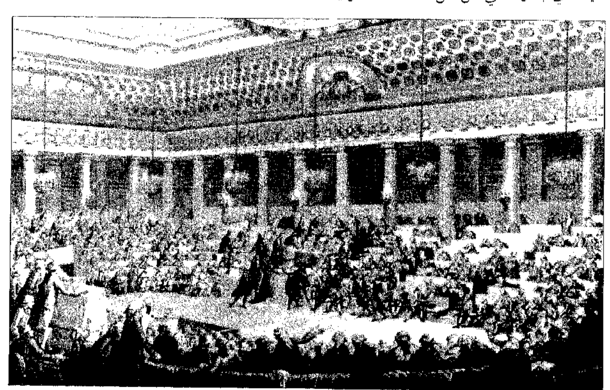
بعد هذه الموجة المدية من الغيرية الثورية، لم يكن مفاجئاً أن يقترح مطران باريس يوماً Te Deum للاحتفال بالحدث. وأراد آخرون احتفالاً وطنياً يقام في الرابع من آب كل عام وميدالية خاصة تُسَكّ إحياء للذكرى، وقد جلس خلال كل ذلك لالي تولندال أحد أقدم أنصار قضية الحرية بإحساس متراكم من القلق. كان قد أصبح مثقفاً بنوعية النشوة الرومانسية الغرة ومرَّر ملاحظة عاجلة إلى صديقه الدوق دي ليانكور Duc de Liacourt الذي كان يترأس الجلسة. كتب فيها: «ليسوا في حال عقلية سليمة، أجِّل الجلسة». غير أن ليانكورت لم يكن شجاعاً ولا متهوراً كفاية ليحاول فعل ذلك. وبدلاً من ذلك، أشرقت الشمس من خلال نوافذ قاعة الأفراح الصغيرة فيما بكى المندوبون وتعانقوا وغنوا وسلموا أنفسهم للنشوة الوطنية. ظن لالي تولندال أن الملكية يجب أن تكسب بعض الثقة على الأقل من تفريغ كل هذا الحب الأخوي.

وهكذا، بعد الجميع، نهض وببعض الجهد اعترف لنفسه، أيضاً، أن يغدو ثملاً بالبهجة». وإذ وسع الحقيقة إلى حدٍّ ما، طلب من المندوبين أن يتذكروا الملك الذي بدعوته عقدوا اجتماعهم، والذي استدعاهم إلى إعادة توحيد العقول والقلوب المبهج. كان ذلك، بعد كل شيء، وسط أمته أن الملك لويس الثاني عشر الصالح أعلن «أبو شعبه» ويجب الآن وسط الجمعية الوطنية أن يُعلَن لويس السادس عشر» معيد الحرية الفرنسية».

خلقت ليلة الرابع من آب عبادة حرمان الذات. غدا إعطاء شيء ما ملك المرء الخاص للأمة مظهراً من الاستقامة الوطنية. وهؤلاء الذين لا يملكون ألقاباً إقطاعية أو رئاسات أديرة يتخلون عنها أمكنهم أن يساهموا بخزائن الحكومة ذات الموارد غير الكافية من خلال أنواع أخرى من العطاء. وفي 7 أيلول، على سبيل المثال، ظهر وفد من زوجات الرسامين، بقيادة السيدة موات Moitte ويضم السيدات ديفيد، فِستييه، فين، فيرنة، بيرون فراغانار، أمام الجمعية ليقدم لها جواهرهن مساهمة وطنية. ويبدو على الأرجح أنهن (مثل الرسامين أنفسهم) بدأن يعشن في مملكة فضائل الكلاسيكية الجديدة، لأن التخلي عن الجواهر كان يذكر إلى حدٍّ كبير بقصة كورنيليا، والدة غراتشي، التي، عندما سألها وطني زائر عن جواهرها، قدمت أطفالها بكبرياء، وهي موضوع رسوم كثيرة.

فقد ارتدت السيدة موات والأخريات ثياباً بيضاء وسرحن شعورهن ببساطة كما لو أنهن خرجن مباشرة من لوحة تاريخية رومانية، ووصفن الجواهر بأنها أشياء تافهة. «سيشعرن بالخجل إذ يرتدينها عندما تطلب الوطنية التضحية لها». وبعد أن سمعن الاعتراف الرسمي وصوت الامتنان، مُنِحت النساء موكباً بالمشاعل إلى اللوفر مع حرس شرف من طلاب أكاديمية الرسم، فيما عزفت فرقة النشيد المعتاد الذائع الصيت: «هل ثمة مكان للمرء يكون فيه أفضل من حجر عائلته؟».

قادت النساء عندئذٍ الحملة من أجل المساهمات الوطنية. أرسلت راهبات برايوري أف بل شاس Priory of Belle - Chasse في فرساي، والمركيزة ماسول Massolles أقراطها، والسيدة بيج Pages ثلاثة آلاف ليفر من عملها الصناعي. وأرسلت الفتاة لوسيل إرثر البالغة من العمر تسع سنوات سلسلة ذهبية، مدخراتها من ليرتين فرنسيتين ذهبيتين ورسالة تتوسل إلى الجمعية أن تتقبلها، لأن امتناعها سيسبب لها «حزناً وألماً شديداً». حتى المحظيات أسهمن بشيء من قلوب ذهبهن قرأ رايوت سانت إيتيان في 22 أيلول رسالة من إحدى «المجدليات» تعلن للجمعية: «أيها السادة، لدي قلب مصنوع للحب وقد جمعت بعض الأشياء بواسطة الحب، والآن أضع في أيديكم بيعتي للوطن. عسى مثالي يحتذي به زملائي من كل المقامات الرفيعة».



الصورة 115، لرسام مجهول، ليلة 4 آب عام 1789

بينما وضعت النساء بلا شك اللحن، بدأ الرجال أيضاً يأتون ويظهرون تفانيهم للصالح العام. صنفت جريدة كميل دزمولين، ثورات فرنسا وبرابان Brabant، بدقة المساهمات كطريقة للتعبير عن تضامن الأقاليم مع القضية الوطنية. قدمت مجموعة من الشباب في ليون جواهر وقصيدة مكرسة «لآباء الوطن، الشيوخ الأجلاء»، وأرسل أحد عشر خادماً عند أحد الأرستقراطيين البريطانيين 120 ليفر، وملأ زبائن مقهى بروكوب Procope (حيث يشرب دزمولين نفسه مع دانتون وصاحب المطبعة مومورو Momoro) حوضاً بالأبازيم الفضية من أحذيتهم وصنعوا سلسلة من أربعين زوجاً حملت بعدئذٍ إلى الجمعية. وعلى نحو متوقع انتشر وباء نزع الأبازيم الفضية في باريس وكل المدن الرئيسة في الأقاليم. فأن تمسك بأي حذاء عليه إبزيم فضي كان يعادل اتهام المرء لذاته في جريمة.

بدأت الثورة الفرنسية عندئذٍ بفصول العطاء بالإضافة إلى فصول الأخذ. غير أن المستقبل القريب يعتمد على ما يستطيع مواطنها الأول، لويس السادس عشر، أن يجلب هو نفسه ليضحي في سبيل الوطن. في مرحلة معينة عندما كانت حاجات الخزينة ضاغطة بشدة، وعندما كانت الضريبة لا تزال بحاجة إلى جباية من رعاياه، ضحى بالكثير من فضة الطاولة الملكية لسك العملة. فلويس الرابع عشر، بعد كل شيء، صهر فضة الأثاث في قاعة المرايا عندما استدعى ذلك صندوق الحرب، ولكن كان المطلوب من هذا الملك أكثر من ذلك. والتضحية التي كان مدعواً لتقديمها هي امتيازاته أكثر من قوالب صبه، وقد بدا كل ذلك تجريداً من ملكية أكثر إيلاماً.

II ـ قوى الإقناع

تموز/ يوليو- أيلول/ سبتمبر

كانت مراسيم آب التجربة الجدية الأولى لمصداقية لويس السادس عشر ملكاً وطنياً. وكالعادة كان بعقلين. في رسالة إلى مطران أرلِه Arles عبّر عن رضاه عن النبلاء والمسعى السمح للطبقة الأولى والثانية في الدولة. لقد قدمتا تضحيات كبيرة للمصالحة العامة، لوطنهما وملكهما». ومن جهة أخرى، كما جعل الأمر أكثر وضوحاً، حتى لو كانت» التضحية جميلة (Beau)، لا يمكنني أن أعجَب بها؛ لن أوافق أبداً على نهب رجال ديني ونبلائي... ولن أقدم تصديقي أبداً للمراسيم التي تنهبهم، لأن الشعب الفرنسي قد يتهمني يوماً بالظلم أو الضعف».

تمّ تأويل الرسالة حديثاً على نحو متلطف بأنها تشير إلى أن إرادة لويس أن يذهب مع الكثير من عمل الإلغاء في الرابع من آب. وكما قيل، كان همه الرئيسي بالتعويض المناسب مقابل خسارة المناصب المتوارثة والضرائب الإقطاعية التي يمكن أن تترجم إلى أنها نشأت مع حقوق الملكية أكثر منها إخضاع شخصي، قد يكون الكثير من ذلك صحيحاً، غير أن استخدام الملك، مهما كان غير مقصود، لمصطلحات مثل «الطبقتين الأوليين» والضمير الشخصي الملكي يشير إلى الصعوبة الحقيقية التي لديه في التكيّف مع العالم السياسي الذي دشنه إعلان حقوق الإنسان.

ومع ذلك كان ثمة فروق كثيرة من التأكيد في المسودات المختلفة التي جاءت قبل الجمعية الوطنية، وافقت جميعاً على بديهيات أساسية محددة التي كان الدستور الجديد يجب أن يبنى حولها. كانت الأولى أن السيادة تكمن في الأمة، وبالتالي، في الحقيقة، الأمة هي التي عرَّفت ملكها وليس بالطريقة الأخرى، وكانت الثانية، «كل الناس ولدوا أحراراً ومتساوين». دُوِّنت بشكل محدد كمسألة قانون طبيعي غير قابل للنقاش، ويحول هذا المبدأ دون أي نوع من التمييز المؤسساتي من النوع المفترض مقدماً في مجتمع طبقات بشكل واضح. وكانت الثانية هي أن غرض الحكومة يكمن حصراً في تعزيز سعادة المحكومين. وكان واجبها الأساسي في هذا المنحى هو أن تصون الحريات التي هي خاصة المواطنة غير القابلة للتحويل.

وفي ما وراء هذه المبادئ العامة جداً، في كل حال، كان ثمة توافق قليل على نحو ملحوظ حتى بين الجماعات الصغيرة نسبياً من السياسيين التي هيمنت على اللجان الدستورية في تموز. ولم تكن الانقسامات في الرأي أكثر حدة منها على دور الملك في فرنسا الجديدة.

جاء التخاصم على المبادئ الأولى كخيبة أمل حادة لـِ لافايت، الذين كان أول من قدَّم مسودة اقتراح إعلان حقوق إلى الجمعية في 11 تموز. وقد ذهبت المسودة دون قول إن لديه شيئاً ما يشبه النموذج الأمريكي في الذهن، وقد افترض أن بياناً مثل هذا قد يكون عالمياً كفاية ليخفف الوهج، بدلاً من أن يؤكد الفروق ويعطي الرجال والنساء الفرنسيين إحساساً صريحاً بالجماعة التي ينتمون إليها الآن. وواشنطن أبوه الناضج، بوصفه رئيساً جديداً، بدا أنه غير متوفر للتعليق التفصيلي، إما بسبب ضغط العمل أو بسبب الحذر السياسي. لكن أياً من هذه الشكوك لم تزعج السفير، فتوماس جفرسون، الذي قرأ مسودات لافايت جميعاً خلال الصيف وأضاف بعض الاعتبارات من تجربته الأمريكية

المباشرة، لاسيما فقرة امتلاك عرف تعديل دستوري في فترات فاصلة دورية.

ربما لم يكن ثمة توقيت أولي للافايت أكثر شؤماً، ما دام اقتراحه قد وضع أمام الجمعية قبل يوم من انتشار خبر إقالة نِكر. وفي الوقت الذي عادت فيه الجمعية إلى هذه القضية، كان واضحاً أن التناغم القصير الأجل الذي ساد في أعقاب إعادة توحيد الطبقات غدا شيئاً من الماضي. كان الانقسام واضحاً تماماً. وقفت مجموعة أكثر براغماتية من جهة، بقيادة مونييه وتضم لالي تولندال، كليرمونت تونير، مطران بوردو شامبيون دي سيسه Champion de Cicé والحاكم السابق للأسطول مالويه Malouet. وقد خافوا من أن أي إعلان للحقوق سيقود إلى توقعات أبعد من تلك العملية التي سيقدمها الدستور الذي يجري العمل فيه. وكما عقب الكونت دي لابلاش، لا شيء أكثر خطورة من أن تعطي الناس أفكاراً غير محددة عن الحرية فيما تدع لطرف واحد بياناً بالالتزامات والواجبات». وقد قدروا، كما لم يفعل لافايت، أن الأمر مع مسألة الملكية خارج الموضوع كان أكثر سهولة للأمريكيين مما سيكون لفرنسا لتنتقل من مبادئ عامة إلى مؤسسات عاملة. قال لابلاش في 9 تموز دون لياقة إلى حد ما، «ينبغي ألا ننسى أن الفرنسيين ليسوا أناساً خرجوا لتوهم من أعماق الغابات ليشكلوا اتحاداً أصيلاً». وسيكون أفضل خلق دستور ودولة ومادة في متناول اليد ليست كلها بالية تماماً بدلاً من السعي إلى مبادئ «طبيعية». وقد عنى ذلك أن الملكية ستبقى سلطة تنفيذية لا غنى عنها، حرة في أن تعين الوزراء وتراقب السياسة الخارجية وإذا كان ضرورياً حل السلطة التشريعية. ولتكون الملكية دائماً سلطة مستقلة حقاً في الحكومة الدستورية كان ضرورياً أيضاً إعطاء الملك سلطة الاعتراض على التشريع متى رأى ذلك مناسباً.

وأصر مونييه، الذي طوّر أفكاره على نحو أكثر كمالاً من بقية مجموعته، أيضاً على مجلسين تشريعيين. في البداية ناقش أن المجلس الأعلى يجب أن يعينه الملك مدى الحياة، ولكن ليضمن بعض القبول من حيث المبدأ، كان مستعداً لدراسة بديل لافايت الأمريكي المتمثل بمجلس الشيوخ الذي ينتخب لست سنوات. وإلى هذه الغاية اهتم جيداً بتكييف عرض المساواة الطبيعية في إعلان حقوق الإنسان بالسماح لفروق لاحقة شريطة أن تكون قائمة على المنفعة حصراً.

كان الإلهام البريطاني للكثير من التفكير الدستوري في الملكية مسلماً به حالاً. فقبل عدة سنوات وحسب، كان يمكن أن يكون ذلك توصية، ولكن في المناخ الوطني الحار لعام 1789، كان الأكثر ترجيحاً سحب تلك القضية أكثر من تقديمها، حتى عندما زعم

مونييه سيكون دستوراً بريطانياً مع معالجة نواقصه.

واصطف ضد هذه المجموعة الأكثر محافظة فريق أوسع وأكثر تنوعاً ضم سييه، تاليران، الأخوان لاميث، بارناف، أدريان دوبورت، لا شابّلييه البريتوني. في البداية تم تنظيم النادي البريتوني في فرساي لينسق العمل قبل الجلسات الرسمية لمجلس الطبقات. ولم تضم المتحدثين الأكثر تقدماً فحسب، بل تلك التي لدى مونييه أيضاً، ولكن بحلول أواخر تموز غدت الفروق واضحة جداً للنادي ليحافظ على وحدته وغدا المركز الرئيسي للمعارضة المنظمة للملكيين. سييه، خاصة، قلب اهتمام مونييه بدولة قابلة للحياة رأساً على عقب. فحيث كان الملكيون مهتمين باستقرار الدستور بالفصل على نحو واضح بين فروعه الثلاثة، أكد سييه على الوحدة. وحيث كان مونييه يرى الخطر في تشريع دكتاتوري وحكومة ضعيفة، وضع سييه الأشياء بطريقة أخرى.

ولم يكن في الرهان مجرد القضايا التافهة في التفاصيل المؤسساتية بل صدعاً امتد عميقاً في ثقافة أواخر القرن الثامن عشر. كان مونييه والفريق «الإنكليزي» هم ورثة مونتسكيو، ووراء ذلك، مفهوم أرسطي تقليدي يرى في التنوع والانقسامات والموازين توازناً مرضياً. وكان معارضوهم، سواء جادلوا من منطلقات معايير كلاسيكية جديدة متصلبة أو منطلقات الاستقامة الشبيهة بأطروحة جان جاك روسو، من أنصار النظريات الكلية. في منظورهم، الوطن مفهوم غير قابل للتقسيم، وقد ردوا على اتهامات أنهم يخلقون حكم استبدادي جديداً للكثرة برد حاد أن السيادة الجديدة والوحيدة هي شيء ولد من جديد أخلاقياً لا يمكن أن يجمعه جامع مع مفاسد القديم. ولِـ سييه، الذي كان دينه لعقد روسو الاجتماعي واضحاً، فيما كانت الإرادة العامة أكثر من مجموع الإرادات التي تكونها، كانت بالتعريف، غير قادرة على إلحاق الأذى بالحريات التي كانت سيادة لها. والمواطنون غير قادرين، في هذا المعنى، على إيذاء أنفسهم.

ولِـ مونييه، كان مثل هذا التأكيد إما ساذجاً أو مخادعاً. والحماية الأكيدة الوحيدة ضد طغيان الكثرة، والطريق الوحيد لإعادة بناء سلطة تنفيذية قادرة على حكم فرنسا، هي أن تعطي الملك حق الاعتراض «المطلق». تجاهل الحاجة إلى موافقة الملك على الإصلاحات، كان، في هذا الرأي، إما إعلان جمهورية في كل شيء إلا الاسم أو شيء آخر هو الدعوة إلى حرب أهلية. ولكن أن تعطي الملك سلطة إعاقة غير محددة، كما أشار عدد كبير من المندوبين، يعني تعريض الدستور نفسه للخطر. ولإقناع سييه بالتخلي عن معارضته لأي اعتراض على الإطلاق، دعموا تسوية يِكر في حق الاعتراض «المعطل

مؤقتاً». سيمتلك ذلك سلطة تأخير التشريع من خلال تصويتين كاملين لكن يمكن أن يُلغى في تصويت ثالث.

لم يحدث السجال بين الملكيين وخصومهم في عزلة حذرة في فرساي. فقد كانت الصحافة السياسية المعادية على نحو غامر لموقف مونييه متلهفة إلى نشرها. حيث وصفت، لاسيما جريدة كميل ديمولان **ثورة فرنسا وبرابانت**، مؤيدي الفيتو بشكل مبسط أنهم «الأرستقراطيون» الذين انخرطوا في عمل حماية المؤخرة للاحتفاظ بالامتيازات والملكية المتعجرفة. والحقيقة، طبعاً كان هناك كثيرون من المواطنين النبلاء بين مجموعة سييه مثل مجموعة مونييه، فالأخوان لاميث ليسو أقل أرستقراطية من كلير مونت ـ تونير أو لالي تولندال. لكن افتقار الملكيين إلى رأي عام ينطق باسمهم في باريس جعلهم يُرسَمون بطريقة ما معادين للوطن وشبه إنكليزيين: رجال فقدوا الثقة بالشعب والذين كانوا سريعين في شجب فعل الشعب العرضي في المعاقبة أكثر من الأطراف المذنبة التي وقع عليها ذلك الفعل.

وقد تركزت كل هذه المسائل في سؤال كبير واحد هو، ما هي العلاقة بين العنف والشرعية؟ كانت تلك العلاقة التي ستتعقب الثورة الفرنسية عبر تاريخها كله فيما سقطت أنظمة متعاقبة أمام إرادة خصومها في دعم العنف العقابي لصالح المسوغات الوطنية الأخلاقية. ولم يذهب السؤال بعيداً إلا عندما استعادت الدولة حصرية القوة عام 1794. وفي هذا المعنى، في الأقل، سيكون روبسبيير المعادي الناجح الأول للثورة. ومونييه الذي كان الأكثر قلقاً من خطر التهديد الجسدي بالعنف لاستقلال السلطة التشريعية، نسي بشكل مناسب أن تحديه في للسلطة المعترف بها قانونياً في غرينوبل قبل سنتين لم يكن ممكناً إلا بواسطة يوم القرميد.

وفي أوج صيف عام 1789 أثار الفعل المهرجاني في عنف الحشود بطريقة إجرامية القلق في «المعتدلين» مثل مونييه ـ إشباع واضح أخذه الحشد من قتل الأشرار المحددين بشكل تعسفي شنقاً على مصابيح الشارع واستعراض الرؤوس على الرماح. كان كليرمونت تونير منفعلاً كفاية ليردد اقتراحاً الذي، عندما نسب إلى الملك، أثار الشكوك بانقلاب ملكي: نقل الجمعية الوطنية من المنطقة المجاورة لباريس. لم تكن الطبيعة العفوية للعقوبة الشعبية وحدها هي التي أثارت قلقهم، بل العنف الشفوي والصحفي الذي بدا أنه يحث على قيام هذه المظاهرات. ولا شك بأن بعضاً من الصحف الكثيرة الأشد حدة التي تقرأ على نطاق واسع والتي بدأت النشر في هذا الوقت اكتشفت فتنة الصدمة بالإساءة

الجسدية. فعلى سبيل المثال، اتهمت جريدة صديق الشعب L'Ami du Peuple، السياسيين الذين لم توافقهم الرأي ليس بالخطأ وحسب، بل بامتصاص الدم بوحشية وكان «مص الدم» مصطلحاً مفضلاً ـ ويتطلب أن يُستأصَل سريعاً من الجسم السياسي.

وربما كانت اللهجة الأكثر مكراً هي التي تبنتها الجريدة الجديدة الأكثر نجاحاً، **ثورات باريس** لصاحبها إليزيه لستالو Loustalot، الذي لم يعش إلا لعام 1790، وكان محامياً شاباً في السابعة والعشرين من عمره، والذي أظهر عبقرية طبيعية في الصحافة المبتكرة. كان قادراً على أن يقدم ضروب التسلية لمجموعة جديدة كلية من القراء بمزيج رائع من تقارير شهود العيان، وحماسة التحرير، والأكثر أهمية من كل شيء، لأول مرة، الطبعات التي تقدم الأحداث الراهنة وكان ذلك جزءاً حقيقياً من جريدته. وقد كتب في جريدته في مطلع آب «الدعوة الجديرة بالاحترام للكتابة عن الثورات في العاصمة، ليست أن نقدم بياناً جافاً عن بعض الوقائع... إنها أكثر كثيراً واجبناً أن نذهب إلى مصدر الوقائع ونكشف أسباب التغييرات وندرك الفروق الدقيقة المختلفة التي تمسك بالمزاج العام كل يوم تبعاً للمسائل التي تثير الاهتمام العام». يمكن لهذا أن يكون مانيفستو (بيان) الصحافة الشعبية المعاصرة.

لقد أدرك لستالت ماذا يريد قراؤه: عرضاً أقل وحشة للسجالات المؤسساتية وتقارير أكثر تصويراً للأحداث التي تعطي القراء في باريس ولاسيما في الأقاليم إحساساً بالمشاهدة المباشرة. وهكذا بينما تظاهر بأنه مصدوم بكثرة العنف الذي وصفه، ذخر به نثره. رأس فولون، وقد حشي فمه بالتبن، بقي مغروزاً على رمح، لقد سحل جذعه على الحصى حتى تمزق، «معلنة للطغاة الثأر الرهيب لشعب غاضب بحق». لم يكن فولون مجرد مثير للشفقة، الذي أغلب الظن أنه اختير عفوياً ضحية للتضحية، بل شريراً رهيباً، طبيعته شريرة وهكذا توازن موته: «رجل عنيف وطموح وُجِد ليستحق كراهية الناس ويجعل السيئ الحظ يعاني».

نشر لستالت، طبعاً، نصاً وصورة، اللحظة في 22 تموز، التي اعتقل فيها الحشد صهر فولون، برتييه دي سوفيني، حيث وُوجِه برأس حميه قبل أن يُشنَق ويُمثَّل به. كتب لستالت، اقتيد إلى قاعة المجلس البلدي في موكب برفقة النايات والطبول التي أعلنت «بهجة الشعب القاسية». وعندما غُرِز الرأس المتدلي في وجهه، ارتعش برتييه ولأول مرة، ربما شعرت روحه بوخزات الندم. واستولى عليه الخوف والرعب».

وتلا ذلك كتابة حسية أكثر إثارة عندما يتحول لستالت الى صيغة الحاضر من أجل

التأثير الأكثر قرباً، فيصف مشهداً داخل قاعة المجلس البلدي، حيث لم يستطع الناخبون منع الحشد من الإمساك بسجينهم:

والآن، لم يعد برتييه موجوداً، ورأسه ليس شيئاً أكثر من جدعة مشوهة مفصولة عن جسده. رجل، يا إلهي، رجل، برابرة انتزعوا قلبه (برتييه) من أحشائه النابضة. كيف يمكنني أن أقول هذا؟ إنه ينتقم لنفسه من وحش رهيب، الوحش الذي قتل أباه تقطر يداه دماً، يذهب ليعرض القلب، الذي لا يزال ينبض، تحت أعين رجال السلام الذين اجتمعوا في هذه المحكمة المهيبة للإنسانية. يا له من مشهد فظيع! أيها الطغاة، القوا نظرة على هذا المشهد الفظيع والمثير للاشمئزاز. ارتعدوا وشاهدوا كيف ستعاملون أنتم وأتباعكم. هذا الجسد، الناعم والمحسَّن، الذي استحم بالعطور، يُسحَل بشكل رهيب في الوحل وعلى الحصى. أيها الطغاة والوزراء، يا لها من دروس مريعة! هل كنتم تعتقدون أن الفرنسيين يمكنهم أن يمتلكوا مثل هذه الطاقة! لا، لا، عهدكم انتهى. ارتجفوا، يا وزراء المستقبل، إذا كنتم جائرون...

ويا أيها الفرنسيون أنتم تستأصلون الطغاة! حقدكم يثير الاشمئزاز، فظيع... لكنكم، في النهاية، ستكونون أحراراً. أعرف، يا أعزائي، يا مواطني، كيف أن هذه المشاهد المثيرة للقرف توجع أرواحكم... ولكن فكروا كم هو شائن أن تعيشوا كالعبيد. فكروا بالعقوبات التي يجب أن تخصص للجرائم ضد الإنسانية Lése - humanité. وفكروا، في النهاية، أي خير وأي رضا وأية سعادة تنتظركم أنتم وأطفالكم... عندما سيبني معبد الحرية المقدس والجليل هيكله لكم.

إن افتراض أن ثمة علاقة مباشرة بين الدم والحرية ـ في الحقيقة (كما يُضمِّن لستالت في أمكنة أخرى) بين الدم والخبز ـ يُفكَّر بها عادة أنها لغة العقابية، في الإرهاب. لكنها كانت اختراع عام 1789، لا 1793. كان الإرهاب موضوعياً عام 1789 بعدد أجساد أعلى. من السنة الأولى كان واضحاً أن العنف لم يكن مجرد عارض جانبي مشؤوم يستطيع الوطنيون المتنورون أن يشيحوا أنظارهم عنه بطريقة انتقائية، بل كان مصدر الطاقة الجماعية للثورة. لقد كان ما جعل الثورة ثورية.

لم يدرك أحد هذا الواقع المثير للكآبة على نحو أكثر سرعة من لافايت. بما أنه الأثير لدى الحشد، فقد كان الشخص الذي ستقدم له الهدية المنذورة لأوصال برتييه المهشمة. لم يبالِ بها وأشاح عنها بملاحظة موجزة أنه ورئيس البلدية منشغلان جداً

لمقابلة أية «وفود» أخرى. ولكن واقع أن قائد الحرس الوطني كان أضعف من أن يمنع إعدام برتيبه السريع كان بحد ذاته دليلاً محذراً أن شيئاً ما أكثر من إعلان نبيل لحقوق الإنسان (الذي كان لافايت لا يزال يعمل عليه مع جفرسون) كان مطلوباً إذا كانت الثورة في باريس لم تتخذ دوراناً حلزونياً سريعاً نحو الأسفل إلى فوضى دموية.

ولابد أن سيلفان بيلي قد أهين أيضاً بالوحشية التي أُجبِر على مشاهدتها، ولابد أنها تضاربت مع إيمانه التنويري بمدنية الإنسان التي ووجِهت بنتائج جوانب الإنسان الأكثر وحشية المتدلية من القناديل. والأكثر إلحاحاً، واجه بيلي الحاجة إلى جلب معيار ما من الهدوء لحكومة العاصمة، الإمكانية التي تعرضت لخطر وحشية الجمعيات الانتخابية في المقاطعة. وكما بقي اجتماع جمعية الناخبين في أوتيل دي فيل قائماً، كذلك دوائرهم الانتخابية في «الجمهوريات الستين المصغرة» انعقدت في الربيع. حولت نفسها إلى جمعيات سجالية منعقدة بانتظام تعاين، وغالباً بشكل انتقادي، الإجراءات التي تمررها جمعية بيلي، ولاسيما تلك التي تهتم بالقضيتين اللتين ستكون في صميم سياسة باريس خلال السنوات الخمس القادمة: الخبز والشرطة. سبق للجمعيات الأكثر وضوحاً ـ وأكثرها وضوحاً جمعية كوردلييه على الضفة اليسرى ـ أن رأت نفسها إعادة تجسيد للديمقراطيين الاثينيين: الخلايا الأولية للحرية التي، في النهاية سيذعن لها الممثلون المنتخبون. وكانت تلك الحرية بدقة التي ينتقد بها الصحفيون وخطباء المقاهي المحلية قرارات أوتيل دي فيل وفرساي هي التي جعلت سييه يريد الجمعية الوطنية أن ترفض «التوكيلات الإلزامية». إذا كان المندوبون مجبَرون على التوجه إلى دوائرهم الانتخابية في كل مسألة، عندئذٍ لن تكون الجمعية الوطنية شيئاً أكثر من مجموعة من المتوددين الممجدين، الذين يركضون باستمرار إلى المقاطعات ومنها. حاول بيلي أن يوقف الانسياق باتجاه نوع من ديمقراطية روسو البدائية بإعطاء ممثلين لكل منتخب من الستين للهيئة في أوتيل دي فيل ليغدو معروفاً باسم الكومون. لكن ما إن وجدت الخمارات أصواتها وصحافة زوايا الشوارع قراءها وطالما استمرت الشكوك بأن المسؤولين يتآمرون لرفع أسعار الخبز، صار صعباً أن تدار سياسة باريس من المركز. وفي أوج السجال حول حق الاعتراض الملكي، على سبيل المثال، اقترح لستالت جدياً أن تؤجل الجمعية الوطنية جلساتها ريثما تستشار كل دائرة انتخابية في المملكة حول رأيها.

كان ثمة بعض الإجراءات التي يمكن أن تتخذ لمنع الانهيار الكامل للسلطة المنظمة. ولكن حتى في الفترة الليبرالية الظاهرية في الثورة وجد سياسيوها بسرعة أن

لديهم متسعاً ضئيلاً للمناورة بين الفوضى والإكراه. ولتغيير الاتجاه بعيداً من انهيار النظام التام، لم يكن في وسعهم تجنب إعادة تشكيل مؤسسات سلطة الدولة التي، مع تعديل قليل، ستغدو أدوات إرهاب. ففي الجمعية الوطنية، أسس فولني وأدريان دوبورت في نهاية تموز لجنتين تنفيذيتين صممتا لجعل القرارات السياسية في مجالين حاسمين مركزية. الأولى، لجنة العلاقات التي امتلكت سلطة، خارج المجلس الملكي، المصادقة أو إلغاء التعيينات المحلية. وهكذا، كما أوضح فِرييه بشيء من التحذير، كان باستطاعة أعضائها تحديد أي من الثورات في البلديات التي لا تحصى شرعية وليست شرعية اعتباطياً. وكان لديها، بكلمات أخرى، السلطة لإثارة حرب أهلية.

والثانية، لجنة التحقيقات التي كانت في الحقيقة الأداة الأولى في دولة البوليس الثورية. وقد انتحلت لنفسها كل السلطات التي كانت معتبرة بغيضة في ظل النظام القديم: فتح الرسائل، خلق شبكة من المخبرين والجواسيس، تفتيش البيوت دون مذكرات، تقديم الآلية لشجب وتشجيع الوطنيين لجلب أي من الذين يشتبه بهم إلى اهتمام السلطات. وقد أُعطيت هذه اللجنة المكونة من اثني عشر عضواً (الحجم نفسه مثل لجنة السلامة العامة المستقبلية) سلطة أن تسجن المشتبه بهم دون محاكمة ما داموا قد اعتبروا أنهم خطر على الوطن. نظرياً، كانت مفضلة لنزوات الحشود التي، وعلى قوة في إحدى مواد جريدة مارات، ستحدد الأفراد للحرمان من حماية القانون وإعمال العدالة السريعة بهم. لكنها قد امتلكت القوة الكامنة لتصبح ما سماه فِرييه: «المحكمة المروعة التي سيرتجف أمامها الجميع».

في باريس، تحول المأزق الحاسم في كيفية أن تبقى السيد، بدلاً من خادم لا حول له، في قوة ثورية، في السهم الأخير المتبقي، على المركيز دي لافايت. كان شخصية مسيطرة في صيف عام 1789 ومطلع خريفه التي تصاب بصدمة إذ تتحقق من أنه لا يزال في عمر الثانية والثلاثين وغراً تماماً في السياسة. لا شيء في تجربته الأمريكية أعده للمحاكمة بإطلاق النار في مقاطعات باريس وضواحيها. لأنه تخيل مغامرة الحرية حملة صعبة غير معقدة بأبطال وأوغاد يمكن تحديدهم بوضوح. وإذ أحبطه النبلاء المحافظون من أوفرن وألزموه بتفويضهم في مجلس الطبقات، افترض مع ذلك أنه، في اللحظات الحاسمة، سيدفن الاهتمام المشترك بالصالح العام الفروق في فورة توافق أخوي.

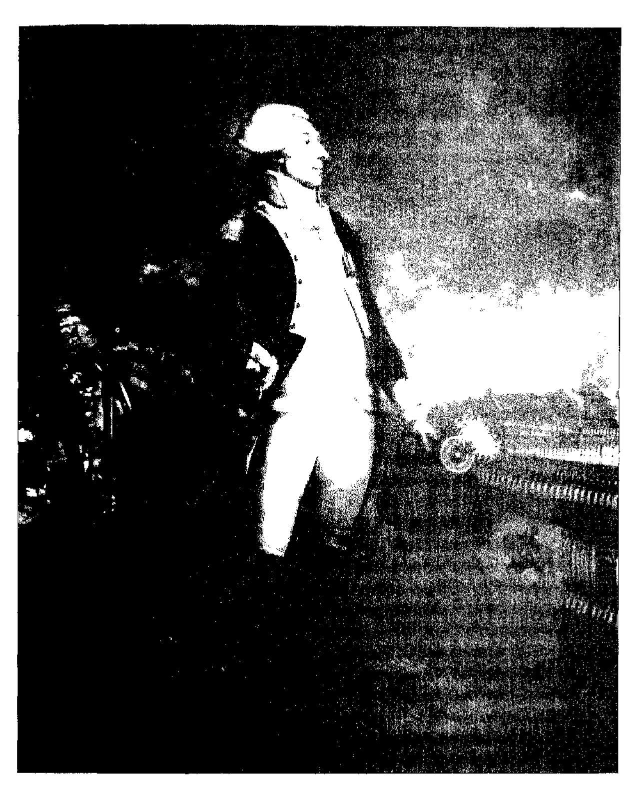
لا شيء مثل هذا السيناريو السعيد كان يتجلى للعيان في شوارع باريس تحت ناظريه. بل بدلاً من ذلك كان يواجَه يومياً بحشود جائعة على نحو يائس ومشككة على

نحو لا عقلاني التي يمكن أن تتحول في غضون ساعات من الغضب إلى القتل العمد. كان على لافايت أن يطور بسرعة فائقة مهاراته مفاوضاً ومحكّماً وقائد ميلشيا ودبلوماسياً سياسياً. والعجيب لم تكن قواه هي التي ستخذله في النهاية بل ذلك أنه رتب لممارسة الرقابة في العاصمة أطول مدة يستطيع.

كان همه أن يرى إمدادات الحبوب والدقيق والخبز قد وصلت إلى الأسواق المحددة وأن أسعارها ظلت في المستويات التي لن تثير أعمال الشغب. وفي نهاية الأسبوع الأول من آب، خُفِّض سعر الرغيف زنة أربعة أرطال من 5.14 قرشاً إلى 12 قرشاً كحد أعلى. فقد ساعد احتمال حصاد أفضل كثيراً عام 1789 على إراحة الإحساس بالذعر، غير أن الطقس كان لا يزال يلعب خدعاً قاسية على الباريسيين. فالجفاف جعل طواحين الماء غير قادرة على العمل مرة أخرى، وهكذا غالباً ما كان الدقيق لا يتوفر لخبازي المدينة. وكانت النتيجة أن أواخر الصيف ومطلع الخريف تميز بأعمال شغب متكررة حول متاجر الخبازين وسرقات واستيلاء على الأرغفة، وكثير من الحشود كانت تقودها نساء. وكان على لافايت وبيلي أن يعملا ما يمكنهما لإقناع كسبة الأجور في المدينة أن السلطات البلدية على الأقل لم تكن تتواطأ على رفع الأسعار وتطيل أمد «مؤامرة المجاعة».

بقيت المحنة الاقتصادية عندئذٍ خطراً جدياً على استعادة النظام. وتظاهرت سلسلة من مجموعات الحرفيين من أجل أجور أعلى لمواجهة أسعار الخبز المتضخمة، وكان ذلك بعد مقابلتين فظتين في منطقة اللوفر أن نجح الخياطون المياومون في زيادة معدل أجرهم اليومي من 30 إلى 40 قرشاً، صانعو الشعر المستعار- أيضاً، أُثيروا، في الثورة، لأنها جعلت مهاراتهم زائدة عن الحاجة (كان الشعر غير المسرح إلزامياً لوطنيين كثر، روبسبيير مستثنى)، وعلى الأرستقراطيين، على تقلب أذواقهم التي تسببت بطريقة ما في مأزقهم. والأكثر أهمية، كانت ثمة مظاهرة من أربعة آلاف من خدم المنازل في الشانزيليزيه تطالب بأن يُلغى شرط عدم الأهلية (باعتبارهم تابعين) من الخدمة في الحرس الوطني.

كان الكثير من هذه المطالب في الواقع نموذجياً في ضيق أفق التفكير لدى الحرفي الثوري. أصر خدم المنازل من سافو أن يستثنوا من مهنتهم ومجموعات حرفية أخرى طالبت المدينة أن تغلق أعمال الإسعاف العام في مرتفعات مونمارتر على أساس أن أحد الكراريس زعم أن المعوزين المستخدمين هناك كانوا مشغولين بالتدريب على إطلاق



الصورة 116، ب.ل. دِبوكورت، لافايت كقائد للحرس الوطني، عام 1789

المدافع إلى المدينة في الأسفل. وهكذا كان على لافايت أن يواجه العدائية من الطرفين - هؤلاء الذين أرادوا إغلاق الأعمال الخيرية ateliers de charité وعمال البناء المعوزين الذين استبعدوا إلى أديرتهم الأصلية خارج المدين نتيجة الإغلاق.

وبرز سخط إضافي من الحاجة إلى رؤية أن موارد العائدات البلدية كانت محمية التي بدونها لن تستمر الأعمال الأخرى التي ظلت تعمل. وقد تضمن ذلك الحرس الوطني في حراسة بعض المواقع الجمركية المتبقية التي تمارس على مواد مثل التبغ الذي كان لا يزال يُجمَع. غير أن لافايت، باختصار، أعد أن يوازن الجوانب غير الشعبية الواضحة في حرسه بمناسبات مضمونة لتعزيز شعبيته الشخصية، لاسيما عندما أعطي تغطية كاملة بواسطة صديقه بريسو Brissot في جريدته الفرنسي الوطني. في مشهد مؤثر واحد كهذا المعادل لما يوصف اليوم بأنه «فرصة الصورة»، زار لافايت المنازل في ضاحية سان أنطوان حيث المنتصرون في الباستيل، الذين جرحوا يوم 14 تموز، كانوا يهزلون دون طعام أو اهتمام طبي أولي. وفي كل هذه النشاطات ـ ودون أي تخطيط مدروس عن الدكتاتورية ـ كان ينتقل بوضوح إلى مكان أخلته السلطة الملكية. كان لافايت لعدة أشهر على الأقل هو الأب المعيل Père nourricier للمدينة، وقيامه بدور القاضي المحكم، ومصدر شرطة الحماية والسلطة العسكرية. وفيما كانت إدارته لهذه الشؤون بعيدة عن الكمال، يعود له ولبيلي فضل النجاح في ترسيخ مصداقية الحكومة الثورية.

ما كان لشيء من هذا أن ينجح دون الحرس الوطني. وكان لافايت مطلوباً لممارسة سلطة كافية على ستين مجموعة مرتبطة بالمقاطعات التي لن تنحل إلى أدوات لدى أصحاب النفوذ في الشوارع، وقد ذكره هذا بمسقط رأسه مبكراً في 16 تموز، عندما ساق جورج دانتون، قائد حرس كوردلييه شخصاً بائساً إلى أوتيل دي فيل. كان هذا الشخص سوليس Soulès الملقب بـ «الحاكم الثاني للباستيل»، الذي رفض أن يسمح للميلشيا بالدخول دون إذن محدد. كان سوليه في الواقع الناخب الذي ائتمنه أوتيل دي فيل على الحصن كنوع من بواب خلال الترتيبات لتدميره، لكن وحده تدخل لافايت أنقذه من التعامل معه على نحو سيء.

كان على الحرس الوطني أن يستخدم سيفاً بحدين ببراعة: ضد المؤامرة الملكية من جهة وضد فوضى الرعاع من جهة أخرى. وقد نظر لافايت إلى ذلك ـ بموافقة بيلي ونكر ـ أن القوة مكونة حصرياً من عناصر اعتبر أنه يمكن الاعتماد عليها في كلتا الحالين. ففي نواتها كان هناك رجال الحرس الذين يتقاضون راتباً وعددهم 4800 جندياً وهي بشكل أساسي من الحرس الفرنسي السابق، والهاربون من مجموعات الحدود في الجيش الملكي ووحدات عرضية مؤيدة للميلشيا مثل طلبة القانون المسلحين وكتبة نقابة القانونيين. وبحلول أواسط أيلول كانت هذه القوة مسلحة جيداً بستة بندقية من طراز مسكيت وكانت مؤسسة كمركز للحرس الوطني. تجنب لافايت النخبوية بتوزيع قواتها على المقاطعات

الستين كلها، بحيث كل منها تمتلك مجموعة من القوات ذات الراتب مقابل أربع مجموعات من المتطوعين دون راتب. والنتيجة، في الصحف على الأقل، كانت الشرطة الأكثر فعالية في باريس، نحو ثلاثين ألف متحمس، من أية قوة كانت متاحة للنظام القديم.

لم تكن عملية دمج الأنماط المختلفة من رجال الحرس بشكل كامل سلسة. كان ثمة خلافات على الفروق في الألبسة العسكرية. وهل ينبغي أن يُسمَح للحرس الفرنسي السابق أن يحتفظ ببعض شكل اللباس الخارجي لهوية منفصلة؟

وهل المحامون حملة السيف الضالع مخولون حقاً بالسير في مواكب بمعاطفهم الفاتنة ذات اللون القرمزي والفضي، من يمكنه أن يرتدي كتفيات زينة وفي أي شكل؟

حاول لافايت تجاوز هذه المشكلات النكدة الخاصة بالخياطة بإعطاء الحرس هنداماً مصبوغاً بألوان العلم الوطني: معاطف زرقاء بطيات صدور وقبة وأردان وصدرة وطماقات بيضاء وزركشات حمراء. والواقع أن عليهم أن يدفعوا ثمن هذه الألبسة الرائعة بالإضافة إلى الأسلحة والذخائر كان مضموناً لأن رجال الحرس جُلِبوا حصرياً من الطبقات المالكة في المدينة. (حتى الكابتن دانتون كان عام 1789 مالكاً كبيراً لمزرعة، ولو أن ذلك بسبب رصيد زوجته.)

ونظر لافايت أيضاً، غالباً من البداية، إلى أن الحرس قد امتلك حساً قوياً بكبرياء الانتماء esprit de corps. جعلهم يظهرون يوم الأحد في التاسع من آب، يرتدون لأول مرة هندامهم الجديد. عزفت موسيقى القداس وأنشدت أغانيه في الكنائس جماعياً، وقد حضر القائد في سانت نيكولاس دي شامب. في الشوارع، رحب مغنون من الأوبرا وجوقات المسير العسكرية بمجيء فيلق المواطنين. وفي عصر ذلك اليوم، قدمت كتائب من مقاطعات عديدة استعراضاً مشتركاً في البالي رويال على صوت الطبول والموسيقى العسكرية. «وكلفت كل كتيبة أن تصمم علمها الخاص، وبوركت الأعلام باحتفال في الكنائس التي أخذت اسمها من تلك المقاطعات. حاول لافايت أن يحضر كثيراً من تلك الاحتفالات قدر استطاعته، وعندما كان ذلك مستحيلاً أرسل بيلي أو، في حالة العطل الوطنية في سو Sceaux في مطلع أيلول، دوق ودوقة دي أورليانز مع أطفالهما. وفي السابع والعشرين كان هناك بركة عامة في كنيسة نوتردام، سبق ذلك عرض كبير من كل الكتائب، القادمة من أحياء مقاطعتها إلى مركز المدينة. وفي الكاتدرائية قدم الأب الراديكالي كلود فوشيه، المندوب من كِان وداعية «الدين الاجتماعي»، عظة عن قدسية الحرية المسلحة.



الصورة 117، نموذج ملصق لأحد أفراد الحرس الوطني

كان لدى لافايت تقدير حقيقي للرموز العاطفية السيكولوجية. لقد عرف أنه، في الوقت الذي تكون فيه الروابط التقليدية التي ربطت الرجال في علاقات تتبادل الاحترام قد انهارت، كان حيوياً أن تعيد جمعهم في جماعة وطنية جديدة. ومن أجل أن ينجح ذلك، كانت الأشكال الخارجية التي يمكنها أن تبرز أهمية «الصديق»، و«الأخ»، و«المواطن» حاسمة ـ وربما حاسمة أكثر من ـ المراسيم التي تأتي من الجمعية الوطنية. وهكذا ابتكر عقدة شريط القبعة الثلاثية الألوان كعلاقة مميزة إلزامية للهوية الوطنية. وقد أضاف لون البوربون الأبيض إلى الأحمر والأزرق اللذين صادف أن كانا لوني باريس ومنزل أورليانز قلقاً من تجنب أي اتهام أن قوات الحرس مجموعة يملكها دوق دي أورليانز. وقد ظهر في كل مكان: ليس على القبعات الثلاثية للحرس وحسب بل انتشرت على نحو تلقائي في الأحزمة التي تُلبَس على القميص الأبيض النقي الذي فضله المواطنون، فحل محل الأبازيم القضية، التي تجدَل وتستخدم كسلسلة للساعات. وبالإضافة إلى ذلك خلقت ازدهاراً كبيراً لصانعي القماش القطني الرقيق (البفتة). وغدت في الأقاليم، على الفور، علامة التضامن مع باريس والجمعية. ففي بريست 26 تموز، غنت فنانة، متلفعة بألوانه

الثلاثة، أنه يشير بالأبيض إلى النقاء والأحمر لحب الملك من رعيته والأزرق للسعادة السماوية التي خبرها الفرنسيون جميعاً عام 1789. ومرسييه، الذي كتب كراساً كاملاً بعنوان عقدة شريط القبعة الوطنية، رآها رمزاً لنوع جديد من المحاربين المواطنين. ولافايت نفسه أخذ هذا الموضوع في إمبراطورية الحرية عندما تنبأ أن عقدة القبعة الثلاثية سوف «تذهب حول العالم، المؤسسة التي هي واحدة وفي الوقت نفسه مدنية وعسكرية، ملتزمة بالنصر على التكتيكات القديمة في أوروبا والتي سوف تقلص الحكومات التعسفية إلى البديل بأن تُحتَل ما لم تحاكيه».



الصورة 118، للرسام لا سويه، مائية، طقس اليمين الوطني في مقاطعات باريس أطفال الوطن، في الأسفل يميناً يقلدون آباءهم

لا شك أن لافايت استساغ لعبة دور الأب الجديد للوطن، لكنه رأى أيضاً فائدته كفكرة للحشد. وقد عرف جيداً قيمة بلاغة العائلة في الثورات. فزوجته أدريان وابنته أناستاسي رافقتاه إلى الكثير من مراسم مباركة العلم، حيث يقدمون مجموعات للفقراء. وفي عشاء خاص قدمه لهم في 23 أيلول حرس سانت إيتيان دي مونت، وقد احتفل في أغانٍ وقصائد أعلن فيها أن السيدة لافايت هي الآن مع عائلتها بما أن عائلة المركيز هي، في الحقيقة، كل الإنسانية. وقد جعل ذلك أدريان «أماً عالمية». وفي أحد الأيام، كان

متوقعاً، أن أبناءها، سيكرمون في كل أنحاء فرنسا باعتبارهم أبناء «الأب الذي أنقذ فرنسا». وفي الروح ذاتها، عندما أراد حراس مقاطعة السوربون أن يجعلوا ابنه البالغ من العمر عشر سنوات جورج واشنطن لافايت قائدهم الثاني، عارض الماركيز أن الترقية بطريقة ما غير ناضجة غير أن الفتى سيتشرف بأن يخدم باعتباره جندياً بسيطاً مسلحاً بغدارة. (كان هناك في الواقع مجموعات أطفال في الحرس الذي كان ميزة خاصة لأيام التدريب والاستعراض.) وعندما أصرت المجموعة استسلم الأب مفترضاً أسلوبه الروماني: «أيها السادة، ابني لم يعد ابني، إنه ينتمي إليكم والى الوطن».

خلال آب/أغسطس ومعظم أيلول/سبتمبر، ثبّت هذا الجمع بين الاحتواء المسلح والكاريزما الوطنية خط الجبهة في باريس ضد كل من الثورة المضادة والفوضوية. ففي الثلاثين من آب، على سبيل المثال، أرستقراطي راديكالي آخر بعد، المركيز دي سانت هوروغ de Saint Huruge (أطلق حديثاً من مصح عقلي في شارنغتون، حيث شارك ساحة التدريب مع أرستقراطي آخر مماثل هو دي ساد)، حاول أن يقود مظاهرة شعبية من البالي رويال إلى فرساي. دوّن سانت هورغ قائمة بستين من الأنصار «الاعتراض المطلق» الذين أعلن مقدماً أنهم «خونة» والذين يطالب بطردهم من الجمعية الوطنية. بالإضافة إلى ذلك طالب بالعودة الدائمة للعائلة المالكة إلى باريس. كان لافايت مستعداً جيداً لهذه المهمة فردها بفصائل قوية من الحرس الوطني واعتقل سانت هورغ.

وعلى الرغم من أن هذا التهديد قد عولج بسهولة، لم يستطع لافايت تحمل أن يكون راضياً عن نفسه. غالباً ما انقلب مزاجه عند متاجر الخبازين سيئاً، على الرغم من الجهود لضبط الأسعار حيث كانت الإمدادات قليلة والخطوط طويلة. هدد بعض الخبازين بالقناديل، وظهر الحرس عند خطوط الخبز لحفظ النظام، وغدت آنئذٍ الشكاوى مألوفة أن موظفي المدينة مشاركون في مؤامرة لتجويع الشعب. وفي 3 أيلول، تم اعتقال عامل مياوم صانع سقوف لاتهامه لافايت شخصياً بالنقص والتهديد بشنقه.

لقد أشار هذا الحدث إلى أن بطل الساعة، المتوج بأكاليل الزهر والورد الذي ينظر برباطة جأش إلى حصانه الأبيض، يمكن بسهولة كبيرة أن يتحول غداً إلى وغد أو ضحية. وفي النهاية، اعتمدت قدرة لافايت وبيلي على حفظ حشد باريس بعيداً عن الطريق إلى فرساي على السلوك في الجمعية الوطنية، ووزارة نكر وليس الأخير لويس السادس عشر نفسه. وبينما بقي موقف الملك من تحويله الوشيك إلى ملكية دستورية غير معروف، كان لدى لافايت الآمال الأكثر رزانة بنتيجة سعيدة. ومع أن الشعور كان دون شك متبادلاً،

كان موقفه تجاه الملك والملكة، إذا كان ثمة شيء، كان عاطفياً. أمل أن يجعل من لويس السادس عشر عام 1789 ما سيفعله بلويس فيليب عام 1830: ملكاً مواطناً متلفعاً بالرداء الثلاثي الألوان.

وقريباً ستكون ثمة واحدة أخرى من هذه الإطلالات على الشرفات، وتبرز واحدة من عروض لافايت الممتازة. لكنها ستكون أقل من تتويج وطني وأكثر من فعل إنقاذ كانت المسافة فيها بين الإرهاب والتصفيق بعرض شعرة ليس إلا.

III ـ شجار النساء

5 ـ 6 تشرين الأول

كانت ماري أنطوانيت معتادة على استقبال نساء سوق باريس في فرساي. وفي الاحتفال بيوم القديس لويس 25 آب، ستكون النسوة ضمن وفد «الأشراف» الذي يأتي إلى القصر ليقدم التحيات والطاعات للملك والملكة. سيقدمن للملكة باقات الزهر رمزاً للولاء والمحبة مرتديات ثياباً بيضاء احتفالية نظيفة على نحو مناسب من روائح السوق. عادة ما يكتب لهن الخطابات القصيرة أحد أفراد الحاشية العاملين لدى مسؤول المراسم، ولكن أحياناً يمكن أن تكون عدة أسطر مقدمة على نحو مازح في الخطاب الحقيقي للسوق: سوقي اسمه مشتق من الكلمة الفرنسية المقابلة لكلمة «لهجة» poix ولهجة poissard لم تكن لهجة صحيحة كثيراً بقدر ما ميّز مؤرخها ألكساندر بارك مور Alexander Parks Moore أنه هجوم منهجي على القواعد. كان استخدام الترخيم الشديد والنحو والصرف المجتزأ والقافية القسرية مثالياً في الشعر الهزلي والبذيء، فالإهانات ونوع الكلام الفظ والمهدد المسجوع الذي لعبت فيه الملاحظة الساخرة دوراً هاماً وقد بقيت أغانيه ونكاته حية على نحو تلقائي في الخمارات والأسواق في باريس. لكنه أيضاً هُذِّب في نوع من الأدب الموسوم بلغة شعبية فاحشة بين الأوساط الأرستقراطية في نهاية النظام القديم. وكان هؤلاء الذين هدروا بالضحك في مسرحيات بير دوشين Père Duchesne في معرض سان جرمان البذيئة اللسان والملطخة بشتائم التبغ هم بالضبط هؤلاء الذين ستكون رؤوسهم مطلوبة بتجسيدها السياسي في جريدة جاك رينه هيبر Jacques René Hébert النزقة. قدم دوق دي أورليانز بانتظام أعمالاً مسرحية ساخرة بلغة سوقية في مسرحه الخاص، وفي عام 1777 استدعت الملكة مجموعة فيش وايفز Fishwives ونساء السوق إلى التريانون ليدرسّن فرقتها من الهواة كيفية لفظ لهجة السوق بشكل صحيح.

وفي عام 1789 توقفت لهجة السوق فجأة عن أن تكون مسلية، فقد كانت أغنية «حركة نساء أسماك الرنكة في الصالة»، وهي أغنية ثورية مبكرة كانت باختصار مهددة بالخطر لأن أبياتها الأخيرة حاكت على ساخر الاحترام التقليدي الذي تظهره نساء السوق في مظاهرهن المعتادة في البلاط

Si les grands troublent encore
Que le Diable les confonde
El puisqu'ils aiment tant L'or
Que dans leur gueule on en fonde
Voilà les sincères voeux
Ou'les Harengères font pour eux

إذا كان ذوو المقامات الرفيعة لا يزالون يثيرون الشغب
إذن فليخزيهم الشيطان
وبما أنهم يحبون الذهب كثيراً
فلينصهر في أفواههم
تلك هي الرغبة المخلصة
للنساء اللواتي يبعن السمك

وكانت لا تزال توجد مناسبات خلال عام 1789 عندما تكيفت اللهجات السوقية - بائعات السمك ونساء السوق - مع دورهن الطقوسي. وفي يوم سانت لويس قرن الموكب المكوّن من 1200 نسمة إلى فرساي برفقة الحرس الوطني، يحملن باقات ملفوفة بالشاش ومنقوشة بحروف ذهبية: «الولاء للويس السادس عشر، الأفضل بين الملوك». وشاركن كثيراً في مواكب عديدة في تكريم راعية باريس Patronne القديسة جنفييف Sainte - Geneviève الذي يقام في أواخر الصيف.

وبعيداً عن ملابسهن التنكرية، في كل حال، تحولت النساء العاملات في باريس على نحو متزايد إلى نشاطات أقل حشمة. مثل تلك النسوة الأكثر مسؤولية مباشرة عن وضع الخبز على الطاولة، كن على نحو مماثل الأكثر إحباطاً وغضباً من النقص الذي، بعد حصاد جيد، بدا باختصار يتعذر تفسيره. كان أجل شهر تشرين الأول للإيجار وفواتير التجار يقترب سريعاً، وتسارعت خلال أيلول كله درجة الهجوم على المخابز المشتبه بأنها تنقص وزن الرغيف أو خزن الطحين. وأصبحت النساء أكثر مغامرة أيضاً في حملاتهن للسعي إلى الحبوب التي زعم الطحانون أن إمداداتها قليلة. ففي Chailiot غرب باريس،

في 16 أيلول أوقفن أربع عربات محملة بالحبوب وجلبنها إلى أوتيل دي فيل. وفي السابع عشر، بعد مظاهرة ضد أصحاب المصارف، أوقفن عربة أخرى في مكان يدعى دي تروا ماري des Trois Mairies وجلبنها إلى قصر المقاطعة المحلية.

لا يوجد دليل على أن ماري أنطوانيت قالت أي شيء مثل «دعهم يأكلوا الكعك» عندما تناهى إليها خبر هذا الجوع. غير أن القصة المشكوك بصحتها هي على الرغم من ذلك شهادة بليغة على الشك المتجمع والحقد الموجه إلى البلاط الذي، بالإضافة إلى المسؤولين في باريس، حُمّل مسؤولية محنة الشعب العامة. وكما بدت أزمة القوت اليومي تتفاقم في أواخر أيلول مثلها كانت الأزمة السياسية. وفي الذهن كانتا مترابطتين.

وفي 10 أيلول، هزمت مقترحات مونييه الملكية هزيمة نكراء في التصويت على المبادئ الأولى في الدستور. واختارت الجمعية الوطنية مجلساً تشريعياً بغرفة واحدة بدلاً من غرفتين بأغلبية 849 صوتاً ضد 89 وامتناع 122 عن التصويت. وفي اليوم التالي اختارت لصالح نِكر ولافايت الفيتو«المعطل مؤقتاً» على الفيتو المطلق بفارق مثير 633 مقابل 325 وامتناع 11 عن التصويت.

ومع ذلك هل سيوافق الملك على إخضاعه للدستور شخصياً؟ في النهاية اعتقد الخطباء في الجمعية الوطنية أنهم يملكون السلطة لوضع «القوانين الأساسية في الدستور ضد اعتراضه، إذا غدا الأمر ضرورياً. لكنهم فضلوا أن يحصلوا على موافقته. وفي 19 أيلول، بدت آفاق اتفاق ودي ضبابية عندما قرئ رد الملك على إعلان حقوق الإنسان والمواطن وعلى مراسيم آب. فمع أنه أعلن موافقته عموماً على الروح «spirit» في ما سنوه، قيّد ذلك بتحفظات كثيرة جداً تتعلق بالتعويض على ملكيات مثل ضريبة العشر للكنيسة والرسوم الإقطاعية والمناصب المتوارثة إلى درجة أن البيان قرئ رفضاً أكثر منه قبولاً. وفي الحادي والعشرين أعلن الملك أنه أمر بنشر المراسيم، وهي الخطوة التي جعلت منع نشرها أكثر سطوعاً وحسب. وكان الأكثر طيشاً لدى لويس هو إصراره على أنه في مسألة الحقوق الإقطاعية، يجب إعطاء اهتمام خاص إلى حقوق الأجانب، الأمراء الألمان الذين يملكون مقاطعات في الألزاس. فلو أنه أراد أن يخترع أسباباً للصحافيين لاتهامه باحترام حقوق العائلات الأجنبية أكثر من الوطنيين الفرنسيين، ما كان ليقوم بعمل أفضل من ذلك.

وقد بدا كل هذا في مقاهي البالي رويال، النوادي السياسية وصفحات الصحافة السجالية أو جعِل يبدو معادلاً للتحضير لانقلاب ملكي. ومفهوم «الاعتراض ـ الفيتو» كان

قد أسيء فهمه كثيراً. ففي الذهن الشعبي ظنّ أنه يجب أن يكون نوعاً ما من ضريبة جديدة أو سلاح شرير لمؤامرة المجاعة. وقد شملت جريدة غورساس كوريير دي فرساي Gorsas' Courrier de Versailles محادثة تخيلية بين فلاحين حول القضية. يسأل الأفضل إطلاعاً زميله، «هل تعرف ما هو الاعتراض؟» ومن ثم يجيب، سأقول لك. زبديتك مليئة بالشوربة، فيقول لك الملك: أفسدت الشوربة ويجب أن ترميها. ذلك هو الاعتراض». ومع أخذ هذه الدرجة من الشك الشعبي بالحسبان كان ثمة على الأرجح جمهور متقبل لدعوات مارات في جريدته صديق الشعب L'Ami du Peuple للفصل بين النذل والفاضل، إذ يأمر قراءه «افتحوا أعينكم وتخلصوا من كسلكم، ونقوا لجانكم، احتفظوا بالأعضاء الأصحاء فحسب، واجرفوا المتقاعدين الفاسدين والملكيين والأرستقراطيين المخادعين، والمتآمرين والمزيفين. لا شيء لديكم يمكنكم أن تتوقعوه منهم إلا العبودية والفقر والخراب».

وقد تعزز الأسوأ في هذه الشكوك، عندما، على الرغم من هزيمة مقترحاته، انتخب مونييه إلى رئاسة الجمعية، وعندما قرر سانت بريست Saint Priest، وزير الحربية، استدعاء كتيبة الفلاندرز إلى فرساي. وفي كل من العدد والانتشار لم يكن لتحريك الكتيبة أن يقارن بحملة الهجوم العسكري في تموز. وقد حُرِّكت الكتيبة كتدبير احترازي لحماية الحكومة والأسرة الملكية في فرساي في حال هجوم جديد. وغني عن القول، مع ذلك، فقد أثار الاستدعاء الحدث ذاته الذي كان مخططاً للتوقع.

وقد برزت كل هذه العفاريت بصورة استعراضية في 2 تشرين الأول. ففي ذلك اليوم، بلّغت جريدة لستالت عن مأدبة قدمها الحرس الملكي لكتيبة الفلاندرز ليلة أمس. كانت مثل هذه المآدب للترحيب تقليداً عسكرياً، غير أن هذه قدمت بدرجة مسرفة في مكان هائل المساحة في قصر الأوبرا. وقد انقلبت المناسبة، التي تعوزها اللياقة في وقت الفاقة والحاجة الماسة الواضحة، إلى شيء ما من تظاهرة ولاء للتاج. فقد عزفت الألحان من الأوبرا الشعبية غريتري Grètry حول سجن ريتشارد قلب الأسد بعد الحملة الصليبية ـ بينها، «ريتشارد يا مليكي، لقد أقفر العالم» ـ وقد أغريت الأسرة الملكية لتظهر قليلاً، الأمر الذي ليس معتاداً في مثل هذه المناسبات، أن تتحرك الملكة بين الطاولات حاملة ابنها وليد العهد بعمر الرابعة للجنود من أجل الإعجاب. فشربت الأنخاب بصحتهما و، بعد رحيلهما، قصفوا وعربدوا أكثر فأكثر. وفيما صارت الجماعة أكثر سكراً وخلاعة بدأت نسوة البلاط يوزعن الأشرطة ـ الأسود لألوان الملكة والأبيض للملك.

وفي اليوم التالي، انقلب هذا الحفل غير الضار نسبياً للتعبير عن الولاء في صحيفة لستالت وصحيفة مارات صديق الشعب وصحيفة دزمولين ثورات فرنسا وبرابانت إلى «طقس عربدة»، المصطلح الذي، مع أخذ النشرات الجنسية المتجددة المشهرة المتداولة حول الملكة، التي تستحضر مشاهد الفسق والشراهة والخيانة أيضاً. ومع ذلك، لم تكن اللحظة الشائنة جنسية ولا الشراهة، بل عقدة الأشرطة الوطنية، كما قيل، ديست تحت الأقدام. وقد كان هذا تضخيماً لحادثة حقيقية (أوردتها صحيفة غورساس بريد فرساي بحذر) وقع ذلك عندما هتف أحد الضباط «تسقط عقدة الألوان، يمكن للجميع أن يأخذوا السوداء، تلك عقدة جميلة». لكن كان للخبر التأثير المتوقع في إثارة اضطراب هائل في باريس، حيث عادل عدم احترام عقدة الأشرطة الوطنية تدنيس خبز القربان المقدس Host. لقد حدث ذلك، كما قيل، بموافقة الملكة، وعندما عُلِم لاحقاً أكثر أنها عند استقبال وفد الحرس الوطني عبرت عن «افتتانها» بالمأدبة وافترض أنها عنت الإهانة المقصودة التي وُجِّهت للوطن.

وتضافر الجوع والغضب مرة أخرى صبيحة 5 تشرين الأول، وكانت النساء هن اللواتي قمن بالهجوم الأكبر. في اليوم السابق، سحلت النساء من مقاطعة سانت اوستاش Saint - Eustache خبازاً متهماً بغش الوزن إلى أوتيل دي فيل. وهناك، أُنقِذ وحسب من الإعدام دون محاكمة. وفي خطبة في حشد آخر، وجهت إحدى نساء السوق اللوم إلى الملكة المسؤولة عن جوعهن وحثت المصغين إليها على الزحف إلى فرساي للمطالبة بالخبز. وباكراً يوم الخامس قُرِعت أجراس كنيسة القديسة مارغريت و، الحشد الذي قادته امرأة تقرع طبلاً شكل زحفاً يردد عنوان آخر الكراسات بصيحات تقول: «هل سنملك الخبز؟» وفيما زحفن، حشدن نساء من مناطق أخرى، تحمل كثيرات منهن هراوات وعصيّ وسكاكين. وفي الوقت الذي تجمعن فيه عند أوتيل فيل بلغ تعداد الحشد ستة أو سبعة آلاف متحمسة.

وإذ طالبن بالخبز أصررن أيضاً على وجوب معاقبة الحرس الملكي المتغطرس، لأنه، بعد المأدبة في فرساي، ظهرت الأشرطة السوداء والبيضاء بكثرة في شوارع باريس مثيرة الشجار، حيثما شوهدت. وقبل وقت طويل كان الوضع في أوتيل دي فيل مهدداً بالخروج عن السيطرة. على نحو غير محسوب ترك لافايت أقل من كتيبة مقاطعة تحرس حي دي غريف de Grève، وُوجه الحشد بمندوب لافايت الميجور هرميني Hermigny، غير أن رجاله أوضحوا أنهم لن يطلقوا النار على نساء السوق. حدث تفتيش عام جمع

سبعمائة بندقية أضيفت إلى مدفعين لحماية أوتيل دي فيل. وفي النهاية، هدد الحشد وقد تعزز آنئذٍ ببعض الرجال من الأحياء المجاورة أنه سيتسولي على المبنى ويحرق كل مستنداته وأرشيفه. وقد نصحهن قائد مجموعة متطوعي الباستيل، ستانيسلاس ميلارد بالعدول عن تنفيذ ذلك. كان ميلارد، بخلاف رجاله، عملياً أحد الطلائعيين، وقد غدا مشهوراً بزعمه أنه كان الرجل الذي شقّ طريقه ببطء على لوح خشب فوق الخندق المائي الداخلي ليأخذ رسالة دي لوني de Launay التي تسأل عن شروط الاستسلام. (كان الرجل الأكثر احتمالاً أنه هولين الأكثر تواضعاً).

وقد جعلت هذه الشهرة المحلية ميلارد شخصية موثوقة بين النساء ـ فيما لم يعد لافايت، إذ كانت هناك همسات كثيرة وبعض الصيحات أنه إذا رفض الجنرال مطالبهن يجب أن يعلق على قنديل أيضاً. قطع ميلارد حبل مشنقة الأب لِفيفر العاثر الحظ الذي كان قد علق على حبل المشنقة جاهزاً للتعليق على قنديل بسبب رفضه إعطاء النساء بنادق، ووعد أنه سيقود زحفهن إلى فرساي. وقد انطلق الموكب الاستثنائي، القادم هذه المرة ليس بباقات الورد بل بمدفع ورماح وبنادق تحت المطر إلى القصر الملكي. وفيما سار الموكب على الأرصفة هتفن وغنين أنهن قادمات إلى «الأب الطيب» le bon Papa لويس. وكان في طبيعة لهجة السوق أن الخط الفاصل بين المحبة والإساءة لم يكن واضحاً تماماً أبداً.

كانت الحشود قد أصبحت مكثفة جداً في مركز المدينة حيث استغرق لافايت ساعتين حتى وصل إلى أوتيل دي فيل. وفي الوقت الذي وصل فيه ـ عند الساعة الحادية عشرة ـ عرف أن النساء قد غادرن، وثمة حركة تجري بين الحرس الوطني للقيام بزحفهم الخاص إلى فرساي. وكان أحد الأسباب المعلنة رغبة هؤلاء الذين كانوا في الحرس الفرنسي استئناف واجبهم القديم في حراسة الملك، وبدت المأدبة السيئة السمعة الآن سبباً إضافياً لاستبدال أنفسهم في الحراسة الملكية. وقد أدرك لافايت حالاً أن زحف الحرس الوطني كان مسألة أكثر خطورة من زحف نساء السوق. لأن ذلك لن يساعد بل سيُفسَّر بوصفه فعل إكراه تمارسه باريس ضد الملك ووزرائه والجمعية الوطنية. وقد بذل قصارى جهده ليحول دون رماة المدفعية، ولكن بعد ساعات من الجدل العقيم والتذكيرات غير المجدية بقسم الولاء الذي أدوه حديثاً في كنائس كتيبتهم، كان واضحاً أن القادة والأفراد مصممون على الذهاب، وإذا كان ضرورياً دون موافقته. وما كان وشيك الحدوث هو انهيار تام للانضباط في الحرس الوطني، يهشم صورة المهدئ

المسؤول المحافظ على النظام الذي سعى إلى بنائه منذ تموز. وما زال الأسوأ هو أن بعضهم هدد لافايت بالذات. وقد غدا واضحاً أنه إذا لم يلب طلبهم، لن يهجروه وحسب، بل باختصار الأرجح أن يقتلوه أيضاً.

مهاما كانت أخطاؤه الكثيرة، لم يكن لافايت جباناً. لم تكن سلامته الشخصية أقل اعتباراً من الحاجة إلى الاحتفاظ بالشكل على الأقل لبعض النظام في الحرس. وقد افترض على نحو صحيح أيضاً أن ذهابه مع الزحف قد يكون الأمل في ضمان أن يعمل جنوده من أجل سلامة الأسرة الملكية والجمعية الوطنية وليس ضدها. ومستسلماً لما لا يمكن رده، حاول أن يعطي الزحف مظهراً قانونياً، بطلبه «إذناً» من سلطات مدينة باريس، رخصة أعطيت بسرعة. ثم أرسل فارساً على وجه السرعة ليحذر الجمعية والحكومة من الزحف أو للتأكيد على ذلك. وعند الساعة الرابعة بعد الظهر، انطلق خمسة عشر ألفاً من الحرس، فرقة هائلة، إلى القصر تحت مطر غزير، وقد قاد لافايت على حصانه الأبيض الطريق ـ «سجين قواته الخاصة»، كما قال شاهد عيان.



الصورة 119، لرسام مجهول «إلى فرساي، إلى فرساي»، زحف نساء السوق إلى القصر الملكي

في الوقت الذي وصل فيه الحرس إلى ضواحي باريس، كان موكب النساء، اثنتان منهما ركبتا على المدفع، قد وصل إلى فرساي. وفي الطريق واجهن بعض الجنود من سلاح الفرسان في كتيبة الفلاندرز، الذين مورس «قصف وعربدة الحرس» أثناء تكريمهم.

وإذ توقعن أن يوقفن، دُهِش ميلارد والنساء لسماع صيحات تقول: «نحن معكم» ووعود بالأخوة. انضمت إلى الزحف نساء كثيرات في فرساي، بينهن شخصية استثنائية كانت تمتطي حصاناً أسود. كانت تيروان دي مِريكور Théroigne de Méricourt ترتدي قبعة ذات رياش ومعطف ركوب أحمر وتحمل مسدسين وسيفاً ضالعاً، وقد كان ظهروها مخططاً بوضوح لتجتذب الانتباه والتي أُولِع بها كتاب القرن التاسع عشر كأنها إحدى «الأمازونيات» في الثورة، امرأة متحررة جنسياً وسياسياً.

ومع أن تيروان كانت، وفق كل الروايات الجديرة بالثقة، جميلة جداً، فقد كانت ذات أهمية في الخامس من تشرين الأول لمظهرها كرمز للثورة امرأة ذات قدرات فذة: نموذج أصلي لِـ «ماريان» وحسب. تاريخها المستقبلي، كما سنرى، كان رمزياً على نحوٍ بليغ لنوع خاص من السيرة الثورية المثيرة للحزن، وسيكون لديها شرف مشكوك فيه أن أحد أطباء السجون النمساويين شخَّص أنها تعاني من تلك الكآبة المعاصرة «الحمى الثورية». ولكن تحت الريش الفاتن كان ثمة تاريخ مبتذل. كانت «ثيروان الأمازونية» في الحقيقة الواقعية آن جوزيف مريكور Anne Joseph Méricourt التي وقعت عائلتها ليج Liege الميسورة الحال في ظروف صعبة أجبرتها على العيش معتمدة على براعاتها وجسدها. وفي باريس كانت محظية الماركيز دي برسان De Persan وصديقة مغني الأوبرا السوبرانو تندوتشي Tenducci. ومن ارتباط آخر في جنوة عادت إلى فرنسا و، مثل كثيرات أخريات، بدلت شخصيتها عام 1789. من كونها محظية في عمر السابعة والعشرين غدت واضحة ـ ولرجال كثر من معاصريها ـ تهدد الحضور السياسي. صارت المرأة التي تعيش على دعم عشيقها شخصية حرة. وقد استمتعت أيضاً بوضوحها. شوهدت في فرساي تتحدث إلى حرس القصر، عندما كانت نساء السوق، اللواتي سيكن لاحقاً وراء سقوطها، يزحفن إلى البلدة متسخات وغاضبات وجائعات بعد رحلة لست ساعات.

خفف استقبال حار بخطابات وخمر من حدة غضبهن. حياهن قائد الحرس الوطني في فرساي وممثلو البلدية والوزارة. وفقط عندما حاولن النفوذ إلى أراضي القصر منعن بكل من الشبك الحديدي الموصود ووحدات كتيبة الفلاندرز والحرس السويسري أمامه وخلفه. وفي كل حال، واجهن صعوبة أقل في الجمعية الوطنية. حيث سمح مونييه لميلارد وحده أن يوضح غرض الزحف، وقد فعل ميلارد ذلك بشكل رائع من خلال عرض متى سنمتلك الخبز؟ وقال، «يريدنا الأرستقراطيون أن نموت جوعاً». وفي اليوم ذاته كان قد أُخبر أن أحد الطحانين، قبض رشوة قدرها 200 ليفر كيلا ينتج طحيناً. سَمِّه! «صرخ

المندوبون، ولكن قبل أن يستطيع ميلارد أن يتحدث أكثر، تم اجتياح قاعة الأفراح الصغيرة بمئات النساء اللواتي أخذن الحق الذي أوصى به روسو حرفياً حول «استدعاء»



الصورة 120، لرسام مجهول تيروان دي مريكور

مندوبيهن. ثياب مبللة، رائحة الوحل والمطر، رسخت نفسها بجانب المعاطف والبناطيل الأنيقة. وضعن السكاكين والهراوات على الكراسي الفارغة تقطر على الأوراق المطبوعة بمواد السجال التشريعي. بعض النسوة، وقد شاهدن أسقف باريس، صرخن بالشعارات المعادية لرجال الدين التي أصبحت شعبية في باريس واتهمنه بأنه المحرض الرئيسي على «مكيدة المجاعة». وفي محاولة خاطئة لتهدئتهن، اقترف مندوب آخر من رجال الدين خطأ بمحاولة تقبيل يد إحدى النساء اللواتي وجهن الاتهام. فنهرته أن يبتعد وأجابت. «أنا لم أُخلَق لأقبل برثن كلب».

حاول مونييه أن يطمئن النساء أن الملك والحكومة يعملان كل شيء يستطيعانه لرؤية باريس ممونة بشكل مناسب، لكن كان واضحاً أن النساء أردن أن يسألن الملك شخصياً. عندما وصلت أخبار الزحف إلى فرساي، كان لويس في الخارج يصطاد في ميدون وأسرع في العودة إلى القصر قبيل وصول الزحف. وببعض الشجاعة وافق أن يرى وفداً صغيراً منهن. وقد اختيرت بيريت شابري Pierrette Chabry وهي فتاة في السابعة عشرة من العمر بائعة زهور رائعة بطريقة التعبير والمظهر الفاضل، اختيرت متكلمة باسم الوفد. وفي اللحظة الحاسمة خارت أعصابها ووهنت عند قدمي لويس. وقد جلب لها الملك أملاحاً للشم وساعدها على النهوض على قدميها متعاطفاً دون شك مع شخص شاركه ألمه في الخطاب العام. ثم تابع توضيح أنه أعطى أوامر واضحة أن يُستولى على أية حبوب تُضبَط على الطرقات خارج باريس مباشرة. وعندما خرج الوفد الصغير، هكذا كانت الشكوك ضد البلاط اتهمت شابري فوراً بالرشوة من الملك. غير أن الهالة الأبوية لجلالته لم تُفقَد تماماً، لأن هذه المواجهة المباشرة التي ترافقت مع الإعياء بددت كثيراً من الغضب الذي أطلق الزحف.

وفي كل حال، مضى الخطر بلا شك. وصل رسول لافايت ليحذر الجمعية من الزحف إلى فرساي بما يعادل جيشاً صغيراً. وقد حيا عدد قليل من المندوبين هذا النبأ بحماسة، ومع ذلك، فإن بعضهم، مثل بارناف، الذي سبق وأوصى أن يقيم الملك في باريس، شعر أنه محمي بحضورهم. وميرابو، الذي نقل الخبر السيئ إلى مونييه، وجده مازحاً على نحو غريب إزاء المسألة برمتها، كما لو أنه أقال إلى النهاية دوره في الثورة.

عند الساعة السادسة وافق لويس على أن يقبل إعلان حقوق الإنسان ومراسيم آب دون أي اعتراض أو تحفظات. ثم استشار وزراءه عن السبيل الأفضل للفعل. حث سانت بريست على الهروب أو المقاومة، وعارض نِكر المقترحين مجادلاً أن كلا السبيلين يعطي

الراحة لهؤلاء الذين قالوا إن الملك كان يشن الحرب على الثورة بدلاً من الموافقة عليها، وكان لويس ممزقاً بين المخاوف على سلامة أسرته ونفوره من الظهور بمظهر المتهرب من واجبه. ثم قرر البقاء وعدم مبارحة مكانه.

لم يحدث الشيء الكثير قبل منتصف الليل، عندما سار الحرس الوطني إلى فرساي في ستة صفوف جنباً إلى جنب. كان عددهم غفيراً إلى درجة أن زحفهم في رتل ثنائي استغرق ساعة حتى مرّ. وبينما لم تخطر الفكرة حقيقة لنساء السوق حتى وصلن فرساي، فقد عزم رجال الحرس على أن يعودوا إلى باريس مع الأسرة الملكية والبقاء هناك منذئذٍ فصاعداً. إذن، كل شيء أُعِدَّ لصراع عنيف بين الحرس الملكي والحرس الوطني. وكان بينهم حرس فرساي الوطني، الذي أمر بأن يتعاون مع نظيره في باريس. وقدّر الحرس الشخصي أنه على وشك أن يُعزَل وحيداً للعقاب واستعد للمقاومة. عند الساعة التاسعة كان ثمة إطلاق النار متقطع، فانسحب الحرس الشخصي الذي كان مهتماً بشكل أساسي بسلامة الملك والملكة إلى مواقع جيدة ضمن محيط فناء القصر وداخله أيضاً.

عند منتصف الليل، أخبر لافايت الجمعية الوطنية أن مهمة الحرس الوطني ليست إكراهية الغرض وباختصار اعترف أنه لم يكن لديه خيار إلا أن يجلبه إلى فرساي. ويمكن للهدوء أن يعود إذا أبعد الملك كتيبة الفلاندرز، وإذا حلَّ الحرس الفرنسي محل الحرس الشخصي القريب من الملك، وإذا اقتنع جلالته بأن يقدم بعض الإشارات المشجعة إزاء عقدة الأشرطة الوطنية. ومع أن الضباط والجنود كانوا ممتعضين من ترك لافايت يدخل القصر دون مرافقة، خشية أن يقع في شرك، كان ذلك هو شرط الملك لمقابلته. وإذ شقَّ طريقه إلى الغرف الملكية قوبل بنظرات وتعليقات عدائية. كان أبو زوجته، الدوق داين Duc d'Ayen، متمركزاً على الدرج، باعتباره قائد الحرس الشخصي، سيطلق النار دون شك عل صهره إذا ما صدر إليه أمر ملكي. وفيما تقدم، سمع لافايت أحد رجال الحاشية خلفه «إلى هناك يذهب كرومويل». فردَّ بحدة، «ما كان كرمويل ليأتي أعزل».

ملوثاً بالوحل بشكل مثير، دخل بطل العالمين إلى الحضور الملكي بسطور رددها بوضوح في الزحف: «جئت لأموت عند قدمي جلالتكم». ومن جهة أخرى، قال مخفضاً النبرة الدرامية، يمكن تجنب مثل هذه الإجراءات المتطرفة إذا سمح الملك للحرس الفرنسي أن «يحمي شخصه المقدس»، ويضمن الطعام لباريس ويوافق على الإقامة في العاصمة «في قصر أسلافه في اللوفر». وافق لويس على المطالب الأولى ووعد أن ينظر بالمطلب الأخير، ملمحاً إلى أنه سيستشير أولاً أسرته. وقد أبلغ لافايت ذلك لكل من

الجمعية الوطنية ثم لضباطه ورجاله. ومع أن كتب تاريخ كثيرة تالية اشتكت من أن ما تلا حدث لأن لافايت سقط نائماً، في الحقيقة ظل معظم الوقت مستيقظاً إلى نحو الخامسة صباحاً، متأكداً من أن المعركة التي كانت مرتقبة بين مجموعتي الحرس لم تحدث. والشمس، التي لم تشاهد طيلة اليوم السابق، أشرقت في النهاية في سماء صافية قبل أن ينهار المركيز على مقعد في منزل جده.

كان عليه أن يستيقظ بسبب كابوس. عند الساعة الخامسة والنصف صباحاً وجد حشد مسلح طريقه إلى أراضي القصر. ولسبب مجهول ـ ربما بسبب ظهور قطاع الطرق الوشيك، أرسل قائد الحرس الملكي مفرزة كبيرة من قواته إلى الطرف الآخر من حديقة التريانون الكبير. وقد ترك هذا قاعة الوزراء نفسها محروسة بشكل ضعيف نسبياً. يحتمل أن يكون أحد الجنود قد أدخله، اندفع الحشد إلى قاعة المرمر وصعد الأدراج التي تؤدي إلى الشقق الملكية. قال أحد رجال الحرس لاحقاً إنه سمع إحدى النساء تصيح أنه من الضروري «تمزيق قلب الكوكين coquine (ماري أنطوانيت) وقطع رأسها وفرم كبدها fricasser وحتى عندئذٍ لن ينتهي الأمر». أطلق أحد الحراس النار على الحشد المندفع، فقتل رجلاً، ثم قُتِل الحارس. حاول ميوماندر دي سانت ماري Miomandre de sainte Marie وهو الحارس الثاني الذي يحرس شقق الملكة أن يناقش الحشد، وإذ فشل، صرخ لهؤلاء الذين في الداخل حياة الملكة في خطر، طعن هو أيضاً، لكن تحذيراً جاء في الوقت المناسب تماماً. ومذعورة من إطلاق النار والصياح، ركضت ماري أنطوانيت عارية القدمين تحمل خفها وتصرخ عالياً، «يا أصدقائي يا أصدقائي، أنقذوني وأطفالي». أخذها أحد الممرات إلى جناح الملك، غير أن لويس نفسه ذهب للبحث عن أطفاله. لأكثر من عشر دقائق دقت الملكة يائسة على الباب الموصود فيما كان الحشد يقعقع عبر قاعة المرايا في ملاحقة غاضبة «للمومس النمساوية» والعدد الذي لا يحصى من الحرس الشخصي الذي انسحب على مراحل من خلال غرف الحكومة التي أطلقت عليها النار. وفي النهاية، سمعت صيحات ماري أنطوانيت المسعورة ودقاتها على الباب وتمَّ لم شعث الأسرة في صالون دي يوييل دي بوف Salon de l'Oeuil de Boeuf. كان ولي العهد وأخته يبكيان فيما كانت أمهما وأبوهما يحاولان طمأنتهما بقدر استطاعتهما. لو رسمهم غروزييه هناك لصار أسد الصالون.

وقبل أن يلحق بهم أي أذى، تقدم لازار هوش Lazare Hoche، الذي قاد المجموعات الأولى من الحرس الوطني، والذي سيغدو لاحقاً أحد جنرالات الجمهورية

الأقوياء، باتجاه الحشد وأنقذ الأسرة الملكية من الخطر. في الخارج، كان رأسا الحارسين الشخصيين المقتولين معلقين على رمحين يستعرضان حول المكان. وكان رأس ميوماندر دي سانت ماري يتهادى بواسطة نموذج أحد الفنانين الذي يدعى نيكولاس، حيث ألبسه أردية رومانية مزيفة كان يستخدمها في الاستديو. كان ثمة ضحك وهتاف وتصفيق، ولاحقاً في ذلك اليوم، استعيدت التذكارات إلى القصر الملكي، حيث عرضت في الحديقة مثل أعمال شمعية لأحد المواطنين من رجال الحاشية.

ركض لافايت وقد أيقظته الكارثة باتجاه القصر، انتظار حصان ليُسرج. وقبل أن يصل إلى هناك ووجه بجماعة مسلحة تهاجم أياً من الحرس الشخصي تجده وتعد لإعدامه في المكان دون محاكمة. وإذ أمروا بالتوقف، التفت أحد الرجال إلى لافايت وأخبر الحرس الوطني أن يقتلوه. وفي ثورة غضب، انتزع لافايت الرجل الذي حاول اعتقاله. لكنه صرف النظر عن ذلك لإقناع حراسه بإطلاق رجال الحرس الشخصي معلناً أنه وعد الملك أنهم لن يتعرضوا لأي أذى.

وفي صالون دي يوييل دي بوف وجد الأسرة الملكية ترتعش بشدة جراء محنتها. عرفوا أنهم خرجوا من كثافة باب الموت. وإذ استعاد الملك رباطة جأشه تكلم بهدوء، لكن لمرة دون توقف أخرق، إلى حراس باريس ـ أغلبيتهم من الحرس الفرنسي ـ موضحاً أن حرسه الشخصي كان بريئاً من الإهانات التي اتهم بها. وفي رد فعل حدث شيء غير متوقع: أقسم الحرس بالولاء له. وعلى نحو متناقض، كادت رغبتهم بالعودة إلى فرساي أن تسبب نهاية الملكية. وإذ تشجع في هذه اللحظة وافق لويس عندئذٍ أن يذهب إلى الشرفة مع عائلته ويخبر الحشد في قاعة المرمر أنه سيذهب إلى باريس مؤتمناً نفسه «الحب رعيتي الطيبة والمخلصة». وبعد أن هدأ انفجار التصفيق قال، إن حرسه الشخصي قد افتري عليه. لكن كان لافايت بعبقريته الفطرية في المسرح السياسي، هو الذي توّج اللحظة بمعانقة ضابط دون مهمة محددة في الحرس الشخصي وتثبيت عقدة أشرطة ثلاثية الألوان على قبعته. وبتلك الإيماءة أعاد حرس الملك إلى الأمة.

كان ثمة «غريب» آخر يجب أن يُعطى الشرعية. وكانت تلك اللحظة هي الأصعب. طلب لافايت من الملكة أن تقوم بظهور على الشرفة بمفردها. على نحو مفهوم، بعدما تعرضت له، لم يكن لدى ماري أنطوانيت أوهام حول شعبيتها فأحجمت عن الطلب. وسألت: «ألم ترَ الإيماءات العدائية التي أبدوها نحوي؟» ورد لافايت، «نعم سيدتي، تعالي ـ venez. فاستجمعت قواها، وأخذت طفليها معها، لتوُاجه بهدير من الحشد في

الأسفل: «لا أطفال». فقدت عائلة غروز Greuze قوتها للسحر. لكن لافايت ليس كذلك. أخذت ابنها وابنتها إلى الداخل وخرجت إلى الشرفة بمفردها لمواجهة الحشد. وانضم إليها لافايت عندئذٍ و، في ما قال هو لاحقاً كانت لحظة حدس خالص، انحنى وقبل يدها.

كان يمكن للتأثير أن يكون كارثياً، مضحكاً، يؤكد أنه لم يكن شيئاً أكثر من تابع للبلاط يتظاهر بأنه وطني. لكنه فعل معجزة. فصيحات «عاشت الملكة»، التي لم تُسمَع منذ ما قبل قضية القلادة الماسية Diamond Necklace، اختلطت بالتهليل للقائد.

وبعد ثلاث ساعات غادر موكب هائل فرساي، قدره لافايت بستين ألفاً. كان الحرس الوطني في المقدمة والمؤخرة، وكان في الوسط عربة ملكية يواكبها لافايت، مع وزراء حكومة نِكر ومندوبي الجمعية الوطنية وبقية أتباع بلاط فرنسا، كان خلفهم قافلة من العربات الكبيرة والصغيرة مملوءة بالدقيق من صوامع القصر. حمل الجنود والنساء الأرغفة على رؤوس رماحهم وحرباتهم وغنوا أنهم كانوا يجلبون «الخباز وزوجة الخباز وأولاد الخباز إلى باريس».

عند أبواب المدينة، قدم بيلي ثانية مفاتيح المدينة للويس، وذهب الفريق الملكي إلى أوتيل دي فيل حيث نصب عرش لاستقبالهم. وبعد أكثر من ظهور على الشرفة وصلوا في النهاية إلى مكان إقامتهم الجديد في التويليريه عند الساعة الثامنة مساءً. ظن ولي العهد أن غرفته بشعة جداً، غير الملكة كتبت في اليوم التالي إلى ميرسي دارجنتو Mercy d'Argenteau السفير النمساوي:

> *ويبقى ما يطمئن أننا بصحة جيدة، يجب أن نكون مقتنعين بمزاج الشعب وننسى أين كنا وكيف جئنا إلى هنا، لاسيما هذا الصباح، إذا لم ينقص الخبز... لقد تحدثت إلى الناس، إلى رجال الميليشيا ونساء السوق، كلهم لوحوا لي بأيديهم، وقد لوحت لهم بيدي. لقد استقبلت بحفاوة في المدينة، طلب منا الشعب هذا الصباح أن نبقى. وقد أخبرتهم أنه طالما كان الملك وأنا المعنيين، فسيعتمد بقاؤنا عليهم، لأننا لم نطلب شيئاً أفضل من أن تتوقف الكراهية وأن قطرة دم واحدة تُسفَح ستجعلنا نهرب مذعورين.*

من جهتها غنت نساء السوق:

A versail' comme des fanfarons
J'avions amené nos canons
Falloit voir, quoi que j'étions qu' des femmes
Un courage qui n'faut pas qu' on blâme

Nous n'irons plus si loin, ma foi
Quand nous voudrons voir notre Roi
J'aimons d'une armour sans égale
Puis qu'il d'meur dans notre capitale

إلى فرساي مثل شبان جديرين بالكبرياء
جلبنا معنا كل بنادقنا
كان يجب أن نُظهر أنه مع أننا نساء وحسب
الشجاعةَ التي لا أحد يمكنه أن يلومنا بسببها
والآن لن نذهب بعيداً
عندما نريد أن نرى مليكنا
نحبه حباً لا يعادله حب آخر
لأنه جاء ليعيش في عاصمتنا



الصورة 121، لرسام مجهول، العودة المظفرة للبطلات من فرساي في 6 تشرين الأول عام 1789.

نساء يركبن على المدفع ـ رمزاً لقوتهن ـ اللواتي أُعطين منذئذٍ فصاعداً مكاناً خاصاً في المراسم الثورية مثل احتفال الوحدة في آب عام 1793.

وفي اليوم نفسه، قبلت الجمعية الوطنية اقتراح تارجت أن يكون لقب لويس الرسمي الدستوري هو ملك الفرنسيين بدلاً من ملك فرنسا ونفارو. ويجب ألا يكون هناك أبداً أي

تضمين بأية طريقة أن المملكة هي نوع من مُلْكِيَّة. لكن لِـ تارجت كان التصميم الجديد مقصوداً منه أيضاً أن يكون تلاعباً أكاديمياً بالألفاظ، تورية. سيكون لويس تجسيداً لملك الفرنسيين في القرون الوسطى، رئيس أراضي الفرنسيين الذين أعلن اسمهم ذاته حريتهم. لكن ذلك لم يستطع أن ينقذه، لأن الشرط الذي بموجبه سينادى **ملك الأحرار** غدا سجنه الواقعي.

وعلى بعد اثني عشر ميلاً، هجر قصر لويس الرابع عشر العظيم تحت إشراف م. دي لا تور دو بان M. de La Tour du Pin. وقد أُوصِدت أبوابه بأقفال حديدية ضخمة لتمنع اللصوص من نهبه، ووقف عدد قليل من الحراس صامتين في ساحاته. لا يزال الملك لو برن أبولو Le Burn's Apollo يركب عربته ذات العجلتين مقابل دتش Dutch الحديث النعمة على السقف في قاعة المرايا الشاغرة، غير أن جدران الأدراج الرخامية كانت قد اكتست بندبات الطلقات النارية. لقد صار فرساي متحفاً.

CHAPTER 11

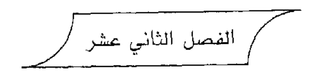
Sources and Bibliography

George Lefebvre's The Great Fear of 1789 remains a masterpiece, the finest of his books. (The episode at Rochechouart is on p. 148). It can be supplemented by his work Les Paysans du Nord Pendant La Révolution Française (Pans and Lille 1924, vol. 1, 356 - 74). For the cultural and psychological roots of the fear of "brigands and the slipperiness of official classification of the vagrant poor, see Olwen Hufton, The Poor of Eighteenth - Century France(22o - 44), and Michel Vovelle, "From Beggary to Brigandage", in Kaplow (ed.), New Perspectives. Madame de La Tour du Pin's experiences are described in her Memoirs (ed. and trans. F. Harcourt, from Journal d'une Femme de Cinquante Ant, London and Toronto 1969, 111 - 14). On the destruction of châteaux in Burgundy, see Joachim Durandeau, Les Châteaux Brulés (Dijon 1895).

I have taken my account of the night of August 4 principally from the Archives Parlementaires and contemporary press reports, in particular the Point du Jour (1789, 23ff.). For the night of August 4 see P. Kessell, La Nuit du 4 Août (Paris 1969). On the debates over the constitution in the autumn of 1789, see Jean Egret, La Revolution des Notables: Mounier et les Monarchiens (Paris 1950), and Paul Bastid, Sieyés et sa Pensée. An extremely useful source for the politics of the Constituent are the "bulletin" written by the deputy Poncet - Delpech to his constituents in the Quercy; see Daniel Ligou, La Premiére Année de La Révolution Vue par un Témoin (Paris 1961). For Mirabeau's conduct during this period, see E. Dumont, Souvenirs sur Mirabeau et sur Les Deux Premiéres Assemblées Legislatives (ed. M Duval, Paris 1832).

On Lafayette, the problems of violence and the National Guard, see Louis Gottschalk and Margaret Maddox, Lafayette in the French Revolution Through the October Days (Chicago arid London 1969. chapters 8 - 12). On the flag - blessing ceremonies, see J. Tiersot, Les Fétes et Les Chants de La Révolution Française (Paris 1908, 14 - 16); also Rogers. Spirit of Revolution (134 - 59). For another eloquently expressed view about the problem of violence and legitimacy, see Abbé Morellet, Mémoires (Paris 1822, 362). Loustalot's extraordinary journalism and his exploitation of violence must be studied in the original. In the number August 2 - 8, for example, he reports that Paris authorities received a chest packed with six heads from various parts of France: Provence, Flanders, etc. The passage quoted at length is from the same number (27 - 29). See also Jack Censer, Prelude to Power: The Parisian Radical Press 1789 - 1791, for an important analysis of these influential publications.

For the October days, see Albert Mathiez, "Etude Critique sur les Journées des 5 et 6 Octobre 1789", in Revue Historique (1898, 241 - 81); vol. 67 (1899, 258 - 94)and vol. 69 (1899, 41 - 66) of the Revue are still important. See also Gottschalk and Maddox, Lafayette in the French Revolution (chapters 14 and 15); Henri Leclerq, Les Journées d'Octobre et La Fin de L'Année 1789 (Paris 1924); Harris, Necker and the Revolution of 1789 (chapter 18); and Rudé, The Crowd (chapter 5). On the role of women in October 1789, see Jeanne Bouvier, Les Femmes Pendant La Révolutaion de 1789 (Paris 1931); Olwen Hufton, "Women and Revolution", Douglas Johnson (ed.), French Society and the Revolution (New York and Cambridge, England, 1976, 148 - 66); Adriers Lasserre, La Partcipation Collective des Femmes à La Révolution Française: Les Antécédents du Féminisme (Pans 1906); and most recently Dominique Godineau, Citoyennes Tricoteuses: Les Femmes dui Peuple à Paris Pendant La Révolution Francaise (Aix - en Provence 1988).



أفعال إيمان

تشرين الأول/ أكتوبر 1789 ـ تموز/ مايو 1790

I ـ تاريخ حي

في 23 تشرين الأول عام 1789، استقبلت الجمعية الوطنية الرجل الأكبر سناً في العالم. كان اسمه جان جاكوب، وقد اقتيد إلى حضور أعضاء الجمعية الوطنية متشبثاً بشهادة ميلاده الموقعة في عام 1669، التي جعلت عمره 120 سنة. وقد زعم المتخصصون في عدم الاحتمال أنه كان هناك حتى من هو أكبر منه سناً؛ فقد كان جون ملفيل، وهو مزارع سكوتلندي، طفلاً عندما دُقَّت رأس شارل الأول عام 1646. غير أن شعر رأس جان جاكوب الأبيض كالصوف وعينيه الشاحبتين كانت شاهداً جيداً كفاية على نزاهته للجمعية لتعلنه رسمياً، كبير الجنس البشري». وقد بدا جان جاكوب ذو الوجه الذي رسمته الغضون أنه ينتمي إلى عصر جيولوجي. لقد وُلِد في السنة التي بدأ فيها قصر فرساي لملك الشمس الشاب وعاش ليراه يصبح زائداً عن الحاجة، إذا لم يُدمَّر عملياً. وإذ عاش منعزلاً على جبل عارٍ في منطقة جورا Jura، كان وجوده الاجتماعي قد حُفِظ في أكاليل الثلج، متجمداً في معايير البلد الإقطاعية القديمة، إلى حد استطاع فيه المندوبون أن يحيوه بوصفه مستحاثة لا تزال على قيد الحياة ـ «قن جبال جورا». والآن، مثلما أعلن بصوت يشبه صوت الخنزير وبشكل مسموع على نحو يثير الدهشة، فقد جاء إلى باريس ليقدم شكره أنه عاش حتى أصبح إنساناً حراً. وقد مُنح حياة ثانية من الثورة معمراً كما كان، مثل فرنسا ذاتها. لقد خَبِر، في إحدى الكلمات الرئيسية لعام 1789، نعمة الولادة الثانية. وفي المقابل أسهم كل نائب بثلاث ليفرات على الأقل احتفالاً بحيويته المستمرة.

وزعم المواطنون الكبار السن، الذين بدوا مجرد مراهقين إلى جانب جان جاكوب، أنهم يشعرون بأن الثورة مثل دم جديد يجري في عروقهم أيضاً. فقد أقسم الكونت دي لُك، وهو نبيل حقيقي متحمس، أن الثورة عالجت مرضه بالروماتيزم. واستعاد فارس دي كالبير الذي بلغ عقده الثامن من العمر شبابه إلى درجة أصبح فيها ملحناً غزيراً للأغاني الوطنية (بما فيها واحدة تعلن بطريقة لا تترك انطباعاً طيباً، أن الحرية «أعز إليّ من الحب بمائة مرة»).

وحماس دي كالبير دفعه إلى تشكيل كتيبة حرس وطني خاصة من المحاربين القدماء والمحنكين التي لم تقبل أحداً تحت سن الستين وكان إطلاق اللحية فيها إلزامياً. (وقد اكتشفت بعض الوثائق المزيفة في محاولات غير مجدية لتأمين اعتراف بها). حُفِظت أماكن خاصة للوطنيين المحترمين في المهرجانات الثورية والمناسبات، غالباً إلى جانب الأطفال، وهذه تعبيرات رمزية للماضي «القوطي» الذي حُرِّرت فرنسا منه والمستقبل البريء الذي بُعِثت فيه. وهكذا عندما كان يظهر صبي في الحادية عشرة من عمره في الجمعية بإبزيميه الفضيين وقبعة تعميده بوصفه «هبة وطنية» ويسأل أن يُسمَح له بحضور المناظرات، كان طلبه يلبى ويعطى مديحاً أن سماحة نفسه تظهر أنه استفاد من تعليم المواطن الرائع الذي قدمه والداه.

خلال سنتها الأولى، استمتعت الجمعية الوطنية بكل أنواع مظاهر الإخلاص والتفاني الوطني. وقد كانت لبعض الوقت، ملتزمة بعمل ملموس لإعطاء فرنسا مؤسسات جديدة في الحكومة والتمثيل، في المقام الأول، وتصرفت أيضاً كمسرح سياسي: المكان الذي تمسرح فيه الخطابة والإيماءة، وحتى في بعض المناسبات الشعر والموسيقى المبادئ التي قيل إن الثورة تدعمها. وما دامت الجمعية قد تبرأت من التاريخانية والسابقة الزمنية، كان بالضرورة على هذه المبادئ التي تعطي الصفة القانونية، أن تزعم صلاحيتها الشاملة. وقد عكست بعض المظاهر قبل منبر الدائرة الانتخابية (كما سمت الجمعية نفسها آنئذٍ) تلك الشمولية كما ينبغي. ففي أوائل تموز 1790، على سبيل المثال، قام مدانان من الكانتون السويسري في مريبورغ، كانا قد حكما بالعمل على المراكب الشراعية، بظهور رسمي. استخدمت فرنسا مراكبها الشراعية ليس لمجرميها وحسب بل، في عقود مربحة، لتلك الدول الأوروبية الأخرى التي تحتاج إلى مكان ما لرمي أشيائها غير المرغوبة. لم تكن الجمعية قد اتخذت بعد خطوة إلغاء عقوبات العمل على السفن الشراعية في ما يتعلق بالسكان المحليين (لسبب واحد، كان ثمة خوف شعبي قرب مستودعات المتوسط

والأطلسي من أن الموسومين للعمل على السفن الشراعية كانوا على وشك إطلاق سراحهم). لكنها كانت متلهفة إلى أنها لن تُستخدَم بعد الآن كأداة «العبودية» حقيرة «للحكومات الأوروبية المستبدة». وقد شجع المندوبون المحكومين السويسريين وعانقهما الرئيس، واستعرضا كبطلين، وكان اسم أحدهما بضربة حظ سامية هوغنت، وعلقت سلاسل أصفادهما من العوارض الخشبية في سقف كنيسة إغليس دي بريمونتري Eglise Prémentrés كإيماءة وتحذير. وقدمت، على شرفهم، مسرحية بعنوان المجرم الشريف في تلك الليلة على خشبة تياتر فرانسيز Théâtre - Français. كانت هذه العروض المسرحية أكثر من مشاهد في سيرك ثوري. لقد دعمت إيمان المندوبين الذاتي وأعادت طمأنتهم بأن أمتهم بعد كل شيء ليست وحيدة في العالم بل هي جزء من عائلة ما أكبر وتمتد إلى ما لا نهاية من «المضطهدين» ـ الذين ربما يتطلعون إلى فرنسا الآن من أجل تحريرهم. وفي 19 حزيران 1790، ظهر وفد الممثلين من «أمم العالم المضطهدة» بقيادة «خطيب النوع البشري» أناخارسيس كلوتس Anacharsis Cloots الذي عيَّن نفسه في تلك المهمة بأزياء وطنية مناسبة ـ ألمانية، هولندية، سويسرية، وحتى هندية وتركية وفارسية، وقد لفَّ كل منهم نفسه بوشاح ثلاثي اللون. فحيّوا الجمعية لأنها «استعادت المساواة الأولية بين البشر» ووعدوا أنهم «مشجعون بالمثال الفرنسي المجيد، ستحطم كل شعوب العالم التي تتلهف على نحو متساوٍ إلى الحرية نير الطغاة الذين يضطهدونها قريباً». وفي رد، أخبرهم الرئيس، مينو Menou، بذكاء أن يذهبوا بعيداً لكن بلغة ستؤخذ على أنها إطراء أكثر منها رفضاً. قال عليهم أن يصبحوا رواد العصر الجديد. وإذ يعودون إلى بلدانهم الأصلية يجب أن يسعوا إلى جماهيرهم مع حكامهم المعنيين ويرشدوهم أن يحاكوا المثل العظيم والصالح لمسترد الحرية، لويس السادس عشر.

وجد المشككون الأمر كله يثير الضحك. كتب فريير Ferrières إلى زوجته لا شك أن الجماعة المتعددة الألوان استأجرت أزياءها من خزانة ملابس الأوبرا. لكن بقدر ما كانت تلك المناسبات حمقاء، فقد تماثلت مع دين الأخوة والصداقة العالمية المليء بالحكم والمواعظ على نحو مماثل كونها تُبَشَّر في خطاب ونص، ليس آخرهم، كلود فوشيه Claude Fauchet. ففي عظاته كلها، المطبوعة في مطابع نيكولاس دي بونغييه بوش دي فير Nicolas de Bonneville's Bouche de Fer، وعظ فوشيه، وهو كاهن من كان Caen، بعالمية مسيحية (استلهمها من أفكار جان جاك روسو) التي كانت المبدأ التأسيسي «للدائرته الاجتماعية» ـ ليست نادياً، كما أكدّ هو، بل رابطة من المواطنين المشتتين فوق سطح المعمورة. قبل الثورة، كان العالم محكوماً بقوانين الحسب والنسب التي سعت إلى

تقسيم الناس. والآن يستطيع الناس أن يتعلقوا بأكثر تعاليم المسيحية جوهرية، ألا هو الحب الكوني، ويجدون الحرية الحقيقية في الأخوة. وكما أوضح فوشيه، اختار شعار الدائرة نفسه بنفسه بسبب قوته الموحدة. والوسيلة التي بواسطتها سيتحقق «حلف العائلة» العظيم هذا هي الولادة الثانية الأخلاقية للحقيقة في تحالف مع العقل. وقد روّج خطباء وكتاب آخرون الأفكار الحديثة مثل النباتي العالمي روبير بيغوت Robert Pigott (الذي وسّع رسالة الأخوة إلى مملكة الحيوان) والصاحبي Quaker ديفيد وليامز David Williams، حيث ردد الحاجان الإنكليزيان إلى مكان الحرية المقدس أصداء فوشيه المدنية العاطفية.

لأغلبية المندوبين، مع أن، مملكة حب وأخوة فوشيه الألفية كانت مجرد بالون طوباوي تحرك بهوائه الخطابي الساخن لتسوقه الرياح فوق المشهد الثوري. كان عملهم الخاص، كما افترضوا، أرضياً بكل ما للكلمة من معنى. ومع ذلك فالرجال الذين صنعوا لجان الدوائر الانتخابية ـ مصدر القوة الحقيقي للتغيير المؤسساتي ـ كانوا هم أنفسهم تقودهم مبادئ ليست أقل تجريداً وتفاؤلاً في نواحٍ كثيرة. وإذا لم يتمكنوا من ترتيب المشاركة في الدين العالمي الذي قدم الناس جميعاً كأخوة ينتظرون العناق الأخوي، استطاعوا أن يفترضوا مقدماً أن الفرنسيين، في الأقل، يمكن أن يُعامَلوا بطريقة متماثلة لأنهم تحركهم رغبات مادية أو حاجات عقلية متساوية. فكوندورسيه Condorcet، على سبيل المثال، رجّع صدى حقيقة أساسية لدى روسو أن الناس جميعاً متساوون وأنهم لم يفصلوا عن تلك المساواة الطبيعية إلا بإضفاء الصفة الاجتماعية التعسفية على المؤسسات التي مُنِحت سلطة غير شرعية. وقد تطلبت وجهة النظر التنويرية المتأخرة منهم أن ينزعوا تلك الإضافات «القروسطية» من التاريخ ـ التقسيمات التعسفية لسلطة الأعراف والعادات التي كانت جميعها من نتاج الغزاة القدماء. وستستبدل بمؤسسات عقلانية موحدة تجلب الناس إلى علاقات في ما بينهم كمواطنين ملزمين بنفس القوانين وخاضعين لنفس السيادة: سيادتهم.

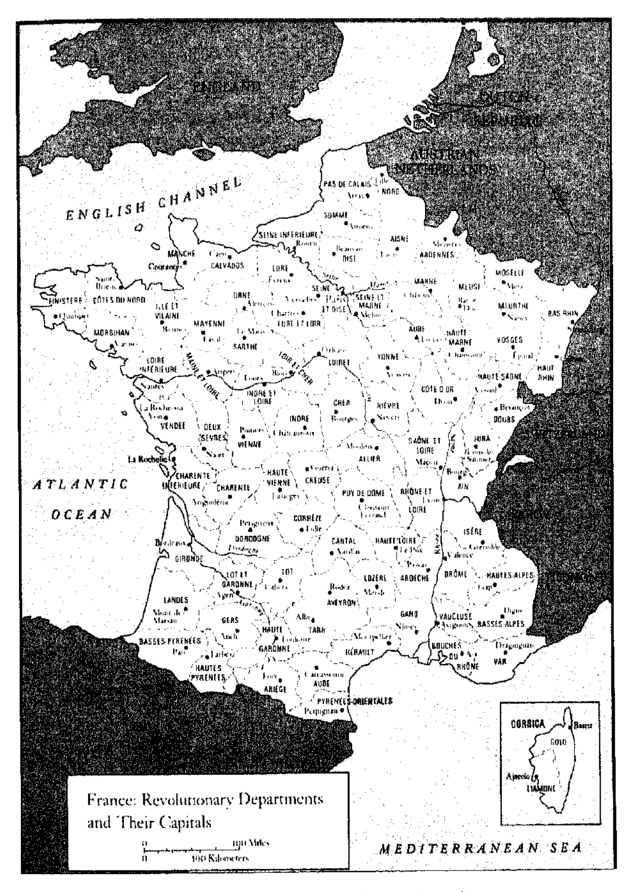
سبق لإعلان حقوق الإنسان والمواطن وأن عبّر عن جوهر هذه الفكرة، لاسيما في المبدأ السادس لـِ تاليران Talleyrand، الوضع المتساوي أمام القانون وأهلية المواطنين جميعاً لأي منصب تؤهلهم له قدراتهم. وفي الممارسة ألزم الجمعية بأن تمزق إلى نتف كل النموذج المتنافر في السلطات المتداخلة التي ميزت النظام القديم وتغطي فرنسا بعباءة واحدة هو زي الحكومة الرسمي. ولم يكن ثمة أكثر تحمساً حول هذا العمل من ذينك

الرجلين المتطرفين في العقلانية في الثياب، سييه Sieyes وتاليران. وكان الأخير هو أول من اقترح تماثل الأوزان والمقاييس وسييه هو الذي كان وراء الاقتراح المروّع لاستبدال أقاليم فرنسا بشبكة من ثمانين مربعاً متساوياً تعرف «كمقاطعات departments».

قدم إلى الجمعية عضو المحكمة السابق من روين Rouen، ثوريه Thouret هذه القطعة المتصلبة من علم الحساب السياسي التي كان لمقدمتها المنطقية أن تقسيم فرنسا إلى سلطات مختلفة ومتداخلة على نحوٍ نزوي في الضريبة (المزارع) في الكنيسة (الأبرشيات) في القيادة العسكرية (الأمريات) وفي العدل (ممثل الملك في منطقة) غير المنسجمة مع «حكومة تمثيلية». وبدلاً من ذلك كان على فرنسا أن تُعقلَن، فيجب تكعيب الشكل السداسي لفرنسا لأن الجذر 3 يبدو أنه كان مستحوذاً على المشرعين الثوريين، ربما بتأثير الحقائق الماسونية. كان يجب أن تكون هناك 81 مقاطعة في خطة ثورية، مساحة كل منها 324 فرسخاً مربعاً، والإضافة إلى الشبكة كانت لباريس. وستنقسم كل مقاطعة بعدئذٍ بشكل متناسب إلى تسع مناطق ثم كل منطقة إلى تسع دوائر. وسيكون لكل وحدة ممثل محلي في الجمعية التي ستنتخب منها الحكومة المحلية.

بقدر ما كان هذا المقياس راديكالياً، فقد مثّل ذروة خطط رؤيوية كثيرة قُدِّمت في ظل النظام القديم. كانت لِـ أرجنسن Argenson، في عهد لويس الخامس عشر، الذي كان أول من صاغ مصطلح مقاطعة، ولطالما تعلق الفيزيوقراطيون مثل دوبون دي نيمور Dupont de Nemours بتضافر التوافقية الصارمة مع التفويض الحكومي. وإذا ما عولج الأمر بشكل منطقي، فستحكم فرنسا في النهاية بممارسات علمية بدلاً من مجموعة «آراء مسبقة» متوارثة تافهة.

لم تسر هذه الرؤية لمعايرة فرنسا وتقسيمها إلى وحدات متساوية أحداً في كل حال. اتهم ميرابو Mirabeau الذي كانت غرائزه بقدر ما هي رومانسية، كانت عقلانية اللجنة التي قدمت المشروع «بالنزعة الهندسية» المفرطة وبالنزعة التفصيلية وحاول أن يبرهن على أن الوحدة الأكثر معقولية في القياس هي السكان بدلاً من الامتداد الجغرافي البسيط. وفي هذه الطريقة سيكون ممكناً أيضاً أخذ الطبوغرافيا المحلية والأنهار والجبال والوديان والغابات التي تعطي منطقة معينة هويتها بالحسبان. وغدا واضحاً بسرعة أن أغلبية المندوبين فضلوا هذا الأسلوب من النشوء حتى لو ورطهم في نقاشات محلية لا تحصى بشأن حدود المقاطعة التي سيتم تجنبها بمعاملة الشبكة. وكانت بيزانسون نموذجية في عدم رضاها كونها تدنت مرتبة من مقعد في المحكمة إلى مجرد بلدة رئيسية في مقاطعة



الصورة 122، خريطة فرنسا؛ المقاطعات الثورية وعواصمها

دوب Doubs. وقد أرسلت المدينة إلى الدائرة الانتخابية الأب ميلو Abbé Millot ورجل القانون بوفينو Bouvenot ممثلي اعتراض خاصّين للشكوى أنه بينما المقاطعات المجاورة مثل هوت ـ ساون Haute - Saône قد خصصت بالأراضي الواطئة الخصبة، هيمنت الجبال والأراضي الصخرية المرتفعة على مقاطعة دوب. فهل حكم على بيسانشون الآن بالضعف كالند لبلدة لا تستحق احترام الذات مثل لون لاسونييه Lons - Le - Saunier، هجرت منازلها ومبانيها وتتحول إلى زرائب مكشوفة، وشوارعها وساحاتها مليئة بالأعشاب الضارة»؟

وتكررت هذه الأنواع من الشكاوى في كل أنحاء فرنسا، لكنها مسترشدة بالفلكي رسام الخرائط الكونت دي كاسيني Comte de Cassini، ومقاومة أجواء أشهر كثيرة من المناظرات، أخذت مقاطعات فرنسا الثلاث والثمانون (رقم لا يقبل القسمة على ثلاثة لحسن الحظ) شكلاً، مباركة باسم سُحِب من جغرافيتها المحلية. من النورماندي وبروفنس وبريتاني، ثم، جزئت إلى المانش، كالفادوس وبوش دي سين، غارد، فار وبوش دي رون؛ موربيهان وفينستر. كان وضع الأسماء، ويبقى، نوعاً من الشعر البيروقراطي: أصلح الإحساس العقلانية.

وكانت هناك ممارسات رمزية هامة أخرى لتسوية الفروق الخارجية التي فرقت المواطنين. ففي تشرين الأول عام 1789 ألغى المندوبون رسمياً الأزياء الرسمية للجماعات الخاصة. وفي 19 حزيران 1790 اتخذوا الخطوة الأكثر دراماتيكية باجتثاث كل ألقاب النبالة المتوارثة. عندما تم التخلص من أشكال كثيرة لواجبات عمل إقطاعية في آب الماضي، كان لا يزال مفترضاً على نطاق واسع أن أشكال النبالة ستبقى كمرتبة شرفية. لكن الآن أعلنت الدائرة الانتخابية أن هذا لا ينسجم مع المساواة القانونية للمواطنة. وعلى نحو سريع حُظِرت كل شارات التفوق الاجتماعي: شعار النبالة على المنازل والعربات، أزياء الخدم أو السائقين (اعتبار هام في ما يتعلق بنخبة النظام القديم الأخيرة) مقصورات النبلاء وديكة الرياح. من الآن فصاعداً لن يحمل مواطن اسماً يعبر عن هيمنة أو ملكية مكان ما. شارة هويته الوحيدة المتوارثة يجب أن تكون اسم عائلة أبيه.

وكان الشيء الأكثر جدارة بالملاحظة بشأن هذه التحولات هو أنها، مرة أخرى على نحو غامر، عمل الأرستقراطيين، النبلاء سابقاً. ومع أن الأرستقراطيين لم يكونوا يهيمنون على الجمعية عددياً، كانت اللجان التي أعدت مشروع الدستور وزودت فرنسا بشكل مؤسساتها الجديدة محصورة بنخبة مثقفة صغيرة نسبياً، كثيرون ممن عرف بعضهم

الآخر قبل الثورة وعدد مدهش ممن كانوا موظفين في العهد الملكي القديم في الجيش أو القضاء أو الحكومة أو الكنيسة. شيء واحد لم تكنه الجمعية التأسيسية هو بوضوح لم تكن بورجوازية.

يمكن إيجاد المندوبين ذوي الأصول الارستقراطية حتى بين هؤلاء الذين انتخبوا للطبقة الثالثة ـ ليس مجرد الحالات الشهيرة مثل ميرابو، بل إدمون دوبوا كرانسيه Edmond Dubois Crancé، سيد بالان وضابط الجيش الذي احتل مقعد فيتري ـ لا فرانسو، ولويس لابورد دي مرفييه من فرع عائلة مالية كبيرة، الذي انتخب لمقعد دراغوينان الثالث في مقاطعة بروفنس، ولويس دي نوريسار، سيد بريتان الذي انتخب لمقعد ليموج الثالث. وكان هناك مالا يقل عن 38 عضواً في المحكمة بين المندوبين بمن فيهم ثلاثة رؤساء كانوا جميعاً تواقين لتوجيه ضربة مميتة لمؤسساتهم السابقة. وكان عدد ضباط الجيش في الجمعية مدهشاً أيضاً، كثيرون طبعاً مندوبين للنبلاء. وعلى نحو كاسح، كان الرجال الذين خلقوا فرنسا الجديدة مسؤولين في النظام القديم؟

هذا واضح، إذن، أن التضامن الذي تولّد بين هؤلاء الرجال من خلال التجربة الدرامية في فرساي في ربيع وصيف عام 1789 أبطلت أهمية أصولهم الاجتماعية. فهم الآن مرتبطون معاً بتاريخهم الحديث المشترك، لكن ربما أيضاً بعاداتهم الثقافية. لقد قرأوا جميعاً الكتب نفسها حتى ولو لم يتفقوا على الأهمية التي يجب أن تُعطى لها. وكان طبيعياً تماماً، على سبيل المثال، في السجال حول السلطات التي يجب أن تُعطى أو تُرفَض الاستشهاد بمونتسكيو، تماماً كما كانوا يفعلون في احتجاجات المحكمة. وقد وجدت وأساليبهم المتنوعة في الخطابة ـ القانونية، المسرحية، الدينية، الأدبية ـ جميعاً جماهير مستجيبة. كانت الإحالات إلى بلوتارك أو شيشرون مفهومة حالاً. وكانت اهتماماتهم التشريعية التي تُقرَأ مثل أجندة في أكاديمية محلية: إصلاح العدالة، التفكيك الانتقائي للاقتصاد المشترك، الخطط الشاملة للتعليم، فرنسا المحكومة بالمرافق الاجتماعية أكثر منها بالأحكام المسبقة المتوارثة، كانوا جميعاً مخلصين للعقل وأنصاراً متحمسين للفضيلة. وفوق كل شيء، رأوا أنفسهم أنهم وطنيون. ويمكن حتى أن يقال إنهم شكلوا أرستقراطية جديدة، تلك التي كانت أوراق اعتمادها المطلقة امتلاك لغة سياسية، والتي كانت خصائصها الأكثر إثارة للنظر حرب رمزية على الطبقة ذاتها التي جاء معظمهم منها.

لم تكفل واحدة من صلات التقارب تلك الانسجام السياسي. فقد شاهد النصف الثاني من عام 1789 وعام 1790 في الواقع انشقاقاً حاداً متزايداً بين رجالٍ من خلفيات

متماثلة وصداقات قديمة، التزموا آنئذٍ بمواقف سياسية متعارضة. وقف أدريان دوبورت، الذي كان مستشاراً في محكمة باريس، وميشيل ليبيليتر (سابقاً، دي سانت فارغو) والذي كان أحد رؤسائها، ضد الملكية بشدة، ووصفه فيريير Ferrières أنه «من اليسار» - الاستخدام الأول للمصطلح في التاريخ الأوروبي. وقد انضم إليهما الارستقراطيان الأخوان دي لاميث de Lameth اللذان خدما مع لافايت في أمريكا لكنهما انتهيا إلى التوجس خيفة من قيادته لجيش المواطن.

وقد هيمنت تلك المجموعة، التي قدَّمت بارناف بوصفه خطيبها الأكثر تأثيراً وصلابة، على جلسات **جمعية أصدقاء الدستور**، التي اجتمع أعضاؤها في دير قديم لليعاقبة في شارع سانت هونر Saint - Honoré بعد انتقال الجمعية الوطنية إلى باريس. غير أن عدداً من زملائهم القدامى من جمعية الثلاثين وخليفتها «نادي بريتون» Breton Club في فرساي، انسحبوا وشكلوا نادي 1789 المنافس. وكان بينهم ميرابو وسييه وتاليران. وبينما تودد اليعاقبة بنشاط إلى الجمهور العام وقبلوا غير مندوبين في عضويتهم وعلى منبرهم، كان أتباع نادي 1789 أكثر حصرية بالاختيار، يرون جمعيتهم استمراراً لنقاشات العشاء ووجبات الفطور السياسية التي خلقت استقلالية الطبقة الثالثة في الشتاء الماضي. غدت الآن اهتماماتهم أكثر عملية، أو الأحرى أكثر انخراطاً في مشكلات خلق دولة قابلة للحياة. وبينما رأى بارناف والأخوان دي لامِث أن الخطر الأساسي على الثورة قادم من مؤامرة ملكية واختزال الديمقراطية، رأى ميرابو وتاليران أنها مهددة جدياً بالفوضى والإفلاس. وقد ارتابت قيادة اليعاقبة بأتباع نادي 1789 أن يكونوا متآمرين نخبويين، وردَّ خصومهم التحية بتصوير لامث وبارناف أنهم لا يتحلون بالشعور بالمسؤولية وثرثارون ومؤمنون بأنهم أكثر استقامة.

وكان في الرهان أكثر من اختلافات الشخصيات السياسية، التي هي هامة جداً مع أنها كانت وستبقى في كل مراحل الثورة. (كانت معاينة هذه الخصومات الشخصية كمسألة جدية في السياسة الثورية إحدى أكثر المحذوفات الفاضحة في كتابة التاريخ المعاصرة.) وما كان مشكلة هو أولويات الثورة، وسبب حدوثها. وفي ما يتعلق بيعاقبة عام 1789 و1790 انقلب كل شيء إلى ضمان تمثيل حر ومسؤول وإخضاع الدولة للمواطن. ولخصومهم الأكثر اعتدالاً، الذين انخرط كثيرون منهم، مثل دوبون دي نِمور وتاليران في إصلاح الوزارات الملكية - كانت وجهة نظر الثورة خلق فرنسا أكثر قوة وديناميه. وسيكون المواطنون ممتنين للدرجة التي تكون فيها الدولة التي يمثلونها قد تعززت هي نفسها، لا

شيء من ذلك حدث في السنوات الثورية التي أرجأت فعل أي شيء لجعل ذلك السجال الأساسي يغادر المنبر.

وقد تفاقم ذلك على نحو متزايد بالطابع غير السوي للحكومة الرسمية. فقد فشل نِكر Necker بشكل واضح رغم كل الآمال المعقودة عليه، في تقديم نوع من السلطة الدستورية تحل الأزمة المالية المستمرة في فرنسا. وإعلان حقوق الإنسان لم يجعل تهديد الإفلاس يتلاشى، بضرب من الخيمياء السياسية. ففي آب، جاء نِكر إلى الجمعية وهو بحاجة إلى قرض بقيمة 80 مليون لخدمة السنة وضمان السلطة الضرورية. وبحلول أواخر أيلول، في كل حال، ظل الوضع محفوفاً بالمخاطر وعاد إلى الجمعية التأسيسية باقتراح جباية ضريبة تقدر بربع الدخل السنوي. وقد استثنى المواطنون الذين يكسبون أقل من 400 ليفر في السنة، الضريبة يمكن دفعها على مدى أربع سنوات وتعتبر ديناً رسمياً، تعيد الحكومة دفعه عندما تسمح أوضاعها المالية بشكل تدريجي.

وعلى نحو متوقع، سبب الاقتراح صخباً في الجمعية، وميرابو، الذي استمر في مقت نِكر، و، إلى أن منعت الجمعية التأسيسية المندوبين رسمياً من أن يصبحوا وزراء، أمل أن يحل محله كرئيس وزراء المواهب، وكان سعيداً برؤية إحباط الرجل القادم من جنيف الواضح. وقد كتب إلى دائرته الانتخابية في آيكس Aix أن الإفلاس يُستخدَم كتهديد لإكراه الجمعية على قبول ضريبة ستكون شديدة على المواطنين العاديين. «وما دام الإفلاس سيقع على رؤوس كبار الرأسماليين في باريس وبلدات أخرى الذين يدمرون الدولة بمعدلات فائدة باهظة هم يحددونها، فلا أرى أنه (الإفلاس) سيكون هذا الشر المستطير».

وغيَّر رأيه بشكل واضح بعد عدة أسابيع فحسب. ومع أنه ظل متشككاً بخطة نِكر، مثَّل ميرابو الآن الإفلاس بأنها كارثة مروعة سوف تقع على الأرملة التي لا حول لها والتاجر الشريف. «ما هو الإفلاس إذا لم يكن الأكثر قسوة والأكثر جوراً والأكثر عدم مساواة والأكثر كارثية بين كل الضرائب؟» ويجادل من أجل وسيلة لتجنبه، ويقترح خطة بديلة، يعني قرضاً مفروضاً بالقوة أكثر انتقائية على أصحاب الثروات الكبيرة، وهدد ميرابو بقدراته الخطابية المولعة بالقتال أن يواجه الجمعية بعيوب سذاجتها الجماعية. كان أداءً استثنائياً، يغلي بالإغاظة والغضب ونفاذ الصبر العنيف. ومع أن ميرابو تحدث عن التضحية بالمال، وليس الحياة، فإن أسلوبه الروماني في الأداء عجّل تماماً بغلو أكثر شؤماً سيأتي. كان روبسبيير Robespierre بين هؤلاء المندوبين الذين أصغوا فيما حثّ

الخطيب على عقوبة انتقائية وحذر هؤلاء الذين أجفلوا منها أنهم سيتحملون المسؤولية:

«اختاروا! بالتأكيد ثمة ضرورة لأن يهلك عدد صغير وبالتالي يمكن إنقاذ عامة الناس؟... اضربوا، دمروا دون شفقة هؤلاء الضحايا المثيرين للشفقة ارموهم إلى الهاوية... ماذا هل ترتدون مرعوبين؟ أيها التافهون، والجبناء...

المتأملون الرواقيون بالشرور الكثيرة جداً التي ستتقيؤها هذه الكارثة على فرنسا، الأنانيون فاقدو الحس الذين يفترضون أن اليأس الشديد والفاقة سوف تمر مثل أشياء كثيرة أخرى... هل أنتم متأكدون من أن رجالاً كثراً دون خبز سيدعونكم في سلام لتستمتعوا بالأطباق التي لم تقلصوا لا عددها ولا أطعمتها الشهية؟ لا، سوف تهلكون وفي الحريق الشامل الذي لا تخافون من إضرامه، لن ينقذ فقدان «شرفكم» واحداً من أفراحكم المقيتة.

وإذا، كما اختتم، بإجراءاتهم الأولى، «تجاوز المندوبون الأعمال الشائنة للحكومات الأكثر فساداً»، ما كانوا ليملكوا أي حق بثقة الشعب، ولظهرت كل الوعود بالحريات الدستورية أنها مبنية على رمال.

وكانت الحقيقة في معظم برهان ميرابو مثيرة للانتباه. فما لم تُلبَّ حاجات الدولة بشجاعة وسرعة، سيبقى النظام الجديد ثورة على ورق. غير أن المندوبين في الجمعية لم يبالوا بشجبهم كجبناء و«أنانيين»، عبارة سوء سمعة مأخوذة من مفردات روسو التي دخلت عملة الاتهام السياسي والتي ستُستخدَم بغاية قاتلة خلال سنوات الإرهاب. وعلاوة على ذلك، شككوا بسمسرة ميرابو للسخط الشعبي لترويج شعبيته الشخصية، وفي الوقت نفسه يفوز بحظوة لدى البلاط.

وقد كانت هذه الشكوك في الواقع مؤسسة على أرض صلبة. فقد بينت معارضته للفيتو المقيَّد ودعمه للإشراف الملكي على قرارات الحرب والسلم أن ميرابو ظل ملكياً مخلصاً. لم يرَ تناقضاً بين هذا الموقف وتبنيه لهموم الشعب، ما دامت بالضبط نوعاً من «ملكية شعبية» رأى أنها الأفضل التي تناسب فرنسا. ومع ذلك، في الممارسة، جعلته يسلك ما سيبدو بعد موته نفاقاً مكيافيلياً. ففي أوائل تشرين الأول، قدَّم نفسه من خلال أحد الوسطاء أنه أمل الملك الأفضل لاستعادة السلطة الملكية. والوسيلة التي سيحقق بها ذلك كانت مثيرة للدهشة. أوصى ميرابو أن ينتقل البلاط إلى رون، حيث لن تكون في متناول الترويع الباريسي، وفي الوقت نفسه تصدر إعلاناً عاماً تصر فيه على أن هذا ليس لتدمير الثورة بل لترسيخها.

كان ذلك خطيراً وفانتازيا مغرقة في الخيال. لكن تمّ الحلم به ليس لترويج نجاح ميرابو الشخصي وحسب (مع أن ذلك هام دون ريب) بل لاستثمار الجانب التنفيذي في الثورة ببعض السلطة المفيدة. أو بطريقة أخرى، عرف الخطيب أن الحدث كله سيُجرَف وينسف بعواصف خطابية فارغة بين الفوضوية والحكم الاستبدادي.

II ـ الردة

من سيساعد ميرابو في خطته الطائشة؟ طبيعي استدار إلى زملائه في نادي 1789 لعزل نِكر وتشكيل حكومة إنقاذ وطني بديلة. غير أن انتقاءاته ـ دوبون دي نيمور، سيغور، بانشود، تاليران ـ بدت على نحو غريب مثل لم شمل مجموعة مستشاري كالون الصغرى. كان لافايت أحد الاستثناءات. وبقدر ما غدا الجنرال شخصية معبودة شعبياً، قلّ حب ميرابو له، وقد كناه ساخراً باسم «قيصر المخبول». غير أنه أجبر على الاعتراف بأن صعود لافايت الفعال لابد منه لإعطاء الشرعية «للانقلاب» الذي كان يخطط له. وما كان أكثر أهمية من أي شيء آخر، تبعاً للظاهر، هو اختياره لتاليران وزيراً للمالية.

ربما مقرض مزمن وحيد مثل ميرابو أمكنه أن يفكر أن هذا منصب مناسب. فمع كل نوعية تاليران الممتازة إلا أنه لم يكن نزيهاً حيث كان المال هو المعني. لقد بنى شهرته العامة كمدير ومحاسب لأملاك الكنيسة وكانت تلك معرفته الأولى برأسمالها المغلق الذي قاده إلى حل جريء لتمويل الثورة. مثل ميرابو، أدرك تاليران تماماً الحاجة إلى تعزيز سلطة تنفيذية ممكنة التطبيق إذا كان لفرنسا الجديدة ألا تغدو كائناً عاجزاً لنزوة مشروعة. وكانت كل قدراته المجربة بيروقراطية، عقلانية ومؤيدة لأفكار فولتير. لقد أراد أكثر من أمة يرتبط مواطنوها الأفاضل معاً في عناق أخوي، أراد دولة ـ أمة متجددة: إمبراطورية عقل، حيث السيادة للحس لا للحساسية. غير أنه أدرك أيضاً أن القوى ذاتها التي جعلت ميرابو شخصية هامة سلبته حسه السليم. ومثل صديقه، أحب المقامرة، وبقدر ما كان ممكناً إنسانياً أراد أن يراهن على شيء مؤكد. فأين يمكن أن يوجد ذلك؟

وفي الأسبوع الأول من تشرين الأول عام 1789، فيما كان ميرابو يستعد للذهاب إلى البلاط، لمّح تاليران إلى ثروة الكنيسة. كان لا يزال أسقف أوتن Autun لكن من حيث اللباس، في الأقل، جرَّد نفسه من اللباس الكهنوتي ولم يسمح إلا لملمح صليب أنيق على الصدر تحت معطفه يشير إلى منصبه الأسقفي. عندما كان أصدقاؤه ينادونه «الأسقف»، كان ذلك عادة بابتسامة عريضة على وجوههم كما لو أنهم يستمتعون بمزحة

بريئة. ومع أنه لم يكن كلبياً كما أحب كثيرون أن يفكروا أنه كذلك، فقد عاملوه مثل فولتير في قبعة أسقف. ومثل الأرستقراطيين المرتدين، لم يفاجأوا قط عندما طبّق تاليران على الكنيسة مبدأ شن الحرب على طبقة المرء ذاته.

وفي 10 تشرين الأول، في سياق خلاف آخر على المالية، أعلن تاليران ما دامت الدولة مهددة بكارثة مالية، «تتطلب المخاطر الكبيرة معالجات قاسية بالمثل». وكان الجواب في المتناول، مورد هائل كامن غير ظاهر في ممتلكات وأراضي الكنيسة. وإذا ما استعيدت «للأمة» يمكن أن تُستخدَم كضمان مقابل قرض جديد أو حتى أن تُباع لتلبية الحاجات الضاغطة في الدولة. كانت تلك اللامبالاة التي أُسقِطت بها هذه القنبلة ما أثار سخط زملائه من الكهنة بشكل خاص. زعم تاليران أن المسألة لا تحتاج إلى نقاش طويل «ما دام الأمر واضحاً أن الكهنوت ليس مالكاً في المعنى نفسه مثل الآخرين، وما دامت الملكية التي يملكون استخدامها لا يمكن أن تغرَّب بحرية وكانت قد أعطيت لهم ليس لمنافعهم الشخصية بل لممارسة مسؤولية أو وظيفة»، مستخدماً تأثير أسلوبه العاطفي الأكثر قبولاً.

كان تدخل تاليران أكثر تأثيراً لأنه لم يعتمد على النزعة الفظة المعادية للكهنوت من أجل تأثيره. ومع أنه سيُشجَب في المنبر كيهوذا، وقس الشيطان والوحش المعادي ليسوع (بين أشياء أخرى) لم يكن في الواقع أسقفاً ضد الكهنوت. كانت ميوله عملية وشمولية، وفي ذلك المسار للأشياء كان للكنيسة دور اجتماعي مميز، إدارة حاجات المؤمنين، وتقديم العون الروحي لهم في زمن الإحباط وإبقاؤهم على علاقة منتظمة مع الدولة. وفي ما يتعلق بهذا العمل، كما أوضحه في خطابه في 10 تشرين الأول، ستضمن الدولة أجور عيش لائقة لرجال الكهنوت ـ فوق المستوى الذي عادة ما تمتعوا به في خدمة رجال الدين. كان يجب أن يعملوا مرشدين أخلاقيين.

وبدا أن طابع منطق تاليران الرائع الذي يقول: «لا بد أن كل الناس ذوي النوايا الطيبة والحكم السليم يجب أن يتفقوا بالرأي» لم يكن عنيفاً كما حاول أعداؤه الكثر أن يظهروه. كان رأيه بالكنيسة متفقاً مع الموقف المعلن في الفكر السياسي في أواخر عصر التنوير. على الرغم من كل النزعة العقلانية للإيمان عند فولتير، فقد فكر دائماً بالدين، المجرد من سلطته القسرية بطريقة قانونية، أنه لابد منه للأخلاق العامة. ولروسو، اعترف تبجيل «الكائن الأسمى» بمصدر الفضائل الطبيعية وأعطى الدولة ومشرعها شخصيتهم الأخلاقية الأساسية. ومع ذلك، في ما يتعلق بالكاتبين، كانت الأساطير الكهنوتية والعقائد

اللاهوتية التي وضعت الكنيسة المؤسساتية بعيداً عن المواطنين تضليلات خطيرة. وبدلاً من نظام مستقل ذاتياً يدّعي سلطته الخاصة، تصوروا كنيسة تذوب في الهدف الشامل في مملكة عامة: مؤسسة مفيدة بدلاً من أن تكون فوق الوصف. وقد وصفه الأب رينال Abbé Raynal بشكل أكثر بلاغة: «الدولة، تبدو لي، لم تُصنَع للدين، بل الدين صُنِع للدولة».

وجرت أكثر من محاولة واحدة لتنفيذ هذه الرؤية لكاثوليكية عملية خارج فرنسا. فخلال ثمانينات القرن الثامن عشر، بدأ شقيق ماري أنطوانيت الرائع، الإمبراطور النمساوي جوزيف الثاني برنامجاً منهجياً لإلغاء الأديرة والرهبانيات التي تعيش على الصدقات، وتحويل أعضائها إلى «مواطنين مفيدين». كما أن تاليران فكر أن رجال الدين ينبغي أن يوظفوا، لكن لا أن يراقبوا، في النظام التعليمي للتعليم الابتدائي الذي سيوفر معرفة القراءة والكتابة لعامة الناس دون تعليم لاهوتي. ومثل تاليران فهم الملكية الكنسية بوصفها مالاً عاماً، تراقبه الدولة ويُنفَق على عمليات ذات خير عام مثل إغاثة الفقراء، وتدريب اليتامى والمستشفيات ومستشفيات الأمراض العقلية. ويمكن لرجال الدين الذين يتلقون راتباً أن يستمروا بإدارة تلك الأموال لكن بشروط صارمة أن يعترفوا بأنهم موظفون عامون.

لا حاجة للقول، إن هذه السياسات تسببت في صدام فوري مع البابوية. لكن كان ممكناً في ما يتعلق بالإمبراطور أن يستخدم ذلك النزاع لتأكيد الخاصة الوطنية في إصلاحه لرجال الدين. وعلى نحو مماثل، في فرنسا الثورية، صوّر هؤلاء الذين أرادوا ضم رجال الدين إلى الجسم السياسي سياستهم بأنها امتداد طبيعي للسيادة الوطنية. وفي آب عام 1789، وكانت الجمعية الوطنية قد وضعت حداً للرسوم المدفوعة للبابا تقديراً للخدمات التي تُقدَّم للحجيج سنوياً إلى روما ـ باعتبارها انتهاكاً لتلك السيادة. وبإعلان أن ملكية الكنيسة يجب أن تكون تحت تصرف الأمة، أمل تاليران وميرابو (الذي وضع قانوناً محكماً لذلك المفعول أمام الجمعية الوطنية في 13 تشرين الأول) الاحتكام إلى النوع نفسه من العاطفة «الغالية» التي تسببت في ظهور اليسوعيين المفاجئ عام 1765. لقد عرفوا أن لديهم بعض الحلفاء داخل الكنيسة: رجال مثل الأب غريغوار، الذي رأى أن تقليص الملكية الكنسية ليس نهباً بل فرصة لإعادة مؤسسة فاسدة إلى أغراضها الإنجيلية النقية التي تأسست لأجلها. وكانت هناك كتلة كبيرة من الوثائق، بعضها جنسيني[1]،

(1) حركة دينية ظهرت في القرن السابع والثامن عشر وهي مستمرة قائمة على وجهات نظر كورنيليوس جنسن الذي يدافع عن أنه لا يُوجد عمل صالح دون إرادة إلهية.

وبعضها ريتشيري (Richerist)، التي حاولت أن تدافع عن كاثوليكية أكثر صرامة وتقشفاً، نظيفة من المفاسد الدنيوية وقادرة على أن تتعايش مع عقائد أخرى. كان ذلك نوعاً من فكرة تمّ التعبير عنها في المنشورات التي سبقت الثورة مثل، الكاهن ـ المواطن عام 1787، الذي وصف حياة الرهبان في ذلك الوقت أنها:

حياة بورجوازية جيدة، مائدة ممتازة؛ كل المتع المتاحة لرجال الدنيا، كل أشكال الترف التي تتحملها الثروة... أنت تتردد إلى الصحبة الأفضل، وتستقبل دائرة واسعة من الأصدقاء (في منازل كبيرة وشقق رائعة وثياب أنيقة حتى أدنى من عاداتك، كتب أنيقة ولوحات جميلة... صيد، مقامرة، كل أنواع الرفاهية والتسلية والذين يتظاهرون أنهم فقراء المسيح يُعرَفون الآن بأنهم أحباء الغنى والثروة فحسب.

وفي المقابل، تابع الكاتب، فقر الخوارنة وعزلتهم وقلقهم من عملهم الذي جعلهم أتباعاً رسوليين أكثر أصالة للمسيحيين الأوائل. كان ذلك من خلال التأكيد على المكاسب المادية لرجال الدين في الأرياف الذين أمل تاليران بتعبئتهم كحلفاء ضد رجال الدين في الأبرشيات والأديرة، الذين عرف تاليران أنهم سيكونون أعداءه الأكثر خطورة. وافق خوري واحد على الأقل، هو دومينيك ديلون، خوري فيو بوزانج Vieux - Pouzanges الذي انتخب، في كل حال، للمقعد الثالث في مدينة بواتييه Poitiers وافق على أنه «إذا كانت التضحية، في هذه الأزمنة الصعبة، بملكية رجال الدين يمكن أن تمنع ضرائب جديدة على الناس»، فيجب أن تُقدَّم حالاً ودون تأخير.

إذا كان تاليران قد توقع حقاً دعماً شبه جماعي من داخل الكنيسة، كان عليه أن يصاب بالإحباط الشديد. فكثيرون من مساعدي القسس الريفيين الذين كانوا سبباً في تحقيق نصر الطبقة الثالثة في حزيران كانوا ساخطين الآن بسبب إلغاء الجمعية الوطنية لضريبة العشر التي تجمعها الكنيسة في 4 آب مع أن ذلك كان مشروطاً بمواصلة جمعها حتى يتم اتخاذ ترتيبات أخرى للدعم المالي. وفي الواقع، كما عرفوا جميعاً جيداً من أديرتهم، أن مجرد خبر إلغاء ضريبة العشر جعلها غير ممكنة التحصيل. لكن كانت ثمة معارضة أكبر مما كان متوقعاً. فالأب سييس Abbé Sieyès الذي كان لوقت طويل أقل ميلاً إلى الناحية الدينية من صديقه القديم تاليران، تكلم ضد قرار ميرابو في 2 تشرين الثاني، ليس على أي أساس ديني بل لأنه كما أصر ينتهك التزام إعلان حقوق الإنسان أن اقتناء الملكية لا تنتهك حرمته. «لقد أعلنت أن الملكية التي قيل إنها تعود للكنيسة تعود الآن

للدولة لكنني في النهاية أعرف أن إعلان شيء ما ليكون واقعاً هو غير صحيح... لا أستطيع أن أفهم كيف أن إعلاناً بسيطاً يمكنه أن يغير طبيعة الحقوق... لماذا تسمح لهذه المشاعر الصغيرة الكريهة أن تحاصر روحك وتنجح بتلطيخ الثورة الأجمل بالأعمال غير الأخلاقية والظلم؟ لماذا تريد الرحيل من دور المشرعين ولماذا، يجب أن تغدو ضد رجال الدين؟»

لقد أشارت الملاحظة غير المعتادة للعاطفة التي وسمت خطاب سييس Sieyès إلى الاضطراب العاطفي الذي أثاره اقتراح تاليران. وقد ساء الأمر أكثر بواقع أن عدداً كبيراً من رجال دين الأديرة كانوا مؤيدين متحمسين للثورة والآن شعر الجزء الأعظم منهم أنهم خُدِعوا وتمت التضحية بهم على نحوٍ غير منصف. لم تكن معارضتهم لبرنامج الجمعية الوطنية موضوعياً دفاعاً عن المصالح الخاصة، كما زعم الخطباء. لقد نشأ من اعتناق تقاليد بطريقة صادقة حول طبيعة دورهم الرعوي وسخطهم على إنزال مكانتهم إلى نوع من إدارة في الدولة. وبينما اعترفوا مسبقاً أن وضعهم المادي يمكن أن يتحسن، بدا استسلام مؤسستهم المستقلة لنوع ما من الإشراق الوطني أنه ثمن باهظ ليدفعوه. وكانوا حتى أكثر قلقاً من أن الموقع الخاص الذي تمتعوا به تاريخياً في الكنيسة الكاثوليكية سيتعرض لخطر التسامح البروتستانتي. والأشهر التي تلت قبول الجمعية الوطنية لقرار ميرابو في 2 تشرين الثاني بهامش 510 مقابل 346 شهد سلسلة من المناظرات المريرة حول «تأميم» الكنيسة.

شخصيات مثل بواجلين Boisgelin، أسقف آيكس Aix، الذي كان بين المتعاطفين الأكثر حماساً للثورة، أصبح الآن في أفضل حال مؤيداً فاتراً. كان التكتيك الأولي للمقاومة بإثارة المبدأ التمثيلي باسم رجال الدين، محاولين إثبات أن القرارات يجب أن تخضع إلى دعوة خاصة لمجمع وطني. وعندما رُفِض ذلك باعتباره شقاً لسيادة الأمة المتجسدة في الجمعية الوطنية، غدا بواسجلين أكثر انفعالاً. فقال في خطاب شديد أمام الجمعية الوطنية في 14 نيسان عام 1790: «تريدون ضرب كهنة المذبح بالسيف؟ وأضاف «نعلن بشكل مطلق أنه لا يمكننا، ولا ينبغي لنا، أن نخلص لهذا القرار الذي ستسنونه والذي نحتفظ لأنفسنا بحق استئنافه لكل الحقوق والامتيازات التي تعود لنا بالقانون والتقاليد وسلطة الكنيسة الغالية». (ومع أن الأسقف، في الواقع، كان أحد الذين لابد من أنهم سينصحون الملك بتوقيع الدستور المدني.)

من جهتهم، وجد الإصلاحيون أنفسهم مدعومين بنوع من الباريسيين المشاكسين ذوي النزعة المعادية لرجال الدين الذين أملوا أن يتجنبوهم بالضبط. وفي يوم التصويت

حول «الملكية الوطنية» تمت السخرية من مندوبي رجال الدين المعروفين بمعارضتهم وقُذِفوا بالأشياء خارج الجمعية الوطنية. والرسوم الكاريكاتورية والأغاني وقصائد السوق poissard تعتمد على قصائد ساخرة قديمة وغنية ضد الرهبان والبابوات والأساقفة الذين أخذوا عقد إيجار جديد على حياتهم. وإحدى القصائد الساخرة الشعبية هي تعويذة يافيلي التي تجري على النحو التالي:

أبونا المقدس مغفل

وكاهننا منحرف محتال

أما أسقفنا فوغد

هللويا...

وأشارت أغنية أخرى إلى أن رجال الدين هؤلاء الجشعين والمنحرفين جنسياً هم على وشك تسليح أنفسهم وذبح المواطنين في عيد القديس بارثولميو St.Bartholomews. موضوع تكرر كثيراً يدين برواجه إلى المسرحية التي لاقت شعبية هائلة شارل السادس عشر التي كتبها ماري جوزيف شينير Marie - Joseph Chénier. يُشاهَد الكاردينالات والأساقفة في تلك المسرحية يتآمرون ويصلون لإبادة المواطنين الصالحين وقد بذل شينير قصارى جهده ليجعل المماثلة مع الثورة واضحة للغاية. أزال الممثل الأفضل في فرنسا، تالما، صورة الملك باعتباره نوعاً من شخص أحمق به مس من شيطان، تتركز فيه العفونة والفساد الأخلاقي والمتآمر إلى درجة غير عادية. وقد قدم مفوض خاص باسم مندوبي رجال الدين والأساقفة عريضة إلى الحكومة والملك يطلب فيها توقيف عرض المسرحية لنوعيتها السفيهة و- استثناء في عام 1789 - تمت الموافقة على مطلب العريضة. ولكن حتى بعد إسدال الستارة، ظلت مطابقة الكهنوت بالعداء للمواطنة في الذهن الشعبي الباريسي قوية جداً.

وعندما ووجه أنصار «الكنيسة الوطنية» بمقاومة صلبة من رجال الدين، أُغروا باستخدام دعاية العقول السامية والعقول المنحطة لتجاوزها. ففي 19 كانون الأول تقرر وقف المزاد العلني عند مبلغ أربعمائة مليون ليفر ثمن الملكية الكنسية من خلال وكالة بلدية باريس. ستتيح هذه العملية للحكومة أن تعوّم قرضاً جديداً كبيراً مقابل تأمين العائدات وكان، في الحقيقة، بداية مصادرة الدولة للكنيسة. شجب رعاة الأبرشيات والأساقفة هذا الفعل من منابرهم، مهددين بحرمان المشترين كنسياً ومحذرين من أن الثروة المقدسة قد تقع الآن في أيدي البروتستانت أو حتى الأم المقدسة لا سمح الله،

بأيدي اليهود. وفي رد، ذكَّرت الكراسات المؤيدة للبيع عامة الناس بأن «الأرستقراطيين» من رجال الدين والعامة كانوا مسؤولين عن نقص العملة. كانت تلك القوالب معادلة لمؤامرة المجاعة، وأن المهاجرين ورؤساء الأديرة إما يصدرون أو يخفون مخابئ قوالب الصب والنقود لاستنزاف اقتصاد تداولها.

واندلع النوع نفسه من حرب الصلوات ضد الكراسات حول القرار الخطير الذي اتخذته الهيئة التأسيسية في 13 شباط 1790 لسحب الاعتراف بأوقاف الأديرة. وأخيراً، قال الإصلاحيون، ستُحوَّل جيوش الرهبان والراهبات الكسالى إلى مواطنين مفيدين. لن تُقفَل الأديرة لتسمح لسكانها بدخول دنيا الناس العاديين. وكان رد الجنسين على هذه الفرصة المفاجئة، في كل حال، مختلفاً تماماً. قرر عدد صغير جداً من الراهبات مغادرة الأديرة وأخريات غير تلك الراهبات كما في دير القديسة مادلين Convent Sainte Madeleine في باريس نظم بعضهن معارضة رسمية ضد «طغيان» رئيسة الدير، الأرستقراطية مونتمورينسي ـ لافال. وكان الرد الأكثر نموذجية هو إعلان كرمليي باريس، الذين احتجوا بأنه «إذا كان ثمة سعادة على الأرض، فنحن نستمتع بها في حمى هذا الحرم». ولم يكن كل الرهبان أيضاً تواقين للخلاص. فقد صوَّت الرهبان البندكتيون في دير القديس مارتن دي شان Saint - Martin - de - Champs في أيلول 1789 بالتخلي عن ملكيتهم مقابل مخصصات تدفعها الدولة، بل قرروا في عام 1790 الاحتفاظ بأوقاف ديرهم. والحدث الأكثر درامية، مع ذلك، وقع في القسم المركزي عينه للتجديد الرهباني في القرن الثاني عشر: في الأديرة السسترسيانية الكبرى في كلير فو وكلوني وسيتو. من حجرات الطعام القوطية الواسعة الجميلة في الأديرة ومكتباتها وحماماتها، نشأت لتقديم حاجز مدعوم ذاتي ضد فساد العالم، أعلنت عن خروج كبير للمواطنين حليقي الرؤوس للانضمام إلى إخوانهم من البشر.

أثار غزو الدولة لمملكة رجال الدين المستقلة ذاتياً الشعور في كل مكان في الحياة الكنيسة. قبل مبيعات الأملاك الأولى في كانون الأول، تم إرسال المفوضين إلى الأديرة للتفتيش وختم السندات والوثائق ضد فتحها أو تحويلها سرياً إلى أطراف أخرى. وفي آذار ونيسان عام 1790 وصل أناس كثر يرتدون أوشحة ثلاثية الألوان إلى الأديرة والرهبانيات لضمان أن رؤساء ورئيسات الأديرة يتعامل بقرارات الجمعية الوطنية ويحترمونها.

في شباط تم تعبئة المنبر نفسه إلزامياً في الثورة. ففي التاسع من شباط، أعلن الأب غرايغوار، رئيس دير اللورين ونصير تحرير السود واليهود، عن أعمال تمرد واسعة في

أراضي النهر الصعبة في الجنوب الغربي. وقام الفلاحون في كويرسي والرور وتارن، بأعمال عنف لأنهم افترضوا أن قرارات الرابع من آب ألغت كل الرسوم والضرائب التي يمكن أن تُدفَع لأصحاب الأرض بدلاً من كل الفروق الدقيقة الهامة التي رسمتها الجمعية الوطنية بدقة بين الخدمات الشخصية وما غدا الآن التزامات الأجور. قال غريغوار نشأ كثير من سوء الفهم هذا من جهل اللغة الفرنسية في منطقة اللهجات المحلية ومجموعات من اللهجات الجنوبية الغربية المحكية. لكن في بلدة دوردون التي تعيش على قطع الأخشاب في سارلات، وضع الأسقف مثالاً دقيقاً بنشر توضيح متداول شخصي للقوانين ومستخدماً فرصة عظاته لإجلاء سوء الفهم ـ كل ذلك بطريقة رعوية.

كان استنتاج غرايغوار، أولاً، أن أحد الواجبات الأولية للثورة سيكون توحيد الأمة من خلال حملة نشطة للتعليم باللغة الفرنسية مدعومة بالدعاية؛ وهذه الحملة يقودها هو. وفي تلك الآونة، في كل حال، احتاج رجال الدين إلى التعبئة لمساعدة الناس، لاسيما في الأرياف لفهم التشريعات الثورية. وفي اليوم التالي قال تاليران إن هذا يمكن أن ينجز بالشكل الأمثل بقراءة القرارات من المنابر واستخدام المناسبة لإقناع الناس بأن الشائعات المزيفة غير صحيحة. كان الاقتراح أقل صدمة مما كان منتظراً أن يبدو ما دام لويس الرابع عشر وكثيرون من أسلافه طلبوا أن يقرأ رجال الدين القرارات الملكية إلى أتباعهم. فقداس الأحد، بعد كل شي، أحد الأوقات القليلة التي يمكن أن يكون المرء فيها متأكداً من اجتماع الفلاحين معاً من مزارع منتشرة على نطاق واسع تحت سقف واحد. غير أن المساعدة العرضية لكنيسة لتجعل إعلان الحرب معروفاً أو وسم الهرطقة لم يكن الشيء نفسه مثل تحويل المنبر إلى لوحة أخبار ثورية. وحتى ملك الشمس أذعن أنه لا يستطيع أن يجبر رجال الدين على نشر قراراته.

كانت الثورة تذهب أبعد من الملكية في إلحاق الكنيسة كإدارة لتعليم العامة بتهديد رجال الدين بالعزل من الأبرشية ورفض حقوقهم بالتصويت كمواطنين «إيجابيين». في الحقيقة، كان ذلك تنفيذاً لطلب الأب رينالد أن تتصرف الدولة كحكم نهائي في أخلاق العامة محددة ما إذا كانت الكنيسة تعمل لصالحها أو ضدها. صرح بارناف: «لا يوجد الإكليروس إلا من خلال سلطة الأمة، وهكذا تستطيع الأمة (إذا كانت قد اختارته) أن تلغيه أيضاً». ومقابل هذه العلاقة التبعية وإجراءات الترويع السياسية لفرضها، صعدت منشورات رجال الدين حملة روحية بدعاية مضادة. فشجبت مجلة مثل الملكي الكاثوليكي ـ **أفعال الرسل والمجلة الكنسية** في أبرشية بارول Abbé Barruel حق الدولة بالتشريع في

قضايا تتعلق بالتعليم المسيحي أو الشعائر أو الطقوس الدينية. وفي رد على الطلب الرسمي بأن تهتم الكنيسة بالأهداف العامة للأمة، كرروا بعناد الطبيعة الخاصة المستقلة سلطتهم المقدسة.

كانت صحيفة بارول فعالة على نحو خاص في أنها لم تطبع الخطب البليغة لرئيس الدير ضد الشرعية الثورية وحسب بل رسائل من رؤساء الأبرشيات في البلد، بعضهم في الأقل يحمل طابع الموثوقية، تشكو بمرارة الإحباط من الدولة. كتب أحدهم: «قال يسوع المسيح، منزلي هو بيت الصلاة... أمكنة عباداتنا ليست أمكنة عامة أو قاعات بلدة»، ورد بارول: «أن حواريّ المسيح ليسوا رجال قيصر؛ إذا كان لا بد من نشر حقائق في الكنيسة فهي حقائق قوانين المسيح وأفكار الإنجيل».

كان الخلاف طبعاً، الجولة الأخيرة في دورة قديمة للأعمال العدائية بين الكنيسة الرومانية الكاثوليكية والدول الأوروبية. فتاليران لم يكن متقدماً كثيراً على مدير الإصلاح في عهد هنري الثامن، توماس كرومويل، كل في نزعته الانتهازية العملية ورؤيته لطاعة الكنيسة للقوانين العلمانية. وضع روسو لوثر سلطة بديلة عن كثرة الحكومات الذاتية الرهبانية. وفي فرنسا، في كل حال، كان الوضع معقداً من خلال ممانعة واضحة، حتى بين الأغلبية في الجمعية الوطنية، بالتخلي عن الكاثوليكية كدين مفضل. لم يكن ذلك إلا عندما دُفِعوا بعيداً جداً، كما في نيسان، عندما ألح دُم غيرل Dom Gerle على أن تعلن الجمعية الوطنية الكنيسة الرومانية دين الدولة الوحيد في فرنسا، فغدت تلك المواقف مستقطبة إلى درجة خطيرة. لكن المشرعين توقعوا أيضاً أن تتخذ البابوية دوراً سلبياً إذا لم يكن مذعناً، لاسيما وأن أراضيها المحيطة بأفينيون Avignon مهددة بإعادة التوحيد (أي، الإلحاق) مع فرنسا.

وبدلاً من ذلك، أخذ شعور متنام بالغربة من باريس ومن متنمري الثورة العلمانيين يدع نفسه ملموساً في كل أرجاء الكنيسة طوال ربيع وصيف عام 1790. وكانت جغرافيا النفور، كما رسمها تيموثي تاكِت Timothy Tackett، مميزة تماماً. كانت المقاومة أكثر جلاء في الغرب والجنوب الغربي وشرقي فرنسا من فوجي Vosges إلى الألزاس واللورين إلى فلاندرز وبيكاردي. ويبدو أن وادي الرون وميدي Midi كان مميزاً بالعداء لرجال الدين والنزعة الكاثوليكية القتالية، والتسوية الثورية كانت أكثر قبولاً في وادي السين ومنطقة باريس، والمناطق الأكثر فقراً في وسط فرنسا، حيث ربما كانت جاذبية الراتب لرعاة الأبرشيات عاملاً حاسماً. وكان هناك تعارض ملحوظ في الولاء بين الريف والمدينة

ضمن مناطق محددة. ففي بلدة نورمان في منطقة بايو Bayeux، على سبيل المثال، وجد ألون هوفتن Olwen Hufton رفضاً شديداً بين رجال الدين المحليين ولاحظ أن زملاءهم في الأرياف المجاورة كانوا على الأرجح أكثر براغماتية.

أوضحت جماعة تاليران نفسه في أوتن (التي طبعاً لم تره منذ ترسيمه كاهناً) رأيها تماماً وبدأت تتحدث مع أسقفها. كانت منزعجة منه بشكل خاص بسبب الاقتراح الذي قدمه إلى الجمعية الوطنية في كانون الثاني ـ بمعية ذلك الآثم الرديء السمعة، ميرابو ـ لإعتاق يهود إسبانيا والبرتغال. وبدا الأمر كله يُضاف إلى فعل خيانة محسوب، أسقف في عصبة مع المرابين قتلة المسيح وآخرين رأسماليين ممقوتين بالمثل لسلب ملكية الكنيسة وإلحاقها بممتلكاتهم الخاصة. هل هذه هي الطريقة التي أنجز بها قسمة المقدس، الذي أداه على مذبح الكاتدرائية، «أن يدافع بروحه عن ملكية عروسه، كنيسة أوتن» ؟ وصفته رسائل إلى الصحافة المحلية بـ يهودا، ومرتد، وقاتل الإنجيل. ودفع تاليران صليبه الأسقفي أعمق قليلاً داخل «صدريته».

وبدورهم، قدّر المشرعون عالياً «المواطنين رعاة الأبرشيات» الذين يعقدون عليهم الآمال ـ رجال النوايا الطيبة العامة الذين يستطيعون التوفيق ما بين مهمتهم المسيحية وواجبهم المدني ـ الذين كانوا طيوراً نادرة جداً في الحقيقة. استطاع بعضهم أن يكون محدداً ـ على سبيل المثال، أحدهم من بوبونات pupunat، الذي كتب من أبرشية إيتابل Etables في المقاطعة الشرقية في إين Ain قرب نانتوا Nantua إلى الجمعية الوطنية أن الموظفين المحليين هناك رفضوا أن يعطوه نص القوانين ليقرأها وأنه شعر دائماً «أن واجبه الديني الأكبر هو أن يوحد عل نحو لا ينفصم تعليمات قوانين الجمعية الوطنية المتخذة في آب مع تعاليم العقيدة الأخلاقية المسيحية».

والإدراك المتنامي أن البوبونات كانوا قلة وساروا بعيداً ما بين فرضية الجمعية الوطنية الملائمة أن جماعة يمكن الاعتماد عليها من الرهبان المواطنين ستبرز إلى الوجود تلقائياً. ولتملأ الفراغ تحركت في اتجاهين. الأول، قررت أن تعين قراء للقوانين الذين سيكونون مبلغين رسميين للجمعية الوطنية ويمكن، لكن ليس بالضرورة، أن يقدموا تصريحاتهم من منبر الكنيسة. ثانياً، سيتم احتواء رجال الدين المعفيين من واجباتهم، على الرغم من ذلك، بولاء قوي من خلال جعلهم يقسمون يمين ولاء للدولة وقوانينها. وكان هذا مماثلاً تقريباً لليمين الذي يقسمه الموظفون العامون والجنود الذين يستدعيهم ولاؤهم الآخر للمساءلة، لكن في ما يتعلق بالكنيسة فقد مثّل ذلك التبعية النهائية للسلطة الدنيوية.

هناك إشارات إلى أنه عندما قدم الدستور المدني في ما يخص رجال الدين إلى الجمعية الوطنية في تموز عام 1790، رأته الأغلبية من المشرعين ليس أكثر من دمج نهائي في الدولة الثورية الجديدة لطاقمها الذي يتقاضى راتباً والمرخص والذي نجح بالفحص الرسمي. قال ميرابو: بعد كل شيء، ما دام «الدين ينتمي إلى الجميع»، يقتضي ذلك أن يكون قساوسته موظفين عامين مثل الجنود والحكام والقضاة. ومن الآن فصاعداً، سيُنتخَب رعاة الأبرشيات والأساقفة في الطريقة الجديدة لقضاة الصلح وقضاة المقاطعات، وتتطابق حدود الأبرشيات مع الحدود الإدارية.

رأى الأب مونتسكيو Abbé Montesquiou، الذي كان محترماً كفاية ليخدم رئيساً للدائرة الانتخابية، ذلك ليس إصلاحاً بل إبادة. وقد سأل في نيسان، هل الدستور الآن يجب أن يكون إحدى تلك العقائد الوثنية التي تأمر بالتضحيات الإنسانية؟» وهل يجب أن نضحي برجال الدين المقدسين؟ هل على ملاك الفناء أن يمر فوق وجه هذه الجمعية؟»

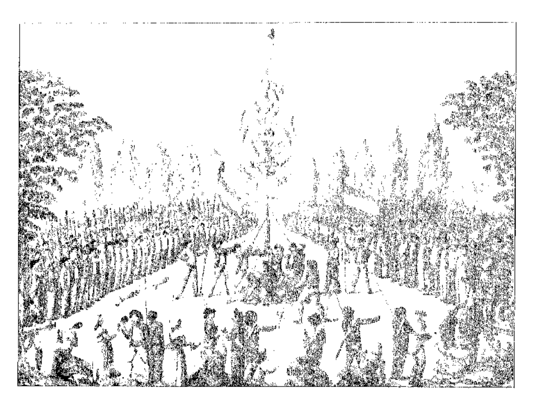
ولم يكن الدستور المدني ببساطة نموذجاً آخر من القوانين المؤسساتية. لقد كان بداية حرب مقدسة.

III ـ مواطنون مؤقتون

تبرعمت أشجار الحرية في كل أنحاء فرنسا، عام 1790، في القرى بالأوراق الخضراء أو في الساحات العامة في واجهة أبنية الإدارة المحلية. كانت أحياناً هي الأشياء الحقيقة، أشجار برية Mais sauvages، أشجار فتية أو أشجار صغيرة، مقلمة ومزدرعة. وغالباً أيضاً، مع ذلك، تذبل الأوراق وتتدلى الفروع وتخرب التأثير المأمول في استعادة الشباب النضر. وهكذا استبدلت بالأعمدة العارية، القريبة الشبه بسواري أعياد نوار(*) التي كانت سلفها الرمزي المباشر. غدت حبال الزهر أو الأعلام المتدلية بشكل حر ذات الأشرطة الثلاثية الألوان، والأعمدة المركز الصريح لإخلاص قرية للثورة، والإعلان الرمزي أن المكان لم يعد ملكية إقطاعية وأن شعبه لم يعد من الأتباع.

كانت الأشجار تكرس لقضية الحرية الدستورية في احتفالات خاصة: كان رئيس البلدية يؤدي الأيمان وتردد صداها مجموعة محلية من الحرس الوطني. وكان قس محلي

(*) سواري نوار: أعمدة مزركشة بالأشرطة والأزهار تنصب في الساحات ليرقص حولها في عيد أول أيار.



الصورة 123، صورة ايتيان بريكورت، زراعة شجرة حرية. مظهر قبعة الحرية والبناطيل المخططة التي يرتديها حملة العلم تشير إلى أن الرسم تمَّ عام 1791.

يبارك الأشجار ويتم الاستمتاع بعزف الموسيقى والتلاميذ ينشدون القصائد برفقة شاعر محلي، الذي كان لا يقل عما هو مماثل لعضو أكاديمية إقليمية. وحول السارية المدنية سترقص دائرة رقصة الدائرة: أيدي مترابطة من مراتب ومستويات مختلفة في وحدة أخوية أنشأها النظام الجديد.

وقد أعلن السياسيون الثوريون في باريس بأسلوبهم الأكثر شبهاً بالطريقة الماسونية مرسوم أشجار الحرية التي احتفلت بأسطورة الانسجام. كان مفترضاً أن يهزم الولاء للوطن كل ولاء آخر ـ نقابي أو إقليمي أو طبقي اجتماعي أو طائفي ـ داخل الأسرة السياسية الجديدة الممتدة إلى لا نهاية.

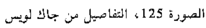
ومع ذلك كانت هذه الشمولية المقاتلة تحتاج بالتعريف إلى غرباء لتعرُّف حدودها وتعطي الأقرباء إحساساً بروابطهم الخاصة. وهكذا كانت كل صور الاندماج تفترض مسبقاً صوراً مضادة من الرفض: المعادي العنيد للمواطنين الذي يرفض أن يضعف فروقه ضمن الجماعة الثورية، يجب أن يُقصى منها. الرسام جاك لويس ديفيد قدم على الأقل صورتين من هذا القبيل: النائب مارتن داوتش Martin d'Auch، الذي رفض قسم قاعة التنس، يجلس متحدياً مكتئباً وقد شبك يديه على نحو بائس فوق صدره بينما كل شخص آخر كان



الصورة 124، التفاصيل من جاك لويس ديفيد قسم قاعة التنس عام 1791.



الصورة 125، التفاصيل من جاك لويس



بروتوس، عام 1789.

يجهد نفسه بقسم طويل. والأكثر إنذاراً بالخطر كان ثمة جثث أبناء بروتس، المرئية أقدامهم أولاً، الذين أعدموا بأمر أبيهم لأنهم أداروا ظهورهم لروما الجمهورية.

وعلى نحو متزايد تحدد مثل هؤلاء الغرباء بلقب خياني «أرستقراطيين» حتى عندما تكون أصولهم الفعلية من العامة أو عندما يكون المدعي هو نفسه نبيل المولد. وعلى نحو يمكن تصوره، بعدئذٍ، كان بإمكان وطني نبيل سابق عملياً أن يتهم وسيطاً من مولد فقير بأنه «ارستقراطي» لمجرد أنه، يقول، لقد عمل ذات مرة لجمعية جباية الضريبة غير المباشرة. وقد أنتجت مثل هذه المفارقات الاجتماعية مواجهات غريبة. ففي 27 نيسان عام 1970، أبلغ مراسل قصر فرساي عن شجار عام بين نبيلين، ماركيز دي سانت هورروغ ذي الشهرة الرديئة الميال للعنف وشيفالييه دي لادفاس قرب جادة سانت هونور. صرخ سانت هورورغ «ارستقراطي»، عند رؤية خصمه، فصاح شيفالييه «ديماغوجي» في رد عليه. فاستل سانت هوروغ، الذي يرتدي زياً رسمياً مثل كابتن من الحرس الوطني، سيفه، وأشهر شيفالييه سيفه، وكان شجاراً سينشب للم يفصل بينهما نبيل سابق ثالثهما، هو الكونت دي لوك، الرجل السبعيني الذي تخلص من التهاباته الروماتيزمية بجرعة من المساواة. كان ذلك عادياً تماماً في روح عام 1790 أن الكونت كان قادراً على ممارسة سلطته على متقاتلين بقوة الرمز الرسمي البطولي للاثنين ـ زي جندي مواطن في مقاطعة أوراتوار

وصليب سانت لويس، الذي كان لا يزال يلبسه تحت وشاحه الثلاثي الألوان.

أعادت مثل هذه المواجهات، التي حاول أن يزعم فيها كل معسكر معادٍ نفسه ممثلاً للوطنية الثورية الحقيقية وخصومه أنهم «أرستقراطيون»، إنتاج نفسها في كل مناحي الحياة. الأخوة ـ أخوة ميرابو، على سبيل المثال، اتهم كل منهم الآخر إما بالتعصب أو التردد الخياني. وغدت الأهداف الشخصية قضايا سياسية. جاك لويس ديفيد، الذي كان حماسه السياسي محصوراً إلى حد كبير داخل إطار الصورة، أخذ الآن رفض الأكاديمية أن تمنح تلميذه درويه التشريف بعد مماته ليس مجرد إهانة شخصية بل عَرَضاً للعفونة الأرستقراطية واستقصاء المعالجة. وتجاهله كمدير للمدرسة الفرنسية في روما جعل الأشياء أسوأ حالاً. أعطت الثورة ديفيد مفردة التي بواسطتها أوضح أن هذه المظالم قضايا عامة، وهكذا منذئذٍ فصاعداً فإن لغته الشفهية والتصويرية يمكنهما أن تكملا كل منهما الأخرى. لقد أصبح الفنان والفن سياسياً الآن.

وتعيد العملية، التي بواسطتها كانت القضايا الشخصية والمهنية تبتلع ببلاغة سياسية، إنتاج نفسها في سيرة صديق ديفيد الممثل تالما. حيث سبق له أن أظهر نفسه أنه وطني متحمس في ربيع مجلس الطبقات باستخدام كلمة إطراء تقليدية ـ خطاب تحت أضواء المسرح يقدمه أحد العاملين في شركة المسرح الفرنسي في بداية الموسم ونهايته ـ ليدعو إلى فضائل الثورة في خطاب حماسي يكتبه ماري جوزيف شينيه. ختم تالما خطابه بالقول: مثل أعدائي، لديّ كل هؤلاء الذين وقفوا حياتهم للأذى وأسفوا لتجاوز العبودية... ومثل أصدقائي، يجب أن يكون لدي كل هؤلاء الذين يحبون الوطن والناس الفرنسيين الحقيقيين... وستنهار بقية البناء الإقطاعي قريباً من خلال مساعي جمعية آب الوطنية التي تمثلكم.

لم تكن لـ تالما مجرد المسارح المؤسسة رسمياً هي النظام القديم الآن، بل هي أسلوب فنها كله: المتكلف والمتصنع والأكاديمي والنخبوي بطريقة منافية للطبيعة والمكرس للعبث والبعيد عن الحقائق الكونية القوية التي يمكن ويجب أن تقدم بواسطة المسرح. ولا عجب أن جان جاك فكَّر أن المسرح يتعارض مع المجتمع الفاضل، ولا غرابه أن الممثلين لا يزالون مجردين من حق التصويت!

وهكذا استحضر تالما تاريخ لوحات دافيد رومان إلى خشبة المسرح في عرض بروتوس لفولتير، التي ليس له فيها أكثر من سبعة عشر سطراً باعتباره بروكيوس المدافع عن الشعب. والرسم على مجموعة المسكوكات والأثريات لديفيد، زين نفسه نفسه بثوب

روماني فضفاض يجر على الأرض، قص شعره قصيراً وسرحه إلى الجبهة بزي بروتوس الكابيتالوني أعيد إنتاجه في لوحة صديقه. :أه، كم هو بشع»، علقت زميلته التي لم تتغير، الآنسة كونتات (سوزان بومارشيه)، عند رؤية تالما المتحول إلى رومانسي؛ «يبدو مثل تمثال قديم». هكذا تحول، أخذ تالما إلى خشبات المسرح، مربكاً على نحو متعمد الأعضاء البارزين في الفرقة الذين استمروا يلبسون زي حقبة راسين وكورنيل، ويضعون الشعر المستعار ويرتدون البناطيل القصيرة، وفي مقابل مروِّع، ربط تالما قدميه بسيور جلدية وترك فخذيه عاريين.

وقد سبَّب ظهوره بالضبط الإحساس الذي كان محسوباً أن ينتجه وأظهر الأعضاء الكبار في الفرقة كأنهم أرستقراطيون من طينة. وفي الخريف اعتمدت فرصة عرض عمل شينيه شارل التاسع على الشرخ في الفرقة. ففي مناخ أواخر عام 1789 لم يكن أحد في الفرقة راغباً بلعب دور الملك الأبله القاتل. وإذ عُرض الدور عليه عندما مر الخيار الأول عليه، رمى تالما نفسه على الدور بالأسلوب البريطاني الشكسبيري الرومانسي الرفيع للمخرج كين، مستخدماً التجميل ليغير ملامح وجهه بالكامل. فملامح شارل التاسع الذي لعب دوره تبدو شاحبة ورقيقة الشفاه وعيناه ممطوطتان مثل عينين منغوليتين، لقد ارتعش ديفيد. أخبر تالما أنه بدا تماماً مثل إحدى لوحات فوكيه في متحف اللوفر. وفي ذروة المسرحية، جعل تالما الملك يذوي إلى نفسه بندم مثل حشرة تحتضر:

لقد خنت الوطن وشرف القوانين

والسماء ينبغي أن تجعلني عبرة للملوك.

ومع أن الأساقفة نجحوا في وقف المسرحية بعد 33 عرضاً حاشداً، جعلت مسرحية الملك شارل التاسع تالما شخصية ثورية مشهورة على طريقته. وقد امتزج الآن بين الأضواء البارزة الأخرى في المسرح السياسي، وعلى وجه التحديد الممثل الهاوي البارع ميرابو. ففي الذكرى الأولى لسقوط الباستيل، أكمل تحوله السياسي بظهوره في إحدى المسرحيات بوصفه شبح جان جاك روسو، مرتدياً بدقة زي اللوحات التذكارية. لكن كان ذلك بعد أسبوع، في 21 تموز، حيث انصهر المسرح والسياسة في عرض واحد. ففي تلك الأمسية صرخت مجموعة من الأقاليم نظمها ميرابو لصالح مسرحية شارل التاسع الممنوعة. وجاء مدير الفرقة، نوديه Naudet، إلى مقدمة المسرح وقال إن ذلك مستحيل لأن السيدة التي تقوم بالدور الأبرز في المسرحية مريضة وعدد آخر من الممثلين ذوي الأدوار الحاسمة كانوا بالمثل متوعكين صحياً، وتم الرد على هذا التفسير

بالصفير والصياح. عند تلك النقطة، خرج تالما من الأجنحة ليعلن أن حنجرة السيدة فِستريس Vestris ستسمح لها بالتمثيل وأن الأجزاء الأخرى يمكن أن تقرأ إذا كان ذلك ضرورياً. وفي الليلة التالية، عُرِضت المسرحية كما ينبغي لجمهور يهتف لرجال الحرس الوطني.

وما كانت الدراما لتنتهي بعد. ففي أيلول عام 1790، فُصِل تالما من عمله في المسرح الوطني لعدم انضباطه رغم شعبيته الهائلة على خشبة المسرح وخارجها. غير أن معاون القائد في المجموعة الوطنية في الفرقة، دوغازون، استخدم المسرح مرة ثانية ليقدم خطاباً سياسياً دفاعاً عن تالما بوصفه مواطناً ممثلاً استثنائياً. وقد هتف الجمهور وأنشد أغاني ثورية وهو يحطم المقاعد، وصعد عليها إلى خشبة المسرح وإلى المقصورات الغالية الأجر. وقد شارك دوغازون وزوجته تالما في منفى بطولي قصير من المسرح إلى أن أعيدوا بالقوة بواسطة رئيس البلدية بيلي. وفي 28 أيلول أعيد عرض الملك شارل التاسع ثانية.

وبحشد الجمهور كجنود مشاة لمساعدتهم في قتال معاركهم خلف ستارة المسرح، حطم تالما والزوجان دوغازون الخط الذي يفصل بين المسرح والسياسة. وتماماً كما انتهى ديفيد إلى رؤية لوحاته، في معنى ما، مساهمات ثورية، رأى تالما أيضاً خطابته كأداة لصقل مزايا الجمهور وإزالة الحواجز التي تفصل بين الرئيس والمرؤوس. ومن هنا فصاعداً، سيسهم الممثلون بانتظام في مراسم ثورية وستغدو الشوارع مشهداً للمسرح السياسي. وعندما، على سبيل المثال، أراد دوغازون أن يتظاهر ضد الامتيازات المستمرة للكوميديا الفرنسية، ألبس ثمانية ممثلين زي الموظفين الرومان الذين يفسحون الطريق أمام الحاكم، وملأ أربعة سلال كبيرة بأدوات تالما المساعدة في العمل المسرحي ـ خوذات، ألبسة، دروع ـ وقاد جيشه الروماني في مسير قديم بطيء إلى القصر الملكي حيث صبَّ جام غضبه ضد الأرستقراطيين الرومان.

وفي باريس، ليس أقله، كانت حدود المشاركة السياسية تتسع سريعاً، وهكذا ضغطت ليس ضد تقاليد النظام القديم وحسب بل ضد هؤلاء الذين اهتموا بسلامتهم الشخصية في النظام الجديد لعام 1789. وقد شجعت خطب القيادة الثورية هذه العملية. لقد قيلت في عبارات عامة غير محددة ـ الأمة، الوطن، المواطنة ـ كما لو كان لكل فرنسي وفرنسية نصيب مباشر في تلك العائلة السياسية المتوسعة. ورددت الجرائد آنئذٍ هذه العلاجات الشافية الشاملة، ليس في لغة المتعلمين وحسب، لكن غالباً في لغة حديث



الصورة 126، ماري جوزيف شينيه. المشهد من الملك تشارلز التاسع تعرض في الأسفل ملامح كاردينال لورين يبارك الخناجر التي ستقترف مذبحة سانت بارثلوميو ـ انقلاب في منح البركات الوطنية عام 1789.

الشارع في الأسواق والملاهي الليلية، ثم، غدت الآمال الشعبية عوالم طوباوية كثيرة تنتفض في المدينة والريف: مزارع دون أجور، كنائس دون أساقفة ورهبان وجيش دون

ضباط تعبئة ودولة دون ضرائب. والحالة الانتقالية في البلد، في العملية التي تديرها الجمعية الوطنية، رفعت سقف تلك التوقعات غير الواقعية بطريقة غريبة.

وقبل مضي وقت طويل، ستنقلب التناقضات التي استقرت عميقاً داخل شخصية الثورة الفرنسية إلى عداوات معلنة. لأنه، بينما انطلقت توقعات المواطنين الألفية من دوافع مضادة للحداثة التي حشدت الجماعات في الشوارع، أراد هؤلاء الذين كانوا مستفيدين من عنفها شيئاً ما مختلفاً تماماً لفرنسا. أرادوا دولة حديثة عاملة قوية: ملكية دستورية ذات لهجة غاليّة، لا ديمقراطية شعبية.

وإلى تلك الغاية قدموا كل أنواع الحدود والفروق والقيود على المساهمة السياسية التي تعارضت بشكل مباشر مع الأساطير الموحدة التي شجعوها هم أنفسهم. فإعلان حقوق الإنسان والمواطن، على سبيل المثال، بدا أنه يتحدث إلى كل الفرنسيين. وفي عام 1791 ستوسع الممثلة أوليمب دي غوج Olympe de Gouges بشكل طبيعي أن من البديهي إقرار **إعلان حقوق النساء والمواطنات**، وثيقة استهزئ بها عندئذٍ ومنذئذٍ، لكنها في الواقع تقدم قضية قوية ومؤثرة في ما يتعلق بتضمين النساء في الجمع الإجمالي لوعود الثورة. لم تكن غير ناخبة وحسب، طبعاً، ومُعَدَّة لازدراء النساء كجزء من العملية السياسية النشطة، بل رفضت أيضاً التوسلات الأخرى من أجل المواطنة، فالنواب من جزر الأنتيل الفرنسية الذين دعموا بشكل معلن مبادئ حقوق الإنسان للبرهنة على تحررهم من القواعد التنظيمية للتجارة الكولونيالية رفضوا بشدة تطبيق تلك الحقوق ذاتها على العبيد السود. وألبرت دي بيومتز Albert de Beaumetz، الذي كان من المؤيدين المتحمسين لجدارة البروتستانت للمناصب العامة، أوضح بجلاء في 24 كانون الأول أن الحقوق نفسها لا يمكن أن تتوسع لتشمل اليهود ما داموا «تحت اللعنة السياسية والدينية».

تم احتواء الرحيل الأكثر سطوعاً من وعد بالحقوق الشاملة في الحدود التي وضعها المجلس التأسيسي على المشاركة السياسية. وعلى الرغم من وضع مفهوم شامل للمواطنة في إعلان حقوق الإنسان، فقد قرر النواب في ما بعد أن بعض الناس أكثر مساواة من آخرين. ليس إلا الفرنسيون الذكور الذين بلغوا سن الخامسة والعشرين والذين بنوا بيتاً منذ أكثر من عام والذين ليسوا خدماً منزليين أو أتباعاً من أي نوع والذين دفعوا ما يعادل ثلاثة أيام عمل ضرائب يمتلكون حق التصويت في الجمعيات الانتخابية الأولية. وغدت هذه الحدود في مستويات أعلى من المراتبية الانتخابية أكثر تقييداً. فالمطلوب لتكون عضو جمعية انتخابية أن تدفع ضريبة ما يعادل عشرة أيام عمل وأن تكون مؤهلاً كنائب في الهيئة

التشريعية التي هي نفسها تتطلب مبلغاً كبيراً من الماركات الفضية، التي كانت تعادل خمسين يوم عمل.

لقد حرمت هذه القيود أقساماً واسعة من السكان من حق التصويت: كل العمال الريفيين المياومين والأيدي المستخدمة، وخدم المنازل وعمال حرفيين مياومين بارعين كثر - كل الهيئات الاجتماعية الانتخابية التي انخرطت بشكل حاسم في الحملات العامة الثورية في فترة 1788 - 89 والتي قد توصلت إلى توقع أشياء عظيمة من آرائها السياسية. ومع هذا، فالهيئات الانتخابية التي أنشئت بلغت أكثر من أربعة ملايين - التجربة الأكثر اتساعاً ذات حكومة تمثيلية شهدها التاريخ الأوروبي. لكن في ما يتعلق بالمدافعين عن ديمقراطية أكثر نقاء - أقلية فصيحة في الجمعية الوطنية - كانت القيود جبانة ومنافقة. قال ماكسيمليان روبسبيير وهو نائب من أرتوا «لقد مثّلت تدمير المساواة». وكرر ديمولان Desmoulins التهمة في جريدته Les Révolutions de France et de Brabant: من هم حقاً المواطنون الفعالون؟» سأل بلاغياً. «هؤلاء الذين استولوا على الباستيل، هؤلاء الذين يعملون في الحقول، بينما الكسالى Faineants في البلاط ورجال الدين، بصرف النظر عن ضخامة مجالات عملهم، هم خاملون ليس إلا».

تبنى ديمولان أسلوب روسو الاسترضائي في مخاطبة قرائه مع أنهم كانوا أصدقاءه الشخصيين «Mes chèrs souscripteurs». وفي صفحاته حاول أن يعطيهم معنى لما يمكن أن تشبه قرية ثورية مدنية بكل ما للكلمة من معنى: منطقة غير صالحة للمقارنة مع الرهبان الفرنسيسكان، حيث، كما زعم، عرف كل المواطنين، أرض الحرية The terre de liberté: وصفت أحياناً أنها «سبارطة صغيرة؛» وأحياناً أنها «روما صغيرة»، مسكونة بوطنيين لا يتعبون مستعدين للجدال في القضايا العامة طويلاً حتى الليل ويهبون للدفاع عن أصدقائهم وأخوتهم ضد مكائد الطغاة في أوتيل دي فيل Hôtel de Ville. وقد كتب في كانون الثاني عام 1790: «لا أستطيع أبداً أن أمشي عبر منطقته دون مشاعر دينية، وأنا أفكر بالمناعة التي ضمنها رواده للناس الشرفاء». و«الناس الشرفاء» الذين كانوا في ذهنه طبعاً هم الصحفيون و، إلى جانب دزمولين، المجموعة المترابطة بقوة التي تشمل مارات ولستالت وفرينون وهيبرت، بالإضافة إلى الناشر القوي مومورو والكاتب المسرحي فابر ديغلانتين Fabre d'Eglantine، وشخصيتها المهيمنة، في كل حال، كان رجل القانون جورج دانتون، الذي اقترح في كانون الثاني عام 1790 لجنة الخمسة «حماة الحرية» بما فيها هو نفسه) الذي دون توقيعها المصدّق لن يكون ثمة اعتقال قانوني.

كان مارا الطبيب المبدع الناقد الذي تحول إلى صحفي، الذي قدّم في جريدته صديق الشعب L'Ami du Peuple تجربة حدود حرية التعبير يشجب نِكر ولافايت وبيلي على نحو متكرر بوصفهم «أعداء الشعب». وفي الثاني والعشرين من كانون الثاني جرت محاولة لاعتقاله، أجبرته مجموعتان من سلاح الفرسان ومئات من الحرس الوطني الذين أغلقوا الشوارع قرب المسرح الفرنسي حيث عاش مارات وعمل. حشد دانتون جمعية المنطقة وتحدث عن «منطقتنا بالذات تتعرض للغزو»، مع أنه نصح بالمقاومة غير العنيفة. كان ذلك عندما وجد أن المذكرة صادرة عن Châtelet، وهي سلطة قضائية كانت في حكم الملغاة في عملية الإصلاح الجارية، حيث قرر أن يستأنف إلى الجمعية الوطنية. وفي الوقت الذي سمع فيه الاستئناف ورُفِض، رسم مارات خطة للهرب، لكن ليس قبل نشر كراس استثنائي يسخر من الآلام التي تحملتها سلطات المدينة للقبض عليه. قال في النشرة، جاء عشرون ألف جندي مسلح مع ثمانين مدفعاً وثلاثين مدفع هاون للقبض على صديق الشعب، وقصف جمعية المنطقة ووضع خبراء ألغام على أسطحتها لتخريب أي منطاد يمكن لمارات (المولع بالطيران) أن يحاول الهرب به.

ولأسف ديمولان الشديد، أن حياة جمهورية الشعب في كوردلييه Cordeliers القصيرة لكن المثيرة للعجب والإعجاب قد انتهت من خلال إعادة التنظيم الإداري في باريس من ستين منطقة إلى ثمانية وأربعين قسماً. وقد ندب ذلك، يا مقاطعتي الغالية، وداعاً لجرسك، وداعاً لكرسي المتحدث باسمك وللمنبر الذي يرجع صدى خطب خطباء كثر لامعين». ومع ذلك لم يكن حزنه ناضجاً، لأن فيما قسمت «منطقتها» مقسمة بين عدد من الأقسام، استمر المسرح الفرنسي وسانت أندريه ديزارت saint - Andre - des - Arts، والكوردلييه بالبقاء باعتبارها الرابطة السياسية الأكثر أهمية في الضفة اليسرى. وقد عملت كورديلييه بمشاركة دنيا أكثر من المعتاد لتحشد الأعضاء من السكان العاملين الذين قد يعطون بعض المصداقية لمزاعمها الصاخبة في تمثيل الشعب ضد مضطهديه في حكومة المدينة.

وعلى الرغم من كل الحديث عن الوحدة وعدم التجزئة حملت متطلبات حال الدولة ـ مثل بيع ملكية الكنيسة ـ ثمرة الانقسام والنزاع. وجعل المبدأ الانتخابي الذي قدِّم في البلديات وإدارات الحكومة ذلك أسوأ، بما أنه قدم فرصاً للأجيال التالية من السياسيين المحليين اتهام أصحاب المناصب من المصالح المحلية بالاستسلام لهيمنة المركز الجشع. فطالما كانت المؤسسات التمثيلية موجودة، لن تنتهي المشكلة أبداً. وقد تفاقمت في

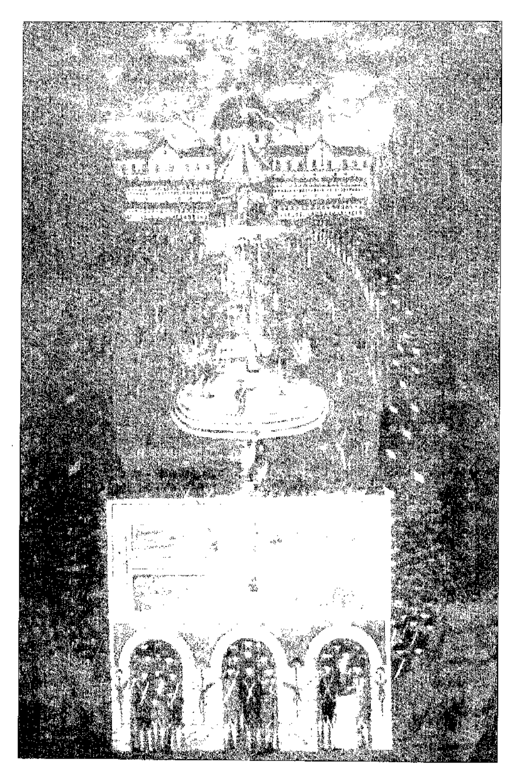
شكلها الأكثر حدة إلى حرب أهلية صريحة بين باريس والأقاليم الأكثر تحدياً. وكان بالإمكان مشاهدة مؤشرات الأشياء المريعة التي ستأتي في الصدامات العنيفة في الجنوب، حيث اندفع البروتستانت إلى الحرس الوطني كانت الحشود الكاثوليكية التي يحرضها الرهبان والإدارات المحلية المتمردة تهاجمهم. فقُتِل في تلك الصدامات الأكثر سوءاً في مونتُبان Montauban خمسة من الحرس الوطني وأصيب أكثر من خمسين بجروح خطيرة.

وكان ضد هذه النزعة المحلية المولعة بالخصام أن صمم المواطنون الحكماء في الحرس الوطني على توحيد السلاح عبر البلد كله في عرض للإخلاص الأخوي. حيث سيؤسسون الكتيبة غير المرئية للوطنية متشحين بالألوان الثلاثة ومرتبطين في ما بينهم بأيمان مقدسة.

IV ـ الفضاءات المقدسة

لم تستطع فرنسا الثورية أن تغدو، في الوقت نفسه، قوة أوروبية كبيرة قد استعادت شبابها وكونفيدرالية من أربعين ألف مجموعة منتخبة. وفي مرحلة معينة سيكون على قادتها أن يقرروا ما إذا كان عليهم أن يقاربوا أكثر نموذج بريطانيا الملكية، حيث انتقال السلطة المؤسساتية كان مقيداً بشدة بمصالح سلطة الدولة المركزية، أو أمريكا الجمهورية، حيث كان مفترضاً، نظرياً أن تكون الحكومة الوطنية أكثر من ممثل لتوافق الهيئات الانتخابية الإقليمية. ففي عام 1790، في كل حال، بدا الأمر لبعض الوقت كما لو أنه من الممكن الحفاظ على الحكاية السعيدة في اتفاق تذوب فيه المصالح المحلية والوطنية ببساطة. ومظاهرات الأخوة التي بلغت ذروتها في احتفال باري الكبير بالفيدرالية في الذكرى السنوية الأولى لسقوط الباستيل ظهر الجميع قادمين معاً بإرادات فردية إلى إحساس جديد بالجماعة. امتدت الأيدي اليمنى في الاتجاه نفسه إلى مركز وحيد، آلاف الأصوات تناغمت في حلف الأيمان للدستور، وانحلت الفروق المذهبية في تبادل العواطف الثورية. تماماً مثل خطيب الفرع المحلي لاتحاد كامل قد أوصى. ستغدو الثورة «مأوى فسيحاً يكون فيه الفرنسيون الجيدون جميعاً أخوة حقاً».

وبينما كانت مظاهر الدين الثوري الجديد ـ عبادة الاتحاد ـ ذات طابع مسرحي وبالضرورة سريعة الزوال، لم تكن أقل أهمية لكونها كذلك. ففي المناخ العاطفي لعام 1790 كانت على نحو قابل للأخذ والرد قد قدمت أكثر من تأثير عبر العرض الآسر من أي تبديل مؤسساتي مدروس، التي ركز عليها المؤرخون حتى فترة متأخرة تماماً. وسيكون



الصورة 127، لوحة مجهولة المصدر على لوح خشبي بعنوان: مصير الاتحاد *Fete de la Federation*

خطأً كاملاً إذا شوهدت باعتبارها مسرحيات صامتة منسقة أداها على المسرح سياسيون دفاعيون لإخفاء هشاشة شرعيتهم. وتشير الأدلة الساحقة من مناطق كثيرة في فرنسا ليس إلى مجرد أن اتحادات كثيرة في عام 1790 كانت تلقائية وحسب بل أشركت عدداً كبيراً

من الناس في الحماسة الوطنية المشتركة أيضاً. وعلى الرغم من ذلك فالواقع أن القوى المنظمة كانت دائماً رجال الحرس الوطني الذي كانوا في هذا الوقت «المواطنين الفاعلين» الأفضل، وأسهم عدد من هؤلاء كمشاركين ومتفرجين يقدمون قضية أفضل لاعتبار ثورة 1790 «ثورة شعبية» أكثر من النزعة اليعقوبية القسرية في عامي 1793 ـ 94 التي طبق المصطلح عليها أكثر تكراراً.

نهضت الحرية الفيدرالية من الهاجس الثوري بقسم اليمين. وفي اللحظة التي ظهر فيها لويس السادس عشر أنه أصبح في النهاية ملكياً مواطناً في 4 شباط، عندما ظهر أمام الجمعية الوطنية في بذة سوداء بسيطة ليقسم أنه «سيدافع ويحافظ على الحرية الدستورية، التي ستكون مبادئها الإرادة العامة، متوافقة مع إرادتي، قد صدّق»، في الوقت نفسه وعد بأنه سيربي الأمير ولي العرش «كملك دستوري حقيقي». رد بيلي على ذلك بوعد الملك أنك الآن «ستكون لويس العادل، لويس الصالح، لويس الحكيم، ستكون حقاً لويس العظيم». وبعد الحدث اقترح لافايت، الذي أشرف على مناسبات طقوسية مماثلة في الخريف الماضي، تجديد القسم الوطني لرجال الحرس للدفاع عن القانون والأمة والملك والحرية.

وفي كل حال، ربما كانت هذه المراسم المتكررة والكثيرة قد صهرت الهوية الفردية للمواطنين ذوي الضمائر الحية الذين لم يتعبوا أبداً من محاكاة هورايتي ديفيد بأيديهم الممدودة بألم في إرادة وطنية. لقد أخذوا رضاً خاصاً من الاحتفال بوحدة الولاء الذي كما قيل، أبقاه النظام القديم مقسماً على نحو مصطنع. وهكذا ففي 29 تشرين الثاني 1789، قامت الاحتفالات الكبيرة الأولى على ضفتي الرون، مع اثني عشر ألف جندي من الحرس الوطني من زوجة ولي العرش ومن الـ Vivarais يقسمون «في وجود الله، على قلوبهم وسواعدهم»، أنه لا النهر ولا أي شيء آخر سيفصلهم عن واجبهم المشترك في دعم الحرية الدستورية. وحدثت مشاهد مماثلة من الصخب الاحتفالي التاريخي في الربيع التالي في مرسيليا واللوار ولاروشيل وتروي. ففي 20 آذار عام 1790، أقسم رجال حرس وطني على ضفتي اللوار من أنجو وبريتاني باعتناق فكرة الأخوة المقدسة» على تجنب منافساتهم الإقليمية القديمة، كونهم ليسوا بريتونيين أو أنجيفينيين بعد الآن بل فرنسيون ومواطنون في الإمبراطورية نفسها».

وفي ستراسبورغ اجتمع في فيدرالية الراين خمسين ألف جندي من الحرس الوطني من كل أنحاء شرقي فرنسا من أوت مارن Haut - Marne إلى جورا Jura. وآلاف أكثر من

المدنيين استخدموا كإضافات مراسمية، وقد ارتدوا ملابس العقيدة الثورية. ارتدت أربعمائة فتاة فساتين بيضاء بتولية رقصن على النهر الثالث ذهاباً وإياباً في أسطول صغير من القوارب التي طليت بالألوان الثلاثة قبل الذهاب إلى «مذبح وطني ضخم: أقيم على سهل دي بورشير Plaine des Bouhers. وقد تبنى الحرس الوطني مائتي طفل صغير بطريقة شعائرية باعتبارهم «مستقبل الوطن». ونذر الصيادون نهر الراين وسمكه لقضية الحرية. وكان المزارعون الوطنيون قد سبق وقدموا استعراضاً بآلات النفخ الموسيقية مدفوعين بفرق من أجيال مختلفة من الأطفال والمتقدّمين في السن يحملون جميعاً المناجل والمحشات. وكان الشيء الأكثر أهمية هو رمزية الوحدة الطائفية كمتسلقي درج، أحدهما بروتستانتي، والآخر كاثوليكي (في مدينة ذات حضور إصلاحي قوي)، خضعا لتعميد عالمي بمشاركة عرابين من العقيدتين، وقد أعلن عن اسميهما ليكون «فيديريه» و«سيفيك» - «اتحاد» و«مدني».

وفي ليون كان الإخراج mise en scène للاتحاد كلاسيكياً جديداً على نحوٍ أكثر إتقاناً. حيث أقيم على الضفة اليسرى لنهر الرون معبد كونكورد بأعمدة دورية ترتفع 80 قدماً. وفوق تلك الأعمدة أُقيم نُصبٌ من الجص أرتفع 50 قدماً أخرى في السماء وقد توج كل ذلك بتمثال عظيم للحرية يحمل في إحدى يديه رمحاً وفي الثانية قلنسوة فريجية قدمت لتحرير العبيد في روما القديمة وقد نسخت من المسكوكات الأثرية بأمانة. وأقيمت المراسم ذاتها في 30 أيار، لكن ليومين امتلأت المدينة بالوفود الأخوية من المناطق الأخرى - بريتاني لورين، ماكونيز، وبروفنس - يرتدي كل وفد أزياء مميزة غير أنها عرضت أخوتها متباهية بالأوشحة الضخمة الثلاثية الألوان. وفي اليوم نفسه، اجتمع خمسون ألف شخص على ضفتي النهر على سماع صوت المدافع والموسيقى ليشاهدوا أكثر من 400 علم كتيبة حرس وطني تحيي الثورة وتشارك في نشيد جماعي للقسم الذي ترددت أصداؤه خلال المطر المتدفق.

إنه لأمر صعب، في القرن العشرين، أن نتعاطف مع هذه التظاهرات الجماهيرية للتوحد الأخوي. لقد رأينا الكثير من تلويح الرايات المنسقة - حقول واسعة من الأيدي التي تحصد في تضامن سار - وسمعنا الكثير من الغناء بانسجام لتجنب التشاؤم أو الشك. ولكن مهما يكن الأمر تافهاً وتعوزه التجربة، ليس ثمة سؤال بأن المشاركين شعروا بذلك بشدة كطريقة لقلب المخاوف الداخلية إلى ابتهاج خارجي، في تغطية إحساس مرعب بالتهور أثارته الحداثة الثورية بعباءة فضفاضة من التضامن. كيف يشعر المرء بالتشجيع

أفضل من الوقوف إلى جانب آلاف الغرباء، الذين يستطيع أن ينادي أحدهم أخي في صباح ندي على الأقل؟

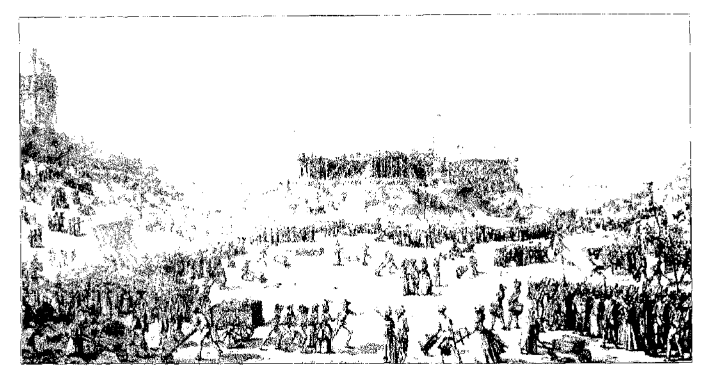
كانت تلك خطوة منطقية للتقدم من أيام الاتحاد الساذجة إلى حدث باريس حتى الأكثر طموحاً الذي سيربط الجنود المواطنين من كل أنحاء فرنسا بالسلطات التنظيمية في الثورة. وبدا الاقتراح لمثل هذا «الاتحاد العام» يأتي عفوياً من فرق الحرس الوطني التي ستقسم يمين الولاء في حضور الهيئة التشريعية و«أفضل الملوك». وجعل سيلفن بيلي Sylvain Bailly، الذي كان متحيزاً جداً لهذه الملامح الكبيرة القرار رسمياً وفي 7 حزيران أبلغ تاليرن الترتيبات المقترحة للهيئة التأسيسية. ومع أنه لم يفقد شيئاً من ارتيابه الشخصي بمثل هذه المناسبات كان لديه أيضاً الدهاء ليدرك قوتها السيكولوجية. والإجراءات، كما أبلغ، يجب أن تكون مهيبة ومجيدة لكن لا أن تكون باهظة التكاليف جداً. (في النهاية كلف ذلك نحو ثلاثمائة ألف ليفر.)

اختير ميدان شان دي مارس Champ de Mars موقعاً للمراسم، وهو فسحة مفتوحة كبيرة استخدمه طلاب المدرسة العسكرية للتدريب والعروض (وقبل سنة بالضبط، كان الموقع الذي عسكرت فيه قوات بروغلي). وللحفاظ على النزعة الفتشية الرومانية (الاستغراق بشيء ما أو الإخلاص له ـ المترجم) في الثورة، كان يجب أن يُعَدّ المكان بوصفه سيركاً هائلاً أو مسرحاً. كان يجب أن توضع فيه مدرجات بعلو 30 درجة وفي نهاية أحد المداخل كان يجب أن يتميز بقوس نصر عظيم ثلاثي الأقواس، وسيقام في المركز ما كان عندئذٍ قياسياً «مذبح الوطن الأم» الذي تؤدَّى عنده الأيمان. وكان الأمر الأصعب إقراره هو المكان الذي يجب أن يُخصَّص لِـ«أفضل الملوك». وإذ كان إعطاؤه مكاناً عند المذبح سيبدو يمنحه الكثير من الأهمية تقرر إنشاء فسطاط للجماعة الملكية (السلطة التنفيذية) والمندوبين من الجمعية الوطنية (السلطة التشريعية) في رابطة واعتماد متبادل رمزيين.

لم يتم التصديق على هذه الترتيبات حتى 21 حزيران. وكان ثمة ثلاثة أسابيع متوفرة، عندئذٍ، للعمل الجبار في تحضير الموقع. كان المكان المراد أن يتسع لأكثر من أربعمائة ألف شخص مليئاً بالصخور وكانت ثمة حاجة لإزالتها قبل العمل على التربة الصعبة وتسويتها. كان معظم الحقل يجب أن يُحفَر بعمق أربعة أقدام وبالتالي يرتفع مكان المذبح في الوسط بذلك المقدار، لكن لم يكن هناك خنادق لتصريف المياه، وقلبت الأمطار الغزيرة في نهاية حزيران منطقة المسرح، لاسيما الأمكنة القريبة من أقواس

النصر، إلى مستنقع. كانت ثمة حاجة إلى كميات ضخمة من الرمل والحصى لإعطاء السطح بعض الصلابة. وكان هناك أعمال تمهيدية شاقة مماثلة أخرى كان يجب أن تستكمل بسرعة كبيرة. جادة دي ماريني de Marigny وشوارع أخرى كان يجب أن توسّع لثلاث عربات وفُرش طريق الموكب للقوات الاتحادية fédérés بكميات كبيرة من الرمال.

كانت مهمة مروعة لكنها مهمة يمكن أن تُسخَّر لها ميزة حميًّا الحماسة الثورية بطريقة مفيدة. فقد انقلب وسط باريس وغربها إلى خلية نحل ضخمة من العمل المنظم مع نفاد الوقت. أكدت كل الروايات المعاصرة، نصاً وصورة، على الطبيعة العلاجية والمساواتية اجتماعياً للعمل، مع الرهبان والنساء ذوي السمعة الجيدة، غطين شعرهن بقلنسوات كبيرة وعملن جنباً إلى جنب الحرفيين والجنود. لـ مرسييه Mercier كان مشهد باريس مختلفاً بالإجمال عن كومة نفايات أشياء بغيضة حللها على نحو جدير بالتذكر. كان ذلك أن غدت زريبة الخنازير مكاناً ملائكياً. احتفال إنساني عظيم طُهِّر أخلاقياً بعملهم الجماعي.



الصورة 128، لوحة لرسام مجهول، إعداد ساحة مارس لاحتفال الاتحاد. في الأسفل يساراً، الملك، يتكئ على مجرفة، يتلقى الهتاف لمشاركته.

كان هناك (في ساحة مارس) أنني رأيت مائة وخمسين ألف مواطن من كل الطبقات والأعمار والجنسين يقدمون الصورة الأكثر روعة في التوافق والعمل

والحركة والبهجة التي شوهدت على الإطلاق... أي رجال رائعين ومواطنين ممتازين في باريس استطاعوا أن يحولوا أياماً من العمل الثمانية إلى الاحتفال الأكثر تأثيراً وفجائية وجدة وجد يوماً. إنه نموذج من عرض أصيل إلى درجة حتى الأكثر لا مبالاة من الناس لا يمكن إلا أن يتأثر.

وفي هذا الجيش العظيم من العمال الوطنيين، امتزج القوي بالضعيف. دوقة دي ليون Duchesse de Louynes خصصت عربة يدٍ خاصة كانت قد صنعتها من خشب الماهوغاني لتجرها فتيات الورد اللواتي حملن الورد في زفافها. وقد رأى مرسييه بين مجموعة من الراهبات والرهبان الكادحين كيرسانت البطل البحري «بملامح طرية مشرقة على وجهه» يدفع عربة يد بالبهجة نفسها التي أظهرها في بيل بول Belle - Poule عندما ذهب لقتال أعداء الوطن. وتبعاً لوصف مرسييه المنتشي، بعيداً عن تعب هؤلاء الذين شاركوا في الورديات، كان العمل شيئاً من الحب الذي أنعشهم إلى حد تنافس حملة المياه والباعة المتجولين وعتالي السوق تنافسوا في ما بينهم لرؤية من يمكنه أن يستمر أطول، وقد أثبت المحاربون القدماء «أن سواعدهم يمكن أن تبقى قوية طالما ظلت روحهم شجاعة». لقد أظهرت مهن مختلفة صفات موحدة عندما عملت، وضع عمال الطباعة قبعات ذات أشرطة كتب عليها، «الطباعة، علم الحرية الأول»، وكان الجزارون أكثر تهديداً، «ارتعدوا، أيها الأرستقراطيين، هنا رجال الجزارة».

ومثّل موقع العمل أيضاً مشهد عائلة توحي بالرضا والطمأنينة. ففي أحد تلك المشاهد كان قسم عمل سعيد أنجزه أب يعمل بمعول وأم تملأ عربة يد وطفل في ربيعه الرابع أمسك بذراعي جده البالغ من العمر ثلاثة وتسعين عاماً يغني له «هذه إيرين» ليسلي بقية العائلة. لقد حكم السلام الاجتماعي والغيرية إلى حد لم يُبلّغ بين هذا الحشد الهائل عن أي عنف أو جناية. ويزعم مرسييه أنه رأى أحد الشبان يصل للعمل ويخلع معطفه ويرمي ساعتي يده عليه. وعندما ذكره أحدهم بأنه ترك أشياءه هناك، ردَّ بورع مستشهداً بروسو: «لا يستطيع المرء ألا يثق بأخوته». كان العاملون في الحانات يأتون بالخمر والمشروبات مجاناً وكانت البراميل الخشبية تحمل الشعار المتفائل على نحو مماثل: «أيها الأخوة، لا تشربوا ما لم تكونوا عطشى حقاً».

حتى العائلة الملكية تأثرت بهذه الإرادة الطيبة السائدة. قبل يوم الاتحاد بأسبوع، فتح لويس المكتبة الملكية والحدائق النباتية لرجال الحرس الناجحين، وإذ جاء لتفتيش الموقع شخصياً، استقبله أفراد حرس الشرف مشكلين قوس نصر بمعاولهم. وقال الملك في استقبال وفود إقليمية إنه يرغب أن يبلغ فرنسا كلها أن «الملك أبوهم جميعا وأخوهم

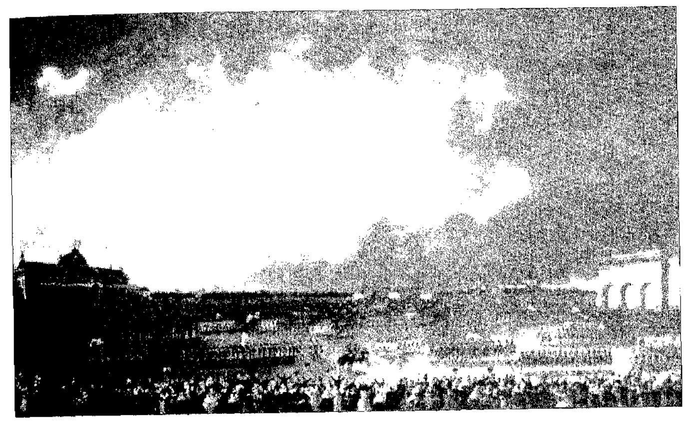
وصديقهم وأنه يكون سعيداً برفاهيتهم ومريضاً لمرضهم». وطلب من الاتحاديين أن يبلغوا مشاعره إلى سكان «الكوخ والخيمة الأكثر تواضعاً».



الصورة 129، فتيان الجزارين في ساحة مارس

لم يكن الطقس مبشراً بالنجاح لليوم العظيم. اتهمه بعض المواطنين بكشف عدم المساعدة الأرستقراطية. اجتمع خمسون ألف جندي من الحرس الوطني على بوليفار دو تمبل عند الفجر مع منتخبي باريس لعام 1789، والممثلين الحاليين في الكومونة وكتيبة أطفال تحمل شارة تعلن أنها ستكون «أمل الوطن»، والمحاربين القدماء والبحارة ذوي اللحى في شيفالييه دي كالييه، وجماعات من الجنود النظاميين والبحارة وأخيراً وفود من المقاطعات بما فيهم حراس من ليون الذين جلبوا معهم راية رومانية. وقد أُعطيَ شرف حمل راية المقاطعة لرجل الحرس الأكبر سناً في كل كتيبة. كان المطر يتزايد بشكل ثابت وعند الثامنة، عندما بدؤوا المسير بصف من ثمانية جنباً إلى جنب في الموكب، انقلب الأمر إلى مطر غزير. لكنهم ساروا غير مروعين بألبستهم المبللة وأحذيتهم التي تخوض في الماء والوحل باتجاه الغرب خلال باريس على طول جادة سانت دنيس ثم جادة سانت

أونور على صوت إطلاق المدفعية وفرق الموسيقى العسكرية. وبغض النظر عن المناخ البائس كانت الحشود ضخمة ورُميَ الورد على الجنود عندما مرّوا. وركضت النساء والأطفال إليهم بالحلوى والشطائر وغنوا لهم مع المزيد من جوقات الغناء «هذه إيرا».



الصورة 130 لـ دي ماشي، عيد الاتحاد في باريس عام 1790

وفي ساحة لويس الخامس عشر انضم إليهم نواب الجمعية الوطنية، والموكب الطويل على نحو هائل وصل أخيراً إلى ساحة مارس عند الساعة الواحدة. وهناك نهض قوس النصر الثلاثي ثمانين قدماً فوق الأمفيثياتر، متوجاً بمنصة مشرفة اكتظت بالمتفرجين على نحو خطر. وقد حيّ هدير أربعمائة ألف دخولهم ـ صوت متعاظم لم يفشل في إرسال رعشة في العمود الفقري لأصحاب المحلات في البلد أو المحامين أو الصيادلة المشدوهين ببلل أزياء الحرس الوطني الرسمية باللونين الأزرق والأبيض. وفي مركز الساحة كان «مذبح الأرض الأم» قد انتهى في رخام مزيف وزُيِّن برموز تعليمية. مثّلت امرأة الدستور على الجوانب، ومثّل محاربون الوطن على الجانب الآخر عُرضوا وأيديهم ممدودة بطريقة ثورية مصدَّقة. وأعلن أحد الشعارات أن «كل الأحياء متساوون؛ ليس بالمولد بل بالفضيلة الوحيدة التي يتميزون بها/ في كل دولة يجب أن يكون القانون عاماً

ويجب أن يكون الناس متساوين أمامه من كانوا». وفي الجانب المقابل صورة الشهرة تعلن أن مراسيم الجمعية خالدة وتطلب من الناس أن يفكروا في «الكلمات الثلاث المقدسة التي تكفلهم».

الأمة، القانون، الملك

الأمة، التي هي أنت

القانون، الذي هو أنت أيضاً

الملك، يجب أن يكون حامي القانون

بدأ تاليران مراسمه بالقداس ومنح البركة عند الساعة الثالثة والنصف. كانت مسؤوليته أن يقدم صيغة تجمع ما بين التقوى والوطنية ومع ذلك فقد اختلفت بالضرورة عن صيغ الطقوس الدينية العامة. كانت صارمة كفاية لتجعله منفعلاً. كان شهيراً بوصفه أسقف أوتن بتقديم الطقس بطريقة خرقاء. في الحقيقة، كان قد أجرى ليلة البارحة، تجربة في بيت صديقه دي سوسيفال de Sousseval، مرتدياً لباساً أسقفياً كاملاً ومستخدماً رف الموقد كمذبح. حيث غنى ميرابو الخبير جداً برغبة تاليران أجزاء الكورس وقاطع صديقه حيث اقترف خطأً. وفي قصة مشكوك بصحتها تكررت طويلاً أن تاليران توسل إلى لافايت، الذي شاركه في المذبح في ساحة مارس، ألا يجعله يضحك. لكن في الواقع هناك مؤشرات على أن الرجلين تعاملاً مع المناسبة بمنتهى الجدية. كانت الجمعية الوطنية قد سنَّت دستور رجال الدين قبل يومين، في 12 تموز، وكان تاليران وهو أحد أنصاره الكبار مدركاً تماماً الحاجة إلى توفير نوع ما من الدين الثوري الملهم الذي يمكنه أن يعتمد على العاطفية نفسها أو حتى المشاعر الصوفية التي اعتمدت عليها الكنيسة الكاثوليكية، لربط المؤمنين بالثورة. وبينما كان تاليران ينجز عرض براعته بواسطة صديقه العالي المكانة ميرابو، كانت ثمة كنتاتة رائعة نصفها مقدس ونصفها وثني بعنوان **الاستيلاء على الباستيل** تُقدَّم في كنيسة نوتردام. قدمها ممثلون من فرقة مونتانسييه Monatansier، ومغنون من دار الأوبرا والمسرح الإيطالي وفنانون من مسارح الشارع نيكولت وأمبيغو ـ كوميك الذين أُسنِد إليهم لعب دور الوطنيين المحاربين. ومع كورس ديني كامل استخدم أوركسترا عسكرية ومدفعاً ومقاطع من سفر جوديت علت فوق الضجة. كان ذلك نوعاً من شيء فكر تاليران أنه جيد للمعنويات العامة.

ومع ذلك، كان في الرطوبة التي تخللت كل شيء يشعر بصعوبة إدراك جلالة

المناسبة، ظلت الرياح تسوق عبق البخور وأثوابه المبللة وزنت طناً. ومن تحت تاج الأسقف الذي كان يقطر مطراً على أنفه الوسيم، عاين كبير أساقفة الاتحاد بوجه كالح صفوف قوات الحرس اللامتناهية تندفع إلى الحلبة بأعداد ضخمة. وأشار إلى مساعده، الأب لويس، وزير المالية الذي جرد نفسه لاحقاً من وظيفته الكنسية في عهد الإمبراطورية والاسترداد، متسائلاً «لماذا لا يواصل هؤلاء اللوطيون تحركهم؟» Ces bougres - là ne "vont - ils pas arriver?» وأخيراً كان كل شيء جاهزاً وتقدم تاليران بالقداس ومنح البركة للرايات رافعاً ذراعيه بطريقة محايدة فوق تدفق الأعلام وقال للجماعات: «غنوا وابكوا دموع الفرح لأن فرنسا تلد من جديد في هذا اليوم».

بقية ذلك اليوم تنتمي للافايت. فقد كان هو، بعد كل شيء، من استدار البلد له كتجسيد للجندي ـ المواطن، ليس لقيادته وحسب بل لمثاله البطولي أيضاً. وباعتباره مدير نوع من توافق واضح وجلي، كان لافايت يدرك جيداً أن قابلية الملكية الدستورية للتطبيق تتطلب استعراضات مسرحية للإرادة الوطنية. فقد أصر على حكم قانون الطوارئ في باريس أواخر تشرين الأول عام 1789 لمنع المظالم مثل إعدام خباز دون محاكمة كان متهماً خطأً بإنقاص الوزن. لكنه أدار المناسبة إلى مراسم رسمية، وجعل الملك يقف عراباً للأطفال اليتامى ـ تعبيراً أدبياً عن إحساسه الأبوي. ففي نيسان، جلب لافايت بطل الاستقلال الكورسيكي (الذي سحقته فرنسا عام 1769)، الجنرال باولي، إلى باريس ليرى ألا شيء لدى رجال بلده ينبغي أن يخشوه من «أخوتهم» في فرنسا الجديدة. وقد زارا معاً موقع الباستيل واستعرضا عرضاً للحرس الوطني في عرض أخوة.

لم يوافق الجميع على لافايت بطلاً لتلك الساعة. فقد أشارت كل من جريدة دزمولين وجريدة لُستالُت إلى أن يوم الاتحاد قد خطط له باعتباره تمريناً لتمجيد الذات. لكن يكاد لا يوجد مؤشر على أن هذه الانتقادات قد أنجزت الكثير لتحجب شعبية لافايت الواسعة بين الحرس الوطني في الأقاليم. وقد كان قبلة أنظار الجميع عند الساعة الخامسة 14 تموز عام 1789. حيث اعتلى صهوة جواده الأبيض من المذبح وركب خلال صفوف الحرس الوطني التي انقسمت لتشكل طريقاً باتجاه السرادق الملكي. وهناك ترجل واستأذن وتلقى الإذن من الملك ليشرف على القَسَم إلى الاتحاديين المجتمعين. وعودة إلى المذبح، بأسلوب تالما المسرحي الأفضل، مدّ لافايت كلتا يديه إلى السماء بأسلوب كهنوتي مناسب، ثم لمس سيفه حاملاً إياه بيده اليمنى إلى المذبح في محاكاة لقسم الصليبيين القدامى. ولأن صوته لم يكن مسموعاً بوضوح إلا لهؤلاء الذين حوله مباشرة،



الصورة 131، لرسام مجهول، قسم لافايت. تاليران في أقصى اليمين قوس النصر الثلاثي مكتظ على نحو خطر بالمتفرجين هو في الخلفية. على درجات المذبح رموز العبودية المحطمة، وفي أقصى اليسار أحد المنتصرين المميزين رسمياً في الباستيل يرتدي خوذته الرومانية المزيفة

قرأ ثانٍ للافايت القسم بينما كان هو يقول يطلق الصوت إلى مرافقيه، وانتهى بكورس هادر ينشد «أنا أقسم اليمين». ووابل من قذائف المدفعية سُمِع من نهاية الميدان إلى نهايته الأخرى. وعندما تلاشت، استخدم لويس لقبه الجديد للمرة الأولى، معلناً أنه «ملك الفرنسيين» واقسم «أن أستخدم كل السلطة المفوضة لي بالدستور لدعم مراسيم الجمعية الوطنية». والملكة، التي تبللت أرياش النعام في قبعتها، رفعت ولي العهد بزي **الحرس الوطني** لهتاف وتهليل الحشد.

لم تنصف إحدى لوحات لحظة الذروة، المحفوظة في متحف كارنافالي Musee Carnavalet، قوتها. لكنها في الأقل، التقطت ليس الرؤساء وحسب ـ تاليران في قبعته الأسقفية الكبيرة، ولافايت يرتدي زي القائد، ومحرري الباستيل في الأسفل يساراً في زيهم الرسمي بالخوذة الرومانية ـ بل أيضاً مزاج المشهد. وإذا جارينا البديهية الرومانسية أن المكونات هي ذاتها مكونات سياسية، فالرسام جعل غيوم المطر السوداء يخترقها شعاع ضوء شمس أرسلته العناية الإلهية في اللحظة التي يلمس فيها سيف لافايت المذبح بالضبط. إنها النظير المرئي لأغنية سوقية poissard غدت شعبية بعد الاحتفال هي:

Ca m'coule au dos, coule au dos, coule au dos
En revenant du Champ de Mars...
Que 'qu ça m'fait à moi d'êt mouillé
Quand c'est pour la librté

إنها تنزل عن ظهري، تنزل عن ظهري، تنزل عن ظهري
عائداً من ساحة مارس...
ماذا يعنيني إذا تبللت
في سبيل الحرية.

استمرت الاحتفالات لأسبوع، مع فرق الحرس الوطني التي لم تشعر بالإرهاق من استقبالها الحميم في باريس إلا تدريجياً، تشرب كثيراً وتتوقع كثيراً من الوجبات المجانية. ذهبَ كثيرون منهم مساء الرابع عشر من تموز إلى رقصة الباستيل، حيث زين بالوي Palloy بالفوانيس والرايات وزُوِّد بثلاث وثمانين شجرة، واحدة لكل مقاطعة في فرنسا، واستطاعوا مؤخراً في ذلك الأسبوع أن يسمعوا عروضاً أكثر لكانتاتا الاستيلاء على الباستيل لِ دوزيجيه Desaugiers أو يذهبون إلى المراسم الخاصة في مكان تشريف مقاطعة دوفين، ولمرات كثيرة، شبح هنري الرابع الودود. وفي النهاية، في الثامن عشر كان هناك احتفال مائي رائع على نهر السين، الذي انتهى بمراكب المهرجانات ومثاقفات الفرسان.

كان برنامج الاحتفال يشبه تلك التي كانت تقام تقليدياً لدخول الأمراء الزوار. غير أن الشعب كان هو الزائر هذه المرة ليس إلا.

أما الأجانب الذين يمموا طريقهم إلى باريس للشرب من نبع الحرية فكانوا مقتنعين بأنهم يشهدون حلول الألفية الأخوية بالتحديد. لقد سمعوا نواباً في الجمعية الوطنية يعلنون «إعلان السلام إلى العالم» ويعدون بأن فرنسا لن تكون أبداً معتدياً عسكرياً ثانية. فكتب المعلم جوشيم هينريتش كامب Joachim Heinrich Campe: كيف يمكنني أن أصف كل هذه الوجوه الفرحة وقد أشرقت بالكبرياء. أريد أن أطوق بذراعي الأشخاص الأوَل الذين قابلتهم... لأننا لن نعود بعد الآن من برنسويك أو من براندنبرك... لقد تلاشت كل الفروق القومية، واختفت كل الأهواء». وأحس الشاعر وليم وور دزوورث الذي نزل في كالي Calais يوم المهرجان بالشيء نفسه. لقد شعر بالبهجة تنتشر في كل مكان مثل عطر الربيع وهو يمشي خلال أقواس النصر التي زيّنت بالورود.

ولِـ هيلين ماريا وليامز الشابة وهي تنظر إلى الشوارع الرطبة تحت بينما كان الحرس الوطني يسير عبر باريس، كان الرابع عشر من تموز «المشهد الأكثر سمواً» الذي أملت يوماً أن تراه. كان الإيمان الحقيقي الذي ظهر في شكله الأكثر انتشاء. «شوهد المسنون يركعون في الشوارع يباركون الله أنهم عاشوا لمشاهدة تلك اللحظة السعيدة. وركض الناس إلى أبواب منازلهم محملين بالمرطبات التي قدموها لفرق الجيش، وأحاطت حشود النساء بالجنود يحملن أطفالهن بأيديهن، وعدن أن يجعلن أطفالهن يتشربون منذ نعومة أظفارهم التعلق الذي لا يتزعزع بمبادئ الدستور الجديد».

وإذا كانت هذه سذاجة فهي مغتفرة، فالثقافات الأخرى في أزمنة أخرى اكتسحتها موجات مدّية من المعية لم تكن أقل عاطفة من تلك التي شهدها مهرجان الاتحاد. ومع ذلك كانت هناك رؤوس متحجرة هنا وهناك فهمت قيمة المناسبة دون أن تضللها قوتها لخلق وحدة باقية من الحماسة المؤقتة. فتاليران، على سبيل المثال، الذي رسم خطط العمل بالدرجة الأولى، ما كان أبداً الرجل الذي يضع رهاناته على ذلك. وفي المساء من يوم الرابع عشر كان قادراً في النهاية، على نزع ثوبه الأسقفي المبلل. وبعد أن جفف نفسه، استدعى عربة لتأخذه إلى منزل الفيكونتيسة دي لافال Vicomtesse de Laval حيث كانت ألعاب ورق لرهانات كبيرة تُعَدّ. سعل بأدب، وأخذ مقعده وبدأ يربح. تابع الربح طيلة ذلك المساء وجعل البنك يفلس و«يحمل أكثر مما تتسع له جيوبه وتحمله محفظة نقوده من المال». ربما كانت تلك بشارة فأل جيد: العناية الإلهية تبارك «أبو» الاتحاد

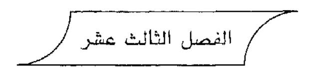
بثروة جيدة. ولكن في حال كل هذه المباركات والأيمان انتهت لتكون بلا طائل، فقد كان لديه ما يكفي من الذهب الخالص ليعضّ عليه. لأن تاليران لم يثق بالنقود الورقية على الإطلاق.

CHAPTER 12

Sources and Bibliography

On Jean Jacob, see, for example, the report in Desmoulins' Révolutions de France et de Brabant (December 12, 1789), in which engraved portraits were advertised for 30 sous (3 livres if hand - colored). On the background and consequences of the Civil Constitution of the Clergy, see J. McManners, The French Revolution and the Church (London 1969). Timothy Tackett, Religion, Revolution and Regional Culture in Eighteenth - Century France: The Ecclesiastical Oath of 1791 (Princeton 1986), 15 an outstanding study which places great emphasis on a clearly defined religious geography in France; Albert Mathiez's neglected La Révolution et L'Eglise (Paris 1910) has an interesting essay on the campaign to politicize the pulpit. For an example of pre - Revolutionary Jansenist and "reformist" clerical ideology, see L'Ecclésiauique Citoyen (1787) and Ruth Necheles, The Abbé Grégoire 1787 - 1831: The Odyssey of an Egalitarian (Westport, 1971). For anticlerical songs in Paris, see Rogers, Spirit of Revolution (200ff.).

For Talma, see F H Collins, Talma: Biograpiy of an Actor (London 1964). The most detailed and interesting account of Charles IX is A. Liéby, Etude dans Le Théâtre de Marie - Joseph Chénier (Paris 1901). On politics in the Cordeliers, see Norman Hampson, Danton (London 1978, chapter 2); and R. B. Rose, The Making of the Sans - culottes. For the Fête de la Fédération, see Mona Ozouf, Festivals and the French Revolution (trans. Alan Sheridan, Cambridge, Mass., 1988); Tiersot, Les Fêtes et Les Chants 17 - 46); and Marie - Louise Biver, Fêtes Révolutionnaires à Paris (Paris 1979). On the Strasbourg Fête, see Eugene Seinguerlet, L'Alsace Française: Strasbourg Pendant La Revolution (Paris 1881). See also Albert Mathiez, Les Origines des Cultes Révolutionnaires 1789 - 1792 (Paris and Caen 1904).



أسفار
آب 1790 ـ تموز 1791

I ـ عظمة التغيير

في صباح 30 أيلول 1790، شقّ موكب صغير رزين طريقه إلى قصر العدالة في غرينوبل Grenoble. وكان على رأسه رئيس بلدية المدينة المنتخب م. بارال M.Barral الذي أضاف إلى أبواب السنديان العظيمة في البناية أقفالاً حديدية التي تدلت منها أختام مضغوطة رسمياً. سُمِّرت المذكرة عندئذٍ على الباب معيدة عرض مرسوم الجمعية التأسيسية بإلغاء محاكم السيادة القديمة في فرنسا واستبدالها بقضاة ومحامين عامين منتخبين. ومحكمة غرينوبل، التي أعلنت في عطلة غير محددة، هي الآن مصدقة رسمياً أنها ميتة.

وما يثير الدهشة على الأقل أن الرجل الذي صوَّب رصاصة الرحمة رسمياً هو نفسه مستشار في المحكمة. كان بارال في نظر المواطن البسيط معروفاً أفضل لأبناء غرينوبل بأنه الماركيز دي بارال دي موتفِرا Marquis de Barral de Montferrat. وقد أصبح رئيس بلدية عندما انسحب زميل آخر له، هو الماركيز دي فرانكوييير Marquis de Franquières من الانتخاب بسبب اعتلال صحته. وغالباً ما كان التوعك الصحي هو مبرر الشخصيات المحلية ذات المكانة عندما أرادت أن تنأى بنفسها عن الشعبية الثورية، ولكن في حالة دي فرانكويتري، كان العذر حقيقياً، لأنه مات بعد عدة أشهر. عندئذٍ نجح بارال بالمنصب ووضع نفسه على رأس الوطنيين المحليين، الذين عزموا على منع مونييه Mounier، الذي عاد آنئذٍ إلى مدينته الأصلية، من ترسيخ غرينوبل كمركز في معارضة الجمعية التأسيسية. ومن ثم انتخب بارال لكل من إدارة المقاطعة في الإيزار Isère ورئاسة محكمة المقاطعة

الجديدة التي أخذت مقعدها في الغرف نفسها حيث كانت المحكمة تعقد جلسات غرفتها العليا. وكان في تلك المحكمة معه، كقضاة، أربعة محامين آخرين سابقين في المحكمة هم: دوبورت إيني وجينسبو وليمتر وجنيفو. وكان رئيس إدارة المقاطعة في الإيزر أوبرت دوبييه Aubert - Dubayet، وهو ضابط سابق آخر في الجيش.

إذن لا تستلزم الخصومة الثورية مع الماضي المؤسساتي بالضرورة إزالة الطاقم بالكامل. ففي حين أنهت الثورة وجودهم الجمعي، لم يجد أفراد كثر كانوا يشغلون مناصب في ظل الملكية صعوبة في تغيير هويتهم المشتركة لصالح ذلكم المواطن ـ خادم الوطن. في الحقيقة كان كثيرون منهم من أكثر المدعين العامين حماسة ضد زملائهم القدماء. ففي صيف عام 1792، كانت المركيزة السابقة دي مونتفيرا، الآن المواطنة بارال، من ألقى خطاباً مشبوب العاطفة أمام المجلس البلدي في غرينوبل من أجل سجن ماري أنطوانيت بشكل عاجل وتعيين «مرشد وطني» لولي العهد.

ومع أخذ هذا المزيج من الاستمرارية وعدم الاستمرارية، بالإضافة إلى الدور البارز الذي لعبه نبلاء دوفين في التعجيل بنهاية الحكم القديم في الحسبان، ليس مفاجئاً أن يمزج نعي محكمة غرينوبل، الذي نشرته كوريير باتريوتيك المحلية، الازدراء الرسمي بالاحترام الممتعض.

لم تعد تلك الهيئات المتغطرسة، تلك التماثيل الضخمة، التي لم يخدم وجودها المبهم لا الملكية ولا الرعية، والتي لم يستطع تنظيمها الرهيب والعجيب أن يعمل إلا في دولة كانت فيها كل مبادئ (الحكومة) مشوشة أو غير مفهومة. أرى إغلاق القصر الذي مثل قلعة، تحدوا فيه غضب الملوك مرات كثيرة، ذلك القصر الذي وجدت فيه حرية الفرنسيين... ملاذاً آمناً.

وقد تكرر مزج القديم والجديد عبر فرنسا. على الورق، لا يمكن أن يكون التحول أكثر حدة أو أكثر شمولاً. وكهيئات عامة، حلت الهيئات التشريعية في الجمعية التأسيسية محل المحاكم وحل قضاة الصلح والمحاكم المحلية ومحاكم المقاطعات المنتخبة محل السلطة القضائية القديمة التي تمثل الملك في المقاطعات. وفي الطريقة نفسها، كانت طبيعة الحكومة الشبيهة بلحاف مكون من رقع وذات الحدود المتداخلة والمتقاطعة التي تختلف من الإدارة المدنية إلى الحكومة العسكرية إلى الأساقفة الكنسيين قد ضُخِّمت في مجموعة متكاملة تمسك بكل شيء في المقاطعة. والأكثر إثارة هو التراتبية الهرمية للموظفين الملكيين المعينين ـ من أعضاء المجلس البلدي أو«المستشارين» إلى المحافظين

والمحامين العامين ـ الذين تمت تنحيتهم جانباً الآن لصالح الموظفين المنتخبين. وفي الحقيقة ألحقت الهزيمة بالمواطن النشط الحي الضمير عام 1790 بالانتخابات، بالطلب إليه أن يصوت بالتتابع لرئيس البلدية المحلي والمستشارين وموظفي القضاء ومجالس المقاطعات وقضاة المحاكم الجنائية وقضاة الصلح والمحامين العامين و، في النهاية، في منعطف السنة لأسقف المقاطعة الانتخابية ومساعديه.

وكان مظهر «الرجال الجدد» ـ الأطباء، المهندسين، المحامين بأعداد كبيرة وقلة من التجار ورجال الأعمال ـ في الموجة الأولى من الهيئات التشريعية التي أسستها الثورة جزئياً من عمل التوسع الكبير في المناصب المنتخبة. وفي الأقل هذه استجابة لمناشدة العرائض Cabiers لمزيد من الحكومة لا تقليصها، والشخصيات الثورية ذات المكانة أنجزت واجباتها على نطاق واسع. ولكن، كما في غرينوبل، عنى هذا التوسع المفاجئ في الحاجة إلى موظفين مجربين أنه في كل أرجاء البلد كان كثيرون من هؤلاء الذين تقدموا ليشغلوا هذه المناصب موظفين في النظام القديم. غالباً لم يشكلوا أغلبية، لكنهم تولوا المناصب الأكثر نفوذاً في معظم الأحيان، مثل رئيس بلدية، أو رئيس المقاطعة الإدارية، وفي الواقع، كان عدد لافت منهم نبلاء سابقين. والقوائم العادية للمناصب التي قدمها المؤرخون في تدقيق مهن رجال عام 1790 و1791 غالباً ما تغفل هذا الواقع لأن «الأرستقراطي» أو«النبيل» غدا مرادفاً «للخائن»، ومستشارون سابقون كثر في المحاكم أدرجوا أسماءهم عندئذٍ ببساطة أنهم «رجال قانون» المهنة التي كانوا يمارسونها في الحقيقة. وفي حالات كثيرة، بعد قانون إلغاء وراثة الألقاب، طبعاً أسقطوا ألقابهم الأرستقراطية، وهكذا دبرمِنسيل صار الآن ببساطة السيد دوفال، وخصمه إلى اليسار هوغت دي سيمونفيل السيد سمونفيل (وفي عهد نابليون، البارون سمونفيل).

ويكشف فحص أدق للأنظمة الجديدة في مدن إقليمية كثيرة في فرنسا، كبيرة وصغيرة، تماماً كيف احتفظ كثيرون من النظام القديم بمناصبهم بشكل استراتيجي. ففي تولوز، على سبيل المثال، لم تمنع الأرستقراطية المحلية المشهورة بمرونتها المعروفة بالكابيتول Capitouls بعضاً منها أن يناصر النظام الجديد. لم يكن الموظف المنتخب الذي يمثل الملك محلياً، المدعي العام ميشيل أتاناز ملبل Michel - Athanaze Malpel، أرستقراطياً سابقاً وحسب، بل واحداً من الأكثر غنى، فقد حصل على ثروة تقدر بأكثر من ثمانين ألف ليفر من خلال زواجه. وضمت البلدية، التي خلفت البلدية الأرستقراطية، واحداً آخر من الأوليغارشية، هو بيير دوبوي Pierre Dupuy، وكان رئيس محكمة

المقاطعة إيتيان فرانسوا أربانير Etienne - François Arbanère، مدعياً في المحكمة. وفي النهاية الأخرى من فرنسا، في مرفأ شانيل في كاليه Channel Port of Calais، انتخب نيكولاس بلانكوارت دي ساليناس مدعياً عاماً للمقاطعة وبيير دي كاربنتييه رئيساً للبلدية، وهما من الأيدي القديمة ممثلين للملك. وعندما انتخب الأخير بدوره إلى منصب القاضي خلفه في منصب البلدية، الشخصية المنيعة جاك غاسبار ليفو Jacques - Gaspard Leveux، ابن المدير المالي في البحرية، وهو أحد أكثر المناصب ربحية في النظام القديم الذي يمكن تقديمه. لم ينتخب ليفو ثانية رئيس بلدية وحسب، بل دبّر من خلال اهتمام عنيد بالمصالح المحلية على البقاء في عهد الإرهاب والإدارة والقنصلية والإمبراطورية، ومات في المنصب حاملاً وسام جوقة شرف في عهد لويس الثامن عشر.

لم تكن هذه حالات استثنائية. ففي باريس، كان نحو 20% من الثلاثمائة ممثل المنتخبين للبلدية أعضاء سابقين في المحاكم. وفي مقاطعة فيل دي سانت توماس وحدها، شارك محرر **الباتريوت فرانسيه**، بريسو، الوفد المفوض مع المستشارين لاكرينيل وسيمونفيل والموظف المالي مولين وترودين دي أورمي، وهو مسؤول كبير في هيئة جامعي الضرائب من الفلاحين. وفي ليون، حلّ النبيل السابق الليبرالي بالين دي سافي محل آخر إمبرت كولومب في رئاسة إدارة المدينة. وقد هاجمت، الاثنين، مجموعة ثالثة من الديمقراطية الوطنية قادها رولان دي بلاتيير جاء من عائلة قضاة نبيلة ذات أملاك قرب آميان Amiens وامتلك أرضاً ريفية في تيزي Thizy في بوجوليه Beaujolais ومنزلاً في المدينة على أحد أرصفة نهر الرون.

واجتماعياً، كان هناك القليل للتميز بين هؤلاء الرجال، لاسيما في مركز تجاري كبير مثل ليون، حيث لم تكن الخطوط بين النبلاء والثروة الشائعة واضحة منذ زمن بعيد. والأكثر أهمية، مع ذلك، كانوا ينتمون جميعاً إلى وسط ثقافي مشترك: عالم الأكاديميات والمحافل الماسونية. وشاركوا جميعاً في مشروع التنوير الحديث المتفائل الذي رأى العلوم تقود بالضرورة إلى المزيد من الازدهار والمزيد من الحكم الصالح. وفي هذا الصدد، أيضاً، يمثلون استمراراً لمناخ النظام القديم الثقافي لا قطعاً معه. فـ رولاند، بعد كل شيء، كان نصيراً محترفاً لنعم التكنولوجيا بصفته مفتشاً عاماً ملكياً للسلع المصنوعة. وقد قادته حماسته الجديرة بالثقة للعمليات المبتكرة إلى ترويج فكرة صناعة الصابون من الشحوم المختزنة في جثامين الموتى دون وخزة حرج مروعة واحدة. وضم زملاؤه ومنافسوه وخصومه في الحياة العامة في ليون النائب بِرسافين Pressavin، الذي تكمن

شهرته في مجلداته العظيمة الشأن المخصصة للأمراض التناسلية، والصديق لانتيناس Lanthénas، الذي نشر عام 1784 عملاً تنويرياً نموذجياً بعنوان «التعليم (المعنى المراد منه) كقضية مباشرة لكل الأمراض»، ولا يزال هناك آخر هو الطبيب فيتيه Vitet، الذي أدار مدرسة التوليد في المدينة والذي ساعد في ترويج صندوق دعم رضاعة الثدي في ليون الذي أطلقه بومارشيه. ومثل رولاند، كان فيتيه ثورياً أكثر تحمساً من باليرن دي سافي، الذي حل محله رئيس بلدية، غير أن باليرن كان أيضاً رئيس أكاديمية ليون، وكان إمبرت ـ كولومب قبله معروفاً أفضل بوصفه عالماً نباتياً ومديراً لمستشفى الفقراء العام أيضاً.

لم تحل هذه الزمالة الثقافية، طبعاً، دون العداوة السياسية المريرة. وفي الحقيقة يمكن أن تكون قد أضافت إليها السم المميز لحروب المثقفين (والأكاديميين). ولكن يجب أن يكون واضحاً ـ ما دامت ليون كانت نموذجية ـ أن جمعيات الفكر والأكاديميات والمتاحف غالباً ما وفرت التمهن الذي"يستطيع الأعضاء من خلفيات اجتماعية مختلفة أن يتحدى أحدهم الآخر ويزعم أنه ينتمي إلى إمبراطورية العقل نفسه. وعلاوة على ذلك، فإن وضوح المتعلمين وفلاسفة الأقاليم بين الناس عامي 1790 و1791 يشهد على اقتناعهم العام بأن الثورة تواصل، في جوانب كثيرة، تحديث المشروع الذي رُوِّج ـ بنتائج متفاوتة ـ في عهد لويس السادس عشر ويكمله. وضم ممثلو مقاطعات باريس بين عددهم المهندس المعماري والكاتب كواترمير دي كينسي Quartremère de Quincy وفلاسفة علماء مثل جوسيو Jussieu وكوندورسيه Condorcet ورسام الخرائط الفلكي، الذي كان له نفوذ كبير في تقدير حدود المقاطعات، الكونت دي كاسيني Comte de Cassini. وأي نائب أكثر ملاءمة إلى الجمعية الوطنية في كاليه Calais من بيير جوزيف دي أندروينس Pierre - Joseph des Androuins النبيل هاوي الطيران الإنساني الذي كان أول من يقدم استضافة في قصره للطيارين بلا نشارد وجيري بعد عبورهما القنال الإنكليزي في منطاد؟

لا أريد أن أقلل من تأثير بدايات الثورة على الحياة الفرنسية ومؤسساتها. كان ثمة مؤسسات هامة ـ والأكثر جدارة بالملاحظة الكنيسة ومجموعة الضباط المتخصصين في الجيش الملكي ـ الذي انقسم إلى اثنين في قياداته. لكن عملياً لا يوجد دليل مقنع على أن المعايير التي قرر بها الضباط والكهنة والموظفون السابقون، أو لتلك المسألة كتبة العدل والمحامون دعم أو معارضة الثورة، لتغدو وطنياً أو مهاجراً، كانت محددة اجتماعياً.

وهذا ليس البتة لأن عواقب الثورة من عام 1789 إلى الإرهاب كانت، في معظمها، ذات طابع محافظ اجتماعياً. فقد لعبت تأثيرات معظم التشريع في هذه الفترة

بشكل مباشر لصالح المجموعات التي عملت جيداً في نهاية النظام القديم (مع أنها قد كانت غير مستفيدة مؤقتاً من فترة الكساد التي استمرت من عام 1787 إلى 1789) وأخذت تُعطى آنئذٍ فرصاً أكبر لتعمل أفضل. كانت تلك المجموعات التي كانت استطاعت أن تُعرِّف مصالحها الاقتصادية بمصطلحات الملكية ورأس المال، بدلاً من الامتيازات، والأكثر كثيراً التي غدت متحولة إلى وجهة النظر التي وجدت فرصة كبيرة للازدهار في الثورة. وهذا ليس كالقول إن الثورة كانت ضرورية للازدهار أقله لتطورات الرأسمالية ولكن في السنتين الأوليتين ـ ربما في عاميها الأول والثاني فحسب ـ عملت قليلاً لعرقلة أو عكس تطورات العقود الماضية.

وهكذا كانت تلك المجموعات بالضبط هي التي تذمرت منها عرائض سكان المناطق الريفية بمرارة ـ الفلاحون الأغنياء المتلهفون لامتلاك ديكة القرية وملاكون آخرون (بعضهم نبلاء) ـ كانوا يخطفون ممتلكات الكنيسة عندما تأتي إلى السوق. وقد نظرت الهيئة الانتخابية إلى ذلك أن الكثير يذهب ببساطة إلى المزايد الذي يدفع ثمناً أعلى، متأكدين من أنه عندما يستطيع الفلاحون التجمع معاً في نقابة شراء وحسب (كما فعلوا في بعض أقسام الشمال) يمكنهم أن يكسبوا الأرض. ففي بويسيو بونتيز Puisieux Pontoise في سان أي واز Seine et - Oise على سبيل المثال، كان صديق روسو، المركيز جيراردين وكنيسة سانت مارتن يهيمنان على الأرض الصالحة للزراعة. وعندما عرضت أملاك الكنيسة في السوق، كان المستأجر لدى جيراردين الأكثر قدرة، حيث استطاع توماسين Thomassin أن يتحمل الإسراع إلى شراء 25 هكتاراً من أفضل الأراضي مقابل مبلغ كبير قدره 500.69 ليفر. ومبالغ أخرى كبيرة تم الحصول عليها بالمثل من المزارعين المستأجرين الأغنياء في القرى المجاورة ومن تاجر دواجن في بوسيو Puisioux. وجيراردين نفسه، الذي أصبح نصيراً متحمساً للثورة، بطريقة يمكن التنبؤ بها، والذي ابنه، ستانيسلاس Stanislas، كان رئيس الإدارة الإقليمية، حاز على ملكية 15 هكتاراً في شراكة مع مزارع ميسور آخر.

ولم يكن إلغاء نظام الأسياد الإقطاعيين واضح المعالم تماماً كما بدا ليلة الرابع من آب 1789 المسببة للدوار. فحالما ساد أصحاب الرؤوس الباردة، الخبراء في القانون الإقطاعي في عصر التنوير الأخير، الذين كانت منهم فرق، استدعيت، لتحدد الفروق القانونية بين تلك الحقوق (مثل القديمة الميتة) التي تقرر أنها «شخصية» وقد ألغيت كلية دون تحفظ، وتلك (هي الغالبية إلى حد بعيد) التي تقرر أنها «تعاقدية». وغني عن القول،

إن الأخيرة، كونها عُرِّفت نوعاً من الملكية المشروعة يمكن ـ إذا وافق الطرفان ـ أن تُستَرجَع مقابل 25 ضعف قيمتها السنوية غالباً، ولم يدع هذا المعدل فرصة لأحد غير الفلاحين الأغنياء أن يغتنم فائدة القانون. وما حدث في تلك الظروف هو أن الأسياد الإقطاعيين كانوا قد استكملوا انتقالهم إلى ملاك أرض، وهي عملية كانت تجري في الجزء الأخير من القرن.

وعلى نحو يمكن التنبؤ به أيضاً، لم تتغير بنية السلطة في القرية إلا قليلاً. ففي كومونة أوتيو ـ سور ـ لو ـ بور ـ سانت أوين Authieux - sur - le - Port - Saint - Ouen في النورماندي، انتخب الاجتماع الانتخابي المحلي المكون من أربعين فلاحاً خوري القرية رئيساً لبلديتهم، مع مجلس شارك فيه المزارعون ملاك الأرض والتجار المحليون مثل مدير الفندق والموظفون الصغار مثل المحامي العام وواصل النموذج نفسه تقدمه في ما يتعلق بتأثيرات الثورة على فرنسا المدينية. فقد صُمِّم الكثير من تشريع الهيئة التأسيسية ذات التأثير على فرنسا المدينية لتبني السياسات التي بدأت في عهد تورغو وكَلوني Turgot and Calonne، التي تدفع فرنسا قدماً نحو التوسع الرأسمالي. فإصلاح ترغت لنقابات التجار الذي أُحبِط في حينه سُنّ الآن في أوائل عام 1791 باعتباره إلغاء مباشراً. لكن عندما ضيّق الحرفيون المياومون تلك البهجة الواضحة إلى أنها حررتهم من القيود المشتركة وانقلبت إلى سلسلة من الإضرابات ـ النجارون والبيطريون وصانعو القبعات بشكل ملحوظ ـ ردت الجمعية الوطنية بقانون لو شابلييه Le Chapelier الذي يحظر أي نوع من أنواع الاتحادات أو الاجتماعات العمالية. وكما يشير الغياب النسبي للخطابات والمواد الصحفية حول هذه المسألة في ذلك الوقت، فقد سُنَّ قانون لو شابلييه نتيجة ميل إلى الترسيخ الأيديولوجي للتجارة الحرة أقل منه إلى الرغبة في حماية مصالح المواطنين المشتركة ـ كما تجسدت في المؤسسات الوطنية ـ ضد مبدأ الالتزام بمصالح جماعة واحدة التي تُعلَن الإضرابات لتمثلها.

وبطريقة مماثلة، أعيد إنتاج الكثير من الشكوك والانقسامات في الرأي حول الطريق الأقصر إلى التحديث الاقتصادي الذي تمفصل بوضوح خلال العقود التي أنهت النظام القديم في الثورة. ربما كان في الهيئات الانتخابية إجماع على حماية الحرية الداخلية في ما يتعلق بتجارة الحبوب لكن عزم قوي بالمثل على منع أي تصدير من فرنسا. وضغطت بلدات النسيج في النورماندي، التي تلقت ضربة نتيجة المنافسة البريطانية، بشدة لإلغاء الاتفاقية التجارية لعام 1786 (في الحقيقة لحظر كل البضائع المستوردة)، بينما عملت

مناطق التجارة الحرة مثل بوردو، التي كانت تجارة خمورها مزدهرة مع إنكلترا، بقوة مساوية للحفاظ على تلك الاتفاقية. ومع ذلك، عندما جاء الأمر إلى التجارة الكولونيالية، توقف تجار بوردو، مثل أندادهم في نانت والروين، عن يكونوا تجاراً أحراراً وحاولوا أن يقدموا الحجج (ضد المزارعين في الأنتيل) في ما يتعلق بالإبقاء على القوانين التي تفرض أن تُشحن البضائع الكولونيالية عبر فرنسا حصراً. ولا حاجة للقول إن كل هذه الأطراف لجأت إلى لغة السياسة لتبرر مواقفها المتناقضة. ومع ذلك لم تكن هذه النقاشات حول الحرية والوطنية إلا قشور رقيقة تكسو الدفاع العنيد عن المصالح المحلية.

وباستثناء مصادرة أملاك الكنيسة بين 1789 و1792 الحاسم، لم تنتج الثورة أي تغير هام في السلطة الاجتماعية. لقد سرّعت موضوعياً الميول التي كانت تحدث منذ فترة طويلة من الوقت. ووسّع استبدال المنتخبين للمناصب التي كانت تُعيِّن إطار الحكومة بإدخال المهنيين الذين كانوا يقرعون الباب. لكن حتى قبل الثورة نادراً ما كان ذلك محظوراً وموصوداً كما حاولت الخطابة اللاحقة أن تظهره. وفيما يتعلق بالنخبة ـ النبلاء ورجال الدين ـ فقد انقسمت تبعاً للقناعات السياسية والتضامن المحلي أكثر منها طبقات اجتماعية. وبالمثل عوقب هؤلاء الذين تمسكوا بوضع ينطوي على مفارقة تاريخية الذي لا يمكن الحفاظ عليه إلا ضمن مجتمع ذي طبقات متحدة ـ وُسِموا أنهم غير مواطنين وأجبروا على الهجرة أو التمرد المسلح. ومن جهة أخرى، استطاع هؤلاء الذين كانوا قادرين على إعادة صياغة أنفسهم كمواطنين مدافعين عن حقوق الشعب وخدم دولة، وكانوا قادرين على رؤية ثروتهم في لغة الملكية بدلاً من الامتيازات، استطاعوا أن يقوموا بتحولات حاسمة من نبلاء إلى شخصيات ذات مكانة بارزة. وإلى درجة مساوية لذلك سيشكل ملاك الأرض وموظفو الدولة ومدراء المقاطعات والقضاة المحترفون والأطباء وأصحاب البنوك والصناعيون مجموعة نفوذ وقوة تهيمن بطريقة فاعلة على المجتمع الفرنسي لقرن تالٍ.

II ـ غياب الاعتدال في السجالات والمناظرات

ومع ذلك يجب ألا ينطوي هذا على أن لا شيء ذو أهمية قد تغير كنتيجة مباشرة للمرحلة الأولى من الثورة الفرنسية. فقد أثمرت الحريات التي حفظت في إعلان حقوق الإنسان لحماية حرية التعبير والنشر والاجتماع ثقافة سياسية لم يعرف فيها تحرير الازدراء حداً بكل ما للكلمة من معنى. وقد كانت، إلى حد كبير إبداع الثورة الأكثر أهمية، لأنه

على الرغم من الأسلوب الهجائي والمفاهيم السائدة التي صاغها في النظام القديم كتاب وصحفيون مثل لنغت ومرسيه، فإن إلغاء الرقابة والمقاضاة مكّن الجدل السياسي من أن يصل إلى جمهور واسع لم يشهد له سابقة.

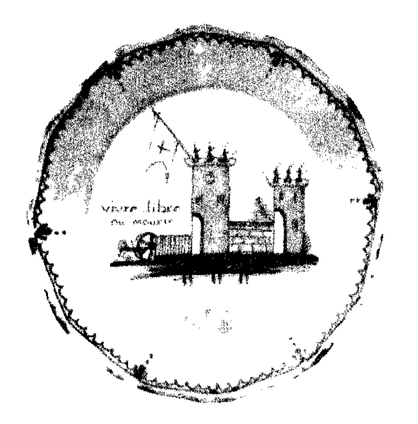
وكانت النتيجة غياب الاعتدال في السجالات الذي انتشر في البلد كله. وقد أممت الثورة المعلومات، بأنباء من باريس قادرة على الوصول إلى الحدود الشرقية والجنوبية من البلد في غضون ثلاثة أو أربعة أيام، إلى حد كان على المرء فيه أن يهرب بعيداً لينجو من لمسة السياسة الموجودة في كل مكان. من مواقع الجيش حيث طالب الجنود بحق التآخي مع المدنيين وحتى حضور اجتماعات النوادي إلى كنائس الريف حيث استخدمت الأبواب كلوحات إعلان وغدا المنبر أرض معركة لأرثوذكسيات متنافسة، إلى شرفات مسارح الشارع حيث هدرت حشود الحرفيين المياومين بإساءات مبتهجة وأغانٍ وطنية بدورها إلى الممثلين، لا شيء لم تصله اليد الطويلة والصوت المتعالي للخصومة السياسية.

لم تحترم هذه الدرجة من التعبئة حدود اللياقة الشخصية. في الحقيقة كانت الخصوصية موضع شبهة في ذاتها، كونها قريبة جداً إلى استراتيجيات التستر التي قيل إنها في صميم الثقافة الأرستقراطية. وهكذا لم تتوقف تجارب الفضيلة الوطنية عند باب غرفة النوم. فاستمتعت صحف مثل الأخ خطيب الشعب Fréron's Orateur du Peuple بتقديم (أو اختلاق) قصص الثوريات ليزستراتاس Lysistratas اللواتي قطعن ممارسة الجنس في اللحظات الحاسمة ليحتقرن أزواجهن لأنهم أقسموا يمين الولاء لِـ لافايت. «توقف، توقف، توقف الآن تماماً»، هتفت إحدى المواطنات ذوات العزم من شارع سان مارتن في باريس، «لن تتمتع بعد الآن بمداعباتي الرقيقة التي أضعتها مرات عليك حتى تتخلى عن تعلقك بذلك الفاسد». وفي المقابل، كان يُرَحّب بالزيجات الوطنية وكأنها صخرة الصلة التي سيبنى عليها الوطن الفاضل حقاً. ففي كانون الأول عام 1790، هنأ بريسو على نحو ساخر كميل دزمولين على زواجه بينما يعبر عن الأمل بأنه «في صيرورته سعيداً لن يكون صديقهم أقل مثابرة دفاعاً عن المصلحة العامة». وفي مرحلة لاحقة في دورة الحياة الزوجية للأمهات الوطنيات المنجبات كنّ يُكَرَّمنَ لمساهمتهن للوطن. فقد منحت إحدى المعجزات، زعمت أنها حملت بما لا يقل عن 25 طفلاً، شرف حمل العلم الوطني في مراسم خاصة في كنيسة نوتردام في رون عام 1971.

وقد جُنِّد الأطفال أيضاً في هذا العالم من عروض الفضائل العامة التي لا ترحم. فشجع اليعاقبة تشكيل جمعيات شباب مثل «أصدقاء الدستور وكان يُسمَح للأعضاء أحياناً



الصورة 132، للرسام لو سور قسم الأطفال



الصورة 133، صحن يمثل الباستيل

بحضور جلسات «النادي الأم» في باريس. وفي كل أنحاء فرنسا، كانت «كتائب الأمل» التي تشكلت من فتيان بأعمار السابعة إلى الثانية عشرة، تعطى لباساً موحداً وتُدرّس للامتحان وتلاوة مقاطع من إعلان حقوق الإنسان والمواطن ويقومون بالعروض أمام



الصورة 134، فنجان قهوة وصحن الأطفال يؤدون القسم الوطني

آبائهم المواطنين المحبين في صور مصغرة لهندام الحرس الوطني. ففي ليل Lille، على سبيل المثال، درب جندي محارب قديم، السير دي بواسراغون السابق، والآن مجرد السيد شيفالو، مجموعة من 80 ولداً (كما في كل مكان آخر، باسم مستعار تورية باسم كتيبة البوربون الملكية، «البون بون الملكية»). ومع خوري أبرشيته المحلي، نظم شيفالا «فيدرالية» أطفال اكتملت بمنح بركة العلم وأداء الأيمان. «سنعيش لوطننا»، وعد سيزر لاشابل البالغ من العمر ثماني سنوات، ونارسيس لابوزييه بعمر تسع سنوات، «وأنفاسنا الأخيرة ستكون له». وقد احتجوا مؤكدين للمندوبين الشجعان في الجمعية الوطنية، «عندما يتباهى آباؤنا وأساتذتنا إلى ما لا نهاية بحكمة مراسيمكم وعندما نسمع التصفيق من كل أرجاء فرنسا لأفعالكم الخالدة، وعندما تنهمر البركات على رؤوسكم من فرنسا كلها، كيف يمكن لقلوبنا أن تبقى دون إحساس... لا، أيها السادة، لا يعرف الإدراك والاحترام عمراً».

ولم يكن هذا النوع من الحكي الإلهامي محصوراً في الخطابات، والمراسم والنصوص. بل رشح إلى عالم الفنون الحرفية وغطى الصحون وفناجين القهوة والأباريق

البرونزية بموضوعات وطنية مثل الباستيل نصف المدمر محاطاً بالديك الفرنسي الذي يحيي فجر الحرية، أو رايات الحرس الوطني والثالوث الخاص «القانون والملك والدستور». واستدارت عندئذٍ صناعة القطن المطبوع أوبركامب Ober Kamp في جوي Jouy، التي أنتجت أولاً نسيجاً مصقولاً بتصاميم تحتفي بالحرب الأمريكية، إلى مشاهد من الأيام الملحمية لعام 1789، حيث كثيراً ما كان الهجوم الضاري للدعاية السياسية قضية الصور مثل النصوص. والنقاشون في شارع سان جاك الذين تحولوا إلى طابعين شعبيين للقديسين والأبطال والجنود المحليين قبل الثورة صاروا الآن مشغولين غالباً وقتاً كاملاً ينتجون كميات هائلة من الطبعات ذات الموضوعات الثورية الصريحة. تحتوي مجموعة المكتبة الوطنية عشرات آلاف الأمثلة بالمعنى الحرفي للكلمة من هذه الطبعات التي لم توثق أحداث الثورة للأميين وترسلها إلى الأقاليم البعيدة من باريس وحسب، بل أنشأت أنماطاً هامة من الأبطال والأنذال أيضاً. إنها على الأغلب تعاير صعود وسقوط مكانة شخصيات مثل نِكر ولافايت وميرابو من خلال إنتاج إيقاع النبرة وتقلباتها في المطبوعات التي تعرض تلك الشخصيات.

وكانت الأشكال الأخرى من الأدب المصور المعتادة مستخدمة بطرق مماثلة لحضانة الفضائل الخاصة التي دافعت عنها الجماعات الثورية المتنافسة. كانت التقويمات أداة مفضلة. فـ سيلفان ماريشال، على سبيل المثال، الذي سجن قبل الثورة بسبب إنتاج روزنامته الناس الشرفاء Almanach des Honnêtes Gens، غدا حراً الآن في نشرها، وقد كررت محفظة الوطني Patriot's Portfolio مزيج معلوماته العملية ونزعته المساواتية الاجتماعية الطوباوية. وفاز تقويم الكاتب المسرحي والممثل كولو ديربوا Collot d'Herbois روزنامة الأب جيرارد بجائزة خاصة من اليعاقبة (منحتها لجنة تضم كوندورسيه وغرايغوار) لكونه عملاً يجمع بين المهمة التبشيرية في التعليم السياسي والأسلوب البسيط المدروس الذي قصد أن يخاطب الفلاحين الذين استهدفهم ظاهرياً. كان الأب جيرارد مندوباً في الهيئة الانتخابية من رين الذي احتفل به لأخذه مقعده في مجلس الطبقات في معطف فضي بني بسيط، وعلى نحو واضح مثال البساطة الريفية في مدونة الأخلاق الاجتماعية التي دعا إليها روسو. وقدَّم كولو العمل بنبرة تقطر فرحاً ريفياً، وتفسر معنى مصطلح الدستور من خلال مقارنته بالجسم السليم لأحد فتيان الفلاحين الأقوياء يدعى نيكولاس «الذي شهيته الصحية ورأسه السليم ويداه القويتان هي صورة الدستور ذاته».

والمسرح الشعبي للفودفيل Vaudeville، والأغاني المختلطة والرقص والتهريج

والمزاح غير المقيد، تحول إلى سلاح آخر للدعاية الوطنية. وقد حطمت مسرحية **نيكوديمُس في القمر أو الثورة الهادئة** الرقم القياسي في الانطلاقة الأولى بتسعين عرضاً في الثياتر ـ فرانسيه، التي قُدِّمت لجمهور مختلط حقاً. وقد استخدمت مجموعة الحيل كلها من مسرح بوليفار دي تمبل والبالي رويال، واستغلت جنون الطيران بالمنطاد لإرسال بطلها، الفلاح نيكوديمُس ـ مُركَّب غاليّ غريب من البساطة والذكاء ـ بعيداً إلى القمر. وهناك يكتشف ملكاً ودوداً لكنه بائس تسيطر عليه زوجة صعبة ومنحرفة. ثم يرسم نيكوديمس صورة جنة أرضية عند عودته إلى فرنسا حيث قبلت دولته المستقلة بحرية ثورة جعلت الأمة كلها سعيدة.

واستخدمت البلاغة السياسية تسريحات الشعر أيضاً. فقد نشرت صحيفة بريسو **باتريوت فرانسيه** Patriote Français، على سبيل المثال، رسالة طويلة في تشرين الأول عام 1790 يدافع فيها عن الشعر القصير السبط غير المبدور بوصفه تسريحة وطنية، والسبب الذي قدِّم هو أنها كانت التسريحة المفضلة لدى أنصار المحكمة خلال الحرب الأهلية الإنكليزية الفاضلة، وعلى نحو يثير الجدل، كانت الجدائل الطويلة المجعدة الشارة الخارجية للفرسان الأرستقراطيين التافهين الفاسدين. وفي ما يخص الرومان، افترض الكاتب أن الطغاة المنحطين أمثال قيصر وأنطوني أثاروا القلق بكَيِّ شعرهما الجعد، بينما قصَّ كاسيوس وماركوس بروتوس، «اللذان كانت روحاهما فخورة واللذان ضربا الإرهاب في قلب الدكتاتور»، شعرهما قصيراً وسرَّحاه إلى الأمام بالأسلوب الذي شوهد في أدوار تالما على المسرح. وقد أصرَّ الكاتب على أن «هذه التسريحة هي الوحيدة التي تناسب الجمهوريين: كونها بسيطة واقتصادية وتتطلب قليلاً من الوقت، فهي لا تحتاج إلى عناية وبالتالي تضمن استقلال الشخص، وتقدم الدليل للعقل الميال إلى التفكير والشجاع كفاية ليتحدى الزي».

لم تكن صحيفة بريسو الوحيدة التي حاولت تعزيز الأخبار من خلال المقال الافتتاحي والتبشير السياسي والسوابق المثالية المصممة ليس لخلق حب فضول وحسب بل تغيير جمهور القراء أخلاقياً. فربما كانت الصحافة من كل وسائل الإعلام هي الأكثر قوة التي تشكلت من خلالها الهيئة الانتخابية السياسية الجديدة. وقد كان حجم توسعها بعد عام 1789 مذهلاً بحد ذاته. كان ثمة قبل الثورة نحو 60 صحيفة في كل أنحاء فرنسا ـ مع أنه كما أوضح جيرمي بوبكين Jeremy Popkin، كانت الجرائد الفرانكفونية الأجنبية إضافة كبيرة. فمع حلول آب عام 1792 كان هناك ما يقارب 500 في باريس وحدها. لم

تستطِع كلها، طبعاً، بالنتيجة أن تتباهي بديمومة الحياة أو أكثر من توزيع متواضع. لكن الناجحة جداً، مثل **حوليات كارا الوطنية** Annales Patriotiquesس بلغت ثمانية آلاف بالتأكيد، وجريدة الأب سيروتي ذات الشعبية الواسعة **صحيفة القرية** Feuille Villageoise، التي اهتمت بتقديم نصوص سياسية للفلاحين فبلغت رقماً أعلى كثيراً. وقد قدَّر جاك غودشو Jacque Godechöt أنه من خلال الاشتراكات الواسعة التي اشترتها النوادي السياسية أن صحيفة الأب سيروتي ربما قد وصلت عملياً إلى جمهور من القراء بلغ مائتي ألف قارىء ـ مع أن هذا الرقم ينتمي إلى مملكة تفاؤل وفعالية هيئة التحرير.

وما كان مثيراً في الانتشار الواسع للصحافة السياسية ليس مجرد توزيعها الذي اتسع كثيراً بل مجموعة الأساليب والاتجاهات والأشكال الكثيرة التي تبنتها وشملت ما هو جدير بنقله من الهيئة الانتخابية الذي يبعث على الملل في صحيفة بريسو **الفرنسي الوطني** Patriote Français بالإضافة إلى البذيئة والمثيرة في حالة الأكثر قراءة **خطيب الشعب** وقد أمسكت بعض الصحف باهتمام القراء مثل صحيفة مارات من خلال ضراوتها الخالصة التي لا تعرف الرحمة في لومها وأمواج سخطها والذعر يمكن أن تسببه بالإشارة إلى الأعشاش المتوارية من الخونة والمتآمرين ـ الأكثر شبهاً بالتحريين السياسيين المسلحين بسلطات الاتهام المقدسة. وأخرى، لا تزال أكثر تجريبية، مثل صحيفة هيبرت **الأب دوشين** Père Duchesne، والنشرات السريعة الزوال مثل الجريدة الساخطة **الخياط الوطني** Tailleur Patriotique التي حاولت أن تعيد إنتاج الصوت الأصيل لـ بوغر الطيب bon bougre ـ الرجل البذيء اللسان الصريح في الحانات والأسواق، رأسه مغلف بأدخنة الكحول والتبغ ولسانه حار باللغو الموجَّه إلى المومس النمساوية الملكة Autri Chienne. كانت جاذبيتها عنف شفوي، إلى درجة أن جريدة **الخياط الوطني**، على سبيل المثال، وصفت بانتظام الزبائن الذين جاؤوا إليه للقياس من أجل أطقم أنهم Aristocrates à pendre أرستقراطيون للشنق.

واهتمت الصحف الأكثر نجاحاً أيضاً بكونها أدوات إرشادية، لتصليب شكوك المترددين، ووعظ غير المتنورين وتبليغ هؤلاء الذين يجدون صعوبة في فهم مراسيم الجمعية الوطنية أو الفرق بين الوطنيين «الصادقين» و«المزيفين». فقدمت صحيفة سيروتي **صحيفة القرية** نصاً **للفلاح الوطني**، يقدم نصيحة حول كيفية مكافحة الآفات الزراعية الضارة في الأشجار المتعفنة في البستان والقساوسة الذين لم يؤدوا يمين الولاء على المنبر على حد سواء. وأعادت جريدته أيضاً، بموافقة متحمسة للاستخدام العام، تقديم

نص صلاة لكينيو Lequinio الوطنية: «يا إله العدالة والمساواة، ما دام قد أرضاك أن شعبنا الطيب قد استعاد حقوقه جميعاً، خذه بحمايتك على الرغم من عمل الحمقى والمتعصبين ولا تدع أخوتنا يقاتلون ضد أخوتهم مخافة أن يهزمهم جميعاً **أعداء عائلتنا**». ونشر سيروتي أيضاً حكايات الإرساليات التبشيرية النائية ذات الإيمان الثوري التي تعمل بمشقة على نشر الإنجيل، وغالباً بشكل حرفي في فنائها الخلفي. وفي إحدى هذه الرسائل، أبلغ معلم في مدرسة

*أننا نجتمع كل أحد في قريتنا في حديقة صغيرة مجاورة لمنزلي وهناك، أجلس على ركام ما، وأقرأ لفلاحينا المتحلقين حولي، **صحيفة القرية**. يصغون جيداً إلى درجة يجعلونني أكرر أية كلمة لا يفهمونها. فأوضح لهم كل شيء أعرفه لكنني غالباً ما أدرك أن ثمة أشياء لا أعرف عنها إلا القليل أو أخطئ في إدراك معناها الحقيقي.*

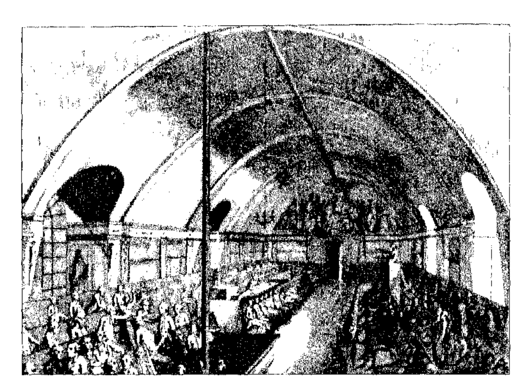
وفقاً لتاريخ مايكل كنيدي لليعاقبة، كانت **صحيفة القرية** اشتراك الخيار الأفضل في ناديهم، لاسيما في الأقاليم. وكانت بالتأكيد في الجمعيات الشعبية إلى درجة أن معظم الفرنسيين ـ وبعض الفرنسيات ـ تلقنوا لغة السياسة الثورية منها. لم تكن **جمعية أصدقاء الدستور**، التي كانت تلتقي في دير لليعاقبة في شارع سانت أونوري Saint - Honoré، طموحة جداً في بداياتها. لقد مثلت موضوعياً استمرارية مندوبي **نادي بريتون** في فرساي الذي كان يجتمع لينسق التكتيكات التي ستضمن النصر في الجمعية الوطنية ضد مكائد الحكومة. وقد قدم اليعاقبة في باريس مكاناً حيث يستطيع المواطنون و«مفوضوهم» مناقشة المسائل العامة في جو من إعادة الطمأنينة المتبادلة بتوسيع عضوية الجمعية إلى الجمهور العام وتخفيض اشتراكها السنوي إلى 24 ليفراً، الذي يمكن أن يدفع شهرياً أو كل فصل. وعلى الرغم من أن مصطلى النزعة المساواتية المقاتلة التي ستغدو كذلك بعد عام 1792، أثارت الجمعية بشكل طبيعي نقداً للبراغماتية الحكومية أو«النزعة المعتدلة»، التي تقوم على ما زعمت أنه مبدأها الأول في الثورة.

وفي ربيع عام 1790، شكل الوطنيون ذوو الآراء المتشابهة في بلدات الأقاليم مثل ديجون وليل وستراسبورغ وغرينوبل ومرسيليا الذين أرادوا نقطة تجمع يستطيعون منها شجب مكائد المتمردين المحليين (الذين تحصنوا أحياناً في الإدارات المحلية) جمعياتهم الخاصة وكتبوا يسعون إلى الاندماج مع أصدقائهم وأخوتهم» في باريس. وبدورها، أرسلت تلك «الجمعية الأم» نشطاء لتشجيع إنشاء خلايا محلية دعتها إحدى النشرات التي توزّع على نطاق واسع «ائتلاف مقدس للحفاظ على الدستور»، لاسيما في البلدات حيث

الجمعية تحكم على القضية الحقيقية التي يجب تطويقها. أحياناً قد يذهب الجهد هباء، مثلاً عندما شنق الممثل بوردييه Bordier في رون لتحريضه على انتفاضة شعبية: لكن غالباً ما أُنجز العمل سلمياً ووجد استجابة سريعة في اجتماعات المتحمسين Zealots غير الرسمية، سواء كانوا محامين، مفكرين، موظفين رسميين، أو من لا بد منه الثوري المحلي السابق وراعي الأبرشية الوطني.

ومع حلول آب 1790، كان لدى اليعاقبة في باريس 1200 عضو و150 عضواً في الأقاليم. وبعد عام ازداد ذلك الرقم إلى 400 عضو. ولا يمكن تفسير مثل هذا النجاح الاستثنائي إلا، كما أشار كنيدي، بإدمان القرن الثامن عشر على حب الاختلاط مع الآخرين في النوادي، الذي يشير إلى أن اليعاقبة قد ورثوا تأكيداً على التضامن والمساواة الأخوية من المحافل الماسونية الشعبية بالمثل التي انتشرت بكثرة في كل أرجاء فرنسا في الجزء الأخير من القرن الثامن عشر. وقد أخذوا من الماسونية أيضاً متعة الطقوس والرموز السرية وطَعَّموا رسائل السياسة الثورية بالشعارات الماسونية مثل العين اليقظة وشاقول البناء الأفقي (الذي يشير إلى أهمية المساواة) والهوس الماسوني بالمثلثات. فقد كانت المجاهرة بالإيمان السامي المبادئ في الأخوية العالمية للرجال المستعدين لتقديم يد العون تكرارات أيضاً للازمة ماسونية مألوفة. وما كان مختلفاً على نحو لافت، في كل حال، هو اشمئزاز اليعاقبة من السرية وفكرة تحويل نواديهم إلى مدارس للأخلاقيات العامة.

وفي الواقع أيضاً، كانت نوادي اليعاقبة معبراً ما بين كنيسة ومدرسة. وغالباً ما كانت تقع في أديرة غير مستعملة (أو، أخيراً غير ممتلكة)، وأحياناً في مكاتب حكومة محلية أو حتى في مسارح صغيرة أو مقاهي. وغالباً ما كان تصميمها مجهزاً بمنبر للمتحدث في مقدمة القاعة مرفوعاً على منصة غير عالية توضع عليها كراسٍ للمدراء الذين يترأسون الجمعية. وقد يُسمَح لغير الأعضاء بحضور الاجتماعات ولكن يُفصَل عن الأعضاء بدرابزين خفيض أو بحبل يُمَدّ عبر عرض القاعة ومع ذلك، صفّ نادي باريس مقاعد على طول جدران مكتبة قديمة ليعطي رؤية أكبر لكل من المتكلمين والجمهور، وكانت ديكورات الجدران إشارات أخوة إلزامية: تماثيل نصفية من الجص لشخصيات مثالية من العهود القديمة من جونيوس بروتوس Junius Brutus وكاتو 2 Cato، بالإضافة إلى الأبطال الأكثر معاصرة جان روسو وبنجامين فرانكلين و(في النوادي الإقليمية البعيدة من باريس، حيث كان غير موثوق أكثر منه موضع إعجاب اليعاقبة) ميرابو. وبين هذه التماثيل النصفية،



الصورة 135، منقوشة لرسام مجهول نادي لليعاقبة من الداخل في باريس في مطلع عام 1791. ميرابو يتحدث من منبر، على اليمين تشارلز دي لامث يشغل مقعد الرئاسة، يساراً

أُطِّرت نسخ من إعلان حقوق الإنسان وغالباً ما عُلِّقت لوحات منقوشة لأيام ثورية عظيمة، تؤخذ عادة من السلسلة التي أنتجتها Tableaux de la Révolution Française.

واهتم اليعاقبة بميزة الصوت أكثر من النظر. وقد حاكت جدران نواديهم خطابات وجدالات وقراءات نقدية للتشريعات لا تنتهي ـ مقتطفات خطابية في محاكاة لمشاهير نادي باريس والجمعية الوطنية. وسيكون لدى كل نادٍ إقليمي نجمه المحلي يباري في تعابير السخط الوطني وخطابة شيشرون الأساليب الخطابية البديلة لدى ميرابو (المتحمسة) وبارناف (الواضحة) وروبسبيير (العاطفية المنطقية). وكان في النوادي المحلية الكبيرة، في بوردو وليون، على سبيل المثال، أن تابع الجيل الثاني من السياسيين الثوريين الذين سيتدرب أمثال شيشرن وكاتو في **الجمعية التشريعية** ـ لانثِناس وإزنارد وفرجنيو وجنسوني.

وحتى في الفترة الأولى، عندما ضمت عضويتهم «معتدلين» كثيرين (إما أنصار ملكية معلنين أو متخفين)، طرح اليعاقبة أنفسهم في دور معارض للسلطات المشكلة ـ محلياً ووطنياً. وقد نصّبوا أنفسهم على نحو واعٍ باعتبارهم حراس المبادئ الثورية الذين يتبعون واجبهم الوطني دون انحراف حتى لو عنى ذلك المضي ضد الأكثرية في الدوائر الانتخابية أو الرسميين المنتخبين محلياً. وعلى الرغم من ذلك فقد كانت كفاحيتهم سياسية خالصة

أكثر منها نوعاً اجتماعياً. إذا كانوا ديمقراطيين فقد كانوا أثرياء نسبياً، يتكونون في معظمهم من نوعية الناس ذاتها هؤلاء الذين كانوا ضباطاً في الحرس الوطني: أصحاب مهن، كتاب صحافيون، وأكثرية من التجار وأصحاب الأعمال أكثر مما كان لدى الإدارات المحلية و، ربما 20% منهم مهنيين ومعلمو حرف مستقلين تماماً.

لقد تركت هذه الدرجة المعتدلة 24 ليفر لدائرة انتخابية مجالاً ليسار اليعاقبة لأن يُملأ بالنوادي السياسية التي تخدم بشكل محدد الجماعات التي استبعدت من التعريف الأول للمواطنة في الثورة. وكانت النساء وكسبة الأجور هم الأكثر وضوحاً بين هؤلاء (مع أنه على حد علمي لم تؤسس أية جمعية لتلك الجماعة الكبيرة المستبعدة ـ خدم البيوت). كان هذا هو الهدف المعلن لنادي الكورديلييه النشط ـ الذي خفض رسم القبول فيه إلى مجرد ليفر واحد وأربعة قروش. كانت اجتماعاتهم، وفقاً لمراقب إنكليزي، مكونة من مشاكسين «ثيابهم قذرة ومهملة إلى درجة يحسبهم المرء تجمعاً للمتسولين». غير أن جمعيات كثيرة اتبعت مثال سياسة الكورديلييه في شمولية النفقات. وكانت الأكثر إثارة للملاحظة هي Minimes الصغار وجمعية الانديجان Indigents (الفقراء) وخاصة الجمعية الأخوية للوطنيين من الجنسين، التي أسسها معلم المدرسة كلود دانسارد. وقد سمحت كل هذه النوادي بدخول النساء، وسمحت الجمعية الأخوية بالتحديد بدخول نساء مثل لويز روبرت (ابنة الثوري الأرستقراطي كيراليو من بريتون ومحررة صحفية Mercure Nationale)، وبولين ليون ابنة صانع الشكولاتة، وثيروجين دي ميريكور، والشخصية المثيرة للاهتمام إيتا بالم دالدير Etta Palm d'Aelders (التي كانت جاسوسة للحكومة الملكية الهولندية ونصيرة ملتزمة بالحركة الأنثوية معاً) ـ اللواتي لعبن أدواراً بارزة في التنظيمات التي انتمين إليها. وقد انطلقت من هذه النوادي تلك مقترحات تشكيل جماعات مسلحة نسائية ـ على سبيل المثال، لحراسة العائلة الملكية في التويليريه عام 1791 وأفواج حدودية عام 1972 ـ بالإضافة إلى الطلبات المتكررة التي عبرت عنها أولمب دي غوج وإيتا بالم أولاً من أجل حق النساء في الاقتراع. وقد أخذن استثناء خاصاً لحظ اليعاقبة النموذجي من شأن المرأة إلى الموقد والمنزل وتعليقات كتلك التي أطلقها صاحب مصنع بيرة سانتر أن «رجال هذه المقاطعة يفضلون أن يعودوا إلى البيت من أعمالهم ليجدوا منازلهم مرتبة أكثر من رؤية زوجاتهم يعدن من جمعية لا تمتلك دائماً روح الرقة والدماثة».

كان ذلك في الجمعيات الشعبية ـ التي لم تجتذب في باريس كلها أكثر من 2000



الصورة 136، طبعة مجازية تحتفل بالقسم لـ«الأمة والقانون والملك» الذي يُقدَّم في الجمعية الأخوية للوطنيين من الجنسين. تمد الربة منيرفا المسلحة بالرمح وقبعة الحرية يدها فوق ألسنة لهب الدستور.

إلى 3000 نصير في تلك الفترة ـ مع أن مثل المساواة الاجتماعية والاستقلال الذاتي الديمقراطي دُفِعت إلى نهايتها الأكثر تطرفاً. وهناك أيضاً كانت خطابة المؤامرة والشجب ضد الخونة في الوطن وخارجه الأكثر صخباً. ففي حين ظُنت جريدتا مارات وفريرون فظة لذوق اليعاقبة، كانتا تقرآن بصوت عالٍ وتلقيان الاستحسان في الكورديلييه. وكما خلقت سجالات اليعاقبة الموجة التالية من السياسيين الثوريين الذين سيهيمنون سنوات الحرب والإرهاب، كانت الجمعيات الشعبية لا تزال تنتج شخصيات أكثر كفاحية ستسخر منهم في دورها بسبب نزعتهم النخبوية وجبنهم ـ الشخصيات الاستثنائية مثل المقعد المقطوع الساقين بيبان دغروييت Pépin Dégrouhette، الذي كان كاتباً مسرحياً فاشلاً ومحامياً ممارساً ومدافعاً عن منافذ باريس التجارية.

وكان ذلك أيضاً في هذه النوادي أن ظُهِّر الانقسام في الشخصية الفرنسية الثورية بالشكل الأكثر قسوة. فالغضب الذي طفر من الخناجر المتصالبة وخط إنتاج التماثيل النصفية لبروتوس وجوقات ضاربي الطاولات في أغاني ("Ça Ira" «Tous les aristicrates on les pendra، كل الأرستقراطيين سيشنقون) تتوافق تماماً مع نوع السخط المعادي للرأسماليين والحداثة الكامنة في أعمال لنغوت ومرسييه التي سبقت الثورة. كان الخطاب روسو بصوت أجش ومشحوذ بتوق ذي طابع عدائي دموي. لقد قادت الثورة أعضاء

النوادي إلى الاعتقاد بأن عالم العدالة الاقتصادية والاجتماعية في المتناول، لكن بقدر ما استطاعوا أن يروا كان عليهم أن يدفعوا ضرائب على خمرهم وتبغهم، ولا يزالون يتوسلون إلى رؤساء أعمالهم لإعطائهم عملاً يدفع لهم مقابله نقوداً ورقياً تضيع قيمته من خلال نهب المضاربين. ولا تزال الحكومة والدوائر الانتخابية مليئة بالشخصيات الكبيرة، «الماليون الجشعون المتخمون بدم الشعب الأكثر نقاء والساخرين والحمقى والرجال المتنفجين بكبرياء «الذين خلقوا حواجز الأهلية للانتخاب التي تستبعد حتى جان جاك روسو ذاته من الجلوس بينهم.

وكان نقيض هؤلاء «المفترسين لقوت الناس» جاك كوردنييه Jacques Cordonneir (جاك الاسكافي)، المثال الذي اخترعته **ثورات باريس** Révolutions de Paris في كانون الأول عام 1790، «المهني المحترم الذي يجمع جيرانه في منزله وعلى ضوء مصباحه... يقرأ مراسيم الجمعية الوطنية ويلطف القراءة بملاحظاته الشخصية وملاحظات جيرانه اليقظين». كانت حماسة مثل هؤلاء الناس الشرفاء البسيطة هي التي استطاعت أن تجعل الديمقراطية الحقيقية قابلة للحياة، ولو امتلك هؤلاء الذين في السلطة الشجاعة للثقة بالناس بقوانينهم كما نصح روسو (هم زعموا). وقد جاء أحد المقترحات الاستثنائية جداً في هذا الاتجاه ليس من آخر غير المركيز السابق جيراردين، الذي في حزيران عام 1791، جادل أن كل القوانين التي سنتها السلطة التشريعية الوطنية يجب أن تُسلَّم إلى منتديات شعبية عامة. وقد جسدت هذه الاستفتاءات بشكل واضح تلاقي التاريخ مع النظرية، لأنها، في وجهة النظر هذه، تنحدر من جمعيات الفرسان الفرنسيين القديمة ومخزون روسو من الإرادة الطيبة الكلية المعرفة. وكانت نزعة جيراردين التفاؤلية إلى هذا المستوى من الالتزام الشعبي بالواجب المدني إلى حد أنه افترض إمكانية إلغاء أيام الأحد ـ المكرسة للصلاة أو الشراب أو كلاهما ـ وتكريسها للتصويت الأسبوعي.

لم تحظَ طوباوية جيراردين الاستثنائية وبدعة **ثورات باريس** حول المواطن العامل المثالي بأية فرصة لدخول المؤسسة في الثورة الفرنسية، ولا حتى إبان النفوذ الشعبي الأعلى في المؤتمر الوطني. ومع ذلك كانت خطابتها غير الراضية بالضرورة وهوسها المزمن بالاستغلال والمؤامرة والعقاب الشعبي قادرة على تعبئة الحشود الغاضبة والقوية التي، في لحظات حرجة، أثرت على مجرى الأحداث بشكل حاسم. وفي النهاية فإن هذا الشد المعارض الدائم كان يجب ألا يمكّن الثورة من العمل تماماً. فقد عارضت مطالب النقاء السياسي المستحيلة بالحاجات العملية للدولة الفرنسية. وعارضت الديمقراطيات

الصغرى المستقلة المحلية بمتطلبات السلطة المركزية، وإشباع الحاجات المادية عبر التدخل المفروض بالقوة في الاقتصاد على حركية رأس المال في ما يتعلق بالدولة والأسواق، والحرية غير المحدودة في التعبير والاجتماع بالتعامل المنظم في العمل العام، وباختصار، غالباً العقاب التلقائي الذاتي بتطبيق القانون بطريقة منظمة.

وكانت المعضلة للأجيال المتعاقبة من هؤلاء السياسيين الذين تخرجوا من الخطابة إلى الإدارة هي أنهم مدينون بشكل دقيق إلى معنى الخطابة التي جعلت إدارتهم التالية مستحيلة. فالثورة بوصفها انتفاضة ستكون دون إراقة منتظمة للحقد والدم، غير أن الثورة بوصفها حكومة كانت مستحيلة ما لم تُنظَّم بشكل انتقائي.

وكانت تلك المرة الأولى التي يكتشف فيها جيل من السياسيين الثوريين المعضلة الضاغطة التي، في هذا المعنى، الحرية الثورية تستتبع الخطأ الثوري. لكنهم لن يكونوا الأخيرين الذين سينهارون بسبب عواقب ذلك.

III - ميرابو يدفع ديونه

في 3 تموز عام 1790، باس ميرابو يد ماري أنطوانيت في ركن مورق من الحديقة في سانت كلود و، مثل فارس شجاع غير أنيق نوعاً ما، وعد: «سيدتي، الملكية سليمة». ومع أن الملكة قالت ذات مرة، إن «وضعنا لا يمكن أن يكون أبداً شديد الإحباط لنلجأ إلى ميرابو»، عملت على ألا تجفل فيما انحنى الوجه المجدور فوق يدها. لقد تدربت على طريقة مناسبة لإطراء الغول. فتبعاً للسيدة كامبان، بدأت بملاحظة أنه «في حضور عدو عادي أقسم على تدمير الملكية... يجب أن آخذ الخطوة الأكثر فظاظة، لكن في حضور شخص مثل ميرابو..».

من جهته، كان ميرابو متأثراً بالمرأة الشاحبة ذات الشعر المضفور جدائل صغيرة والذي وخطه الشيب، وبالضبط ليست ميسالينا Messalina المتداولة في سلسلة الكراسات الإباحية في باريس. وتأثر أيضاً بجَلَدها وذكائها، لاسيما عندما قارنها مع تردد الملك السيئ الطالع. وقد لاحظ «لدى الملك رجل واحد»، يمكنه أن يعتمد عليه، «هو زوجته». وفي ما بعد، في تفكير هادئ، ربما ذكرته إيماءته المتهورة بكياسة لافايت التكتيكية على الشرفة في قصر فرساي صباح 6 تشرين الأول الدامي. كم هو محرج أن تكرر مغامرة جميلة لرجل ما يحتقره ميرابو من صميمه بوصفه رجلاً متوسط المقدرة معتدّاً بنفسه، والأسوأ، شخص عادي معتد بنفسه غير قادر على الإفصاح عن آرائه! في الأقل، لم تكن

ثمة حشود في القرب، مع أنه قلق من أن حارسين ميّزا المتنزهين في الحديقة.

كان سانت كلود منتجعاً صيفياً حيث تستطيع العائلة الملكية أن تنجو من التدقيق اليومي الذي لا يرحم في التويلريه، ومن سباب صحافة باريس اللاسعة. منذ شهرين الآن يأخذ ميرابو مال الملك. لكنه كان يفعل ذلك بضمير نظيف، لم يفترض أبداً أنه تم شراؤه، بل يُدفَع له مقابل تقديم الاستشارة لملك حول كيفية إعادة بناء سلطته. وكانت استشارة اعتقد ميرابو أنه لا غنى عنها إذا كان يجب إنقاذ الملك من ثورة مضادة وفراغ ديمقراطي معاً.

لم تكن مكافآت «الاتفاق» الذي وقعه مع البلاط في أيار رديئة. فلم يكن الحبر قد جفّ عندما تم الاعتناء بديونه البالغة 208.000 ليفر، مُحيت، ذهبت. ورُفِع الآن حجرا الطاحون في حياته ـ أبوه ومقرضوه ـ عن عنقه. فأبوه، فيكتور، الساخط العجوز، الذي عيّن نفسه «صديق الإنسانية»، قد توفي قبل سقوط الباستيل بيومين، لايزال يسخر من ابنة الأكبر، الذي سجنه مرات عديدة، والذي لم يورثه الآن لصالح ابنه الأصغر، الملكي المتطرف. كان ذلك الغبي البدين شوكة دائمة في خاصرة ميرابو، نكه سمعته الرديئة بوصفه مشاركاً في تحرير المجلة المعادية للثورة أعمال الرسل أفضل ما يحرج أخاه الأكبر. وكان يُسخَر منه في الصحافة الوطنية أنه «Mirabeau - Tonneau» ميرابو البرميل، ولكن بطريقة ما انطوى الاسم المستعار على اسم غابرييل المستعار شخصياً «ميرابو ـ تونِر» (ميرابو الرعد) في سخفه. ومساهمته لاستعادة النظام في الجيش كانت بسرقة الأعلام وشرّابات الزينة من فوجه المتمركز في تورين بالقرب من بربينان Perpignan عندما وجد أن الجنود كانوا في ثورة ضد ضباطهم. وقد وُجِدت مع رايات الفوج في صندوقه، فاعتقل، ولم يضمن إخلاء سبيله إلا تدخل أخيه الأكبر على الأراضي الشخصية التي لا تنتهك حرمتها للمندوب إلى الجمعية الوطنية. وقد أخذ امتنانه شكل الهجرة إلى الراينلاند، حيث حاول أن ينظِّم فرقة «فرسان الموت» قبل أن يطوق نفسه على سيف ضابط آخر اختار شجاراً معه بسبب السكر.

استطاع ميرابو الأكبر أخيراً براتب شهري قدره 6000 ليفر أن يتحمل العيش بالطريقة التي كان يريدها إحساسه الشخصي بالفخامة دائماً. فانتقل من الشقة التي استأجرها من صديقة تالما الممثلة جولي كارو إلى منزل مديني أنيق في شارع دي لاشوسين دانتانز وطلب طاهياً دبّر أن يستأصل بروائع طهيه حنق حتى المتحمسين البارزين أمثال كميل دزمولين. (ظن بعضهم أن طعامه كان كثير التوابل. «غالباً ما بصقت دماً إذا ما

تناولت الطعام مع ميرابو»، تذكرت ضيفة ذات حاسة ذوق مرهفة.) وكان ثمة خادم خاص يعنى بأطقمه ذات الأزرار المصنوعة من الأحجار الكريمة التي، لسرور ميرابو، رفعت حواجب الأعين عند اليعاقبة. وكان أفضل الأشياء أن استخدم سكرتيراً، دفع له البلاط، اسم كامل (للنسخ) السيد كومب M. Comps، الذي نسخ بشعور بالواجب عدداً هائلاً من مذكراته وخطبه. وكان يحكم عليه أنه رديء إذا سلبه الأشخاص ذوو الملامح الكئيبة مثل الأخوين لامث أشياءه الأنيقة التافهة مثل إلباس خدمه زياً مميزاً ومشاركة العائلة في نزهات بعربته الجديدة البراقة. وفي النهاية، غدا أخيراً مالك أرض، فنال (رغم أنه لم يدفع ثمنه أبداً) منزلاً جميلاً من القرن السابع عشر وحديقة كان يملكها ذات مرة الفيلسوف هلفيتيوس، في أرجنتويه Argenteuil.

وقد أقام العلاقة الودية البعيدة الاحتمال بين ميرابو والبلاط صديقه الكونت دي لا مارك، وهو أرستقراطي بلجيكي استقر في فرنسا، واشترى أرضاً وانتخب إلى مجلس الطبقات. وقد ألح لامارك على السفير النمساوي مرسي دارجنتو Mercy d'Argenteau المؤتمن على أسرار الملكة الأقرب، أن ميرابو متلهف لأن يكون في خدمة الملك، وفي آذار عام 1790 أرسلت الإشارة من الطرف الآخر لسبر آرائه. وبنهاية أيار وقع ميرابو، في حينه، وقاتل معركته الأولى في الهيئة التأسيسية، في ما يتعلق بحق حفظ دور ما للملكية في قرارات الحرب والسلم.

لقد كان عملاً أحمق أن يقبل ميرابو أن يكون على جدول رواتب الملكية في لحظة دقيقة مسبباً كثيراً من الصخب عندما كشف نشر الكتاب الأحمر رواتب التقاعد السرية في النظام القديم. وما كان تحسن أسلوب حياته المفاجئ ليفلت من الانتباه العام، لاسيما عندما تزامن ذلك بشكل مريب في 21 أيار مع خطاب متلهف يجادل لصالح الاحتفاظ بالسلطات الملكية في إعلان الحرب. وسريعاً بعد ذلك، زعم كراس كتبه لاكروا Lacrois وُزِّع في باريس أنه اكتشف «خيانته». لا يمكن تفسير تهور ميرابو إلا بواقع أنه اعتقد أن سلوكه نقي تماماً ـ أنه تلقى رسوماً مقابل مشورته المقدمة رسمياً على نحو نزيه وفي توافق تام مع مبادئه السياسية التي اعتنقها دائماً.

وكان في صميم تلك المبادئ تأسيس ملكية دستورية تقبل ما انتزع منها عام 1789 لكن دون أن تقبل نفسها لتكون أداة سلبية لإرادة سلطة تشريعية. كان ميرابو، كما كتب إلى لا مارك مع خيار «تأسيس نظام، وليس النظام القديم». وفرضية منطق سياسته هي، إذن، أن الملكية يجب أن تتجنب أية مجاملة مع الثورة المضادة، ويجب أن تلوح وداعاً لأية

فكرة باستعادة مجتمع الطبقات ذات مؤسسات مشتركة مثل المحاكم. وكان، برأيه، يتعذر إلغاء العدالة الحرة العمياء اجتماعياً والصحافة الحرة أيضاً. والتاج يجب، علاوة على ذلك، أن يتبنى الدستور المدني لرجال الدين باعتبارهم امتداداً منطقياً للكنيسة الغالية والأداة التي لا غنى عنها مطلقاً لتجنب الإفلاس. وفي الوقت نفسه، في كل حال، يجب أن تكون الملكية سلطة تنفيذية حقيقية، حرة في تعيين وزراء ـ وعلى الرغم من مرسوم الجمعية الوطنية في 7 تشرين الثاني 1789، كان ميرابو لا يزال يلح على أنهم يجب أن يكونوا مسؤولين أمام السلطة التشريعية ومختارين منها لتجنب المعركة المستمرة بين سلطتي الدستور. وما لم يأخذ التاج الخطوات العاجلة لاستعادة بعض سلطات الحكومة الحقيقية، كما جادل، فإن سيادة السلطة التشريعية شبه المستقلة ستغدو واقعاً راسخاً. وسينتهي الشعب إلى أن يغدو معتاداً على نوع آخر من حكومة وضريبة، وعدم قيمة كلية، يحط من قدره باستمرار لكن على الرغم من ذلك بشكل مكلف جداً، وسيظهر عاجلاً مجرد شبح».

وقد أوضح ميرابو هذه المواقف، بالإضافة إلى مضامينها المباشرة السياسية والتكتيكية، في وثيقتين، واحدة في تشرين الأول عام 1790 والثانية في مذكرة مكتملة تماماً لِـ مونتمورين، وزير الشؤون الخارجية، في 23 كانون الأول. «الخلاصة» الطويلة عمل استثنائي ليس لعمقه النظري بل لفهمه الحديث المدهش لطبيعة السلطة الثورية. فقبل لينين، كان ميرابو المحلل المتقد الذهن للآلية والتكتيكات في الأوضاع الثورية، قادراً على أن يرى بوضوح شديد ما يكمن تحت الخطابة التي يتكون منها معظم الخطاب الثوري. عندما جاء إلى مناقشة ما دعاه نزق الجمعية الوطنية ـ ميلها إلى إحباط حكومة قادرة على العمل في سجالات تثير النزاعات الداخلية ـ وقد أوضح ذلك بأنه نتيجة طبيعية لأخذ مواقف بطريقة مسرحية (التي، طبعاً، أسهم فيها على نحو لا ينسى). «لديها خطباؤها ومشاهدوها، مسرحها وصالتها، رواقها وصالات عرضها، تصفق لموهبة عندما تخدم أغراضها وتحتقرها إذا تناقضت معها». وقدّر أيضاً الحاجة إلى حكومة ناجحة لديها لسان حالها في الدعاية الصحفية، التي تباع بأسعار منخفضة وتوزع على نطاق واسع، لتتجنب أن تسلم الميدان للمعارضات الدائمة.

وأدرج ميرابو عوائق أخرى لاستعادة السلطة الملكية، وبدأ بعدم حسم الملك ذاته، والقيود التي وضعت على عمل الملكية، والتهديد المستمر بالترويع الواقعي في باريس والديماغوجية التي تثيره. ولجعل الملك يقف على قدميه يحتاج لأن يكون قادراً وإلى

وزراء ذوي تصميم (مثله) وربما تاليران ولو شابلييه وثوريه ونِكر الذي لم يكن ميرابو قادراً على تحمله، استقال في النهاية في أواخر أيلول، يعرج من عدم قدرته على تحقيق وعوده السحرية المالية أو تحقيق آمال الدعاية التي حيَّت عودته إلى المنصب مثل مسيح. لكن أنصار نكر مثل سانت بريست ودي لا تور دوبان كانا لا يزالان في الوزارة، وقد حثّ ميرابو على وضع مالي أكثر نظافة. وفي الواقع، في حركة جريئة وبارعة، نصح ميرابو بتعيين وزراء من بين اليعاقبة المتحمسين لسحب لدغة معارضتهم. إذا كانوا في السلطة، ضمن (بقوة بصيرة كبيرة) أن الحاجات الموضوعية للدولة ستجبرهم على تحييد أيدلوجيتهم. وقد عقَّب على ذلك بقوله: «اليعاقبة في الوزارة لن يكونوا وزراء يعاقبة».

والشخصية الكبيرة الأخرى التي يجب إنقاذ لويس منها، وكانت مصدر الخوف الأقصى لميرابو، والتي لا تطاق «جيل سيزار»، لافايت. كان مثيراً للحنق بشكل خاص لميرابو أن يرى المسرح الاتحادي ينظِّم لمنفعة الجنرال الحصرية ومع الملك أضعِف بشكل متعمد إلى دور ثانوي. لو أن لويس قد أدى القسم على المذبح ـ في صميم المركز خلال الأحداث ـ لربما كان قد وضع خاتماً رمزياً مثالياً على قبوله الثورة. بدلاً من ذلك جُعِل دوره باهتاً وغامضاً ولم يهدئ الحكي على أن الملك كان في الحقيقة لا يزال مشاركاً حاقداً في الطقوس الاحتفالية. كان يجب إعادة تنظيم الحرس الوطني بعدئذٍ ووضعه تحت إشراف الحكومة إذا كان الملك لا يريد أن يغدو رهينة دائمة لجيش باريسي.

وما دام لا شيء يمكن عمله إزاء الاهتياج السياسي في باريس، فالشيء الأفضل هو تركه يسترخي. فبقدر ما يصبح أكثر اهتياجاً وبقدر ما تكبر شهيته للفوضى والقتال، سيتسع الصدع مع الأقاليم التي استأنفت حكمها باسم «الأمة». وفيما غدت الحكومة مشلولة بتهديد من الانتفاضات الباريسية، ستقتنع الأقاليم بأن السلطة العامة الأقوى مطلوبة وتنزعج من احتكار العاصمة. وتبين أن ذلك هو إحدى توقعات ميرابو الأكثر بصيرة، والأكثر تأثيراً لأنها جاءت في وقت كانت فيه قصة السيادة في أمة متحدة قد اكتملت لتوِّها في ساحة مارس.

وفي حلٍّ مماثل لضراوة الجمعية الوطنية اقترح أيضاً. دع الجمعية تفقد ثقة المواطنين بها من خلال صيرورتها مستقطبة على نحو ميئوس منه بين دعاه الثورة المضادة الحمقى من جهة والمتحمسين الذين لا يطاقون من جهة أخرى. وإذا ما نجح ذلك في النهاية في جعل الحكومة مستحيلة، فقد يدعو الملك في حركة جريئة إلى انتخابات أخرى لاستبدال السلطة التشريعية التي أعطيت السلطة لمراجعة ما كان في نظر ميرابو دستوراً غير

عملي على نحو محفوف بالمخاطر. وهنا أيضاً كانت لديه حركة تكتيكية تتصف بالدهاء للتوصية التي لن تكون مفتوحة لاتهامات الثورة المضادة. والمندوبون إلى الجمعية الجديدة، كما جادل، سيكونون مؤهلين للانتخاب لدوائرهم الانتخابية التي يقيمون فيها حالياً، وهكذا، كما افترض، يحول دون مقاتلي نوادي باريس من الوقوف باعتبارهم ممثلي، لنقل، أراس أو مرسيليا. وفي انتظار تغيير المكان، يجب تزويد الجمعية الثانية بقوتها العسكرية الخاصة لتحريرها من الاعتماد على الحرس الوطني في باريس.

كانت ثمة حكمة كبيرة وحماقة لا تقل عنها في مقترحات ميرابو، فمن جهة فكرة وزارة يعقوبية تقترح استبدال الدائرة الانتخابية تبدو فانتازية جملة وتفصيلا. ولكن من جهة أخرى، رأى ميرابو بفطنة صافية المسائل التي ستحدد الولاء في حقبة ثورية. فالضرائب، على سبيل المثال، ستكون قضية حيث «القناع سيمزق مزقاً»، لأن

الناس قد وُعدوا بأكثر مما يمكن أن يوعَدوا، وأُعطوا آمالاً لا يمكن تحقيقها، لقد أُتيح لهم أن يتخلصوا من نير ستكون إعادته مستحيلة وحتى إذا كان هناك ما يوجب تخفيضات وتوفيرات... فستكون نفقات النظام الجديد فعلياً أشد وطأة من النظام القديم، وفي التحليل النهائي سيحكم الناس على الثورة بهذا الواقع وحده - هل أخذ مالاً أكثر أو أقل؟ هل تخفيضاتهم أفضل؟ هل يعملون أكثر، وهل يُدفَع لهم مقابل ذلك العمل؟

كانت حدة ذهن هذه المحاكمة أكثر تأثيراً وهي تأتي من شخص يحظى باعتراف أنه سيد الخطابة الثورية، لكنه الشخص الذي لم يكن مفتوناً بمبالغاته. قدّم ميرابو عاطفة هائلة لدفاعه عن الاستخدام الإلزامي للعلم الثلاثي الألوان على سفن الأسطول لأنه أدرك أن ما كان في الرهان ليس «لعبة» موضوعياً بل (توقعاً آخر غريباً من اهتمامات القرن العشرين) ما سماه «لغة الإشارات». التي، كما أصرّ، هي الشيفرة الرمزية الأكثر قوة في كل مكان، التي ترمز إلى التضامن أو التآمر، الولاء أو التحدي. إذا سمح لضباط البحرية أن يرفعوا العلم الأبيض - فذلك أن نقول - لون الثورة المضادة - وسيكون ذلك إعلاناً وقحاً لاحتقارهم للثورة. «صدقوني، لا تهجعوا في معنى الخطر على السلامة»، أخبر الجمعية، «لأن إيقاظكم سيكون مروعاً». وفي النهاية، تنبأ ميرابو أن فرض تعريف باريس للنقاء الثوري على بقية البلد سيسبب شروخاً عميقة التي، ما لم تذَر بواسطة حكومة شديدة التدقيق بالتفاصيل، ستجعل الحرب الأهلية حقيقة مؤكدة.

ومع ذلك فرؤيته لملكية مسؤولة، ذات وزراء مسؤولين أمام السلطة التشريعية، تبدو

متفائلة جداً، إذا ما أخذنا طبيعة اللاعبين التاريخيين عام 1791، لم تكن، بذاتها، سيناريوهاً غير محتمل لفرنسا. فمع التعاقب الدوري للملوك والأباطرة والرؤساء، يثبت معظم التاريخ الفرنسي في القرنين التاليين وجهة نظره بشكل كامل.

ودهاء ميرابو خذله في مسألتين ليس إلا ولو أنهما الأكثر أهمية. ففي المقام الأول أطرى نفسه أنه بصيرورته مستخدماً في البلاط سيغدو أيضاً معلمه السياسي. وهو ليس بسيطاً ليفترض أن لويس كان مستعداً للعمل وفق التعليمات المطولة والبارعة التي يتلقاها. ويستغرب المرء، في الواقع، إذا كان الملك يقرؤها فعلاً بعد أن غدا مشلولاً عن الحركة أكثر فأكثر بسبب عجزه وحزنه. ولكن في أية حال فكّر ميرابو أن ذلك واجبه أن يوضح خطته لإنقاذ الدولة واعتقد أنه سيكون للمذكرات تأثير تراكمي في جعل لويس يرى تدريجياً أن هناك بديلاً إما لاستسلام مشروط أو ثورة مضادة. والواقع في البلاط، في كل حال، لم يكن واعداً. وبقدر ما خدع ميرابو نفسه باعتقاده أنه صار معلم الملكية، ابتهجت الحلقة التي حول الملكة بأنها قيّدت معارضاً منيعاً. وبقدر ما رفع صوته على العدد المتزايد من أعدائه في يسار اليعاقبة، أحبه البلاط أكثر لتقسيمه خصومه.

ومع ذلك، لم يكن النجاح في إعادة تعليم الملك أمراً مستحيلاً. فخلال عام 1970 بقي لويس غير متأكد حقيقة من اتجاهه السياسي وكان أقل التزاماً بتدخل ثورة مضادة مما كانت الملكة. وكانت المسألة الدينية ما دفعه في النهاية إلى التخلي عن أي تفكير بإدارة الثورة وفق الخطوط التي نصح ميرابو بها. وفي هذه المسألة الكلية الأهمية تصعب معرفة ما إذا كان ميرابو غير قادر على سبر غور ذلك أو أنه كان أكثر ماكيافيلية عملياً. فقد وافق بحماس على تقديم التحية الأولى في الجمعية الوطنية في تشرين الثاني عام 1789 في دعم خطة تاليران، وعندما أصبح تشريع تأسيس كنيسة دولة أكثر تفصيلاً قدم دعمه الحماسي في كل مرحلة. وفي بروفنس رأى المجموعة الكبيرة من السكان البروتستانت - المتفوقة والمنضبطة والواضحة في ما يخص مزاياها المدنية والاقتصادية - أنها حصن للنظام الجديد. ورأى في يهود بوردو وأفينون أيضاً ثقافة تجارية ومعرفية واسعة أخرى تجعل العقيدة الحصرية الكاثوليكية شيئاً مضحكاً يستحق التوبيخ. وبدا المصرفي المفضل لديه في باريس، بانشود، أنه نصف بروتستانتي ونصف يهودي.

وإذا تركنا كل المسائل الأخرى جانباً، كانت مسألة الدستور المدني مسألة سلامة وطنية بقدر ما هي مؤسسة اجتماعية وإنسانية فلسفية. ويجب على المؤسسات الفرنسية الأخلاقية، كما اعتقد ميرابو، ألا تتقرر بولاء أصم لأسقف إيطالي مبجّل أقام سلطته على

زعم يثير الضحك بوراثته للقديس بطرس. وقد أصبحت مسألة الولاء أكثر جدية عندما نشر أسقف آيكس، بواجلين Boisgelin، بيانه التفسيري للمبادئ التي رفض الأب بيوس السادس بموجبها كل أشكال التعاون مع الدستور، وفي الواقع هدد كل هؤلاء الذين تعاونوا في انتخاب الأساقفة والقساوسة بالحرمان الكنسي. ومع ذلك غدت الأمور أكثر حدة في تشرين الثاني عام 1790، عندما وصف المندوب فويدل Voidel مقاومة رجال الدين للدستور المدني بأنه نوع من مؤامرة تضم القساوسة الذين يحثون القوات العسكرية على مهاجمة رجال الحرس الوطني وتحدي السلطات المحلية. (في الحقيقة، أظهرت الطبقات الثورية لأعمال الشغب في الجنوب القساوسة يرفعون الصلبان لمباركة الحشود التي تهاجم الحرس الوطني بأسلوب كاردينال لورين الذي بارك الخناجر التي سفحت دم شارل الرابع). ولفرض المسألة اقترح فويدل أن يُلزَم كل رجال الدين بأداء قسم الولاء الكامل للدستور خلال ثمانية أيام. وفي سجالات تشرين الثاني مُدِّد التاريخ النهائي 26 تشرين الثاني إلى نهاية العام، لكنه مثل تصميماً مؤلماً من طرف الحكومة على اختبار حدود سيادتها التي تستطيع أن تفرضها.

وبدا ميرابو موطد العزم على هذه المشكلة. فقد شجب المندوبين البابويين إلى الجمعية (40 من 44 الذين شجبوا الدستور) بوصفهم منافقين لادعائهم أنهم يريدون منع الانقسام لكنهم يحثون مجموعاتهم على مقاومة قوانين الدولة. وإلى إصرار الأب موري أن الأساقفة تلقوا سلطتهم المباشرة من الله عبر ممثله على الأرض، ردَّ ميرابو بحدة أن انقسام الكنيسة إلى وحدات مثل الأبرشيات هي ببساطة مسألة «تنظيم كنسية» وملاءمة إدارية لا شيء مقدس بشأنها. وفي ما يتعلق بتلك المسألة فإن السلطة البابوية هي موضوعياً نوع ما من وثيقة كبيرة لسلطة سياسية. وبقدر ما كانت سخريته أكثر تدميراً، كان التصفيق أعلى، وكانت تعليقاته متوافقة تماماً مع قناعاته وتلك الصادرة عن مواطنين مشاركين روحيين أمثال الأب غرايغور ولاموريت Lamourette (الذي كتب جزءاً كبيراً من الخطاب). ولكن كما لاحظ ميرابو في رسالته الخاصة إلى لامارك، إذا كان الملك يبحث عن مسألة تخلق استياء من الجمعية خارجاً في الأقاليم، فهذه فرصة مثالية.

ومع ذلك، كان صعباً على لويس السادس عشر أن يصادق على سخرية ميرابو التكتيكية. وبعد طول عذاب أقنعه الأساقفة الليبراليون أمثال تشامبيون دي سيسه من بوردو ورئيس أساقفة فيينا بتوقيع الدستور المدني. غير أن القيود من روما أقلقت على نحو متزايد ضميره، لاسيما وأنه تم الدفاع عنها بفصاحة ليس داخل الجمعية من خلال موري

وبوازجلين فحسب بل خارجها أيضاً في الصحف والنشرات المطوية أيضاً. كان لا يزال يحب أن يظن نفسه ملكاً مسيحياً مُسِح بالزيت المقدس في ريمز: رافع قسم الإيمان البابوي. كان ذلك مع أكثر الشكوك خطورة، عندئذٍ، يعني أنه وقع على القانون الذي يعطي مرسوم الجمعية الإكليروس التقليدي في فرنسا - الذين يشكلون ربما نصف عدد الجمعية ذاتها وفي مناطق معينة مثل الغرب والجنوب الغربي والألزاس واللورين نسبة أكبر - خيار أن يكونوا متمردين أو هراطقة محرومين من امتيازاتهم أو محرومين كنسياً.

كان هذا الفعل بالتأكيد هو الذي قسم سلوك لويس إلى قناع عام واعتراف خاص. إذ تحول لويس أكثر فأكثر إلى قساوسة القصر الخاصين للاعتراف، تشجعه ماري أنطوانيت، التي اعتبرت أن رسامة الأساقفة الدستوريين (بواسطة تاليران، الذي استقال من مقعده الأسقفي) مهزلة تجديفية. ولكن في شباط عام 1791 لم تعد المسألة تحتمل أن تبقى بعيدة عن الجمهور عندما أكدت عمتاه العجوزان أديلاد Adélaide وفيكتوار Victoire انشقاقهما صراحة عن القانون بالإعلان عن عزمهما بالذهاب إلى روما من أجل أسبوع الآلام. وقد نصح ميرابو الملك أن يمنع رحلتهما بقوة لأنهما، كما قال، لن يُنظَر إليهما كما لو أنه يتغاضى عن مخالفة قوانينه بالذات وحسب بل ستُؤخَذ الرحلة مثل «بروفة» لهجرته هو شخصياً. وقد سارع صحفيون مثل دزمولين وفريرون إلى الإصرار على أن تتخلى العمتان عن حقهما بالمليون ليفر الذي تتمتعان به من القائمة المدنية إذا أرادتا إنفاقه في روما. وقد قرعت نواقيس الخطر في أقسام باريس وعُقِدت الاجتماعات لمناقشة سبل منع مغادرة العمتين بالقوة إذا اقتضت الضرورة. ولم يفعل الملك، في كل حال، شيئاً لمنع الرحلة، ولم تعر السيدتان العجوزان التقيتان بتسامٍ اهتماماً إلى الكثير من هذا الاهتياج، وانطلقتا بصحبة حاشيتهما المتواضعة المكونة من عشرين شخصاً يرافقهما قائد الحرس الوطني في فرساي، برتيه. كانت حشود السوق الغاضبة قد اكتسحت قصرهما بِليريف، ولكن في أرني لو دوك Arny - le Duc أوقفت عرباتهما بأوامر من رئيس البلدية الوطني المتحمس كثيراً.

لميرابو، كان رحيلهما مسألة حماقة سياسية كبيرة، لكنه شعر بقوة أن الثورة قد رسخت حق حرية الحركة بوصفه حقاً مطلقاً (شيء ما غالباً ما كان يُحرَم منه باستخدام أبيه مذكرة التوقيف المختومة). إذا لم تكن العمتان قد خرقتا عملياً أي قانون فيجب ألا يوجد ما يحرمهما تلك الحرية الأساسية، ونجح في إقناع الجمعية بالموافقة. وفي 28 شباط غدت تلك المسألة أكثر حدة عندما ناقشت الجمعية قانون تنظيم حركة المهاجرين المشتبه بهم. عُرِض الاقتراح على لجنة مكونة من ثلاثة، عينتها الجمعية، لتقرير حق أي شخص

بالخروج من فرنسا والدخول إليها، وتحديد الغائبين المشتبهين والأمر بإعادتهم تحت طائلة العقوبة باعتبارهم متمردين.

وقد أدرك ميرابو بشكل غريزي أن هذه هي لحظة الحقيقة في ما يتعلق بالثورة. وكانت قناعاته الأكثر عمقاً التي عبر عنها في الجمعية هي أن القيود متناقضة مع حرية الحركة التي يضمنها إعلان الحقوق والدستور. لكن تكتيك نقاشه كان أخرق تعوزه البراعة. فقد أصر على قراءة رسالة كتبها إلى ملك بروسيا حول المسألة ذاتها معلناً أن الناس لا يمكن أن يُربَطوا بالقوة إلى أرض ما داموا ليسوا أشياء ـ «حقولاً أو قطيعاً»، في محاولة لمنع النقاش وحتى تجنب قراءة الاقتراح. وفيما لم يرفض شرعية نوع ما من الشرطة كان قاسياً في إصراره على أن نشاطاتها يجب أن تُمارَس بشكل مقيد من خلال عملية القانون. وأي شي آخر، كما تنبأ، سيؤدي إلى الدكتاتورية، كما هي الحال مع القانون المقترح، إنه «بربري».

في ديمقراطية تمثيلية في القرن العشرين تستحيل قراءة خطاب ميرابو (وعدة مقاطعات إضافية حاول من خلالها الهيمنة على الإجراءات) دون أن نستخدم شاهداً على قسر حقيقة لا يمكن إنكارها في ملاحظاته والشهامة الأخلاقية التي تمّ التعبير عنها. كان على صواب بالمطلق. كانت تلك حقاً نقطة انعطاف في الثورة الفرنسية ـ الحقيقة التي، بعد أقل من سنتين على افتتاح مجلس الطبقات، رخصت نفسها باعتبارها دولة بوليسية. لم يكن ميرابو ساذجاً ليغمض عينيه عن المؤامرات الحقيقية وخطط الثورة المضادة، لاسيما المكثفة على الأرض في ميدي. وفي ذلك اليوم نفسه، 28 شباط، اكتشفت مجموعة من ضباط الجيش في مجمع الملك في التويليريه مع سيوف مخبأة وخناجر، تسلحوا بها، كما قالوا، لحماية الملك». لكن لا شيء من ذلك، في رأي ميرابو، يمكنه أن يبرر للنظام الجديد أن يكيِّف السلطات لذاته الأمر الذي كان يمكن أن يلحق العار بالنظام القديم.

وانحط النقاش إلى شجار إجرائي بين مؤيدي الحركة الأصلية وميرابو الذي أراد أن تُستبدَل بإعلان عن عدم دستورية أية قوانين تقيد حرية الحركة. وقد اتهم عند نقطة معينة بالإملاء على الجمعية، فردّ على ذلك بشعور أنه على حق بتصريحه «لقد قاومت الاستبداد طوال حياتي وسأستمر بمحاربته كل حياتي». وعندما كان ثمة جمجمة إضافية جهة اليسار، صرخ مثل معلم مدرسة غاضب، «اصمتوا، أيها الثلاثون صوتاً!» كان التأنيب مخزياً لِـ بارناف والأخوين لامث ما دام ذلك قد قلص مزاعمهم بتمثيل الشعب إلى عدد الرؤوس لمجموعة غير ذات شأن.

لم يُغفَر لميرابو هذا الاحتقار الجدي. وفي ذلك المساء أبعد من منزل الدوق داغويلن، وهو صديق قدم، الذي دعي إلى العشاء معه. ولاحقاً، شعر أدريان ودوبورت بالذهول ليراه يمشي بهدوء عبر أبواب نادٍ لليعاقبة عندما كان دوبورت يقدم للجمعية رواية خزي أحد الأعضاء الرفاق. فأعلن، «الرجال الأكثر خطراً على الحرية ليسوا بعيدين من هنا. وفي الحقيقة هم معنا الآن، رجال وضعنا فيهم آمالاً عظيمة». وأشارت الأيدي إلى ميرابو، وقد انهمرت على رأسه صيحات «خائن». وقال ألكساندر دي لامث بغضب، «أجل م. دي ميرابو نحن لسنا ثلاثين في هذا الصباح، بل مائة وخمسين لن ينقسموا أبداً». واتهم ميرابو بأنه يريد تحطيم اليعاقبة الذين ترأسهم في تشرين الثاني الماضي، بإلحاق الخزي والتقليل من شأن الأعضاء أخوته، وخيانة الثورة ذاتها.

وقد دافع عن نفسه بأفضل ما أمكنه مندهشاً من عنف الاتهامات واعترف في النهاية بإخلاصه لليعاقبة والثورة أيضاً على الرغم من خلافاته معهم حول هذه المسألة. بعد سنتين سيغدو هذا النوع من الاختلافات المعبر عنه علنياً (لاسيما، مع روبسبيير) خطيراً بكل ما للكلمة من معنى. ولكن ميرابو، في ذروة قواه، بشكل واضح، تحرر منها. وظل موقفه في الجمعية عالياً. وقد كان رئيساً استثنائياً في كانون الثاني، مراعياً ألا يكون منحازاً، وتدخله ضد قانون الهجرة عنى أن لديه تأثيراً حقيقياً على الحق الملكي. وكان شريكه ناسخ المخطوطات الجنيفي، سولومون ريباز، يثبت أنه كان ملهماً، وكان لدى ميرابو مليئاً مشاريع كبرى كثيرة، كان أكثرها أهمية قانون التعليم الوطني الطموح الذي أعده مع تاليران.

وبعد شهر توفي.

قضى ليلة 25 آذار مع راقصتين من الأوبرا، لكن مهما يكن فالتشنج المعوي الشديد الذي أصابه بعد يومين في أرجنتوي كان أكثر من عواقب إفراط جنسي. لقد تحمل مشقة رحلة إلى باريس للدفاع عن امتياز صديقه لا مارك بمناجم الفحم الحجري في أنزين Anzin في منطقة باس ـ دي كاليه Pas - de - Calais ضد الزعم أن حقوق المعادن «تعود للأمة». فقد كتب ريباز مديحاً رائعاً عن بسالة المقاول الصناعي مليئاً بالمعابر التي يتصاعد منها الدخان والملايين الأبطال الذين غاصوا في الأرض الجشعة. وصل ميرابو إلى منزل لا مارك مرهقاً من الألم ويبدو فظيعاً فانهار على الأرضية فوراً. قال له صديقه، يجب ألا تذهب. ورد المدافع، يجب أن أذهب وسأفعل، ومُقوّى بزجاجة من شراب Esterhazy Tokay، رتب أن يذهب إلى الجمعية ويقدم خطابه. رأى زملاؤه شبح ميرابو:

وجه شاحب مشحم بالعرق، شعره الجعد استرخى مرسلاً بسبب المرض، صوته الباريتوني الهدار خفتّ الآن إلى مجرد هرير صدري. أخبر لا مارك أخيراً: «فازت قضيتك ومت أنا».

لم تكن تلك مبالغة. جعلته عدة أيام من الراحة في أرجنتوييه يشعر بصحته حسنة تماماً ليعود إلى باريس، بل حاول أن يقضي أمسية في المسرح الإيطالي لسماع المغنية الأولى في الأوبرا موريشلي Morichlli. غادر عند منتصف العرض وهو يرتعش رافضاً أن ينتظر في مقهى ريثما يجدون له عربة، وترنح إلى المنزل. وجده صديقه وطبيبه، كابانيس، منهكاً متمدداً يسعل دماً. وما أصابه كان موضع خلاف عندئذٍ ولا يزال. لمح فريرون، طبعاً، وصحافيون أعداء آخرون إلى أنه في النهاية أصيب بمرض جنسي. وبعد تشريح الجثة للتحقيق مما إذا كان قد سُمِّم، أُعلن أنه توفي جراء التهاب شاغوف لمفاوي تفاقم بالتهاب كبد وكلى ومعدة. ولكن مهما كان السبب الأخير، عرف ميرابو أنه يحتضر وكان مصمماً على أن يذهب بأسلوب يتلاءم مع حياته الأكبر من المعتادة. دارت حشود قانطة حول منزله فيما كان موكب متصل من الزوار يدخل إليه. كان أحدهم تاليران الذي حرم كنسياً منذ عهد قريب من البابا، وقد أخبر الجميع سعيداً بذلك. وقال أحد الظرفاء، «جدير بكاهن اعتراف». تحدثوا لساعتين بمزاح خفيف وهدف عقلاني شكّل دائماً بنية صداقتهم الغريبة. قال ميرابو، «يفترض أن يكون النقاش سيئاً للمريض، ولكن المرء يمكنه أن يعيش معافى محاطاً بالأصدقاء ويموت مرتاحاً».

وقد علّق تاليران فيما بعد، بشكل غير لطيف نوعاً ما، أن ميرابو«مثّل موته شخصياً». ربما قد تذكر ملاحظة صديقه عند سماع صوت المدفع إذ قال: «هل بدأوا بجنازة آخيل؟» لكن الاحتضار كان للكلاسيكيين الرواقيين الجدد في أواخر القرن الثامن عشر شكلاً فنياً استثنائياً يُحتذى به، يحتفل به في لوحات ديفيد الكبيرة لوفيات سنيكا وسقراط. أراد ميرابو، أيضاً، رحيلاً وقضاياه محلولة كما يريد، محاطاً بأصدقائه وأنصاره، يقدمون وداعاً لائقاً. لقد حثّ لا مارك على أن يزيل أو يحرق أية أوراق تعرضه للشبهة وسوّى مبلغ 24.000 ليفر حول ابنه غير الشرعي من يت لاي Yet-Lie كوكو، لقد كان لا يزال مديناً أكثر مما مُنح.

في الغرفة تحت، ألمت بأمين سره، كومبس، نوبة كآبة رومانسية فطعن نفسه بسكين في محاولة للحاق بسيده. وإذ غفل ميرابو في ميلودراما، واستند على وسادات منتفخة مع أشعة شمس تتدفق إلى الغرفة من فناء حديقته، أعلن إلى طبيبه في صباح 2 نيسان أنه يريد

أن يحلق بقوله: «ما دمت، يا صديقي، سأموت اليوم؟ عندما يصل المرء إلى ذلك، كل ما يمكنه أن يفعل هو أن يُعطَّر ويتوَّج بالورد، ويُحاط بالموسيقى وينتظر بارتياح للنوم الذي لن يصحو منه أبداً».

IV - طقوس المرور

لم يكد جثمان ميرابو يبرد حتى استقرت الأساطير حول نعشه. فعند تشريح الجثة الذي أمر به المحامي العام في دائرته في باريس، أشيع، أن البطل الميت أظهر انتصاباً فائقاً. وكان ذلك دليل دافعه الجنسي غير العادي «satyriasis» الذي قاد ابنه لأن يصف شهوة ميرابو الجنسية الغريبة أنها «لا إرادية». وقد كانت كلماته الأخيرة عملياً طلباً إلى الطبيب كابانيس من أجل الأفيون الذي قد يخفف المزيد من آلامه. غير أن الجمهور الذي أصابه الحزن كان بحاجة إلى شيء ما أكثر ثقافة. وهكذا رُوِّج خبر أنه قدّم نقش ضريحه الخاص النبوئي في أسلوب رواقي: «آخذ معي موت الملكية. والزمر سوف يفترس بعضها بعضاً على أنقاضها». هذه الكلمات أو أشباهها، ظهرت في الكثير من اللوحات التذكارية المطبوعة التي أُنتجت بسرعة لتخفف من مصاب سكان باريس. ففي واحدة لـِ بوريل Borel، تحولت تشاؤمية ميرابو إلى تصميم على «مقاتلة الزمر حيثما يمكن أن توجد»، فكرة نُقِشت بجانب سريره فوق نسخ من إعلان حقوق الإنسان والدستور. وفيما كان الموت يدنو من خلف فرنسا حزينة، يشير ميرابو إلى ثوب ترفعه الحقيقة في الخلفية من جهة اليمين يظهر مشهداً موحشاً للنزاع فيما «الانقسام» يقلص التاج ورجال الدين والشعب إلى شواش متحارب.

عندما وصلت الأخبار إلى الجمعية التأسيسية، خيّم فوراً إحساس ساحق بالفقدان على المجتمعين ساحباً إلى ظله حتى هؤلاء، أمثال بارناف، الذي كان بين أشد خصوم ميرابو. ارتفعت تنهدات ونشيج هنا وهناك فيما كان برتراند باريل يقترح أن تحضر الجمعية بكاملها الجنازة بدلاً من مجرد وفد. عندئذٍ وقف تاليران باعتباره الشاهد الأخير والمبلِّغ، أليشع الضروري Elisha. «لقد ذهبت البارحة لرؤية م. دي ميرابو، كان ثمة أناس كثر في المنزل، وقد شعرت بحزن أكبر من ذلك الحزن العام. كان مشهد التوحد يملأ المرء بصورة الموت، كانت في كل مكان إلا في روح الشخص الذي كان الخطر مصلتاً فوق رأسه..». لقد أعطاه ميرابو خطابه الأخير، هدية انتزعت من اللص الموت نفسه، شهادة رجل مهتم بالشأن العام.



الصورة 137، دي لوني لو جون (بعد بوريل) الكلمات الأخيرة لميرابو، 1791.

وما تبع ذلك، للأسف، لم يحقق توقعات هذه القطعة المذهلة من البراعة في الإخراج المسرحي لتذكار. قرأ تاليران نقاشاً طويلاً مملاً بشكل غير عادي، كتبه سولومون ريباز، عن قوانين الإرث، كان الحفاظ على الامتياز هو الموضوع الذي شغل ذهن ميرابو بشكل واضح فيما اقترب من نهايته. فقد أنهى الرجل، الذي كان إلى ما قبل وفاته تماماً يناقش بحمية لصالح المادية البطولية، سيرته بتقديم حجة في الاتجاه المعاكس: لأولوية العدالة الأخوية (أي، الميراث المتساوي غير القابل للتحويل) على حرية التصرف بالميراث. لا شك أن عدم توريثه لم يكن بعيداً عن تفكيره.

ظلت الجمعية منعقدة في اليوم التالي، التي لم تكن عادية في يوم أحد، لسبب وحيد هو مناقشة الجدل الدائر حول جنازة ميرابو. من المشاعر المشاركة بالإضافة إلى الإحساس العام بالإحباط في الشارع وكل أرجاء فرنسا، كان واضحاً أن الثورة التي التزمت بوضع المبادئ المجردة، تمتلك توقاً شديداً إلى الأبطال الذين جسدوا ذلك التوق. مانعت الكتابة التاريخية الحديثة (باستثناءات قليلة جديرة بالاحترام) أن تعترف بذلك، كما لو أنها لتفعل ذلك كان عليها أن تعترف بوجهة نظر القرن التاسع عشر أن الثورة نتاج الشخصيات العظيمة. وبدلاً من ذلك، قُدِّمت الثورة باعتبارها نتاج قوى غير شخصية: احتكاك البنية الاجتماعية والاختلال الوظيفي المؤسساتي. ومع ذلك، في ما يتعلق بالمعاصرين، سيعني تلاقي الهوس الروماني الجديد مع المزايا المثالية والافتتان الرومانسي بالنزعة البروميثيوسية أنه ليس من حدث عظيم مثل الثورة يمكن أن يُفهَم دون تجسده في عبادات أبطال وشهداء. والمرشحون لهذا الدور الاستثنائي إذا ما عُرِضت نواقصهم بتباهٍ ليست عقبة، لأنه أليس هوميروس نفسه أبرز كثيراً من هذه الزلات الإنسانية بين الآلهة والأبطال؟ وهكذا كان أن ميرابو، الذي في سنواته الاثنتين والأربعين أظهر كل المؤشرات على الفنائية العامة، كان الأول الذي رُفِع إلى مصاف الخالدين في العصر الحديث.

وبالتلاؤم مع عبادة الأبطال الوطنيين التي كانت تنمو بشكل ثابت منذ حرب السنوات السبع، كان قد تحدد أنه يجب أن يكون هناك «وست مينستر آبي للفرنسيين». وفكرة بانثيون سبقت الثورة، وعدد من المشاريع في سبعينيات القرن الثامن عشر وضعت في القائمة الشخصيات المشهورة نفسها التي برزت في سجلات الوفيات والشخصيات التاريخية ذات الميداليات: تورين، كولبرت، لاموانن. ونصب كهذا «للناس العظام» سيميز نفسه عن سرداب الملوك بتمجيد الفضيلة لا النسب، والإبداع الذاتي لا التقليد.

عندما اقترح الماركيز دي باستور فكرة البانثيون، كان مرشحه الواضح الأول، ديكارت، الذي مُثِّل باعتباره شخصاً ما اضطهده الملوك وأُجبر على العيش حياة فيلسوف مستقل الهارب. وناسب سجن ونفي فولتير وروسو النموذج نفسه.

وقد ظنّ أن كنيسة سانت جينفييه الأنيقة التي لم تكتمل بعد التي صممها سفلوت مناسبة بسبب بساطتها الكلاسيكية الجديدة والتي بدت أنها تضع الخطوط للفضائل المرتبطة بالفلاسفة ورجال الدولة الوطنيين. ورأى المهندس المعماري كوارترمير دي كونيسي Quartremère de Quincy الذي كلِّف بذلك، أن البناء مثالي بالضبط لأنه كان النقيض التام لسرادب الملوك القوطي المكتظ بطريقة اعتباطية في سانت دنيس. وكما أوضحت مونا أوزوف Mona Ozouf أن المكان المختار كان يجب أن يجرّد من معاني الموت، ما دامت وظيفته هي أن يمجد خلود الأبطال. وبالتالي سيكون مكاناً للانتصار وليس الموت.

وتبعاً لظاهر الأمر، أثار ترشيح ميرابو باعتباره الأول في الأبطال الثوريين الذي يجب أن يدفن في البانثيون كل أنواع الصعوبات. فقد افترض أن تكون المزايا المثالية «للناس العظام» شخصية وعائلية بالإضافية إلى السياسية أو الفلسفية. غير أن تدفق التفجع الكبير الذي تلا موته أغرقَ النزوع إلى الشك إلى درجة حتى روبسبيير وبارناف، اللذين كانت آثام ميرابو واضحة تماماً لهما، أيدا الاقتراح.

وهكذا خطط للجنازة أن تكون مظاهرة كبيرة للتبجيل الوطني الذي سيتوَّج بوصول ميرابو إلى البانثيون. وعند الساعة السادسة في 4 نيسان، غادر منزله موكب عسكري طويل، قادته مجموعات من الحرس الوطني الفرسان والمشاة، يظهر المشاة بنادقهم منكَّسة والطبول ملفعة بشارات حداد سوداء. وفي الوسط كان ثمة جرة من الرصاص تحتوي على قلب ميرابو ـ العضو الذي أُعلن أنه حامل فضائله الرئيسة: صدقه وعاطفته وإخلاصه. وسارت وراء حملة النعش، الذين كانوا من الحرس الوطني أيضاً، جماعات من المحاربين القدماء والأطفال (مظهر عام لهذه المواكب حتى أيامنا هذه)، وممثلون من بلدية باريس وإدارة المقاطعة التي خدم فيها ميرابو، وعملياً كل أعضاء الجمعية التأسيسية، وحتى الأكثر إثارة للدهشة، في جماعة، اليعاقبة، الذين، رغم ارتداده، أعلنوا أسبوع حداد لرئيسهم السابق، ووطدوا العزم على قراءة رد ميرابو الحاد على المركيز دي درو ـ بريزيه، كل سنة في 23 حزيران بصوت عالٍ، وفي النهاية تماماً انقسم الموكب ببساطة إلى حشد هائل من الباريسيين وهؤلاء الذين جاؤوا إلى المدينة ليكونوا قريبين من



الصورة 138، للنحات تسيه تمثال نصفي لـ ميرابو، 1790 ـ 1791

البطل الميت، حشد، قدره بعضهم بثلاثمائة ألف، مدّ هائل من الناس يتدفق عبر الشوارع يحمل المشاعل في باريس التي يهبط ليلها. حيث كتب نيكولاس ريو Nicolas Ruault إلى أخيه: «لقد بدا أننا نسافر معه إلى عالم الموت».

وعند كنيسة سانت يوساتشه التي جللها السواد تم التوقف ليتمكن الأب سيروتي إلقاء عظة تأبينية للميت في أسلوب منسجم مع معتقدات ميرابو غير الصارمة. ثم استأنف الموكب مساره متثاقلاً إلى الأمام على موسيقى قداس موتى لحنها غوسيك Gossec خصيصاً أعدت على غير عادي لآلات النفخ التي أطلقت ألحاناً تعبر عن الأسى وسط الموكب العظيم التقليدي. وأخيراً عند منتصف الليل وصل الموكب إلى سانت جينفييه حيث وضع قلب الخطيب على منصة تابوت بجانب ضريح الفيلسوف.

مضت بعض الروايات، في الكلمة والصورة، بالرحلة أبعد. تمّ تقديم مسرحية مرتجلة بعنوان «وصول ميرابو إلى الحقول الإليزية»، مثلّها من محتوى لوحة رسمها مورو لو جون Morreau le Jeune الذي جعل الكونت يستقبله روسو، متوجاً بفرانكلين وكرّمه فولتير ومونتسكيو وفنيلون. وعلى سهل آخر كان يُحتفَل بفضائله لدى سابقيه من الخطباء أمثال ديموزين وشيشرون. وحده بريسو Brissot في جريدته رفض التلميحات المتواصلة

إلى فضيلة ميرابو. لقد عرف الرجل الميت جيداً كفاية ليعرف أنه سيحذف الكلمة من البينات لئلا «يُمَجِّد ضريحه بكذبة».

وغدا ميرابو موضع تبجيل الجماهير ليس في باريس وحسب بل في الأقاليم. ففي رين أقيم قداس على راحة روحه وفي كنيسة نوتردام في بوردو رفع تابوت حجري كبير للرجل العظيم على أربعة أعمدة، ونقِشت مآثر «هرقل البطولية» على جانبه. وفي معارضة درامية لما على الأرجح لن يسر ميرابو برز التآكل المتسارع لاحترام الملك. فتغاضيه عن خروج عمتيه مُثِّل في الصحافة الوطنية أنه تسامح، إن لم يكن تعاطفاً، مع موقف البابا، الذي نشر شجبه الرسمي للدستور المدني في آذار، والذي أحرقت صوره وتماثيله في شوارع باريس. وقد أعلن البابا بيوس السادس بمقتضى سلطته أن رسامة الأساقفة الدستوريين تدنيس للمقدسات وطلب من كل كاهن أدى القسم أن يعترف علناً بالخطأ خلال أربعين يوماً تحت طائلة عقوبة الحرمان المؤقت. وخلال كل هذا رقد لويس مريضاً بحمى شديدة وسعال دموي. يتأمل على نحوٍ بائس بموافقته على القانون الذي يفرض القسم، والذي قدم عشية الميلاد عام 1790، وهو الآن يتوب لارتداده عن عقيدته. وقد استبدل قسيسه الملحق بالقصر الذي أخذ قسمه، بآخر تقي رفض أن يقسم يمين الولاء، الأب هربرت، وقرر الملك منذئذٍ فصاعداً أن يتجنب تناول العشاء الرباني من كاهن دستوري. ومع دنو الأسبوع المقدس، بذا الحل الأمثل أن يرحل إلى سانت كلود، حيث يمكنه إقامة هذه العبادات بعيداً من المعادين للإكليروس الباريسيين الغاضبين.

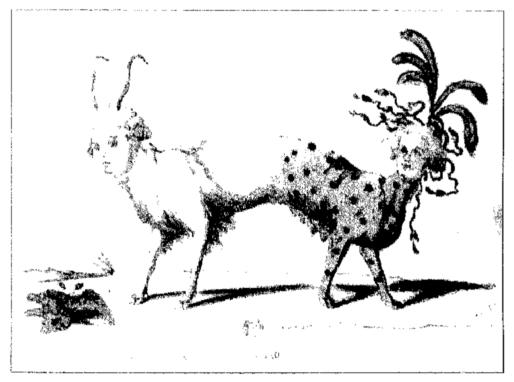
وقد كان كل ذلك ضرورياً ما دام مزاج العاصمة في ربيع عام 1791 لم يكن معتدلاً. واحتجت الحشود الغاضبة، التي غالباً ما حركتها الجمعيات الشعبية، ضد ضعف العمل وشجبت عملاء الثورة المضادة الذين زعمت أنهم يجب أن يُكشَفوا. وكانت هناك تهديدات متكررة بإغلاق أعمال الإنعاش العام التي دفعت 20 قرشاً في اليوم لما يقارب ثلاثين ألف رجل وامرأة. وفي اليوم نفسه الذي كُشِفت فيه «قضية الخناجر» في التويلريه. حاول حشد مثل هذا من عمال مصنع بيرة سانتيير أن يزحف إلى قلعة فانسيان، التي قالوا إنها تعد بوصفها باستيلاً جديداً. وقد اعتقل عدد منهم وعوملوا بقسوة بالغة. غير أن أعمال الشغب تواصلت مع موجة من الإضرابات دعا إليها الحرفيون المياومون المنظمون جيداً - البياطرة والنجارون وصانعوا القبعات - ضد الأجور المنخفضة.

التقت كل هذه الأمزجة - الجوع والفقر والسخط المعادي للإكليروس والبارانويا الوطنية - يوم الاثنين في الأسبوع المقدس، في 18 نيسان، عندما انتشرت أخبار في

الأحياء أن الملك والملكة على وشك الرحيل من سانت كلود. في اليوم السابق، نشر منتدى الكوردلييه قراراً يعلن أنه بالهزء من الدستور المدني يكون لويس قد خان لقبه «معيد الحرية الفرنسية» وذكره أنه باعتباره «صاحب المنصب الأول في الدولة» هو أيضاً «الخاضع الأول للقانون». وبمثاله، قيل، أنه أجاز التمرد «ويعد للأمة الفرنسية كل فظائع عدم النظام وكارثة الحرب الأهلية». وفي الوقت الذي كان فيه الملك مريضاً، وصفت جريدة فريرون تعبير الجمعية الرسمي عن القلق فيما 1200 مشرعاً يشوهون كرامتهم بوصفهم رجالاً وممثلين للأمة الفرنسية بالذهاب إلى النشوة الغامرة لثمانية أيام بسبب وضع بول الملك وفضلاته إلى درجة السقوط على وجوههم أمام مرحاضه كما لو أنه العرش الأكثر تألقاً».

وعندما حاول الملك والملكة الوصول إلى عربتهم عند أبواب القصر وجدوا طريقهم مغلقة بحشد غاضب كبير. فاقترحت ماري أنطوانيت أن يستخدموا عربة برلين berline التي يمكن أن تستخدم داخل الأرياف وتواكَب بالحرس الوطني بقيادة لافايت. وعندما حاول الجنرال، في كل حال، أن يفتح لها مخرجاً، رفض رجاله طاعته وبدأوا، كما في صباح 5 تشرين الأول 1789 ـ يوجهون تهديداتهم ضده. لم تكن مواصلة الخطب الرنانة ذات طائل. فلساعة وثلاثة أرباع، جلس الملك والملكة داخل العربة يتحملان إساءة المعاملة الناضجة. فلم يكونا للحشد والجنود أكثر من الهولة الهجينة التي قد روجتها الطباعة «الاثنان لا يساويان إلا واحداً، «الذي يظهر رجلاً بجسم معزاة ذات قرنين (ومُدَّيث) من جهة وامرأة بجسم ضبع تضع قبعة ذات أرياش في الجهة الأخرى. وعندما حاول لويس أن يقدم خطاباً صغيراً، يعبر عن دهشته من أنه هو الذي أعطى الأمة الفرنسية حريتها يُحرَم الآن من حريته»، رد رامي قنابل من الحرس بحدة «مرفوض Veto». وأخبره آخر أنه خنزير سمين تكلف شهيته الشعب 25 مليون ليفر في السنة. وجلست الملكة منحنية إلى جدار العربة ودموع الغضب والرعب تفيض منحدرة على وجهها. وقد أفسح الرعب في هذه المحنة طريقاً للاكتئاب والاكتئاب إلى الإذعان. وأدرك لافايت أنه لا توجد طريقة أخرى غير القبول بالإذلال. تحركت الأحصنة إلى الوراء وعاد لويس وماري أنطوانيت إلى شققهم في القصر، واعين بشدة أنهم، أكثر من أي وقت مضى، أسرى. وفي اليوم التالي كرر أمره إلى الجمعية الوطنية أن يُحترَم حقه القانوني بالتنقل ضمن قطر 20 ميلاً من العاصمة. وفي اليوم نفسه ظهرت صحيفة برسو تحمل مراجعة تطري عملاً للويس لا فيكونيتري بعنوان **جرائم ملوك فرنسا من كلوفيس إلى لويس السادس عشر**.

كانت هذه التجربة المعذّبة هي التي، بروايته، قادت لويس إلى قبول خطة أكثر قسوة للهرب. فوفاة ميرابو أزالت إحدى الشخصيات التي ربما مكنتها قدرتها على الإقناع وذكائها من جعل ملكية دستورية حقيقية ممكنة. ووجدان الملك المضطرب بسبب الدين وقلقه المتفاقم على سلامة أسرته الجسدية دفعه أبعد نحو الخطط السرية للهرب الذي كان وسيلة ماري أنطوانيت المفضلة لتحرير الملكية من مأزقها. وقد ألحت سلسلة متوالية من المستشارين بذلك عليها. والأكثر جدارة بالذكر الوزير السابق بريتويل، الذي كان محتجباً عندئذٍ في سويسرا بأمان. ومن منفاه الخاص في لندن، وافق كلوني، الذي أخذ على عاتقه شيئاً ما مثل قيادة نشطة في الثورة المضادة، على أن ذلك سيكون الإستراتيجية الأفضل. والأكثر أهمية، ابن عم لافايت المركيز دي بواييه، قائد الجيش في ميتز، أشار إلى أن القوات في حامية حدودية يمكنها أن تُحشَد في أعداد كافية لتضمن حماية الهرب. في آب الماضي، ردّ بواييه بقسوة بالغة على تمرد في حامية نانسي في سويس دي شاتوفيو Suisses de Châteauvieux ـ الأخير في سلسلة انتفاضات بسبب الأجور والحق في التآخي. ما دام الجنود تحت السلطة العسكرية الخاصة، كانت العقوبات شديدة القسوة. حُطِّم جندي على عجلة التعذيب، وشُنِق عشرون وحُكِم على واحد وأربعين آخرين بالعمل مقيدين إلى المراكب مدى الحياة. وقد بدا ذلك لماري أنطوانيت أنه دليل مطمئن يمكن الاعتماد عليه.



الصورة 139، منقوشة لرسام مجهول. «الاثنان يساويان واحد وحسب». الأفاعي تنحل من شعر الملكة

كانت حامية البلدة المختارة مونتميدي Montmédy، على حدود هولندا النمساوية، حيث ستوفر أربع كتائب ألمانية وكتيبتان سويسريتان من الجيش الملكي الأمن الملائم للملك أن يرسخ رايته. كانت تلك الحدود الأكثر قرباً من باريس، نحو مائتي ميل، ربما مسيرة يومين بعربة تُقاد بشدة. وفي الطرف الآخر، قد يكون لدى شقيق الملكة الإمبراطور ليوبولد قوة عسكرية كافية لمنع أية محاولة لإعادة أسر أو حتى استعادة سلطة الملك في الأسلوب نفسه الذي استعاد فيه رماة المدفعية البروسيون الأمير وليم الخامس إلى لاهاي عام 1787، كان المنسق لخطة الهرب أكسل فرسن Axel Fersen، وهو ضابط في الكتيبة السويدية من الجيش الفرنسي الذي أصبح مخلصاً متحمساً للملكة وعلى نحو متزايد مكروباً بمحنة العائلة الملكية. تبددت كميات كبيرة من الورق في محاولة لكشف ما إذا كان فرسن وماري أنطوانيت عاشقين أو لا، يحرضهم تلهف الذين ينتقصون من قدرها ومن سخط الذين يدافعون عنها. إذا أخذنا أسلوبها الأكثر كآبة بشكل درامي ومظهرها خلال هذه الفترة وخضوعها للرقابة المستمرة بعين الاعتبار، سيبدو الرابط الجنسي غير محتمل إلى حد كبير، ومع ذلك ففي أية حال يضل الهدف. فمع ما يتناسب مع ثقافة الإخلاص العاطفي، كان هوى فرسن نوعاً يطغى فيه الشعور الفروسي على الطموح الشهواني الجنسي، فما أراده هو الحرية والكرامة لامرأة متأذية. كتب: «إنها ملاك وأحاول أن أروِّح عنها قدر ما أستطيع». وكما يبدو كانت إحدى الطرق أن يشتري لها علبة بعد أخرى من القفازات السويدية الجلدية الأكثر رقة مشرَّبة بعطر الورد.

وقد تطلب ضمان الهروب تخطيطاً دقيقاً وحظاً جيداً. وفي الواقع، في كل حال، انحرفت الخطط وذهب الحظ في طريق أخرى. ألح فرسن بشكل منطقي على عربة خفيفة سريعة للرحلة، مع الملك والملكة يغادران بشكل منفصل لحرف الشكوك. لكن الملكة أصرت على عربة كبيرة رحبة من نوع برلين تحمل العائلة كلها، من تلك التي تقطع سبعة أميال في الساعة. وبما أن الثورة كانت في عملية تحويلهم إلى مواطنين عامين، فسيكون مناسباً جداً الرحيل بعكس الأدوار مع خدمهم. حيث كان على مربية الأطفال الملكية السيدة تورزيل Mme de Tourzel أن تلعب دور «البارونة كورف» التي ستزود بجوازات سفر اسمية إلى فرانكفورت، والملكة التي تبدو على نحو مقنع متكلفة الجد والاحتشام في معطف أسود بسيط ستكون مربية الأطفال (مع ولي العهد مرتدياً ثياب فتاة باسم أغلاي Aglae، على نحو جميل بالتأكيد)، والسيدة إليزابيث، أخت الملك، ستكون ممرضة محترفة، والملك بقبعة مستديرة وشعر مستعار ومعطف بسيط سيكون الخادم الخصوصي باسم «دوران Durand». وعند منتصف الليل في 20 حزيران خرج من القصر عبر الحراس

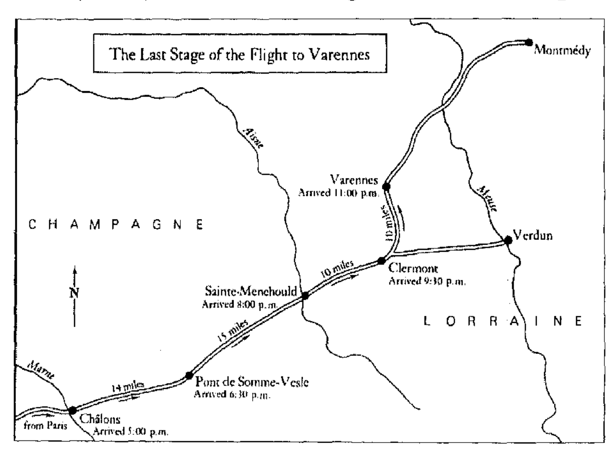
الذين أخطاؤه متوهمين أنه الفارس دي كواني De Coigny، الذي ارتدى لعدة أسابيع بحذر في زي تنكري، وقد مارس حقه متباهياً بالقدوم والذهاب متى أراد، وإذ غادرت سريعاً بعده عبر ممر جانبي غير مضاء وغير محروس، كادت ماري أنطوانيت تركض إلى لافايت، الذي كان يقوم بدوراته المعتادة لأمن القصر في عربته، لكنها استدارت فجأة، وضغطت وجهها إلى الجدار لتتجنب التمييز. كان هدوؤها مجلجلاً، ثم ضاعت الملكة نفسها في المجازات المظلمة حول التويلريه، مستغرقة نحو نصف ساعة قبل أن تجد طريقها إلى العربة مع المسافرين القلقين.

عند الساعة الثانية في ليلة دون قمر مساعدة مرت العربة عبر بورت سانت مارتان ذاهبة باتجاه الشمال الشرقي. وبعد الحاجز ركب فرسن بعربة برلين، ينتقل تدريجياً ببطء وحذر كافيين لتتمكن المجموعة كلها الانتقال من عربة إلى أخرى دون توقف. تركت العربة الأولى في الخلف وشدّت ستة أحصنة بحرية سريعة إلى خليفتها. وقاد فورسن العربة في المرحلة الأولى من الرحلة وتوسل إلى الملك أن يسمح له بالمتابعة، لكن لويس كان في الأقل واعياً أنه سيكون من غير اللائق أن يقود جندي أجنبي ملك الفرنسيين إلى الحدود. واختفى فورسن في الليل واعداً باللقاء في بروكسل.

عند الفجر، كانت العائلة تسترخي بطريقة ما، وقد جاءت فرق الخيالة وذهبت كما هو مخطط لها. وفي كليبه Claye انضمت خادمات الملكة إليها في عربة صغيرة سارت وراء عربة العائلة. ومع ذلك لم يكن ثمة شيء غير معتاد في عربة برلين سوداء وخضراء بحمولة ثقيلة للسفر السريع ذات عجلات صفراء وحقائبها تتأرجح، لتثير أية شكوك. وفي ميو Meaux البعيدة من باريس مسافة 26 ميلاً، تناولت العائلة طعام الفطور المكون من شرائح لحم البقر مع البازلاء والجزر المطبوخة بمرقة اللحم والبندورة بطريقة أنيقة فيما كانوا، من جهة أخرى، قد بدأوا يشعرون بالحرية. فقال الملك، «حالما أمتطي صهوة الفرس ثانية سأغدو رجلاً جديداً»، مرتداً إلى نوع الأسلوب البيتي الذي اعتاد على استخدامه في فرساي. بل هي إشارة أكثر وضوحاً لعودته إلى شكل كان الطريقة التي استحوذت عليه في تدبير الرحلة على خريطة أعدت بشكل خاص. أكواخ تنقط السهل، وريف المارن غير المثير رافقتهم على نحو ملائم وعند مركز بريد قرب شالون Châlons قدمت لهم زوجة رئيس مركز البريد حساء خفيفاً وقد ميزت الملك لكنها لم تسجل شيئاً أكثر من صمت مخلص بطريقة ممتنة.

ليس بعد وقت طويل، في ما يخص السرعة (التي كانت، نحو عشرة أميال في

الساعة) على جسر، ضربت عجلة بمعلم حجري، فحطمت السيور وأسقطت الأحصنة. وقد استغرق إصلاح العربة نصف ساعة أخرى ـ أضيفت إلى التأخير المبكر، الأمر الذي عنى أن عربة البرلين قد تخلفت جدياً عن البرنامج المحدد المواعيد للقاء مع الحاميات العسكرية التي خطط لها أن تقودها إلى مونتميدي. أمر بواليه الدوق الشاب شواسول أن يقدم مرافقة عسكرية عندما تصل العربة الملكية جسر دي سوم فيزل - Pont de Somme Vesle، الأولى في سلسلة حاميات التي سترافق العائلة الملكية حتى تصل بأمان إلى مونتميدي. غير أن وصول قوات من سلاح الفرسان غير المتوقع إلى بونت دي سوم ـ فيزل أثار مخاوف محلية أنها جاءت لتطبيق جمع الضريبة، فأخذت مجموعات من الفلاحين والقرويين تتجمع في قوة ما لتقاوم. وإذ انتظر بقلق لعربة فشلت في الوصول، طمأن شواسول الناس أن الحرس مطلوبون لمرافقة «خزينة» إلى سانت مينهولد بعيداً على الطريق. وعند الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر كان الفريق الملكي قد تأخر ساعتين عن الموعد وغدا شواسول مقتنعاً تدريجياً أن الخطة أخفقت. كان ينتظر معه شخص آخر، واضح أنه لا غنى عنه للملكة، مسرِّح شعرها ليونارد، محارب قديم من الأيام الذهبية



خريطة طريق هروب الملك

للسيدة فيجي ـ ليبرّن وروز برتن. وإذ رحل على عجل، أعطى شواسول ملاحظة لليونارد ليقدمها إلى ضباط الفريق الأخر تشير إلى أن شيئاً خطأً قد حدث وأنه سينضم إلى بواليه. وانتظر ساعة أخرى أو نحو ذلك ثم قاد رجاله إلى الغابة في أرغون حيث ضلوا طريقهم في حينه.

وقد تفكك التنسيق الحاسم للرحلة من هذه المرحلة. وسبقت أخبار هروب الملك من باريس عربته إلى سانت مينهولد والحرس الوطني المحلي نزع سلاح مجموعة من سلاح الفرسان بالقوة، مشتبهاً بأنها تساعد الهاربين. رأى رئيس مركز البريد، دوريه، الملكة عندما كان يخدم في سلاح الفرسان، ومع الحديث عن الهروب الملكي عنواناً رئيساً في البلدة، احتاج إلى قليل من الإقناع بهوية المسافرين. وقد أزال كل الشكوك بعد مقارنة وجه «الخادم الخاص» في زاوية العربة بصورة الملك المطبوعة على قطعة العملة من فئة 50 ليفر التي أصدرتها حكومة الثورة.

وإذ لم يظهر أحد من الجنود الموعودين، وحملقات رؤساء مركز البريد في القرية تغدو استفهامية أكثر منها متعاطفة، ازداد لويس قناعة بأن 21 حزيران هو أطول أيام السنة وقد حرم المسافرين الغفلية تحت جنح الظلام. لكن ثمة متاعب أخرى. ففي فارين Varennes البعيدة عن مونتميدي مجرد 40 ميلاً، أعطى الكابتن رورنغ Rohring المكلف بالمرافقة العسكرية المخططة، وهو بعمر ثمانية عشر عاماً، إذناً أن يجد جنوده المضجرين والمربكين أمكنة للنوم. وعند الساعة العاشرة والنصف، تلقى أوامر أن يجمعهم ثانية. لكن الأمر أثبت أنه يستحيل تخليص الجنود من الحانات والمنازل التي ذهبوا إليها في مسعى لإيجاد مأوى للنوم وملذات أخرى.

وفي الوقت الذي وصل فيه لويس إلى فارين للبحث عن خيول جديدة ومرافقة مراوغة، فوجئ على قارعة الطريق برئيس مركز البريد الذي باعتباره فارساً سابقاً استطاع أن ينطلق بشدة وسرعة. أعلِن إنذار عام، وبغياب رئيس البلدية، أوقِفت العربة بأمر النائب العام، السيد م. سوس Sauce. وتمَّ فحص الأوراق التي بدا أنها يجب أن تكون نظامية. ولم يكن هناك إلا إصرار درويه Drouet أنهم الملك والملكة وأن تركهم يغادرون يعادل الخيانة العظمى الأمر الذي غير رأي سوس Sauce. وغدت البلدة عندئذٍ مستيقظة بمعظمها، وملأت حشود بمشاعل وحراس محليين مسلحين ببنادق على أهبة الاستعداد الشوارع المرصوفة بالحصى. جعل سوس المجموعة تنتظر في منزله، الذي باع منه الشموع والمواد التموينية. قدِّمت لهم غرفة نوم في الطابق الثاني، التي نام فيها الأطفال

المنهكون من التعب. وعند منتصف الليل، جيء بقاضي صلح عجوز، م. دسته Destez، الذي عاش في فرساي إلى المنزل، وإذ تطلع إلى الملك مشدوهاً ومربكاً بحضور الملك، خرّ على ركبتيه بشكل غريزي. ورد الملك: «حسنٌ، أن فعلاً ملكك».

هل كان ثمة شيء ما من فعل انعكاسي مشروط في ذلك؟ شخص من الرعية مهزوم عاطفياً، أكثر منه مواطناً، ينحني على ركبتيه بطريقة غير إرادية وهو ينتزع الكلمات المشؤومة.

في باريس، ثار الذعر باكتشاف رحيل الملك والملكة. وأعلن شارل دي لامث، «قد تلتهب النار في المملكة في أربع وعشرين ساعة ويمكن أن يكون العدو عند أبوابنا». وكان لافايت الشخص المسؤول مباشرة عن سلامتهم، وتأمل لويس راضياً عن مأزق حرسه ووهو آمن في عربته. ومن جهة اليعاقبة، استثمر كل من دانتون وروبسبيير المناسبة ليس لاعتبار الجنرال مسؤولاً وحسب بل ليضمنا أنه شريك في جريمة الهرب. وقد هدده روبسبيير بقوله: «أنت، يا سيد لافايت، سترد على الجمعية عن مصير الملك برأسك».

وعندما وصلت الأخبار إلى الجمعية، استخدم الأشخاص سيئو النية حكاية الخطف لاحتكار انفجار النزعات الجمهورية. غير أن صحافة اليعاقبة والكورديلييه، التي أشارت قبل عدة أيام من الفرار إلى حركات غير معتادة للقوات والأسلحة في الحدود الشمالية والشرقية، تفجرت في سخط مزدرٍ. وكانت صحيفة فريرون نموذجية في رؤية الحدث بوصفه عملاً للجنة نمساوية شريرة تدعمها الملكة، مع لافايت شريكاً ولويس أداة مثيرة للشفقة في خطتها

> *لقد ذهب، هذا الملك المعتوه، هذا الملك الذي حنث بيمينه، وتلك الملكة الوغدة التي تجمع ما بين شهوانية مِسالينا وعطش مِديسي Medicis للدم. أنت امرأة رديئة تستحقين كره وغضب فرنسا، وأنت التي كنتِ روح المؤامرة!*

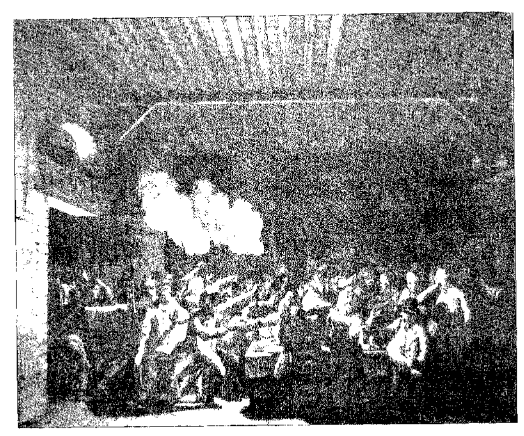
لقد تعاملت الحشود الغاضبة في شوارع باريس بتشويه أو تحطيم اللافتات التي تحمل اسم الملك على المتاجر والفنادق. وسارع كتاب العدل الذين كانت مهنتهم مصممة بمنصات تحمل زهرة الزنبق ـ شعار ملوك فرنسا ـ إلى إزالتها فوراً. ونصب بعضهم إعلاناً مقابل أبواب قصر التويلريه يقول: Maison à louer (منزل للإيجار). ومع ذلك، جاء رد الفعل الأشد أثراً من السياسيين المعتدلين نسبياً، الذين تقوض إيمانهم في ملكية دستورية فعالة قابلة للتطبيق على نحو يتعذر عكسه. فكوندورسيه، على سبيل المثال، تحوّل مباشرة إلى المذهب الجمهوري، وحتى ذلك الوقت المحمية الوحيدة من المتحمسين الأكثر

ضراوة بين أنصار الكورديلييه، ناقش مع بريسو وتوم باين Tom Paine خططاً لإطلاق مجلة تقوم بحملة نشطة لوضع نهاية للملكية. وبدا المواطن فرييه، غير المتشدد، الذي يكتب إلى زوجته، لأول مرة مثل قاضٍ ثوري ينأى بهويته الشخصية بصفة المواطن فرييه من «الارستقراطيين».

وهكذا، يا حبيبتي الطيبة، إلى هنا قادتنا مكائد ومؤامرات هؤلاء الأرستقراطيين المتهورين والمذنبين. لقد أساؤوا استخدام ضعف الملك لينصحوه بالقيام بفعل مميت. لم يخافوا أن يعرضوا الوطن إلى أهوال الحرب الأهلية الأكثر إجراماً، ويكونوا سبب في خسارة الملك، الذي يقولون إنهم يحبونه، لتاجه، ويعرضوا معظم عائلته إلى العواقب الأشد فظاعة من أجل مصالحهم الأنانية وانتقاماً لكبريائهم. لقد أصيبوا بكارثة كما سيفعلون دائماً وجهودهم الإجرامية ستسقط على رؤوسهم. لن أتذمر من ذلك، إنهم يستحقون ذلك المصير. لكن الملك! أي إذلال! والملكة! تلك الملكة التي، كما يبدو، أعطاها الله لفرنسا في ساعة غضبه!

في الحقيقة أُجبِرت ماري أنطوانيت وزوجها على شرب الكأس المرّة إلى الثمالة، فقد ووجها فجر صباح اليوم التالي، وهما محتجزان في غرفة في الطابق الأعلى في منزل مدعٍ عام صانع شموع، برسولين من الجمعية الوطنية يطلبان منهما عودتهما إلى باريس. وصفت الملكة الطلب أنه إهانة، وأعلن لويس أنه «لم يعد ثمة ملك في فرنسا». وقد رحلا من فارين محاطين بستة آلاف مواطن مسلح وحرس وطني، وهو عدد كافٍ لجعل الملك يمتنع عن أية إشارة إلى أن قوات بواليه يجب أن تُستخدَم لتأمين تحريره بالقوة. تمَّ القيام بمغامرة واحدة مثيرة للشفقة عندما حاول الكونت دوفال دي دامبيير الذي أصيب بالحماس الملكي، حاول أن يركب إلى العربة ويحيي الملك. لم يقاوم. جرَّه الحرس بعيداً وقطعه إرباً حتى الموت حشد مكّون من الفلاحين الذين كان سيدهم الإقطاعي القاسي القلب بطريقة ذائعة الصيت.

مثل الرحلتين غير الطوعيتين إلى باريس في تموز وتشرين الأول عام 1789، ميّز موكب عام 1791 المذل إلغاء الطقوس الملكية السرية. في فرساي، كانت مراتبية البلاط مُعرَّفة بقواعد صارمة تحكم القرابة الجسدية إلى شخصي الملك والملكة، تُسَّن كل يوم في طقوس الرفع والخفض. وفي إيبرناي Epernay، قذفت هذه الممنوعات جانباً عرضياً عندما دخل مندوبان رسميان من الجمعية الوطنية هما جيروم بسيون Jérôme Pétion وبارناف، إلى العربة وجلسا، دون طلب إذن، بين الملك والملكة. وعندما أكلوا أكل



الصورة 140، اعتقال لويس كابيشتان في فارين: رواية تخيلية كاملة تقريباً للملك المعتقل وهو يتناول طعام العشاء

الرجلان أيضاً، وعندما احتاج بيثيون إلى قضاء حاجة، توقفت العربة. وجعل بارناف ولي العهد يستعرض كم هو قارئ جيد من خلال تكرار الشعار المألوف حديثاً الذي نُقش على أزراره بصوت عالٍ: "Vive Libre ou Mourir" (عش حراً أو مت). وبثيون، في خيلائه، تخيل (أو هكذا تزعم مذكراته) أن السيدة إليزابيث افتتنت به إلى درجة ضغطت بجسدها إليه بإصرار هادف. ومن جهة أخرى، «جو البساطة والشعور العائلي» الذي وجده في الفريق الملكي أدهشه وسرّه.

ولكن حتى عندما جرت العربة عائدة إلى الأسر، كانت أنباء الفرار تطوف في كل أرجاء البلد، وبما أنها استغرقت ثلاثة إلى أربعة أيام حتى وصلت إلى الأركان الأكثر بعداً في البلد، اندلع الذعر، لاسيما في المناطق الحدودية. ففي بايون Bayonne كانت ثمة تقارير عن غزو اسباني، سيقع فوراً، وعلى شاطئ بريتون، تمركز الرجال لمراقبة الأسطول البريطاني من أربعين سفينة تحمل جيشاً من خمسة آلاف مهاجر. وحتى عندما وصلت أنباء اعتقال الملك إلى ميتز، غير البعيدة، أصدر اليعاقبة بياناً يدعو المواطنين جميعاً إلى السلاح» دافعوا عن بيوتكم، لا تعتمدوا إلا على إخوتكم» وانتشرت شائعات

أخرى كثيرة أن فارين قد أبادها الجنود النمساويون انتقاماً لتوقيف الملك.

خفف الازدراء الخوف في تدفق المطبوعات الهجائية، ركَّز كثير منها على شهرة الملك بالشراهة، وأظهره عدد منها متأخراً عن العشاء عندما جاء الحرس الوطني ليعتقله. وعرض أحد المنتجات البدائية في هذا الجو المولع بتذكر الهجائيات الانكليزية لويس يهاجم قطعة لحم مشوية عندما وصل مرسوم اعتقاله. وردّ، «اللعنة على ذلك، دعوني أتناول طعامي بسلام». وماري أنطوانيت معجبة بنفسها في المرآة، تتوسل إلى زوجها، «عزيزي لويس، ألم تنهِ ديكي الحبش أو شربت زجاجاتك الست من النبيذ، لأنك تعرف يجب أن نتناول طعام العشاء في مونتميدي». ويُهنَّأ ولي العهد لبذله جهوده بالمبولة، في حين ثمة لوحة عن سقوط الباستيل على الجدران معلقة إلى جانب بيان الملك وقد قلب رأساً على عقب.



الصورة 141، للرسام لو غورماند، لوحة هجائية للويس يُعتقَل وهو يتناول عشاءه في فارين

وفيما اقتربت العربة الملكية من باريس، غدا المزاج في الداخل كئيباً بشكل جنائزي. ففي بانتين Pantin، في ضواحي المدينة، صاحت النساء بلعنات على الملكة. وفي باريس ذاتها، بخلاف وصولي 1789، لم يكن ثمة أي تظاهر لدخول ملكي. وبدلاً من الهتاف والتهليل، أمرت الجمعية حشوداً أن تظهر عدم احترام مكبوح. فقد جاء في أحد الإعلانات الكبيرة، «كل من يصفق للملك سيُضرَب، وأي شخص يهينه سيُشنَق».

وأوصى اليعاقبة أن يبقي المواطنون قبعاتهم على رؤوسهم أثناء مرور العربة تعبيراً عن عدم فرحهم. وفي الشوارع، صالب رجال الحرس الوطني بنادقهم في الهواء في مواقف تتسم بالتحدي. حتى لافايت كان ملزماً (لسلامته وسلامة الملك أيضاً) أن يصدر تأنيباً رسمياً قاسياً من خلال إبلاغ لويس أنه إذا فصل قضيته عن قضية الشعب فولاؤه الأول سيكون للشعب. وردّ لويس، «هذا صحيح، لقد اتبعت مبادئك»، وبالأحرى اعترف على نحو خجول أنه أدرك من خلال تلك الرحلة التكفيرية الأخيرة عبر فرنسا كم هي هذه المبادئ مشتركة.

ومع عودة العائلة الملكية إلى باريس، كانت الجمعية في ورطة إزاء الكيفية التي سترد بها على الفرار المجهَض. فقد جعل لويس نفسه الأمر مستحيلاً أن يحتمل التظاهر بأنه كان «مختطفاً» لأنه ترك وراءه بياناً طويلاً قرئ ونشر في كل الصحف فترة غيابه. وقد كانت الوثيقة مزيجاً غريباً من الذكاء وعدم البراعة. كان القسم الأعظم منها نقداً عقلانياً بشكل يمكن فهمه للقيود المفروضة على الملكية بمراسيم الجمعية الوطنية، التي تحاكي إلى حد كبير مخاوف ميرابو بالذات، والآن شاركه فيها بارناف ودوبورت والأخوان لامث. طرح لويس في فقرات مثيرة للجدل على نحو مثير الطبيعة الإشكالية لمكان الملكية في نظام أعطاه بشكل مزعوم دوراً دستورياً لكن في الواقع ليس لديه سلطة مهما كانت يستخدمها. كيف يستطيع القضاة أن يديروا العدالة باسم الملك عندما لا يكون له دور في تسميتهم أو تصديق تعيينهم، وعندما تنتزع السلطة الملكية في استبدال عقوبة أو منح رحمة؟ كيف يمكن التظاهر أن فرنسا ممثلة في الخارج بموظفيه عندما لا يكون له رأي في تصديق تعيين السفراء ولا في التفاوض وإبرام اتفاقيات السلام؟ كيف يمكن أن يكون هناك أي انضباط في الجيش إذا كان مسموحاً للنوادي أن تتخلص من ضباط أو تثبتهم تبعاً لمؤشرات التبعية السياسية ـ كما كان اليعاقبة يطالبون؟ وفي الواقع، كيف يمكن على الإطلاق إدارة دولة بمساحة فرنسا وعدد سكانها بإدارات مرتهنة لتقلب وهيستريا الصحافة ونوادي الرأي؟

الإعلان ضد التصفيق أو الإهانة ملصقة على قاعدة التمثال

هذه كلها أسئلة مشروعة ومثيرة. وكما لاحظ لويس شخصياً، أنها كانت في ذهن «الناس الحكماء» gens sages في الجمعية، لكنه شاهد هؤلاء الرجال ذاتهم (مثل مونييه ومؤخراً سييس) غدوا غير جديرين بالثقة. وسيتابع أعداء ميرابو ودوبورت وبارناف



الصورة 142، العودة من فارين.

والأخوين لامث ـ ولاحقاً حتى الجيرونديين ـ الدرب نفسه. لا يبرر شيء جوهر ما جادل فيه لويس في البيان أكثر من واقع أن روبسبيير ولجنة السلامة العامة ستتوصل إلى الاستنتاج نفسه بالضبط وتصمم على إعادة بناء سلطة الدولة بسحق الرأي العام ونوادي السياسة في نهاية عام 1793.

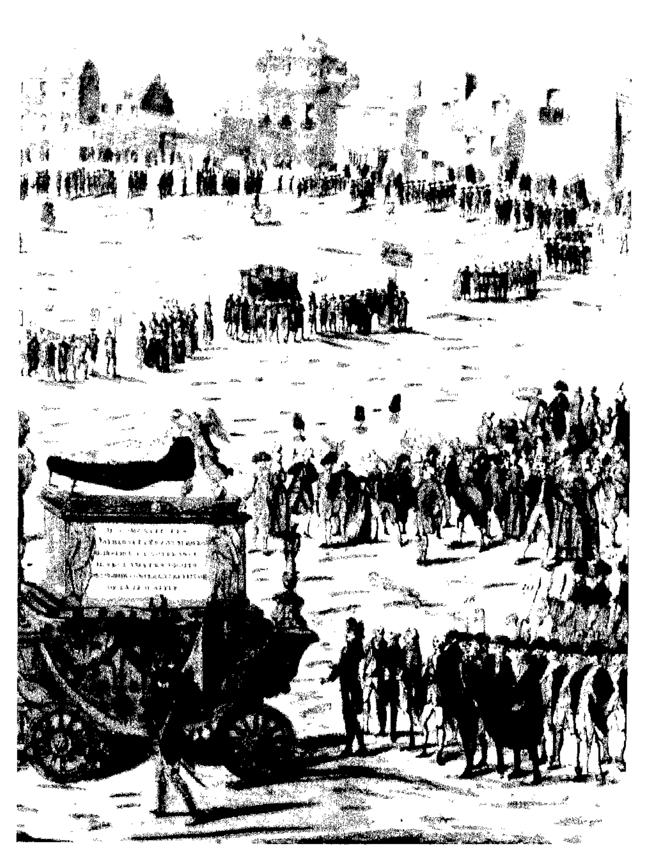
ومع ذلك، لسوء الحظ، لُوِّن بيان الملك أيضاً بوقاحة متميزة. كرر حادثة الترويع الجسدي خلال عام 1789، الذي جعل ذلك واضحاً أن كل نذور إخلاصه لشعب باريس تمَّ تحت الإكراه والحاجة إلى أمان حياة أفراد عائلته. وشكا من أن الخمس وعشرين مليون ليفر الممنوحة له على قائمة الخدمة المدنية لم تكن كافية «لتعزيز كرامة فرنسا» وأن أسباب الراحة في التويلريه في تشرين الأول عام 1789 بعيدة عما للمنزل الملكي الحق أن يتوقع أو لما كان معتاداً عليه. وقد سأل الفرنسيين ما إذا كانوا حقاً يرغبون «بفوضى النوادي واستبدادها» أن تحل محل «الحكومة الملكية التي ازدهرت فرنسا في عهدها خمسة عشر عاماً»، لكنه أوضح أن الفوضى منعت وزراءه من توقيع أي نوع من المراسيم في غيابه.

والأسلوب الذي نُشِر فيه نص البيان من خلال ملك غائب يسافر بسرعة إلى الحدود جعله مستحيلاً أكثر من أي شيء آخر أن يؤخذ على محمل الجدية. ومع ذلك، لم يكن

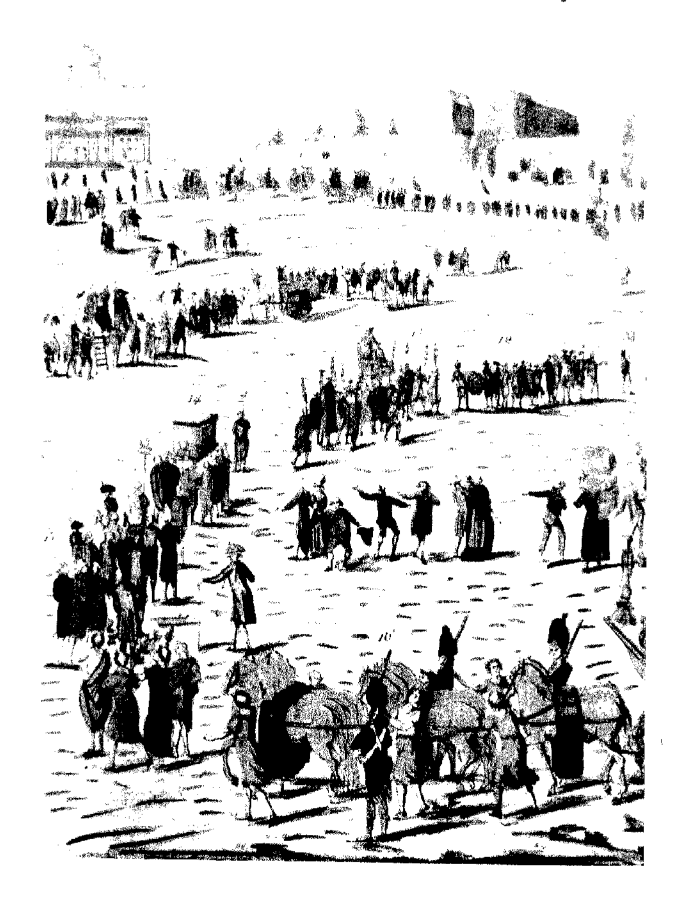
واضحاً على الإطلاق للأغلبية في الجمعية أي رد سيكون مناسباً. فأصدر نادي الكورديلييه بياناً مميزاً في الثاني والعشرين يطالب أعضاؤه أن يؤدوا قسماً مقدساً على «قتل المستبد» ضد التهديدات للحرية من خارج البلد ومن داخله، «من أينما قد يأتون». ودانتون، الذي أعلن في السابق أن لافايت يجب أن يكون إما خائناً أو مشاركاً لسماحه بحدوث الفرار، طبق الآن الوصف نفسه على لويس شخصياً. لكنه لم يتلقَ إلا تأييداً ضئيلاً على اقتراحه لاستبدال الملك بالنتيجة بمجلس تنفيذي يختاره ممثلون منتخبون لهذا الغرض خصوصاً. وعندما جعل كوندورسيه مجلة المونيتور تنشر ترجمة إعلان كتبه توم باين يجادل أن غياب «الملك الفرنسي» كان في الحقيقة يؤسس جمهورية، دُحِض ببرهان مضاد من سييه يكرر على نحو مضجر أن الناس أكثر حرية في ملكية طالما أن «الملوك كانوا ضروريين لإنقاذنا من خطر الأسياد». وحتى روبسبيير من اليعاقبة تجنب المسألة بالإعلان أن الدستور قد أعطى فرنسا الأفضل من العالمين، إذ قدم «جمهورية بملك».

وحتى في هذه اللحظة الأكثر عدم ثقة في عمل الملك، تعلق معظم الفرنسيين عندئذٍ بإمكانية أن يكون ارتداد لويس من عمل «لجنة نمساوية». وعندما أصدر بواليه، من وراء الحدود تصريحاً يهدد بنتائج وخيمة إذا ما وقع أي أذى على لويس، بدا يؤكد فرضية المؤامرة ليس إلا. وفي كل حال، كما بيّن مارسيل رينهارد، كانت المطالب بجمهورية في العرائض إلى اللجنة التأسيسية من كل أرجاء البلد نادرة نسبياً.

فما هي الخيارات الأخرى؟ ربما كان بالإمكان خلع الملك الصالح ولي العهد ونوع ما من مجلس وصاية على العرش. وإذ شم «سيد أورليانز»، كما أحب أن يدعى آنئذٍ، فرصة عاد إلى باريس و، رتب من خلال الكاتب كودرلوس دي لاكلس Choderlos de Laclos، وسعى إلى قبول لدى اليعاقبة كشهادة على حماسه الثوري. لكن الأورليانزية سبق وعاشت يومها كبديل للبوربون قابل للتطبيق. وكان هناك أيضاً قلق متزايد من أن خلع لويس السادس عشر قد يؤدي إلى حرب مع النمسا، وهو شيء كانت الأغلبية في الجمعية لا تزال قلقة لتجنبه. وفي أواسط تموز أعلن «تعليق» دور الملك في الحكومة حتى تستكمل الجمعية عملها حول الدستور. وسيقدم عندئذٍ المشروع الدستوري برمته إلى الملك لمجرد أن يقول نعم أو لا. وبصفته مكوناً حياً في الجسد السياسي، في كل حال، أصبح لويس السادس عشر شيئاً زائداً عن الحاجة. وكندورسيه، الذي مقت النفاق في الاحتفاظ بنوع ما من شيء ملائم محنط للملكية في حين أن السبب الحقيقي لوجودها قد انتفى. وقد أخذ هذه الملاحظة شوطاً أبعد بنشره هجاء لاذعاً كان فيه الملك الروبوت



الصورة 143، ترتيب موكب الجنازة لنقل رفات فولتير إلى البانثيون



الآلي مخترعاً ليعاين بدقة كل الإيماءات الجسدية الضرورية في منصب الملك ـ حق النقض وما إلى ذلك ـ ويترك السلطة الفعلية في أيدي هؤلاء الذي يشغلون العتلات.

غدت هذه الرحلة من الحكم الاستبدادي الكهنوتي إلى الشيء الجاهز الدستوري الممكن الاستغناء عنه أكثر روعة بعد أسبوعين من عودة العائلة الملكية إلى باريس. ففي تشرين الثاني عام 1790 ألقى ماركيز ثوري آخر، هو شارل دي لا فييت Charles de la Villette، الذي توفي فولتير في بيته، خطاباً في اليعاقبة حثهم فيه على أن بقايا الفيلسوف يجب أن تُعطى نوعاً ما من الاعتراف الوطني. كانت المشكلة حادة، ففي ما يتعلق بدير سيلليير Abbey of Sellières، حيث دُفِن، كان على وشك أن يباع على منصة الدلال في مزاد علني. «هل ستسمحون لهذه البقية النفيسة أن تغدو ملكية لفرد ما؟ سأل دي لا فييت بلاغياً. هل ستسمحون له أن يباع مثل الكثير من الملكية الوطنية؟» (التعبير اللطيف الذي أعطاه تاليران لملكية الكنيسة التي تباع من أجل الربح للدولة).

كان دو لا فييت، في كل حال، واحداً من المتحركين الأوائل في مشروع البانثيون، وقد شاركته اللجنة التأسيسية تقييمه لفولتير ـ «كانت الثورة المجيدة ثمرة أعماله». وهكذا وافقوا على أن بقايا فولتير يجب أن تعاد إلى باريس للدفن في النصب التذكاري «للرجال العظام». كانت اللحظة ملائمة بشكل استثنائي. فقد شهد ربيع عام 1791 شيئاً مثل عبادة فولتير. كان الممثل تالما يلعب دور بروتوس في أسلوب قديم لائق وقد أضاف مشهداً ينسخ بالضبط اللوحة التاريخية العظيمة لِـ ديفيد لعام 1789، مع الممثل يجلس متأملاً في ظل أسدلته «الأم» روما بينما أجساد أبنائه أنصار المؤامرة الملكية، قد نُفِّذ بها حكم الإعدام بحكمه يُحمَلون على محفة، في منتدى الكوردلييه في الثاني والعشرين من حزيران، عندما تم القسم على إعدام المستبد. أُلقيت خطابات أشارت بشكل محدد إلى لحظة سابقة في تاريخ بروتوس عندما وصل خبر اغتصاب أبناء تاركوين لِـ لكريس Lucrèce إلى المجلس، وأقسم «بالخنجر الطاهر أن يجتث عرق التاركوين». وعندما حاول الملك الوضيع المولد أن يعود إلى روما أُغلِقت المدينة في وجهه. وعلق فريرون، «يا له من جلال، ويا لها من كرامة. أيها الفرنسيون، لماذا لا يوجد بروتوس بينكم؟».

أخرج تمجيد فولتير مسرحياً بشكل مدروس في 11 تموز للتأكيد على مزاياه «الرومانية» على حساب الملكية غير الجديرة بالثقة. وسمح فريرون، الذي اشمئز من أبيه فولتير وقال عنه كما يتذكر «أفعى عضت فريرون، وقد ماتت الأفعى»، لنفسه بإشارة

واحدة وحسب إلى «الفيلسوف السريع الغضب» لكنه أثير بالطبيعة القديمة المتقنة للحفل التذكاري. فقد نُقِل الجثمان من روميلي ـ سور ـ ساين Romilly - sur - Seine في عربة بسيطة مزينة بقطعة من قماش أزرق، واستقبلته في محطات متتابعة شخصيات رفيعة وموظفو الخدمة المدنية الكبار وفي ضواحي باريس، رافقه الحرس الوطني إلى بقايا الباستيل حيث ربما ابتسامة الفيلسوف تأملت بانتصاره على القلعة التي سجن فيها مرتين. وهو، انطلقت الرسالة، بقي ثابتاً بينما سقطت الحجارة! وعندئذٍ وضع النعش خلف حاجز من الحور والسرو ومخفور بنوبات متبدلة من الحرس الوطني وبنات ارتدين ثياباً بيضاء قديمة الزي.

وفيما يتعلق بالموكب إلى البانتيون مركبة حربية قديمة بارتفاع منزل من طابقين، صممتها لجنة صغيرة ضمت كواترمير دي كوينسي Quatremère de Quincy وجاك لويس ديفيد Jacques Louis David. صُبَّت عجلاتها من البرونز تبعاً للنماذج الرومانية. أما التابوت الحجري فكان من الرخام السماقي ورفع على ثلاث درجات وُسِّد فولتير على أعلاه على فراش قديم الطراز في وضعية النوم، استقر وجهه على تعبير لطيف غدت مشهورة من خلال النسخ التي رسمها هودن للوحة التماثيل النصفية. وكان إلى جانبه قيثارة محطمة وخلف الوسادة صورة للأبدية وضعت تاجاً من النجوم على رأسه. وعند أركان منصة التابوت وضعت صورة، تمثل الروح الحارسة بتعابير الحداد ومشاعلها منكسة. وحفرت نقوش من أعمال فولتير على الجوانب الأربعة، بما فيها قول بروتوس «أيتها الآلهة، هلا أعطيتمونا الموت بدلاً من العبودية». وجرت العربة أربعة جياد بيضاء غطت سروجها الألوان الثلاثة.

وضمّ الموكب مجموعة الشخصيات المعتادة ـ اليعاقبة، المندوبون، ممثلو الكومونة، الحرس الوطني، وقد جُعِل أكثر إثارة بتضمينه تمثيلات من أعمال فولتير وحياته. والنموذج الثالث والعشرين للباستيل التي كان يجب أن يصنعه بالوي من حجارته أُعطِيَ شهرة وجماعة من الرجال ترتدي الزي الروماني حملت طبعات مجيدة من كل أعمال فولتير كتذكارات. ومجموعة أخرى من فرقة تالما مثلت عائلة جان كالاس، البروتستانتي الذي أعدم بسبب عملية قتل مزعومة لولده والذي جعلت تبرئته فولتير أكثر شهرة. وحمل المواطنون في ضاحية سان أنطوان الرايات التي رُسِمت عليها وجوه الآخرين الجديرين بالمقارنة: فرانكلين، روسو، ميرابو.

وكما هو معتاد في تموز باريس، أمطرت السماء. ولكن على الرغم من ذلك



الصورة 144، للرسام لاغرينيه، وصول رفات فولتير إلى البانثيون

خرجت مئات الآلاف لتتفرج فيما كان الموكب يشق طريقه في سلسلة من المحطات إلى البانثيون، يتوقف في مواقع انتصارات فولتير: الأوبرا، حيث غنت الفنانات نشيداً خاصاً كتبه غوسك وشينييه، وفي الثياتر ـ فرانسيه غنى بعضهم لحناً من شمشون يحث الناس «أيها الناس يجب أن تستيقظوا وتحطموا الأغلال وترتقوا إلى عظمتكم في العهود القديمة». وقد استغرق ذلك من الثالثة بعد الظهر إلى العاشرة ليلاً حتى وصل فولتير في النهاية إلى البانثيون ليغدو الثالث في الثالوث الذي صنف عرضياً على الأرجح. وفي طرق كثيرة، مع ذلك، كان النيوتوني القديم رفيق سكن أكثر ملاءمة لميرابو منه لديكارت.

وقد قيل إنه فيما كان الموكب الضخم يعبر البونت رويال، كان لويس السادس عشر يتفرج باستراق النظر من نافذة في أحد الطوابق العليا. فقد تم الربط في كل مكان، في الصحافة الشعبية ولاسيما في الصور المطبوعة، بين خزي الملك وتبجيل الفيلسوف. وفي مثال نموذجي لرسوم مشاهد الحياة اليومية (الشكل 145)، الصورة الرمزية للشهرة التي تحيي تخليد فولتير (الذي يشاهد في الخلفية) في طريقة مألوفة، فيما تقدم تحية مختلفة تماماً للملك المتداعي. وقد نفذت المزاوجة المثيرة للاستياء من خلال كل تفاصيل الطباعة. فتحت المقابلة بين خلود فولتير وفنائية التخبط الاجتماعي ـ إشارة إلى الهروب

المجهَض إلى فارين ـ الذي عززه شعار ـ استخرج من إحدى مسرحيات الفيلسوف، أن الملك هو تماماً شخص ما بلقب جليل، التابع الأول للقوانين، والمجبر على أن يكون منصفاً» وعند أقدام قواعد تماثيلهم الشخصية توجد قيثارة ونمو وافر من الأعشاب الضارة والنباتات الشائكة.

وهذه المقارنة غير المحبذة لم تكن الغاية الكلية لهؤلاء الذين نظموا احتفال فولتير Voltaire de fête. وإذا كان ثمة شيء، فقد كانت معنية بتبليد حدة الاهتياج للديمقراطية الجمهورية التي كان يُلوِّح بها في الجمعيات الشعبية أكثر من شحذها. وفي 9 أيار سنّ مرسوم يحظر العرائض التي تحمل «تواقيع جماعية». وبالإضافة إلى قانون لا شابلييه La Shapelier الذي أُقِرّ في نهاية حزيران الذي يمنع «اتحادات» العمال، مثلت جهداً منسقاً لوضع حدود قاسية على القوة التمزيقية في السياسة الشعبية. ووفقاً لذلك، قدمت إحدى اللوحات على تابوت فولتير الحجري إشارات قوية إلى اللازمة المفضلة لِ لافايت وبيلي، والتي صادق عليها أنئذٍ بارناف ودوبورت: ضرورة طاعة القانون. وأحد الأبطال الذين استذكروا على الرايات في الموكب كان الجندي ديزيل Desilles، الذي قُتِل وهو يحاول أن يفصل بين القوات الملكية والمتمردة في نانسي وقد غدا معترفاً به بوصفه شهيد «المعتدلين».

تجادل معظم كتب التاريخ أن هذه الجهود لتصنيف النزعة الجمهورية في قصص الوحدة الثورية قد فشلت. ففي السادس عشر من تموز، روجت اللجنة المركزية للجمعيات الشعبية التي يقودها فرانسوا ولويس روبرت عريضة تعلن أن لويس السادس عشر «ترك عمله» وأنه بهذا الفعل و«بحنثه باليمين» قد تخلى في الحقيقة عن منصبه. وحتى بقية الأمة تشير إلى إرادة معاكسة للعريضة، صرح أصحاب التواقيع، أنهم لن يعترفوا به أنه ملكهم بعد الآن. وقد دعت إحدى المظاهرات للتوقيع في ساحة مارس في اليوم التالي «على مذبح كنيسة الوطن». وفي صباح السابع عشر، وُجِد رجلان مختبئان تحت المذبح وقد اشتبها فوراً بنوايا شريرة وأعدما فوراً دون محاكمة. وقد نجح لافايت هذه المرة في إقناع بيلي بإعلان الأحكام العرفية، وهكذا واجه الحرس الوطني نحو خمسين ألف متظاهر، غير مسلحين، معظمهم من الأحياء الأكثر فقراً في المدينة. وقد أطلق رجال الحرس النار عندما قُذِفوا بالحجارة وقتلوا عدداً، قالت السلطات إنه ثلاثة عشر وقدره أحد قادة المظاهرة بخمسين.

في التسلسل الزمني للأحداث في الحتمية الثورية، تُرى هذه المواجهة في ساحة



الصورة 145، لوحة هجائية عن يومي 21 حزيران و11 تموز

مارس بوصفها لا تتوقع النزعة الجمهورية الشعبية وحسب بل تسببها أيضاً من عامي 1792، 1793. ولكن لم تكن تلك هي الطريقة التي بدت عليها المشكلات تبرز في آب وأيلول عام 1791. بالعكس، بدت محاولات الدسترة لكبح التصدع في الثورة باتجاهات ما سموها «الفوضوية» أنها نجحت. ففي 18 نيسان، عندما منع الملك من المغادرة إلى سان كلود، أراد لافايت من بيلي أن يعلن الأحكام العرفية، وقد رفض بيلي ذلك. في تموز وافق، وكان القمع صارماً كما أراد له الجنرال أن يكون. وقد أقنع روبسبيير اليعاقبة عملياً بعدم دعم عريضة «التنازل عن العرش»، وفيما شجبوا القمع العنيف في ساحة مارس، رفضوا أن يشاركوا في قضيتها، وعلى الرغم من هذا التحفظ، انقسم النادي إلى فريقين حول هذه الأزمة. وبشكل كبير القسم الأكبر عدداً ونفوذاً كانوا الفيولانت Feuillants المعمدين حديثاً بقيادة بارناف ودوبور والأخوين لامث. ووجد روبسبيير وبتيون نفسيهما في شارع سان أونور يتحدثان إلى بقية صغيرة من مائة أو نحو ذلك من الأعضاء. وقد نجح المزيد من القمع ضد الكورديلييه والجمعيات الشعبية الأخرى حتى على نحو أكثر كمالاً في جرفها خارجاً كمراكز مؤثرة للدعاية بين حرفيي باريس. وقد كتبت السيدة رولاند أن حرس لافايت ذهب يجمع صحيفة مارات من الباعة ويمزقها بحصانة من العقوبة.

ومن جانب آخر، ألحق العار باستراتيجيات الملكيين التقليديين ـ النوار Noirs ـ في الجمعية تماماً من خلال فضيحة هروب الملك. وسقط دور الحراس الدستوريين بوفاة ميرابو ولافايت بسمعة رديئة بعد ساحة مارس لصالح «المنتصرين»: بارناف وأدريان دوبورت وألكساندر لامث» خرج الثلاثة من السجالات القضائية في النظام القديم وتحولوا إلى وطنيين بدلاً من شعبيين وسياديين. وفي أيلول عام 1791 كان لديهم سبب ما لافتراض أن فرص تثبيت استقرار الثورة أفضل حالاً مما كانت لبعض الوقت. وفي الثالث عشر، قبل الملك الدستور دون تأخير وفي اليوم التالي نُصّب رسمياً في مركزه السياسي العديم القيمة بوصفه «ملك لفرنسيين».



الصورة 146، للرسام لافيت، مذبحة المواطنين في ساحة مارس: صورة بشكل رومانسي قوي في اللحظة التي كان فيها أصحاب العريضة ـ أحدهم إلى أقصى اليمين يمسك بنسخة من إعلان حقوق الإنسان ـ يُقبَض عليه من خلال نيران الحرس الوطني.

قبل يومين، افتتح صالون السنتين في اللوفر. وفي مركزه كانت ثمة ثلاث لوحات، كلها للرسام جاك لويس ديفيد، التي بدت تعلن بفصاحة لا تبارى من كل خطباء الجمعية في عهد سيادة قصص الوحدة الوطنية الثورية. كان في الصدارة بروتوس يتأمل، محملاً بلويس السادس عشر، الذي كان لا يزال مالكه وفي الوقت نفسه ضحيته الرئيسي. وكان في اليسار الهوارتيون وتحت ذلك مباشرة مندوبو مجلس الطبقات يرجّعون صدى إيماءة





الصورة 147، للرسام جاك لويس ديفيد: قسم قاعة التنس



الصورة 148، تفصيل من لوحة جاك لويس ديفيد، قسم قاعة التنس



الصورة 149، تفصيل من لوحة جاك لويس ديفيد، قسم قاعة التنس

الأخوة الرومان برفع أذرعهم في قسم قاعة التنس. والعمل الأخير الضخم كان لا يزال لوحة، غير أن صرامة صورة صاحب الخمارة الأحادية اللون بدت مناسبة للصرامة التعبدية للمزاج الذي عزز بطريقة ما الشد الإنشائي الضخم للعمل باتجاه مركزه الوطني حيث لعب الضوء على رأس سيلفن بيلي وهو يأمر بأداء القسم.

ومع هذا الوقت، كانت الرسوم المتناغمة التي عُرِضت قد تحولت سريعاً إلى متعارضة. ففي مركز العمل كان التوافق الثلاثي للإيمان» البروتستانتي رابوت سانت إتيان Rabaut Saint Etienne، والكابوشين دوم جيرل Capuchin Dom Gerle (الذي لم يكن حتى في قاعة التنس ذلك اليوم) والوطني الأب غرايغوار. غير أن دوم جيرل أصبح عدواً للثورة منذ أن اقترح في 10 نيسان عام 1790 أن تُعلَن الكاثوليكية الدين الوحيد في الدولة، والحرس البروتستانتي والمتمردين الكاثوليكيين كان كل منهم يقتل الآخر في ميدي ووادي الرون، وفيما سيذهب غرايغوار ليغدو تقليدياً، كان رابوت قد تراجع عن المبالغات في التعليمات الشعبية. وبيلي، الذي رفعت إليه كل الأيدي، كان يفقد السيطرة على الحكومة بسرعة في باريس. يشاهد سييه على مقعد بوصفه أيديولوجي السيادة الوطنية، وقد غرِّب بسبب الدستور المدني وكان لتوه قد قدم دحضاً لمانفستو توم باين الجمهوري. وإذا كان بارناف (في اليمين) قد أعطي أهمية في إلحاح إيماءته، فقد كان على الأقل الموازن لمكسيميليان روبسبيير (الذي كان غير هام بالكامل في حزيران

1789)، الذي تقاطعت يداه على صدره في اللغة الجسدية لصدق روسو وفضيلته.

ومع ذلك لم يقدم ديفيد في أي مكان في عمله رأياً شخصياً على نحو أكثر تفاؤلية حول الثورة مما في الزوايا الثلاث حيث الجمهور قد عُرِض. فهناك حيث الشعب يُناجى بطريقة لا نهائية من السياسيين، يجعل ظهوره مثل نظارة وتلاميذ ومواطنين مثاليين: وطنيين في قوتهم لكنهم لم يهددوا قط في جموحهم وعنادهم. وفي القسم الأعظم هم شعارات الجاليات السياسية لليعاقبة: اللامتسرولون الجمهوريون ذوو القبعة الفريجية التي كُيِّفت مثل شكل عتيق الطراز ووضعت مثل إحدى جداريات مايكل أنجيلو المصنوعة من الجص. والمجموعة في الأعلى جهة اليمين (التي ربما أُخِذت من أطفال ديفيد نفسه) تدمج التحالف العاطفي الحتمي بين الجليل والشباب: معاناة الماضي وأمل المستقبل (الصورة 148، والصورة 149)

تغدو الكليشيهات مغفورة فيما يرمي ديفيد على الإنشاء القوة الكبيرة للإعصار الثوري، الذي أعطي تصويراً واقعياً من خلال الستارة التي تنفخها الريح. لقد تحوّلت تقاليد النظام القديم والسيادة التقليدية من الداخل إلى الخارج مثل المظلة التي تشاهد في الأعلى جهة اليسار. وحتى التعبير الذي أعطي لحاملها يسجل لحظة التحول الدقيقة، بحبها من أول نظرة التي تضرب جوقة الترتيل الملكية. هذه العاصفة السياسية القوية تندفع إلى الفراغ في القاعة لتلاقي الإيماءة الجماعية المتوترة المنتشية للمندوبين في المركز المضاء للصليب المتعامد.

والصورة، كما قال أحد النقاد، تتنفس بحب الوطن والفضيلة والحرية. يرى المرء في كل مكان أمثال كاتو المستعدين للموت من أجلهم». والانشقاق الشهير لِـ مارتن داتش في الأسفل جهة اليسار لا يخدم إلا في تعزيز الشعور أن هذا كان نشيداً للوحدة الثورية. لكن ديفيد لم يكن قادراً أبداً على إنهاء العمل، وبالضبط لأنه في سياق السنة التالية، تعرضت تلك الوحدات للتصدعات. ففي كشف تعامله مع البلاط، ميرابو، الذي وضعه ديفيد أقرب إلى المتفرج أكثر من أي شخصية أخرى، سقط إلى مثل هذا العار الشديد فانتزعت رفاته من البانثيون ورميت في حفرة في مقبرة عامة عام 1793. وسيموت بيلي وبارناف على المقصلة، ويبقى سييه حياً بجهود كبيرة من النزعة العملية الذكية. وسيوقع ديفيد نفسه مذكرات الاعتقال بوصفه عضواً في لجنة الأمن العام ويتفوق على نفسه في التعبيرات العامة في الإخلاص لِـ روبسبيير ومارات.

واستمر الشعراء الرومانسيون المتنبئون الجويون مثل أندريه شنييه ووليم

ووردزوورث، اللذين شعرا بمأساتها، بوصف الثورة أنها إعصار شديد. لكنها أكثر فأكثر لم تعد تلك العاصفة التي تنعش وتنشط وتنظف، بل اهتياج أساسي مظلم قوي يندفع إلى الأمام ويدمر دون مميز. ولم تعد أنفاسها حلوة، بل نتنة. لقد كانت رياح الحرب.

CHPTER 13

Sources and Bibliography

For accounts of the personnel changes (or lack of them) in the municipal revolutions of 1789 - 90, some of the older local histories are very helpful. See, in particular, A. Prudhomrne, Histoire de Grenoble (Grenoble 1888); and Victor Dérode, Histoire de Lille (Lille I 868). For the epitaph to the Parlement, see the Courtier Patriotique du Grenoble (October 2, 1790). By far the most important modern comparative history is Lynn Hunt, Revolution and Politics in Provincial France: Troyes and Reims 1786 - 1790 (Stanford 1978); see elso idem, Politics, Culture and Class (chapter 5). though the author draws clearer lines between the old and new political classes than seem to me to be everywhere evident in the earlier stages of the Revolution. Other important local studies on which I have drawn are J. Sentou, Fortunes et Grouper Socioux à Toulouse sous La Révolution (Toulouse 1969); Louis Trénard, Lyon de L'Encyclopédie au Préromantisme (Paris 1958, voL. 2, 229ff.); the more aggressively anti - Parisian Albert Champdor. Lyon Pendant La Révolution (Lyon 1983); and Claude Fohlen, Histoire de Besançon (Besançon 1967, 229ff.). For Strasbourg, Seinguerlet, Strasbourg Pendant La Révolution (352ff$_1$), and Gabriel G. Ramon, Frédéric de Dietrich, Premier Maire de Strasbourg sous La Révolution (Paris and Strasbourg 1919). On the village history of Puiseux - Pontoise, see the extremely interesting essay by Albert Soboul in his Problémes Paysans de Li Révolution Française (Paris 1976, 254). Patrice Higonnet, in Pont - de - Montven: Social Structure and Politics in a French Village (Cambridge, Mass., 1971), found the same combination of high - minded revolutionism and predictable opportunism in the acquisition of hints nationaux.

On the press, see Censer, Prelude to Power. The report from L'Orateur du Peuple on conjugal politics is from I 791 (481). Brissot's sardonic congratulation of Desmoulins is in the Patriote Français for December 30, 1790. The Lille "Battalions of Hope" are men - tioned in Dérode, Histoire de Lille (47). On almanacs, see Henri Welschinger. Les Almanachs de La Révolution (Paris 1884), and G. Gobel and A. Soboul, "Almanachs", in Annales Historiques de La Révolution Francaise (October - December 1978). On the Jacobin competition of 1791, see Gobel and Soboul (615ff.). For the correspondence on the "coiffure Brurus", see Patriote Français (October 31, 1791). Lequinio's prayer was published in the Feuille Villageoise (November 17, 1791, 184), as was the schoolmaster's letter (September 179 I1, 51).

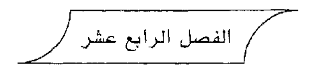
For the foundation of the Jacobins, Michael L. Kennedy, The Jacobin Clubs in the French Revolution: The First Years (Princeton 1982), is an extremely important

work. On the popular societies of Paths, see R. B. Rose, The Making of the Sans - culottes (chapter 6); Santerre's remark is cited in ibid. (114). Rose also gives the text (104) of the petition of the Société Fraternelle. See, in addition, the older work of Isabelle Bourdin, In Sociétés Populaires à Paris Pendant La Révolution Française (Paris 1937). Girardin's plebiscitary utopia is set out in his Discours sur La Ratification de La Loi par La Voix Générale (Paris 1791). For the background to the labor unrest of 1791, see Michael Sonenscher, "Journeymen, Courts and French Trades, 1781 - 1791, " Past and Present (Feb. 1987, 77 - 107).

Mirabeau's correspondence with the court and his strategy for reinvigorating the constitutional monarchy is set out in full in Guy Chaussinand - Nogaret (ed.), Mirabeau entre Le Roi et La Révolution (Paris 1986). His last days are described in the same author's Mirabeau. For the funeral procession and especially for Gossec's music composed for the occasion, see Tiersot, Les Fête, et Les Chants (51ff). Ruault's comment is quoted in Biver, Fêtes Révolutionnaires (35). On the foundation of the Panthéon, see Mona Ozouf, "Le Panthéon", in Non (ed.), Les Lieux de Mémoire, vol. 1, La République (Paris 1984. 151). Brissot's cool response was given in the Patriote Francais (April 5, 1791).

The Cordeliers petition against the court's attempted journey to Saint - Cloud for Holy Week 1791 is given in Roberts, Documents (vol. 1, 292 - 93). Fréron's scorn for the Constituent's expression of concern over the health of the King is in L'Orateur (1791, 215). The best account of the impact of the flight to Varennes in in part 1 of Marcel Reinhard's superlative history of 1791 and 1792, La Chutede de La Royauté (Paris 1969), and see the set of documentary appendices on both the period of the flight and the Cordeliers campaign that led to the massacre on the Champ de Mars. For the Jacobin reaction, see Kennedy, The Jacobin Clubs (chapter 14). Fréron's denunciation of the King is in L'Orateur (1791, 370). Ferrières'letter to his wife on the flightis in Carré (ed.), Correspondance (vol. 1, 363, June 23, 1791). On the cults of Voltaire and Brutus, see Robert Herbert, David, Voltaire, Brutus; also the excellent forthcoming study by Warren Roberts on Jacques - Louis David. For the Fête de Voltaire, see Nicolas Ruautt, Gazette d'un Parisien sous La Révolution (July 15, 1791); and Biver, FêteS Révolutionnaires (38 - 42).

For the massacre on the Champ de Mars, see Rudé, The Crowd (80 - 94) and G. A. Kelly, "Bailly and the Champ de Mars Massacre", in Journal of Modern History (1980). The full history of David's Tennis Court Oath is given in a fine monograph, Philippe Bordes, Le Serment du Jeu de Paume de Jacques - Louis David (Paris 1983).



«النشيد الوطني الفرنسي»

أيلول/ سبتمبر 1791 ـ آب/ أغسطس 1792

I ـ هل أُنجِز العمل؟

طار منطاد يعمل بالهواء الساخن، تتدلى منه أشرطة ثلاثية الألوان، فوق الشانزليزيه ليعلن موافقة الملك الرسمية على الدستور في الثامن عشر من أيلول 1791. ومع أن ذلك لم يخلُ من الريبة، فقد جاء لويس إلى الجمعية التأسيسية قبل أربعة أيام من الموعد المحدد، ليقسم «أن أحافظ عليه في الوطن وأدافع عنه ضد الهجمات من الخارج وأستخدم كل الوسائل التي يضعها تحت سلطتي لأنفذه بإخلاص». أخبرته الملكة أن يشير إلى موافقته بإيجاز مهيب، وقد بذل جهداً لجعل ذلك يبدو مشروطاً بقرار الجمعية التأسيسية «لإعادة بناء النظام». لكنه خلال الجلسة كان واضحاً أنه يجلس على كرسي ذي ذراعين بمستوى رئيس الجمعية بالذات، مروعاً الحق الملكي بعمل غير لائق. وقد أعلن ما لا يقل عن 150 من أعضاء الجمعية التأسيسية عدم الالتزام بوثيقة وقعها تحت الإكراه «ملك ـ سجين». وفي الوقت نفسه، صبَّ اليسار جام ازدرائه على فكرة أن الهارب إلى فارين Varennes يمكنه العمل بإخلاص.

وعلى الرغم من ذلك، كانت لا تزال هناك أغلبية واسعة في الوسط. فاعتقد فِريير Ferrières، وهو أحد هؤلاء، أن تجربة الملك طهرته، وهو يتمسك بالدستور لأنه حماية ضد الثورة المضادة والفوضوية. ومهما يكن، فقد أغرقت الابتهاجات البريئة ضجة المعارضة في تلك اللحظة،. وأُنشِد نشيد شكر A Te Deum في كنيسة نوتردام. وعندما ظهر الملك والملكة في دار الأوبرا لحضور عرض مسرحية أوديب في كولونَس Colonus،

التي تعبر عن التوبة بشكل مناسب، قُدِّمت لهما التحية مقابل التحية برفع الهتافات. وأضاءت الأنوار والألعاب النارية سماء ليل الخريف، وشُربت في الرقص العام أنخاب الدستور والحقبة الجديدة التي أعلنها.

وقد عبَّر إنجاز ما أُعلِن أنه «إنجيل» الثورة نهاية عمل الجمعية التأسيسية الشاق والطويل. ومع أن جسم الجمعية عدلته الأخطاء والانسحابات وتبديلات قليلة فقد ظلّ، في الجزء الأعظم، هو الجمعية نفسها من الرجال الذين وصلوا بوصفهم أعضاء ثلاث طبقات منفصلة إلى فرساي في أيار 1789. وقد بدأ الآن نتاج أعمالهم بمقدمة تعلن:

لم يعد هناك نبلاء ولا طبقة نبلاء ولا مزايا موروثة للطبقات ولا نظام إقطاعي ولا عدالة أبوية متوارثة ولا أي لقب أو تسمية أو امتياز... لم يعد هناك أي شراء أو وراثة لأي منصب عام، ولا يمكن أن يكون هناك أي استثناء من القانون العام الفرنسي لأي قسم من الأمة ولا لأي فرد.

لقد كان هذا التحول من عالم يقوم على طبقات ونقابات مُعرَّفة رسمياً إلى تلك الكينونة الموحدة لسيادة الأمة أحد التغييرات الأكثر إدهاشاً في الشخصية الجماعية في التاريخ السياسي. لكن المفهوم الذي أُسِّست عليه لم يُختَرَع، بالطبع، في السنتين اللتين تلتا دعوة مجلس الطبقات إلى الانعقاد. فقد كان الدستور في نواحٍ كثيرة تحقيقاً لمشروع التنوير: لحلم أرجنسن Argenson في «المملكة الديمقراطية» القائمة على الإلغاء السياسي لطبقة النبلاء.

ولما كان الدستور قد أُقِرّ الآن وشارف عمل الجمعية الطويل على النهاية، برزت محاولات متكررة لإعلان أن الثورة قد أنجزت عملها. فأعلن أدريان دي بور Adrien Duport هذا في أيار. وأعلن لو شابلييه Le Chapelier الزعم نفسه في اقتراح قانون لتقييد حرية النوادي في أيلول. وصادقت الأغلبية في الجمعية الوطنية على قرار يطالب بتحديد موعد لإعلان نهاية الثورة. لم يكن ثمة أحد مهتماً أكثر من بارناف Barnave بأن فرنسا يجب أن تنهض من حالة «الصيرورة» الدائمة إلى ولادة مؤسساتية ما. فقد كان بارناف مقتنعاً، قبل أن يجلس على الأريكة بين لويس وماري أنطوانيت، ويجري محادثة مهذبة ويلعب مع ولي العهد Dauphin، بالحاجة إلى تقوية الملكية والدفاع عن الهيئات المركزية للدولة الفرنسية ضد التهديدات الدائمة بالعصيان الشعبي. في الحقيقة كانت أفكاره في هذه القضايا قريبة جداً من أفكار ميرابو Mirabeau. لكن منذ اقتطاعه جزءاً صغيراً مما صار يعرف الآن رسمياً «البيت الكبير» في الجمعية الوطنية، صنع بارناف تقدمه من خلال

الهجوم غير المباشر على ميرابو في اليسار. وإذ مات خصمه القديم غدا حراً في تبني الكثير من أفكاره التحذيرية. فلم يعد لافايت Lafayette حجر عثرة. حتى قبل فرار الملك كانت ثمة علاقة دافئة واضحة بين الجنرال والأخوين لامث Lameths، وقد عنى حرج لافايت في حزيران أنه كان أكثر سهولة للمساعدة في خطط بارناف لاستخدام القوة، إذا كان ضرورياً، من أجل إنهاء مرحلة العصيان في الثورة.

وقد تولى بارناف، بالتحييد الفعلي لهذين المركزين البديلين للسلطة، قيادة أولئك الذين لديهم مصلحة في جعل الملكية الدستورية قادرة على العمل. كان مدعوماً من هؤلاء الذين كانوا رفاقه المقربين من اليعاقبة القدماء ـ ديبور، لو شابلييه والأخوين لامث ـ والذين هيمنوا الآن على الملكيين Feuillants. فقد تشاركوا جميعاً في الرأي العام أن فرنسا «الجديدة» لن تعيش إذا ما كررت الترويع الواقعي من أقسام باريس، والسجالات غير المقيدة في النوادي والصحافة والأهم من كل ذلك، دمقرطة الانضباط في الجيش والأسطول. في الوقت نفسه، اعتقديا أنه من الضروري حماية الديلة من أي نوع من مكائد الثورة المضادة أو الاضطرابات المسلحة. وقد أقنعتهم موجة الإضرابات وأعمال الشغب العمالية في الربيع بأن موقف تورغو من مشروع تحديث الثورة ـ نظام اقتصادي ليبرالي ـ سيتطلب أيضاً الحماية ضد الحرفيين الثوريين ومؤيديهم في الكوردلييه Cordeliers ودائرة فوشيه Fauchet الاجتماعية.

وقد تم العمل على إستراتيجية بارنافي التعامل مع هذه التحديات بحذر. وإذ تخلص من تهديد النزعة الجمهورية بعد فارين، تفاوض سرياً مع الملكة، التي توقع أن تكون ممتنة بما يكفي لتصغي إلى نصيحته بانتباه. أشار عليها أن تقسم، للأبد وبصدق، على ألا يكون ثمة أي نوع من التقارب مع الثورة المضادة المسلحة، وتضمن أن يوقف أخوها الإمبراطور دعمه للمهاجرين، وتجعل الملك يقنع إخوته بالعودة إلى فرنسا. في مقابل هذا كان مستعداً للعمل على مراجعة الدستور ليعزز الدير الملكي التنفيذي. وخلال آب وأيلول، كان ثمة تبادل نشط للرسائل بين بارناوماري أنطوانيت. فكتبت الملكة: «الدستور نسيج غير عملي من السخافات». وعارضها بارناف قائلاً: «لا، لا، إنه ملكي جداً trés monarchique» ولو حاول الملك والملكة بناء «الثقة وعملا على أن يكونا محبوبين» فحسب، ستنتهي مشكلات فرنسا كلها، و«لن يكون أي أمير أوروبي أكثر ثباتاً على عرشه من ملك فرنسا».

ومع ذلك لم يبرز أيضاً أي شيء راديكالي فعلاً من جهود بارناف كلها في الجمعية

لتقوية السلطة التنفيذية. ولم ينجح في تشكيل محكمة من مجلسين، مع وزراء مختارين من الجمعية، الأمر الذي (اتفق الآن مع ميرابو) سيكون على الأرجح منقذاً من الورطة بين فروع السلطة الدستورية المنفصلة. لكن عمله لم يكن عقيماً بالكامل أيضاً. فوفق الإجراء الجديد، كان بإمكان الملك أن يختار سفراءه الشخصيين وصار رسمياً القائد الأعلى للجيش، وسُمِح لوزرائه بالدفاع عن سياساتهم أمام الجمعية. حتى التعديلات التي بدت أكثر ديمقراطية ـ على سبيل المثال، إلغاء العلامة الفضية (المساوية لأجور خمسين يوماً) كمعيار مالي لأهلية عضوية السلطة التشريعية ـ كانت في الحقيقة تركيزاً للسلطة. بينما اتسع الحق الدستوري بالانتخاب للوظائف المحلية مثل وظيفة قاضي الصلح، غدت الملكية العقارية المعيار للعضوية في المجمع الانتخابي والأهلية كمنديب. وقد تُرجِم هذا في الممارسة في جمهور ناخبين أقل في المستويات ذات الأهمية فعلاً ـ والتي كانت تماماً الإستراتيجية الاجتماعية التي عكست حديد النخبة الثقافية لسبعينيات وثمانينيات القرن الثامن عشر والتي خلقت «الشخصيات الاجتماعية» التي استمرت طويلاً في فرنسا القرن التاسع عشر. وقد عنى ذلك في الواقع أنه في مقاطعة فقيرة نسبياً مثل أفيرون Aveyron على سبيل المثال، ستتجمع السلطة موضوعياً في أيدي مائتي مواطن غريب يحققون معايير الجدارة.

لم يعمل البرنامج دين تحديات. ففي 29 أيلول، اليوم ما قبل الأخير من عمر الجمعية، حاول رينيه لو شابلييه René Le Chapelier، المتحدث باسم اللجنة الدستورية، أن يحث على الإسراع من خلال القانون الذي ستكون له نتائج عميقة على الحياة السياسية في فرنسا. وقد اقترح القانون إضعاف النوادي السياسية بإعادتها إلى وضع الجمعيات الخاصة أو المنظمات المفوضة بـ «توجيه» المواطنين، بالأسلوب الأكثر تدجيناً، إلى محتوى المراسيم التي أقرتها السلطة التشريعية. وسيُفسَّر أي نوع من حركة تقديم العرائض، وأي نوع من المساءلة الجدية لسلوك الحكومة و، الأكثر من هذا كله، أي انتقاد شديد لنواب الجمعية سيفَسَّر أنه تحريض ويُحرَم مرتكبوه من حقوقهم كمواطنين لفترة محددة من الزمن. وللأسباب نفسها، ستُحظَر الاندماجات بين المؤسسات باعتبارها تهديدات تآمرية للمؤسسات المفوضة قانونياً. كان القانون، بكلمات أخرى، سلاحاً حاسماً (كما كان قانون مشابه قدمه ديبور ليلجم الصحافة) في هجوم الملكيين ضد العصيان الشعبي المسلح.

برر لو شابلييه القانون بتحليل بليغ للثورة، ممتدحاً النوادي لأنها «تجمع العقول، وتشكل مراكز الرأي العام» في «زمن العواصف»، لكنه يلح الآن على أن «الثورة قد

انتهت» مثل «المؤسسات العفوية» التي يجب أن تفسح الطريق أمام المبدأ الحاسم لسيادة الشعب التي لا يجوز تحديها، المناطة بممثليها. صرح لو شابلييه: «لقد مضى وقت التدمير، وأقسم الجميع على الدستور، ويدعو الجميع للنظام والأمن العام، ويتمنى الجميع أن تنتهي الثورة: فالآن هذه هي سمات حب الوطن التي لا لبس فيها». وليس غير أولئك «الرجال الفاسدين أو الطموحين» الذين يريدين أن يتلاعبوا بالنوادي لأغراضهم الخاصة ويشنوا حملات التشهير ضد المواطنين الشرفاء الذين قد يعارضون هذا الإجراء.

وقد قوطعت خاتمة خطاب لو شابلييه بصوت مألوف عالي النبرة رنان صدر عن رجل نحيل ذي شعر مجعد نظيف مبودر ونظارات ذات إطار فولاذي. ربما كان تشهير لو شابلييه بمؤيدي النوادي السياسية هو الذي أثار هيجان مكسيميليان روبسبيير Maximilien Robespierre، الذي ألح على أن يُعطى الفرصة للرد، لأن القانون المقترح يتعارض تماماً مع مبادئ الدستور. ولكن من الكلمة الطويلة التي تلت، كان واضحاً أن روبسبيير قد استعد جيداً لهذه المواجهة. وما دامت بلاغته الشخصية أقنعت المندوبين بأن يعلنوا عدم أهليتهم لإعادة الانتخاب إلى السلطة التشريعية، فستكون هذه هي المناسبة الأخيرة للتأثير عليهم، والأمة السياسية من بعدهم، رفضه الشديد أن الثورة قد أُنجزت في الحقيقة إن لم تكن ميتة فعلاً ومدفونة.

كانت تلك هي ذروة حياته السياسية حتى تلك المرحلة. في عام 1789 فقد جاء إلى مجلس الطبقات Estates - General ببذلتين سوداوين، واحدة صوفية، وواحدة مخملية؛ وكان المنديب الخامس للطبقة الثالثة في آراس Arras، وشخصاً غير مهم تماماً. وقد ألقى منذ ذلك الوقت أكثر من مائة وخمسين خطاباً، ستون منها في تسعة أشهر من عام 1791 وحده، وقد أبقى على الأسئلة القاسية في الجمعية والسخرية الصاعقة في الصحافة المحافظة ليغدي القائد البارز لليسار الثوري. وقد فعل هذا بانسجام تام إلى حدٍّ كبير في عالم سياسي تميَّز بالتغيير عقلاً وقلباً. وأثار إيمانه الراسخ الذي جلبه إلى خطاباته بأن أولئك الذين لا يرقى إليهم الشك وحدهم يمكنهم أن يكونوا مسؤولين عن المصلحة العامة، الضحك بين الظرفاء لكن مع مرور الوقت أصبح الضحك غير مريح أكثر فأكثر.

هذه الدروس في الجدية الأخلاقية التي تعلمها من والده المحامي، ومن الإخلاص لمبادئ وحياة جان جاك روسو Jean - Jacques Rousseau ومن الهيام بالتاريخ والخطابة اللاتينية التي أكسبته جوائز سنوية في مدرسة لويس العظيم الثانوية Lycée Louis - le - Grand في باريس بالإضافة إلى لقب «الروماني». وقد أرسل روبسبيير إلى كلية الخطابة

الأكثر شهرة في منحة دراسية، برعاية أسقفه المحلي، قصة نجاح أخرى أيضاً لحكم ذوي الكفاءات الذي تميز به النظام القديم. وشكّلت سنواته هناك شخصية ستكون ملتزمة حصرياً بالسياسة و، علاوة على ذلك، السياسة الأخلاقية التي شدّد عليها روسو: المتطلبات الضرورية لإصلاح الدولة هي مدرسة الفضيلة، القادرة على إحداث تجديد أخلاقي عظيم في الأفراد وفي حياتها الجماعية، وإلا فهي تصادر الحق في الولاء. فقد جعل روبسبير من موكليه أمثلة لمبادئ عامة: ضحايا في صراع مانوي بين الفضيلة والرذيلة، الحرية والاستبداد، في قضايا مبكرة بمحكمة آراس، مدافعاً عن حق السيد فيزري M. Vissery بمانع الصواعق، وفي عام 1788 عن ضابط في الجيش كانت عائلته قد سجنته بموجب مذكرة مختومة. أصبح هذا النوع من النقمة الصالحة الشكل الطبيعي لتعبيره، ليس أقل دراماتيكية عند الكلام، كما كان غالباً، في نبرات التهديد والهديء المتعمد. وقد وجد ذلك جمهوراً مستجيباً في ما وراء الجمعية في جيل كامل من الشباب الذين يحملون آراء شيشرون وكاتو Ciceros and Catos الذين ينتظرون تدشين جمهورية الفضيلة. وتلقى روبسبير في مطلع آب عام 1789 رسالة توقير من أحد هؤلاء المتعصبين الغامضين، أنطوان سان جست Antoine Saint - Just:



الصورة 150، رسم مجهول، روبسبير على المنبر

أنت يا من تدعم البلد المضطرب ضد سيل الطغيان والمكيدة، أنت الذي أعرفك كما أعرف ربي من خلال معجزاتك، أتوجه إليك، سيدي، وأتوسل إليك أن تنضم إليّ في إنقاذ منطقتي الفقيرة. أنا لا أعرفك لكنك رجل عظيم. أنت لست مجرد منديب مقاطعة، بل ممثل الإنسانية والجمهورية.

خلال عامي الجمعية التأسيسية، فعل روبسبيير ما بوسعه لإحياء هذه الموهبة الخطيرة بالتحدث صراحة في أي موضوع يثير اهتمامه. وبقدر ما وضعته آراؤه في الأقلية، أصبح أكثر بلاغة ـ ملحاً على تحرير اليهود والعبيد، وإلغاء عقوبة الإعدام، وتجريد الملك من أي نوع من حق الرفض مهما كان. وخلال أزمة 1791، مع دانتون في إنكلترا وإغلاق الكثير من الصحف الراديكالية، كان ديره حاسماً في تثبيت الثقة وفوق كل شيء في توضيح شرعية الثورة المقاتلة لبقائها على قيد الحياة. وقد أعطى انشقاق الملكيين عن اليعاقبة روبسبيير منتدى غير معارَض لآرائه، وانتهز الفرصة ليلقي اللوم على خصومه بسبب انشقاقهم المستمر، عارفاً أن أكثرية الألف نادي التابعة في الأقاليم لم ترغب بشيء أكثر من جمع شملها.

من الصعب القول إنه كانت لديه حياة خاصة، بما أنها كانت نوعاً من الولاء ذاب فيه الخاص والعام، في ما يتعلق بالوطني الحقيقي، في كينونة واحدة من الفعالية غير الأنانية والاتساق الأخلاقي. لكن ترتيباته البيتية كانت معروفة جيداً ومعلنة بوصفها نموذجاً يُحتذى. فقد أقام من أواسط 1791 مع عائلة دبلاي Duplays في جادة سانت ـ أونور Saint - Honoré. كان دبلاي نجاراً وصانع أثاث لكنه لم يكن كادحاً فقيراً جداً، ما دام بالإضافة إلى بيته امتلك ملكيتين أخريين في باريس واستخدم عدداً كبيراً من العمال المؤقتين. كان، في الواقع، نوعاً من مهني مثقف الذي تمجده إطراءات روسو للبراعة ورسوم غروز Greuze للحياة اليومية المفعمة بالعاطفة. وإذ استقر في غرفة صغيرة مجهزة بطاولة كتابة وكرسي، كان مكسيمليان روبسبيير يخرج كل ليلة ليتناول وجبة بسيطة ويقرأ لفتيات عائلة دبلاي شيئاً من أعمال كورناي Corneille أو روسو Rousseau بينما يقشر البرتقال الذي كان مولعاً به بشدة.

كان بيته الآخر مقر اليعاقبة، حيث شعر بالأمان بين الأصدقاء، بينما لم يشعر به في الجمعية. بعد انشقاق تموز، كان حسه بالاحتشام الأخلاقي أكثر وضوحاً، إلى حد أنه سيدخل بشكل مدروس وغير رسمي، يجلس في نهاية الغرفة المقنطرة، يصالب رجليه وينتظر شيئاً يستوقف اهتمامه. ينبغي أن يذوي الخطباء على المنبر عند رؤية الشعر المبودر والأنف الدقيق الطويل يعبر العتبة.

كان خطاب روبسبيير الذي يدحض لو شابلييه مثالاً نموذجياً للمشهد الذي صنعه لشخصيته. كانت تقنيته المميزة عرضاً للمبادئ العامة بوصفها رواية لحياته الشخصية وموقفه. جذبت هذه الخطابة للأنا النقد أيضاً من الميالين للسخرية لكنها انسجمت على نحوٍ رائع مع سلوك الاعتراف الذي ابتكره روسو. وقد سبرت بدقة العواطف مباشرة أكثر من الكلام المقترح الذي اتسم بشيء من الهديء المدروس والأسلوب الشديد العناية بالتفاصيل. كانت المقاطع، علاوة على ذلك، تشير بشكل ثابت إلى نذور الاستشهاد، والدعوة للموت بدلاً من العار الحي للنزعة النفعية، التي رفعت النبرة الدراماتيكية للعاطفة وجعلت روبسبيير يبدو وكأنه يرتل سطوراً من كورناي Corneille أو راسين Racine. بل اختار من المسرح طريقة التوقف مطولاً لاسيما بعد أسطر معبّرة لتدع المعنى الكامل يصل.

لقد رد بحدة على لو شابلييه، بالإضافة إلى كل المعتدلين، أن ما سعوا إليه يتعارض بشدة مع المبادئ الأكثر أهمية في الدستور: حق الاجتماع بسلام، حق التكلم بحرية في قضايا الشأن العام والكتابة أو النشر للاتصال بمواطنين ذوي ميول فكرية متشابهة. مبعداً جانباً مقاطعة تشابلييه العنيفة ـ «لا يعرف ماكسيمليان روبسبيير كلمة من الدستور» ـ ثم عاد إلى واحدة من عباراته المفضلة، المسجلة لألحان ألفها جان ـ جاك Jean - Jacques: «إماطة اللثام» عن وجوه المنافقين. كيف يتجرأ لو تشابلييه على مناصرة النوادي بادعاء الاعتراف بخدماتها في حين أن غرضه الحقيقي تدميرها ومن أجل ذلك تدمير كل الحريات الدستورية؟ وبالتالي تنتهي الثورة، أليس كذلك؟ «لا أفهم تماماً ماذا عنيت بهذا الاقتراح»، قال روبسبيير، مثيراً الحيرة، مادام كان عليه أن يصدق أن الثورة قد انتهت حقاً يفترض مقدماً الترسيخ المتين للدستور. وحيثما نظر رأى الأعداء، مع أو دين، الاتفاق على التخريب. ثم اقترب من ذروة التصعيد الهائل، مستخدماً عبارة «أرى» مرة وأخرى بينما عاين مشهد الأخطار على الوطن، ليس أقلها من رجال «يقاتلون من أجل الثورة أقل مما هو لأجل هيمنتهم تحت اسم الملك». ثم جاء العرض المعتاد لتحية الاستشهاد: ذهان الشك الوطني في أروع إبداعاته.

لو أجبرت على استخدام نوع آخر من اللغة، وإذا كان عليّ التوقف عن الكلام ضد مشروعات أعداء الوطن؛ وإذا كان عليّ التصفيق لدمار بلدي، حسن إذن وجهوا إليّ الأوامر لأفعل ما ستفعلون؛ دعوني أقتل نفسي قبل موت الحرية.

وفي النهاية، حوّل روبسبيير نفسه إلى منبر روماني عنيد:

أعرف أن صراحتي تتسم بشيء من الفظاظة، لكنها العزاء الوحيد الذي يمكن أن يبقى للمواطنين الشرفاء في الخطر الذي وضع هؤلاء الرجال [تلويحة ازدراء باليد] المصلحة العامة فيه، للحكم عليهم بطريقة قاسية.

داخل المجلس التأسيسي، كانت هناك حرب الجماعات المتملقة، غير أن الملكيين امتلكوا ما يكفي من الأصوات لسن قانونهم، مع أنه لن ينفذ أبداً. فخطاب روبسبيير، في أية حال، ضَمَن له انتصاراً عاماً. وفي اليوم التالي، عندما أنهت الجمعية أخيراً وجودها، حُمِلَ على أكتاف حشد هائل يهتف مع جيروم بيسون Jérome Pétion، بطل الضواحي العمالية faubourgs. وفي رحلة العودة إلى أرتوا Artois أصبح التهليل شيئاً يشبه التأليه، حيث يتجمهر الناس حول عربته أينما ذهب، وتمطر بتلات الورود على شعره المصفف بأناقة. عندما عاد إلى باريس ليؤسس جريدة تواصل تسليط الضوء على آرائه حيث غدا الآن محروماً من المنتدى البرلماني، لم يبدُ عنوانها، **المدافع عن الدستور** La Défenseur de la constitution، يتسم بالمبلغة الحمقاء.

II - صليبيون

غالباً ما نُظِر إلى الجمعية التشريعية التي حلت محل الجمعية التأسيسية بأنها نوع من فترة خلو عرش ثورية، تسم على نحوٍ بائس الوقت بين الملكية الدستورية والرعب الذي ميز سيطرة اليعاقبة. وبالمقارنة مع سابقتها، يعتبَر طاقمها غير هام، ويفتقر تعبيرها ومراسيم أعمالها الوطنية العادية إما صراعات الجمعية التأسيسية الحقيقية أو حمى اللمؤتمر القتالية. ولا شيء يمكن أن يكون أبعد من الحقيقية. يمكن صنع قضية جيدة بأن الجمعية التشريعية كانت الأكثر تأثيراً من كل الجمعيات الثورية في المواهب السياسية والفكرية المحضة. كان خطابها ذو كثافة عملية ما جعل خطابات سابقتها باهتة نسبياً. وكانت الحرب التي قادت إليها فرنسا، بشكل قابل للنقاش، الحدث الوحيد الأكثر أهمية للثورة منذ قرار دعوة مجلس الطبقات Estates - General.

جاءت الجمعية التشريعية إلى باريس منتخبةً من نسبة صغيرة من الناخبين المؤهلين للانتخاب إلى حدٍّ محزن: لم تتجاوز عشرة بالمائة. منذ الانتخابات الأولى إلى مجلس الطبقات، في الحقيقة، غدا قانوناً أنه بقدر ما أصبحت الثورة أكثر راديكالية، ضاقت قاعدة الناخبين التي ترتكز عليها، فقد انتخب المؤتمر بعدد أصوات أقل. حيث أولئك السياسيون في المقاطعات الذين صنعوا سمعة من معارضة النبلاء أصحاب المناصب

الذين كانوا لا يزالون يهيمنون على البلديات والوظائف الإدارية هم من قدم عضوية السلطة التشريعية بشكل أساسي. وفي الجمعية التأسيسية، بالطبع، شيّع النظام الجديد كل الأرستقراطيين ورجال الدين الذين تعلقوا بضراوة بمراتبهم كمنديبين في مجلس الطبقات. وقد ضمت الجمعية التأسيسية، مع ذلك، عدداً من الأرستقراطيين الثوريين مثل كونديرسيه Condorcet، والفارس البروتستانتي جاكورت Jaucourt، والماركيز دي روفر Marquis de Rovère والكونت دي كِرسان Comte de Kersaint بالإضافة إلى الأساقفة الدستوريين مثل لاموريت Lamourette أسقف ليون Lyon وفوشيه Fauchet أسقف بايو Bayeux.

وفي يتعلق بالبقية، لم يكن ثمة شيء أكثر لتمييز المشرعين الجدد عن أسلافهم، وقد بذل المؤرخون جهوداً عقيمة في محاولة لمجرد تحديد الطبقة التي كان ينتمي إليها البرجوازيون. لماذا ذلك ذو قيمة، كان هناك إلى حد ما عدد من التجار والصناعيين والماليين في السلطة التشريعية أقل منهم في الجمعية التأسيسية. لكن من غير المنطقي أن تُشرِّح الجمعية بهدف التوزيع المهني، لاسيما عندما تخفي مجموعات مثل «المحامين» (الذين هيمنوا، اسمياً، ثانية على الجمعية) فروقاً هائلة في الثروة والوضع. وما ربط الجمعية بعضها ببعض كان نوعاً من بيئة اجتماعية ثقافية، وهكذا استطاع مهندس عسكري مثل لازار كارنو Lazar Carnot أن يتحدث بسهولة في شؤون تقنية مع علماء رياضيات مثل مونج Monge وكيميائيين مثل غيتون مورفو Guyton - Morveau الذي كتب بشكل واسع عن استخدام الجيش للمناطيد. وكان ثمة أنواع أخرى من المثقفين واضحة بالمثل: محكم الذائقة الوطنية ومصمم البانتيون Panthéon، كاترمر دي كوينسي Quatremère de Quincy؛ وديزلكس Dusaulx صدوق بالوي الوطني من قسم النقش في اللوفر Louvre؛ وفرانسوا دي نوتشاتو François de Neufchâteau، الذي ترجم روايات ريتشاردسون Richardson العاطفية الأكثر سلاسة. كان النائبان من ستراسبورغ مثقفين وهما أستاذ الرياضيات أربوغاست Arbogast والمؤرخ كوك Koch وكانا، بشكل متوَقَّع، جزءاً من الحلقة الفكرية حول ديتريتش Dietrich.

سياسياً، أعلن نحو نصف الجمعية ديرتها في نهاية تشرين الثاني. انضم 136 عضواً إلى اليعاقبة، مقابل 264 عضواً إلى الملكيين. ومع أن ذلك أعطى بارناف Barnave إمكانية دعم نوع من عملية احتواء كان قد بدأها وأصدقاؤه في الربيع والصيف، فقد كانت أكثرية حاسمة دين أي شك. على الرغم من أنها تركت 400 نائب منعزل غير ملتزمين بأي من المجموعتين. حيث فشل الملكيون بوضوح في قيادة الموالين في الأشهر اللاحقة الذي

يعود في جزء كبير منه إلى التأثير الاستثنائي الذي مارسته مجموعة صغيرة جداً اجتمعت حول الصحفي جاك بيير بريسو Jacques - Pierre Brissot.



صورة 151، للفنان غابرييل، صورة، بريسو

كانت صحيفة بريسو الفرنسي الوطني *Patriote Francais* واحدة من الصحف الأكثر نجاحاً في باريس (مع أنه من الصعب أن تعرف سبب قراءة طريقة معالجتها غير المشوقة إلى حدٍّ ما)، كان كاتباً مأجوراً وجاسوساً للشرطة في ثمانينيات القرن الثامن عشر، وبالتالي صار نوعاً من خبير في معالجة الرأي العام ببراعة. كان بريسو ابن صانع حلويات في تشارتر (حيث عرف جيروم بيسيون [Jérome Pétion] منذ طفولته)، بخلاف روبسبيير، يعرف الفقر المدقع، وكان قد سُجن من أجل دين في لندن. كان يعيش الكفاف من كتابته، وأصبح نوعاً من محترف عمل «اللوبي» من أجل قضايا ليبرالية مثل حرية العبيد السود في الأنديز الغربية، وأصبح كاتب كراريس بطريقته يقع في مشكلات ويخرج منها في بلجيكا وسويسرا وبوسطن، حيث، في عام 1788، ظن أنه اكتشف أخيراً «البساطة والطيبة والنبل الذي يمتلكه هؤلاء الرجال الذين يحققون حريتهم». وبعد ثلاث سنوات، أصبح جمهورياً ملتزماً، وهدفه المعلن أن يعارض اعتدال بارناف عند كل منعطف بالضغط على قضايا الجمعية التي تجبر الملك على إظهار ألوانه الحقيقية بوصفه عدياً للوطن. سيهمش الملكية

ويعلها غير عملية. وبينما تابع هذه الإستراتيجية بعناد ونجاح، لم يكن بريسو بالتأكيد أكثر ميكيافلية من بارناف، الذي كان لا يزال يرسل نصائحه سراً للملكة عن الرد الأفضل على هجوم الجمهوريين.

لم يكن بريسو مقنعاً كفاية، لو تُرِك لمكائده الخاصة لاتخاذ التدابير الراديكالية المصممة لإرباك الوزراء الملكيين، الذين عندما ظهروا أمام السلطة التشريعية جلسوا على كراسٍ صغيرة أما طاولة الرئيس بطريقة تثير السخرية. وما دعمه، في كل حال، هو مجموعة خطباء أمثال الذين لم يُسمَع أنهم اجتمعوا في غرفة واحدة قط وبالتأكيد ليس في فرنسا. وقد ذهبوا إلى النسيان لعددٍ من الأسباب، ليست جيدة جميعاً. فقد اعتبروا أولاً ضحايا السيرة متعددة المجلدات للشاعر السياسي في القرن التاسع عشر لامارتين، **تاريخ الجيرونديين** الذي قدمهم بشكل مثالي. فقد مثَّل المؤرخون المعادون لليعاقبة مقتلهم على المقصلة بأيدي الإرهاب بشكل ثابت كما لو أنه قدر الجمهوريين الليبراليين المحكوم عليهم بالموت على أيدي عديمي الضمير. لكن حرمان الجيرونديين (أو«أنصار بريسو»، كما عرفوا في البداية) من عدم ضميرهم الخاص يعني عملياً أن الإساءة إليهم، لأن ذلك يسلبهم أيضاً الطابع السياسي المعقد الذي شاركوا فيه كثيراً. وعندما انتقل تركيز التاريخ الثوري من التحليل السياسي إلى التحليل الاجتماعي، بدا أن الجيرونديين لا معنى لهم ثانية، كونهم لا يختلفون عن اليعاقبة اجتماعياً. وقد أحبطوا أيضاً محللي «الأحزاب» في الثورة، باعتبارهم ليسوا أكثر من مجموعة مفككة من الأصدقاء الذين كانوا يتناولون عشاءهم ويشربون معاً أحياناً عند السيدة ديدون Mme Dodun في ساحة الفاندوم Vendom، وعلى نحوٍ أكثر متعة عند السيدة رولاند Mme Roland في فندق بريتانيك. وفي عام 1792، في أية حال، كانت مجموعة عادية تتناول الطعام معاً أو مجموعة أصدقاء متشابهي التفكير، ثلاثة منهم من المنطقة نفسها في جنوب غرب فرنسا ـ ومن هنا جاءت تسمية الجيروندي ـ مجموعة سياسية أكثر تأثيراً من أي نوع من «حزب» ـ بدائي منظم رسمياً. علاوة على ذلك، ميَّز مكسيمِن إزنار Isnard (اختير من مقاطعة برفنسال في فار Var)، وبيير فيرنيو Vergniaud، ومارغريت إيلي غاديه Guadet وأرمان جينسن أن كلاً منهم يمتلك قوة بلاغية استثنائية. وبينما عمل روبسبيير وحده بشكل مدروس، مطوراً، مثل جان جاك، عزلة النبي القاسية، لعب الجيرونديون ضد بعضهم مثل أعضاء رباعي وتري، فإيقاع وسرعة بلاغتهم الفائقة ترتفع وتنخفض، تتضخم وتتلاشى بتأثير بعضهم على بعض.

ووعلى نحوٍ أكثر أهمية، كانوا يتعمدين التأثير على الجمهور في المانيج Manége، مدرسة ركوب الخيل الملكية الرسمية بالقرب من التويلِريه Tuileries مقر الجمعية الوطنية الآن، على مقاعد المندوبين والصالات العامة التي كانت تزدحم لسماع المناظرات الهامة.

تصعب استعادة موسيقى تلك الخطبة، ما دام حتى التاريخ الأكثر تخيلاً قد فقد صوتها، على الرغم من أن قراءتها على الأوراق ذات اللون الأسمر في **أرشيفات البرلمانيين** قد تكون تجربة مؤثرة. غير أن كل يجب الاعتراف به هو حقيقة بدهية معروفة لكل مؤرخي الخطابة الثورية في منعطف القرن الثامن عشر، ومن بينهم ألفونس أولار Alphonse Aulard، أن التأثير التراكمي لخطاباتهم كان حاسماً لمسار الثورة. وأكثر من أي شيء آخر - أكثر من التظاهر من أجل الطعام أو ارتفاع الأسعار أو دعاية اليعاقبة - حولوا مندبيي المجلس التشريعي من سياسيين إلى صليبيين. ومع حلول وقت إعلان تلك الحرب على «ملك هنغاريا وبوهيميا» في نيسان 1792، كانت أكثرية كبيرة في الجمعية مقتنعة أن في الرهان ما سموه هم أنفسهم «صليبيتهم» ليس مستقبل فرنسا وحسب بل البشرية جمعاء. والمقدمة المنطقية الأولى لسياسة بارنافي الاستقرار - حفظ السلام - تكمن في الدمار.

وقبل ذلك تماماً، في أية حال، ينبغي أن يكون واضحاً أن خطة بارناو«العضوين الآخرين في الحكومة الثلاثية Triumvirs، دبورت Duport وألكساندر لامث Alexadre Lameth، كانت في مشكلة حقيقية. مع أن مندبيي المجلس التشريعي العاديين لم يكونوا يعاقبة بالتأكيد، فقد أظهروا نوعاً من الوحشة المريبة نحو الملكية التي جعلت، منذ البداية تماماً، وضع الملك وحكومته صعباً جداً. بملازمة تاريخ الثورة كله، اعتبرت قضايا البروتوكول ذات أهمية رمزية كبيرة، وهكذا كانت المناسبة الأولى التي جاء فيها لويس إلى الجمعية نوعاً من خلعه عن العرش بالتلميحات. قُدِّمت مطالب أنه يجب ألا يتلقى أي مقعد خاص - ولا عرشاً بالتأكيد. بعد إهانات غير مبررة وتهديدات من التولريه بألا يأتي على الإطلاق، قُدِّم للملك في السادس من تشرين الأول كرسي بسيط، مطلي بلون زهرة الزنبق، وضع بوضوح إلى جانب رئيس الجمعية. عندما وصل، وجد المندوبين واقفين و، لخوفه، عندما بدأ بالكلام، جلسوا جميعاً بفظاظة مدروسة ووضعوا قبعاتهم، محفزين الملك على التصرف بالمثل. وإذ رأت ماري أنطوانيت زوجها، الذي مُسِح حاجبه بزيت كلوفيس المقدس في ريمز Reims، جالساً يقرأ للمندبيين مثل كاتب بالعدل مبجل صالح، لم يخدم ذلك إلا بشحذ شعورها بالخزي والإهانة.

ومع أنها ردت بلطف وتهذيب على رسائل بارنا، لم تكن لدى الملكة نية الالتفات إلى وصية تلك الرسائل بأخذ الدستور على محمل الجد. عندما أكد لها بارناأن السلام السياسي قريب المنال إذا ما أبدت تأييدها الصادق للوضع الراهن، ليس عبثاً سألته ماري أنطوانيت ما القوة المتوفرة للملكية في حال لم تكن مثل هذه الظروف المثالية سائدة. هو افترض الأفضل؛ وهي افترضت الأسوأ. وبدا أن سيناريو الملكة كان أكثر واقعية عندما، روّج أنصار بريسو ـ الذين سرعان ما هيمنوا على اللجان الهامة في الجمعية ـ تشريعاً عدوانياً مصمماً لإجبار الملكية على جعل نفسها غير شعبية من خلال ممارسة حق النقض.

كان ثمة مسألتان هامتان جداً وأعلن أنصار بريسو أنهما قد تكون لهما أهمية وطنية واضحة. اهتمت الأولى بمقاومة القساوسة العنيدين، الذين لم يؤديا يمين الولاء المطلوب بموجب الدستور المدني. وقد حاول بارناأن يخفف الأحكام العقابية في قانون المجلس التأسيسي مدركاً الإمكانية التمزيقية التراجيدية للانقسام الديني الذي أصبح فيما بعد أكثر مرارة في مناطق كبيرة من فرنسا. فقد جعل المجلس التشريعي سياسته الدينية أكثر صرامة في رد على الاضطراب المستمر في جنوب وجنوب شرق فرنسا، المناطق التي كانت في ذلك الحين في حالة حرب أهلية فعلية، وعلى إنشاء الكاثوليكيين الملكيين معسكرات مسلحة ديرية. كان ينبغي قطع رواتب القساوسة الذين لم يؤديا القسم على الفور؛ ويجب أن يُسمَح لرجال الدين الشرعيين بالزواج؛ وفي 29 تشرين الثاني يجب إعطاء أولئك الذين ظلوا يتحدون قوانين الأمة ثمانية أيام فحسب ليذعنوا تحت طائلة إعلانهم متآمرين ضد الوطن. حتى روبسبيير ارتاع عند هذا الإجراء، مدركاً أنه سيجعل من الصعب تجنب الحرب المقدسة الأكثر عناداً. وأعلن في صحيفته أن «الوقت»، بعد كل شيء، مطلوب لنضج الناس» قبل تمكنهم من مواجهة مشهد الكهنة المتزوجين باتزان. لكن مكسيمن إزنارد من مقاطعة فار، التي تخوض الحرب، هو الذي وضع النبرة التحقيقية للجلسة بالإعلان أن «كل ركن في فرنسا الآن ملوث بجرائم هذه الطبقة... لأنه عندما يكف [كاهن] عن أن يكون فاضلاً يغدي الرجل الأكثر شراً». وأصر على أن معاقبة مثل هؤلاء الكهنة، لا تكون باضطهادهم، حيث يمكن للمرء أن يضطهد القديسين التقاة والشهداء، حيث أن «معظم المتآمرين والمنافقين الذين يبشرون بالدين يفعلون ذلك لأنهم فقديا ثرواتهم. ولتطهير هذه الطبقة من الرجال في الحال ينبغي تطبيق قانون عدالة عظيم والانتقام للإنسانية المنتهكة».

لا حاجة للقول، إنه لم يكن بمقدير الملك إقرار هذا التجريم للكاثوليكيين الموالين.

وفي أيلول، وافق بمضض على «إعادة توحيد» (التي تقرأ «إلحاق») مجمع أفينون Avignon البابوي بفرنسا. وقد قاد ذلك إلى حرب قصيرة مهلكة بلغت الذروة في مذبحة النبلاء والأرستقراطيين المعتدلين في سجن أفينون قامت بها جماعة مسلحة بقيادة جوردان «قاطع الرؤوس» "Coupe - tête" Jourdan. وكانت بالمثل مدن أخرى مثل آرليس Arles في أيدي قوى كاثوليكية ملكية حاقدة حثت الناس على أن يبصقوا على الدستور ويشتموا بزات الحرس الوطني. كان لويس ينفر بشدة من فعل أي شيء يزيد مرارة هذه الحالة التراجيدية، حتى لو عنى هذا لعباً لصالح أعدائه. كان لدى بارنا، الذي بذل أقصى ما يستطيع ليدير القرارات الصعبة، رجال الدين العنيدين في باريس الذين قدموا عريضة إلى الملك على أسس الحماية الدستورية لحرية الضمير. حالما حدث هذا، طُبّق الفيتو الملكي كما ينبغي، وأطلق المظاهرات العنيفة في باريس والمراكز الأخرى المضادة للكهنوتية مثل ليون ومرسيليا.

وكانت المسألة الثانية، لكن ليس بشكل منفصل، التي ستغرق فيها إستراتيجية الملكيين هي مسألة المهاجرين. فقد تسارعت حركة الهجرة بشكل ملحوظ منذ عودة الملك من فارنس. وقد اشتكى فيريير Ferrières لزوجته أن الأمر أصبح «وباءً» في الجيش؛ حيث فقدت أفواج ثلث مجموعها الكلي من الضباط بسبب الهجرة. ولأسباب واضحة كان عدد المهاجرين من النبلاء والكهنة ملحوظاً عند الحدود ـ في الألزاس Alsac وعلى طول الحدود الشرقية من فوج Vosges إلى أردين Ardennes؛ وفي البيرينيه Pyrenees، وروسيون Roussillon وبروفانس Provence في الجنوب الغربي والشرق؛ وفي بريتاني Brittany في الغرب. غير أن هذه المناطق هي التي كان فيها القلق من الغزو الأجنبي أكثر حدة وحيث كان ايضاً معظم النواب إلى الجمعية مقاتلين، يرون أنفسهم مواطنين محاصرين في بحر من التآمر والمكيدة. وقد حُمِّل المهاجرون مسؤولية المضاربة بالعملة التي كانت تخفض ورقة العملة التي أصدرتها الثورة وتثير التضخم ـ النسخة الأخيرة من «مؤامرة المجاعة» الدائمة طوال السنة. من قواعدهم أولاً في تورين Turin، ثم في كوبلنز Coblenz، اتهموا بالتخطيط لغزو فرنسا على أعقاب جيوش أنظمة الحكم الاستبدادية التي ستقتل المواطنين الجيدين ونساءهم وأطفالهم بالسيف وتدمر مدنهم. وكان إعلان بيلنتز Declaration of Pillnitz، الذي، كما سنرى، في الواقع، وثيقة حذرة جداً أصدرها أخو الملكة الإمبراطور لوبولد Emperor Leopold في آب، انتشرت في فرنسا كتهديد مباشر لأمن وسيادة الأمة.

وفي الحادي والثلاثين من تشرين الأول، أعلنت الجمعية الوطنية أن المهاجرين

الذين، في الأول من كانون الثاني عام 1792، لن يتفرقوا مما اعتبر معسكرات مسلحة سيعلن أنهم مذنبون بالتآمر، ويُحكَم عليهم بعقوبة الموت ومصادرة ممتلكاتهم. وقد أتبعَ هذا التشريع الصارم في التاسع من تشرين الثاني باستدعاء شقيق الملك الكونت دي بروفنس Comte de Provence للعودة خلال شهرين تحت طائلة حرمانه من خلافة العرش. وأخيراً، في التاسع والعشرين من تشرين الثاني، اليوم نفسه الذي أُقِر فيه التشريع الديني الأكثر صرامة،أُقر قانون آخر يدعو لعودة كل الأمراء الملكيين ويجعل واضحاً أن مصادرة ملكية المهاجر ستشمل تلك التي يملكها أعضاء العائلة حتى لو ظلوا في فرنسا. وإذ جوبه بهذا الهجوم الضاري الذيلم يؤثر على المبادئ التي يؤمن بها الملك وحسب بل على قدر عائلة لويس نفسها، لم ينصح بارنابل ألحَّ على النقض. وكتب، أن تفعل أي شيء آخر، سيكون مساوياً لقبول العجز الكامل، وسيهين الملك في عيون أوروبا. لكن الفيتو ينبغي أن يُرفَق برسالة تعتمد على مبادرته الداعية إلى عودة الأمراء والتي تصرح أنه تحت أية ظروف لن يسمح بأي نوع من الغزو المسلح على أرض فرنسا لصالح المهاجرين.

كانت هذه النصيحة تالية للرسالة، حتى أن لويس فاجأ الجمعية بالظهور شخصياً في 14 كانون الأول ليعلن نقمته الوطنية الشخصية على إمكانية أي نوع من التدخل العسكري من طرف ملوك أوروبا. بينما تفاجأ أنصار بريسو (كما حسب بارنابحرارة حماسته، كان للويس أسبابه الخاصة ليبدو مثل هذا التصميم. فقد توصل الملك، بتوجيه الوزير الوحيد الصادق بولائه، الحاكم السابق، برتران دي ملفل Bertrand de Moleville، إلى تقدير أن سياسة حرب قد تكون فعلياً في مصلحته. ففي مأزقه، لم يكن لديه شيء يخسره (أو هكذا تخيل). وإذا سارت حرب كهذه جيداً، من المؤكد أنها ستكون وسيلة لتركيز القوة في يديه كقائد أعلى للجيش وقد تعطيه القوة العسكرية التي يحتاجها ليستعيد سلطته في الوطن. وإذا سارت الأمور بشكل سيء، يمكن لفرنسا أن تتوقع التدخل الأجنبي الذي، في كل الاحتمالات، سيعيده أيضاً للعرش. وطبعاً اقتضى هذا ضمناً تخليه عن خطة الملكيين في السلام، وتوجد مؤشرات كثيرة على أن هذه كانت نيته فعلاً في كانون الأول عام 1791، وقد صفقت الملكة كثيراً وأخته، السيدة إليزابيث، أكثر منها. لقد كرهت الملكة سياسة التسوية التي نصح بها الملكيون، والآن تلك السياسة على وشك الانهيار كتبت رسالة مضحكة لِـ أكسل فرسن Axel Fersen: «أعتقد أننا على وشك إعلان الحرب على الناخبين [في ماينز Mainz وترير Trier]. الحمقى! لا يمكنهم أن يروا أن هذا سيخدمنا جيداً، لأننا... إذا بدأنا بها، ستغدي القوى كلها مترابطة».

في 7 كانون الأول، عيَّن الملك الكونت ناربون لارا Comte de Narbonne - Lara

في وزارة الحرب. كان بارناقد ألح على التعيين لبعض الوقت مفترضاً أن ناربون سيكون ملكياً مطيعاً في المنصب. لكن ما إن عُيِّن في منصبه حتى أدرك الوزير الجديد، بدهائه المعتاد، المغزى الحقيقي لسياسة البلاط. وبدلاً من الالتزام بخط السلام، بدأ الإعداد للحرب بنشاط. كانت، بموافقة عامة، حملة محديدة ضد الأمير- الأسقف الألماني القاصر في منطقة ترير، التي على أراضيها في غوبلنز أقام أرتوا وكوندي بلاطهما. أعاق جيش صغير من المهاجرين ـ ليس أكثر من أربع آلاف ـ حملة جدية عليه. لكنه كان كبيراً ما يكفي ليعمل كشرارة حرب فيما لو كانت المسألة ضاغطة. طلب ناربون إعانة مالية خاصة من المجلس التشريعي قدرها عشرون مليون ليفر (بالعملة المعدنية، وليس بعملة الثورة) لإنفاقها على الإعدادات العسكرية. وفي نهاية السنة أسس النموذج الأصلي لوزير الحربية الشعبي بالذهاب شخصياً إلى الحدود ليعاين التحصينات والعتاد الحربي ويؤدي التحية الوطنية العسكرية في المعسكرات المسلحة.

إذا بدا هذا مثل إدارة مسرح مستعارة من كتاب لافايت التوجيهي، لن يكون ذلك مصادفة. لم يستعِد الجنرال مصداقيته أبداً بشكل فعلي بعد هروب الملك إلى فارين وأُلحق به العار في انتخابات بلدية باريس في تشرين الأول، عندما هزمه جيروم بيسون Jérôme Pétion هزيمة مدبية. فانكفأ إلى مزرعته في أوفيرن Auvergne وأخذ يضغط بفعالية من أجل قيادة عسكرية تعيد له سمعته. وقد بدت حرب وطنية بمدى محديد ضد ناخب ترير Elector Trier شيئاً مؤكداً، وكان ناربون مستعداً للتفضل عليه. ولم يتبقَّ إلا تأمين الحياد البريطاني في حال الأعمال العدائية، وقد أُرسِل تاليران Talleyrand إلى لندن في أواسط كانون الثاني في مهمة غير رسمية ليسعى إلى مثل هذا التعهد.

كان لويس دي ناربون وتاليران صدوقين مقربين لبعض الوقت ولم تكن حرارة صداقتهم في الأقل معرضة للخطر بواقع أن تاليران قد انشغل عن ناربون بحب ابنة نيكر الرائعة جيرمين دي ستايل Germaine de Staël. كانت السيدة ستايل غازٍ غير عادي لـِ تاليران ـ الفصيح، المتدفق العواطف، لكنه أحياناً قابل للسخرية التي تباري سخريته بالذات. جسدياً، كانت امرأة نحيلة مثيرة تهتم بلبس القبعات الضيقة والثياب شبه الشرقية. وقد تشاطرا متعة ذكائهما المَرِح لبعض الوقت وطبيعة جرمين المحبة الحقيقية جعلتهما عاشقين سعيدين، غير أن علاقتهما كانت أعمق وأطول أمداً كصدوقين. ولا يبدو أن هناك خطة رومانسية في تزكية ناربون لـ تاليران لمهمة لندن، لم يكن أكثر من تصرف ودي وتخمين لاذع بأن القس السابق أكثر ملاءمة للدبلوماسية منه لحكومة الأساقفة.

المهمة الأولى في ما كان يجب أن يغدي المهمة الدبلوماسية الأكثر إثارة في العصر كانت أيضاً مهمة تاليران الأسهل، لأن إدارة وليم بيت William Pitt كانت قد قررت أنه لن يكون في مصلحة بريطانيا أن تتورط في الصراع الأوروبي. مع ذلك، لم يمنع هذا أن يخضع تاليران للقوة المدمرة الكاملة للغطرسة البريطانية، التي قادت كثيرين لأن يديروا ظهورهم للأسقف الثوري الوغد ونصير أفكار فولتير الرديء السمعة. ومثل ميرابو Mirabeau، كان تاليران مقتنعاً منذ زمن طويل بأن التفاهم الأنكلو ـ فرنسي هو شرط البقاء الفرنسي، لكن حماسه للمشروع أختُبِر على نحو موجع بنفور المجتمع البريطاني الراقي الشديد منه. ولا يزال الأكثر خزياً، أعتُقِل صدوقه العسكري بيرون Biron (دوق دي لاوزون Duc de Lauzun فيما مضى) خلال محاولة شراء أحصنة للجيش ويجب إطلاق سراحه. وأخيراً قابل غرينفيل وبيت أيضاً تاليران، قابله الأخير في نهاية كانون الثاني عام 1792 وكانت مقابلة متجهمة حيث فشلت جهود تاليران بتلطيف النبرة بالتلميح إلى لقاء عرضي حدث قبل عشر سنوات في ريمز في إثارة الدفء في هذا اللقاء الذي اتسم بعدم الود. ولأن تاليران لم يكن مفوضاً بطريقة لائقة لم يستطع توقع شيء في طريقة العمل، أو أي شيء آخر يتعلق بذلك الأمر، وقد كان هذا كل شيء من حكومة جلالته.

لم تكن القضية في الأشهر الأُولى من عام 1792 ضاغطة في أية حالة لأنه، لفترة من الوقت، تراجع تهديد الحرب مؤقتاً. وكان هذا بسبب الموقف الحذر للإمبراطور ليوبولد Leopold أكثر من أي انعطاف مفاجئ نحو السلام على صعيد السياسة الفرنسية.

إذا كان تطلع فريق الحرب في كل من البلاط والجمعية التشريعية إلى خصم مساعد بميله إلى القتال فلم يكن عملهم هو الأسوأ من عمل الإمبراطور. لقد ورث أصغر أبناء ماريا تيريزا Maria Theresa الموهوبين من أخيه جوزيف إمبراطورية في حال عصيان مسلح. كانت كل المقاطعات، من هولندا إلى هنغاريا، في ثورة تامة ضد السياسيات الاستبدادية والمعادية للأرستقراطية جدياً، بدأها جوزيف الثاني Joseph II في عقد استثنائي من حكمه. فقد أثار وهو يحتضر العديد من الإصلاحات المزعجة مثل ضريبة الأرض، غير أن ليوبولد كان بحاجة إلى صفات لباقة وذكاء عملي استثنائية ليرى إمبراطورية هابسبرغ Habsburg Empire عبر العاصفة. ومع ذلك، كانت مشكلات سياسته الخارجية الرئيسية في الشرق، ليس في الغرب: في بولندا، حيث كانت روسيا وبروسيا تشحذان سكاكينهما للمزيد من تقسيم المملكة سيئة الحظ، وفي الشرق Levant، حيث كانت تدير حرب فاشلة مع تركيا تميل إلى الركود.

لذلك الأمر، كانت أراء ليوبولد عن العالم في جوانب عديدة أقرب لآراء كوندورسيه Condorcet أكثر منها لآراء آرتوا Artois، المهاجر الذي كان الأكثر عدائية في تأييده لحرب استعادة. ومثل دوق توسكاني Tuscany كان ليوبولد نموذجاً للحاكم المطلق المستنير، حيث ألغى التعذيب وعقوبة الإعدام وبدأ بتنظيم قانوني على مبادئ أوصى بها المصلح الميلاني Milanèse الجزائي العظيم سيزار بيكاريا Cesare Beccaria. ولم يكن بحاجة إلى أية دروس من الفرنسيين عن تكاليف خلق وفرص ديلة حديثة.

ولم يستطع في الوقت نفسه أيضاً تجاهل ورطة أخته وصهره. لم يرَ ماري أنطوانيت منذ خمسة وعشرين عاماً وفي أية حال كان يأخذ دائماً فكرة أكثر غموضاً حتى لعدم فعاليتها أكثر من جوزيف. لكنه منذ أيام تشرين الأول عام 1789 المحبطة اكتشف أيضاً أن الملكة وعائلتها قد يتعرضون، في أية لحظة، لخطر جسدي. ومن جهة أخرى، فكر أن أي عمل عسكري قد يفاقم ذلك الخطر. لذلك بقي متنبهاً بحذر لمدة عامين، يحاول إراحة وتهدئة أخته من خلال السفير مرسي دارجنتو Mercy d'Argenteau ويصم أذنيه عن إلحاح آرتوا المتكرر بأن تتعهد الإمبراطورية حملة ثورة مضادة. ولم يفعل شيئاً إلا عندما أُعطي المعلومات الخاطئة بأن الفرار الملكي من باريس نجح بالفعل وأن العائلة لن يطالها الأذى كتب متنفساً الصعداء للملكة: «كل ما أملكه لك، الأموال والقوات وكل شيء».

وعندما أصبح جلياً، بمعزل عن استعادة الملك والملكة لحريتهم، أن موقعهم غدا ضعيفاً أكثر من أي وقت مضى، وأن الصحافة الباريسية وجهت اللوم إلى «اللجنة نمساوية Austrain Commitee» بسبب الهرب، استقر موقف ليوبولد على الحذر مرة ثانية. لكنه الآن كان اهتماماً فعلياً، أكثر منه انفعالياً، يسترشد بمبدأ أن واجب سلطات أوروبا أن تمنع فرنسا عن أي شيء قد يعرض الملكية للخطر ويقود إلى حرب دموية يتعذر تجنبها. كانت هذه غاية رسالة باديا Padua التي وزّعت على نطاق واسع في تموز والتقارب، لاحقاً في الشهر، مع عدي هابسبورغ التقليدي، هوهنزولرن بروسيا Hohenzollern Prussia. عندما قابل ليوبولد الملك فريدريك وليام Frederick William في منتجع بيلنتز Pillnitz في ساكسوني Saxony في أواخر آب، انضم إليهما آرتوا، الذي وصل دين دعوة. لكن بقدر ما كان التصريح المشترك الذي صدر تعبيراً عن مقاومة الملكَين للنداءات من أجل حرب تدخل كما هو تعبير عن اهتمامهما بسلامة العائلة الملكية الشخصية.

بيّن نص إعلان بيلنيتز Pillnitz Declaration أن مصير الملكية الفرنسية كان «اهتماماً مشتركاً» للقوى وحثَّ على استعادة حريتها الكاملة. كان الإعلان ينطوي على فكرة أنه إذا

لم يُصغَ إلى التحذيرات ضد إيذاء الملك والملكة، كان تنسيق عمل مشترك محتملاً. فالمقصود بالبيان كان وقائياً أكثر منه عدائياً وقد أشير إلى ذلك بوضوح من خلال تأكيد ليوبولد على التوافق الجماعي الذي لا غنى عنه لكل القوى قبل أي فعل قد يكون متوقعاً. وبما أنه كان معروفاً في ذلك الوقت أنه لا شك في معارضة بريطانيا لأية خطة كهذه، أمكن للإعلان، في الوقت نفسه، أن يبدو راسخاً باحترام، دون تعهد النمسا بأي شيء على الإطلاق. ودون النمسا، كان من غير المحتمل أن تتصرف بروسيا بمفردها. وتشير كل الأدلة إلى أن النبرة الميالة للقتال في البيان كانت تعني مساعدة الملكيين داخل فرنسا على تثبيت موقع الملكية واستخدام التهديد بحرب أوروبية ضد الجمهوريين. تأكد هذا بحقيقة أن ليوبولد ومستشاره كونتز Kaunitz الذي دخل في العقد التاسع من عمره كانا مستعدين للتسوية الدستورية كما رتبها بارناإذا كان ثمة فرصة للنجاح. وقد كتب كاونتز، إذا كانت قابلة للتطبيق، سيكون «فعل حماقة رهيب» تعريضها للخطر بمجازفة على طول الحدود اقترحها المهاجرون. وإذا لم تكن قابلة للتطبيق، كان الأفضل أن ينكفئ على نفسه بدلاً من رؤيته مهدداً بخطر يد المبهمة «اللجنة النمساوية» الغامضة.

في عقلانيته الماكرة، كان هذه قطعة نموذجية في دبلوماسية القرن الثامن عشر (أو، بالنسبة لذلك الأمر، غير محددة بزمن). لكنه من التروي تماماً فعل شيء آخر غير ما بدا لنقل ضعوا إعلان بيلنيتز في الطرف المقابل بالتعبير الاستطرادي من عالم الوطنية الثورية. وفي حين استخدمت اللغة الدبلوماسية اعتيادياً منذ عهد الرسُل الحيلة والفروق المفترضة مسبقاً بين النوايا المزعومة والفعلية التي سيقرؤها أولئك الذين توجه رسالتها إليهم، كانت لغة المواطنين معنية بأن تكون صادقة وشفافة ومباشرة وغير وفاقية. ومقابل القانون الأخلاقي الأكثر سمواً للعزم الذاتي الذي تعتنقه الثورة، حتى لغة المعاهدات بين الأمراء لا تملك موقفاً. كيف أمكن للبابا المطالبة بأن يكون ملك أفينيون Avignon، أو مطالبة بعض أمراء الإمبراطورية الألمان بحقوق الملكية في الألزاس Alsace، عندما لم يوافق مواطنو تلك الأمكنة على تحويل ملكية منطقتهم على الإطلاق؟ ومع أخذ هذه الأنواع من المعايير الأخلاقية الرفيعة بالاعتبار، لم يكن ثمة شيء أسهل من اعتبار إعلان بيلنيتز إهانة مباشرة لسيادة الشعب والمرحلة الأولى من حرب الثورة المضادة. «مؤامرة كبيرة ليس ضد حرية فرنسا وحسب بل ضد كل الجنس البشري» كانت تُخطَّط، قال هيرولت دي سيشل Hérault de Séchelles، وهو برلماني سابق وأحد اليعاقبة المتحمسين. لكن الضوء الساطع الذي نشرته الثورة سيخترق ستار الظلمة الذي ألقاه الطغاة على مكائدهم.

غالباً ما رأى المؤرخون المعاصرون أزمة حرب 1791 و1792 (لم يكن معظمهم

مهتماً كثيراً بالتاريخ الدبلوماسي) أنها انحراف للثورة، وشيء أحمق بوضوح ألا يُفسَّر إلا بتكتيكات أنصار بريسوتان Brissotin للاستيلاء على السلطة من الملكيين Feuillants. غير أن هذه الرؤية الذرائعية للحرب الثورية تفشل في إدراك أن الحرب الوطنية كانت، في الحقيقة، الذروة المنطقية لكل ما مثَّلته الثورة تقريباً. لقد بدأت، بعد كل ذلك، بوصفها نتيجة للجهد الوطني في أمريكا واستمرت بتعريف نفسها، من خلال التلميحات لروما، بوصفها تقوية للسلطة الوطنية عبر تحول سياسي. ومنذ البداية، كان ثمة أثر من التحدي القلِق في التعبير الثوري الذي غالباً ما ترجم نفسه على المستوى الشعبي إلى جنون عظمة وجنون اضطهاد وجنون ارتياب paranoia. وهكذا انتشرت في عام 1789 شائعات أن النمساويين قد حشديا قواتهم على الحدود، والبريطانيين يبحرون إلى بريتاني والسفاحين الإسبان على وشك الوصول إلى روسيون Roussillon. والأسوأ، كان مفترضاً أن يكون للغزاة شركاء في فرنسا وضعوا مصالحهم الإقليمية الأنانية فوق مصلحة الوطن. تماماً لأن العالم السياسي الجديد كان قد عرَّفهم بأنهم «الأمة» فإن أولئك الذين اعتُبروا أعداءها ـ الأرستقراطيين والقساوسة الذين لم يؤديا قسم الولاء والملكة «النمساوية» ـ قد وُسِموا بأنهم أجانب، حتى عندما كانت أوراق اعتمادهم وطنية بقدر أولئك الذين حدديا ذاتياً أنهم «وطنيون».

وقد أضيف إلى هذا، بشكل متناقض، نوع من شمولية فلسفية جعلت الأمر أكثر صعوبة للثورة أن تعمل بشكل واقعي. كان إعلان حقوق الإنسان والمواطن وتأكيدات الحقوق الطبيعية التي استند إليها الدستور، بالتعريف، قابلة للتطبيق عالمياً. فكيف يمكن للأفراد أن يولديا أحراراً متساويين في جزء من العالم وليس في آخر؟ وهكذا على الرغم من أن الجمعية التأسيسية سنَّت عام 1790 إعلان السلم والتعهد بتجنب أية حرب إخضاع، فقد اتسم البيان بطابع وعظي لغير المتنورين. حيث زعم ذلك المتخصص بالحرية الديلية، آناكارسيس كلوتس Anacharsis Cloots، أن «الصرخة المدبية التي أعلنت إيقاظ شعب عظيم بلغت أركان الأرض الأربعة». وقد يتم تجاهل هذا التعبير المسيحي لبعض الوقت بوصفه هذياناً مثالياً. ولكن ما إن بدا الوضع الديلي قد أصبح مهدداً في النصف الثاني من عام 1791، حتى تغيَّر المزاج من النزعة العالمية الودية إلى شن حملة شديدة تتصف بالاستقامة ـ الذاتية. فصرح إزنار Isnard: «غدا الفرنسيون الشعب الأول في العالم، وهكذا يجب أن ينسجم سلوكهم مع قدرهم الجديد. لقد كانوا جسورين وعظماء وهم عبيد، فهل يجب أن يكونوا جبناء وضعفاء وهم أحرار الآن؟».

قبل الثورة، وجد بريسو عملاً خارج ربط الأذرع مع إخوته في الحرية في جمعيته

(الجمعية الغالية الأمريكية Société Gallo - Américaine)، إلى حد أن طريقة تبشيرية للحرية الديلية وصلت إليه بشكل طبيعي. وبالمثل كان زميله وصدوقه إيتيان كالفيير Etienne Calvière بارزاً بين ديمقراطيي جنيف المنتفضين ضد نبلاء تلك الجمهورية الذين قمعهم فرجين Vergennes عام 1782. كان ثمة في باريس نوادي «Alloborgians الأحرار» (السويسريين) و«Batavians» (الهولنديين) الذين رأوا أنفسهم جزءاً من عصبة ديلية ضد «الطغاة» والذين كانوا تواقين إلى إرسال كتائب مسلحة لتقاتل إلى جانب الفرنسيين في تحرير أوطانهم.

وفي 14 تشرين الأول ردد بريسو، الذي سيطر بفعالية على اللجنة الدبلوماسية البالغة الأهمية في الجمعية التشريعية، كل هذه الأفكار في خطبة طويلة وقوية. في الواقع، كانت حلقة دراسية موسعة عن كل الضرر الذي دفعت ثمنه المصلحة الوطنية الفرنسية على أيدي القوى الاستبدادية ولاسيما النمسا، حليفة فرنسا المزعومة منذ معاهدة عام 1756. وفي الوقت الذي أثار فيه جمهوره من خلال سلسلة الأخطاء والإهانات، رسم بريسو ملامح مؤامرة واسعة ممتدة عبر أوروبا، تستهدف عزل وشل القوة الفرنسية إلى الأبد. وإذ طرح مجموعة من الأسئلة البلاغية، وضع قطعاً من اللغز في المكان الملائم. لماذا أرست روسيا فجأة السلام على حديدها الشرقية مع تركيا إذا لم يكن للتركيز على شيء أكثر شراً؟ لماذا حرّك ملك السويد، الذي هو شريك معروف للملكة منذ زيارته إلى فرنسا في ثمانينيات القرن الثامن عشر، جيوشه؟ لماذا وقع فعلاً ذانك العديان اللديدان النمسا وبروسيا كل على يدي الآخر في بيلنتز Pillnitz؟ وكان الجواب على كل هذه الأسئلة خنجراً موجهاً مباشرة إلى قلب الأمة الحرة الوحيدة حقاً للناس في العالم القديم.

كان لخطبة بريسو تأثيراً مثيراً على الجمعية ليس لأنها استندت فقط على مفاهيم جديدة للقطبية الثورية بين الأمم الحرة و«المستعبدة»، بل الأحرى لأنها احتكمت إلى مفاهيم مألوفة وحتى تقليدية للمصلحة الوطنية، ولاسيما «شرف» وحتى «مجد» فرنسا ـ مصطلحات أكثر ارتباطاً بـ لويس الرابع عشر عادة. وما كان ذلك إلا لأن الوطنية «الجديدة» هي في الحقيقة تحسين رومانسي لموضوعات أكثر قدماً في التاريخ ـ الدم، الشرف، الوطن ـ التي كانت مثيرة على نحوٍ لا يقاوَم. وهكذا عندما انتهى بريسو بالهتاف: «أقول لكم يجب أن تثأروا لمجدكم أو تحكموا على أنفسكم بالعار الأبدي»، تلقى التحية بالتصفيق المدوي ليس من مؤيديه وحسب بل من الأغلبية الواسعة من النواب المستقلين في الوسط أيضاً.

والآن بما أنه ملتزم أيضاً بسياسة حرب (مع أنه لسبب ما يتعارض تماماً مع أسباب أنصار بريسو)، استطاع لويس أن يرد سريعاً على تلك المحاولات لاستبدال الملك بالشعب المسلح كتجسيد للوطنية الفرنسية. وكان ذلك ما عناه ظهوره في الجمعية في 14 كانون الأول لطلب تدمير معسكر المهاجرين émigré في كوبلنز Coblenz. وكما لو أنه للإلزام، سارع ناخب ترييه Elector of Trier إلى الإذعان للإنذار. كانت هذه الإشارة، في كل حال، لحملة وطنية متجددة في الصحافة والجمعية الوطنية التي ستركز مباشرة على التهديد النمساوي الذي قيل إنه يتحرك على الحدود. وكان الدليل على هذا رسائل عديانية مرسلة من فيينا حول موضوع ممتلكات الألزاس الأميرية وأوامر للقائد النمساوي في الأراضي الواطئة Netherlands (بلجيكا)، الجنرال بندر General Bender، لمساعدة ناخب ترير Electro of Trier إذا ما كان ثمة غزو فرنسي لمنطقته. وكما بيّن تي سي دبليو بلانينغ T.C.W. Blanning في عمله المميز عن اندلاع الحرب، كانت نبرة كاونتز Kaunitz الأكثر إثارة مستندة إلى قراءة خاطئة مشؤومة للسياسة الفرنسية. منذ أن هنأ النمساويون أنفسهم خطأ بتنصيب الملكيين نتيجة تصريح بيلنتز، كان من المفترض أن تنقذ إيماءة تهديدية مشابهة الحكومة المحاصرة من الولع الموحد لمجموعة لافاييت ـ نابورن- Lafaytte Narbonne وأنصار بريسو Brissotins بالقتال. لا حاجة للقول، إنه كان لها تأثير معاكس تماماً.

شهد الأسبوع الأخير من عام 1791 وأول أسبوعين من عام 1792 تعاقب خطابات بلاغية استثنائية لأنصار بريسو البارزين، وقد تكررت في نوادي اليعاقبة وطُبِعَت للنشر في الأقاليم. في الوقت الذي كانوا يزدرون فيه الجنرال بندر General Bender، الذي كان أضحوكة الأهاجي الشنيعة في الصور الكاريكاتورية الشعبية، لعبت الخطب على المخاوف الشعبية من العقوبة ودعت إلى تشكيل جيش من الجنود المواطنين يظهر للعالم الحرية التي لا تقهر. وفي يوم الميلاد، قفز إيلي غوديه Elie Guadet من كرسي الرئيس إلى المنبر، غير قادر على كبح انفعالاته كما تتطلب اللياقة. «إذا ميزت الثورة عام 1789 باعتباره العام الأول للحرية الفرنسية، فسيميز تاريخ الأول من كانون الثاني 1792 هذا العام بأنه العام الأول للحرية العالمية». وبعد يومين ألقى الخطبة الأقوى بيير فيرنيو Pierre Vergniaud، الذي ما كان إلا لميرابو أن يتحدى خطابته سيلاً بلاغياً هو الأقوى والأكثر تأثيراً الذي ظهر أثناء الثورة. فرسم صور مروعة للمهاجرين القتلة، الذين باركهم الكهنة المتعصبون، يتجمعون على حديد الوطن.

أتباع الحكم الاستبدادي المتهورون، الذين يحملون خمسة عشر قرناً من الغرور والهمجية في أرواحهم الإقطاعية، يطالبون الآن في كل أرض ومن كل عرش الذهب والجنود لإعادة إخضاع صولجان فرنسا. لقد شجبتم الفتوحات لكنكم لم تَعِديا بالمعاناة من مثل هذا التحريض المتغطرس. تخلصتم من نير طغاتكم لكن بالتأكيد ليس لتحنوا الركب بإذلال شديد أمام بعض الطغاة الأجانب وتسليم كل نظام تجديدكم لسياسات حكوماتهم الفاسدة.



الصورة 152، لوحة لرسام مجهول، بيير فرنيو

ثم استخدم فرنود ما سيصبح فكرة رئيسية عامة في الحملة الثورية العنيفة: تعهد التضحية بالذات من أجل الوطن. «أجل، إن ممثلي فرنسا الحرة، المتمسكين بالدستور على نحوٍ لا يتزعزع، يفضلون أن يُدفنوا تحت أنقاض هيكلهم ولا يقترحون لكم [الشعب] استسلاماً غير جدير بهم وبكم». كانت خاتمته مثل ترنيمة إثارة لنبالة القوات المسلحة الفرنسية التي توقعت خطابات أكثر ضعفاً لحملة نابليون بونابرت. وفي خاتمتها وقف جمهور نادي الفروسية Manège جميعاً، بمن فيهم الصالات العامة، على أقدامهم يلوحون بالقبعات، ويصيحون بقسم الولاء، واندفعوا في سيل عارم مفعمين بالنشوة الوطنية:

وهكذا، تقودكم أسمى العواطف تحت العلم الثلاثي الألوان الذي غرستموه مجيداً

*على أنقاض الباستيل، أي عدي يتجرأ على مهاجمتكم... واصلوا طريق قدركم العظيم الذي يدعوكم إلى معاقبة الطغاة الذين وضعوا الأسلحة في أيديكم... **الاتحاد والشجاعة!** المجد ينتظركم. يطمح الملوك حتى الآن إلى بطولة المواطنين الرومان؛ والأمر الآن يعتمد عليكم لجعلهم يحسدين ذلك في مواطني فرنسا!*

وفي ما يتعلق بأنصار بريسو، بعدئذٍ، ستكون الحرب ما دعته السيدة رولان Mme Roland «مدرسة الفضيلة»، كما كانت لجيوش روما القوية. ولم يرتفع لدى اليعاقبة إلا صوت واحد ذو أهمية ضد هذه الحقيقة البديهية: هو الذي أطلقه ماكسيميليان روبسبيير Maximilien Robespierre. وافق بالأصل على البلاغة الحربية كوسيلة لتقييد يد الملك، غير أن تلهف ناربون الظاهر للحرب جعله يعيد النظر. الحرب، جادل بطريقة مقنعة، عمل سيعود على البلاط بالفائدة أو بطريقة أخرى ستخلق ديكتاتورية عسكرية. وفي ما يتعلق بالفائدة المفترضة لبقية البشرية التي تنتظر ربيع حريتها، قال بطريقة نبوئية: «لا يحب أحد الحملات التبشيرية المسلحة». وفي ما بعد، عندما شوهد الرقم الرئيسي في الماكينة الأكثر رعباً للتعبئة العسكرية في أوروبا، سيشجب تلك الآراء. في الحقيقة تبقى وجهات نظره تلك بعض الأفكار العاطفية الأكثر صدقاً التي أوضحها يوماً.

وفي 25 كانون الثاني 1792، أقنعت لجنة بريسو الدبلوماسية الجمعية التشريعية بأن ترسل إلى فيينا ما يساوي فعلاً إنذاراً أخيراً. طالب الإمبراطور أن يفسر سلوكه في ما يتعلق بالمهاجرين وأن يكف ليس عن تقديم المساعدة والملجأ فحسب بل التعهد بألا يدخل في حلف (وفق شروط معاهدة عام 1756) مع عدي لفرنسا. وكان الرد حاداً بالمثل. تمسك كونتز خطأً برأي أن استعداد الفرنسيين للحرب ضعيف ولن يتجرؤوا على خوضها إلا كسبيل أخير. ثمة بعض الحقيقة في فرضية أن الجيش لم يكن في وضع يمكنه القيام بحملة رئيسية. غير أن المخابرات البروسية التي اتكل عليها كونتز ضَخَّمت درجة التشوش. وفي الأول من كانون الثاني أُعلِن الأمراء المهاجرون خونة وصودرت أراضيهم وسندات ملكياتهم. وفي السابع عشر منه طلبت مذكرة من فيينا ليس استعادة الأراضي الألمانية في الألزاس وحرية العائلة الملكية فحسب بل، للمرة الأولى، عودة أفينون والكومتات Comtat إلى البابا Pope. وفي 7 شباط عُقِد حلف رسمي بين النمسا وبروسيا.

كان الموعد النهائي للطلب الذي ستقدم النمسا فيه لفرنسا قبولها بمعاهدة 1756 هو 1 آذار. (في الواقع، أُطلِقت المسألة فعلياً كتحدٍّ لمبارزة، التي كانت لا تزال ممارسة شائعة حتى بين رجال الثورة الذين ازدروها رسمياً باعتبارها «تقليد غير عقلاني»). في

اليوم نفسه، توفي ليوبولد وخَلَفه ابنه فرانسيس Francis، وهو رزين خفيف الوزن، الذي كان أكثر سماعاً من الإمبراطور الأخير لآراء المستشارين. وقد كانوا أكثر ميلاً من كونتز العجوز لالتقاط التحدي الذي طرحته الجمعية التشريعية، لاسيما عندما كانت ماري أنطوانيت ترسل لهم الخطط التفصيلية لترتيبات الجيش الفرنسي حالما تناقَش في المجلس الملكي. وفي المناسبة، خرج القرار من أيدي النمساويين بسبب أزمة وزارية في فرنسا. ردّ وزير الخارجية دي ليسار de Lessart بضعف على المذكرة القاسية الأخيرة من ڤيينا وفي 1 آذار تُلي التبادل المخزي للرسائل في الجمعية، ومع الوزير الضعيف يصغي من إحدى الكراسي الصغيرة أمام مكتب الرئيس. كانت ردة فعل أنصار بريسو شن هجوم عنيف على عجز الملكيين على مواجهة النمسا وبروسيا، متهمين فعلياً ليس دي ليسار فحسب بل برتران دي مولفيل Bertrand de Moleville، وزير الأسطول، بشكل من خيانة مستترة. وعندما انضم ناربون فعلياً إلى الهجوم الضاري، طرده الملك في 9 آذار. وانتقل فرنود بعد أسبوع إلى اتهام دي ليسار بالخيانة.

لأسبوع أو نحوه، قلّب لويس رأيه بيأس متزايد لإيجاد إدارة يمكنها تهدئة الاضطراب المتجمع. وأخيراً، ربما تذكر نصيحة ميرابو بانتزاع الأذى من الخصوم بالتوافق معهم، فأنشأ حكومة مقبولة تماماً من بريسو وأصدقائه: كلافيير Clavière، مخترع عملة الحكومة الثورية assignat، وزيراً للمالية؛ رولاند، المفتش السابق للصناعة، وزيراً للداخلية؛ وكان شارل دوموريه Charles Dumouriez، الحاكم السابق لمرفأ شيربورغ Cherbourg، كبرياء ومسرة لويس السادس عشر، قد عُيِّن وزيراً للشؤون الخارجية في الأول من آذار. كان ديموريز الرجل الغريب في المجموعة، كان من أنصار لافاييت Fayettiste أكثر منه من أنصار بريسو، لكن في خمسينياته شخص بخبرة عسكرية وثبات سياسي كان قادراً على احتواء الأزمة.

في ڤيينا فُهِم تغيير الوزارة أنه إعلان فعلي للحرب، إلى الحد الأكبر منذ وصل مؤخراً مبعوثاً خاصاً من الملكة بأخبار سيئة. كان ذلك المبعوث هو المهندس غوغولا Goguelat، الذي كان واحداً من الشخصيات البائسة المرافقة للدوق شوازول Duc de Choiseul عندما انتظر عربة البرليني على الطريق إلى مونتمدي Montmédy. عرض أمام المجلس الإمبراطوري قرب حدوث الحرب حقيقة، ورأي ماري أنطوانيت الخاص أنها، في كل الاحتمالات، ستخضع للمحاكمة. وفي الأسبوع الثاني من نيسان تحركت خمسة آلاف من القوات النمساوية إلى الحدود البلجيكية.

في 20 نيسان، جاء لويس السادس عشر إلى الجمعية ليسمع تقرير ديموريز الرسمي عن الوضع الذي تواجهه فرنسا. أُخبِر النواب أن المجلس التشريعي النمساوي قد «استعبد» فرنسا لمطامحه منذ عام 1756. وكان جنسونيه Gensonné قد قال، إن إلغاء تلك المعاهدة سيكون فعل تدمير مبهج مماثل لتدمير الباستيل. كانت الحرب مطلوبة فوراً، لم يعارضها إلا عدد قليل من المندوبين المؤيدين لرأي روبسبيير. أولاً، بيكيه Becquet، من أُوت مارن Haute - Marne، الذي حذَّر قائلاً: «سنكسب سمعة أننا شعب عدائي ومستاء يعكر سلم أوروبا ويستخف بالمعاهدات والقانون الدولي». وقد دُفِعَت هذه التحذيرات جانباً بترنيمة شكر أن ذلك يؤكد الثبات الوطني. كان أناكارسيس كلوتس Anacharsis Cloots في حال إثارة قصوى ونشوة خلاص كأن المسيح عاد ليخلص العالم:

هنا أزمة العالم. حلَّ الله الفوضى الأولية؛ وسيحل الفرنسيون الفوضى الإقطاعية... لأن الرجال الأحرار آلهة على الأرض... يشن [الملوك] علينا حرباً جائرة غير ورعة بجنود عبيد وأموال مُغتَصَبة؛ وسنشن حرباً مقدسة بجنود أحرار ومساهمات وطنية.

والقائد الرئيسي لما دعاه بريسو«حملة شديدة (صليبية) من أجل الحرية العالمية» التي سيقول فيها كل جندي لعدوه، «أخي، لن أقطع حنجرتك... سأريك الطريق إلى السعادة» لم يكن هو نفسه سعيداً كما يبدو. عندئذٍ قرأ لويس السادس عشر بصوت متلعثم خفيض الإعلان الرسمي للحرب كما لو أنه حكم بالإعدام. الذي كان حقاً كذلك.

III - «النشيد الوطني الفرنسي *Marseillaise*»

بعد خمسة أيام من إعلان الحرب، كانت حامية ستراسبورغ تستعد لـ «حملة شديدة من أجل الحرية العالمية» التي وعد بها بريسو. وأقيم حفل عشاء عام اختلط فيه ضباط - كثيرون منهم، مثل دي بروغلي de Broglie، وداغويون d'Aiguillon وكليبر Kléber، من النبلاء الليبراليين - مع شخصيات وطنية محلية بارزة، لا أحد أكثر أهمية ممن كان سابقاً البارون ديتريش Baron Dietrich، عمدة المدينة الحالي. وشُرِبت الأنخاب مرددة الأفكار المفضلة للحرب: الموت للطغاة، وعاش وطن الحرية. وقد سأل شخص مجهول المهندس الشاب في الجيش روجيه دي ليسل Rouget de Lisle، الذي أحرز سمعة ثانوية في باريس كملحن، إذا كان يستطع تأليف أغنية ترسل الجيوش إلى الحدود بلحن عسكري وطني. فالحركة المتسارعة لأغنية هذه إيرا «Ça Ira» بعد كل شيء، قلما تناسب الخطوة العسكرية.

كان لدى روجيه دي ليسل بعض الخبرة في هذا العمل، وهو من عائلة ارستقراطية ثانوية من مقاطعة فرانش كومتيه Franche - Comté، فاز بمنحة دراسية إلى الأكاديمية الهندسية العسكرية في مِزيير Mézières، حيث قابل لازار كارنو Lazare Carnot وبريو دي لا كوتي دور Prieur de la Côte d'Or. ومع أنه كان قادراً كفاية كمتخصص في الخنادق والأنفاق، فقد توقف لفترة عن بناء الجسور وعربات المدفعية ليؤلف ألحاناً بأسلوب أنيق بيعت جيداً في باريس. وبعد خمس سنوات من التأليف بوقت جزئي قرر أن يجرب حظه في العاصمة، حيث عقد صداقة مع غريتري Grétry. أصبح أسلوبه أكثر جدية؛ وأُنتِجَت «ترنيمة الحرية» مع أنها كانت نسخة معدلة عن ترنيمة لمؤلف محلي من ستراسبورغ هو إغناز بليل Ignaz Pleyel التي أنشِدت في المهرجان الكبير للموافقة على الدستور.

من هذا المزيج الممل إلى حدٍ ما من الموهوبين، جاء المهندس الموسيقي بطريقة ما بـ (أغنية جيش الراين "Chant de Guerre de l'Armée du Rhin"). مستمداً النشاط من الإحساس بمعركة قادمة ومحصناً بالشامبانيا، عمل روجيه دي ليسل خلال ليلة الخامس عشر ـ السادس عشر من نيسان، متباهياً بالنتيجة أمام ديتريش في الصباح. (وقد غناها رئيس البلدية شخصياً بطريقة ريفية نوعاً ما لأول مرة بعد ثلاثة أيام.)

لقد كُتِب البقاء للأغنية التي أخذت اسم المارسييز «Marseillaise»، وعندما نُسيت كل أعمال بليل وغوسيك Gossec وميهل Méhul وغرتري مجتمعة كانت اختراعاً مدهشاً، الشيء الأقرب إلى خطاب لبيير فرنود بلحن وموسيقا، تناغم وإيقاع موسيقي يضبط تسارع النبض وجريان الدم. وعندما دوّنت زوجة ديتريك وغوسيك نوتة هذه الأغنية لفرقة عسكرية، أفضت إلى نشيد رائع للرابطة الوطنية المتعاظمة. لم يُكتَب شيء قط مثل «المارسييه» بلغ هذا القرب في التعبير عن أخوة المواطنين في السلاح، ولا شيء سيُكتَب مثله أبداً.

لقد عبرت كل الأفكار العاطفية العظيمة في الثورة ـ العائلة والدم والأرض ـ عن ذاتها. المقطع الشعري الأول هو دراما العائلة .**الوطن ـ أرض الآباء** ـ يدعو أبناءه إلى السلاح للدفاع عن أحبائه (أبناءكم، أصحابكم vos fils, vos compagnes) ضد جحافل المرتزقة القادمة، المصممة على الذبح. ينخفض اللحن بشكل رائع إلى همهمة مشؤومة عندما يتقدم الإرهاب، قبل أن يرد بالبوق الكبير منادياً إلى السلاح، أيها المواطنون «Aux armes, citoyens»، مكرراً مثل الكورس خلال المقاطع الشعرية الخمسة جميعاً. وتُستخدَم في كل مكان في الأغنية صور الدم والمجزرة لبث الرعب والإثارة. رُفعت **(الراية الدموية)** étendard sanglant ضد **أطفال الوطن** enfants de la patrie؛ وبالتالي الدم الملوث، دم

الطغاة الملوث، يجب أن يروي أرض abreuve les sillons الأمة. ومع أن الصور كانت مروعة، فقد رجّعت صدى شعور كان طاغياً في ذلك الوقت. فليس قبل ذلك بوقت طويل، كتب طالب شاب إلى والده، مبرراً قراره أن يتطوع بالإعلان عن أنه «لا يمكن لحريتنا أن تتأكد إلا إذا فرشت سريرها بالجثث... وأنا أوافق على أن أغدو إحدى تلك الجثث».

لم يعد «المارسييز»، بعدئذٍ، أغنية ثورية للجنوب. وقد أخذ النشيد الوطني اسمه النهائي عندما جاءت به مجموعة من الحرس الاتحادي من مونبلييه Montpellier إلى مرسيليا Marseille في طريقها إلى معسكرها في باريس. وما إن حوّل مقاتلو العاصمة الثوريون المحليون الخمسمائة ـ جندي أو نحو ذلك من مرسيليا إلى أبطال مثاليين لـ «الثورة الثانية» فارتبط بهم النشيد الجديد. لكنه في الحقيقة كان أغنية صادقة للحدود الشرقية والشمالية، شيء وُلِد ليس من ثقة اليعاقبة الأكيدة، المتباهية بتهديدات شنق الأرستقراطية مثل تلك الموجودة في أغنية «هذه إيرا» Ca Ira. بدلاً من ذلك، نشأ من التحدي المتقد الذي أُظهِر ضد «الطغاة» عندما أعدت الثورة، للمرة الأولى، لمواجهة جيوش الملكية المستبدة.

لا نعلم إذا ما سار أولئك الجنود الأوائل خارجين من مدينة ليل Lille نحو مدينة تورناي Tournai البلجيكية بأغنية روجيه ليسل على شفاههم. لكن إذا كانت تلك هي الحال، فهي لم تقدم لهم ما هو جيد بالتأكيد. لأنه في تعارض مربك ليس مع التفاؤل الذي لا يقهر في النشيد وحسب، بل مع التأكيدات الصريحة في خطابة أنصار بريسو بالمثل، فالحملة الأولى التي بدأت كإخفاق تام مثير للشفقة ستنتهي بعد ثلاثة وعشرين عاماً ومليون ونصف المليون قتيل فرنسي.

كان هذا فظيعاً إلى حد كبير لأن القادة المعينين لساحات الحرب الثلاث الرئيسة كانوا جميعاً محنكين مشهورين في الحملة الفرنسية الأخيرة الناجحة بلا ريب في أمريكا. أُعطي لافايت الجبهة الوسطى في المارن Marne، والجنرال لكنر Luckner حدود الألزاس Alsac وروشامبو Rochambeau، بطل يوركتاون Yorktown، المنطقة الأكثر خطورة في الوقت الراهن من الحدود البلجيكية في الشمال. ومع أن جولات ناربوني التفتيشية الترويجية فعلت ما بوسعها لإخفاء الحقيقة، أدرك روشامبو تماماً أنه في ما يتعلق بمجموع القوات الكامل والاستعداد للمعركة والتدريب، كانت الجيوش الفرنسية بعيدة عن الاستعداد لمواجهة القوات النمساوية. لم يوقف القمع انهيار سلسلة المراتب الصارمة

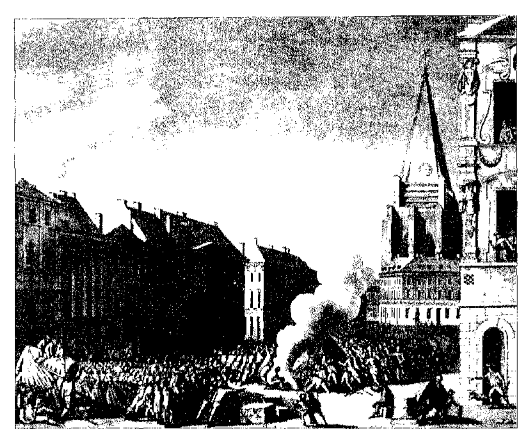
التي أشار إليها تمرد نانسي عام 1790. في الواقع، إذا فعل معدل الهجرة المتزايد بين الضباط بعد فارن أي شيء فقد عمق الشكوك بين الضباط والجنود لأن الضباط لم يعودوا موثوقين وقد يخونون الوطن في هيئة قيادته.

وقد كانت لهذه الشكوك عواقب قاتلة لثيوبولد ديلون Théobald Dillon، القائد المحلي للقوة التي أرسلت ضد تورناي Tournai. كان ديلون، وهو ابن عم لوسي دي لا تور دي بان Lucy de La Tour du Pin، منتَجاً مثالياً للنبلاء الليبراليين، وطني وكفؤ ومعادٍ للمهاجرين بالتأكيد. لكنه مثل ضباط ناجحين كثر، كان أكثر تعاطفاً مع لافايت ومرتاباً بحكومة أنصار بريسو. وعلى نحو أكثر دقة جُنده ديموريز Dumouriez ليفعِّل الساحة البلجيكية، التي، اعتقد الوزير، كانت تنتظر إشارة من الفرنسيين للبدء بعصيان مسلح كبير ضد النمساويين. وكانت مهمة ديلون أن يقوم بحملة متواضعة في تورناي، التي اعتُقِد عموماً ألا تكون محمية جيداً. كانت لديه قوة من خمسة آلاف رجل لفعل ذلك، وكان الجزء الأكبر منها سلاح فرسان نظامي وقد استُكمِل بقوة من الجنود المتطوعين. وبدا النجاح مضموناً تماماً بهذه القوة.

في النتيجة، انقلبت تلك التوقعات بشكل فاجع. فقد جوبه تقدم حرس سلاح الفرسان بنيران المدفعية في بازيو Baisieux . وانتشرت شائعات تقدم النمساويين عبر الخطوط الفرنسية بسرعة كبيرة. وتحول انسحاب تكتيكي مسبق التخطيط بسرعة إلى فرار جماعي sauve - qui - peut مخزٍ، لا يقوده المتطوعون بل الفرسان النظاميون. وإذ تورط بالفرار، التجأ ديلون إلى كوخ ريفي وارتكب الخطأ المميت بخلع معطفه الرسمي. وقد اعتقد المزارع محذراً بالدعاية الوطنية من وجود جواسيس وخونة أن أحدهم في بيته، يشرب حساءه، فنبه الحامية في دوي Douai. أُخِذ الجنرال سيء الحظ مخفوراً إلى ليل، حيث جره رجال البلدة والجنود والحرس الوطني من عربته، جرحوه في الوجه وفي النهاية طعنوه بالحراب حتى الموت على الحصى. عُلِّق جسد ديلون بعدئذٍ من قنديل؛ وفُصلت ساقه اليسرى كتذكار وعُرِضت حول البلدة قبل رمي باقي الجثمان في محرقة.

وقد تفاقم الانطباع الكئيب الذي أعطته الكارثة أمام تورناي عندما فشلت قوة بيرون Biron في استعجال هجوم على مونز Mons أيضاً، ومع أنه في هذه الحالة قد تمَّ الاحتفاظ بالقائد، فسيموت لاحقاً على المقصلة. وما دام النمساويون قد فشلوا في الاستفادة من ضعف معنويات القوات الفرنسية، فما فُقِد كان قليلاً استراتيجياً. غير أن النتائج السياسية للهزيمة كانت موضع استقطاب مثير. فعلى اليمين، اعتقد معظم ضباط

جيش الحدود الكبار الباقين الآن أنهم يعرضون أنفسهم لخطر مصير ديلون في انتكاسة على الأقل. فاستقال بعضهم، ابتداءً بـ روشامبو نفسه على قمة القيادة الشمالية تماماً؛ وهاجر آخرون. واقتنع أولئك الذين ظلوا في الخدمة، مثل لافايت نفسه، الآن أن الشرط المسبق لبقاء الجيش إعادة بناء النظام في الجيش وفي باريس على حدٍّ سواء. وفي الحقيقة كان الآن مستعداً لاستخدام القوة العسكرية لإحباط تهديد العصيان المسلح في العاصمة. وقد كتب للسفير النمساوي ميرسي دارجنتو Mercy d'argenteau، مقترحاً تعليقاً للأعمال العدائية فيما كان يشتبك مع مقاتلي باريس في مطلع أيار.



الصورة 153، جان ـ لويس برير، لوحة، موت الجنرال ثيوبولد ديلون في ليل، في 29 نيسان عام 1792، مركز الصورة يظهر جسده الذي يحترق

لم يكن أعداء لافايت، في أية حال، حمقى. فحتى الهدوء المؤقت في القتال في أيار أكد شكوكهم أن القادة في الميدان كانوا مهتمين بالتغلب عليهم أكثر مما هم مهتمون بالتغلب على النمساويين. ولم يُبدِّد هذا الانطباع الارتداد الجماعي عملياً لفوج الرويال ألماند Royal - allemands كله، فوج الفرسان الذي هاجم المظاهرة الشعبية في ساحة الفاندوم Vendôme والتويلريه Tuileries في 12 تموز عام 1789. قال روبسبيير في اجتماع

لليعاقبة: «أنا لا أثق بالجنرالات. فمعظمهم يحنّ إلى النظام القديم». كان هذا الإحساس بالتخريب المتعمد من الرجال الذين ناوروا في القيادة يمتد إلى الشكاوى الاقتصادية والاجتماعية. فقد حفّز انخفاض العملة التي أصدرتها الحكومة الثورية assignats تضخم أسعار المواد الغذائية، ووقع اللوم على مضاربات العملة المتعمدة بشكل منهجي وسياسي. كان معدل حصاد عام 1791 متوسطاً في بعض مناطق فرنسا، غير أن النقص كان شديداً لاسيما في الجنوب والجنوب الشرقي. كان تحرير سوق الحبوب الداخلية ميراث الفيزوقراطيين physiocrats، وكانت الثورة معتادة آنئذٍ على دفع المؤن نحو مناطق النقص، لكن بعد حجبها مطولاً كفاية لتأمين أسعار عالية. وهذا تماماً ما أوصى به الاقتصاديون الليبراليون كطريقة لضمان تراكم رأس المال في الزراعة. لكن النظرية الرائعة أفضت بشكل ثابت إلى البؤس والرعب والإخلال بالأمن سريعاً. وانتعشت درجة نشاط الهجمات على العربات ومراكب نقل البضائع ومستودعات المحطات جدياً الآن، بعد أن تباطأت منذ عام 1789. ومع التفسير الخاطئ الإضافي أن «مؤامرة المجاعة» جزء من محاولة الثورة المضادة لتجويع الناس من أجل فرض شروط الاستسلام، غدت الاعتداءات العنيفة على الأشخاص والممتلكات أكثر انتشاراً وغير مقيدة. وفي النهاية، اعترضت الثورات السوداء في الآنديز الغربية الفرنسية إمدادات السكر وجعلت من سلع أخرى اعتاد عليها سكان بلدات العاملين ـ القهوة، على سبيل المثال ـ محرمة لغلاء أسعارها. وكانت النتيجة هجمات على متاجر البقالة في ربيع عام 1792.

أعطى تراكم هذه المظالم قادة ومعلمي السياسة الشعبية الفرصة للخروج من الصمت الساكن الذي تقيدا به منذ القمع في الصيف السابق. ومع لافايت يحتل المقدمة وبيسون اللطيف أكثر من بايلي المشاكس رئيس بلدية، أنعشت الصحافة المحاربة والنوادي الشعبية أتباعها بسرعة في ربيع عام 1792. كانت صحيفة مارا Marat صدوق الشعب L'Ami du Peuple ونادي الكوردلييه Cordeliers Club متأخرة في مجال العمل، يشنان هجمات عنيفة ليس ضد البلاط و«اللجنة النمساوية» التي تخرب عن عمد الحرب فحسب، بل ضد الأغنياء بشكل عام، والآن وصفوا بوضوح أنهم «البرجوازيون»، الذين نأوا بأنفسهم عن الشعب ونسوا كم هم مدينين له باعتباره قوة الحرية الصدامية. وعلاوة على ذلك، كان ثمة بعض الأصوات الجديدة والعنيفة بشكل مميز ارتفعت لإبعاد الخونة ومعاقبة المضاربين. استغلت صحيفة جاك ـ رينيه هيبر Jacques - René Hébert، الأب دشن Pére Duchesne، قذارات الحانات بحرية لتحتمي من أولئك الذين هم في السلطة. وطلب أيضاً جاك روك Jacques Roux، راعي أبرشية سانت نيكولاس دي شامبSaint - Nicolas - des - Champ،

في أحد أحياء باريس الأكثر فقراً، المليء بحمالي السوق والعمال العابرين، بعقوبة عاجلة ضد أولئك المسؤولين عن تجويع الوطنيين.

لا شيء جديد على الإطلاق في سجالات المساواة المسيحية هذه وما جعلها شعبية بدقة هو أنها كانت مألوفة تماماً. رجعوا بالضبط إلى خطاب ميرسييه Mercier المعادي للرأسمالية والحداثة، الذي يمتدح المهنة ويكره رأس المال، والذي كان واحداً من أقوى مصادر الغضب الثوري. كان الطور الراديكالي حقاً في الثورة ـ الإطاحة العنيفة بالنخبة المثقفة والشخصيات البارزة التي هيمنت على اللجنة التأسيسية والمشروعات الإصلاحية منذ سبعينيات القرن الثامن عشر ـ الآن في متناول اليد. ومنذ البداية كانت هذه المجموعة من القيم المتعصبة بعدائية، المعادية للمال هي التي حركت السكان للتزود بالأسلحة. كان اسم (بلا سراويل) sans - culottes نفسه نوعاً من جعل عالم الدكاكين الحرفية رومانسياً، وبعد ذلك أصر على تعارض الفضيلة الاجتماعية مع الجوارب الحريرية والبنطلونات القصيرة (الأشياء التي ارتداها روبسبيير دوماً). في الواقع العملي، كان قادة هؤلاء المقاتلين بلا سراويل في عامي 1792 و1793 غالباً ما يُجتَذبون ليس من الفقراء جداً بل من طبقة الصناعيين والحرفيين الميسورين. وفي الحقيقة لم يكن بعض قادتهم، مثل صانع البيرة سانتر Santerre، ميسورين وحسب، بل أغنياء أيضاً. وعلى الرغم من ذلك، شجعوا ناخبيهم فعلياً بشكل مباشر على طلب أشياء تتعارض مع الفردية الاقتصادية: تنظيم الحكومة لأسعار الحبوب وأنواع المواد الغذائية الأخرى؛ فرض قبول العملة التي أصدرتها الحكومة الثورية assignat بالقيمة الاسمية؛ وعقوبات قاسية (تشمل عقوبة الموت) لأي شخص يُشتَبَه أنه يحتكر أو يضارب، ومجموعة يصعب تعريفها في الاقتصاد المحرر بشكل معروف على نطاق واسع. وقد لُخِّصَ نظام الأبوية الجمهورية في هذا البرنامج في بروشور أُنتِج في ليون في حزيران يطالب بوضع أسعار حبوب مقبولة وطنياً وكان عنوانه، ببراءة ملطفة، Moyens Simples et Faciles de Fixer l'Abondance (وسائل بسيطة وسهلة لتأسيس وفرة).

كان البعد الإضافي للوطنية العسكرية ما أعطى طلبات الثوريين المتطرفين قوة خاصة عام 1792. لم يكن الأعداء نظرياً من الداخل الآن طبقة خصوم ما محددة، لكن، كما كانوا، نمساويين في ثياب فرنسية. وبالفعل قيل بشكل جلي إن «اللجنة النمساوية» الشريرة، الكلية الوجود التي تسببت بفوضى كبيرة وتشويش على الجبهة كانت تتعمد أيضاً إثارة الكوارث في الوطن، وتتسبب باختفاء الإمدادات الغذائية. لقد كانت الرغبة الدائمة

بتحديد ومعاقبة الطابور الخامس من الوطنيين المنافقين الذي غذى هاجس «كشف القناع» (هاجس جيد لـ روسو) لدى اليعاقبة Jacobins ونادي الكوردلييه Cordeliers. وقد تطلبت هذه الحاجة في ربيع وصيف عام 1792 ا للتمييز بين المواطن الحقيقي والمزيف قبول الشارات المرئية للأصالة الوطنية.

وكانت القبعة الحمراء bonnet rouge هي الشارة الأهم. ابتكرت الثورة الفرنسية بلا شك رمزية قبعة الحرية. وقد اشتقت من العملة المعدنية الرومانية التي كان يظهر عليها العبيد المحررين يتلقون «قبعة الحرية Phrygian bonnet» لحظة تحررهم، كان لها تاريخ في فن الغرافيك والميداليات والنقوش يعود على الأقل إلى الثورة الهولندية في القرن السادس عشر. وقد استخدمت باستمرار في كل من الثقافة الشعبية والرفيعة لما لا يقل عن قرنين من الزمن، بشكل واسع مستدير الأطراف وتاج مسطح عادة. وقد ظهرت بشكل ناعم مختلف على نحوٍ متكرر في طبعات إنكليزية مثل تلك التي ظهرت في القرن الثامن عشر كصورة هوغارث Hogarth غير المتملقة لـ جون ويلكز John Wilkes المتطرف، وفي نقوش تحتفل بالحرية الأمريكية في سبعينيات القرن الثامن عشر، وفي الحركة الوطنية الهولندية في ثمانينيات القرن الثامن عشر، وأخيراً في الكثير من الأعمال الفنية الفيدرالية عام 1790، لاسيما في ليون. والجدير بالملاحظة حول التطور عام 1792 هو التطابق الحرفي مع الرمز؛ لم يكن متوقعاً الآن أن يميز الناس الشعار وحسب بل أن يضعوه أيضاً. حتى في عام 1791، عندما رسم ديفيد رجله المثالي من الناس في قاعة التنس، كانت القبعة التي وضعها الرجل شعاراً أكثر منها مادة حقيقية لغطاء الرأس. وبعد عام لم يعد ذلك حقيقياً. لم يتنازل روبسبيير أبداً، بالطبع، ليضع القبعة فوق لفائف شعره المبودر، لكنها بدأت تُشاهَد في نوادي اليعاقبة بين الأعضاء والجمهور، وغدت مطلوبة فعلياً في الجمعيات الشعبية ومجالس الأقسام بوعي ذاتي. وطلب بعض ضباط الجيش بحق ارتدائها بدلاً من قبعاتهم العسكرية المثلثة.

ليس مدهشاً، بعدئذٍ، في 20 حزيران كانت اللحظة الطقوسية التي غدا فيها الرجل الذي تدعوه الآن جريدة بير دوشن Père Duchesne بشكل اعتيادياً «لويس المزيف» ـ أو أحياناً «الخطأ الاجتماعي»، ليس إلا بسبب الفرار إلى فارن ـ كشفت أنه لم يكن ملكاً، عندما وُضعت قبعة حمراء على رأسه دون مراسم طقوسية. وإذ تدنيإلى مرتبة العامة وجُرّد من ميزات الجلالة الأخيرة المتبقية (ناقشت الجمعية التشريعية مطولاً ما إذا كان باستطاعتها مواصلة دعوته بـ «مولاي»)، أرغِم لويس الحاكم على شرب نخب سيادة الشعب الحقيقية.

وما جعل هذا ممكناً كان نقل القوة المسلحة بعيداً من أولئك الذين اعتبر اليعاقبة أنهم الطابور الخامس وإلى أيدي الوطنيين «الذين يمكن التعويل عليهم». تجاهل رئيس البلدية، بيسون Pétion، القيود على النوادي والعرائض والصحافة التي وضعها ديبورت ولو شابلييه في الأيام الأخيرة من الجمعية التأسيسية Constituent بل شجع توزيع الأسلحة إلى جمعيات الأقسام معتقداً أنها قد تكون مطلوبة للدفاع عن حلفائه أنصار بريسو ضد أي محاولة انقلاب عسكري. ولنبدأ بالرمح، كان ثمة تطابق حرفي آخر مع رمز تقليدي للحرية أيضاً، الذي يمتلك أصلاً قديماً مثل القبعة إلى حدٍّ كبير. أعاد قسم باريس تسمية نفسه بـ «الرماح Les Piques» وأخبر هربرت قراءه، «إلى رماحكم، أيها الثوريون الصالحون، اشحذوها جيداً لتبيد الأرستقراطيين». لكن على الرغم من كل المبالغة، لم يكن توزيع الأسلحة الطويلة الحديدية الحادة إضافة هامة من أجل القدرة على القيام بأعمال عنف شعبية. ومع ذلك بحلول حزيران، كانت جمعيات القسم تسمح بدخول مواطنين «سلبيين» إلى مجموعات حرسها الوطني دون طلب إذن رسمي. وشملت تجهيزاتهم بنادق قديمة غير رمزية، بنادق جديدة، وفي بعض الحالات، مدفع.

وفي الوقت نفسه، قُدِّمت طلبات رسمية الملك في أواخر أيار للتخلي عن حراسه الشخصيين البالغ عددهم ستة آلاف، الذين تمركز معظمهم في التويلريه Tuileries. كان ذلك الفيلق جزءاً من إستراتيجية بارنالطمأنة البلاط أنه سيكون لدى الملكية الدستورية الوسائل للدفاع عن سلطتها ضد العصيان المسلح المتكرر، ومع ذلك كان عليه أن يخبر الملكة أن البذلات الزرقاء السماوية التي فضلتها على الزرقاء الداكنة الشرعية للحرس الوطني ستسم في الحال القوة بأنها مكونة من مرتزقة أجانب. وكعادته يقايض بطاقاته القوية بأخرى ضعيفة، وافق لويس على نزع السلاح الرسمي هذا، أولاً لأنه أراد نقض تنفيذ المرسوم الذي يمكِّن من نفي القساوسة المعاندين بمحاكمة سريعة بتوصية من عشرين مواطن إيجابي لا أكثر. وبعد ذلك بوقت قصير، نقض أيضاً اقتراحاً من وزير الحرب، سران Servan، لبناء معسكر مسلح من نحو عشرين ألف اتحادي من المقاطعات الذين لن يأتوا للاحتفال بالرابع عشر من تموز وحسب، بل سيتلقون أيضاً «تدريباً» (بطول غير محدد) قبل إرسالهم إلى الحدود.

وعارض روبسبيير معسكر الاتحاديين أيضاً بسخرية، حيث رأى فيه محاولة من الحكومة لاستخدام حراس المقاطعات لترويع مواطنيهم الباريسيين الأكثر تطرفاً سياسياً. لكن في نادي الكوردلييه Cordeliers، حيث مرة أخرى كان تنظيم العصيان المسلح يوجَّه،

لقيت محاولة الملك الضعيفة في الإصرار الذاتي الدستوري مجموعة كبيرة من الإهانات. فقد مُثِّلَت معارضته للفيدراليين في الصحافة باعتبارها برهاناً واضحاً على أنه هو نفسه يخطط للقيام بعمل مسلح من «قلعته» في التويلريه Tuileries. والسيدة رولان، التي أَمْلَت رسالة إلى زوجها التي يجب أن تحمل الموافقة الرسمية لوزير الداخلية، أنّبَت لويس السادس عشر بقسوة لوقاحته، وحذرت من أن «هذا ليس وقتاً للانسحاب أو مسايرة التيار. لقد صُنِعت الثورة في عقول الناس، وسيتم إنجازها وتثبيتها على حساب إراقة الدماء ما لم تُحبِط الحكمة الشرور التي لا يزال تجنبها ممكناً... أعرف أنه نادراً ما يُرحَب باللغة البسيطة للحقيقة قريباً من العرش لكنني أعرف أيضاً أن السبب هو أنه نادراً ما يسمع أن الثورات تغدو ضرورية».

غير أن لويس لم يبالِ بهذه التحذيرات ولم يسحب اعتراضاته، بل إن توبيخ رولاند الرسمي قد حرضه على إقالة الوزارة التي تحظى بتأييد أنصار بريسو كلها بعد يومين. كان هذا الانقلاب المفاجئ في الموقف فكرة ديموريز Dumouriez، الأفضل لتثبيت هيمنته الشخصية على الحكومة. وما إن أُنجز ذلك، حتى طُلِب من الملك أن يلغي اعتراضاته لتقليص أسباب الاضطرابات الشعبية إلى الحد الأدنى في الأقسام. لكن كان هذا تماماً نوعاً من الانحراف التكتيكي الذي كان لويس عاجزاً عن فهمه.

وفي 20 حزيران، حرك قادة الجمعيات الشعبية مظاهرات في الأقسام، لاسيما سانتر Santerre؛ وصدوق دانتون الجزار ليجندر Legendre؛ وخبير في الدعاية ومناضل جمهوري آخر لوقت طويل، فورنييه Fournier «الأمريكي» ؛ والمجنون السابق الماركيز دي سانت ـ هورج Marquis de Saint - Huruge؛ وجان فارليه Jean Varlet، مثل سانتر بورجوازي ميسور (في حالته كاتب في البريد) الذي اعتنق مبدأ جاك رو Jacques Roux في المساواة الاجتماعية. كانت كل هذه الشخصيات بارزة في نادي الكوردلييه Cordeliers الذي أُعيد إحياؤه؛ وكان لكثيرين منهم روابط في نوادٍ أخرى مثل الجمعية الأخوية للمواطنين المكونة من الجنسين. وانخرطت قائدات في حركة النساء الجمهورية مثل تيروان دي ميريكور Théroigne de Méricourt، ونصيرة حقوق المرأة (والجاسوسة) الهولندية إيتا بالم Etta Palm وابنة صانع الشوكولا بولين ليون Pauline Léon أيضاً في تعبئة الحشود. كانت لديهن بعض التجربة السابقة في الربيع عندما نظم اليعاقبة مهرجاناً تَطلَّب مشاركة الجمهور للاحتفال بالجنود الذين سُجنوا عام 1790 لدورهم في تمرد حامية نانسي Nancy . (انتقم اليمين فوراً بمهرجان مضاد لتكريم سيمونو Simonneau، رئيس بلدية

إتامب Etampes الذي قتله المتظاهرون من أجل الغذاء.)

لكن مهرجان سجناء نانسي كان قضية منظمة جيداً لأنها حظيت بمباركة اليعاقبة ولأن الترتيبات للمواكب العادية والموسيقى والخطابات ينبغي أن تكون مبرمجة بدقة مسبقاً. وكانت الأشياء مختلفة تماماً وفي 20 حزيران. كان الهدف المزعوم للحشد القادم من أقسام الحرفيين والفقيرة (لا يبدو أنهما الشيء نفسه) هو زرع شجرة الحرية في حدائق التويلريه. سيكون هذا فعل معارضة ضد إبعاد أنصار بريسو ونوعاً من وضع طقوسي لعلم الإخضاع في المعقل الملكي الأخير الباقي. ولما كان زملاؤه قد أُزيحوا بسرعة من الحكومة، لم يكن بيسون مهتماً على نحوٍ خاص بكبح هذا الاحتجاج، مع أنه كان دائماً ثمة إمكانية أن يتعرض أمن العائلة الملكية للخطر.

شُكِّل حشدان هائلان، الأول في ساحة الباستيل، والآخر في سالبتريير Salpêtrière، والتقيا في التويلريه؛ قادهما سانتر، كان في ذلك الحين نوعاً من قائد غير رسمي لرجال الحرس الثوري المسلح. وقد وصلا عند الواحدة والنصف بعد الظهر إلى مانيج Manège لطلب السماح بالدخول إلى الجمعية التشريعية لقراءة عريضتهم. كان تقديم العرائض المدعوم بالسلاح هو النوع الذي اعتزم قانون شابلييه منعه بدقة، لكن النواب، بمواجهة التهديد المباشر ومع جيرونديين مثل فرنود كانوا لا يزالون غاضبين حول صرف الحكومة لم يرغبوا في إبداء المزيد من المقاومة. وبينما كانوا يتجادلون، زرع الحشد شجرة طويلة للحرية ـ شجرة حور ـ في حدوقة الكابوتشين Capuchins وسُمح لهم أخيراً بالدخول إلى قاعة الجمعية وهم يغنون هذه إيرا «Ça Ira».

لكن ما تلا هذا العرض المشاكس والمرعب كان تعبيراً عن بداية النهاية لحكم لويس السادس عشر. تجمهر الحشد بأعداد كبيرة حول محيط حدائق القصر نفسها، مع قادته الذين كانوا مترددين فعلاً بالضغط للتقدم إلى الأمام. ولكن عندما أوقف رجال المدفعية في فوج فال ـ دي ـ غراس Val - de - Grâce، الذين ساروا مع المتظاهرين في ذلك الصباح، المدفع فُتِحت البوابات على مصراعيها لتجنب الصدام مع حشد مشؤوم من الناس بالإضافة إلى أي شيء آخر شرير في البال. وتدفق حشد ضخم إلى القصر غير المحمي، وجد الملك نفسه، وحده مع بعض الحراس غير المسلحين والخدم، في صالون لوي دي بوف Salon de l'Oeil de Boeuf.

لقد كانت أسوأ لحظاته وأفضلها. فقد واجه قادة الحشد مباشرة وبرباطة جأش استثنائية وهو يسند جسده الكبير إلى كوة في الجدار embrasure و، يتكئ أحياناً على



الصورة 154، للرسام جي. بي. ماليه، حفر، سلبايس هوغونين، أحد قادة الحشد الذي دخل التويلريه للاحتجاج على إقالة وزارة أنصار بريسو في 20 حزيران، 1792

المقعد، وينهض أحياناً أخرى. لوّحت المسدسات والسيوف المسلولة في وجهه. وادّعت بعض الروايات بأن قلب عجل، عُلِّقَ على نهاية رمح، كان يلّوح به هنا وهناك ليمثل «قلب ارستقراطي». وقد استخدم لويس بشكل مبكر اللغة القلبية الشبيهة بلغة روسو، وليظهر لجنوده الطويلي القامة الأقوياء أنه لم يكن خائفاً من الحشد الذي يشق طريقه إلى القصر، أخذ يد أحدهم ووضعها على صدره، قائلاً، «انظر، إنه لا يخفق». لكن ما من شك أن عصر ذلك اليوم كان محنة مروعة. كان لويس يرمى بصيحات «يسقط الفيتو، وإلى الجحيم بالفيتو» كما لو أن الفعل والرجل هما الشيء نفسه. وقد قيل إن الثوري المتطرف الجزار ليجندر قال له بصراحة، «سيدي، يجب أن تسمعنا. أنت وغد. لقد خدعتنا طويلاً، وما زلت تخدعنا. وقد طفح الكيل. وتعب الناس من تمثيل هذه المسرحية».

وردّ لويس على كل هذه الإهانات، دون أن يبدو أحمق. وقُدّمت له قبعة حمراء، فوضعها على رأسه، واقترح نخب شعب باريس والأمة. سيتذكر الملكيون المصدومون الإهانة باعتبارها تاج من الأشواك للويس السادس عشر. لكنه خلال الجدل الصاخب بقي صلباً في رفضه لسحب الفيتو أو إعادة وزراء بريسو. وقد لطّف هذا المركب من الكرم والكرامة بطريقة ما الغضب الشديد ومنع العنف وبالتأكيد. كان عصر ذلك اليوم طويلاً جداً ليعزز سيل الإهانات الأكثر شدة. وعند الساعة السادسة مساء شقّ بيسون، الذي غاب



الصورة 155، لويس السادس عشر يشرب نخب الأمة، 20 حزيران، 1790. والنقش الذي يقول، «أيها الأرستقراطيون، لا تقلقوا، الخائن لويس يشرب مثل رجل هيكل» يشير إلى أن الصورة أنتجت بعد 10 آب.

عن الأنظار طوال النهار، طريقه عبر الحشد إلى حضرة الملك مدعياً، بشكل غير معقول، للملك أنه قد سمع للتو بـ «الحال التي أنتم فيها». ورد لويس «هذا مدهش، لأن الأمر على هذه الحال منذ بضع ساعات». بعد خُطبٍ مطولة، رتب بيسون ليقنع الحشد بالمغادرة. وفي الثامنة مساء، اجتمع شمل لويس وماري أنطوانيت مجدداً في إحدى الغرف حيث أُخضعَت هي أيضاً إلى سيل من الشتائم المقذعة. وقد توازنا من الإعياء الشديد جراء الصدمة التي تعرضا لها بشعور الخلاص الكبير أنهما وأطفالهما لا يزالون بطريقة ما على قيد الحياة جسدياً. لكن كان واضحاً بالمثل أن إهانة 20 حزيران أزالت البقايا الأخيرة للهالة الملكية. وما لم يتم القيام بعمل عنيف ما، لن يعود بقاء السلطة الملكية مسألة، دع قابلية تطبيقها الدستورية جانباً. فكل ما سيبقى هو محاكمة وحشية للقوة.

لم يكن ما سيحدث في الواقع نتيجة مقررة مسبقاً تماماً. فقد كان لا يزال لدى الملك والملكة من يدافع عنهما. وحالما انتشرت أنباء ما حصل في العشرين من حزيران في كل أرجاء فرنسا، تدفقت عرائض الولاء من كل أنحاء البلد إلى الجمعية. حتى أن بعض جمعيات القسم أنكرت الفعل. وفصلت حكومة المقاطعة بيسون ومانويل Manuel من منصبيهما مؤقتاً بسبب الإهمال بالواجب. وبدأ عندئذٍ بعض زملاء بريسو، الذين كانوا مرعوبين أكثر مما هم سعداء بانتهاك حرمة القصر، مفاوضات سرية نشطة. وقد جاء غاديه Guadet لمقابلة الملكة في ذروة السجال على إبعاد ولي العهد Dauphin عن عائلته ليضمنوا له «تربية وطنية». فأرته الأمير نائماً وراء ستارة في الغرفة المجاورة، وإيلي غوديت، الذي كان يمثل جيله كثيراً كونه تأثر ببراءة الطفولة، فأحنى رأسه ذا الشعر النظيف المضفور فوق الصبي، أبعد الشعر عن وجهه وقبّلَ جبينه. ثم حذّر الملكة قائلاً: «إذا كُتِب له أن يبقى على قيد الحياة، يجب أن تربيه على حب الحرية».

استُقبِلَت عروض للمساعدة من جهات أخرى بحرارة أقل. وقام لافايت في الثامن والعشرين بمحاولته الأخيرة للسيطرة على مصير فرنسا السياسي. وظهر أمام الجمعية التشريعية ليطلب تنفيذ إجراءات الملكيين الكلاسيكية في إغلاق النوادي وكبح الصحافة وحظر العرائض. ولم يكن الذين أصغوا إليه متعاطفين نظراً لأنهم شكوا بأن هذا سيكون مقدمة لإعلان انقلاب عسكري. لكن لافايت لم يكن بونابرت. لم يحشد القوة الكافية بشكل مسبقٍ ليكون متأكداً من أن كلماته ستلفت الانتباه. في الحقيقة، لقيت محاولاته لتعبئة الحرس الوطني فشلاً يبعث على الكآبة. وقد تحدته الجمعية التشريعية أن يترك قواته

دون إذن بالمغادرة، ولم يحصل على ردٍّ ملائم. والأكثر إثارة للدهشة، لن يكون ثمة أحد من العائلة الملكية ـ ربما الشديدة الثقة بصلاتها الجديدة مع الجيرونديين ـ معه. لطالما كرهت الملكة بشكل خاص لافايت ودعمت بيسون فعلياً في انتخابات باريس البلدية لا لشيء إلا لتستمع برؤيته مهزوماً. وفي هذه المناسبة ذهبت إلى حد تنبيه بيسون مقدماً من التفتيش العسكري الذي سيحاول الجنرال من خلاله يجمع قوى الحرس الوطني.

عاد لافايت إلى موقعه العسكري في الألزاس مرفوضاً بازدراء من أولئك الذين أراد مساعدتهم وهدفاً للسخرية والكراهية في الصحافة. وقام، بعد سقوط الملكية في 10 آب، بمحاولة أخير في الموقع، ودعى رئيس بلدية سيدان Sedan وموظفيه إلى المراسم التي تدرب عليها كثيراً: تأدية اليمين الدستوري. لكنه بطريقة ما لم يستطع تقديم نفسه لأخذ الخطوة التالية في البدء بحرب أهلية. (بدأت دونه في أي حال.) وعندما فصلته السلطات الجديدة في باريس من عمله، عبَر الحدود إلى المعسكر النمساوي وأمضى السنوات الخمس التالية في سجنهم في أولموتز Olmütz. كان النتيجة البائسة للصبي الذي طاف في الغابات ليتواصل مع **ضبع الحرية**. لكنها لن تكون نهاية سيرة حياة لافايت كرسول للثورة الليبرالية.

ومع الجنرال خارج الطريق، كان الأمل الأخير في القوى اللافتة للنظر التي غدت مركز الاستقطاب يكمن في الجمعية التشريعية ذاتها. لكن أحداث 20 حزيران هزتها، بدلاً من أن تصلّب تصميمها. وبدأ قلق المندوبين على سلامتهم الشخصية يجرفهم بعيداً عن المناقشات، إلى حد أنه في أوج عصيان آب المسلح لم يكن ثمة أكثر من ربع الثمانمائة مندوب. انقسمت قيادة الجيرونديين حول ما إذا كان ينبغي إضافة مجموعتهم إلى مقاتلي القسم لتجنب مصادرة جماعة روبسبيير النفوذ كله، أو الدفاع عن النظام القانوني بالقوة. وفي 5 تموز أصدروا بياناً أعلن أن «الوطن في خطر patrie est en danger». لكن قوى الطوارئ التي جلبها مثل هذا التعطيل المؤقت لإجراء قانوني عادي كان وسيلة خطيرة لإضفاء الشرعية على سياسة الحكومة. وبينما أمكنهم تبرير الهجوم على النوادي والأقاليم، فيما ظل روبسبيير خائفاً، استخدمتهم تلك العناصر نفسها لإسقاط الحكومة والجمعية أيضاً.

وحاول لاموريت Lamourette، أسقف ليون الدستوري، يائساً من أي نوع من مصالحة واقعية، بدلاً من ذلك أن يحتكم إلى إحساس المندوبين بالمسرح العاطفي. فناشد كل أولئك الذين رفضوا، بشدة متساوية، طلبات اليمين بمحكمة من مجلسين وطلباتَ

اليسار بجمهورية، وطلب أداء «قسم أخوة أبدية» وأن يُختَم ذلك بعناق الأخوة. للمرة الأخيرة، وقف المندوبون، هتفوا، ولوّحوا بقبعاتهم في الهواء، وأعلنوا «الوطن مصان» وارتموا بين أذرع بعضهم بعضاً، تعانقوا وتبادلوا القبلات في نقلة كبيرة من نشوة جماعية. قد يكون هذا الحماس العاطفي هو ما قاد الجمعية بشكل طبيعي إلى الموضوع التالي، المعني بالسماح للأولاد بالزواج دون موافقة ذويهم. غير أن وفداً غاضباً من البلدية قاطع الجمعية فجأة عرف أن الإدارة فصلت بيسون ومانويل جراء مسؤوليتهما عن أحداث العشرين من حزيران، وتعهد الوفد بالوقوف معهما جنباً على جنب.

أفسح التقبيل مجالاً للشتم مرة أخرى. عندما بدأ الاتحاديون بالوصول إلى باريس، بدأت جمعيات القسم التي حضروا اجتماعاتها تطالب بتأسيس الجمهورية. وأطلقت صحيفة مارا «صدوق الشعب» نداءات صريحة إلى الفقراء، تسألهم لماذا «ينبغي أن يجني الأغنياء وحدهم ثمار الثورة بينما لم تربحوا أنتم من الثورة سوى الحق الحزين في الاستمرار بدفع الضرائب الثقيلة وتخضعون للتجنيد مثل الأتراك أو البروسيين». جاء كثيرون من الحرس الوطني الفيدرالي من مناطق في فرنسا حيث كان المواطنون الثوريون الأكثر استعداداً ـ بريتاني وميدي والشرق ـ قد استجابوا بلهفة لهذا النوع من الخطابة المثيرة. وفي الحقيقة، بما أن كثيرين منهم كانوا نائمين في أبنية تابعة للكوردلييه أو انتقلوا من هناك إلى الوطنيين ذوي الآراء الأكثر تطرفاً، فقد كانوا أسرى لأكثر الجدليات الجمهورية صلابة. حتى أن بعضهم أصغى للمطالب التي قدمتها ثيروان دي ميريكور Théroigne de Méricourt وبولين ليون Pauline Léon من أجل فوج نساء مسلح بالرماح.

كانت باريس تتحول إلى معسكر مسلح على نحوٍ ثابت ومشؤوم. كانت كل يوم تستعرض جماعات من الحرس في الأماكن العامة مدججة بالسلاح تغني: هذه إيرا «Ça Ira». وكانت الذروة، التي أعدها بعناية المتطرف شارل باربارو Charles Barbaroux منذ الربيع، هي وصول خمسمائة من الحراس في 30 تموز من مرسيليا وهم ينشدون نشيد روجيه دي ليسل Rouget de Lisle، الذي حمل اسمهم منذئذٍ. في اليعاقبة، أسس روبسبيير، الذي يبدو أنه اهتدى أخيراً إلى الوقت المناسب للعصيان المسلح، مكتباً لتنسيق قواهم. أُسِسَت لجنة مركزية أخرى للعصيان في الحكومة البلدية للكومونة Commune، مكونة من المندوبين الذين فوضتهم الأقسام وتشمل فورنييه Fournier وسانتر Santerre والصحفي المتطرف كارا Carra. وأخيراً كان دانتون الآن في الموقع الرسمي الذي تاق إليه كثيراً ينسق العديد من هذه الجهود لإنشاء قوة عسكرية شعبية متماسكة قادرة

على توجيه ضربة قاتلة. كان على وجه الخصوص في مركز قانوني أعلى كمندوب مدبر للكومونة، وهكذا كان في موقع استراتيجي أساسي لإعطاء الأوامر أو منعها كما يتطلب الوضع. عندما تشاجر الفيدراليون (لاسيما من مرسيليا) مع وحدات من الحرس الوطني الموالي، لم يُعمَل الكثير لملاحقة الأطراف المذنبة، وتزايد مناخ التمرد المزمن في المدينة خلال نهاية تموز بثبات.

وفي اليوم الأخير من شهر تموز، نشر قسم ماكونسيل Mauconseil خطاباً لمواطني باريس يعلن أن «الواجب الأكثر قدسية والقانون الأكثر بقاء هو أن تنسى القانون لإنقاذ الوطن». كان العدو يتقدم وقريباً جداً سيسلم لويس السادس عشر مدن الأمة إلى النار الدامية لطغاة أوروبا. «لقد لعب مستبد خسيس بأقدارنا لمدة طويلة... دون تسلية أنفسنا مطولاً بحساب أخطائه وجرائمه وأيمانه الكاذبة، دعونا نحطم تمثال الاستبداد هذا... لنتحد جميعاً لإعلان سقوط هذا الملك القاسي، ونقل بالإجماع، لم يعد لويس السادس عشر ملكاً للفرنسيين». وقالوا إن الإرادة العامة للقسم لم تعد تعترف به ملكاً لسيادتها.

خلق الإعلان فراغاً أخلاقياً وسياسياً الذي أعلنت منه، الأقسام، نظاماً جديداً كلياً أمكن إيجاده. وبعد ثلاثة أيام، عمَّق إعلان آخر من مصدر مختلف تماماً عمَّق بشكل مفاجئ فتحة البالوعة التي ابتلعت شرعية الملكية الدستورية. دخل البروسيون مبكراً في الصيف الحرب كحلفاء للإمبراطور وتقدموا خلال تموز بثبات ينذر بالسوء. وصدر إعلان نيتهم باسم قائدهم، دوق برنسويك Duke Brunswick، لكن من كتبه هو اللاجئ السياسي ماركيز دي ليمون Marquis de Limon. طلب من الشعب الفرنسي النهوض ضد «الخطط البغيضة لمضطهديه» وهدد «بمحن حرب» غير محددة أي متهور يقاومهم. في حال أي هجوم آخر على التويلريه، ستُختار باريس من أجل «فعل انتقام نموذجي لا يُنسى».

لا حاجة للقول، خَلُص الإعلان بدقة إلى النتيجة التي كان مفترضاً أن يتجنبها. فقد أعطى منظمي العصيان المسلح الفرصة التي انتظروها لرفع رهانات النزاع السياسي إلى الحرب الأكثر احتمالاً. في الحقيقة أخبر بيان برنسويك الباريسيين ومناصريهم المحليين بين الفيدراليين أنهم كانوا قد ارتكبوا أفعالاً سيعاقَبون من أجلها بلا رحمة؛ ولم يكن لديهم ما يخسرونه بالاستمرار حتى ينجزوا الهدف. كل ما أُخِذ بالاعتبار هو بقاء أولئك الذين هددوهم بعيداً عن أعمال الخيانة. وقد انتهت كل الحسابات إلى هذا القرار النهائي البدائي: اقتل أو تُقتَل.

لقد كان هذا الإدراك للخطر الكبير الذي بدَّل الأرجحية بشكل حاسم. فتمَّ القيام

بمحاولات لتعبئة الأقسام في أواخر حزيران، لكنها تُركت جميعاً معطلة. وقد سرّع بيان برنسويك تغييراً رئيسياً في ميزان القوة العسكرية في باريس. بدأ الحراس الوطنيون المحليون (الذين، بعكس عام 1790 لم يكونوا سعداء لاسيما برؤية مدينتهم يكتسحها الفيدراليون من الأقاليم) الآن بالتخلي عن وحداتهم. كانوا مستغرقين في أمر عام نظمه «مكتب المراسلة» الذي يديره اليعاقبة ويقوده ضباط إقليميون، ولاسيما الألزاسي فرانسواز جوزيف وسترمان François - Joseph Westermann .

مع أن مارا حاول أن يصور ثورة 10 آب أنها ثورة عفوية للغضب الشعبي الذي لا يمكن إيقافه، كانت الحقيقة هي العكس تماماً. لا توجد ثورة أُعدت بجد أكثر أو بوشر بها بتأنٍّ أكثر. كانت وزارة الملك حكومة من قش، مجردة من أي سلطة أو قوة. وكانت «مولاتها»، الجمعية التشريعية، في جزء من قوتها ودون أية قوة لتنفيذ مراسيمها أو حماية الدستور الذي أقسمت (مرات، ومرات كثيرة) على دعمه. وكان الحرس الوطني مضطرباً ومقسَّماً ويقاد بشكل متقلب، أكثر اهتماماً بحماية جوار باريس من العنف ضد الأملاك والأشخاص أكثر من اهتمامه بنتيجة الصراع السياسي. ما الذي، إذاً، وقف في طريق المتمردين؟ كان هناك رأي معظم الرجال والنساء الفرنسيين، الذين أُخبروا دائماً أن الدستور كان منيعاً وعلى الأرجح صدقوا ذلك، لكنهم تمثلهم الآن أقليات من المقاتلين، المسلحين الذين يتصرفون باسمهم في العاصمة. وبجدية أكثر، كان يتمركز ألفان من الجنود النظاميين، الذين ينتمي نصفهم إلى حرس الملك الشخصي السويسري، في التويلريه.

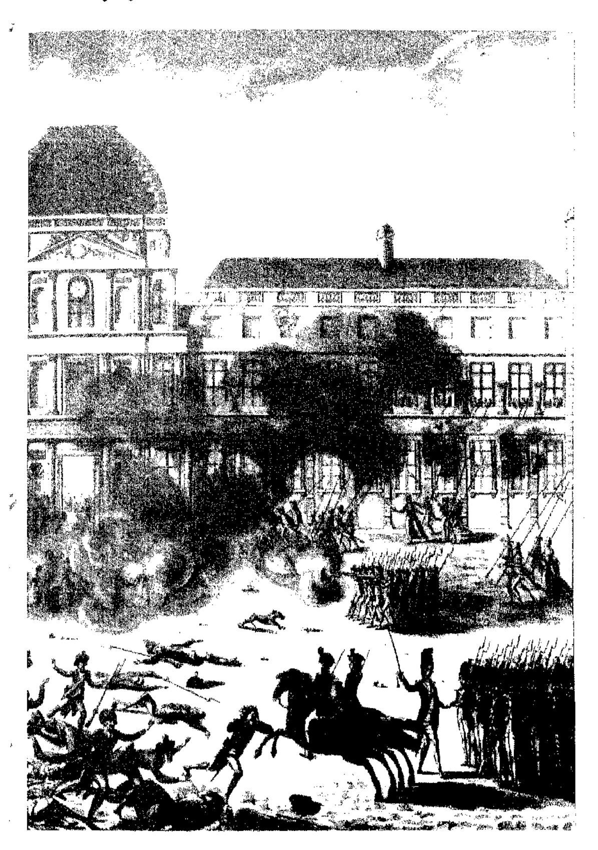
حقيقة لم تكن النتيجة في شك أبداً. لكن عندما دق ناقوس الخطر خلال ليلة التاسع ـ العاشر من آب، كان الكثير من الرجال الذين أخذوا طريقهم نحو أوتيل دي يل خائفين. بعد العشاء ذهب كميل ديمولان Camille Desmoulins وزوجته إلى شقة دانتون لرفع معنوياتهما لكنهما وجدا زوجة دانتون غابرييل Gabrielle في طوفان من الدموع. ولوسيل Lucile، التي تذكرت نفسها «تضحك مثل امرأة مجنونة»، أخذت زوجة دانتون لاستنشاق بعض الهواء في الشارع وعندما عادتا وجدتا حشداً كبيراً في الشقة. كان كل منهم يحاول التفوق على الآخر بالكلام المفخم الذي بدا مناسباً لفهمهم المنمق بإفراط لصنع التاريخ. لكن تحت التصريحات النبوئية، وضعت الإثارة والخوف الجميع على الحافة. وعندما انطلق كميل في الليل، يحمل بندقية مسكيت ويعد زوجته بالبقاء مع دانتون ذي الحجم الهائل الذي يشيع الطمأنينة، بدأت هي أيضاً تبكي بانفعال.

وفي أوتيل دي فيل أزاحت كومونة ثائرة «Insurrectionary Commune» جانباً سلطة المجلس البلدي المنعقد وشرعت تصدر الآن أوامر للحرس الوطني. ضمت الكومونة ثلاثة مندوبين، في المبدأ أرسلوا عبر «الإرادة العامة General Will» من كل من الأقسام الثمانية والأربعين. في الواقع، بالطبع، شُكِّلَت هيئة حصرياً من محاربي أقسام شرقي المدينة ومنطقة الضفة اليسرى المركزية التي شكلت الكوردلييه القديم. ضمت روبسبير، الحفار سرجنت، بيلاود فارن Billaud - Varenne وفرانسوا روبر François Robert. كان دانتون حاسماً بشكل واضح إذ لم يكن الشخصية القائدة، مع أنه عاد إلى البيت أثناء الليل بينما كانت المحاولات غير الناجحة الأولى تجري لتعبئة الأقسام المتمردة.

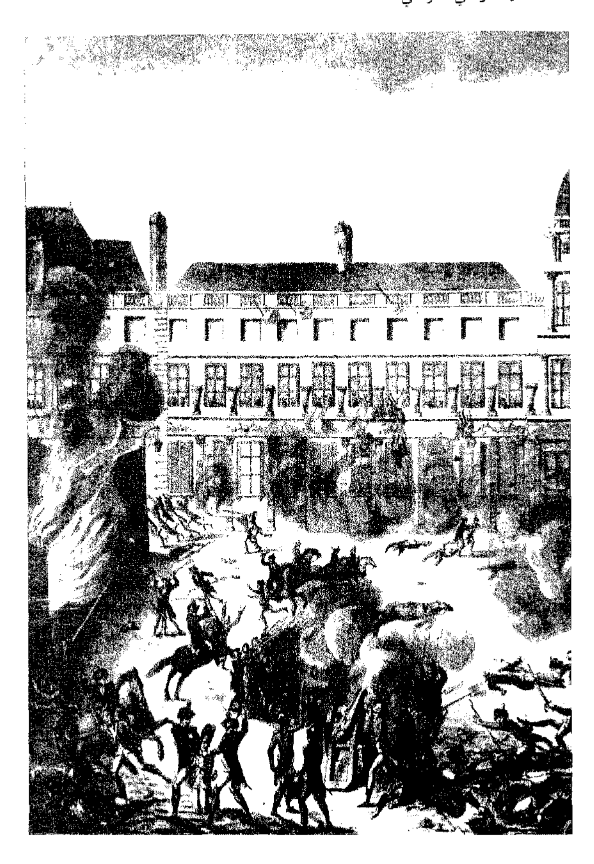
وفي الصباح الباكر يوم العاشر، بدا أن التنظيم الذي قام به قائد الحرس الوطني الموالي، الماركيز دي ماندا Marquis de Mandat، لإغلاق الجسور على نهر السين ومنع اتصال الجماعات المسلحة من سان مارسيل Saint - Marcel مع أولئك الذين هم على الضفة اليمنى، قد نجح. كان الملك واثقاً بما يكفي للدخول إلى الفناء المحصن بشدة واستعراض جنوده بعد الفجر. جعله الاستقبال المختلط الذي تلقاه مضطرباً فمن تصفيق ولاء من الحرس السويسري ومن جهة أخرى صيحات تحذيرية «تعيش الأمة» أطلقها الحرس الوطني الباريسي. توقع المدعي العام procureur - général للمقاطعة، رويدره Roederer هجوماً سريعاً، وقد حاول إقناع الملك بمغادرة القصر ووضع نفسه تحت رعاية الجمعية التشريعية. مع أنه التوى على سيفه، فعندما أعلمه رويدره والملكة أن «باريس كلها» تزحف، تبخر تصميم لويس. مشى وعائلته عبر الفناء بجلال قدر ما استطاعوا، يصغون للصيحات الغاضبة المتزايدة «لا نقض أكثر» و«تسقط الأوراق مبكراً هذه السنة»، أبدى الملك ملاحظة لِـ ريدره، وأشار إما إلى بعدٍ قَدَريٍّ أو إلى ولعٍ غير عادي بالمجاز.

فجأة تُرِكَ الملك ينتظر في المانِج Manège، حيث بقيت حفنة من المندوبين للحيلولة ببساطة دون الاتهامات بأن الأمة ذات السيادة لم تعد قائمة، ريثما وُجِد مكان له ولعائلته متوافقاً مع الحظر على حضوره أثناء المناقشات. ثم أُدخِل أخيراً مع أخته إليزابيث وماري أنطوانيت وأطفالهما إلى ساحة صغيرة مسوَّرة في المكان Logographie، المخصص للمراسلين الصحفيين الذين يسجلون الحوادث. داخل هذه الحفرة الصغيرة ذات الهواء الفاسد، ظللت وجوههم شبكة قضبان حديدية تشبه زنزانة cell - like grille، وما كان قد تُرِك من الملكية الفرنسية توقف على قدرها دون معين.

بعد نحو ساعتين، بدأ القتال جدياً. وكان واضحاً منذ مطلع اليوم أن الدماء ستتدفق



الصورة 156، لوحة لفنان مجهول، 10 آب في التويلريه. في الأسفل يساراً، الحرس الوطني يطلق رصاصة الرحمة على الحرس السويسري الراكع؛ آخرون يرمون أنفسهم من النوافذ. الثوريون حملة الرماح على اليمين ضمنهم امرأة.



بحرية أكثر من أي وقت منذ بدء الثورة. كانت الكومونة الجديدة قد استدعت الماركيز دي ماندات إلى أوتيل دي يل، ظاهرياً لتفسير رفضه لاسترداد المواقع الدفاعية للحرس. وعندما أنهى دانتون صراخه عليه سُحِب بعيداً ليُحتجَز ويُقتَل في الطريق، على الأرجح قتله أنطوان روزِنول Antoine Rossignol، عضو آخر في الكومونة. مع سلطة تنهار في المركز، لم تُبذَل أية محاولة لمقاومة جماعات الجنود المتمردين المنتقلين عبر السين. وعندما وصل صانع البيرة سانتر، يقود جنود الضفة اليسرى، وووصل أولئك القادمون من الضفة اليمنى مع قائدهم، ألكسندر Alexandre، إلى التويلريه أخذوا يتفوقون على المدافعين عدداً.

نتجت المذبحة التي تلت على نحو واسع من فكرة، كما في الرابع عشر من تموز 1780، أن كميناً مدبراً نُصِب للمهاجمين. عندما غادرت العائلة الملكية إلى الجمعية، انتشر خبر بسرعة بين الحرس الوطني أنه كان ثمة اتفاقية استسلام. وحُثَّ السويسريون على التآخي، وطرح بعضهم ظاهرياً الأسلحة. وقد شجع هذا الحرس على الذهاب إلى القصر، ليواجهوا وابلاً من النار لاحقهم في الفرار عبر البلاط الملكي. وعندما انتظموا ثانية، قاد وسترمان وفورنييه الهجوم المضاد العنيف مع المرسيليين في الطليعة يطلقون النار في طريقهم عبر المكان الخالي باتجاه القصر.

وفي النهاية سيعبر العدد عن حقيقة الأمر. ربما عرف لويس هذا وأراد أن يوفر مزيداً من الخسائر في الأرواح بكتابة ملاحظة تأمر الحرس السويسري أن يلقي سلاحه. ربما تذكر الرابع عشر من تموز، عندما هدَّأ إحساس حزين بالخيانة نفسه بقتل ضحية واحدة مخلصة، هي الحاكم دي لاوناي.

لكن الأمور حُلَّت بشكل مختلف في العاشر من آب. كان الحرس مطيعاً حتى الساعة الأخيرة في حياة الملكية، فشكلوا أنفسهم للتراجع إلى القصر عندما باغتهم المهاجمون وذبحوهم بوحشية حيثما وجدوهم. هكذا كانت هستيريا اللحظة حيث قتل الفيدراليون من برست Brest ـ بين معظم المقاتلين من الثائرين ـ لأن زيهم الأحمر يشبه زي الحرس السويسري إلى درجة قاتلة. وركض أولئك الجنود الذين استطاعوا مبكراً رؤية ما ينتظرهم باهتياج فخلعوا ملابسهم ورموا أسلحتهم وأحزمتهم الملفوفة. قفز بعضهم من النوافذ العالية في القصر إلى حجارة الرصيف في الأسفل ليبدأوا عملية المطاردة.

لكن في ظهر ذلك اليوم لم يُعطَوا لا مأوى ولا حماية. لوحقوا، ذبحوا، طعنوا، ضربوا بالسيوف، رموا بالحجارة، وانهالت عليهم العصي. جردت النساء الأجساد من

الثياب ومن أية ممتلكات وجدنها. فصل الجزارون الأوصال وقطعوا الأعضاء التناسلية وحشوا الأفواه الفاغرة بها أو أطعموها للكلاب. وما تُرِك رُمي للنيران المشتعلة، التي انتشرت إحداها إلى القصر نفسه. وحُمِّلَت القطع والأجزاء الأخرى من الجنود الستمائة الذين أُبيدوا في المذبحة كيفما اتفق على عربات إلى حُفر كلس عامة. وكانت، كما ظن روبسبيير، «الثورة الأجمل التي كرمت الإنسانية يوماً».

لكن مجزرة العاشر من آب لم تكن لحظة طارئة في تاريخ الثورة. كانت، في الواقع، نهايتها المنطقية المثالية. فمنذ عام 1789، وربما قبل ذلك، كانت رغبة السياسيين باستغلال إما تهديد أو واقع العنف هي التي أعطتهم القوة لتحدي السلطة القائمة. لم تكن إراقة الدماء نتيجة عرضية مشؤومة للثورة، بل كانت مصدر طاقتها. فشعر «النشيد الوطني» وخطابات الجيرونديين العظيمة تحدثت عن الوطن في الشعر المطلق في الحياة والموت. وعلى نحوٍ معاكس، إذا لم يكن بالإمكان إظهار الدم يتدفق فعلاً في الدفاع عنها لا يمكن إظهار أن فضائل الثورة تستحق أن يموت المرء من أجلها. لقد أصبحت الوسائل غايات.

CHAPTRE 14

Sources and Bibliography

The principal elements of the constitution of 1791 are published in Roberts, Documents (vol. 1, 347 - 66), and the debate on political clubs in the Constituent, with Robespierre's speech, ibid. (366 - 76). For the Feuillant attempt to stabilize the constitutional monarchy, see Marcel Reinhard, 10 Aû 1792. LA Chute de La Royauté (Paris 1969, chapter 8).

Robespierre has, of course, been the subject of countless biographies. Among the more recent studies are Norman Hampson's The Life and Opinions of Maximilien Robecpierre (London 1974), an interesting attempt to write the biography in the form of a historical discussion by different participants (pro and con), each of whom tries to sustain his point of view - along with a token "undecided|" George Rude is more orthodox and sympathetic in Robespierre: Portrait of a Revolutionary Democrat (New York 1985). David Jordan's The Revolutionary Career of Maximilien Robespierre (New York 1985)comes closest to exposing his political psychology and intense historical self - consciousness, but it should be read in conjunction with Carol Blum's fine study on Rousseau and revolutionary Ian - guage, Jean - Jacques Rousseau and the Republic of Virtue. Alfred Cobban, Aspects of the French Revolution (London 1968), also includes an excellent essay on Robespierre's application of Rousseauean ideals and Language. The enormous edition of Robespierre's Oeuvres Complétes, ed. Eugéne Déprez et al (10 vols., Paris 1910 - 1968) was completed in 1968.

For a good instance of the sharpening of the Revolution's war against the traditional Church, see Y. - G. Paillard, "Fanatiques et Patriotes dans le Puy - de - Dôme7 in Annales Historiques de la Révolution Française (April - June 1970). On the timing and geography of the waves of emigration, see Donald Greer, The Incidence of the Emigration During the French Revolution (Cambridge, Mass., 1951). For violence in the Midi, see, most recently, Hubert Johnson, The Midi in Revolution: A Study of Regional Political Diversity 1789 - 1793 (Princeton 1986); also the first chaprers of Gwynne Lewis, The Second Vendée: The Continuity of Counterrevolution in the Department of the Gard 1789 - 1815 (Oxford 1978), and a stimulating and important article by Cohn Lucas, "The Problem of the Midi in the French Revolution", in Transactions of the Royal Historical Society (1978, 1 - 25).

The origins of the war of 1792 are discussed in the outstanding book by T.C.W. Blanning, The Origins of the French Revolutionary Wan (London 1986). On the foreign clubs and legions, see Albert Mathiez, La Révolution Française et les Etrangers

(Pans 1919) Jacques Godechot, La Grande Nation: L'Expansion Rêvolutionnaire de La France darn le Monde 1789 - 1799 (Paris 1956, vol. 1); and Schama, Patriots and Liberaton (introduction and chapter 4). For Brissot's early career, see Robert Darnton, "A Spy in Grub Street", in Literary Underground (4170), which settles the issue of his pre - Revolutionary double allegiance but perhaps underrates the power ofhis patriotic rhetoric in the crucial winter of 1791 - 92. See also Eloise Ellery', Brissot de Warville: A Study in the History of the French Revolution (Boston and New York 1915). On Vergniaud, see Claude Bowers, Pierre Vergniaud: Voice of the French Revolution (New York 1950).

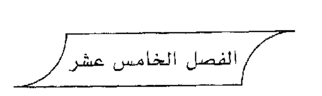
The best way to study the extraordinary patriotic oratory of this period is to read it, uncut, in the Archives Parlementaires or the Moniteur, where it springs to life with startling vigor and resonance. Historians have just rediscovered the importance of rhetoric in the Revolution, but a much earlier generation was well aware of it. See, for example, the classic work of Alphonse Aulard, L'Eloquence Parlementaire Pendant La Révolution Française, vol. 1, Les Orateurs de L''Assemblée Constituante (Paris 1882), and for the great speakers of the Legislative Assembly, vol 2, In Orateurs de la L'gislatjf et de La Convention (Paris 1886). There is a helpful introduction in the excellent collection of speeches published by H. Morse Stephens, The Principal Speeches of the Statesmen and Orators of the French Revolution 1789 - 1795 (2 vols., Oxford 1892). For more recent treatments, see Lynn Hunt, "The Rhetoric of Revolution", in Politics, Culture and Class (19 - 51); Gumbrecht, Funktionen der Parliamentarischen Rhetorik; Schama, "The Self - Consciousness of Revolutionary Elites", in Consortium on the French Revolution; and Starobinski, "La Chain, la Tribune, le Barreau", in Nora(ed.), Les Lieux de Mémoire, vol. 2, La Nation. Pierre Trahard, in an unduly neglected introductory work, La Sensibilité Révlutionnaire (Paris 1936), also had much of interest to say on this same topic.

On the history of the "Marseillaise", see the splendid essay by Michel Vovelle, "La Marseillaise: La Guerre ou la Paix", in Non (ed.), Les Lieux tie Mémoire, vol. 1, La République (85 - 136); also Julien Tiersot, Rouget de Lisle (Paris 1916). On the effect of politics on the an - my at the beginning of the war, see Scott, The Response of the Royal Army (chapters 3 - 5).

For the economic crisis of spring and summer 1792, the exceptionally clear and helpful book of Florin Aftalion, L'Economie de la Révolution Française (Pans 1987, chapters 4 - 6), is an indispensable guide. It also demonstrates the disastrously inflationary consequences of the monetary policy of the Constituent and Legislative Assemblies. See also S. E. Harris, The Assignats (Cambridge, Mass., 1930). On the development of sans - culotte consciousness, see R. B. Rose, The Making of the Sans - culottes (chapters 8 and 9); On the cult of the bonnet rouge, see Jennifer Harris, "The Red Cap of Liberty: A Study of Dress Worn by French Revolutionary Partisans 1789 - 1794", in Eighteenth - Century Studies (1981, 283 - 312).

Reinhard is especially good on the preparation of the revolution of August 10 and on the details of the day itself. The major, gigantically detailed work on the

organization of the insurrectionary Commune (though not on the events of the day itself) remains Fritz Braesch, La Commune de Dix Août, 1792: Etude sur L'Hiuoire de Parisde 2o Juin au 2 Décembre 1792 (Paris 1911). Morris Slavin has questioned Braesch's classification of the political complexion of the Paris sections: see his "Section Roi - de - Sicile and the Fall of the Mortar - chy", in Slavin and Smith (eds), Bourgeos, Sans - culottes and Other Frenchmen (59 - 74). For another of Slavin's fascinating micro - studies see his The French Revolution in Miniature: Section Droits de L'Homme 1789 - 1795 (Princeton 1984).



الفصل الخامس عشر

دماء غير نقية

آب 1792 ـ كانون الثاني 1793

I ـ محرقة من أجل الحرية

نُصِبت المقصلة في كاروسيل أمام التويلريه، في وقت غير معلوم خلال الأسبوع الثالث من شهر آب. لم تكن «الآلة»، كما سميت بشكل عام، بدعة بالكامل، لأنها وُضِعت في الاستخدام المتقطّع منذ نيسان عام 1792، وفي المكان التقليدي لتنفيذ أحكام الإعدام العامة في موقع دي غريف. كان مزورو العملات هدفاً مميزاً للحقد الشعبي، ولذلك كان قطع رؤوسهم نوعاً من حدث هام. وكانت «الآلة» للحشود التي تعوّدت على مشاهدة طقوس المواكب التكفيرية المطوّلة والغنية عاطفياً، وعلى الاعترافات العامة بصوت عال، وارتعاش الجسد كما لو أنه بلغ الذروة على المشنقة، وعرض بقايا الشنق، وحتى في بعض الحالات النادرة لمحنة التحطيم المطولة على دولاب، نوعاً من خيبة أمل واضحة. كانت سريعة جداً. لقد اختزلت الجلّاد إلى نوع من فعل آلي قليل الشأن مثل خادم يشد حبل جرس، مجرد هسهسة وصوت عالٍ لضربة، حتى الرأس لا يظهر أحياناً.

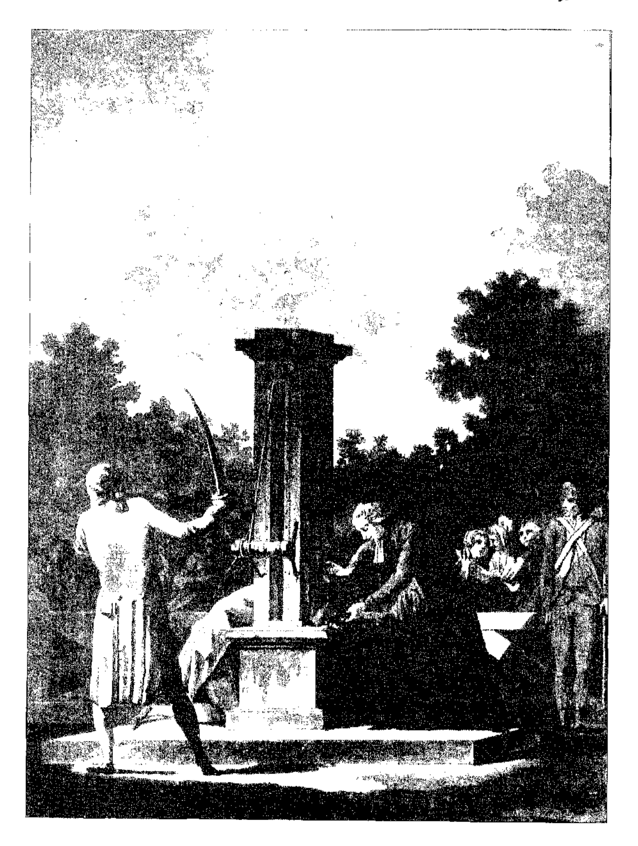
ولكن هذا التقليص المتقشف لمشهد العقوبة هو بالضبط ما تخيّله مصممو «الآلة». فقد اقترح الدكتور جوزيف إغناس غيلوتين Joseph Ignace Guillotin، ممثل الجمعية الوطنية، في كانون أول عام 1789، إصلاح عقوبة الإعدام بالإبقاء على الحالة المعادلة المنسجمة مع المواطنين جميعاً من خلال إعلان حقوق الإنسان. وبدلاً من الممارسات البربرية التي تحط من قدر الجمهور والمجرم على حدّ سواء، تمّ تبني طريقة فورية جراحية. لن تكون الطريقة مجرّد عملية قطع رأس يجنّب السجين الألم غير المبرر، بل

ستقدّم للمجرمين العاديين الإعدام الجليل المحجوز حتى الآن للطبقات صاحبة الامتيازات. وأزال الاقتراح وصمة عار الجريمة عن عائلة المدان و، الأكثر أهمية حمى ممتلكات المجرمين من المصادرة المطلوبة تبعاً للممارسة التقليدية.

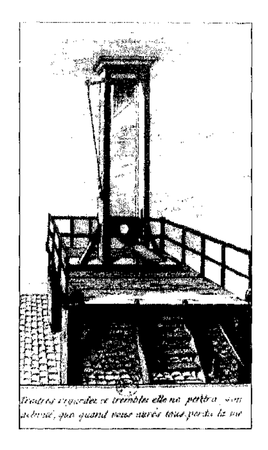
وتشير لوحة جميلة إلى حدٍّ ما رُسمت لتوضح إنسانية آلة غيلوتين إلى السكون المهيب بدلاً من عقوبة الموت المروّعة. مكان المشهد ريفي لأن الطبيب الصالح أراد أن يُنقَل موقع الإعدام إلى خارج، المدينة، بعيداً مما ظن أنه مشهد بدائي لرعاع المدن. العمل رواقي، وربما حتى عاطفي، لأنّ الجلّاد أيضاً حُوِّل من مهني قاسٍ مفتول العضلات إلى روح مرهفة الأحاسيس ضرورية لتحويل نظره عندما يقطع الحبل بسيفه. المعترف المحّب للخير قادم مباشرة من اعترافات روسو de Foi d'un Vicaire Savoyard ويُبعَد المشاهدون القلائل عن الآلة بحاجز يحرسه جندي جامد الشعور لا يتحرك.

لم يكن بالإمكان المحافظة على تفكير عصر التنوير الأخير حيال عقوبة الإعدام أكثر من ذلك. كان هناك مندوبون إلى الهيئات الانتخابية، روبسبيير على نحو جدير بالذكر، الذي سيفضّل إلغائها الكامل كما أوصى بيكاريا Beccaria (إلا في حالات قتل الملوك أو ارتكاب جرم الخيانة العظمى). وإذا كان يجب الاحتفاظ بعقوبة الإعدام فينبغي أن تكون سريعة ورحيمة وتستهدف المنفعة. وفي عام 1777، أوصى مارا بنوع من طريقة تجمع بين القسوة المانعة والفعالية غير المؤلمة، وبدت الآلة التي وصفها الدكتور غيلوتين أمام الجمعية الوطنية تُحقق هذه المزايا كافة. وقد قوبل وصفه (كما ورد في تقرير صحفي في جريدة Journal des Etats Généraux)ـ «تسقط الآلة كصاعقة فيطير الرأس وينبجس الدم ولا يعود الإنسان موجوداً» ـ بتقدير كئيب أقل من ضحك عصابي. وبينما تمّ تبنّي المواد الإصلاحية الأخرى التي اقترحها عام 1790، لم يُعمَل بالمقصلة إلا بعد مضي عامين على استخدامها.

واقترح المركيز السابق لبيلتيه دي سان فارغو Lepeletier de Sant Fargeau، وهو يعقوبي متطرف، في 3 حزيران عام 1791، أن يواجه كل شخص، يُدان بعقوبة الموت، عقوبة قطع الرأس نفسها. لكن لا توجد إشارة بعد أن هذه المعاملة المتساوية كان يجب أن تُطبَّق آلياً. وكانت تلك التحفظات التي عبَّر عنها الجلاد العام تشارلز هنري سانسون وحدها التي قادت الحكومة الملكية Feuillant في ربيع عام 1792 إلى النظر في هذه الآلة مرة ثانية. كان قلق سانسون (كمهني فخور بمهنته) من أن قطع الرأس سيقدم فرصاً لعاثري الحظ أكثر من الشنق، ولاسيما مع عدد كبير من القضايا. فقد تكون الشفرات



الصورة 157، آلة الدكتور غيلوتين، عام 1789



الصورة 158، ل[وحة ترمز إلى هذه المقصلة باقية بينما الخونة اعدموا، وهي عقاب لكل خائن

كليلة، والجلّادون غير بارعين، وقد لا يُبدي الذين يجب قطع رؤوسهم الهدوء المتوقع من السادة. وهذا ما يجعل عمل الجلاد شاقاً جداً.

وكما يوضح دانييل آراس في دراسته المميزة أن الدكتور غيلوتين تخلى عن الآلة، ربما منزعجاً من إخفاق الهيئة التشريعية من أخذها على محمل الجد. لكنّ الدكتور لويس، أمين السر الدائم لأكاديمية الجراحين (ومؤلف مقالة عن الموت في الانسكلوبيديا) أنقذ المشروع في مذكرة تتسم بمعالجة فكرية رفيعة مطمئناً الهيءة التشريعية أن أداة مثل هذه ستكفل السرعة الفورية بإلحاق الألم الشديد بأنسجة الرقبة. وتمّ تكليف صانع البيانو الألماني توبياس شميدت Tobias Schmidt بصنع النموذج الأصلي في نيسان. وقد أنهى عمل ذلك في أسبوع، وفي السابع عشر من نيسان، تمت تجربة الإعدامات في باحة سجن بيسيتر على الجثث، ورغم أن النتائج جاءت مقنعة، فقد شعر شاهد واحد على الأقل أنه إذا كانت العدالة تقتضي حلاً مثل هذا فإنّ الإنسانية لا يمكنها أن تشاهده دون أن «ترتعد».

ويبدو أن الدكتور غيلوتين استاء دائماً من حقيقة أن وسيلة آلية لا شخصية لا بدّ أن تقترن باسمه ـ مع أنها حملت في بدايات عملها اسم لويزون أو لويزيت، اسم مطوّرها الأحدث. وأصرّ أن اقتراحه كان دائماً خيّراً وإنسانياً. لكنّها كانت بالتأكيد تعبيراً عقابياً عن النزاهة بأنّها قُدِّمت لقطع رأس المجرم الأول، نيكولاس بيلتيه Nicolas Pelletier في 25 نيسان/ابريل عام 1792، الذي اقترف جريمة سرقة بالعنف. وبدت المقصلة للسلطات، التي تتنافس لتكون المستفيدة منها، طريقة مثالية لاستعادة السيطرة على العقوبات العنيفة، عقب انهيار الملكية. عندما استخدمت في العشرين من آب لقطع رأس لويس كولوت دانغريمون Louis Collot d'Angremont، أمين سر إدارة الحرس الوطني (المتهم بالمشاركة في المؤامرة الملكية)، عادت إلى الأغراض الاستعراضية والنموذجية التي قصدت كل من نزعة غيلوتين «الخيرية» وميول لويس النفعية أن تستبعدها. وقد اختير موقع دو كاروسيل du Carrousel لتنفيذ الإعدام بدقة لأنه كما قيل إن المجرم قد اقترف خداعه هناك. وشُجِّع الناس إيجابياً لتحمل مشاهدة كفّارته والقسوة السريعة التي حققتها عدالة الأمة.

كان المقصود أن يكون ذلك معارضة مدروسة لوحشية ما كان يعبر عنه بصورة ملطفة أنه «عدالة شعبية»، أو بتعبير آخر، إعدامات تلقائية عاجلة دون محاكمة وضربات وطعنات قاتلة، وإذا كان ممكناً تصحيح ذلك. كان ثمة عنصر مكر في هذا الموقف الرسمي طبعاً. فلم تكن البدايات الأولى للثورة عام 1789 تتسم بذلك عملياً وحسب بل سيطرت على السلطة من خلال ممارسة هذه العقوبات التلقائية وجرائم القتل دون تمييز في الشارع. وإرادة الساسة أمثال بارناف بالتسامح مع هذه الأعمال، لتجد نفسها ونظامها في نهاية المطاف في موقع المتلقي، جعل فكرة «العدالة الشعبية» عنصراً هاماً في شرعية التعبير الذاتي عن «سيادة الشعب». وقد حاول هؤلاء الذين في السلطة، في كل مرحلة من مراحل الثورة، أن يستعيدوا احتكار الدولة للعنف العقابي، لكن ليجدوا أنفسهم محبطين بمناورات أشد براعة أمام الساسة المعارضين الذين أقرّوا العنف الشعبي من جانبهم، أو حتى نظّموه لغاياتهم الخاصة. وقد عنى واقع أن الأسلحة كانت آنئذٍ بشكل آمن في أيدي الشرطة غير الرسمية للإرادة الشعبية أنّ الطريقة الوحيدة لفرض سلطة الدولة هي المجابهة العسكرية التي بدت بذاتها مسوغاً للمزيد من أعمال العنف في الشوارع. وتحولت المشكلة الأساسية للحكومة الثورية عندئذٍ إلى الجهود لإدارة العنف الشعبي باسم الدولة، لا أن يكون ضدها. وقد أخفق اليعاقبة في تحقيق ذلك دون استخدام الأشكال الأكثر شدة في السلطة الاستبدادية.

وفرضت المشكلة ذاتها بعد انهيار الملكية، في العاشر من آب. فأعادت بقية الجمعية التشريعية إلى «مجلس تنفيذي مؤقت» الوزراء الجيرونديين الذين طردهم الملك ـ رولاند و كلافيير وسرفان ـ وأضافت إليهم وزيرين من اليعاقبة هما عالم الرياضيات مونج، وفي وزارة العدل دانتون، الذي تدخل شخصياً لحماية جماعة من الحراس السويسريين السجناء من مجزرة عرضية في الشارع في الحادي عشر لكنّه قدّر أنّ نوعاً ما من المسؤلية المؤسساتية حاسمة إذا كان لا بد من وضع العطش الشعبي إلى «الانتقام» تحت السيطرة. وفي الأسابيع التي تلت الانتفاضة لم يكن مركز القوة، في أية حال، في الجمعية بل في «الكومونة المنتفضة» في فندق دي فيل، الذي أصدرت منه التعليمات لموظفيها، رئيس البلدية بثيون والمدعي العام مانوِل، اللذين أعادت تعيينهما أيضاً. وكان ذلك في الكومونة أن الأوامر كانت الأكثر عنفاً لنوع ما من محكمة عسكرية استثنائية لمحاكمة «مجرمي» العاشر من آب (غدت أحداث ذلك اليوم توصف بشكل روتيني الآن بأنها مؤامرة ملكية). وتمّ تشكيل هذه المحكمة في السابع عشر، بأعضاء كان يجب أن يعينهم قائد الحرس الوطني الجديد في باريس، سانتير، وكانت أحكامها وعقوباتها تستبعد صراحة أي نوع من الاستئناف.

كان موت كولوت دانغريمونت على المقصلة أول حكم بالإعدام يصدر عن المحكمة الخاصة ويُنفّذ. وتبعه صحفي ملكي، هو دو روزوي، ومدير المدفوعات الملكية، أرنود دي لا بورت. ولكن من وجهة نظر المتشددين في الكومونة أمثال روبسبيير ومارا، كانت هناك حالات أخرى مثيرة للخيبة. فطالبوا، على الأقل، وحصلوا من الهيئة التشريعية على قوّات شرطة مكثّفة لتوقيف واستجواب وسجن المتهمين دون أي شيء يشبه العملية المطابقة للعرف والقانون. وقد عُهد بهذا العمل إلى لجنة المراقبة التي ضمّت في عضويتها اثنين هامين من أصدقاء دانتون أيام مقاطعة الكوردلييه هما: النحات سرجنت والمحامي بانيس. ومع ذلك يصعب التأكيد على أنه في الأيام الأسطورية للحرية الثورية، عام 1789، حيث أنشأت الهيئة الدستورية اللجان التنفيذية التي استأنفت كثيراً من أعمال الشرطة والتجسس وسلطة الحجز التعسفي التي ارتبطت بالنظام القديم، فلم تقم دولة بوليسية ثورية حقيقية في باريس حتى آب عام 1792.

خلال الأسبوعين بين السابع عشر من آب ومذابح السجن في أوائل أيلول أُدخل أكثر من ألف شخص إلى السجن بموجب مذكرات توقيف واهية. كانت غالبية هؤلاء السجناء كهنة مقاومين، وقد تم اعتقالهم من الحلقات الدراسية والكليات والكنائس ـ

وأحياناً من بيوتهم حيث اختبأوا بثياب العامة. وكانت الأهداف الأخرى أياً من الأشخاص الذين صُنّفوا بأنهم كتبوا العرائض ضدّ متظاهري العشرين من حزيران، أو ضدّ مقاضاة لافايت بسبب تخلّيه عن منصبه. وتمّ إغلاق الصحف الملكية كلها في ليلة وضحاها، واعتقل محرروها وعمال الطباعة، وحطمت تجهيزاتها. وتمّ اعتقال أعداء أقلّ تهديداً بشكل واضح لـ «سيادة الشعب»، وبصورة قطعية، بمن فيهم عملياً الخدم الشخصيين للملك والملكية جميعاً، وبينهم مربية الأطفال السيدة دي تورزل، التي لعبت دور البارونة كورف في الرحلة التعيسة إلى فارين. ومع ذلك، كانت عملية الاعتقال الأكبر في هذا الانحدار لعمل المحكمة، اعتقال صديقة ماري أنطوانيت القديمة الأميرة دي لامبال، التي مع أن الملكة استبعدتها إثر بروز عصبة بوليناك ظلت إليزابيث وفيّة بشكل مؤثر. عندما رحلت أخوات بوليناك إلى الجبهة مع أرتوا عام 1789، قررت البقاء مع الملكة وأصبحت القيّمة على أعمالها المنزلية. وعلى الرغم من أنّ موجات الكتابة الإباحية المتكررة صورتها روتينياً أنها مومس سحاقية، فلم تستطيع الظهور في دور أدنى. لقد فقدت ضفائرها الشقراء بريقها وحيويتها، لكنّ وجهها كان لا يزال يمتلك خاصة ملائكية خارقة، وكأنّه يتوضّع باستمرار لتصويره بإحدى عيني غروزيه الأنثوية. وفي سجن تمبل Temple حيث احتجزت العائلة الملكية بعد ثلاثة أيام في لوغوغرام مانيج، بقيت تعمل في خدمة الملكة. قال الحراس الذين جاؤوا لأجلها وبقية الخدم أنهم مطلوبون للتحقيق وحسب، ولكن كل من إليزابيث وماري أنطوانيت خشيتا على نحوٍ واضح أنهما لن ترى إحداهما الأخرى ثانية. فتعانقتا بنوعٍ من الرقة الوداعية التي لا بد أن الصحافة المشوهة للسمعة أبلغت في تقاريرها أنه كان عناقاً فاسقاً.

صار الاعتقال لا يميز على نحو ينافي العقل في مرحلة ما. فاعتقل الأب سيكارد، الذي كان بطلاً شعبياً بين حرفيي باريس باسم الأب مدير معهد الأطفال الصمّ والبكم، وأُودع في سجن آبي Abbaye مع عدد كبير من الكهنة. وفي اليوم الثلاثين جاء مندوبون من المعهد إلى المجلس التشريعي للمرافعة من أجل إطلاق سراح «مرشدهم وراعيهم ووالدهم، الذي احتجز كما لو أنه مجرم. إنه جيد وعادل وطاهر»، وتابع المندوبون القول:

> *وهو الذي علّمنا ما نعرف، ولولاه لكنّا كالبهائم. ومنذ أن انتزع منا نحن حزانى و يغمرنا الأسى. أعيدوه إلينا وستجعلوننا سعداء.*

تأثر مندوب بهذه التظاهرة وعرض أن يودع السجن بدلاً من سيكارد، لكنّ لو كوينيو، عضو آخر، أثار عدم إمكانية تجزؤ العدالة الثورية، وأصر على أنه يجب ألّا تكون

هناك استثناءات خاصة، وأُبعِد وفد الصغار الحزانى. وسيكلف الرفض سيكارد حياته قريباً جداً. وفي النهاية، مكنّت أعمال الشرطة البعض أخيراً من تسوية حسابات قديمة. فمنذ أن تنازع بيومارشيه ومارا على قضية كورمان Kornmann Affair، التي دافع بيومارشيه فيها عن سمعة الزوجة في قضية معقدة وأيّد مارا شرف الزوج المظلوم، تبادل الاثنان الكراهية.

وقد تعرّض منزل الكاتب المسرحي الكبير للتهديد غير مرّة في حي سان أنطوان من المشاغبين الشعبيين، لكنّه لم يُصَب بدمار خطير أبداً. والآن اتهمته الكومونة بشراء كمية كبيرة من السلاح لأهداف مريبة (كما اشترى السلاح للحرب الأمريكية). سرت شائعات أنّه صانع أسلحة حقيقي، وجرى تفتيش بيته في اليوم الذي انهارت فيه الملكية. وقد أعتقل في الثالث والعشرين من الشهر. ووجدت المحكمة أن الاتهامات الموجهة إليه ليس لها أساس ـ وأخبر بيومارشيه أن يُطلق على نفسه المواطن كارون من الآن فصاعداً ـ كان على وشك الخروج من السجن عندما دخل خصمه اللدود الذي أرسله إلى سجن آبي، حيث نجا من الموت أيضاً بإطلاق سراحه قبل أربعة أيام من بدء المذابح.

وفي الثامن والعشرين من آب، بناء على أمر دانتون، أجيز ما دُعي تهذيباً «زيارات منزلية»، بحثاً عن الأسلحة النارية ظاهرياً، التي يجري الدفاع بها عن الوطن المحاصر، لكن غالباً جداً للبحث عن مشبوهين أو وثائق مشبوهة. قال الإعلان: «كل شيء ينتمي إلى الوطن عندما يكون الوطن في خطر». كانت الزيارات تتم في ساعة متأخرة من الليل أو في ساعات الصباح الأولى، وعلى نحو مميّز لاعتقال السكان في بيوتهم. سيقرع عشرة رجال أو أكثر الباب، ويملؤون الغرفة بالسيوف والرماح والبنادق. وبينما كانت التجربة مروّعة بوضوح لغالبية الناس، اعتقد بعضهم على الأقل أنها استعراض لليقظة الوطنية. فعلى سبيل المثال لا الحصر، كتبت السيدة جولين دي لا دروم، التي قللوا من شأن عرض بندقية صيد أبيها بتهذيب، كتبت إلى زوجها: «إنني موافقة على هذا الإجراء ويقظة الشعب إلى درجة أحببت أن أصرخ برافو! تعيش الأمة». اعتقدت أنّ «الأغبياء أو المجرمين» وحدهم يمكن أن يخافوا من تلك الزيارات. عاشت السيدة جولين دي لا دروم في مونتان سان جنفييف، إحدى مناطق باريس التي حدثت فيها اعتقالات كثيرة، وراقبت طلاب الحلقات الدراسية يتعرضون للدفع في الشوارع، وسخرية الحشود منهم، وقذفهم بالطين ويتلقّون اللكمات على الوجوه والأجساد، تحمست، «يا لها من عملية ضخمة! ما أروع الدفاع عن مصالح الشعب المهددة!».

كانت عمليات جمع الناس طموحة في اندفاعها إلى درجة أنها أثارت بقية الجمعية للعمل ضد الكومونة ولجان الشرطة التابعة لها. وقد رُفِع طلب لحلّها واستبدالها بلجنة يجري انتخاب أعضائها سريعاً، في 30 آب. وقد اتسم أثر هذه الحركة بسوء الطالع. فعلى الرغم من أنّ عدداً من الأقسام الأقلّ تطرّفاً انزعجت من عمليات التفتيش الاعتباطية والاعتقالات التي تمّت خلال الأسابيع السابقة، أدّى هذا التحدّي الصريح للكومونة إلى دعمها. فشجب روبسبيير ومارا واليعاقبة المتطرفون التحرّك بوصفه محاولة لحرف الثورة عن مسار العاشر من آب، ومسعى لحماية المجرمين والخونة من نتائج أفعالهم الشنيعة. وتحت تلك النيران الماحقة ـ وبصورة خاصة جداً تحت التهديد بالرعب الجسدي الأوسع من الأقسام المسلحة ـ سحبت الجمعية طلبها بعد يومين. ستبرز كومونة جديدة إلى حيّز الوجود بالإضافة مؤتمر وطني جديد كان يجب أن يُنتخَب (بأفكار تنسجم كثيراً مع الآراء والمعطيات التي اقترحها روبسبيير في 29 تموز) بحق اقتراع عام للذكور لسنّ دستور جديد وليس ملكياً على نحوٍ يمكن التنبؤ به.

لم تكن الحاجة لقوات شرطة طوارئ ماسة لو لم يكن هناك أيضاً أزمة حقيقية وكارثة كامنة في الوقت نفسه. بهدف تنفيذ استراتيجية تمّ الاتفاق عليها مع حليفهم الإمبراطور النمساوي، عبرت جيوش ملك بروسيا الجبهة الفرنسية في 19 آب. واستسلمت قلعة لونغواي الدفاعية الهامة بعد أربعة أيام من المقاومة المحدودة للقصف المدفعي. وواجه حصن فردان الحاسم، في الثلاثين من آب ـ لأول مرّة، وليس لآخر مرّة في التاريخ الحديث ـ حصاراً بروسياً. إذا سقط، وكانت التنبؤات غير سارة، لكانت الدرب إلى باريس ممهدة عبر وادي المارن.

تزلزلت العاصمة، في هذه الظروف، بمزيج من الرعب والانتعاش العسكري. لقد جعلت الخطوات الحلزونية للحملة النمساوية في فصل الربيع السابق الباريسيين يستغرقون في التفكير «بالحرب الوطنية» أنها معركة تخاض بعيداً وعلى الأغلب تشمل حقول الكتّان واللفت البلجيكية. لكن بمفاجأة مدمّرة، بدا العدو عند بواباتهم. وعلاوة على ذلك، بدت الثورة التي أنجزوها لتوهم في تحدٍّ مدروس لبيان برونسويك سيعرِّضهم لعقوبة رهيبة، إذا ما نجح الغزو. وفي الحقيقة انتشرت القصص البغيضة التيوتونية[1] التي اقترفت في مسرح

(1) التيوتونية لغة ترجع إلى الأصل الألماني - المترجم.



الصورة 159، وات ودي ليل، رحيل المتطوعين، لاحظوا صورة أب المتطوع في زي عسكري على الجدار الخلفي، يحض ابنه على الواجب الوطني.

الحرب: اغتصبت نساء الفلاحين وشوّهت، سُمّر الأطفال وقُذِفوا في مشعلة ـ الكابوس العسكري النموذجي. وفي رد، أمر المجلس التنفيذي المؤقت بتجنيد قوة من ثلاثين ألف متطوع حالاً لإرسالهم إلى الجبهة وإنشاء حواجز معززة جديدة عند أسوار المدينة.

أصدر هيرول دي سيشيل (رئيس الهيئة التشريعية الآن) بياناً، يعلن رسمياً ثانية أنّ «الوطن في خطر»، غدت باريس ميداناً لأنشطة شديدة الاهتياج. رددت الشوارع صدى وقع الأبواط الزاحفة وقرع الطبول معلنة النفير العام. ووسط مشاهد الوداع الحزينة مع الأحبة، نُقِشت أسماء المتطوعين على جسر بونت ـ نيوف أمام تمثال هنري الرابع. وعكست اللوحات الفنية، مثل لوحة واتو دي ليل «رحيل المتطوّعين»، الشحنة الأخلاقية في لوحتي غروزيه، «الابن الشرير»، بتقديم شاب ينجز واجباته قبل الذهاب إلى الحرب، ولا يتجاهلها. يأخذ مكان الرقيب المجند الفاسد في نسخة 1792 بعمل غروزيه راسي

مدفعية موضع ثقة يضع قبعة وقد رسم بشكل ظليلي مقابل المدخل.

كان دانتون منسق كل هذا الجهد الضخم. وكان عدم خوفه الشخصي وإيمانه الحقيقي أن باريس وفرنسا ستخرج حية من تجربتها بالنار ينتقل بالعدوى بطريقة استثنائية. والبيانات التي أعدها في نهاية آب للمجلس التنفيذي ربما صنعت الفرق بين التصميم والذعر الشامل. وقد أعد ليقلب قرب العدو إلى مصدر قوة للثبات الثوري:

يحضر أعداؤنا لتنفيذ ضربات غضبهم الشديد الأخيرة. أسياد لنغوي، الذين يهددون ثيونفيل (على الجبهة النمساوية البلجكية)، وميتز وفردان، يريدون أن يختصروا الطريق إلى باريس. . . . أيها المواطنون، لم تحصل أمة على الأرض على الحرية دون نضال أبداً. لديكم خونة في حماكم، ولولا هم لكان القتال انتهى سريعاً.

وكانت هذه التلميحات الأخيرة على «الخونة في الداخل» الأكثر تعبيراً. فقد كانت سمة عامة دائماً في الخطاب الثوري أن يمثل أعداء الحرية في الوطن أنهم أجانب مسلحون، وأنهم الطابور الخامس الذي يعمل لصالح التحالف غير المقدس للاستبداد الدولي. وكان هذا صحيحاً في خطاب عام 1789 كما في خطاب أنصار بريسو عام 1791. وما دامت الحرب قد أضحت وشيكة عملياً الآن، بدا التحالف بين «أتباع الاستبداد المرتزقة» والمهاجرين الذين راحوا ينضمون إليهم والحاقدين الكامنين والمخرّبين بصورة كبيرة في شوارع باريس تحالفاً أكثر خطورة. وكما قيل بالضبط عن قطّاع الطرق عام 1789 أنهم كانوا أدوات قاتلة بأيدي الأرستقراطيين التواقين إلى الانتقام، ثمة الآن تهديد شرير مماثل قيل إنه يتوارى في السجون، حيث وصل حديثاً المعادون للثورة ـ الحراس السويسريون والكهنة المقاومون والأدباء الملكيون ـ الذين يحرضون المجرمين العاديين على مشاركتهم في ارتكاب الجرائم.

وكان إيجاد تسوية لهذه المشكلة ضاغطاً لاسيما وأنه أشيع على نطاق واسع أنه عندما يذهب المتطوعون سيحدث هجوم لتحرير السجناء من السجون. يعني هذا أن مدينة غير محصنة ستُقدَّم لذبح نساء وأطفال الوطنيين، كما وعد بيان لبيان برونسويك Brunswick Manifesto بالضبط. وربما كانت الحال أنه إذا لم يصدق أعضاء الكومونة هذه الأقاويل فقد يمتنع الرجال القادرون عن التجنيد خوفاً من شر مرتقب.

فما الذي كان يجب فعله؟ لعلّ الإجابة كانت لدى جريدة خطيب الشعب، التي يصدرها فريرون، بلا ريب.



الصورة 160، للرسام جان بابتست غروزيه، لوحة، الابن الشرير

إنّ المعركة الأولى التي سنخوضها ستكون داخل أسوار باريس، لا خارجها. سيباد قطاع الطرق الملكيون المحتشدون داخل هذه المدينة التعيسة كلهم في نفس اليوم. يا مواطني المقاطعات جميعاً، إنكم تحتجزون عائلات المهاجرين (رهائن)، دعوهم يسقطون في الوقت المناسب تحت وطأة الثأر الشعبي العارم، احرقوا حصونهم وقصورهم، ازرعوا الخراب في كل مكان آثار الخونة الحرب الأهلية فيه... والسجون تغصّ بالمتآمرين... أدركوهم حيث يجب أن يحاكَموا.

كانت المحاكمة في ذلك الأسلوب الخطابي تعبيراً عاماً للإعدام السريع دون محاكمة. لم يدع مارا مجالاً للشك عندما حضّ «المواطنين الجيدين على الذهاب إلى سجن آبي، لاعتقال الكهنة ولاسيما ضباط الحرس السويسري وشركائهم في الجرائم وإعمال السيف بهم». زعم بعضهم جدّياً أنّ مارا تحدث بلغة المجاز أو بنوع من المغالاة العقابية التي جعلها اختصاص جريدته. لكن يصعب فهم سبب تمييز القرّاء والمناصرين بين المجازات البلاغية في الخطاب وبين التوجيهات الحرفية. فهذه هي الحال منذ توقف في ذلك الوقت عن نشر جريدة «صديق الشعب»، وراح يطبع تعليقاته في شكل إعلانات، تلصَق في أرجاء المدينة كافة، وفي أسلوب منحها سلطة البيانات شبه الرسمية.

أو خذوا إعلاناً آخر: «بيان عن سيادة الشعب، Compte Rendu au Peuple souverain, » غير موقّع مع أن كاتبه صديق دانتون المخلص، الشاعر والمسرحي فابر داغلانتين. لا شيء يمكنه أن يجعل الصلة بين حرب حتى الموت في الجبهة وبين ضربة استباقية في باريس أكثر جلاء ونقاء:

ومرة أخرى أيها المواطنون! إلى السلاح! لتنهض فرنسا كلها بالرماح والحراب، والمدفع والخناجر، وبالتالي يكون كل فرد جندياً، ودعونا ننزع ألقاب هؤلاء عبيد الطغيان الأنذال. دعوا دماء الخونة في المدن المحرقة الأولى (حرفياً) في سبيل الحرية، ولذلك عندما تتقدمون لملاقاة العدو المشترك، لن يبقى شيء خلفنا يزعجنا.

وصلت أخبار سريعة عن سقوط فردان إلى باريس في الثاني من أيلول. وفي ذلك الوقت كانت جمعيات الأقسام، التي توقعت الأسوأ، تمرر فيه اقتراحات تطالب كما فعل قسم بوبنكورت، بموت المتآمرين قبل أن يغادر المواطنون. وأصرّت أخرى، أمثال غوبلين، حيث كان سانتير القائد اليعقوبي، على اعتقال عائلات المهاجرين والملكيين والاحتفاظ بهم رهائن مقابل العنف البروسي.

وأعقب ذلك أمر ليس له معادل في الشناعات التي اقترفها أي حزب خلال الثورة الفرنسية. يميل المؤرخون عند هذه النقطة للعزوف بأبصارهم عن الحدث بوصفه عرضياً أو غير وثيق الصلة بالموضوع لدى التحليل الجدّي لدينامية الثورة منزعجين من هوله وعدم التدريب الجيد في حديثهم المهني على التأمّل العميق في مجريات الأحداث. تقليد متكلمي اللغة الإنكليزية في هذا القرن، الذي غالباً في كل الأوجه الأخرى قد أسهم إسهاماً فعالاً ومثمراً في في كتابة التاريخ الثوري، تضمّن سجلاً فاضحاً من الارتباك الصامت على نحوٍ خاص، كما لو أنه ضيف في مأدبة واجه حادثاً مؤسفاً لكنه غير قابل للتفسير في استراحة في الكلية.

وفي فرنسا، حتى عهد قريب جداً، كان الأدب عن مذابح أيلول تحت هيمنة إما سجلّ الشهداء المعادين للثورة أو مجلّد بيير كارون الضخم، الذي شرع بوعي ذاتي في تطهير سجلّ الأساطير الخاص بسير حياة القديسين. ويقوم زعم كارون على أن عملية نخل دقيقة للمصادر المعاصرة ستنتج رواية أكثر موضوعية للحدث ومجردة من المؤثرات الأخلاقية. وكان الكتاب الذي نتج من تلك العملية، والذي ما زال المؤرّخون يستشهدون به بإجلال، نصباً تذكارياً للجبن الفكري والتضليل الأخلاقي الذاتي. يعطي كارون في

الحقيقة امتيازاً للروايات التي تعكس التفسير الثوري الرسمي بينما يصرف النظر عن مصادر من السجناء أنفسهم (مثل الأب سيكارد) بوصفه «مشتبهاً» بالتعريف زاعماً تقييم شهود العيان بالمقارنة مع بعض المصادر الأكاديمية الجديدة بالثقة. وفي محاولة مضنية لتكييف الحدث على قياس سرير بروكرست، «للتفسير التاريخي الموضوعي»، جادل كارون بأنّ المذابح لم تكن مسؤولية أحد بطريقة أو بأخرى. بل يقيناً كانت نتاجاً حتمياً للقوى التاريخية غير الشخصية: خوف شامل و، غالباً ما يضمّن، رغبة مسوّغة للانتقام ضد إصابات العاشر من شهر آب. والمقصود بالتأثير الإجمالي أن يكون مريحاً للمؤرّخ الثوري: إنه تطبيع أكاديمي للشر.

وعلى نحوٍ واضح، كان قتل 1400 شخص على الأقل بدم بارد نتيجة نوع من ظرف رهابي أثارته الأزمة العسكرية والخطابة الرؤيوية لمؤامرة السجن. وثمة أيضاً عنصر الاهتمام بالصحة العامة المسلحة، والتحقيق المنطقي لمراثي مرسييه ضدّ قذارة مجارير المدينة. وتشمل النفايات التي يجب التخلّص منها كل مصادرها المسببة للتلوث وهي: الأرستقراطيون المموهون والكهنة الفاسدون والعاهرات المريضات والتابعون للبلاط. ولكن لم تكن عملية استئصال هذه الملوثات الإنسانية تعبئة شاملة عديمة التمييز ومعممة كما أشار كارون، بل كانت على العكس من ذلك، كما جادل فرانسوا بلَش François Bluche في بحث شجاع ويتسم بعمق الملاحظة، كان القتل عمل قوى إنسانية مميزة ويمكن تحديدها. ولا يوجد نقص مهما كان بالمصادر التي تصف تلك الأعمال، التي تمكّن المؤرخ من تركيز اهتمامه عليها إذا شاء ذلك. ولهؤلاء الذين يُصرّون على أنّ المحاكمة ليست مهمة المؤرّخ، يمكن للمرء أن يجيب ولا هي أيضاً نسيان انتقائي يمارَس في مصلحة اللباقة الأكاديمية.

فلنبدأ بهؤلاء الذين تحملوا بعضاً من المسؤولية لأنهم أشاحوا بأبصارهم عنها ولم يبذلوا الجهود المطلوبة لتفادي أعمال القتل عندما كانوا في مناصب تمكّنهم من فعل ذلك بلا جدال وليس عسيراً أن نجدهم. فقد كان رولاند، وزير الداخلية، ودانتون بين الشخصيات الرئيسة المسؤولة. إذ غدا رولاند منزعجاً من «التجاوزات» التي «يجب على أطفال الحرية ألا يلوثوا أنفسهم بها»، لكن بعد 2 أيلول وحسب، فيما حافظ على صمت حذر وقت المذبحة. ولعلّ تلبّد مشاعر دانتون أكثر سوءاً، لأنّه أمر بمثل هذا التأثير الفعال

في الأقسام وفي لجان الشرطة. كان دانتون، يوم بدأت أعمال القتل، وهذه حقيقة، يلقي خطاب حياته، مؤمناً بأنه إذا لم يُغرَس التصميم في أذهان الفرنسيين، وخاصة سكان باريس، فسيكون ثمّة تفسخ وطني كامل. ربما كان مصيباً، لاسيما وأن رولاند كان وحده القادر على نقل مقر الحكومة إلى تور Tours. وفي أية حال، كان الخطاب، بنوعه، دعوة قوية مثيرة للإعجاب إلى حمل السلاح، وفي الوقت نفسه صورة ذاتية تطري الاستعداد العسكري وبياناً يؤكد النصر:

سيُنقذ الوطن... كل شيء في حركة دائبة... والجميع يتلهّفون للقتال... وبينما يذهب فريق واحد من الشعب إلى الجبهات، يحفر آخر خنادق دفاعاتنا وثالث سيدافع عن مدننا وبلداتنا مسلحاً بالرماح... وباريس لن تتأخر في دعم هذه الجهود... والناقوس الذي سيقرَع لن يكون شارة خطر بل دعوة للهجوم ضدّ أعداء الوطن. ولنهزم الأعداء، أيها السادة، نحتاج للجرأة... الجرأة دائماً (toujours de l'audace) والمزيد من الجرأة أيضاً ثمّ فرنسا ستُنقَذ.

لا بد أن تأثير الخطاب، الذي ألقي في ما يصفه المعاصرون بأنه صوت الإنسانية الجبار لدى دانتون (ليس من غير سبب دعاه خصومه ميرابو الرعاع)، كان حماسياً ومثيراً للغاية. لكن وزير العدل نظر بعين عمياء إلى العنف الذي عرف بشكل واضح أنه على وشك أن يقع في باريس. وعندما جاء مفتش السجون، غراندبري، إلى أوتيل دي فيل، حيث كان الوزير في اجتماع مع الكومونة ليعبِّر عن مخاوفه من هشاشة وضع السجناء صرفه بفظاظة "Je me fous bien de prisonniers; qu'ils deviennent ce qu'ils pourront!" ما يعني («لا يهمني السجناء في شيء، دعهم يردون الخطر بأنفسهم.») وفي الثالث من أيلول، كما أبلغ بريسو، زعم دانتون أن «الإعدامات كانت ضرورية لتهدئة سكان باريس... كانت أُضحية لابدّ منها... وصوت الشعب صوت الله هو القول المأثور الجمهوري الأكثر صحة الذي أعرفه».

وحتى بعد أن تبين أنّ مذبحة بمعدلات مروّعة تقع، أولاً في سجن آبي ثم في السجون الأخرى، بعد ظهر اليوم الثاني، لم تعمد سلطات الكومونة للقيام بأي إجراء سوى تعيين مفوضين للتحقيق بما كان يحدث. لكن هؤلاء الرجال أنفسهم لم يكونوا مفوضين بمهمة إيقاف القتل بقدر كانت مهمتهم إعطاء أعمال العنف مظهر الجدارة بالاحترام القضائي. وقد ضم المفوضون ستانيسلاس ميلارد الأكثر شهرة، الذي زعم أنه بطل خندق الباستيل في الرابع عشر من تموز وقائد النساء في الخامس من تشرين الأول

عام 1789. وأحب ميلارد الآن أن يختال بوصفه قائد قوّة شبه عسكرية من رجال يستخدمون القوة في خدمة الجيش الجمهوري الأكثر تشدداً. كان ضابط اعتقال متحمس في القبض على المشتبهين وكُلِّف الآن بإجراء محاكمات سريعة أنشِئت لتبرير المجزرة.

كان سجن آبي مكان القتل الجماعي الأول، حيث أُخِذت مجموعة من 24 كاهناً إلى هناك من قاعة المجلس البلدي بحراسة مسلحة لم تكد تنجو من هجوم عنيف من حشد في شارع بوسي Buci. ومع ذلك، عندما وصلوا إلى السجن طالبت جماعة أخرى بإجراء محاكمة سريعة لهم (ربما كانت الجماعة ذاتها التي هاجمتهم سابقاً، وقد تعززت بإمدادت عسكرية). أعقب ذلك استجواب سريع بطريقة غريبة بدفعهم أسفل الدرج والدخول إلى الحديقة حيث انتظر قتلتهم حاملين السكاكين والفؤوس والبلطات والسيوف، وفي حالة جزار (بالمهنة) معروف باسم غودين حمل منشار نجار. تم تقطيع 19 كاهناً من الجماعة إرباً في ظرف ساعة ونصف. وضم الخمسة الذين نجوا ليشهدوا على الوحشية الأب سيكارد، والذي أنقِذ بتدخّل بقال من الحرس الوطني اسمه مونو. وقد قلد هيرولت دي سيشل مونو لاحقاً «وساماً» في الجمعية في عملية رياء فاحشة للتصرف بكياسة، لأنه أنقذ حياة «شخص قيّم جداً للوطن».

تكرر المشهد الدموي في وقت لاحق يوم الثاني من أيلول في دير الرهبان الكرمليين المستخدم كزنزانة حجز لمائة وخمسين كاهناً آخرين. جمعهم هناك راهب سابق تحوّل إلى اليعاقبة هو جوشيم سيرات، وقد تمّ إخضاعهم للتفقد، أُتبع كل اسم باستجواب بالغ الإيجاز و«عقوبة» قتل نُفِّذت بالأسلحة الاعتيادية المنوعة. تمّ إعدام المحظوظين منهم بإطلاق النار، وفي محاولة يائسة للهروب عبر حديقة الدير، تسلّق بعضهم الأشجار وألقوا بأنفسهم إلى الشارع من فوق السور، وجرى آخرون إلى داخل غرفة الصلاة، فسُحِلوا منها، ثم ضربوا بالهراوات وطعنوا بالسكاكين. وصل المفوّض جان دنيس فيولت من قسم لوكسمبورغ في غمرة المذبحة، فأوقف الإجراءات لفترة قصيرة. وقد أسفرت طريقة الإجراءات القضائية الرسمية أكثر قليلاً عن بعض أحكام البراءة، ومع ذلك خضع 115 شخصاً لفأس الانتقام قبل نهاية اليوم، بينهم رئيس أساقفة آرلي وأساقفة سان وبيوفي والملكي تشارلز دي فالفون.

حصلت زيارات أخرى إلى سجن آبي، في الأيام التي تلت، حيث أشار المجرمون إلى نتيجة عملهم - لأنهم وُعدوا بمعدلات أجور محددة على عملهم بشكل واضح. ووفقاً لضابط الجيش جورنياك دي سانت ميرد، الذي نجا بطريقة ما، والذي روايته لما سماه:

«ساعاتي الثماني والثلاثين في نزاع الموت»، واحدة من الروايات الأكثر براعة في وصف القتل، فالرعب ازداد هولاً «بالصمت المطبق والكئيب» الذي عمل الجلّادون فيه. فقُتِل نحو ثلثي سجناء آبي، بمن فيهم خادم الملك الخصوصي، تشامبلوس، والوزير السابق مونتمورين واثنان من قضاة الصلح، هما بوب وبوسكيلون، اللذان اقترفا جرم تدمير الحرية في محاولة مقاضاة المسؤولين عن انتهاك حرمة قصر التويلريه في 20 حزيران. وكان بين الناجين مارتن دي ماريفو، محامي المحكمة الذي استعار عام 1771 مقتطفات من روسو حول السيادة الشعبية للهجوم على «طغيان» المستشار مابيو. ويبدو أنه امتلك ما يكفي من الإرادة العامة عام 1792.

وفي الثانية والنصف من صباح يوم الثالث من أيلول، أبلغ مجلس الكومونة العام من خلال أمين سره، تالين، (أحد المفوضين أيضاً)، أنّه على الرغم من إصدار قواعد الضبط الذاتي لحماية السجناء، فهناك مواطنون كثر أقوياء يخدمون في الجيش، عند الحواجز المقامة لضمان سلامتهم. كان ذلك مثالاً صارخاً لمؤامرة الخداع التي مكّنت هؤلاء القلة من الأعضاء في الجمعية الذين كانوا لا يزالون جالسين لممارسة نوع من النزاهة البيلاطية (نسبة إلى بونتيوس بيلاطس الذي حاكم السيد المسيح) بينما كانت المذبحة تتواصل. وكان مفوض آخر، هو جيروت، أكثر تبرئة للذات عندما ادعى أن «الشعب كان يقيم العدالة في ممارسة الانتقام». وادعى أمام الجمعية التشريعية بأن ثمّة تمرّداً خطيراً للسجناء كان يُعدّ في أحد السجون، سجن بيستر، الأمر الذي استلزم أن يعالَج قبل أن يغدو تهديداً أمنياً للمدينة برمتها.

وما جرى حقاً في سجن بيستر كان عملية ذبح منظّمة للفتيان البالغين، بينما كان نزلاء سجن آبي، وسجن دير الرهبان الكرمليين وسجن آخر في دير سان ـ فيرمين، كانوا في معظمهم من الكهنة والسياسيين الذين احتجزوا خلال الأسبوعين السابقين، كان هؤلاء النزلاء في سجون بيستر ولا فورس ولا سالبتريير، التي شهدت مذابح مماثلة، من المجرمين والمتسولين والأشخاص الذين احتجزوا بطلب من عائلاتهم، وفق تقاليد النظام القديم، تم إعدام 43 نزيلاً من أصل 162 نزيلاً في سجن بيستر، ممن لم يبلغوا الثامنة عشرة من أعمارهم، وكان بينهم 13 نزيلاً في سن الخامسة عشرة و 3 نزلاء بعمر 14 عاماً واثنان بعمر 13 عاماً وواحد بعمر 12 عاماً. ويبدو أن رئيس حرس السجن، (one Boyer) قد أسهم بقوّة في قتل النزلاء الذين يقوم بحراستهم. وتم قتل 70 آخرين، أو نحو ذلك، في سجن سان ـ برنار من المدانين الذين كانوا ينتظرون نقلهم إلى السفن

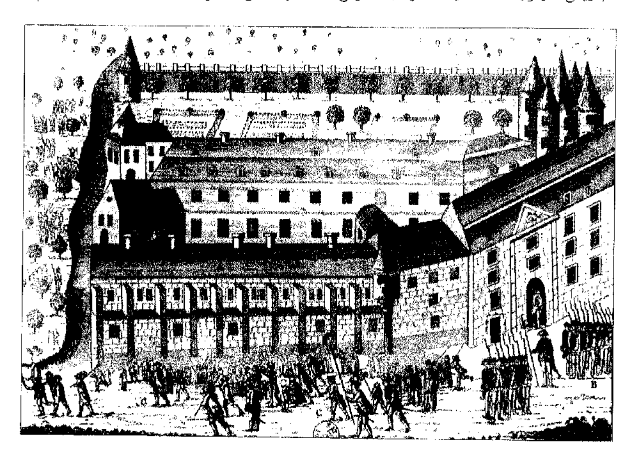
المخصصة كسجون، كما تمّ قتل أكثر من أربعين عاهرة في سجن سالبترير، بعد أن خضعن لإهانات جسدية على أيدي قتلتهن أغلب الظن.

أمضت الأميرة دي لامبال الوقت في سجن لا فورس في قراءة كراريس تعبّدية ومحاولة مؤاساة وصيفات الملكة المذعورات. واجهتها واحدة أخرى من المحاكم الارتجالية التي ستكون القاضي وهيئة المحلفين والجلّاد، وسئلت عما إذا كانت تعرف شيئاً عن «مؤامرات العاشر من آب»، فردّت بشجاعة قائلة إنها لم تعرف شيئاً عن أية مؤامرات ذاك اليوم. وطلبوا منها أن تُقسم يمين الولاء للحرية والمساواة وأن تكون واحدة من بين الحاقدات على الملِك والملكة والملكية، فقبلت الأول ورفضت الثاني. وإذ فُتح باب غرفة الاستجواب، رأت رجالاً ينتظرون يحملون الفؤوس والرماح. وقد دفِعَت إلى ممر وقُطّعت حتى الموت في ظرف دقائق. نزعت ثيابها عن جسدها ووضعت على كومة ضخمة من الثياب ستباع في مزاد علني لاحقاً، وقُطِع رأسها ووضع على رمح. وتصر بعض الروايات، ومن بينها رواية مرسييه على التشويه الفاحش وعرض أعضائها التناسلية، ويصرف كارون النظر عن هذه القصة بالحقيقة المعزولة لدى عامل الأرشيف على اعتبارها غير قابلة للتصديق جوهرياً. كان مؤكّداً أنهم حملوا رأسها بانتصار عبر شوارع باريس إلى تمبل Temple، حيث اقتحم أحد الرجال غرف الملك طالباً أن تطلّ الملكة من النافذة كي ترى رأس صديقتها، عساها تعرف كيف ينتقم الشعب لنفسه من الطغاة. تجنبت ماري أنطوانيت ذلك المشهد المؤلم إذ أغمي عليها في المكان، غير أن الخادم الخصوصي دي تشامبر كليري Clery أنعم النظر عبر نوافذه ليرى ضفائر الأميرة دي لامبال الشقراء تتطاير في الهواء بطريقة منفرة.

لم يكن ذلك النمط من الممارسات، لبيير كارون، أكثر من «تجاوزات» من المؤسف أنه يتعذر تفاديها، اقترفت في لحظات من الهستيريا الشعبية. ويصف عرض رأس لامبال على نحوٍ لا مبالٍ أنه «عادة تلك الأيام»، كما لو أنه كان زياً شعبياً من الماضي. ويذهب بعيداً ليصرف النظر عن قصص لشناعات أخرى باعتبارها أساطير دليل ذاتي وموضوعات سجل الشهداء الملكي. قد لا تكون القصص العديدة التي رويت صادقة كالتعدي الجنسي على عاهرات سجن لا سالبترير، أو تقطيع أوصال الأميرة دي لامبال، أو إرغام السيدة سمبرويل على شرب كأس من الدم لتنقذ والدها. غير أن كارون يؤسس تجاهله لتلك القصص جزئياً على عدم تسجيلها في المصادر الثورية التي يمنحها ثقة حصرية، وجزئياً على رفضه تصديق بأن الناس، ولاسيما أولئك الذين يدعون أنهم

يعملون باسم سيادة الشعب، يمكنهم أن يقترفوا أي شيء بهذا الفحش. وفي كل حال، كان يكتب عام 1935. وبعد عشر سنوات تحرر التاريخ الأوروبي ثانية من فكرة أن الحداثة مستثناة بطريقة ما من ارتكاب الأعمال الوحشية.

مات نصف سجناء باريس تقريباً في مذابح أيلول. وأبيد ما يعادل 80% أو أكثر من نزلاء سجن آبي ودير الرهبان الكرمليين. ظهرت علامات الندم وحتى اليأس لدى بعض الأعضاء العاجزين في المجلس التشريعي وبين عدد من أعضاء الكومونة، أمثال مانويل، الذي أشار إلى مشاهد مؤلمة رآها بأم العين. لكنّ الكومونة لم تقاضِ القتلة أبداً، بل أثنى بعض أعضائها عملياً على ذلك باعتباره تطهيراً مفيداً من طابور خامس. وقد كانت التعليمات التي أُرسلت إلى المتحمّسين في الأقاليم واضحة، لأن عدداً من المحاكمات السريعة والإعدامات المماثلة حدثت خلال الأسبوعين التاليين، لمعظم الكهنة والمشبوهين الملكيين. وتمّ إرسال مجموعة من أربعين سجيناً ونيف من أورليان إلى باريس، وقررت الجمعية التشريعية تحويل المجموعة إلى سجن سومر Saumur لسلامتهم



الصورة 161، لرسام مجهول، رأس الأميرة دي لامبال يُستعرَض أما حصن تمبل

الشخصية. لكنّ واحداً من الأكثر تطرفاً في أقسام باريس، فورنييه «الأمريكي»، انطلق مع جماعة من المسلحين عملياً لضمان التزام السجناء بالخطة الأصلية. وعند فرساي ذُبِحت المجموعة بكاملها بمن فيها الملكي وزير الشؤون الخارجية دي لِسار في ما يبدو على نحوٍ جدير بالملاحظة مثل خطة موضوعة مسبقاً.

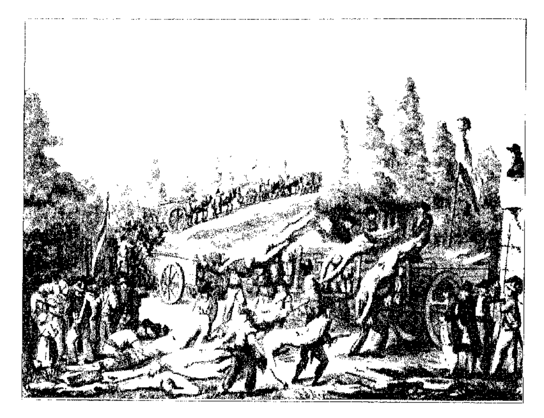
نُظِّفت المواقع بدقة لأيام وغسلت بالماء والخل، ومع ذلك احتفظت بعض السجون بلطخات الدم، مثل سجن لافورس. وتُمثّل لوحة رسمها بيريكورت، بشكل حي تماماً، النظرة الإدارية المبتذلة للقتل الجماعي. ثمة موظف في الأسفل يميناً، يلتف بوشاح ثلاثي الألوان، يتحرّى بقايا الجثث، بينما أخذ شخص إلى جواره يدوّن الملاحظات. ويقف إلى يمينهما أحد الذين شاركوا في تدمير سجن الباستيل، المميز بخوذته، فيما ينظر آخر على نحوٍ لا مبالٍ إلى رأس مقطوعة. وببساطة يستمتع الرجال بعملهم على العربة.

خلال الأيام الأخيرة للمجلس التشريعي والأسابيع الأولى من المؤتمر الوطني الذي حلّ محلّه، حاول الساسة الجيروندبون، الذين نأوا بأنفسهم عن اللوم، استخدام الموتى هراوة للهجوم على خصومهم بين اليعاقبة. اعتقد بريسوت على وجه الخصوص، وليس دون مسوغات على الإطلاق، أنه مع أصدقائه وُسِموا للإبادة أيضاً، ولم ينجوا إلا بصعوبة.

ولأن المذابح غدت سريعاً سمة في الصراعات الحزبية داخل المؤتمر بدقة، فقد نُظِر إليها بوصفها مجرد حدث آخر في سجالات الانقسام. وفي هذا التمثيل، أو بوصفها اضطراباً نفسياً مرتبطاً بالذعر من الحرب، فقد همِّش الحدث باعتباره لا يهم إلى حد ما إلا ذوو الحس المرهف، وحكاية تاريخية أدنى من اهتمام التحليل الجدي. غير أن القضية الجيدة، في كل حال، قد تُقدَّم لرؤية مذابح أيلول باعتبارها الحدث الذي كشف أكثر من أي حدث آخر حقيقة مركزية في الثورة الفرنسية وهي اعتمادها على القتل المنظم لإنجاز الغايات السياسية. لأنه مهما كانت المبادئ الفاضلة المفترضة لفرنسا دون ملك، فإن قوتها على القيادة قد اعتمدت منذ البداية المبكرة على مشهد الموت.

وقد اعترف شاهد عيان معاصر، على الأقل، بالفساد الأخلاقي للفئة الثورية بالضبط. فقد عبّر كلاود باسيه، وهو مندوب من اليعاقبة، في رسالة لم تكتمل ولم ترسَل إلى امرأة صديقة عن أن

عينيك الجميلتين لم تُفسدهما المشاهد الشنيعة التي رأيناها خلال الأيام الأخيرة... قال ميرابو لا شيء يثير الأسى ويبعث على الغثيان في التفاصيل أكثر



الصورة 162، للرسام بريكورت، مائية ورسم بالقلم، دفن الجثث بعد مذابح أيلول

من ثورة ولكن لا شيء أكثر روعة من نتائجها لبعث الامبراطوريات. قد يكون ذلك جيداً، غير أن الإقدام مطلوب ليكون المرء رجل دولة ويحافظ على رأس بارد في مثل هذه الاضطرابات وهذه الأزمات المروّعة. تعرفين قلبي وتقدرين وضعي المعنوي وخطورة موقعي، ولا بدّ للرجل المرهف الحس أن يغطي رأسه بعباءته ويسرع عبر الجثث ليوصد على نفسه في معبد القانون.

وكما أوضح بلش، عندما أجبر باسيه على الخروج من قوقعة الحماية الذاتية الرسمية تلك توقفت روايته هذه بالضبط. فقد عيّنته الجمعية مفوّضاً من ستة أُرسلوا لاستعادة الأمن إلى السجون، فمشى إلى سجن آبي، «والأنين يعتمل في أعماقي من بطء موكبنا الجنائزي». وأمام المبنى، حيث ساد «ظلام حالك أُضيء بنور باهت صادر من بعض المشاعل والشموع»، وهكذا، توقفت روايته فجأة. كما لو أن الحقيقة الواقعية في الداخل كانت شديدة ليتحملها قلب مرهف: فقد عبَّر حكي «الإرادة العامة» في قربان من دم وعظام.

I ـ غوتِه في فالمي

ماذا يشبه دوّي قنابل المدافع؟ تبعاً لِـ غوتِه، يشبه طنين البلابل التي يلعب بها الأطفال وخرير المياه وزقزقة العصافير. لقد وضع هذه الملاحظات التجريبية في العشرين من أيلول فوق روابي أرغون Argonne الكثيفة الأشجار، المشهد الطبيعي الذي عبره أفسد لويس السادس عشر هروبه قبل عام. فقد أُعطيَ حامي غوته، الدوق كارل أوغست، دوق ويمار قيادة فوج في الجيش البروسي. وعندما بدأ الفوج زحفه المتهادي إلى فرنسا أواخر فصل الصيف، لحق به شاعره الفيلسوف، يحفزه الإحساس بالفضول العلمي أكثر من الحماسة السياسية. لم تعنِه كثيراً النزعة المساواتية الرومانسية ومثلها الشرعية القديمة، ويرى كلاً من الثورة والثورة المضادة قطعاً وحشياً لسلطان العقل. لكنّ حملة حصار وزحف قدمت تجربة جدية جديدة وجد غوته أن مقاومتها مستحيلة. وقد كان عميقاً في التأملات التي ستقود إلى عمله الهام في نظرية اللون، مع أن كارل أوغست وجد ذلك غريباً أنّه خلال قصف فردان بالقنابل راح غوته يراقب المشهد ليكتشف، إذا كان ممكناً، ألوان الحرب وأشكالها.

وقد رأى في فالمي، على تلٍّ وهو ينظر إلى المدفعية الفرنسية التي تمركزت على شكل قوس، اللون الأحمر. وفيما انفجرت القنابل حوله ورمت أوساخاً مسفوعة وأوراقاً خريفية تحترق وتطلق الدخان، «بدا الجو كما لو أن المرء كان في مكان شديد الحرارة وفي الوقت نفسه تخترقه حرارتها إلى درجة يشعر المرء أنه منسجم تماماً مع الشيء الذي كان فيه. لا تفقد العيون شيئاً من قدراتها البصرية أو شيئاً من الوضوح، لكنّ العالم يبدو كما لو أنه امتلك نوعاً من مسحة بنية ـ حمراء تجعل الوضع والأشياء المحيطة أكثر إثارة. لم أستطع أن أدرك أي اهتياج في الدم لكن كل شيء بدا أنه تضخم في الوميض».

ابتردت هذه «الحمّى»، كما دعاها غوته، داخله عند نهاية النهار. وركب راجعاً، لم تصبه أذية، إلى الخطوط البروسية. وقد وجد الجنود هناك في حالة انهيار معنوي. لم يفكروا، ذلك الصباح بالذات، في شيء سوى إضرام النار في القوات الفرنسية دون استثناء والتهام أفرادها جميعاً... لكنهم الآن ذهب كل منهم وحيداً، لا ينظر إلى جاره، أو راح يلعن ويشتم. في الواقع، يصعب القول إن البروسيين قد هُزِموا، وفي الحسابات الدقيقة لحصيلة الإصابات يمكن القول إنهم حققوا النتيجة الأفضل اليوم ما داموا لم يفقدوا فيه أكثر قليلاً من مئة قتيل أو جريح جراحهم خطيرة مقابل ثلاثة آمثال هذا الرقم عدد الفرنسيين. لكنّ الإدراك العام، من القائد الأعلى لجيش برنسويك البروسي نزولاً إلى

الجنود العاديين، أكّد أن الزحف البروسي تلقى جرحاً قاتلاً، كان صحيحاً. فقد عجزت قواتهم المجهدة عن الحيلولة دون الربط بين قوات دوموري وكيلرمان في التاسع عشر. وتمركزت الوحدات الفرنسية آنذاك في وجه الجيش البروسي، وكانت ظهورها ناحية الشرق. افتراضياً، كان بإمكان جيش برنسويك أن يسعى للقيام بزحف متسارع غرباً باتجاه باريس عبر المارن، لكنه في هذه الحالة سيعرّض نفسه لخطر قطع قوات مؤخرة جيشه من قوة تتمركز في موقع مناسب. وكان حيوياً أن يروا التهديد قبل المضي أبعد، لاسيما أن الجيش أخذ يتعثر بسبب المرض، ومن طقس أيلول السيئ الذي حوّل تقدم الجيش إلى دبيب في الوحل.

للقوات الفرنسية، كان الموقف ما دعاه دِموريز «موقع ثيرموبيلي Thermopylae » هو ما وقف بين البروسيين وباريس. وقد انحصرت استراتيجية الجنرال في إيقاف الزحف البروسي بضربة مضادة إلى هولندا النمساوية، غير أنها جُمِّدت بأوامر المجلس التنفيذي في باريس حتى يُرَدّ التهديد الراهن من جيش برونسويك. وفي العشرين من أيلول، اتخذت قوات كيلرمان، وغالبيتها من الجنود النظاميين، لا المتطوعين، موقعاً لها تحت مطحنة هوائية ضخمة فوق مرتفعات فالمي. وقد استولت على موقعها هناك تحت القصف المكثف أولاً، ثم برد المدفعية الثقيلة على الجنود البروسيين. تسلّقوا الرابية بثبات، وفي رتل منتظم ضيق، على غرار الأسلوب البروسي، تحت دوي القنابل اليدوية المترافقة مع أزيز الرصاص وصخب النيران، راح الفرنسيون يغنون تلك إيرا Ca Ira ويهتفون تعيش الأمة.

وإذ عجز برونسويك عن دحر الفرنسيين الذين يقاتلون بالبنادق، ألغى العملية بدلاً من القيام بهجوم على جبهة العدو. كان الطرفان يكابدان المرض ونقص الغذاء بصورة متفاقمة، وعمل كل من الجيشين على قطع خطوط الاتصالات بالمؤخرة. وبشكل معقول، رأى دموريز أن يتراجع كيلرمان بعيداً إلى سان ـ منهولد (حيث ميَّز مدير البريد شخصية الملك) وأصدر أوامر بتخريب الطرقات والحقول إذا حاول البروسيون القيام باختراق أوسع. لكن ذلك لم يحدث أبداً. فقد قرر برونسويك الانسحاب المحمي حيث كان جيشه مشطوراً جرّاء الإنهاك، وبذلك أكمل تدمير روحه المعنوية. كان الأمر، كما فهمه غوته على الفور، نقطة انعطاف حاسمة على صعيدي الحرب والثورة. وفي نهاية تلك الليلة، جلس مع جنود قانطين في دائرة، يحاول تأجيج نار رطبة بشدة، وقد سئل بوصفه الحكيم المقيم عن رأيه في ذلك اليوم. وقد ذكّر في يومياته عن الحملة، «كانت لديّ عادة بعث الفرحة والمتعة في نفوس القوات بأحاديث قصيرة». لكنّ ما أدركه، بينما كان نزيهاً بطريقة

غير معيبة، لابد أنه كان عزاء لا طائل منه. «ستبدأ حقبة جديدة في تاريخ العالم من هذا المكان ومن الآن فصاعداً ويمكنكم القول جميعاً إنكم حضرتم ولادتها».

أما في باريس، فقد أعطيَت تلك الحقبة الجديدة اسماً رسمياً حتى قبل معرفة نتيجة فالمي. فمنذ 20 أيلول، يوم افتتاح جلسة المؤتمر الوطني، صار إلزامياً أن تحمل كل وثائق الدولة تاريخ «السنة الأولى للحرية الفرنسية». ثم غدت الجمهورية، التي أُعلِنت رسمياً في الحادي والعشرين، بداية جديدة لزمن تاريخي. ومع الملك وعائلته مسجونين في تمبل، القلعة القروسطية، بينما كانت الذكريات الملكية الميتة تُزال في كل أرجاء باريس. ففي اليوم الذي تلا الاستيلاء على التويلريه، ساعد حشد كبير من المتطوعين على إسقاط تمثال لويس الرابع عشر عن قاعدته في ميدان النصر. والآن، بعد شهر، كان لدى سلطة الشعب بسالتها العسكرية الخاصة للاحتفال. في الحقيقة، كانت معركة فالمي نصراً مؤزراً للجيش الملكي القديم، الجيش الذي أعاد تنظيمه غيبرت وسيغور، على الرغم من تعزيزه بقوات تمّ تجنيدها منذ اندلاع الثورة، وقلة من المتطوعين. لكن حالما انتشرت الأخبار عن جنود كيلرمان يُنشدون النشيد الجمهوري، «المارسييه» و«تلك إيرا Ca Ira » فقد مُثّل ذلك بأنه انتصار المواطنين في السلاح على الخدم المسلحين لعهد الطغيان.

كان دموريز بعيداً عن الانجراف ببلاغة القوة التي لا تُقهر. وفي الواقع كان يتبع إستراتيجية براغماتية متوازنة. وقد ورث هدفين من أهداف لافايت التكتيكية: فصل بروسيا عن الائتلاف وتعزيز القوة العسكرية لاستخدامها، إذا دعت الضرورة، ضد باريس المستعصية. وقد كانت فالمي فرصة للاقتراب من البروسيين في وقت كانوا فيه عرضة للخطر الشديد. وما إن وصلت أخبار إعلان الجمهورية إلى الجبهة حتى صلّب الملك فريدريك وليم موقفه التفاوضي، وطالب بعودة لويس السادس عشر إلى العرش قبل العاشر من آب، كشرط مسبق لأية اتفاقية سلام. وفي رد، رفض الفرنسيون إجراء أية مفاوضات قبل أن يجلو البروسيون عن البلد بالكامل. فانهارت المحادثات فجأة، ولاحق الفرنسيون الجيش البروسي بغارات خطرة إلى حدٍّ ما، الذي تراجع وهو مصاب عبر الجبهة أولاً، وعبر نهر الراين ثانياً.

وقد ترك هذا مجموعة الدول الإمبراطورية الصغيرة معَرَّضة لتقدم الجنرال غستين، الذي كان قائد منطقة بيرون في الوسط. (كان كيلرمان قد أُرسِل إلى ميتز بينما كان جيش دموريز يزحف شمالاً باتجاه بلجيكا). بدأت قافلة من العربات، في نهاية تشرين الأول، تنقل الأفراد وممتلكات الأمراء والأساقفة والأمراء من أصل جرماني والفرسان

الإمبراطوريين والمستشارين جميعاً بالرحيل من مدن ضفة نهر الراين اليسرى، مثل سباير Speyer و ورمز Worms وماينز Mains. وذهب مدراء المال والقضاة ومدراء الجوقات الغنائية الحوذيون ومدرّبو الصيد ـ حاشية الملك كلها التي أمدت هذه الإمارات بأسباب الحياة في نمط زخرفي كان مألوفاً بطريقة لا غنى عنها.

وفيزحف الفرنسيين الذين حيتهم مجموعات صغيرة من المثقفين والصحفيين والأساتذة الذين عُيِّنوا سريعاً أمناء على التحرير. وبينما تعالت التصريحات التي تعد السكان المحليين بالحرية من «الطغيان» أو «العبودية»، لكنّ ما حصلوا عليه كان طلبات لا رحمة فيها وتعويضات مرهقة فُرِضت ثمناً للحرية. سيكون هذا هو نمط الاحتلال الفرنسي طوال السنوات العشرين القادمة، غير أنه في الصدام الأول بدا مفاجأة وحشية. كان بإمكانه أن يخدع أبناء بلده بطريقة أقل قسوة، فحتى آنذاك شكا غريك فورستر أمين المكتبة الذي يؤيد أن تكون مينز فرنسية إلى غوستين قائلاً: لو أبلغوا منذ البداية، 'لقد جئنا لكي نأخذ كل شيء'».

مع القوات الفرنسية في وضعية الهجوم، ليس في ألمانيا وحسب بل وفي سافوي، حيث أعيد «توحيد» تشامبري ونيس مع الأمة، أقنع دوموري المؤتمر بالتقدم ضد النمساويين في هولندا. وهناك توقّع تماماً أن يساند باستئناف الانتفاضة ضدّ حكم عائلة هسبرغ Habsburg التي، في عام 1789، باختصار أسست دولة بلجيكية مستقلة. لكنّ العامل الحاسم لم يكن شدة حماسة السكان لرؤية النمساويين يخرجون (وكان الحماس شديداً) بقدر ما كان التفوق الجدي للقوة العسكرية التي يستطيع دوموري زجها في المعركة. وقد تفوق عليهم في عدد الرجال والمدفعية بنسبة اثنين إلى واحد تقريباً. وفي 6 تشرين الثاني هاجم موقعهم الذي يقع في منطقة مرتفعة، في جيماب Jemappes، شمال مدينة مون Mons تماماً، وبالتقدم على جبهة عريضة مع إرسال قوة هجومية أخرى تطوف هنا وهناك بعيداً إلى اليمين للحيلولة دون الانسحاب. وقام سلاح الفرسان النمساوي بهجوم مضاد، حيث جعل المتطوعون خط الجبهة غير راسخ، انهارت المواقع الفرنسية تقريباً لكنها كانت في كل مرة تنجح في حشد قواها من جديد. وعندما رأى النمساويون القوات الفرنسية بغتة في مؤخرة جيشهم، وقد واكبتهم عبر النهر في زوارق، أخليت جيمابِ، تاركين قرابة ثلث الجيش، نحو 4000 رجل، قتلى أو جرحى جراحهم خطيرة، في ميدان المعركة. وفتحت مون بواباتها للفرنسيين في 8 تشرين الثاني، وبعد أسبوع تقدمت قوات دوموري المنتصرة عبر ساحة الرويال في بروكسل.

في فرنسا، كانت جيمابِ، أكثر من المي Valmy، هي التي حولت الحرب من فعل دفاعي مثير إلى «حملة عنيفة من أجل الحرية العالمية»، التي وعد بها بريسو. وبالمقارنة مع رد فعل العاملين في الطباعة المكبوت إلى حد ما في المعركة الأولى، احتفى سيل كبير من المطبوعات بالنصر على النمساويين. وأعاد ممثلو فرقة مونتانسيير Montansier المسرحية، الذين قدموا أعمالهم بانتظام في فرساي إبان النظام القديم، وتخصصوا الآن في الدراما الوطنية، وأعادوا تقديم مشاهد بطولية من الثورة لرفع المعنويات في باريس. وبعد جيمابِ، قاموا بجولتهم مباشرة إلى ميدان المعركة ليسلّوا القوات بعمل مسرحي كامل للمعركة مع مدفع ونمساويين ببذات بيضاء مذعورين يهربون من المشهد بطريقة مناسبة. وبعد أن منحوا الجنود إحساساً بالأهمية التاريخية لفعلهم بإعطائه إطاراً بلاغياً مسرحياً، عادوا إلى العاصمة لتقديم مسرحية معركة جيمابِ لمشاهدي المسرح المهللين في العاصمة.

لم يكن المؤتمر منيعاً على هذا الجو العنيد من الشعور بالقوة التي لا تُقهَر. ومع أن روبسبيير كان ضد الحرب وكان ميالاً للشك بأن دوموري رغب في استخدام بلجيكا مستقلة قاعدة يتقدم منها إلى باريس، لم يكن قادراً على الصمود ضد مدّ الحماسة العسكرية العارم الذي جرف النواب بنتيجة جيماب. وصلت رسائل من بلدية زوبروكن Zweibrücken الصغيرة تطالب بحماية فرنسية، وفي استجابة لذلك، أظهر المؤتمر في التاسع عشر من تشرين الثاني إيماءة جدية بوعد تقديم المساعدة لـ «كل أولئك الذين يرغبون باستعادة حريتهم». ومثل كل الأقوال التي صدرت عن المؤتمر، عمل هذا المرسوم الذي عُرِف بداية «بمرسوم الدعاية» على مستويين. بلاغياً، كان أول بيان لحرب ثورية في التاريخ الأوروبي. لكن يجب أن يبقى في البال أن الثورة الفرنسية كانت في جانب كبير منها نتيجة الجراح التي أصابت الاعتزاز الوطني والحاجة إلى إعادة إنعاش التقاليد الوطنية الفرنسية. وإلى حدٍّ كبير في الوقت نفسه قد يبدو وجود الأجانب étrangers، أصدقاء الثورة مثل إيتيان كلايير Etienne Clavière في الحكومة إشارة إلى تعهد بالتحول إلى حرب أيديولوجية، كانت مرجحة دائماً تقريباً بمصالح الدولة المعرّفة بطريقة أكثر براغماتية. وعندما حذّر بريسو، في 26 تشرين الثاني قائلاً: «لا نستطيع أن نكون هادئين ما لم تشتعل أوروبا كلها»، ما كان في ذهنه هو توسّع استراتيجي يخلق إما دولاً تابعة متحالفة أو مناطق محايدة buffer zones تستطيع الثورة أن تكون محمية خلفها بشكل مناسب.

هل ستكون بلجيكا المستقلة منطقة كهذه؟ في أواخر تشرين الثاني، كان نواب كثر

بين أعضاء المؤتمر قلقين خشية أن تتحول إلى إقطاعة عسكرية لدوموري، الذي، كان معروفاً، أنه كان يدير سياسته الخارجية عملياً، فقد وعد، على سبيل المثال، بحماية ملكيات الكنيسة الكاثوليكية لقاء تقديم قرض طوعي. ولإبطال ذلك، أصدر المؤتمر في 15 كانون الأول ما بدا للرأي العام الأوروبي أنّه مرسوم أكثر راديكالية لأنّه طالب السلطات العسكرية الفرنسية بتطبيق التشريع الرئيسي للثورة ـ بما فيه تدمير النظام الإقطاعي ـ في الأراضي المحتلة.

وتماماً مثل «حقوق الإنسان» كانت تعتبر الآن ملكية عالمية راسخة في الطبيعة، وبالتالي حقيقة بديهية مماثلة للطبيعة كان تعيين الحدود الإقليمية للثورة. وقد وافق كل من دوموري ودانتون على أن تلك الحدود توفرها الحواجز الجغرافية بجلاء: جبال البيرينيه وجبال الألب ونهر الراين والقنال الإنكليزية والبحر المتوسط. وعنى هذا في ذلك الحين أن سياسة «التحرير» كانت تأخذ بشكل ضبابي شكل الإلحاق، المعروف بطريقة ملطفة بأنه لمّ الشمل، في مناطق مثل بورينتروي Porrentruy على الحدود السويسرية، التي غدت مقاطعة مونت تريبل Mont-Terrible، وسافيارد نيس Savoyard Nice.

ومهما يكن، لم يتضمن الإعلان عن «الحدود الطبيعية»، بحد ذاته، أن الجيوش الفرنسية ستبقى مقيدة ضمنها. بل العكس، فما دام ائتلاف الملوك يهددها، أو (كما خوَّلها المرسوم الدعائي الآن)، وما دامت استدعتها الشعوب التي تئن تحت نير الحكم الاستبدادي، سيشعر الفرنسيون بحرية شنّ حرب على العدو، حيثما كان. وليس على وسائل هذا الهجوم أن تبقى تقليدية. وقد عرض المركيز السابق دي براي Marquis de Bry تأسيس ما كان، في الحقيقة، المنظمة الأولى للإرهاب الدولي، قاتلو الطغاة، حيث تمّ إرسال 1200 مقاتل ملتزمين بالحرية لاغتيال ملوك وقادة الجيوش الأجنبية حيثما أمكن العثور عليهم.

لقد كانت، في الحقيقة، كما حذّر غوته، مرحلة جديدة في تاريخ العالم.

III «لا يستطيع المرء أن يحكم ببراءة»

تبيِّن مطبوعة ثورية واحدة على الأقل ولادة الجمهورية الفرنسية الأولى بوضوح يثير القلق. من التنانير الواسعة تلد امرأة فظيعة من الجيش الجمهوري طفلاً ـ وهو التجسيد، هكذا تخبرنا الأسطورة، لمواطن ولد حراً citoyen né libre. إنه أكبر حجماً، ومستعد للقتال دون شك من البداية. ولكن في بداية تاريخها كان ثمة أيضاً أمثلة مجاز الطفولة

المستخدمة للتأثير الأكثر لطفاً. فطبعت مقاطعة أورن Orne، على سبيل المثال، انتخاب مندوبيها إلى المؤتمر في الحادي عشر من أيلول بمراسم معمودية (كما فعلت مقاطعة ميرث Meurthe أيضاً). وقد اعتبرت جمعية الناخبين كلها عرّابة الطفلة، ابنة متطوّع شاب، مع أن دفريتش فالازي Dufriche-Valazé، الذي قاد مراسم التعميد، كان ضابطاً متقاعداً من الجيش الجيروندي. وجُمِعَ مبلغ 300 ليرٍ قُدِّم للأم، مادلين تشوكه Madeleine Chuquet، التي اعترافاً بالاحترام سمّت طفلتها ألويس هيسينث إليكتور Aluise Hyacinthe Electeur.



الصورة 163، لرسام مجهول، مواطنون ولدوا أحراراً

كان مفترضاً أن تُمثل الانتخابات عملاً مماثلاً من البراءة السياسية: العودة إلى شعب دولتهم ذات السيادة إلى حد يمكنهم من إعادة تأسيس الأشكال التي حددتها. لم يكن استفتاء على الحرمان المؤقت للملك (صدر المرسوم في 13 آب)، لأنه على الرغم من أنّ قلة من مناصري الملكية كان لهم بالفعل دور في الجمعيات الانتخابية، إلا أنهم استبعدوا في 10 آب بوصفهم قوة سياسية خطيرة. مهما كانت التدابير الاحتياطية التي لدى الجيرونديين عن التعبئة المسلحة للحرس الجمهوري في باريس، لم يكونوا على وشك تنصيب أنفسهم معادين للثورة بمعارضة حكم تلك الانتفاضة. وهكذا قامت حكومة هيمن عليها رولاند وأصحابه، وتحجب نفسها في الأشكال القانونية للهيئة التشريعية، التي أرسلت التعليمات المفصلة لدعوة الجمعيات الرئيسية والانتخابية القائمة على حق الاقتراع للرجال إلى الانعقاد.

كانت النتائج، في أية حال، شيئاً أقل من الديمقراطية في الفعل. ففي حين كان صعباً تغطية الأرقام إلى حد ذاع صيته، يبدو من غير المحتمل أن نحو ستة بالمائة من الملايين السبعة الذين يتمتعون بحق الانتخاب اقترعوا عملياً. ومرة ثانية، بعدئذٍ، نتج نظام أكثر تطرّفاً من عدد أقل من الأصوات المقترعة. كان، بالطبع، ثمة أسباب وجيهة لهذا النفور الانتخابي. ففي الشمال والشرق كانت أزمة عسكرية في أوجها، واضطرت جمعيتان في مقاطعتين إلى استبدال مكاني اجتماعيهما بسرعة لتجنب ميدان الحرب. وفي المدن الرئيسية، كان المناخ السياسي مهدداً بالخطر إلى حد أن المشاركة ذاتها كانت عملاً يتطلب شجاعة كبيرة. وفي باريس، اجتمعت الجمعية الانتخابية في مقر اليعاقبة ـ ليس المكان الأكثر حيادية ـ في الثاني من أيلول، اليوم الأول لمذابح السجن. كان التصويت في العاصمة، كما في عشر مقاطعات أخرى، علاوة على ذلك، بإعلان شفهي عام، وهذه طريقة مفتوحة على التخويف بوضوح. وحتى لو، كما نوقش الأمر، بقيت محاضر الجلسات هناك مفتوحة كفاية لتلك النقطة ليكون ثمة اضطراب متواصل، ولا يمكن أن يكون اعتباطياً أن باريس أعادت وفداً من أربعة وعشرين مندوباً من اليعاقبة الأكثر تطرفاً على قائمة مرشحيها، بمن فيهم روبسبيير ومارا وروبرت وسانتير ودانتون وفابر وديمولا والممثل كولوت دربوا Collot d'Herbois. وفي مكان آخر في فرنسا ربما تدّنى الحضور إلى صناديق بسبب أكثر الضغوط تفاهة الناجمة عن موسم الحصاد.

ومهما تكن الأسباب، سيكون خطأ أن نفترض أنّ تدني عدد المجتمعين قد عنى رفضاً ضمنياً للعاشر من آب. فقد أظهرت الدراسة الشاملة لانتخابات المؤتمر التي أجراها

أليسون باترك Alison Patrick أنّه كان ثمّة تدّخل صريح ضئيل إلى حد يدعو إلى الدهشة في محاضر الجلسات، إما من متفرجين صاخبين أو، لا يزال أقل، من حشود مسلحة. وعلاوة على ذلك، استكملت الانتخابات قبل أن يكون لدى معظم البلد أية معرفة بمذابح باريس أو أي إدراك حقيقي لشخصيتهم غير المميزة. وجوهرياً، كانت الرواية الرسمية للعاشر من آب، التي أعاقت فيها انتفاضة باريس انقلاباً عسكرياً ملكياً، مقبولة بشكل عام. ولم يكن إلا لاحقاً في العام الذي كثفت فيه محاكمة الملك وتنفيذ حكم الإعدام به استياء مناطق فرنسا كافة إلى حدٍّ اقتربوا فيه من الثورة العامة.

ويمكن تفسير الانتخابات حتى بوصفها تصويتاً لاستمرارية الماضي الحديث، بدلاً من تغيير متطرف كامل. فمن النواب الـ 749 إلى المؤتمر، كان ما لا يقل عن 205 نواب إلى الجمعية التشريعية، و 83 نائباً إضافياً في المجلس التأسيسي. ويبدو أن إعادة انتخاب السابق على نحو خاص تشير تقريباً إلى قابلية تصديق رواية المشرّعين الذين كان لهم تجربة قريبة من الملكية الدستورية والذين استطاعوا إلى هذا الحد أن يشهدوا على عدم قابليتها للحياة في أيدي لويس السادس عشر. وجاء الباقون من رجال قد أصبحوا بارزين في سياسات محلية، عادة في معارضة صريحة للإدارات الإلزامية.

كان المؤتمر هيئة من الرجال الشباب نسبياً. كانت الجماعة الأكبر، نحو الربع، في أواخر الثلاثينات، لكنّ الصورة النمطية للشباب الجمهوريين المتحمسين لم تكن بعيدة عن النمط العام، حيث أنها كانت في النهاية الصغرى من مدى العمر الذي كان فيه العمل السياسي واضحاً أكثر. حتى أكثر من أسلافه، كان المؤتمر تجمعاً من المحامين. انتمى 47% منهم تماماً إلى مهنة المحاماة في مستوى أو آخر، يغدو هذا ذا أهمية حاسمة عندما يأخذ المرء بعين الاعتبار أن عمل المؤتمر التأسيسي كان محاكمة. كانت مجموعات أخرى ممثلة بوضوح 55 رجل دين ثورياً (منهم تسعة بروتستانت، بينهم رابو سان- ايتيان Rabaut Saint-Etienne، وليس أقل من 16 أسقفاً دستورياً، منهم فوشيه Fauchet وغريغوار Grégoire). كان هناك 51 موظفاً حكومياً مدنياً، أحدهم مدير مكتب البريد درويه Drouet، الذي أوقف الملك في فارين Varennes، و46 طبيباً. ضمت في أطراف معاكسة على الأقل فلاحاً فقيراً، جاك شيفالييه Jacques Chevalier، وأميراً سابقاً واحداً وإقطاعياً من القصر الملكي، هو فيليب درليان Philippe d'Orléans، الذي بات يُعرف الآن باسم فيليب ايغاليته Philippe Egalité.

وقد لا تكشف هذه الجدولة الصريحة للفئات العمرية والمهنية والخبرة السياسية

القصة كاملة. وما هو ذو أهمية أكبر كثيراً مما يفترض عددهم دخول مجموعة من الصحفيين، الكتّاب وكتبة الكراريس إلى الهيئة التشريعية كانت قد مارست تأثيراً هائلاً من خلال منشوراتها. كارا Carra، على سبيل المثال، تلقى المحرر الجيروندي لجريدة حوليات الوطنيين Annales Patriotiques أصواتاً كافية في ما لا يقل عن ثماني مقاطعات هامة (بينما انتُخِبَ روبسبيير في إثنتين). ومع فريرون Fréron ومارا وديمولا وبريسو (الذين امتدت شهرتهم بالطبع إلى ما رواء القرّاء في الوطن الفرنسي)، نقل هؤلاء الكتّاب إلى غرفة المناقشة نوعاً من أسلوب تمثيلي، اتهامي استكملوه في صحافتهم. عند وضعه مقابل السلوك الأكثر زخرفة وتنميقاً الذي فضله الجيرونديون مثل فرنيو، أنتج إذاما قورن بالأسلوب الخطابي الأكثر زخرفة وتنميقاً، الذي فضله الجيرونديون مثل فرنيو، مشاهد درامية غير متوقعة وحتى عنفاً شفهياً، فقد هزّ مارا وغودي قبضتيهما كل في وجه الآخر وهما يصرخان ليكونا مسموعين في جهات القاعة المقابلة.

كان ممكناً، بعدئذ، للعداوات بين أقلّية من النواب إلى المؤتمر، منذ البداية، أن تضفي نبرة من حدة لاذعة إلى محاضر جلساته. وقد كان بين نواب المجلس التشريعي السابقين، وإلى حد أقل المجلس التأسيسي، أن تشكلت المعسكرات المتخاصمة على نحوٍ أكثر حسماً. والحقيقة أن تلك المجموعات التي لا تشبه الأحزاب البرلمانية الحديثة لم يكن عليها أن تخفي الحقد الحقيقي لعداوتها، ولاسيما في نواة المتعصبين الذين استقطبوا حولهم التحالفات. وكما في المجلس التشريعي، فقد عبّروا عن علاقاتهم الميالة للقتال بالجلوس متباعدين بشكل جلي. أخذ حلفاء روبسبيير المقاعد الطويلة العالية مقابل الجدار، الذين، عندما نُقِل كرسي الرئيس عبرالقاعة، صاروا عندئذٍ، بشكل مشوش، على يمينه، لكنه أعطى هذا الانشقاق اسم الجبل Mountain. في البداية، تمّ تفادي المقاعد القديمة للملكيين وكأنّ مجرد الجلوس هناك سيسم بطريقة ما النائب بأنّه ملكي. لكن قبل وقت طويل أصبحت منطقة المانيج حيث جمع الجيرونديين قواهم الرئيسية. وجلست أغلبية النواب المستقلين في الأدنى عند أرضية النقاش، وعرِفوا باسم السهل Plain. سيبدّلون ولاءاتهم الشخصية وفقاً لكل حالة فردية بدلاً من التصويت في جماعة متماسكة. ولم يكونوا، مع ذلك، جماعة بلا كرامة أو غير فعالة، بمن فيهم رجال متمرّسون وأذكياء مثل سييس Sieyès وبلغاء مثل المحامي برتراند باريز Bertrand Barère، الذين كان ينبغي أن يكون لتدخلهم تأثير حاسم على مصير الملك.

ومع أنه لم يكن ثمة شيء في الأصول الاجتماعية أو الخلفيات المهنية أو حتى في التجربة السياسية ما يميّز بين اليعقابة والجيرونديين، لا يعني هذا أنهما لم تكونا

مجموعتين متمايزتين من الرجال الذين يتحلقون بلا ثبات حول القليل من الأعضاء الأساسيين المميّزين أمثال روبسبيير وبريسو. فكانت خلافاتهم حول طبيعة الثورة عميقة في نقاط حاسمة. جاء عدد كبير من الجيرونديين من مدن بحرية ومرافئ ـ ليس من بوردو Bordeaux وحسب بل بريست Brest ومرسيليا Marseille أيضاً ـ وكانوا، بشكل عام، معادين لمزاعم باريس بإملاء نهج الثورة. أما روبسبيير، بالمقابل، فذهب في طريقه، في نادي اليعاقبة والمؤتمر، ليطري الباريسيين كمصدر للفعالية الثورية لا يُقهَر. لكن مع أن قمة قيادة الجبل تنتمي إلى العاصمة، جاء يعاقبة كثر على منحدراته وسفوحه من مناطق متفرقة واسعة في فرنسا. وغالباً، بقدر ما كانت مقاطعتهم بعيدة، شعروا بأنهم محاصرون داخل مجموعتهم الصغيرة اليعاقبة في دعم ما أخذوه ليكون إيماناً ثورياً نقياً. وحالما جاؤوا إلى باريس تمسكوا بالجماعة بحماس وتضامن استثنائيين. كان عليهم على الأرجح، بعدئذٍ، أن يستثنوا محاولة الجيرونديين تقديم أنفسهم أنهم حرّاس حريات المقاطعات. وقد ظهر ذلك جلياً عندما ألحّ الجيرونديون على تشكيل حرس خاص لحماية المؤتمر من خطر الترويع المسلّح وعندما حاول باربارو Barbaroux، نائب من مرسيليا، تحريك مواطنيه لبلوغ الغاية ذاتها.

قدم الجيرونديون أنفسهم، ليسوا جميعاً بشكل مخادع، أنهم حماة الشرعية ضد أعمال الغوغاء الوحشية الاعتباطية. وعندما برزت التفاصيل الرهيبة للمذابح، اغتنموا كل فرصة ممكنة لإبعاد المسؤولية عنهم إلى الكومونة ثم اليعاقبة توسعاً. وقد أتاحت لهم هيمنتهم على رئاسة المؤتمر وأمانات سرّه خلال الأشهر الثلاثة الأولى تقرير ترتيب المتحدّثين وحتى وضع أجندة للمناقشات. لكنهم عالجوا هذه السلطة بسماجة بالغة حيث بدلاً من كسب تأييد جماعة السهل غير المحايدة بدؤوا بإبعادها. وكان واضحاً أيضاً لكثيرين أنه بينما قد يكون بعض المتطرفين اليعاقبة قد لعبوا دوراً ما بالفعل في المذابح، لم يكن بعض الجيرونديين أنفسهم مثل رولان، غير ملامين. ورأى نواب مثل فرنيو وجينسوني أنفسهم منخرطين في صراع حياة أو موت مع أعدائهم في حزب الجبل لاعتقادهم أنهم بالكاد نجوا من مدية السفّاح. لكن العنف الذي شنّوا به الهجوم على المعارضة بدا أنه يسمهم بأنهم مهووسون في اتهام شخصي أكثر من مصالح الوطن.

وقد تبدّى ذلك جلياً في الهجوم الكارثي على روبسبيير الذي شنّه محرر جريدة لاسنتينل La Sentinelle، لوفيه Louvet، في 29 تشرين الأول. مستعيراً أسلوب هجوم شيشرون على الكاتيليين Catilines ـ فُهِمَت الإشارة على الفور من مئات الطلاب السابقين

في مدرسة المناظرات اللاتينية في المؤتمر - لويت اتهم روبسبيير بتأسيس عبادة فرد ووضع نفسه فوق الناس والطموح إلى الدكتاتورية. وفي 5 تشرين الثاني، شنّ روبسبيير هجوماً مضاداً في خطاب برر في جوانب كثيرة منه برر عملياً لوم لوفت للهوس الذاتي، لكن بالاحتكام إلى المبادئ السياسية والفلسفية المجردة أديرت لتتحول إلى الـ «أنا» الثورية من نقيصة واضحة إلى فضيلة لا يرقى إليها الشك. ولمَّحَ روبسبيير إلى أن انتهازياً وضيعاً فحسب، يخربش في مصرف السجالات، يمكنه أن يشوش غروره بطموح شخصي. على العكس، كان قد ولِد من تواضع ارتبط بشعور المرء أنه مجرد مستودع للحقيقة التاريخية. (حيث لقي هذا الرأي احتراماً بدلاً من الضحك الساخر مما يشير إلى أي مدى كان قد كسب معركة الأسلوب الحاسمة). برّأ نفسه، ثم تابع الدفاع عن الثورة من تهم العنف المفرط. ألم يدرك أولئك الذين أوردوا التهم أنها منذ بدايتها عام 1789 كانت الثورة، بالمعايير التقليدية «غير قانونية»، وأن بقاءها اعتمد بشكل حاسم على القوة التي سيقدمها الشعب لدعمها؟ كانت محاولة الحكم عليها بمعايير المفارقة التاريخي في الأخلاق تبريرية مجاناً. والأسوأ، كانت لتجريد انتفاضة الشعب من مشروعيتها الطبيعية. وسأل المؤتمر سؤالاً بلاغياً: «هل تريدون ثورةً بلا ثورةٍ؟».

طفا النزاع ذاته ثانية على السطح حول القضية الوحيدة التي، بعد فالمي وجيماب، مارسته واقعياً كل قوى المؤتمر: محاكمة الملك. كان واضحاً أن الوضع الراهن لا يمكن أن يستمر بشكل غير محدد، والملك مع عائلته سجناء في قلعة تمبل. ما دام استمر دون اتهام، فعمل 10 آب، ناهيك عن ذكر إعلان الجمهورية في 21 أيلول، كان وضعاً عرضة للانتقاد، أو على الأقل غطاء شرعياً شعبياً ملائماً. ومع ذلك قدم بعض الجيرونيين اقتراحات للبلاط قبل الثورة تماماً، لا بد أنهم شعروا بالاضطراب من تلك الإمكانية وفعلوا ما بوسعهم لوضع حواجز إجرائية في طريقها. وفي ما يتعلق بمجموعات المحامين في المؤتمر، في أية حال، كان الأمر إلزامياً أن يكون رفضها للملكية مبرراً قانونياً بدليل أنّ الملك ارتكب جرائم وخيانات رهيبة جداً تسمح بالتخلص منه، في الحكم وربما شخصياً.

فشُكِّلَت لجنتان تمهيديتان. ترأس الأولى دوفريش- فالازي Dufriche-Valazé، كلفت بفحص جبل الخزائن والصناديق والأكياس المليئة بالأوراق المُهمَلة المأخوذة من التويلريه لمعرفة ما إذا كان ثمة دليل كافٍ للإدانة. وترأس الثانية محامٍ من تولوز هو ماله Mailhe، وكانت اللجنة الأكثر نشاطاً، وقد كلفت بتقديم تقرير حول القضية الإجرائية السابقة وما إذا كان ممكناً محاكمة الملك، الذي ضمن دستور 1791 حصانته، بالفعل،

وإذا كان الأمر هكذا فما هي المحكمة التي ستكون مناسبة. وقد برزت الصعوبة من حقيقة أن الدستور عرض بوضوح الجرائم الخاصة (تشجيع العصيان المسلّح، مغادرة الوطن دون نية العودة، إلخ.) التي أمكن خلع الملك لأجلها. لكنّها قضت أيضاً بالتنازل عن العرش عقوبة وحيدة. وبما أن لويس كان قد خضع لتنازل قسري عن العرش، فالتفسير القانوني الدقيق الذي قد يعتبر جيداً (كما أشار محامو الدفاع عنه) هو أنه يمكن أن يُحاكَم بوصفه مواطناً على الجرائم التي اقترفها بعد تنازله عن العرش. وداخل جدران قلعة تمبل يصعب أن يكون قد ارتكب مثل تلك الجرائم.

وعندما جاءت لجنة ميلي إلى المؤتمر في 6 تشرين الثاني لتقدم تقريرها، تحاشت هذه القضايا الشائكة بالاحتكام إلى المبادئ العامة بدلاً من الاستقامة القضائية. كانت الحصانة المطلوبة ميزة منحتها الأمة ذات السيادة ويمكنها أن تسحبها بسهولة. بعدئذٍ، صار بالإمكان محاكمة الملك بوصفه موظفاً عاماً ومواطناً في آن معاً. وفي السياق نفسه فإن المؤتمر الوطني، بوصفه موضع تلك السيادة الراهنة، ليس بمستطاعه وحسب بل لابدّ أن يكون المحكمة المناسبة، وما دام لم يعين محكمة نظامية ولا أية محكمة خاصة يمكنه أن يمتلك السلطة الأولية الضرورية لمعالجة قضية ذات أهمية كهذه. علاوة على ذلك، يجب أن يُشار إلى قرار الحكم بتصويت كل المندوبين باعتباره جزءاً من مسؤوليتهم كونهم أعضاء هيئة سيادية.

وقد عُرِضَت هذه التسوية غير الملائمة بين المبادئ المجرّدة من ناحية وبين التصحيح القضائي من ناحية أخرى، على نحوٍ يثير الألم بعد أسبوع عندما بدأ المؤتمر مناقشة تقرير لجنة ميلي، برئاسة مستشار المحكمة السابق هيرول دي سيشل Hérault de Séchelles. وقد أصرّت أقلية صغيرة من النواب، كان موريسون Morisson أكثرهم وضوحاً، على الحصانة. (طلب استثناءاً، كما قال، لأولئك الذين «يسِمون الآخرون من رأي مخالف بالخونة»). ومع ذلك، اعتقدت مجموعة كبيرة، بما فيها بعض الجيرونديين وكثيرون من مجموعة السهل، مثل غريغوار Grégoire، أن «الحصانة المطلقة ستكون شيئاً رهيباً حيث ستحرض الناس الذين يعرفون بخسة أن لديهم حصانة ضد العقوبة على جرائمهم. وإعلان حصانة الملك في وقت انتهك فيه كل شيء»، وتابع غريغوار، «وأن توكل إليه مراقبة تطبيق القوانين عندما خالفها . . . أمر لا ينتهك الطبيعة وحسب بل الدستور أيضاً».

غير أن الهجوم الأكثر تدميراً على مبدأ المحاكمة الكاملة أتى ليس من اليمين بل من

اليسار، ويعتبر الخطاب الأول الأكثر شهرة في الثورة الفرنسية. كان الخطيب هو لويس أنطوان سان جست Louis-Antoine Saint-Just، وهو الذي راسل روبسبيير عام 1789 باحترام شديد وفي الخامسة والعشرين المندوب الأصغر سناً في المؤتمر. جاء سان جست إلى باريس مؤلّفاً لقصيدة مطولة بعنوان «Organt »، وُصِفت (لكن بكرمٍ شديد) أنها إباحية. وقد صقل الآن، متأثراً بروبسبيير على نحوٍ واضح، أسلوب شاب رزين جعلت مزاياه في التأنق عناد ذكائه أكثر إزعاجاً. انسدلت ضفائر شعره الأسود على كتفيه، وتدلى قرط ذهبي واحد من أذنه وكان تعبير سان جست الاعتيادي منظماً بحرص في طريقة عزلة لا يمكن الاقتراب منها.

أخذت ملاحظاته فرضيات روبسبيير إلى استنتاج مثبط حول الأخلاق الموضوعية في الإدارة الثورية. تقديم الملك لمحاكمة كان افتراضاً مسبقاً لاحتمال براءته. ولكن في تلك الحال، كانت ثورة 10 آب ذاتها موضع سؤال، وهو شيء أنكره وجود المؤتمر ذاته. لم تكن مسألة ذنب مواطن أو براءته هي ما أثار الخلاف، شخص ما داخل الجسم السياسي، بل النفور الطبيعي من شخص ما، وبالتعريف، خارجه. وتماماً كما لم يسع لويس إلا أن يكون طاغية، لأنّ «المرء لا يستطيع أن يحكم ببراءة»، كذلك الجمهورية التي استند وجودها ذاته على تحطيم الحكم الاستبدادي لا يسعها أن تقوم إلا بإزاحته. وما هو مطلوب تماماً هو الحرمان السريع من حماية القانون، والاستئصال الجراحي لهذه الزائدة من جسد الأمة. كان يجب أن يموت الملك لتستطيع الجمهورية أن تعيش. كان الأمر سهلاً بهذه البساطة.

وعلى الرغم من أن خواتيمه لم تكن مستساغة بالمطلق لدى أغلبية النواب، فقد ولّد خطاب سان جست انطباعاً مذهلاً داخل المؤتمر وخارجه. وقد وضع الجيرونديين في موقع دفاعي بلا ريب، لأنّه جعل أي غموض إضافي يبدو عملياً لوماً ضد الجمهورية ذاتها. باختصار هم عبثوا بذاك الموقع من خلال المطالبة بطرح مرسوم تأسيس الجمهورية على استفتاء شعبي. ولكن في الأسابيع الأخيرة من تشرين الثاني أصبح واضحاً أن الموقع الدفاعي الوحيد الذي يمكنهم اللجوء إليه الآن هو أن يوافقوا على محاكمة ويحاولوا التأثير على حكمها، أو تصعيد حملة لطرح كلا الأمرين على تصويت شعبي. سيتفادى ذلك، على الأقل، موقف اليعاقبة، الذي كرره روبسبيير، أنّ الشعب أصدر حكمه في 10 آب. وكلّ ما بقي للملك الآن هو أن يسمع اتهامه والحكم عليه بسرعة. وأي شيء آخر سيكون، بالتعريف، حكماً ضد الجمهورية.

وقد سرّع ظهور رولان المثير أمام المؤتمر في 20 تشرين الثاني التراجع القسري

المرتبك في صفوف الجيرونديين. أخبرهم في مظهر من التهنئة الذاتية وجدها مندوبون كثر مغيظة، أن ثمة معلومات من صانع أقفال عيّنه الملك قادت إلى اكتشاف خزينة تحتوي على عدد كبير من الوثائق التي لها تأثير مباشر على إجراءتهم (دعاويهم القضائية أو محاضر جلساتهم). ونجح رولان في التلميح إلى أنّ الوثائق ستعرِّض للشبهة بطريقة ما مندوبين من الجبل محتفظاً بشيء من الغموض. وهكذا أصبح كثيرون من مندوبيه، وكثيرون من جماعة السهل، حالاً متملقين لأنه أخذ على عاتقه فتح الخزينة الحديدية دون شهود من المؤتمر. وتدفقت اتهامات بأنّه ربما طمس الدليل أو تلاعب به. عند توافر التفاصيل الرئيسية، في أية حال، كان واضحاً أنه بالفعل كان ثمة دليل تجريمي جدي في رسائل كتبها الملك إلى بريتويل Breteuil تشير إلى أن الدستور «سخيف ومقيت». أكدت أنّ قبوله الظاهري للوثيقة لم يكن أكثر من تكتيك مخادع انتُزِع بالإكره. وبيّنت مطبوعة شعبية، من ناحية ثانية، أن الهيكل العظمي في الخزانة هو لميرابو، الذي كانت مراسلاته مع لويس حول كيفية استعادة سلطته والأموال المدفوعة لقاء الاستشارات قد كُشِفت آنئذٍ. وفي 5 كانون الأول، أثبت روبسبيير أن موهبته الطبيعية «فضح» المنافقين، وطالب بنقل رفات ميرابو من البانثيون وتحطيم تماثيله النصفية.

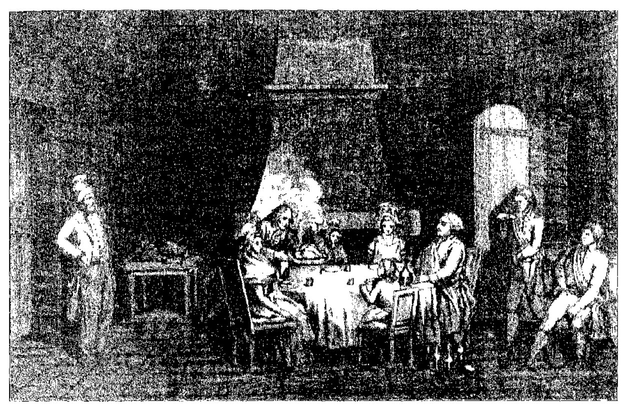
ومع هذا الدليل الجديد والمدين للازدواجية الملكية، غدت المطالب بإجراء محاكمة عاجلة لا تُقاوَم. في أقسام باريس، كان الملك يعتبر مسؤولاً أيضاً عن الأزمة الاقتصادية التي تضخم أسعار المواد الغذائية بسرعة. وقيل أنه تعمد ملء المخازن في فردان Verdun ولونغوي Longwy بالسبائك والحبوب، ليستولي عليها التقدم البروسي. وظهرت وفود من الكومونة بقيادة أناكساغوراس شوميت Anaxagoras Chaumette أمام المؤتمر، تدّعي أنّ الإخفاق في معاقبة لويس على جرائمه هو المسؤول مباشرة عن الأسعار المرتفعة وانخفاض القيمة الشرائية للعملة الورقية . assignate وقال جاك رو Jacques Roux الساخط في القسم الفقير من الغرافيلييه Les Gravilliers، المليء بحمّالي السوق والباعة الجوالين، «لقد حان الوقت، فحرية الناس تتعزز بسفك الدم الملوث». وبالإضافة إلى الغضب على ما كشفته الخزنة الحديدية ومماطلة الجيرونديين، نهض مرلين دي تيونفيل Merlin de Thionville في المؤتمر في 3 كانون الأول وقال إنه تمنى لو قتل لويس في 10 آب، وقد أثار هذا الهيجان محاولة شجب وفوضى عامة في القاعة. وتقرر بعد يومين أن لجنة أخرى ستعد إعلان القانون ـ في الحقيقة، التهمة التي ستُبلّغ للملك ـ وترفع تقريراً يتضمن لائحة اتهامات للملك- وتقرر في الوقت ذاته إجراءات المحاكمة.

كان هدف كل هذا الاهتمام المثير للغيظ، في غضون ذلك الوقت، موجوداً في حالة من الهدوء التأمّلي تقريباً. فقد كان لويس المحتجز في قلعة تمبل التي تعود للقرون الوسطى (التي كانت سابقاً لأخيه أرتوا) والمحروم من قراءة الصحف محمياً إلى حد كبير من الكراهية المتقيحة في المدينة. أقامت العائلة معاً في طابقين مع طاقم مزودي طعام من ثلاثة عشر شخصاً وخادماً خصوصياً أجازته الجمعية التشريعية له بكرم. وأدخلوا له الكتب بناءً على طلبه: التاريخ الروماني، الكتيبات التعبّدية، وبالإضافة إلى ذلك كان لدى لويس حق الدخول إلى المكتبة القديمة لجماعة فرسان مالطا المحفوظة في البرج.

وقد قابل هذه الرفاهيات المواسية نوعاً ما إهانات تافهة لا تحصى، كان حراسه يُشجَعون على توجيهها إلى لويس بأسلوب تذكيره أنّه لم يعد صاحب جلالة بعد الآن. أُبقيت القبعات على الرؤوس تباهياً وغارت الأكفال في المقاعد في حضرته. كان ممنوعاً من ارتداء أوسمته خلال مشيه بعد الظهر. وكان الشتم الكلامي مألوفاً، الأمر الذي أزعج بشكل متوَقّع الملكة والسيدة إليزابيث (التي طلبت طوعاً السماح لها بمشاطرة السجن) أكثر من الملك. وتبع حارس كان، وفقاً لكليري Cléry، معلماً للغة الإنكليزية لويس إلى طاولة القراءة، وجلس على مقعد النافذة بجانبه ورفض أن يبتعد في إحدى المناسبات. وصودر ما خاطته ماري أنطوانيت لأنها كانت تطرّز نوعاً من شفرة سرية لتهريبها خارج السجن. وأبعدت الكومونة حتى موسى حلاقته الخاصة خشية أن يخادع الملك الجلاد، وأصرّت على أن يحلق له الرجل الذي عينته. وردّ لويس على تصرف الحقد الصغير هذا بتعهد جريء لنمو لحيته حتى سُمحَ له أن يحلق ذقنه شخصياً ثانية، ولو بوجود حارس يقظ. لعلّ الأسوأ كان خربشات الحرّاس على الجدران: رسوم غريبة لشخص بعصا متوّجة تتدلّى من مشنقة مع نقش يقول: «لويس يستحم في الهواء الطلق» أو صورة شخص بدين يتمدد أمام مقصلة، crachant dans le sac ـ «يبصق في كيس»، واحدة من الدعابات المروعة عن الآلة التي كانت لديه.

لم تكن تلك الإهانات كلها ذات أهمية بالمقارنة مع جو الهدوء البرجوازي غير الواقعي الذي خيّم على العائلة، والذي سجله كليري بتأثر. يجتمعون كل صباح للإفطار، يتبادلون القبل والعناق بطريقة احتفالية عرفاناً بالجميل أنهم عاشوا ليلة أخرى. بعد الوجبة يقضي الملك والملكة وقتاً طويلاً من الصباح يعطيان دروساً لابنهما وابنتهما على التوالي. ولي العهد، المعروف الآن باسم «الأمير الملكي»، الذي أُعطي مقاطع من راسين وكورنيل للقراءة والتسميع، لكن كان، بالطبع، في دروس الجغرافيا، أن الأب والابن

استمتعا كثيراً، وهما يلوّنان ويتتبعان (بنزاهة سياسية لافتة للنظر) معالم المقاطعات الثلاث والثمانين في فرنسا الجديدة. كان يُسمَح لهم بالمشي في حديقة قلعة تمبل عند منتصف النهار، حيث كليري يضرب الأطواق ويقذف الكرات مع الأطفال. كان يُقدّم لهم العشاء عند الثانية بينما يأتي سانتر، قائد الحرس الوطني، لتفتيش غرفهم يومياً.



الصورة 164، مطبوعة شعبية، «لويس كابيه *Capet* يتناول طعام العشاء في قلعة تمبل مع عائلته»، نشرت في جريدة *Prudhomme's Révolutions de Paris* إلى اليسار السجان؛ وإلى اليمين، اثنان من ممثلي كومونة باريس.

في الأمسيات، بعد ألعاب الريشة الطائرة وقبل وقت النوم، كان لويس يقرأ أحياناً للعائلة من أحد كتب التاريخ الروماني التي طلبها، وغالباً ما يسهب في المقاطع التي لها صلة وثيقة لافتة ومؤلمة بورطتهم الخاصة. ألصق إعلان حقوق الإنسان والمواطن على جدران الغرفة الرئيسية التي يتجمعون فيها. لكّن دروس التاريخ المروّعة الحديثة والأخبار الأخيرة المطالبة برأسه، صاح بها بائع عند نافذة البرج في السابعة، كانت تُلطّف وتُخفّف بممارسة العبادات بشكل منتظم ميزت روتينهم اليومي. كانت الصلوات هي أول شيء عند الصباح وآخر شيء عند المساء؛ وكان الملك حريصاً على أن يتقيد بكل المناسبات الدينية، وقد تحمل مسؤولية الحفاظ على السعادة الروحية لعائلته في غياب الكاهن. وفي قرارة نفسه، ظل كما كان دائماً الملك المسيحي للقب تتويجه. وكان واعياً أكثر من أي

وقت مضى إنجاز واجباته بوصفه أب العائلة. وفي النهاية غدا أفراد العائلة الملكية في مرحلة نبذهم القصوى من الجسم السياسي يشعرون أنهم مواطنون عاديون.

IV - محاكمة

كتب مالرب Malesherbes إلى رئيس المؤتمر طالباً منه أن يسمَح له بالدفاع عن الملك في الحادي عشر من كانون الأول. وقد فعل هذا بمزيج مميّز من الشجاعة ونكران الذات، كما لو أنه يعتذر عن وقاحة وضع اسمه مقدماً نظراً لأهمية لويس. ومهما يكن، هل ثمة أثر للسخرية في ملاحظته أنّه «أنا بعيد من افتراض أنّني شخص هام جداً مثلك [أي، الرئيس] يجب أن تشغل نفسك بي، لكنني سبق ودُعيت مرتين إلى مجلسه «الملكي»، والذي كان سيدي عندما كان ذلك المنصب محط طموح كوني. إنني مدين له بالخدمة ذاتها عندما يكون منصباً يحكم أناس كثر أنه خطير».

كان أحد أولئك الناس الرجل الذي اكتسب سمعة أنه أعظم محام في البلاغة القضائية في فرنسا النظام القديم: تارغيت Target. على الرغم من أنّ دفاعه في الهجوم المضاد على روهان de Rohan في قضية العقد الماسيDiamond Necklace Affaire أدمى أنف العرش، فقد كان تارغيت منذ أن شغل مقعداً في الجمعية الوطنية مؤيداً مخلصاً للملكية الدستورية وفي الحقيقة ابتدع صيغة ملك الفرنسيين Rex Francorum التي كان يُفترَض أن تعني انتقالاً سلمياً. وقد كان خيار لويس الأول للدفاع، لكنه أجفل عندما عُرِض الأمر عليه كما لو أن كأساً مسمومة قُدِّمت له. فتذرع بالعمر (علماً أنّه أصغر عمراً من مالشرب بـ 14 عاماً) والعجز وضغط القضايا الأخرى. كان آسفاً لكنه ببساطة لا يستطيع أن يفعل ذلك. بعد عام، مع أنه، خلال فترة العنف، وجد تارغيت، أسد محكمة باريس، نفسه يعمل سكرتيراً للجنة الثورية في القسم الذي ينتمي إليه في باريس.

كان هذا التفكك الأخلاقي للرفاقية الفكرية بالضبط أكثر ما أحزن مالشبرس أثناء الثورة. وقد آمن خلال حياته الطويلة بقوّة التطهير الأخلاقي للعقل. وذلك ما يفسر كونه أكثر مدراء المطبوعات ليناً بطريقة إبداعية، غير مدرك حقاً على أي أساس يمكن أن تقوم رقابة مطبوعات سواء كانت أخلاقية أو نفعية. وفي ربيع عام 1789، انسحب من إخفاق وزارة براين Brienne، وأكمل مذكرة مطولة عن حرية الصحافة التي، بمنتهى البراءة، أرسلها إلى ديمري d'Hémery، أحد رجال الشرطة الأكثر اجتهاداً ثقافياً في النظام القديم. لم يتزعزع إيمانه في الأهمية المطلقة لحرية البشر، وما حدث في ما بعد لم يضعف إيمانه

بأهمية حرية النشر، بل الأحرى في الأساليب المنحطة أخلاقياً التي كان يُساء إلى حرية النشر باستخدامها. والأسوأ لا يزال هو التسوية الهشة مع العنف الذي قصم ظهر التحالفات الليبرالية في ثمانينيات القرن الثامن عشر.

ماذا حدث لكل تلك المجموعة من الأصدقاء المفصليين الذين تعشوا معاً وتخلّصوا من فرنسا القديمة بأعمدة الإنارة والتشريعات الكثيرة؟ كان لافايت في سجن نمساوي، ومتهم بالخيانة العظمى؛ ولحق العار بميرابو بسبب إفشاء مراسلات البلاط. وكان تاليران في لندن، ظاهرياً بمهمة دبلوماسية من أجل الجمهورية، لكن أحداً لا يتوقّع عودته. بالكاد نجا هو ودو بون دي نيمور Du pont de Nemours من القتل خلال الأسبوع نفسه الذي وقعت فيه مذابح السجون. لم يكن لا روشيفوكو La Rochefoucauld محظوظاً جداً. لقد عُرِف بأنه أحد الموقعين على وثيقة رفعتها مقاطعة باريس تحضّ الملك على نقض قانون نفي الكهنة العنيدين، وقتلته مجموعة من الناس بوحشية. وقد لام مالشربِ، ليس بعدالة تماماً، كوندورسيه على نهاية لاروتشفوكولد الرهيبة، بل عزاها إلى بعض الشجار الفكري. وسمعه دي توكوفيل de Tocqueville (والد الكاتب)، وهو زوج إحدى حفيدات مالشربِ، يقول إنّه سيؤوي خصومه ولن يمنح كوندورسيه ملاذاً (الذي سيكون قريباً جداً بحاجة ماسة له)، ولو كانت حياته في خطر.

كل ما بقي في هذه الحفرة السحيقة من الحزن والاضطراب هو سحب خيوط استقامة المرء الخاصة والموت باحترام للذات بقدر ما يستطيع المرء أن يدير ذلك بكرامة. وليس إيمان مالشربِ بالقضاء والقدر هو ما دفعه إلى المقدمة. فمع أنه كان في الحادية والسبعين، كان لا يزال ثمة تصميم عظيم وطاقة مركزة في ملامحه المتغضنة التي تحدّت حتى روبسبيير على رفض اعتبارها أرستقراطية. وعلاوة على ذلك، لم تكن السنوات التي تلت عام 1789 كلها عقيمة وبائسة. فقد شاهد حفيدته تتزوج من أحد أفراد آل شاتوبريان Chateaubriands في بريتاني. وأمضى ساعات سعيدة كثيرة يخطط رحلة إلى ممر شمال غرب أمريكا مع الأديب الشاب فرانسوا رينيه François-René الذي شعر بنشوة رؤية الأسطول الفرنسي في مرفأ بريست Brest. تأمّلا معاً في خرائط مضيق البيرينغ Bering Strait وخليج هدسون Hudson Bay ومنحوتات حيوانات الفظ والحيتان. واعترف العجوز، «لو كنت أكثر شباباً لوددت الذهاب معك».

لقد كان على الأقل قادراً على جمع بعض النباتات السويسرية للدراسة. هاجرت ابنته فرانسواز Françoise وزوجها إلى سويسرا وذهب مالرب للإقامة معهما في لوزان

Lausanne في ربيع عام 1791 في حين جمع نماذج من نباتات جبال الألب لمجموعته. وعلى نحوٍ يثير السخرية ستكون هذه المداعبة الأكثر براءة مع «المهاجر مونبوسييه Montbosier » ذريعة لمثوله أمام محكمة ثورية فترة الإرهاب Terror. وقد عاد إلى باريس إلى بيته في جادة الشهداء Martyrs في أواسط الصيف. مع أننا لا نعرف ماذا فكر بهروب الملك إلى فارين Varennes، فقد كان مهتماً بشكل كافٍ بمأزق الملك أن يزروه في فسحة يوم الأحد في التويلريه على الرغم من «ذلك السيف اللعين الذي يقف في طريق ساقيّ».

لم يكن مالرب الشخص الوحيد الذي تبرع وعرض الدفاع عن لويس أمام المؤتمر. متطوعة ربما أقل مكانة هي الممثلة أولمب دي غوج Olympe de Gouges، مؤلفة إعلان حقوق النساء والمواطنات، التي، على الرغم من أنها ثورية متحمسة، فقد شعرت أنّ لويس ضحية أكثر منه طاغية وأرادت بوضوح أن تثبت أن النساء لسن أقل قدرة على «البطولة والسخاء» من الرجال. رفض الملك عرضها لكنّه كان مسروراً ليسمع من خياره الثاني بعد تارغيت، فرانسوا ـ دينيس ترونشي François-Denis Tronchet، مدير قانوني آخرسابق في المحكمة. في قبول، تذمر ترونشيت من قطع تقاعده، لكنه لم يستطع أن يرفض خدمة شخص كان قدره «معلقاً تحت سيف القانون» ـ التعبير الملطف السائد للمقصلة.

كان لويس بحاجة إلى كل مساعدة أمكنه الحصول عليها. وقد سُمِح له بالمحامين بعد سماع الاتهام ضده، التي عرضها روبرت لندت Robert Lindet بالنيابة عن لجنة الواحد وعشرين مندوباً. رئيس بلدية بيرناي Bernay البلدة النورماندية Norman ومندوب سابق في الجمعية التشريعية، يردد لندت عادة آراء الجبل، مع أن حمايته لضابط في الحرس السويسري في 10 آب في ذلك الحين عبرت عن إنسانيته. كان واحداً من اثنين من أعضاء لجنة السلامة العامة الذي رفض وضع توقيعه على مذكرة موت دانتون خلال مرحلة الإرهاب. ومع ذلك فعمله مذكرة الاتهام acte énonciatif، كان وثيقة مثبطة للآمال: تاريخ الثورة الطويل الذي مُثِّل سلوك الملك، خلاله، أنه عمل ماكر ومحافظ، مليء بالخداع والعنف المتعمّد. وفي أمثلة كثيرة، مدعمة الآن بالوثائق الوفيرة من الخزينة الحديدية، استطاع لنديت بصعوبة ألا يكون متناقضاً. قاوم الملك بالفعل دعوة مجلس الطبقات حتى هُدِّد بانهيار مالي شامل؛ استعد لاستخدام القوة ضد وحدة الطبقات والمظاهرات ضد إقالة نكر في باريس؛ حاول الفرار؛ وفاوض سراً لاستعادة سلطته في حنث بأيمان أداها علناً. كان تاريخاً ملعوناً من الحيلة وسوء النية. ما كان مفقوداً، بالطبع، من الوصف كان

أي إحساس بالعنف أو التهويل من الطرف الآخر؛ لذلك بدلاً من تجربة حقيقية للقوة التي ميَّزت تاريخ الثورة، قدَّم اتهام لنديت السلوك الملكي سلسلة من الجرائم التي لا تقبل الجدل.

في صباح يوم الحادي عشر، جاء رئيس بلدية باريس، شامبون Chambon، إلى قلعة تمبل ليجلب الرجل الذي سمّاه «لويس كاب Louis Capet ». «أنا لست لويس كابت»، ردّ الملك بسخط؛ «كان لأسلافي ذلك الاسم لكنني لم أُدعى به أبداً». كانت واحدة من لحظات غضب قليلة خلال يوم يبدي فيه مرة ثانية رباطة جأش استثنائية، مهما أُزعِج. وقف أمام المؤتمر والشرفات تغص بالمشاهدين مرتدياً معطفاً حريرياً أخضر زيتونياً، حتى أذن له الرئيس، برتراند باريز Bertrand Barére، بالجلوس. لا شيء، كما كان المؤتمر مدركاً تماماً، استطاع أن يرمز بدقة أكثر إلى انقلاب عالم فرساي، حيث كان التصدر الهرمي تعبر عنه بدقة التقاليد التي تحكم إمكانية الجلوس في الحضرة الملكية.

سمع لويس لائحة الاتهام كاملة ثم رد على الأسئلة التي وضعها باريز، منكراً بثبات أنه كان قد قام بأي فعل لا شرعي سواء قبل أو بعد عام 1791، نافياً تهمة أنّ الرحلة إلى سان كلو Saint-Cloud كانت محاولة للهروب بوصفها منافية للعقل. في القوانين التي نقضها عام 1791 رد بأنّ الدستور منحه الحق بفعل ذلك ورفض الوصف بأنه دعّم التوليريه استعداداً لـ «هجوم على باريس». وقد أبدى خلال ذلك كله هدوء رجل يؤمن فعلاً أنه على صواب تماماً. لكن عندما أكد باريز بصورة مباشرة أنّه كان «مسؤولاً عن سفك الدم الفرنسي» ردّ لويس بحدة رداً سريعاً عاطفياً غاضباً. ورأى بعض الشهود دمعة تسقط عند هذه النقطة. غير أن لويس عزم على ألّا يسمح لمحاكميه برؤية أي ضعف ووضع يده سريعاً على خده، وأعقبها بحركة مسح على جبينه كأن الفعل برمّته كان مسحاً للعرق الذي كان في كل حال يتصبب غزيراً في القاعة المكتظة. وكان الجزء الأضعف في شهادته طريقته اللامبالية تقريباً التي أخفق فيها بالتعرف على خط يده في وثائق أُخِذَت من الخزينة الحديدية سيئة السمعة.

أمضى لويس الفترة بين تعيين محاميه ومحاكمته الكاملة في نهاية كانون الأول في إعداد دفاعه. وقررت الكومونة أن تجرحه إلى مدى أعمق وأشد فرفضت أن تسمح له برؤية أطفاله، وهذا مرسوم يتسم بقسوة غير مبررة خففه المؤتمر بإجازة دخول من حين إلى آخر. لكن روتين مجموعة العائلة خُرِقَ واستُبدِلَ بمجيء ورواح المحامين. قرر مالشرب، الذي قبل الملك عرضه، وترونشيه طلب عون زميل أصغر عمراً يتمتع بسمعة ضرب بلاغة قوية

وجهورية بدا محامو بوردو متخصصين فيها، هو رومان دو سيز Romain de Sèze . وقد كان يصعب على الملك أن يطلب مدافعين أشد بأساً بوجود هذه المجموعة، لكنها لم تكن موحدة في مقاربة المسألة. فَـ مالشربِ، الذي، حسب إحدى الروايات، ناقش مع الملك مبكراً عام 1788 معالجة ديفيد هيوم David Hume لسقوط تشارلز الأول، وأراد أن يتحدى لويس تفويض المحكمة في جلبه إلى المحاكمة، وعلى نحو خاص أن يهاجم تولي المؤتمر لأدوار القاضي وهيئة المحلّفين، في انتهاك للتقاليد القانونية التي وضعتها القوانين الثورية نفسها. وأن يفعل هذا، بالطبع، يعني مناقشة شرعية ثورة 1792 برمتها ـ كما توقع روبسبيير تماماً ـ غير أن مالشربِ، على الأقل، اعتقد أن الوضع سيمتلك قدرة داخلية على الإقناع وقوة أخلاقية كبيرة.

ومع ذلك، قرر الملك بإصرار أن يلعب على ضعفه، وأن يؤكّد على حصانته الدستورية، إلّا أنّه بعدئذٍ يدافع عن سلوكه بوصفه مواطناً ذا ضمير حي، ويفند القضية نقطة نقطة، كما فعل يوم الحادي عشر تماماً. وقد قاده إيمانه أن العدالة الحقيقية ستظهر براءته بشكل لا يخطئ إلى كبح ما اعتبره دفاعاً بلاغياً مفرطاً تضمنه خطاب دو سيز.

في صباح اليوم التالي للميلاد، قُدِّم لويس مرة ثانية إلى محكمة المؤتمر. على الرغم من أنه لم ينم لأربعة أيام، فقد كان دو سيز متألقاً في دفاعه، يكرر حجة أن المنصب الممنوح للملك يمنع أياً كان من مقاضاته، في الحقيقة، فرع حديث في الدستور. ولا يمكن محاكمته على أفعال كان قد تنازل عن العرش بسببها، ولا يزال أقل أهمية وفقاً لمجموعة من الناس الذين كانوا قد حددوا ونشروا آراءهم بشأن استحقاقه للوم. ثم أعاد النظر في مذكرة اتهام لنديت من الجانب الآخر، فقدم سلوك لويس ليس خداعاً متعمداً ومؤامرة بل رد الشرعية على التهويل. كان هذا موقف الملك المتماسك، كما أدّعى، بالضبط حتى 10 آب. وبدأ خاتمة خطابه بالكلمة التالية: «أيها المواطنون».

> *إذا قيل لكم، في هذه اللحظة، إنّ حشداً مسلّحاً وهائجاً يزحف ضدكم دون احترام لشخصكم أنكم مشرّعون مقدسون... فماذا تفعلون؟... هل تتهمونه بإراقة الدم؟ آه! إنه يندب الفاجعة القدرية مثلكم. إنه الجرح الأعمق الذي أصابه، ومصدر يأسه الأكثر رعباً. إنه يعرف جيداً جداً أنّه ليس مؤلّف إراقة الدم مع أنه ربّما كان السبب فيه. ولن يسامح نفسه أبداً على ذلك.*

أنهى دو سيز برسم صورة لملك شاب جاء إلى العرش كمصلح مخلص، حسن النية وحيّ الضمير في الحكومة. كانت، في القسم الأكبر، صورة مميزة. ارتكب المحامي غلطة

خطيرة، في أية حال، باستخدام واحدة من عبارات لويس المفضّلة، أعني إنّه «منح» الحرية للفرنسيين ـ وصف عام 1789 أغلب الظن أنه لم يكسب تعاطفاً بين جمهوره. وكانت كلمات دو سيز الأخيرة، مثل كل خطابات الثورة المعدة جيداً، احتكاماً للتاريخ: «فكّروا كيف سيحكم على حكمكم».

لا يبدو محتملاً أن وضع دو سيز للمندوبين في قفص اتهام الأجيال القادمة قد فعل كثيراً لتبديل قناعة الغالبية الساحقة منهم في ما يتعلق بذنب لويس. غير أن هذا لا يعني أنه لم يكن للعاطفة المتقدة والحضور القوي والجلال الصامت لشخصه تأثير على المحامين. وكان جلياً، ليس أقله في جهود الجبل النشطة للتقدم بقضية العقوبة والحكم والتنفيذ، ذلك أن الرأي العام تأثر بظهوري لويس في المحكمة. وكانت نسخ من الدفاع قد طُبِعَت، بوصفها إجراء رسمياً، ووزِّعت على نطاق واسع مثل قرار لندت الاتهامي. وكان هناك إشارات إضطراب شعبي لصالح الملك، ففي روان Rouen، على سبيل المثال، اندلعت أعمال شغب.

شعرت مجموعة من الجيرونديين أن ثمة فرصة أخيرة في هذا التحرك غير النهائي للرأي لإلحاق الأذى بمعارضيهم في الجبل، فقامت بحركة درامية لتحوّل مسرح الحكم إلى خارج المؤتمر. فقد رفع بشكل مبكر جداً نواب مثل كيرسان Kersaint معادون بلا تحفظ للمحاكمة نفسها «نداء إلى الشعب»، وقد تبناه الآن فرنيو وبريسو على نحو خاص طريقة لتفادي موت الملك المحتوم. ولإثبات أنهم بفعل ذلك ليسوا ملكيين على الإطلاق، جدد أحدهم، بوزو Buzot، الهجوم الذي شنّه على فيليب ـ ايغاليتي، الذي جلس مع الجبل. وطلب بفرض عقوبة الموت على أي شخص ينوي استعادة الملكية، وقد وضَع هذا اليعاقبة، وبينهم مارا، في موقع مقيت بالدفاع عن ابن عم الملك. وأظهر الجيرونديون أيضاً فهماً بارعاً للتكتيكات في تأييد الدعوة إلى استفتاء شعبي على الحكم والعقوبة. فاستشهدوا بِـ روسو، الذي كانت نصوصه المقدسة تؤخذ آنئذٍ بشكل روتيني لبيانات تأييد مناسبة لدى المجموعتين، وادعى خطباء جيرونديون مثل فرنيو أن المؤتمر لا يملك حق اغتصاب السلطة التي لا تزال تعود للناس الذين يظلون «منتدبيهم». ومنطقياً، بعدئذٍ، يجب أن تدعى الجمعيات الأربعة والأربعين ألفاً الأولية التي انتخبتهم إلى اجتماع لتقرير مصير الملك. وبهذه الطريقة فحسب يستطيع المؤتمر التأكد من أنه لا ينتهك الإرادة العامة. ونموذجياً، أضاف بريسو بعداً أجنبياً للجدل الدائر. وقال، أوروبا كلها تراقب سلوكهم، دون مبالغة كثيرة. سيسارع أعداء فرنسا لاتهام المؤتمر بأنه ألعوبة بيد جماعات

معزولة. كم سيكون التفنيد أقوى إذا ظهر من خلال تصويت الناس لأنهم في الواقع تصرفوا في انسجام تام؟

جاء التفنيد الأبلغ والأطول بالتأكيد من برتراند بارير في 4 كانون الثاني 1793. بالنسبة لمندوبي السهل المستقلين، لابدّ أنه كان التفنيد الأقوى لأنه ردد بعض الآراء العامة لقيادة اليعاقبة دون أنصارهم الغاضبين. أعاد بارير المؤتمر إلى فهم حيوي لموقعه الخاص، الذي كان بالتعريف للقيام بالقطع النهائي مع الملكية. وينبغي، كما جادل، قبول تلك المسؤولية، لا تمريرها بطريقة جبانة للناخبين، لا سيما وأن ذلك سيضعهم وسط صراع حزبي مروّع دون شك. والخيار هو بين المؤتمر المصمم على العمل باعتباره مصدراً كلياً للسلطة ذات السيادة أو التخلّي عن المسؤولية القانونية وتحويل البلد إلى الفوضى والحرب الأهلية. لم يكن بمقدور خطابه الابتعاد عن خطاب مارا الدموي الهستيري، وكان له تأثير قوي على مجموعة من الرجال المنشغلين بسلطتهم الجماعية. ففي ما يتعلق بواقع أنهم نواب في كل حال قبلوا النظام الجمهوري. فكيف يمكنهم الارتداد عن اتخاذ الخطوة المنطقية الأخيرة بتوقيع وختم تلك الهوية؟

لم يجعل أي من هذا قدر لويس نتيجة محتومة. وعندما بدأ التصويت تحت رئاسة فرنيو في 4 كانون الثاني، كان ثمة ثلاث قضايا تتعلق بالقرار: ذنب أو براءة الملك والعقوبة ومسألة الاحتكام إلى الشعب التي لما تزل دون حل. وقد نُظِر إلى الترتيب الذي كان يجب العمل به أنه حاسم على الفور لأنه، إذا ما أُدين الملك وحُكم عليه، سيبدو الاحتكام إلى الشعب مثل عملية إنقاذ يائسة أكثر منها استشارة نزيهة. وقد انقسم الجيرونديون، في أية حال، على المسألة كما على الاحتكام إلى الشعب نفسها. كان بعضهم، مثل مكسمين ازنارد، الذي كان مقرّباً جداً من فرنيو، وغوديت الذي صوَّت بثبات مع الجبل في هذه المسائل الثلاث جميعاً. وقد أُرغِم فرنيو بعد مباريات الصراخ والاتهامات المتبادلة عبر القاعة على تعليق الجلسة، ودُبّرت تسوية ستعقب فيها مسألة الاحتكام إلى الشعب مسألة الحكم، لكنها ستسبق مسألة العقوبة.

وبدأ التصويت في صبيحة 15 كانون الثاني بالطلب الاسمي، التصويت الشفهي، أدلى به في المحكمة المندوبون الـ 794. وكان مارا قد طالب بهذه الطريقة المجهدة كثيراً بوصفها طريقة لكشف «الخونة» حيث بطريقة كهذه لن يستطيع المندوب أن يكون متناقضاً دون إثبات وجهة نظره. وقد رفضت قلة قليلة من الأشخص الشجعان، مثل الأسقف الدستوري في أوت مارن Haut Marne والعالم العظيم

لالند Lalande، أن توضَع في موقع القاضي الذي يُطلب منه ببساطة أن يجيب بنعم أو لا على الأسئلة المطروحة. ومع ذلك، لم يصوّت أحد عملياً لبراءة لويس وصوّتَ 693 نائباً (لأن البعض كان غائباً) أنه مذنب. وكما أوضح ديفيد جوردان David Jordan، في كتابه الرائع عن المحاكمة، عندما جاء الأمر إلى التصويت الثاني على الاحتكام إلى الشعب، أدرك محاموه أنّ ثمّة تآكلاً ضاراً في صفوفهم منذ خطاب باريز. وقد عبّر بعضهم حتى عن تأييده المستمر له نظرياً لكنه صوّت ضد نتائجه المرجحة. وفي النهاية هُزِمت المسألة بـ 424 مقابل 283.

وكان التصويت الأكثر إثارة بين الثلاثة، بالطبع، هو التصويت على العقوبة، الذي بدأ في 16 كانون الثاني. وتمهيداً، حاول لانجويني Lanjuinais من بريتون Breton، الذي ساعد على حفر قبر الملكية القديمة بقيادة ثورة قضاة رين Rennes ضدّ مراسيم براين Brienne، الآن أن ينقذ تجسيدها الشخصي. ينبغي أن يحصل أي شيء هام جداً، مثل عقوبة ملك على أغلبية الثلثين. وقوبل الاقتراح بردّ حاد ساحق من دانتون، العائد حديثاً من الجيش في بلجيكا، الذي قال ما دام المؤتمر لم يفكر أن إلغاء الملكية ذاتها يتطلب أغلبية الثلثين، فسيكون غير معقول ظاهرياً أن نلفق القانون الآن.

وتابع النواب تواليهم على المنبر من الساعة الثامنة مساء وحتى التاسعة صباحاً، راقبهم، وفقاً لـ مرسييه Mercier، المشاهدون يشربون ويتناولون المثلجات والبرتقال لتقويتهم خلال ليلة الشتاء الطويلة. وعندما جاء دور ميلي، أدهش المؤتمر بالتصويت لصالح عقوبة الموت لكنه أثار بعدئذٍ مسألة متى ينبغي تنفيذها. لقد كان، في الحقيقة، يطالب بتصويت جديد على إرجاء التنفيذ وتبعه في هذا نواب آخرون، بينهم فرنيو. ومع ذلك، فأن يستطيع الجيروندي الرد على مسألة الموت بالإيجاب كان له تأثير مدمر، ليس أقله على مالشرب بالتأكيد، الذي شعر أنه محطم لدى سماع تصويته. وعندما جاء دور وفد باريس، تكلّم روبسبيير أولاً بوصفه النائب الذي جاء في أعلى قائمة الانتخاب، فقال، «أنا لا أعترف بإنسانية تذبح الناس وتغفر للطغاة».

وكان الأخير في قائمة باريس فيليب إيغاليتيه. الرجل الذي سمح له وفقاً للهرمية الاجتماعية في بروتوكول البلاط أن يقدم للملك قميصه الداخلي صباح كل يوم، يصوت الآن لموت ابن عمّه على أساس أن «أولئك الذين يهاجمون سلطة الشعب» يستحقون هذا المصير.

وعندما بزغ الفجر كان جلياً أن عقوبة الموت ستكون مقررة. فمن 721 مندوب حضر التصويت، صوّت 361 لعقوبة الموت بشكل غير مشروط و 319 للسجن يعقبه

النفي بعد الحرب. وكان ثمة صوتان للسجن مدى الحياة في الأغلال واثنان لتنفيذ حكم الإعدام بعد الحرب (ربما للإحتفاظ بالملك رهينة). وصوّت ثلاثة وعشرون بطريقة ميلي للموت لكنهم طالبوا بمناظرة حول إرجاء التنفيذ، وثمانية للموت مع ترحيل عائلة البوربون كلها (وبينهم إيغاليتيه). وعندئذٍ، لم تكن الأغلبية للموت، بطريقة أو بأخرى، بواحد بل بخمسة وسبعين.

وبعد أن أعلن فرنيو العقوبة، اقتيد محامو الملك إلى الداخل لتوجيه خطاب أخير إلى المؤتمر. كان المحامون الثلاثة قد رفضوا المقاعد ووقفوا لثلاث عشرة ساعة أثناء التصويت. قرأ ترونشيه أولاً رسالة من لويس، الذي رفض «الموافقة على محكمة تتهمني بجريمة ليس بوسعي أن ألوم نفسي عليها» والتي طلبت الاحتكام للأمة على حكم ممثليها. كانت نبرتها أي شي إلا نبرة من يتوسل ويرمي نفسه تحت رحمة قضاته، وتحديها جعل الأمر أكثر صعوبة على ترونشيه ودي سيز إلا أن يكررا أن قدر لويس يجب أن تقرره غالبية كبيرة من ثلثين.

حاول مالشربِ وهو يشعر بالإرهاق والقنوط آنذاك أن يناشد حقيقة الرحمة لدى الناس جميعاً. لكنّه كان مهزوماً عاطفياً ليكون متماسكاً. فاعتذر عن كونه غير قادر على ارتجال خطاب، وتلعثم في كلماته وقاوم نشيجه وتنهداته قائلاً: أيها المواطنون، اعذروني لمتاعبي ... لديَّ ملاحظات أقدمها لكم ... هل أواجه سوء الطالع بفقدانها إن لم تسمحوا لي بتقديمها لكم... غداً؟»

فكّر بعض المندوبين دون ريب أن منظر العجوز المغمور في التعاسة لأجل موكل غير جدير به كان محزناً. وقد تأثر كثيرون لصراحة أساه. فالدموع، بعد كل شيء، يُفترَض أن تكون حليب النقاء الأخلاقي لهذه القلوب الرقيقة المجتمعة. لكنهم تركوا كلامه يتحطم تلقائياً داخل صمت ذاهل، خرقه، بشكل متوقع، روبسبيير. استطاع أن يسامح مالشربِ على دموعه التي ذرفها على مصير الملك، ومنحها بسخاء، لكنه رفض أي حديث آخر عن الاحتكام للشعب. وليس ثمة متسع لقول المزيد.

V ـ موتان

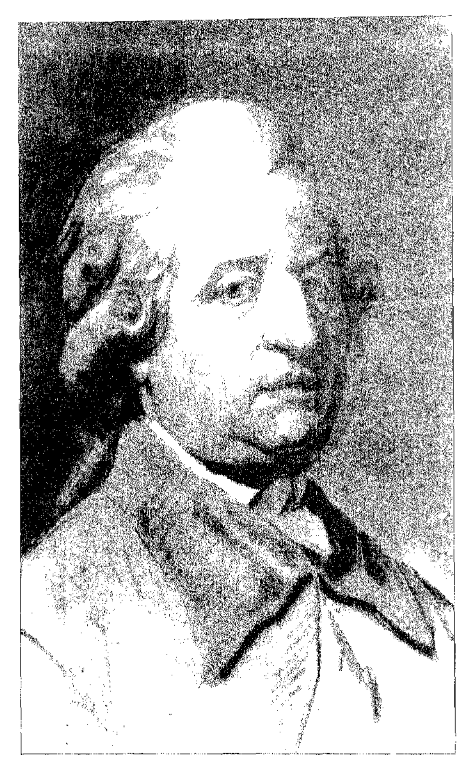
حمل مالشربِ حزنه معه إلى قلعة تمبل في ذلك الصباح نفسه. معلناً حكم المؤتمر، الذي قال إنه فاز بأكثرية خمسة أصوات فحسب، وانهار ثانية، جاثياً عند قدمي الملك. بدا لويس أكثر اهتماماً بحال العجوز من اهتمامه بحاله الشخصية، أوقفه برفق على قدميه وعانقه. ثم سرد مالشربِ مجريات التصويت بالتفصيل، وعندما وصل إلى تصويت



الصورة 165 صورة ملكية، لويس السادس عشر يقرأ وصيته لمالشربس

أورليان وحده بدا أن الملك كشف عن مرارته. وفي ذلك المساء رأى الملك والوزير بعضهما بعضاً آخر مرّة. وقد جاء في إحدى الروايات أن الملك أخبره، «سنجتمع في عالم أفضل، لكنني آسف على فراق صديق مثلك». وعلى الأرجح أنها موضع شك لأنه وفقاً لـ كليري، توقع لويس في الواقع أن يرى مالشرب ثانية وغدا منزعجاً أكثر فأكثر على غيابه في الأيام التي تلت. وقام العجوز، في الواقع، بعدة محاولات لزيارة الملك وفي كلّ مرّة كان يُمنع من الدخول بناء على أوامر صريحة من الكومونة والمؤتمر.

إنها قسوة صغيرة أخرى. فقد استسلم لويس تماماً قبل محاكمته لتوقّع الأسوأ. لم يكن اهتمامه الرئيسي إنقاذ حياته بقدر ما كان تبرئة نفسه من الاتهامات الموجّهة إليه. وكان قلقاً لاسيما (ربما كما كان أيضاً) على سلامة عائلته. فقد جعل انفصاله عنهم منذ 11 كانون الأول هذه المخاوف جدية، وظهر هذا القلق كله في الوصية التي أملاها بحضور مالشرب، بالتأكيد ليس مصادفة يوم عيد الميلاد. لم تكن الوصية بأي معنى وثيقة سياسية، مع أنها أصرّت على براءته وعبّرت عن صفحه على أعدائه وعلى «أولئك الذين ربما



الصورة 166 جوزيف دكروا، رسم بالفحم مع إضاءات بالطبشور، لويس السادس عشر، 1793

أزعجتهم من غير قصد (لأنني لا أذكر أنني أسأت لأحد على الإطلاق عن طيب خاطر)».
كان أكثر الوصية يعبر عن تديّنه، وتأكيد إيمانه بالعقيدة المقدسة وسلطة الكنيسة وتوصي لروحه بغفران الله. غير أن قسماً كبيراً كان موجهاً لعائلته، يلتمس الصفح من

ماري انطوانيت عن أية أحزان قد تكون متاعبه جلبتها لها. وكما لو أنه يردّ بلباقة زوجية على التشهير الغريب الذي يستمر بالصدور عن الصحافة الشعبية، أعلن لويس بوضوح أنه «لم أشك قط في حنانها الأمومي» بل طلب عفوها «عن أية منغصات، قد أكون سببتها لها في مجرى زواجنا».

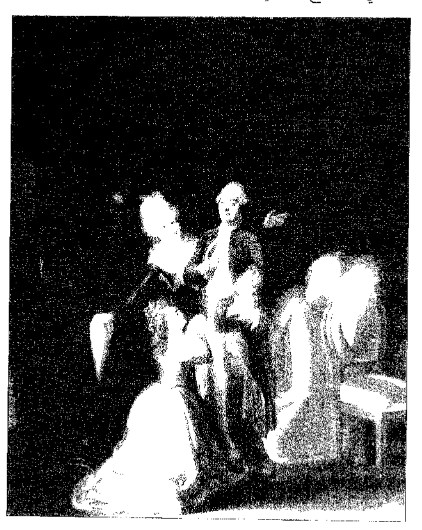
ولابنه لويس، كتب الملك أنه، إذا «حكم له حظه السيء بأن يصير ملكاً»، فيجب أن «يفكر ملياً بأن عليه تكريس نفسه بالكامل لسعادة رفاقه المواطنين؛ حيث عليه أن ينسى كل الكراهية والاستياء وخاصة فيما يتعلّق بالحظوظ العاثرة والإغاظات التي قاسيتها؛ لأنه لا يستطيع تعزيز سعادة أمة إلّا بالحكم حسب القوانين؛ وفي الوقت نفسه لا يستطيع الملك فرض القوانين وعمل الخير الذي يمليه عليه ضميره ما لم يستحوذ على السلطة الضرورية، لأنه بطريقة أخرى ستُقيَّد أعماله، ولا يلهم الاحترام وسيكون ضاراً أكثر منه مفيداً».

وأخيراً، أدرك بشكل واضح الأزمة التي طوّقته منذ بداية حكمه حتى نهايته. كيف تفعل الخير دون أن تسلّم سلطة؛ وكيف عليك أن تجعل الناس سعداء عندما يريدون الحرية؟ لا شيء ستفعله الثورة، وبالتأكيد ليس قتل لويس كابيت، سيقدم جواباً لتلك المشكلة، ولعلّ الميراث الأكثر خطورة الذي خلّفه روسو، لن يزيده وضوحاً أبداً. وربما استحالة حله بذاته حفرت نفسها على قسمات الملك عندما اقترب من نهاية حياته، فارتسم تعبير من وقار مؤلم على الصورة الجانبية النصفية التي رسمها جوزيف دكرو Joseph Ducreux في قلعة تمبل.

وفي المؤتمر، من الثامن عشر وحتى العشرين من كانون الثاني، كانت تُبْذل جهود النزع الأخير في محاولة لإرجاء تنفيذ الحكم. وقد اقترح توم باين Tom Paine، الذي أُنتخب نائباً بسبب ذيوع صيته باعتباره الخصم اللدود لإدمون بْرك Edmond Burke، والذي جاء إلى باريس وهو يحلم بالثورة ولا يتكلم الفرنسية تقريباً، اقترح الآن من خلال مترجمه، بانكال Bancal، أنه ينبغي إرسال لويس إلى الولايات المتحدة حيث قد يعاد تأهليه مواطناً محترماً. وقد شعر مندوبو الجبل، الذين انتشوا لرؤية باين يصل لكنهم ارتابوا بصداقته مع الجيرونديين (ربما كان ذلك لأنهم يتكلمون الإنكليزية أفضل)، الآن بالذهول لهذا التدخل. فصرخ مارا أن باين غير مؤهل للتعبير عن الرأي لأنّه ينتمي إلى طائفة الكواكرز المعروفة بمعارضتها لعقوبة الإعدام. لكنّ الاقتراح لم يُؤخذ على محمل الجد أكثر من هجوم كوندورسيه الطويل والمركّز بشكل منطقي مستنداً إلى أفكار بيكاريا

الإيطالي حول عقوبة الإعدام. وفُرض التصويت على تعديل ميلي للمرة الأخيرة وخسر مع ذلك ثانية على نحو مدهش في تصويت مغلق بـ 380 صوتاً مقابل 310.

كان ذلك، في أية حال، كافياً. وفي عشية يوم 20، جاء وفد من المؤتمر يقوده غروفل Grouvelle إلى قلعة تمبل ليتلو على لويس قرار الجمعية النهائي. وفي ردّ طلب إقامة لثلاثة أيام كي يستعدّ بصورة أفضل لتنفيذ حكم الإعدام؛ وكاهن اعتراف من اختياره، وحدد الكاهن الإيرلندي إدجوورث دي فرمون Edgeworth de Firmont؛ والسماح له برؤية عائلته. وقد رُفض الأول ومُنح الطلبين الأخيرين. وعند الثامنة والنصف من ذلك المساء اجتمعت العائلة مجدداً. لم يكن أحد قد أخبرهم عن مصير الملك، ومن خلف باب زجاجي استطاع كليري أن يرى النساء والأطفال يتأرجحون بتعاسة عندما



الصورة 167 هور، وداع لويس السادس عشر الأخير لعائلته. رواية كليري توحي بمشهد حميمي أكثر بكثير من الذي سجله الوضع المتكلف في الرسم.

أبلغهم الخبر. ظلوا معاً لساعة وثلاثة أرباع الساعة، يبكون، ويقبل ويواسي بعضهم بعضاً قدر ما استطاعوا، تمسّك الصبي الصغير بركبتي أبيه. وعندما حان وقت الرحيل، لم يستطع أحد من العائلة تحمّل وطأة الفراق القاسي. وعد لويس أنه سيراهم جميعاً مرة ثانية في الثامنة من صباح اليوم التالي. «لماذا لا تكون السابعة؟ «قالت الملكة. طبعاً، لماذا لا، السابعة». وكانوا في طريقهم للخروج عندما رمت الأميرة رويال Royale، ابنة الملك، نفسها فجأة على أبيها وانهارت في إغماءة شديدة. لم تصحُ إلا بعناق العائلة الأخير.

كانت المقصلة قد نُصبت في ساحة أعيدت تسميتها إلى ساحة الثورة وهي اليوم ساحة الكونكورد. وكان التمثال الفروسي العظيم للويس الخامس عشر الذي أعطى الساحة اسمها الأصلي قد حُطّم في اليوم نفسه الذي قوّض فيه تمثال لويس الرابع عشر في ساحة النصر. استطاع سانسون من منصته التي ترتفع ستة أقدام فوق الحشد والجنود أن يرى قاعدة التمثال المبتورة لا تزال في مكانها. وقد حوّلت الكومونة باريس إلى قلعة هائلة استعداداً لمواجهة أي نوع من مظاهرة مؤيدة، مسلّحة أو سلمية. فأغلقت بوابات المدينة؛ وعيِّنت حامية خاصة من ألف ومائتي حارس لمرافقة عربة لويس إلى المقصلة، كما كانت الشوارع مكتظة بالجنود الذين وقفوا في أربعة أرتال. ووضع سانتير، الذي كان مسؤولاً عن كل هذه العمليات، مدافع في نقاط استراتيجية على طول مسار عربة الملك وفي أمكنة أخرى من المدينة أيضاً.

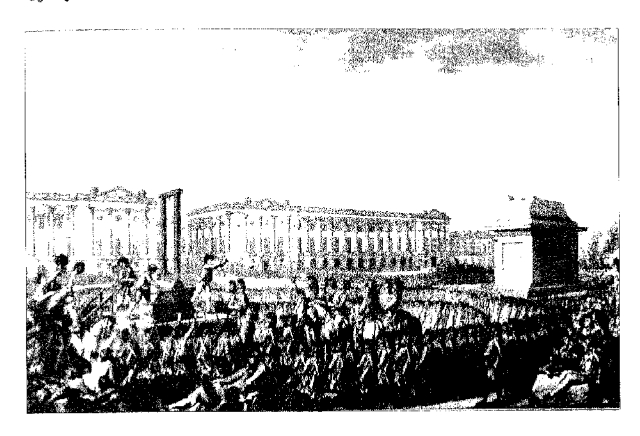
أيقظ كليري لويس في الليل الشتائي وتلقى القربان من إدجوورث عند الساعة السادسة. ارتدى ثياباً بسيطة، لكن كان واضحاً أنه لن يرى عائلته ثانية، لأنّه طلب من خادمه الخصوصي أن يُسلّم خاتم زواجه إلى الملكة مع رزمة تحتوي على خصلات شعر من كل أفراد العائلة. وأُخِذ ختم ملكي من ساعته، كان ينبغي نقله إلى ابنه علامة للخلافة. عندما وصل ممثلون من الكومونة، سألهم ألّا يقص كليري شعره حتى يتفادى إهانة معاملة قصّ شعره على المقصلة. لا حاجة للقول إن الطلب قد رُفض. كان، بالنسبة للجلّاد، مجرّد رأس آخر. وعند الثامنة وصل سانتير و، بعد المشي جيئة وذهاباً، شعر بالغضب من تعاسته من أمر لويس الشخصي: لنغادر. استغرقت رحلة العربة ساعتين في شوارع باريس التي كان يلفّها ضباب رطب. تعزز الإحساس بالهدوء في كل مكان بسبب المصاريع والنوافذ المغلقة بأوامر الكومونة والتعطيل الغريب لنشاط الحشود، التي كانت، في مناسبات أخرى، تضج بهتافاتها وشتائمها.

جرت محاولة إنقاذ مثيرة للشفقة بعد أن انطلق الموكب بوقت قصير، قام بها البارون دو باتز Baron de Batz وأربعة مرافقين يصرخ، «تعالوا إليّ يا من تريدون إنقاذ الملك». وقد تجمّعوا على الفور، كان أحدهم أمين سر سابق للملكة، حاول أن يشق طريقه مباشرة إلى العربة. ووصل الموكب عند العاشرة إلى المقصلة، تحت المنصة استعد سانسون ومساعده لخلع ثياب الملك وربط يديه، إنما ليخبره السجين أنه أراد الاحتفاظ بمعطفه على جسده وأن تبقى يداه حرتين. واضح أنه شعر بقوة تجاه المسألة الأخيرة لأنه بدا للحظة أنّه يمكنه الصراع أيضاً، وقد استدعى ذلك ملاحظة من إدجوورث قارن فيها محنته مع محنة المخلّص لأن على لويس أن يسلم نفسه لأيما إذلال إضافي يتعرض له.

كانت الدرجات إلى منصّة الإعدام مرهقة إلى حدّ أنّ لويس اضطر أن يتكئ على الكاهن ليسنده وهو يصعد. قُصّ شعره بخفة حرفية غدت عائلة سانسون مشهورة بها، وحاول لويس أخيراً مخاطبة ذلك البحر العظيم من عشرين ألف شخص احتشدوا في الساحة. «أموت بريئاً من كل الجرائم التي اتهمت بها. إنني أعفو عن أؤلئك الذين تسببوا بموتي وأصلّي ألّا يكون الدم الذي توشكون على إراقته مطلوباً أبداً في فرنسا. .». وفي تلك اللحظة أمر سانتير بقرع الطبول، حاجباً أي شيء آخر ربما كان الملك سيقوله. ورُبط لويس على لوح خشبي الذي عندما يندفع إلى الأمام يدفع برأسه إلى المقبض المطوّق. وشدّ سانسون الحبل فسقطت شفرة بعرض 12 بوصة، تهسهس عبر أخدودها إلى هدفها. وسحب الجلّاد الرأس من السلّة، وفقاً للعرف، وعرضه للناس والدم يقطّر منه.

كانت الحالة القاسية المألوفة التي تطوق المشهد هي ما صدمت بعض شهود العيان باعتباره لا يحتمل حقاً. سمعت لوسي دي لاتور دو بان Lucy de La Tour Du Pin وزوجها بوابات باريس تُغلق مبكراً ذلك الصباح وعرفا أنّ الأمل قد تبدد. وأصغيا بشدة ليسمعا أي صوت لنيران البنادق القديمة التي قد تعد بنوع ما من فوضى افتدائية. لكنّ شيئاً لم يحدث سوى الصمت في الضباب الكثيف. ثم سمعا عند العاشرة والنصف البوابات تُفتح ثانية «واستأنفت المدينة مجرى حياتها، دون تبديل».

كان مرسييه يراقب أيضاً. ربما توقّعه المرء أن يشعر بإحساس ما من التبرئة حيث أنه، في أحوال كثيرة جداً وبشدة، تنبأ تماماً بنوع من رؤيا تدمير الملك التي استولت على فرنسا حالياً. لكنه لم يشعر بمثل ذلك الإحساس. فعلى الرغم من عنفه الأدبي كله، أخذ



الصورة 168 تشارلز مونت، حفر، إعدام لويس السادس عشر. سانت هو الشخص الذي على ظهر الحصان؛ القاعدة الفارغة لتمثال لويس الخامس عشر على اليمين.

يغدو أكثر قرفاً من الواقع القائم. ومع أنه دون ريب لم يكن لديه أوهام عن صدق نوايا الملك أثناء الثورة، فقد صوّت في المؤتمر ضد الموت، رحمة ولأنه اعتقد، بصورة تنبؤية ثانية، أن موت لويس سيؤدّي إلى حرب أوروبية حتمية بمقياس لم يسبق له مثيل. كان مروّعاً بشدة، بعدئذٍ، لرؤية نوع الاحتفالات الوحشية التي بدا أنها ترحب بالإعدام، ما إن مرت الصدمة المباشرة.

تدفق دمه وصرخات الفرح من ثمانين ألف رجل مسلح اخترقت أذنيّ... رأيت طلاب مدرسة كاتر ناسيون Quatre-nations يقذفون قبعاتهم في الهواء؛ تدفق دمه وغمس بعضهم أصابعه أو قلماً أو قطعة من الورق فيه؛ تذوّقه أحدهم وقال Il est bougrement salé [إنه مالح جيداً - مشيراً إلى نوعية القطيع الذي كان يُسمّن على ملح السبخات (pré-salé)]. باع الجلاد على منصّة الإعدام ووزّع رزماً صغيرة من الشعر والشريطة التي ضمّته؛ حملت كل قطعة مزقة صغيرة من ثيابه أو أي أثر مدمّى من ذلك المشهد المأساوي. رأيت الناس يعبرون، متشابكي الأذرع، يضحكون، ويتحادثون باعتيادية كأنهم في مهرجان.

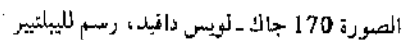
يسلم المرء بولع مرسييه الخاص بالغريب، لكن معظم وصفه كان على الأرجح صحيحاً. فقد كان سانسون مخوّلاً ببيع قطع من ثياب وتذكارات من الإعدام بوصفها جزءاً من علاوته. تُشكل روايات شهود العيان قدراً من الموثوقية استناداً إلى روايات مشاهدين يشبعون مناديلهم بالدم الملكي الموثقة على نحو أقل جدارة بالثقة لكنها تتوافق مع ميتات افتدائية أخرى حدثت في مراحل الأزمات التاريخية. هل حدث هذا، وإذا حدث فعلاً، نوع من شعيرة معمودية معكوسة، كما أشار دانييل أراس؟ أو بالأحرى توق إلى المشاركة جماعياً في نوع من تضحية تكفيرية: موت أسهم فيه كل من لم يستطع أن ينحني عند قدمي أحد؟

لم يكن، مع ذلك، الموت الوحيد في باريس. ففي اليوم السابق، حيث كان لويس يستعد لنهايته، تعرّض أحد المندوبين من قتلة الملك لطعنة مميتة في مقهى الرويال. وعلاوة على ذلك، الضحية، ميشيل ليبلتييه Lepeletier، لم يكن وجهاً مجهولاً في المؤتمر. وقد عبّر تحوله إلى مقاتل من اليعاقبة عن أن النظام القديم دمره المستفيدون منه، بغض النظر عن انتهازية فيليب دورليان الرخيصة. فقد جاء ليبلتييه من الصفوة الأرستقراطية القضائية وهو نفسه لم يكن مجرّد مستشار بل كان رئيساً لمحكمة باريس. كان صديقاً مقرباً من هيرول دي سيشيل، ومن الإصلاحيين الأكثر نشاطاً في الجمعية الدستورية، وكان بارزاً على نحوٍ خاص في لجنة التعليم الشعبي، التي أعدّت مشروعاً طموحاً للتعليم الابتدائي الإلزامي المجاني. كما أنه قدم خبرته القانونية لإصلاح قانون العقوبات الجزائية وعرض مجموعة أحكام العقوبات المتدرجة بدقة، على طريقة بيكاريا،



الصورة 169 نقش بعد جاك ـ لويس دافيد، انتحار ليبلتيير *Lepeletier*





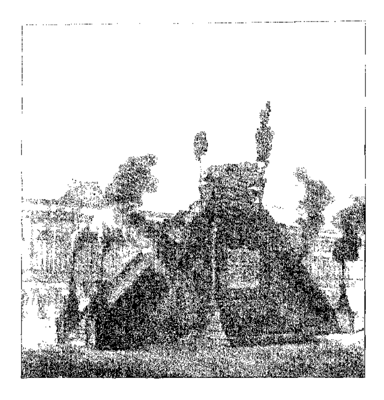
الصورة 170 جاك ـ لويس دافيد، رسم لليبلتيير

تتناسب مع الجرائم المختلفة. وكان الإبقاء على عقوبة الإعدام للجرائم المتعمدة، على سبيل المثال، يفترض أن يجعلها مروعة كفاية لردع الأشرار.

لم يكن لاعتبارات من هذا القبيل وزن شديد الوقع في ذهن سفاح ليبليتيه. كان عضواً سابقاً في الحرس الملكي الخاص اسمه باريس Pâris، اقترب من ليبلتييه في المقهى المضاء بالشموع بلطف كافٍ جداً قبل أن يستلّ مدية كبيرة، طعن النائب عدة مرات، فتحت فرجة واسعة في صدره.

سُجي جثمان الشهيد معروضاً لأربعة أيام، ممدداً على نعش كُتِب تحته ما قيل إنّه كلماته الأخيرة: «أموت مطمئناً أنّ الطاغية لم يعد موجوداً» (رغم أنه لم يكن واضحاً إذا ما سبق موت الملك موته، في الواقع). رسم جاك لويس ديفيد لوحة، بوعي ذاتي استندت إلى لوحة لمريم العذراء تندب يسوع المسيح من عصر النهضة، عرضت جرح ليبلتييه جرحاً بليغاً مقدساً ومدية تدلت فوق الجذع. وفي الصورة نفسها تحوّل رأسه، المعروف أنه كان قبيحاً في الحقيقة، بأنف كبير معقوف وعينين جاحظتين، إلى تمثال روماني نصفي جميل. أثناء الجنازة، التي نظّمها دفيد، كان الجثمان قد سجّي على القاعدة الخالية في ساحة الاندوم التي أُزيل منها تمثال لويس الخامس عشر. كان لدى ديفيد درجات سلم كبيرة أنشأ بمنصة صغيرة في الأعلى، لذلك قبل أن يتمكن مؤدو طقوس الندب الوطنيون من الصعود إلى النعش، فوق جرتين عظيمتين لرماد الموتى يتصاعد الدخان منهما، ويشاهدوا الوطني على سرير موته الروماني. عند قدميه، انثنى فوق رمح مثل علم مدمّى، كان القميص الذي قُتل وهو يرتديه، قد أصبح لونه بنياً غامقاً في نور كانون الثاني. «إنني راضٍ بإراقة دمي من أجل بلدي»، أعلنت لوحة تزيينية محفورة في الأسفل، «[لأنني] آمل أنه سيخدم تعزيز الحرية والمساواة . . ».

بعد التأبين، الذي كان فيه روبسبيير جهورياً على نحو مميز، أُنزل الجثمان وحُمل عبر الشوارع يتقدمّه القميص الداخلي المقدس. مع شقيق ليبيلتييه فيليكس Félix على رأس الموكب، شقّ طريقه إلى المؤتمر ومنه إلى نادي اليعاقبة. كانت ابنة ليبلتييه قد أعلنت هناك أنها «ابنة الأمة»، مع أنها لم تكن بحاجة إلى ذلك بما أن ثروة أبيها تناهز نصف مليون لير، كما أخبرنا مرسييه. وفيما بعد، ستغدو ابنة الأمة هذه ملكية متحمسة. تعذبها ذكرى أبيها قاتل الملك أكثر مما يعذبها موته، وقد أخفت وربما حطمت لوحة ديفيد. وشوّهت اللوحة المنقوشة المصنوعة بعد ذلك العمل. لا تزال نسخة واحدة تحمل رصاصة الرحمة التي سددتها الابنة إلى صورة أبيها الجريح.



الصورة 171 عرض جسد مايكل ليبلتييه في ساحة فيندوم

بينما كانت الجمهورية تطوّب شهيدها الأول، كان جسد ملكها يتحول إلى عدم. الخلود النظري الذي من خلاله، عندما يموت ملك، تعيش ملكية ـ مات الملك؛ عاش الملك Le roi est mort; vive le roi ـ كان الآن محفوظاً. لقد كان المواطن الذي أصبح الخالد البطولي؛ فقد قتل الملك لقتل النظام الملكي. وكانت النية طمس بقايا لويس كابيت كلها لئلا يبقى شيء على قيد الحياة إلا تراب الميت. فبعد تنفيذ حكم الإعدام، وُضِع الرأس بين ساقيه في سلة وأُخِذ إلى مقبرة ماديلين Madeleine. ووضع هناك في نعش خشبي بسيط من النوع المستخدم في دفن الموتى المعوزين الأكثر فقراً وغُطيّ بالجير. وقد قيل إنّه أُنزِل في قبر بعمق عشرة أقدام. وبعد ثمانية أشهر، أصدرت الكومونة، خشية الاتجار بالآثار الباقية، أمراً إضافياً يقضي بأن تُحرَق أية مواد باقية من ثياب أو مواد أخرى مهما كانت مأخوذة من قلعة تمبل في تضحية عامة.

أصبح ملك النصارى Rex Christianissimus، وتجسيد الشمس، بالتناوب، مسترد حرية الفرنسيين، وملك الفرنسيين، وخنزير فارين، والطاغية كابيت في النهاية شيئاً باطلاً ينحل في تربة باريس. لقد تعمّد أولئك الذين تخلصوا منه تفكيك لغز لا يمكن عكسه، شيئاً ما سيجعل فعل قتل الملك عادياً تقريباً. وقبل مضي هذه العملية بعيداً كان بالإمكان



صورة 172، «*Matter for reflection for the Crowned Jugglers*»

لوحة رسالة روبسبيير إلى مناصريه يعلن فيها «أن هذا الاعلام سيدفع بالثورة الفرنسية إلى الثقة بالفوز»

شراء فناجين سيفر Sèvres الخزفية من تصميم دبلسيس Duplessis لسانسون Sanson تقدم رأس لويس مرسوماً على الجانب بصباغ ذهبي أنيق. واستطاع الجمهوريون الجيدون ارتشاف القهوة معبرين في الوقت ذاته عن عاميتهم الإنسانية وخصوصيتهم السياسية.

من رسالة روبسبيير إلى دوائره الانتخابية ويعلن أن الإعدام «قد طبع علامة كبيرة على المؤتمر الوطني تجعله جديراً بثقة الفرنسيين.

لقد كانت الحال في الحقيقة هي أنه قد قضي على النظام الملكي في فرنسا بالقضاء على الملك، على الرغم من كل محاولات الاستعادة في القرن التاسع عشر. لكن الصراع الأساسي الذي قاد إلى هذه النتيجة لم يمضِ بعيداً في 21 كانون الثاني، لأن الوريث المختار للسلطة الملكية ـ الشعب السيد ـ لم يكن أكثر قدرة من لويس السادس عشر على التوفيق بين الحرية والسلطة.

CHAPTER 15

Sources and Bibliography

On the invention and politicization of the guillotine, see the brilliant work by Daniel Arasse, La Guillotine et L'Imaginaire de la Terreur (Paris 1987). For the Commune's campaign of repression and its combative relations with the Legislative Assembly, see Braesch (334 - 61).

The standard work for the last fifty years on the prison killings has been Pierre Caron, La Massacres de Septembre (Paris 1935). Though its reading of the evidence seems to me to be, in the last analysis, tendentious, it is still useful for its massive archival research. I follow much of Frédéric Bluche's criticism in Septembre 1792: Logiques d'un Massacre (Paris 1986). Though Braesch does not make the prison massacres a central part of his story, he is more forthright in tracing responsibility among the section leadership (464ff) and concludes that there was "complicité d'une grande partie de la population parisienne avec les massacreurs" (490). For Danton's period as minister of justice see Hampsori (67 - 84).

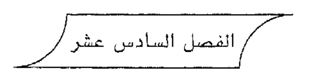
Alison Patrick, The Men of the First French Republic (Baltimore 1972), remains the standard analysis of the personnel of the Convention and is especially valuable for not collapsing political beliefs into occupational origins. It is also a corrective to M. J. Sydenham's excessively skeptical The Girondins (London 1961),which argued, peculiarly, that since the Girondins could not be shown to be a cohesive "party" in the modern sense, their grouping in the Convention was essentially a matter of random associations and personal affinities. Friendships and personal affinities could, ofcourse, exercise the strongest allegiances for a Romantic generation in which the cult of amitié was an index of ideological purity. The looseness of the group and the tendency of some of its members (such as Isnard) to go their own ways on votes did not, however, mean it had no sense of its own solidarity vis - à - vis the Mountain. it may be that Albert Soboul (ed.), Actes du Colloque "Girondins et Montagnard" (Paris 1980), went too far in the opposite direction in attempting to pin the Girondins down to a distinctive class ethos, but the volume contains interesting contributions by Alan Forrest on the Bordeaux federalists and by Marcel Dorigny on the economic ideas of some of the Girondins' leading members.

For the trial of Louis XVI, much the best account is David Jordan, The King's Trial (Berkeley and Los Angeles 1979). Michael Walzer's edition of some of the major speeches, Regicide and Revolution (Cambridge, England, 1974), is useful for its documentation, but offers a troubling defense of the trial and execution as "nothing

other than the acting out in legal form of the overthrow of divine right monarchy." This seems to overlook the glaring issue that the King was in fact on trial for offenses committed as a constitutional monarch and that the trial did not in fact at all turn on the naked mutual exclusivity of popular sovereignty and divine - right theories of sovereignty. Patrick, The Men of the First Republic, is extremely good on the politics of the trial. For the King's captivity and last days, see J. - B. Cléry, A Journal of the Terror (ed. Sidney Scott, London 1955); and Gaston de Beaucourt, Captivité et Derniers Moments de Louis XVI: Récits Originaux et Documents Officiels (Paris 1892), especially vol. 2, which has the official statements and proceedings of the Commune as well as accounts by the Abbé Edgeworth and the text of Louis' last will and testament. For Malesherbes' defense, see Grosclaude, Malesherbes (7o3 - 16).

القسم الرابع

الفضيلة والموت



أعداء الشعب
شتاء - ربيع 1793

I - ظروف متفاقمة

ماذا أثار الناس في تاليران لاسيما البريطانيين لمقارنته بأدنى أشكال الحياة؟ إذ عندما سمع العجوز هوراس والبول Horace Walpole أن تاليران وصل إلى إنكلترا في أيلول عام 1792، وفيما كان يكتب من «ستروبري هيل»، أشار إليه بأنه «الأفعى التي بدّلت جلدها». وحينما علم أن تاليران شوهد بصحبة السيدة دي جونلي، وصف الثنائي أنهما «حواء والأفعى»، مع أنه كان على ثقة بأن «قلة ستكون مستعدة لتذوق تفاحهما الفاسد».

ربما هدوء تاليران التهكّمي هو الذي أثار الناس إلى هذا الحد. وما كان أحد من منتقديه البريطانيين سيذهب بعيداً مثل نابليون الذي وصفه مغتاظاً من ثقته بنفسه أنّه «كومة من البراز في جورب من حرير». لكن شهرة تاليران كرجل دين مرتد ورجل سياسة تهكمي وغير أخلاقي سبقته إلى قاعات استقبال المجتمع البريطاني الراقي. ولم يكن تاليران يرى نفسه بتلك الطريقة على الإطلاق سواء في ذلك الوقت أو بعده. ومن الأفعال التي وُجّه اللوم إليه كثيراً بسببها دوره في خلق الملكية الدستورية . لقد اعتاد تاليران أن يكون التعبير عن الإدانات الثابتة بشكل حقيقي. وكان يظن أنّ سوء فهم وجهات نظره السياسية هو الأكثر مدعاة للأسف حيث أنّه كان لا يزال يأمل في أوائل خريف 1792 أن يكون ذا نفع في منع الحرب بين البلدين.

كانت تلك، على الأقل، هي الحجة التي قادته إلى طلب جواز سفر دبلوماسي إلى

لندن بعد ثورة العاشر من آب. فقد أخبر المجلس التنفيذي أنّه سيجدد جهوده التي بدأها في الربيع بغية الحفاظ على الحياد البريطاني. والآن بما أنّ فرنسا تواجه عدوان بروسيا والنمسا، فقد بدا ذلك ضرورياً أكثر من أي وقت مضى لبقائها. ومع ذلك، تبين مذكرات تاليران بوضوح أنّ عنف 10 آب أقنعه بأن المواطنين النبلاء المرتبطين بالثورة الدستورية لم يكونوا فائضين عن الحاجة سياسياً وحسب بل في خطر مميت.

وفي الأيام التي تلت الإطاحة بالملكية، تحول معظم أصدقاء تاليران القدامى إلى هاربين. وعندما عاد إلى بيته وجده مقلوباً رأساً على عقب بحثاً عن مخبئٍ مزعوم للأسلحة، وكان حشد من الناس قد طارد ستانيسلا كليرمون تونير حتى الطابق الرابع لمنزل السيدة دو بريسّا، حيث أطلق عليه الرصاص هناك وألقيت جثته من النافذة إلى الطريق. وتمّ جر لويس دو لا روشفوكو، الذي أوقف في فورج ليزو، من عربته في «جيسور» ورجم بالحجارة أمام زوجته وأمه وتمّ تقطيعه بالسيوف والبلطات ليغدو خبيصة مضرّجة بالدم. وكان ابن عمه روشفوكو ليانكور، قائد حامية روين، قد حاول حشد جنوده من أجل الملك. غير أنّ صيحات «تحيا الأمة» المناهضة التي كانت له بالمرصاد جعلته يفر من نورماندي عبر الاستيلاء على قارب صغير بالقرب من أبيفيل. أبحر ليانكور مختبئاً تحت شبكات الصيد ورزم الحطب ومسدسه المحشو موجه إلى الصياد المُرغم، وسط الضباب المظلم في الاتجاه التقريبي للشاطئ الإنكليزي. كانا أحياناً يبدوان ضائعين إلى درجة أنّ خادمه انتابه شعور أكيد بأنّهما ينجرفان عائدين إلى فرنسا. ثم بلغا اليابسة بالقرب من هاستينغس، ومن هناك سار الرجلان إلى حانة وطلبا ابريقين من جعة الستاوت. ثم فقد ليانكور وعيه بسبب الجعة القوية والإنهاك ليستفيق في غرفة باردة. ولوهلة وفي نوبة ذعر خشي أن يكون قد عاد فعلاً إلى فرنسا. وعندما عادت إليه الطمأنينة بالتدريج، استجمع شجاعته وانتهى به الأمر بعد عدة أيام في إيست أنغليا حيث كان أرثر يونغ يرد حسن الضيافة إلى الدوق بإلقاء محاضرة عليه حول اللامسؤولية التي أدت بشكل مباشر إلى ورطته. رأى فاني بيرني أنّه رومانسي منهار، «محاط بغيوم الحزن والكآبة» يرغم نفسه بدافع التهذيب المحض على تسلية نواب بيري سانت إيدموندز بتكرار الرواية المستمرة إلى ما لانهاية عن قوله للملك في تموز عام 1789 إنه كان في مواجهة ثورة.

لقد حافظ تاليران بشكل مميز على برودة دمه فيما كان يحاول جاهداً ضمان رحيلٍ عاجلٍ وآمن. وفي 31 آب، طلب دانتون إليه الحضور إلى وزارة العدل، في ما يسمى الآن محل البيك Pique، ليتسلم جواز سفره. رآه بارير هناك في وقت متأخر من الليل،

وهو يحاول أن يبدو رابط الجأش يرتدي بنطلوناً قصيراً من الجلد وجزمة لركوب الخيل، وشعره مسرَّح إلى الوراء في ضفيرة كبيرة كما لو أنّه مستعد لعملية ركوب خيل صعبة. ولكن لم يصدر أي جواز سفر من مكتب دانتون في تلك الليلة أو الليالي التي تلت. كان يرتقب تاليران الأسوأ طوال الأسبوع قلقاً خشية أن يناديه مجنون ما على سبيل الفكاهة أو الإغاظة أنّه «الأسقف» أمام الملأ، إلى أن جاءت أخيراً الوثيقة النفيسة في اليوم السابع. وعلى أرصفة الميناء كان يشق طريقه وسط الحشود المتدافعة من القساوسة الجزعين وهم يحاولون الحصول على مرور إلى إنكلترا أو إيرلندا. في ذلك الشهر وحده بلغ عدد الراحلين سبعمائة من مرفأي ديب Dieppe والهافر Le Havre .

ومع أنّ تاليران كان مستقراً بأمان في شارع وودستوك في كينسنغتون، ظل موقفه الرسمي موضع شك. كانت أوراق اعتماد السفارة الفرنسية إلى **بلاط القديس جيمز** قد أُتلِفت نظراً لتحول البلاد إلى جمهورية، لذلك استقبل تاليران لدى المسؤولين الرسميين أمثال وزير الخارجية غرينفيل بودّ أقل مما لقيه في الربيع. علاوة على ذلك، لم يكن الاتجاه الذرائعي والدفاعي الذي سلكه في مذكرة دبلوماسية إلى باريس كان قد كتبها في أوائل تشرين الأول ينسجم مع النبرة الحماسية المتزايدة في **المؤتمر الوطني**. وكتب على نحو متفائل: «لقد تعلمنا بأنّ السياسة الوحيدة المناسبة للرجال الأحرار المستنيرين هي أن يكونوا أسياداً على قضاياهم وليس الإدعاء السخيف بفرضها على الآخرين. ولذلك فإن عهد الأوهام (وقد عنى بذلك التعطش الملكي إلى الغزو) قد انتهى في فرنسا».

في الواقع، كانت ثمة حقبة جديدة من الأوهام غير الواضحة المعالم في عدوانها عن الماضي في طور البداية. ولغة اعتدال تاليران العملية المفعمة تجعلها تبدو موضع شبهة. ففي الخامس من كانون الأول تمّ الإعلان في المؤتمر عن اكتشاف وثائق تعرِّض صاحبها للعار في خزانة الحديد تربطه بالضابط الملكي، لا بورت La Porte، المسؤول عن دخل الملك. وبمنتهى الشجاعة أنكر مساعده القديم ديرونو في مذكرة منشورة أن يكون لِـ تاليران أي صلة مع البلاط، وفي الحقيقة كان الدليل على ذلك غير قاطع. ومع ذلك فقد وُضِع على لائحة المهاجرين المدانين. وصدرت مذكرات اعتقال تتضمن وصفاً يطلب فيه إلى المواطنين الحذر من شخص يترنح في مشيته «إمّا على القدم اليسرى أو اليمنى».

غريباً باستمرار، لم يكن لِـ تاليران دولة الآن لكنه ليس دون أصدقاء. مع أنّ المجتمع البريطاني المحافظ في لندن كان يتجنبه، فقد شعَّ بسحر خطير راق للجناح

الراديكالي في حزب المحافظين، والذي تمسك بثبات بحماسه للثورة الدستورية. ولذلك فقد تبناه شارل جيمز فوكس والكاتب المسرحي شريدان وأنصار **جمعية الثورة في لندن** (سميت كذلك نسبة إلى تمجيد عام 1688). والمفارقة أن تاليران دُهِش على طاولة عشاء فوكس بفصاحة الخطيب البريطاني عندما رآه يتحدث بلغة الإشارة مع ابنه الأصم غير الشرعي.

كان وقتاً غير عادي للنزول في انكلترا لأن البلد كان في اضطراب سياسي. فقد غدت النوادي والجمعيات في اسكوتلندا وإيرلندا المتعاطفة بشكل صريح مع الثورة جريئة في الدعوة إلى مؤتمرات. وعقدت الاجتماعات في المدن الإقليمية مثل شيفيلد ومانشستر كل أسبوع للمطالبة بإصلاح دستوري وقراءة الجزء الثاني من حقوق الإنسان لـ توم بين Tom Paine، وطلبها المثير للدهشة بتقديم نظام دولة الرفاهة تكون الحكومة فيه مسؤولة عن ضمان الحاجات الأساسية الصحية والتعليمية والمالية لكل مواطنيها. وربما بلغ انتشار الكتيبات مئات الآلاف. وفي العاصمة، كانت جمعية لندن كُرسبوندينغ London Corresponding Society قد أرسلت تحياتها الأخوية لأبطال المؤتمر في باريس. ومقابل هذا المد من السخط الخطر، كانت ثمة جمعية موالية للحفاظ على الحرية والمُلكية تقوم بتدريب المليشيات في المقاطعات.

من المرجح أن تاليران قد وجد أنّ كلا التطرفين في الرأي غير مستساغ تماماً كما كانت الحال عليه في فرنسا. لم تكن رؤيته للأحداث بعيدة عن رؤية رسام الكاريكاتور الملهم جيمز غيلراي James Gillray والذي كان شجبه البصري، للخوف البريطاني من اليعاقبة وشناعات الثوريين المتطرفين الفرنسيين ذوي البناطيل القصيرة، قاسياً بطريقة حيادية. ولم تكن **ذروة الحرية الفرنسية** التي نُشِرت وقت إعدام لويس، بدلالتها الواقعية مع ثائر أحمق يجلس على مصباح يتدلى منه قس بعيدة عن وجهة نظر تاليران الخاصة اللاذعة على نحوٍ متزايد حول مصير الثورة. وقد كتب إلى صديقه القديم شيلبورن Shelburne، الذي ترقى آنئذٍ إلى مركيز لانسداون Lansdowne ولا يزال الزميل الأكثر صداقةً للمواطنين النبلاء الفرنسيين في المنفى، رسالة ينتقد فيها الأحداث الأخيرة بشدة.

في الوقت الذي أصبح فيه كل شيءٍ مشوهاً وفاسداً، غدا عدد الرجال الذين ظلوا مخلصين للحرية، على الرغم من قناع الدم والبذاءة والشناعة الذي يغطيها، قليلاً جداً. لقد اعتاد الفرنسيون على العبودية وقول ما يمكن أن يقال دونما خطر فحسب محتجزين طوال سنتين بين الرعب والتحدي. فالنوادي والرماح، التي أضعفت كل

مبادرة حرة، عوّدت الناس على الرياء والخسة، وإذا سُمِح للناس أن يكتسبوا هذه العادات المؤسفة فلن يحصلوا إلا على سعادة استبدال الطغاة. وبما أنّ قادة اليعاقبة نزولاً إلى المواطنين الأكثر نزاهةً يذعنون لقطاع الرؤوس، فلا يوجد اليوم سلسلة من النذالة والأكاذيب، التي ضاعت أولى حلقاتها في البذاءة.

كان الملل هو الشيء الوحيد الذي يهدئ الكدر. وقد اعتاد تاليران في وودستَك ستريت على الرتابة المملّة محاطاً بمكتبته التي أرسلها مسبقاً بحذر، وتواسيه أدوليد دو فلاهو Adelaide de Fahaut. كان في الصباح يعمل على كتابة سيرة دوق أورليان، أو كتابة مذكراته التي كانت أكثر متعةً. كانت أدوليد قد أكملت روايتها «سيسل دو سونانج» وقد ساعدها على تدقيق الأوراق قبل الطباعة. كان في المساء يذهب إلى شارع هاف مون Half Moon لزيارة السيدة دو جينليس وابنة أورليان ذات الستة عشر ربيعاً والتي تدعى أيضاً أدوليد، واللتين كانتا تعيشان عيشة متواضعة حيث كانتا تصنعان قبعات قش، من ذلك النوع السائد في لوحات إليزابيث فيجي لوبران، لتعيلا نفسيهما.

كانت هناك نقطة واحدة مشرقة فحسب في ذلك المنفى الموحش. كان تاليران يأخذ عربة البريد بشكل دوري إلى ورثينغ رود ويسافر جنوباً إلى سوري داونز. حيث استأجرت جيرمين دو ستايل منزلاً جورجياً معروفاً بـ صالة جونيبير مكاناً لتجمّع بقية أعضاء نادي عام 1789 وخاصة حبيبها المتقلب ناربون، على بعد نحو خمسة أميال شمال دوركين بالقرب من قرية ميكليهام. ومع أنّها لم تصل إلى انكلترا إلّا في كانون الثاني عام 1793، فقد كان المنزل مفتوحاً لأي كان من أصدقائها الباريسيين القدامى الذين أرادوا الإقامة فيه، وقد أصبحت صالة جونيبير ملاذاً نعيماً من الفقر والضجر. وكان بين الضيوف النظاميين لالي توليندال؛ ماتيو دو مونتمونرسي؛ بوميتس؛ جاكور وعشيقته الفاتنة الفيكونتيسة شاتر؛ ستانيسلاس جيرارديان (الذي طلب بشكل طبيعي أن يطلعوه في المنطقة على المكان الوحيد المرتبط بذكرى روسّو)؛ ونائب لافايت لعام 1789، الجترال داربلي. وانقسمت جمعية سَري Surrey بحدة من ليذرهيد Leatherhead إلى ريغِت Reigate بين من لحقت بهم فضيحة وأولئك الذين فُتِن الناس بهم. وإذا كان هناك تذمر في فيتشام وويست هامبل، فغالباً ما أمتعت لوكس أوف نوربيري بارك Locks of Norbury Park في ميكليهام بالذات الجالية الفرنسية. حيث قابلوا هناك السيدة سوزانا فيليبس، ابنة عالم الموسيقا الدكتور شارلز بيرني.

وفي تشرين الثاني، قامت فاني، أخت السيدة فيليبس، البالغة من العمر واحداً

وأربعين عاماً بزيارتها الأولى مأخوذة على نحو لا يقاوم بهذه الرفقة ذات الثقافة والحالة الاجتماعية الدخيلة exoticism. وكتبت إلى والدها، الذي كان قلقاً بلا مبرر من أن يؤثر تعرضها للعادات الفرنسية على أخلاقها، تقول له: «ليس هناك شيء أكثر جاذبية، وأكثر سحراً يمكن تخيّله من هذه الجالية». وكما هي الحال تقريباً لكل شخص في محيط لانسداون، نفرت لأول وهلة من تاليران، لكنها سرعان ما وقعت تحت تأثير سحره الشديد. «لا يمكن تصور التحول الذي طرأ عليّ جراء تعاملي مع السيد تاليران. أنا أعتقد الآن أنّه أحد ألطف أعضاء هذه المجموعة الرائعة وأكثرهم سحراً. فقدرته على الإمتاع مذهلة سواء في المعلومات أو المزاح». وما أعجبها أكثر في المجموعة هو لامبالاتها الواضحة بملذات الفروسية لدى الطبقة العليا في سري والحيوية الطبيعية التي يندفعون بها إلى مناقشات كل الموضوعات: التاريخ (وخاصة تاريخهم بالذات) والمسرح والشعر والفلسفة.

الأمر الذي كان يبعث على الإعجاب أكثر هو الدرجة التي يؤدون فيها أدوارهم في هذه الألعاب الفكرية بدءاً بِـ جيرمين دو ستايل. لقد استمعوا إليها تقرأ مقاطع من **دفاع روسّو** وكذلك مقالتها المثيرة في الدفاع عن الانتحار بعنوان: **تأثير الشغف على السعادة**. كان تاليران يثني بشكل نمطي على عملها ولكنه ينتقد طريقة قراءتها بأسلوب غنائي كما لو أنّه كان شعراً يقول ذلك بطريقة فظّة. وكان أداء لالي لمسرحيته التاريخية **موت سترافورد** هو الأكثر إرهاقاً. لقد انتبهت إليه عند العشاء يدمدم بالأسطر لنفسه ليستطيع إلقاءها غيباً فيما بعد. كانت القراءة على وشك أنْ تبدأ عندما لوحظ غياب داربلي بوضوح. وإذ طال غيابه أرادت جيرمين أنْ تبدأ غير أن تاليران اعترض وخرج يترنح في مشيته يبحث عن الغائب.

كان أمراً عادياً بالنسبة لبراءة فاني في هذه المجموعة أن تفترض أنّ تاليران كان يقوم بعمل لطيف أن يجعل داربلي (الذي كان بالتأكيد قد اختفى في مكان ما مع قنينة نبيذ) يستمع ويشاهد أداء لالي. لقداعترفت قائلة: «لقد أتعبني صوته الراعد والعاصف كثيراً» ولكن لم يخطر في بالها على الإطلاق بأن تاليران كان مؤذياً بإخراج الجندي من مكانه. لقد تأثرت كثيراً بالكآبة العميقة التي آل إليها حال الصحبة عندما علموا بأمر إعدام الملك لتنتبه إلى استرايجياتهم البارعة في سياستهم الجنسية. كان جوكور والفيكونتيسة دو شاتر إضافة إلى ناربون وجيرمين يعيشون معاً بانفتاح. ومع أنّ جمال جيرمين ذات السبعة وعشرين عاماً لم يكن كلاسيكياً، فإنّها كانت قد نضجت إلى زهرة متفتحة جميلة الألوان

والتي انسكبت شخصيتها خارجها كعطر فوّاح. لقد كان ذلك كثيراً جداً لـ ناربون (الذي ولدت ابنه في جنيف في تشرين الثاني الماضي)، وقد استاء من الابتزاز الأخلاقي من خلال تهديده بالانتحار إذا ما أطلق العنان لأهوائه المأساوية في الذهاب إلى باريس ليدلي بشهادته دفاعاً عن الملك. وعندما أصبح فاتراً تجاه «مدام دو ستايل» بدأت تبني صداقة مع تاليران لاستفزاز ناربون (بلا جدوى)، وتحريره من «أدوليد دو فلاهو» التي كانت لاتطيقها.

كان الأمر كما لو أن الصلات الخطيرة نُقِلت إلى مشاهد المعنى والحساسية الطبيعية في الوصف الجدير بالذكر لـ دوف كوبر (ولا بد أنه عرف ذلك). لوقت طويل وقعت فاني بحب الزير داربلي كانت فاني بريئة تماماً من جميع هذه العلاقات الغرامية غير الشرعية. وكان ردها على هزة إصبع الدكتور برني المحذِّرة ساخطاً: «أعتقد أنّك لا تستطيع أن تمضي يوماً واحداً معهم دون أن تدرك أن تجارتهم ليست إلا صداقة خالصة بل مثيرة ورائعة». لكنها عندما أدركت في نهاية المطاف حقيقة الأمر صدّت جرمين، التي كانت قد أخذتها تحت جناحها الواسع، ببرودة مزعجة. وفي كل حال، أُنقِذ داربلي من وكر الخطيئة بزواجه من الفاضلة فاني وعاش سنوات عمره باعتباره شخصاً مثيراً للفضول ساحراً بين النبلاء ملاكي الأراضي الإنكليز.

ربما كانت هناك أمور أسوأ كثيراً من الزواج بـ فاني بيرني. ففي آذار، غدت حال تاليران أكثر بؤساً. وإذْ ذهب ماله، أُجبر على تسليم مكتبته للبيع بالمزاد العلني، والتي جنى منها نحو سبعمائة وخمسون جنيهاً استرلينياً. غادر بيته الصغير في وودستوك ستريت وانتقل إلى أحياء أصغر في كينسينغتون سكوير. وفي الثالث عشر من شهر آذار أدين رسمياً في فرنسا، ما عنى أن ملكيته وملكية عائلته أيضاً غدت مصادرة لصالح الجمهورية. وأخيراً، في أيار، تبعاً لأحكام قانون الأجانب التي منحت الحكومة سلطات عاجلة لترحيل الأجانب، أُبلِغ تاليران بأن عليه مغادرة بريطانيا بصفته رجل سياسة غير مرغوب فيه. كانت جيرمين قد غادرت مسبقاً إلى سويسرا لتعتاد من جديد على العيش مع ابنها ألبير الذي تركته عندما كان عمره خمسة أسابيع لتبقى مع ناربون في سري Surrey. ومع أنّها كانت تبحث عن مكان ليعيش بالقرب منها، أُفهِم تاليران بأنّ وجوده في كلٍ من جنيف وفلورنسا، المدينتين اللتين فكّر في الانتقال إليهما، غير مرحب به. لم يبقَ له خيار إلا أمريكا. وإذ تسلّح برسائل تقديم من لانسدون إلى جورج واشنطن وألكساندر هاميلتون أبحر على متن السفينة **ويليام بِن**. وما كاد يبحر حتى واجهت السفينة عاصفة قوية في

سولينت وأوشكت على الغرق وقد اعتراه خوف شديد من أنْ تجرفه المياه إلى الشواطئ الفرنسية. لكن الباخرة اجتازت العاصفة ورست في ميناء فالماوث Falmouth من أجل الإصلاح قبل أن تستأنف رحلتها. وهناك تحدث مع بطل صريع آخر، استطاع أنْ يقارن معه ملاحظات كثيرة عن نكران وسوء فهم العالم الجاهل. وهكذا كان أنّ ودّع الجنرال السابق بينيدكت آرنو القس السابق موريس دو تاليران على طريقه إلى أمريكا.

يبدو غير مرجح أن يكون تاليران قد فكر بأنّ عمله في الشأن العام قد انتهى بعمر التاسعة والثلاثين. فقد طمأنّ أدوليد دو فلاهو بأنه سيعود، وطلب من جرمين أن تستمر في البحث عن منزل بالقرب من بحيرة جنيف. لكنه في ذلك الوقت كان بالتأكيد ضحية الحرب مع بريطانيا التي كان يظن على الدوام بأنّها مدمرة للمصالح الفرنسية. وكان أمله الوحيد هو أنْ يرث دوموري استراتيجية لافايت باستخدام الشعبية العسكرية في الجبهة مع اليعاقبة في باريس. وكانت تلك في الحقيقة استراتيجية الجنرال غير أن تحقيقها خلال شتاء 1792 ـ 93، أصبح بعيد المنال. وكانت خطته بعد جيماب خلق جمهورية بلجيكية مستقلة ترفض تسليم هولندا الجنوبية للنمساويين وفي الوقت نفسه لا تستفز البريطانيين وتجرهم إلى الحرب. وقد عنى هذا دعم المجموعة الأكثر محافظة في المجموعتين السياسيتين الطموحتين في بلجيكا وهي **أنصار الدولة المركزية** ضد **الجمهوريين الديمقراطيين**. وكان ذلك قراراً محسوباً لاختيار النخبة البلجيكية التي قادت التمرد ضد النمساويين وتجنب تغريب غالبية السكان بتوسيع مناهضة الإكليروس في فرنسا لتشمل السكان الكاثوليك الأكثر ورعاً في أوروبا».

وفي الواقع، كانت تلك السياسة الوحيدة الممكنة لربط الموالين البلجيكيين بـ فرنسا، بما أنّ التمرد ضد النمسا، كما رأى دوموري، أثاره تصميم الأقاليم على حماية المؤسسات التقليدية ضد الإصلاحات الإمبراطورية. لكن في ما يتعلق بالمتطرفين في المؤتمر، فقد بدا الأمر مدعاة للشك مثل تسوية نصير للملكية متريث مع الثورة المضادة. وقد اتُهم دوموريز بأنّه يريد خلق قاعدته السياسية والعسكرية الخاصة ببيع تحرير أنصار الجمهورية في بلجيكا، والتبرؤ من الثوار الوطنيين الحقيقيين والتآمر مع الأرستقراطيين المحليين والقساوسة وتجار السلاح. فعلى سبيل المثال، كان يجب تمويل جيشه البلجيكي المقترح بقرض من رجال الإكليروس، قائم على أساس التفاهم بأنّهم لن يخضعوا لتشريع رجال الدين الفرنسي. وقد بدا ذلك تسوية معقولة لـ دوموريز؛ فيما كان لـ كامبون Cambon ونقّاده في المؤتمر كان ذلك دليلاً فاضحاً على مؤامرة قيصرية.

كان مرسوم 15 كانون الأول يهدف بوضوح إلى الإطاحة بسياسة دوموري المستقلة عبر إخضاع سلطته إلى ممثلي المؤتمر. وتمّ فرض تطبيق المراسيم الثورية بالكامل، بما فيها تلك المراسيم المتعلقة بالكنيسة على الأقاليم البلجيكية. ومع استراتيجيته العسكرية والسياسية المحطمة في نهاية آذار 1793، شكا دوموري إلى المؤتمر بمرارة أنّ تجاهله القاسي للمشاعر المحلية قد أحبط الحملة البلجيكية. وقال: «لقد أُخضع الشعب البلجيكي لكل أنواع الإغاظة، وانتهكت حقوق الحرية المقدسة، وأُهينت مشاعره الدينية بصفاقة». وقال أيضاً لقد بُرِّر إلحاق إقليم هاينو Hainaut بـ «مؤتمر» مزيف ليس في الحقيقة أكثر من عشرين شخصاً فوّضوا أنفسهم في بروكسل. ثم جردت كنائسه من الفضة لدفع ثمن «التحرير». «ومنذئذٍ وأنتم تنظرون إلى البلجيكيين على أنّهم فرنسيين ولكن حتى لو كانوا كذلك فقد كان يجب الانتظار إلى أن تُقدِّم تلك الفضة تضحية طوعية. ومن دون تلك الإرادة فإنّ الاستيلاء القسري عليها لم يكن إلّا تدنيساً لمحرماتهم في نظرهم».

طبعاً، لم يكن اتهام دوموريز للسياسة الفرنسية في بلجيكا مجرداً من المصلحة الشخصية. فقد خرَّب المؤتمر خططه لخلق قاعدة قوية في هولندا، واستكملت الهزيمة العسكرية ذلك تماماً. لكن على الرغم من انحيازه الشخصي التام، فإنّ وصفه لبداية الامبريالية الثورية الفرنسية كان دقيقاً للغاية.

والأكيد، في أية حال، أنّ السياسة الجديدة في الضم والتوسّع الثوري العدواني قد دفع بريطانيا إلى حافة الحرب. فسياسة الحياد الصارمة التي ساندها كلٌّ من بِتPitt وغرينفيل Grenville قد أتاحت الإطاحة بالملكية الفرنسية. وحتى في أواخر تشرين أول لم يجد البريطانيون سبباً ملزماً لتغيير ذلك الموقف الأساسي. غير أنّ القرار الفرنسي بفتح نهر شيلدت للملاحة في 16 تشرين الثاني خلافاً لاتفاقية مونستر لعام 1648 جعلهم في مواجهة تحدٍ أشد استفزازاً. وفي نهاية الحرب الهولندية الطويلة من أجل الاستقلال ضد اسبانيا، أُغلِق النهر مراعاة لاهتمام هولندا في منع كل من الانتعاش الاقتصادي أو الاستراتيجي لميناء مدينة أنتويرب. ومنذ أن أصبح الهولنديون والبريطانيون حلفاء ضد لويس الرابع عشر في نهاية القرن السابع عشر، غدا الحفاظ على هذا الإغلاق معتقداً راسخاً في منظومة احتوائها للتوسع الفرنسي في الأراضي الواطئة. وبدا الإلغاء الأحادي الجانب للمعاهدة (وإرسال طرّاد فرنسي في النهر) الاختبار الأكثر وضوحاً للإلتزام البريطاني مع حليف له وتصميمه على الحفاظ على الوضع الراهن. وعلاوة على ذلك، كان هناك أيضاً مؤشرات أخرى على أنّه سيُسمَح لِـ «القانون الطبيعي» و«الحدود الطبيعية»

بأن تطغى على الأعراف الدبلوماسية التقليدية. ففي السابع والعشرين من تشرين ثاني، ألحقت سافوي، التي احتلتها قوات مونتسكيو في أواسط تشرين الأول، بشكل رسمي بعد أنْ صوت «مؤتمر الألوبروجز Allobroges» على خلع ملك سردينيا و«إعادة توحيد» الإقليم مع فرنسا. وبعد يوم واحد، رحب غريغوار، رئيس المؤتمر، بالخطابات الأخوية من «لندن» المصحوبة بالإعلان عن أنّه «ليس ثمة شك بأن اللحظة التي سيقدّم فيها الفرنسيون التهاني إلى المؤتمر الوطني لـ بريطانيا العظمى باتت وشيكة».

في الأول من كانون الأول أقرت حكومة بت Pitt مرسوم تعبئة المليشيا البريطانية لمواجهة تحديات الاضطراب المحلي من جهة وكإجراء تمهيدي ضد الأعمال العدائية من جهة أخرى. غير أنّ قلقها الملّح كان أقل بخصوص الثورة في الوطن منه في الجمهورية الهولندية. ولبعض الوقت فإن عملية التجنيد الناجحة لمليشيا مخلصة منح الحكومة الثقة بالنفس أنها تستطيع احتواء مد الحماسة الثورية في إنكلترا (كانت أقل ثقة في ما يخص سكوتلندا وإيرلندا)، وكان أمراً مقلقاً أنّ يكون نظام حاكم الإقليم، الذي أعادته القوات البروسية عام 1787، على وشك الإنهيار. فانبعاث السياسات الوطنية في هولندا قد يقدم لـ فرنسا فرصة ذهبية لا تقاوم. فإماً أن تمتد «الحدود الطبيعية» شمالاً وراء نهر ميوز، أو ينجح دوموري في إعادة جمع هولندا العظمى القديمة المكونة من سبعة عشر إقليماً. وفي كلتا الحالين فإنّ التزام المعاهدة البريطانية في الحفاظ على حكومة أمير أورانج سيُكشَف عن أنّه شيء مزيف وضعيف.

تحركت الحكومة البريطانية باتجاه الحرب، وعندئذٍ، ليس دون أية رغبة بالتدخّل في السياسة الفرنسية مهما كان الوضع الذي ستؤول إليه الجمهورية بغيضاً. فعشية معركة جيماب، كان غرينفيل مقتنعاً في الواقع بأنّ الشيء الأسوأ الذي باستطاعة خصوم النزعة الجمهورية القيام به هو محاولة شنّ حرب تدخّل التي ستُواجَه بنجاح عبر جولة أخرى من حرب تحرير مسيحية وطنية. «لا أستطيع إلّا أنْ أبقى مقتنعاً بأنّ إعادة بناء النظام في فرنسا، وفق أية صيغة، لا يمكن أن يتحقق إلا عبر مسيرة طويلة من الصراعات الأهلية». وفي أية حال، فقد كان ضرورياً احتواء القوة الانفجارية للاضطراب الثوري بشكل جيد داخل فرنسا بالذات من أجل توازن القوى والاستقرار في أوروبا. وعلى نحوٍ يثير الدهشة، بدا جورج الثالث يشعر بالطريقة نفسها، شارحاً لوزير خارجيته أنّ «السلام وحده هو القادر على وضع الثورة الفرنسية على أرض ثابتة وعندئذٍ ينبغي على جميع الدول الأوروبية أن تعترف بالجمهورية الجديدة». وفي كانون أول دعا غرينفيل كاترين

الإمبراطورة الروسية للمشاركة في المطالبة بـ «سحب جيوشهم [الفرنسيةُ] إلى داخل حدود الأرض الفرنسية، والتخلي عن فتوحاتهم، وإلغاء أية مراسيم ضارة للأمم الأخرى والتعهد بشكل علني وصريح بعدم النيّة في التحريض على المزيد من المشاكل وإثارة القلاقل ضد حكوماتها بالذات». وأضاف أنّه في حال تقديم مثل هذه الضمانات فإنّ هذه القوى «قد تلتزم بالتخلي عن الإجراءات أو الأفكار العدوانية ضد فرنسا».

ومع ذلك، فإنّ خطاباً حماسياً مولعاً بالقتال ألقاه كيرسان، بطل الأسطول في الحرب الأمريكية، في الأول من كانون الثاني، أشار إلى أنّه بعيداً من قبول المؤتمر هذا النوع من البراغماتية الدفاعية، فقد اعتبر أن نزاعاً مع الإمبراطورية البريطانية ليس مرغوباً فيه وحسب، بل حتمي أيضاً. كان خطاب كيرسان مليئاً بالتفكير الأخوي المرغوب، متخيّلاً ليس الاسكتلنديون والإيرلنديون فحسب وإنّما أيضاً «لابسو البناطيل القصيرة» الثوريون المتطرفون البريطانيون على وشك الانتفاضة. مثلما ألحّ بريسو منذ عام بأنّ الاستبداد العفن في النمسا وبروسيا سيكون فريسة سهلة، كذلك كيرسان أخبر المؤتمر أنّ القوة الواضحة للامبراطورية البريطانية ترتكز على أساس هش وغير مستقر لقرضٍ وطني، وتعاون حفنة من أصحاب البنوك. بريطانيا معرّضة للخطر في جنوب الهند والبحر الكاريبي؛ برلمانها صعب الإرضاء، وكبير وزرائها شرير، وملكها أحمق. ولا شك أن عملية غزو مخططٌ لها بدقة ستلاقي حماساً شعبياً كبيراً بين المواطنين البريطانيين، وبالتالي «على أنقاض برج لندن [واضح أنه نُظِر إليه باعتباره باستيل لندن]... ستبرم فرنسا مع الشعب البريطاني المحرر الاتفاقية التي ستوجّه التطور المستقبلي للأمم وترسخ الحرية في العالم».

حتى مثل هذا النوع من التجديد التحريري المسيحي الحماسي للوطنية الفرنسية التقليدية التي تخشى كل ما هو انكليزي لم يكن برهاناً قاطعاً لدى الحكومة البريطانية على عدم إمكانية القيام بمفاوضات مع فرنسا الثورية. ومع ذلك كان لإعدام لويس السادس عشر أثر فظيع في لندن. فقال عنه بت إنه «العمل الأكثر قذارةً وشناعةً الذي شهده العالم يوماً»، وكتب غرينفيل إلى السفير البريطاني في لاهاي، يصف نظارة المسرح وهم يطالبون بإسدال الستائر لدى سماعهم الخبر. والأكثر من الاشمئزاز الأخلاقي الذي شعرت به غالبية النخبة البريطانية، كان إحساس الحكومة بأنّها تتعامل الآن مع ظاهرة بربرية وغير عقلانية صعبة الاحتواء جعلت المناقشات المستقبلية جميعاً غير ذات أهمية وموضع نقاش.

لفت تاليران انتباه غرينفيل في الثامن والعشرين من كانون الثاني إلى أنّه بقيت إمكانية أخيرة واحدة هي أنْ يدير دوموري سياسته الخارجية بشكل مستقل عن المؤتمر في حال دعت الضرورة. وفي الحقيقة، بدا أن دوموري وثق بوزير الخارجية لوبرن Lebrun. وأُعطي السفير شوفلان Chauvelin في لندن تعليمات ليخبر بِت وغرينفيل بأنّ الوعد بـ «التحرير» الذي يتضمنه مرسوم المؤتمر في 19 تشرين الثاني ليس شيكاً على بياض من أجل العصيان المسلح. بل يشير إلى أنّه ما إنْ يتحرروا بجهودهم الذاتية، فإنّ هؤلاء «الناس» ربما يتوقعون، بشكل معقول، أنْ تأتي فرنسا للدفاع عنهم. غير أنّ قضية فتح نهر شيلدت للملاحة التافهة في ظاهرها، غدت رمزاً لتعنّت الطرفين. ففي حين برر الفرنسيون فتحه للملاحة بأنّه «حق طبيعي» غير مطروح للنقاش، اعتبر البريطانيون إغلاقه قضية التزام بالمعاهدات الدولية. ماذا لو سمح للفرنسيين بتغيير ذلك حسبما تمليه عليهم أهواؤهم، في أن يجعلوا أنفسهم الحكم فيما هو مسموح أو غير مسموح في العلاقات بين الدول؟ وعندما جاء هيوغ ماري Hugues Maret إلى لندن بمقترحات من دوموري لمعاهدة صلح يجري التفاوض عليها، اعتقد غرينفيل أنّ ذلك مجرد تكتيك الغاية منه التأخير. وفي الأول من شباط، قبل أنْ يتمكن المبعوث من شرح الخطة، أعلن المؤتمر الحرب على بريطانيا العظمى والجمهورية الهولندية.

لقد استغرق الأمر قليلاً من الوقت قبل أنْ يغدو جلياً أنّ ذلك كان خطأً فادحاً. ففي حال نشبت الحرب، كان دوموري يخشى من عملية برمائية معقدة في زيلاند. غير أنّ طريقه الجنوبي المفضل عبر برابانت الهولندية كان شاقاً بالمثل تقريباً، بما أنه كان سينطوي بالضرورة على حصار الحصون في ماستريخت وجيترويدنغبرد وبريدا قبل عبور الأنهار إلى هولندا الجنوبية. والأمر الأكثر شؤماً هو أنّ الخطوط الفرنسية كانت شاسعة الامتداد على نحوٍ خطر حتى قبل الغزو الهولندي. وفي أعقاب معركة جيماب، كان المتطوعون الذين استجابوا لنداءات خريف عام 1792 قد عادوا إلى بيوتهم، الأمر الذي أدى إلى انقسام قوة الجيش الفعّالة إلى نصفين. وقد نجح النمساويون والبروسيون مستغلين رشاقة مواقعهم الأمامية، في عزل الجيوش في الموزل والرين في ألمانيا وقوة دوموري الأساسية في بلجيكا.

ومع مينز تحت الحصار كانت هناك ببساطة أشياء كثيرة لا يمكن حسابها (والكثير من النمساويين والبروسيين) للقيام بتقدّم منسق في جمهورية هولندا. فبينما كان دوموري يغرس شجرة الحرية في الساحة الرئيسية في بريدا في 26 شباط بعد أسبوع من الحصار،

كان الجنرال ميراندا في الجنوب عالقاً أمام ماستريخت التي عززها البروسيون كثيراً. وقد سمع في 1 آذار أنّ جيشاً قوامه أربعون ألفاً، أي مايعادل ضعفي حجم جيشه، قد عبر نهر الرور خلفه. وإذ انسحب بسرعة تاركاً ماستريخت خلفه، اشتبك في معركة غير منظمة في اليوم التالي. وتمّت تجزئة المتطوعين لديه إلى أجزاء صغيرة جراء الهجمات المتكررة التي شنها الفرسان النمساويون. وبحلول نهاية ذلك اليوم فقد الفرنسيون أكثر من ثلاثة آلاف بين قتيل وجريح مقابل أربعين من النمساويين.

وطوال الأسبوع اللاحق حاول دوموري أنْ يرمم ما وصفه للمؤتمر بتعبير ملطّف أنّه فشل. فترك حملته في هولندا، وركّز على تعزيز وضع ميراندا الدفاعي والقيام بفعل مثير لمصالحة البلجيكيين. فأُغلِقت نوادي اليعاقبة، وأُلغيت المراسيم الثورية، وأُرسِلت رسالة شجب إلى المؤتمر. كانت تلك «بروفة» بونابارتية تماماً، لكنها كانت مبكرة جداً لفرنسا ومتأخرة جداً لبلجيكا. وكما هي الحال بالنسبة للبونابارتية لم تكن الخندقة تعني شيئاً دون النجاح العسكري. وفي الثامن عشر في نيروندن، أخفق جيش دوموري في طرد النمساويين أولاً، ثم انهار جراء هجومهم المضاد. ومع محاولة الحملة الخروج من هولندا على نحو يائس، انهار الوضع الفرنسي بالكامل، في هولندا في الجنوب والشمال، في غضون أيام.

وفي الثالث والعشرين بدأ دوموري المفاوضات مع كوبورغ بهدف إخلاء بلجيكا شريطة أنْ يبقى جيشه دون مضايقة. وقد وافق القائد النمساوي على هذه الشروط لأن ذلك كان واضحاً أنّ دوموري أراد أن يستخدم جنوده ضد المؤتمر بالذات. وفي اليوم التالي خرج الفرنسيون من بروكسل الأمر الذي كان مدعاةً لأسف عدد قليل من السكان المحليين، وفي اليوم الأخير من الشهر عبر الفرنسيون الحدود مرةً ثانية. وكان الأسوأ ما سيأتي، فوزير الحربية الجنرال بورنوفيل، الذي أُرسِل إلى الجبهة للتحقيق بسلوك دوموري، اعتقِل هو نفسه ومعه مفوضيه، وسُلِّموا للنمساويين. وخلال الأيام الأولى من نيسان، حاول دوموري إقناع جنوده بأن ينضموا إلى الحلفاء في الزحف إلى باريس. وبقدر ما كان عدد من الجنود النظاميين لا يثقون بالمؤتمر، لم يصل نفورهم حدَّ الخيانة. وهكذا في 5 نيسان امتطى دوموري فرسه، مثل لافاييت قبله إلى الخطوط النمساوية وبصحبته حفنة من الضباط الكبار بينهم، ابن فيليب إيغاليتِ دوق شارتر، الذي سيكون لويس فيليب مستقبلاً.

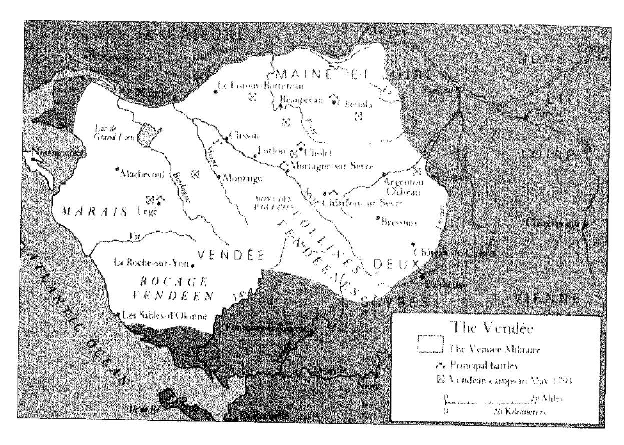
عندما وصلت أخبار الخيانة إلى باريس، بدت أنّها تبرر الروايات الأكثر مبالغةً

بخصوص نظرية المؤامرة. وبهذا الإدراك المتأخر، بدا لليعاقبة بشكل خاص أنّ الحملة الهولندية بالكامل كانت خطة مدروسة من دوموري لتسليم الجيش إلى النمسا. وكما هي الحال بالنسبة للعلم الأبيض الزائف الذي يرفرف من أبراج الباستيل أو الهدوء في إطلاق النار من قصر التويلريه، كانت ثمة محاولة مدروسة لاغواء الوطنيين وإرسالهم إلى التهلكة. وفي ثقافة ثورية حيث الارستقراطية نفسها موسومة بالإدمان على الحيل والخداع، بدت هذه الخيانة الأخيرة جزءاً من طابور خامس مخرّب من النظام القديم.

لأولئك المشككين في وطنيته، لم يكن مفاجأة أن عرفوا أن ذلك من عمل دوموري الذي كان مسؤولاً عن الدفاع العسكري في فرنسا الغربية، لأنه في الأسبوع نفسه الذي سقط فيه العلم الثلاثي الألوان في الوحل الفلمنكي، قامت مقاطعة فنديه بانتفاضة دموية ضد الجمهورية.

II ـ قلوب مقدّسة:
الانتفاضة في فنديه (VENDEE)

تقع بلدة سوق الحبوب الصغيرة «ماشيكول» على بعد 12 ميلاً من المحيط الأطلسي. وفي الحادي عشر من آذار 1793 بُعَيد الفجر تماماً، أيقظت ضجة غير واضحة هادرة أشبه ما تكون بصوت بحر هائج جِرمان بِتويس Germain Bethuis البالغ من العمر سبعة أعوام. لكن لأذنيه الفتيتين بدا الصوت وكأنّه قادمٌ ليس من الغرب بل من الشرق، في اتجاه قرية سان فيليبير. ثم ارتفع الصوت أعلى وخاف الصبي. في سهرات النساء والأطفال التي ساعدت على تمضية أمسيات الشتاء الطويلة، حذرت بعض النسوة الريفيات المتقدمات في العمر من نبوءات عن معارك وإراقة دماء تعلن عنها الغيوم التي تتجمّع بأشكال تنذر بالشؤم وتتلون بألوان غير طبيعية. وفيما حدق جرمان إلى الضباب الصباحي الرقيق في فندي، خطر في باله أنّه كان قادراً على إبصار مثل هذا الظهور، أشد ظلمة من الضباب ويتحرك ببطء فوق الحقول باتجاه البلدة. وكان والده، كاتب العدل البالغ من العمر اثنين وثلاثين عاماً والعضو في إدارة المقاطعة، لا يزال في سريره عندما دخل ابنه مسرعاً ليوقظه قائلاً: «هناك سحابة صاخبة داكنة يا أبي، وهي قادمة إلى البلدة». وفي تلك الأثناء كانت الشمس قد بددت الضباب لتكشف عن حشود متراصة من آلاف القرويين، مسلحين بالمذاري وسكاكين السلخ ومناجل مختلفة الأنواع وعدد لا بأس به من بنادق الصيد. وكما تذكرّ جرمان ذلك، «كانت صيحاتهم المتوحشة وحدها كافية لنشر الرعب».



خريطة فنديه

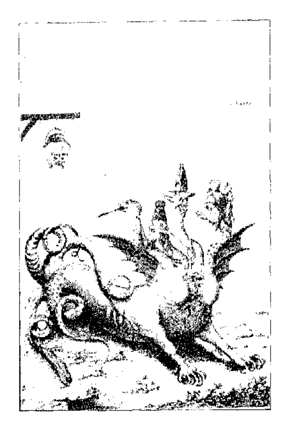
هرع والده لينضم إلى مجموعة من الحرس الوطني الذين تجمّعوا بسرعة في الشارع الرئيسي، ووقفوا قبالة الحشد البالغ نحو ثلاثة آلاف قروي. كان الحراس في معظمهم رجالاً مسنين وفتية، لأنّ «ماشيكول» كانت قد قدمت حصتها من التطويع العسكري المطلوب وفقاً لخطة المؤتمر، التي صدر مرسومها في 24 شباط، وتقضي بجمع جيش قوامه ثلاثمائة ألف جندي. وفي الواقع كان ظهور الضباط المفاجئ للبحث عن المجندين، في قرى أنجو الجنوبية هو الذي أثار الانتفاضات العفوية في المنطقة بأكملها. وفي ماشيكول تُرك الأمر لرئيس إدارة المقاطعة العجوز ومدير المدرسة المحلية، الدكتور غاشينار لمواجهة الحشد المُرعب. وقد استجمع أفضل ما لديه من طريقة مدرسية، وألقى ما سمّاه بيتيوس لاحقاً «خطاباً مؤثراً» ضد العنف، قائلاً إنه سيسلم مفاتيح برج ساعة الكنيسة كما طلبوا إذا وعدوا من طرفهم ألا يقوموا بأذية سكان البلدة.

وفي كل حال، عندما دق ناقوس الخطر، أصبح الحفاظ على الوعد مستحيلاً. لقد جعل الإنذار القرويين يأتون إلى ماشيكول من القرى المحيطة، مما جعل الحشد المتزايد يتحول إلى غوغاء. وطلب موباسان، وهو الضابط الذي جاء إلى ماشيكول ليشرف على سحب القرعة للجيش، إلى الحراس أن يطبقوا القرارات بحزم، لكن غالبيتهم عصت

الأوامر ولاذت بالفرار. ولدى محاولته الجدال مع قادة الغوغاء، قتل بطعنة رمح واحدة في القلب. عندئذٍ أصبح ضبط الفوضى غير ممكن. ففتش ونهب منزل أي شخص له علاقة بالإدارة المحلية، وجُرَّ من وجد في الداخل إلى الشارع حيث ضُرب بقسوة وأصوات الصيادين تنادي **بالالي**، وهي أصوات تُطلق عندما تكون الطريدة محتجزة. وسُحب القس الدستوري لو تور من كنيسته وطُعن في الوجه بحربة طوال عشر دقائق قبل أنْ يفارق الحياة. وقُتل أكثر من أربعين رجلاً في الشارع وسيق أكثر من أربعمائة آخرون إلى دير كالفيرين كسجناء.

تمكّن والد بيتيوس من تفادي الحشد الهائج بالاختباء في بيت صديق له في أطراف المدينة لبعض الوقت. وقد نُصح بالفرار لكنّه رفض مغادرة عائلته، وعندما مرض، لم يعد إلى بيته وحسب بل وسريره بالذات. وسرعان ما انضم إلى الآخرين في السجن الإرتجالي الذي كان الرجال يؤخذون منه بانتظام إلى محاكمة سريعة ويُعدَمون. كانت تُشكَّل سلاسل من السجناء بتمرير حبل تحت أذرعهم على شكل «سبحات» سيئة الصيت يُجرون بها إلى الحقول خارج البلدة حيث يُجبَرون على حفر خنادق ثم يطلقون عليهم النار ليسقطوا تماماً في قبورهم. وُضِع الطبيب موسيه في الصف مرتين وفي كلتا المرتين كان يُرجأ حكم الإعدام فيه، ثم أعدِم أخيراً في آخر سبحة. رمى بيتيوس نفسه من نافذة في الطابق الثاني يائساً من قدره، فكسر رجله. وقد توسلت زوجته إلى القائد شاريت في فوندي ليجد طبيباً لزوجها - ربما الطبيب موسيه. ولكن مع أنّ شاريت كان قد جاء إلى ماشيكول إلى حدٍ ما لفرض شيء من النظام على الأعمال الوحشية غير التمييزية التي كانت تحصل، قال لها: «إنّ رجلاً مقدرٌ له أنْ يموت في غضون ساعات ليس بحاجة إلى طبيب».

لقد قُتِل بيتيوس مع أكثر من خمسمائة مواطن من ماشيكول في أكثر المذابح دمويةً التي اقترفها المتمردون الفنديون. وغدا اسم البلدة مثلاً في الفصاحة الجمهورية على وحشية ولا إنسانية المتمردين. وحتى هذا اليوم، فإن تاريخ بلدة فندي قادر على استقطاب المؤرخين والقراء الفرنسيين بطريقة حاقدة أكثر من أي واقعة أخرى في الثورة. وما يثير المؤرخ غير الفرنسي فوراً هو درجة التشابه بين الأحداث الشنيعة في ماشيكول إذا ما قورنت بأفعال الانتقام العنيفة التي اقترفها الجانب الجمهوري. وكما هي الحال في مذابح أيلول، بدأت الأحداث الدامية بحاجة عفوية يصعب التحكم فيها لزيارة الناس وفرض العقوبات القاسية على الرجال الذين جسدوا الآثام التي لا تحتمل وكذلك التهديدات المباشرة: غرباء داخل ثقافة المدفأة والمنزل. وكما في مذابح أيلول، تمّ توجيه ثورة



الصورة 173. طبعة لرسام مجهول، «الحيوان الغريب (الهولة) الثورة المضادة»

الغضب الشعبي بسرعة والسيطرة عليه بل وحتى إعطاءه صبغة شرعية زائفة. ففي ماشيكول، كان النظير المكافئ لـ مايار Maillard هو النائب العام سوشو Souchu، الذي ترأس الدعاوى القضائية التي حكم فيها على السجناء بالموت. وكان شاريت في موقع موازٍ لـ دانتون ـ اللواء صاحب السلطة ظاهرياً على إيقاف عمليات القتل لكنّه غير راغب وغير قادر في نهاية المطاف على القيام بذلك.

كانت وحشية انتفاضة فندي، وقمعها، نتاجاً للّغة المانوية ففي الحرب الثورية. كان خطاب الدكتور غاشينار «المؤثر» محاولة لإعادة كلا الجانبين للاعتراف بالأخوة المشتركة بوصفهم فرنسيين. غير أنّ كلاً منهما أضحى معتاداً على قوالب لعينة من الوحوش وتجسيدات الشر التي ارتد العقل فيها على نحو قاتل إلى هذه الشيطنة المتبادلة. قبل شهر من الانتفاضة، وصف حائك البسط المزخرفة لابارا، رئيس النادي الثوري المحلي (جمعية أصدقاء الحرية والمساواة) في فونتاني لو كونت، القساوسة والأرستقراطيين العنيدين أنّهم:

وحش بعدة رؤوس ينهب فرنسا. إنّ الضربة التي وجهتموها [إعدام الملك] أزالت

رأسه الأساسي، لكن ذلك الوحش الذي يلتهم الكون لم يمت بعد.

وإذ ألح لابارا على المؤتمر من أجل المزيد من هذه الإعدامات النموذجية، كان ينفعل في موضوعه: «اضرب، اضرب بلكماتك الشديدة هذه الرؤوس الشنيعة دونما أن تسفح دمعة على ثدي أمها [فرنسا] ... دع الفأس المنتقمة تقع على رؤوسهم ليكون موت هؤلاء آكلي اللحوم أمثولةً فظيعة لشركائهم البلهاء... ارمهم، ارمهم من أعالي صخرة تاربيان Tarpeian». وقد فكّر بأنّها بداية طيبة أن يُعدَم اثنان من آكلي لحوم البشر أولئك في كل عاصمة من عواصم مقاطعات الجمهورية.

وبالطريقة نفسها، لعن المتمردون في قرية دولون الجمهوريين: «لقد قتلوا ملكنا؛ وطاردوا قساوستنا؛ باعوا أشياء كنيستنا؛ وأكلوا كل شيء عندنا والآن يريدون أنْ يأخذوا أجسادنا... لا، لن يحصلوا عليها».

في كلٍ من الحط الإنساني البلاغي للعدو والضراوة المفرطة التي نشبت فيها الحرب، توقعت فندي سلسلة من انتفاضات القرويين. حيثما تواجهت الجيوش والمفوضون المدنيون للثورة مع جماعة من الفلاحين الورعين يقودهم قساوسة ومطارنة معروفون محلياً، كانوا يلاقون المقاومة العنيدة نفسها. وما بدأ في فرنسا الغربية عام 1793 تكرر في إيطاليا الشمالية مع جماهير «تحيا ماريا!»، الهائجة وحركة «سانفديستي» الكالابرية، وثورات الفلاحيين البلجيكية، وجميعها في عام 1799، كما في «إسبانيا» عام 1808. وفي كل حدث كانت سلطة الحكومة الجمهورية مجسدة في أبناء المدن، غالباً حرفيون، وفي أقلية من السياسيين المتحمسين الذين كان خطابهم أكثر جلجلةً كونهم منعزلين في مناطق غير متعاطفة كثيراً مع عقيدتهم.

في عمله الكلاسيكي عن بلاد الـ «موج» pays des Mauges، المنطقة الفرعية المقسمة بنهر «لايون» Layon، يرى «شارل تيلي Charles Tilly» النهر أنّه حد اجتماعي وطبوغرافي أيضاً. باتجاه الشمال والشرق كانت «فال ـ سامروا Val - Saumurois» وهي منطقة كثيفة ومستقرة ومزدهرة نسبياً حيث كان للمزارعين وأبناء المدن مصلحة مشتركة في الاستفادة من التشريع الثوري في بيع ملكية الكنيسة. كانت نسبة المتعلمين أعلى والممارسات الدينية أكثر اعتدالاً. وكان الريف والبلدة أقل حدة في التجاور. في تباين حاد، إلى الغرب والجنوب، كان الريف في الـ «موج» أكثر صمتاً وأقل كثافةً في السكان ذات جداول موحلة وآثار عربات تسلك طريقاً بين سياج من الأشجار وغابات كثيفة. وفي البلدات القليلة في هذه المنطقة، مثل شولي وشوميلي، استغل مقاولو النسيج حاجة مورد

رزق الفلاحين من أجل الحصول على عمل إضافي بتوظيفهم حائكين برواتب ضئيلة وظروف قاسية. ظلّ هؤلاء السكان في الواقع قرويين في المدن أكثر من كونهم سكان مدنٍ. لذلك، خلافاً لـ «فال ـ سامروا»، كان سكان الريف في الـ «موج» ينظرون إلى المدينة أنّها مستغلة وعدو.

وعلى نحو معاكس، في الوقت الذي صنع فيه المزارعون والبرجوازيون في المناطق التجارية الكبرى قضية مشتركة ضد النبلاء والكنيسة الفاحشة الثراء، رُسمت تخومٌ عمودية أكثر مما هي أفقية إذا جاز التعبير، في الـ «موج» وفي مناطق فرعية أخرى من فندي بالذات، مثل بوكاج المحاطة بالغابة وغاتيني. لقد بدأ كل منهم في مواجهة الآخر بثقافة ريفية متماسكة داخلياً وعالماً مدنياً خارجياً، استثمرته الثورة بسلطات الحكومة. وفي ذلك العالم الريفي، بدت طبقة النبلاء المحليّة أكثر استقراراً في السكن وأقل امتعاضاً من الأجزاء الأخرى في فرنسا. كانت أعمال الشغب العنيفة قليلة ومتباعدة عام 1789. وبسبب عزلة القرى النسبية عن بعضها بعضاً، فقد مارست الكنيسة وقساوستها على نحوٍ غير متكافئ دوراً مؤثراً أكثر نفوذاً. فعمّدوا وزوّجوا ودفنوا وعلمّوا الأطفال وساعدوا العاجز والمحروم؛ وقدموا أيام الآحاد المكان الوحيد الذي يستطيع فيه السكان التعرّف إلى معنى العيش المشترك في جماعة.

وكما أكّد جان كليمان مارتان Jean Clément Martin في وصفه الأكثر حداثة وتوازناً للتمرد، فقد كان هناك أماكن أخرى في فرنسا كان رفض الدستور المدني فيها شديداً وواسع الانتشار كما كان الحال في أنجو الشمالية وفندي. لكن لم تتجمع تلك العناصر المختلفة التي هيأت لانتفاضة عنيفة ومفاجئة في منطقة من تلك المناطق بالطريقة نفسها. فعلى سبيل المثال، كانت نسب رفض قسم يمين الولاء في فلاندر وبيكاردي وأجزاء من نورماندي عالية جداً (مثلاً في مناطق إقليم الشمال الثماني، لم يكن هناك إلا 190 قساً أدّى قسم الولاء مقابل 1957 قساً لم يفعل ذلك.) وعلى نحو متناقض، كانت نسب الرفض أعلى في البلدات منه في الأرياف، حيث أنّ أداء الخوارنة أصحاب الرواتب كان أفضل كثيراً تحت جناح الثورة بالمقارنة مع النظام القديم. وانطبق الأمر نفسه على ميدي Midi، حيث وصلت نسب قبول الدستور المدني إلى نحو 80% في قرى بروفنس Provence، بينما ظلت بلدات بالكامل مثل آرلي Arles ملكية كاثوليكية ولم تخضع إلّا بالقوة. وكانت العداوة في الألزاس واللورين إضافة إلى فلاندر وبيكاردي لرجال الإكليروس الذين أقسموا يمين الولاء شديدة أيضاً، غير أنّها كانت مناطق حرب مزوّدة

ببلدات محصّنة جيداً واستطاعت حشد قوة كافية بسرعة لمنع أعمال الشغب من التحوّل إلى انتفاضات شاملة. وحتى في بريتاني حيث كانت الظروف مشابهة كثيراً لظروف فندي، فقد قُضي على مؤامرة الماركيز دو روري الملكية في المهد بالتخلص من الشخصيات الكبيرة واحدة بعد أخرى واستخدام قوات حفظ نظام كافية لمنع أية مظاهرات شعبية.

بالمقابل، في فنديه، ألقي بممثلي الجمهورية المدنيين المنعزلين ووطنية اليعاقبة في محيط كبير لتقوى الفلاحين الهائجين. علاوة على ذلك، مثلما حاول دوموري إخبار الحكومة طوال عام 1792، لم تكن المنطقة محمية جيداً وعرضة للهجوم في حال حدثت أية حركة احتجاج جدّية. كان هذا الرضا جديراً بالملاحظة إلى حدٍّ كبير بما أنّ المنطقة قدمت عُربُوناً عن نفورها بإثارة قلاقل خطيرة في شالان وشولي عام 1791، ولاسيما في شاتيون وبروسوري في آب عام 1792. لكن هناك إشارات على أنّ السلطات وضعت هذه الوقائع في خانة الحوادث المعزولة، غير المختلفة عن أعمال الشغب الريفية الأخرى العديدة التي اندلعت في مناطق فرنسا حيث خيّبت الثورة توقعات عام 1789. وفي صيف عام 1792 كان هناك موجة أخرى من ثورات الفلاحين ضد أسيادهم jacqueries في بريتاني العليا؛ وكيرسي في جنوب غرب **ماسيف سنترال**، وفي المنطقة الريفية النائية في مقاطعة بروفنس. وما أثار السخط في كل هذه المناطق هو عجز الفلاحين الفقراء عن الاستفادة من بيع الممتلكات الكنسية. دُمِّرت الأسيجة التي كانت تحيط بالأرض العامة التي كانت ترعى عليها الحيوانات في بعض المناطق، لكن في بعض المناطق الأخرى كانت هناك مطالب بتقسيم الأرض العامة بين العائلات الأكثر تضرراً في القرية.

كانت هذه المظالم، في أية حال، تميز الحياة الريفية في المناطق ذات الثقافة المحدودة. كان وضع العرائض عام 1789 قد جعل المزارعين الفقراء يتجمعون في الكنائس يصغون إلى قساوستهم، ليصدقوا أنّ حياتهم على وشك التحوّل بفعل العدالة الاجتماعية السحري. وما حصل في الواقع هو أنّ الثورة لم تعكس الفروق بين الأثرياء نسبياً والسكان المعوزين في الأرياف وحسب بل على العكس زادتها حدةً. وكان الرد الرسمي على الغضب والعنف المتعاظمين عام 1792 توليفة نموذجية من الامتيازات القانونية الرمزية والقمع الانتقائي. وبعد الإطاحة بالمَلَكيّة، وفي الأسابيع الأخيرة من وجودها، كانت الجمعية التشريعية قد تخلصت من البرنامج المدروس لدفعات الاسترداد مقابل الرسوم الإقطاعية الذي أُقِّر عام 1789 ثم أُلغيَت بالكامل. ولكن بما أنّ الفلاحين كانوا في أية حال قد توقفوا عن دفعها، لم يكن لهذا أي تأثير على الإيجارات العالية التي

استمر المالكون في دفعها. وقد استخدِمت سرايا الحرس الوطني بالإضافة إلى وحدات صغيرة من الجنود النظاميين لقمع المزيد من الاضطرابات أينما اندلعت.

لم تتطور أي منها إلى نوع من انتفاضة مدبرة كتلك التي دمَّرت فندي في ربيع عام 1793. كان لتلك المنطقة أيضاً طبقتها الاجتماعية الريفية الدنيا، غير أنّ مؤرخين أمثال مارسيل فوشو Marcel Faucheux، كان ينبغي عليهم العمل بشدة ليجعلوا من المظالم الاجتماعية عاملاً مُقرِراً في الولاء للعصيان. (وأشار مارتان إلى أنّ العديد من الحائكين المُستَغَلين في شولي تطوّعوا تحت لواء العلم الجمهوري بدلاً من علم فندي.) فإحدى أكثر خصائص التمرد لفتاً للانتباه هي الشمولية الاجتماعية والروابط التي جمعت الناس من مجموعات اقتصادية منفصلة إلى حدٍّ واسع. فلم يكن جيش الغراند رويال والجيش الكاثوليكي يتكون من فلاحين فقراء وحسب، بل من أصحاب مزارع أثرياء لديهم الكثير من الدواجن وكثافة كبيرة من تلك النماذج القروية - أصحاب النُزُل، الطحانون، سائقو العربات، الحدادون وأشباههم - الذين كان يُفترض بهم أنْ يكونوا مُمَثلي الثورة في الأرياف. وإذا كان هناك ممثلون لأولئك المرتبطين بالجماعات المحلية، كالصيادين من القرى البحرية بالقرب من بامبوف، فقد كان هناك أيضاً رجال قوارب وزوارق الذين جعلهم عملهم يسافرون على طول الأنهر والقنوات ومستنقعات فندي الصغيرة. إنّ سائقي عربات أمثال الجنرال الفندي كاثالينو، والتجّار المتجولين، اضطلعوا بمعرفة جماعات مختلفة جعلتهم يألفون الطرق المُتوقعة. فلم تكن موج Mauges مشهورة بعزلة غاباتها النائية وحسب بل بقطعان ماشيتها السمينة التي كانت المصدر الكامل لسوق لحم «باريس» في «سو» وكان تُجار ماشيتها خبراء في الطرق العامة والفرعية المتجهة شمال شرق إلى اللوار. أيضاً وعلاوة على ذلك، كان هناك نبلاء في كلا الجانبين في الحرب. فبينما كان القادة النبلاء للجيش الفندي أمثال ألبيه Elbée ودو لا روش جاكلان de La Rouche - jaquelein هما الأكثر شهرة، كان قائد الحرس الوطني في مورتان هو السير دروهي Sieur Drouhet فيما مضى، والذي كان فارساً من سان لوي وحارب في أمريكا مع «لافايت». وفي لي سابل دولون كان القائد العسكري المحلي لجيوش الجمهوريين بوفرانشي دايا، ابن غير شرعي للويس الخامس عشر من الآنسة ميرفي O'Murphy صاحبة لوحة العارية المُفَضلة لدى الرسام بوشي Boucher.

وبدلاً من البحث عن نموذج متسق للقضايا الاجتماعية التي «توضح» ثورة دينية في لغة شيء آخر، فأن نأخذ القيمة الاسمية لملاحظة الجنرال تورو Turreau أنّها «حملة

صليبية حقيقية» يشكل معنى أكثر عمقاً. فقد كان رجال الدين في آنجو وبريتاني السفلى، الذين كانوا في مركز العاصفة، وفقاً لما بيّنه بحثٌ حديثٌ قام به تيموثي تاكيت Timothy Tackett وآخرون، الأقل فقراً في جماعة الكهنوت الفرنسيين. وكان قساوستهم أصحاب الرواتب ورجال الدين الذين يُدفع لهم ضريبة العشر أكثر ثراءً من إخوانهم في مناطق أخرى من فرنسا. وكان لدى عدد كبير منهم مزارع صغيرة مساحتها كافية لإنتاج الطعام لهم إضافة إلى دخلٍ متواضعٍ. إنّ رجال الإكليروس العلمانيين في البلدات الصغيرة شاركوا بشكل غير مباشر في الهبات المزدهرة والتي جعلت من الأبرشيات في الغرب في لوسون وآنجي ونانت بعضاً من أغناها في فرنسا. ولأن المنطقة في جوار لاروشيل كانت واحدة من آخر معاقل البروتستانتية المستقلة في القرن السابع عشر، فقد كانت هدفاً لإرساليات تبيشرية كاثوليكية مكثّفة. وقد نجح المبشرون باسم القديس دي سان إسبري - du Saint Esprit، على سبيل المثال، الذين نظمهم «لوي غرينيون دو مونفور» في بداية القرن الثامن عشر على ما يبدو في تأسيس رهبانية شعبية ونشطة في الغرب. ليس شيئاً مثيراً للدهشة عندئذٍ إذا كانت هناك درجة غير عادية من التضامن تمتد عبر الهرمية الكنسية وصولاً إلى قلة من الخوارنة في الريف النائي الذين قدّموا مرشحين طبيعيين لرجال الدين الدستوريين، في ريف ميدي ونورماندي.

وكان أيضاً أمراً بالغ الأهمية أن نسبة عالية جداً من رجال الإكليروس في فرنسا الغربية نشأوا في الريف. فقد كان العمل في الكنيسة طموحاً طبيعياً لولد لامع من أصول ريفية نظراً للمكانة الرفيعة والعيش الرغيد الذي تقدمه. وكثيرون من هؤلاء الذين عيّنوا بعد التعليم اللاهوتي في بلدات الكاتدرائية عادوا عندئذٍ إلى قراهم الأم أو على الأقل إلى المكان الذي وُلدوا فيه. وهناك لم يديروا الحاجات الروحية لجماعتهم فحسب، بل قدّموا أيضاً طاقماً لا غنى عنه للمدارس المحلية والكليات ومساعدة للمرضى والمحتاجين. وهكذا استطاع قساوسة فندي أكثر من المناطق العديدة الأخرى أن يزعموا بأنهم أبناء البلد الحقيقيين. وقد جعل هذا الأمر رجال الإكليروس الدستوري الذين حلّوا مكانهم يبدون أكثر غربة. ووُصِفوا في كل مكان أنّهم متطفلون. وفي شغفهم للدفاع عن الموقد والمنزل (إلى جانب أشياء أخرى كثيرة)، كان متمردو فندي صورة معكوسة للابسي البناطيل القصيرة ـ الثوريون الجمهوريون المتطرفون الذين جاؤوا لمحاربتهم. لكن كان للطرفين رأيان متعارضان تماماً حول من هم الغرباء حقاً والذين كانت إبادتهم شرطاً أساسياً للسلام والحرية.

علاوةً على ذلك، كان يُنظر إلى تطبيق التشريع الثوري على الكنيسة في أنجو الجنوبية، منذ البداية تقريباً، أنّه غزو. أراد عدد كبير من القساوسة الذين، إذعاناً للمبادئ البابوية التي نشرها بواجلان، رفضوا أداء قسم اليمين الدستورية، ترك أبرشياتهم. وفي الحقيقة تبع كثيرون منهم أساقفتهم بالهجرة إلى اسبانيا وأحياناً أبعد كثيراً إلى إيرلندا وانكلترا. وغدا ذلك استنزافاً للطاقة البشرية في المنطقة إلى درجة أنّ بعض السلطات الإقليمية، في مين إي لوار Maine et Loire على سبيل المثال، طلبت بالفعل من القساوسة المتمردين، في تموز عام 1791 أنْ يبقوا في أبرشياتهم في حال لم يجدوا بديلاً لهم. لم تفعل هذه التسويات البراغماتية في أية حال إلّا أنّها أغاظت أكثر اليعاقبة المتحمسين، فقدّموا عرائض إلى الهيئة التشريعية في باريس يندّدون فيها بخطط الإكليروس ويطالبون بإجراءات صارمة ضدهم. وزادت مراسيم عام 1792 التي تعاقب المعاندين بالنفي، الطين بلة. أعطيت الأوامر بمطاردة القساوسة، وفُوّضَ الحرس الوطني بكسر الأقفال واقتحام البيوت وقلب الأثاث رأساً على عقب من أجل التفتيش. وأجبرت البيوت التي تمّت فيها عمليات اعتقال على دفع أجور ونفقات أولئك الذين يقومون بالتفتيش. ولا حاجة للقول كان لهذا أثر مُنَفِّر لدى الناس الساخطين أساساً. لكن على الرغم من هذه التهديدات، اختبأ العديد من القساوسة في الحظائر؛ وعليات مخازن التبن أو أحياناً في أكواخ بدائية وحتى في كهوف في عمق الغابة حيث كان أبناء الأبرشية المخلصون يحضرون لهم الطعام.

وفي حين بُذِلت جهود لحماية وإخفاء القساوسة المتمردين من السلطات الثورية، كان هناك على الأقل جهدٌ مماثل مكرّس لجعل حياة هؤلاء الدخلاء بائسة قدر المستطاع. ففي بعض الأبرشيات كان يصل راعي الأبرشية الجديد إلى رواق الكنيسة ليجد خصمه العنيد يغادر وهو يرتدي ملابسه الكهنوتية بالكامل مع فضة الكنيسة كلها ورعايا الكنيسة بالكامل يتبعونه في موكب. ولم يكن نادراً أنّ يقود رئيس البلدية في الكومونة المحلية المقاومة، في الوقت الذي كان يُفترض فيه تأييد القانون. وقد ادعى كثر بأنّهم أضاعوا مفاتيح الكنيسة عندما كان يصل راعي الأبرشية. وكانت ملابس المذبح تختفي على نحو غامض، والراعي لا يستطيع الحصول على ملابس نظيفة إلّا إذا قام بغسلها شخصياً. وعندما كان يُكسر القفل (وأحياناً كان القرويّون يؤكدون كسره) لم يكن بالإمكان العثور على أيٍّ كان لتصليحه.وكان قاسم يمين الولاء عند تنصيبه يحتاج غالباً إلى مفرزة من الحرس الوطني الذين كان يجب عليهم شقّ طريق وسط الحشود التي تهتف: «لاتقسم يمين الولاء، لا تحكم على نفسك بالهلاك».

كان الدخيل، بعد أنْ يغادر الحرس الوطني، يُتركُ وحيداً ليتحمل ما استطاع المضايقة المستمرة، دون ذكر الكنائس الخالية على نحوٍ مربك. ففي ميلي Melay، كان القس قاسم يمين الولاء هو توبير Thubert، ابن رئيس البلدية الجمهوري. كان الصياح يعلو عليه ويُسخر منه ويُرفس في كل مرة يظهر فيها. ولإلحاق الإهانة بالأذية، لم يتغيب قَنْدلَفْت الكنيسة عن القدّاس بكل تفاخر فحسب، كما اشتكى توبير، بل كان يصعد أحياناً إلى برج الجرس ليرشقه بالحجارة أيضاً. وأُحضِرت جميع وسائل الطقوس الاحتفالية التقليدية في القرية، بما ذلك شنق التمثال، لزيادة معاناة الدخيل قليل الحظ. وفي واحدة من تلك التمثيلات في سان أوبان، صُوِّر راعي الأبرشية بقرنين مثل مساعد الشيطان ومثل ديّوث الكنيسة أيضاً. وكان يُطرَق على باب توبير طوال الليل، وفي أبرشيات أخرى، كانت قعقعة العلب وصفير الموسيقا الصاخبة كفيلة بجعل الكاهن يُصاب بالأرق. وغالباً ما كانت الكنائس التي يشغلها الدخلاء تُدنّس بشكل طقوسي وذلك بوضع النفايات في الداخل أو بترك الغائط والبراز أو حتى الجثث المتفسخة على الأبواب أحياناً. في المقابل، كانت النساء يسارعن إلى عمل التطهير من التلوث. فعلى سبيل المثال، عندما نُصِّب بير Peyre الباريسي راعياً لأبرشية ماي سور إيفر May-sur-Evre دُهش لرؤية النساء يتبعنه داخل الكنيسة وهنّ يمسحن آثار أقدامه على الأرض الحجرية. وفي قرى أخرى، أُفرِغت أجران الماء بشكل عدواني وأعيد ملؤها خشية أنْ تُلوث بأيدي غير المؤمنين.

وفي النهاية، كانت هناك سياسة الرفض. فقد جعلت الثورة الزواج عملاً مدنياً، ولكن كما هي الحال في التعميد والدفن، كانت هناك أيضاً أشكالٌ دينيّة تُلحق بعملية التسجيل. وكان الإكليروس العنيد قد أوضح أنّ أيّاً من تلك المراسم المدنية لم يكن لها مكان في الدين الحقيقي. ولذلك اعتبرت الكنيسة الأزواج الذين قاموا بزواج مدني ثم احتفال مباركة من قسٍ أقسم يمين الولاء أنّهم يرتكبون خطيئةً. وبالمثل تم الإعلان عن أن الطقوس الأخيرة التي قام بها مثل هؤلاء الرجال باطلة كشكل من الغفران. لم يكن رفض أبناء الأبرشية في المشاركة في هذه الأفعال في تلك الظروف مجرد مسألة نبذ بل تخليصاً لأرواحهم أيضاً. وكان القساوسة العنيدون في معظم الأحيان يتركونهم مع تعليمات مفصّلة عن كيفية التعامل مع الأمر في حال غيابهم عنهم. كانت عمليات الدفن تتم في الحقول خارج القرية وفقاً للأعراف. لكن في حال اكتشف القس عملية الدفن هذه، كانوا يُحرمون من المشاركة فيها. حتى أنّ بعض القساوسة تركوا تعليمات حول كيفية الاستمرار في قداديسهم التقليدية كما لو أنّهم كانوا حاضرين. فمثلاً، وعد ماتيو بونو رعيته، في موعظته الأخيرة قبل مغادرة سان هيلير دو مورتان Saint - Hilaire - de - Mortagne، بأنّه «سأصلي

من أجلكم حيث تقودني العناية الإلهية». وفي حال توجب على الرعية أنْ تُحرَم من «قسها الصالح»، كان ينبغي عليها مع ذلك التجمّع في الساعة العاشرة كالمعتاد وأداء ترانيمها آخذة علماً بأنّه سيكون، في الساعة نفسها، مشتركاً في عبادته وعبادتها. وأخيراً، أُنشِئت الكنائس الصغيرة المرتجلة للقيام بالقدّاس التقليدي، إمّا في أماكن اختباء القساوسة المتمردين أو في أكواخ ريفية بعيدة، نوافذها مغطّاة بملابس يكون القس محروساً فيها بحذر.

طبعاً، ونظراً لتاريخ مقاومتها العنيد، لم يستغرق الأمر طويلاً لدفع سكان فندي باتجاه عنف أكثر تدبيراً. ففي كانون الثاني عام 1793 في لي سابل دولون les Sables - d'Olonne في المقاطعة البحرية، كتب المدعي العام بيري Biret إلى إداريي المقاطعة أنه «في ما يتعلق بالأخلاق، أعتقد أنّ القسم الأعظم من السكان مفسدون إلى حد بعيد بالتعصب وجهود الأعداء المحليين... أمّا السياسة فالأفراد غير قادرين أيضاً على التفكير والاستنتاج بطريقة منطقية. فالثورة بالنسبة لهم هي سلسلة طويلة وحسب من المظالم التي يشتكون منها دون أن يعرفوا السبب». وبالتأكيد جعل إعدام الملك الأمور تسير إلى ماهو أسوأ كثيراً. وفي تقرير له عن أحد التجمّعات في لي سابلي، قال بيري إنّ «بعض الأشخاص تجرؤوا على وصف المشرعين الذين حكموا على لويس بالإعدام أنّهم قطّاع طرق وأوغاد». وخلال شهر شباط تراكمت التقارير المستمرة عن الإيماءات الأكثر وقاحة: النداء بشعارات» «يحيا القساوسة، والدين، والملك [بالطبع الولد «لويس» السابع عشر حينئذٍ]، والموت للوطنيين».

لقد حوّل إعلان فرض التجنيد كل هذا الغضب الحبيس والاستياء إلى ثورة معلّنة. وعلى نحو يثير الاهتمام، اكتشف رينال سيشه Reynald Sécher بأنّ فندي قدّمت في الواقع حصتها من المجندين من البلدات الصغيرة. ربما أراد أولئك الذين كانوا ملتزمين، بموجب وظيفتهم أو ميلهم، إلى الجمهورية أنْ يتسلحوا دفاعاً عن أنفسهم، أو على نحو أدق، النجاة بأنفسهم من المنطقة. وفي أية حال، كانت القوة الرمزية في التجنيد ـ والذي لم يكن إجبارياً بل دعوة للمتطوعين للقيام بعملية تجنيد تستكمل بالحظ في حال كان ثمة نقص ـ كافية بذاتها لإثارة العنف. ولم يساعد أمر إغلاق جميع الكنائس التي لم يكن فيها قس أقسم يمين الولاء في 6 آيار عام 1793.

شهد العاشر وحتى الثاني عشر من آذار المرحلة الأولى من الانتافضة، عندما هاجمت حشود مجتمعة عفوياً في القرى والبلدات مكاتب وبيوت رؤساء البلديات وقضاة

الصلح والنواب، وعزلت بشكل خطير وحدات الحرس الوطني. وتكرر شغب ماشيكول، بنتائج أقل هلاكاً، في سان فلوران لو فيو، وسان بازان وسان إيلير دو شاليون وكليسون. كان القادة الذين ظهروا من أول موجة عنف أمثال حارس منطقة الصيد والجندي السابق ستوفلي، رجالاً عُرفوا لوقت طويل في مناطقهم بمقاومة السلطات الثورية. وما أنْ أجلوا أعداءهم واستولوا على أسلحتهم، حتى اندمجت الحشود مع بعضها لتشكل مواكب باتجاه البلدات الأكبر وهي تزداد حجماً مثل كرات الثلج فيما تحركت على طول الطرقات.

وفي هذه المرحلة، لم تبدُ أعمال الشغب في فندي مختلفة عن أعمال شغب مشابهة معادية للتجنيد كانت تحصل في أجزاء عديدة في فرنسا من كلافادوس في نورماندي إلى كوت دوغ في برغندي وبوي دو دوم في ماسيف سنترال الجنوبية. وقد وقعت بعض أسوأ الاضطرابات في اللوار في بريتاني. لكن الحكومة كانت قلقة جداً بشأن الخطط المحتملة المعادية للثورة، كانت لديها قوة كافية لاتخاذ إجراءٍ سريعٍ وحاسمٍ ضد مراكز المقاومة. وفي المقابل، كانت فندي مستنزفة من الجنود على نحوٍ ينذر بالخطر. فمثلاً، لم يكن هناك غير مائتي حارس وطني في شالان كان عليهم أن يواجهوا أكثر من ألف متمرد في الثاني عشر من آذار. وفي الوقت الذي أصبح فيه بالإمكان تقديم التعزيزات، كانت أعمال الشغب المختلفة قد تحولت إلى عصيان مسلح عام. وعلاوة على ذلك، حتى بوجود خمسين ألف جندي جمهوري تجمعوا في نهاية الأمر في فندي بحلول الأسبوع الثالث من آذار، فلم تكن إلا نسبة ضئيلة ـ ربما أقل من ألفين ـ كانت من المحاربين على الحدود تمثل الجيش الملكي القديم. وكانت البقيّة متطوعين غير مجربين، غير مجهزين لا بالمعدات ولا بالغذاء، والأكثر خطورة في مواجهة الوضع، هلعهم الشديد من المتمردين. لم يظهر أيٌّ من جيوش فرنسا في ربيع وصيف عام 1793 مثل ذلك الميل إلى الذعر وكسر الصفوف كما فعل الزرق في فندي. ربما خافوا من مصير الجمهوريين في ماشيكول. وما حصل هو أنّ كثيرين منهم تفرقوا إلى وحدات صغيرة كثيرة مكونة من خمسين أو عدة مئات، فغدت هدفاً للمتمردين الحانقين وغير قوية لتفرض سطوتها.

وعندما أدرك الجمهوريون خطورة الوضع، كان المتمردون قد استولوا على العديد من المراكز الكبرى، لاسيما شولي وشوميلي وفونتيني لو كونت. وفي الرابع عشر من آذار، جمع ستوفلي قواته مع قوات التحقت بـ تونولي وهو حارس منطقة صيد آخر ورجال تابعين لبائع العربة كاتولينو. وبعد الفشل في إقناع الجنود الجمهوريين الذين يقودهم

الماركيز دوبوفو، بإلقاء أسلحتهم، أمطر المتمردون الزرق بوابل من النيران وأصابوا دو بوفو بجرح قاتل.

وعلى الرغم من هذا النجاح المبكّر، بدا ضرورياً تجنيد شخصيات صاحبة سلطة من النبلاء المحليين، الذين سيساعد انضمامهم على تجنيد المزيد من القوات من أجل القضية. لم يكن الأمر مجرد مسألة منزلة اجتماعية، لأن لدى جميع أولئك الذين تمّ الاقتراب منهم خبرة عسكرية كبيرة في الميدان والتي يمكن ان تستخدَم فيما يتوسع مسرح العمليات. وقد أُرسلت الوفود إلى القصور ومنازل النبلاء الريفية، حيث كان عليهم في معظم الأحيان التغلّب على المشاعر المختلطة لدى الطبقة الارستقراطية المحلية عن آفاق التمرد. وفي الحقيقة، ما كان مدهشاً في ما يتعلق بأكثرية النبلاء (باستثناء «هنري دو لا روشجاكلان» البالغ من العمر واحداً وعشرين عاماً) ليس هيامهم بالملك بل اعتدالهم. فقد عاد أولئك الذين اكتسبوا خبرة الهجرة في كوبلينز مشمئزين مما شاهدوه. وكان آخرون مثل ديلبي في الأصل من مؤيدي الجمهورية، الذي انتخب إلى مجلس الطبقات على قوائم الطبقة الثالثة في بوبريو Beaupréau، كانوا قد صوتوا للأسقف الدستوري بولوتيه ولم يصبحوا مغربين إلا بموجب تشريع النفي الوحشي. وحاضر فعلاً بونشام Bonchamp، القائد النبيل الهام الآخر في المتمردين حول خطورة تصرفهم: «ألا تشعرون بالرعب حيال وضعنا؟ ماذا نفعل؟ إننا نقوم بحربٍ أهلية. ضد من نقاتل نحن؟ ضد الأمة التي نحن جزء منها». وبلا ريب، كان الإحساس بالوطنية المحلية هو الذي حرك طبقة النبلاء في فندي: ضغط العواطف المحلية والوطنية. لقد وُصم المهاجرون والزرق على السواء في أعينهم أنهم غزاة. إذا كان على «فرنسا» أن تُستردّ، فينبغي أن يكون ذلك من خلال أبطال محليين، ملتزمين بحماية أرضهم من النهّابين. وقد أعطى ذلك ميزة شخصية ومحلية على نحو جديد بالملاحظة إلى قيادتهم اللاحقة. فالقادة، أمثال شاريت وسبينو دو لا فيري وديلبي، الذين أسبغت عليهم قواتهم صفات مثالية، كانوا في الحقيقة الواقعية كبار قومهم ذوي صفات رومانسية، نسخة القرن الثامن عشر عن أمراء الحرب ذوي النفوذ الواسع. وقد جلب كل منهم رجاله من منطقة محددة: بونشان من قرب سان فلوران؛ وشاريت من قرب ماشيكول وقرى نانت في الشمال؛ وديلبي من أرياف مورتان؛ ولا روشجاكلان من بروسوير وشاتيّون. وقد غرس هؤلاء القادة مشاعر قبلية أثمرت إخلاصاً عظيماً لكنها عملت ضد التعاضد المطلوب إذا ما أراد جيش فندي أنْ يكون يوماً أكثر من مجرد اتحاد مؤقت لجماعات المقاومة.

لم يكن القساوسة طوال الصراع بذلك القدر من الوضوح على أرض المعركة كما افترض التقليد التاريخي. وهناك استثناءات لهذا التحفظ المثير للدهشة. كانت القوة التي استولت على شولي تحت سيطرة الأب باربوتان وستوفلي أيضاً. وغدا آخرون ـ أمثال الأب بيرني وروسّو من تريمونتين وشامو من لا جوبوديير وغروجي من سان فلوران ـ شخصيات هامة في تعبئة القرويين لقضية فندي. ولاشك كان يتم التأكيد على الطبيعة الصليبية للصراع علانيةً في كل مناسبة. بعد الاستيلاء على شوميلي، أصبح باربوتان «وكيل صدقات الجيش الكاثوليكي» وكان يمنح الغفران قبل المعارك. وغالباً ما أنشد الفنديون أناشيد وطنية وتراتيل في زحفهم، وحملوا الرايات مع مريم العذراء في مقدمة أفواجهم وارتدوا شعاراً لهم رمز قلب يسوع المقدس يتوجّه الصليب. وقبل نهاية الزحف، ألّفوا نشيدهم العسكري المعارض لِ «المارسييز» الذي يبدأ كالتالي:

هيّا بنا يا جنود الكاثوليك، لقد جاء يوم النصر

رفعت الجمهورية

في وجهنا الراية الدامية...

إلى السلاح! شكّلوا كتائبكم

سيروا، تقدّموا، فدماءِ الزرق

ستُخضّبُ أراضينا

ومع ذلك، سيكون من الخطأ تصّور جيش فندي أنّه نوع من جماعة دينية بدائية. لقد تمّ الاستيلاء في البداية على المراكز الرئيسية مثل شولي دونما تكتيكات متقدمة، أعداد كبيرة من الجنود المشاة يتحركون ضمن تشكيل مفكّك بين أرتال من الرماة المهرة على كل جانب، مع قسم متخلف من سلاح الفرسان ومدفع أو مِدْفَعَين في المؤخرة. ولكن في نهاية الأسبوع الأول من الأعمال العدائية، ظهر إلى الوجود جيش يُحسب له ألف حساب بعد الحصول على الذخائر الحربية من المخازن التي تركها الجمهوريون الهاربون خلفهم. لقد أعطوا بعض المدافع الكبيرة أسماءً كان أشهرها ماري ـ جان (وهما ابنتا المِدفَعي الذي كان يقوم بجره)، كان سلاحاً مخيفاً لم يتعدّ تأثيره على العدو غير الضجة والدخان اللذين كانا يصدُران عن انفجاراته بين الحين والآخر. وكان سلاح الفرسان المكوّن ربما من ألف وخمسمائة إلى ألفي فارس ينتعلون غالباً قباقيب لا جزمات، ويركبون حيوانات من كل الأشكال والأحجام.

وفي أية حال، كان مصدر قوة الفنديين بالدرجة الأولى هو سيادتهم على أرضهم.

كانت تكتيكاتهم متلائمة بشكل مدهش مع ميدان المعركة المميّز الذي كانوا يقاتلون فيه. فقد استخدموا في اللوار السفلى، على سبيل المثال، دوريات نهرية مسلحة لاعتراض طريق الإمدادات بالذخيرة والطعام إلى حصون الجمهوريين. واستُخدمت طواحين الهواء لبث رسائل إلى الوحدات النائية عبر تشغيل الأشرعة وفق شفرة اتصال متعارف عليها. وفي أرجاء المنطقة كلها، شارك غير المحاربين، وكانوا غالباً من النساء والأطفال، في المعركة من خلال القيام بأعمال المزرعة وتزويد قواتهم بالطعام واللباس.

لقد كانت حرباً من النوع الذي نعرف عنه كثيراً الآن، لكنها لجيش الجمهوريين، لا سيما لتلك القوات التي سُحِبت من ساحات القتال في بلجيكا أو حصار مينز، فقد كانت غير مُعَدّة على الإطلاق. قوات بالزي النظامي وفق تشكيلاتٍ منتظمة كانت محاصَرة في حصونٍ معزولة، قادرة على مراقبة البلدات الكبرى في محيط منطقة الحرب لكنها عاجزة عن أن تقوم بدوريات في الداخل، حيث قد تُخبّئ كل أجمة كميناً قاتلاً، أو التمييز بين المدنيين والمحاربين في القرى. عندما اكتشف الجنرالات الفرنسيون، الذين قاتلوا في فندي، ظروفاً مماثلةً على نحو مدهش في حرب شبه الجزيرة في إسبانيا بعد خمسة عشر عاماً، أشاروا إليها أنّها «الحرب الصغرى la petite guerre» والتي ترجمت في الاسبانية حرب عصابات.

ومع ذلك لم تكن تلك المعركة غير النظامية التي بعثت برسائل إلى المؤتمر في باريس أنّها بصدد حرب محلية واسعة النطاق. وفي الواقع شهدت المعارك قبل «شولي» و«فونتيني لو كونت» مواجهات قوية في الريف المكشوف أو الحقول التي كان يتفوق فيها الفنديون في العدد وقوة النيران. وخلال ليل التاسع عشر والعشرين، قاتلت قوة قوامها أكثر من ألفي جندي يقودها الجنرال «مارسي» في معركة ضارية ثابتة الموقع طالت ست ساعات على ضفتي «غران لي» شمال «شانتوني». وعندما سمع مارسي مقاطع نشيد «المارسييز» ظنّ أنّها تعزيزات من أجله، بينما في الواقع كان رتلاً من المتمردين ينشدون «هيّا بنا ياجنود الكاثوليك..». أصبح الصراع في النهاية غير متساوٍ وتشتت في هزيمة نكراء لاذ فيها الزرق المذعورين بالفرار جنوباً إلى «سان إيرمين» و«سان إيرمان». ووقع ريف السهل الجنوبي بكامله ومستنقع فندي في أيدي المتمردين، بما في ذلك بلدات «لوسون» و«فونتيني» و«نيور». وفي الثاني والعشرين تكرّرت الكارثة في الطرف الشمالي من المنطقة عندما هرب ثلاثمائةٍ من الزرق لدى مواجهتهم نحو عشرين ألف فنديّ في «شالون» تاركين وراءهم أغلب معداتهم وثمانية عشر مدفعاً للمتمردين.

على أرض الواقع وبحلول نيسان كانت فندي بالكامل، باستثناء المنطقة البحرية الشمالية، لكن مع جزيرة «نوارموتيي»، في أيدي المتمردين. وبإلحاح من ضابط الحرس الملكي، «سبينو دو لا فيري»، تشكلت قيادة موحدة، وانتخِبَت لجان أبرشية لجمع السلاح والمؤن من أجل الجنود. وطُبِعت أوراق نقدية عليها صورة «الملك لويس السابع عشر» الصغير الذي نَشر مجلس «فندي» الأعلى باسمه مراسيم وأحكاماً قضائية. وقد تباهى المتمردون بخدمة المشفى الميداني البدائي المجهّز بصيدليات وأخوات ممرضات.

وكما مع كل الجيوش غير النظاميّة والمجنّدة بشكل عفوي، فقد كانت مشكلته الأكثر خطورة هي الحفاظ على تماسكه، لاسيما بعد إنجاز الهدف الأساسي الكامن في تخليص الفنديين من السلطة الجمهورية. وقد اعترف القادة بأنّ هذا سيكون نصراً قصير الأجل إلّا إذا أمّنوا قاعدتهم بالاستيلاء على المراكز المدنيّة الكبرى، وإسقاط الجمهورية نفسها في نهاية المطاف. ومع أن حملاتهم قد بدأت كعملية تحرير لأرضهم المحلية، لم يكن هناك مجال لتجنب مثل هذا الهدف الاستراتيجي طالما تورطوا في حرب أهلية. وعلاوة على ذلك، كان مرجحاً أنه كلما ابتعدوا عن قاعدتهم أصبحوا أكثر عرضةً لفقدان المزايا الخاصة التي امتلكوها في مقاطعتهم. وفي البداية، عانوا في أواسط نيسان من عقبات خطيرة. لكن استسلام الحامية القسري في «توار Thouars» في مطلع أيار نقل إلى أيديهم كمية هائلة من المؤن والعتاد. وسقطت «فونتيني لو كونت» في نهاية آيار، والأكثر إثارة للعجب «سامور» في التاسع من حزيران. لكن بدلاً من الهجوم أبعد نحو الشرق، ركّز شاريت على حصار مدينة نانت العقيم في الطرف الآخر من اللوار.

وفي أواخر أيار، مع ذلك، ظل وضع المتمردين يبدو مرعباً. فقد هزموا بشكل نهائي جيوش الجمهوريين التي أرسلت ضدهم ووضعوا موضع التنفيذ أسس دولة داخل الدولة. كما لو أنهم كانوا حكاماً يوجهون خطاباً إلى تابعين لقوة أجنبية، نشر المجلس الأعلى «خطاباً إلى الفرنسيين»، كتبه «الأب بيرني». وكان، في الوقت نفسه، بياناً رسمياً ووصفاً للثورة الرائعة سواء في فصاحتها أو في طريقتها المعبّرة التي حوّلت الخطاب الثوري للحرية ضد الجمهورية. لقد نجح أكثر من أية وثيقة أخرى في التعبير عن عمق وبساطة الإدانات التي أثارت العصيان.

لقد أظهرت السماء القضية الأكثر قدسية وعدلاً من كل ما عداها. و[قضيتنا] الرمز المقدّس لصليب يسوع المسيح. نحن ندرك رغبة فرنسا الحقيقيّة، وهي رغبتنا، وبالتحديد استعادة وحفظ ديننا الرسولي والكاثوليكي الروماني إلى الأبد. إنها أن

يكون لدينا ملك يخدم مثل أب في الداخل وحامٍ في الخارج...

أيّها الوطنيّون، يا أعداءنا، تتهموننا بالانقلاب على وطننا بالعصيان لكنكم أنتم، الذين تدمرون كل مبادئ النظام الديني والسياسي، كنتم أول من أعلن أنّ الانتفاضة هي أقدس الواجبات. لقد قدمتم الإلحاد بدل الدين، والفوضى بدل القوانين، والرجال الطغاة مكان الملك الذي كان أبانا. تلوموننا على تعصبنا الديني، أنتم الذين قادت مزاعمكم بالحرية إلى العقوبات الأشد قسوة.

وفي المؤتمر الوطني، وسط السخط والرعب المتزايدين، هزّ «بيرتران بارير» كتفيه باستهجان على سلوك ما وصفه «فندي العصية على الفهم».

III ـ «بضاعة رديئة»

آذار/ مارس ـ حزيران/ يونيو

جلب النصف الثاني من آذار قرع طبول ثابت ينبئ بفاجعة لفرنسا الجمهورية. ففي الأسبوع نفسه، سمع المؤتمر بالهزيمة في «نيرويندن» وإخفاق عسكري آخر بالقرب من «لوفان»، وانسحاب «كوستين» المفاجئ في «رينولان» وانتفاضة فندي. كان التقرير تلو الآخر يصف تفكك جيوش الجمهوريين لدى التماس مع العدو (لاسيما في فندي)؛ وضعف الروح المعنوية وكذلك الإخلال بالقانون لدى المتطوعين: فارين من الخدمة أو هاربين مذعورين والعلم الثلاثي الألوان يُمرَّغ في الوحل. وعندما عاد «دولاكروا» من الخط الأمامي في بلجيكا، جلب معه كآبةً عميقة وداكنة مثل تلك التي شهدتها الأسابيع قبل «فالمي». كان الجنود الفرنسيون قد انسحبوا إلى «فالانسيين»، وحذّر أنّه إذا ما سقطت هذه القلعة فلن يحول شيءٌ بين جيوش التحالف وباريس. وكان ثمة تفسير واحد لهذه المجموعة من الكوارث، بالنسبة لمندوبين كثر، وليس لأولئك الذين ينتمون إلى الجبل فحسب، هو المؤامرة. وقد وجَّه المفوضون في جيش الجنرال مارسي المهزوم في فندي إليه اتهاماً إمّا بـ «العجز الأكثر جبناً» أو ما هو أسوأ «الخيانة الأكثر جبناً». وأوقف ابنه فيرتوي وهو نائبه، وفيرتوي آخر يُفترض أنّه ابنه (لكنه في الحقيقة قريب بعيد) بتهمة الخيانة بالاتصال مع العدو». وأراد بارير الذي رأى العلامات الواضحة على خطة مضادة للثورة، تقديم مارسي لمحكمة عسكرية في لاروشيل. وشدد لانجوني، مثل رابو سان إيتيان أحد الباقين من مجلس الطبقات الذي تحول إلى جمهوري، بأنّه يجب اصطياد الارستقراطيين ورجال الإكليروس الذين يرفضون أداء القسم ويلوثون الوطن دونما رحمة.

اعترف المؤتمر في مواجهة هذه الانتصارات العسكرية الساحقة، مع بعض الاستثناءات، بأن عليه تقوية سلطات الدولة. فدون هرمية حكم تنفيذية فعّالة ومتماسكة ستمزق القوى النابذة فرنسا إلى أجزاء. ولأول مرة منذ بداية الثورة، شرعت الهيئة التشريعية بخلق أدوات قوية لسلطة مركزية مخولة بأن تقوم بعمل الجمهورية دون العودة في كل شيء إلى «السلطة العليا». وفي السادس من آذار أرسلت ثمانية عشر من أعضائها (عُرفوا اعتباراً من نيسان بأنّهم «في مهمة») إلى المقاطعات للتأكد من الإذعان إلى إرادة الدولة المركزية. كانوا في الواقع نسخة ثورية من المفتشين الملكيين القدامى، تجسيداً متنقلاً للسلطة العليا. تعلق الكثير من عملهم بالأمور القضائية والعقابية. وفي الثاني من آذار تمّ تأسيس محكمة ثورية خاصة في باريس لمحاكمة المشتبه بهم المتهمين بنشاطات مضادة للثورة. وفي العشرين من آذار، وبأخذ العصيان في فندي وبريتاني بعين الاعتبار، تبنّى المؤتمر اقتراح كامباسير Cambacérès في إعطاء المحاكم العسكرية السلطان القضائي بشأن أي شخص تمّ استخدامه في وظائف عامة (بما في ذلك النبلاء ورجال الإكليروس) ومن كان مع عقدة شريطة القبعة البيضاء الملكية أو يحرض على العصيان. وفي حال الإدانة كانوا يُعدمون رمياً بالرصاص خلال أربع وعشرين ساعة. وبعد يوم واحد كانت كل كومونة في البلد مزودة بلجان إشراف وشُجع المواطنون جميعاً على اتهام أي شخص يشتبهون بعدم ولائه. وكما هو متوقع، سرعان ما غدا القانون امتيازاً لحالات تافهة من الثأر لا تحصى.

وأخيراً، في 6 نيسان قُرر استبدال لجنة الدفاع الوطني التي أنشئت في كانون الثاني كهيئة قوامها خمسة وعشرين عضواً لتنسيق عمل اللجان المختلفة في المؤتمر. وحلّ مكانها لجنة أكثر صرامة مؤلفة من تسعة أعضاء عُرِفت باسم لجنة السلامة العامة. ومع أنّ هذه الهيئة كانت بالطبع هيئة الإرهاب الرئيسة، لم يكن من أنصار اليعاقبة من اقترحها بل إيسنار، ووافق العديد من الجيرونديين (ولو لم يكن فيرنيو من قارنها على نحو سلبي مع محاكم التفتيش في فينيسيا) على ضروريها. وفي البداية، مع ذلك، اشتبه روبسبيير في أن اللجنة والمحكمة الثورية أداتان بيروقراطيتان في أيدي أحد الأعضاء الجيرونديين ضد الجبل.

قال «دانتون» للمؤتمر مدافعاً عن تأسيس المحكمة الثورية «فلنكن رهيبين لئلا يكون الناس كذلك». ومع ذكرى مذابح أيلول في الأذهان، كانت الحجة قوية. كانت الجمهورية تسعى لإنجاز ما عجزت الأنظمة السابقة عن تحقيقه منذ أن فشل براين في تنفيذ

إصلاحاته: استعادة احتكار الدولة للعنف المُرَخص. ولتحقيق ذلك كان ضرورياً القيام بعدة أشياء. أولها، وكما اعترف دانتون، كان من المهم جداً أن تضع الدولة يدها بالذات على السلطات العقابية بهدف تهدئة التوق الشديد المتعلق برموز المؤامرة. ينبغي على الدولة أنْ تكون مهيأة لاستخدام تلك السلطات، علناً وبشكل حاسم، إذا أرادت أن تتبرأ من جرائم رعاع الشنق وعصابات القتل المُرتجلة .ثانياً، ينبغي إنهاء النزعة الانشقاقية التي جعلت الحكومة مراراً عرضةً للتطويق من جماعة ساخطة تحتكم إلى الشوارع والأقسام. ولدى عودته من الجبهة في آذار، كان دانتون جريئاً كفاية ليس للدفاع عن دوموري من العدد المتزايد لأولئك الذين يحطّون من قدره فحسب، وإنّما أيضاً مناشدة المؤتمر أن يتجنب حرباً داخلية بين الجيرونديين والجبليين التي ستؤدي بالتأكيد إلى فقدانه سلطته بالذات.

كانت إعادة توجيه هذه الطاقات الثورية أكثر إلحاحاً لأن الجمهورية، إضافةً إلى الإخفاقات العسكرية، واجهت في أواخر شتاء وأوائل ربيع عام 1793 تهديداً مُقلقاً آخر في شكل أزمة اقتصادية ومالية حادة. لم يكن الطقس ما جلب الأزمة هذه المرة بل كانت الجمهورية في مواجهة مع حقيقة مشوَّشة. كانت الجمهورية قد بدأت بأزمة عجز مالي، لكن النظام الجديد لم يكن أقرب إلى حل مشاكله مما كان عليه النظام القديم؛ وربما، إذا كان ثمة شيء، فقد كانت متخلفة عن النظام السابق كثيراً بسبب إغراء المسكّنات التي لجأت إليها. وبدأ بيع ممتلكات الكنيسة يغدو خاضعاً لقانون تناقُص الغلّة، وإلى حدٍّ كبير منذ إصدار العملة الورقية الذي قامت به ربما أصبح الآن لعنة بقدر ما هو نعمة. كانت أزمة 1793 الحقيقية ظاهرة سيُبتدَع لها مصطلح وصفي في ما بعد: التضخم. لقد أدى استبدال الضرائب المباشرة القديمة للدولة الملكية بضريبة واحدة على الملكية، الضريبة العقارية، إلى خسارة فادحة في خزينة الدولة. وبالإضافة إلى ذلك، كانت الحكومات الثورية المتتالية قد رفضت هذا النوع من الملاحقة المكّرسة للدخل التي جعلت سمعة لجنة تحصيل الضريبة غير المباشرة مشينة جداً. ولا يبدو أنّ «المساهمات الوطنية» كانت قادرة على تحسين العجز والمستحقات التي كان يُبلّغ عنها بشكل متواصل في المبالغ العامة المستلمة.

لذلك كانت الطريقة الوحيدة الممكنة لتمويل الحرب زيادة درامية في إصدار الأوراق النقدية. وبما أنّ المقاولين العسكريين وبعض الأفواج العسكرية لن تقبل الدفع إلا بالعملة المعدنية، أصبح استنزاف المال الاحتياطي الصلب حاداً، مما زاد في معدل

إصدار الأوراق النقدية لتغطية النقص. وهذا بدوره كان له تأثير معاكس خطير على الاقتصاد الوطني. ولأنّ القيمة الرمزية للأوراق النقدية هبطت، فقد كره مزودو البضائع والخدمات (مثل المزارعين) أن يتنازلوا عن ممتلكاتهم مقابل أموال منخفضة القيمة. وقد زاد هذا التزويد المحدود في رفع أسعار البضائع. ففي أوائل 1793 بيعت ألواح الصابون التي كانت تباع باثني عشر سو عام 1790 ما بين ثلاثة وعشرين وثمانية وعشرين سو. وعلى نحوٍ ليس مفاجئاً، استقبل المؤتمر وفداً من النساء الغاضبات اللواتي يغسلن الملابس (جمهور انتخابي قوي في باريس) في 23 شباط يطالبن بتثبيت الأسعار بشكل رسمي. وكانت المأكولات والشموع والحطب مشاغل هامة أيضاً. فالسكر غير المكرر الذي كان الرطل منه يباع بإثني عشر سو عام 1790 أصبح يُباع الآن بثلاثة أضعاف هذا السعر؛ وارتفع سعر القهوة من حوالي ثلاثين سو إلى أربعين. وفي 25 شباط، قامت حشود غاضبة من الناس بعملية غزو هائلة لبقّاليات باريس ودكاكين الشماعين. كانت البداية في بعض الأقسام الأكثر فقراً مثل غرافيلي ولومبار، لكن سرعان ما انتشرت إلى كل أجزاء العاصمة تقريباً. ووفقاً للممارسات التقليدية لهذه الضرائب الشعبية، لم تعمل الحشود على نهب المتاجر لكنها فرضت ما اعتبرته أسعاراً عادلة لبائعي المفرق: عادة نحو أربعين بالمائة من قيمة السوق الرائجة. ولكن بما أنّه كان عليهم دفع أسعار متضخمة لبائعي الجملة والشاحنين، فقد واجه أصحاب الدكاكين الخسارة وذلك حسبما ذكروه في تقاريرهم على نحو بليغ إلى المؤتمر.

شجبت جميع الأحزاب في المؤتمر أعمال الشغب المتعلقة بالمتاجر بصراحة. وظن مارا بأن تركيزهم على ما وصفه بـ «بضاعتي الرفاهية» ـ القهوة والسكر ـ كان دليلاً على خطة ارستقراطية. وقد وبخّ روبسبيير المشاغبين بقسوة لأنهم حطّوا من قدر القيمة القدسية للانتفاضة عبر توجيهها إلى «البضاعة الرديئة». ولكن حتى عندما أدرك بعض أعضاء المؤتمر مثل سان جوست الأسباب التضخميّة للاضطرابات، بدا عاجزاً عن تصحيحها. لم تغيّر الثورة في فرنسا كثيراً كما نفترض غالباً، وإحدى المسائل التي لم تفعل فيها خيراً من الملكية هي الطريقة التي سيطرت فيها المقتضيات قصيرة الأجل على العقلانية المالية طويلة الأمد. لقد دفعت أزمة مورد الرزق الحكومة لتقديم كل أنواع المساعدات، ابتداءً بسعر الخبز في باريس (بكلفة نصف مليون فرنك يومياً في آوائل 1793) وانتهاءً بمخططات الإعانة الشعبية الموروثة من معسكر الاتحاديين عام 1792. ولتغطية هذه التكاليف، «أقرض» مصرف إيسكونت بشكل زائف الحكومة أموالاً كانت في الحقيقة حصيلة إصدارات إضافية من العملة الورقية، وبالتالي ساهم في هذه المشكلة.

وقد فاقم انهيار مسعى الحرب المفاجئ جميع هذه المشكلات كثيراً. ففي احتلال بلجيكا والراينلاند، اضطرت الحكومة الثورية أخيراً أنْ تتعثر في الطريق إلى دعم السياسة العسكرية: الاغتصاب. لم يكن ذلك ثورياً وتعارض بطريقة أو أخرى مع كل الوعود بوفرة الحرية والسعادة التي سيجلبها الشعب المُسلح للأمم المُستعبَدة. ومن ناحية أخرى، كان هناك جدال، لماذا لا يدفع المُحرَّرون مقابل تحريرهم وقد حصلوا عليه بدم الفرنسيين وأسلحتهم؟ حينئذٍ فُرضت «التعويضات» على جميع الأراضي التي فُتِحت كثمن للتحرير، بعد أن توافق عليها الحكومات الثورية التي نُصِّبت بعد الاحتلال. وبحلول عام 1793 بدا هذا التوسع ذاتي التمويل - الذي أصبح قاعدة طوال عشرين عاماً تلت - يقدّم طريقة خارجة عن القيود الدائمة للسياسة الخارجية الفرنسية. وفي الواقع كانت الإمكانية السعيدة في حلب الاقتصاد الهولندي الفائق السمنة المعروف على نطاق واسع هو الذي جعل حملة دوموري إلى الشمال الهولندي تبدو فكرة صائبة. وفي الحقيقة وضع روبسبير - الذي كان يشتبه بأمر هذه المغامرة - سعراً للثورة الهولندية الوشيكة برقم صاف يبلغ مائة مليون ليرة.

ارتدّت جميع هذه التوقعات المفرحة بطريقة كارثية عندما ذهب التوسع في الجبهة باتجاه عكسي. فبدلاً من تكديس الممتلكات، أصبحت الجمهورية فجأة، وضمن حدود تخومها بالذات، بوضع عسكري طارئ لا يمكن تمويله إلا من خلال الموارد الوطنية. وكان الجواب العاجل، بالطبع، المزيد من الإصدارات الهائلة للأوراق المالية. وسُمحَ بطباعة ثمانمائة مليون من الأوراق النقدية إضافة إلى الأربعمائة مليون التي طُبعت قبل ذلك، في تشرين الأول. ووصل سقف التداول إلى حوالي ثلاثة آلاف ومائة مليون. وبالطبع كان هذا نذيراً بتعجيل انخفاض القيمة الشرائية ولذلك فقدت هذه الأوراق النقدية المتداولة آنذاك وبالتزامن مع أعمال شغب شباط 50 بالمائة من قيمتها الاسمية. وغدا المموّنون أكثر ممانعة للتنازل عن بضائعهم وأصبح دوران التضخم عرضة لخطر الخروج عن السيطرة.

مثّل هذا الاحتمال مخاطر جلية على استقرار الجمهورية الجديدة. وكان يوجد في الأساس اضطراب خطير في الريف لدى الفقراء الساخطين الذين لم يكونوا بين المستفيدين من التشريع الثوري. أوقفت مراكب وعربات الحبوب في بوس وبورغندي. ورأى المستهلكون في المدن ارتفاعات حادة في أسعار المواد الغذائية الأساسية. وفي مواجهة هذا التهديد بالاضطراب بمقياس غير معروف منذ عام 1789، كان المؤتمر قد ناقش في نهاية عام 1792 إمكانية العودة إلى السياسات الملكية في التنظيم الاقتصادي

قصير الأمد. وجادل البعض بأنّه ربما ينبغي تعديل مبدأ التجارة الداخلية الحرة في الحبوب لضمان إمداد موثوق بأسعار لا تثير الاضطرابات. لكن وزير الداخلية رولان وقف بشدة ضد أي تدخل في السوق مهما كان الثمن. وبدلاً من ذلك أراد استخدام قوة القمع لدى الحكومة ضد أي شخص يتجرأ على إثارة الاضطراب أو السيطرة على الأسواق بواسطة العنف. لم يسانده في ذلك سلسلة متوالية من الخطباء الجيرونديين فحسب بل سان جوست أيضاً، الذي ألقى في 29 تشرين الثاني خطاباً عن التداخل المميز في العلاقة بين التمويل بالنقود وارتفاع الاسعار. وشدد على أن «التجارة الحرة» هي «أم الوفرة»، ولكنه حذّر أيضاً من أنّه كما أنجب البؤس الثورة فإنه قادر على تدميرها أيضاً.

كان سان جوست وروبسبيير على وفاق تام بشأن هذه المسألة، غير أنهما اختلفا على نحوٍ يثير الدهشة على ما يجب القيام به حيال هذه الأزمة. فقد كان الشاب السياسي (الذي أظهر كلامه عن الاقتصاد فهماً لتقنياته أكثر إثارة للإعجاب مما قاله معلمه يوماً) مهتماً بالدرجة الأولى بتقييد التمويل. فيما كان روسبيير أكثر اهتماماً في التزام الجمهورية بشكل من المساواة الاجتماعية التي ستكون المعادل الاقتصادي لحكم الفضيلة الذي تمنى أن يقدمه في السياسة. وفي 2 كانون الأول وضع مخططاً لمبدأ «حق العيش» الذي سرعان ما أخذ شكل مبدأ في خطابة اليعاقبة. لم تكن حقوق الملكية غير محدودة في هذه الرؤية. ففي الواقع، لم يكن مشروعاً إلا الفائض عن مورد الرزق الإجمالي المطلوب للمجتمع بكامله والمخصص للتجارة بشكل شرعي. وأولئك الذين أساؤوا استخدام هذه البديهة خارج الاستثمار المباشر لمورد الرزق يرتكبون في الحقيقة جريمة. وتساءل روبسبيير بلاغياً: «لماذا لا تعتقل القوانين القاتل المحتكر بقدر ما تفعل ذلك للقاتل العادي؟».

غير أنّ اليعاقبة لم يكونوا مستعدين بعد ليجعلوا هذه المساواة القصاصية مبدأ رسمياً. ففي هذا زاودت عليهم مجموعة من الخطباء والسياسيين ذات ارتباط فضفاض تستهدف التأييد الشعبي عُرفوا بالساخطين enragés، وهو مصطلح يشير ضمناً إلى الحماسة الثورية ببساطة. وقد تمتع اثنان من المجموعة بأهمية خاصة هما: جاك رو Jacques Roux وجان فارليه Jean Varlet. كان رو قس أبرشية سان نيكولا دي شان، واحدة من أكثر الأبرشيات فقراً في باريس، وكانت مزدحمة بالنزل والشقق السكنية والعليّات حيث، حاول في شتاء 1793، حمالو السوق الفقراء، وناقلو الماء وعمال البناء العاطلين عن العمل البقاء على قيد الحياة في جوع شديد. وفي أيار 1792 نشر رو موعظة بعنوان «وسائل إنقاذ فرنسا والحرية»، التي امتزجت فيها جرعة قوية من المساواة الاجتماعية

والهجمات على الأغنياء الأنانيين مع مطالب عنيفة بمعاقبة الخونة. وربما أنّ حماسته في القضية الثانية هي التي قادته، بوصفه ممثل الكومونة في أيام لويس السادس عشر، إلى الفعل غير المسيحي في حرمان الملك المخلوع من طبيب أسنان لمعالجة وجع أسنانه ورفض نقل وصيته إلى العائلة.

لقد نقل رو رسالة هي السذاجة بذاتها، وقد كان موضع شبهة حتى بين الشخصيات الأكثر حماساً في الكومونة أمثال شوميت وايبرت، أنه متشدّق إكليركي. فقد استثمر المستغلون الثورة لغاياتهم الأنانية إلى درجة أنّ الناس صاروا مرة ثانية جياعاً كما كانت حالهم في النظام القديم. وقد آن الآوان لإعلان الحرب على هؤلاء الخونة الاقتصاديين. ينبغي الحكم بالموت على المحتكرين وخازني المؤن والمضاربين، وإذا رفضت الحكومة إقرار تلك العقوبات، عندئذٍ ينبغي على الناس أنفسهم شنّ جولة جديدة من المذابح ضد «مصاصي الدماء». وينبغي على الجانب الإيجابي في الحكومة أن يفي بالتزامه في تقديم العمل والإعاشة بأسعار يستطيع الناس دفعها، كون ذلك جزءاً من نشاطاتها الروتينية.

ونقل الرسالة نفسها بوضوح جان فارلي، الذي لا يمل المؤرخون من الإشارة إلى أنّ هذا الرجل الذي عينّ نفسه صديقاً للفقراء كان شاباً ميسوراً يعيش في الغالب على دخل موروث. لكن قلّما كان المنشأ الاجتماعي يحدد الراديكالية السياسية. فلم تكن غالبية المناضلين في أقسام باريس عام 1793 عمالاً مهنيين أبداً بل حرفيين و، إذا ما تسامحنا بتوسيع المصطلح مثقفين أي: محامين، فنانين، رسامين، كتّاب مسرحيين، ممثلين، صحفيين. لكن حقيقة أنّهم أنفسهم لم يكونوا محتاجين لم ينفِ (مع أنّ هذا ليس مضموناً بالطبع) صدق قناعتهم الراسخة. وكان ذلك مغيظاً لـ فارلي خاصة. فما أراده، في الأساس، الدم والخبز، والدم يُفترَض أن يضمن الخبز، تماماً كما كانَ يُظَن عام 1789 أنّ الحرية ستحسن فرص عدم الجوع.

وإذ شجبه اليعاقبة، الذين نفروا منه، والمؤتمر بوصفه منتديات لدعواته من أجل العصيان ضد الأغنياء، جلب فارلي منبراً متنقلاً إلى تيرّاس دي فويّان على بعد مرمى حجر ليس إلا من المؤتمر. وفي حين ارتفعت الأسعار في الدكاكين، زاد عدد جمهوره من الحضور، وحيث أنّه متخصص في التناقضات المثيرة للاستياء بين «الأنانيين الأغنياء» الذين سمحت لهم أرباحهم من المضاربة بالانغماس في ملذات الحياة، ولابس البنطلون القصير الطيب الذي يعيش بعرق جبينه. اتخذ لابس البنطلون القصير في الانجيل الاجتماعي لـ جاك رو تقريباً قداسة رسولية تحالف فيها التواضع والشفقة مع الحيوية

الشعبية والثبات. وبينما كان الرأسمالي والتاجر الغني بالتعريف على عتبة الخيانة دوماً إنْ لم يكن مذنباً بها، كان الصانع الماهر المتواضع صورة مثالية للوطنيّة الغَيْريّة. في واحدة على الأقل من الصور المطبوعة المجهولة الرسام التي تقدّس لابس البنطلون القصير (رسمة موجودة بالفعل على التقاليد الأيقونية لـ «سان جيروم») يتقاسم العامل وجبته الرخيصة مع حيواناته المنزلية بينما رمحه مهيأ للمعركة خلفه على الحائط. ومجّدت رسوم أخرى إخلاصه لعائلته وهي تظهر أهل الدار في انسجام على الطاولة أو يقرأون معاً موضوعاً عن التثقيف السياسي الذي يفضله روسّو.

وغالباً ما أسرع المؤرخون إلى شطب الساخطين باعتبارهم متشدقين لم تتخذ أفكارهم أهمية إلا عندما تبناها اليعاقبة صيف عام 1793. وعلى الرغم من صعوبة وصف رو وفارلي وبقية الساخطين أنّهم مفكرون سياسيون في العمق، وأقل كثيراً من أنّهم رجال تكتيك ثوريون ناجحون، فقد جارت أهواؤهم الأسباب الكثيرة التي اعتنق الناس العاديون الثورة من أجلها في الدرجة الأولى. لقد أرادوا أبوة أكثر مما أرادوا ليبيرالية اقتصادية؛ وتنظيم أسعار بدلاً من سوق حرة، وفوق هذا كله أرادوا عقوبة علنية للمستغلين. وفي 11 شباط طلب وفد من الجمعيات الشعبية حكماً بست سنوات بالقيود الحديدية للجريمة الأولى لأي شخص يحاول بيع كيس وزنه 240 رطلاً من القمح بأكثر من خمسة وعشرين فرنكاً وعقوبة الموت في حال ارتكاب الجريمة نفسها مرة ثانية. وقد اجتذب هذا النوع من العقاب الوحشي للاستغلال لابسو البناطيل القصيرة كثيراً.

ولم يكونوا أيضاً مستعدين للتوقف عند الاتهامات المعمّمة. بل العكس، لقد ساندوا في نوادي ومجالس الأقسام حركة لتجريم الجيرونديين باعتبارهم مسؤولين بالذات عن المفاسد التي تعاني منها الجمهورية. فقد كان الجيرونديون وراء المؤامرات التي أدت إلى الهزيمة العسكرية؛ وكانوا أنصار دوموري، الذي كان مشغولاً ببيع الوطن، ورفضوا التفكير بعناد في أية إجراءات للتدخل بالاسعار العالية الذي من شأنه أن يخفف من معاناة الفقراء. وحاولوا حماية الخائن «الملك» لتغطية آثار خططهم العفنة معه قبل 10 آب. لقد أُحبطوا في مناشدتهم الزائفة للناس في تطبيق الأحكام، ولا يزالون يتآمرون لتسليم الجمهورية إلى حلف من الجنرالات الارستقراطيين. وبالتالي فالشرط الأول من أجل توطيد حكم حقيقي للعدالة والفضيلة هو استئصال الجيرونديين من جسم الدولة السياسي. وكان لدى فارلي قائمة رفعها بعض أقسام باريس الأكثر ولعاً بالقتال مثل غرافيلي (في أبرشية رو) وموكونسي، تضم إثنين وعشرين عضواً من المؤتمر الذين يُعتبَر توقيفهم، كما صرّح، مسألة عامة ملحة بشدة.



الصورة 174، لابس البنطلون القصير الطيب

لم يكن الساخطون وحدهم قادرين على أكثر من توجيه اللوم إلى أعدائهم. لكنهم نجحوا بحلول آذار 1793 في التأثير على سكان الأقسام الأكثر حماسة الذين كانوا يؤسسون بشكل مستقل مركز قوة منافس للكومونة. كانت الثورة قد أظهرت مقدرة يصعب توقيفها على مايبدو في إحداث هذه المراكز البديلة للمنظمة الثورية حالما تندمج السابقة في مؤسسات الحكومة المحلية. لذلك ما إن نُظِّمت الكومونة الثورية ضد السلطات الرسمية في «أوتيل دو فيل» عام 1792، وحلت محلها بالقوة، حتى بدأ قادة الجمعيات الشعبية والأقسام اللقاءات في دار الأسقفية ـ القصر السابق لرئيس أساقفة باريس جانب كاتدرائية نوتر دام. تحولت هذه الجلسات من اجتماعات غير رسمية إلى اتصال منظم للمفوضين من غالبية مناطق باريس الأكثر كفاحاً: كانز فان، بوبينكو، دروا دو لوم. وحيث أن الأزمة الاقتصادية بقيت حادة وكان مسار الحرب سيئاً، كان هناك على الدوام احتمال تجنيد عدد كافٍ من الرجال المسلحين لإعطاء الأوامر للهيئة التشريعية التي لا حول لها ولا قوة.

وفي أية حال، كان ضرورياً في البداية إقناع القوات الصدامية أنها بحاجة إلى نهار آخر، وأنّ المتآمرين يهددون مصالحهم الحيوية. وكان ينبغي أيضاً التغلب على ممانعة مجموعة الجبل في دعم أي تهديد لـ «التمثيل الوطني». لم يكن اعتقاد فارلي واللجنة في دار الأسقف بتحقيق هذين الشرطين بحلول منتصف آذار ناضجاً. لقد حاولوا في التاسع والعاشر القيام بحركة مسلحة أخفقت بعد تدمير مطبعتي جريدتي الجيرونديين الأكثر أهمية: «الوطني الفرنسي» التي يصدرها بريسو و«الحوليات الوطنية» (وهو أمر ينذر بالخطر في حد ذاته). لقد فشلت في هدفين أساسين: أولاً في فرض عملية تطهير المستأنفين الإثنين وعشرين (الذين كانوا قد طلبوا إحالة محاكمة الملك إلى تصويت شعبي) والثاني تحرير السجناء الذين أوقفوا بسبب أعمال الشغب في شباط. غير أنّها نجحت في أمر واحد: استقطاب شديد داخل المؤتمر بين الجيرونديين والجبل حيث لم تلقَ مناشدات دانتون للوحدة في وجه الخطر العام للوطن انتباهاً.

IV ـ ساتورن وأطفاله

في الثالث عشر من آذار، جاء بيير فرنيو إلى المحكمة وألقى خطاباً الذي حتى بمعاييره هو كان هاماً لقوته البلاغية وشجاعته السياسية. فبعد الشجب الروتيني للمكائد الأرستقراطية التي بواسطتها كانت الفوضوية تقوم بعملها في الثورة المضادة رثى واقع أن

ينال هؤلاء الذين أدينوا بالعنف في أعمال شغب شباط العفو. فعندما توضع القوانين جانباً دون خوف من عقاب، يكون «هذا إنجاز عظيم لأعداء الجمهورية أن يقلبوا المنطق ويستسخفوا بكل أسس الأخلاق». ثم يتقدم إلى نبوءة شهيرة ورهيبة. «وهكذا أيها المواطنون، يجب الخوف من أن الثورة التي تلتهم أطفالها، مثل ساتورن، واحداً بعد آخر، لن يولد في النهاية إلا الحكم الاستبدادي مع كل الأهوال التي ترافقه».

وقال، لقد انقسم المؤتمر إلى حزبين برؤى متصارعة لفرنسا. «واعتبر أحد الحزبين أن الثورة قد أنهت مهمتها العاجلة بتأسيس فرنسا جمهورية. ومن هنا ظُنَّ أن الحركة الثورية يجب أن تتوقف لتعطي الشعب الهدوء وتقدم القوانين التي تجعل الثورة قادرة على البقاء. واعتقد آخرون العكس، محذرين من المخاطر التي يهددنا بها تحالف الطغاة، أنه كان هاماً لقوة دفاعنا أن تستمر بتحمل انفعال الثورة كله».

وتكلم فرنيو لبعض الوقت كما لو أنه يستطيع أن يرى مزايا وجهتي النظر، لكنه كان يبني موضوعياً لشجب عنف أتباع الأقسام بشدة ولا سيما التخريب المتعمد للممتلكات في 10 آذار. وإذ استمر بعرض الموضوع الجيروندي للأخطار التي تتشكل على «التمثيل الوطني»، من خلال خروج حشود باريس غير المقيد على القانون. وقد وصف أتباع الأقسام أنهم متبطلون، دون عمل، مجهولون، وغالباً في الواقع غرباء عن الأقسام أو حتى على المدينة نفسها... جهلة، يقحمون كثيراً من الحركة» في حب لصوتهم الخاص، رجال يمكن إفسادهم بسهولة لقضايا شريرة. وفي ما يخص اللجنة الثورية المركزية التي نظموها، «هل تريد الثورة أن تتأكد من عدم عودة الحكم الاستبدادي؟» وذهب فرنيو بعيداً ليسمي بعض الأفراد بشكل محدد «بول لازوسكي، الذي حرَّف اسمه ليبدو أكثر غربة، وأتباع دفيو، الذي اتهمه بأنه معروف جيداً في مدينته بوردو بكل أشكال عدم الاستقامة والإفلاس».

وفي سياق خطابه، قوطع مرات كثيرة بصيحات غاضبة تتهمه «بالافتراء» من أتباع الجبل Mountain، وغدا واضحاً أن ما أثار غضب فرنيو حقاً هو تحطيم صحف أخبار الجيرونديين والمحاولة المستمرة لإسكات الرأي الذي انشق عن اليعاقبة أو الجمعيات الشعبية. وقد قارن الرعاع الذي يحطمون الصحافة المطبوعة بالمتعصبين المسلمين الذي حرقوا مكتبة الفلاسفة في الإسكندرية، الذين برروا عملهم بالتعليق أن كتبهم يجب أن تكون إما القرآن أو حول قضية ما أخرى. وفي المثال الأول كانت زائدة عن الحاجة كثيراً، وفي المثال الثاني كانت خطرة. ونوع الحرية الذي كان يُفرَض على الجمهورية هو

طغيان الحرية التي يساء استخدامها، حرية القوة الوحشية. وفي ما يتعلق بصيحات المساواة، فقد ذكرته، كما قال، بطاغية في الأزمنة القديمة (بروكروستيوس) الذي كان ضحاياه على سريره الحديدي يُبتَرون إذا كانوا أطول من قياساته». والى صيحات الازدراء والاستهجان والصفير، أضاف أن «هذا الطاغية أحب أيضاً المساواة وviola إليكم، تلك هي مساواة الأوغاد سيمزقونك إرباً بغضبهم».

وأنهى خطابه قائلاً: «أيها المواطنون، دعونا نستفيد من دروس التجربة. يمكننا أن نسقط الإمبراطوريات بانتصارات، ولكن لا يمكننا أن نقدم الثورات للشعوب الأخرى بمشهد من سعادتنا الخاصة. وإذا كنا نريد أن نزعج العروش، دعونا نثبت أننا نعرف كيف نكون سعداء بجمهورية».

لقد استشهدتُ بـ فرنيو طويلاً لأن خطابه يمثل محاولة نادرة للعودة عن الشجار ومراقبة المشهد الثوري. كان غرضه، طبعاً، حزبياً. واعياً أنه وأصدقاءه منهكون بهجمات المقاتلين من الدوائر، وكان فرنيو يحاول استعادة المبادرة السجالية. وواقع أنه كان يثبت ألوان الجيرونديين على السارية بتحدٍّ بالغ لا يقلل من قوة ما كان يقال. وبمعزل عن أية اعتبارات أخرى، كان يحاول أن يدافع عن الهيئة التشريعية ضد الهجمات المتكررة على سلامتها وسلطتها وسيادتها.

وكان خطابه أيضاً، وهذا واضح، محاولة لمناشدة الجمهورية من فوق رؤوس الباريسيين. فقد كان فرنيو والجيرونديون يدركون وضع الاضطرابات في مراكز الأقاليم، مثل مرسيليا ومدينته بالذات بوردو، التي كانت تنقل السلطة إلى خصوم اليعاقبة، يلعبون على هذه النزعة الفيدرالية المتبرعمة. وقد أشاروا إلى أن المؤتمر يجب أن يُحمى بحرس مسلح يُجلَب من الأقاليم، وفي أيار سيبعثون الحياة في خطة ميرابو لنقل الجمعية إلى خارج العاصمة إلى كاتدرائية مدينة بورج إذا لم يكن أمنها مضموناً.

وقد بدا هاذ للجبليين مثل إعلان حرب على قاعدة سلطتهم الخاصة تماماً. حيث دُفِع روبسبيير واليعاقبة البارزين أقرب باتجاه التعاون مع الهجوم الجيروندي في البداية، وامتنعوا عن المشاركة لزمن طويل في اللجنة الثورية في دار الأسقفية Evêché. وفي معزل عن أي شيء آخر، كان همهم ألا يدعوا الساخطين والمتحمسين في الكومونة مثل إيبرت وشومت وهنريوت أن يتحكموا ببرنامج وحجم الانتفاضة التي أملَت سياسة أكثر فعالية. ولم يكن مستبعداً عملياً أن يكون قادة اليعاقبة قد صدقوا نظرية المؤامرة التي ربطت الجيرونديين بهزيمة الجيش والمضاربات المالية والتواصل الذي يتسم بالخيانة مع العدو.

لقد كانوا متأكدين بعد نيروندن Neerwinden، من أن فرنسا قد اقتربت كثيراً من انقلاب عسكري يعده دوموري بدعم من الجيرونديين.

وشهد النصف الأول من نيسان عندئذٍ، سلسلة من البيانات، في كل من المؤتمر ومراكز اليعاقبة، التي أيد فيها أنصار الجبل العدالة الاجتماعية باعتبارها هدفاً محدداً للثورة الوطنية. وأعلن دانتون (الذي صُدَّ في عروض خاصة إلى الجيرونديين) موافقته على مبدأ القروض المفروضة على الأغنياء لدعم سعر الخبز. وكانت المواد الأخرى في برنامج الساخطين الذي تلقى الآن الانتباه المفضل هي معدل صرف مفروض قانونياً للعملة الورقية وبرامج الأشغال العامة التي يجب أن تُموَّل من جباية الضرائب المفروضة على الأغنياء أيضاً. وقد أومأ روبسبيير في 10 نيسان خلال حديثه إلى المسألة البديهية لدى الساخطين أن الشعب يملك الحق بممارسة الديمقراطية المباشرة «باسترداد التفويض من الذين فقد الثقة بهم» حيثما تشير **الإرادة العامة** إلى ذلك.

وفي هذا الوقت، كان واضحاً أن تجربة للقوة وشيكة في المؤتمر. فقد قرر الجيرونديون أن يجربوا قوتهم بمهاجمة خصمهم الأكثر تطرفاً وقسوة جان بول مارت، الذي، علاوة على ذلك، نجح لتوه برئاسة اليعاقبة. وقد اغتنم كل الفرص لشتمهم من مقعده العالي حيث يجلس الجبليون، منحدراً إلى تبادل الشتائم واللكمات أحياناً على المنبر. صاح غوديت في إحدى مرات تبادل الاتهامات الشديدة، «ضفدع نقاق»، وردّ عليه مارت بصوت عالٍ، «طائر مثير للاشمئزاز». وطلب مندوب آخر أن يُطَّهر المنبر بعد كل خطاب لصديق الشعب. وردّ مارا التحية بوصف خصومه أنهم «ازنارد الدجال وبوزوت المنافق ولاسورس المسعور وفرنيو المخبر».

وقد استفاد الجيرونديون من غياب المندوبين في مهمة في المقاطعات، وجمعوا أدلة من كتابات مارا ليبينوا أنه انتهك سلامة المؤتمر بالدعوة إلى هجمات عنيفة على أعضائه. ومع أخذ النزعة العامة لصحيفته لم يكن ذلك أمراً يصعب فعله. فأُعِدّ اتهام مكون من 29 صفحة للمحكمة الثورية Revolutiouary Tribunal يقتبس مقاطع من صحيفته جورنال دي لا ريبابليك Journal de la Répubique، تحمَّس فيها للدكتاتورية الثورية وأسف لأنه تمّ الاحتفاظ ببضع مئات من الرؤوس بدلاً من إنقاذ مئات آلاف الأبرياء. وقد شجب على نحو متكرر هؤلاء الذين ارتبطوا بـ رولاند ـ الذي سيضم كلافيير Clavière وبريسو Brissot القائدان الجيروندیان الأكثر أهمية ـ بوصفهما «رجال دولة» (مصطلح شديد الإهانة في مفردات مارا)، شركاء في جناية الولاء»، «أعداء كل أشكال الحرية



الصورة 175، الصورة للرسام بوالي *Boilly* انتصار مارات

والمساواة»، «دجالون»، «الرجال السفاحون الذين يسعون إلى دفننا كل يوم أكثر في الفوضوية والذين يحاولون أن يشعلوا لهيب الحرب الأهلية». وباستخدام الدعوى الفردية الاسمية، التي أصر عليها مارت بالذات في محاكمة الملك، صوت المؤتمر على الاتهام بـ 221 ضد 93، ولكن مع 128 في مهمة و238 غائباً.

وما تبع ذلك انقلب إلى فضيحة خطيرة ضد الجيرونديين. فبعد مراوغة الشرطة لثلاثة أيام، سلّم مارا نفسه في النهاية، وأعطي غرفة واسعة في الكونسيرجيري Conciergerie، حيث استقبل وفوداً من مسؤولي الكومونة ومواطنين آخرين متحمسين جميعاً لتقديم عهد الولاء لصديق الشعب المضطهد. وعند دخول قاعة المحكمة في الرابع والعشرين تمت تحيته بعاصفة من الهتاف من النظارة المجتمعين، التي انفجرت على نحو متناوب، إلى حد أنه كان على مارا أن يطلب من مؤيديه الهدوء. وقد دافع عن نفسه باهتياج شديد

وإيمان راسخ، زاعماً، ليس على نحو غير مخادع تماماً، أن كثيراً من المقاطع التي تورطه في جريمة بشكل واضح مأخوذة خارج السياق، وأنه لم يدعُ قط إلى «القتل والنهب» لكنه جادل من أجلِ إجراءات قوية لتجنب تلك الآثام بدقة، وأنه لم يدعُ إلى حلِّ المؤتمر بل قال إن الجمعية ستبقى أو تسقط بأفعالها وأقوالها بالذات. والقضاة مع أنهم صُدِّقوا من الجيرونديين في آذار، فقد كانوا متعاطفين مع المتهم بشكل واضح، وكان المدعي العام، وهو قريب لِـ كميل ديمولان، يُدعى فوكييه تنفيل، أقل من متحمس في تحقيقه. وقد اتفقوا بالرأي أيضاً مع حجة مارا أن شجبَه كان مشروعاً ووطنياً وأن تلك القضية عامة في أهدافها.

وعندما صدرت البراءة، تحولت إلى عرض جدير بالإعجاب لنصر شخصي، فوضعت تيجان الغار على رأس مارا، وابتسم «وجهه الأصفر الكبير»، كما وصفه ميشليه، بالفرح فيما حُمِل على الأكتاف إلى المؤتمر. وذَرَعَت الحشود الصاخبة مماشي الجمعية ذهاباً وإياباً تنشد وتغني. وفي السادس والعشرين من نيسان، أقام اليعاقبة احتفالاً خاصاً تكريماً له حيث تجمع حشد كبير ليحتفل ببطله إلى درجة أن أحد صفوف المقاعد انهار تحت ضغط ثقلهم.

أن نقول إن محكمة مارا كانت كارثة جماعية للجيرونديين سيكون أقل من حقيقة الحال، فقد نزعوا بشكل انتقائي الحصانة عن أحد المندوبين في المؤتمر مقتنعين أن ذلك قد يظهر أنه هو نفسه أساء استخدام امتيازه. وفي الحقيقة، كانوا واثقين أن القضية يمكن أن تثبت بسبب المرات الكثيرة التي شجب فيها مارا الخونة الموجودين في «صدر المؤتمر نفسه». لكنها الآن وقد سقطت، سينقلب سحب الحصانة ضدهم. فأخذت العرائض والوفود من الأقسام الأكثر تحمساً للقتال، مثل سيتيه Cité ودروا دي لوم Droits de l'Homme «حقوق الإنسان»، حيث كان فارليه رئيساً، وبون كونسيه، اللذان طالبا بإقصاء «اثنين وعشرين» (الرقم الذي غدا عملياً أحد رموز لابس البناطيل القصيرة للعار وسوء السمعة) التي بدأت قبل المحاكمة، تقرع الآن بقوة أشد على باب المؤتمر.

وفي بداية أيار تعاضد الجيرونديون معاً في زاوية من خلال الجدال بحيوية ضد فرض حد أعلى لسعر الحبوب. فقد أصر شارل بابار على أنه سيكون للسقف تأثير يجعل الإمدادات أكثر سوءاً بدلاً من تسهيلها. حيث إذا رُفِع ثمنها كثيراً، لن يبيع أي فلاح محصوله أدنى من السقف المتعاقَد عليه، وإذا وضع سعراً متدنياً، لن يبيع على الإطلاق والمستهلكون في الأرجح سيندفعون ببساطة إلى شراء قدر ما يمكنهم، الأمر الذي سيخلق

نقصاً بالمؤن سريعاً. كيف كان يجب وضع آلية للسعر في المناطق المختلفة؟ حيث إذا كانت متماثلة في كل أرجاء فرنسا لن يكون في مصلحة أي منتج أن يشحن البضاعة على نفقته الخاصة، وإذا كان متغيراً، فسيشجع التهريب إلى درجة ستجعل تجنب ضريبة الملح في الماضي تبدو مثل مسرحية أطفال. وبسبب تلك المسألة، كيف يمكن لنظام كهذا أن يُفرَض دون أن يلجأ إلى التماس العون من أفواج جباة الضريبة غير المباشرة؟ «هل تريدون إنشاء تفتيش منزلي في المدن والأرياف لكشف مخزن حبوب setier كما كان ذات مرة مع التبغ والملح؟ هل تريدون تسليح الفرنسيين كل ضد الآخر وتدعمون هذه الجماعة للظفر بالطعام على تلك المجموعة؟»

كانت اعتراضات بربارو تنبؤاً دقيقاً للمشكلات التي سيواجهها المتطرفون بالضبط. غير أن تقديمها غدا صرخة للحشد بين الجمهوريين الفرنسيين المتطرفين ـ لابس البناطيل القصيرة sans - culottes. وفي 1 أيار وصل وفد إلى المؤتمر من ضاحية سان أنطوان يطالب بفرضها، بالإضافة إلى إنشاء صندوق عاجل لمساعدة الفقراء يُموَّل بضريبة تستولي على نصف المداخيل الأكثر من ألفي ليفر، والتجنيد الإلزامي لأي شخص يعتبر «غنياً» في الجيش. وقد دعم الوفد مطالبه بتهديدات انتفاضة سريعة إذا لم يُوافَق عليها. وفي اليوم التالي تماماً، صوّت المؤتمر في المبدأ على تنظيم تجارة الحبوب وفي اليوم الرابع سنّ مراسيم ذهبت مباشرة إلى أبوية النظام القديم. كان على سلطات المقاطعات أن تضع سقوفاً تستند إلى المعدل الأدنى للأسعار الجارية في الأشهر الأربعة الأولى من السنة في ذلك التاريخ. وبدأت المطابع في الأقاليم مرة أخرى تنتج أشكالها القديمة للمصادرات والتعويضات ورخص السوق والطحن، التي لم ترَ ضوء النهار منذ مطلع ثمانينيات القرن الثامن عشر. كان ذلك مثالاً تقليدياً لتوق الثورة الفرنسية إلى الأمن أكثر من الحرية، وإلى القيم الأبوية أكثر من الفردية.

وفي أواسط أيار، اندلعت المعركة من أجل البقاء بين أنصار الجبل والجيرونديين جديّاً، وعلاوة على ذلك، ما دامت الكوارث في الجبهة استمرت بالتراكم، بدأ كثيرون من المندوبين غير الملتزمين من أنصار السهل Plain بالتحول نحو اليعاقبة، كما فعلوا في مسألة محاكمة الملك والحكم عليه. وقد قاد معظمهم إلى ذلك ضغط مظاهرات المتطرفين الجمهوريين المسلحة وإحساسهم بأن الجيرونديين هم الحزب العدواني في استمرارية العداء. ومع ذلك تأرجح ميزان القوة داخل المؤتمر هذا الاتجاه وذاك حتى أواخر أيار. حيث انتخب ازنارد رئيساً في السادس عشر، وبعد يومين زعم غوديت أن مؤامرة تُدبَّر لحل المؤتمر. فكان يجب دعوة جمعية جديدة للانعقاد في بورج Bourges، وحل الكومونة

وكشف قادة المؤامرة في الأقسام واعتقالهم. ولصرف الأنظار عن هذا النوع من الأعمال العنيفة، شُكِّلت لجنة من اثني عشر عضواً للتحقيق في الخطر على السلطة التشريعية الوطنية الذي تطرحه الجمعيات الشعبية ولجان الأقسام. وانقلب ذلك سريعاً إلى جهاز ادعاء ضد الساخطين البارزين مثل فارليه Varlet وكلود عمانوئيل دوبسن Claude - Donsen Emmanuel. وقد صنع الجيرونديون حلفاء، بدلاً من منافسين، في الكومونة ولجنة دار الأسقفية Eveche بتوسيع أمر اللجنة القضائي ضد جاك رينه هيبرت Jacques René Hébert (الذي جعلت شجوبه للجيرونديين في جريدة بير دوشين père Duchesne جريدة مارت تبدو معتدلة بالمقارنة). ولروع هيبرت أُجبر على مشاركة الزنزانة مع المزعج الخسيس فارليه. وعندما احتجت الكومونة إلى المؤتمر، هدر ازنارد في لهجة جعلته يبدو مثل الدوق برونزويك: «أقول لكم، باسم فرنسا كلها، إنه إذا استمرت هذه الانتفاضات اللامتناهية بإلحاق الأذى بمحكمة الأمة، فستباد باريس وسيبحث الناس على ضفتي السين عن آثار للمدينة».

وتحرير هذه الدفعة الأخير من «الشهداء» أصبحت عندئذٍ صرخة لجمع القوى في الجمعيات العامة في الأقسام. وكما لاحظ ريتشارد كوب Richard Cobb بطريقة جديرة بالذكر، كان المؤرخون قد منحوا الجمهوريين المتطرفين الكثير من خلال وصف قدرتهم على التحرك السريع في جماعات وكتائب ضخمة، تنتشر هنا وهناك مثل دمى العمال المتحركة. وما نعرفه الآن من نشطائهم يشير إلى أن المشاركة كانت متواضعة كثيراً. والاحتمال الأرجح هو أنه لم يحضر أكثر من 10% من السكان البالغين الذكور إلى «الجمعيات العامة» في الأقسام، وبينما قد يكون هناك ما بين مائة ومائتين في لحظات الأزمة، ينخفض العدد إلى 50 أو نحو ذلك حالما تنتهي الأزمة. ولم تتجاوز حركة لابس البناطيل القصيرة كلها، الجمهوريين المتطرفين، في أعلى ذروة وصلته ألفي إلى ثلاثة آلاف متحمس ثوري ملتزم. والشعب نفسه جاء إلى الجمعيات الشعبية ورفع العرائض وظهر بالرماح عند أبواب المؤتمر «يتآخى» كل مع الآخر مستعرضين القوة عندما هُدِّد الأخوة المناضلون في أقسامهم من أغلبية معادية أو«معتدلة». وعلاوة على ذلك، كانوا يهيمنون على الأقسام الثمانية والأربعين كلها داخل باريس ذاتها. وقد أمرت الحركة الشعبية بالدعم المتبادل في عشرين إلى ثلاثين قسماً فحسب في حزام يمتد من بواسنيير poissonnière وضاحية سان دنيس في الشمال ونحو الشرق عبر حي تمبل الأكثر تشدداً وبوبنكورت ومونترويه وكوينز ـ فنت وعبر مركز المدينة إلى أقسام سان مارسل في الجنوب ـ غوبلين وأوبزرفاتوار.

كان قادتها، حتى من خارج حلقة الساخطين المباشرة، نادراً من الحرفيين وأقل منهم كسبة أجور. فـ كلود عمانوئيل دبسن، الذي سيلعب دوراً رئيساً في الانتفاضة ضد الجيرونديين، كان محامياً، والقاضي الأول في إحدى محاكم باريس، وماسوني متحمس Ardent Mason وضابطاً في الحرس الوطني منذ عام 1790. وج.ب. لويز J.B. Loys كان محامياً في مرسيليا وتاجراً والذي شجب أخويه الشقيقين بوصفهما ملكيين وجرح بشرف في الهجوم على قصر التويلريه. وكان اثنان من هؤلاء البارزين بين المكافحين من أصول نبيلة: روسلين Rousselin، الذي، مثل فارليه ذهب إلى مدرسة تاليران القديمة للشبان الأرستقراطيين، كوليج دار كورت Collège d'Harcourt، ولويس هنري «سيبيو» دورور Lois - Henri "Scipio" Duroure، الذي كان وطنياً غير متكيف مع مجتمعه وتحول إلى السياسة الثورية بعد أن تبنى طفلاً لخادمة في أسرة إنكليزية واستمر يعيش بعيدا على دخل سنوي يعادل أكثر من عشرين ألف ليفر.

ومع ذلك، سيكون خطأ، أن نتخيل هؤلاء الرجال مثل متشددين منغمسين باللذات. لقد عاشوا جميعاً في الضواحي التي مثلوها، وغالباً في منازل لا يمكن تمييزها عن منازل الحرفيين. وبالنتيجة، كان كثيرون منهم أقرب كثيراً إلى «الشعب» من روبسبيير، الذي ناجاه بحرية من ردهة الدبلي Duplays. ومع أنهم كانوا أقلية لا شك في ذلك في مؤتمراتهم الثورية التي لا ترحم، فقد كان المناضلون قادرين، أيام الأزمة، على تعبئة الحشود المسلحة بعشرات الألوف. ومع ذلك، يتطلب النجاح في إثارة انتفاضة موافقة، إذا لم يكن مشاركة، شخصيات أرفع مقاماً في التراتبية الثورية. فكانت دعوات من شخصيات بارزة في الكومونة، مثل هيبرت، وخطابات من دانتون أو روبسبيير، ومواد صحفية في جريدة مارا، ضرورية لتعبئة الحشود من خارج النواة الداخلية للمتحمسين.

وما كان مطلوباً أيضاً لإثارة يوم حاسم هو الإحساس بخطر وشيك. وبعد تهديد إزنار بجمع المقاطعات ضد باريس، كان ثمة اجتياح فظ من الجمهوريين المتطرفين (لابس البناطيل القصيرة) للمؤتمر في السابع والعشرين نجح في جعل المندوبين يلغون لجنة التحقيق المكونة من اثني عشر عضواً. وقد أُسقط القرار في اليوم التالي، في كل حال، عندما طلب الجيرونديون بتصويت جديد، زاعمين أن الجمهور اختلط بالأعضاء، وصوتوا بشكل غير قانوني على الإجراءات. ومع ذلك، تأكد تحرير هيبرت وفارليه. والأكثر أهمية من أي شيء آخر هو أن روبسبيير الذي أصر في نهاية آذار على حرمة المؤتمر، بدا الآن أنه أعطى ضوءاً أخضر للانتفاضة. ودعا في مراكز اليعاقبة في السادس

والعشرين «الشعب إلى وضع نفسه في انتفاضة ضد المندوبين الفاسدين وتحدث مرات كثيرة أخرى في ذلك الأسبوع عن الحاجة إلى «انتفاضة أخلاقية».

وما ميَّز الانتفاضة الأخلاقية تحديداً عن أي نوع آخر كان غامضاً مع أن وربسبيير أراد بوضوح أن يتجنب أي نوع من سفك الدماء غير المقيد في الخريف الماضي. وحالما استهلها دبسن وفارليه واللجنة الثورية المركزية في دار الأسقفية استمر الحدث يتحرك بزخمه الخاص. وبتوجيه فرانسوا هنريوت، وهو كاتب سابق في الجمارك كان لتوه قد عُيِّن قائداً للحرس الوطني في مكان سانتاري، الذي كان يخدم عندئذٍ في فندي، في الحرس الجمهوري المسلح الذي يرافق القادة في لجنة دار الأسقفية إلى الكومونة. دخل قاعة المجلس العام قارعو الطبول لتبليغه أن التفويض قد ألغاه «الشعب السيد المستقل». وحالما قبل المجلس العام النقاط الأساسية في البرنامج الثوري ـ الضريبة على الأغنياء، اعتقال الجيرونديين والوزراء السابقين مثل رولاند وكلافيه وليبرم وإنشاء جيش جمهوري لتطبيق القوانين الثورية بما في ذلك الحد الأعلى، على المقاطعات ودفع 40 قرشاً في اليوم للمواطنين العاملين تحت السلاح ـ أعيد إحياء الكومونة.

كانت هذه المطالب عندئذٍ قد وضعت للمؤتمر بتبرير أن اللجنة في إيفتشي قد كشفت مؤامرة ضد الحرية والمساواة التي تتطلب انتفاضة جديدة إذا كان ينبغي إنقاذ الثورة. ومع أن هذا ما كان قد أشار إليه روبسبيير إلى هذا الحد أو ذاك في مراكز اليعاقبة، فإن المؤتمر، ولا سيما مندوبي السهل Plain، لم يكونوا يبالون بأن تُملَى بهذه الطريقة. وقد سلح قادة الجيرونديين، الذين لاحظوا الانفجار والاعتقال، أنفسهم في الساعات الأولى من الحادي والثلاثين عند سماع ناقوس الخطر، لكنهم لم يستطيعوا أن يتقبلوا نصيحة لوفِث بمغادرة باريس ورفع لواء التمرد ضد اليعاقبة في الأقاليم. لكن ليس عدم رغبتهم بأن يكونوا مسؤولين عن اندلاع الحرب الأهلية الشاملة وحسب، بل ربما بسبب تجربة الانتفاضة الفاشلة في 10 آذار الماضي، هو ما جعلهم يعتقدون أن بإمكانهم الاستمرار بالسيطرة على المؤتمر ذاته. وكان هناك، في كل حال، أن اختاروا المواجهة ومهاجمة هنريوت للتخويف وطلب حماية مسلحة للمندوبين. وخلال الاهتياج، مع الجنود الجمهوريين يقفون عند مداخل القاعة ويلوحون بالرماح والبنادق، ويبتهجون أو يقطبون بشكل مشؤوم، غدا فرنيو خاضعاً بشكل غريب. لكنه خلال خطبة روبسبيير الطويلة الشبيهة بخطبة مدعي عام قاطعة في النهاية قائلاً: «استنتج إذن». وردَّ روبسبيير، «سأستنتج، وضدك». وفي نهاية مطالبه، أشار إلى لجنة السلامة العامة.

كان واضحاً أن الأمور لن تستقر هناك. فبعد يومين، يوم الأحد 2 حزيران، عندما احتشد سكان الضواحي والقرى القريبة من الجدار bars d murs في المدينة أحاط حشد كبير بالمؤتمر. تضع معظم التقديرات الأرقام عند ثمانين ألفاً ـ حمل معظمهم نوعاً ما من سلاح. وقد تجمعوا لسماع التقرير حول السلامة العامة وردّ المندوبين، وأوضحوا الأمر أنه ما لم تُلَبَّ مطالبهم فسيكون هناك ثمن باهظ يجب أن يُدفع. ووصل إلى باريس خبر تمرد في ليون ضد بلدية اليعاقبة في 29 أيار الأمر الذي صدّق زعم اللجنة الثورية بأنها تواجه مؤامرة ثورة مضادة.

وكان واضحاً منذ البداية أن المؤتمر ينوي، ولو لم يكن متحمساً تماماً، أن يقوم بمساومة لتجنب إما مذبحة عامة أو التخلي عن كل شكل من أشكال السلطة الفعالة لصالح اللجنة الثورية. وباسم لجنة السلامة العامة، فُوّض دِلاكروا بتشكيل جيش ثوري يدفع للجندي فيه 40 قرشاً في اليوم، ومع ذلك اقترح باريه أن يُعلّق عمل الجيرونديين المذنبين مؤقتاً بدلاً من الاعتقال لأجل محدد فحسب.

كان مرجحاً ألا يرضي ذلك الجمهوريين المتطرفين، الذين أخذوا يزدادون غضباً مع تقدم الإجراءات. وقد استثير المندوبون وتدافعوا بالمناكب، ومُزِّق وشاح بوازي دانغلا Boissy d'Angla الأنيق من رقبته ورافق غريغوار أربعة حراس مسلحين عندما شق طريقة إلى الحمام. وعندما أُعطيَ هنريوت، قائد الحرس خارج القاعة، رسالة من الرئيس، هيرولت دي سيشل، ردّ لينهي التخويف، «بلّغ رئيسك اللعين أنه وجمعيته يمكنهم أن يذهبوا ويعبثوا، وإذا لم يُسلّم الاثنان والعشرون في غضون ساعة فسوف ننسفهم جميعاً». وقد نُقِل المدفع في حينه باتجاه أبواب المبنى ليشير إلى أنه لم يكن يمزح.

وقد اقترح باريه والجميع في أشد الحاجة إلى طريقة ما لتأكيد سلطتهم، أو على الأقل تعطي أثراً ولو كان ضئيلاً من الإرادة السياسية الحرة، أن يغادر المندوبون كهيئة قاعة النقاش ويخرجوا للحديث مع الرجال المسلحين، ظنّاً منه أن ذلك سيلطف الاستقطاب الخطير بين الجنود والسياسيين. وقد سار عندئذٍ مائة أو نحو ذلك خلف هيرولت دي سيشل مثل تلاميذ مدرسة قلقين. وإذ ساروا إلى بقعة مشمسة وجدوا هنريوت على حصانه يقف أمام صف بعد آخر من الحرس ذوي الشوارب الذين يثيرون الهلع وقد اتخذوا موقفاً عدوانياً واضحاً يظهرون الغضب ويلوحون بأسلحتهم. وقد طلب هيرولت من هنريوت أن يحترم التعهد بتحرير مدخل ومخارج المبنى. وردّ القائد بطمأنة هيرولت أن الرئيس نفسه مُصدّق أنه وطني وطلب منه وعداً «برأسك» أن الاثنين وعشرين وغداً

سيُسَلّمون في غضون 24 ساعة. لم يكن ذلك تعهداً (لا سيما مع الثمن المرفق) الذي كان هيرولت مُعَدّاً لإعطائه، وهكذا أُعِدّ المدفع ووجِّه مباشرة إلى الغرفة. وسار الرتل الطويل من المندوبين المثيرين للشفقة تحت أنظار الجنود حول محيط درب الحديقة خارج القاعة يبحثون عن طريق ما إلى الخارج، ولكن عند كل بوابة كان المخرج مغلقاً بمزيد من رجال الحرس. وفي النهاية عادوا إلى الداخل ليجدوا أن المزيد من مندوبي الأقسام يجلسون على المقاعد مع مندوبي الجبل.

دنت لحظة حاسمة. خيم صمت كئيب من الشعور بالذنب والخوف والإرباك على المؤتمر، خرقه جورج كوتون Georges Couthon الأعرج، وتحدث من كرسي ذات عجلات، اقترح أنه، بعد التحاور مع الحراس، ما دام المندوبون عرفوا أنهم «أحرار» الآن وأن كل ما أراده الشعب الطيب هو إزالة فاعلي الشر، يمكنهم بالتأكيد إقامة الدعوى على المتهمين. ثم قرأ وثيقة الاتهام ضد كلافييه وليبرن، بالإضافة إلى تسعة وعشرين مندوباً، عشرة منهم احتلوا مقاعد في لجنة الاثني عشر. وعندما انتهى التصويت، نهض فرنيو في تحدٍّ ساخر واقترح على المؤتمر كأس دم ليطفئ عطشه.

وقد حدث كل ذلك بينما كان هيرولت دي سيشل لا يزال في كرسي الرئيس. وهذا مقياس كم ذهبت الثورة بعيداً لتتذكر أنه كان رئيس محكمة باريس الشاب نفسه، الذي احتفيَ به بوصفه مثالاً للفصاحة القانونية. ومثل صديقه المتوفى ليبليتير، غدا يعقوبياً قادراً على توجيه الشجب العام لضغينة طبقته الأرستقراطية ذاتها متى احتاج إلى ذلك. لم يكن شيء من هذا ينطوي على سوء نية. فثمة كل الأدلة على أن هيرولت قد نجح في استبدال إحساسه الأرستقراطي في مكان النخبة بإحساس المواطن المدافع عن الشعب. ولكن ما تخلى عنه في 2 حزيران عام 1793، كان البقية الأخيرة من مظهرٍ أن الثورة موجودة على أساس قانوني أو في الحقيقة على التمثيل ـ الذي أكَّد عام 1789 أن فرنسا يجب أن تقوم عليه أو تنهار.

والحكم في ذلك اليوم ربما غشاه ضباب المشاعر الحزبية التي قسمت المؤرخين في السنوات المائة للثورة مثل الجيرونديين واليعاقبة. فقد صودر الجيرونديون واليعاقبة حتى على نحو غير تاريخي ليقفوا كرمزين جماعيين لاهتمامات القرن التاسع عشر والقرن العشرين: أحراراً أو ديمقراطيين اجتماعيين. فقد رأى المؤرخون الرومانسيون مثل لامارتن الجيرونديين بوصفهم أسلافه السياسيين، وقد أشعل شموع نثره على محرقة استئصالهم السياسية الجنائزية. ووجد المؤرخون الماركسيون من الجيل الأخير أن ذلك الميل العاطفي نموذجي لتهافت البورجوازية المثيرة للغثيان والنزعة الوطنية المتقلبة. والرواية

الأحدث، والأكثر جودة، للانتفاضة تحاكي حتى محاكاة ألبرت سوبول الماركسي للشجب الروبسبييري، التي تقول إن الجيرونديين يستحقون الإبادة لأسباب كثيرة هي أنهم «شجبوا الملك لكنهم ارتدوا قبل إدانته، وسعوا إلى دعم الشعب ضد الملكية، غير أنهم رفضوا أن يحكموا معه».

ليس على المرء أن يشترك في «الأسطورة الليبرالية الجديدة للجيرونديين» ليدرك هذا التمايل المروع على القوانين ونواميس الأخلاق. فتفضيل الجمهورية لا يستتبع بحد ذاته بالضرورة الحماس لإعدام الملك، ولذلك، لم تكن الإدانة هي النقطة موضوع الجدل. ومع ذلك تم فعل القليل لخلق تمثيل وطني جديد يتطلب من مندوبيها قبول ما يدعوه موريس سلافِن Morris Slavin بتعبير لطيف، «ديمقراطية تشاركية» حيثما شاءت أن تختار ممارسة حقوقها في شكل استعمال المدافع الثقيلة. وحتى وربسبيير، الذي كان بلا شك فرحاً بنتائج الانتفاضة، في إزالة أعدائه وفي تجنب المذبحة والشواش السياسي، كان معادياً لعدم الاستقرار الدائم للحكومة الذي ينتج من ممارسة الشعب لحقوقه حسب مبادئ روسو أن تستعيد تفويضها كلما اختارت الأقسام ذلك.

وقيل غالباً أيضاً تلك كانت المضائق الخطيرة التي وجدت فرنسا نفسها فيها أن نوعاً ما من تطهير كان ضرورياً إذا كان للثورة أن تستمر. وما كان للجمهورية أن تنجو من النكسات والهزائم على أرض المعركة مع النزاع الذي لا ينتهي في المؤتمر. كانت تلك، في الحقيقة، وجهة نظر دانتون طوال الوقت، ومع ذلك فقد أعلن أنه «أهين» بالعنف الذي تعرضت له الجمعية في 2 حزيران لكن أي نوع من الثورة كانت تلك التي استحقت الحفظ؟ الثورة التي انبطح فيها القانون نفسه أمام الشكل الأكثر فظاظة للتنمّر، الثورة التي يمكن أن يُذَلّ فيها ممثلو الأمة المنتخبون من الأقلية المسلحة لقسم من الناس في باريس؟

ومهما يكن، ثمة حقيقة كالحة لهذا الحدث البائس من التهديد والاستسلام. فالثورة الفرنسية، من عام 1788 فصاعداً، غدت ممكنة بقوة السلاح، بالعنف وأعمال الشغب. وفي كل مرحلة من تقدمها سعى هؤلاء الذين استفادوا من قوتها إلى نزع سلاح هؤلاء الذين جلبوهم إلى السلطة. وفي كل مرحلة متعاقبة غدوا، بدورهم، سجناء أكثر منهم مستفيدين. وسيستمر هذا طالما سُمِح للشعب في باريس أن يسعى إلى ملاذه المشوش بالسلاح. وربما ليس كثيراً أن نقول إنه من2 حزيران فصاعداً، كان اليعاقبة يخططون لإنهاء هذه الحالة الخطيرة. فلن يترددوا، بخلاف كل سابقيهم، بالعودة إلى حالة العنف الثوري الذي تحرر عام 1789. وسيُقطع رأس الديمقراطية الثورية باسم الحكومة الثورية.

CHAPTER 16

Sources and Bibliography

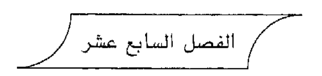
For Talleyrand in London, see Orieux, Talleyrand (192 - 209); Fanny Barney's encounter with Mme de Staël and the "Juniperians" is in Joyce Hemlow (ed.), The Journals and Letters of Fanny Burney (vol. 3, Oxford 1972). For the climate of British politics in late 1792 and early 1793, see Albert Goodwin, The Friends of Liberty: The English Democratic Movement in the Age of the French Revolution (London 1979, especially chapter 7). The background and buildup to the war with England, Spain and the Netherlands are discussed in T.C.W. Blanning, Origins. For Kersaint's speech, see Moniteur (January 3, 1793). See also J. Holland Rose, William Pitt and the Great War (London 1911). Documents on the Scheldt and the defense ofthe Netherlands are given in H. T. Colenbrander, Gedenkstukken der Algemeene Geschiedenis van Nederland van 1789 tot 1840 (Gravenhage 1905, vol. 1, 285 for Grenville to Auckland and 291 for Talleyrand to Grenville). See also Schama, Patriots and Liberators (153 - 63), on the Dumouriez campaign. The full text of Dumouriez's letter to the Convention appears in the Paris newspaper Le Batave for March 25, 1793.

There is an enormous literature on both the origins and the course of the Vendée rebellion. Yet another masterpiece of late nineteenth - century archival editing and research by the apparently inexhaustible C. - L. Chassin, La Préparation de la Guerre tie Vendée 1789 - 1793 (3 vols,, Paris 1892), is the place to begin to understand fully the collision between republicanism and the Church in this region. Bethuis' account of his childhood experience of the Machecoul massacre is from Chassin (voL 3, 337ff.). The Laparra harangue at Fontenay is in ibid. (220), as are the Biret reports (213 - 78). Chassin's other great documentary compilation on this subject is La Vendée Patriote 1793 - 18oo (4 vols., Paris 1893 - 95). Though Charles Tilly's The Vendée (Cambridge, Mass., 1964) - as French historians are quick to point out - treats not the whole of the Vendée militaire but just the region divided by the Layon, it is still of great importance and value in describing the social geography of allegiance. The other major work, in something of the same style but with extraordinary descriptive richness, is Paul Bois, Les Paysans de L'Ouest (Paris 1960) Two recent works, however, have transformed the historiography, albeit in very different styles. Jean - Clément Martin, La Vendée et la France (Paris 1987), mostly based on printed sources from Chassin, is a model of empathy and historical sensitivity. Its endeavor to try to see both sides of the conflict makes its terrible conclusions all the more chilling and should put an end, once and for all, to skepticism about the scale of the population loss and destruction of the region.

Reynald Sécher's Le Génocide Franco - Français: La Vendée - .Vengé (Paris 1986) is more avowedly polemical but, deeply researched in departmental and national archives, is nonetheless persuasive to a great degree. Its arguments are imbued with a tragic intensity that makes academic appeals for "dispassion" seem comically amoral. At the opposite extreme of historical temperament, the stolidly sociological Marcel Faucheux, L'Insurrection Vendéenne de 1793 (Paris 1964), does its best to explain everything in terms of socio - economic structures and mostly fails. On the course of the war itself, P. Doré - Graslin, Itinéraire de la Vendée Militaire (Angers 1979), is a haunting evocation, in contemporary documents and maps as well as modern photo - graphs, of the sites of battle and destruction. Jean - Clément Martin has also contributed a wonderful essay on the subsequent echo of the Vendée war in later periods, "La Vendée, Région - Mémoire. Bleus et Blancs!" in Nora (ed.), Les Lieux de Mémoire, vol.,1, La République (595 - 617). For a related but distinct revolt in Brittany, see Donald Sutherland, The Chouane: The Social Origins of Popular Counter - Revolution in Upper Brittany 1770 - 1796 (Oxford 1982); also T.J.A. Le Goff and D.M.G. Sutherland, "The Social Origins of Counter - revolution in Western France", Past and Present (1983).

For the economic crisis of 1793 and the conversion of the Jacobins to economic regulation, see Aftalion, L'Economie de la Réuolution (chapters 7 and 8). For the enragé principles, see R. B. Rose, The Enragés: Socialists of the French Revolution? (Melbourne 1965). See also Walter Markov (ed.)Jacques Roux: Scripta et Acta (Berlin, DDR, 1969). On the food riots of February, see George Rude, "Les Emeutes des 25, 26 Février 1793", in Annales Historiques de la Révolution Française (1953,33 - 57); and Albert Mathiez, La Vie Che're et Mouvement Social sous la T'erreur (2 vols., Paris 1927). On the social base and organization of the sans - culottes, see Albert Soboul, The Parisian Sans - culottes and the French Revolution (Oxford 1964), and Gwynn Williams's excellent comparative study with English labor, Artisans and Sans - culottes (London 1968). Soboul's classic position of a social cleavage between "bourgeois" Jacobins and artisanal saris - culottes has not stood up well to closer inspection on the level of individual sections, where "sans - culottes" are often found to be composed of exactly the same social groups - tradesmen, wineshop intellectuals, lawyers, officials and professionals, and occasional wage earners - as the Jacobin rank and file. For a still valid analysis of Jacobin personnel, see the outstanding work by Crane Brinton, The Jacobins (New York 1930). The most powerful attack on the whole concept of a sans - culotte "movement" came in Richard Cobb's great tour de force, The Police and the People: French Popular Protest 1789 - 1820 (Oxford 1970), and was renewed in his Reactions to the French Revolution (Oxford 1972). Michel Vovelle tries to answer the question "What was a sans - culotte?" in La Mentalité Révolutionnaire: Société et Mentalités sous la Révolution Française (Paris 1985. 109 - 23). For a very original and important perspective, see R.. M. Andrews, "The Justices of the Peace of Revolutionary Paris, September 1792 - November 1794", in Douglas Johnson. French Society and the Revolution, 167 - 216. On the anti - Girondin riots of March 10, see A.

M. Boursier, "L'Emeute Parisienne du 10 Mars 1793? in Annales Hirtoriques de la Revolution Française (April - June 1972). On Marat's battle with the Girondins, trial and acquittal, see the strangely bloodless biography by Louis Gottschalk, Marat (New York 1927, 139 - 68). For the expulsion of the Girondins and the Jacobin politics leading to it, see the readable, detailed narrative by Morris Slavin, The Making of an Insurrection: Parisian Sections and the Gironde (Cambridge, Mass., 1986).



«الإرهاب هو نظام اليوم»

حزيران 1793 ـ الشهر الثالث في الروزنامة الثورية الفرنسية من السنة الثانية (إلى كانون الأول عام 1793)

I ـ دم الشهيد

وُضِع قادة الجيرونديين، بعد إخراجهم من المؤتمر، تحت الإقامة الجبرية في بيوتهم في باريس. وقد اختار كثيرون أن يبقوا حيث كانوا في تحدٍّ متعمد لنفيهم من الجسم السياسي. ومع ذلك، حاول آخرون الهرب. نجح اثنان منهم، جيرومي بيثيون وبريتون كرفيلغان Breton Kervelegan، في الهرب من حراسهم، الثاني برمي نفسه من نافذة الطابق الثاني في بيته. ورحلت مجموعة أكبر مفترضة الأسوأ بعد انتفاضة 31 أيار، مبكراً من باريس عازمة على أن تستفيد من تهديدها بإثارة الأقاليم ضد العاصمة.

بدا الأمر، في الأسبوع الأول من حزيران 1793، كما لو أنهم نجحوا. لأنه بينما أقسام باريس كانت معظمها جبلية، كان العكس صحيحاً في بعض مدن الأقاليم الأكثر أهمية. ففي بوردو، رأت لوسي دي لاتور دوبان ألف شاب يتدربون على منحدرات شاتو ترومبيت Chateau Trompette. وكان مفترضاً أن يشكل هؤلاء نواة جيش «فيدرالي» يعبأ لمقاومة دكتاتورية باريس يشجعهم مندوبون أمثال بوير فونفريد Boyer - Fonfrede وروجر دوكو Roger Ducos وتدفع لهم البلدية الجيروندية. وقد قلقت لوسي من أن الضجة التي أثاروها بإطلاق قذيفة مدفع وفي المسارح لم تكن إشارة مطمئنة في ثباتها تحت النار. وفي مرسيليا أيضاً، دبرت الأقسام تمرداً في أيار ضد البلدية الموالية لليعاقبة المناضلين. أقيم نظام جديد، هيمن عليه مؤيدو الجيورنديين البارزون من مرسيليا، أمثال باربارو

وروبيكوي، الذين جاء كثيرون منهم من النخبة التجارية والميركانتلية في مرفأ المدينة، كما كانت الحال في بوردو تماماً. فأُغلِقت نوادي اليعاقبة، وحُلّت لجنتهم المركزية وسُجِن أعضاؤهم البارزون.

وإذا كانت الأسباب المباشرة لهذه التمردات المدينية قد نتجت من حدة السياسة المحلية، فالدافع وراءها عملياً هو نفسه في بوردو ومرسيليا وطولون ومونتبريسون Montbrison وفي ليون، حيث حدثت الانتفاضة الأكثر جدية في 29 أيار. وفي كل هذه الحالات، طُرِد الناس الذين اعتبروا أنفسهم القادة السياسيين والثقافيين «الطبيعيين» في المدينة ـ محامون، تجار، موظفون، شخصيات علمية بارزة، أخوة في المحافل الماسونية، ضباط في الحرس الوطني ـ من حكومة المدينة التي نشأت في أعقاب سقوط الملكية، غالباً من خلال انتخابات مدبرة بشكل وقح أو قائمة على التهديد والوعيد. وقد بدأت أنظمة الحكم المحلية الموالية لليعاقبة عندئذٍ قليلاً من الممارسات الإرهابية في هيئة تفتيش البيوت وفرض القروض على الأغنياء وإغلاق الصحف المعارضة وجمعياتها والاعتقالات الانتقائية التي لقيت معارضة السلطات الإقليمية لكن المدعومة من الممثلين في المؤتمر القادمين «بمهمة».

وقد قاد هذا الهجوم العنيف في ليون جوزيف شاليه Joseph Shalier، الذي لم يتفوق على أفعاله أي سياسي في الثورة الفرنسية. عندما جلب حجراً من الباستيل إلى المدينة، ونظم احتفالاً ركع فيه كل الأنصار ليقبلوا الحجر المقدس. وفي طريقة أكثر شراً، هدد شاليه بحرير المقصلة التجار الذين دفعوا بالكساد سبباً لرفضهم تشغيل مستخدميهم. وفي بداية شباط دعا إلى عقد جمعية عامة للنوادي، التي بدأت بقسم قسري، تحت طائلة عقوبة الموت، أن تلتزم بقرارات الاجتماع التي كانت على وشك أن تتخذ. ثم أعلن أنه ستنشأ محكمة ثورية في ليون «وأن تسعمائة ضحية مطلوبة لأن الوطن في خطر Patrie eu dauyer. وسيُعدَم هؤلاء على جسر موراند وتُرمى أجسادهم في نهر الرون».

وقد نجحت سلوكيات شاليه الغريبة في تغريب حتى هؤلاء الذين ظنوا أنفسهم أنهم يعاقبة تقليديين. وإذ اعتقدوا بأنهم قد يكونون على قائمة محتملة «للمعتدلين» المحرومين من الحماية القانونية، شكلوا قضية مشتركة مع المعارضة الأوسع في الأقسام، بمن فيهم، بشكل حاسم، الحرس الوطني، الذي حاول الممثلان في مهمة، ألبيته Albitte ودوبوا كرانسيه Dubois - Crance نزع أسلحته. وفي 29 أيار اكتسح المنشقون المعتدلون والحرس الوطني قاعة البلدية واستولوا على البلدية وشاليه سجيناً. وما كان لافتاً للنظر بالانتفاضة

الفيدرالية في ليون، كما في كل مكان آخر، هو أنه بينما قادت النخبة التجارية والمهنية الانتفاضة في البلدة من مراكز قيادتها في الأقسام، لم يكن لها أن تنجح لولا الدعم المسلح للمواطنين الأكثر تواضعاً، وغالباً الحرفيون أنفسهم الذين افترض اليعاقبة أنهم إلى جانبهم. وبينما وقف عمال نسيج الحرير المؤقتون جانباً، شارك أرباب متاجر صغيرة في التمرد المسلح وذهبوا للخدمة في الجيش الفيدرالي. ودعم عمال حوض السفن في مرسيليا وطولون وعمال الترسانة العسكرية التمرد. وبالتالي لم تكن حرب الطبقة البسيطة كما يراها كتبة التأريخ الرسمي أنصار اليعاقبة. والمفارقة في الأمر، الخطابة نفسها التي وجهت اللوم في باريس إلى الحكومات المعتدلة بسبب الأزمة الاقتصادية المستمرة ـ البطالة وخفض القيمة النقدية للعملة التي أصدرتها حكومة الثورة assignat ونقص المواد الغذائية وارتفاع الأسعار ـ أمكنها أن تنقلب في المدن الإقليمية ضد البلديات المؤيدة لليعاقبة. ففي طولون، على سبيل المثال، اعتقل رجل في تموز لأنه قال: إننا «بحاجة إلى ملك لأن ثمن رطل الخبز كان قرشين في العهد الملكي». وقدم عمال الترسانة البحرية في المدينة نفسها عريضة إلى المؤتمر الوطني في اللهجة نفسها، مطالبين بِـ «السلام في بلداتنا والخبز لعائلاتنا. حيث يشير تراجع العملة الورقية ونزاعاتكم السياسية الرهيبة إلى أننا لن نحصل على أي منهما».

لن تكون ظاهرة التأييد الشعبي للمعتدلين الميسورين محيرة إلا إذا افترض المرء أن الحرفيين وأصحاب المتاجر كانوا مقتنعين بأن الأطباء والمعلمين والكتبة الذي أعلنوا ولاءهم للجمهوريين المتطرفين كانوا بطريقة ما أقرب إلى مصالحهم من التجار والمحامين في النخبة العريقة. ولا يوجد سبب لنصدق المعنى الظاهري لبلاغة اليعاقبة التي صنعت هذا الزعم. بل حتى إذا كان ذلك صحيحاً، فستلغي الولاءات المحلية المركزة والكراهية الشديدة للإمبريالية الباريسية مثل هذا التضامن المفروض على نحوٍ واضح. لا شيء كان أكثر سوءاً لرجال مثل شالييه من أن يوصَموا بأنهم «غرباء»، ولا سيما عندما تكون قوتهم مدعمة بممثلين من المؤتمر. وفي هذا المعنى، فالقوى النابذة الكبيرة التي حررتها الثورة من عام 1789 إلى1791 لم يكن بالإمكان عكس اتجاهها إلا باستخدام القوة المسلحة.

قامت الثورة في ليون في اليوم نفسه الذي حدث فيه تطهير الجيرونديين في باريس. وبدوره، غذى خبر ذلك الحدث زخم المقاومة ضد الجبليين وليس في جنوب فرنسا وحسب. فقد كانت رين في بريتاني مركزاً هاماً للاستياء، وبدا كما لو أن بعض البلدات الكبرى في نورماندي ستنضم إلى الحركة. وفي 10 حزيران، ظهرت المجموعة الأكثر

نفوذاً من الهاربين الجيروندبين في واحدة من تلك البلدات، كاين Caen، في مقاطعة كالفادوس Calvados، وقد اختاروا بلا شك ذلك المكان ليكون موقعهم بسبب قربه النسبي من باريس وربما لأن أحد شركائهم، بوزوت Buzot، كان هو شخصياً من النورماندي. حيث وصل عشيق السيدة رولاند إلى المدينة ومعه حقيبة مليئة بالرسائل وجدائل من شعرها ورسوم مصغرة لوجهها وزوجته التي تعاني منذ زمن طويل. وقد رافقته شخصيات هامة أخرى مثل شارل باربارو، غوديث، الصحافيان غوراس ولوفيه، الطبيب سال لانجونييه، والهاربين بيثيون وكرفيلغان، وفي ما بعد في الأسبوع نفسه، انضمت إليهم جماعة ثالثة من المندوبين، وأقاموا معاً قاعدة أساسية في فندق دو لِنتندانس l'Intendance في مركز كاين.

كان هدفهم المباشر جمع قوة فيدرالية شمالية بقيادة الجنرال دي ومفِن Wimpffen، الذي كان أحد مندوبي المدينة في اللجنة التأسيسية. وكان يجب تنسيق زحف إلى باريس مع تعبئات مماثلة في مراكز فيدرالية أخرى التي ستقاوم وفي النهاية ستقلب سطوة اليعاقبة. ومع أن الفيدراليين لم يكونوا ملكيين صراحة، فعدم قدرة الجيوش الجمهورية على قمع التمرد الفندي Vendean كان، كما اعتقدوا، إلهاء إضافياً في صالحهم. سيتم الضغط على العاصمة وتوابعها من المحيط المتمرد في فرنسا بدائرة تمتد غرباً من النورماندي وبريتاني عبر فندي Vendée إلى جيروند وبروفنس الجنوبية، صعوداً إلى وادي الرون وليون وفرنتش كونتِ، حيث كانت بيسانشون أيضاً تميل إلى الفيدرالية. وبالتدريج، كما أملوا، سوف تضيق هذه الحلقة مثل أنشوطة حول رقبات المحاربين أنصار الجبل

وفي كان Caen نفسها بدت فرص مثل هذه الحملة الطموحة ضد اليعاقبة جيدة. وفي الخامس عشر أعدَّ الجيروندبون وسلطات المقاطعة بياناً. وقد شجب البيان كومونة باريس التآمرية التي تلتهم الذهب وتسفك الدماء، والتي تمسك بممثلينا أسرى. إنها وسط الحراب لذلك تتجرأ على أن تملي إرادتها. لم يعد التمثيل الوطني موجوداً. أيها الفرنسيون! لقد انتهك وطن حريتنا. والرجال الأحرار في نيوستريا (اسم فرنجي لشمالي فرنسا) لن يسمحوا بهذا الاعتداء فإما أن يعاقَب هؤلاء اللصوص قطاع الطرق أو أننا سنموت جميعاً». وفي الثاني والعشرين أقرت جمعية عامة تمثل أغلبية كبيرة من الأقسام اقتراحاً ضد استمرار «الفوضوية». وإذ استدعي وِمفن Wimpffen من المؤتمر ردّ أنه سيأتي إلى باريس على رأس ستين ألف رجل لاستعادة العدالة والحرية.

مع أن قوته كانت متواضعة في ذلك الوقت.. ففي السابع من تموز، أقيم عرض

عسكري في ساحة الغراند كور Grande Cour في كان، لم يشارك فيه أكثر من ألفي وخمسمائة جندي فيدرالي: ثمانمائة من يور Eure وكلفادوس، وخمسمائة جندي من المقاطعة المجاورة، إل ـ إي ـ فيلاين Ille - et - Vilaine، وثمانمائة من فينيستر Finistere وموربيهان Morbihan في مقاطعة بريتون والبقية من المانش ومايين Mayenne. وإذ ساروا على صوت الفرق الموسيقية العسكرية، كان ذلك كافياً لعرض جيد في عصر يوم صيفي، لكنه لم يكن كافياً لحرب أهلية. ومع ذلك أمل الجيرونديون أن ينتج المشهد طوفاناً من المتطوعين العفويين، وقد غلّ عصر اليوم محصولاً هزيلاً فأضيف مائة وثلاثين متطوعاً إلى تلك الصفوف.

وكانت ثمة امرأة جميلة المظهر على نحو لافت في الخامسة والعشرين من عمرها تُدعى شارلوت كوردي دارمونت Charlotte Cordy d'Armont تتفرج على العرض. لم يكن البيت حيث تسكن في كان يبعد عن الإدارة أكثر من بضع خطوات، حيث أقام الجيرونديون مقرهم العام. ولأنها غالباً ما سمعتهم من الشرفة يلقون خطابتهم على الحشود المتحمسة فقد رتَّبت في العشرين لأن تُقدَّم إلى البليغ والجريء المفعم بالحياة شارل باربارو من إقليم بروفنس. لم تكن بحاجة لأن تتحول، فقد كانت شارلوت كوردي مليئة بكراهية شديدة وغالباً ملتهبة ضد اليعاقبة، الذين، كما اعتقدت، انحدر سلوكهم بالجمهورية إلى الدرك الأسفل من الانحطاط في 31 أيار و2 حزيران.

لقد كان ما رغبت أن تراه مزدهراً جمهورية. وعلى الرغم من ذلك كانت شارلوت دون شك ملكية لأنها تحدرت من بيت نبيل صاحب مزرعة أخشاب في أسرة من أصل نورماندي متواضع. وبالعكس، مثل السيدة رولاند (التي أعجبت كثيراً بتدخلها الحاد في تاريخ الثورة)، لقد قرأت بعمق أعمال روسو والتاريخ الروماني العام وتخيلت الثورة باعتبارها مكرسة لتقوم بتغيير أخلاقي مجيد. وقد أصبحت قاتلة ليس انتقاماً للويس السادس عشر ـ في الحقيقة، رفضت في استجوابها أية مقارنة مع باريس، والحارس الشخصي الملكي الذي قتل ليبلتييه Lepeletier ـ بل لمساعدة الجيرونديين والقضية الفيدرالية. وفعلها، ستكتب إلى باربارو من السجن، قد ساعد الجنرال ومفن أكثر من أية معركة.

حدث واحد بالتحديد هو الذي غرَّب على نحو عنيف شارلوت من الثورة. قام الأب غمبولت، وهو خوري سانت جيل Saint - Gilles في كان بالطقوس الأخيرة لوالدة شارلوت عام 1782، عندما توفيت في ولادة. وبوصفه كاهناً عنيداً، جُرِّد من مصدر عيشه

بشكل متتابع، وهُدِّد بالترحيل باعتباره غير مرغوب فيه، وفي نيسان 1793 ذهب إلى الاختفاء في غابات لا داليفراند La Delivrand خارج المدينة لتجنب الاعتقال. وقد عثر عليه فريق بحث وكلاب تتعقب الآثار وأُعدِم في الخامس من نيسان في مكان يُدعى دو بيلوري du Pilori، الأول من هؤلاء الذين سيعدمون بالمقصلة في كان. ولاحقاً في ذلك الشهر أرسلت مقاطعة كلفادوس الرسالة الأولى من رسائل كثيرة إلى المؤتمر تشكو من طغيان مجموعة صغير من اليعاقبة. «انقساماتكم هي مصدر مشكلاتنا كلها. إنه مارا وروبسبيير ودانتون من يشغل بالكم ويحرضكم فتنسون أن الشعب كله يعاني...». وقد نُشِرت هذه الهجمات على الجبل Mountain ووُزِّعت بالبريد على نطاق واسع في كان Caen، والمرجح أن شارلوت قرأتها. وربما أثّر الهجوم على «السفاح» الرديء السمعة، مارا Marat، الذي كتبه مندوب من بزناس Pezenas في جريدة هيرولت Herault، التي توزع في كان، عليها أكثر لأنه مثير للانتباه بشكل خاص، ليس أقله الطريقة التي أدار فيها ضد مارا هاجسه الخاص بالاقتصاد السياسي في قطع الأعناق.

> *دعوا رأس مارا يسقط والجمهورية تُنقَذ... طهروا فرنسا من هذا الرجل السفاح... لا يرى مارا الجمهورية آمنة إلا في نهر من الدماء، حسن إذن دمه يجب أن يتدفق، فمقابل رأسه الذي يجب أن يسقط سيتم إنقاذ مائتي ألف رأس آخر.*

توصلت شارلوت كوردي إلى استنتاج أن هذه المهمة هي مهمتها. وقد بدت تمثل نفسها متحدرة مباشرة من بيير كورنيه Pierre Cornielle كاتب الدراما الكلاسيكية، في أحد أدواره التراجيدية. ستأخذ على عاتقها مهمة الشهيد الوطني، المرأة التي سوف تُحضّر لتموت في العمل المقدس بتخليص الوطن من وحش شرير. وفي التاسع من تموز في حرارة عصر متقدة، أرسلت رسالة إلى والدها في أرجنتان Argentan تتوسل إليه أن يغفر لها مغادرة كان دون إذنه، واستقلت عربة دليجنس Delligence إلى باريس.

كان هدف اهتمامها في ذلك الوقت يرقد مريضاً في منزله في شارع كوردلييه. فقد أصيب مارا، الذي لم يكن معافى يوماً، مؤخراً باضطراب جلدي يقعده جراء ظهور طفح جلدي دوري يحيل جلده إلى خبيصة مشوية من قشور حرشفية وآلام موجعة. والإسعاف الوحيد لهذا الالتهاب الصدفي هو التمدد في حوض ماء بارد. وكان مارا عندما يصاب بنوبة يأوي إلى غرفة حمامه القرميدية ويواصل عمله على طاولة صغير مرتجلة من صندوق خشبي يضعه إلى جانب حوضه مثل حذاء. ربما جعلت حرارة أواسط الصيف وضعه أكثر

سوءاً، فقد غاب مارا عن المؤتمر لوقت طويل غير معتاد. وفي الثاني عشر من تموز، بعد وصول شارلوت كوردي إلى باريس بيوم واحد، جاء مندوبان للاستفهام عن صحته. كان أحدهما الرسام جاك لويس ديفيد، الذي وجده «يكتب أفكاره حول سلامة الوطن» بأسلوب لا يعرف التعب، ويده اليمنى ممتدة خارج الحوض. كان على جدران الغرفة خريطة للمقاطعات الجمهورية وشعارات الثورة وزوجاً من مسدسين متقاطعين وقد كُتِب تحتهما أسطورة «الموت» La mort. ربما متأثراً بهذا الشعار، تمنى ديفيد لـ«صديق الشعب» معافاة سريعة، التي رد مارا عليها، «عشر سنوات زيادة أو نقص في دورة حياتي لا تهمني في النهاية، رغبتي الوحيدة هي أن أقول مع آخر نفس أتنسمه 'أنا سعيد أن الوطن آمن'». لم تستطع شارلوت كوردي أن تعبر عن الأمر أفضل من ذلك.

كان جاك بول مارا إذن وهو متمدد في ذروة قوته ونفوذه. وبما أن محاولة الجيرونديين لاتهامه في نيسان قد أُجهِضت، سار كل شيء حسب ما يريد. ففي اليوم الذي برأته محكمة ثورية، وضعت امرأة تاج من الورد على جبينه. وبعد شهر غدا النصر أكثر عطراً فيما رأى أعداءه الأكثر شدة يُبعّدون من المؤتمر ويُطارَدون. ووضعت المكنة المؤسساتية للدكتاتورية الثورية، التي دافع عنها، في المكان المناسب، إلى حدّ تُستبدَل فيه أعمال رعاع الشارع الوحشية المشوشة بالماكينة النظامية لعقاب الدولة. وفشل الساخطون، الذين لم يحبهم غالباً بالقدر نفسه الذي لم يحب الجيرونديين، بالاستفادة من 2 حزيران، فأُبعِد فارليه نفسه من صفوف اليعاقبة. كان يُصغى إلى مارا في المؤتمر ويُحترَم في الكومونة ويُمطَر بالاهتمام الذي يُظهِر الإعجاب في الأقسام. لقد بدا أنه غدا المرء ذو الشخصية التي ابتدعها: صديق الشعب، عراف الجمهورية، كاشف المؤامرات، ملحِق العار بالمنافقين.

لقد قطع بالتأكيد طريقاً طويلاً من الصيدلاني المتجول والباحث الذي طاف في كل أرجاء أوروبا في البحث عن الاعتراف بنظرياته في العدسات وفن الطيران والمعالجة الكهربائية. ومثل جاك لويس ديفيد، كانت حياته السياسية ثمرة رفض شخصي حاد. كان الرفض في حالة ديفيد في الأكاديمية لعرض أعمال تلميذه المفضل (والموهوب بشكل مذهل)، دروا Drouais، أقنعه أنها في قبضة «شلة» أرستقراطية. ومن هناك لم تكن إلا خطوة قصيرة إلى مناصرة تدميرها بوصفها متعارضة مع الحرية الثورية، ومشاركة سياسية جعلت الرسام مندوباً إلى المؤتمر وعضواً في لجنة الأمن العام. أما فشل مارا في ضمان

اعتراف من الأكاديمية الملكية للعلوم بنظرياته حول السوائل النارية، التي اعتبر أنها الخاصة الرئيسية للكهرباء، كان أكثر تغريباً لأنها، بخلاف نزاع ديفيد، حطمت عمله. قبل أزمته عام 1780 كان، اسمياً على الأقل، طبيباً لأرتوا وكان لديه ممارسة مزدهرة في المعالجة الكهربائية. وبعد ذلك تقلصت مجموعة زبائنه بسبب اتهامه بالشعوذة، وهي كارثة لم تستطع جائزة منحتها له أكاديمية الرون أن تعوضه عنها.

لقد تألم مارا هذه الإهانة، وأعاد صياغة هويته. وبدلاً من بذل الجهد لنيل حظوة لدى الأرستقراطية ذات الزي الحديث، عاد يتسقط هفواتها بنقد لاذع. وبدلاً من التفتيش عن الشهرة الاجتماعية، خلق شعبيته الخاصة بالعيش في منطقة الكوردلييه حيث كان لديه دخول سهل إلى المطابع. ففي إنكلترا أظهر له عمل جون ويلكز كيف أن الصحافة الساخرة المولعة بالقتال، التي تسبر حدود اللياقة التقليدية يمكنها عملياً أن تخلق جمهوراً سياسياً جديداً. ولكن ما فعله مارا من عناصر أخرى في ثقافة المدينة الكبيرة كان فرنسياً بشكل مميز. فقد أخذ من لِنغوت ومرسييه اللهجة الرؤيوية والجدل الشفهي العنيف الذي هاجم بشكل ملموس آثام الزي السياسي. وفي استعادة للأحداث يمكن للمرء أن يرى أن أصول عائلة مارا الغريبة التي تجمع اليسوعية الساردينية مع كالفينية جنيف (الكالفانية من جانب أمه) كانت تدريباً مثالياً لهذا الضرب من المسيحية المتغطرسة. أخذ من روسو سجالات البارانويا (جنون العظمة والاضطهاد والارتياب). وهذا ما جعل هجومه مركزاً ضد الإعجاب بالذات الليبرالي وضمن أنه عندما تأتي هجمات مضادة (من لافايت، مثلاً) يمكنه أن يحول تلك «المضايقة» إلى شيء نافع سياسياً. وإذ ينخس خصومه الذين رسمهم باعتبارهم خونة أو متآمرين أو طغاة أو جبناء إلى الفعل، أمكنه عندئذٍ أن يقدم نفسه بطلاً للحرية والصحافة. «حرية قول أي شيء»، لاحظ ذات مرة، «لها أعداء بين هؤلاء الذين يريدون أن يحتفظوا لأنفسهم بالحق في فعل أي شيء وحسب».

كان دوره الذي اختاره، عندئذٍ، هو المنبوذ ـ الرجل الذي يعد بالتخلي عن الظرافة والأناقة والانشغال الرائج بالجمال لصالح ضرورات الحقيقة والفضيلة. كان العقل بحد ذاته موضع شبهة، لأنه، كما كتب في حزيران 1793، إن الرجال الذين أرادوا الفلسفة أكثر من العاطفة دليلاً هم الذين أجهضوا الثورة تقريباً. وكانت الأساليب المهذبة، كما رأى روسو، مجرد شكل للفساد الذي يمارسه «الدجالون». وكتب في عام 1793، «أن تتظاهر بأنك تبعث الفرح في نفوس الجميع جنون، لكن أن تتظاهر بأنك تفعل ذلك زمن الثورة خيانة». وقد خطط لعدم إرضاء أكثر ما يمكن من الناس، للسبب نفسه، إشارة إلى



الصورة 176، للرسام جوزيف بوزه، مارا

استقامته. لقد صنع مارا فناً من هذا النوع من البشاعة الصدامية، التي كان مظهره الشخصي مناسباً لها على نحو مثالي. فلم تكن عيناه على استقامة واحدة بل تتألقان بشكل أسود من جانبي وجه واسع ومسطح. وانقسم المعاصرون المفتونون بالقياسات التمثيلية

التشخيصية حول أي نوع من الطيور يشبه مارا. فقارنه أصدقاؤه والمعجبون به بالنسر، وقارنه أعداؤه بالغراب القمام. وقد نبذ مارا في مظهره ملابسه التقليدية الفاخرة تماماً التي كان يرتديها لصالح مظهر من البساطة اللافتة للنظر: حنجرة عارية، شعر أسود غير مسرح، وشاح من فرو القاقوم يرميه أحياناً على كتفيه. لم يكن على الإطلاق لباس جمهوري متطرف (لامتسرول)، بل الزي المناسب مسرحياً لصديق الشعب. لقد استمتع بالخشونة. وقد فتش باريس في تشرين الأول عام 1792 عن دوموري Dumoriez، الذي أراد أن يواجهه، واندفع إلى حفل عشاء قدمه الممثل تالما ليحاضر عن الجنرال على الطاولة. سيبحث عن الحقيقة، ولا شيء كان ليفلت منه. كانت عيناه عيني رقيب حذر، وصوته مرتفع إلى درجة يوقظ الناس من نومهم العميق.

كان تحدي الشهادة جوهرياً لتبني مارا شخصية إرميا الثوري ـ الحالم، النبي، جالب حكم القضاء. ومثل روبسبير وآخرين كثر من اليعاقبة، كان يبدي استعداده بشكل دائم للموت ولا يُقدِم على تسوية في مبادئه، ويضحي بذاته لانتقام «قتلة الحرية». وواقع أن مارا غالباً ما فرّ عندما كان الخطر يحدق به عملياً لا يبدو أنه يشوه هذه الصورة التي تفضل التضحية بالذات. وقد حمل مسدساً عادة إلى المؤتمر ـ أقله، يشك المرء، ليدافع عن نفسه بقدر ما هو دعامة مسرحية. فعندما عمل الجيرونديون على اتهامه، ضغط بذلك المسدس على صدغه خلال خطاب، معلناً أنه «إذا نجح قرار الاتهام ضدي، بواسطة الغضب الشديد الذي أُظهِر تجاهي، فسأفجر دماغي». وفي مناسبات أخرى أعلن أنه، «صوت الشعب»، الذي كان «يُكبح» أو«يُخنَق» أو (لا تزال الأكثر تواتراً) «يُغتال».

وفي الساعة الثامنة صباحاً يوم 13 تموز، مشت شارلوت كوردي من مكان إقامتها قرب شارع فكتوار Rue de Victoires إلى الباليه رويال. كان يوم سبت والحدائق والمعارض أكثر ازدحاماً من العادة مع أناس جاؤوا من قرى بعيدة عن مركز المدينة ليشاركوا في احتفالات وفاء باريس للدستور الجديد: طقس خطط بتروٍ لـ 14 تموز. وتحركت شارلوت بين الأعمدة المزينة بالأشرطة الثلاثية الألوان وشعارات الجمهورية الجديدة: مسواة النجار تعني المساواة، وقلنسوة الحرية في كل مكان. وتحت سماء مشرقة، كان الرجال والنساء يحتسون شراب الليمون للتخفيف من الحرارة الخانقة التي بدت كما لو أنها استقرت فوق المدينة. اشترت من بائع صحيفة حملت خبر طلب ليونارد بوردن في المؤتمر إقرار حكم الإعدام ضد الجيرونديين. وتوقفت في أحد متاجر الممر المقنطر لتبدل قبعتها المحلية في كان بأخرى سوداء أكثر أناقة مزينة بأوشحة خضراء.

سيتذكر الشهود جميعاً غطاء الرأس الأخضر ذاك بعد العملية. هل اختارته لكونه لون عام 1789 ورمز كميل دزمولين للحرية؟ ستصنع شارلوت كوردي منه لوناً للثورة المضادة، الممنوع، لخراب بائعي الأقمشة والبائعين المتجولين، في أي لباس عام. واشترت من متجر لبيع السكاكين قرب مقهى فيفرييه Café Fevrier سكين مطبخ ذات مقبض خشبي بشفرة طولها خمسة إنشات أخفتها تحت ملابسها.

وقد أُحبطت شارلوت إذ علمت أن مارا مريض، ما دامت قد خططت لتقتله وسط المؤتمر نفسه في مشهد كامل «لممثلي الأمة». لكن صديق الشعب كان مشهوراً بفتح أبوابه لأي شخص يحتاج إلى مساعدته أو يمكنه أن يقترح شجباً، وهكذا قررت أن تقوم بالعمل في بيته الشخصي. ولا بد أنها تجولت في الشوارع لبعض الوقت قبل أن تستقل عربة، ما دامت قد وصلت إلى منزل مارا في شارع الكورديلييه عند الساعة الحادية عشرة والنصف. وعند أسفل الدرج الذي يقود إلى شقته، أبعدتها كاثرين إفرار Catherine Evrard، أخت خطيبته سيمون، قائلة لها إن مارا مريض جداً ولا يمكنه مقابلة أحد. فكتبت شارلوت وهي محبطة رسالة حسبت أن تثير فضوله، مشيرة إلى أنه بإمكانها أن تخبره بالخطط التي يدبرها الجيروندیون الهاربون في كان. وطلبت رداً لكنها نسيت أن تضيف عنوانها بسبب انفعالها.

وعادت شارلوت عند الساعة السابعة مساء إلى منزل مارا، مسلحة ليس بسكين وحسب بل برسالة أخرى تتوسل إليه أن يراها. وقد تصادف وصولها مع تسليم الخبز الطازج وجرائد اليوم، وهكذا كانت تصعد الدرج عندما أوقفتها سيمون نفسها، التي كانت مرتابة بتصميم شارلوت على رؤية مارا وفيما كانتا تتجادلان تعمدت شارلوت أن ترفع صوتها لتدع مارا يعرف أنها تريد أن تقدم له معلومات خاصة عن الخونة في النورماندي. وجاء من الحمام صوته، «دعيها تدخل». وقد وجدته ينتقع، مع قماش رطب معتاد مربوط حول جبينه، وذراع ممدودة جانب الحوض. وقد تحدثا لخمس عشرة دقيقة عن الوضع في كان بحضور سيمون. ثم طلب مارا من سيمون أن تحضر المزيد من محلول الكولين للماء، ولتظهر أنها نصيرة مثالية للمعاقبة تلت قائمة كاملة في رد على طلبه بتسمية المتآمرين. وقد ردّ مارا، «حسن، سأرسلهم جميعاً إلى المقصلة في مدى عدة أيام».

كانت كرسيها إلى جانب الحوض مباشرة. وكان كل ما عليها عمله هو أن تنهض وتنحني فوق الرجل وتخرج السكين من أعلى ردائها وتطعنه بقوة وسرعة. ولم يكن ثمة



الصورة 177، للرسام دبلسيس برتو، تشارلوت كوردي اللوحة تظهرها جالسة بهدوء تنتظر اعتقالها.

وقت إلا لضربة واحدة أسفل الترقوة على الجانب الأيمن. صرخ مارا، «هذا أنا يا صديقتي «A moi, ma chère amie»، قبل أن يغوص في الماء، وفيما ركضت سيمون ايفرار إلى الغرفة وهي تصرخ، "يا إلهي، لقد اغتيل"، تفجر دفق من الدم من الجرح حيث الشريان السباتي قد فتح. فكان كل ما استطاعت أن تقوله للقاتلة: «أيتها التعيسة، ماذا فعلت؟» ثم ركض لوران باس Laurent Bas، الذي يعمل لـ مارا في توزيع الجريدة، رمى شارلوت بكرسي أخطأتها، وفي النهاية أوقفها ومنعها من الحركة "بإمساكها من صدرها". كما أخبر المحكمة.

كان المساء حاراً والنوافذ مفتوحة. وصرخة مارا دوّت عبر الشوارع. عند سماعها والصرخات التي تلت، رمى كلير ديلافوند، وهو طبيب أسنان يسكن مقابل منزل مارا، عمله وهرع عبر فناء صغير وإلى الدرج إلى الأعلى، حيث رفع مارا من الحوض، وحاول أن يوقف النزيف بالأردية والأقمشة، وفي عدة دقائق انضم إليه فيليب بيليتان، وهو جراح

في الجيش يسكن في الجوار أيضاً. ولم يستطع الرجلان وقف النزيف المتدفق عبر الضمادات المرتجلة. مثّلت التخيلات الدموية دوراً بارزاً في مفردات مارا السجالية. غالباً ما قال: «يجب أن نعزز الحرية بدم الطاغية». والآن دمه شخصياً أعلن البداية، ليس الحرية، بل الإرهاب. وعندما وصل مفوض الشرطة المحلي، غيلار Guellard، اقتفى أثر الدم إلى الحمام ثم إلى غرفة نوم مجاورة حيث كان بيلتيان Pelletan يقف إلى جانب الجثمان. وقيل له إن **صديق الشعب** قد فارق الحياة.

لقد نجح العمل. وانتظرت شارلوت قدرها أن يتجلى دون شعور. لقد أُمسِك بها عملياً في الجرم المشهود. لم تكن لديها رغبة بالتهرب من تبعاته، بل أن تشرح دوافعها بوضوح وهدوء ورباطة جأش. وقد نالت رغبتها. فأوضحت لِـ غيلار بهدوء أنها وقد «رأت أن الحرب الأهلية على وشك أن تندلع في كل أرجاء فرنسا ومقتنعة بأن مارا هو المسبب الرئيس لهذه الكارثة، رغبت أن تضحي بحياتها من أجل وطنها». ولجنة من ستة رسميين آخرين منهم درويت Drouet رئيس محطة البريد الذي مَيّز لويس السادس عشر في سانت مِنِهولد، واصلوا التحقيق في شقة مارا وهم يحتسون المرطبات. وقد اعترفت شارلوت كوردي لهذه المجموعة أنها جاءت إلى باريس من كان بخطة مبيتة لقتل مارا لكنها أصرت (لخيبة مستجوبيها الواضحة) على أن خطتها كانت من عملها وحدها.

وفيما انتشر الخبر بسرعة عبر ضاحية سان جرمان، تجمعت حشود غاضبة ومكترية تريد أن تمزق القاتلة إرباً. قالت إحدى النساء إنها تود أن تقطّع هذه الشريرة وتأكل جسدها القذر قطعة قطعة. واستطاع درويت أن يثني الحشد عن فعل ذلك بتذكيره أنهم سيفقدون «الروابط في المؤامرة» إذا قتلوا الوغدة الرئيسية في المكان وفي الحال.

وفي سجن أبي Abbaye ـ موقع المذبحة الأولى في أيلول ـ احتجزت شارلوت في زنزانة صغيرة احتجز فيها قبل ذلك بريسو والسيدة رولاند. جلست على فراش من القش، ومسدت قطة سوداء وكتبت رسالة إلى لجنة الأمن العام في المؤتمر. وكما لو كانت قلقة على ألا تسرق من مسؤوليتها الوحيدة، احتجت ضد ما أشيع عن اعتقال كلود فوشيه وهو المندوب الجيروندي والأسقف الدستوري في كلفادوس باعتباره شريكاً في الجريمة. وكما أصرت، ليس غير شريك في الخطة وحسب، بل هي لا تجّل الرجل ولا تحترمه، الذي اعتقدت دائماً أنه متعصب تافه دون «ثبات في الشخصية». وفي المقابل، في نقاط كثيرة في استجوابها، أكدت شارلوت على تصميمها الخاص، واعتقدت أن الوهم العام أن النساء غير قادرات على فعل مثل هذه الأعمال قد لعب لصالحها. كان واضحاً أنها نقطة

شرف لديها ـ وفي الإنكار المتعمد للنمطيات الثورية عن الجنوسة Geuder ـ أن تؤكد أن جنسها جسدياً وأخلاقياً أكثر قدرة على اقتراف أعمال العنف الوطنية.

وقد برز هذا على نحو لافت من التحقيقات الثلاثة المتقاطعة. اثنان بواسطة رئيس المحكمة الثورية، مونتانه Montane، والثالث بواسطة المدعي العام الرئيس في المحكمة، فوكييه ـ تنفيل Fouquier - Tinville. وقد بذلت قصارى جهودها لانتزاع المعلومات منها التي تثبت وجود مؤامرة جيروندية واسعة لقتل مارا. كان ثمة تيار قوي يمكن تمييزه من المخاوف الجنسية في عنف المنتقمة ذات العينين الرماديتين والرابطة الجأش، التي لا بد أن يداً ذكورية مهيمنة ما شجعتها على فعل لذلك؟» فقد زعم جورج كوثن من اليعاقبة، «إن الأمر الواضح رياضياً هو أن هذه المتوحشة التي أعطيت طبيعتها شكل امرأة هي رسول بوزو وبارباو وسال وكل المتآمرين الآخرين في كان».

وبعد كل شيء، كل سطر في الاستجواب قابَلَ النفي العنيد عنى أنه صحيح. ففي حوار أخير مع مونتانه في السابع عشر من تموز اعترفت على الأقل بقراءة الصحف الجيروندية، لكنها اغتنمت الفرصة لتحول ذلك الاعتراف إلى إعلان آخر للسخط المشروع.

مونتانه: هل عرفت أن مارا فوضوي من تلك الصحف؟

كوردي: أجل، عرفت أنه يفسد فرنسا. وقد قتلت شخصاً واحداً لأنقذ مائة ألف. وعلاوة على ذلك، كان يختزن قوت الشعب. لقد اعتقلوا في كان رجلاً يشتري سلعاً له. لقد كنت جمهورية قبل الثورة، ولم أفتقر إلى الطاقة يوماً.

مونتانه: ماذا تعنين بكلمة «طاقة» ؟

كوردي: هؤلاء الذين يضعون مصالحهم جانباً ويعرفون كيف يضحون بأنفسهم من أجل الوطن.

مونتانه: هل تدربت مسبقاً، قبل تسديد الضربة إلى مارا؟

كوردي: أوه! الرهيب (أي مونتانه)، هو يعتبرني قاتلة! (هنا [كما تقول سجلات المحكمة] بدت الشاهدة مستثارة بعنف.)

مونتانه: وعلى الرغم من ذلك لقد ثبت في التقرير الطبي أنك لو سددت الضربة بهذه الطريقة (موضحاً بحركة طويلة) ما كنت لتقتليه.

كوردي: سددت إليه الضربة كما وجدتم. لقد كانت ضربة حظ.

مونتانه: من هم الأشخاص الذين استشرتيهم لتقترفي هذه الجريمة؟

كوردي: لن أقوم بمثل هذا الهجوم بمشورة أحد أبداً. أنا وحدي أعددت الخطة ونفذتها.

مونتانه: لكن كيف يُفترَض بنا أن نصدق أنك لم تُنصَحي بفعل ذلك وقد أخبرتِنا أنك تعتبرين أن مارا سبب الشرور كلها في فرنسا، وهو الذي لم يتوقف عن نزع القناع عن الخونة والمتآمرين؟

كوردي: في باريس وحدها يؤيد الشعب مارا، في المقاطعات الأخرى، يعتبر وحشاً رهيباً.

مونتانه: كيف يمكنك أن تنظري إلى مارا أنه وحش رهيب، في حين أنه سمح لك بالدخول إليه بفعل إنساني لأنك كتبت إليه أنك اضطهدت؟

كوردي: وما الفرق الذي يصنعه إذا أظهر لي أنه إنسان وكان وحشاً تجاه الآخرين؟

مونتانه: هل تظنين أنك قتلت أمثال مارا جميعاً؟

كوردي: بقتله، قد يخاف الآخرون.

وكما ينبغي أدينت وحكم عليها بالموت السريع، انتظرت شارلوت في الكونسرجيري، الذي نُقِلَت إليه من سجن أبي. وفي السجنين، سُمِح لها أن تكتب رسائل، ربما بأمل أنها قد تورط آخرين في «المؤامرة الجيروندية» التي كانت السلطات متأكدة من أنهم وجهوا القتل. وقد كتبت يوم المحاكمة رسالتين، كل منهما بأسلوب مختلف. إلى أبيها ارتدت إلى الدور التقليدي للبنت المطيعة، تتوسل إليه أن يسامحها «لأنني قررت مصير وجودي دون إذنك». لم يكن ثمة عار في ما فعلته، لأنني «انتقمت لضحايا بريئة كثيرة (وعلى نحو أكثر سذاجة) ومنعت كوارث أخرى كثيرة... وداعاً، يا والدي العزيز، أرجو أن تنساني أو تبتهج لقدري، فالقضية خيِّرة». واختتمت بتقديم نفسها بوصفها واحدة من سلالتهم، بطلات كورناي التراجيديات، اللواتي يمتن في الفضيلة. غير أن السطر الذي أوردته للنقش على قبرها لم يكن، للأسف، من أعمال بيير المسرحي العظيم بل من أعمال أخيه توماس من المرتبة الثانية: Le crime fait la honte et non pas l'échafaud (الجريمة تفعل العار، وليست المشنقة).

وكانت الرسالة الأخرى إلى شارل باربارو. كانت قد بدأتها في سجن أبي، تمثل نفسها بجوديت النورماندية غير النادمة، بل المباركة بنصيبها المناسب في الإحساس. «لم

أكره كائنا قط... وأصلي لهؤلاء الذي يندمون لعبوري السريع أن يفكروا أنهم يوما ما سيبتهجون لرؤيتي أتمتع براحة أبدية في **جنان الخلد** مع بروتوس والقدماء، لأن المعاصرين، ثمة عدد قليل جداً من الوطنيين الذين يعرفون كيف يجب أن يموتوا من أجل وطنهم، كل شيء أنويٌّ، أي شعب يرثى له يؤسس جمهورية». وفي محاكمتها في صباح اليوم التالي، ستظهر للقضاة وهيئة المحلفين «قيمة الشعب في كلفادوس ما دامت (سوف يرون ذلك) حتى نساء ذلك البلد جديرات برباطة الجأش».

وفي إيماءة أخيرة استثنائية لمسْرحة الذات، سألت شارلوت المحكمة ما إذا كان بإمكانها أن ترسم لها صورة قبل الإعدام. وخلال الاستماع لاحظت أن أحد ضباط الحرس الوطني يرسم صورتها. بوصفه مواطنا في وضع جيد مع القسم (ثياتر ـ فرانسيه) سمح للضابط، هوير Hauer، أن يعود إلى سجن الكونسرجيري معها ليحول الرسم إلى لوحة. استغرق ذلك ساعتين، التي قدمت خلالهما اقتراحات له لتعديلات هنا وهناك. وعندما قوطعا في النهاية بالجلاد سانسون، أخذت مقصا منه، وقصت خصلة من شعرها وقدمتها إلى الرسام بوصفها «هدية امرأة بائسة تموت».



الصورة 178، لرسام مجهول، تشارلوت كوردي في طريقها إلى الإعدام

كان الوقت بداية المساء عندما صعدت إلى العربة التي ستقلها إلى المقصلة. وإذ رفضت خدمات كاهن هيئة المحلفين ومقعداً، وقفت منتصبة، مثبتة نفسها عندما كانت تمر العربة على حصى الشارع بسند ركبتيها إلى جدار العربة. شقّ حشد كبير فضولي لرؤية المرأة المشاكسة، التي استطاعت أن ترتكب جريمة مثل هذه، طريقه إلى شارع سان أونري لرؤيتها وهي تمر عبره. وقد لاحظ بيير نوتِليه من منزله المطل على الشارع، فيما مرت، أن السماء أعتمت فجأة ونثرت عاصفة صيفية قطرات كبيرة من المطر على الغبار. لقد تبللت خلال ثوانٍ، والقميص الأحمر الذي يرتديه قتلة «ممثلي الشعب»، كتب بيير، «التصق بجسدها. كان وجهها الجميل هادئاً جداً إلى درجة تجعل المرء يقول إنها تمثال. وخلفها، أمسكت فتيات شابات كل بيد أخرى كما لو أنهن يرقصن. لثمانية أيام كنت في علاقة حب مع شارلوت كوردي».

قد يكون الافتتان بالاغتيال خطيراً. وكان آدم لكس Adam Lux، وهو وطني ألماني، هرب من هزيمة كاملة في ميتز، جريئاً كفاية لينشر قصيدة يقارن شارلوت كوردي بـ بروتوس. وبعد بعض الجدل حول ما إذا كان مجنوناً، ذهب لكس إلى المقصلة في تشرين الثاني. وغدا مارا، من جهة أخرى، الموضوع المباشر إعجاب وتبجيل إلى درجة العبادة. فبعد أخذ شارلوت بعيداً إلى سجن أبي، أُلصقت ملاحظة على باب منزله تعلن في إيقاع تراجيدي، ما حدث:

أيها الناس، مارا ميت: لقد سقط عاشق الوطن، صديقكم، عونكم، أمل الموجوعين تحت ضربات جماعة (الجيرونديين) المشدوهة.
ابكوا لكن تذكروا أنه يجب أن يُثأر له.

ومن حين إلى آخر سيقرأ جمهوري متطرف يحمل رمحاً الإعلان إلى الحشود بأسلوبه الأكثر تفخيماً.

في الصباح الذي تلا وفاة مارا، في المؤتمر، غدت الدراما الرواقية أكثر إثارة للمشاعر. فبعد أن أعلن الرئيس، جين بون سان أندريه، وفاة مارا، قلب ممثل قسم **العقد الاجتماعي**، غيرو Guiraut، اللحظة إلى أداء مسرحي:

أين هو؟ يد قاتل الأب انتزعته منا. أيها الناس! مارا مات.

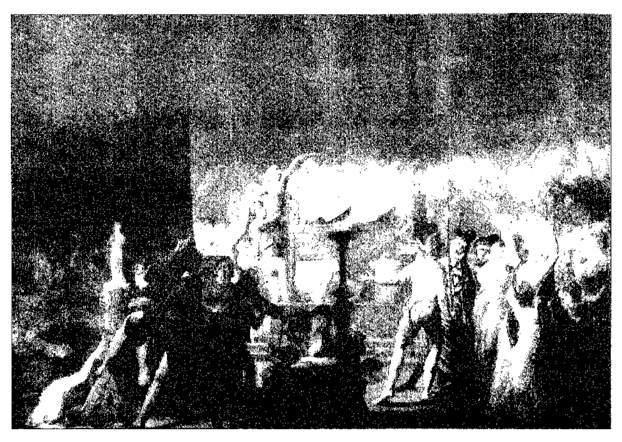
واستدار إلى لوحة ليبلتييه المعلقة على الجدار، وأبدى غيروت عندئذٍ استغرابه قائلاً، «ديفيد، أين أنت، خذ ريشتك، ثمة لوحة أخرى لك يجب أن ترسمها».

برز ديفيد، طبعاً، في المناسبة، ولم يكن مستعداً لخلق صورة خالدة للشهيد الثوري

وحسب، بل وضع تصميم طقوس الموت كمظاهرة عظيمة للإخلاص الوطني. فبعد سابقة ليبلتيير، سيُحنّط الجسد ويعطّر ويُعرَض للجمهور لثلاثة أيام، وبعد ذلك سيكون هناك موكب جنائزي مهيب ومُتقن. وكان التحدي للفنان بطريقة ما تنظيف جثمان مارا كفاية لعرض الشخصية التي ستعطى لها صفات مثالية ومتطهرة من الخطيئة التي كانت في ذهنه، ومع ذلك تترك دليلاً كافياً للعنف الذي يشير إلى الدم الذي سفحه البطل من أجل الثورة. وسنرى أنه لإنجاز هذا الإنفاذ المتزامن للفناء والخلود في لوحته بأدوات شكلية من العبقرية والإبداع. غير أن الطقوس العاجلة طرحت بعض المشكلات التقنية الجدية. فجثمان ليبلتيير قد عرض في أواسط كانون الثاني، عندما ساعد الطقس على تمديد فترة الحفظ الطبيعي. لكن جثمان مارا، من جهة أخرى، فغالباً ما أخذ يتعفن في الحال جراء حرارة أواسط الصيف الشديدة.

لقد استأجر ديفيد المحنط لويس ديشامب Louis Deschamps وهو عبقري في فنه باتفاق عام مقابل 7500 ليفر (بما فيها ثمن المواد) ليقوم بالتحنيط. ومع مساعديه الخمسة عمل سريعاً، لكن المهمة كانت معقدة بالمواصفات الدقيقة المحددة التي وضعها ديفيد. فلدى الرسام مشهد ملهم خاص في ذهنه: يظهر الشهيد في وضعية مريحة على سرير روماني، ويكشف وجهه عن موقف من السلام السامي. وسيعرض القسم الأعلى من الجذع ليُري الجرح وساعده اليمنى ستكون ممدودة تحمل القلم المعدني الذي يمثل إخلاصه الذي لا يكل للشعب. كان ذلك تصوراً قوياً لكنه كابوس للمحنط. فحالة جلد مارا المثيرة للإزعاج يجب أن تُقنّع بدقة بمواد تجميلية والجرح نفسه الذي بدأ بالانفراج، خيط ليقدم الدرجة المناسبة للطعنة. وما دام وجهه قد أُسند على مخدة، فيجب قطع رابطة اللسان لتجنب تدليه بطريقة لا تليق بالشهداء. والأسوأ من ذلك كله، كان ثمة عيب جدي في وضع الذراع. فالمركيز السابق دي كريكي de Créqui (مراقب غير متعاطف مع المشهد) زعم أنه لحل هذه المشكلة، يجب ربط ذراع أخرى من جثة مختلفة، لكن في تلك الليلة، لذعر المخلصين، فصلت الذراع نفسها عن الجسد وسقطت على الأرضية وهي لا تزال تمسك بالقلم.

تشير لوحة لرسام مجهول إلى مدى العرض الناجح في كنيسة الكوردلييه، وُضع السرير مقابل أقمشة ثلاثية الألوان صممت وقُدّمت من الوطني بالوي، الذي قدم أيضاً حجرين من الباستيل منقوشين على التتابع باسم مارا وصديق الشعب. وتاج من ورق السنديان، رمز عبقرية مارا الخالدة، وضع على جبينه ورميت الورود والأزهار على نعشه.



الصورة 179، اللوحة لرسام مجهول، عرض جسد مارات في كنيسة الكوردلييه.

وبعيداً في الأسفل (لأن المنصة التي وضع عليها كانت أعلى كثيراً مما تشير إليه في الصورة) جُمعَت رموز شهادته: حوض استحمام من رخام سماقي اللون، الرداء الملطخ بالدم، طاولة المكتب التي هي صندوق عادي مع محبرته وأوراقه. وعُرِضت للعيان في كل أرجاء الكنيسة كتابات مارا.

وهكذا احتشد أناس كثر في الكنيسة يوم الخامس عشر وصباح السادس عشر من تموز إلى درجة أن المشاهدة كان يمكن أن تستمر لأيام كثيرة. ولكن عملية التعفن كانت متسارعة بطريقة يتعذر وقفها. كان الخل والعطر يُرش على الجسم من حين إلى آخر في محاولات لإخفاء الرائحة المزعجة المتزايدة. وفي هذه الأحوال لم يكن ثمة شيء لمعالجتها إلا بتعجيل الدفن إلى مساء يوم السادس عشر. وربما بسبب السرعة التي نظمت بها المناسبة، كان ثمة غياب واضح للتمثيل الرسمي من المؤتمر ولجانه. وبدلاً من ذلك، كانت الجنازة قضية منتدى الكورديلييه إلى حد كبير والجمعيات الشعبية الأخرى والأقسام. وفي موكب بالمشاعل، مع الموسيقى والأغاني التي وضعها غلك Gluck، حملت أربع نساء حوض الاستحمام، وحملت أخرى القميص الملطخ بالدم على رأس رمح. وفيما مرّ الجثمان عبر الشوارع، رمت نساء أكثر وأكثر الورود على وجه مارا المبيض بشدة،

وكانت الجائزة المتبقية جرة من عقيق تحتوي قلب البطل. حنّطه ديشامب منفصلاً، وقد أُعلِن «ملكية طبيعية لمنتدى الكورديلييه، وعلقت من قنطرة في قاعة اجتماعاتهم، تتأرجح إلى الأبد فوق رؤوس المدافعين عن الشعب. وكان على الجثمان أن يخلد إلى الراحة في غار حجري، ارتجله على عجل المهندس المعماري مارتن في حديقة المنتدى.

وكما أكد جان غويلومو Jean Guilhaumou، نُسِّقت الجنازة حول خلود الشهيد. فقد ضمن خلود كلماته ومبادئه أنه طالما الجمهورية باقية مثلها سيبقى مارا حياً. ودمه المراق بوفرة لن يجف ببساطة من الوطن بل عملياً أنعش حيويته ـ أشياء الحياة لا الموت. «ليكن دم مارا بذرة الجمهوريين البواسل»، أعلن أحد الخطباء، وهو يرش سائلاً غير معروف من كأس. وهذا الرفض للموت لم يكن بالإمكان أن يغدو مبيناً بشكل حاسم أكثر مما أعلن جاك رو Jacques Roux (أحد المطالبين بعباءة مارا) في جريدته Publiciste de la République Française. فقد أصر على كتابة: «مارا لا يزال حياً» Marat N'Est point Mort». فروحه التي تحررت من شكلها الأرضي انزلقت إلى كل أرجاء الجمهورية لتقدم نفسها إلى مجالس الفيدراليين والطغاة» حروف كبيرة. ومارا النسر، عندئذ، أُطلِق حراً ليحوم فوق أرض فرنسا المتحاربة، ينقض وينتزع لينهك أعداءها أو يتجسس، بشكل غير مرئي، على مكائدهم. وعلى نحو غريب كفاية، ترجع هذه النسخة المحمولة جداً للوطني الكلي الوجود في كثير منها إلى موضوعات مارا نفسه التي تنبأ بها في رؤاه لسياسة المناطيد.

وهكذا مرتقياً من الضريح، كان طبيعياً أن يذكّر مارا كتاب سير القديسين ببعث آخر. فسجد موريل أمام جرة العقيق ورتل:

يا قلب المسيح، يا قلب مارا... تمتلكان الحق نفسه أن نجلكما. يا قلب مارت، أيها القلب المقدس... هل يمكن لأعمال وخير ابن مريم أن تُقارن بتلك الأعمال التي أنجزها صديق الشعب وحواريوه ليعاقبة الجبل المقدس؟... كان مسيحهم مجرد نبي مزيف ولكن مارا رب. لتعش طويلاً يا قلب مارا... مثل المسيح، أحب مارا الشعب بحماس... ومثل المسيح، مقت مارا النبلاء والكهنة والأغنياء والأوغاد... ومثل المسيح عاش حياة بائسة ومقتصدة...

بينما كان هذه مثال متطرف، غدا تقديس مارا أداة قوية في الدعاية الثورية. في الحقيقة، ربما كان مارا الميت أكثر نفعاً لليعاقبة من السياسي الحي السريع الغضب الذي لا يمكن التنبؤ بموقفه. فقد حُرِّكت سيمون إيفرار Simone Evrard باسمه لمهاجمة



الصورة 180، نسخ (بعد ديفيد)، مارا الميت

الساخطين عندما جاء الوقت لاجتثاثهم السياسي. ويجب أن تُطبَّق الدكتاتورية الثورية التي أوصى بها جدياً للدفاع عن باريس وفرنسا ضد «المؤامرات» التي دمرتها. وللتماثل مع مارا غدا سريعاً شهادة للنقاء الثوري. وقد عُدِّلت أسماء الأمكنة، فمونمارتر أصبح مون مارا وشارع الكورديلييه غدا شارع مارا، ونحو ثلاثين كومونة في كل أرجاء الجمهورية ضمت الشهيد إلى اسمها الجديد، وحلَّ التمثال النصفي للرجل العظيم محل تمثال العذراء في شارع rue aux Ours وفتح مطعم جديد في شارع rue Saint - Honoré سمي مارا العظيم. وغدت أغانٍ مثل موت الوطني مارا La mort du Patriote Marat شعبية سريعاً وفي مسرح المدينة Théâtre de la Cité، أحرزت مسرحية تعرض مقتله نجاحاً فورياً. وفي أيلول عمّد قسان متزوجان طفلاً باسم الحرية الأعلى مقاماً» بروتوس مارا ليبلتيير. وحتى الجندي الشاب جوشيم مورا Joashim Murat، الذي سيغدو أحد أكثر مارشالات نابليون توهجاً وملكاً لنابولي، وقع كخبير في العقيدة من خلال إحلال حرف الإي محل حرف اليو في اسمه.

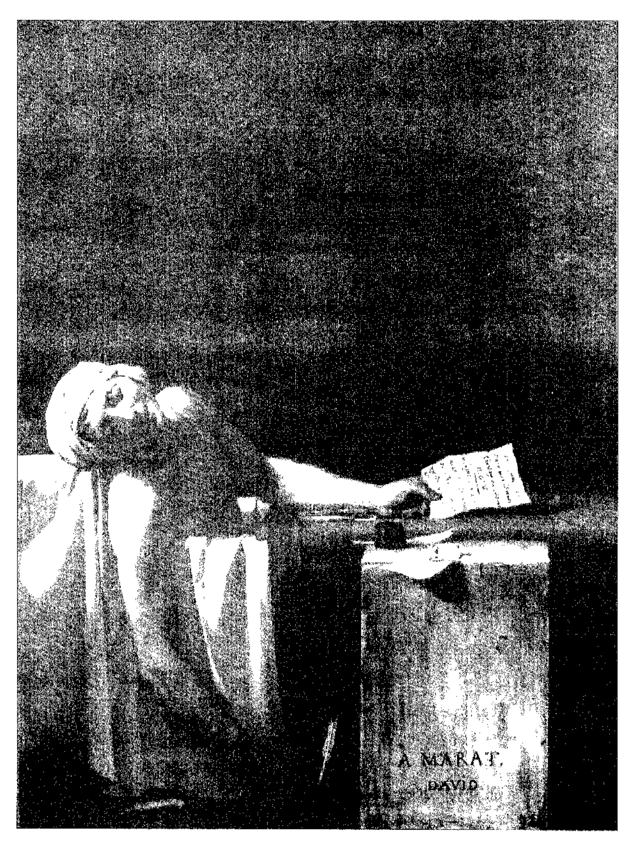
ومع أن طبعات البطل والطريقة التي قابل بها نهايته وُزِّعت بأعداد هائلة في كل أرجاء فرنسا، فكثير منها وزعته نوادي اليعاقبة، التي كانت كلها تحت ظلال رائعة ديفيد التي اكتملت في تشرين الأول. وقد سمح للجمهور بزيارة ستوديو ديفيد، وقدّم قسم المتحف مأدبة احتفالاً، وحُملت اللوحة، التي تنذر بالخطر إلى حد ما، بانتصار مع لوحة

ديفيد لِـ ليبلتيير عبر الشوارع إلى اللوفر، حيث وضعت في الصالون الأول في قسم الجمهورية.

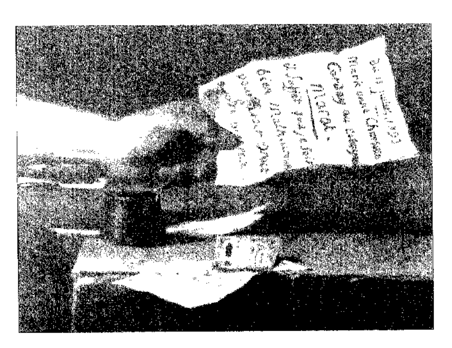
رأى كل جيل اللوحة بوصفها تجلياً. وفي الحال وصف واقعي على نحو يبعث الرعشة للقتل وبابيتا ثورية (البابيتا لوحة تظهر السيدة مريم تندب فوق جسد المسيح الميت ـ المترحم). ودم الشهيد هناك غزير، وقد عولج بوضوح مثير. مارا يستحم فيه. في كل مكان اجتمع الأحمر الغامق مع الأبيض الخامد: الدم يلطخ نقاء القماش، بقع على رسالة كوردي، يكسو السكين، ومقبض السكين التي حولها ديفيد من خشب إلى عاج، الأفضل لتعزيز التعارض. وقرب يد مارا مجموعة من الوثائق التي لا يمكن الإجابة عليها تشير إلى قدسيته. وقد وضعت بجانب بعضها في تباين أخلاقي مبهر. والرسالة المرائية للقاتلة تتوسل إليه، «إنه لشيء كافٍ أن أكون غير سعيدة لأمتلك الحق في إحسانك»، بينما الأوراق على مكتب مارا توحي أنه كان الصديق الحقيقي للشعب. وبالإضافة إلى عملة ورقية جمهورية وضع ديفيد ملاحظة في يد مارا تحمل تعليمات لِتُعطى إلى أرملة لديها خمسة أطفال التي «توفي زوجها من أجل الوطن». وفي القلب الأخلاقي للوحة، بعدئذٍ، موت داخل موت أضاءه ضوء التضحية الثابت الرزين

III ـ «الإرهاب نظام هذه الأيام»

وفيما أشرقت شمس آب فوق موقع الباستيل، حيتها جوقة من الفتيات يرتدين الأبيض بنشيد للطبيعة من ألحان غوسيك Gossec. والمكان كان قد تحول إلى مشاهد طبيعية فالأشجار والجنبات شهدت انتصار الطبيعة المحايدة على الحجارة الميتة لنظام الحكم الاستبدادي (الأولى طبعاً قدمها بالوي). وفي هذا المكان الذي أعيدت تسميته ليكون ساحة لمّ الشمل Champ de Reunion شهد جمع غفير الطقوس الدوريدية الثورية Druidism. وعندما انتهت المجموعة من إنشاد الكانتاتا التي استندت إلى نشوة روسو في وحدة الوجود في **الاعتراف** du Foi d'un Vicaire Savoyard، صعد رئيس المؤتمر، هيرول دي سيشل ببطء سلماً ذا درجات بيضاء. نُصب في أعلاه تمثال بالطريقة المصرية متوج بين الأسود. كوّبت يداه نهدين يتدفق منهما الماء إلى خزان صغير في الأسفل. وإذ حيا التمثال والحشد، خاطبه الخطيب بوصفه تجسيداً للطبيعة التي كان خصبها يبارك الثورة، وهذا اليوم بشكل خاص ـ «الأكثر جمالاً الذي تشرق فيه الشمس منذ أن عُلّقت في الفضاء الشاسع أول مرة».



الصورة 181، للرسام جاك لويس ديفيد مارا عندما اغتيل



الصورة 182، تفصيل من لوحة جاك لويس ديفيد مارات عندما اغتيل

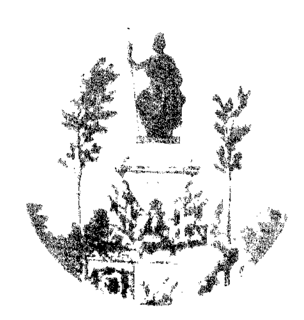
وعلى نحوٍ هادف تماماً، مدّ كوباً قديماً للإمساك بهذا السائل العجيب، ثم صبه على الأرض، معيداً تعميد التربة باسم الحرية. وإذ صبّ كوباً ثانية، تبعه في هذا الطقس ستة وثمانون رجلاً عجوزاً، يمثل كل واحد منهم مقاطعة من فرنسا. وبينما كان كل منهم يرتقي السلم كان الطبول تُقرَع وتنفَخ الأبواق النحاسية، ويسود صمت عندما كان الكوب يُصَبّ، وبعد ذلك يُطلَق المدفع ويتم تبادل القبل الأخوية.

ابتكر هذا الاحتفال الاستثنائي ديفيد مع فريق من المعاونين شمل غوسيك وماري جوزيف شنييه Marie Joseph Chénier لاستكمال القبول الرسمي بالدستور الجديد. وقد صُمّم ليكرر تاريخ الثورة في مهرجان رمزي يحرك حشداً كبيراً من موقع إلى آخر ثم يُتوّج في ساحة مارس، حيث نُصِبت «طاولات» الدستور على مذبح الوطن *altar of the patrie*. وقد أُقيم هذا الاحتفال من أجل الوحدة وعدم القابلية للتقسيم في 10 آب، الذكرى الأولى لسقوط الملكية، وكانت مناسبة باريسية إلى حد كبير، كما لو أنه يعيد التأكيد على أن باريس كانت الثورة، وقد استخدم طبوغرافية المدينة كسلسلة من خلفيات مسرحية، تشير كل منها إلى مرحلة ما في الماضي القريب والحاضر المتحول والمستقبل غير المحدد لكن غير الخطر.

وكان أيضاً ـ كما بينت مونا أوزوف، مؤرخة الاحتفالات الثورية، بديلاً مخططاً بدقة للفوضى العشوائية وأعمال العنف التي وجدت قيادة اليعاقبة على نحو متزايد أنها مقيتة حتى عندما كانوا يستفيدون منها. فالشعب المشوش كان يجب أن يُرهَب (وبالتالي أن



الصورة 183، مطبوعة لرسام مجهول، نافورة التجدد في احتفال الاتحاد



الصورة 184، الحرية مع بقايا الملكية عند قدميها

يُضعَف) بتماثيل هائلة تمثل، بين أشياء أخرى، الشعب، بمقطوعات موسيقية حية، مسرفة، واسعة لجوقات ضخمة (كتب غوسيك خمس كانتاتات لهذا اليوم)، وفرض الخطابة والألعاب النارية البصرية، سيكرمهم جاك لويس ديفيد بأهميتهم الذاتية الخاصة التي احتجزت آمنة في الهدوء والكون الصلب في الرموز.

ووفقاً لذلك، كانت «المحطة» الثانية في الاحتفالات قوس نصر نُصب على بوليفار دي إيتاليان boulevard des Italiens. وفي رفض مدروس للاعتراف بالانتصارات الملكية ـ القيصرية، كان المحاربون المحتفلون هن نساء 5 تشرين الأول عام 1789، اللواتي جلبن الملك من قصر فرساي إلى باريس. ومع ذلك حُيِّدت الصورة الفعالة على نحو مزعج لنساء السوق المحاربات اللواتي ركبن على المدفع بعناية بشكل يتوافق مع العقيدة العامة لليعاقبة أنصار روسو حول دور الأم ـ الزوجة للنساء الوطنيات. فاستبدلت نساء تشرين الأول الأصليات بفنانات مُجمَّلات تُوِّجت جباههن بالغار واللواتي قيل لهن: «أيتها النساء، إن الحرية التي يهاجمها الطغاة تحتاج إلى أبطال للدفاع عنها. وهذا عملكن أن تربينهم. دعوا كل الفضائل النبيلة والشجاعة تتدفق معاً في الحليب الأمومي وفي قلب الأمهات اللواتي ينشئن فرنسا».

وحدثت اللحظة الأكثر استعراضية في ذلك اليوم في «المحطة» التالية في دو لا

ريفلوسيون de la Revolution. فالقاعدة التي حملت ذات مرة تمثال لويس الخامس عشر شغلتها الآن شخصية الحرية المتوجة. وعند قدميها أُلقيت مجموعة من الرموز الملكية: صولجانات، تيجان، كرات ذات صلبان ـ وحتى تماثيل نصفية، بما فيها واحد يشبه لويس الرابع عشر. ومثل نساء السوق المزيفات، كان معظمها غير حقيقي، بل جاءت مما يستعان به في غرف مسارح باريس، وقد حُملت على نعش ضخم من الباستيل إلى المجلس التشريعي. وعند إشارة معينة، أقحم مشعل في الركام، وفيما بدأت ألسنة اللهب تنطلق من الدخان، انتشرت غيمة كبيرة من ثلاثة آلاف حمامة بيضاء في السماء. كانت الحمامات حدثاً مثيراً ومفاجئاً يبرز تحرير فرنسا من الملكية، مرتفعة مثل شعارات السلام المسيحي والحرية الجمهورية في سماء زرقاء باهرة.

طبعاً، كان اليوم كله، مبنياً بطريقة مدروسة، ونفذه عملياً خيال جامح. حتى المشاهدون المرتابون الذين ظنوا أن الشكل أحمق، مثل الفنان جورج ولِ George Wille، اعترف أنه تأثر وابتهج بالأحداث، وثمة شك ضئيل بأن الشيء نفسه كان صحيحاً للحشود. ولكن بعد كل شيء كان هناك شيء ما يائس ودفاعي إلى حد ما في ألحان المناسبة التي اتسمت بالبراعة، كونها بنيت على الإنكار الممنهج للحقائق الثورية الواقعية. فالدستور، الذي أعاد هيرول دي سيشل كتابته من مسودة كوندورسيه التي لم تُصدّق في شباط، قدمت حق اقتراع ذكوري شامل، وانتخابات مباشرة وحتى التزام الدولة «بحق تأمين مورد الرزق لمواطنيها». غير أن المليون الذي صدقها إما استضعِف مقارنة مع الملايين الستة التي امتنعت عن التصويت، أو الارتباك أو التعقل. وقد فُرّغ الدستور من معناه منذ لحظة قبوله، أولاً في المؤتمر ذاته، الذي طُلِب منه أن يحل نفسه عند استكمال الوثيقة، وبعدئذٍ من خلال إنشاء مؤسسات الإرهاب العاملة، التي عطلت في الواقع كل أحكامه.

ربما كان النصب التذكاري الأكثر تفاؤلاً الذي اختاره ديفيد بتحدٍ قد تقرر إنشاؤه في الإنفاليد Invalides حيث بُني هرقل جبار يمثل الشعب الفرنسي يسحق الفيدرالية. كان البطل في ذلك الحين مألوفاً بوصفه أحد الرموز العامة لأمراء النهضة وفي عهد هنري الرابع انتحل بوصفه «الهرقل الغالي». وفي نسخة ديفيد أُعِدّت إحدى الذراعين لتضرب بقوة الفيدرالية المتوحشة التي تلوت ألماً عند قدميه بينما أمسكت اليد الأخرى بحزمة القضبان (رمز السلطة عند الرومان) التي تمثل وحدة مقاطعات فرنسا.

وفي أواسط صيف عام 1793، في كل حال، كانت هذه النتيجة السعيدة لشعب



الصورة 185، الشعب الفرنسي يسحق الفيدرالية

قوي ومتحد يقهر أعداءه مؤكدة بلا شك. كان ثمة أخبار جيدة مبهجة. ففي 13 تموز هاجم «الجيش» النورماندي المتواضع بقيادة بواسيه Puisaye قوة جمهورية في باسي - سور - يور Pacy - sur - Eure. وقد هرب الفريقان عند سماع طلقات المدفع الأولى، غير أن الفيدراليين هربوا أسرع وأبعد وهكذا كانوا أكثر إرباكاً وضعف معنويات بشكل حاسم. وطالما أن أقساماً هامة من مقاطعة نورماندي فشلت في الحشد لقضيتها، كان ذلك، في الحقيقة، نهاية المحاولة لخلق قوس فيدرالي من باس ـ دي ـ كاليه Pas - de - Calais إلى بريتاني العليا. وفي الجنوب، عاد الجنرال كارتو Carteaux فاستولى على أفينون من قوة صغيرة مكلفة بحملة من مرسيليا في 27 تموز وهكذا أعاق أي ربط بين الفيدراليين في ميدي وهؤلاء الذين في ليون.

كانت هذه الانتصارات الحاسمة، في كل حال، تغيراً مفاجئاً بواسطة سلسلة كوارث أكثر ترويعاً. فخلال الأسابيع الأخيرة في تموز سقطت القلاع الحدودية في كوندي وفالنسين Valenciennes أمام الجيش النمساوي بقيادة كوبرغ، الذي بدأ عندئذٍ بحصار موبنج Maubenge. وإذا سقط ذلك الحصن القوي، سيكون صعباً الدفاع عن وادي المارن الذي سينفتح أمام التقدم إلى باريس. وفي الرين، قرر الجنرال كستين Custine أن يجلو عن مينز ويتركها للجيش البروسي (وأعلِن في باريس خائناً من غير إبطاء). وفي



الصورة 186، لمجهول، لوحة إعلانية، وحدة الجمهورية



الصورة 187، للرسام ل. ديفيد صورة جورج دانتون

الشمال الشرقي، كان جيش دوق يورك في هولندا يتقدم إلى دنكرك، وفي الجنوب الغربي، كان الاسبانيون يهددون بربينان. وفي فندي، لم تعوض النجاحات الصغيرة الهزائم الكبرى في شانيلون فيير Vihiers. وتخاصم جنرالات الجيش الجمهوري مثل رونسين وروسينول مع أصدقاء لافايت السابقين في الجيش أمثال بايرون، فيما قارن بارير Barère الجيش الجمهوري بعربة أمتعة ملك بلاد فارس: تجر 120 عربة وراءها في حين زحف «قطاع الطرق» بكسرة من خبز أسود في حقائبهم. وفي النهاية، ومع أن المدن الفيدرالية قد فصلت، لكنها لم تُهزَم. فقد كانت مرسيليا وطولون معروفتين بأنهما تتفاوضان مع الأسطول البريطاني من أجل المواد الغذائية ورد سكان ليون على حرمان المؤتمر لتمردهم من حماية القانون بإعدام شالييه في اليوم نفسه الذي ذهبت فيه شارلوت كوندي إلى المقصلة.

وما جعل هذا الوضع المروع أكثر سوءاً هو الانقسامات المريرة (على الرغم من عبادة الوحدة) داخل السلطات الثورة المتنوعة والزمر حول الطريقة الأفضل لمواجهة الأزمة. فحتى 10 تموز كان لدانتون الحضور المهيمن في لجنة السلامة العامة. وقد ووجِه الآن بالمعضلة نفسها التي خربت عمل حكومات الجيروندييين والملكيين Feuillants والملك: كيف يجب إنشاء دولة قابلة للحياة وسط اضطراب سياسي؟ كان جوابه، مثل أجوبة سابقيه جميعاً، باستثناء الملك، عملياً أكثر منه دغمائياً. لكنه كان داهية كفاية يخفي نزعته العملية في العنف الخطابي. فعلى المنبر، استطاع دانتون أن يتخلص من النقد بقوة شخصيته العدوانية المحضة. وبخلاف روبسبيير، الذي كان أداؤه الخطابي مباشراً وأكاديمياً نسبياً، والذي اعتمد في الإقناع على حجج مشغولة بدقة واعترافات الاستقامة الشخصية، طوّر دانتون أسلوباً مرتجلاً وغير متوقع. ومثل ميرابو (الذي أشبهه كثيراً) استخدم رأسه الكبير والعنيد، الذي غالباً ما قارنه معاصروه برأس الثور، في التأثير الأقصى، يهدر على خصومه، ويرفع صوته كاملاً بحجم طنان يثير مشاعر المؤتمر إلى الموافقة.

وفي صيف عام 1793، كان صوت دانتون نصيحة الكبح والشك، وقد هاجم مستخدماً هراوة سخريته أنا كارسيس شوت Anacharsis Choots بالتحديد من أجل نزعته المسيحية الثورية، التي ستأخذ الثورة في حرب أبعد من حدود فرنسا إلى أن تبنى الجمهورية العالية. ألم يزعم تشوت أنه لن يستريح حتى تقوم ثمة جمهورية على القمر؟ وفي ما يتعلق بالحاضر، ذكّر دانتون الذين يصغون إليه، أنه كافٍ أن نحاول إنقاذ فرنسا.

ولفعل ذلك كان مستعداً للشروع في مبادرات شجبها هو بعنف منذ عام عندما كانت الجمهورية تواجه وضعاً مماثلاً. وأمل مثل دِموريز في فصل البروسيين من التحالف. ومع أن الإمبراطور النمساوي لم يكن محتملاً أن يفاوض، لا سيما وأن موقفه العسكري يبدو قوياً، اعتقد دانتون أن أمن ماري أنطوانيت يمكن أن يُستخدَم ورقة دبلوماسية، وهكذا قاوم الكومونة بمحاكمتها.

وفي الوقت نفسه، عرض شروطاً شهمة نسبياً لِـ ايزر Isere ومقاطعات أخرى كانت تميل باتجاه الفيدرالية لكنها على نحو حصيف لم تُقدِم على الالتزام العسكري. واقترب حتى من مونبلييه Montpellier بوجهة نظر لحرف وجهة القوات الفيدرالية بعيداً عن باريس إلى ليون. وفي فندي، عُيِّن بايرون ليرى ما إذا كانت هناك أية إمكانية لتسوية سياسية. وكان وسترمان، وهو حليف آخر لدانتون يسعى إلى فرض انضباط الجيش المحترف القديم في الجبهة على جنرالات الجيش الجمهوري. وفي النهاية، في باريس ذاتها، عارض دانتون مقترحات الإرهاب الاقتصادي - رقابات أسعار واسعة وتمويل غوث الفقراء بفرض قروض وضرائب شديدة القسوة على الأغنياء التي كان يطلقها الساخطون والكومونة.

وبدا الظهور المروِّع لِـ جاك رو Jacques Roux في المؤتمر مساء 25 حزيران أنه يلعب لصالح هذه النزعة البراغماتية. كانت ترافقه مجموعة من الجيش الجمهوري وطلب أن يقرأ خطاباً أقرته أقسام غرافلييه Gravilliers وبون نوفل Bonne - Nouvelle ونادي الكوردلييه لقد كان في الحقيقة نقداً شديداً ضد الذين يصغون إليه. صاح بهم، «أيها المشرعون، لم تفعلوا شيئاً من أجل سعادة الناس. فلأربع سنوات، لم يكسب من الثورة إلا الأغنياء. لقد مارست الأرستقراطية التجارية، التي هي أشد وطأة من النبلاء، لعبة وحشية... بثروة الجمهورية». وماذا جرى فعله لإبادة «مصاصي الدماء؟» هل سُنّت عقوبة الإعدام ضد ادخار الحبوب بهدف الاحتكار والاتجار؟ وهل حمي الشعب ضد ارتفاعات الأسعار الوحشية التي يخلقها المضاربون؟

قوبل رو بتململ متكرر وسعال مُنظّم وتنهدات قسرية وحملقة بالسقف. كان هذا هو نوع الأشياء، كما شعر باريه، الذي كان عليهم متابعتها إلى النهاية باسم مداراة الجيش الجمهوري. ومع ذلك، فبعد خمس دقائق في الخطاب، جعلتهم إحدى الملاحظات الخاصة في خطاب الكاهن الخطيب ينهضون كالسهام استقامة أو يقفون ساخطين، يصيحون استنكاراً ويلوحون بأوراقهم ضد جراءته. وتلك الملاحظة، التي قالها هي «عار القرن الثامن عشر... أن يعلن ممثلو الشعب الحرب على الطغاة الخارجيين لكنهم جبنوا

عن سحق هؤلاء الذين داخل فرنسا (الأغنياء). *في النظام القديم، لم يكن ليسمح أبداً بأن تباع السلع الأساسية بثلاثة أمثال قيمتها* (تأكيد المؤلف). والدستور الجديد لن يفعل شيئاً لمعالجة هذه التعاسات والمؤتمر تابع الالتزام بإلحاق الأذى بالأمة عبر السماح بسقوط العملة الورقية وتمهيد الطريق للإفلاس.

كان الاتهام بأن الجمهورية عملياً أكثر قسوة تجاه الناس العاديين من الملكية القديمة مروعاً إلى درجة حرَّكَ بعض خصوم رو (بمن فيهم كثيرون من كل الإطراف في المؤتمر عملياً) أن يشيروا إلى أنه شُجِّع على القيام بهجومه من المعادين للثورة. فكان الهجوم كافياً لاعتقاله وللجنة السلامة العامة أن تدير حملة جدية في غرافيليه أجبرت سلطات القسم على التبرؤ منه. غير أن رو في إخلاصه غير المنضبط في الواقع ضرب على حقيقة جوهرية. لم يكن معظم هؤلاء الذين جعل عنفهم باريس لا يمكن حكمها في عامي 1788 و1789، وبالتالي سمحوا للثورة أن تنجح، مفتونين بالليبرالية الاقتصادية أو النزعة الفردية أبداً. وكان الكثير من غضبهم رد فعل ضد عملية السوق التي لا يمكن التنبؤ بها والموضوعية. لقد تعلقوا بمجموعة الأفكار التقليدية التي ترى في ارتفاع الأسعار ونقص المواد عملية «المؤامرة مجاعة» وهكذا بعيداً من رغبتهم بأن تحل الدولة كل الحماية لجمركية، أرادوا سياسة أكثر تدخلاً في العملية الاقتصادية. لم يكونوا غير مبالين وحسب، عندئذٍ، بل عملياً معادين للكثير من التحديث ومشروع الإصلاح الذي بدؤوا بتنفيذه، أولاً من خلال الملكية ثم بواسطة أنظمة حكم ثورية متوارثة متتابعة.

وقد وضعهم ذلك في نزاع مع النخبة الثورية، بمن فيها معظم قيادة اليعاقبة. وحديثاً في شباط عام 1793، أثارت أعمال شغب البقاليات الشجب ضد تثبيت الأسعار الشعبية بالتهديد أو حقيقة أعمال العنف. وبحلول الصيف في كل حال، كان الخبز يباع مقابل ستة قروش للرطل وغدا الكثير من برنامج الساخطين ـ عقوبة الموت لخازني المواد التموينية والمضاربين وسقوف أسعار وفرض قبول العملة التي أصدرتها الحكومة الثورية Assignat ـ شروط إيمان، ليس في منتديات الكورديلييه وحسب بل في الكومونة أيضاً. فقد فتح خطاب روبسبيير في الخريف الماضي، الذي يشير إلى أن حقوق الملكية ليست مطلقة بل محدودة بمسؤولية عدم إلحاق الأذى بوجود الآخرين، الباب لتغيير جدي في القلب بين قسم من اليعاقبة أنفسهم. وصارت الهجمات على «الأنانيين الأغنياء» riches egoists و«مصاصي الدماء» والمقترحات من أجل ضرائب تصاعدية وضرائب قسرية على الأغنياء لدعم عمليات الغوث العامة والأسعار مألوفة.

كان منتصف تموز نقطة انعطاف حاسمة. فقد انكمش وضع دانتون الذي تقوضت قاعدته بسلسلة الارتدادات والتشوشات المتراكمة. واستدعي وسترمان، ربما ليواجه المحكمة الثورية. ولم يكن الوضع مساعداً بسبب لامبالاة دانتون بالدفاع عن نفسه وحلفائه لدى اليعاقبة. وعندما أسقطه المؤتمر وصديقه القريب لوكروا من عضوية لجنة السلامة العامة فجأة في 10 تموز، في الانتخابات الجديدة، لم يبدُ أنه انزعج كثيراً. وفي الحقيقة أظهر ارتياحاً واضحاً في أنه استعاد حرية العمل خارج الحكومة. وربما قد حسب أيضاً أن وضع الجمهورية الذي وجد نفسه فيه كان خطيراً إلى درجة لا يمكن لحكومة ثورية أن تستمر فيه دون انتفاضة كبرى أخرى من نوع ما.

وقد تبين أن هذه الحسابات كانت خاطئة إلى درجة خطيرة. فبعد مقتل مارا، تحولت لجنة السلامة العامة التي كانت معنية بالأشياء الجوهرية وأعادت بناء نفسها باعتبارها ماكينة الدولة الأكثر تركيزاً التي خبرتها فرنسا يوماً. لقد أدركت ما يغيظ الحكومة الثورية بعزم وتصميم فات كل أسلافها. فقد أعطِيَت مصالح الدولة المحاربة الأولوية المطلقة فوق تلك المتعلقة بالتعبير السياسي لأول مرة بعد براين، أو في الحقيقة، المستشار موبو Maupeou. وهكذا مثّل الإرهاب مقتلاً لحلم الثورة الأول: أن الحرية والسلطة الوطنية ليستا متوافقتين وحسب بل تعتمد كل منهما على الأخرى. وبالتالي، ما بدا أنه السمة التي تتعذر السيطرة عليها في الثورة الفرنسية - انفعالها السياسي - أُوقع في شرك قمقم دكتاتورية وطنية. فكان يجب إنهاء السياسة لتنتصر الوطنية: وسيكون ذلك العقيدة الأساسية للنزعة البونابرتية.

وكان يجب أن تكون هناك أربعة مكونات لهذه الدولة الثورية الجديدة هي: العودة إلى التنظيم الاقتصادي التقليدي، التعبئة الضخمة للموارد العسكرية، إعادة التفكير في حالة قوى العنف العقابية واستبدال السياسة التلقائية ببرنامج أيديولوجي رسمي. (إنه لشيء واقعي أن ندرك كيف أن كل هذه بنود هذه القائمة يمكن أن تصف بالمثل فرنسا لويس الرابع عشر أيضاً). كان الرجال الذين وضعوا هذه المهام، في ذلك الوقت، مجهزين بطريقة مثالية للعمل. كان روبسبيير وسان جست وجورج كوثن الأيديولوجيين، فصحاء في تمثيل اللجنة في المؤتمر، نسقوا بدقة الجدول الزمني وتركيز الهجمات القضائية المصممة لاستباق الحركات الجانبية ضد اللجنة، إما من أنصار دانتون من اليمين أو من أنصار هيبرت من اليسار. فبينما قدم روبسبيير وسان - جست اتهاماً رفيعاً بلاغياً ضد «المؤامرات الأجنبية» هيّأ برتراند باريير وهيرول دي سيشل مندوبي السهل Plain، الذين من دون

موافقتهم لم يكن للدكتاتورية أن تستمر. ورأت مجموعة أخرى من الأعضاء في اللجنة أنهم إدارة حرب: مدراء الإمدادات. كان لازار كارنت Lazare Carnot وبريور دي لا كوت دور Prieur de la Côte d'Or مهندسين وقفا حياتهما لتموين الجيش، في حين تولى جنبون سان ـ أندريه Jeanbon Saint - André رعاية الأسطول. وصار روبرت لندت Robert Lindet رئيس هيئة الأرزاق، يحرك إمدادات ضخمة من الطعام إلى الجيش وسكان المراكز الرئيسة. وبعد عام، ستنتقد هاتان الرؤيتان المختلفتان لفرنسا اللتان تصلبتا في نار الحرب لجنة السلامة العامة بشدة. سيبدو مفهوم روبسبيير المؤيد لروسو حول الجمهورية بوصفها مشروعاً ضخماً في البناء الأخلاقي ليس مجرد بعيد الاحتمال وحسب، بل مدمراً عملياً أيضاً حسب رؤية الإداريين والمهندسين ـ ورثة شغف الملكية بحكومة التكنوقراط. ومهما يكن فقد نجح تقسيم العمل بين هؤلاء الذين أداروا الإرهاب بقليل من الخلاف على نحو مدهش للأشهر التسعة التالية، في حين هزمت الجمهورية أعداءها بثبات.

كانت الأولوية الأولى تحييد مراكز المعارضة. وكان للأحكام الانتخابية الديمقراطية إلى حد كبير في الدستور الجديد إمكانية تفكيك القوة المركزية حتى أكثر من ذلك. وهكذا في 11 آب بعد يوم واحد من المهرجان احتفالاً بقبول الدستور، تّم التغاضي بطريقة ساخطة عن الاقتراح بحل المؤتمر وإجراء انتخابات جديدة. وبما أن الحكومات الثورية المتعاقبة قد شرعت بمجموعات مستاءة مستعدة لرعاية انتفاضات شعبية أو إعطائها الشرعية، فالمنافسون الحاليون ـ مؤيدو هيبرت في الكومونة ـ يجب فصلهم دونما هدف من مرتبتهم وإقامة الدعاوى عليهم في الأقسام. تماماً مثل هيبرت وشوميت Chaumette اللذين سيطرا على عقيدة الساخطين دون ساخطين، وهكذا كان اليعاقبة آنئذٍ مستعدين للسيطرة على أنصار هيبرت. لم تكن هذه مجرد مسألة تكتيكات سياسية على الإطلاق. فقد تمَّ إقناع عدد حاسم في اللجنة وفي المؤتمر، وبحلول نهاية تموز، غدا ذلك النوع من الإجراءات، التي قاوموها طويلاً، لا بد منها عملياً لبقاء الجمهورية آنئذٍ.

وفي السادس والعشرين من تموز، على سبيل المثال، تبنى المؤتمر في النهاية اقتراح كولت دربوا Collot d'Herbois فسنّ عقوبة الإعدام لمحتكري المواد التموينية، ووضع القانون نفسه قائمة طويلة «بالسلع الضرورة الأولى» التي شملت ليس الخبز والملح والنبيذ وحسب بل الزبدة واللحم والخضار والصابون والسكر وخيوط القنب والصوف والزيت والخل. وكان مطلوباً من كل من يملك مخزونات من مجموعة السوق هذه أن

يقدم إعلاناً رسمياً للسلطات خلال ثمانية أيام. حيث تستطيع البلديات مع هذه المعلومات لديها أن تلزم باعة الجملة والمفرق أن يضعوا مخزوناتهم في السوق في أي وقت تحت طائلة الإعلان «محتكراً». وفي التاسع من آب تمت خطوة جبارة أخرى إلى ممارسة ما قبل لويس السادس عشر، عندما أُنشئت صوامع حبوب في كل أنحاء فرنسا بناء على إلحاح ليونارد لوردن (مندوب غرافلييه Gravilliers وبالتالي المهتم بشكل خاص بالحلول محل جاك رو). فكانت الحبوب الزائدة في مواسم الحصاد الجيدة والأمكنة التي تتوفر فيها تخزن لسنوات النقص، حيث يمكن أن تطرح في الأسواق، وتساعد على تخفيض الأسعار. وكان هذا المرسوم «الثوري» مماثلاً إلى هذا الحد أو ذاك لإحدى المؤسسات التنظيمية العامة في النظام القديم. وكان الفارق الوحيد هو أنه في ظل الملكية كانت الأقاليم تمتلك سلطة أكبر للتصرف وفق مبادرتها أكثر مما منحها نظام الإرهاب الاقتصادي الأبوي.

وقد اقتضت تلك الإجراءات ضمناً، طبعاً، شبكة معلومات ضخمة حول المحاصيل والغلال التي بدورها انطوت على تدخل غير مسبوق في الاقتصاد الريفي من خلال الدولة البيروقراطية. وحتى الإرهاب لم تكن لديه موارد ملائمة لهذه الممارسات الهائلة في الاستطلاع بطريقة متطفلة، وغالباً ما أوكلت هذه المهمة إلى ثوريي الجيش الجمهوري، الذي أرسل لتطبيق الإرهاب الاقتصادي والذي فتش القرى من أجل أكياس القمح المخبأة أو يحرس الحقول مخافة أن يحصد الفلاحون المحصول في حين لا يزال أخضر بدل أن يسلمونه بأسعار مفروضة. وعلى المسار نفسه، كان رد كامبون Cambon على تخفيض قيمة الأسينية (عملة الحكومة الثورية) هو أن يبطل استعمالها ويفصلها كلية من أية قيم اسمية وضعتها العملة الصعبة الملكية القديمة. وقد اتخذ هذا الإجراء جزئياً مراعاة للاعتراضات ضد نقود لا تزال تحمل صورة الملك. ولكن كان مأمولاً أنه بهذه الحيلة الفظة سيتوقف المنتجون اليدويون عن معاملة الأسينية بوصفها جزءاً من عملة «حقيقية» وبالتالي يمتنعون عن رفع أسعارهم المعدل بشكل حتمي. وكان هذا يتوافق مع الممارسة الساذجة في الأيديولوجيا المالية أن حافظة النقود مغلقة وتخرج من العمل «المضاربين الفاسدين» الذين يغزون باستمرار سوق المال ويخلقون بشكل غير رسمي سوقاً سوداء عاجلة في العملة الصعبة. وفي الوقت نفسه، قررت الدولة استعادة السرية التي تحيط بالقرارات التي تهتم بالمسائل المالية.

وعندما جاء اليوم الثوري التالي كما ينبغي في 4 ـ 5 أيلول، وجد خطباء الكومونة

الذين طالبوا بالحماية الاقتصادية والعقوبة الشديدة لفاعلي الأعمال الشريرة أنفسهم يقرعون على أبواب مفتوحة. في الحقيقة، حثّت مجموعة كبيرة من اليعاقبة على «الانتفاضة» بإقامة مظاهرة عارمة أمام المؤتمر في 23 آب تطالب بتطهير الجيش من النبلاء، وهي سياسة أكثر شمولاً تجاه المشتبهين، ودعوة «الجيش الثوري» الجمهورية إلى تطبيق القوانين الثورية في المقاطعات. وفي الثامن والعشرين ذهب اليعاقبة أبعد في «دعوة» أقسام باريس لتقديم عريضة إلى المؤتمر بهذه المطالب. وكل الأدلة، عندئذٍ، لم تبشر إلى حركة ما مجهولة وعفوية تتدفق من المتحمسين والفقراء، بل إلى استراتيجية موضوعة بدقة وإتقان. وهكذا ففي 2 أيلول قدّم هيبرت مناشدة محددة للأقسام أن تنضم إلى الكومونة في مطالبة المؤتمر، ويبدو أنه فوجئ بعد يومين، عندما شقت حشود العمال العاطلين عن العمل الذين معظمهم من القسم الشمالي الشرقي، تمبل، طريقهم إلى أوتيل دي فيل.

وفي كل حال، حوّل قادة الكومونة المناسبة لفائدتهم فصعد شوميت إلى طاولة في المجلس العام ليعلن «لقد فتحنا الآن الحرب بين الأغنياء والفقراء» وحثّ على تعبئة الجيش الثوري فوراً ليذهب إلى الأرياف ويكشف مكائد الحاقدين والأغنياء الجشعين ويحرر الغذاء من سيطرتهم ويقدمهم للعقاب الجمهوري. وأضاف هيبرت شيئاً آخر هو أن على كل كتيبة أن تصطحب مقصلة متحركة. وهذا المطلب، كما قال، ينبغي أن يُقدَّم إلى المؤتمر في اليوم التالي.

وبما أن الكومونة قد أمرت أيضاً بإغلاق الورش، فقد ضمنت أن حشداً كبيراً سيحاصر المؤتمر، كما في 31 أيار. وفي حين أن روبسبيير بالتحديد لم يبالِ أن يشارك مقعده مع «الشعب»، إلا أنه خطاباً تبنى على المنبر، يجب ألا يُؤوَّل اليوم أنه فرض لنزعة الجيش الجمهوري على مؤتمر ممانع ومروَّع. وفي الحقيقة لم تسيطر الأزمة الاقتصادية وحدها على المناسبة بل الأخبار المبعثرة عن أن طولون فتحت ميناءها والمدينة للأسطول البريطاني بقيادة الأدميرال هود. وقد خلق هذا جواً من الوطنية الطارئة التي ازدهر فيه دانتون وبارير. ولم يكن شيئاً صعباً الحكم عندئذٍ بأن «الإرهاب سيكون نظام اليوم»، طالما كان لدى المؤتمر ولجنة السلامة العامة فكرة حكيمة أنهما من سينفذ ذلك.

وكما سُنَّ، في 5 أيلول، كان الجيش الثوري بعيداً من كونه سرايا جماهيرية للانتقام الجمهوري. وبدلاً من الجيش الجمهوري العظيم من مائة ألف الذين طالبت بهم العرائض الأولى، أو الثلاثين ألفاً الذين أمرت بهم الكومونة، خوّل المؤتمر مجرد ستة

آلاف من المشاة وألف ومائتي جندي من سلاح الفرسان للعمل في منطقة باريس، (ومع نهاية السنة، في كل حال، رفع تشكيل الجيوش في المقاطعات العدد الإجمالي لهذه القوات إلى أربعين ألفاً، انتشرت في كل أرجاء البلد.) وكان محروماً من نوع السلطات العقابية العاجلة التي تنبأ بها هيبرت. وكان ذلك بالنسبة لليعاقبة تصدير بعض المتحمسين المزعجين إلى الريف واستخدام القوة في مسألة الإمدادات الغذائية الحاسمة إلى العاصمة أقل منها مسألة إطلاق مهمة جمهورية، وهكذا حرروا أنفسهم من عبء مسألتين من مسائلهم الأكثر عناداً في الوقت نفسه.

وبمتابعة المسار التكتيكي نفسه، كان دانتون ملهماً لا سيما في تقديمه خطة بدت أنها استسلام للمتحمسين الفرنسيين فيما تتخذ في الواقع الخطوة الحاسمة الأولى لتقويض قاعدة قوتهم. وقد فهم، ربما من أيامه في «جمهورية الكوردلييه»، أن هؤلاء الذين يدعون أنفسهم جيشاً جمهورياً ويزعمون أنهم من طينة واحدة ليسوا بشكل عام، في معظمهم، من الفقراء كسبة الأجور. في الحقيقة كثيرون من قادة الأقسام البارزين ـ نحو 10% من عدد السكان الذكور البالغين في أحيائهم ـ ليسوا معلمي حرف ماهرين. لقد كانوا في الغالب من الحرفيين الصغار والتجار والمثقفين والصحفيين الذين يعملون بالأجرة، وقد حققوا ترقيهم في الأقسام باجتهاد لا يكل في الجمعيات الشعبية وجمعيات الأقسام وتوفير طواقم الموظفين لهذه المؤسسات المحلية باعتبارها لجاناً ثورية للمراقبة. وقد اقترح دانتون، لتحويل خطابهم الشعبي ضدهم، إنهاء «ديمومة» جمعيات الأقسام وبدلاً من ذلك تقليص الاجتماعات إلى اثنين في الأسبوع، في حين سيتقاضى أفراد الجيش الجمهوري 40 قرشاً في اليوم للحضور. وقد بدوا في ألبستهم الوطنية الإلزامية مثل طريقة لدعم مشاركة الناس العاديين في السياسة الديمقراطية. ولكن ما كان يدور في ذهن اليعاقبة هو العكس تماماً: فتحسين دائرة الفقراء الانتخابية أقل قابلية وليس أكثر للتحكم بالكومونة. كانوا يعرفون ما يفعلون. فمال أكثر لسياسة أقل يكرر بشكل دقيق ما أراد كسبة الأجور ذوو الموارد غير الكافية أن يسمعوه. وإذا دُسَّت علاوة ضئيلة هنا وهناك للتجسس لصالح لجنة الأمن العام، أو إحداث الفوضى في الأقسام التي يشكل فيها أنصار هيبرت أكثرية، هو الأفضل كثيراً. وكل هذا يمكن أن يتعزز بقرار (يُتخَذ باسم احتواء «الفوضوية») لإحلال الهيئات المعينة المسؤولة عن اللجان التنفيذية في المؤتمر محل اللجان الثورية المحلية المنتخبة.

وبعيداً عن أن يكون ذروة الديمقراطية الشعبية، كان يوم 5 أيلول بداية نهاية التمرد

المسلح الثوري في باريس. وكان أيضاً نهاية الطهارة الثورية. وبدلاً من أن يُفاجأوا بالمصادفات والنتائج غير المرتقبة لأفعالهم باستمرار، تعلمت نخبة اليعاقبة ما يكفي لتعالج لغة وتكتيكات التعبئة الشعبية لتقوية سلطة الدولة بدلاً من تدميرها. لقد كانت لحظة فاوستية.

ومع يوم 5 أيلول وراءهم، كان باستطاعة لجنة الأمن العام والمؤتمر أن يتجاهلوا بعض المطالب الأكثر تطرفاً في الكومونة. لن يكون هناك تطهير لكل الضباط الأرستقراطيين في الجيش، ولن يكون لدى الجيش الثوري قوى سريعة للرقابة والحكم والعقاب، بل سيتقيد بتنفيذ قوانين المؤتمر. والأقصى الذي طُبِّق على الحبوب في 11 أيلول، وفي التاسع والعشرين على أسعار أربعين مادة من مواد البقالية والأشياء المنزلية، التي ثُبِّتت بما لا يزيد عن ثلث مستواها عام 1790. ولكن في الوقت نفسه، احتفظت الحكومة بحق وضع حد أعلى على الأجور أيضاً. وكما هو متوقع، كانت النتائج المباشرة لهذا التنظيم الطموح كارثية. فحالما أُعلِنت الأسعار القانونية، نزل آلاف إلى المتاجر واشتروا كل ما فيها وبالتالي خلقوا نقصاً فورياً. وإذ استنزفت المستودعات رفض المنتجون تقديم سلع جديدة، وعلى الأقل تمّ استخدام بعض العمال الجائعين كمفتشين للقيام بالبحث في المتاجر والأقبية والعليات عن قطع صابون أو أكياس سكر مخبأة.

وفي النهاية، يجب رؤية ممارسات الحد الأعلى والـ 40 قرشاً معونة والجيش الثوري أنها طرق مرتجلة احتوت لجنة السلامة العامة من خلالها العواقب السياسية للجوع. لم يواجه أحد منهم، في كل حال، مسألة التعبئة العسكرية. فالثورة، بعد كل شيء، بدأت كسجال وطني عيوب الدولة الفرنسية وآخر حراسها سيصمد أو يسقط بحكم المعركة في الميدان. مع أن الأجيال اللاحقة ستطري نفسها في التخيل أن فرنسا خلقت «إمبراطورية واسعة من القوانين» في أوروبا التي سيطرت عليها لعقدين تاليين، كان المؤرخ غابرييل هانوتو Gabriel Hanotaux من القرن التاسع عشر أكثر دقة في وصفها أنها «إمبراطورية التعبئة». ولأمر جيد أو سيء، كانت الراية العسكرية ذات الألوان الثلاثة هي التي أظهرت نفسها من لشبونة إلى القاهرة.

ومن كل مبتكرات عام 1793، عندئذٍ، الضريبة العسكرية على العامة ـ إنشاء جيش وطني إلزامي ـ كان الأكثر أهمية إلى حد بعيد. حيث سيقرر نجاحه قدرة الجمهورية على استرجاع ليون وفندي ومنع التمردات الفرنسية من الارتباط بالجيوش الأجنبية. وتقدم أيضاً مثالاً آخر لممارسة نشأت في نوبة حماسة رومانسية وتطورت إلى ذراع منظمة وعالية



الصورة 188، للرسام جاك لويس ديفيد سيلود مندوباً في مهمة

الانضباط بطريقة احترافية للدولة. لقد وُلِد الجيش الإلزامي في اليأس: محاولة لتعبئة سكان المناطق المهددة فوراً باكتساحها من الغزاة. ففي ليل Lille في تموز، على سبيل المثال، اقترحت التعبئة العامة أن «يهاجم الجنود المواطنون في جماعات مثل الغاليين جماعات اللصوص». وفي آب، قرع المندوب في مهمة وجندي التعبئة ميلو Millioud، الذي رسمه ديفيد بطريقة جديرة بالذكر، جرس الإنذار في منطقة وزمبورغ Wissewbourg في وادي نهر الموزل. وقد دُرِّب الفلاحون تدريباً أولياً وسُلِّحوا (ليس بأكثر من مذاريهم وسكاكين صيدهم أحياناً) لمهاجمة النمساويين. وجاء في التقارير بعد المناوشات أن «أحدهم قتل 17 نمساوياً، ورمت النساء بأنفسهن إلى المعركة مسلحات بالبنادق».

إذن، كان التجنيد الإلزامي في تجسده الأصلي يعني أن يكون انفجاراً عفوياً للحماسة الحربية يشمل عدداً كبيراً من الرجال منظمين بشكل فضفاض ومنفصلين عن الجيش المحترف. ولا حاجة للقول أن هذه النسخة من القتال الفوضوي لم تفوض أمرها إلى المهندسين والتقنيين في لجنة السلامة العامة. بل كانت نسخة الشخص غير العضو في اللجنة، أي دانتون، الذي في الأسبوع الثالث من آب حاول أن يضع مفهوماً للتجنيد الإلزامي في الخلف على الحواجز بجعل توسعه متناسب بشكل محدد مع مقدار العتاد والألبسة والطعام التي يمكن أن يزود بها. وكان الخطاب الملهم لمرسوم المؤتمر في 23 آب أقل من وضع قاعدة لدعوة غير منسقة إلى السلاح منها رؤيا لجماعة عسكرية بكل مكوناتها تعمل في تمفصل ميكانيكي صحيح. واعتمدت اللغة بشدة على التاريخ الروماني بل الرؤيا كانت تلك الحرب الشاملة لِ غوبرت.

> *من هذه اللحظة فصاعداً، حتى ملاحقة الأعداء من أرض الجمهورية، الفرنسيون جميعاً في طلب دائم لخدمة الجيوش. سيذهب الشباب إلى القتال، ويصنع المتزوجون السلاح وينقلون الطعام، وستصنع النساء الخيم والألبسة ويخدمن في المستشفيات، ويصنع الفتيان الضمادات من الملابس الكتانية القديمة، وسيظهر الرجال المسنون في الأماكن العامة لإثارة الشجاعة في المحاربين ويروجون الكراهية ضد الملوك ويدعون إلى وحدة الجمهورية.*

وقد جُنِّد غير المتزوجين والمترملون الذين ليس لديهم أطفال بين سن الثامنة عشر عاماً والخامسة والعشرين في هذه الدعوة. لم تكن هناك قيود على الطول، ومع ذلك فالعاهات الجدية والأمراض الخطيرة ستجعل المجند عاجزاً عن الخدمة. (والمرسوم أثار بشكل طبيعي عملية بتر أعضاء واسعة فورية.) لم يُسمَح رسمياً بالبدلاء، على الرغم من

أنه في الممارسة سمح للأخوة أو الأصدقاء فوق الخامسة والعشرين أن يخدموا مكان مجند كان عمله ضرورياً في الحقل. والعمل الموسيقي الأكثر شعبية في مسرح باريس في السنة الثانية (وفي الحقيقة خلال الثورة) كان **في العودة**، وهو عمل ميلودرامي. ومع أن البطل، جوستن، سيبلغ من العمر 25 عاماً بعد ثلاثة أيام ـ وهكذا، يتجاوز السن في ما يخص الخدمة العسكرية ـ يرفض أن ينتظر. ويخبر خطيبته التي بَقّع الدمع وجهها لكنها المعجبة به، لوسيت Lucette، «هذا هو اليوم، ويجب أن أمتثل». حتى إنه يرفض عرض شاب، لم يبلغ الثامنة عشر عاماً بعد، أن يكون بديله، ويغادر إلى الحرب، يتبادل عقد الأشرطة مع لوسيت بوصفها تذكارات. ويغنيان، «نهاراً وليلاً سنحفظها في قلوبنا». وعند ذروة عمل فني شديد العاطفية تُسدَل الستارة من الجناحين أثناء أشعار الأغنية الناجحة ويقف النظارة كلهم لوداع المجند مع الجوقة تغني «**في العودة**». وعلى الرغم من هذه الغيرية الجديرة بالثناء، فاستثناء المتزوجين أنتج فورة عامة إلى الزواج في مقاطعات كثيرة. وكان على السلطات المحلية أن تحكم في ما إذا كان الزواج بعد المرسوم سيسمح بأن يكون سبباً للاستثناء.

وقد كان كذلك عادة، وهكذا كان الزواج من خطيبة حامل، حتى ولو كان الحمل بعد تاريخ المرسوم. وفي التوافق مع عقيدة روسو في الطبيعة المقدسة للعائلة، «ليس الشرط القانوني بل فعل الأبوة هو الذي يؤسس الزواج».

طبعاً، كانت الأغلبية العظمى من المجندين فلاحين، وكان هذا في الذهن أن المؤتمر، في تموز، ألغى دون تعويض البقايا الأخيرة من النظام الإقطاعي أخيراً. فقد حاول تلطيف الخسارة الجدية لقوة عمل الأشخاص في العائلات الفلاحية من خلال تفسير أن التجنيد يعني أن جيوش الجمهورية تدافع عم مصالح الفلاحين الخاصة. وإذا ما خسروا الحرب، فقد يتوقعون رؤية عودة النظام الإقطاعي والضريبة الكنسية وكل أشكال الضريبة التي ألغتها الثورة، لن نشير إلى هؤلاء الطفيليين وكلاء المزارع ووكلاء الإقطاعيين الذين جدولوا خدماتهم وطردوا المتأخرين عن دفع ديونهم. ولا يزال الأسوأ أن «أكلة لحوم البشر» (المصطلح المفضل في السنة الثانية للمعادين للثورة) سيطلبون ثأراً فظيعاً ويستولون على ملكيات الفلاحين ويستعبدون أو يخطفون زوجاتهم وبناتهم ويقطعون يدي أي شخص زرع شجرة حرية ويبقرون بطون الحوامل.

لا بد أن تكون هذه الصورة الكالحة نوعاً ما لعقوبات الهزيمة قد أثرت على الكثيرين من سكان الأرياف الذين خاطبتهم. لأنه بينما كانت هناك أعمال شغب ضد

التجنيد الإلزامي في فينستير Finistere وفوج Vosges وتارن Tarn وأرياج Ariège، لم يهدد أحد منها بأن يتطور إلى «فندي صغيرة» little Vendées. ومع أن المؤرخ الأحدث للتجنيد الإلزامي، ج. ب. برتو J. P. Berthaud يحذر من صعوبة حتى تخمين الفرار وغياب المعدلات، يقدر أن هذه الموجات الأولى من التجنيد الإلزامي ربما جمعت نحو ثلاثمائة ألف شخص للجمهورية. وهذا أقل كثيراً من نصف المليون الذي طلبته لجنة السلامة العامة، لكنه إنجاز استثنائي على الرغم من ذلك. وقد شهدت قرى وبلدات في كل أرجاء فرنسا الاحتفالات الحزينة نفسها للرحيل خلال خريف عام 1793. فبعد يومين أو ثلاثة من إعلان المؤتمر الذي قرئ علناً وألصق، كانت اللجنة المحلية تنشر قائمة بأسماء رجال عمر التجنيد المدعوين وهؤلاء المستثنين. ثم تُطلَب الأسلحة ويُهيَّأ بسرعة لأخذ الحراب وتغادر القوات القليلة بقيادة ضابط معين مؤقتاً على صوت الطبول وبكاء النساء وإنشاد «المارسييز» ـ النشيد الوطني. وسيركض الفتيان إلى جانب الرجال غير اللابسين الزي العسكري يلوحون بالأعلام الصغيرة الثلاثية الألوان حتى يتلاشى الرجال فوق هضبة ما باتجاه البلدة حيث سينضمون إلى فصائل أخرى مرتبطة بالألوية.

وإذ يصلون إلى المعسكر، يخضعون إلى تأثيرات تنافسية من مزيج مهني، مصمم على دمجهم في القوات النظامية في الجبهة، وضباط الجيش الجمهوري الذين يريدون أن يحافظوا عليهم أنقياء سياسياً. وقد ساعد الهدف الثاني واقع أن وزارة الحربية ظلت تعاضد أفكار هيبرت حتى أواخر عام 1793 وحتى أخذت على عاتقها إنفاق أكثر من مائة ألف ليفر لتوزيع نسخ جريدة الأب دوشين Duchesne مجاناً إلى الجنود. وخضعت بعض الوحدات، لاسيما تلك التي خدمت في فندي، حيث كان القادة المؤيدون لـ هيبرت أقوياء، لمحاضرات سياسية أو كانت تُعطى وقتاً لحضور اجتماعات نادي اليعاقبة المحلي، وهي مناسبات لا شك أن كثيرين انسلوا منها بعيداً باتجاه الفندق القرب. وقد أصر بعض القادة، ومنهم الجنرال هوشار Houchard على وضع قبعاتهم (قبعات الحرية) خلال مداولات مجلس الحرب (إيماءة لم توفر هوشار من المقصلة)، ولبعض الوقت كان هناك حركة الانتخاب الضباط لمدة محددة ثم تدور بين الآخرين من المراتب نفسها. وإذا ما رغب الجنود المواطنون بالكتابة إلى ضباطهم الكبار، كان يمكنهم أن ينهوا رسائلهم بـ «تحية وأخوة Salut et fraternité من مساويك في الحقوق».

لم يكن بالامكان أن يستمر هذا. فالمزيج، الذي كان يجمع أربعين مجموعة من المجندين مع عشرين مجموعة من جنود الجبهة في نصف لواء ينتهي بالتدريج إلى ممارسة

تأثيره بتعليم المجندين مهناً معينة. وعلى نحو متسارع أيضاً، تمّ استرجاع الانضباط العسكري بتدخل المندوبين في مهمة représéntants en mission وهؤلاء الأعضاء في لجنة السلامة العامة أمثال بريور دي لا كوت دور Prieur de la Côte d'Or وكارنو Carnot، اللذين أظهرا في طريقتهما الملائمة إدراكاً جديراً بالملاحظة للعناصر الاستراتيجية. والشاب سان جست، الذي قام برحلات عديدة إلى الجبهة، كان مؤهلاً على فرض قرارات عقابية شديدة القسوة إذا اكتشف نهباً أو أعمالاً أخرى من الفوضى العسكرية التي ينزعج ذهنه المنهجي الدقيق منها كثيراً. وقد صرف أكثر من مرة الضباط المقصرين من الخدمة وأعدمهم أمام قواتهم بالذات لتشجيع الآخرين pour encourger les autres.

كانت كل هذه الجهود ستضيع سدى لو لم ترتب الحكومة في الوقت نفسه لتزويد قوتها البشرية التي تزايدت إلى حد هائل بالسلاح والطعام واللباس. وعلى الرغم من تحذيرات دانتون المنطقية فقد بدا واضحاً أن التجنيد في الواقع قد تجاوز الإمدادات. ففي فندي، تحديداً، غالباً ما كان الزرق أقل تجهيزاً من أعدائهم، الذين جاؤوا من المزارع ويفتقرون إلى معظم الحاجات الأساسية ـ لا سيما، وعلى نحوٍ أكثر حسماً، الأحذية المناسبة (لن نشير إلى الأبواط). ومع حلول منتصف الخريف، في كل حال، ألزمت الحكومة الثورية نفسها بالتعبئة العظمى الممكنة للموارد التي لن تُرى في أوروبا ثانية حتى القرن العشرين. حيث أنشئت لجان استشارية من كيميائيين ومهندسين وعلماء رياضيات، الذين كانوا مثل مونج Monge وبرتوليه Berthollet وشابتال Chaptal ثوريين متحمسين. وحوّلت مصانع المعادن الكبيرة لـِ لاكريسو وأخرى في شارلفيل Charleville في فوج في الواقع إلى مشاريع للدولة تصنع المدفع والبنادق وذخيرة المدافع والبنادق حسب مواصفات الحكومة وعقودها. وقد أزيلت أجراس الكنائس من كل أنحاء فرنسا وأُخِذت إلى مسابك المعادن، ووصل بعضها إلى المصاهر في الهواء الطلق التي أُنشِئت في الحدائق العامة في باريس، في الإنفاليد وحدائق التويلرييه ولوكسمبورغ. وبحلول ربيع عام 1793، كان هناك ثلاثة آلاف عامل ينتجون سبعمائة بندقية في اليوم و، وفقاً لبرتراند بارير، كان ثمة ستة آلاف ورشة عمل منشغلة بصنع البارود.

وفي النهاية، كانت وكالة الإمدادات إيزور ولجنة الأرزاق التي تعمل بما كان في معايير ذلك الوقت بمجموعة ضخمة من العاملين ناهزت خمسة آلاف عامل، استخدمت أية سلطة أو قوة كانت ضرورية لتغذية الجيوش. وكانت الدعاية الملهمة في نظام هنا أيضاً، مع جزء من التويلرييه حُرِث وتحول إلى حقل بطاطا. ونظرياً، على الأقل، كان



الصورة 189، مصنع لا سور، لوحة مائية مصنع الأسلحة في السنة الثانية

جنود الجمهورية مخصّصين بجعالة مكونة من رطل وثلاثة أرباع الرطل من الخبز وعدة أونسات من اللحم والفاصولياء أو خضار جافة أخرى والنبيذ أو بعض أنواع البيرة. وإذا كانوا محظوظين قد يحصلون على بصلة وقطعة جبن، وحيث لا يكون هناك براندي أو جن أو تبغ لبدء اليوم، كان بإمكان الضباط أن يتوقعوا مشكلة.

وبحلول خريف عام 1793، كانت هذه الآلة العسكرية الهائلة، لكن التي لا تزال مفككة، قد بدأت بصنع قوتها الخاصة التي تمّ الشعور بها على جبهات عديدة. فهزم الجنرال كارتو جيش مرسيليا في 23 آب ودخل المدينة. وهرب القادة الفيدراليون الذين استطاعوا الفرار في الوقت المناسب إلى طولون. وبدأ حصار ليون مبكراً في آب لكنه استغرق شهرين حتى ضاقت الأنشوطة العسكرية كفاية لتجبر المدينة الجائعة في 9 تشرين على الاستسلام. وفي الجبهات الشمالية، أُوقِف التقدم البريطاني في هوندشوت Hondschoote في 8 أيلول والنمساويين في واتني Wattignies في 16 تشرين الأول. وربما كان الأكثر أهمية هو أن جيوش فندي قد ذاقت الهزيمة الأكثر خطورة في شولت في 17 تشرين الأول.

كانت هذه المعافاة هامة كفاية لتقنع المؤتمر واللجان أن الجمهورية قد خرجت سالمة من تعميدها بالنار. وقد رأى بعض اليعاقبة، لا سيما دانتون وديمولان الآن أنه لا يوجد سبب لعدم تخفيف بطريقة ما القسر الدستوري للإرهاب. وخلقا من خلال الصحافة

والخطابة سياسة «متسامحة» indulgent، السياسة التي صممت لمقاومة المحاكم السياسية لماري أنطوانيت والجيرونديين والعمل من أجل مجلس تشريعي منتخب جديد والتفاوض على سلام قائم على حدود عام 1792 مع قوات التحالف.

وبعد بعض النجاح الأولي سحقتهم كتائب صلبة من المعارضين، وكان خصومهم الأكثر هم هيبرت وشومت وهانريوت وقادة الكومونة بالإضافة إلى مؤيديهم في الجمعيات الشعبية في الأقسام. وداخل لجنة السلامة العامة، عورضت سياسة «التسامح» ليس من عضويها الأكثر تعصباً ـ كولوت دربوا Collot d'Herbois وبيلود فارين Billaud Varennes اللذين انضما إلى اللجنة في 15 أيلول ـ وحسب بل من الأعضاء ذوي العقلية الأكثر بيروقراطية مثل كارنو Carnot وبريور Prieurs، اللذين ظنا أنه لطيش خطير تلطيف الإرهاب في اللحظة التي بدا فيها أن الجمهورية قد نجت من كارثة.

وقد مثل سان جست في 10 تشرين الأول أمام المؤتمر ليقدم تقريراً باسم لجنة السلامة العامة حول «المشكلات التي تؤثر على الدولة». وقد أخذ بطريقة مبررة أخلاقياً خط الاستبطان الشخصي في الإعلان عن أن لدى الشعب عدواً واحداً، هو الحكومة ذاتها المفسَدة كما كانت بكل أنواع كائنات النظام القديم الضعيفة والفاسدة والمشبوهة. والعلاج هو الصرامة المتواصلة بهدف العقاب الذي لا يعرف الصفح للمرتدين والمنافقين. وميثاق الإرهاب ـ قانون المشتبه بهم، الذي سُنّ في 17 أيلول، الذي أعطى اللجنة وممثليها سلطات شاملة لاعتقال ومعاقبة فئات واسعة من الناس عُرِّفت بأنها تضمر خططاً مضادة للثورة ـ يجب أن تطبّق بمنتهى الصرامة».فبين الناس وأعدائهم لا يمكن أن يوجد شيء مشترك، بل السيف، يجب أن نحكم بالحديد هؤلاء الذين لا يمكن أن يُحكموا بالعدالة، ويجب أن نقمع الطاغية... إنه لمن المستحيل للقوانين الثورية أن تُنفّذ ما لم تكن الحكومة ذاتها ثورية حقاً».

كانت ثمة حاجة لأسبارطة جديدة. يجب أن يكون المواطنون يقظين باستمرار. والممثلون في المهمات يجب أن يكونوا «آباء وأصدقاء الجندي»، ينامون في الخيمة نفسها ويشاركونهم طعامهم، مقتصدين وذوي إرادة عنيدة. كان يجب أن تكون الجمهورية رهيبة إذا كان يجب أن تنتصر وهؤلاء الذين حكموا يجب ألا يدعوا حراسهم يخلدون إلى الراحة أبداً. وقال سانت جست: «إن هؤلاء الذين يصنعون الثورة في العالم، وهؤلاء الذين يريدون أن يعملوا صالحاً في هذا العالم يجب ألا يناموا إلا في التابوت». وهي الطينة التي ستتشكل اللينينية منها.

III ـ الإلغاءات

أظهرت جمهورية اليعاقبة ملمحين: تقطيبة المتنمر الإرهابي وسيماء الهدوء في أيقوناتها الرسمية. ففي أقسام فرنسا التي تأثرت بالنزعة الفيدرالية، أو امتنعت عن كشف حبوبها وتقديمها إلى المدن، وصل الإرهاب إليها بوصفه حضوراً مدمراً ووحشياً. فكان المندوب في مهمة كلود جافوغ Claude Javogues، الذي عمل في اللوار، مؤهلاً لممارسة أعمال عنف مفاجئة، يلكم الناس الذين يشتبه بهم أو ببساطة لا يروقون له في وجوههم. وقد أمكنه، عندما يتكدر أو يسكر أو يكون تحت تأثير الاثنين معاً، أن يستخدم سلطاته التي لا يمكن تحديها في المقاطعة لممارسة الإذلال المدروس أو يخضِع الموظفين المحليين لسيل من الشتائم. وقد مزق عريضة من بعض المزارعين أثارت غضبه نتفاً ثم داسها بحوافر حصانه بعد أن بدأ ينخز المزارعين بحد سيفه. واحتفظ برتل من السجناء من مونتبريزن (التي أعيدت تسميتها بعد أن أخضعها الجمهوريون إلى مونتبريزِه ـ بمعنى الجبل المصدع) ينتظر ساعتين في الثلج، وقال لقاضي المحكمة الثورية، «كم سأفرح بقطع رؤوس كل هؤلاء الأوغاد بالمقصلة». وفي البلدة ذاتها، قال: «سيتدفق الدم يوماً مثل الماء في الشوارع بعد هطول غزير».

وترأس جافوغ جلسة عامة في بلدية سان ايتيان Saint - Etienne، عُقِدت لفرض «ضرائب ثورية» على المواطنين الميسورين، وهو يعابث بخشونة مجموعة من الفتيات الجميلات جلسن حوله وأفرغن ثلاثين زجاجة من البيرة والنبيذ. وعندما علق أحدهم من الجمهور على الطبيعة التعسفية للضرائب، صرخ جاوكيه إلى ضابط الحرس Sacré Mille! foutre اعتقل ذلك الوغد هناك حيث يمكنني أن أرديه قتيلاً بطلقة». والى امرأة وصفها في تقرير مذهل بأنها «فتاة شمطاء» ume vielle fille احتجت بأنها قُيِّمت بأكثر مما تملك من ثروة، أطلق تقريعاً مطولاً فاحشاً: «أنت مومس، عاهرة، لقد عاشرت كهنة أكثر من شعر رأسي وفرجك كبير يتسع لأن أدخل فيه»، وكثيراً من هذا القبيل.

كان سلوك جافوغ متطرفاً، حتى بمعايير الفترة الفوضوية للإرهاب بين أيلول وكانون الأول 1793. ولليعاقبة الأكثر تزمتاً الذين سيسقطونه في النهاية ربما بدا ذلك شيئاً فضائحياً خصوصاً وأنه لم يكن شخصاً ترعرع في المجارير. فقد كان أبوه محامياً ومستشار الملك في مونتبريزن، حيث كان لديه منزل في أحد الأحياء الأكثر غنى في البلدة. لكنه مثل كثيرين أعطوا سلطة مفاجئة في خريف السنة الثانية، استمتع جافوغ بشكل واضح بلعب دور الملاك المنتقم في بلدته يرمي القذارة في وجوه البورجوازيين المحليين

والفلاحين. وآخرون من خلفيات عانت حقاً الأذى والحرمان استخدموا موقعهم الجديد لانتقام محدد بدقة من هؤلاء الذين شعروا أنهم كانوا سبب بؤسهم في النظام القديم. فنيكولاس جينو Nicolas Genot، على سبيل المثال، الذي كان مستخدماً في عمل رهيب في تقويم جذوع الأشجار من يون Yonne إلى الأرصفة والمناشر في باريس، أصبح عميلاً لجهاز أمن المؤتمر ولجنة الأمن العام. وفي تلك الوظيفة أرسل عدداً من التجار الميسورين اكتشفهم من صلة التجاور القديمة في باريس إلى المحكمة، قبل أن يُعتقَل هو نفسه.

وغالباً ما كان نباح هؤلاء الرجال أسوأ كثيراً من عضهم. لكن الأسلوب المتقلب والتعسفي الذي مارسوا فيه سلطتهم القضائية بدا لا يطاق للسياسيين في باريس الذين كانت صورة جمهورية اليعاقبة لهم أخلاقية إلى حد كبير. ولهؤلاء التطهريين مثل روبسبيير وسان جست، فإن الاهتياج المخمور لهؤلاء الرجال أمثال جافوغ يلحق العار بالسلطة الثورية بشدة إلى درجة أن الأخير يجب أن يكون قد عمل للثورة المضادة. وكان الوضع مثيراً للغيظ لاسيما وأنه عندما كانت أيدي جافوغ في صدور المواطنات (علناً أحياناً)، كان حراس اليعاقبة الرسمية يحاولون صنع أيقونة من صدر الجمهورية: خصب، طاهر، كريم. فعمل بوازو **جمهورية فرنسا**، على سبيل المثال، إعادة عمل علمانية للصور التقليدية لمريم العذراء التي ميّز عرض الصدر فيها شفاعتها أمام المسيح بالنيابة عن الخطيئة. وفي نسخة اليعاقبة، فإن العرض رمز لشمولية المساواتية. مساواة «كل الفرنسيين» التي نفخت فيها الروح مجدداً أثداء الجمهورية المغذية التي ترمز إليها استراتيجياً مسواة النجارين المعلقة، في حين أن فجر الحرية مُمثَّل برمز غاليّ تقليدي آخر هو الديك.

كانت صناعة الأيقونات لدى اليعاقبة تكراراً لكل الموضوعات العامة للعاطفة ما قبل الثورة: الحياة البيتية، نقاء العمل الريفي، الخير المتبادل بين الحرية والازدهار. وفي نسخة نموذجية لهذا السحر الريفي، عائلة جندي جمهوري ذات صفات مثالية، الممرات إلى جانبهم، يقف أمام تجسيدين لفرنسا. وتحت الضوء المعتدل لعين الرقابة التي ترى كل شيء، الصناعة، مرمزة بخلية نحل، التي تُمثّل بقرن الوفرة، ينثر فواكهه على الأرض بينما تمسك الجمهورية الأدوات المشتركة للحرية والمساواة بالإضافة إلى حقوق الإنسان.

وكما كانت هذه الصور مبتذلة ومكررة، فقد مثلت محاولة منهجية لدعائيي ثقافة اليعاقبة لبناء أخلاق عامة جديدة نقية. فالأمة لن تكون آمنة حقاً حتى يندمج هؤلاء الذين تتكون منهم القيم التي نشأت عليها. فأن ترث من روسو (وإن يكن ذلك بشكل محرّف)



الصورة 190، للرسام آ. كليمنت (بعد بوازو) جمهورية فرنسا

عقيدة أن الحكومة شكل من مسؤولية تعليمية، قصد حراس الثورة أن يستخدموا كل وسيلة ممكنة لاسترداد الأمة التي أفسدها العالم الحديث براءة الطفل ما قبل الاجتماعي الصادقة. وعلى أنقاض الملكية والأرستقراطية والكنيسة الرومانية الكاثوليكية سيلد دين



الصورة 191، لرسام مجهول، «فضائل الجمهورية»

طبيعي جديد: مدني ومنزلي ووطني. وقد تواصلت الأغاني والمهرجانات العامة، خارج البيوت بالضرورة، جمعت بين المواطنين في جماعات متناغمة. سيغدو المسرح أكثر مشاركة، ويجتذب الجمهور إلى تاريخه الملهم. ولكن إلى الصور، في معناها الأوسع، أعار المبشرون اليعاقبة اهتماماً خاصاً. فقد استخدم فابر دغلانتين Fabre d'Eglatine، على سبيل المثال، الشاعر صديق دانتون (والشريك في جريمة الاختلاس)، نظرية الانطباع الحسي من التنوير لإقناع المؤتمر أننا «لا ندرك شيئاً غير الصور: حتى التحليل الأكثر تجريداً أو الصيغ الأكثر ميتافيزيقية لا تعطي النتيجة المطلوبة إلا من خلال الصور».

ثم كان هناك مسعى منظم لإحلال النقاط المرجعية البصرية في فرنسا القديمة بعالم جديد تماماً من الصور النظيفة أخلاقياً. الصالون الشعبي عام 1793، على سبيل المثال، عرض، إلى جانب سجلي ديفيد عن تاريخ الشهداء والقديسين، مجموعة كبيرة جداً من اللوحات التي اندمجت فيها الفضائل البيتية والوطنية. فلوحة «امرأة من فندي»، على سبيل المثال، في تفسيرات كثيرة تفجر نفسها وعائلتها بدلاً من أن تسلم البارود «لقطاع الطرق». وغدا الأبطال الأطفال هامين، وبينهم «الشاب داروده Darruder، الذي التقط سلاح أبيه على أرض المعركة وهاجم العدو به. وعلى مستوى الفن الشعبي، شُجّع التجار على إظهار نزعتهم الوطنية بعرض «المجالس المدنية» خارج محلاتهم في مكان الإشارات التقليدية.

حتى ورق اللعب أُخضع لعمل الرسم هذا. فتحولت بنت الكبا إلى «حرية الفنون» بينما أصبح الملك جنرال جيش جمهوري.

والمحاولة الأكثر جدية لخلق «إمبراطورية صور» جديدة، في مصطلح فابر الحديث على نحو لافت للنظر، كان اختراع التقويم الثوري. وكان ذلك أيضاً محاولاً لإعادة بناء الوقت عبر علم كونيات جمهوري. واللجنة الخاصة التي عُيِّنت لتقديم توصيات كانت مزيجاً غريباً من رجال أدب مثل فابر ورُم Romme وماري جوزيف شنييه وعلماء جديدون مثل مونج وفوركروي Fourcroy. وقد رأوا معاً الإصلاح أنه فرصة لفصل الجمهوريين عن الخرافات التي ظنوا أنها تتجسد في التقويم الغريغوري. وقد توجهت جهودهم إلى العالم الريفي بشكل خاص، الذي كانت لا تزال الأغلبية الواسعة من الفرنسيين ينتمون إليه. وبالحفاظ على عبادة الطبيعة، كان يجب أن تسمى الأشهر الأثني عشر ليس تيمناً بتغير المناخ (كما هو مجرب في شمالي ووسط فرنسا وحسب) بل في الاستناثة الشاعرية للسنة الزراعية. والشهر الأول (الذي بدأ بالضرورة مع تأسيس الجمهورية في أواخر أيلول) كان زمن جني النبيذ، وهكذا فنديميار Vendemiaire. والتجسيدات الشهوانية في صور تقويم سلفاتوري تريسكا Salvatore Tresca، كما حسبوا، ستقوم بتغيير سار من سانت مارك، راعي الكروم. كان فابر واضحاً حول فصل المحراث عن الخرافات التي شعر من خلالها بمباركة رجال الدين لمحاصيله وقطعانه. لن يكون ثمة تفاهة التي بواسطتها قالت الكنيسة: «إنه من خلالنا مخازن قمحك مليئة، آمن بنا وأطعنا وستكون غنياً. اعصنا، والصقيع والبرود والرعد سوف يفسد محصولك»، بعد الآن الصورة المواجهة لصفحة التقويم السنوي الجمهوري لميلان (الصورة، 195) أوضح هزيمة طغاة التقويم الغرغوري القديم ببساطة الزراعة الريفية.

لم يكن فابر واللجنة مقتنعين بتقديم مجموعة أسماء جديدة وحسب، فكل شهر من الأشهر الأثني عشر ـ فعلى سبيل المثال بروميير Brumaire، الشهر الضبأبي؛ فريمر، الشهر البارد ـ قسم إلى ثلاث وحدات تتكون كل وحدة من عشرة أيام، العشرية، وقد أعيدت تسمية تلك الأيام أيضاً. ففي مكان المجموعة اليومية في التقويم المقدس القديم، قدمت روزنامة ملين أشياء الفضيلة الريفية للتأمل اليومي. وقد تكونت تلك الأشياء من المحاصيل والخضروات والفاكهة والزهور لأيام الأسبوع، وسيلة زراعية لليوم العاشر في العشرية، وحيوان زراعي في اليوم خامس.

وللعشرية الثالثة في الشهر الثاني عشر في التقويم الثوري الفرنسي الموافق لـ 18

آب إلى 16 أيلول في التقويم الغريغوري ـ الفترة الانتقالية بين الصيف والخريف، يأمر التقويم باستخدام التالي على سبيل المثال:

> زهرة نسرين *الكلاب*، ثمرة *البندق*، حشيشة *الدينار*، *السرغوم*، *جراد البحر (اليوم الخامس)* برتقال *اشبيليه*، *عصا الذهب*، *الذرة*، *الكستناء*، وكل شيء أدرج في هذا التبجيل التقويمي للطبيعة كان، كما قال فابر، أكثر في عيني العقل من بعض الهياكل العظمية الموجودة في سراديب الموتى في روما.

سيبقى بعد الأشهر الأثني عشر، يتكون كل شهر من 30 يوماً، سيبقى هناك خمسة أيام في السنة، سماها فابر «مرتدين البناطيل القصيرة» (إشارة إلى الجيش الجمهوري)، وخشية أن يبدو مراعياً جداً لرغبات مقاتلي القسم قدّم تبريراً واسع المعرفة على نحو غير قابل للتصديق. غاليّا Gallia القديمة، كما زعم، كانت مقسمة إلى غاليا براكاتا Gallia braccata ـ النصف الذي يلبس البنطلون القصير، الذي كان (طبعاً) المنطقة التي تحيط بـ ليون، وغالباً التي تلبس البنطلون، التي كانت بقية فرنسا القديمة. وهكذا، كخط تاريخي جيد ستحظى به، الفرنجة الأحرار كانوا في معنى ما مرتدي بناطيل قصيرة. والأيام الخمسة ستُكرّس للمهرجانات، بشكل متعاقب، بالموهبة والصناعة والأعمال البطولية والأفكار (الآراء). وإعادة بناء الزمن الجمهوري هذا كان يجب أن يُستكمَل كل 24 سنة بمناسبة عظيمة من الألعاب والرياضيات الوطنية تُعقَد في «يوم الثورة» (افتراضياً 10 آب).

ومع أن ذلك يبدو غير مرجح أن الفلاحين قدروا عالياً استبدال الأحد والاثنين برقم عشري مفرد، يأتي كما حدث مرة كل عشرة أيام، بدلاً من كل سبعة أيام، كان التقويم الثوري واحداً من أكثر العناصر بقاء في الثقافة الجمهورية، حيث بقيت اثني عشر عامابعد سقوط اليعاقبة. لكنها على الرغم من أنه غدا مقبولاً باعتباره عنصراً غير ضار إلى حد ما في فرنسا الجديدة، فقد كان تقديمه جزءاً مكملا لأكثر البرامج عدوانية لتحطيم التماثيل الدينية. فبعد ثلاثة أيام من التصويت على التقويم في المؤتمر، أخبر ثوريوت اليعاقبة، «أن الوقت قد حان، طالما قد بلغنا ذروة مبادئ ثورة عظيمة، أن نكشف الحقيقة حول كل نماذج الأديان. كل الأديان ليست إلا تقاليد. والمشرعون يجعلونها تناسب الناس الذين يحكمونهم... إنه النظام الأخلاقي للجمهورية والثورة الذي يجب أن نبشر به الآن، الذي سيجعلنا شعب أخوة، شعب فلاسفة».

وفي الممارسة، في كل حال، يعود سبب تفكيك المسيحية على نحو أقل إلى هذه المبادئ المدعية، وأكثر إلى النزعة المعادية لرجال الدين، لا سيما العنف في باريس وميدي، الذي لعب دوراً حاسماً في جعل سياسة الثورة راديكالية. وقد حُمِل ذلك إلى



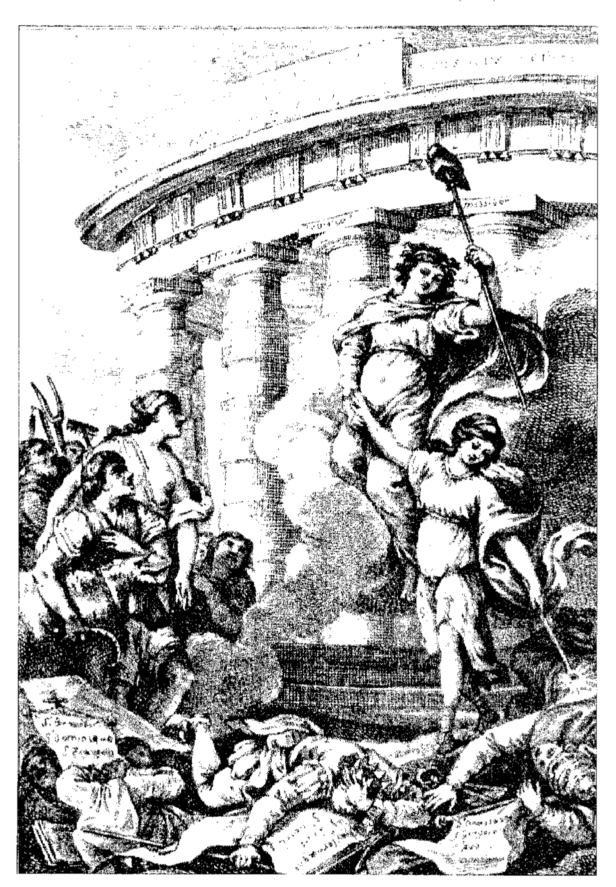
الصورة 192، لرسام مجهول، «امرأة من فندي»

الصورة 193، ورق اللعب في السنة الثانية

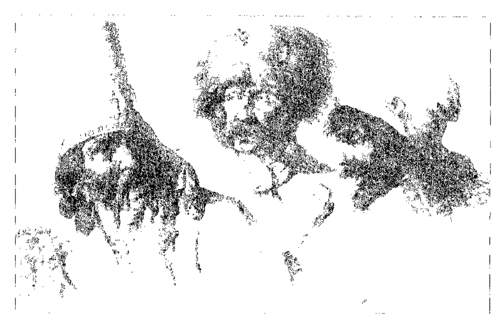


الصورة 194، للرسام سلفاتور تريسكا، (بعد لافيت)
الشهر الأول في التقويم الثوري الفرنسي الموافق لـ 23 أيلول إلى 22 تشرين الأول

المقاطعات من خلال وكلاء الإرهاب الذين انتشروا على شكل مروحة في خريف السنة الثانية لجلب الرأي القويم إلى المناطق القليلة الولاء في فرنسا. وقد تلقوا الدعم من اليعاقبة المتحمسين المحليين الذين إما أزعجوا خلال الصعود الفيدرالي، أو الذين ببساطة



الصورة 195، التقويم الجمهوري يهزم التقويم الغريغوري



الصورة 196، للرسام ج ـ دجي ويل، الجمهوريون ذوو الشوارب والوطنيون الطيبون. جنود في الجيوش الثورية. أطلقوا شواربهم بوصفها جزءاً من مظاهر الإرهاب ـ أو هكذا بدت للفلاحين الذين عاشوا بينهم.

استمتعوا بإظهار حماسهم المعادي لرجال الدين. كانت الجيوش الثورية، على نحو متوقع، القوى الأكثر تشوشاً وقوى الهجمات الأكثر وحشية على ثقافة الإكليروس. وكان مقرها العام في شارع شوازل Choiseul يهيمن عليه العاملون في المسرح» ممثلون مثل غرامون وكتاب مسرح مثل رونسين، الذي جلب عملياً كل فرقة مونتا نسير إلى الطاقم معهم.

لقد كان لديهم تقاليد قديمة في النفور من الكنيسة التي تدخلت باستمرار بالمسرح والذين استمتعوا بالتشهير بها منذ عام 1789.

لكن ربما المظاهرات الأكثر جموحا في الحماس لتفكيك المسيحية قد حدثت بشكل أكثر أو أقل عفوية. عندما وصلت فرقة من الجند، عددها ألف جندي، إلى أوكسير في الطريق إلى ليون، على سبيل المثال، حطم رجال المدفعية أبواب الكنيسة وشوهوا صور وتماثيل القديسين. وأخذ صليب من كنيسة مريم وعرض للمواطنين رأسا على عقب ليبصقوا عليه. وعندما رفض رجل يعمل في مقلع أن يفعل ذلك، جدع أحد جزءاً من أنفه بسيفه. وعند الوصول إلى كليرمونت فيراند، ذهبت عصابة من الجنود كثيرون منهم عمال حديد من قسم دو لكسمبورغ، الذين دعاهم قادتهم «براكيه» إلى الكاتدرائيه مباشرة و

هناك بضربات قوية رهيبة هجموا على القديس بطرس وحطموا القديسين باول ولوقا

ومتى... وكل الملائكة والملاك الرئيسي رَفائيل ذاته، الطائر المجنح في المجموعة السماوية، وماري الجميلة، التي حملت بثلاثة أطفال بينما ظلت عذراء...

والأشكال الأكثر ترتيباً لتفكيك المسيحية قدمها الموفدون بمهمات مثل الكاهن فوشيه الخطيب السابق، الذي تعهد حملة حماسية على نحو خاص في النيافر Nièvre، حيث انتزع من المقابر كل الرموز الدينية وألصق على البوابات قوله المشهور: «ليس الموت إلا نوم أبدي». وغالباً ما بدأت هذه الحملات بإقالات رسمية لرجال دين المؤسسة تترافق مع إعلانات عامة عن «احتيالهم» وحماقتهم. ففي هيرولت، على سبيل المثال، جان ردييه، وهو خوري لانسارغ، أعلن أنه ما دام قد عرف آنئذٍ أن «وظيفة كاهن تتناقض مع سعادة الشعب،، وتعيق تقدم المعرفة، وتعرقل مسيرة الثورة، أنا بموجب هذه الوثيقة أتخلى عم عملي ككاهن وأرمي نفسي إلى أيدي المجتمع». وبموازاة هذه الشجوب الرسمية غالباً ما كانت هناك حفلات زواج لكهنة سابقين (أحياناً بطريقة غير طوعية)، لا سيما في ميدي ووادي الرون وتعزف ألحان ساخرة صاخبة وتلبس الحمير أردية أسقف وقبعته وتقاد عبر الشوارع. وأحياناً كانت مجسمات للبابا تحرق بعد حفل مماثل من السخرية. ومثل أشياء أخرى كثيرة في السياسة الشعبية العنيفة للثورة، لم تكن هذه الطقوس المعكوسة ابتكارات جديدة بل ممارسات تقليدية أعطيت لها أشكال حديثة على نحو فظ لفرض مواءمتها للحاضر.

وغالباً ما انتزعت من الكنائس نفسها الأشياء المقدسة كلها. وكان هناك، في أية حال، أسباب عملية عاجلة لهذه التعرية. فقد كان ثمة حاجة إلى الأجراس لمصانع الأسلحة، والذهب والفضة لخزينة الجمهورية، مع أن مقداراً كبيراً من الذهب والفضة وجد طريقة إلى جيوب معككي المسيحية. وكان هناك أيضاً عمليات حرق وتخريب مجردة أيضاً على درجة واسعة انتزعت قطع منصة المذبح، وهُشِّم زجاج النوافذ المعتق. وفي أمبليوي، في أوت بيجوليه Haute - Beaujolais، حلت شجرة حرية مكان المصلوب في معبر الكنيسة. في أمكنة كثيرة حرقت الكراسات والترانيم التعبدية في حرائق كبيرة مع تماثيل القديسين المصنوعة من الجص والخشب الموجودة على كل مفترق طرق، تفرقع وتذوب في ألسنة اللهب مثل ضحايا غير حية لفعل الإيمان.

وحدثت ذروة هذا التدمير الاستثنائي للممارسة المسيحية في الأسبوع الثاني. من تشرين الثاني. ذهب وفد يضم أنا كارسيس شوت وليونارد بوردن لزيارة غوبل، أسقف باريس الرسمي، أيقظوه من السرير، وألزموه بالتنحي في المؤتمر في اليوم التالي (7

تشرين الثاني). وقرئت رسائل، بما فيها واحدة من خوري بواسيس - لا - برتراند في سين - إي - مارن، التي بدأت: «أنا كاهن، خوري، أي أن تقول مشعوذ، حتى الآن مشعوذ طيب الطوية لأنني أخرى غير الحرية والمساواة المقدسة، واستقال كما ينبغي، وتبعه جوليان وهو كاهن بروتستانتي من تولوز، الذي أعلن أن «المصير نفسه ينتظر كل رجل فاضل سواء تعبد إله جنيف أو روما أو محمد أو كونغوشيوس».

وبعد ثلاثة أيام أقيم حفل في كنيسة نوتردام، عادوا عن تعميد هيكل العقل. في الداخل نصب بناء إغريقي روماني فروق صنع على عجل تحت قنطرة قوطية. وجبل مصنوع من القماش المطلي والورق المعجن بني في نهاية صحن الكنيسة حيث الحرية (التي مثلتها مغنية من الأوبرا)، ارتدت لباساً أبيض، وتضع قلنسوة فريجية وترفع، انحنت فوق لهب العقل وجلست على مقعد من الورود والنباتات. وذهب مرسييه لمشاهدة حفلات مماثلة نظمتها الكومونة، في سان جرفيه Saint - Gervais، حيث كانت الكنيسة تنشر «رائحة سمك الرنكة»، وسان يوستاش، حيث داست الفنانات على ألواح الخشب الذي صرّ تحت مشهد مسرحي في أكواخ غابة وجروف صخرية. وقد روّع لمشاهدة «الزجاجات وأنواع من النقانق العادية والفرنسية وفطائر اللحم ولحوم أخرى «حول جوقة المنشدين.

كان اليعاقبة منقسمين في باريس حول تفكيك المسيحية. كان مؤيدو هيبرت متحمسين، ولا أحد أكثر من الطابع المزيف لجريدة «ليبرتي» مومورو. وقد شكا دانتون من الخطابة المفرطة لكنه طلب عندئذٍ من المؤتمر في نهاية تشرين الأول أن يُمنح إذناً بالمغادرة للتقاعد في بيته في أرسي Arcis. لكن بعض حلفائه مثل توريوت، كانوا معتدلين من أنصار تفكيك المسيحية البارزين، وربما لمحاربة الاتهامات أنهم كانوا معتدلين في الثورة. وروبسبيير من جهة ثانية، كان مذهولاً بعمق مما اعتبره عدم أخلاقية هجوم تظاهر أن ينتحل لنفسه صفة «فلسفة». ومهرجانات العقل، كما فكر، كانت «هجائيات مضحكة»، أدارها «رجال دون شرف أو دين». ورد بحدة على ملاحظة فوشيه على بوابة المقابر أن الموت ليس مجرد «نوم أبدي» بل «بداية الخلود». وكان ربما نفوذه هو الذي منع المؤتمر من قبول الدعوة إلى الذهاب بشكل جماعي إلى الكنيسة نوتردام.

وفي ليون، من جهة أخرى، مضت سلطة فوشيه على إدارة مهرجانات تفكيك المسيحية دون رقيب، وكأحد الموقدين بمهمة في المدينة التي احتلت ثانية من الفيدراليين في بداية تشرين الأول، أُعطيَ عملياً سلطات مطلقة. وقد بدأ بإزالة كل آثار الأيقونات المسيحية من برج الساعة القروسطي في سان سير Saunt - Cyr واستبدلها بالتقويم الثوري.

وفي العاشر من تشرين الثاني حُمِلَت بقايا شالبير في انتصار عبر الشوارع (وأرسل رأسه لاحقاً إلى باريس ليتلقى التشريعات في البانثيون، كما جرى لمارا). وأُلبِسَ حمار أردية وتاج لامورت Lamourette، الأسقف الرسمي (الذي نسق «القبلة الأخوية» في المجلس التشريعي عام 1792)، ومع إنجيل وكتاب تراتيل مقدسة Missal مربوطة إلى ذيله تبعته عربة محملة بآنية الكنيسة، التي في نهاية الموكب حطمت بطريقة مهيبة فوق قبر شالبيه. وإذ شربوا من كأس كبيرة تلا الغراند ميزون Grand - Maison، وهذا أحد أشد ملائكة الدمار الذي يتعذر ضبطه من اليعاقبة حاكى على نحو ساخر قداس الجماعة: «أقول لكم دون ريب، يا أخوتي، هذا الشراب هو دم الملوك، العنصر الحقيقي للجماعة الجمهورية، خذوا واشربوا هذا العنصر النفيس».

وبعد ثلاثة أسابيع أقيم احتفال العقل في كاتدرائية سان ـ جان، حيث انحنى الموظفون لجمهوريون أمام تمثال للحرية وغنوا لحناً ضد التسبيح لله وضع كلماته فوشيه يحتفي «بالعقل باعتباره الكائن الأسمى»

وفي كل حال، فقدت ليون أكثر من كنيستها. فبعد حصار طويل الذي أخليت خلاله البلدات التي تحيط بالمدينة مثل سان إيتيان، والبلدة الجائعة التي هزتها قنابل المدفعية استسلمت في 9 تشرين الأول للجيوش الجمهورية التي طوقتها. لم يصرح عن عنب المسكات في ليون، مثل نظيره في مرسيليا وكولون، وكما فعل المتمردون في فندي، للملكية القديمة، بل للدستور عام 1791. من جهة معنية، في الواقع، قائدهم، دي بريسي de precy، أبلغ البلدية الفيدرالية أنه أراد أن يدعم «جمهورية واحدة ولا تقبل القسمة». ومع ذلك، كانت سمعته في باريس أنه أرستقراطي قاتل في الجانب الخطأ في المعركة من أجل التويلرييه في العاشر من آب عام 1792. وبالنتيجة، خضعت المدينة لشيء ما شبيه بالاحتلال الاستعماري. لاقتراحات أن المدينة يمكن أن تعامل بلين مثل بوردو، انفجر روبسبيير بعنف، لا، ذاكرتهم (لشالييه وهؤلاء الذين اعتقلوا معه) يجب أن يُثأر لها وهؤلاء الوحوش يجب أن يكشفوا ويبادوا»، مضيفاً، كعادته، وإلا أنا شخصياً سأموت».

كان صديق روبسبيير والمؤيد المخلص الأعرج جورج كوثن الذي، مع زميلين آخرين، شاتونوف راندون وديلابورت، المسؤول الأول عن إعادة اليعاقبة ثانية إلى المدينة. وفي 13 تشرين الأول كتب إلى سان جست أن ثمة حاجة إلى إعادة بعث كاملة. حيث يحتاج الناس هنا إلى أن يُدرَّسوا «ألف باءهم» كل شيء ثانية، لكن ذلك لن يكون سهلاً لأن الناس المحليين «أغنياء بمزاج خاص ما دام الرون والسون Saone يحملان إلى

الجو ضباباً يحجب الأفكار الواضحة». يجب أن يُعطوا دواء جمهورياً قوياً: «مطهراً ومقيئاً وحقنة شرجية».

ولم يضيع وقتاً في تطبيق هذه المعالجة. فبعد إعادة البلدية السابقة التي أوقفت عن العمل في 29 أيار وإعادة فتح المنتديات الشعبية، أعلن كوثن في مرسومه الأول، في 12 تشرين الأول سياسة المؤتمر بمسح ليون عن خريطة الجمهورية. من الآن فصاعداً ستعرف باسم فيل أرانتش Ville - Affranchie بمعنى البلدة المحررة. ومنازل الأغنياء وكل من ارتبط بجريمة التمرد ستدمر، تاركاً بيوت هؤلاء الفقراء وحسب. وعلى أنقاضها سيبرز عمود يحمل الأسطورة التالية:

Lyon fit la guerre à la liberté. Lyon n' est plus

أعلنت ليون الحرب على الحرية، ليون لم تعد موجودة.

وفي السادس والعشرين من تشرين الأول، حُمِل كوثن في كرسيه الخاصة بالعجزة، على أكتاف أربعة من الجنود الجمهوريين إلى بليكور Bellecour مكان العرض الأكثر شهرة وأناقة من منازل البلدة في القرن الثامن عشر الذي بني في مطلع عهد لويس السادس عشر. وبصوت قوي على نحو مدهش الذي تحدى عجزه، أعلن كوثن للحشد أن المنازل قد حكم عليها بالموت باعتبارها «مأوى الجريمة حيث العظمة الملكية تهين بؤس الشعب وبساطة الأساليب الجمهورية. لعل هذا المثال الرهيب يزرع الخوف في أجيال المستقبل ويعلم الكون أنه تماماً مثل الأمة الفرنسية، العظيمة والعادلة أبداً، تعرف كيف تكافئ الفضيلة، وتعرف أيضاً كيف تشمئز من الجريمة وتعاقب التمرد»، وبذلك، رفع مطرقة فضية، مصنوعة للمناسبة، وضرب جداراً ثلاث مرات، متوقفاً على نحو مهيب بين كل ضربة وأخرى، مثل الدقات العظيمة على الأرضية التي تعلن بداية مسرحية في المسارح الفرنسية. ركض مئات من العمال، بما فيهم نساء وأطفال معظمهم من صناعة الحرير الكاسدة، إلى الأمام بمطارق وفؤوس للبدء بالهدم. سيستخدم خمسة عشرة ألف شخص في هذا العمل قبل أن ينتهي ودفع مقابله ستة ملايين ليفر تم جمعها ضرائب من الأغنياء. ثم هدم 1600 منزل، كثير منها في حي بورنوف Bourgneuf، الذي شُقّ عبره طريق إلى باريس.والأكثر أهمية للجمهورية، التحصينات التي خدمت الفيدراليين جيداً اجتثت، بما فيها القلعة الرومانية القروسطية بيير سيز Pierre Scize.

وعندما وصلت أخبار الهدم إلى المؤتمر، لم يكن مندوبو المؤتمر جميعاً سعداء بهذه السياسة. معظم أعضاء الجبل كانوا يكنون احتراماً قوياً للملكية، وأحدهم، تاجر

الحرير كوسيه، الذي وُلِد في ليون، سأل بلاغياً، «هل هو جمهوري أن ندمر المنازل؟» ليست المنازل، بعد كل شيء، أوضح، بل الرجال الذين قاتلوا ضد الجمهورية. كم هو أفضل أن نتبع سابقة الرومانيين، الذين، بالدخول إلى مدن محتلة، لم يكملوا تدميرها بل العكس يستعيدونها بفخامة وازدهار جديدين.

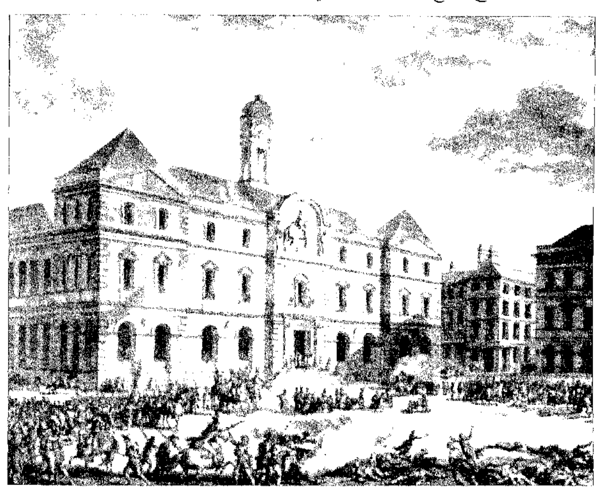
والمزاج في باريس، في كل حال، لم يكن ميالاً باتجاه الشهامة. وفي نهاية تشرين الأول، استدعي كوثن، وفوشيه وكولوت دربوا اللذان حلّا محله، استبدلا العنف ضد الملكية بدلاً من الناس، وجهّا أشكال الثواب والعقاب أكثر كثيراً. لـِ كولوت، الممثل ومدير المسرح ومؤلف لوسي، أو الأقرباء الحمقى، كان ذلك عودة إلى مشهد الإنذارات والإشعارات المختلطة. ففي عام 1782، تمّ الترحيب به في مسرح دي تيرو Théâtre de Terreaux (الذي يطل على الميدان الذي أقيمت فيه المقصلة بأمرة الحاكم دي فليسيليه de Flesselles . لكن علاقاته مع إدارة المسرح، والنقاد المحليين والجمهور لم تكن دافئة. وقسم هام منهم كانوا على وشك أن يتعلموا عقوبات التصفيق الفاتر. ووجهة نظر كولوت للعدالة الجمهورية تلخيصها ملاحظته المنذرة بالسوء، «حقوق الإنسان موضوعة، ليس لأعداء الثورة بل للجيش الجمهوري فحسب».

ومع فوشيه، قرر كولوت أن مقاربة كوثن كانت شديدة في الحساسية. مجرد عشرين إلى ثلاثين عقوبة إعدام، معظمها حصرت بضباط الجيش الفيدرالي وأعضاء البلدية الأكثر شهرة، حدثت في تشرين الأول. وكان على هذا أن يتغير بشكل درامي. فأنشئت لجنة مؤقتة لتعزيز القوى المحلية للعدالة الثورية التي كانت مشتبهة بلينها. كان شخصيتها البارزة ماثيو بارين Mathieu Parein محامياً (وابن معلم في صناعة السروج) وصديق رنسين ومثله ترقى بسرعة مستحيلة إلى مرتبة عميد في الجيش الثوري. وقد جاء إلى ليون من فندي، حيث ترأس المحكمة الثورية في أنجر Angers، والإعلان الذي أعلنته اللجنة يحمل علامة مزاجه الصلب ومزاج فوشيه، الذي توطدت صداقته به كم هو متوقع. فأعلنت نظام العقوبة السريعة والجماعية، وشجعت الشجب (جزئياً من خلال تعرفة للمكافآت مع علاوات خاصة للأرستقراطيين والكهنة)، وقام بهجوم مباشر وقاسٍ على الأغنياء أسسه من خلال الضرائب القسرية. وهؤلاء، على سبيل المثال، الذين بلغ دخلهم ثلاثين ألف ليفر أو أكثر كان مطلوباً منهم أن يدفعوا مبلغاً قدره ثلاثين ألف ليفر في الحال. وكل بقايا الدين المنظم ستُطمَس، ما دام «الجمهوري لا يملك جلالاً آخر غير وطنه».

وذهب الإرهاب إلى الفعل بفعالية إدارية مؤثرة. كان تفتيش البيوت، الذي يتم ليلاً،

شاملاً وقاسياً. كان مطلوباً من كل المواطنين أن يضعوا على أبواب بيوتهم وقائمة تشير إلى كل المقيمين الذين يعيشون داخله. واستضافة أي شخص ليس على تلك القائمة، حتى لليلة واحدة، كان جريمة خطيرة. وقد تدفقت الشجوب إلى اللجنة. كان الناس يُتّهمون بالإساءة إلى سمعة شاليه، ومهاجمة شجرة الحرية، وإخفاء الكهنة والمهاجرين، صنع ثروات من خلال المضاربات و- إحدى الجرائم العائم في السنة الثانية - كتابة أو قول merde à la république.

وضعت المقصلة في العمل في سرعة أعلى كثيراً. وكما في باريس، كان ثمة فخار في فعاليتها الآلية. ففي الحادي عشر من الشهر الرابع حسب التقويم الثوري Nivose، تبعاً لروايات كثيرة الشكوك ومدققة محفوظة، قطع اثنان وثلاثون رأساً في خمس وعشرين دقيقة، وبعد أسبوع، قطع اثنا عشر رأساً في خمس دقائق تماماً.



الصورة 197، وضع دبلسيس برتو بطريقة غير تاريخية كشهد معركة ميترالاد *mitraillades* بالمدفعية والبنادق في مركز ليون بدلاً من سهل دي بروتو *Plaine des Brotteaux*، لكن لاحظوا أن المدفع في وسط اللوحة

ومع ذلك للإرهابيين الأكثر حماساً كان لا يزال طريقة تتسم بالفوضى وغير مناسبة للتخلص من النفاية السياسية. والمواطنون في الشوارع حول مكان دي تيرو، على شارع لافون Lafont، على سبيل المثال، كان ثمة شكوى حول الدم الذي يتدفق من خندق التصريف الذي يجري من تحت منصة المقصلة. وعدد من المحكومين، بعدئذٍ، أعدموا برمي نار جماعي على سهر بروتو ـ وهو حقل بجانب نهر الرون حيث طار مونتلفييه بمنطاده. وبعد، ممثل سابق آخر، هو دوفوييه Dorfeuille، ترأس بعض تلك الإعدامات بالرصاص، التي ربط فيها نحو ستين سجيناً في رتل وأطلقت عليهم النار بمدفع. وهؤلاء الذين لم يقتلوا فوراً بطلقة المدفع تمّ الإجهاز عليهم بالسيوف والحراب والبنادق.

وفي الرابع من كانون الأول، كتب درفييه إلى رئيس المؤتمر أن مائة وثلاثة عشر من سكان «مدين سدوم الجديدة هذه» أعدموا في ذلك اليوم وحده، وفي تلك الأيام التي تلي أمل أن أربعمائة إلى خمسمائة «سيكفرون عن جرائمهم بالنار والطلقات». وبعد ثلاثة أيام، كتب الحلاق الجراح أشارد إلى أخيه في باريس بسرور: «لا تزال هناك رؤوس كثيرة وكل يوم تسقط رؤوس أكثر! أي فرح ستختبر إذا، يوم ما قبل البارحة، شاهدت العدالة الوطنية حكمت بالإعدام على مائتي وتسعة أوغاد. يا للعظمة ويا له من أسلوب جليل! يهذي بشكل كامل وسريع، وكم من هؤلاء الأشخاص الكبار قد عض التراب في ذلك اليوم (بشكل حرفي) Jordu la poussière في حلبة بروتو. يا له من اسمنت صلب للجمهورية». «ملاحظة» وأضاف ببهجة، «قل مرحبا لـ روبسبيير ودبلي ونيكولا».

وبحلول الوقت الذي انتهت فيه أعمال القتل في «فيل افرانشي»، كانت ألف وتسعمائة وخمسة أشخاص قد لاقوا حتفهم. وقد شملوا، طبعاً، كثيرين من الشخصيات البارزة في ليون ـ بينهم ألبانت دي سيسو البلاغ من العمر خمسة وسبعين عاماً، ولوران باسيه الملازم قائد الأشغال العامة الملكية القديمة في ليون، وشارل كليرمنت تونيير. وضباط الجيش الأرستقراطيون، وأعداء التمرد في مقاطعة الرون واللوار، والقضاة الفيدراليين، والكهنة كانوا جميعاً في مكان عالٍ على القائمة، كما كان أي شخص أن يكون مرتبطاً بفئة «الأغنياء» الواسعة أو«التجار» أو أي أصحاب الأعمال أو الصناعيين الذين يتهمهم الجيش الجمهوري بالجرائم الاقتصادية. ومع ذلك، فهذا لا يزال يترك عدداً كبيراً من المحكومين الذين كانوا من فئات عادية، وعلى نحو مفترض أعضاء الأقسام الذين أيدوا الجيرونديين ضد شالييه، ولكن الذين جاؤوا من خلفيات مماثلة لنظرائهم اليعاقبة في باريس. (وبينما كان الميسورون على نحو متناسب ممثلين في جدول الموت،

فإن فكرة أن الفقراء أعدموا الأغنياء في ليون تبدو أسطورة محضة.) وإذا كان ثمة صناعيو حرير كثر بين المحكومين، لم يكن ثمة أيضاً أقل من 40 عاملاً من عمال النسيج المتجولين.

والأعمال التي قدمت المقاتلين المؤيدين لليعاقبة ي باريس، مثل هؤلاء صناع القبعات والأثاث الخياطين والبقالين، قدموا الجنود ضد اليعاقبة في ليون. وتمثلت المهن الأخرى في صانعي الأقفال والاسكافيين وصانعي البراميل، وأصحاب الفنادق والمقاهي والخدم والخمارين (في عدد ليس كبيراً)، وصانعي الخل وباعة شراب الليمون وكتبة الحسابات والمهندسين المعماريين وصناع الشوكولا، والخبازين وصانعي الشموع والأطباء ومدراء مكاتب المرضعات، وسائقي العربات وخدك البيوت والدهانين وباعة الجوارب وعمال النسيج، وقارعي طبول وموسيقيين وثلاث ممثلين (الذين يأمل أحدهم، لم يلتقوا بـ كولوت في الغرفة الخضراء)، صانعي شعر مستعار، باعة متجولين، خياطات، رسامين، مزينتي شعر، عطاراً، صاحب قارب، عمال طباعة، وطالب رياضيات في الرابعة والعشرين من عمره، وصاحب منجم فحم حجري، وبائعة سمك بيريت بوتن وطباخ معجنات وكاتب عمومي وكتبة عدل ومحامين وعدداً من الشباب الذين أدرجوا في القائمة بوصفهم «عاطلين عن العمل» وجاكلين شاتينيه البالغة من العمر خمسة وأربعين عاماً سقطت لكن لأغراض المحكمة صنفت ببساطة على نحو ملائم أنها «متعصبة» Fanatuque. وكان بين الدفعة الأخيرة التي يجب أن يُقطع رأسها بالمقصلة الجلاد جان ريبه Jean Ripet ومساعده، اللذين لم ينجح عملهما الشاق على مدى الشهور في حفظهما. وقد استدعي زميل من كليرمنت فيراند بشكل خاص لهذا العمل.

وما دام كثر من ليون قتلوا أيضاً تحت القصف الشديد خلال الحصار، فعالم مجتمع ليون الصغير قد أبيد. والرضة ترك آثاراً استغرقت أجيالاً لشفائها وأن ذلك، حتى اليوم، يجعل مواطنيها أقل دفئاً على نحو محب في موضوع باريس والباريسيين. ولكن بسبب المدة الطويلة لأهمية صناعة الحرير الكبيرة والتوسع الضخم للأسواق التي خلقتها الإمبراطورية النابوليونيه، فقد رتبت ليون معافاة جزئية لحيويتها الاقتصادية. وفي طرق عدة، فإن المصير الاقتصادي لمدن المرافئ الفيدرالية في مرسيليا وبورد وكولون، رغم أنها نجت من الإعدامات الجماعية على مقياس ليون، فقد كانت مشلولة على نحو دائم أكثر.

في فيل ـ سان نو (Ville - Sans - Nom البلدة دون اسم)، كما غدت مرسيليا



الصورة 198: لرسام مجهول، كولوت دربوا والنصر الجمهوري في ليون.

تدعى، بدا الموفدون في مهمة بارا وفريرون أنهما قد عقدا العزم على تطهير شامل مثل فوشيه وكولوت. فقد كتبا، «مرسيليا هي السبب الأصلي والأساسي لكل الشرور تقريباً التي ابتلي الوطن بها». ومثل كوثن، استعارا من مونتسكيو نظرية جغرافية لوصف تمردها. «بطبيعتها ذاتها»، اعتبرت مرسيليا نفسها باعتبارها منفصلة عن «الجبال والأنهار التي تفصلها عن باقي فرنسا، ولغتها الخاصة كلها تغذي الفيدرالية... يريدون قوانين لهم، ولا يرون غير مرسيليا، ومرسيليا هي بلدهم، وفرنسا لا شيء». وكانت الخلاصة التي توصلوا إليها مثل خلاصة كوثن. يجب استئصال النزعة المحلية العنيدة بواسطة تمزيق النخبة التجارية التي كانت في نواة ازدهار المدينة وكبريائها. وكانت المحكمة الثورية التي قامت بهذا العمل، مع ذلك، أكثر انتباهاً إلى الأشكال القانونية من تلك التي كانت في ليون. فمن الـ 975 سجيناً الذين ظهروا أمامها، برأت نحو النصف تقريباً. وبين الـ 412 الذين حكموا بالموت كانت قشدة المجتمع المحلي: الرجال الذين مكانتهم وثرواتهم تقف بين النبلاء والبورجوازية في أسلوب متميز لرأسمالية النظام القديم تماماً. فقد ضموا على سبيل المثال، جوزيف ماري روستان، الذي كان نبيلاً بالولادة لكنه وصف نفسه أنه تاجر،

والذي عاش في الشارع الفخم سولون، والذي كان يملك مصانع الصابون والمستودعات والمساكن وحصة في صوف البحر الأسود والسكر والقهوة في المستعمرات. وقد أخبر المحكمة: «لا أعرف ما إذا كنت نبيلاً. لقد كسبت المجد من كوني تاجراً». واندهاله من كونه موصوم اجتماعياً شهادة بليغة على النزعة المعادية للرأسمالية في ثورة اليعاقبة. افترض روستان أنه بإعلانه أنه تاجر سيخدع تهمة النبالة، في حين أن اعترافه في عيون محاكيه قد عقّدوها عملياً. وآخرون كثر مثله، منهم أنطوان تشيغاري وجان جوشيم دراغون والشريف فيليب مانون والقضاة في محكمة التجارة القديم أُعطوا الحكم نفسه.

لم تعانِ فرنسا كلها في هذه الطريقة. فقد بيّن دونالد غرير Donald Greer قبل خمس وثلاثين سنة أن 90% من كل الإعدامات خلال فترة الإرهاب وقعت في 20 مقاطعة من المقاطعات الست والثمانين. وكل هذه المناطق إلا باريس، التي كان لها وضع خاص في هذه المسألة، كانت مناطق حرب: إما مسرح القتال ضد التحالف والمواقع الفيدرالية الحصينة في ميدي أو وادي الرون والانتفاضة الغربية مع نواتها في فندي. وفي 30 مقاطعة كان هناك أقل من عشرة إعدامات. وخلال جحيم الإرهاب في ليون ونانت، كان هناك مدن كبرى في فرنسا مثل غرينوبل وبيشانشون التي، من خلال نزعة عملية حذرة لحراسها العامين والحظ الجيد البسيط في كونها خارج طريق منطقة الحرب، وفرت كثيراً من عنفها في السنة الثانية. وكانت هناك مدن أخرى وبلدات أصغر في فلك الفيدراليين التي ظلت مطيعة على نحو واضح للجمهورية ـ ليس أقلها بسبب علاقتها بليون أو بوردو كانت مسممة بمشاعر المدن الكبيرة تجاه باريس. فالخطر المباشر لإمدادات طعامها لم يأت من باريس أو الجيوش بل من جارها الكبير. وهكذا من حيث المبدأ أن عدو عدوها كان صديقها، مثل بلدات كليرمنت فيراند ولابوي اللتين كانتا أرضاً خصبة لتجنيد لصالح الزرق الذين هبطوا على ليون.

وفي أمكنة أخرى لا تحصى لم يوجد الإرهاب إلا اسماً. وإجراءات المحكمة الثورية في مورثه Meurthe، على سبيل المثال، التي وفقاً لـ غرير سجلت من 10 إلى 50 إعداماً لم تُوجّه لأن تُقرأ على نحو مثير. ومع أن سان جست وزميله في المهمة لاباس Labas أنشأا لجنة خاصة لفرض قروض على الأغنياء، في المقاطعة خارج شف ـ ليو Chef - Lieu، نانسي، تلاشى الإرهاب دون عقابيل. حوذي سابق في العشرين من عمره يخدم مع سلاح الفرسان حكمت عليه محكمة عسكرية بسبب تقبيله زهرة الزنبق (شعار ملوك فرنسا) على بذته النظامية القديمة. واتهم ثلاثة فلاحين بسرقة حمولة عربة من



الصورة 199، لوحة لغابريال، بسمة، كارير اوف نانت

الشوفات كان يفترض أن يسلموها للجيش وأفسدوا حمولة أخرى بمزجها بالقش والسماد، لكن تمت تبرئتهم لعدم توفر الأدلة الحاسمة. وحوكم صياد في كانون الأول عام 1793 لهتافه بصوت عالٍ «عاش لويس السادس عشر» ولكن طالما هتف أيضاً بـ «إلى الجحيم بالدين الكاثوليكي، وليأتي الدين المحمدي إلى فرنسا» استنتج أنه كان سكران ومجنون في الحالتين. وفي كانون الثاني. أعلن جندي في الثانية والعشرين من عمره اسمه فاتل Vattle علناً، «عندما كنت أخدم الملك كان لدي مال، والآن أنا أخدم الأمة ولم يُدفَع لي قط وأنا بائس، لكنه أفسد هذه الحقيقة التي لا يمكن نكرانها ولو كانت خطيرة بإضافته «وبالتالي: «حزا على الأمة... أنا لست مواطناً وسوف أموت من أجل مليكي»، مطمح سمح له أن يحققه كما ينبغي. ومقابل كل قاتل، مع ذلك، كان هناك عدد مماثل معارض في هذه المآسي الريفية ـ فعلى سبيل المثال، نيكولاس ترنكوارت، وهو معلم في لونفيل الذي اعتقل ليس بسبب نزعته الملكية بل لميوله الطوباوية (وبالتحديد، لتبشيره بقانون الإصلاح الزراعي، تقسيم كل الأراضي الزراعية بين الفلاحين).

والإرهاب، بعدئذٍ، كان انتقائياً إلى درجة عالية في جغرافيته. وقد توقّف أذى تأثيره

على مجاملة ولين والموفدين في مهمة. والجدية التي أخذت بها اللجان الثورية المحلية واجباتها، وكفاحية الجمعيات الشعبية، وما إذا كانت أو لا بلدة على طريق الجيوش الثورية، وبسبب تلك المسألة فترة تلوث الجيوش في منطقة معينة. ومع ذلك إذا كان هاماً ألا نعمم من تجربة ليون ومرسيليا، فإنه لهام بالدرجة نفسها أن نطلق أحكاماً نسبية على الإرهاب حيث يغدو موضوعياً مجموعة من الحكايات الرهيبة، الهامشية لتاريخ بلدة «عادية» بشكل تخيلي. لأنه إذا عمل بتأثير مدمر على المناطق التي كانت في الحقيقة مراكز الحرب أو التمرد، وقد حدث أن كانت هذه المناطق نفسها بالضبط على محيط فرنسا الفعال والنشط اقتصادياً.

وهكذا فاليعاقبة، كما تبين كل كتب التاريخ دون رحمة، كانوا مخترمين كباراً للملكية، وكانت حربهم حرباً ضد الرأسمالية التجارية. ربما لم يكونوا يقصدون أن تكون بتلك الطريقة في البداية، غير أن خطابتهم الانشقاقية ضد «الأنانيين الأغنياء» واتهام النخب التجارية والمالية بالفيدرالية عنى، بالممارسة، أن المشاريع التجارية والصناعية ـ مالم تُسحَب إلى خدمة الجيش ـ كانت تهاجم بذاتها. وليس مثيراً للدهشة، إذن، أن كانت المناطق ذات النمو الكبير في فرنسا القرن الثامن عشر ـ مرافئ الأطلسي والبحر المتوسط، بلدات النسيج في الشمال والشرق، المدينة الكبرى ليون ـ هي التي أصابها الأذى الأكبر في الثورة. و«البورجوازية» التي اعتقد التاريخ الماركسي طويلاً أنها المستفيد الرئيسي من الثورة كانت في الحقيقة الضحية الرئيسة.

ووجهة النظر الأكاديمية للإرهاب المحدود، علاوة على ذلك، قلما تصمد أمام التفكير المتروي في الشناعة الرهيبة في العام الثاني» التدمير العام لمنطقة بكاملها في فرنسا. ولا في مكان كما في منطقة فندي ـ بما فيها المقاطعات المجاورة في اللوار إيفزيور وماين إى لوار ـ حقق الإرهاب القول المأثور لـِ سان جست أن «الجمهورية تكمن في إبادة كل شيء يعارضها».

وانقلب المد في الحرب مع عدم قدرة شاريت على الاستيلاء على نان. ومع نهاية الصيف، أجبرت الجيوش الجمهورية بواسطة الفرق التي تحررت من الدفاع عن منيز، ومع المشروع الكبير الأول لفرض ضريبة عامة. وفي شوليه، وفي 17 تشرين الأول، خسر المتمردون معركة حاسمة، لكنهم خسروا أيضاً ترابط القيادة العسكرية. وأصبح جيش شاريت منفصلاً عن الجيش الكبير الرئيسي، الذي بمقتل كاثيلينو Cathelineau قبل سقوط نان للشاب روشيه ـ جاكلين. ربما متأملاً أن يرتبط بعدم الرسو البريطاني على الساحل

(الذي لم يأتِ أبداً)، عبر الجيش الكبير اللوار في 19 تشرين الأول. ومع قافلة كبيرة من النساء والأطفال والكهنة وغير المقاتلين. ربما بلغ عدد عشرين ألفاً، وقد طاف هذا الجيش البدوي حول بريتاني ونوماندي لثلاثة أشهر ومرهقاً بنمو الجيوش الجمهورية على نحو عنيد ومقاتلين بشكل عرضي معارك لم يحققوا فيها أكثر من احتفاظهم بالارض إلا قليلاً. وفي أنجر خسروا معركة حاسمة أخر، وفي سافيني Savenay في 23 كانون الأول، ما تبقى لجيشهم كان هزيمة منكرة، تاركاً روتشجاكلين Rochejaquelein أن يغادر إلى الغابة بوصفه فلاحاً. ووسترمان Westermann، الذي هكذا استرد اعتباره، كتب إلى لجنة السلامة العامة: «لم يعد هناك فندي، المواطنون، لقد أبيدت بسيوفنا الحرة بالإضافة إلى نسائها وأطفالها. لقد انتهيت لتوي من قبرها في مستنقعات ووحول سافيني. وبعد الأوامر التي أعطيتموني إياها سمعت الأطفال تحت قوائم وذبحت النساء اللواتي على الأقل... لن يولدن قطاع طرق. وليس لدي سجناء يمكنني أن ألم نفسي بسببهم».

وفي الأسلوب الإرهأبي الحقيقي، يمكن لوسترمان أن يكون قد بالغ ليظهر حماسه. لكن سياسة الإبادة، إذا لم يتم البدء بها، فستغدو قريباً حقيقة واقعية دقيقة في كل الأوجة. وقد أعلنت بشكل مبكر كثيراً في الصيف عندما قرر الجنرال بيزير Beyssier أنه ما دامت الجمهورية ستقاتل حرب قطاع طرق ولصوص فالأفضل أن تفعل ذلك بعدم رحمة شبيهة بقطاع الطرق.

وفي المراكز المدينية، خلال كانون الأول، عنى ذلك إرهاب وحشية استثنائي.

تم إعدام مائتي سجين في أنجر في كانون الأول وحده، وألفين في سان فلورن، جلب آخرون من السجون المكتظة في نانت وأنجر إلى أمكنة مثل بونت ـ دي ـ سي وأفريله Avrille، حيث أطلقت النار على ثلاثة إلى أربعة آلاف في مذبحة واحدة طويلة عديمة الرحمة.

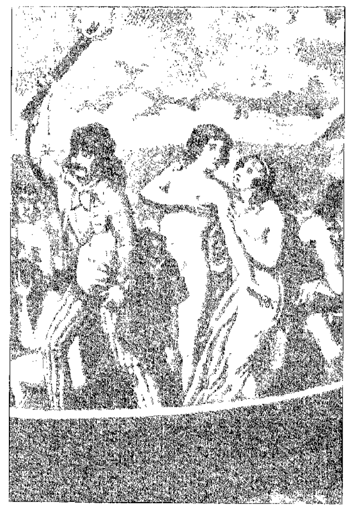
والمذابح الأكثر سوءاً جرت في نانت، حيث الموفد في مهمة، جان بانبتست كاريير Jean - Baptiste Carrier، ألحق بالمقصلة ما سماه «النفي الشاقولي» في نهر اللوار. فتحت ثقوب في جوانب قوارب عميقة مسطحة تحت خط الماء التي سمرت فوقها ألواح خشبية لتبقى القوارب عائمة مؤقتاً. وقد وضع فيها السجناء مقيدي الأيدي والأرجل ودفعت الزوارق إلى عرض النهر لتلحق بالتيار. كان الجلاد سائق الزورق عندئذٍ يحطم أو يزيل الألواح ويسرع في القفز إلى الزوارق التي تكون إلى جانبه، فيما يشاهد ضحاياها دون عون الماء ترتفع حولهم. وكل شخص يحاول النجاة بالقفز في النهر كان يضرب

بالسيف وهو في الماء. في البداية كانت هذه الإنحرافات محصورة بالكهنة وتحدث، غالباً بشعور بالذنب، ليلاً. ولكن ما سمعته «مجموعة مارا» في الجيش الجمهوري واضح في الاضطهاد على نحو ساخر «التعميد الجمهوري» أو«الحمام الوطني» غدا شيئاً روتينياً وكان يُنَفَّذ في وضح النهار، حيث ظل بعض الشهود أحياء ليصفوا ذلك.

وفي بعض الحالات، كان السجناء يُعرّون من ثيابهم وتؤخذ أمتعتهم (دائماً مصدر هام لعلاوات الجنود)، مثيرة روايات عن «الزواج الجمهوري» رجال ونساء يُربطون عاريين في الزوارق. وتختلف تقديرات الذين ماتوا بهذه الطريقة كثيراً، لكن ما لا يقل عن ألفين بالتأكيد وربما أكثر من أربعة آلاف وستمائة شخص.

وما كُشِف في فندي في الشهرين الأولين من عام 1794 لم يكن أكثر من عمل خيري. فالاستراتيجية الجمهورية الأساسية لإعادة الإخضاع كانت قد وضعت في الصيف الماضي، وقد ميزت رحيلاً جذرياً من التقاليد السائدة «لقواعد الحرب». فما دامت ممتلكات سكان فندي الكبيرة هي قاعدة قوتهم المحلية، صمم معارضوهم على تدميرها. مثل الأهداف العسكرية المعتادة في المعسكرات والحاميات والترسانات، مل البنية التحتية الاقتصادية والاجتماعية في المنطقة يجب أن تدمر حتى هؤلاء الذي يختبؤن فيها يُكشَفون للنار. يجب أن تحرَق المحاصيل وحيوانات المزرعة تُذبَح أو يُستَوْلى عليها. مخازن الحبوب والأكواخ تجتث، الغابات تحرق. والشيء الأكثر شؤماً لا يزال هو التمييز الغامض بين أقسام المحاربين وغير المحاربين من السكان. كانت النساء والأفضل معروفة أنها تقدم الدعم للمتمردين، وأحياناً يقاتلون معهم. حسن، إذن، سيقعون أيضاً تحت أمر «الإبادة». وكل بلدة أو مزرعة عُرِف أنها استقبلت قوات متمردة ستمسح عن الأرض بشكل آلي. واقترح رنسين القائد القتالي الأعلى في فندي إفناء السكان بشكل ممنهج بالتخلص من «قطاع الطرق» وتشتيتهم في كل أرجاء فرنسا أو إرسالهم إلى مدغشقر. وفي مكانهم مجموعات من المستعمرين الفرنسيين الأنقياء تعمر البلد وتغذي العائلات غير الملطخة بجريمتهم. ولا يزال هناك توقعات أكثر شراً في القتل التكنولوجي في القرن العشرين اقترح كاريير وضع زرنيخ في الينابيع. وفكر وسترمان ببرميل براندي مسمم يمكن أن يُرسَل إلى الفنديين (مع أنه كان قلقاً خشية أن يشربه جنوده بالخطأ).

وقد سأل روزينول Rosignol الكيميائي المعروف نوركوري لدراسة إمكانية استخدام الألغام والتطهير بالغاز أو وسيلة أخرى ليكون قادراً على التدمير أو الإنامة أو خنق العدو لقلة الأكسجين».



الصورة 200، لرسام مجهول. منقوشة ثيرمودورية لـ «الزواج الجمهوري» في اللوار. باعتباره نموذجياً ي هذه الطبقات المعادية لليعاقبة جندي الجيش الجمهوري يشاهد يهرب بثياب الضحايا ومستلكاتهم.

إنتاج الموت الجماعي من خلال المزاوجة بين التكنولوجيا والبيروقراطية سوف ينتظر قرناً ونصفاً آخر. لكن ما حدث في شباط وآذار، كان سيئاً كفاية. ومع التمرد العسكري أبيد إلى هذا الحد أو ذاك، بدأت الجيوش الجمهورية زحف «التهدئة» عبر المنطقة. فشجعت طوأبير الجنرال تورو turcau الاثني عشر الجهنمية (ولو لم تعط أوامر مباشرة) على أن يذبحوا عملياً كل شخص على قيد الحياة يعترض طريقهم. وهذا اللاتمييز في القتل تضمن حتماً بعضهم في الجانب الخطأ. فعائلة الشريف بلانتين، وهو مزارع ميسور ووطني جمهوري لا عيب فيه يعيش قرب ماشيكول Machecoul، نجا من المذبحة الفندية في البلدة ليخضع للطوأبير الجهنمية. في الزيارة الأولى قتل ثلاثة من أبنائه وزوج إحدى بناته وعندما عادوا ذُبح الابن الأخير وزوجته وابنتهما البالغة من العمر

خمسة عشر عاماً جميعاً. كل فظاعة يمكن للزمن أن يتخيلها وزعت على السكان العزل. سُبيت النساء بشكل روتيني وقتل الأطفال، وجميعاً شوهوا ببتر الأعضاء. ولتوفير البارود أمر الجنرال كوردلييه رجاله أن يقوموا بعملهم بالسيف بدلاً من البندقية. وفي غرنورد Gonnord في 23 كانون الثاني أجبر طابور الجنرال غروزات Crouzat مائتي شخص عجوز، بالإضافة إلى الأمهات والأطفال أن يركعوا أمام حفرة كبيرة حفروها، ثم أطلقت عليهم النار ليسقطوا في إلى قبرهم. والبعض الذي حاول أن يهرب ضرب بمطرقة بناء وطني محلي، وقد قبر ثلاثون طفلاً وامرأتين أحياء عندما ردمت الحفرة.

وكما في كل مكان آخر حيث ارتكبت هذه الأهوال، كان هناك هؤلاء الذين في الجانب الجمهوري الذين تقيؤوا من شناعة ما شهدوا والذين عاشوا هاجس المذابح لسنوات كثيرة بعد ذلك. فكتب بوديسون Beaudessom، الوكيل الرئيس لإمدادات الجيش. أنه شاهد آباء وأمهات وأطفال من كل الأعمار والجنسين يسبحون في دمائهم عراة وفي أوضاع لا يمكن لأشد الأرواح وحشية أن تتخيل ذلك دون أن ترتعد».

وفي أواسط نيسان عام 1794، استكملت عملية تهدئة فندي العسكري إلى هذا الحد أو ذاك. والقائدان الناجيان من الجيش الكاثوليكي والملكي العظيم الذي كان ذات زمن مهيباً هما ستوفلت stofflet وشاريت اللذين مارسا الحرب الصغيرة المزعجة والكمية والغازات المفاجئة وتجنباً المعارك المستقرة في مكان وتملصوا من الأسر. غير أن وطنهم، كما وعد الجنرالات الجمهوريون، صحراء، مزارعها مرمدة، وقطعانها الكبيرة من قطعان السمن ذبحت، وقرأها أزيلت من الوجود وقتل سكانها. ومثل كل مراكز الانتفاضات فقدت اسمها الخاص، لتصبح معروفة باسم فنجي Vinge وتعني التي انتقم منها.

كان معتاداً أن يشكك الباحثون بمزاعم المؤرخين الذين يؤيدون الفنديين التي تقدر الخسارة البشرية الكبيرة، وقد قُبل رقم دونالد غرير الذي يقدر عدو القتلى بأربعين ألفاً طيلة فترة الإرهاب وفي كل المقاطعات بأنه منطقي. ليس ضرورياً، مع ذلك، قبول وصف رينالد سيشِه Reynald Secher للمذابح باعتبارها «إبادة جماعية» لترى أن كارثة إنسانية ذات حجم هائل قد حدثت في فندي في السنة الثانية التي تطالب بمراجعة كبيرة إلى فوق لتلك النكبات. فـ جان كليمنت مارتن Jean Chemant Matin، الذي كتابه حول الموضوع نفسه نموذج للبحث المنطقي، يعطي مجموعاً للخسارة في فندي واللوار إنفريور وماين واللوار نحو ربع مليون قتيل، أو ثلث عدد سكان المنطقة الإجمالي. وهذا الرقم، علاوة على

ذلك، لا يشمل عشرات آلاف الجنود الجمهورية الذين سقطوا صرعى في الحرب.

وإذا وُوجه المؤرخون بدليل دمار شامل، ليس جديراً بهم أن يتجاهلوا ذلك باسم الموضوعية الأكاديمية. صحيح، كانت الأحداث في فندي في طبيعة حرب (ومع ذلك فالمجزرة كانت في أشد حالاتها بعد أن توقفت المعارك)، وصحيح، أن المتمردين من فندي ارتكبوا نصيبهم في المذابح في المراحل الأولى من الانتفاضة. ولكن مهما كانت المزاعم من وجهة النظر السياسية للثورة الفرنسية قد تفعل على تعاطف المؤرخ، لا أحد يمكنه أن يكون قوياً إلى درجة يسوغ، المذابح التي لا يقبلها وجدان في شتاء السنة الثانية. ومع ذلك فان نفرد تاريخ فندي في بند خاص لعمل مستقل عن بقية تاريخ الثورة الفرنسية اقل صحة، باعتباره نوعاً من انحراف. فالإبادات التي مورست هناك، في الواقع، كانت النتيجة المنطقية لأيديولوجية انتقصت من إنسانية خصومها بشكل دائم وقد غدا ذلك غير قادر على رؤية أية أرض وسط بين الانتصار الكلي والانهيار الكامل.

وإذ علق على الثورة في العاشرة من آب، ابتهج روبسبيير لأن «نهراً من الدم سيفصل الآن فرنسا عن أعدائها». وكان ذلك النهر الآن يعلو على ضفتيه، وكان التيار يتدفق سريعاً لكنه ظل غامضاً يأخذ الجمهورية إلا لهؤلاء الحميمين غير القابلين للفساد.

CHAPTER 17

Sources and Bibliography

On the Girondins in Normandy. see Albert Goodwin, "The Federalist Movement in Caen During the French Revolution", in Bulletin of the John Rylands Library (1959 - 6o, 313 - 44). For other (and more important) centers of federalist resistance, see Alan Forrest, Society and Politics in Revolutionary Bordeaux (Oxford 1975); W. H. Scott, Terror and Repression in Revolutionary Marseilles (London 1973); Hubert Johnson, The Midi in Revolution (chapter7); M. Crook, "Federalism and the French Revolution: The Revolt of Toulon in 1793", History (1980. 383 - 97); D. Stone, "La Révolte Fédéraliste à Rennes", Annales Historiques de la Révolution Française (July - September 1971); and, most important of all, in Lyon, C. Riffaterre, Le Mouvement Anti - Jacobin, et Anti - Parisien de Lyon et dans le Rhône - et - Loire en 1793 (2 vols., Lyon 1912 - 28). For a discussion of the regional strength of federalism in the Loire and its urban bases, see Cohn Lucas, The Structure of the Terror: The Case of Javogues and the Loire (Oxford 1973. 35 - 60)

Marat's assassination, funeral and cult are the subject of a fascinating collection of essays, edited by Jean - Claude Bonnet, La Morat de Maria (Pans 1986). See in particular the contributions of J. Guilhaumou, J. C. Bonnet (on Marat's journalism) and Chantal Thomas on the image of Charlotte Corday. Rather surprisingly, perhaps, modern interest in the cult of Marat, the exploitation of blood imagery and David's invention of a republican martyrology was anticipated in the excellent work by Eugene Defrance, Charlotte Corday et la Mort de Marat (Paris 1909), from which I take many of the more extreme examples of Maratology. See also F. P. Bowman, "Le Sacré Coeur de Marat", Annales Historiques de la Révolution Française (July - September 1975). Charlotte Corday's journey, deed and trial can be followed in exhaustive detail in the somewhat hagiographic (but still rivetingly interesting) Jean Epois, L'Affaire Corday - Marat; Prélude à La Terreur (les Sables - d'Olonne 1980).

For the Fête de l'Unité and revolutionary festivals generally, the crucial work is Ozouf, Festivals and the French Revolution. Ozouf is particularly eloquent on the official attempts to reshape citizens' sense of space and time through the festivals. For the Hercules image, as well as other important issues concerning the symbolic practices of revolutioriary discourse, see Hunt, Politics, Culture and Class. A number of other works deal with David's role in orchestrating the great festivals, in particular D. L. Dowd, Pageant - Master of the Republic: Jacques - Louis David and the French Revolution (Lincoln, Neb 1948); see also idem, "Jacobinism and the Fine Arts", in Art

Quarterly (1953, no. 3). On David, see also Anita Brookner, David(New York 1980), and the excellent forthcoming study on the artist by Warren Roberts. A vivid description of the fête of August 10, 1793, was left by the artist Georges Wille, Mémoirese: Journal (ed. G. Duplessis, Paris 1857).

On the early phase of the Committee of Public Safety and Danton's role in it, see Hampson, Damon (117 - 36). For Jacques Roux's crucial if personally disastrous intervention of June 25, see Markov, Jacques Roux (480 - 86ff). For the foundations and operation of the economic Terror, see Aftalion, L'Economie de La Révolution; also H. Calvet, L'Accaparement à Paris sow La Terreur: Essai sur l'Application de la Loi de 26 Juillet 1793 (Paris 1933). For what the enforcement of the maximum meant at the level of the village, see Richard Cobb, The Police and the People, and his classic work, The People's Armies.

For the levée en masse, the work that supersedes every other is J - P Berthaud, La Révolution Armée: Las Sodats - Citoyens et la Révolution Francaise (Paris 1979).I draw heavily on this superb book for my own account of the mobilization. R. R. Palmer, Twelve Who Ruled: The Year of the Terror in the French Revolution (Princeton 1941, is still an exceptionally readable, if somewhat idealized, account of the revolutionary government.

On the mentality, institutions and practices of the Terror, Cohn Lucas's The Structure of the Terror is a brilliant monograph, both persuasive in its account of the controlling complications of local allegiances and alarmingly vivid in its portrait of Javogues. See also Lucas, "La Brève Carrière du Terroriste Jean - Marie Lapalus", in Annales Historiques de la Révolution Française (October - December 1968). There are a number of other excellent local studies, in particular Martyn Lyons, "The Jacobin Elite of Toulouse", in Europan Studies Review (1977). See also Richard Cobb's account of the career of Nicolas Guénot and other Terrorists in his Reactions to the French Revolution. The most brilliant Sources and Bibliography characterization of the "revolutionary mentality" shared by both Terrorists and sans - culottes is Cobb's essay "Quelques Aspects de la Mentalité Révolutionnaire Avril 1793 - Thermidor An II", in his Terreur et Subsistances 1793 - 95 (Paris 1964), a shortened version of which also appeared in his A Second Identity (Oxford 1972). For the legal structure of repression, see John Black Sirich, The Révolutionary Committees in the Departments of France 1793 - 94 (New York 1971). At a Harvard University Center of European Studies Colloquium, "Republican Patriotism and the French Revolution", Richard Andrews read an extraordinarily important and provocative paper which demonstrated that the legal basis for the Revolution's definition of political crimes was laid not in 1793 by the Law of Suspects (which did, however, broaden it) but by the Penal Code of 1791. Finally, an important work, whose essential findings correlating the Terror with civil war departments of France have not been much shaken by criticism of the author's use of statistics, is D. Greer, The Incidence of the Terror During the French Revolution: A Statistical Interpretation, (Cambridge, Mass., 1935).

On the federalist repressions, see, for Lyon, Edouard Herriot, Lyon n'est Plus (4

vols., Lyon 1937 - 40), Baron Raverat, Lyon sous la Révolution (Lyon 1883) is predictably (and with good reason) hostile to the Jacobins but contains much interesting material. See also M. Sève, "Sur la Pratique Jacobine: La Mission de Couthon à Lyon", in Anneles Historiques de la Révolution Française (April - July 1983); Richard Cobb, "La Commission Temporaire de Commune Affranchie", in Terreur et Subsistances (55 - 94); and William Scott's excellent book, Terror and Repression in Revolutionary Marseilles (London 1973). For the "infernal columns" and the devastation of the Vendée, and the noyades at Nantes, see Sécher, J - C. Martin and Gaston Martin, Carrier et sa Mission à Nantes (Paris 1924).

On dechristianization the essential work is now Michel Vovelle, Réligion et Révolution, la Déchristianisation de l'An II (Paris 1976). On the revolutionary calendar, see Bronislaw Baczko, "Le Calendrier Républicain", in Nora (ed), Les Lieux de Mémoire, vol I, La République (38 - 82); See also James Friguglietti, The Social and Relgious Consequences of the French Revolutionary Calendar (Harvard University Ph. D. Dissertation, 1966), and Louis Jacob, Fabre d'Eglantine: Chef des Fripons (Paris 1946).

الفصل الثامن عشر

سياسة الفساد الخلقي

1 ـ إناث الذئب وأخطار أخرى

«لا أعرف شيئاً بمثل قسوة الاستيقاظ في زنزانة سجن، في مكان حيث أكثر الأحلام فظاعة أقل فظاعة من الواقع». تطلع جاك كلود بوينو Jacques - Claude Beugnot من مقامه العالي وزيراً في إمبراطورية نابوليون إلى الماضي برعب واشمئزاز إلى الأشهر التي أمضاها في الكونسيرجيري نهاية عام 1793. وبالاستعادة كان مندهشاً أيضاً أنه نجا عندما قبض على مئات الآخرين بذرائع واهية وخرجوا بعربة الموت إلى المقصلة.

كان ثمة أكثر من خمسين مكان توقيف تعمل في باريس خلال فترة الإرهاب. فقد جعل قانون المشتبهين الذي أُقِرّ في 17 أيلول معايير التوقيف مرنة كثيراً حيث ضخَّم نزلاء السجن إلى سبعة آلاف أوائل كانون الأول. وق سُمِح بازدحام خطير، وهكذا تجاوز عدد السجناء المساحة المتوفرة التي وفرتها المواقع الرئيسة الجديدة المخصصة للموقوفين السياسيين. بعضها، مثل المقر العام لإدارة الضرائب غير المباشرة (دفعة من سيُعدَمون بالمقصلة في الربيع) وقصر لوكسمبورغ الرائع، ربما صودر وفي الذهن عدالة شعرية. ومع ذلك، كانت المساحة المتوفرة الشغل الشاغل. فقد تحولت الثكنات، والأديرة، والمدارس والمعهد الينسيني المشهور ومكتبة بورت رويال Port - Royal (التي أعيدت تسميتها إلى بورت ليبر Port - Libre) جميعها إلى أماكن احتجاز.

وبين كل هذه السجون، كان للكونسيرجري، في إل دو لا سيتي Ile de la City السمعة الأكثر شراً (مع أن الرطوبة الشديدة غير الصحية في سان بيلاجيه Sainte - Pelagie جعلته يحتل المرتبة الثانية). وصفه بوينو«حجرة انتظار الموت واسعة»، لأنه لم يعمل كمركز احتجاز قبل الاستدعاء إلى المحكمة ومكان حبس للمجرمين العاديين وحسب، بل

كان المكان المؤقت لأولئك الذين ينتظرون إعدامهم بعد صدور الحكم. عادة ما استلقى بوينو مستيقظاً في الليالي يصغي إلى البكاء والأنين، الصادر عن المرضى والمروعين على نحوٍ غير مميز، فيما نبحت كلاب السجن الكثيرة على أجراس ساعة البرج الكالحة تعلن الساعات بدقاتها.

حتى بمعايير ذلك الزمن، كان الكونسيرجري حفرة بائسة، مكاناً معداً ليولد قذارة استثنائية داخل فناء معماري مهيب (لأنه أيضاً كان مسكناً أميرياً سابقاً). ومثل آخر من نزلائه نجا ليحكي قصته، الصحافي كلود فرانسوا بيليو Claude - François Beaulieu، كتب، قارنه سجناء كثر بواحدة من الدركات السفلى في جحيم دانتي، منزل الهوام، تنتشر منه رائحة المرض والغائط. وبإذن، شارك بوينو زنزانته ومساحتها خمسة عشرة قدما(إحدى أكبر الغرف) مع رجل يبلغ الأربعين من العمر كان متهماً بقتل أمه والذي شكّ بوينو أنه مهووس، ومزور شاب لطيف إضافي «من أرستقراطية الجريمة». لم يكن الجميع بمثل هذا السوء. فالسجناء الأكثر غنى (مثل ماري أنطوانيت) أُسكنوا في البستول à la pistole، حيث يمكنهم كما يقال تحمل كلفة الفراش بنحو سبعة وعشرين ليفر، واثني عشر سو sous للشهر الأول. ولأن هذا المبلغ يجب أن يُدفع مقدماً، فقد جعلته دورة رأس المال المتزايدة السرعة التي موّنتها المحكمة الثورية مصدرا رئيسيا للدخل في السجون. ففي سجن سان بيلاجي، كان السؤال الأول الذي يُطرح على السجناء القادمين «As - tu de la sonnette?» (هل تملك المادة الرنانة؟). وقد نام هؤلاء الذين لا يملكون (الغالبية العظمى) على القش à la paille، في زنزانات صغيرة، محرومين من الهواء والماء، ودون مكان ليبولوا ويتغوطوا فيه سوى الأرضية. بعد فترة يتوقف السجناء عن الاهتمام، ويناموت إلى جانب غائطهم وفيه، يغطيهم القمل والتقرحات المفتوحة. لتنويع الروتين بإمكانهم المشي معاً تحت الأقواس القوطية في الممر الطويل المظلم المعروف بـ «شارع باريس rue de Paris»، يراقبون فتحات الجرذان ويتبادلون الشائعات عن آخر الأذونات.

كان هناك، في كل حال، لحظة واحدة خلال اليوم يتطلع إليها السجناء الذكور جميعاً. فعند الظهر، تنزل النساء من أقسام البستول في الطابق الثاني إلى ساحة مفتوحة حيث، يبذلن قصارى جهدهن، فيغسلن ثيابهن وأنفسهن. تمكن الرجال من خلال نافذة بقضبان حديدية من تبادل الحديث وإبداء الإعجاب بأشكال النسوة اللواتي حافظن بجهد على مظاهرهن ويغازلوهن قليلاً. وخلال الوجبة التي تتلو، يجلس الرجال على نضد وضعت مباشرة بجانب نضد النساء، مع فاصل القضبان الحديدية، حيث لوقت قصير على الأقل يتملكهم وهم الرفقة. وقد حدث في أحد هذه الأوقات أن بوينو اكتشف «إغليه

Egle». كانت مشغولة بتوبيخ دوق دو شاتيليه البالغ من العمر السادسة والستين، القائد السابق للحرس الفرنسي، لفقدانه رباطة جأشه، تقول له بعبارات واضحة أن الاستمرار على هذا النحو غير جدير بِ دوق. وقد أشار عدم موافقتها على انهيار كرامته لِ بوينو أنها لا بد أن تكون امرأةً من منزلة رفيعة.

في الواقع، كانت إغليه مومساً، عاشت في السنتين الماضيتين في شارع فرومنتيو Fromenteaux. ربما عانت تجارتها من الثورة: في الشوارع التي عملت بها، انتهزت كل فرصة سنحت لها في الإعلان عن كراهيتها للنظام الجديد. فاتهمت نتيجة لتلك التقريعات، وقُبِض عليها مع صديقة تمارس المهنة نفسها وأحضرت إلى الكونسييرجيري. كانت تعبر عن ميولها الملكية البدائية بعاطفة مشبوبة وبلاغة قوية حيث، تبعاً لبوينو، خطرت لشوميت فكرة ملهمة أن يقدم الفتاتين إلى المحاكمة مع ماري أنطوانيت في الوقت نفسه. بالنسبة للمدعي العام في الكومونة، سيقدم مشهد العاهرات الثلاث يتشاركن عربة الإعدام نفسها تصريحاً رمزياً بليغاً عن وجهة نظر الجمهوريين المتطرفين في الملكة السابقة. كانت الفكرة، طبعاً، مشينة وفظيعة جداً للمحكمة الثورية. لكن مع أن الملكة وعاهرة الشارع لم تتقاسما العربة نفسها، بقي قدرهما متشابكاً لأنه عندما تلي اتهام إيغليه، بعد مضي ثلاثة أشهر على قطع رأس ماري أنطوانيت، وُجِد أنه يحتوي فقرة تتهمها «بالعلاقات التآمرية» مع الملكة. وقد اعترفت إيغليه بمرح بانتمائها الملكي غير نادمة ولكن، كما قال بوينو، عندما وصل المحقق إلى «مؤامرتها، «هزت كتفيها وأجابت ساخرةً، «حسن تماماً، ويا إلهي ma foi تظهر حقاً بعض الذكاء، لكن أنا، متواطئة مع الشخص الذي تدعوه أرملة كابت Capet والتي كانت الملكة بالذات، أنا التي كسبت عيشي على زوايا الشوارع ولم أكن أصلح حتى أن أكون الخادم الأدنى في مطبخها؛ هذا حقاً جدير بمجموعة من المنحرفين والأغبياء مثلك». وقد قادت جسارة هذا الانفجار، بغرابة كافية، أحد المحلفين أن يصرح أنها لا بد سكرى. وانتهزت صديقتها فرصتها الحقيقية الوحيدة للرأفة بالاعتراف أنها حامل (وبذلك تحميها من المقصلة). من جهة أخرى، أصرت إيغليه، ليس على أنها لم تكن لا حاملاً ولا سكرى وحسب، بل عنت كل كلمة قالتها، وبالتالي حُكِم عليها بالموت ـ لكن ليس قبل أن تتهم القاضي الذي أمر بمصادرة أملاكها بأنه حرامي. وعندما حان الوقت، «قفزت إلى عربة الموت»، كما يقول بوينو برومانسية شجاعة، «مثل طير». ربما كانت «العاهرة كاترين ألبور» التي ورد اسمها في اللائحة الرسمية للمدانة بقطع رأسها في 12 كانون الأول.

ليس هناك طريقة لإثبات رواية بوينو لخطة شوميت. لكن نظرا لعنف الشعور ضد الملكة في باريس، لا يبدو مستبعد تماماً. وبما أن لجنة دانتون للسلامة العامة قد أظهرت بعض التردد في تقديمها إلى المحاكمة في الربيع والصيف، كان إيبرت يستغل المسألة كعصا يضربهم بها بسبب نزعتهم المحبذة «للاعتدال»، وهي الخطيئة الأخيرة في كتاب العقيدة الثورية. ومع التغير في السياسة والطاقم في تموز، أخذت عملية الحط من الشأن الشخصي والإنساني الممنهجة تأخذ مجراها. كانت التقارير تتسرب عن حنان ماري أنطوانيت كأم على ابنها وابنتها، اللذين كانا مريضين باستمرار واللذين رعتهما بتفان كبير. وكان الأمر التأديبي يقضي بفصلها عن لويس شارل البالغ من العمر سبعة سنوات، الذي غدا منذئذٍ فصاعداً تحت وصاية الجمهورية. بعد ساعة من البكاء والرجاء اليائس، أُخذ إلى الأسفل إلى غرفة تحت الملكة مباشرة حيث يمكنها أن تسمعه يجهش بالبكاء لأيام حتى النهاية. وقد سبب تعليمه، الذي، تابعت فيه نموذج لويس، لها أعظم الآلام، أُعطيَ الآن لصانع أحذية نصف أمي يدعى سيمون، الذي هو نفسه قُطِعت رقبته فيما بعد. سوف يعامل الولد المريض والمحتمل أنه يعاني، مثل أخيه الأكبر، من السل، بعد موت أمه وعمته، مثل حيوان القفص، يحيا في الظلام والوسخ ويموت في وقت ما عام 1795.

ثم فُصِلت ماري أنطوانيت عمن تبقى من عائلتها للسيطرة على احتمالات هربها وتحملها شدة إذلالها. فأوقظت في منتصف ليل 2 آب وأخذت من التمبل إلى الكونسيرجيري، حيث شغلت غرفة طولها إحدى عشرة قدماً وعرضها ست أقدام فوق ممر الطابق الأرضي الرئيسي وجانب الحارسين اللذين كانا مسؤولين عن حراستها طوال الوقت، في نهاية الشهر حدثت محاولة تعوزها الحماسة لتهريبها لكنها أُلغيت عندما خاف أحد الحارسين وقادها عائدة إلى زنزانتها. وفي الثاني عشر من تشرين الأول، أخذت إلى المحكمة القريبة للتحقيق نحيلة ومهزولة. كان إيبرت قد أعدّ الرأي العام بزيادة نقده الذمي في جريدة الأب دوشين Père Duchesne. هكذا صارت يشار إليها عامة أنها وحش ضار ـ» الذئبة النمساوية» أو«النمرة الشرسة، «وحش بحاجة إلى أن يروي عطشه بدم الفرنسيين... و[التي] أرادت أن تشوي كل الباريسيين الفقراء وهم أحياء... التي كانت وراء المذبحة في نانسي لأول جنود الحرية» وهكذا دواليك. حتى لو أنها لم ترتكب كل هذه الأعمال الوحشية، كتب إيبرت(مردداً ملاحظة سان جست، «لا يمكن للمرء أن يحكم ببراءة»)، فلمجرد كونها ملكة كان كافياً لإدانتها، لأن أولئك الذين يحكمون هم أكثر أعداء الإنسانية خطراً. وبما أن مثل هذه المخلوقات هي بطبيعتها ذاتها خطرة بيولوجياً، «فمن واجب كل إنسان حر أن يقتل ملكاً أو من قدر له أن يصبح ملكاً أو هؤلاء الذين

شاركوا بجرائم الملكية». كان في هذا مجرد ببغاء يردد وجهة النظر المتطرفة العامة، المعبر عنها، على سبيل المثال، في مسرحية سيلفان ماريشال Sylvain Maréchal التي تتنبأ بكارثة بعنوان (العقاب الأخير للملوك)، حيث «الوحوش المتوجة» (تعبير ملطف نموذجي)، بشخصيات كاترين الكبيرة والإمبراطور فرانسيس الثاني والبابا و«جورج داندين George Dandin «من بريطانيا وإخوتهم في إسبانيا ونابولي وساردينيا وبروسيا الذين أخذهم جميعاً الجيش الجمهوري إلى جزيرة بركانية، حيث تبيدهم الحمم الحارقة بطريقة مرضية في الفصل الأخير.

وضعت مسرحية ماريشال تشديداً ليس على الحكم المطلق وحده بل على فساد الأمراء الأخلاقي. «هل ثمة أمة على الإطلاق يمكن أن يكون لديها ملك وأخلاق في الوقت نفسه؟» يسأل ذوي البنطلونات القصيرة الذين يخاطبهم بلاغياً. قبل الانفجار، يفقد الملوك مظهر كرامتهم ويقعون في آثامهم المميزة، يحارب بعضهم بعضاً بالصولجانات والصلبان وتدعو كاترين الشهوانية كل من يهتم أن يتبعها إلى كهف. كان هذا يتعارض بشكل مباشر مع ذوي البنطلونات القصيرة، الذين، «هم الرجال الأحرار واوطنيين بامتياز... إنهم مواطنون أنقياء... الذين يأكلون خبزهم بعرق جبينهم والذين يحبون العمل، وهم أبناء جيدون وآباء جيدون وأقرباء جيدون وأصدقاء جيدون وجيران جيدون..». كما أُوضِح لرجل عجوز منفي في الجزيرة.

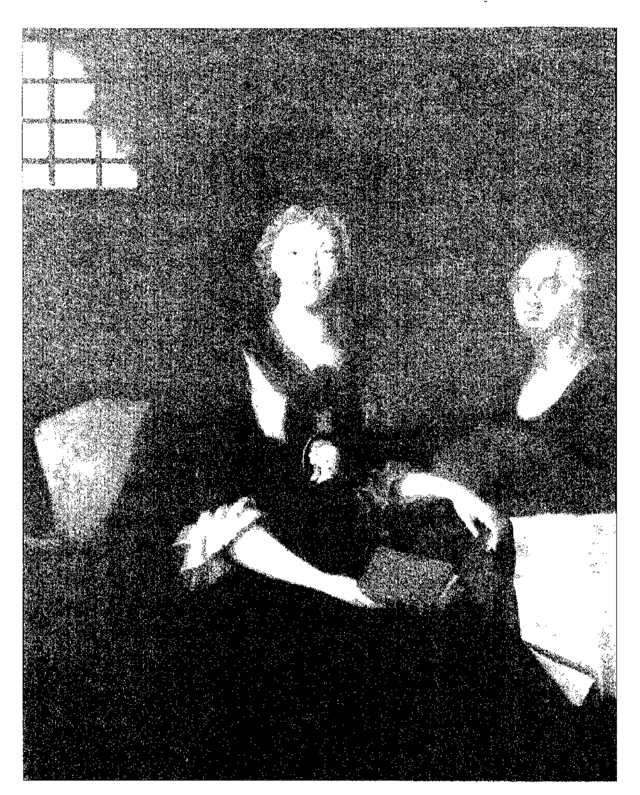
القضية ضد ماري أنطوانيت (وفي الحقيقة تقريباً كل من تبعها إلى المقصلة خلال فترة الإرهاب) كانت متشابهة كثيراً. كانت، أساساً، ملوثة جسداً وفكراً وعملاً. وهكذا كان بديهياً أن نبعث مؤامراتها من هذا الفساد الخلقي. في التحقيق الأولي الذي قام به رئيس المحكمة هيرمن Herman، صورت أنها زوجة لا يمكن ضبطها، أجبرت لويس، على سبيل المثال، على إصدار الفيتو ضد التشريع المعادي للإكليروس وتنظيم الهروب إلى فارين Varennes. ومثل كل النساء اللواتي لا يمكن السيطرة عليهن كانت جشعة إلى المال ومبذرة له في آنٍ معاً وتُهرِّب ذهب الوطنيين خارج البلاد». وكان 'حفل العربدة' السيئ السمعة الذي أقيم للحرس السويسري في فرساي عام 1789 مثالاً آخر عن شهوتها بالسيطرة. قال أحد الشهود الـ 41، الذين استدعوا ضد الملكة، إنه رأى زجاجات تحت سريرها، مما جعله يعتقد أنها كانت تنوي أن تسكِر الجنود.

بلغت الشهادة على شخصيتها اللاأخلاقية ذروتها بتدخل إيبرت السيئ السمعة ذاته،

والشهادة التي أقنع لويس شارل على توقيعها، يعترف فيها أن أمه وعمته قد علمتاه الاستمناء وأجبرتاه على اقتراف سفاح القربى. وقد أضرت بعض هذه الممارسات به، وأن صحته أخذت بالتحسن بمجرد نقله من وجودهما الملوث، كما ادعى إيبرت (على نحو يجافي الحقيقة). وكانت هناك طرق أخرى خسرت فيها الحق بأن تُعتبَر أماً صالحة. فبدلاً من أن تربي ابنها كجمهوري فاضل، تعمدت أن تلقنه مبادئ الملكية. وكان البرهان على ذلك هو الحقيقة اللعينة أنه كان يُخدَم أولاً على الوجبات، بفضل حقوقه المطلقة باعتباره «لويس السابع عشر XVII». القلب المقدس، مخترق بسهم (قالت الملكة، هدية من السيدة إليزابيث، متأسفة لأخت زوجها)، الطوطم الشهير لقطاع الطرق الفنديين، كان قد وجد بين ممتلكات الفتى، يشير إلى أنها قد هيأته ليغدو جالب الحظ لتلك الجماعة البربرية. ولم تقتنع بتدمير أحد ذكور العائلة الملكية، فصممت أن تفعل أسوأ ما لديها مع آخر. وكان كل ذلك برهاناً قاطعاً على شخصيتها «غير الطبيعية»، «الخصيبة» (لم تُختَر الكلمة عبثاً بالتأكيد) بالمكائد وحسب.

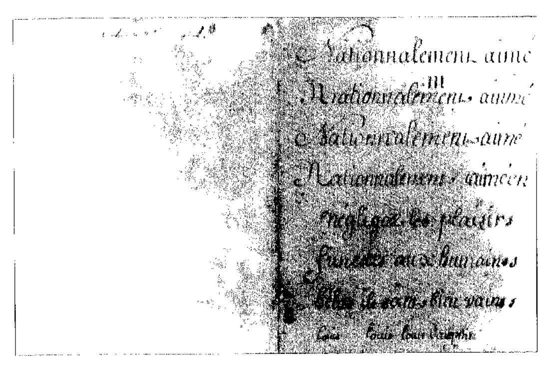
وكانت الرسائل التي قدمها فوكيه تنفيل، المدعي العام، هي الأكثر مناسبة لجذب الانتباه من كل ذلك، حيث أظهرت الملكة في مراسلات خيانية مع البلاط النمساوي في الوقت الذي كان فيه البلدان يحضران للحرب. لكن هذا الدليل اللعين في الواقع قد ابتلعه بشكل ما إطلاق شخصية السفاح الأكثر تعميماً. قيل للمحلفين، في الواقع، إن المرأة المتقلصة، ذات الشعر الأبيض التي أمامهم امرأة حقودة، كانت تعض الخراطيش المفتوحة للحرس السويسري في العاشر من آب لتوفر لهم الوقت لقتل ما أمكنهم من الوطنيين. ومثل هذه الحيوانات بحاجة لإبادة سريعة.

بعد الحكم الحتمي، أعيدت ماري أنطوانيت إلى الكونسيرجري، حيث بكت، وكتبت رسالة أخيرة إلى أخت زوجها، تعهد لها بالأولاد، وارتدت ثوباً أبيض، وقلنسوة بسيطة وحذاء خوخي اللون ذات كعبين عاليين رتبت لتحتفظ به معها في السجن. استعدت للموت وقُصّ شعرها، لكنها ارتعدت عندما رأت العربة المكشوفة، فقد توقعت، أو على الأقل تمنت، العربة المغلقة نفسها التي حملت لويس إلى ساحة الثورة، فتوفر إهانات الحشود. جلست منتصبة وهزيلة وهي تعبر الشوارع، رسمت جاك لويس دافيد شخصاً مثيراً للفضول، لم ترتجف إلا في اللحظات الأخيرة بالذات على منصة المقصلة. لم يكن ذلك كافياً للأب دوشيز، الذي كان يود رؤية المزيد من الرعب في وجهها ـ النوع الذي، في الواقع، سيظهره إيبرت عندما يحين دوره ليتبعها. «العاهرة كانت وقحة ومهينة حتى



الصورة 201، للرسام دي برين *de Brehen*، ماري أنطوانيت (وقد أضفى عليها الرسام صفات مثالية) في رداء الحداد في سجن تمبل

النهاية، في كل حال، خذلتها ساقاها لحظة ضُربت برفق لتهز اليد الساخنة» (jouer la main chaude) ـ الاسم المفضل الدارج المستعار عند إيبرت للمقصلة. وما جرى بعد ذلك



الصورة 202. سطر من دفتر ملاحظات ولي عهد الملك في السجن:
«محبوب وطنياً؛ يمتنع عن المسرات المؤذية للبشر، يا للأسف إنها حقاً تافهة».

ليس هاماً، كما أعلنت صفحته الأولى، «أعظم متع بير دوشين جميعاً، أنه رأى بأم عينيه رأس الرقص الأنثوي يُفصَل عن رقبتها اللعينة».

لم تكن ماري أنطوانيت المرأة الوحيدة في ذاك الوقت تقريباً التي تُتهم بالتآمر ضد عقيدة اليعاقبة عن الزوجة الأم المطيعة. فالسيدة دو باري المسكينة، آخر محظيات لويس الخامس عشر، قامت برحلات طائشة إلى لندن، حيث قامت بترتيبات مدروسة مع، بين آخرين، الوزير السابق برتران دو مولفيل لتهريب مجوهراتها إلى خارج فرنسا. لكن يبدو محتملاً أنه حتى لو أنها كانت أكثر حذراً في هذه القضايا، ستلاحقها سمعتها. وعندما حُقّق معها، كانت مذكرات دو باري للكونتيسة بيدانزا دو مايابور المزيفة Pidanzat de Mairobert هي ما لدى المحكمة، أنها بددت مال البلاد على المجوهرات والبيوت والمحظيين والتواطؤ مع الأب تيراي Abbé Terray الذائع الصيت ذي الذاكرة الضعيفة. دعاها أحد المجادلين الشديدي العداء: «برميل العدوى هذه؛ مصرف الظلم؛ البالوعة النجسة التي لم تقنع بالتهام أموال فرنسا فتغذت على اللحم البشري على طريقة أكلة لحوم البشر».

ولم تكن السيدة رولان Roland هدفاً إلى هذه الدرجة من الرهاب الجنسي، لكنها على الرغم من ذلك، بعد شهادتها في محاكمة الجيرونديين، رجعت إلى سان بيلاجي

متألمة من «أسئلة أثارت شرفها». بما أن عشيقها بوزو Buzot كان أحد زعماء محاولة القيام بعصيان فيدرالي في كالفادو Calvados، بدا محتملاً جداً أنها سئلت عن علاقتها به. وفي محاكمتها ذاتها في 8 تشرين الثاني، كانت مهمة فوكيه تنفيل سهلة بمجرد ربطها بالجيرونديين، الذين كانوا قد أدينوا وأعدِموا قبل عشرة أيام. لكن كان هناك محاولة لوصفها أيضاً أنها زوجة غير طبيعية، امرأة حولت بيتها ـ المكان الذي يجب أن يكون في ضوء عقيدة اليعاقبة الأرثوذكسية موطناً للوطنية ـ إلى وكر للتآمر. مؤسسة بطعم الرعاية والحظوة الأرستقراطية تظهر كثيراً من مزايا الصالون.

وفي الواقع، تسم فترة هذه المحاكمات بشكل دقيق الطور الأكثر عصفاً في سياسة الثورة الجنسية. حيث نشب قتال بين جمعية النساء الجمهوريات الداعية للمساواة بين الجنسين وبين نساء السوق poissardes بشأن احتشام النساء اللواتي يلبسن القبعة ذات الشريط والقبعة الحمراء. آمنت كلير لاكومب Claire Lacombe ومناضلات أخريات أنه يجب ألا يسمح للنساء بارتداء تلك القبعة وحسب بل أن يُلزَمن بفعل ذلك والسعي للانضمام إلى الحرس الوطني. وفي أواخر أيلول وافق المؤتمر على بعض المطالب الثورية بشأن الرداء، ولكن في 28 تشرين الأول حصلت مواجهة عنيفة بين الفريقين انتهت بضرب العنيف أنصار الحركة الأنثوية بشدة. عندئذٍ عكس المؤتمر نفسه وفي 5 تشرين الثاني أمر بإغلاق النوادي الثورية النسائية في باريس كافة. جاء المرسوم قبل ثلاثة أيام من محاكمة السيدة رولاند وإعدامها وبعد يومين من إعدام الممثلة أولمب دي غوج Olympe de Gouge. سبق أن تملك الأخيرة طيش تقديم نفسها مدافعة عن لويس السادس عشر وفاقمت تلك الخطيئة بالدفاع العلني عن حلول الفدراليين والدعوة إلى استفتاءات شعبية لتقرير شكل الحكومة. حتى بعد القبض عليها في العشرين من تموز، حاولت نشر هجماتها المباشرة على روبسبير وفوكيه تنفيل من خلال أصدقاء يلصقونها في أماكن عامة في كل أرجاء باريس.

مع أخذ الجهود المبذولة لتصوير تلك النساء أنهن خطرات منحرفات عن المعايير المفروضة على الحياة البيتية بعين الاعتبار، مدهش في الواقع كم أظهرن كلهن (عدا جين دو باري) أنفسهن في رسائلهن الوداعية نماذج أمومة حنونة وحية الضمير. في دفاعها المشبوب عن الملكة، أظهرت جرمين دي ستايل حب الملكة اللا أناني لأطفالها المرضى وناشدت نساء فرنسا باسم «الأمومة المقدسة» أن يطالبن بجمع شملها مع ابنها. وكتبت أولمب دي غوج لابنها الذي يخدم في الجيش، أن يتجاوز شعورها الشخصي بانحراف

الثورة الجائر. وفي رسالتها المؤثرة لابنتها أودورا Eudora البالغة من العمر اثنا عشر ربيعاً، ذكرتها مانون رولاند بالروابط الأعمق التي ربطتهما معاً:

لا أعرف، يا صديقتي الصغيرة، إذا كان سيتاح لي أن أراك
أو أكتب لك مرة أخرى. تذكري أمك. هذه الكلمات القليلة تتضمن
كل ما يمكنني أن أقوله لك... كوني جديرة بأبويك، إنهما يتركان
لك مثالين عظيمين وإذا استفدت منهما فلن يكون وجودك دون قيمة.
وداعاً، يا بنتي الحبيبة، أنت يا من غذيتها بحليبي والتي أود أن أتغلغل
فيها بكل عواطفي. سيأتي وقت تتمكنين فيه من الحكم على الجهد
الذي أبذله الآن كي لا أضعف[بالتفكير في] وجهك الجميل. أضمك
إلى صدري. وداعاً يا بنتي.

والأزواج، حتى أولئك الذين اتخذت زوجاتهم عشيقاً، كانوا قادرين بالمثل على إظهار مشاعرم الرقيقة. ففي الوقت الذي هرب فيه الجيرونديون إلى الشمال من باريس، لم يذهب رولاند دي لا بلاتيه Roland de La Platière إلى كان بل إلى روان، وبقي هناك لاجئاً طوال الصيف والخريف. وعندما سمع، أولاً بإعدام الجيرونديين ثم بموت زوجته في العاشر من تشرين الثاني، قرر الانتحار. فجلس على الأرض مستنداً إلى شجرة، على طريق باريس بعيداً من روان بضعة أميال، وضغط بشدة على نصل سيفه. ظنّ عابر السبيل الذي وجده في اليوم التالي أنه كان نائماً، إلى أن وجد رسالة إلى جانب رولاند انتهت بالكلمات «لقد غادرت ملجئي ما إن سمعت أن زوجتي قد قتلت. لم أعد أرغب بالبقاء في عالم مليء بالجريمة».

وقد عانى حلفاؤه، الجيرونديون، خلال عملية قضائية طويلة ومشوهة بلغت ذروتها بجهد شهير بذله فوكيه تنفيل ليختصر الإجراءات. متى بدا أن مدعيه العامين المعدين بدقة يبطئون بلا داع، أو أن الدفاع بدأ يؤثر على المحلفين، كان له الحق أن يسألهم إن كانوا «قد سمعوا كفاية كي يستنيروا» في ما يتعلق بوقائع القضية وأنهم في وضع يمكنهم فيه إعطاء الحكم. وكان هذا أكثر سرعة في قضية الجيرونديين، طالما أن بريسو Brissot وفرنيو Vergniaud على وجه الخصوص قدما بياناً قوياً عن سلوكهما، مفندين نقطة بعد أخرى الاتهام الأولي في تقرير سان جوست إلى المؤتمر ثم وسعه أمار، أحد الأعضاء القادة في لجنة الأمن العام. فكانت طعنتها الأساسية أن المجموعة، مهما كانت اعترافاتها



الصورة 203. الأب دوشيز يبتهج بموت الملكة



الصورة 204. صحن سيراميك يحمل أسطورة:
«وعدت السيدة فيتو أن تذبح باريس كلها لكن رقبتها الآن،
بفضل مدفعيينا، قُطعت، فلنرقص رقصة الكارمينيول».

المباشرة، فقد كانت دائماً مخلصة للملكية وقامت بكل ما تستطيع للحفاظ عليها.

كان الشخص الرئيسي في هذا التصميم بريسو، لذا بُذلت كل الجهود لكشف شخصيته ذاتها أنها بغيضة قدر الممكن. عُري بوصفه جاسوساً للشرطة، أمر أنكره لكنه في الواقع كان كذلك قبل الثورة. ووصف أيضاً أنه مزور عادي، لأنه ذهب إلى سويسرا في وقت ما للحصول على جواز سفر مزيف. ومن هذا الدليل على حياة مزدوجة في ثمانينيات القرن الثامن عشر صار ممكناً بناء القضية التي غدا فيها كل عمله الثوري كذبة، خدعة للارتقاء بالذات؛ إذاً فيما تظاهر في أنه، في عنوان صحيفته، **الوطني الفرنسي**، الحقيقة، تبعاً لنص الاتهام، أنه كان، طوال الوقت، عميلاً للعدو. وبالفعل، في اللحظة ذاتها التي ادعى فيها أنه جمهوري غيور، تآمر في الواقع لتنصيب دوق يورك على عرش فرنسا. حتى لو كان بريسو في بعض الأحيان غير مدرك، فقد كان المخلوق المكرس، دائماً، لاستراتيجية ويليام بت William Pitt. «أراد بت أن يشوه المؤتمر ويحله، عمل [«أنصار بريسو» كما كانوا يسمون طوال المحاكمة] على حل المؤتمر؛ أراد بت اغتيال ممثلي الشعب المخلصين، اغتالوا مارا وليبلتييه». حتى دفاع بريسو الشغوف عن الحرب فسر خلال الهوس الثوري - بالكمين - كطريقة لجر فرنسا قبل الأوان وبلا مسوغ إلى نزاع مع التحالف، الطريقة الأفضل لتدمير الوحدة الفرنسية. راقب البريطانيون الإمبراطورية الفرنسية، قدم لهم بريسو فرصة الاستيلاء عليها؛ أراد بت أن يدمر باريس، «وقد فعلوا ما بوسعهم لتدمير باريس».

عقلية المقاضاة عند اليعاقبة (مثل كل تلك الدكتاتوريات الثورية الأخرى) كانت كلية بالضرورة. كانت الأحداث والمصادفات وتبدل المواقف والخطط بالتعريف مستحيلة، قدمت الخدع لصرف اهتمام المحقق عن فهم الترابط الحقيقي والتماسك الضروري لأفكار عدوه وأفعاله. تماماً كما كان الثوري النقي كلاً متجانساً، تأسس اتجاهه الأخلاقي مبكراً في الحياة ويلاحقه بلا تردد، وهكذا مهما حاول المعادي للثورة أن يُظهر سلوكه أنه مصادفة أو غير مخطط، هو أيضاً كل متجانس. وكل ما هو مطلوب لتكون مكشوفاً، مثل تدوير غطاء الساعة الخلفي لفتحها، هو الحركة الأساسية للآلة. وكان هذا سهلاً في حال أنصار بريسو: كان دافعهم مصلحة ذاتية مشتركة. ووصمة عارهم «كزمرة» تشير إلى أن سلوكهم الثوري كله يمكن تفسيره بأنه استيلاء شخصي على السلطة. كان عدم الأخلاق الأناني لمثل هذه النشاطات هو النقيض الدقيق للوطنية الحقيقية، المُعرّفة بالغيرية. والوسائل التي لاحقوا فيها الثروة والغطرسة والسلطة كانت، أولاً، إنشاء سلالة حاكمة

ألعوبة بأيديهم و، عندما استبعد ذلك، تمزيق فرنسا نفسها إلى إقطاعات بارونية.

وما أن اختصر دفاع أنصار بريسو باقتراح فوكيه للمحلفين أنهم ربما سمعوا كفاية، لم يعد الحكم والعقوبة محل تساؤل. ومع ذلك، فقد خلق إعلان المحلفين الرسمي لحظة درامية غير عادية. سقط رأس بريسو بحزن على صدره و، تبعاً لأحد المحلفين، وثب كميل ديمولان Camille Desmoulins وصرخ، «يا إلهي، أنا آسف لهذا». وفيما استمر بواليو Boileau بالاحتجاج أنه بريء، وقع دوفريك فالازِه Dufriche - Valazé فجأة إلى الخلف عن مقعده. ظن أحد أصدقائه أنه هزم عاطفياً أيضاً، لكن تبيّن خلال ثوانٍ أنه طعن نفسه بسكين أخفيت في أوراقه. مات بعد بضعِ دقائق، فيما انسكب الدم على أرضية قاعة المحكمة. طالب فوكيه تنفيل مستاء من حرمانه من الإعدام بقطع رقبة الجثة في كل حال، مع بقية السجناء، وهكذا كان.

ومع أنه كان هناك شيء يشبه وباء الانتحار بين الثوريين الساقطين، بدا أن الجيرونديين كانوا عرضة بشكل خاص لشاعرية تدمير الذات. حيث قتل كلافيير Clavière نفسه أيضاً و، فيما بعد، كوندورسيه، كما سنرى، ربما تناول سماً ليتجنب إذلال المحكمة الثورية. أخفى فرنيو سماً أيضاً لكنه قرر، تبعاً لريوف Riouffe، الذي رآه في الكونسيرجيري آخر ليلة في حياته، أن يشارك قدر أصدقائه. وفي اليوم التالي، 31 تشرين أول، تسلقوا درجات عربتهم بتحد وهم ينشدون «المارسييز». وكان ذلك إشارتهم الأخيرة للأخوة. وعلى المنصة، أخذ سانسون Sanson ستة وثلاثين دقيقة فقط ليقطع اثنين وعشرين رأساً، وكان سعيداً للغاية بهذا البرهان الجديد على كفاءة النصل الوطني.

نهاية التسامح

استمرت عملية تنظيف البيت الجمهوري هذه بالقتل القضائي من خلال انتقاء أشخاص رئيسيين آخرين ممن مثلوا الماضي القذر. وكان محزناً للمحكمة الثورية أن عدداً من المرشحين الأكثر وضوحاً لعقوبة التكفير كانوا بعيدي المنال: دوميري Dumouriez في المنفى، لافاييت في سجن نمساوي، ميرابو في البانتيون Panthéon (مع أنه ليس لزمن طويل). ويجب أن يكون بارناف Barnave وبيلي Bailly كافيين بدلاً، ودفعوا ما ينبغي لمحاولاتهما الشخصية في الاحتواء الثوري. وفي 7 تشرين الثاني، ذهب فيليب إيغاليتيه، دوق أورليان، أيضاً إلى حتفه بصحبة صانع أقفال أدين لإهانته الألوان الجمهورية. أدلى كما يقال بتصريح علني للاعتذار عن مسؤوليته في إهدار دم بريء، يفترض أنه قريبه.

أصبحت الطهارة معبود سياسي. أطلق اليعاقبة بعد اقتراح قدمه ميرلين دو تيونفيل Merlin de Thionville، فحصاً ذاتياً مجهداً أجاب فيه كل عضو عن التساؤلات «كم كنت تملك عام 1789؛ كم تملك الآن وإن كنت تملك أكثر كيف حصلت عليه؟» وفي أواخر تشرين الثاني، عندما أخذ فحص الطهارة مجراه، ظهر أن المستفيدين الرئيسين من هذه العملية التي لا تلين بتصغير الذات هو إيبرت وحلفائه. وكان قد خدم في لجنة تطهير المنتدى. وسيطر بوشو Boushotte وفنسن Vincent على موارد وطنية ضخمة في وزارة الحربية؛ وكان رونسان Ronsin متحصناً بقوة رئيساً لأركان الجيش الثوري. في باريس، شراكة هانريو Hanriot، قائد الحرس الوطني؛ شوميت، مدعي الكومونة العام؛ وباتشي Pache، رئيس البلدية (الذي انتقل، بنجاح، من جيروندي إلى جبلي Montagnard إلى نصير لإيبرت) ظهر أنه يقدم، لهذه المجموعة، إمكانية إثارة وإخماد العنف الشعبي كما يرغبون.

امتلك أنصار «إيبرت» عندئذٍ، الرجال والمال والسلطة تحت تصرفهم وشرعوا باستخدامها بتأثير قوي. واستولى بوشو، وزير الحربية، على مبالغ ضخمة لتوزيع الأب دوشين مجاناً على وحدات الجيش كلها. كان ما مثّله هؤلاء الرجال أكثر من أسلوب إتهامي وحشي أمر مشكوك فيه كثيراً، بما أنهم عرّفوا أنفسهم بلغة ضد ما ومن ليس مع من. كانوا ضد «التعصب» المسيحي وضد أية رحمة لمهزومي «قطاع الطرق» و«وحوش» الفيدرالية والثورة المضادة؛ ضد الأغنياء والعقول الجميلة - المفكرين الذين افترض أنهم يتنازلون ليخاطبوا الشعب بالحجج. وبقدر ما كانوا يمثلون أي شيء، كانت فكرة فوضوية لحكومة شعبية، مسلحة دائماً لفرض إرادة الشعب على من هم تحت سلطاتها. وقد فضلوا أيضاً امتداد سلطة الدولة إلى الاقتصاد. ففي عدد الأب دوشين 273، ناقش إيبرت أن «الأرض قد خلقت لكل الكائنات الحية، من النملة إلى الحشرة المتغطرسة المدعوة إنسان، كل منها يجب أن يجد عيشه من نتاج هذه الأم المشتركة... التاجر يجب أن يعيش من صنعته، بالتأكيد، لكن يجب ألا يسمّن نفسه على دم الفقير. المُلكية هي [ببساطة] الوجود ولا بد للمرء أن يأكل، مهما كان الثمن». وفي سياق هذا المفهوم للدولة كحامية للعيش في الحد الأدنى (رأي شاركه فيه من قريب أو بعيد روبسبيير وسان جوست)، أراد إيبرت سياسة مصادرة أكثر عدوانية لمواجهة الأزمات المحلية. ولضمان إمداد كافٍ وأسعار متدنية، وكوسيلة مؤقتة على الدولة أن تشتري إنتاج النبيذ والحبوب (مع إرضاء المنتجين). واقترح شوميت في خطاب إلى الكومونة في 14 تشرين الأول أن تقوم الدولة باسترداد المعامل والمصانع المغلقة أو التي هجرها المستثمرون المهاجرون (خطة سوف

تؤخذ على محمل الجد بعد ثمانين سنة في كومونة باريس عام 1871).

والأمر الأكثر أهمية، مع ذلك، كان أنصار إيبرت مؤيدين لرقابة صارمة، والشجب، والاتهام، والإذلال والموت. كانت صورة الأب دوشين للجمهورية نوعاً من مساواة بغرفة الحبس، حيث لا يجد الأشخاص الطيبون شيئاً يخفيه أحدهم عن الآخر وسوف يتقبلون أخوة قوية بسرور. كان إيبرت يصر على القول: «الرجل الطاهر دائماً يقول صراحة ما يفكر به، ويسمي القطة قطة، لا يتلاعب بالناس أبداً، وإذا ضرب شخصاً شجاعاً ما في فورة غضب، عندئذٍ يطلب عفوه ويعوض الخطأ بأخذه إلى أقرب محل نبيذ لشرب بضعة كؤوس». (بالفرنسية أفضل كثيراً: «الخنق نصف دزينة من غلمان الجوقة»).

لم تمر سطوة إيبرت، في كل حال، دون مقاومة. فمع كل مظاهر الاستسلام للتدخل الشعبي، دلت سيطرة اليعاقبة يوم 5 أيلول على تصميم الجبل ألا يكون تحت رحمة الكومونة. لهذا السبب أكثرية لجنة السلامة العامة، لاسيما بعد تصريح سان جوست في 10 تشرين الأول أن على الحكومة أن تكون «ثورية [هذا يعني، ديكتاتورية] إلى أن يحل السلام»، لقد صمموا على استعمال سلطة الدولة لتحييد التهديد بالعصيان. وخلال تشرين الثاني وكانون الأول، في كل حال، كان الجبل نفسه منقسماً. كان عدد من الأشخاص المهمين، بمن فيهم روبسبيير وكوتن، أخصاماً لأعداء المسيحية وكانوا مستعدين للاستماع لشكاوى حول تجاوزات عقابية ارتكبها مندوبون في مهمة متحمسون، أمثال جافوغ Javogues وكارير وفوكيه. ومن جهة أخرى، ظلوا مهووسين بهاجس الكأس المقدسة للطهارة الجمهورية، التي طالما ستبقى بعيدة المنال إلى الأبد، فسيرى أنصارها أنفسهم في مواجهة جنود الظلام والجريمة المدنسين الذين يقفون بينهم وبين جائزتهم والذين يجب أن يُقتلوا إذا كُتِب لعهد الفضيلة أن يتحقق يوماً.

وكان على التحدي الرئيسي لأنصار إيبرت، عندئذٍ، أن يأتي من مجموعة أخرى من اليعاقبة كانت أكثر اهتماماً باستقرار فرنسا البراغماتي من تكريسها للجمهورية المثالية. وكان دانتون الشخص الكلي الأهمية في هذه المجموعة. كتب جوزيف غارا Joseph Garat الذي كان قد خلفه في وزارة العدل و، حتى آب، وزيراً للداخلية، فيما بعد، أن دانتون شكا له في محادثات خاصة عند نهاية عام 1793. كان غارا نفسه تحت شبهة أنه قريب كثيراً من الجيرونديين، لذا كان طبيعياً لدانتون أن يعترف له بهمه: رفض عروضه بهدنة، ترك بريسو وأصدقائه الجمهورية تحت رحمة إيبرت وأكثر الإرهابيين تطرفاً. وما يدعو للسخرية، أن دانتون هو الذي صاغ الشعار الرنان «الإرهاب هو نظام اليوم» في 5

أيلول عند سحب أصفاد المؤتمر من النار. غير أن الحكومة الثورية في ذهنه كانت في يأس عسكري، وانتصارات هوندشوت Hondschoote وواتيني Wattignies قد أزالت تلك الضرورات الإرهابية. أسرَّ لـِ غراتا استراتيجية لتصحيح المسار. حملة صحفية سوف تتصاعد من أجل الاعتدال وضد كومونة أنصار إيبرت. روبسبير، الذي مازال يملك ثقته، وبارير Barère، الذي قدر أنه أيضاً كذلك، بقلبه، ذرائعي، سيتم التودد إليهما داخل اللجنة، والنتيجة عزل المقاتلين أمثال كولو وبيلاو فارنيه و، في النهاية، تغيير شامل في الطاقم. سيُفكّك الإرهاب الاقتصادي وتفتح فرنسا مفاوضات للسلام مع التحالف فيما تبقى معبأة بالكامل خشية فشل ديبلوماسي.

لم تكن الخطة سوى محاولة أخرى لإعادة الجني الثوري إلى قمقم سلطة الدولة. وكان جوهرياً لتحقيق ذلك الاستخدام الساخر لمؤامرة جنون الارتياب ضد ممارسيها الاعتياديين. ويبدو محتملاً أن دانتون أيد كشف فابر ديغلانتين عن «مكيدة أجنبية» في منتصف تشرين الأول، قيل فيها أن أصدقاء ومؤيدي إيبرت متورطين في مؤامرة لتحريض المؤتمر والتخلص من اللجان. بكلمات أخرى، كان أولئك الذين يُزعَم أنهم الوطنيون الأكثر شراسة في الواقع عملاء أجنبيين. بدا لبعض الوقت أن التكتيك يعطي ثماره. فقد اعتقل ستانيسلاس ميلار Stanislas Mailard، وأناكارسيس كلوت Anacharsis Cloots (اللذان شدَّ أنصار دانتون الانتباه إلى مولدهما «البروسي» باستمرار) والبلجيكي فان دن إيفر Van den Ijver فعلاً. وذهب فابر أبعد في قرع طبل الوطنية، فطالب بالقبض على أي أشخاص بريطانيين باقين في فرنسا ومصادرة ملكياتهم. ووسع شبكة «الشبكة الأجنبية» إلى إثنين آخرين من زملاء إيبرت، ديفيو Desfieux ودوبويسون Dubuisson، وإلى القس السابق شابو Chabot، الذي تزوج من عائلة مصرفيين يهود مورافيين، وإلى الديموقراطيين البلجيكيين برولي Proly ووالكيير Walckiers، وحتى لـِ هيرول دو سيشل Hérault de Sechelles، الذي اتهم بشكل ما بحماية مصالح مصرفية أجنبية في لجنة السلامة العامة.

كان الشجب جنونياً ما يكفي ليثق به روبسبير، لاسيما وأنه ربط معاً رجالاً على اليمين (نسبياً) مثل هيرول، الذي أسبغ عليه مولده الأرستقراطي وخلقه الفكري شكّاً، مع مجانين وسفاحين على اليسار مثل ميلار وكلوت، اللذين وجدهما ببساطة مقرفين. وكما في حلقة تآمرية، المؤثر هو التطرف. كان كل هذا منطقياً. وفي 16 تشرين الأول استنكر سان جوست ليس الفاسدين وحسب، بل «الرجال التواقين للمناصب أيضاً، «وهذه ملاحظة، كان واضحاً أنها موجهة إلى الكومونة، وروبسبير، في واحدة من محاضراته

الجامعية متظاهراً أنه خطاب سياسي، عرض جغرافية جديدة لخداع الثورة المضادة. كان هناك، على ما يبدو، الفرع «الأنغلو - بروسي» متحداً مع تطلعات بريسو لتنصيب إما دوق يورك أو دوق برينسويك على العرش. وكان هناك أيضاً الفزع «النمساوي»، الذي امتد من حكومة فيينا (قيل إن أحد المتهمين، برولي، كان ابناً غير شرعي للمستشار كاونيتز Chancellor Kaunitz) إلى المصرفيين البلجيكيين إلى مقاولي الحرب الذين كان دوموري Dumouriez مثقلاً بهم، ولتابعيهم وعملائهم بصورة عامة في باريس وحتى في المؤتمر ذاته.

لا بأس، حتى الآن. ولكن في منتصف تشرين الثاني، لاحت كارثة فجأة. ففي العاشر من ذاك الشهر جادل شابو وصديقه كلود بازير Claude Basire، اللذان تحت الشبهة كثيراً، في المؤتمر للحد من سلطات اللجان في القبض على المندوبين. يجب أن يعطى المتهم حق الدفاع أمام كامل هيئة المؤتمر قبل أن يَمثُل أي مندوب أمام المحكمة الثورية، وقد حاكى هذا نوع الموقف «المتسامح» الذي اتخذه دانتون نفسه. ومع أن الإجراء، أصبح قانوناً، عارضه إرهابيون مقاتلون في كل من المؤتمر ولجنة السلامة العامة، بينهم بيلاو فارين، الذي أصر، «كلا، لن نعود إلى الوراء، لن تُخنَق حماستنا إلا في القبر؛ إما أن تنتصر الثورة أو نموت جميعنا». كان بازير أكثر انتقاداً على أرضية أن قانوناً كهذا يصنع تمييزات متحيزة بين المندوبين وباقي المواطنين. وأُسقِط القانون الذي سُنَّ قبل يوم واحد.

ومع ذلك، لم يكن هذا جذر المسألة. لم يكن شابو وبازير غير مهتمين بالضبط بوصفهما راعيين للإجراء. كانا يستغلان منصبهما لأنهما المعينان لتصفية الاحتكار التجاري الاستعماري، **شركة الإنديز**، في المضاربة بضراوة في أسهمها المغتصبة سراً من مدرائها ثمناً للتساهل الرسمي. وقد عنت هذه الممارسة القذرة في نهب الأصول رشاوى على نطاق واسع وتزييف الحسابات ومرسوم التصفية الرسمي. وإلى حدٍّ كبير كانت المسألة أكثر فضيحة بما أن شابو وبازير، ومعهما زميلان آخران في المؤتمر، ديلوني Delauney وجوليان دي تولوز Julien de Toulouse، قد طُرحوا في الصيف سياطاً لا ترحم ضد الرأسمالية الفاسدة. وقد ضمنوا لأنفسهم، برفض البنوك والمضاربين في البورصات واحتكارات التجار، المواقع الإستراتيجية الممتازة التي يزيدون منها غنائمهم ويبقون في منأى من التحقيقات الرسمية.

لا شيء من هذا كان بالضرورة سيعرض هجوم دانتون ضد إيبرت للخطر لولا ورطة

فابر ديغلانتين. فيما لم يكن فابر المحرض على التزوير، لكنه كان قد ارتشى بسخاء للتواطوء فيه، وما كان على مرسوم التصفية الفاسد هو توقيعه بالذات. وهذا، في كل حال، لم يردعه عن إقحام شابو في «مؤامرته الخارجية» كي يبعد من روبسبيير واليعاقبة عن مساره. وبالإضافة إلى ذلك، كان زواج شابو من ليوبولدين فري Léopoldine Frey، ابنة وأخت عائلة كانت قد دعت نفسها على التابع دوبروسكا Dobruska وفون سكونفلد von Schönfeld، مادة ممتازة «للمؤامرة الخارجية» المصممة لإظهاره وطنياً فوق العادة. ولم يكن باستطاعة شابو أن يصدر شجباً مضاداً دون أن يجرّم نفسه.

ومهما يكن، فقد بدأ كل هذا يتكشف في أواسط تشرين الثاني. وقد أعادت دانتون على عجل إلى باريس من مزرعته الصغيرة في أرسيز سور أوب Arcis - sur - Aube حيث، لشهر، كان يلعب دور السيد الريفي بسعادة، ويستمتع بملذات الحياة المنزلية مع زوجته الثانية. وقد لاحقت جريدة الأب دوشين والمتحمسون من اليعاقبة ومنتدى الكوردلييه Cordeliers شابو وبازير بلا هوادة بعد هزيمة قانونهما. وإذ اعتقد شابو أنه على وشك أن ينكشف، حاول أن يوقف خسائره باستنكار وقائي. فذهب إلى روبسبيير صبيحة 14 تشرين الثاني وأيقظه من سريره لتنويره بما يخص مؤامرة مذهلة، بالطبع من عمل الثورة المضادة، لسلب الأمة أموالها التي تحتاج إليها حاجة ماسة. وقد سمى ديلوني وجوليان لكنه أكد لروبسبيير أنه في حين كان هو ذاته قد ساير جزءاً من المؤامرة، لكنه وجد أنها ذات طابع مؤذٍ وطنياً، والأفضل هو القبض على المجرمين المتورطين جميعاً. وقال إنه يحمل دليلاً مادياً هو مائة ألف ليفر رشوة، سوف يعطيها للجنة الأمن العام مع أسماء المتآمرين، شرط أن يحصل على بعض الضمانات أنه هو شخصياً لن يُورَّط. وقد شجعه روبسبيير على المتابعة على هذا الأساس منذهلاً بتلك الأخبار. ولكن خلال بضعة أيام تم اعتقال المبلِّغ والمبلَّغ عنه.

وبطريقة ما تجاوز فابر التدقيق ونجح عملياً في وضع مسافة إضافية بينه وبين المختلسين بالمزيد من الاستنكارات لشابو. فالخيانة تولد الخيانة. وبمجرد أن أشار شابو إلى ديلوني وجوليان لينقذ عنقه، باع فابر الآن شابو لينقذ رقبته. وقد نجح هذا التكتيك لبعض الوقت. وبدا أن لدى روبسبيير إيمان كافٍ بفابر ليعطيه دوراً في التحقيق الرسمي، طبعاً الذي تمكن فيه من أن «يطبخ» المزيد من البراهين ومحاولة توريط قادة من أنصار إيبرت، بمن فيهم شوميت.

ومع ذلك، لم يكن دانتون أحمق، ولا غرّاً عندما يصل الأمر إلى المال المكتسب بشكل خيالي. وكان فابر صديقاً قديماً من أعضاء منتدى الكوردلييه عام 1789، حاميه في



الصورة 205. للرسام جاك لويس ديفيد، صورة، دانتون، 1793

النادي ومجلس المنطقة. وقد أُعجِب دانتون بفطنته وتظاهر بأنه يحب مسرحياته، لكنه لم يكن تحت تأثير أي وهم بشأن عفة فابر. وفي أية حال، كره دانتون استقامة النفس الأخلاقية لدى أنصار الجبل وتباهي أنصار إيبرت واعتقد أن مسألة الفساد كلها أقل الحاحاً عملياً من كل المشكلات الأخرى التي تواجه الجمهورية. وقد عُرِف عنه هو نفسه في بعض المناسبات أنه غمس أصابعه في الإناء اللزج، ويكاد يكون مؤكداً أنه يوافق مع ميرابو على أن العلاوات والإضافات كانت دائماً ضرورية لجعل الحكومة تعمل. وخير من يمثل فلسفته في هذا المجال هم «العثمانيون الأواخر». ومع أخذ هوس اليعاقبة بالاستقامة، وإدمان روبسبيير ذاته على السياسة النظيفة، الشفافة حقاً، هدد حل خيوط المؤامرة أن يعطي عكس النتائج المرجوة على نحوٍ يدمر حملة دانتون لإنهاء الإرهاب.

فكان الهجوم الحيوي هو وسيلة الدفاع الأفضل آنذاك. كان فابر قد شرع بخطوة إلقاء شبهات تحديداً على أولئك الناس الذين تمترسوا لينقضوا: أنصار إيبرت. لكن الهجوم الحقيقي كان سيشنه شخص يكن له روبسبيير حباً والذي كان دون الشبهات: كميل ديمولان Camille Desmoulins. عندما أطلق ديمولا الكورديلي القديم في بداية كانون الأول، لم يكن باستطاعة دانتون أن يعرف التأثير الاستثنائي الذي سيفعله، ولا كيف سَينهض ديمولا حقاً ليواجه أزمة بهذه الروعة. كان يجب أن يعطيه عنوان الورقة، التي كانت تظهر كل خمسة أيام، دليلاً، لأنها كان محاولة مدروسة لتمييز أنصار الحرية «القدماء»، الرجال الذين كانوا ديمقراطيين عام 1789، عن «القادمين» الديماغوجيين الجدد أمثال إيبرت.

وفي كل السبل المفهومة، قلبت ورقة ديمولا الطاولة على صحيفة الأب دوشين. أصبح عادة، في الصحافة المناضلة، مراجعة تاريخ الثورة بوصفه يتطور دائماً إلى الأمام من الدنس والحلول الوسط الملطخة نحو مستويات أعلى من الطهارة والديمقراطية الشعبية. كان لدى ديمولا الشجاعة ليكسر الزخم المفروض، بإضفاء هالة رومانسية على الفضائل التي أطلقت الثورة، على الأقل كما قاتلت في الشوارع والمناطق عام 1789. أحبَّ مراجعة (مرات عديدة) دوره الشهير ذاته في إطلاق انتفاضة 12 تموز الباريسية وعارضه مستاءً بسيرة إيبرت في ذلك الوقت كمستولٍ على بطاقة في مسرح المنوعات. وهكذا هوجم «الكورديليين الجدد» لاستيلائهم على عنوان كان عزيزاً على أيدي الثوريين القدماء، الذي لولاه لما كان لهم لا النهج ولا الحرية ليطبعوا افتراءاتهم القذرة. (وقد حرص على أن يذكر الشعب بالدور البطولي لـِ لوستالو Loustalot في إنشاء صحافة شعبية حقاً.) وصبّ ديمولا أيضاً احتقاره الشديد على ادعاءات جماعة إيبرت أنها «من الشعب». كان اختياره للغة هذا الهجوم المضاد مدروساً. عاد إلى طريقة مشرقة، أنيقة، ساخرة، دون جعجعة مارا، والأفضل أن يعارض استقامة شخصيته هو ذاته بدجل إيبرت بوصفه واحداً من الصبيان. الطريقة التي أكتب بها هي في الحقيقة أنا، وأسلوبه ضمناً. أما إيبرت فيقدم لكم «لغة المقبرة»، كما لو أن فضيلة وصراحة نثره يمكن أن تقاس بعدد الأعمال والأشخاص في فقرة واحدة. وعلى اتهام إيبرت أنه، أي ديمولا، قد تزوج فتاةً غنية، أجاب بفعل صراحة مصمم لكسب تصفيق روبسبيير، مصرحاً أن هذه «الثروة» التي جاءت بها زوجته تبلغ أربعة آلاف ليفر تماماً. أما عدوه، الذي ادعى الفقر، فقد استخدم في الواقع صلته بـِ بوشو وفنسن لتأمين 120,000 ليفر لتوزيع خرقته البالية، كما لو كانت صحيفة رسمية للجيش! وأضاف ديمولا تفسيره لقانون إيبرت للمحاسبة، مدعياً أنه يظهر كم سرق الأب دوشين العجوز لنفسه.

وفي كل حال، لم يكن إيبرت هدف ديمولا الوحيد. كان مهتماً بصدّ الهجمات على دانتون من الإرهابيين الذين شعروا أنهم مهددون بالبرنامج المتسامح. وفي الواقع قام بوظيفة الدفاع عن بطله أفضل مما فعل دانتون نفسه في 1 كانون الأول عند اليعاقبة. فذهب ديمولا مباشرة إلى الشريان المغذي بتمجيد الهجوم على دانتون باعتباره ساعة ويليام بت الأفضل، («أوه يا بت، أقدم البيعة لعبقريتك!)، مغذياً بهذا قناعة روبسبيير ذاته أن المتطرفين كانوا بالفعل جزءاً من الثورة المضادة. وفي أعداد متتالية تابع ديمولا مهاجمة بعبع آخر مفضل لدى كلٍّ من دانتون وروبسبيير: مفككي المسيحية. فذكر ديمولا قراءه أن الحرية ليست حورية من الأوبرا، إنها ليست قبعة حمراء، أو قميصاً

قذراً...الحرية سعادة وعقل ومساواة». ومن هذا انطلق لمواجهة مؤسسات الإرهاب نفسها، مبتدئاً بقانون المشتبه بهم. إذا طلبت الحكومة أن يسفح دمه من أجل الحرية، فيجب أن تحترم التزامها بهذا المبدأ من خلال فتح السجون وتحرير مائتي ألف شخص «ممن تسمونهم مشبوهين، طالما أنه لا يوجد في إعلان الحقوق «مأوي للشبهات.» «إجراء كهذا سيكون «الإجراء الأكثر ثوريةً الذي اتخذتموه يوماً». مالذي، بعد كل هذا، كان البديل.

> *هل تريدون إبادة كل أعدائكم بالمقصلة؟ لكن هذا سيكون الحماقة الكبرى. هل يمكنكم أن تقتلوا واحداً على منصة المقصلةدون أن تصنعوا عشرة أعداء من بين عائلته وأصدقائه؟ هل تظنون أن النساء وكبار السن والضعفاء و«الأنانيين» هم الخطرون؟ إذن لم يبقَ من أعدائكم الحقيقيين إلا الجبناء والمرضى، وهؤلاء، أصحاب الدخل والمحلات الذين يملأون السجون الآن، لا يستحقون كل الغضب المصروف عليهم.*

وفي العدد 4، اقترح ديمولا إصلاحاً محدداً فورياً: «لجنة تسامح» تعمل مستقلة عن لجنتي الأمن العام والسلامة العامة، لجنة يمكنها مراجعة قضايا ذات اتهامات أو إدانات مثيرة للشك أو الإدانة. ستكون، طبعاً، تحدياً مباشراً للمحكمة الثورية التي تهيمن عليها الكومونة. يمكنها أن تعمل كمنقذ ضد الشجب الحقود وتصحح تلك الصور الزائفة المبهرجة للعدالة مثل القبض على صديق لديمولا كان قد اتهم بإقامة عشاء لشخص اعتبر فيما بعد غير مرغوب سياسياً. في الثورة على المرء أن يكون حذراً، كتب ديمولا، غير خائف من الاقتباس عن ميرابو (مع أنها بلغة أقل دنيوية من لغة الخطيب): «الحرية العاهرة التي تحب أن تُضاجَع على فراش من الجثث».

كانت مواد الكورديلي القديم شعوراً قوياً، وهو السلاح الأقوى في ترسانة **المتسامحين**. وقد عنت نغمتها المحسوبة أنها موجهة بشكل مدروس إلى النخبة الثورية، ليس لهؤلاء الموجودين في المؤتمر وحسب، بل إلى أولئك في قسمي غرب ووسط باريس الذين كانوا قد كلّوا من تنمر الكومونة عليهم والذين هللوا لسؤال ديمولا البلاغي: «هل هناك شيء أكثر قرفاً وأكثر مقتاً من الأب دوشين؟» وبشكل أكثر تحديداً كانت موجهة إلى الشخص الوحيد الذي عليه، كما عرف دانتون وديمولا، يتوقف نجاح وفشل حملتهما: ماكسيميليان روبسبيير. حتى أن ديمولا أثار في العدد الرابع حقيقة أنهما كانا زميلي دراسة في الليسيه لوي لو غران Lycée Louis - le - Grand، في نداء صريح

لروبسبير كي يأخذ بالحسبان الفضائل الإنسانية بوصفها منسجمة مع الوطنية.

في الواقع، تقبل روبسبير النداء بقوة. فقد نال ما يكفي من مفككي المسيحية، الذين تمادوا في 11 تشرين الثاني كثيراً في جلبهم حمولة عربات من الأشياء الكهنوتية إلى المؤتمر ورموها دون اعتبار للرسميات على أرضية المجلس. وتظهر المنقوشات حرس الجيش الجمهوري يلبسون تيجان وغفارات الأساقفة. وكان أيضاً قد تدخل شخصياً لمنع القبض على أعضاء المؤتمر الثلاثة والسبعين الذين وقعوا في حزيران عريضة ضد طرد الجيرونديين. والأكثر مفاجأة، بالنظر لما سيحدث بعد ثلاثة أشهر، كان لا يزال مخلصاً بقوة لدانتون ودافع عنه بشراسة ضد المنتقدين في نادي اليعاقبة في 3 كانون الأول. حتى أنه لمح إلى أن مجرد الطعن في وطنية دانتون يماثل القيام بعمل ويليام بت القذر، الذي لا يريد أكثر من أن يطلق الوطنيون الجيدون بعضهم على حناجر بعض.

ومع ميل روبسبير الواضح نحو المتسامحين، حددوا هدف هجومهم. قدم حليف آخر لدانتون في المؤتمر، فيليبو Philippeaux، تقريراً عنيفاً عن القسوة والفساد التي قال إن رونسين والجيش الثوري ارتكبه في ليون. وبالنتيجة، تم القبض على رونسين وفنسن وتأسست بالفعل لجنة التسامح التي اقترحها ديمولا. وقد بدا للحظة كما لو أن الإرهاب بدأ بالتفكك. فحتى قانون 14 فريميير (4 كانون الأول) الشهير، الذي يدعى بشكل مضلل عادة «دستور الإرهاب»، كان في الحقيقة موجهاً ضد أولئك الذين فرضوا العقوبات الأكثر قسوةً باسم الأرثودوكسية الجمهورية. فيما أخضع «كل السلطات الدستورية» للجنة السلامة العامة، أنهى العملية الفوضوية التي بموجبها يمكن للمتحمسين أن ينفذوا القانون بأيديهم. أصبحت اللجان الثورية المحلية ملزمة الآن بتقديم تقرير كل عشرة أيام لإدارة المنطقة؛ ولم يعد مسموحاً لأي موظف عام (بمن فيهم المندوبين في مهمة) أن يوسع قوانين سنها المؤتمر أو يزيد عليها أو أن يفرض قروضاً ملزمة أو ضرائب مرتجلة. وقد أثارت، طبعاً، حفيظة لجنة السلامة العامة ذاتها كثيراً. ولكن عندما جاءت أخبار عن استعادة طولون في 15 كانون الأول (بفضل الجنرال بونابرت) و، بعد أسبوع، المعركة الحاسمة الأخيرة في سافيناي Savenay ضد الفنديين Vendeans، غدا هناك سبب للمتسامحين أن يأملوا بأن مشهداً عسكرياً أكثر إشراقاً سوف يعزز القضية من أجل حكومة أكثر ارتياحاً.

لكنهم سيتحررون من وهمهم بحدة. ففي 21 كانون الأول ظهر كولو ديربوا Collot d'Herbois، العائد مؤخراً من ليون، في نادي اليعاقبة. وهناك هاجم أولئك (لاسيما فابر) المسؤولين عن سجن رونسين ووبّخ بقسوة الأعضاء لجبنهم المروّع. أعلن كولو، «منذ

شهرين عندما غادرتكم، كنتم تحترقون عطشاً للانتقام من المتآمرين السيئ السمعة على مدينة ليون. وهو يتحدث بسلطة منتحلة لرجل كان يقاتل على الجبهة ثم عاد ليجد حرس الوطن قد أصبح ليناً. اليوم يصعب عليّ التعرف على رأي عام؛ وربما لو تأخرت يومين لكنت موضع اتهام أنا شخصياً». وخلص بشكل بلاغي بالسؤال التالي، «من هم أولئك الرجال الذين ادخروا مشاعرهم الرقيقة لأعداء الثورة، ويحرضون بشكل محزن ظلال قتلة إخواننا ذاتهم، والذين لديهم الكثير من الدموع ليذرفوها فوق جثث أعداء الحرية فيما يتمزق قلب الوطن أشلاءً...؟

كان واحداً من العروض الأفضل لـ كولو الممثل، ولقد أصاب النقطة بالضبط التي بدأت حملة التسامح تأخذ فيها موقفاً دفاعياً. وفي ما يتعلق بسؤال كولو، كان إيبرت شديد السعادة أن يعطي أسماء ـ ديمولا، فابر، فيليبو، بوردون دو لواز Bourdon de L'Oise. كان فابر هدفاً لهجمات مركزة متزايدة، ليس أقلها عريضة إلى المؤتمر من نادي الكوردلييه مع أن سر تواطئه في الاحتيال الواقع في شركة الإنديز لم يكن قد فضح بعد. وحدثت النقلة الحاسمة، في كل حال، في لجنة السلامة العامة. كان لكولو حليفان يتكل عليهما هما بيلاو فارن، وسان جست، الذي لا يزال في مهمة، يحتمل أن يعتمد عليهما في الأزمات. وكانت لجنة الأمن العام أقل ميلاً نحو المتسامحين. وقد علق أحد إرهابييها الأكثر حماسة، فادير، أنه يريد أن «يبقر أحشاء تلك السمكة السمينة دانتون، «وقيل إن دانتون ردّ عليه بحدة أنه إذا تجرأ ووضع عليه اصبعاً، فسوف يأكل مخ فادير ويتغوط في جمجمته.

وفي ما يتعلق بروبسبيير، كانت المؤسسة «النظامية» للحكومة الثورية كما انطلقت في قانون 14 فريمير ما كان في خطر. فلا يمكن لتلاحم لجنة السلامة العامة أن يتحمل انشقاقاً جدياً، يمزقها نفوذ متنافس من مجموعة دانتون ومجموعة إيبرت. وقد كان أساسياً لسلطتها التنفيذية أن تُرى بأنها تتعالى فوق الانشقاق، وأن تُرى بالفعل تضرب بلا تحيز. وعلاوة على ذلك، في بعض اللحظات في أواخر كانون الثاني، أو ربما مطلع شباط، كان لديه برهان ساطع ومدمر على إجرام فابر: ربما توقيعه ذاته. لم يكن هناك شيء يكرهه روبسبيير أكثر من جريمة مقنعة بقناع وطني. ولم يحب أبداً أن يبدو أحمق. وكان بيلاو فارين قد سخر منه لأنه وافق على لجنة التسامح واحتج بطريقة ضعيفة أنه لم يكن من أعضائها. والآن كان واضحاً أن فابر قد جره من أنفه إلى درجة السماح لفابر بأن يحقق بالتزوير الذي كان فابر نفسه طرفاً فيه! وفي هذا الضوء، كان روبسبيير يميل إلى إلغاء

حملة التسامح باعتبارها تجربة مخيفة في النفاق لم تصمم إلا لتغطية آثار المجرمين وفابر بالذات. وقد آمن وما زال يريد الإيمان أن دانتون نفسه لم يكن متورطاً وإذ عرف عن موت زوجته في أوائل شباط، كتب رسالة مؤثرة له بأحر العبارات، وذكّر بصداقتهما القديمة. ما كان يطلبه من دانتون، في الحقيقة، هو أن يهجر أصدقائه الفاسدين وأن يلتزم بسلطة اللجنة. وعملياً، طبعاً، عنى هذا أنه في وقت ما سيُسأل دانتون أن يجرم فابر وربما حتى ديمولا، وهذا ما رفض أن يفعله بكل ثبات. ربما كان هذا الإخلاص اللاواعي للأصدقاء حتى عندما يكشفوا كمحتالين، بدلاً من التضحيات «الموضوعية» التي يجب أن تُقدّم للوطن، وذلك في التحليل النهائي ما وجده روبسبيير لا يُغتَفَر أبداً. وإذا لم يستطع دانتون أن يلعب دور بروتوس، فإنه يستحق أن يُقتَل مثل أبناء بروتوس.

من جهة أخرى، لم يكن لدى روبسبيير نية أيضاً بالسماح لإعدام المتساهلين أن يغدو انتصاراً للمتطرفين. كان لا يزال لايغفر لـِ إيبرت بسبب تفكيك المسيحية، مع أن الأخير قرر تكتيكياً أن يخفف مسار القضية لبعض الوقت. وكان الشيء الأخير الذي أراده روبسبيير هو تجديد سياسة الكومونة المتمردة ضد اللجان وإطلاق رونسن وفنسنت وسط مشاهد بهجة الجيش الجمهوري التي بدت أن عمل المزيد محتمل. كانت اللجنة تدرس أيضاً تكييف الأجور القصوى المسموحة لنفقات النقل، لتعطي نوعاً ما من حافز للمنتجين لنقل بضائعهم من مكان المنشأ على الأقل، معترفة بأن الإرهاب الاقتصادي قد سبّب صعوبات أشد وتضخماً بدلاً من تقليص ذلك (كما توقع باربارو بالضبط). ولاستباق الاحتجاجات الحتمية كان على الحكومة أن تراجع واجبها تجاه الفقراء مرة أخرى، وقد تقدم سان جست بمراسيم جذرية في الشهر الخامس حسب التقويم الجمهوري vintose (في 26 شباط و3 آذار). وتوفر تلك المراسيم توزيع الملكية المصادرة من المهاجرين على الفقراء. لكن ذلك افترض مسبقاً أن ذوي الحاجات سيعلنون أنفسهم أنهم كذلك في وقت كان يقترح فيه آخرون في المؤتمر نقل المشردين إلى مدغشقر. وفي أية حال، ظلت المراسيم رسالة ميتة جزئياً لأن قلة في اللجنة بدت تؤيدها (وروبسبيير ألم به المرض منذ مطلع شباط) وجزئياً لأن قرارات سياسية أكثر إلحاحاً طرأت.

وبعد يوم من عرض سان جست للمرسوم الثاني، أسدل إيبرت وكاريير (مدعومين من الكهنة الغرقى في نانت) ستارة على التمثال النصفي للحرية في منتدى الكوردلييه: وهذا طقس يعني دعوة للانتفاضة. ولكن كما اكتشفوا، على نحو مشؤوم، أن رقابة الحكومة منذ 14 فريميه خربت مكنة التحريك الشعبية بشكل فعال. حيث تغلغل جواسيس

الحكومة في اللجان الثورية وعرفوا حركة «الانتفاضة» أفضل مما فعل القادة. ورفضت الكومونة، التي غدت أكثر اهتماماً بالاستجابة للجان من إيبرت، أن تدعو القوات وأخفقت الانتفاضة. وبعد خمسة أيام ألقى سان جست خطاباً هاجم فيه بشدة الانشقاق باعتباره «عدو السيادة» وبالتالي أداة الثورة المضادة، وفي الأيام التي تلت تم اعتقال مؤيدي إيبرت الرئيسيين، كلهم عملياً، بمن فيهم هؤلاء الذين سماهم فابر في «المؤامرة الأجنبية» : في الأصل. وكان بينهم المثير للغرابة آنا كارسيس كلوت، «الخطيب الذي صمم قالبه في الدفاع عن الجنس البشري»، والذي حاول أن يبرئ نفسه بالاعتراف في الصحافة، على نحو محزن أنه «إذا اقترفت إثماً فذلك بسبب الصراحة والسذاجة، فقد اعتاد مارا على القول لي «Clots, tu es une foutue bête» ثمة، على الأقل، صديق الشعب لم يخطئ.

وفي الرابع والعشرين من آذار، ذهب إيبرت وتسعة عشر من أصدقائه إلى «الإمساك باليد الدافئة»، «انظروا من خلال النافذة الجمهورية»، احلقوا بالموسى الوطنية (بين أشياء أخرى هزلية كانت صحيفة الأب دوشين تفضلها). كان ثمة عاطفة قوية بين الحشد، الذي ابتهج ببساطة لرؤية الرجل الذي احتفل كثيراً بالمقصلة يجبن على نحو يرثى له من احتمال دماره شخصياً. حشود ضخمة صاخبة تهتف وتسخر وتحيي تقدم أنصار إيبرت إلى ساحة الثورة. قال أحد الرجال على مسمع عميل للحكومة: «لقد ماتوا مثل جبناء دون أجراس». وقال آخر، «لقد ظننا أن لدى إيبرت مزيداً من الشجاعة لكنه مات مثل عاهرة Jean foutue» مشيراً إلى إحساس قوي بعدالة شاعرية.

وبعد أسبوع اعتقل دانتون وبعض أقرب أصدقائه بمن فيهم ديمولا ولاكروا وفيليبو و، في يوم آخر، هيرول دي سيشل بدورهم. فقد تضمن قتل مجموعة إيبرت دائماً نهاية المتسامحين طبعاً، لأن مهاجمة مجموعة دون أخرى سيكون تغريباً ينذر بالشر لنواة الإرهابيين الصلبة في اللجنتين. وفي التاسع والعشرين من آذار كان هناك لقاء واحد أخير بين الجبارين. حاول دانتون أن يقنع روبسبيير أن صداقتهما خربها بشكل متعمد كولوت وبيلاو، اللذان بذرا الشقاق بينهما لتبرئة نفسيهما من المبالغات الإرهابية. لكن روبسبيير لم يكن يصغي. وهو بدوره طلب أن التضحية بدانتون الفاسد بذاته ثمناً لحمايته شخصياً. كان حوار طرشان. ترجمة مقنعة لتحذير أخت مارا، ألبرتين، وإلحاحها أن يذهب مباشرة إلى المؤتمر ليشجب اللجنة ليلة الاعتقال. كان في البداية ممانعاً في أن يفكر بذلك، كان ذلك كما لو أنه يدعو إلى حرمان روبسبيير من حماية القانون، لكنه اقتنع أنه لا يملك

خياراً آخر وذهب أخيراً. وبدخوله الجمعية، رأى دانتون ماكسيمليان في نقاش ودي على نحو واضح مع كميل ديمولان إلى درجة أنه منح حراسه راحة وذهب إلى البيت. وقد اعتقل في تلك الليلة.

وقد عرف كل من هو مهتم بالصيد أن الاقتراب من أجل القتل لن يكون سهلاً. في إيبرت ذبحوا ابن عرس (مع أنه ذو أسنان حادة). وفي دانتون جرحوا أسداً للقتل والذي زئيره المولع بالقتال قد يتردد صداه في كل أرجاء باريس. وفي مساء يوم الحادي والثلاثين من آذار، التقت اللجنتان في جلسة مشتركة لدراسة التكتيك. أحضر سان جست الاتهام، الذي كان يفتخر به على نحو غير مبرر، وقال سيقرؤه في المؤتمر في اليوم التالي، بعد أن يكونوا قد تمكنوا من اعتقال دانتون وأصدقائه. ونظر فاديه وأمار Amar وأشارا إليه كما لو أنه فقد صوابه. أولاً، ألحا، اعتقلوا دانتون، ثم اشجبوا ما تشاؤون. وكل طريق آخر سيجلب كارثة. عند هذا الاستخفاف بقواه المقنعة، لن نقول رجولته في مواجهة دانتون، غضب سان جست بحدة. لكن كان لدى رجال الشرطة من لجنة الأمن العام طريقتهم.

كان الاتهام ضد دانتون، الذي صحح روبسبيير شكله النهائي، حتى بمعايير المحكمة الثورية، وثيقة ضعيفة على نحو لا يصدق. وكانت الاتهامات ضد هيرول دي سيشل أكثر خداعاً. اتهم بأنه أرستقراطي، واستحضر ذكر صديقه الأفضل، ميشيل ليبلتييه، ذو الأصل السابق الأكثر بروزاً. ومع ذلك، اتهم دانتون بكل أنواع الغدر، من التآمر لتنصيب دوق أورليان على العرش لإنقاذ الشعب، بمن فيهم بريسو، من مذابح أيلول، إلى الضحك حيث ذكرت كلمة فضيلة vertue. لقد كان، باختصار، سيئاً جداً. وكان واضحاً أن اللجنة أملت أنها بإحاطة دانتون وديمولا بالمحتالين من شركة الأنديز المزيفة، التي تشمل عملاً متنوعاً كاملاً من الأجانب المتجانسين ـ الأخوان مزي، كوزمان الاسباني، فريدريشسن الدانماركي، سيمون البلجيكي ـ الاتهام من أجل الاحتيال سيمحو خصمهم الأساسي، مع أنهم لا يملكون أي دليل على إظهار أنه مرتبط بذلك بأية طريقة.

اكتظت غرفة المحكمة بحشد هائل في 2 نيسان، لأن أتباع دانتون كانوا لا يزالون منيعين. وقد حاول فوكيه تنفيل أن يحتوي الاهتمام الشعبي قدر الإمكان من خلال الانتظار حتى الدقيقة الأخيرة قبل أن يعلن المحاكمة، لكنه كان لا يزال في خطر أن يُغمَر بمحكمة محبة للخصام. وقد أزعج ذلك إحساسه بالإجراءات النظامية. حتى عدد المتهمين بدا سخيفاً عندما أصر رفيق دانتون القديم وسترمان، خلال مسار الإجراءات، على أن يُتّهم مع صديقه. وعندما طمأنه رئيس المحكمة أن ذلك ليس إلا «إجراءات شكلية»، علّق

دانتون، «وجودنا هنا كله مجرد إجراءات شكلية. وتبعت مقاطعة أخرى، الأمر الذي كشف عن إحساس عميق إلى حدٍّ مرعب لدى دانتون بالمسرح العام.

وإذ فشل رئيس المحكمة، هرمان، في وقف إحدى هجائيات دانتون اللاذعة، سأله، «ألم تسمع الجرس؟» وأجاب دانتون، «صوت رجل عليه أن يدافع عن حياته وشرفه يجب أن يهزم صوت جرسك الصغير». لقد كان، في الحقيقة، مصمماً تماماً على أن يستخدم أفضلية حجم صوته على قضاته، مدركاً أن صوتاً شديداً عميقاً لا يجعل مستجوبيه يبدون مضحكين وحسب، بل بدا يُظهِر مصادر قوى الرجولة التي تربطها ثقافة الجمهوريين بالفضيلة. فأن تهدر، كان يعني أنك وطني. وفي اليوم التالي، عندما بدأ الدفاع، خاطب الجمهور بدلاً من القضاة أو المحلفين، قائلاً: «أيها الناس، ستحكمون علي عندما تسمعوني، وصوتي لن تسمعوه وحدكم بل سيكون مسموعاً في كل أنحاء فرنسا».

وكان ذلك، في الحقيقة، ما خافت المحكمة منه. لم يكن في نيتها أن تدع دانتون يدير المحاكمة بطريقته وازدرت بشكل فاضح طلبه لدعوة قائمة طويلة من الشهود بمن فيهم أعضاء في لجنة السلامة العامة مثل روبسبيير نفسه وروبرت لندت، الذي وحده بين زملاء دانتون رفض أن يوقع مذكرة الاعتقال. ومع أنه لا يوجد محضر كامل للإجراءات، يبدو على الرغم من ذلك أن دانتون تكلم طوال اليوم وبتأثير مذهل، متخلصاً من الاتهامات ضده مثل حشرات تزحف على ثيابه فطلب، «هل يتجرأ الجبناء الذين يفترون عليّ أن يهاجموني مباشرة؟» وفي مزاج أكثر رومانسية ورواقية: «سيكون مقامي قريباً في النسيان واسمي في مقبرة الأبطال.... هنا رأسي ليجيب على كل شيء». وفي النهاية بدا دانتون أنه يريد رفع الصرخة الأخلاقية للمناسبة إلى مستوى الخطابة المأساوية، الذي يجعل من نهايته شيئاً هاماً وجديراً بالذكرى مثل البطل الهوميري، وطني من حوليات روما.

خلال اليومين الماضيين أرادت المحكمة أن تعرف دانتون. وغداً يريد دانتون أن يرقد في حضن المجد. لم يسأل أبداً من أجل الصفح وسترونه يطير إلى منصة الإعدام بسكونه المعتاد وهدوء ضميره المرتاح.

خلال احتجازهم ومحاكمتهم كان أنصار دانتون مسجونين في سجن اللوكسمبورغ. ربما كان السجن الأقل فقراً بين كل سجون الإرهاب، وهؤلاء الذين رأوهم هناك تذكروا دانتون وفيليبو يتصنعون نوعاً من مرح قسري. فدانتون على وجه الخصوص، بدا أنه استسلم لفراق زوجته الثانية، لوسي، وهي فتاة في السادسة عشر من عمرها. ومهما يكن

سقط كميل ديمولا باكتئاب شديد لانفصاله عن لوسيل، التي بقي معها في حب عميق ومشبوب. فكانت تأتي لرؤيته كلما استطاعت، تقف في المسافة المسموحة، شيء منح زوجها الفرح الشديد والعذاب العاطفي الفظيع. وفي آخر رسالة كتبها قبل إعدامه، أخبر زوجته أنه رؤيتها وأمها رمى نفسه على القضبان في حزن. الرسالة مدهشة، تدفق رجل غير مبالٍ تماماً بالحزن والندم، مرمي في أعماق نوع من الفانتازيا الرومانسية، شخص ما يريد أن يتخلى عن حياته العامة كلها في سبيل سلامه الخاص.

يا لوسيل، أنت لي، Ma poule على الرغم من عذابي، أعتقد أن هناك إلهاً، ودمي سيمحو أخطائي، سأراك ثانية يوماً ما، يا لوسيل، يا حبي... هل الموت الذي سينقلني من مشهد جرائم كثيرة هو مثل حظ عاثر؟ وداعاً لولو، وداعاً يا حياتي، يا روحي، يا قدسي على الأرض... أشعر أن ضفاف الحياة تتقهقر أمامي، وأراك ثانية يا لوسيل، أرى يديّ تضمانك، ويدي المقيدتين تعانقانك، ورأسي المتألم يرتاح عليك. إنني ذاهب لأموت...

ودانتون، لا يزال يقاتل، استمر بطلب الحق باستدعاء الشهود. كان إصراره صلباً والجمهور مؤيداً إلى درجة ذهب سان جست إلى المؤتمر خائفاً من إمكانية انهيار العملية كلها، وأخبر الأعضاء أن السجناء يثيرون انتفاضة ضد المحكمة وأن زوجة ديمولا متورطة في مؤامرة لقتل أعضاء لجنة السلامة العامة. فأعطى ذلك اللجنة بطريقة منافية للطبيعة والمنطق مثل كل ما جرى، سلطة كافية للعودة إلى المحكمة وجعل فوكييه يُعجّل إلى طريقه المختصر المعتادة بـ «سؤال» المحلفين ما إذا كانوا «تنوروا» كفاية. وقد تنوروا. وعرف دانتون أنه فقد حقه النهائي بمحكمة الاستئناف فاستسلم. وفي السجن، تبعاً لـِ ريوف Riouffe الذي قال إنه سمعه من خلال الجدران، ارتفع صوته أنه نادم لأنه يترك الجمهورية في مثل هذا الظرف البائس، يديرها رجال لا يعرفون أصول الحكم.

«لو أستطيع أن أترك خصيتي لروبسبيير وساقي لكوثن فقد تعيش اللجنة فترة أطول».

وفي الخامس من نيسان، ذهب دانتون وديمولا وهيرول والبقية إلى موتهم. شاهدهم حشد كبير وصامت في معظمه، وقد تصرفوا بكرامة رفيعة ورباطة جأش. كان دانتون مصمماً على إظهار التأثير والصداقة. هو وهيرول دي سيشل، أعجوبة المحكمة انقلب إلى أحد اليعاقبة قتلة الملك، حاولا أن يتعانقا، لكن الجلاد سانسُن فصلهما بخشونة. فقال دانتون كما جاء في التقارير: «لن يمنعوا رؤوسنا من اللقاء في السلة». لكن ملاحظته الأخيرة كانت هي الأفضل. ففيما وقف أمام اللوح الخشبي، وقميصه مبقع بدماء أفضل أصدقائه، قال دانتون للجلاد: «لا تنسَ أن تُري رأسي للناس. إنه يستحق ذلك العناء».



الصورة 206، للرسام ج.ب.و ل، دانتون ـ يداه مقيدتان في الطريق إلى المقصلة



الصورة 207، اوبير روبير، رسم كاميل ديمولان في السجن

CHAPTER 18

Sources and Bibliography

Bengriot's account of his stay in the Conciergerie and his encounter with "Eglé" can be found in C. A. Dauban, Les Priosoins de Pariso sous la Révolution (Paris 1870), which also has a wealth of other information about the prisons of the Tenor, including Riouffe's splendid "Mémoires d'un Détenu", originally published under the Thermidorian regime of the year III, a date which I do not automatically take to disqualify it from serious attention. Olivier Blanc, La Demure Lettre: Pricons et Condamnés 1793 - 94 (Paris 1984), also provides a guide to conditions in the various prisons and reproduces a dossier of some of the most moving and distressing letters written by the condemned. See also A. de Maricourt, Prisonniers et Prisons de Paris Pendant la Terreur (Paris 1927), and part 1 of Cobb, The Police and the People.

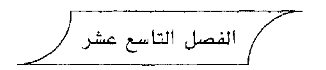
For the imprisonment and trial of Marie - Antoinette the reader has to choose between hagiography and demonology. G. Lenôtre, La Captivité et la Mort Se Marie - Antoinette (Paris 1897), and E. Campardon, Made - Antoinette à la Conciergerie (Paris 1863), are both sympathetic; Gérard Walter, Marie - Antoinette (Paris 1948). hostile. The trial proceedings, such as they were, were published in the Acte d'Accusation and the Bulletin of the Tribunal Révolutionnaire. The period following Louis XVI's death saw a renewed burst of violent pornography, elaborating on such earlier items as L'Autricbienne en Goguettes ou l'Orgie Royale or purporting to be new works, such as La Journée Amoureuce ou les Derniers Plaisirs de Marie - Antoinette, in which Lamballe supplies every kind of sexual pleasure for the Queen while she masturbates an enfeebled Louis. These pornographic pieces in turn stimulated a genre of hate literature of which the Père Duchesne was by no means the most vitriolic. For some choice items, see J'Attends le Procés de Marie - Antoinette, in which the guillotine itself gloats over the Queen's fate: "You are already in a cell; come one step more and I await you; a pretty head like yours makes a fine ornament for my machine." The Grande Motion des Citoyennes de Divers Marchés is another chorus for death to the "bougresse" but advocated that she be flogged and burned before decapitation.

For the other notable women victims, see Guy Chaussinand - Nogaret, Madame Roland (Paris 1985), and Olivier Blanc, Olympe de Gouges(Paris 1981). Darline Gay Levy, Harriet Branson Applewhite and Mary Durham Johnson, in Women in Revolutionary Paris (Ur - bana, III., 1979), deal with the Jacobins' attitude to the women's political clubs and societies and their response. See also Dominique

Godineau, Citoryennes Tricotesses.

On the use of the guillotine as political theater and the mechanization of killing, see Arasse, La Guillotine et L'Imaginaire (97 - 64). On Fouquier - T'inville and the routine of the Tribunal, see Albert Croquez and Georges Loubie, Fouquier - Tinville: L'Accusateur Public (Paris 1945).

For the immensely complicated swindle of the "Pourris", see Norman Hampson, "François Chabot and His Plot", in Transactions of the Royal Historical society (1976, 1 - 14); see also Louis Jacob, Fabre d'Eglantine (168 - 274). Albert Mathiez published a great number of articles attacking Danton for corruption, and just as heatedly Alphonse Aulard defended him. Much of this literature is reviewed in an essay, essentially sympathetic to Mathiez's case, but more open to argument, by George Lefebvre, "Sur Danton", reprinted in his Etudes sur la Révolution Française (Paris 1963). For a more balanced treatments of the close of Danton's career, see Norman Hampson's excellent biography and the vivid and engaging portrait by Frédéric Bluche, Danon (Paris 1968). Desmoulins still needs a new modern biography. See J. Claretie, Camille Desmoulins, Lucile Desmoulins, Etude sur les Dantonistes (Paris 1875). The brilliance of the journalistic strategy of the Vieux Cordelier has at last been recognized in an important article by Georges Benrekassa, "Camille Desmoulins, Ecrivain Révolutionnaire: 'Le Vieux Cordelier,'" in Bonnet et al. (eds.), La Carmagnole des Muses (223 - 41). The seven numbers of the journal were pre - pared in a critical edition by Henri Calvet (Paris 1936), though ideally they should be experienced without any critical mediation.



العقيدة الألفية

نيسان/ إبريل ـ تموز/ يوليو 1794

I ـ موت عائلة

لم يكن ما يقلق مالرب Malesherbes هو نفسه، بل عائلته. ففي لحظة خطرة خلال محاكمة الملك، سأل أحد مندوبي المؤتمر، «وما الذي يجعلك جريئاً إلى هذا الحد؟» الذي أجاب عليه بحدة، «ازدراء للحياة». وكان ذلك صحيحاً. لا يملك الإرهاب القدرة على إخافة رجل عجوز بلغ الثانية والسبعين. ونظراً لأن اللجان كما يبدو قد انكبت على إعادة كتابة التاريخ الفرنسي بالقضاء على أولئك الذين ساعدوا على تشكيلها، فقد افترض أن دوره سيأتي عاجلاً أم آجلاً. ومع ذلك، فمجرد حقيقة أنه بقي حياً حتى سن متقدمة نموذج للصفاقة، بما أنه يحمل معه إمكانية نقل تاريخ الإصلاحات التي بدأت قبل الثورة. وما جعل الأمور أسوأ هو أنه لا يزال معروفاً شعبياً أنه «مالرب النزيه». وقد عنى هذا أن الإرهاب سيراه تحدياً لبديهية أن أي شخص عمل في عهد ملكين لابد أن يكون بالضرورة موصوماً بالفساد والطغيان المرتبطين بـ «آل كابت Capets».

وفي أية حال، لم يكن هناك ما يمكن عمله سوى الانتظار ورؤية ما ستكشف الأحداث. وبعد إعدام الملك، عاد إلى القصر في مالرب، قرب بيثيفييه Pithiviers في مقاطعة لواريه Loiret، وجمع عائلته حوله كما لو أنهم سيستمدون القوة والثقة من اتحادهم. كانت ابنته الصغرى، فرانسواز ـ بولين Françoise - Pauline، التي تعيش في لندن مع زوجها مونبوازييه Montboissier وتكتب رسائل خائفة وقلقة، المحبوبة الغائبة الوحيدة. كانوا متأثرين بشدة لأنها كانت قد هاجرت مرتين للخارج، بعد مغادرتها إلى

سويسرا في عام 1789، عادت إلى فرنسا في ربيع عام 1792 ثم قررت، بعد مذابح أيلول، أن تذهب إلى إنكلترا في موجات المغادرة الكبرى في تشرين الأول. عارض مالرب الهجرة من حيث المبدأ لكنه، واثقاً من أن حياتها ستكون في خطر، حثها على الذهاب. وكانت مشاعره الآن ممزقة مرة أخرى. واستطاع أن يتحمل ثقته الأكيدة أنه لن يراها أبداً ثانية لأنه شعر بالراحة أن فرعاً واحداً من العائلة بعيداً من طريق الأذية على الأقل.

جلبت ابنته الكبرى، مارغريت Marguerite، كل أولادها إلى القصر. هي في الثامنة والثلاثين من عمرها الآن، كانت متزوجة من رئيس سابق لمحكمة باريس، لبلتييه دو روزانبو Lepeletier de Rosanbo. هذا بحد ذاته جعله رجلاً مميزاً، وقرابته البعيدة لـ لبلتييه الذي غدا الآن مقدساً لكونه الشهيد الأول للجمهورية لم يكن مرجحاً أن تحسب لصالحه. وعلاوة على ذلك، تزوجت اثنتان من بناتهما الثلاث من العائلات النبيلة المميزة القانونية: ألين تيريز Aline Thèrese من الابن الأكبر لشاتوبريان Chteaubriand، جان باتيست Jean - Baptise، وغولميت Guillemette من لبلتييه دولني Lepeletier d'Aulnay. وكان هناك زواج أخير في مالرب في 12 آذار 1793، عندما تزوجت صغرى البنات، لويز Louise، من إيرفي كليري دو توكفيل Hervé Clerel de Tocqueville، وهو من عائلة نورماندية عسكرية قديمة.

وفي بداية أيلول، تطوع مالرب ليدافع عن ماري أنطوانيت، كما فعل للملك. وقد رُفض العرض، لكن حقيقة أنه عرض ذلك وحسب تبين كم كان غير مهتم بسلامته الشخصية. وفي الواقع، كان روزانبو من يحيق به خطر شديد. وقد عمل في عام 1790 رئيساً لغرفة التنفيذ Vacations في محكمة باريس التي تابعت أعمالها القضائية عندما أُوقفت المحكمة كلها عن العمل. بتلك السلطة القانونية، ومثل زملائه في العديد من المحاكم المستقلة، كتب احتجاجاً رسمياً ضد مرسوم الجمعية التأسيسية بإلغاء المحاكم. وقد جعله هذا غير حصين ضد التهمة المعتادة من «التآمر ضد حرية وسيادة الشعب الفرنسي». وفي 16 كانون الثاني عام 1793، قطعت عشاء العائلة مجموعة من الحرس الوطني يحملون مذكرة من اللجنة الثورية في قسم دو بوندي *section de Bondy*، حيث كان يقع منزل روزنباو وفي التفتيش وجدوا نسخة من الوثيقة التهمة، وفي الصباح التالي، قلبت المكتبة أمام روزنباو ومارغريت، وجدوا الرسائل العديدة التي كتبتها لها أختها في لندن.

وفي اليوم التالي أخذ الزوج إلى باريس وأُودع في سجن بورت ليبرPort - Libre الجديد. وفي التاسع عشر حاولت العائلة أن تقرر ما يمكنها أن تفعل. كان زوج غولميه قد غادر فعلاً (وسيلقى القبض عليه في نيفر Nièvre في أيار). وكان زوج ألين، شاتوبريان، من يبدو في وضع أشد خطورة، لأنه مهاجر عائد. نصحه مالرب بالهرب، لكن بعد اختبائه لفترة قصيرة في مزرعة محلية، قرر أنه لا يمكنه ترك زوجته وابنيه الصغيرين، البالغين من العمر خمس سنوات وثلاث سنوات على التوالي، وعاد إلى القصر ليكون معهم. ومع أن التنقيب في أوراق مالرب الخاصة لم يظهر ما يجرمه، كان واضحاً أن القرار قد أتخذ لإضافة اسمه وأسماء أطفاله إلى إلى قرار القبض على روزانبو. وسيغدو اصطياد عائلات النظام القديم مسألة شرف للجان والمحاكم الثورية، كما لو أن مستقبل الجمهورية يعتمد على اجتثاث أية قدرة لدى الطبقة الحاكمة القديمة لإعادة إنتاج نفسها. فعندما، على سبيل المثال، ألقي القبض على لومينه دو برين Lomenie de Brienne، أُخذ معه أربعة آخرين من عائلة دو برين من أجيال مختلفة وأعدموا حينها؛ وسيطبق الأمر ذاته على عائلة دو بليسي du Plessis وعلى من وجدوه من عائلة غوفرنت دو لا تور دو بان Gouvernet de La Tour du Pin. وفي 20 كانون الأول، جاءت عربتان بمرافقة مسلحة لأخذ عائلتي مالرب ـ روزانبو إلى باريس.

وعندما وصلوا إلى العاصمة أرسلوا إلى سجون مختلفة: مدام دو روزانبو إلى دير الإنجليزيات Couvent des Anglaises؛ وصهراها، دو توكفيل وشاتوبريان، إلى لا فورس La Force؛ ومالرب وحفيده لويس البالغ من العمر ستة عشر عاماً إلى الماديلونيت Madelonettes؛ والبنات الثلاث إلى دير آخر، لم يُحوَّلن بعد إلى سجن، في الماراي Marais. وبعد بضعة أيام، ردَّت لجنة الأمن العام بالموافقة على طلب الصهرين بأن يعاد لمّ شمل العائلة، وجُمِعوا معاً في بورت ـ ليبر.

بالنسبة لسجناء الإرهاب، كان هناك أماكن أشد سوأً ليكونوا فيها. مع أن اليانسينيين Jansenists كانوا مشهورين بقسوتهم، فقد كان هناك على الأقل ضوء وهواء بكميات بدت فاخرة لأي شخص جاء من سان بيلاجي أو لا فورس. كانت مجموعات النظام القديم والماليين جلية بين ستمائة سجين، حصرتها اللجان الثورية في مجموعات وأبقتها معاً كما لو أنها معروضات في متحف لأمد قصير في جماعة محلية. كان السجناء في بورت ليبر حينئذٍ سبعة وعشرين مراقب عام جباية الضريبة غير المباشرة، بمن فيهم لافوازييه، ومجموعة أخرى من الجباة العامين، ووزراء سابقون وحكام ـ بينهم سان بريست ـ والكثير

من القضاة الذين، على غرار روزانبو، سرعان ما نقلوا إلى سجن ماديلونيت Madelonettes لانتظار المحاكمة. كان محتماً مع اجتماع هذا العدد من المستنيرين من العالم الثقافي القديم في باريس أن يشكلوا نوعاً من صالون في السجن؛ فكانوا يصغون في الأمسيات إلى فيغي (أخو الرسامة) يتلو آخر أشعاره أو إلى الممثلين من أمثال فلوري Fleury وديفيان Devienne يلقيان سطوراً عرفاها عن ظهر قلب، أو يسمعون فيولا الحب لِـ ويترباخ Witterbach تنساب أنغامه الحزينة العميقة عبر الزنزانات المقنطرة.

وفي هذا النوع من الصحبة توجب أن يهيمن إحساس قوي بالشرف. وقد شعروا بالرهبة لسماعهم أن شاباً يافعاً أنيقاً، كان واضحاً أنه من عائلة ميسورة معروفة باسم دوفيفر Duviviers، سرق ساعة يد من السيدة دوبار Debar. وقد هرّبها إلى خارج السجن في كومةٍ من الغسيل القذر حملته عشيقته، وهي ممثلة في الأوبرا بأوامر أن تبيعها بالمبلغ الذي يمكنها الحصول عليه. غير أن الشاري المحتمل لن يقبل بدفع خمسمائة ليفر إلا مقابل إيصال بتصريح مكتوب بالملكية. عندئذٍ اعترفت الفتاة أن القطعة ليست لها وكتبت رسالة إلى صديقها تشكو من صعوبة المهمة. اعترض سبيلها أحد الحراس واعترف السارق بجريمته. وقد نبذته بقية السجناء كما لو كان مصدراً للعدوى قبل نقله إلى سجن آخر أقل راحة.

وفي آذار، ضُمّ إليهم عدد من أكثر مضطهديهم قسوة: مجموعة إيبرت Hébertistes. وقد أخفت مجموعة من المتآخين سابقاً سرورها لرؤية عدوها الرئيسي يُسجن، واستمتعت لاسيما برعب إيبرت الواضح من قدره الوشيك. وعاشت زوجة الطابع مومورو Momoro، التي قيل إنها لعبت دور» العقل« في احتفالات مفككي المسيحية في كنيسة نوتردام Notre Dame، أوقاتاً صعبة بشكل خاص. وكان ضابط آخر من الجيش الثوري الباريسي، بيرتو Bertaux الحفار، مكروهاً لـ» بكائه مثل طفل« مع أنه كان يتباهى بشاربيه الإلزاميين ويبدو صارماً. (في الواقع، يبدو أنه قد سجن لقلة حماسه، وسجله دعمه لِـ لافايت.) ونال قائده رونسين Ronsin، من ناحية أخرى، علامات عالية لحبه للمظاهر على الأقل بالأسلوب الأرستقراطي الأفضل.

وأحب مالرب، الذي عومل باحترام وتوقير من الجميع، أن يسهب عن تاريخه السياسي وتاريخ الملكية من حين إلى آخر. اعترف لـ هوي Hue، الخادم الخاص السابق لولي العهد، أنه قد تعلم أنه لا يكفي أن »يكونوا وزراء جيدين ومثقفين وأمناء. أنا وتورغو برهان على ذلك؛ كان علمنا كله في الكتب ولم نفهم الرجال«. ومع ذلك، كان يعود

باستمرار، إلى التراجيديا المؤثرة للملك ذاته ومحاكمته: رجل مذهول بالموقف الذي وجد نفسه فيه والذي، حسب رأي مالرب، دفع بدمه ذاته لأنه لم يشأ أن يسفح دم الآخرين.

وفي الثامن عشر من نيسان، حدث تسريع مفاجئ في قضيتهم. فأُخِذ روزانبو إلى سجن الكونسيرجري Conciergerie لينتظر محاكمته، وفيما كان هناك، قرر مالرب أن يحاول النقاش المنطقي مرة أخيرة. أملى مذكرة بشأن زوج ابنته لِـ فوكيه ـ تنفيل Fouquier Tinville، وأضاف رسالة توسل إليه أن يقرأها، كي تأخذ القضية الاهتمام المناسب. وبالفعل أثار مالرب بمهارة عالية سان جست إلى حد أنه، كما قال في الدعوى على دانتون، في عام 1790 كان هناك مؤامرة أورليانية Orléanist ضد الملكية الدستورية. وقال، كان روزانبو، بدعمه التاج بهذه القوة، وطنياً مخلصاً فعلاً. وعلاوة على ذلك، في تلك الأيام كان أمراً اعتيادياً لمثل تلك العرائض والاحتجاجات أن تُكتَب دونما أي حس بالمؤامرة. واختتم بوصف روزانبو(وكما كان هو ذاته مفوَّضاً من مجلسه البلدي المحلي في مالرب) أنه مواطن حقيقي ومستقيم قبل الرسالة avant la lettre.

لا أحد، وفقاً لكل هؤلاء الذين عرفوه، أمكنه أن يكون أكثر ورعاً أو أكثر تجرداً في إدارة العدالة، وأكثر تدقيقاً في سلوكياته أو أكثر منه استقامة hönnete homme في دعاواه. كان منذ زمن بعيد قبل الثورة قد مارس تلك الفضائل الخاصة، حب الإنسانية، واحترام أقرانه من البشر، وتلك الأخوية النادرة والغالية مع أقرانه من المواطنين التي هي إحدى أعظم فوائد تجددنا.

أرسلت نسخة من المذكرة (التي، لا حاجة للقول، لم تقطع أي جليد أبداً مع المدعي العام) إلى روزانبو. وقد أُلحِق بها بضعة سطور من ابنه البالغ ستة عشر سنة من العمر، والذي بعد بداية شجاعة، بدأ يبكي كثيراً في الليل، ورسالة أخيرة من زوجته. كان نموذجياً في مثل رسائل الفراق، الملونة بكل الحنان البيتي الذي، وفقاً لمبدأ اليعاقبة الرسمي، لم يكن الأرستقراطيون قادرين على الشعور به.

تعرف أن العيش بجانبك والاهتمام بصحتك وأن نحيط نفسينا بأولادنا والاهتمام بالمتقدم في العمر، والدي، كان دائماً همي الشاغل... سوف نجتمع قريباً، نعم يا صديقي الطبيب oui mon bon ami، آمل ذلك. وداعاً a dieu يا صديقي الطيب والحنون، فكر في الكائنة التي تحيا لأجلك وحسب والتي تحبك بكل قلبها. ويشاركني هذه المشاعر أبي وعمتي والأولاد حولي هنا...

في الأول من فلوريل Floréal، يوم السنديان، وفقاً لتقويم فابر Fabre الجديد، أُعدِم روزانبو بالمقصلة. وأحضِر مالرب نفسه للتحقيق في الليلة التالية. وقد أنكر تهمتي «التآمر ضد حرية الشعب الفرنسي» والقول إنه «سيستعمل كل الوسائل لإسقاط الجمهورية». واتهمت ابنته بالدخول في مراسلات خيانة مع «الأعداء الداخليين والخارجيين للجمهورية». الدليل الوحيد ضد مالرب كان من شخص أخبر لجنة ثورية أنه عندما قالت له أخت مالرب الكونتيسة دو سينوزان Comtesse de Senozan أن العنب في أرضها قد تجمد، أجاب أنه أمر جيد، لأن هذا سيمنع الخمر عن الفلاحين، ولولا سكرهم ما كان هناك ثورة. لم تمنع طبيعة الدليل المضحكة بحد ذاتها فوكيه ـ تينفيل من الادعاء بأن «لاموانون مالرب يمثل كل خصائص المضاد للثورة». لقد هيمنت كتاباته باستمرار على القانون القديم للأشياء؛ كان مركز مجموعة كبيرة من المتآمرين، الذين حكم على العديد منهم قبلاً «بسيف القانون». يجب أن يُقرَأ عرضُه للدفاع عن الملك على ضوء صلته المستمرة مع صهره المهاجر الشهير، وما يجعل الأمر واضحاً أن بيت Pitt قد جعله يفعلها.أما بالنسبة لابنته، فهي، مثل زوجها، كانت دائماً عدوةً للثورة... وهلم جرا.

وتلك الليلة، استسلم لويس وأخواته الثلاث للبكاء. وأمهم، التي حافظت على ثباتها، بدت شاردة وضائعة. وفي الصباح التالي، بدا أنها استجمعت نفسها وقالت ملاحظة للشابة دو سومبروي Mlle de Sombreuil (ابنة قائد إنفاليد العجوز، التي اشتهرت لأنها شربت كأس الدم الذائع الصيت لتبقي على حياة أبيها خلال مذابح أيلول) أنه «كان لك شرف إنقاذ أبيك؛ أما أنا فسأتمكن من الموت مع أبي على الأقل». وشاركها العربة الأميرة دو لوبوميرسكي de Lubomirski، والدوقتان دو شاتليه de Chatelet ودو غرامون de grammont بالإضافة إلى ثلاثة مندوبين سابقين في المجلس التأسيسي: إوي Huil؛ ثوريه Thouret، العقل المفكر مع ميرابو في وضع خريطة المقاطعات الجديدة؛ وجان جاك ديبرميسنيل d'Eprémesnil Jean - Jacques. وذاك الشخص الأخير والأكثر شهرة كان، طبعاً أقوى شوكة في جنب براين عندما كان مالرب أحد وزرائه. ولكن في ربيع عام 1794، كان أمراً عادياً تماماً لمحاربين قدماء من اتجاهات مختلفة وحتى متعادية أن يتشاركوا منصة المقصلة نفسها. فاقتصاد المقصلة البيروقراطي لا يهتم لمثل تلك التفاصيل بتاتاً.

وكان على العجوز أن يشاهد مثل ابنته آخر فرد من عائلته يقطع رأسه، حفيدته وزوجها شاتوبريان اللذين أعدما قبله. وسُجِن الأحفاد الآخرون وأخلي سبيلهم بعد

ثرميدور Thermidor، لكن لم يشفى غليل فوكيه ـ تينفيل حتى أعدم أخت مالرب البالغة من العمر سبعة وستين عاماً ومساعديه، حلت على أحدهما اللعنة لحقيقة أنه قد وُجِد لديه تمثال نصفي لهنري الرابع Henri IV (رمز سنة 1789) بين أغراضه.

كانت أشد الأشياء قسوة التي ألمت بالعجوز إيلاماً هو الانعكاس الواقعي أنه بعدم مبالاته بنصيحة ابنته الصغرى بالهجرة لفت بشكل ما انتباه المحكمة ودمر عائلته. وهل فكر ملياً في ما لو أن لويس أصغى إلى مشورته وتخلى عن مجلس الطبقات بكامله لمصلحة دستور جديد كلياً ربما كان جنَّب ستقطاب الطبقات، ولربما تم تفادي أسوأ كوارث الثورة؟ لقد عرف، في أية حال، أن ولعه بالمنطق لم يكن ليأخذه بعيداً ما إن يبدأ الدم بالتدفق وتدور الرؤوس بالخطابة الوطنية. وقد كتب لِ قاضٍ عجوز آخر، رولاند Rolland، في عام 1790، فلاحظ أنه «في أوقات المشاعر العنيفة، على المرء بالتأكيد أن يتوقف عن الكلام بالمنطق. [وإلا] فقد يؤذي العقل، لأن المتحمسين سيثيرون الشعب ضد الحقائق التي تلقى استحساناً عاماً في وقت آخر».

II ـ مدرسة الفضيلة

لا بد أن معلمي روبسبيير في الليسيه لويس لو غران Louis - le - Grand كانوا مهمين لثقافته السياسية طالما أنه، في النهاية، رأى نفسه مدير مدرسة مخلِّصاً، ويستخدم عصا كبيرة جداً ليغرس الفضيلة. صار يفهم الثورة ذاتها مدرسة، لكنها المدرسة التي ستزدهر المعرفة فيها دائماً بالأخلاق. وعلاوة على ذلك استند كلاهما إلى الانضباط. فكان مولعاً بالقول الإرهاب والفضيلة هما جزءان من التمرين نفسه في تحسين الذات، «فالفضيلة دون عقاب مؤذية والإرهاب دون فضيلة عقيم». وعندما يُقضى على العنصر الإجرامي، نتحدث أخلاقياً وسياسياً ـ الفاسقين، الملحدين، المبذرين ـ يغدو ممكناً البدء بهذه الممارسة الواسعة من تنسيب أمة بأكملها إلى مدرسة الفضيلة.

في بعض النواحي، حينذاك، لم تكن اللجنة الأكثر أهمية في المؤتمر في ما يتعلق بروبسبيير لا لجنة السلامة العامة ولا لجنة الأمن العام (التي صار يراهما إقطاعتي رجال شرطة منحطين مثل فادييه Vadier وأمار Amar) بل لجنة التعليم العام، التي كانت، علاوة على ذلك، المعهد الذي رافق الثورة منذ البدايات الأولى، عندما كان تاليران وسييه Sieyès عضوين هامين، ثم خلال الإرهاب، تضع الخطط الطويلة المدى والطموحة التي غطت التعليم من المستوى الابتدائي إلى الكليات التقنية الحديثة التي ستخرج نخبة من

المهندسين المتنورين. كان ميشيل ليبلتييه Michel Lepletier، الذي يعتبر قديساً، عند موته، يعمل بالضبط على مثل تلك الخطة لإنشاء «دور التعليم الوطني» في المستوى الابتدائي، وكانت هذه الخطة العظيمة هي ما وسعها بروبسبيير. كان جوهرها جمع دعامتي الجمهورية الأخلاقية هاتين: المدرسة والعائلة. التي ربما لم تكن لتنشأ إلا على يد طلاب مدارس أرستقراطيين مثل ليبلتييه الذين اعتاد أولياؤهم أن يسلموهم في سن يافعة لرحمة اليسوعيين المتجهمين، باعتبار أن هدفها الرئيسي كان إعادة الآباء والأمهات إلى «بيت التعليم». كان حجم كل مدرسة سيُقرَّر ليس بقرار اعتباطي بل بمواصفات الرقم المثالي للعائلات التي تضمها. تقرر هذا في سن الخمسين. لمجموعة من عشرة خلال السنة، سيأتي كل أم وأب للعيش في المدرسة بوصفهم آباء مقيمين للأولاد، يمارسون الصرامة الأبوية والحنان الأمومي كما قد يحتاجه الأولاد. وبهذه الطريقة، سيُدعَم نيل المعرفة بالفضيلة البيتية. وستكون هناك ألعاب أسبارطية، وخطابات رومانية والكثير من علم النباتات.

لا حاجة للقول، لم ينتج شيء من هذه الخطط، ليست أقل الأسباب، كما اكتشفت لجان التعليم العام السابقة لليعاقبة، أن الإرهاب بإبادة القسم الأعظم من رجال الكنيسة دمر المصدر الموثوق الوحيد (والرخيص) من طاقم التعليم المتوفر للتعليم الابتدائي. لكن الشغف في التحسين الذي أشعل روبسبيير في الأشهر الأخيرة من عهد الإرهاب تدفق في كل سياساته وخطاباته حتى، في النهاية، بدت السياسة ذاتها تسلية قذرة مقارنة بالنداء السامي للتبشير بالفضيلة.

بالنسبة لأولئك اليعاقبة الذين شاركوا رؤية روبسبيير، كان هناك مرحلتان ضروريتان لهذا المشروع من التجديد الأخلاقي. أولاً، الفوضوية الثقافية المروعة التي أطلقها مفككو المسيحية وأنصار إيبرت التي يجب أن توقف في مساراتها؛ ثانياً، يجب أن تعطي تفسح الطريق لبرنامج تثقيف جمهوري مهيب ومنظم. لن يترك هذا البرنامج أي جزء من حياة المواطن دون أن يلمسه. سيستخدم الموسيقى والمهرجانات ومسارح الهواء الطلق والنصب العامة الضخمة والمكتبات والمعارض وحتى المنافسات الرياضية لتحريض الفضائل الجمهورية الكبرى: الوطنية والأخوة. ستكون نشوة الحياة الجماعية في الوضع الممكن الأكثر تبايناً مع أفعال خاصية التدمير العشوائي في المرحلة المتطرفة من عهد الإرهاب.

وصاغ أحد أكثر المتحمسين المكرسين لهذه الثورة الثقافية التي تهتدي بـ روسو، هنري غريغوار Henri Grégoire، الأسقف الدستوري السابق لـ بلوا Blois، تعبير التخريب

عند شجب أكثر الهجمات وحشية على التماثيل واللوحات والمباني المدانة باعتبارها جزءاً من ماضٍ كنسي، إقطاعي وملكي. وكان أحد الأمثلة الساطعة لهذا هو التدمير الشامل للقبور الملكية في كنيسة سان دينيس Saint - Denis. مع أن القصص الثِرميدورية Thermidorian عن الثوريين المتطرفين (لابسي البناطيل القصيرة) الذين يلعبون لعبة القناني بعظام الفالوا والبوربون مشكوك في صحتها على الأرجح، إلا أن لوحة الرسام أوبرت روبرت Hubert Robert، ذلك الخبير في الدمار، يظهر بالتأكيد أكفاناً رُفِعت من مقابرها وحجارة قُلِبت ونُقِلت. وكان على غريغوار أن يتوخى الحذر في نقده، طالما أن النهب في سان دينيس قد صرح به مرسوم من المؤتمر في 1 آب1793، وقد كان، في أية حال، قلقاً من ألا يتنصل من الهجوم الرسمي على طواطم الماضي. ولا اليعاقبة في هذا الطور «التعليمي» للإرهاب كان سيجرؤون على اقتراح استعادة تمثالي لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر إلى قاعدتيهما في باريس. لكن ابتداءً من شهر جيرمينال Germinal فصاعداً، فرض غريغوار على لجنة التعليم العام برنامجا نشطاً سيعيد قطعان المخربين من بوابات روما الجديدة ويبدأ في «جعل الجدران تتكلم» لغة الحكم الجمهوري المبجلة.

وفي 20 من شهر جيرمينال، حوّل غريغوار انتباهه إلى مجموعة أخرى من المخربين الخطرين خطر محطمي الأيقونات والتماثيل وهم أكلة الكتب *bibliophages*. فقد أراد هؤلاء الناس الذين، باسم الحكم الجمهوري المضلَّل، إحراق المكتبات وهدمها، مدمرين في مجاميعها الحكمة التي تراكمت قبل الثورة، ربما مع بعض الاستثناءات المشرفة، مثل أعمال الإنجليزي الغرنون سيدني Algernon Sidney المعروف بقاتل الملك وأعمال جان جاك روسو. وقال غريغوار، إن مثل هؤلاء البرابرة يقومون بعمل أعداء فرنسا بتجريدها من إرثها الثقافي و، في كل ماشابه، مثل أنصار إيبرت الأكثر سوءاً، هم عملياً عملاء أجانب. وما اقترحه غريغوار بطريقة هجوم معاكس كان ببيليوغرافيا وطنية عظمى ـ الببيليوغرافيا الفرنسية *bibliographie fraçaise* ـ التي ستصنف سجلاً لكل موجودات المكتبات الخاصة، التي يمكن أن تصبح عندئذٍ متاحة للأمة. ويمكن أن توسَّع كي تتضمن أشياء هامة ذات علاقة: ميداليات وصور، مجموعات أدوات علمية و، الأكثر أهمية، خرائط. وقد أخبر المؤتمر أن هناك في مقرات الوزارات في فرساي وحدها اثنتي عشرة ألف خريطة بانتظار الفهرسة. وكانت مقاطعة باريس أكثر «امتلاء» بهذه الممتلكات الوطنية: نحو 1,800,000 مجلد، وشكلت المخزون الأساسي للمكتبة الوطنية bibliothèque national. وقال إذا ما نُظِّمت بشكل جيد لتطوير الفضيلة الجمهورية، فستكون المكتبات والمتاحف «ورش عمل العقل البشري»، المصممة خصيصاً لتقود

الشباب بعيداً عن الأشياء التافهة لأعمارهم المعتادة، إلى أماكن حيث يمكنهم «التواصل مع الرجال العظام من كل البلدان والأعمار».

وكان الشخص الرئيسي الآخر في برنامج الجمهوريين التعليمي هذا هو جاك لويس ديفيد Jacques - Louis David. وكان قد أنيطت به مسؤولية اللجان لبناء معالم دائمة من بعض التماثيل التي استخدمت في احتفالات الوحدة Fête de l'Unité، مثل هرقل جبار يمثل الشعب الفرنسي، كان يجب أن ينتصب على جسر بونت نوف. وكان مع صهره المهندس المعماري أوبرت Hubert، يرسم مخططاً لإعادة تكوين مشهد الشانزليزيه Champs Elysées بوصفها حديقة وطنية شاسعة، مع مسرح ودرج ذي قبة في مركزها يتوجه تمثال حرية، مناسب للعروض الجماعية والألعاب الوطنية التي يفضلها روبسبيير. (إذن، لم يكن ألبرت سبير Albert Speer أول من خطط عقيدة معمارية حول هذا النوع من الجماعية الهائلة». وكان ديفيد، في الوقت نفسه، مشغولاً أيضاً بتصميم «الأزياء الوطنية» التي ستعبر عن الكرامة الحقيقية للجمهوريين الحقيقيين - والتي قُصِد منها بجلاء تصحيح العرض العدواني للقبعات الحمراء bonnets rouges والبناطيل ذات الأشرطة التي كانت سمة ميليشيا البناطيل القصيرة. وكما لو أن كل هذا لم يكن كافياً، أنتج ديفيد أحد أضخم تصاميمه لستائر تقديم مقطوعة موسيقية في الأوبرا تدعى تنصيب الجمهورية الفرنسية *The Inauguration of the French Republic*، وفيها كانت دراما المواعظ الخشبية تنشط بالأغاني والخطب والأشعار والمارشات العسكرية ومدفع المناسبات المصمم لإيقاظ ذلك الجمهور الذي دُوِّخ حتى النوم بهذا الهجوم الضاري للفضيلة الجمهورية.

وكعينة لمقاربة القوة الساحقة في ثقافة اليعاقبة، كانت ستارة ديفيد مؤثرة في الواقع. فهي مستوحاة بجلاء من نقوش نافرة قديمة، تشكل في مشهد جانبي موكباً من النماذج الجمهورية، في الوسط عربة نصر تدور عجلاتها على أنقاض الملكية وحكم الأساقفة. وأمام العربة، وطنيون مفتولي العضلات على وشك أن يغمدوا سيوفهم في الملوك المهزومين سيئي الحظ تحت أنظار هرقل العملاق الهادئ، الذي يرتاح في حجره التمثالان المؤنثان المصغران للحرية والمساواة. وإلى جانب العربة وخلفها نماذج منسقة لأصحاب الفضائل: كورنيليا Cornelia والغراتشي Gracchi (أُسقطت من آخر تصميم لديفيد)؛ بروتوس؛ ويليام تل(يغدو بسرعة بطلاً معبوداً في باريس) ومجموعة من الشهداء، بمن فيهم مارا Marat يحمل ندوبه وليبلتييه و، الإضافتين الأخيرتين إلى البانثيون وطنيين شنقهما البريطانيون في طولون Toulon.

جمع ديفيد وروبسبيير كل هذه التقنيات الثقافية في إنتاجهما السياسي الأكثر طموحاً: **مهرجان الكائن الأسمى**، الذي أقيم في الثامن من حزيران(الموافق لـ 20 بريريال Prairial في التقويم الجمهوري). وقد أعلن روبسبيير العقيدة قبل شهر، في 7 أيار (18 فلوريال Floreal)، في خطاب مصاغ بشكل مؤلم حول «العلاقات بين الأفكار الأخلاقية والدينية مع المبادئ الجمهورية». وصرَّح روبسبيير للمرتبكين والمذهولين «الكاهن الحقيقي للكائن الأسمى هي الطبيعة ذاتها. معبدها الكون، ودينها الفضيلة. مهرجاناتها فرحة شعب عظيم اجتمع تحت ناظريها ليربط العقدة الرائعة للأخوة الكونية ويقدم أمامها [الطبيعة] ولاء قلوب طاهرة ومرهفة الشعور [حساسة]». وقد أصدر المؤتمر في نهاية طقسه الربوبي، مرسوماً ينص على «أن الشعب الفرنسي يعترف بوجود الكائن الأسمى [الذي، يفترض، أنه كان شاكراً له في حينه] وخلود الروح».

ليس من داعٍ للكلام بأن المرسوم بشأن الكائن الأسمى كان هجوماً مباشراً على مفككي المسيحية، وقد كان كثيرون منهم، مثل فوش Fouche، ما يزالون مندوبين مهمين في المؤتمر. وقد أُعلِن الاحتفال، في الوقت نفسه باعتباره مرسوماً، أنه سيكون المناسبة التي يجب أن تغدو فيها سطوة الكائن الأسمى على غير المؤمنين لا عودة فيها. لن يكون هناك في هذه المرة إيرو دو سيشل Hérault de séchelles (غير مؤمن ذائع الصيت) ليسرق رعده. كان روبسبيير قد انتخب رئيساً قبل أربعة أيام من الاحتفال لضمان أن يلعب، بحكم المنصب، دوراً مركزياً.

ربما أقنع الطقس في 8 حزيران ـ يوم عيد العنصرة في التقويم الغريغوري ـ المشككين بأن هناك، رغم كل شئ، كائناً أسمى وأن روبسبيير نبيه. أطلت شمس متوهجة على التويلريه Tuileries، حيث تجمع آلاف الباريسيين للاحتفالات الصباحية. وقد علّق روبسبيير لرفيقه فيلات Vilate، وهو ينظر إلى الأسفل من نافذة إلى أكوام الورود التي جمعها فريق ورود ديفيد وعلى فرق الفتيات اللواتي يرتدين فساتين من الشاش الأبيض وقد حملن سلالاً من الفاكهة، كما لو أنه في تمرين لخطابه: «انظر، لقد اجتمع هنا القسم الأكثر إثارة للاهتمام من الإنسانية». أعد ديفيد المناسبة موشحاً دينياً ثورياً ضخماً وهو يعمل مع فريق أشعاره الموسيقية المؤلف من غوسك Gossec وماري جوزيف شِنييه Marie - Joseph Chenier . وكان ثمة مجموعة كورال هائلة مكونة من ألفي وأربعمائة مندوب من أقسام باريس، كل واحدة مقسمة إلى مجموعات إنسانية من رجال كبار السن وأمهات وفتيات صغيرات وفتيان وأطفال صغار (يبدو، كالعادة، أن لا مكان للنساء

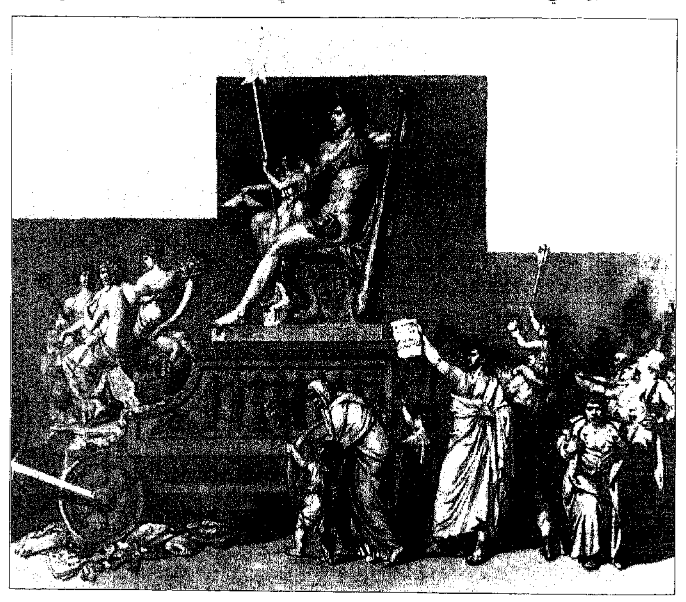
كبيرات السن في عالم ثقافة اليعاقبة). وفي لحظات مختلفة كان على كل من هذه المجموعات أن تغني كورساً مناسباً لدورها في فرنسا الجديدة وستردد صداها عندئذٍ نظيراتها بين كتلة الجمهور الذي يصغي. وفي لحظات الدراما القصوى ـ مثل أول وآخر أشعار «المارسييز Marseillaise» و«الترتيلة الجديدة للكائن الأسمى» ـ ستغني مجموعة الألفي وأربعمائة مندوب معاً بالكامل، ستذوب أصواتهم في أغنية عظيمة يرددها الشعب، والتي ستتردد أصداؤها في وخارج المدرج المسرحي الذي بناه إيبرت للمناسبة. ستغدو الترتيلة لروبسبيير نشيد عقيدته الجمهورية، وعندما لم تعجبه مسودة أشعار شِنييه Chenier،



الصورة 208. للرسام جاك لويس ديفيد، تصميم لستارة أوبرا، «انتصار الشعب الفرنسي»

أبعده بغضب من فريق الإنتاج، واستبدله بالشاعر ثيودور ديسورغ Théodor Desorgues. وقد قلق غوسك وديفيد من عدم ألفة الجمهور بالترتيلة كثيراً حيث أرسلا في الأسابيع التي سبقت الاحتفال فرقاً من معلمي الموسيقى في المعهد الوطني ليعلموا الوطنيين في الأقسام على اللحن والكلمات.

وعندما تلاشت آخر أنغام الترتيلة، ظهر روبسبيير ليلقي خطابه الصباحي. وقد ارتدى على نحوٍ متأنق معطفاً أزرق، ونطاقاً ثلاثي الألوان وقبعة مريشة، ومع ذلك نسي الباقة الكبيرة التي صنعتها خصيصاً له إحدى فتيات دوبلي Duplay بسبب انفعاله. (كان كل



مندوب في المؤتمر يحمل عدة سنابل قمح وباقة ورد، مع أنه أمر يبدو لا يصدق أن بارا Barras، على سبيل المثال، سيفعل ذلك بوجه ذي تعابير جادة.) خطب روبسبيير، كما لو أنه كان يعلن عودة العصر الذهبي للأوفيديين Ovidian، «أيها الجمهوريون الفرنسيون، الأمر لكم لتطهروا الأرض التي دُنِّست وأن تعيدوا العدالة إلى الأرض التي نُفيت منها. إن الحرية والفضيلة تنبعان معاً من صدر الله ـ لا يمكن لأية منهما أن تحيا دون الأخرى». وفي ختام الخطبة أخذ مشعلاً ملتهباً و، في إحدى تحولات ديفيد المرئية، أشعل النار في صورة الإلحاد التي ظهر منها (قال بعضهم، في بياض ناصع؛ وقال آخرون، بدا مسخماً قليلاً) **تمثال الحكمة**. ورتل الصالحون، «لقد عاد إلى العدم ذلك الوحش الذي تقيأه عفريت الملوك على فرنسا».

وبعد الظهر، شكلت حشود الشعب موكباً طويلاً إلى ساحة مارس Champ de Mars. وجرَّ عربة النصر (المشابهة في التصميم لتلك المرسومة على ستارة الأوبرا) وسط العرض ثمانية ثيران، قرونهم ملونة بالذهب وفي العربة مطبعة ومحراث، وهما رمزان من نوعين مختلفين من العمل المقر رسمياً. وغنت مجموعة من الأطفال العميان «ترتيلة إلى الله» بعيداً أمام العربة وتبعتها أرتال من الأمهات يحملن الورود، وآباء يقودون أبناءهم مسلحين بالسيوف على طريقة الهوراتي Horatii من رسم ديفيد. في مركز ما سمي مجدداً ساحة جمع الشمل Champ de Reunion، حيث انتصب مذبح الوطن altar of patrie منذ عام 1790، حيث بنى ديفيد، بسرعة مدهشة، جبلاً من الجص وألواح الورق المقوى (نموذجه في الواقع مثل الذي استخدم في ليون في مهرجان الاتحاد). وقف فوق قمته، على عمود بارتفاع خمسين قدماً، هرقل ضخم وفي يده تمثال الحرية المتصاغر أكثر فأكثر (الآن في الواقع تمثال صغير جداً). لم تلغَ الحرية بمجملها من عالم الكائن الأسمى، لأنها كانت ممثلة، أيضاً على قمة الجبل، بشجرة هائلة. كان وجودها استجابة لمقالة أخرى لغريغوار، سعى فيها إلى إحياء عقيدة شجرة الحرية عامي 1791 ـ 92 بل صرح أن أكثر الأنواع المناسبة للاحتفال ببعث الحرية البدائية هو شجرة السنديان، وقال إنها «الأكثر جمالاً بين كل النباتات الخضراء في أوروبا». وقال، هي شجرة نسب **عائلة الأحرار العظمى** الذين سيكونون، يوماً ما، شعب العالم كله. وبما أنها تتحمل البقاء لأجيال عديدة، الأطفال الذين كانوا صغاراً عند غرسها سيكون بمقدورهم أن يجمعوا ذريتهم تحت فروعها ويعودون بالذكرى إلى الأيام البطولية لتأسيس الحرية.

وفي ما يتعلق بموسيقى بعد الظهر تسلق مندوبو المؤتمر المفكهين والموردين إلى



الصورة 209، للرسام نوديه، صورة مهرجان الكائن الأسمى

القمة ونظروا إلى الأسفل نحو الألفين والأربعمائة المنتشرين على طول الممرات والمنحدرات والترّاسات التي قطعت في الجبل. وفي لحظة حاسمة، عندما توقف الغناء والأبواق النحاسية العسكرية، نزل روبسبيير من الجبل مثل بعض الموسويين اليعاقبة، فرق أمواج الوطنيين الثلاثية الألوان، وتلقى بجلال اندفاعة التصفيق المنسقة موسيقياً التي انفجرت فوق رأسه. لم يستطع حتى سماع، دون شك، أصوات ضحك عدم احترام أو عداوة واضحة من بعض الجوانب إفساد التأليه. ويصرخ روبسبيير إلى المؤتمر في 26 تموز(8 ترميدور): «أيها اليوم المبارك إلى الأبد، يا خالق الكائنات! هل أضاء يوم الخلق ذاته ـ اليوم الذي انبثق فيه العالم من يديك القويتين ـ بنور أكثر انسجاماً في ناظريك من اليوم الذي، دُمّر فيه نير العبودية للجريمة والخطأ، وظهرت فيه هذه الأمة في نظرك بوضع جدير باحترامك وأقدارها؟» وكان السؤال، طبعاً، بلاغياً تماماً.

III ـ ترميدور *THERMIDOR*

فيما عطّرت أكوام الورد الجو في أحد أطراف باريس، لوثته برك من الدم في الطرف الآخر. لم يكن للمقصلة مكان في البيئة الواقعية المرئية mise en scene للكائن الأسمى، وهكذا نفاها روبسبيير من ساحة الثورة إلى الخلاء المفتوح في آخر شارع سان أنطوان الذي سيصبح ساحة الباستيل. تابعت هناك عملها الحافل، صعوداً وهبوطاً، لثلاثة أيام، إلى أن اشتكى السكان المحليون بغضب بالغ من تدفق الدم، و«الروائح النتنة» التي تنبعث على نحوٍ خطر من الجثامين في حرارة حزيران، فابتعدت ثانية، باتجاه الشرق دائماً، حتى حاجز دو ترون du Trône، الذي يُدعى الآن طبعاً ساحة دو ترون ريفرسي du Trône renversé.

وهناك سيزيد فوكيه تنفيل وسانسون إنتاجيتها إلى مستوى صناعي. وبعد يومين من مهرجان الكائن الأسمى، أقر المؤتمر المرسوم الذي يبقى الشرعة المؤسسة للعدالة الشمولية. وقد سُنَّ إثر محاولتي اغتيال فاشلتين، واحدة على كولو دربوا Collot d'Herbois في 23 أيار والأخرى على روبسبيير في الخامس والعشرين. قُبض في الحالة الأخيرة على فتاة تدعى سيسيل رينو Cécile Renault وهي تحاول الوصول إلى روبسبيير مسلحة بسكينين صغيرين، دفعها الفضول لتعرف» كيف يبدو شكل الطاغية». لم تحاول بجهد كبير، لكن لم يكن أحد بحاجة لتذكر مثال شارلوت كوردي Charlotte Corday. وقد حاول كوثن Couthon أن يثبت عندما قدّم مرسوم 22 بريريال Prairial، أن الجرائم السياسية أسوأ كثيراً من الجرائم العادية لأنه، في الحالة الأولى، «لا يجرح إلا الأفراد»، بينما في الأخيرة «يتهدد وجود مجتمع حر». (توقع هذا النوع من الجدل ملاحظة روبسبيير في الثامن من ترميدور أن الإلحاد أسوأ كثيراً من المجاعة لأنه في حين «يمكننا» تحمل الجوع لا أحد يمكنه تحمل «الجريمة».)

وفي هذه الظروف، تابع كوثن، بما أن الجمهورية مهددة بالمؤامرات، «فالتساهل عمل وحشي... وقتل الأقربين رحمة». كان يجب عمل بعض التعديلات في معياري تعريف المتآمرين والطريقة التي يعاملون بها. ومن الآن فصاعداً يمكن أن يُقدّم كل من يستنكر بقصد «تشويه السمعة الوطنية»، أو«السعي لإثارة الإحباط»، أو«نشر الأخبار الكاذبة» أو حتى «إضعاف الأخلاق وإفساد الوعي العام وتخريب نقاء وطاقة الحكومة الثورية» إلى المحكمة الثورية. ولا يمكن لتلك المحكمة أن تصدر إلا أحد حكمين: البراءة أو الموت. لتنفيذ مسيرة العدالة الثورية، لا يسمح للمتهم باستدعاء شهود ولا يمكنه الحصول على

محامي دفاع. أليس المحلفون، في كل حال، مواطنين جيدين قادرين على التوصل إلى حكم عادل وغير متحيز حسب تقديرهم؟

لم يكن الجميع في المؤتمر راضين عن هذا المعيار. وطلب المندوب روامب Rouamps تأخير التصويت بالتهديد أنه سيفجر رأسه في المؤتمر إذا لم يُقبَل اقتراحه. وتمكن روبسبيير، طبعاً، أن يلمح إلى أن من لديه اعتراضاً على مشروع القرار لا بد أن لديه شيئاً يخفيه وحسب وأقر أنه «ليس هنا أحد ليس قادراً على اتخاذ قرار بشأن هذا القانون بالسهولة نفسها التي يقرر فيها العديد من أمور أخرى أعظم أهمية..». وأصر على أن يُناقَش نقطة نقطة ثم يُصَوَّت عليه، وهو اقتراح اعتمد في جو من الاستسلام الهلع.

كان لقانون بريريال تأثير مباشر على إيقاع الإعدامات، التي تسارعت قبل أسابيع من ذلك. ومع إغلاق المحاكم الثورية الإقليمية، عدا الفرع الجنوبي في أورانج الذي تعامل بقسوة مع مجرمي طولون، صار المشتبهون من المقاطعات يُحضَرون إلى باريس للمحاكمة. وكانت النتائج الصارمة كما يلي:

الشهر	إعدام	براءة
جيرمينال	155	59
فلوريال	354	159
بريريال	509	164
ميسيدور	796	208
ثرميدور1 ـ 9	342	84

ارتفع المعدل آنذاك، من خمسة إعدامات في اليوم في جيرمينال، إلى سبعة عشر في بريريال وستة وعشرين في ميسيدور.

كان هذا التكثيف لما أصبح يدعى **الإرهاب العظيم** مزيداً من التشدد لأنه حدث في وقت كانت فيه الثروات العسكرية الفرنسية تتحسن بشكل ملحوظ. فقد جلب النفير العام levée en masse أكثر من ثلاثة أرباع مليون رجل تحت السلاح ونجا المزيج في أكثر الأوقات فوضى بتوحد المتطوعين مع جنود الحدود. وكانت نبوءة الكونت دو غوبير de Guibert عن الحرب الكلية المخيفة دون شك على وشك التحقق خلال الجهود اللوجستية المدهشة والإستراتيجية لكارنو Carnot، بروير دو لا كوت دور Prieur de la Côte dOr وجينبون سان أندريه Jeanbon Saint - André. كان ثلاثون ألف باوند من البارود يُصنَع



الصورة 210. مطبوعة مجهولة، «هذا مروّع لكنه ضروري»
من صحيفة عالم آخر *Journal d'Autre Monde*، 1794

يومياً في معامل غيرنيل Grenelle وحدها ومعظمها كان على وشك الانفجار في وجه الائتلاف المتفاجئ. وهزم الجنرال جوردان Jourdan جيش كوبرغ Coburg النمساوي الرئيسي بشكل حاسم في 25 حزيران، في فلوروس Fleurus، وقد صعد في إحدى المراحل في بالون هواء ساخن لمراقبة المعركة مثل طائر من علٍ. لقد ترك ثمانية آلاف عدو ميت في الميدان، من ضمنهم رماة قنابل بريطانيون الذين هلل لهم شعراء اليعاقبة كثيراً. وسيطر الفرنسيون مجدداً وبزمن قصير على فالنسين valenciennes وكوند Conde، اللتين استولى عليهما التحالف بعد مقاومة مستميتة، وتقدموا عبر بلجيكا إلى بروكسل وأنتويرب. وبدت الطريق إلى هولاندا مفتوحة مرة أخرى.

كان صعباً على المهندسَين في لجنة الأمن العام، كارنو وبريور دو لا كوت دور، أن يريا ما قصده روبسبيير عندما أشار إلى مؤامرة الوحش الكلي القدرة منذ أن تراجعت الأزمة العسكرية بشكل دراماتيكي. لم تمثل سيسيل رينو، بالتأكيد، تهديداً كافياً لضمان إقرار قانون بريريال، وقد قلقا لاسيما في ما يتعلق بالتنازل التام عن حصانة أعضاء المؤتمر. وبطريقته المخادعة كره كارنو موقف مديح الذات في عقيدة الكائن الأسمى وأخبر روبسبيير ذلك بعبارات واضحة.

وكانت هناك صدوع أخرى تنفتح في نخبة اليعاقبة. ففي نيسان استحدث روبسبيير وسان جست مكتب الشرطة الخاصة للمراقبة bureau de surveillance المرتبط مباشرة بلجنة السلامة العامة وهكذا انتهك صلاحيات أختها لجنة الأمن العام. وقد شعر الرجلان الأكثر قوة في تلك المؤسسة، وهما فاديه Vadier وأمار Amar، اللذان، باعتبارهما إرهابيين وناشطين متحمسين في تفكيك المسيحية، بأنهما الهدفان الرئيسان في عمل روبسبيير. وقد كان لهما حلفاء، وعلاوة على ذلك، لم تكن معارضة الرجال المتزايدة لدكتاتورية الفضيلة تتغذى بحليب الإحسان الإنساني بل بإحساس فطن للمحافظة على النفس في لجنة السلامة العامة ذاتها. وكان كولو ديربوا وبيلو فارنيه، بعد كل شيء، متباعدين دائماً بشكل ما في اللجنة ـ طورت خصيصاً بوصفها استرضاء للعصيان في الأقسام الذي حصل في 5 أيلول 1793 ـ وهو تهديد تلاشى الآن إلى حدٍّ كبير. وكان على كولو أن يدافع عن سلوكه باعتباره مندوباً في مهمة في ليون، ومؤخراً كان هناك زملاء آخرون شعروا أنهم قد وُضِعوا دون حق في موقف دفاعي لفرضهم سياسات كانت أرثوذوكسية لدى اليعاقبة منذ بضعة أشهر وحسب. فتعرض جافوغ Javogues، على سبيل المثال، لعملية تصويت صعبة على وجه الخصوص عند اليعاقبة، وفي 11 تموز (23 ميسيدور) شنَّ روبسبيير هجوماً عنيفاً على

فوشيه، الذي أراد أن يُطرد من النادي. (امتنع فوشيه بإدراك شديد عن تلبية أمر روبسبيير لأي حضور إلى النادي ليدافع عن عمله واختبأ لفترة، متجنباً بيته وحاملاً غدارات).

وفي الواقع، غالباً ما ابتعد روبسبيير عن الظهور في نادي اليعاقبة. وقلما حضر إلى المؤتمر وتغيب كلية عن لجنة السلامة العامة. كان واضحاً أنه قرر، بعد لقاء مشترك مرير وغريب مع لجنة الأمن العام في نهاية حزيران، أنه نال كفايته من المؤسسة بشكلها الحالي. واكتشف فاديه عجوزاً غريبة رائعة تدعى كاترين ثيو Cathrine Théot، تسكن في شارع كونتريسكارب Contrescarpe، ادعت بأنها أم مسيح جديد وشيك ونادت بروبسبيير نذير الأيام الأخيرة، ونبي الفجر الجديد. عندما وصلت الشرطة إلى مسكنها، وجدوا أيضاً دوم غيرل Dom Gerle، الراهب الكارثوزي Carthusian الذي كان مندوباً في الجمعية التأسيسية. وبشكل محرج لديفيد، الذي يجلس حالياً في لجنة الأمن العام، ظهر غيرل بشكل بارز للغاية في المثلث المقدس لرجال الكنيسة الوطنيين في قَسَم ملعب التنس *Tennis Court Oath*. (من بين الاثنين الآخرين، كان رابو سان إيتيان Rabaut Saint - Etienne قد أعدم بالمقصلة وكان غريغوار حياً يرزق وبصحة جيدة.) أمسك فاديه بالقضية فرصة ثمينة ليسخر من ادعاءات روبسبيير الرسولية، ورأى خصمه أن إزالة القناع عن «المؤامرة» كان ذريعة لهجوم فولتيري على **الكائن الأسمى**. بعد جدال غاضب ومسموم، نجح في أن يبطل الإجراءات، لكن ليس قبل تأذي تضامن اللجان بشكل لا يمكن إصلاحه.

وتدريجياً، خلال الأسبوعين الأخيرين من تموز، بدأت أجزاء من التحالف ضد روبسبيير تأخذ مكانها. حيث هُدِّد أولئك الذين، مثل فوشيه، علانية باعتبارهم «مجرمين»، وشعر أمثال كالو وبيلو أن دورهم لن يطول مجيئه، وبدأوا يترقبون عصياناً جديداً. وأنتج التفكك الجزئي للضوابط الاقتصادية، الذي ترافق مع تصفية الجيش الثوري، تآكلاً جديداً في العملة الورقية *assignat*، التي غرقت مرة أخرى، إلى نحو 36 بالمائة من قيمتها الاسمية. وولَّد نقص الأغذية وأسعار الخبز الصاعدة قلقاً جدياً بين الحرفيين وعمال الأجور وموجة اضرابات أواخر حزيران وتموز. ولو حُرِّك هذا السخط بمهارة، لخلق وضعاً خطيراً جداً بسرعة. باعتباره مؤلف مراسيم الشهر السادس في التقويم الجمهوري Ventose، حظيَ سان جست بشهرة بطل المساواة الإجتماعية. ولو أنه تحالف مع أنريو Hanriot، الذي ما زال قائد الحرس الوطني، وأحضر القوات من الأقسام المقاتلة، لكان ممكناً وضع اللجان والمؤتمر الوطني تحت الحصار إلى أن يُجبَروا على تطهير أنفسهم كما فعلوا في حزيران الماضي. لكن هذه المرة سيكون اليعاقبة هم الضحايا.

كان بارير Barère قلقاً بشكل خاص كي لا يحدث هذا. ولم يصطف عقائدياً مع

مجموعة روبسبيير ولا خصومها، وتنبأ بشكل صحيح أن تخريب وحدة الحكومة الثورية سيكون مقدمة نهايتها. وفي 22 تموز(4 ثرميدور) حاول أن يرفو الصدع بتسوية تحفظ تضامن اللجان الحاكمة و، الأكثر الأهمية، إعلان ذاك للمؤتمر. كانت الخطة اكتساب سان جست وروبسبيير بدعم مراسيم الشهر السادس مقابل التخلي عن أية مخططات للتطهير. مبدئياً بدا أن المخطط يعمل، طالما أن كلا من سان جست وكوثن Couthon أعطياه استحساناً حذراً. لكنه تحطم اليوم التالي عندما قام روبسبيير بظهوره الأول منذ ثلاثة أسابيع في اجتماع مشترك آخر للجان. لم يلقَ سوى القليل من استحسانه مقارنة بما فعله سان جست حسب نوعية الهندسة الاجتماعية المتضمنة في مراسيم الشهر السادس ومؤسسات أصدقائه الشباب الجمهوريين. وكالعادة، كانت الفضيلة والإرهاب قمة تفكيره، وبعيداً عن مجاراة التسوية، أوضح بجلاء تام أنه سيلاحق الأشرار في اللجنتين دون هوادة.

وبدا أن روبسبيير قد غدا معزولاً طالما أن بارير أقنع سان جست، بغض النظر عن عناد روبسبيير، أن يسلم تقريراً للمجلس الوطني يدعو لوحدة الحكومة ويقول القليل أو لا شئ عن الكائن الأسمى. ووقّع سان جست أيضاً ـ ربما مهلك له ـ أمراً يرسل بموجبه وحدات المدفعية خارج باريس إلى جيش الشمال. ولكن مع أن حلفاء روبسبيير ذاتهم بدوا منقسمين، حضر إحدى أعظم مناشداته المانوية مميزاً بين قوى النور والظلام. في المحاولة الأخيرة، آمن أن ما لا يمكن إخفاؤه هو أن سان جست سيتخلى عن الرجل الذي كتب إليه مبدياً إعجابه الشديد به عام 1789.

مجرد مثل هذه الخطبة، طالت ساعتان، ألقيت في المؤتمر في 26 تموز(8 ثرميدور). بدأ روبسبيير بشكل غير ضار بما يكفي بالإعلان أن «الثورة الفرنسية هي الأولى التي ارتكزت على حقوق الإنسانية ومبادئ العدالة. تطلبت الثورات الأخرى الطموح فقط؛ تطلبت ثورتنا الفضيلة». لكنه بعدها تابع، أولاً بتعتيم ومن ثم بشفافية، محذراً المجلس أن مؤامرة كانت تختمر مما يهدد الجمهورية بالدمار. مدافعاً عن نفسه ضد تهمتي الديكتاتورية والطغيان، ترك المندوبين يجمعون تدريجياً صورة عن هؤلاء الذين كان يفكر بهم بالتلميح لـ «الوحوش» الذين «أقحموا الوطنيين في السجون وحملوا الإرهاب إلى كل المراتب والأوضاع». كانوا المضطهدين والطغاة الحقيقيين. وأعلن مستنداً إلى العقائد الأساسية للشعور الثوري، «أنا لا أعرف إلا حزبين، حزب المواطنين الطيبين وحزب المواطنين الأشرار. وإنني أؤمن أن الوطنية ليست مسألة حزب بل مسألة قلب». وعند نهاية

الخطاب، مع أنه لم تُسمِّ أسماء عدا، بما يكفي من الغرابة، كامبون Cambon، رئيس اللجنة المالية، أوضحت التلميحات إلى ورثة شابو Chabot وشوميت Chaumetteوفابر Fabre للجميع من هم مؤلفو المؤامرة «البركانية».

ظهر أن الخطاب استقبل بحرارة، لكن لدهشة روبسبيير الواضحة تبع آنذاك نقاش حاد حول هل يطبع أم لا، كما كانت عادة المؤتمر عندما يُلقى خطاب رئيسي. وفيما أصبح الجدال أكثر حرارة، هاجم فاديبه روبسبيير لسخريته من «مؤامرة» تيو Théot ودافع كامبون Cambon عن نفسه، ليسمع عدوه يصف ملاحظاته «بأنها بقدر ما هي غير ذكية هي غير عادية أيضاً». وضغط عليه مندوب آخر كي يسمي أولئك الذين يتهمهم، فرفض روبسبيير أن يفعل ذلك، فهاجمه أمار لاتهامه أعضاء اللجنة جميعاً دون أن يتيح لهم دفاعاً. وإذ رأى بارير الجلسة تنتهي إلى عداوات مريرة، حاول أن ينهي النقاش، بقوله، «لا يفيد منه سوى بت Pitt ودوق يورك Duke of York». (لو قرأ الدوق محاضر جلسات المؤتمر، لاندهش من اكتشاف أي دور رئيسي لعبه في نقاشاته.)

ألقى روبسبيير تلك الليلة الخطاب نفسه عند اليعاقبة، حيث لقيَ ترحيباً حاراً. وقد حاول كولوت ديربوا، الذي كان آنذاك في كرسي الرئيس، وبيلو فارنيه الدفاع عن نفسيهما ورد الهجوم، لكنهما وجدا نفسيهما معزولين وصرخات لطردهما و، الأكثر شؤماً، «إلى المقصلة». ومع ذلك كانا بعيدين من النهاية. وقد ضمَّن روبسبيير خلال خطابه تكتيكه البلاغي المعتاد في عرض تضحيته الشخصية من أجل مصلحة الحزب. وهذه المرة سيقبلون العرض.

بدأ سان جست في الصباح التالي، 27 تموز (9 ثرميدور)، حسب الإتفاق، الخطاب الذي كان يجب أن يكون عن الوضع السياسي الذي يواجه الحكومة. لكن في الوقت الذي مضى منذ اقترح بارير أن يفعل ذلك، تغير الطقس السياسي بشكل حاد، وإذ شاهده بيلاو وكارنو يعمل طوال الليل على الخطاب في مكاتب اللجنة، عرفا أنه، بعيداً عن أي تصريح مسكن عن الوحدة، يمكن أن يتوقعا خطبة عنيفة من الاستنكار الخطير. ولم يكد سان جست يصل إلى إشارته الإلزامية الأولى إلى الصخور الطاربية Tarpeian Rocks حتى قوطع، باتفاق مسبق، من تالين Tallien مديناً روبسبيير لأنه انشق عن القيادة الجماعية ليلقي خطاباً «باسمه الشخصي». ولحقه بيلاو فاريني بالمزيد من الاستنكار الموجه لتهديد روبسبيير أعضاء من اللجان والمؤتمر. وما يدعو للدهشة، عوضاً عن أن يشن سان جست إحدى هجماته المضادة التي بسببها كان يخشى جانبه كثيراً، بدا أن

فصاحته تلاشت. وجلس شاحباً في مقعده بينما تعاظمت الاتهامات. وقد حاول روبسبيير، وهو يرى دفاعه يتحطم، أن يضمن المنبر لنفسه لكن الصرخات أقعدته. ربما لم تكن لحظة الانهيار التام عندما دعا مندوب غامض إلى اعتقاله بل عندما حوّل فاديه الأدوات المعيارية لبلاغته إلى سخرية. «استمعوا إلى روبسبيير، إنه المدافع الأوحد عن الحرية؛ إنه يتخلى عنها للخسارة؛ إنه رجل نادر التواضع ولديه لازمة سرمدية «أنا مظلوم؛ إنهم لا يعطوني حق الكلام» وهو الوحيد الذي لديه شئ مهم ليحكيه «فلان وفلان يتآمران ضدي، أنا أفضل صديق للجمهورية» يا له من خبر». والسلاح الوحيد الذي كان روبسبيير ضعيفاً أمامه صعقه: الضحك. وعندما خذلته الكلمات، صرخ أحد المندوبين، «دم دانتون Danton يخنقه.!».

لم يُحسَم اليوم بعد، في كل حال. وعلى نحوٍ متعقل، قرر الترميدوريون ألا يقبضوا على روبسبيير وكوثن وسان جست ولو باس Le Bas وحسب، بل على هانريو قائد الحرس أيضاً. ولكن ما أن سمعت الكومونة عن الإجراءات، حتى رفضت أن تفتح أي من سجونها لأخذ الرجال وبدأت، بشكل بطيء، تحريك آلية العصيان الشعبي. وكانت الصعوبة في هذا أن الإرهاب قد أعطب تلك الآلية بإعدام مشغليها الأساسيين وملء الأقسام بالجواسيس والأتباع، وفي الواقع لم تعد تعمل. فمن الأقسام الثمانية والأربعين، طلب أربعة وعشرون فعلياً تعليمات من الكومونة وثلاثة عشر أرسلت قوات عندما دق ناقوس الخطر. ومع ذلك كانت كافية لتحرير الخمسة رجال وللجنرال كوفنهال Coffinhal أن يرسل عدداً لايستهان به ضد المؤتمر ذاته. لوهلة، اعتقد بعض المندوبين أنهم ضاعوا واستعدوا ليتلقوا إطلاق النار عليهم. غير أن الإتحاد المضاد لروبسبيير وأنصاره صمد، بشكل واثق تقريباً لأنه، لأول مرة، عرف أن بإمكانه تحريك قوة مضادة من الأقسام المركزية والغربية ضد الكومونة. وقد عينوا بارا قائداً لقوتهم الخاصة وأعلنوا روبسبيير وأعوانه خارجين على القانون ـ hors la loi ـ. وقد عنى هذا أنه يمكن أن يؤخذوا بمجرد التعرف على هوياتهم وأن يعدموا بسرعة خلال أربع وعشرين ساعة.

تبين أنها ستكون نقطة انعطاف اليوم. فقد أصبحت القوات عند المؤتمر متململة ومضطربة من اضطرارها لمواجهة مؤتمر موحد ومرعوبة بوضوح من هدر الدماء المخيف. لم تصل أية أوامر من الكومونة، لذلك قرر أنريو Hanriot أن يسحب ما تبقى من قواته إلى محطة مقابل فندق دو فيل Hôtel de Ville. وعندما ذابت تلك القوة مبتعدة بدورها في الثانية صباحاً، أخذت القوات التي تحت قيادة بارا مكانها وتقدمت للقبض على المندوبين



الصورة 211، لرسام مجهول، روبسبيير

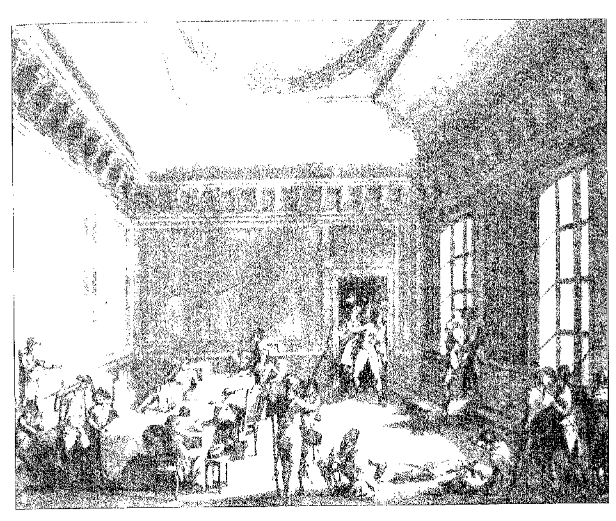
المهدور دمهم، الذين لجأوا إلى داخل البناء. وفيما كانوا يفعلون ذلك، سقطت جثة من نافذة عند أقدام الضباط. كانت جثة أوغسطين روبسبيير، أخو ماكسيميليان الصغير. وفي الداخل، وجدوا كوثن المقعد ممدداً بلا حول على الدرج، بعد أن وقع على الدرجات.

وداخل قاعة المجلس العام، كان لو با Le Bas قد أطلق النار على نفسه وغطت الدماء وجه روبسبيير وجسده، وتبعثر فكه، ربما بسبب محاولة انتحار خرقاء. ونهض سان جست، واقفاً بهدوء ولا مبالاة ليحيي القابضين عليه.

واستفاق الباريسيون صباح اليوم التالي ليجدوا أن المقصلة قد عادت إلى ساحة الثورة. وبعد تعرف المحكمة السريع، أُعدِم سبعة عشر من أنصار روبسبيير بالمقصلة. ولحق بهم في اليومين التاليين ثلاثة وثمانون عضواً من الكومونة والبلدية *mair*ie، مما يوضح أن الفريق المنتصر حالياً وافق على ادعاء كوثن أن «الرحمة هي قتل الأقربين». كانت نهاية مهندسي **الإرهاب العظيم** مخيفة على وجه الخصوص، مثل طقس شديد الغضب لطرد الرعب. كان كوثن المقعد مربوطاً إلى اللوح الخشبي بألم مروع، حيث سحق سقوطه أوصاله المحنية. وذهب سان جست إلى حتفه مثل رواقي روماني تماماً، الدور الذي رسمه لنفسه بوضوح. وأمضى روبسبيير الليل عاجزاً على طاولة لجنة السلامة العامة، حيث كان رئيساً بانضباط شديد مرات كثيرة. دفع سانسون Sanson نبي الفضيلة المتأنق إلى اللوح الخشبي، والدم يلوث معطفه ويلطخ بنطاله المصنوع من قماش قطني متين. ولإعطاء شفرة المقصلة سقوطاً غير معوّق، مزق الجلاد الضمادة الورقية التي كانت تمسك فكه إلى بعضه. وأرسل صرخات ألم حيوانية، لم تسكتها إلا شفرة المقصلة الساقطة.

شهدت الأيام والأسابيع التي تلت حركة باتجاهين في سجون باريس. أصر جاك لويس ديفيد، وقد رأى روبسبيير يُهاجَم في الثامن من ثرميدور، على حياة تقلد الفن (لاسيما فنه) وقد استعار من موت سقراط سطراً له «روبسبيير، إذا شربت الشوكران سأتبعك». لم يفعل شيئاً من هذا القبيل، طبعاً، واختبأ لفترة إلى أن سجن حتماً في سجن اللوكسمبورغ Luxembourg. يمكنه أن يعتبر نفسه محظوظاً أن العدد الكبير من الفنانين الذين وقع أمر اعتقالهم، ومنهم أوبرت روبرت وجوزيف بوز، لم يحملوا سوى القليل من الحقد. سيرسم في السجن لوحة شخصية معذبة ومنذهلة ومنظراً شعرياً علاجياً للحديقة المرئية من نافذة زنزانته.

وفي 24 تشرين الأول، ظهر ايرفي دو توكفيل من سجن المادلونيت Madelonettes. كان في الثانية والعشرين وشعره أبيض كالثلج. وقد اجتمع بـ لويز حفيدة مالرب، وجدها محطمة بدمار عائلتهما. لن تشفى أبداً تماماً بل ستسقط في نوبات اكتئاب وحنين. وتمكن ايرفي بعودته إلى قصر مالرب من إيجاد قريبيه الشاتوبريانين الصغيرين، كريستيان ولويس. كانا آنئذٍ يتيمين في عمر الخامسة والثالثة وقد تبناهما إيرفي كما لو كانا



الصورة 212. برثاو (بعد دوبلسيس بيرتو)، روبسبيير مطروحاً على طاولة لجنة السلامة العامة، صبيحة 10 ثرميدور

ولديه؛ وبعد إحدى عشرة سنة سينضم إليهما رضيع قريب، أليكسي Alexis.

كان هناك على الأقل ناجٍ واحد من الإرهاب بقي شاكراً خلف القضبان. في سجن الجاردان دي بلانيت Jardin des Plantes، بالكاد حياً، هناك قبع أسد عجوز. كان قد نُقِل إلى باريس عندما حطمت الثورة معرض الوحوش الملكية في فرساي وعندما توفي سجانه، الذي يدعى بشكل ملائم ليروي Leroy، عام 1789. خلال صعود الثورة كان مجبراً على تحمل أن يُهزأ منه، ويُضحَك عليه، وحتى يُبصَق عليه ليس لمجرد كونه «مخلوق ملكي» بل لأنه «ملك الوحوش». أصبح الآن بالياً ومهزولاً؛ عانى معطفه من الجرب، وظهرت التقرحات المفتوحة والبثور على اللحم العاري. لكنه كان على الأقل حياً وعلى وشك التمتع بإعادة غريغوار الصارخة لتأهيل المعرفة، بما فيها علم الحيوان، وطنياً، بعد كل شيء. وفي غضون ذلك، نظر إلى الجاسوس الإنجليزي الذي كتب عنه(وربما تعاطف مع ملكيته المؤذنة بالسقوط) بعين صفراء، عارفة.

CHAPTER 19

Sources and Bibliography

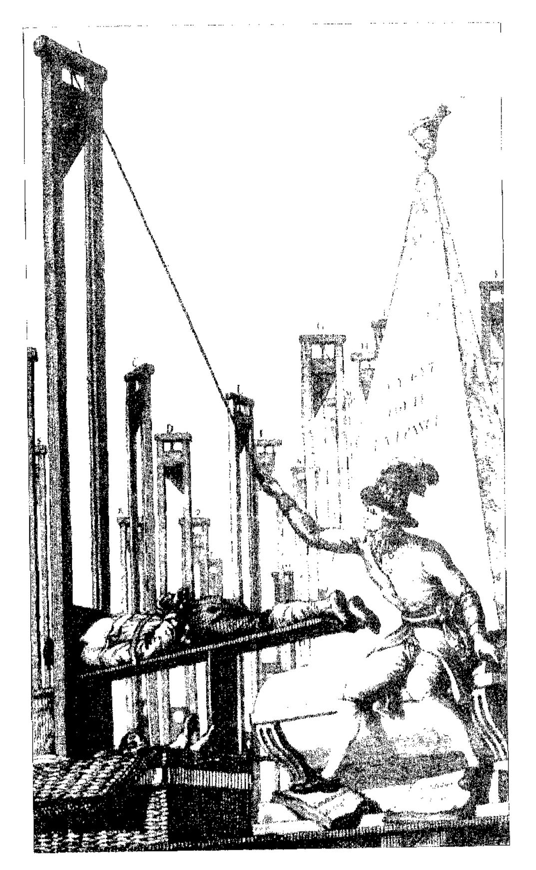
For the destruction of Malesherbes' family, see Grosclaude, Malesherbes (chapters 16 and 17) See also the Mémoires of Hervé de Tocqueville, utilized by André Jardin, Tocqueville: A Biography (trans. Lydia Davis and Robert Hemenway, New York 1988); and R. R. Palmer (ed.), The Two Tocquevilles, Father and Son: Hervé and Alexis de Tocqueville on the Corning of the French Revolution (Princeton 1987).

For the attack on "vandalism", see the excellent essay by Anthony Vidler, "Grégoire, Lerioir et les 'Monuments Parlants,'" in Bonnet et al. (eds.), La Carmagnole des Muses(131 - 51). On the Feast of the Supreme Being, see Ozouf, Festivals; Biver, Fétes; and especially Julien Tiersot, Les Fêtes, 122 - 68, who explains more fully than other accounts the essentially musical conception of both the morning and afternoon assemblies. For David's part, see Dowd, Pageant - Master of the Republic, and Warren Roberts' forthcoming study. On the abrupt promotion of Désorgues, see Michel Vovelle, Théodore Dtsorgues ou la Désorganisation, Aix - Paris 1763 - 1818 (Paris 1808).

Figures of executions during the Grande Terreur are given in Greer, The incidence of the Terror. Richard T. Bienvenu, The Ninth of Thermidor: The Fall of Robespierre (New York,. London and Toronto 1968), is a helpful anthology of edited documents with a detailed critical guide to events. They may also be followed in the recent biographies, notably Jordan's and Hampson's. One of the liveliest accounts is in the older biography by J. M. Thompson, Robespierre (2 vols., Oxford 1935). For an orthodox Jacobin view, see Gerard Walter, La Conjuration du Neuf Thermidor (Paris 1974).

The leonine survivor of the royal menagerie is described by Raoul Hesdin in The Journal of a Spy in Paris During the Reign of Terror (New York 1891, 201 - 02).

خاتمة



الصورة213. لرسام مجهول، روبسبير يقطع رأس الجلاد

من يستطيع لوم الثيرميدوريين لتصويرهم فرنسا أضحية؟ طبعاً، كان من مصلحتهم تقديم فظائع الإرهاب أنها مسؤولية روبسبيير وحلفائه الخاصة، بما أن أيدي رجال مثل كولو ديربوا وتالين وفوشيه كانت غير ملوثة لاريب في ذلك. كان كبش فدائهم الأكثر نفعاً مدعي عام المحكمة الثورية، فوكيه تنفيل. فقد طالب فريرون Freron (الذي كان متحمساً لقانون بريريال Low of Prairial) بعد أربعة أيام من إعدام روبسبير في المؤتمر أن «يكفر فوكيه في الجحيم عن الدماء التي سفحها». بعد القبض عليه أُخذ إلى الكونسييرجيري، حيث، عند معرفتهم هوية السجين الجديد، بدأ حتى اليعاقبة القساة بالطرق على الجدران وإطلاق صيحات الإدانة «للوحش». وقد خيَّب فوكيه، في المحاكمة، آمال هؤلاء الذين توقعوا أن يروا الشر المجسد يضمحل في العار والخوف أمام قضاته. بل قراء القرن العشرين سيعرفون أداة مثالية للقتل الجماعي في رجل الأسرة الرقيق الحاشية الذي دافع أنه طبّق القانون دائماً وقام بواجبه. ذهب إلى إعدامه في أيار 1795 قلقاً أن الزوجة والأبناء الذين من أجلهم عمل مثل تلك الساعات الطويلة سيتهددهم الآن الفقر والنبذ. وكررت آخر رسائله بالضبط أولئك الكثيرين من سجنائه: «أخبري الأولاد أن أباهم مات تعيساً لكنه بريء».

حتى مع السماح بالكثير من السخرية والنفاق من جهة الثيرمودوريين الذين شجعوا إنتاجها، فلاشك أن دفق المطبوعات المعارضة للإرهاب كان تعبيراً أصيلاً عن الإرتياح. وفي واحدة من أكثر تلك الصور إثارة للحذر، روبسبير، مرتدياً كما ظهر في احتفال الكائن الأسمى، يقطع رأس الجلاد «بعد أن قطع فرنسا كلها». وعلى كل واحدة من المفاصل التي امتدت خلفه مثل غابة وحشية لصيقة لتبويب ضحاياه: فالـ «L»: لأنصار إيبرت؛ والـ O: للمتقدمين في السن والنساء والأطفال؛ والـ P: للجند والجنرالات» ؛ وهلم جرّا. وفي أعلى المسلة التي تحمل الأسطورة «هنا ترقد فرنسا كل»، وقلبت قبعات الحرية كلها وسُمِّرت وتحولت إلى مدافن لحرق جثث الموتى.

إنها صورة مروعة ومثيرة للحزن، وكان هناك الكثير الكثير: أهرامات من الجماجم يعلوها قناع موت روبسبيير ذاته يعبس بوجه المشاهد؛ مارا يرقص في الجحيم، تحيط به أفاعٍ تتلوى؛ رقصة الموت تؤديها فرنسا المعصوبة العينين مغتاظة من هيكل الموت العظمي الطافر فرحاً. وقد شاركت جميعاً إحساساً قوياً أنها ارتدت من حافة الهاوية.

ومع ذلك، لم يتوقف العنف، مع توقف الإرهاب. وقد كتب ريتشارد كوب Richard Cobb ببلاغة عن موجات الإرهاب المضاد، الذي كان وحشياً لاسيما في ميدي Midi ووادي الرون Rhône؛ من عصابات قتل فوضوية تختار أهدافاً منتقاة تورطت مع المعاقبة. فغدا الموظفون الجمهوريون وضباط الجيش وأعضاء إدارات المقاطعات والمقاتلون البارزون في الجمعيات الشعبية و، في الجنوب، البروتستانت: مزارعين وتجاراً غدوا جميعاً فريسة لسيافي *sabreurs* السنة الثالثة. كانت الجثامين ترمى أمام المقاهي والحانات في ميدي أو تلقى في الرون أو السون Saone. وفي مناطق عدة، كان الإرهابيون المضادون يجتمعون معاً في حانة لصيد اليوم، وينطلقون بحثاً عن طريدتهم.

كاد شتاء 1794 ـ 95 أن يكون مهلكاً، وقد دفع إلى العوز أولئك الذين ضربهم من قبل حصاد الطقس الجاف وارتفاع الأسعار. ومع تدمير الكنيسة والتعافي البطيء لوظائفها الرعوية، اختفت مصادر تقليدية كثيرة لإعانة المعوزين أيضاً. وفي أشد أوقات البرد مرارةً، في الشهر الرابع نيفوز Nivose من السنة الثالثة، تخلصت الحكومة أخيراً مما تبقى من الحد الأقصى *maximum* والقيود المألوفة. وكانت النتيجة يأساً ومعنويات عالية شاذة، ليس فقط في مناطق فرنسا الأشد فقراً بل حتى في المناطق الساحلية في النورماندي، حيث أعاقت الموانئ المتجمدة استيراد الحبوب الضرورية. واندلعت المعارك مجدداً من أجل الخبز والحطب في المدن الجائعة. أصبح الفحم ترفاً كبيراً ووقف الرجال في طوابير طويلة من أجل رقم يؤهل عائلة لتلقي معونة. وفي باريس، سارت عصابات من الرجال والنساء والأطفال تغادر متعبة لقطع الأشجار في غابة بولونيا Bois de Boulogne أو غابات فينسين ومودون Meudon من أجل حطب التدفئة. ومع تجمد مياه نوافير البلديات كلها، اضطر حملة المياه أن يذهبوا أبعد من أجل التعبئة، وعند دخول باريس في طريق العودة، يدفعون المكوس الباهظة التي حاولوا أن يمرروها إلى زبائنهم. وكان الجوع والبرد شديدين إلى درجة أن الحيوانات النهاية ـ مثل الثعالب وحتى الذئاب ـ أخذت تظهر عند أطراف المدن، تبحث عن قوتها. ولا عجب أنه في شتاء سنة «خمس وتسعين nonante - cinq»، بدأ الفلاحون، مرة أخرى، ينظرون بحنين إلى الوراء للإرهاب، «عندما

سالت الدماء وكان هناك خبز»، في كلمات أحد المتمردين في الشهر السابع من السنة الثالثة حسب التقويم الجمهوري.

كانت هذه تعاسات الأجل القصير. غير أن الخراب الذي أحدثته الثورة تعمق أكثر كثيراً. بقيت مناطق واسعة من البلاد ـ ميدي ووادي الرون وبريتاني وغرب النورماندي ـ في حالة حرب أهلية حقيقية، مع أن العنف الآن جرى اعتباطياً، وبطريقة اضرب واهرب أكثر منه بالعصيان المنظم. وتحطمت محركات ازدهار الرأسماليين العظيمة في فرنسا أواخر القرن الثامن عشر، الموانئ الأطلسية والمتوسطية، من خلال قمع أعداء الفيدراليين وحصار البحرية البريطانية. وعندما عاد صموئيل روميلي Samuel Romilly إلى بوردو خلال سلام عام 1802، ذعر من مشاهدة الأرصفة صامتة ومسكونة بالأشباح والعشب ينمو طويلاً بين حجارة طريق رصيف تحميل دي شارترون des Chartrons. لم تتعافَ إلا مرسيليا وليون عندما تراجعت الثورة وتوجه الدولة البونابارتية مجدداً نحو إيطاليا مجدداً قدم أسواقاً وطرق تجارة جديدة.

وفي مدن الأقمشة مثل ليل، تراجعت بشدة أنواع كثيرة من التجارة. ولأسباب واضحة، وجد أولئك العاملون في المهن الراقية *métiers de luxe*، صانعو الشعر المستعار، الخياطون، معلمو الرقص، المدرسون، الموسيقيون، صانعو الساعات أن زبائنهم يختفون. غير أن بحث كوب Cobb أظهر أيضاً أن مهناً أكثر شعبية، مثل صناعة الأحذية، تعاني السوء نفسه، باستثناء بضعة محظوظين تمكنوا من الحصول على عقود محلية لتموين جيش الشمال. في صناعات الأقمشة، دمرت ضريبة الحد الأعلى الصناعيين، التي أجبرتهم على البيع بأسعار أدنى كثيراً مما دفعوه مقابل المادة الخام قبل فرض الضوابط. ومع أخذ اعتماد إنتاج حياكة القطعة عليهم بالحسبان، سيمتد الأذى الاقتصادي داخل الصناعة مباشرة. فما الجيد في حرية سوق العمالة، الذي توفر ظاهرياً بعد إلغاء النقابات، إذا ما انهار الطلب؟ إنه، في كل حال، فليس مؤكداً أن الحرفيين جميعاً كانوا فرحين بحريتهم الجديدة، طالما أنها جاءت مع الحظر المتشدد ضد أي نوع من تنظيم العمل يقيد المنافسة. وهنا أيضاً، في بعض الصناعات على الأقل، كان هناك ميل للعودة إلى نماذج التضامن والتنظيم الجماعي للعمال المياومين القديمة compagnonnages حتى مع أنها كانت محظورة قانونياً. وفي الصناعات الثقيلة، مثل صناعة الفولاذ، سرّعت الفرص الرائعة المتولدة عن الحرب المتوسعة دائماً وقوّت مجدداً تركز رأس المال والعمل في الاقتصاديات الكبيرة التي تقودها التكنولوجيا التي كانت في الواقع واضحة قبل الثورة. كان دو ويندل de Wendell وبارونات آخرون كبار

في الصناعات التعدينية، لا يمكن تعميم ذلك، كانوا نتاج الملكية القديمة، وليس الثورة الجديدة.

فما الذي أنجزته الثورة كي توازن تلك العقوبات؟ هما التغييران الاجتماعيان الكبيران ـ إنهاء النظام الإقطاعي وإلغاء نقابات التجار والصناع ـ وقد وعد كل منهما أكثر مما قدّم. ومع أن الكثير من الحرفيين كانوا دون شك سعيدين بالتخلص من هرمية الاتحادات التي قيدت عملهم وكسبهم، فقد كانوا، إذا كان ثمة شيء، أكثر عرضة للمظالم الاقتصادية التي استمرت بين أصحاب العمل والعمال المياومين. وبالمثل كان إلغاء الإقطاعية قانونياً أكثر منه تغيراً اجتماعياً ولم يفعل أكثر من تحويل اللوردات إلى ملاكي الأراضي الذين كانوا يشقون طريقهم جدياً في النظام القديم. أجل، ليس هناك شك أن الفلاحين كانوا شاكرين لنهاية ابتزاز الإقطاعيين الذي فرض عبئاً ساحقاً من المدفوعات على مداخيل ريفية راكدة. ومؤكد أيضاً، أنهم كانوا مصممين معارضة إعادة فرضها مهما كلف الأمر. لكن يصعب القول ما إذا كانت أغلبية سكان الريف بحال أفضل في عام 1799 مما كانت عليه في عام 1789 بشكل ملموس. ومع أن التعرفة المستردة للرسوم الإقطاعية قد ألغيت مباشرة عام 1793، فقد عوّض ملاكو الأراضي أنفسهم باستراتيجيات التأجير المتعددة التي عمقت مديونية مستأجري الأرض الذين يعملون بالمحاصصة. وعلاوة على ذلك، لم تكن الضرائب التي طلبتها الجمهورية ـ وبينها ضريبة الأرض الموحدة *impot foncier* ـ أخف من تلك التي كان يفرضها الملك. وقبل مضي زمن طويل ستعود القنصلية والإمبراطورية إلى الضرائب غير المباشرة المرهقة على الأقل مقارنة بتلك التي كانت في ظل النظام القديم. وكل ما تم إعفاؤهم منه، مالياً، هو ضريبة الناخبين غير العادية، بما فيها **ضريبة الرؤوس القديمة وضريبة العشرين**، وجاء هذا الارتياح نتيجة الحدود المتوسعة عسكرياً باستمرار. وقد وقعت الضرائب التي رُفعت عن كاهل الفرنسيين عندئذٍ على كاهل الإيطاليين والألمان والهولنديين. وعندما ارتدت تلك الحدود فجأة عام 1814، عائدة إلى الحدود القديمة للوطن المسدس الأضلاع، علق الفرنسيون بالفاتورة، التي، كما في عام 1789، رفضوا بصلابة أن يدفعوها، وهكذا قرروا نهائياً قدر الإمبراطورية.

وهل كان عالم القرية في عام 1799 مختلفاً كثيراً عما كان عليه قبل عشر سنوات؟ في مناطق معينة من فرنسا حيث كانت هناك هجرة واضطهاد شديدا الوطأة، حررا الحياة الريفية بالفعل من هيمنة النبلاء. غير أن هذا القطع الجلي يخفي استمرارية لها بعض الأهمية. فقد كانت أقسام السكان التي كانت تربح اقتصادياً في ظل النظام القديم هي التي كانت أكثر استفادة من بيع أراضي النبلاء والكنيسة. وقد أُعلِن أن هذه البيعات لا عودة

عنها، لذا فقد كان هناك حقاً انتقال أساسي للثروة. لكن جزءاً كبيراً من ذاك الانتقال كان داخل طبقات أصحاب الأراضي ـ التي تمتد من المزارعين الميسورين إلى النبلاء «الوطنيين» الذين تمكنوا من البقاء والاستفادة من المصادرات عملياً. وزادت القطط السمينة سمنة. ففي بواسو بونتوا Puiseux - Pontoise في السين إي توا Seine - et - Oise، كان المستأجر الأكبر لدى الماركيز دي جيراردين de Girardin وجاره، شارل أنطوان توماسين Charles - Antoine Thomassin، كان بوضع جيد كي ينتزع قطع الأراضي المتاحة وعمل جيداً غلى درجة أخذ يتنافس مع صاحب أرضه السابق على أية أجزاء متبقية. وكانت هناك، بشكل مؤكد، مناطق كثيرة في فرنسا خسر فيها النبلاء كمجموعة جزءاً مهماً من ثروتهم. ولكن كان هناك آخرون أيضاً ـ في الغرب والوسط والجنوب ـ بقيت فيها، كما أظهر جان تولار Jean Tulard، أراضٍ غير مباعة تستطيع العائلات التي عادت بأعداد كبيرة بعد سنة 1796 أن تستعيدها. وهكذا، فيما انتهت حياة شخصيات قيادية كثيرة في هذا التاريخ على المقصلة، بقي آخرون كثر دون حراك وظهروا مجدداً وجهاء قادة في مقاطعاتهم. فالشاب القليل الخبرة سيد الاحتفالات maître de cérémonies الذي ذوى قبل عقاب ميرابو في 23 حزيران سنة 1789، الماركيز درو بريزيه Dreux - Brezé، كان ما يزال رابع أغنى رجل في مقاطعة السارت Sarthe خلال القنصلية والإمبراطورية. وبارال دو مونتفيرا Barral de Montferrat، الرئيس السابق لمحكمة دوفين الذي أصبح محافظ غرينوبل Grenoble خلال الثورة، بقي أحد أعظم قوى الإزير Isere لزمن طويل في القرن التاسع عشر. وظلت عائلة نوايه Noailles أكبر سلالة ملاك أراضي في الأور واللوار Eure - et - Loir. في الأويس Oise، وكانت عائلة روشفوكو ليانكور Rochefoucauld - Liancourts لا تزال بين أعظم الملاكين، على الرغم من الكوارث التي وقعت على مواطني العائلة النبلاء.

وعلى النقيض، لم يكسب فقير الريف سوى النذر اليسير من الثورة. بقيت قوانين الشهر السادس التي قدمها سان جست رسالة ميتة وغدا رعي الحيوانات على الأراضي العامة أو جمع الوقود من الغابات المفتوحة أصعب من السابق. فكانت الثورة في كل هذه النواحي فصلاً إضافياً في التحديث المتصلب لحقوق الملكية الذي كان كان يتقدم جيداً قبل عام 1789. لم تلبِّ أية حكومة ـ وتلك التي من اليعاقبة أكثر من حكومة الملك ـ حقاً صرخات المساعدة التي تردد صداها خلال عرائض المظالم *cahiérs de doléances* الريفية عام 1789.

وبطريقة مماثلة، كان القطع القاسي للاستمرارية الدينية تحت الإرهاب مجرد ظاهرة عابرة ـ مع أنه لن يُنسَى مطلقاً في القرى. نزعت قبعات الحرية التي حلت محل الصلبان على القمم المستدقة والأبراج بشكل مفاجئ ودمرت في السنة الثالثة. وقد أفسحت عقيدة الكائن الأسمى الطريق تدريجياً للاشتغال العلني بالإيمان القديم، غالباً بضغط النساء، اللواتي شرعن في أجزاء عديدة من فرنسا في حملة إعادة ترسيم لرجال الدين غاضبة، مكرهات القساوسة المحلفين أن ينظفوا لسان أي شخص كان قد تلوث بالمشاركة الدستورية. وعادت الأجراس تُقرَع مجدداً فوق الحقول والأكواخ واستعيدت الاحتفالات التقليدية، ولو تم الاحتفال بها في نيفوس وجيرمينال بدلاً من كانون الأول ونيسان.

هل خلقت الثورة، على الأقل، مؤسسات الدولة التي حلّت المشكلات التي أسقطت الملكية؟ هنا، أيضاً، كما يؤكد توكفيل، يسهل تبيان الاستمرارية، لاسيما في المركزة، أكثر من أي تغير شامل. وفي المال العام، غدا ابتكار عملة ورقية كارثة معترفاً بها إلى درجة كادت صعوبات النظام القديم المالية تبدو تافهة إلى جانبها. وفي النهاية عادت حكومة القناصل البونابارتية (التي أدار بيروقراطيون ناجون من النظام القديم شؤونها المالية بشكل كامل) إلى النظام المعدني المؤسس على إصلاح كلوني النقدي الهام لعام 1785 الذي يثبّت نسبة الفضة إلى الذهب. ومالياً، أيضاً، عادت فرنسا ما بعد اليعاقبة بصلابة إلى المزيج السابق من القروض والضرائب غير المباشرة والمباشرة. ولم تمول الجمهورية والإمبراطورية جيشاً وبحرية ضخمين من هذه المصادر المحلية أفضل مما فعلت الملكية واعتمدت بشكل حاسم على ابتزاز منظم من البلاد المحتلة لتبقي المضخة العسكرية متأهبة.

وعُرِف مدراء الشرطة النابليونيين دائماً باعتبارهم ورثة الحكام الملكيين(والمندوب الثوري في مهمة)، يعالجون الإدارة بين أولويات الحكومة المركزية ومصلحة الأعيان المحليين. لاشك أن مكانة تلك الشخصيات البارزة (الأعيان) قد عانت من صدمة عنيفة خلال صعود إرهاب اليعاقبة، لاسيما في المدن الإقليمية الكبيرة، حيث، بعد تمرد الفيدراليين، اجتث نفوذهم عملياً. أعاد دستور السنة الثالثة، في كل حال، مع إعادة إنتاجه لمؤهلات الضريبة لجمعيات الناخبين، السلطة لأولئك الذين مارسوها باستمرار بين منتصف ثمانينيات القرن الثامن عشر وعام 1792 في أماكن كثيرة. وكما رأينا، في بعض المدن الصغيرة، مثل كاليه Calais، حيث دفع الحكام البارعون الخدمة الشفوية لتعطيل الأنظمة، وكان هناك استمرارية غير متقطعة للمناصب من عام 1789 وصولاً إلى إعادة

الملكية. وقد وجد لويس بيرجيرون Louis Bergeron درجة استثنائية في استمرارية الأعيان في مقاطعة أورن Orne، سواء قيس ذلك بالدخل أو المكانة أو الوظيفة. فغوبي دي بريفي Goupil de Prefeln، على سبيل المثال، كان مستشاراً في محكمة روان Rouen ومندوباً إلى الجمعية التأسيسية، وأصبح مدعياً عاماً في المحكمة النابليونية في كان Caen سنة 1812. ديسكورشه دي سانت كروا Descorches de Sainte - Croix، الذي كان ماريشال المعسكر في الجيش الملكي القديم، ثم أصبح مدير شرطة وبارون الإمبراطورية، بالنسبة لهؤلاء الرجال وآخرين لا يعدون من أمثالهم، لم تكن الثورة إلا انقطاعاً وحشياً لسلطتهم الاجتماعية والمؤسساتية مع أنه كان سريع الزوال على نحوٍ رحيم.

هددت ديكتاتورية الفضيلة كذلك الاستقامة المتنامية إبان عهد لويس السادس عشر التي تبعاً لها يجب على الموظفين العامين أن يكون لديهم شئ بسيط من الخبرة المهنية، وفي المستويات العليا يجب الاستفادة بشكل كامل من المهن «الحديثة» : الهندسة، الكيمياء، الرياضيات. وقد مات النصير الكبير للدولة، التي سيعزز العلم والفضيلة كل الآخر فيها، الماركيز دو كوندورسيه de Condorcet، في هزيمة مذلة، هارباً من القبض عليه في المنزل بباريس في أيار عام 1794 ومشى كل الطريق إلى كلامار Clamart ليثير الشبهة في نزلٍ عندما طلب عجة. وسأله صاحب النزل، «كم بيضة؟» فأجاب كوندرسيه، «اثنتا عشرة»، ملمحاً إلى عدم معرفة مدمرة بمطبخ الرجل العادي. فسجن لصالح المحكمة الثورية لكنه وُجِد ميتاً في زنزانته قبل أن يُنقَل إلى باريس. وإحدى الأساطير المختارة المتاحة لتفسير الكارثة: جوع منهك أو النهاية الأكثر شهرة السم المأخوذ من خاتم. إذا كان الأمر الأخير صحيحاً، فسيكون متوافقاً مع تفشي الانتحار الذي اكتسح الجيروندييين Girondins بعد هدر دمهم.

ومع أن مؤلف **مخطط التقدم الإنساني** قد مات، تابعت النخبة الفكرية في الأكاديميات استعمار الحكومة التي بدأتها تلك النخبة في عهد لويس السادس عشر. وحدثت الإصلاحات الكبرى في التعليم العالي التي جسدت فكر المرحلة الأخيرة من التنوير في ظل حكومة المديرين بإحداث المدارس المركزية. وتابع عالم المتاحف والأكاديميات في كل باريس والأقاليم طاقته الفكرية متحرراً من الكبح السياسي (مع أنه ليس من الشجار الوحشي، باعتبار هذا من طباع الوحوش) خلال تسعينيات القرن الثامن عشر. كانت مجالس الدولة والوزارات في عهد حكومة القناصل والإمبراطورية مليئة بالشخصيات الفكرية البارزة في ثمانينيات القرن الثامن عشر. وقد كان بعضها، بالمناسبة،

ثوري متحمس؛ وبعضها لم يكن. صار شابتال Chaptal، مفتش المناجم الملكي وأستاذ الكيمياء، الذي منحه لويس السادس عشر مرتبة نبيل عام 1788 على السلم النخبوي المعتاد، وزيراً للداخلية في عهد نابليون. وشارل غودين Charles Gaudin، وزير المالية، كان ابن أحد محامي محكمة، الذي عمل في إدارة ضريبة العشرين قبل عام 1789. وكان وزيرا العدل، أبريال Abrial ورينييه Regnier، كلاهما في المحاكم قبل الثورة، صار لهما مهنة عامة بواكير الثورة، نجيا من الإرهاب وأبحرا إلى السلطة والمكانة في حكومتي المديرين والقناصل.

وما قتل الملكية كان عدم قدرتها على إيجاد المؤسسات التمثيلية التي من خلالها يمكن للدولة أن تنفذ برنامجها الإصلاحي. فهل فعلت الثورة أي شيء أفضل من ذلك؟ في أحد المستويات، كان تعاقب المجالس التشريعية، من مجلس الطبقات إلى المؤتمر الوطني، أحد الابتكارات الشديدة التأثير للثورة. لقد أخذوا النقاش المكثف حول شكل المؤسسات الحاكمة في فرنسا، التي كانت مستمرة لنصف قرن على الأقل، إلى حلبة التمثيل ذاتها وعبّروا بوضوح عن مبادئها بفصاحة لا تجارى. لكن مع كل مزاياها كمسارح نقاش، لم يستطع أي مجلس تشريعي منها حل المسألة التي أفسدت النظام القديم: كيف ينبغي خلق شراكة ناجحة عملية بين التنفيذي والتشريعي؟ وعندما رفضت الجمعية التأسيسية اقتراح مونييه وميرابو«البريطاني» باختيار الوزراء من الجمعية، لم تعتبر التنفيذي إدارة للبلاد، تعمل بإيمان قوي، بل طابوراً خامساً مصمماً على تدمير السيادة الوطنية. مع هذه البداية المحكوم عليها بالفشل، كثّف الفرعان التنفيذي والتشريعي في دستور عام 1791 ببساطة الحرب بينهما حتى دمارهما المشترك عام 1792. وقد عكس الإرهاب الأمور بفاعلية فوضع المؤتمر تحت عبودية اللجان، لكن ذلك جعل من غير الممكن تغيير الحكومات إلا بالعنف.

تعلم واضعو دستور السنة الثالثة (1795) بوضوح شيئاً من هذه الخبرة التعيسة. فتمّ تقديم مجلس تشريعي مؤلف من غرفتين، يُنتخب بشكل غير مباشر من المجامع التي معيار العضوية فيها هو الملكية. وكان المجلس الحاكم نظرياً مسؤولاً أمام المجلس التشريعي(كما كانت اللجان بالفعل). وفي الممارسة، في كل حال، بقيت التجربة متشحة بالسواد بسبب ظل الثورة الطويل نفسه، حيث تبلور الشقاق الحتمي، ليس حول مواضيع محددة للحكومة بل حول خطط لإسقاط الدولة، دبرها الملكيون أو اليعاقبة الجدد. ومع الهيئات المنفصلة في الدستور تتصارع فيما بينها على نحو يشلها، استمر العنف يقرر

التوجه السياسي للدولة أكثر كثيراً مما تفعل الانتخابات.

لكن العنف لم يعد، بعد السنة الثالثة، يأتي من الشوارع والأقسام بل من الجيش النظامي. وإذا كان على المرء أن يبحث عن قصة لا تقبل الجدل عن التحول في الثورة الفرنسية، فهي في إنشاء الكينونة القضائية للمواطن. لكن ما إن اخترع هذا الشخص الحر افتراضياً حتى انتهكت حرياته بأجهزة أمن الدولة. وتمّ ذلك دائماً باسم الوطنية الجمهورية، لكن القيود لم تكن أقل قمعاً لهذا. وكما خشي ميرابو ـ وروبسبير سنة 1791 ـ،كانت الحريات رهينة سلطة الدولة المحاربة بالضبط. ومع أن هذه النتيجة قد تكون محبطة، في الواقع يجب ألا تكون مفاجئةً على الإطلاق، إذا ما أخذنا في الحسبان أن الثورة بدأت باعتبارها استجابة لوطنية مجروحة بمذلات حرب السبع سنوات. لقد كان قرار فرجين Vergennes تطوير الإمبريالية البحرية والقوة العسكرية القارية في الوقت نفسه الأمر الذي ولّد حس الهلع المالي الذي أسقط الملكية في آخر أيامها. وعامل حاسم آخر ـ ربما، حقاً، كان العامل الحاسم ـ حسب زعم ثوريي عام 1789 هو أن بإمكانهم تجديد الوطن أفضل مما يستطيعه هؤلاء الذين عيّنهم الملك. ومن البداية، إذن، كان التعزيز المستمر للروح القتالية وطنياً. فلم تكن النزعة الوطنية المُعسكَرَة، بطريقة تصادفية ما، النتيجة غير المتوخاة للثورة الفرنسية: لقد كانت قلبها وروحها. وكان منطقياً تماماً أن ورثة السلطة الثورية أصحاب الملايين ـ «الطبقة الجديدة» الحقيقية لتلك الفترة من التاريخ الفرنسي ـ لم يكونوا بعض **الفاتحين البرجوازيين** بل فاتحين **حقيقيين**: ماريشالات نابليون، الذين جعلت ثرواتهم حتى أولئك الناجين من السلالات النبيلة يبدون غير جديرين بالمقارنة.

وسواء للأحسن أو الأسوأ، استأنف «الرجال العصريون» الذين بدوا مستعدين للإمساك بالحكومة إبان عهد لويس السادس عشر ـ المهندسون، الصناعيون النبلاء، العلماء، البيروقراطيون، الجنرالات ـ مسيرتهم إلى السلطة ما إن كُنِسَت الأشياء المثيرة في سياسات الثورة جانباً. «المأساة، الآن، هي السياسة»، زعم نابليون، الذي، بعد الانقلاب الذي أتى به إلى السلطة عام 1799، وأضاف ادعاءه إلى ذلك الذي أعلنته حكومات كثيرة متفائلة قبله، أن «الثورة قد استكملت مهامها».

وفي أوقات أخرى، مع ذلك، لم يكن واثقاً جداً. لأنه لو فهم أن ذاك الإنجاز الأخير للثورة كان خلق دولة عسكرية ـ تكنوقراطية ذات قوة هائلة وتضامن عاطفي، لكان أدرك أيضاً أن ابتكارها الرئيسي الآخر هو الثقافة السياسية التي تحدت ذلك دائماً

ومباشرة. وما حصل بين عامي 1789 و1793 كان انفجاراً سياسياً غير مسبوق ـ بالخطاب والطباعة والصورة وحتى الموسيقى ـ الذي حطم كل الحواجز التي قيدته تقليدياً. وفي البداية، كان هذا من عمل الملكية ذاتها. لأنه كان في عشرات آلاف الاجتماعات الصغيرة التي عقدت لإعداد العرائض وانتخاب المندوبين إلى مجلس الطبقات حيث وجد رجال فرنسا (وأحياناً نساؤها) أصواتهم. وبعملهم هذا، أصبحوا جزءاً في عملية ربطت تحقيق مطالبهم الفورية بعملية إعادة تعريف السيادة.

وقد كان ذلك الفرصة والمشكلة كلتاهما. فجأة، قيل لأفراد الرعية إنهم أصبحوا مواطنين؛ غدت مجموعة من التابعين جُمِعت في مكان بالظلم والتخويف أمة. من هذا الشيء الجديد، وأمة المواطنين هذه، لم تكن العدالة والحرية وأشياء كثيرة أخرى ما تتوقعه وحسب بل ما تطلبه أيضاً. وللسبب ذاته، إذا لم تتجسد، يكون هؤلاء الذين ازدروا مواطنيتهم أو كانوا بولادتهم أو معتقداتهم غير مؤهلين لممارستها، وبالتالي يمكن أن يتحملوا مسؤولية ذلك. وقبل أن يكون بالإمكان تحقيق وعد 1789، إذن، كان ضرورياً استئصال غير المواطنين Uncitizens.

وهكذا بدأت دورة العنف التي انتهت في المسلة التي يتصاعد منها الدخان وغابة المقاصل. ومهما بلغ عدد المؤرخين، في سنة المهرجان، الذين يغويهم أن يروا العنف «جانباً» غير سار للثورة التي يجب ألا يُصرَف النظر عن إنجازاتها، سيكون من التفاهة فعل ذلك. فمن البداية ذاتها، ـ من صيف عام 1789 ـ كان العنف محرك الثورة. فلم يُضِف استغلال الصحافي لوستالو Loustalot المعروف لجريمة القتل والتشويه التأديبية لفولون Foulon وبرتييه دو سوفيني de Sauvigny Bertier شيئاً في وحشيته المحسوبة إلى أكثر خطابات مارا وإيبرت تطرفاً. قالت السيدة رولان Roland، «لابد من الدم لتقوية تماسك الثورة» Il faut du sang pour cimenter la révolution، التي ستُقتَل هي ذاتها بالتطبيق المنطقي لحماستها. وفيما سيكون غريباً الإيحاء بأن جيل عام 1789 اقترف نوعاً من الوحشية المخيفة في فترة الإرهاب، سيكون من السذاجة أيضاً ألا نعترف بأن الجيل السابق جعل الجيل اللاحق ممكناً. فقد كانت الصحف والمهرجانات الثورية واللوحات المرسومة والأغاني ومسارح الهواء الطلق وكتائب الفتيان الصغار وهم يلوحون بأذرعهم اليمنى في الهواء ويؤدون القسم الوطني بأصوات زاعقة ـ وكل هذي المعالم لما أخذ المؤرخون يسمونه «الثقافة السياسية للثورة» ـ كانت ثمرات الاستغراق المرضي نفسه بالمجازر العادلة والموت البطولي.

وقد ميّز المؤرخون كثيراً بين العنف «الكلامي» والشيء الحقيقي. ويبدو أن الافتراض هو أن هؤلاء الرجال أمثال جافو ومارا، اللذين كانا ميالَين إلى الصراخ على الناس والدعوة للموت والنظر بإعجاب إلى مشهد الرؤوس على الرماح أو مواكب الرجال وأيديهم مقيدة خلف ظهورهم يتسلقون درجات **النصل الوطني** كانوا مجرد منغمسين في بلاغة خطابية وحشية. ينبغي عدم مقارنة الصارخين بأمثال بيروقراطيي الموت الهادئين مثل فوكيه تنفيل الذين قام بأعمالهم بكفاءة صامتة وإحساس متبلد. لكن تاريخ «فيل أفرانتشي Ville - Affranchie»، وفندي فنجي ـ انتقام فندي Vendée Venge، أو مذابح أيلول يشير في الواقع إلى صلة مباشرة بين كل الصراخ المنسّق أو العفوي من أجل الدم وسفحه الغزير. فأصبح أمثال «قطاع الطرق» أو«العاهرة النمساوية» أو«المتعصبين» بلا كيان في أمة المواطنين الذين لا يمكن التخلص منهم وحسب، بل يجب اجتثاثهم إذا كان للأمة أن تبقى. والإذلال والإساءة، آنذاك، لم يكن مجرد تسالي وألعاب يعاقبة لقد كانت مقدمة للقتل.

فلماذا كانت الثورة الفرنسية هكذا؟ ولماذا، من البداية، هل استمدت طاقتها من الوحشية؟ ربما بدا السؤال دائرياً لأنه في الواقع إذا كان الإصلاح مطلوباً إلى هذا الحد، لما كانت الثورة لتقوم في المقام الأول. ويبقى السؤال في كل حال هاماً إذا كان لنا أن نفهم على الإطلاق لماذا واجهت أجيال متعاقبة من هؤلاء الذين حاولوا أن يرسخوا مسارها ـ ميرابو، بارناف، دانتون ـ مثل هذا الفشل. هل كان ذلك مجرد أن الثقافة الشعبية الفرنسية كانت قد غدت وحشية قبل الثورة واستجابت إلى مشهد العقوبات العامة المخيفة التي نفذتها العدالة الملكية بأشكالها الخاصة من العقوباتها الدموية العفوية؟ ويكون كل ما سيفعله الثوريون السذج أن يعطوا الشعب الفرصة لتصحيح مثل هذه العقوبة وجعلها جزءاً من سلوك السياسة العادي؟ قد يكون هذا جزءاً من التفسير، لكن حتى نظرة خاطفة إلى ما وراء الحدود الفرنسية، لاسيما فوق القنال إلى بريطانيا، سيجعل من الصعب رؤية فرنسا المتأذية الوحيدة، سواء بالمسافة الخطرة الأكبر بين الأغنياء والفقراء أو في الحقيقة بمعدلات الجريمة الأعلى والعنف الشعبي، من الأماكن التي تجنبت الثورات العنيفة.

ولم يكن العنف الثوري الشعبي شكلاً من مقذوف بركاني تحت أرضي شقّ طريقه أخيراً إلى سطح السياسة الفرنسية ثم تابع سفع كل من اعترض سبيله. وربما كان الأفضل التفكير بالنخبة الثورية باعتبارها مجموعة جيولوجيين متهورين، يحفرون فاتحين فوهات كبيرة في قشرة خطاب مهذب ثم يغذون مسألة الغضب من خلال أنابيب خطابتهم إلى

الملأ. لا تبدو فوهات البراكين ومنافذ البخار استعارات غير مناسبة هنا، لأن المعاصرين أنفسهم كانوا يحرضونها باستمرار. فقد كان كثيرون من أولئك، الذين سيرعون التغيير العنيف أو يأسرهم، مسحورين بالعنف المزلزل والثورات القديمة الكبرى التي يقول الجيولوجيون الآن إنها لم تكن جزءاً من عملية خلق واحدة، بل حدثت على نحوٍ دوري في الزمن الجيولوجي. وكانت هذه الأحداث، لنستعر من بورك Burke، سامية وفظيعة في آنٍ معاً. وربما كانت رومانسية، بإدمان المطلق والمثالي؛ وولعها بالتقلب والترويع؛ ومفهومها للطاقة السياسية مهيَّجاً بشكل أساسي، وافتتانها بالقلب؛ وتفضيلها العاطفة على العقل، والفضيلة على السلام، الأمر الذي زوّد عقلية النخبة الثورية بمكوّن حاسم: دمجها الحرية بالوحشية. وما بدأ بافتتان لافايت بضبع جيفوردان Gevaudan انتهى بالتأكيد في احتفالات الرؤوس المحمولة على الرماح.

وكان هناك هوس آخر تقارب مع رومانسية العنف هذه: التعلق المرضي الكلاسيكي الجديد بالموت الوطني. فكانت حوليات روما (وأحياناً المعارك القدرية المميتة بين أثينا واسبارطة) هي المرايا التي حدق فيها الثوريون باستمرار في البحث عن معرفة الذات. وفرنسا التي أرادوا خلقها هي روما التي ستلد ثانية، لكنها مطهرة ببركة القلب المرهف الشعور. وما سيتبع هو أنه لولادة مثل هذه الأمة، لابد من موت كثيرين. وستكون الولادة والموت حدثين جميلين كل في حينه.

جمع الشمل

في يوم منعش أواخر أيلول عام 1794، في وادي هدسُن Hudson، جلست امرأة شابة خارج بيتها الخشبي تنزع عظم ساق خروف. وقد تحولت فوقها أوراق أشجار السنديان والقيقب إلى القرمزي والذهبي اللامع، تدرج ألوان حاد لا يمكن أن تكون قد شاهدته في فرنسا. ومع أنها لم تُمضِ إلا أقل من سنة في أمريكا، فقد غدت تبدي جانب زوجة مزارع متواضع، قصت شعرها قصيراً وجمعته في قلنسوة بيضاء، وغطت تنورتها بمئزر. لقد كان نوع اللباس الذي جهدت الفتيات الفرنسيات، المصقولات برقة البساطة الريفية، أن يُعِدنَ تقديمه في ثمانينيات القرن الثامن عشر. جاء الآن، كما كان روسو ليقول، طبيعياً. وإذ نزعت العظم واقتطعت الزوائد، استعدت لشكه في سفود الهواء الطلق، حيث يشوى لساعة أو اثنتين وهذا، بالطريقة الفرنسية (لدهشة جيرانها الهولنديين)، يضمن أنه سينضج. وبينما كانت تدفعه في السيخ، أجفلها صوت أجش من

الخلف On ne peut embrocher un gigot avec plus de majesté (لا يعقل للمرء أن يسفد فخذ خروف بصاحب جلالة أكبر). وتطلعت لوسي دو لا تور دو بان للأعلى لترى الابتسامة الشهيرة لموريس دي تاليران تشع عليها وعلى فطنته ذاتها، التي يبدو أنها لم تتضرر كثيراً بالتهجير إلى العالم الجديد.

مثل آخرين كثر ـ على سبيل المثال، فاني برني Fanny Burney ـ أرادت أن تكره تاليران. وفي الحقيقة، شعرت أن النزاهة العامة تتطلب أن تكرهه، لكنها لم تستطع. لقد عرفها منذ كانت طفلة و«تحدَّث إليّ بلطف يكاد يكون أبوياً وكان ذلك رائعاً. وربما ندم المرء»، كما اعترفت، «في أعماق عقله لامتلاكه كل هذه الأسباب لئلا يُكِنّ له الاحترام، غير أن ذكريات أخطائه كانت دائماً تتبدد في ساعة من حديثه». لم تُفاجَأ تماماً وهي تنظر إليه يقف فوقها في الخريف الأمريكي مع صديقه بيوميتز Beaumetz. فقد كتب لها من فيلادلفيا يستعلم أين يمكنه أن يجدها بعد إحدى رحلاته في الداخل بحثاً عن أرض يبيعها للمهاجرين الفرنسيين. غير أن لوسي لم تتوقع أن يبدو متماسكاً إلى هذا الحد. وكان همه المدروس ألا يتعدى حدود اللياقة على احتشامها (أو على الأقل يعرض اعتذارات باسمة عندما فعل) نسخة مبالَغ فيها للتهذيب اللبق الذي تذكره في الوطن، كما لو في إلحاحه على أن أمريكا لا يمكنها، بما دعاه «كبر سنه» (أربعون)، أن تعيد تكوين تاليران. وعلاوة على ذلك، باح الإطراء بشأن فخذ الخروف المشوي بصدق جوع ما، لذا طلبت منه أن يعود في اليوم التالي للعشاء مع زوجها.

كان ينزل في ألباني ليومين فحسب مع صديق إنكليزي يُدعى توماس لو Thomas Law كان ذا مكانة في الهند البريطانية، وكان تاليران يدبر معه مشروعاً تجارياً بين كالكوتا وفيلادلفيا. وإذا كان يحتاج للترحال، فلماذا لا يفكر عالمياً؟ أخبره مستشارها، الجنرال شويلر Schuyler في ألباني، أين يجدها وكلَّف تاليران أن يطلب من دو لا تور دو بان أن يعود ليتعشى معه في اليوم التالي. ومنذ أن وافق على العودة ولوسي، مع كل هواجسها، كان واضحاً أنها لا تزال طامعة برفقته، قررا الرحيل عائدين معاً إلى ألباني، تاركين الأطفال مع الخادمة. قدم تاليران وبيوميتز من نياغارا Niagara. مع أنه اشتهر بتصنع اللامبالاة نحو مناظر البراري الأمريكية الرائعة، سيعترف تاليران في مذكراته أنه استثير عاطفياً بالبرية العذراء؛ ولكن في طريق العودة إلى ألباني ما أراد هو ولوسي التكلم بشأنه كان فرنسا وتشابك تاريخهما الخاص والعام.

كانت قصصاً تستأهل الإخبار، مليئة بالمخاطر والحزن. وجدت لوسي نفسها

وزوجها محاصرين في بوردو في أيلول عام 1793 وشهدا الإرهاب المضاد للفيدرالية هناك. مع أنه لم يكن يقارب سواد الأحداث في ليون أو حتى مارسيليا، كانت المقصلة في ساحة دوفين Dauphine ما تزال تعمل و، نظراً لأن الزوج والزوجة من عائلتين من النبلاء العسكريين، فقد كان لديهما كل الأسباب للخوف. كانت الصفوف الطويلة من أجل حصص الخبز واللحم محمولة فيما شاهدا فتيان الخدمة يأخذون أفضل القطع والأرغفة إلى **المندوبين في مهمة**. بكل إخلاص ألصقت لوسي على الباب أسماء نزلاء منزلها، كتابةً، مثل كل الآخرين، بشكل غير مقروء ما استطاعت وأملت بالمطر. وباعتباره ابن وزير الحربية عام 1790، كان اسم دو لا تور دو بان معروفاً جيداً وبدأت السلطات الثورية تلوح بتلميحات منذرة بالسوء. وجدت لوسي ملجأً في كانولي Canole في منزل طبيبها، م. بروك M.Brouques وقد اقتربت من نهاية حملها، وتوارى زوجها عن الأنظار. أُخفي بادئ الأمر في غرفة صغيرة، غالباً ليست أكبرمن خزانة، يملكها صانع أقفال قريب لأحد خدمهم. وعندما خافوا جميعاً بشكل مبرر على القدر الذي ينتظر أولئك الذين يخبئون رجالاً مطلوبين، غادر دو لا تور دو بان وتسلق عبر نافذة خلفية من بيته الريفي في تيسون Tesson، الذي كان مغلقاً ومقفولاً. عندما جاءت مجموعة من الجند والضباط الثوريين ليقوموا بجرد الملكية، كاد أن يُكشَف.

أنقذتهما تركيبة من الشهامة والفساد. كان أحد المندوبين الاثنين في بوردو تالين Tallien؛ والآخر، الأكثر رصانةً وشراً كابوسين سابق ex - capucin إيسابو Ysabeau. كانت خليلة تالين تيريزا كابارو Theresa Cabarrus، المشهورة فعلاً بجمالها الخلاب، التي طلبت الطلاق عندما سمحت القوانين الثورية بذلك وكان لها تأثير لا يستهان به على عشيقها البالغ السادسة والعشرين عاماً. لم تقابل الزوجين دو لا تور دو بان إلا مرة واحدة، في المسرح، لكنها اهتمت بقدرهما إلى حد أنها أقنعت تالين بأن يمنح العائلة جواز مرور بحجة زيارة إلى مزارعهم في المارتينيك. (كان هذا قبل يومين وحسب من استدعاء تالين نفسه ليعود إلى باريس كي يرد على شكاوى إيسابو عن تساهل غير مناسب.)

بعد رحيل مرهق للأعصاب عن طريق النهر من مكان اختبائه، التمّ شمل دو لا تور دو بان مع زوجته في بيت تاجر وقنصل تجاري هولاندي يدعى ماير Meyer. وفي اليوم التالي ودعتهم تيريزا كابارو من محطة رصيف دو شارترون des Chartrons و«وجهها الجميل مبلل بالعبرات».

عندما جلس القبطان عند مقود المركب وصرخ «انطلق»، «تدفقت سعادة لا توصف

في جسدي. جلست مقابل زوجي الذي كنت أنقذ حياته، مع ولدي على ركبتي، لا شيء بدا مستحيلاً. الفقر، العمل، البؤس، لم يعد ثمة شيء صعب عليّ. ولا يوجد شك بأن ارتفاع المجداف الذي دفعنا به البحار مبتعدين عن الشاطئ كان أسعد لحظة في حياتي.

وقد مثلت ثورتها ذاتها وهي تتجه إلى بوسطن على متن السفينة دايانا Diana، التي تجنبت السفن الحربية الفرنسية بمساعدة الضباب. ففي أحد الأيام، بدا لها عبثاً أن تعاني الجهد المعقد لدهن الشعر وتجعيده عندما تسرحه. فأخذت مقصاً وقصته، «تنبأت كما حدث «بموضة التيتوس» Titus. وقد غضب زوجي كثيراً. ورميت شعري من السفينة ومعه ذهبت كل الأفكار العابثة الذي شجعتها خصلات شعري الأشقر الجميل». واستمرت طقوس الانتقال فيما كانت تجلس في مطبخ السفينة نصف المغطى تطبخ يخنة الفاصولياء مع طباخ السفينة وتحاول أن تتعلم منه طبيعة الأرض التي كانت في الطريق إليها.

ومن اللحظة التي وضعت عينها عليها، كانت أمريكا ملجأ مباركاً من العاصفة السوداء للثورة. وقد فهم ابنها أومبر Humbert البالغ من العمر أربع سنوات ما يكفي مما كان يحدث في فرنسا ليعرف أن العائلة تهرب بعيداً لأن رجالاً بقبعات حمراء أرادوا قتل أبيه. لقد بكى على متن السفينة كثيراً، «لكن عندما رأى الحقول الخضراء من النهر الضيق الذي كنا نعبره [في ميناء بوسطن]، والأشجار المزهرة وكل جمال النباتات الخصبة صارت فرحته لا توصف». أم في ما يتعلق بِ لوسي فقد كانت نيوإنغلاند ونيويورك أكثر من مجرد ملجأ. رأت في دماثة وبساطة الناس الذين واجهتهم، كل الفضائل التي تعلمت الإعجاب بها: الصراحة، البساطة، الغنى، المثابرة. كان الأمر كما لو، في الثورة على أحد جانبي الأطلسي، أُجبِرت ثقافة الرقة واشعور المرهف على الدخول في كاريكاتور غريب عن الأخلاق الدمثة التي كان يفترض أن تجسدها، بينما جرى الحفاظ عليها بمعجزة على الجانب الآخر. دون أن تؤثر بها، ما زالت أمريكا تملك نضارة البراءة والعفوية التي كان يجب أن تُسنّ في قوانين في فرنسا. ولعينيها الممتنتين، كان الريف سلسلة أناشيد رعوية التي لا يمكن حتى لمعاناتها المادية أن تفسدها. وفي رنثام Wrentham، ماساتشوستس، نزلت في منزل مزارع هندي غربي، حيث «كانت هناك بحيرات نُثِرت عليها جزر غابات صغيرة بدت مثل حدائق عائمة». وقد تناولوا العشاء في بيت مزارع قرب ألباني مع ثلاثة أجيال من عائلة كان واضحاً أنها يجب تأخذ وضعية ليرسمها غروز Greuze: جَدٌّ وخط الشيب شعره، زوج وزوجة «رائعان قوة وجمالاً»، وأطفال كانوا أقرب الأشياء إلى

إبداعات رافائيل Raphael وروبن Rubens . بعد الطعام، نهض الجد، خلع قبعته وأعلن أن المجموعة «ستشرب بصحة رئيسنا المحبوب».

لم تفعل الأخبار المؤكدة عن إعدام أبيها إلا أن جعلت مدام دو لا تور دو بان أشد تصميماً على إبقاء عائلتها ذاتها حية. فيما كانوا ينتظرون، أولاً كي يشتروا مزرعة صغيرة، ومن ثم يتمكنون من الانتقال إليها، ألقت بنفسها إلى روتين امرأة ريفية، تنهض في الصباح لتطعم الحيوانات أو تحلب البقرات، تهتم بالطبخ أو تقرأ للأطفال. لقد استقرت، وحولت منزلاً قذراً ومحطماً إلى خلية نشاطات وكانت فخورة بمجموعة البقرات الثماني اللواتي أنتجن الزبدة التي «كانت مطلوبة بشدة» في المكان. وأخذت عائلة دو لا تور دو بان، العائلة الإقطاعية ذات زمن، تدفع أجرة الأرض الآن كميات من الذرة للمالك الهولندي رنسيلار Rensselaer . خرجت لوسي في تنورات صوفية مخططة سوداء وبيضاء وصدار مرقط هو زي زوجات مزارعي هدسن الهولنديات، وقد صدمت لاروشفوكو ليانكورت عندما وصل ليقدم احترامه، مع أنها عندما غيَّرت تلك الثياب لتذهب إلى المدينة اغتاظت، بدورها، من بنطلونه القطني الكثير الرقع.

ومن حين إلى آخر، تصل رزم من تاليران تدل على طرق ترحاله: بعضها من مين Maine؛ وآخر من بنسلفانيا؛ وثالث من نيويورك. كانت كلها بركات سماوية: زبدة، عصير، جبن ستلتون لتبهر الجيران؛ سرج سيدات رائع وغطاؤه؛ علبة كينين عندما سمع بطريق ملتوٍ في دائرة شائعات المهاجرين أن الحمى الثلثية قد أقعدتها مجدداً؛ و، أغلى من كل ذلك، معلومات في حينها أن صاحب مصرف زوجها الأمريكي كان على وشك الإفلاس. زيارة عاجلة من تاليران، المسلح بتعبير ينبئ بعمل جاد (دون ذكر تهديد الشهرة)، انتزع من العاجز عن الدفع الحوالات الهولندية التي شكَّلت مدخرات دو لا تور دو بان. وعندما ذهب زوجها ليسوي المشكلة، ذهبت معه حتى نيويورك، حيث انضما إلى تاليران مجددا في بيت صديقه لو Law الإنكليزي الهندي.

والتقت هناك بألكساندر هاملتون Alexander Hamilton، الذي كانت قد قابلته في ألباني. كان قد استقال لتوه من وزارة المالية كي يصلح ثروات العائلة في عمل خاص بمزاولة القانون. كان تاليران مروعاً من فكرة أن العمل الحكومي في أي مكان في العالم يجعل الرجال أكثر فقراً في الواقع، غير أن ذكاء هاملتون التحقيقي المراوغ استحثه فوراً في سجالات طويلة عن عيوب وفضائل كلتا الثورتين. قدَّمت الشاي على الشرفة وجلست لوسي مع مجموعة الرجال ـ لو، تاليران، بيوميتز وآخرين ممن عرجوا، بينهم إمري

Emmery، مندوب سابق آخر في مجلس الطبقات ـ يتكلمون عن السياسة والتاريخ وتقلبات الحظ وحماقات الرجال، إلى أن طلعت النجوم في سماء مانهاتن Manhattan في شهر حزيران.

اختفى السحر من أمريكا بمفاجأة قاسية عندما ماتت ابنتها سيرافين Séraphine التي ولدت في بوردو في ذروة الإرهاب، بسبب حمى معوية في ربيعها الثاني. حاولت لوسي وزوجها أن يلهيا نفسيهما بمشاريع جديدة في المزرعة، مثل جني موسم بستانهما الكبير من أجل عصير التفاح، يعصر ويُقطّر في براميل ميدوك Médoc الخشبية. ثم بدأت أخبار التغيرات السياسية في فرنسا تفتح إمكانية العودة. كان قد قرر كثيرون من أصدقائها اللاجئين، بمن فيهم تاليران، الذهاب مسبقاً، لكن كانت لديها مشاعر مختلطة حول العودة. «خلفت فرنسا في نفسي ذكريات من الرعب. هناك فقدت شبابي، حيث سحقت بمخاوف لا تُعدّ ولا تُنسى». غير أنها شعرت أنه لا يمكنها الوقوف في وجه رغبة زوجها الواضحة بالعودة. ولتسلح نفسها ضد ما خشيت أنه سيكون فصل جديد من القلق، قررت لوسي أن تقوم بفعل عام: عمل تحرير ليس فيه أي تلميح للرعب الثوري. وفي احتفال عام حررت خدمها السود الأربعة، الأمر الذي أزعج كثيراً خادم مالك المزرعة الهولندي. وفي أيار 1796 أبحرت العائلة إلى فرنسا وراقبت مدام دو لا تور دو بان ميناء نيويورك يختفي مبتعداً، وهي تشعر بوخزات الندم وتتوق لفسحة الحرية الصغيرة في وادي هدسن.

كان تاليران، من جهة أخرى، متلهفاً للعودة. دبرت جرمين دو ستايل Germaine de Staël، كالعادة، الأمور بمعجزة. بإقناع حاد لا يلين تمكنت أن تجعل بواسي دانغلا Boissy d'Anglas يلقي خطبة في الهيئة التشريعية مصراً على أن تاليران نُفي دون وجه حق باعتباره لم يهاجر عام 1792 بل أُرسِل في مهمة رسمية. صار اللاجئون من مذابح أيلول، في أية حال، يتميزون الآن بشكل مقبول عن الأتباع الجبناء للملكية القديمة الذين هربوا، وأذنابهم بين أرجلهم، إلى كوبلنز Coblenz أو تورين Turin عام 1789. واستخدم ذاك الجدير بالثقة، الساخر العجوز، ماري جوزيف شنييه، ما تبقى لديه من حرفته المسرحية ليقوم بدفاع متقد لصالح الوطني المظلوم، ومفادها باختصار هو أن فرنسا تنتظر تاليران: «أيها المواطن، فرنسا تفتح ذراعيها». ولم يكن تاليران أبداً شخصاً يزدري عرض عناق.

ولتاليران، في كل حال، كانت أمريكا مسألة عقارية بالدرجة الأولى. وقد قدر عالياً مأواها وبدأ يُعجَب بالطريقة التي يتصرف بها الغرباء كلياً بمودة مزعجة، كما لو أنهم عرفوه طوال حياته. شعر أحياناً أنهم لا بد نشأوا تحت رعاية معلم إميلي Emile. وعكس

لوسي دو لا تور دو بان، لم يثمن جيداً أبداً الصراحة وقلة البراعة والبساطة في ميزانه للخصائص التي تجعل الحياة تستأهل العيش. وهكذا فقد أظهر مللاً شديداً عند الوصول إلى فيلادلفيا. «وصلت، مليئاً باللامبالاة تجاه الأشياء الجديدة التي تهم المسافرين عادة». واستاء أيضاً من شخصيات المجتمع المحلي الذين يديرون ظهورهم للفسق التدنيسي، كما فعلوا في لندن. والأسوأ، واشنطن، الذي كان تواقاً لمقابلته، رفض أن يقابله. في الواقع، صوّره سفير الإرهاب الفرنسي، فوشيه، شخصاً غير مرغوب فيه. أما في ما يتعلق بأعضاء جمعية الأصدقاء الـ Quakers في فيلادلفيا مدينة ويليام بن، كان بإمكانه أن يرى أنهم كانوا، أصحاء، جديرين بالاحترام، بالطريقة التي كان فيها ريشار Richard الطيب القلب محترماً، لكن خلف ذاك القناع من الفضيلة كان هناك بنيامين فرانكلين، الذي كان أكثر، للأسف، مما يمكن للمرء أن يقوله عن العديد من زملائه المواطنين. لذا فقد استمتع تاليران بالغضب عليهم، مستعرضاً ماركت ستريت بمشيته العرجاء، عشيقته السوداء على ذراعه وكلبه الصغير خلفه. كانت عشيقته له أكثر، في كل حال، من شخص لإثارة استياء أبناء المدن. وقد كان بيتها في شارع نورث ثيرد North Third أحد مكانين في منفاه الأمريكي أمكنه أن يدعوه بيتي.

كان الآخر محل بيع كتب في فيرست ستريت First Street، يملكه صديقه القديم من جمعية الثلاثين Society of Thirty ومجلس الطبقات، مورو دو سان ماري Moreau de Saint - Méry. أصدر مورو نشرة متواضعة لجماعة المهاجرين سماها **ساعي فرنسا والمستعمرات**، التي عملت خدمة بريدية صحفية، تفسح المجال للجماعة أن تعرف أين انتهى متجوليها وما هي إمكانية العودة، وتسمح لهم أن يفرحوا لأخبار كسوف أعدائهم، لاسيما بعد التاسع من ثرميدور. وعند مورو، اجتمع تاليران إلى عدد من صحبه: نوايبه، الذي يكاد يكون الوحيد من محاربي الحرب الأمريكية القدماء الذي استطاع العودة؛ وأومي تالون Omer Talon، وأسقف لارتريه الدستوري؛ الماركيز دو بلاكون؛ والواسع المعرفة لاروشفوكو ليانكور. وفي مثل هذه اللقاءات أمكنهم الهروب من البوابة الضيقة لإنجليزيتهم الخرقاء والطيران إلى فرنسية الصالونات المهذارة المتدفقة. سيستمر الشرب والحديث الصاخب إلى ساعات متأخرة ليلاً إلى أن تتذمر زوجة مورو أنه إذا كان الأمر رائعاً أن يقصفوا ويجأروا حتى الله يعلم أية ساعة، فبعض الناس يجب أن يستيقظ باكراً في الصباح. كان تاليران ينام هناك عادة، محاطاً بكتب مورو ورائحة الطابعة، سعيداً ما أمكنه في المنفى.

وكان هناك، في أية حال، بعض أوجه أمريكا التي راقت له مباشرة، ليس أقلها إمكانيتها في صناعة ثروة كبيرة بسرعة عالية. في العالم الجديد كان يصدم باستمرار بمجتمع المخزن الكبير الذي تطلقه الثروة المجردة، ومع أن المال بالنسبة له كان مجرد وسيلة للتحرر من الإتكالية المذلة أو التمتع بملذات الكرم، فقد كانت أسباباً كافية ليبدأ بتحقيق ثروته الأمريكية الخاصة. ليس الأمر أن تاليران، ومجدداً بعكس المزارعة الصغيرة لوسي دو لا تور دو بان، اهتم بالطريقة المتبعة في الكد والمواظبة. وكانت الطريقة الأمريكية الأصلية في المشروع المغامر أقرب إلى ذوقه أيضاً. وقد كتب «إحدى مزايا ثورات هذا القرن، سواء من أجل الحرية أو ضدها، هي إبقاء رأس المال أسيراً». وكان قد تعلم من بانشاو Panchaud في باريس أهمية تحريره، وأحد أوجه اليعاقبة التي مقتها أكثر من أي شيء آخر هي الكراهية غير الواعية لسوق المال. كانت مطابقة، كما فكر، لمدينتهم الفاضلة، ووقوفهم اليائس في وجه التحديث، وتبسيطاتهم الدوغمائية، ولم يفاجأ بوصفة كامبو Cambon لمنع التضخم المالي هي إغلاق البورصة.

أما هو، على العكس، سيحرر رأس المال المجازف، يجعله يعمل له ولمصالح وطنه الجديد (الذي أقسم له الولاء أمام قاضي محكمة في فيلادلفيا). وفي المرحلة الأولى، أراد أن يعوم بنوكاً وسندات حكومية أمريكية في السوق اللندنية. لكن بغض النظر عن جهود صديقه هاملتون الحثيثة، لم تكن الأوضاع المالية في العالم الجديد أمينة كفاية بعد لتجذب عدد كافٍ من المشترين في العالم القديم كي يكون للمغامرة قيمتها. ثم حاول شراء الحبوب في سوق مؤجلات المواد الأولية، وكما لو أنه يتحدى متعمداً أخلاقيات الاقتصاد الذي سُنَّ فترة الإرهاب. وقد بدت سوق الأراضي واعدة أكثر من كل تلك المشاريع، ففي شمال نيوإنغلاند ونيويورك آلاف الفدادين التي ربما جذبت رأسمال الاستثمار من أجل التطوير. سيأخذ تاليران عمولة عند الشراء من البائعين الكبار - بينهم الجنرال نوكس Knox، وزير الحربية، الذي يملك ممتلكات ضخمة في مين Maine - أو يجني أرباحاً من تحويلات المضاربة التي تدار من خلال شركة الأراضي الهولندية Holand Land Company، التي مركزها في أمستردام لكن تعمل في أمريكا من خلال مكتب في فيلادلفيا. بل حلم من خلال توماس لو بالفكرة الأصلية في بيع أراضٍ أمريكية في الهند إلى الناهبين الأثرياء الكبار في شركة الهند الشرقية البريطانية، الذين سيقتنون استثمارات جذابة فيما يلتفون على التدقيق (والضرائب) الذي يتعرضون له عندما يحوِّلون دفعات إلى لندن.

لن يحتاج المؤرخون الباحثون في الرأسمالية الفرنسية للمضي أبعد من تاليران في 1794 ـ 95. تعلم على يد مصرفي سويسري في ثمانينيات القرن الثامن عشر. وأحبط مما اعتبره مبدأ الثورة الرجعي في التنظيم الاقتصادي. وتحرر في أمريكا ليلعب بالسندات والمؤجلات والأراضي والعقارات المدينية ـ مهما اعترضه من صعاب ـ كان تاليران النبيل ورئيس الأساقفة والدستوري والديبلوماسي أيضاً الرأسمالي: بشير العالم الجديد.

وبسخرية قدّرها عالياً، أدرك أن هذا الحلم بالمال السهل يعني أن يحيل نفسه إلى أحد سكان الغابات النائية. فانطلق مع خادمه، كورتياد Courtiade، وبيومتز في خريف 1794، قبل بدء موسم الثلوج، في رحلتين للمسح والاستكشاف. أخذته الأولى إلى أعلى شاطئ مين، مروراً ببورتلاند Portland حتى شامبلين Champlain في إل دو مونت ديزرت Ile des Mont Desert . وقد اقتصرت الملاحظات الكثيرة التي دوّنها على التوضيحات الحذرة للفرص الاقتصادية للزراعة، وتوصيفات لجودة الموانئ الطبيعية الموجودة عند مصب نهر كينيبك Kennebec، ووصف سيئ للصيادين الذين وبّخهم لافتقارهم إلى روح المغامرة بالذهاب النادر أبعد من بضعة أميال وراء الشاطئ و«هم يدلون ذراعاً إلى جانب مركبهم». لقد تخيل تاليران بدلاً من مجموعات أكواخ فقيرة تذروها الرياح وتلتصق بالصخور مناطق زراعية نائية عن المدن، غنية بمحاصيل الرعي والمزروعات، تغذي نفسها والمناطق المستقرة الأكثر سكاناً في ماساتشوستس.

أثارت الصخور الجرداء والغابات الكثيفة في تاليران استجابة عقلانية، لا رومانسية. فحيثما قد تنتشي رهافة الحس الثورية وهي محاطة بالبرية، أو تتأمل بسواد في أصول الحرية تنهض من الغابات البدائية، أو تحدق بنشوة في الشلالات الصاخبة، يفكر المقاول الحديث فيه بما يمكن عمله بكل هذه العقارات. وحتى عندما، كما في المرحلة الأولى، سمح لنفسه بالاستسلام لجمال المناظر، لم تكن أفكاره بعيدة عن مشاريع لتأهيلها. «كانت هناك غابات بنفس قدم العالم ذاته؛ عشب أخضر وغني يعلو ضفاف الأنهار؛ ومروج طبيعية شاسعة؛ وزهور غريبة وجميلة جديدة تماماً لي... وفي وجه هذه القفار الهائلة، أعطينا لمخيلتنا متنفساً. فبنت عقولنا مدناً وقرى ومزارع..».

وفي بعض النقاط، في كل حال، بدا أن الحضارة التي حملها تاليران في رأسه، والتي تاق دائماً للعودة إليها، تكاد تبتلعها الوحشية الأمريكية. ولكن في كل مرة تواجه مع شبح روسو، كان يطرده بظل فولتير المضاد. وذات مرة، فقد رؤية خادمه تماماً في ظلام الغابة ونادى، «كورتياد، هل أنت هناك؟» وجاء الرد: «أنا آسف، نعم ياسيدي الأسقف،

أنا هنا». وشعر الرجلان بالدهشة أنه يجب أن يخاطب بكامل لقبه الكنسي وأن ذلك شيء هزلي جداً فضحكا كثيراً إلى درجة قطع خلال الكثافة الشجرية مثل بلطة تمدين تاليران.

وبعد سنة كان جاهزاً للعودة إلى باريس. وفي أيار 1795 بيع الكثير من ممتلكاته الخاصة التي استخدمها للحياة في فيلادلفيا في مزاد علني. وقد امتعض تاليران كثيراً باعتباره مضارباً بارعاً أن تذهب غفارته القرمزية والكفوف والأثاث الرائع واللوحات والرسومات كلها مقابل مبالغ ضئيلة. والبند الذي بدا أنه يؤكد سمعته هو خزانة ثياب مليئة بملابس نسائية فاتنة ـ أقمشة حريرية، تافتا، موسلين، قبعات، جوارب. هل كانت ملكاً لأديليد دو فلاهو Adelaide de Flahaut؟ أو كانوا ببساطة تعبيراً عن مبالغة في حس الضيافة عند تاليران؟ ربما كان إحساس خسارته الشخصية بسبب اختفاء ممتلكاته هو الأكثر قسوة منذ، بالحظ وحده، أن تمكن من أن يعيد كنزاً غالياً إلى لوسي دو لا تور دو بان. فقد أرته امرأة عرفها في فيلادلفيا حجراً كريماً منقوشاً cameo لماري أنطوانيت، من باب الفضول كي تعرف إن كان يشبهه جيداً. وقد أجفل عند رؤية القطعة متعرفاً عليه مباشرة بوصفه ملكية لصديقته. كان «عهدة» من عملاء العائلة الهولنديين لدى ديبلوماسي أمريكي شاب كي يحفظه وبدلاً من ذلك احتفظ به الرجل لنفسه. خطف تاليران القطعة وأرسلها مباشرة إلى صاحبتها الممتنة.

ربما كانت هذه المصادفة المثيرة للأشجان هي التي جعلته أكثر تحمساً للعودة إلى الوطن. فكتب، عند تلقيه أخبار تبرئته، رسالة شكر قلبية إلى جرمين دوستايل واستعد، غير متعجل بشكل ما، للمغادرة في مركب الربيع. وقبل مغادرته، في حزيران 1796، مشى على طول أسوار الباتري Battery في مانهاتن مع صديقه القديم بيوميتز، محاولاً تخفيف صدمة رحيله، لتخريبه خططهما الموضوعة بعناية لجمع ثروة في الهند. ومع غرق صاحبه في صمت رومانسي غريب، تملك تاليران حس مفاجئ أن بيوميتز كان على وشك أن يقوم بفعل عنيف، شيئاً ثورياً: أن يقتله أو ينتحر أو كلاهما. واجهه بهذا وانهار بيوميتز البائس بين يديه.

كان ذلك مثيراً للشفقة، لكن هذه العواطف لا يمكنها أن تعيق مشروع عمل جدي. انتظرت سفينته الدنماركية Poeve Den Ny. اسمها المحرم على الأرجح عنى «المحنة الجديدة». لكن تاليران انطلق يثق بأنه تعرض لأكثر من حصته العادلة من المحن. فأي رعب يمكن أن يحمله المحيط الأطلسي وقد نجا من مذابح أيلول؟

وفيما جرب تاليران الحرية الأمريكية، كان الرجل الفرنسي الأكثر تبجيلاً في العالم

الجديد يعاني في سجن نمساوي. تشتت جيل 1776 بشكل مدمر على أيدي الإرهاب. قُطع رأس كيرسان Kersaint واستانغ d'Estaing، رمزا أسطول لويس السادس عشر الجديد، بالمقصلة. كان مقرراً أن يصعد روشامبيو منصة المقصلة بعد مالرب مباشرة لكن بشكل ما أُعيد النظر بحكمه وأمضى بقية فترة الإرهاب في السجن، الذي أطلقه ثرميدور منه. وقع بايرون، رفيق لافايت في السلاح (دوق لوزان السابق Duc de Lauzun)، ضحية هجمات أنصار إيبرت ضد الجنرالات النبلاء في فندي Vendée وفقد رأسه في ساحة الثورة أيضاً.

فيما بقي لافايت على قيد الحياة ـ كما كان أصدقاء له ممن ذهبوا معه إلى خطوط المواجهة مع النمسا عام 1792، الدستوريين بيوريو دو بوسي وخصم ميرابو القديم، ألكساندر دو لامث Alexandere de Lameth ـ كانت محنتهم مع ذلك جدية ما يكفي. وغدت أكثر سوءاً بسبب استقامة لافايت الشخصية. بعكس تاليران البراغماتي، آمن لافايت بثبات أن كل ما فعله كان توكيداً صارماً على مبادئ محددة. حتى عندما فرَّ من جيشه ذاته، قال لنفسه أنها لم تكن فرنسا، بل قطع الرقاب ما أجبره على الهرب. وقد جعله هذا وطنياً لا خائناً. لذا عندما سأله النمساويون والبروسيون، أولاً، إن كان قد جلب معه «الثروة»، ضحك غير مصدق أنهم، أيضاً، قد وقعوا فريسة الصورة الكاريكاتورية للمهاجر التي تبعاً لها كل من غادر فرنسا فعل ذلك لأكثر الأسباب وضاعة. ثم سألوه إن كان سيطلعهم على تفاصيل الإستراتيجية العسكرية الفرنسية، وهذه إشارة استقبلها بسخط.

وبما أن لافايت بدا مصمماً على أن يتصرف بوصفه جمهورياً، فكر النمساويون أن يعاملوه كجمهوري. فأعلن بيان رسمي أن «وجود لافايت متعارض مع أمن حكومات أوروبا». وتولى البروسيون أمره في البداية، حيث أخذوه إلى سجن ماغدِبرغ Magdeburg، حيث أعطي زنزانة رطبة غير مهواة ذات خمسة خطوات مربعة. بقي عنيداً، رافضاً حتى طلبات شخصية من ملك بروسيا فريدريك ويليام Frederick William، وهكذا نقل في كانون الثاني 1794 إلى قلعة نيس Neisse، حيث سُمح للسجناء الفرنسيين بضعة أشهر رفاهية برؤية بعضهم وحتى تلقي رسائل من حين لآخر.

في وقت لاحق في نهاية تلك السنة، سُلّم لافايت إلى النمساويين مثل شيء لا يريده أحد في الحقيقة، لأن محنته كانت تولد نقداً عنيفاً في كل من أمريكا وبين دوائر حزب الأحرار Whigs في بريطانيا. فأُخذ إلى قلعة أولموتز Olmütz، وهي قلعة كالحة محاطة

بخندق مائي. وهناك تم التخلي عن كل مظاهر المعاملة الخاصة. أُخذت ممتلكاته، عدا ساعة وغيار واحد للثياب. وكان ممنوعاً من رؤية أحد، وأن يتصل مع العالم الخارجي أو زملائه المساجين أو أن يتلقى أي نوع من الأخبار الرسمية عن تطور الثورة أو الحرب، وأقل من ذلك كثيراً أخبار عائلته، العالقة في فرنسا. ومُنِع الحراس حتى من استخدام اسمه. أصبح لا أحد، دُفِن حياً تماماً على طريقة لنغت Linguet التي كتبها عن الباستيل.

وفي مرحلة ما، يكاد يكون مؤكداً كرد فعل على الدعاية المعادية المدعومة من السفير الأمريكي في فيينا، جون جاي John Jay، تغير روتينه. صار الآن مسموحاً له أن يمشي يومياً في الغابات والحقول، تحت الحراسة المسلحة. ولقد كان من هذه الاستراحة الصغيرة من سجنه أن تمّ تدبير محاولة هرب. كان مدبرها طبيب ألماني شاب، جوستوس بولمان Justus Bollmann، الذي كان يزور قاعة جونيبر Juniper وقد أطارته على قدميه جرمين دو ستايل، تاليران، ناربون والآخرون. وإذ صمم على أن ينقذ لافايت، صادق طبيب السجن وتمكن أن يهرّب رسائل إلى الداخل، التي أجاب عليها المركيز إما بورقة ثقبت بنكاشة أسنان أو بحبر خفي مصنوع من عصير الليمون والماء والسخام. وفي اليوم المحدد، كان لدى بولمان أحصنة تنتظر تماماً خلف طريق مشي لافايت، لكن عندما تظاهر السجين بالإعجاب بسيف حارسه وسأل إن كان بإمكانه رؤيته، ارتاب الجندي. وتبع ذلك صراع تمكن فيه لافايت من الهرب، لكن ليس قبل أن يعض الحارس، واضح أنه لم يكن شخصاً رياضياً، فانتزع جزءاً من اصبعه. وفي ألم وذعر سمع بولمان يصرخ، «هوف Hoff»، التي افترض أنها تعني، بالإنجليزية المكسرة التي تبادلاها، «انطلق Get off» أو«اهرب Go away». وفي الواقع، عنت قرية هوف، حيث تمركزت أحصنة مستريحة ومساعدة. أخذ لافايت الطريق الخطأ، وبعد عشرين ميلاً، عند قرية ستيرنبرغ Sternberg، قبض عليه وأعيد إلى أولمتز.

وهناك الآن بدأت المرحلة الأكثر يأساً في سجنه: السجن الانفرادي، حصص طعام لا تكاد تكفي لإبقائه حياً، ولا كتب. فوقع فريسة المرض باستمرار، وفقد معظم شعره وصار نحيفاً ومهزولاً. وبدا أن الظلام يطبق حول حياته.

وفي صباح أحد أيام تشرين الأول 1795، ودون سابق إنذار، فُتِح الباب المزدوج لزنزانته. وفي النور الذي شع فجأة في زنزانته، شاهد زوجته، أدريان Adrienne، مع ابنتيهما، فرجيني Virginie وأناستازي Anastasie. لم تكن خدعة من مخيلة سجنه. بروعة، وقفوا أمامه، تحطمت فرحة لم الشمل بمظهره الشبحي، هيكل عظمي رث الثياب شبه

حي، يلازمه سعال جاف. تجاوز تصميم أدريان على الذهاب إلى النمسا لتجد زوجها في شجاعته وإخلاصه أي شيء اجترحه كتاب الروايات العاطفية. كان عليها أولاً أن تنجو بحياتها من الإرهاب وفي الواقع كانت في السجن لبعض الوقت في باريس، قبل أن ينقذها الثرميدور من المقصلة. لكن لم يحدث حتى كانون الثاني 1795 أن أخلي سبيلها وذلك بمساعدة السفير الأمريكي في باريس، جيمس مونرو James Monroe. انتقلت إلى بيته و، مستخدمة مكاتبه اللطيفة مجدداً، تمكنت من الحصول على فيزا لنفسها ولابنتيها؛ وذهبت إلى فيينا ودبرت مقابلة مع الإمبراطور فرانسيس الثاني. وهكذا حدث بأمر إمبراطوري أن حصلت على حق مشاركة زوجها في سجنه.

حياة غريبة، بائسة ومؤاسية في آن معاً، دامت آنذاك لقرابة السنة والنصف. تقاسمت أدريان وغيلبرت زنزانة بائسة واحدة؛ البنتان، البالغتان من العمر ثلاثة عشرة وثمانية عشرة سنة، زنزانة أخرى. كان الفرد الوحيد غير الموجود من العائلة هو أخوهما، جورج واشنطن لافايت، الذي كان بأمان في ماونت فرنون، يعتني به عرابه الشهير. كان مستحيلاً عملياً في أولموتز أن يعاد إحياء الأغنية الرومانسية المنزلية - ذاك الهوس لنبالة مواطن القرن الثامن عشر - لكن النساء الثلاث قمن بأقصى ما أمكنهن. أكلت العائلة وجباتها المريعة معاً من آنية خشبية غير مغسولة، لكن حتى هذه الطقوس الصغيرة كانت تقاطع بقسوة من الحراس الذين كانوا يأخذون البنتين بعيداً بعد عشرة دقائق أو ما شابه. فيما تحسن لافايت بشكل ما، بدأت صحة أدريان تتراجع بشدة. وأخيراً، في أيار 1796، كتب جورج واشنطن، الذي كان مغلول اليد بضرورة الحفاظ على الحياد الأمريكي، رسالة شخصية للإمبراطور:

> *اسمح لي وحسب أن أُلفِت اهتمام سعادتكم إن كان سجن [لافايت] الطويل ومصادرة ملكيته وفقر عائلته وتشتتها - والقلق المؤلم الناجم عن كل هذه الظروف، لا تشكل مجموعة معاناة، مما يزكيه للوساطة الإنسانية؟*

ألن يسمح له بالمجيء إلى أمريكا؟

لمناشدات الضمير الإنساني، في كل حال، تأثير بسيط على منطق الدولة. ولم يحدث إلا في الربيع التالي، عندما دمرت الجيوش النمساوية في إيطاليا بشكل حاسم على يد نابليون بونابرت أن اضطرت أن تتوسل للسلام، وغدا وضع لافايت مسألة مفاوضات. وبحلول 1797 كان تاليران قد عاد إلى فرنسا؟ حقاً في معمعة السياسة. غدا سييه Sieyes وآخرون من عام 1789 مرة ثانية في مواقع السلطة والنفوذ، ولم يعد اسم لافايت شيئاً

بغيضاً. ومع ذلك، كانت حكومة المديرين الفرنسية مطوقة بالملكيين من جهة وباليعاقبة الجدد من جهة أخرى، ولم تكن واثقة من أنها تريد المجازفة بوجوده معها في الوطن ثانية. إطلاق سراحه، مع إطلاق سراح لاتور موبورغ Latour - Maubourg وبوريو دو بوسي Bureau de Pusy، كان مطلوباً بافتراض أنه سيذهب إلى أمريكا وبشرط ألا يسافر إلى فرنسا. وقد رفض المستشار النمساوي، ثوغوت Thugut، في البدء، وتأمن إطلاق سراحه أخيراً بناءً على إصرار بونابرت وحسب.

وعلى حافة الحرية بالذات، مع ذلك، فيما كتب القنصل الفرنسي القلق في هامبورغ (حيث وصلت عائلة لافايت) إلى وزير الخارجية الجديد تاليران، أثار المركيز مسألة مبدأ. وافق النمساويون على تحريره على شرط أن يوقع وثيقة يعد فيها ألا يضع قدماً أبداً في المناطق التابعة للإمبراطور. رفض لافايت أن يفعل هذا، على اعتبار أن هناك بلد واحد له «حقوق مقدسة» عليه، وفي المستقبل سيذهب أينما يقرر الوطن أن يرسله. مع ذلك السخف المتصلب، تواصلت تدابير إطلاق سراحه بدونه. ولم يكن ذلك يهم لافايت. لقد بقي على إيمانه الملزم الوحيد: الوطنية والحرية. وعزم على أن يبقى ثابتاً على تلك المبادئ، حتى عندما خانتها فرنسا. وفي الحقيقة، مهما كانت المرات التي خانتها، في الثورة أو الرجعية، كانت تجد لافايت لا يزال مخلصاً لروح 1790: الرجل على الحصان الأبيض بالألوان الثلاثة تلتف حول جسمه.

كانت الذكريات الثورية تحريراً للافايت، خلال كل حياته؛ وكانت سجناً لثيروين دي مريكور Théroigne de Méricourt.

ففي ربيع 1793، بينما كانت تخطب على تراس دو فيولان des Feuillants في جمعية النساء الجمهوريات Société des Femmes Républicaines، هوجمت بعنف من نساء السوق مؤيدات الجبل. كن قد مللن أن يُحاضَر بهن عن واجبات المواطنات وكرهن محاولاتها الدفاع عن الجيرونديين Girondins. وقد عُرِّيت وضُربت دون رحمة، وقد أُنقذت، وادعى بعضهم أن مارا من أنقذها. وسواء كانت القصص حقيقية أم لا، استعادت وعيها لكن ليس سلامة عقلها. وقد أُخذت إلى مشفى للفقراء والمخبولين في ضاحية سان مارسو Saint - Marceau. وستبقى محبوسة بقية حياتها، ثلاث وعشرون سنة أخرى، نقلت من مشفى كئيب إلى آخر، وانتهت حياتها في لا سالبترير La Sâlpetrière، وهو سجن أكثر منه ملجأ، حيث ماتت عام 1817.

كانت ثيروين في السجن قبل ذلك. ففي جولة متهورة عادت إلى مسقط رأسها في

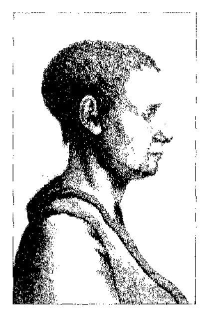
لييج Liège عام 1791، وقبض عليها النمساويون وعوملت كما لو أنها جاسوسة كبيرة وهامة. بعد تحقيق في بلجيكا، نقلت إلى قلعة كوفستين Kufstein في التيرول Tyrol (حيث، بعد سنتين، سجن ربان المنطاد بلانشار Blanchard بعد هبوط مفاجئ في الجبال، أيضاً بافتراض أنه جاسوس). بعد المزيد من التحقيق المكثف، لم يستطع النمساويون الحصول على شيء منها واكتفوا بالرضا عن تشخيص من طبيب السجن أنها تعاني من «حمى ثورية».

بعد أن هشمت جمجمتها، عادت تلك الحمى بكل قوة الهلوسة التي لا يمكن إيقافها. جلست في زنزانة، شعرها مجزوز، تحدق في الجدران. وبشكل دوري ستقطع الصمت الذي يكتنفها بسيل من الشجب في جمل ثورية نصف مفهومة: «جوقة التحية العامة»، «الحرية»، «الأوغاد». وسيثور غضبها في أقسى نوبات خبلها على «المعتدلين». وفي فترة صفاء نسبية عام 1808، طلب أحدهم ممن تذكر الليبجية الجميلة belle liègeoise عام 1789 أن يراها وقد اتهمته ثيروين مباشرة «بخيانة قضية الشعب». فغادر غير عارف كم هي مجنونة حقاً.

وأصبحت ثيروين مصدر تسلية لبعضهم، ونوعاً طريفاً من متحف حي نصف منسي وشعارات محرجة لآخرين. من حين لآخر، حاول موظفون حسني النوايا أن يتتبعوا أثر عائلتها وكتبوا إلى مدير ناحية أورث Ourthe من أجل المعلومات. الطبيب والأخصائي في الجنون إسكويرول Esquirol، الذي كان يكتب بحثاً عن المرضى العقليين، صنفها lypémanique أو أنها تعاني من نوع من كآبة شديدة. والتشريح الذي قام به بعد موتها أقنعه أن سبب كآبتها يكمن في الوضع المخالف لقولونها.

كانت قد اختفت من أرض الأحياء كلية إلا واقعاً بيولوجياً عام 1810. وغدت تكره الثياب، لذا جلست عارية في زنزانتها، رافضة بغضب حتى أبسط الألبسة الصوفية النسائية المعروضة لتحميها من برد الشتاء. وفي المناسبات النادرة عندما كانت تخرج لتنشق الهواء أو تشرب من البركة القذرة التي تشكلت في الساحة، كانت توافق، أحياناً، على أن ترتدي قميصاً خفيفاً لكن لا شيء آخر. كانت تصب ماء بارداً على قش فراشها كل يوم، وتكسر الجليد في الفناء للحصول عليه أحياناً، كما لو أن الرطوبة الثلجية المشبعة وحدها يمكنها أن تطفئ حميا خبلها. ومع ذلك، كانت تُسمع وهي تُغمغم لعنات على أولئك الذين خانوا الثورة من حين لآخر.

وكما يبدو، عاشت ثيروين آنئذٍ داخل الثورة والثورة داخلها بكل ما للكلمة من



الصورة 214. لفنان مجهول، نقش،
ثيروين دو مريكور في لاسالبترير، حوالي عام 1810

معنى منسية من كل الزوار وممن رآها، سواء كان مهتماً أو قاسي القلب. فالشفقة تبدو خارج مكانها هنا، لأنه بمعنى ما، كان جنون ثيروين دو مريكور نهاية منطقية لدوافع المثالية الثورية التي لا تقاوَم. وقد استطاعت الثورة التي اكتشفت، أخيراً، شخصاً سامي الشفافية تقريباً وبراءة ما قبل اجتماعية، شخصاً عارياً ومطهَّراً بالتغطيس في ماء الجليد، أن تملأه باعتباره وعاء. وفي زنزانتها الصغيرة في سجن لا سالبترير، كان هناك على الأقل مكان يمكن للذاكرة الثورية أن تستمر فيه، لا تزعجها أبداً فوضى الوضع الإنساني اليومية.

EPILOGUE

Sources and Bibliography

I have not attempted any kind of general survey of the consequences of the Revolution but have tried instead to summarize the fate of some of the principal enterprises narrated in the book, in particular the doomed attempt to reconcile political liberty with a patriot state. There are however, a number of important works dealing with the period between Thermidor and Brumaire, which was, in its own right, an important chapter of the French Revolution See in particular, Martyn Lyons. France under the Directory (London 1975); M. J. Sydenham, The First French Republic 1792 - 1804 (London 1974); and Denis Woronoff, The Thermidorean Regime and the Directory 1794 - 1799 (London 1984). For the fate of revolutionary politics in this period, see Isser Woloch, Jacobin Legacy: The Democratic Movment under the Directory (Princeton 1970), and R. B. Rose, Graccbus Babeuf: The First Revolutionary Communist (London 1978).

Overshadowing all these, however, is the remarkable synthesis by D.M.G. Sutherland, France 1789 - 1815: Revolution and Counterrevolution (London 1985). (See below.)

On the social results of the Jacobin revolution, see Richard Cobb, "Quelques Consé - quences Sociales de la Révolution dans un Milieu Urbain", in his Terreur et Subsistances, in which he concludes that for the majority of the Lillois, the year II was not a happy experience. Cobb has also written movingly in the same work, in The Police and the People and in Reactions to the French Revolution, of the problems of dearth that affected many parts of France in the year III. as well as the Counter - Terror in Lyon and the Midi. See also Colin Lucas's essay "Themes in Southern Violence after 9 Thermidor", in Lucas and Gwynn Lewis, Beyond the Terror: Essays in French Regional and Social History (Cambridge, England, 1983).

Robert Forster argued strongly that the nobility was radically destroyed as the result of the Revolution, in "The Survival of the French Nobility During the French Revolution" in Past and Present (1967). I incline to the more nuanced and conservative view - of this as of other aspects of the attempted restructuring of social relations - offered in Louis Bergeron's excellent work France under Napoleon (trans. R. R. Palmer, Princeton 1981).

For Talleyrand in America, see Michel Poniatowski, Talleyrand aux Etats - Unis 1794 - 1796 (Paris 1967), and Hans Huth and Wilma J. Pugh, Talleyrand in America as a Financial Promoter: Unpublished Letters and Memoirs (Washington, D.C., 1942).

For Lafayette in prison, see Peter Buckman, Lafayette: A Biography (New York and London 1977, 217 - 34) Mme de La Tour du Pin's stay in America is movingly described in her Journal. For the madness of Théroigne de Méricourt, see J. - E Esquirol, Lets Maladies Mentales (2 vols., Paris 1838, vol. 445 - 51).

There are several general works to be strongly recommended to any student of the French Revolution. For the collapse of the monarchy, William Doyle's Origins of the French Revolution (Oxford 1980) is a brilliant analysis and succinct narrative of events leading to 1789. It has an excellent introduction on the historiographical debates (which for the most part I have deliberately avoided). Another excellent account of conflicting interpretations may be found in J. M. Roberts, The French Revolution (Oxford 1978).

D.M.G. Sutherland's France 1789 - 1815: Revolution and Counterrevolution is one of the most remarkable histories to have appeared in a long time, for the subtlety of much of its argument, the richness of its detail and its extended chronological scope (perhaps 1774 to 1815 was too much to ask for). It is, overwhelmingly, a social rather than a political or cultural history, and thus offers an implicit interpretation of where the significance of the Revolution lies. It will be apparent that my own emphasis is in the opposite direction and in many respects follows the path first tracked by Alfred Cobban, whose essay "Myth of the French Revolution" was once thought so scandalous and whose Social Interpretation of the French Revolution (Cambridge, England, 1964) has since become a classic of historical reinterpretation. Much of the extraordinary writing of Richard Cobb reconstructed the lives of many who survived and endured the Revolution, rather than being placed on center stage by it. By claiming the "irrelevance" of the Revolution to those enduring rhythms of abundance and want, crime and desperation, he necessarily raised the question, "If the Revolution was not a social transformation, what was it at all?"

Increasingly the answer has been found in the realm of political culture, and François Furet's Penser la Révolution (Paris 1978), translated as Interpreting the French Revolution, was of fundamental importance in redirecting revolutionary history back towards politics. The hooks of Lynn Hunt and Mona Ozouf sustained this imaginative insistence on the power of cultural phenomena - images and icons, speeches, festivals (and one might add, newspapers and songs) - to remodel allegiance. Ultimately, the Revolution gave birth to a new kind of political community sustained more by rhetorical adrenaline than organized institutions. It was, therefore, doomed to self - destruct from overinflated expectations. Rousseau, after all, had warned (more or less) that to expect a Republic of Virtue to become instituted in a Great State was to ask for pie in the sky.

فهرسة

حرف الالف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف الزال

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

«باهر... مثير... ليس كتاباً عادياً... لا يكتب شاما على نحو رائع عن الناس والأحداث واستخدام الخطابة وإساءة استخدامها وعن المهرجانات والإعدامات، بل يبدأ سجل أحداثه بتفجر مثير لخيال شاعري... إن الفضائل الكبرى لهذا الكتاب (تكمن) في الذكاء اللامع لأسلوب شاما، وعرضه المبهر للمعرفة والمعلومات الواسعة... سجل أحداثه، بعد كل شيء، عمل عظيم لباحث بطريقة مذهلة.» ـ لورنس ستون، نيو ريببليك.

«أحد الكتب الأفضل في هذا العقد» ـ التايم

«عمل ضخم... ممتع للقراءة... وصف حي للأحداث الكبرى... نقوش ملونة للشخصيات البارزة (والغامضة أيضا) يجلبهم إلى الحياة هنا كما لم يفعل عمل آخر... وفوق كل شيء يقدم السيد شاما قصة، ويرويها بطريقة رائعة.» . نيويورك تايمزبوك رفيو

«مواطنون، مثل روايات القرن التاسع عشر العظيمة التي يباريها، عمل يقدم المتعة والمعرفة الواسعة معاً... كما لم يفعل مؤرخ معاصر آخر للثورة، يجلب شاما إلى الحياة [illegible] والإرهاب المريع . في حدث إنساني خلال حقبة حافلة بالأحداث.» . نيوزويك

«سرد حي وأنيق... وصف يُقرأ بإعجاب ويُوضح بطريقة جميلة.» . الكتاب [illegible] الواشنطن بوست

«نحن بين أيدي راو بارع... لوحة شاما الزاهية، الدرامية، المثيرة للتفكير في الثورة [illegible] غالباً... يقنعنا سرده الرائع بأن الكثير مما ظننا أننا نعرفه هو خطأ.» . التايم

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة

ISBN 978-9953-515-57-1
1072 صفحة







كلمة
KALIMA